رواية

مكتبة بغداد

الدفتر الذهبي

دوريس ليسينج

الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب

الدفتر الذهبي

مع مقدمة بقلم المؤلفة

تأليف
دوريس ليسينج

الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب

ترجمة
إيمان أحمد عزب

كلمات عربية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدفتر الذهبي

The Golden Notebook

دوريس ليسينج

Doris Lessing

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
رقم إيداع ١٩٣٦٨/ ٢٠١٠
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

ليسينج، دوريس
الدفتر الذهبي / دوريس ليسينج . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
٧٣٨ص، ١٦,٠×٢٣,٠سم
تدمك: ٧ ٧٢ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
الفائزة بجائزة نوبل للآداب ٢٠٠٧
١- القصص الإنجليزية
٢- المرأة في الأدب
أ- العنوان
٨٢٣

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2011 Kalimat Arabia
The Golden Notebook
Copyright © 1962 by Doris Lessing.
Copyright renewed © 1990 by Doris Lessing.
All Rights Reserved.

المحتويات

مقدمة ١٩٩٣ ٧

مقدمة ١٩٧١ ١١

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الأولى ٣١

آنا تقابل صديقتها مولي في صيف عام ١٩٥٧ بعد انقطاع ٣٣

الدفاتر ٨٧

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثانية ٢٨٧

آنا تتلقى زيارتين، وبعض المكالمات الهاتفية، وخبرًا مأساويًّا ٢٨٩

الدفاتر ٣١٧

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثالثة ٤١٣

يتأقلم تومي مع وضعه كشخص كفيف ويحاول الكبار أن يساعدوه ٤١٥

الدفاتر ٤٥٩

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الرابعة ٥٦٥

آنا ومولي أثرا في تومي تأثيرًا إيجابيًّا. ماريون تترك ريتشارد.
آنا لا تشعر بالثقة ٥٦٧

الدفاتر ٥٨٣

الدفتر الذهبي ٦٧١

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الخامسة ٧٠٩

تتزوج مولي وتدخل آنا في علاقة غرامية ٧١١

دوريس ليسينج ٧٣٣

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدمة ١٩٩٣

يدهشني النجاح الذي تحرزه هذه الرواية، فهي تطرح نفسها كل يوم في أماكن جديدة لم أتوقعها، آخر هذه الأماكن هي الصين التي زرتها بناء على دعوة من الاتحاد الرئيسي للكتاب الصينيين حيث صدرت طبعة من الرواية عدد نسخها ٨٠٠٠٠ نسخة — عدد صغير على دولة بحجم الصين — ثم نفدت من الأسواق بعد ثلاثة أيام، وهناك طبعة أخرى صدرت من قبل ولاقت نجاحًا، وقيل لي: «الجميع قرءوها.» والجميع هنا تشير — كما هو غالب الحال هذه الأيام — إلى الوسط الجامعي، فقد لمست في الجامعات التي زرتها في بكين وشنغهاي وشيآن وكوانتون (جوانزو) حرصًا حيويًّا عماده الاهتمام بمعرفة بالأدب البريطاني والأمريكي. وخطر لي الآن فقط أن الجامعات باتت تؤدي الوظيفة نفسها التي كانت تؤديها الأديرة في العصور الوسطى، وهي الإبقاء على أعمدة الفكر والحفاظ عليها في البلاد التي لا يستطيع ناسها شراء الكتب من شدة فقرهم (غير أنه لم يعد بإمكاننا أن نقول إن الصين دولة فقيرة). ومنذ وقت قريب تلقيت خطابًا من سيدة تعمل نادلة بإحدى فنادق ريو دي جانيرو تقول فيه: «لا يمكنني أن أشتري الكتب ولكن زوجي يعمل بالجامعة ويسمحون له باستخدام المكتبة، وقد أحضر لي رواية «الدفتر الذهبي» وشعرت أنني يجب أن أخبرك ...».

وقد سمعت أن الرواية وُضِعَت ضمن مقررات فصول التاريخ والعلوم السياسية بالمدارس والجامعات وأسعدني ذلك، فأحد الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذه الرواية أنني شعرت أن هناك فراغات يجب أن تملأها الروايات خاصة فيما يتعلق بأدب القرن التاسع عشر. ومن أمثلة الروايات التي أحب أن أقرأها الروايات التي تصور القائمين على الحركة الميثاقية وتعكس حياتهم الخاصة ومناقشاتهم وصراعاتهم وربما تصور الفصائل الثورية الصغيرة التي علا نجمها بلندن في القرن التاسع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عشر والتي كانت جهود معظمها مكرسة لإشعال فتيل الثورة بأوروبا. وإني أرى أن رواية «الدفتر الذهبي» شاهد جيد على عصرها لا سيما في هذا الوقت الذي تلفظ فيه الاشتراكية أنفاسها الأخيرة في كل مكان — إن لم تكن قد لفظتها بالفعل — أو تغيِّر أفكارها ومبادئها. فلا شيء يبدو أكثر غرابة من معتقد آمن الناس به ثم خبا وتلاشى، ومع ذلك تستطيع الرويات أن تعكس لنا المشاعر وتصور لنا روح العصر على نحو لا سبيل للتاريخ إليه.

وذات مرة قالت لي طالبة يوغوسلافية: «كم كان من الممتع أن أقرأ عن كل هذه الشئون السياسية القديمة.» فالشئون السياسية التي تتحدث عنها الرواية باتت قديمة وغريبة على يوغوسلافيا الشيوعية، وربما أسمع أيضًا تعليقًا مثل: «إن رواية «الدفتر الذهبي» تعكس ما كان يحدث بجماعتي السياسية في السبعينيات.» أو «تعكس حياتي كامرأة.»

عندما صدرت الرواية لأول مرة عُدت سابقة لأفكار عصرها، لكن عندما قرأتها مجموعة من الطالبات بإحدى مدارس شمال لندن في الخامسة عشرة من عمرهن؛ رأينها رواية عادية جدًّا. وفي هذه السنة قُرئت الرواية بأحد الفصول في جامعة زيمبابوي بناء على رغبة الطلاب والطالبات من البيض والسود. وقالت لي المعلمة، وهي صديقة لي، إن النبرة المثالية المتفائلة التي كان الشبان الشيوعيون يتحدثون بها في هذه الأيام قبل أن يكون هناك حكم شيوعي بزيمبابوي أذهلت الطلاب، فالشيوعية والشيوعيون مرتبطان في أذهانهم بالأنانية والانتهازية، ولم يخطر لهم على الإطلاق أن الشيوعية بدأت حلمًا صادقًا بعالم أفضل.

ولا تقل الخطابات التي يرسلها الرجال عن هذه الرواية عن تلك التي تبعث بها النساء، فبعضم يقول إنها فتحت أعينهم على المشاعر والتجارب التي تعيشها النساء، ويقول البعض الآخر إن ما لفت انتباههم في الرواية هي الفكرة السياسية و«أسلوب تصوير» الشخصية الأمريكية الرئيسية التي تبدو لهم الآن شخصية ذكورية إلى حد بعيد. وكثيرًا كتبت إليّ إحدى النساء لتقول إن صديقها أو زوجها أعطاها الرواية وقال إنها أثرت فيه. وفي أحيان كثيرة يكتب إليّ رجل أنه قرأ الرواية وأعجبته وأنه كان يدرس بالجامعة حينما كانت أعمال دوريس ليسينج تشعل جذوة الحركة النسائية ولذلك لم يهتم بقراءة كتبها، غير أنه يأسف الآن لذلك ويكتب لي ليخبرني بذاك الأسف.

وإني أتلقى الكثير من ردود الأفعال، وهذا يسعدني دائمًا خاصة عندما تكون ردود الأفعال تلك غير متوقعة، وقد رأيت ذات يوم متجرًا لبيع الكتب في فيرمونت مكتوب عليه «الدفتر الذهبي» ....

في اليوم التالي أعدت قراءة الرواية وتذكرت فورة الطاقة بها. وربما كان ذلك ما أحياها إلى اليوم؛ تلك «الشحنة» التي تسري فيها وتلك الحيوية الغالبة عليها. وأحيانًا تنبعث تلك الطاقة التي تتميز بها الرواية من الصراعات الدائرة داخلها، فالأسلوب الذي اتبعته في الكتابة كان مبعثه مجموعة واحدة من الأفكار وربما من أساليب الحياة. لكنّ ذلك لم يكن ما جال بخاطري وأنا أكتب الرواية، فداخل الإطار الضيق للرواية حالة من الفوران، وأحيانًا تتعارض هذه الحالة التي تكمن بالرواية مع الرسالة التي تبعث بها في ظاهر الأمر. وأول مرة جالت فيها هذه الفكرة برأسي كانت عندما قرأت رواية «الشياطين» لدوستويفسكي ووجدت الحيوية والتفاؤل يملآن نفسي بينما كانت الرواية تشاؤمية للغاية. وتختلف رواياتي الأخرى التي احتوت على نفس الكثافة الشعورية عن رواية «الدفتر الذهبي»، ومن هذه الروايات رواية «مندوب الكوكب الثامن»، مع أن الروايتين ترسمان الحدود والأطر.

وإني لألتقي بنساء في الخمسين من عمرهن ويقلن لي إنهن تأثرن بالرواية وأعطينها لبناتهن وأعجبتهن. وقد أقابل أحيانًا امرأة شابة فتقول لي: «أعطتني أمي هذه الرواية وقالت إنها مهمة لها وأنا الآن أستطيع أن أفهمها على نحو أفضل.» وغالبًا أسمع هذه الجملة: «قرأتها أمي وأنا أقرؤها الآن» وهذا يعني أن جيلين قرآها، ولكنني عرفت بالأمس أن هناك امرأة أعطتها لابنها الذي أهداها لابنته، وهذا يعني أن ثلاثة أجيال قرأت الرواية؛ لذلك أشعر حقًّا بسعادة غامرة.

أكتب حاليًّا الجزء الأول من سيرتي الذاتية، وعندما استحضرت بعض الشخصيات والأحداث التي تضمنتها رواية «الدفتر الذهبي»، توصلت إلى استنتاج مؤداه أن الأدب الروائي يعبر عن «الحقيقة» على نحو أفضل من الأعمال التي تسطر الواقع، لكن السبب وراء ذلك أمر غاية في التعقيد لم أستطع أن أفهمه بعد.

دوريس ليسينج

أغسطس/آب ١٩٩٣

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدمة ١٩٧١

تسير بنية الرواية على ما نحوه:

هيكل أو إطار بعنوان «حكاية امرأتين مع الحرية»، وهو رواية قصيرة تقليدية تتألف من ٦٠٠٠٠ كلمة تقريبًا، ويمكن أن تكون رواية مستقلة بذاتها، ولكنها قُسِّمَت إلى خمسة أجزاء تفصل بينها المراحل المختلفة للدفاتر الأربعة: الأسود والأحمر والأصفر والأزرق. تخص هذه الدفاتر آنا ولف، إحدى الشخصيات الرئيسية في رواية «حكاية امرأتين مع الحرية». تحتفظ آنا بأربع دفاتر، وليس بدفتر واحد، لأنها تدرك أن عليها أن تفصل الأشياء بعضها عن بعض خوفًا من الدخول في حالة من التشتت والضياع ... وخوفًا من الانهيار. كانت الضغوط — الداخلية أو الخارجية — تنهي الدفاتر فترسم آنا خطًّا بالحبر الأسود الثقيل في نهاية كل واحدة، لكن عندما تكتمل هذه الدفاتر، يولد من بين أجزائها المتفرقة «الدفتر الذهبي».

على صفحات الدفاتر يتناقش الأشخاص ويضعون النظريات ويعبرون عن آرائهم وعقائدهم ويصنفون ويقسمون وأحيانًا يقومون بذلك بأصوات عامة للغاية تعبر عن روح العصر الذي نعيش فيه، حتى إن هذه الشخصيات تفقد هويتها وتصبح بلا اسم، ويستطيع القارئ أن يسميها بأسماء شخصيات المسرحيات القديمة التي تصور الصراع بين الرذيلة والفضيلة مثل: الرجل المتعصب لآرائه، والرجل الذي يستمد حريته من تخليه عن أي التزامات تجاه الآخرين، والفتاة الباحثة عن الحب والسعادة، والمرأة المتحرية للإتقان في كل الأعمال التي تؤديها، والرجل الباحث عن المرأة المخلصة، والفتاة الباحثة عن الرجل المخلص، والرجل الذي يؤمن أنه مجنون لأن الآخرين يقولون إنه كذلك، والفتاة التي تستمد قدرتها على الحياة من خلال تجربتها كل شيء، والرجل الذي يستمد وجوده من تحريكه للثورات، والرجل والمرأة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللذان يظنان أنهما إن أفرطا في الاهتمام بهذه المشكلة الصغيرة التي تواجههما فربما ينسيان أنهما لا يجرؤان على التفكير في المشكلات الكبيرة. من ناحية أخرى عكست هذه الشخصيات بعضها بعضًا، وأظهرت بعضها ملامح بعض، وانبثقت عن هذه الشخصيات أفكارها وسلوكياتها، وشرعت ملامح كل شخصية «تذوب» في الشخصيات الأخرى واتحد بعضها مع بعض فكونوا وحدة واحدة. وفي الدفتر الذهبي الذي تكتبه آنا، تتجمع الأشياء بعضها مع بعض في النهاية وتنهار الفواصل وتذوب مع انتهاء حالة التشتت لتنتصر في النهاية الفكرة المقابلة لهذا التشتت؛ فكرة التوحد والاندماج. فآنا والرجل الأمريكي سول جرين «تتضح معالم شخصيتيهما»؛ إذ إن كلاهما مصاب بكل صفات الجنون والهوس واختلال العقل، «تظهر حقيقة» الاثنان ويذوب أحدهما في الآخر، وفي الآخرين، ويتخطيان النماذج المزيفة التي اختلقاها عن ماضيهما، وتتلاشى النماذج والصيغ التي ألفاها ليساندا نفسيهما، ويبدأ كل منهما في دعم الآخر، فعندما يستمع كل منهما إلى أفكار الآخر يرى نفسه فيه. ويصبح سول جرين الرجل الذي كان يغار من آنا ويود أن يحطمها هو من يدعمها ويعظها ويقدم لها فكرة كتابها الجديد «حكاية امرأتين مع الحرية» — والعنوان هنا ساخر بالطبع — الذي يبدأ بهذه الجملة: «كانت المرأتان وحيدتين بمسكنهما بلندن». وتتنازل آنا — التي كانت تغار من سول إلى حد الجنون وتميل إلى كونها شخصية متسلطة ولحوحة — لسول عن دفترها الجديد الأنيق؛ الدفتر الذهبي، الذي كان قد رفض من قبل أن تعطيه له، وتقترح عليه فكرة لكتابه الجديد وتكتب له أول جملة منه بالدفتر الذهبي: «هناك على إحدى منحدرات التلال الجافة بالجزائر، كان الجندي واقفًا يرقب ضوء القمر يلمع على بندقيته.» وعلى صفحات الدفتر الذهبي الذي كتبه الاثنان، لم يعد باستطاعة المرء أن يميز بين ما كتبته آنا وما كتبه سول، ولا بينهما وبين الشخصيات الأخرى بالرواية.

وقد تناول كتاب آخرون سواي هذه الفكرة؛ فكرة «التفكك»، التي تكون أحيانًا إحدى طرق العلاج الذاتي — عندما ينهار الأشخاص — التي بدورها تخلِّص النفس من الانقسامات والفواصل الزائفة. لكن هذه الرواية تعد أول ما سطره بناني عن هذه الفكرة، فيما عدا تلك القصة القصيرة الغريبة، ولكنها هنا أقرب إلى حالتها الأولية، وأقرب إلى التجربة قبل تشكلها وصياغتها في قالب الفكر وفي نماذج التصرف والسلوك، وربما أضاف قرب الفكرة إلى الحالة الأولية إلى قيمتها.

غير أن كثيرين لم يلحظوا هذه الفكرة الرئيسية، فقد حصر أصدقائي من النقاد وأعدائي منهم الرواية فور صدورها في فكرة الصراع بين الرجل والمرأة، واعتبرتها النساء سلاحًا نافعًا في حربهن مع الرجال.

ومنذ هذه اللحظة وأنا في موقف شائك، فآخر شيء كنت أود أن أفعله هو أن أرفض مساندة المرأة.

ولكي أنهي الجدل الدائر حول موقفي من تحرير المرأة، أود أن أقول إنني أؤيد تحرير المرأة بالطبع، لأن النساء يُعاملن في معظم دول العالم كمواطنات من الدرجة الثانية، كما يصرحن بذلك في حماس وثقة. ويمكننا أن نقول إن نجاح النساء مرهون بقدر جدية الآخرين في الاستماع إليهن؛ فالأشخاص الذين كانوا فيما سبق يعارضونهن أو يتعاملون معهن في لامبالاة يقولون: «نحن نؤيد مطالبهن ولكننا لا نحب هذه الأصوات الحادة والطرق غير المهذبة التي يعبرن بها عن تلك المطالب.» وهذه مرحلة حتمية ومفهومة في كل الحركات الثورية، فالمصلحون يجب أن يتوقعوا أن يتبرأ منهم أولئك الذين يقنعون بالمكاسب التي يحققها الآخرون لهم. ولا أظن أن قضية تحرير المرأة ستشهد تغييرًا كبيرًا، ليس لأن هناك شيئًا غير سليم في مطالب القائمين عليها، بل لأن هذا الطوفان الذي يجتاحنا الآن يدفع العالم أجمع إلى مرحلة جديدة تمامًا، وربما عندما نعبر هذا الطوفان — إن نجحنا في أن نعبره — ستبدو مطالب قضية تحرير المرأة شيئًا عديم القيمة عفى عليه الزمن.

لكن هذه الرواية لا تنادي بتحرير المرأة، وإنما تصور مشاعر العنف والعداء والضيق التي تنتاب النساء، وترسم تلك المشاعر على الورق لتضعها بين أيدي القراء، غير أنه من الواضح أن ما تفكر فيه كثيرات ويشعرن به ويعايشنه قد يصيب غيرهن بدهشة بالغة، فقد أشهر كثيرون في وجهي أسلحة قديمة للغاية، جاءت على رأسها كالعادة اتهامي بأنني «غير أنثوية» وأنني «كارهة للرجال». ورد فعل كهذا يعد أمرًا أزليًّا، فالرجال — وكثير من النساء — كانوا يرون أن النساء اللاتي نادين بحق المرأة في الاقتراع كن غير أنثويات وأميل إلى الذكورة والوحشية. وأيد ذلك أنني لم أقرأ قط عن أي مجتمع على وجه الأرض يدون مطالبة النساء بأشياء تفوق تلك التي منحتهن الطبيعة دون أن يكون هذا هو رد فعل الرجال تجاهه ومعهم بعض النساء. وقد أثارت رواية «الدفتر الذهبي» غضب جماعة من النساء، فتلك الأحاديث الساخطة والمتذمرة والثرثرة التي تدور بين النساء وهن جالسات بحجرة المطبخ، أو ملامح الانحراف الجنسي التي يفصحن عنها هي آخر ما تجهر به النساء ... خشية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يسمعهن أحد الرجال. وتجبُن النساء إلى هذا الحد لأنهن ظللن شبه مستعبدات لفترات طويلة، فعدد لا يزال قليلًا منهن مستعد لدعم ما يفكرن فيه فعلًا ويشعرن به ويعايشنه أمام رجالهن، ومعظم النساء يركضن في ذعر مثل جِراء ألقاهن شخص بالحجارة إذا اتهمهن رجل بأنهن غير أنثويات أو عدوانيات أو بأنهن يفقدنه رجولته. وإني أظن أن المرأة التي تقدم على الزواج أو تدخل في أي علاقة جادة مع رجل يلوح في وجهها بمثل هذا التهديد تستحق كل ما قد تعانيه، ذلك أن مثل هذا الرجل لا يعدو أن يكون شخصًا متنمرًا لا يعرف أي شيء عن العالم الذي يعيش فيه أو عن تاريخه، فقد اضطلع الرجال والنساء بعدد لا نهائي من الأدوار في الماضي ولا يزالون يقومون بذلك في المجتمعات المختلفة في هذا العصر، وهذا الرجل إما جاهل أو خائف من أن يشذ عن الإطار السائد، أي أنه رجل جبان ... لا يختلف الشعور الذي يداخلني الآن وأنا أكتب هذه الملاحظات عن الشعور الذي كان سينتابني لو كنت أكتب خطابًا مبعوثًا إلى قاطني الماضي البعيد؛ فأنا على يقين بأن كل الأشياء التي نسلم بصحتها الآن ستُنَحَّى جانبًا تمامًا في العقد المقبل.

(فلماذا إذن نؤلف الروايات؟ نعم، لماذا! أظن أن علينا أن نستمر في العيش ...).

بعض الكتب لا تُقرأ بالطريقة الصحيحة، إما لأنها تتخطى مرحلة من مراحل إبداء الرأي أو لأنها تبرز بعض المعلومات عن أشياء لم يشهدها المجتمع بعد. وقد كتبت هذه الرواية وكأن الاتجاهات التي خلفتها حركات تحرير المرأة وُجدت بالفعل. وقد نُشرت عام ١٩٦٢، أي منذ عشر سنوات، ولو نشرت الآن للمرة الأولى ربما أتيح لها أن تُقرأ، بدلًا من أن تثار تجاهها ردود الأفعال فقط. لقد تغيرت الأشياء في سرعة كبيرة، حيث اندثرت على سبيل المثال بعض الاتجاهات التي اتسمت بالرياء، فمنذ عشر سنوات أو خمس، شهد العصر اتجاهًا ينزع إلى التمرد الجنسي، فانتشرت الروايات والمسرحيات التي ألفها رجال يصوبون سهام النقد الغاضبة إلى المرأة، وخاصة النساء الأمريكيات، وإن كانت المرأة البريطانية تعرضت أيضًا لمثل هذه الانتقادات. صور هؤلاء الكتّاب النساء على أنهن متنمرات وخائنات، لكن أكثر الصفات التي ألصقها هؤلاء الكتاب بالمرأة هي أنها تقف حجر عثرة في طريق الرجل وتثبط همته وعزيمته. وقد استقبلت هذه الاتجاهات التي ظهرت في كتابات الرجال على أنها أفكار مسلم بها، وتُقبلت كأسس فلسفية سليمة، طبيعية تمامًا، ولم يُنظر إليها بالطبع على أنها كارهة للمرأة أو عدوانية أو عصابية. ولا تزال مثل هذه الاتجاهات مستمرة بالطبع، ولكن من المؤكد أن الوضع شهد تحسنًا.

كنت مندمجة جدًّا في كتابة هذه الرواية حتى إنني لم أفكر كيف سيتقبلها الآخرون. كنت منهمكة لهذا الحد ليس فقط لأن عملية الكتابة كانت صعبة، فقد كتبت هذه الرواية من البداية إلى النهاية دون توقف وأنا أحتفظ في ذهني بالخطة الخاصة بها ولم يكن هذا بالأمر اليسير، بل نتيجة للأشياء التي تعلمتها وأنا أكتب. ربما عندما يضع المرء نفسه في إطار ضيق ويحيط نفسه بالقيود تنبثق منه أفكار جديدة لم يتوقعها، فكل الأفكار والتجارب التي لم أنظر إليها يومًا على أنها تخصني خرجت أثناء الكتابة. ولم تكن التجارب التي انعكست على صفحات الرواية هي مصدر الدهشة الوحيد لي، فالوقت الفعلي الذي استغرقته عملية الكتابة أذهلني أيضًا، وغيرتني هذه التجربة. وعندما انتهيت من هذه التجربة التي أوضحت لي الكثير من الأمور، وسلمت مخطوطة الرواية إلى الناشر وإلى أصدقائي، أدركت أنني كتبت رواية عن الصراع بين الرجل والمرأة، وسرعان ما اكتشفت أنه لا شيء مما قلته في تلك اللحظة يمكن أن يغير هذا التوصيف.

ولكن جوهر الرواية وتنظيمها وكل شيء فيها يقول على نحو مباشر وغير مباشر إننا يجب ألا نقسم الأشياء، وألا نفصل بينها.

فقد كان «الأَسْر والحرية، الخير والشر، القَبول والرفض، الرأسمالية والاشتراكية، الجنس والحب ....» هو ما وصفته آنا في رواية «حكاية امرأتين مع الحرية». كانت تعبر عن فكرة ما، تصيح بها، تعلن عن رأيها بالطبول والأبواق ... أو هكذا تخيلتْ. وقد نسجت على منوالها لمّا كنت أؤمن بأنه في رواية تحمل عنوان «الدفتر الذهبي» ربما يُفترض أن الجزء الداخلي الذي يحمل العنوان نفسه هو الجزء الرئيسي الذي ترتكز عليه الرواية والذي يكشف عن القضية التي تطرحها الرواية.

ولكن لم يكن الأمر كذلك.

هناك بعض الأفكار الأخرى نسجت خيوط هذه الرواية، التي أمضيت وقتًا عصيبًا في كتابتها، فالأفكار والمواضيع التي ظللت أحتفظ بها في ذهني لسنوات تجمعت معًا.

كانت إحدى هذه الأفكار تتمثل في أنه لا يمكن للمرء العثور على واحدة من روايات النصف الثاني من القرن الماضي استطاعت أن تصف المناخ الفكري والأخلاقي الذي كان سائدًا في بريطانيا منذ مائة عام مثلما عكست روايات تولستوي صورة روسيا الفكرية والأخلاقية في هذا الوقت، أو مثلما أبرزت روايات ستيندال ملامح الفكر والخلق في فرنسا آنذاك. (وعند هذه النقطة على المرء أن يبرئ ذمته.) فروايتا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«الأحمر والأسود» و«لوشين ليولين» تعرِّفان القارئ بفرنسا كأنه يعيش فيها، وتقدم رواية «آنا كارنينا» صورة واضحة عن روسيا. مع ذلك لا توجد رواية من روايات العصر الفيكتوري تفيد القارئ إلى حد ما في التعرف على بريطانيا. فتوماس هاردي يخبرنا كيف تكون الحياة عندما تكون فقيرًا، وكيف أنه قد يكون لدى المرء تصورات أكبر بكثير من الإمكانات المحدودة المتاحة في هذا الوقت، وكيف يمكن يكون المرء ضحية. أما كتابات جورج إليوت فمُرْضِية ولكن ليس إلى حد بعيد، وأظن أنها دفعت ثمن أنوثتها من العصر الفيكتوري، فكان عليها أن تظهر في صورة امرأة صالحة مع أنها لم تكن كذلك بالمقاييس المزدوجة التي سادت في هذا العصر، فثمة أشياء كثيرة لم تفهمها لأنها كانت من الكتاب المعنيين بالأدب الأخلاقي. وربما كانت كتابات ميريدث هي الأقرب إلى الصورة الواقعية، لكن ما يعجب له أن الرجل لم ينل التقدير الذي يستحقه. وحاول ترولوب أيضًا أن يكتب في هذا الموضوع لكنه افتقد النظرة الواسعة. ولم تنعكس قوة الأفكار النابعة من الواقع وتضاربها في أي رواية كما انعكست في واحدة من السير الذاتية التي كتبها ويليام موريس.

حينما أقدمت على هذه المحاولة افترضت أن ذلك المؤشر الذي يتمثل في رؤية المرأة للحياة هو بقدر قوة المؤشر الذي يعكس رؤية الرجل لها وفعاليته. نحيت هذه الإشكالية جانبًا، أو بالأحرى، لم أضعها في اعتباري، وقررت أنه لكي أنقل «الإحساس» الأيديولوجي الذي يميز منتصف القرن الذي نعيش فيه، لا بد أن تدور الأحداث وسط الاشتراكيين والماركسيين، لأن الأوساط الاشتراكية المختلفة هي التي شهدت النقاشات العظيمة التي تميز عصرنا الحالي؛ فالحركات السياسية والحروب والثورات كانت في نظر المشاركين فيها حركات اشتراكية مختلفة، أو حركات ماركسية تتقدم أو تتراجع أو تهدف إلى احتواء القوى الأخرى. (أرى أن علينا على الأقل أن نقر بأنه عندما ينظر الآخرون وراءهم ليبصروا زماننا يحتمل أن يروه على نحو مختلف تمامًا عما نراه نحن الآن، وذلك كما نرى نحن الآن الثورتين الإنجليزية والفرنسية، وحتى الثورة الروسية، برؤية تختلف عن الأشخاص الذين عاصروا هذه الثورات). غير أن «الماركسية» والنظريات المتفرعة عنها تضم أفكارًا كامنة في كل مكان، وفور أن «تطل هذه الأفكار برأسها» حتى يتشربها الأشخاص وتصبح جزءًا من طريقة التفكير المعتادة. فالأفكار التي كانت مقصورة على اليسار المتطرف منذ ثلاثين أو أربعين عامًا انتشرت لتشمل السياسيين اليساريين بصورة عامة منذ عشرين عامًا، وانبثق منها خلال العشر سنوات الأخيرة الفكر الاجتماعي العام الخاص باليمين

واليسار. ولم تَعُدْ هذه الأفكار التي تشربها النسيج العام للمجتمع نوعًا من أنواع القوة، لكنها سادت العصر، وبرواية مثل التي كنت أحاول أن أكتبها كان يجب أن تكون محورية.

إحدى الأفكار الأخرى التي ظللت أستخدمها لفترة طويلة هي أن تكون الشخصية الرئيسية مشتغلة بأي نوع من أنواع الفنون، ثم تعاني «أزمة انقطاع الإلهام»، وذلك لأن استخدام شخصية الفنان، سواء أرسامًا كان أو كاتبًا أو موسيقيًّا، في الأعمال الفنية كمثل أعلى ظل سائدًا لفترة من الوقت. وكل الكتاب المعروفين ومعظم المؤلفين المغمورين استخدموا هذه الفكرة. وكان هذان النموذجان — نموذج الفنان والنموذج المقابل له المتمثل في شخصية رجل الأعمال — هما جناحا ثقافتنا، وصُوِّر أحدهم على أنه شخص فظ متبلد الشعور، والآخر على أنه مبدع خلاق تبرر له أعماله كل المشاعر والآلام المبالغ فيها والنرجسية اللامتناهية، بنفس الطريقة التي تجعلنا مشروعات رجل أعمال وأمواله نغفر له غروره اللامتناهي ومبالغاته الشعورية. تعودنا على ما هو بحوزتنا، ونسينا أن كون الفنان مثلًا يُحتذى به هو فكرة جديدة علينا. فمنذ مئات السنين لم تجر العادة على أن يكون الأبطال فنانين، كانوا مقاتلين وصانعي إمبراطوريات ومستكشفين ورجال دين وسياسيين، تعازينا للنساء اللاتي لم ينجحن في أن يحذون حذو فلورانس نايتنجيل. وبات أصحاب الشخصيات غريبة الأطوار هم فقط من رغبوا في أن يصبحوا فنانين، وكان عليهم أن يناضلوا من أجل أن يصبحوا كذلك. قررت أن أدخل تعديلًا على هذه الفكرة السائدة في زماننا، وهي استخدام شخصية «الفنان» أو «الكاتب». قررت أن يعاني هذا الفنان مما يعرف باسم «أزمة انقطاع الإلهام» وأن أناقش أسباب هذه الأزمة، وكان عليّ أن أربط هذه الفكرة بالتناقض بين ضخامة مشكلات مثل الحرب والمجاعات والفقر من ناحية وضآلة الفرد الذي يحاول أن يصورها من ناحية أخرى. ولكن ما لم أعد قادرة فعلًا على احتماله هو تصوير الفنان وكأنه شخص مثالي مصاب بالنرجسية البالغة قابع في برج عاجي بمعزل عن الآخرين. ويبدو أن الشباب فطنوا لهذا الأمر بطريقتهم وعدلوه خالقين ثقافة تخصهم تضم مئات الآلاف من الأشخاص الذين ينتجون الأفلام، أو يساعدون في إنتاجها، أو يصدرون الصحف بشتى أنواعها، أو يؤلفون الموسيقى، أو يرسمون اللوحات، أو يؤلفون الكتب، أو يشتغلون بالتصوير الفوتوغرافي. فقد حطموا تمثال هذا المبدع الحساس المنعزل عن العالم بخلق مئات الآلاف منه. وبلغ هذا الاتجاه ذروته ثم اختفى لذا سيكون هناك كالعادة رد فعل تجاه هذا الأمر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفتح فكرة استخدام شخصية «الفنان» بالأعمال الأدبية الباب أمام فكرة أخرى، وهي وضع الذات في بؤرة الاهتمام. فعندما بدأت في ممارسة الكتابة، كان الكتاب يتعرضون لضغوط حتى لا يضفوا على أعمالهم أي صبغة تركز على «الذات» أو «الفرد». وبدأت هذه الضغوط من داخل الحركات الاشتراكية كامتداد لمبدأ النقد الأدبي الاجتماعي الذي ظهر بروسيا في القرن التاسع عشر على أيدي مجموعة من الفنانين الموهوبين، أكثرهم شهرة هو بلينسكي، وكانوا يستخدمون الفنون، خاصة الفنون الأدبية، في حربهم ضد القمع وحكم القياصرة. وسرعان ما انتشرت هذه الأمور في كل مكان، ولاقت استجابة من البريطانيين في الخمسينيات مع ظهور فكرة «الانتماء والولاء»، ولا تزال هذه الضغوط ذات تأثير قوي في الدول الشيوعية. أما على مستوى الحياة اليومية، فكان جوهر هذا الاتجاه يتمثل في التقليل من شأن المشاكل الشخصية بمقارنتها بالأحداث العظيمة مثل حريق روما. ولم يكن من السهل أن يتحمل المرء وطأة هذه الضغوط خاصة عندما يكون من يمارسها هم أقرب الناس إليه وأعزهم إلى قلبه؛ الذين كانت كل أفعالهم تحظى بأقصى تقدير واحترام، مثل محاربة التمييز القائم على أساس اللون في جنوب أفريقيا. ولكن الروايات والقصص والفنون بجميع أنواعها باتت مغرقة أكثر في هموم الفرد. وفي الدفتر الأزرق تدون آنا المحاضرات التي كانت تلقيها: «كان الفن في العصور الوسطى فنًّا اشتراكيًّا متجردًا من الملامح الفردية، كان نابعًا من إدراك الجماعة، لم يكن الفن آنذاك متأثرًا بتلك النزعة الفردية المحزنة المسيطرة على الفن في العصر البرجوازي. وسوف يأتي اليوم الذي نتخطى فيه تلك «الأنا» الواضحة والمسيطرة على الفن الذي يدور حول الفرد، وسوف نعود مرة أخرى إلى الفن الذي يعبر عن الإخاء والذي يجب أن يتحلى به البشر وعن مسئولية الإنسان تجاه بني جلدته، وليس عن تلك الحدود الفارقة التي تفصل الإنسان عن غيره من البشر وتميزه عنهم. إن الفن القادم من الغرب يقترب أكثر وأكثر من كونه صرخة ألم تطلقها الأرواح المعذبة التي تدون معاناتها، إن الألم أصبح هو الحقيقة الأكثر تأصلًا فينا ...» هذه هي نوعية المحاضرات التي كنت ألقيها. ومن نحو ثلاثة أشهر، أثناء إحدى هذه المحاضرات، بدأت أتلعثم ولم أستطع أن أنهي حديثي ...».

تلعثمت آنا لأن هناك شيئًا كانت تحاول أن تتهرب منه، فما أن يبدأ تيار أو ضغط معين، حتى نفقد كل الطرق لتجنبه، ويبدو أنه «ليس» هناك سبيل للهروب من الإغراق في الفردية، وهذه هي المسئولية التي يحملها الكاتب على عاتقه في ذلك

الوقت. لا يمكن أن يتجاهلها، لا يمكن أن يؤلف كتابًا عن بناء جسر أو سد من دون أن يعكس على صفحاته صورة عقول من بنوه ومشاعرهم. (قد يظن البعض أن هذا نوع من الكاريكاتير، ولكنني لا أسخر على الإطلاق، «فالاختيار» بين هذين الأمرين مثل جوهر النقد الأدبي في هذا الوقت.) وأخيرًا توصلت إلى أن السبيل إلى الخروج من دوامة الانزعاج من الكتابة عن «المشكلات الشخصية التافهة» هو أن نتفق أنه ليس هناك شيء شخصي، بمعنى أنه لا يوجد شيء يتميز بكونه خاصًّا بفرد بعينه. فحينما يكتب المرء عن نفسه فهو يكتب عن الآخرين، لأن مشكلاته وآلامه وأفراحه ومشاعره وأفكاره الاستثنائية والمميزة لا يمكن أن تكون ملكه وحده، ومن هنا لكي نحل مشكلة «المذهب الذاتي» الذي يتمثل في الانغماس داخل شئون الفرد الذي يعد كائنًا ضئيلًا ولكنه في الوقت ذاته مغرق في عدد لامتناهٍ من الاحتمالات البشعة والرائعة؛ لكي نحل هذه المشكلة يجب أن ننظر إلى الفرد بوصفه تمثيلًا مصغرًا للعالم، وبهذه الطريقة نتخطى ما هو شخصي وذاتي، وأن نحول ما هو شخصي إلى شيء عام، كما تفعل الحياة دائمًا، بل أن نصنع من التجربة الخاصة شيئًا أكبر، تلك التجربة التي يظن المرء في خصوصيتها قبل أن ينضج، كأن يقول مثلًا «إني أحب» أو «هناك شعور بعينه يتخللني أو يتخلل نفس شخص آخر». فالنضج هو أن يدرك المرء أن التجربة الفردية المميزة والرائعة هي تلك التجربة التي يعيشها الجميع.

إحدى الأفكار الأخرى التي خطرت لي تمثلت في أنه إذا جاءت بنية الرواية بالشكل الصحيح، فسوف يخبر ذلك بشيء عن الرواية التقليدية. إن الجدل الدائر حول الرواية يعود إلى بداية ظهور الرواية في سماء الأدب، وليس شيئًا حديثًا كما قد يتخيل المرء من قراءاته للكتابات الأكاديمية المعاصرة. وددت أن أقول شيئًا عن الرواية التقليدية عندما ركزت هذا الكم الكبير من الأفكار في الرواية القصيرة التي عنوانها: «حكاية امرأتين مع الحرية»، أردت أن أوضح ذلك الشعور بالانزعاج الذي يخالج الكاتب عندما ينتهي أمر من الأمور فيقول: «كم كان هذا القدر الذي تصورت أنني سأقوله عن الحقيقة ضئيلًا، وكم كان ما وضعت عليه يدي من بين كل هذه الأمور المعقدة زهيدًا، وكيف يمكن أن يعكس هذا الكتاب الصغير المنمق الحقيقة إذا كان ما عايشته قاسيًا للغاية ويفتقر إلى أي بنية أو شكل؟»

كان الهدف الرئيسي الذي أنشده هو أن تعكس بنية الرواية رأيًا وموقفًا من دون كلمات: أن تتكلم الرواية بلسان بنيتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن كما أوضحت من قبل لم يلحظ أحد ذلك.

أحد الأسباب التي تقف وراء هذا الأمر هو أن الرواية تساير خصائص الرواية الأوروبية أكثر من مسايرتها لسمات الرواية الإنجليزية، أو بالأحرى، سمات الرواية الإنجليزية كما يراها الناس الآن، فالروايات الإنجليزية تتضمن شخصيات مثل كلاريسا وتريسترام شاندي وجوزيف كونراد، بالإضافة إلى شخصيات الكوميديا التراجيدية.

ولكن مما لا شك فيه أن محاولة المرء أن يكتب رواية عن الأفكار يعد إقدامًا منه على الدخول في طريق مليء بالمعوقات؛ فالانغلاق الفكري الذي تتسم به ثقافتنا يصل إلى حد بعيد، ومن أمثلة ذلك أنه لعقود طويلة كان الفتيان والفتيات الواعدون يتخرجون في الجامعة ويصرحون في فخر بأنهم لا يعرفون شيئًا عن الأدب الألماني، إذ كان هذا هو التيار السائد. أما رجال العصر الفيكتوري فكانوا يعرفون كل شيء عن الأدب الألماني، لكنهم لم يحاولوا أن يزيدوا من معلوماتهم الضئيلة عن الأدب الفرنسي ولم يسبب لهم ذلك أي شعور بتأنيب الضمير.

لم تأتِ الآراء النقدية النابهة التي أبداها أشخاص ماركسيون، أو أشخاص يعتنقون المذهب الماركسي، في الرواية من قبيل المصادفة، لكنهم أدركوا ما حاولت أن أقوم به. ويرجع ذلك إلى أن المذهب الماركسي ينظر إلى الأمور بوصفها وحدة متكاملة وفي ضوء علاقتها بالأشياء الأخرى، أو يحاول فعل ذلك، ولكن القصور الذي يعانيه هذا المذهب ليس هو موضوعنا، فالأشخاص المتأثرون بالمذهب الماركسي يسلمون بأن الحدث الذي تشهده سيبيريا سوف يؤثر في مجريات الأمور في بوتسوانا. وأرى أن الماركسية هي أول محاولة يشهدها هذا العصر، فيما عدا الديانات الرسمية، لخلق وعي عالمي وأخلاق عالمية، ولكنها لم تسر في الطريق الصحيح، وظل هذا المذهب ينقسم على نفسه، مثل كل الديانات الأخرى، إلى مذاهب أصغر وطوائف وملل، ولكنها كانت محاولة.

وضعتني محاولتي لمعرفة ما كنت أحاول أن أقوم به في مواجهة مع النقاد، وأصبحت مهددة بأن أثير انتباههم. ويظن الجمهور أنهم اعتادوا على هذه المناوشات المزعجة بين النقاد والكتاب أو النقاد وكتاب المسرح وباتت أمرًا لا يثير دهشتهم، فهم ينظرون إلى الطرفين على أنهما فريقان من الأطفال المشاكسين، ويعجبون أحيانًا لأمر الكتّاب الذين ينهال عليهم المديح، أو على الأقل تنجذب إليهم الأنظار ويشعرون دائمًا بأن كرامتهم جرحت، والجمهور لديهم حق فيما يرون لأسباب لن أخوض هنا في ذكرها. بالإضافة إلى ذلك، شكلت تجاربي الأولى والقيِّمة في الكتابة نوعًا من

الوعي بالنقاد والمحررين لدي، ولكن بخصوص روايتي هذه فقد افتقدت هذا الوعي. فقد ظننت أن أغلب النقد الموجه للرواية سخيف للغاية ولا يمكن أن يكون حقيقيًّا، ولكنني عندما استعدت توازني أدركت أين تكمن المشكلة؛ تكمن المشكلة في أن الكتاب يبحثون في النقاد عن «شخصية مقابلة» لهم، هذه الشخصية الأخرى التي تفوقك ذكاء والتي تبصر ما أنت آخذ في الوصول إليه، وتحكم عليك من خلال نجاحك في الوصول إلى هدفك أو إخفاقك في أن تنال ما تنشد. أنا لم أقابل في حياتي كاتبًا يواجه في النهاية هذا الشخص النادر الوجود، الناقد الحقيقي، دون أن يتخلى عن جنون العظمة ويجلس منتبهًا في امتنان؛ وقد وجد أخيرًا ما يظن أنه بحاجة إليه. إن ما يطلبه الكاتب هو أمر مستحيل؛ لماذا يتوقع أنه سيعثر على ذلك الشخص الاستثنائي، الناقد المثالي (الذي يعثر عليه المرء مصادفة)، ولا يوجد أي شخص آخر يستطيع أن يفهم ما يحاول الكاتب أن يقوم به؟ لن يستطيع أي شخص أن يسبر أغوار فكرة ما مثل الشخص الذي صاغها وعبر عنها.

لن يستطيع النقاد والمحررون أن يقدموا ما يتظاهرون بأنهم يقدمونه، ذلك الشيء الذي يلح عليه الكتاب في سخف وطفولية.

وذلك لأن النقاد لم يتعلموا أن يقوموا بهذا الأمر، ولكن ما تعلموه كان عكس ذلك.

فالأمر يبدأ في عمر خمس أو ست سنوات، عندما يلتحق الطفل بالمدرسة، يبدأ الأمر بالدرجات، والمكافآت، و«الترتيب» و«المستويات» والنجوم، وفي بعض الأماكن لا يزالون يستخدمون الشرائط. طريقة التفكير هذه التي تغرس في الطفل أن الحياة سباق للخيل وترسخ مبدأ الخاسر والرابح تؤدي إلى مثل هذا الحكم: «هذا الكاتب يسبق ذاك أو يتخلف عنه بخطوات قليلة. وذاك الكاتب تفوق بكتابه الأخير على هذا الكاتب.» ويتعلم الطفل من البداية أن يفكر بمثل هذه الطريقة، يتعلم أن يقارن، أن يربط أحكامه بالنجاح أو بالفشل. إنه نظام قائم على استبعاد الأشخاص الأضعف من المنافسة، فهم يواجهون بمن يحبطهم ويتخلفون، ويبقى عدد قليل من الرابحين يتنافس بعضهم مع بعض طوال الوقت. وأظن — مع أنه ليس هناك مجال الآن للإسهاب في الحديث عن هذا الأمر — أن المواهب التي يمتلكها أي طفل، بصرف النظر عن المقياس الرسمي لمستوى ذكائه، يمكن أن تظل معه طوال حياته وتثري فكره وفكر الآخرين جميعًا إذا لم تُعامَل على أنها بضائع بأسواق النجاح لكل منها قيمة محددة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد الأشياء الأخرى التي يتعلمها الطفل منذ نعومة أظفاره هو ألا يثق بأحكامه، فالأطفال يتعلمون أن يخضعوا إلى المرجعية، وأن يبحثوا عن آراء الآخرين وقراراتهم، وأن يستشهدوا بها ويذعنوا لها.

في المحيط السياسي يتعلم الطفل أنه شخص حر، يؤمن بالديمقراطية، يمتلك إرادة حرة وفكرًا حرًّا، ويحيا في بلد حر، ويقرر لنفسه ما يريد. وفي الوقت ذاته يكون أسير الافتراضات والعقائد الخاصة بزمنه التي لا يحدث أنه يشكك بها، لأن أحدًا لم يخبره من قبل عنها. وعندما يصل الفتى إلى العمر الذي يكون عليه أن يختار فيه بين العلوم والآداب (نحن لا نزال نسلم بأن الاختيار بينهما أمر حتمي)، يختار الآداب لأنه يشعر أنها تنطوي على المشاعر الإنسانية والحرية وحق الاختيار، ولكنه لا يعلم أن أحد الأنظمة قَوْلَبَه، لا يعلم أن هذا الاختيار نفسه هو نتيجة لتقسيم زائف متأصل في قلب ثقافتنا. والأشخاص الذين يستشعرون هذا الأمر ولا يرغبون في أن يتعرضوا لمزيد من عمليات القولبة يميلون نحو الابتعاد محاولين على نحو غريزي — يكاد يكون لاإراديّ — أن يعثروا على عمل لا ينتهي بهم إلى الانقسام على أنفسهم. في جميع مؤسساتنا — بدءًا من مؤسسات الشرطة ووصولًا إلى المؤسسات الأكاديمية، ومن الأوساط الطبية إلى الدوائر السياسية — لا نهتم كثيرًا بمن يبتعدون، فعملية الاستئصال تلك تجري طوال الوقت وتستبعد منذ البداية هؤلاء الذين يمكن أن يكون لديهم ملكات إبداعية وإصلاحية، وتحافظ على الذين ينجذبون إلى شيء ما لأنهم أحبوه بالفعل، فربما يترك رجل الشرطة الشاب الخدمة لأنه يشعر أنه لا يحب ما عليه عمله، وقد تعتزل معلمة شابة مهنة التدريس لأنها تشعر أن مثاليتها باتت مصدرًا للتوبيخ. إن الآلية الاجتماعية تسير في طريقها دون أن يلحظها أحد، ولكنها لا تقل قوة عن أي آلية أخرى تبقي على الصرامة والقمع داخل مؤسساتنا.

يصبح هؤلاء الأطفال الذين قضوا العديد من السنوات داخل هذا النظام التدريبي نقادًا ومحررين، ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا للكاتب أو الفنان الأحكام القائمة على الإبداع والتخيل التي يبحث عنها. ما يمكنهم أن يقوموا به، وما يبرعون في القيام به، هو أن يخبروا الكاتب إلى أي مدى يتوافق كتابه أو مسرحيته مع الاتجاهات الفكرية والشعورية الحالية، ومع الآراء والمعتقدات السائدة. إنهم يقومون بوظيفة ورق دوار الشمس الذي يستخدم في الاختبارات الكيميائية، يعملون كمقاييس مثل تلك التي تخبرنا قوة الرياح واتجاهها، إنه شيء مذهل. إنهم أكثر مؤشرات الرأي العام حساسية، فأروقة النقد هي أسرع مكان تتجلى فيه التغييرات التي تطرأ على

الحالات المزاجية والآراء بعد الأوساط السياسية، وهذا لأن هؤلاء الأشخاص تعلموا أن يبحثوا خارج أنفسهم عن آرائهم، وأن يكيفوا أنفسهم مع أفكار الأشخاص الذين يعدون مرجعيات، يتأقلمون مع «الآراء الواردة»؛ نعم، هذا هو الوصف المناسب لها.

ربما لا يكون هناك طريقة تعليمية أخرى، غير أني لا أؤمن بذلك. لكننا إذا وضعنا على الأقل التوصيف المناسب للأشياء ودعوناها بأسمائها الصحيحة، فسيكون ذلك شيئًا مفيدًا. وما يجب أن يقال لكل دارس ويعاد على مسامعه خلال سنوات الدراسة هو شيء من هذا القبيل: «سوف تُلَقَّنون أفكارًا ومَبادِئَ مُحَدَّدة؛ فنحن لم نُنْشِئْ بَعْدُ نظامًا تعليميًّا لا يقومُ على التَّلقين، نَأْسَفُ لذلك، ولكن هذا هو أفضل ما يمكننا تقديمُه. إنَّ ما تتعلمونه هنا هو مزيجٌ من الأفكارِ الحالية المُكَوَّنة سلفًا والاختياراتِ التي تنزع إليها هذه الحضارةُ تحديدًا. وأقلُّ نظرةٍ على التاريخ ستُظهِر أن هذه الأمورَ زائلةٌ لا محالة. إن من يعلمونكم هم أناسٌ استطاعوا أن يُكَيِّفُوا أنفسَهم مع نظامٍ فكريٍّ وَضَعَه أسلافُهم، إنه نظامٌ تَتَوارثَه الأجيال دون تغيير. وهؤلاء الذين سيُظْهِرون تصميمًا وتمييزًا يفوق الآخرين سنُشَجِّعهم على ترك هذا النظام والبحث عن طرق يعلمون بها أنفسَهم، ويدربونها على تشكيل آراء وأحكام نابعة منهم. أما هؤلاء الذي سيبقون، فعليهم أن يتذكروا دائمًا أنهم يَتَقَوْلَبون ويتشكلون حتى يسايروا احتياجات هذا المجتمع المحدودةَ والخاصَّة.»

وإني مثل كل الكتاب الآخرين أتلقى عادة خطابات من الشباب المقدمين على كتابة رسائل علمية أو مقالات عن أعمالي، تأتيني هذه الخطابات من جميع البلدان، ولكن معظمها يرسل من الولايات المتحدة. في كل الخطابات توجد هذه الجملة: «من فضلك أرسلي لي قائمة بالمقالات التي كتبت عن أعمالك، وأسماء النقاد الذين كتبوا عنها، أعني المرجعيات.» ويسأل هؤلاء الطلاب أيضًا عن العديد من التفاصيل الأخرى التي لا يكون لها دور في حياتي، ولكنهم علموا أنها هامة، يسألون كأنهم مسئولو قسم الهجرة يريدون أن يضعوا ملف معلومات عني.

هذا ما أقوله عادة ردًّا على هذه الطلبات: «عزيزي الطالب: أنت مجنون. لمَ قضيت كل هذه الشهور والسنوات تكتب صفحات مطولة عن كتاب واحد، أو حتى مؤلف واحد وهناك مئات الكتب تنتظر منك أن تقرأها؟! ألا ترى أنك ضحية نظام فتّاك؟ إذا كنت اخترت بنفسك أعمالي لتكون موضوع رسالتك، وإذا تحتم عليك أن تكتب رسالة — وصدقني أنا ممتنة جدًّا لأن ما كتبته شيء مفيد من وجهة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرك — فلِمَ لا تقرأ بنفسك ما كتبتُ وتفكر فيه، وتختبره في ضوء حياتك وخبراتك؟ لا تهتم بالأساتذة، الأخيار منهم والأشرار.»

وهذا هو الرد: «عزيزتي الكاتبة، يجب أن أعرف ما يقوله الأشخاص ذوي المرجعيات عن أعمالك، لأنني إذا لم أستشهد بأقوالهم فلن يعطيني أستاذي أي درجة.»

يعد هذا النظام التعليمي نظامًا دوليًّا، متطابقًا في كل البلدان، من جبال الأورال إلى يوغوسلافيا، ومن مينيسوتا إلى مانشستر.

والفكرة الأساسية هنا هي أننا اعتدنا إلى حد بعيد على هذا النظام، ولم نعد نرى إلى أي حد هو بالغ السوء.

أنا لم أعتد عليه، لأنني تركت المدرسة عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. في وقت من الأوقات شعرت بالأسف حيال هذا الأمر، وكنت أظن أنني خسرت شيئًا قيمًا، ولكنني الآن أشعر أنني كنت محظوظة لأنني هربت من هذا النظام. وبعدما نشرت رواية «الدفتر الذهبي» جعلت شغلي الشاغل هو أن أستكشف الآليات الأدبية، وأن أتفحص خطوات صنع الناقد أو المحرر. تفحصت عددًا كبيرًا من أوراق الامتحانات ولم أستطع أن أصدق ما رأيت، وحضرت فصولًا لتدريس الأدب، ولم أستطع أن أصدق ما سمعت.

ربما يظن البعض أن رد فعلي هذا مبالغ فيه وغير مبرر لأنني لم أكن يومًا جزءًا من هذه المنظومة، ولكنني أرى أنه ليس مبالغًا فيه على الإطلاق، وأن رد الفعل الآتي من خارج المنظومة هو شيء ذو قيمة لأنه ببساطة يمثل رأيًا غير تقليدي وغير متحيز لأن صاحبه لا يدين بالولاء لنظام تعليمي معين.

لم أعد أواجه صعوبة في الرد على التساؤلات التي كانت تجوب رأسي بعدما تفحصت النظام التعليمي الذي يصنع النقاد: لم يتسمون بالانغلاق الفكري وضيق الأفق ويُشَخْصِنون الأمور؟ لماذا يحولون دائمًا الكل إلى أجزاء، وينتقصون من قدر الأمور؟ لماذا يولعون بالتفاصيل ولا يهتمون بالكل المتكامل؟ لماذا يرون «الناقد» دائمًا شخصًا باحثًا عن الأخطاء؟ لماذا يرون دائمًا أن الكتّاب في صراع بعضهم مع بعض، ولا يرون أن بعضهم يكمل أدوار بعض؟ لأنهم هكذا تعلموا أن يفكروا. إن هذا الشخص رفيع القدر الذي يفهم ما تقوم به، ويفهم أهدافك التي تنشدها، ويستطيع أن يقدم لك نصيحة ونقدًا بناءً غالبًا سيكون شخصًا من خارج الوسط

الأدبي، والجامعي أيضًا. ربما يكون طالبًا مبتدئًا لا يزال من محبي الأدب، أو قارئًا نهمًا ذا فكر عميق يتبع غريزته في الحكم على الأمور.

وأقول للطلاب الذين يضطرون إلى قضاء عام أو عامين في كتابة رسائل علمية عن كتاب واحد: «هناك طريقة واحدة للقراءة، وهي أن تتصفح الكتب المعروضة بمكتبات ومتاجر بيع الكتب وتنتقي تلك التي تجذبك، ولا تقرأ سواها. وإذا شعرت وأنت تقرؤها أنها باتت مملة فلا تستمر في القراءة، وإذا صادفتك أجزاء مضجرة فتخطاها، ولا تقرأ أبدًا أي شيء لأنك تشعر بأن عليك أن تفعل، أو لأن هذا هو الاتجاه السائد أو الحركة السائدة. وتذكر أن الكتاب الذي يبدو لك مملًّا وأنت في العشرين أو الثلاثين، سيفتح أمامك الأبواب وأنت في الأربعين أو الخمسين، والعكس صحيح، فلا تقرأ كتابًا إلا عندما يحين الوقت المناسب لقراءته. وتذكر أيضًا أن كل هذه الكتب التي نشرت يقابلها عدد مماثل من الكتب لم تنشر، أو لم تكتب من الأساس. ويشهد هذا العصر نزوعًا إلى تبجيل الكلمة المكتوبة، فالتاريخ وحتى الأخلاق الاجتماعية تدرس من خلال القصص، والناس تأقلموا على أن يفكروا فقط من خلال ما هو مكتوب، ومع ذلك يغفل كل مؤلفي كتبنا التعليمية تقريبًا عن تقديم ما هو واضح وصريح أمامهم، فالتاريخ الحقيقي لأفريقيا، على سبيل المثال، لا يزال حبيسًا داخل صدور الحكائين السود والحكماء والمؤرخين الأفارقة ورجال الطب، إنه تاريخ شفوي لا يزال بمأمن من الرجل الأبيض وأساليبه الشرسة. فإذا أبقيت عقلك مفتوحًا في أي مكان، ستجد الحقيقة في الكلمات التي «لم» تكتب على صفحات الورق، ولذا عليك ألا تحصر نفسك بين الصفحات المطبوعة. والأهم من ذلك أنك يجب أن تعرف أن قضاءك عامًا أو اثنين في الكتابة عن كتاب واحد أو مؤلف واحد ليس معناه أن ما تعلمته كان خاطئًا. كان يجب أن تتعلم أن تجعل مشاعر المشاركة والانسجام هي دليلك في اختيار الكتب، كان يجب أن تتدرب على أن تتبع حدسك وشعورك الداخلي لتعرف ما الذي تحتاج إليه. هذا هو ما يجب أن تنميه، وليس كيف تستشهد بأقوال الآخرين.»

ولكن مع الأسف يكون الأوان قد فات دائمًا.

لم يبد أن حركات التمرد التي قام بها الطلاب حديثًا يمكن أن تغير الأمور، أو كأن شعورهم بالضجر من هذه المواد الجافة التي يدرسونها يمكن أن يكون قويًّا بما يكفي ويؤدي إلى استبدالها بأشياء أكثر حيوية وفائدة. ولكن على ما يبدو فإن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حركات التمرد تلك انتهت، وإنه لأمر محزن. أثناء الفترة التي تحركت فيها المياه الراكدة في الولايات المتحدة الأمريكية، كنت أتلقى خطابات تحكي عن أن الطلاب يرفضون المقررات الدراسية ويحضرون معهم إلى الفصول الكتب التي اختاروها بأنفسهم ووجدوها تتناسب أكثر مع حياتهم. سيطرت السمة الانفعالية على الفصول الدراسية، وفي بعض الأحيان كان المناخ السائد في هذه الفصول يتحول إلى مناخ عنيف وغاضب ومثير، مناخ يعج بالحياة. بالطبع كان ذلك يحدث فقط مع المدرسين الذين تعاطفوا مع الطلاب وكانوا مستعدين للوقوف معهم ضد السلطة ومستعدين لتحمل عواقب ذلك، فهناك مدرسون يعرفون أن الطريقة التي يتحتم أن يُدَرِّسوا بها طريقة رديئة ومملة، ولحسن الحظ هناك عدد لا بأس به منهم يمكنهم، إن حالفهم الحظ، أن يطيحوا بالأساليب الخاطئة حتى لو فقد الطلاب أنفسُهم حماسَهم.

ولكن على الجانب الآخر هناك بلد حدث فيها أنه ....

منذ ثلاثين أو أربعين عامًا وضع أحد النقاد قائمة بأسماء الكتاب والشعراء الذين يرى، شخصيًّا، أنهم أصحاب الإسهامات الأدبية القيمة منكرًا كل الكتاب والشعراء الآخرين. وسرعان ما أثارت هذه القائمة الكثير من الجدل، فكتب هذا الناقد مقالات مطولة دفاعًا عن قائمته. وصدرت العديد من الكتابات منها ما يؤيد ومنها ما يهاجم، وظهرت المدارس والطوائف بعضها يساند موقف هذا الناقد والبعض الآخر يشجبه. ولا يزال الجدال دائرًا بعد كل هذه السنوات ... ولم يظهر قط أن هذا الموقف كان مؤلمًا وسخيفًا لأي شخص. في هذه البلد صدرت كتب نقدية على درجة عالية من التعقيد والمعرفة تتناول الأعمال الأصلية، سواء أروايات كانت أو مسرحيات أو قصصًا، ولكن من خلال آراء الآخرين وليس مباشرة. ويشكل مؤلفو هذه الكتب جماعة من جماعات النقد المرموقة في جامعات العالم، ويعدون ظاهرة دولية، ويمثلون الصفوة بالوسائط الأدبية الأكاديمية. إنهم يقضون حياتهم في تأليف الكتابات النقدية، وفي نقد الكتابات النقدية التي يضعها الآخرون. وهم يرون أن هذا العمل على درجة من الأهمية تفوق العمل الأدبي الأصلي، فربما يزيد الوقت الذي يقضيه طلاب للأدب في قراءة نقد صُنف في نقد وُضع لنقد ثالث عن الوقت الذي يمضونه في قراءة الشعر والروايات والسير الذاتية والقصص. وهناك العديد من الشخصيات المحترمة تعتبر هذا الوضع طبيعيًّا، وليس محزنًا أو سخيفًا ....

قرأت حديثًا مقالة عن مسرحية «أنطونيو وكليوباترا» كتبها فتى يوشك أن يؤدي امتحانات المستوى المتقدم المؤهلة للالتحاق بالجامعة. انعكست ملامح الأصالة في هذه المقالة ونقلت انفعال الفتى وتأثره الشديد بالمسرحية، كانت تعج بالروح التي يهدف أي نظام حقيقي لتدريس الأدب إلى إيجادها. كان تعليق المدرس على المقالة بعد قراءته لها كالآتي: لا يمكنني أن أعطيك درجات على هذه المقالة، فهي خالية من أي استشهادات بأقوال من المراجع. ولم ينظر الكثير من المعلمين إلى هذا الموقف على أنه مؤلم وسخيف ....

في هذا البلد ربما يذهب الأشخاص الذين يعدون أنفسهم مثقفين — ومن ثَم يعتبرون أنهم أفضل من العامة الذين لا يطلعون على الكتب المختلفة وأرقى منهم — إلى أحد الكتاب ليهنئوه على نقد إيجابي كتب عن أحد مؤلفاته، ولكنهم لن يفكروا في أن يقرءوا الكتاب الذي كُتب عنه هذا النقد، وربما لا يفكرون أيضًا في أن هذا الكتاب الذي يهتمون به لاقى نجاحًا ....

في هذه البلد عندما يصدر كتاب عن موضوع معين، لنقل مثلًا عن الفلك، تتصل عشرات الكليات والجمعيات والبرامج التليفزيونية على الفور بالكاتب وتطلب منه أن يأتي ويتحدث عن الفلك، وآخر شيء ربما يخطر على بالهم هو أن يقرءوا الكتاب، وبالطبع يُنظر إلى سلوكهم هذا على أنه أمر طبيعي وليس سخيفًا على الإطلاق ....

في هذه البلد ربما يكتب ناقد شاب أو محرر شاب لم يقرأ أكثر من عمل واحد من بين أكثر من خمسة عشر عملًا لمؤلف تصل خبرته في عالم الكتابة إلى عشرين أو ثلاثين عامًا، عن هذا المؤلف بلهجة استعلائية، أو كأنه أصابه بالضجر، أو كأنه يفكر في الدرجات التي سيعطيها لمقالة ما معطيًا إياه توجيهات عما يجب أن يكتبه في المرة القادمة وكيف يقوم بذلك. لن يعتبر أي شخص أن ما حدث هو تصرف أحمق وغير منطقي، وبالطبع لن يفكر في هذا الأمر ذلك الشاب حديث السن، ذلك الناقد أو المحرر الذي تعلم سنوات عديدة أن يكتب باستعلاء وأن يقسِّم كل الكتّاب إلى درجات بدءًا من شكسبير ثم من يليه في المكانة.

في هذه البلد ربما يكتب أحد علماء الآثار عن قبيلة من قبائل أمريكا الجنوبية عندها علم متقدم في النباتات والطب وطرق العلاج النفسي: «إن المثير للدهشة هو أن هؤلاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأشخاص ليس لديهم لغة مكتوبة ...» دون أن يعتبر أي شخص أن ما قاله نوع من الحمق.

في هذه البلد عندما يحين موعد الذكرى المئوية لبيرسي تشيلي، وفي الأسبوع نفسه، تشهد صفحات ثلاث دوريات أدبية مختلفة مقالات نقدية عن تشيلي بقلم ثلاثة شبان تلقوا تعليمًا مماثلًا وتخرجوا من جامعاتنا التي لا تختلف أية منها عن الأخرى. تُدين هذه المقالات تشيلي بأسلوب متماثل ولا تذكر من محاسنه سوى أقل القليل وكأن ذكرها له من الأساس معروف يسديه الكتاب الثلاثة إليه، ولا يخطر على بال أحد أن شيئًا مثل هذا يعد مؤشرًا على وجود خلل جسيم بنظام النقد الأدبي لدينا.

وفي النهاية أود أن أقول إن هذه الرواية لا تزال تجربة مفيدة للغاية لمؤلفتها، فبعد عشر سنوات من صدورها يمكن أن يصلني ثلاثة خطابات في أسبوع واحد بشأنها من ثلاثة أشخاص على درجة عالية من الاطلاع والذكاء يعنيهم الأمر، تحملوا عناء الجلوس والكتابة إليَّ؛ أحد هذه الخطابات ربما يكون من جوهانسبيرج والآخر من سان فرانسيسكو والثالث من بودابيست، وأنا أجلس هنا في لندن أقرؤها كلها في وقت واحد، أو أطلع على واحد بعد الآخر وأنا أشعر كعادتي بالامتنان لمرسليها والسعادة لأن ما كتبت ربما يكون باعثًا على شيء ما، أو يكشف النقاب عن أمر من الأمور، أو حتى يثير الحنق؛ ربما يكون موضوع أحد الخطابات هو الحرب بين الرجل والمرأة، المعاملة اللاإنسانية التي تتلقاها المرأة من الرجل، والتي يتلقاها أيضًا الرجل من المرأة، وتظل مرسلة الخطاب — ولكنها لا تكون دائمًا امرأة — تتكلم في صفحات مطولة عن هذا الموضوع فقط، فهي لا ترى أي شيء آخر في الرواية.

وقد يبعث أحد أنصار سياسة العلم الأحمر السابقين مثلي بخطاب آخر يتحدث عن شئون السياسة ويكتب مرسله، رجلًا كان أو امرأة، صفحات عديدة عن السياسة دون أن يذكر أي فكرة أخرى تضمنتها الرواية.

هذان هما أكثر الموضوعات التي وصلتني في السنوات الأولى التي تلت صدور الرواية.

أما الخطاب الثالث الذي كان من النادر أن أتلقى مثله في البداية ولكن موضوعه الآن أصبح موجودًا بنفس القدر الذي توجد به الموضوعات الأخرى، هذا الخطاب الذي قد يكون من كتبه رجلًا أو امرأة يرى أن الرواية لا تعبر عن أي فكرة سوى فكرة المرض العقلي.

وكل هذه الخطابات تعبر عن رواية واحدة!

وبطبيعة الحال تستجلب هذه الحوادث مرة أخرى التساؤلات عن ذلك الشيء الذي يراه الناس عندما يقرءون رواية، والسبب الذي يجعل أحد الأشخاص يرى فكرة واحدة ولا يرى الأخرى على الإطلاق، وكم هو غريب أن يكون لدى المؤلف صورة واضحة إلى هذا الحد عن رواية يراها قراؤه على نحو مختلف تمامًا.

ومن طريقة التفكير هذه ينشأ استنتاج جديد وهو أن رغبة الكاتب في أن يرى قراؤه ما يراه هو وأن يفهموا بنية الرواية وهدفها كما يفهمهما هو إنما هي رغبة طفولية للغاية؛ ومثل هذه الرغبة تعني أن هناك نقطة أساسية لم يفهمها الكاتب وهي أن الرواية لا تكون حيّة وقويّة ومثمرة «إلا» حينما تظل خطتها وبنيتها وهدفها غير مفهومة، لأن اللحظة التي يضع فيها القارئ يده على خطة الرواية وبنيتها وهدفها هي نفسها اللحظة التي ستنتهي عندها الأشياء التي يمكن أن يستنبطها القارئ منها.

وعندما يصبح النمط المتبع في الرواية وبنيتها الداخلية واضحين أمام القارئ مثلما هما واضحان لمؤلفها، يحين الوقت لكي ينحي المؤلف هذه الرواية جانبًا لأنها حققت كل ما يمكن أن تحققه ويبدأ في عمل جديد.

دوريس ليسينج

يونيو/حزيران ١٩٧١

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الأولى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الأولى

آنا تقابل صديقتها مولي في صيف عام ١٩٥٧ بعد انقطاع

كانت المرأتان وحيدتين بالمسكن في لندن.

قالت آنا وصديقتها تهبط السلم بعد أن تحدثت في الهاتف: «أساس المشكلة هنا طبقًا لما أراه أن كل شيء ينهار.»

كانت مولي سيدة كثيرة التحدث في الهاتف، تساءلت لتوها عندما رن جرس الهاتف: «حسنًا، على مَن سنتحدث؟» وقالت بعدئذٍ: «إنه ريتشارد يخبرني أنه قادم. يبدو أن اليوم هو اليوم الوحيد المتاح لديه خلال الشهر القادم، أو هكذا أكد لي.»

قالت آنا: «حسنًا، لكنني لن أغادر.»

– لا، ابقِي معي كما أنتِ.

اعتبرت مولي أن مظهرها — وهي ترتدي بنطلونًا وسترة ثقيلة — رث، إلا أنها توصلت إلى أنه «سيضطر إلى أن يتقبلني كما أنا» وجلست بجوار النافذة واستطردت: «لم يذكر لماذا سيأتي؛ أظن أنها مصيبة أخرى حدثت مع ماريون.»

سألتها آنا بنبرة حذرة: «ألم يكتب لك؟»

– كتب لي هو وماريون، كلاهما أرسل لي خطابات «رقيقة» للغاية. إنه أمر غريب، أليس كذلك؟

كان سؤالها الأخير: «إنه أمر غريب، أليس كذلك؟» يعد من العبارات المميزة لحواراتهما الودودة التي تصفانها بأنها أحاديث للنميمة، وبعد أن سألت مولي هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السؤال انحرفت عن مجرى الحديث وقالت: «لا جدوى من الحديث الآن لأنه يقول إنه سيأتي حالًا.»

قالت آنا بلهجة مرحة يشوبها شيء من العنف: «غالبًا سيرحل عندما يراني هنا.» رمقتها مولي بنظرة خاطفة في حرص وقالت: «أوه، ولكن لماذا؟»

كان من المسلم به دائمًا أن آنا وريتشارد يكره أحدهما الآخر، وآنا معتادة أن ترحل عندما يكون متوقعًا أن يأتي ريتشارد. قالت مولي: «في الواقع أظن أنه معجب بك من صميم قلبه. ولكن الفكرة هي أنه مضطر إلى أن يظل معجبًا بي. إنه ليس إلا شخصًا ساذجًا اعتاد دائمًا أن يحب أو يكره شخصًا ما، لذا فإن كل الكراهية التي لن يعترف أنه يكنها لي صبها عليكِ.»

قالت آنا: «هذا من دواعي سروري أن أقدم لك هذه الخدمة، لكن أتعرفين، لقد اكتشفت حينما ابتعدتِ عني أن كلًّا منا يمكن أن تحل محل الأخرى لدى كثير من الأشخاص.»

قالت مولي بنزعة انتصار كعادتها دائمًا عندما تقول آنا شيئًا بديهيًّا ما دام الموضوع متعلقًا بها: «الآن فقط فهمت ذلك؟»

تتسم هذه العلاقة منذ بدايتها بالتوازن؛ فمولي أكثر خبرة بالحياة والناس بكل ما في الكلمة من معنى من آنا التي امتلكت موهبة فائقة.

احتفظت آنا بآرائها الخاصة، والآن ابتسمت واعترفت أنها بطيئة للغاية في فهم هذا الأمر.

قالت مولي: «إنه أمر غريب، فنحن شديدتا الاختلاف في كل شيء. أظن أن السبب هو أننا نعيش الحياة نفسها، حياة العزوف عن الزواج. هذا هو كل ما يستطيعون أن يروه.»

قالت آنا في سخرية مريرة: «سيدتان حرتان» وأضافت بنبرة غضب جديدة على مولي دفعت صديقتها لتسديد نظرة أخرى سريعة محدقة فيها: «لا يزالون يصنفوننا وفقًا لعلاقاتنا بالرجال، حتى أفضلهم يفعل ذلك.»

ردت مولي في لهجة أقرب إلى المرارة: «حسنًا، «إننا» كذلك، أليس هذا صحيحًا؟» واستدركت قولها في عجالة عندما رمقتها آنا بنظرة اندهاش: «حسنًا، من الصعب للغاية ألا نكون كذلك.» بعد ذلك توقف الحديث برهة، وفي تلك الأثناء لم تنظر السيدتان إحداهما للأخرى، ولكن جال بخاطريهما أن عامًا من البعد يعد فترة طويلة

ربما تتغير فيها كثير من الأمور، حتى وإن كانت علاقة الصداقة التي جمعتهما علاقة قديمة.

قالت مولي في النهاية وهي تتنهد: «حرتان. أتعرفين أنني كنت أفكر في أمرنا عندما ابتعدت وتوصلت إلى أننا نمثل نوعًا جديدًا تمامًا من النساء. ولا بد أن نكون كذلك، أليس هذا أمرًا مؤكدًا؟»

قالت آنا محاولةً التحدث بلكنة ألمانية: «لا جديد تحت الشمس.» وقالت مولي — التي تتقن التحدث بست لغات مختلفة — في تذمر: «لا جديد تحت الشمس» محاكيةً ببراعة صوت عجوز مخضرمة ألمانية اللهجة.

تجهمت آنا معترفة بالفشل؛ فشلت في أن تتعلم لغات أخرى وكانت منتبهة لنفسها للغاية حتى لا تتحول إلى شخصية أخرى، فمولي بدت للحظة كالأم شوجر، أو السيدة ماركس، المحللة النفسية التي التجأت إليها الاثنتان. انعكست التحفظات التي شعرت مولي وآنا أنها تغلف مقابلاتها معهما — وكانت لهما أحد المراسم الكئيبة والمحزنة — في الاسم المستعار الذي أطلقتاه عليها: «الأم شوجر» وبمرور الوقت لم يعد اسمًا يطلق على شخص فحسب، بل توصيفًا لرؤية متكاملة للحياة؛ رؤية تقليدية ومتأصلة ومتحفظة، مع أن ذلك يتناقض مع ارتباطه الشائن بكل شيء لاأخلاقي. هذا «التناقض» هو ما كان يخامر كلتيهما وهما يتناقشان معًا بخصوص مقابلاتهما معها، ومنذ قليل شعرت آنا على نحو متزايد أن هذا «التناقض» تحول إلى سبب من «الأسباب المحركة للأمر»، وكان ذلك أحد الأشياء التي تتطلع لمناقشتها مع صديقتها.

لكن مولي أسرعت في الرد كما كانت ترد غالبًا في الماضي على أقل نقد توجهه آنا إلى الأم شوجر: «ولكنها مع هذا كله كانت رائعة، ولم يكن الوضع السيئ الذي أمر به يسمح لي بانتقادها.»

قالت آنا: «اعتادت الأم شوجر أن تقول «إنك مثل إليكترا» أو «مثل أنتيجون» وتقف عند هذا دائمًا.»

قالت مولي في استهزاء مشددة على الساعات المضنية التي قضيتاها بحثًا عن الحقيقة: «حسنًا، لم تكن تتوقف تمامًا.»

قالت آنا بلهجة ملحة غير متوقعة جعلت مولي تنظر إليها للمرة الثالثة في فضول: «نعم، نعم، أوه، إنني لا أقول إنها لم تقدم لي معروفًا كبيرًا، فأنا على يقين من أنني لم أكن لأتعايش مع ما اضطررت للتعايش معه دونها. لكن ذلك لا يختلف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كثيرًا ... إنني أتذكر في وضوح شديد جلوسي هناك بعد الظهيرة في الغرفة الكبيرة، والمصابيح الخافتة المثبتة بالجدران وبوذا والصور والتماثيل.»

قالت مولي بنبرة انتقاد لاذع: «وماذا أيضًا؟»

قالت آنا مقاومة عزمها الواضح غير المنطوق بعدم مناقشة هذا الأمر: «كنت أفكر بخصوص هذا الشأن خلال الأشهر القليلة الماضية ... والآن أود أن أتحدث عنه معك، فعلى أي حال مررنا به معًا، مع الشخص نفسه ...».

– وماذا أيضًا؟

استطردت آنا: «إنني أتذكر بعد ظهيرة هذا اليوم، وكنت على علم بأنني لن أعود مرة أخرى. كان منتشرًا في أرجاء المكان هذا الفن البغيض.»

شهقت مولي في حدة وأسرعت تقول: «إنني لا أعرف ماذا تقصدين.» لم ترد آنا، فسألتها مولي بلهجة يطل منها الاتهام: «هل كتبتِ أي شيء أثناء غيابي؟»

– لا.

قالت مولي بصوت عالٍ: «سأظل أقول لك دائمًا إنني لن أسامحك إذا نبذتِ هذه الموهبة، وأنا أعني ما أقول. شكلت هذه الموهبة، ولن أستطيع أن أقف هكذا أشاهدك وأنت تضيعينها ... كانت لي محاولات عابثة في الرسم والرقص والتمثيل والتأليف. ولكنك موهوبة جدًّا يا آنا. فلم تفعلين ذلك؟ إنني لا أفهم.»

– كيف باستطاعتي إخبارك السبب وأنتِ غاضبة دومًا وتظنين أنني مخطئة؟

ترقرقت عينا مولي بالدموع التي أطل منها التوبيخ الموجع الموجه لصديقتها. وبصعوبة شديدة استطاعت أن تقول هذه الكلمات: «فكرت دومًا في قرارة نفسي أنني سأتزوج لذا لن يهم تضييعي لكل مواهبي الفطرية، وحتى وقت قريب كنت أحلم بإنجاب المزيد من الأطفال، أعلم أن هذا الأمر ينم عن الحمق إلا أنه واقع. والآن أنا في الأربعين من عمري وكبر تومي. ما أود أن أقوله هو إنك لم تكتبي، لأنك ببساطة تفكرين في الزواج ...».

– لكن كلتينا تريد الزواج.

قالتها آنا محاولة أن تغلف صوتها، الذي ظل التحفظ يغلب عليه أثناء الحوار، بنبرة مازحة. وأدركت أنها لن تستطيع مناقشة موضوعات معينة مع مولي، وآلمها ذلك كثيرًا.

ابتسمت مولي ابتسامة جافة ونظرت إلى صديقتها في حدة مريرة وقالت: «حسنًا، لكنكِ ستندمين.»

قالت آنا ضاحكة من المفاجأة: «أندم. اسمعي يا مولي، لم لا تصدقين أبدًا أن الآخرين يعانون ما تعانينه؟»

– كنت محظوظة بما يكفي لأن لديك موهبة واحدة وليس أربع مواهب.

– ربما لم تَقِلّ الضغوط التي مورست عليّ بسبب موهبتي الوحيدة عن تلك التي تعرضت لها بسبب مواهبك الأربع.

– لن أستطيع التحدث معك وأنت بهذه الحالة المزاجية. هل أعد لك كوبًا من الشاي حتى يأتي ريتشارد؟

قالت آنا: «إنني أفضل تناول البيرة أو شيئًا من هذا القبيل»، وأضافت بلهجة استفزازية: «كنت أفكر أنني ربما أبدأ في الاعتياد على الشراب.»

قالت مولي بنبرة الوعظ والإرشاد التي استحضرتها آنا: «لا داعي للمزاح يا آنا، لقد رأيت بعينك ماذا يفعل ذلك في الناس؛ فلتنظري إلى ماريون. ترى هل كانت تشرب أثناء غيابي؟»

– باستطاعتي إخبارك. إنها ... أوه، إنها جاءت لزيارتي مرات عدة.

– جاءت لزيارتك؟!

– هذا هو ما كنت أمهد به لكِ عندما قلت إن كلًّا منا يمكن أن تحل محل الأخرى لدى كثير من الأشخاص.

أظهرت مولي نزعة أنانية، وقالت بلهجة بدا فيها الاستياء الذي كانت آنا تعرف أنه سينتابها: «أظن أنكِ ستقولين إن ريتشارد أتى لزيارتك أيضًا؟» أومأت آنا وقالت مولي بحيوية: «سأحضر لنا كأسين من البيرة.» عادت من المطبخ بكأسين طويلتين عليهما قطرات ماء، وقالت: «حسنًا، من الأفضل أن تخبريني بكل ما في الأمر قبل أن يأتي ريتشارد، أليس كذلك؟»

ريتشارد هو زوج مولي أو بالأحرى كان زوجها، ومولي ثمرة ما قالت عنه «إحدى زيجات العشرينيات». تألق والدها ووالدتها — وإن كان ذلك لوقت قصير — في أوساط المفكرين والفنانين غير التقليديين الذين ترددوا على القاعات الرئيسية للمؤلفين هاكسلي ولورنس وجويس ... إلخ. كانت طفولتها مفجعة إذ استمرت هذه الزيجة بضعة أشهر فقط. تزوجت مولي وهي في الثامنة عشرة من عمرها من ابن صديق والدها. عرفت الآن أنها تزوجت فقط لحاجتها إلى الشعور بالأمان وبأنها جديرة بالاحترام. وكان تومي هو ثمرة هذه الزيجة. كان ريتشارد وهو في العشرين من عمره في طريقه فعليًّا إلى أن يصبح رجل أعمال يقف على أرض صلبة ومنذ تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللحظة عمد إلى إثبات نفسه. لم يستطع هو ومولي أن يتحملا أوجه الخلاف بينهما أكثر من سنة. وتزوج بعد ذلك بماريون وأنجبا ثلاثة صبية. ظل تومي مقيمًا مع مولي، وعادت علاقة الصداقة التي كانت تجمع بين ريتشارد ومولي مرة أخرى فور انتهاء إجراءات الطلاق، وفيما بعد أصبحت ماريون صديقتها، وهذا هو الموقف الذي كانت مولي تشير إليه عادة بقولها: «إنه أمر غريب جدًّا، أليس كذلك؟»

قالت آنا: «حضر ريتشارد لزيارتي ليتحدث معي بخصوص تومي.»

– ماذا تقولين؟ لماذا؟

– أوه، يا للحمق! سألني هل من الجيد لتومي أن يقضي وقتًا طويلًا في التأمل، قلت إنني أظن أن التأمل جيد لكل الناس، إذا كان يعني بذلك التفكير، وإن تومي شخص بالغ في العشرين ولا يحق لنا التدخل في أموره بأي حال من الأحوال.

قالت مولي: «حسنًا، هذا ليس في مصلحته.»

– سألني عن رأيي هل من الجيد لتومي الذهاب في رحلة إلى ألمانيا، رحلة عمل معه. وأخبرته أن يطرح هذا السؤال على تومي وليس عليّ أنا، وبالطبع رفض تومي.

– بالطبع، ولكنني آسفة على عدم ذهاب تومي.

– لكنّ السبب الحقيقي الذي جاء به — على ما أظن — كان متعلقًا بماريون. ولكن ماريون جاءت لزيارتي وعرضت شكواها قبله، ولذا لم أناقش موضوع ماريون قط، وأظن أنه آتٍ ليتكلم معكِ بخصوص ماريون.

كانت مولي تراقب آنا عن كثب وهي تتحدث وقالت لها: «كم مرة حضر ريتشارد لزيارتك؟»

– قرابة خمس أو ست مرات.

بعد فترة من الصمت أطلقت مولي سراح غضبها بقولها: «يا له من أمر شديد الغرابة، يبدو أنه يتوقع مني أن أسيطر على ماريون. ولماذا أنا؟ أو أنت؟ حسنًا، ربما من الأفضل أن تذهبي على أي حال. سيكون أمرًا صعبًا فالكثير من التعقيدات حدثت وأنا بعيدة.»

قالت آنا بنبرة حاسمة: «لا يا مولي، إنني لم أطلب من ريتشارد أن يزورني، ولم أطلب من ماريون أن تأتي لزيارتي. وعلى أي حال ليس خطأك أو خطئي أن الناس يرون أننا نقوم بالدور نفسه. قلت ما كنت ستقولينه، على الأقل أظن ذلك.»

كان هناك مسحة من التوسل الهزلي — بل حتى الطفولي — تغلف كلمات آنا، وكان ذلك متعمدًا. ابتسمت مولي — الأخت الكبرى — وقالت: «حسنًا جدًّا» واستمرت

في ملاحظة آنا بدقة، كانت آنا حريصة على أن تتظاهر أنها لا تدرك ذلك. إنها لم ترد إخبار مولي بما حدث بينها وبين ريتشارد الآن؛ ليس قبل أن تتمكن من إخبارها بالقصة الكاملة التي وقعت أحداثها في العام السابق الذي كان مأساويًّا.

– هل تشرب ماريون بشراهة؟

– نعم، أظنها كذلك.

– وهل أخبرتك بذلك؟

– نعم، تفصيلًا، والغريب في الأمر — وأقسم بذلك — أنها تحدثت كما لو كانت تتحدث إليكِ، حتى زلات اللسان بأن تناديني مولي وهكذا.

قالت مولي: «حسنًا، لا أعرف، هل كان يمكن أن يفكر أحد في ذلك؟ فأنا وأنت على طرفي نقيض.»

قالت آنا بنبرة جافة: «ربما لا نكون مختلفتين هذا الاختلاف.» إلا أن مولي ضحكت مستنكرة.

كانت مولي امرأة طويلة إلى حد ما وعريضة، إلا أنها بدت نحيلة وأكثر اشتباهًا بالرجال. ورجع ذلك إلى الطريقة التي صففت بها شعرها الخشن ذا الخصل الصفراء الذي قص كما يقص شعر الرجال. هذا إلى جانب ملابسها التي كانت لديها موهبة فطرية كبيرة في التعامل معها. ويسعدها كل الهيئات التي تبدو عليها؛ فتاة مستهترة عند ارتداء البناطيل والسترات الخفيفة، ثم امرأة مغوية بتزيين عينيها الخضراوين الواسعتين وإبراز عظمتي الوجنتين وارتداء ما يبرز أفضل معالم ثدييها.

كانت هذه هي إحدى الألعاب الشخصية التي لعبتها مع الحياة، والتي كانت آنا تحسدها عليها، لكن في لحظات توبيخ الذات كانت تخبر آنا أنها تشعر بالخزي من نفسها لتلذذها بالأدوار المختلفة التي تؤديها: «يبدو الأمر كما لو أنني أكون مختلفة فعليًّا، ألا ترين؟ بل إنني أشعر أنني إنسانة مختلفة. وهناك نوع من الحقد يحرك هذا الأمر داخلي. أتذكرين ذلك الرجل الذي أخبرتك عنه الأسبوع الماضي، رآني لأول مرة وأنا مرتدية بنطلوني الواسع القديم وحلة صوفية قديمة بالمثل وواسعة جدًّا، وعندما ذهبت إلى المطعم كنت عن حق المرأة الجذابة المغوية، ولم يعرف كيف يحصل عليّ، ولم يستطع قول كلمة واحدة طوال الليل، وكنت متلذذة بهذا الأمر. ما رأيك يا آنا؟»

قالت آنا وهي تضحك: «ولكنك استمتعت بذلك.»

على النقيض من مولي كانت آنا امرأة صغيرة الحجم، نحيلة، سمراء، ذات شخصية هشة وعينين واسعتين سوداوين ويقظتين دائمًا وشعر منفوش. وكانت على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجه العموم تشعر بالرضا عن نفسها إلا أنها كانت دائمًا كما هي دون تغيير. وهي تحسد مولي على قدرتها على أن تخطط لتغيير حالتها المزاجية. ترتدي آنا ملابس مهندمة ورقيقة تميل إلى الرسمية الشديدة أو الغرابة النسبية، واعتمدت على يديها البيضاويين الرقيقتين ووجهها الأبيض الصغير المحدد الملامح لتترك انطباعًا معينًا لدى الناس، ولكنها خجولة وغير قادرة على التصرف بثقة ولديها قناعة بأنه من السهل ألا يلحظها الآخرون.

عندما تخرج السيدتان معًا تعمد آنا إلى تنحية نفسها وإبراز مولي كشخصية مثيرة. وعندما يكونان بمفردهما يكون لديها ميل إلى أن تكون في مركز القيادة، ولكنّ هذا لم يكن يحدث على الإطلاق في بداية صداقتهما؛ إذ إن مولي — الفظة، الصريحة، التي تعوزها اللباقة — هي من سيطرت على آنا بكل وضوح. ولكن رويدًا رويدًا تعلمت آنا — والفضل يرجع كثيرًا إلى جلسات «الأم شوجر» — أن تدافع عن نفسها. ولكن حتى هذه اللحظة تمر عليها لحظات تعزف فيها عن مواجهة مولي عندما يجدر بها أن تفعل. اعترفت لنفسها بأنها جبانة، فهي تستسلم دائمًا بدلًا من أن تدخل في مشاجرات مع مولي، فالشجار يمكن أن يصيب آنا باكتئاب لأيام، في حين تستمد مولي الطاقة من النزاعات؛ فهي يمكن أن تنفجر في البكاء الشديد وتتلفظ بكلمات لا تُغتفر وتنسى كل ما حدث بعد نصف يوم، أما آنا فتبقى قابعة في شقتها بلا حراك تحاول أن تتعافى من آثار ما حدث.

وحقيقة أنهما كانتا «لا تشعران بالأمان» وأنهما «بلا جذور» — وتعود هذه الكلمات إلى عهد «الأم شوجر» — هي حقيقة اعترفت بها كلتاهما بصراحة، إلا أن آنا كانت تتعلم منذ عهد قريب استخدام هذه الكلمات على نحو مختلف، ليس باعتبارها أشياء يجب أن تعتذر عنها بل كأعلام أو شعارات لموقف أصبح يمثل فلسفة مختلفة. كانت تستمتع عندما تتخيل أنها تقول لمولي: إننا اتخذنا الموقف الخطأ للموضوع بأكمله، وهذا خطأ «الأم شوجر»؛ ماذا يكون ذلك الأمان وهذا التوازن اللذان يفترض أن يكون فيهما خيرًا؟ وما عيب العيش على نحو عاطفي مشبعين فقط رغباتنا الأساسية في عالم يتغير بمثل هذه السرعة؟

جالت بخاطرها هذه الفكرة وهي جالسة تتحدث مع مولي مثلما فعلتا من قبل لمرات عديدة: لماذا تكون لديّ دائمًا هذه الحاجة الملحة لجعل الآخرين ينظرون إلى الأشياء بالطريقة التي أنظر بها إليها؟ إنه أمر طفولي، ولماذا ينبغي لهم فعل ذلك؟ إن هذا الأمر يعني أن يكون الشعور الذي يخامرني مقتصرًا عليّ أنا وحدي.

كانت الغرفة التي جلستا فيها في الدور الأول وتطل على شارع جانبي ضيق قد وُضعت آنية ورد فخارية على نوافذها الخشبية الملونة، وكانت أرصفة الشارع مزينة بثلاث قطط تنعم بدفء أشعة الشمس وكلب وعربة اللبن التي أتت متأخرة لأن اليوم هو الأحد. ارتدى بائع اللبن قميصًا أبيض اللون، وشمر عن ساعديه، وابنه البالغ ستة عشر عامًا ينقل الزجاجات البيضاء اللامعة من سلة مصنوعة من السلك إلى عتبات المنازل، وعندما وصل إلى أسفل نافذتهما صعد الرجل ببصره لأعلى ثم أومأ. قالت مولي: «استقبلته بالأمس لاحتساء القهوة، كان التشفي يفيض منه، إذ حصل ابنه على منحة تعليمية وأراد السيد جيتس أن يعرفني بذلك، فرددت عليه بما كان يريد أن يقوله قبل أن أسمعه منه: «يتمتع ابني بكل هذه المميزات وكل هذا التعليم ولكن انظر إليه، إنه لا يعرف ماذا يفعل. وها هو ابنك لا يملك مليمًا يُنفق عليه وقد حصل على منحة.» فقال لي: «هذا صحيح، تلك هي الحياة.» ولم أستطع أن أحتمل الأمر فقلت له: «إن ولدك يا سيد جيتس في طريقه إلى الانضمام إلى الطبقة المتوسطة الآن، جنبًا إلى جنب معنا، وأنت لن تتصرف بالأسلوب نفسه. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟» رد: «هكذا الدنيا دائمًا.» قلت له: «إن الدنيا ليست كذلك على الإطلاق، لكنّها دنيا هذا البلد الملعون الذي يسيطر عليه جنون الطبقات الاجتماعية.» إن السيد جيتس أحد أعضاء حزب المحافظين الآتين من الطبقة العاملة. قال الرجل: «هكذا الحياة، يا آنسة جاكوبس، تقولين إن ابنك لا يستطيع أن يتلمس طريقه؟ وهذا شيء محزن.» بعد ذلك مضى هو في جولته لبيع اللبن، وصعدت أنا إلى الدور العلوي حيث كان تومي جالسًا على سريره، جالسًا فقط. من المحتمل أنه جالس الآن هكذا إن كان في الغرفة، وولد جيتس، وهو شاب مثل تومي، يخرج ساعيًا في طلب ما يريد. ولكن كل ما يفعله تومي — منذ أن عدت من ثلاثة أيام — هو أن يجلس على سريره ويفكر.» – أوه، لا تقلقي هكذا يا مولي، سيكون على ما يُرام. كانت السيدتان منحنيتين تنظران من الشباك إلى السيد جيتس وولده. وكان الرجل قصير القامة، يتمتع بالنشاط، صارمًا وقليل الحجم، وكان ابنه طويل القامة، صارمًا ووسيمًا. راقبت السيدتان كيف ينقل الصبي — في عودته بالوعاء الفارغ — وعاءً ممتلئًا من مؤخرة عربة اللبن، متلقيًا تعليمات والده بابتسامة وإيماءة برأسه. كان «بينهما» تفاهم تام، ولذا تبادلت السيدتان، اللتان ربَّت كلتاهما طفلها من دون رجل، ابتسامة تطل منها مشاعر الحقد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت آنا: «أصل الحكاية هنا أن كلتينا لم تكن مستعدة للزواج لمنح طفلها أبًا، ولذا علينا الآن أن نتحمل العواقب، إن كانت هناك أي عواقب. ولماذا توجد عواقب؟»

قالت مولي بلهجة لاذعة: «إن الأمر على ما يُرام من وجهة نظرك، إنك لا تقلقين أبدًا على أي شيء، بل تجعلين الأمور تتخذ مجراها.»

استعدت آنا للمواجهة، كادت تصمت ولا ترد، ثم بصعوبة شديدة قالت: «إنني لا أوافقك الرأي، إننا نحاول تحقيق الاستفادة على أي حال، فدائمًا رفضنا العيش وفقًا للكتب والقواعد، ولكن لماذا بعد ذلك نبدأ في القلق لأن العالم لا يتعامل معنا وفقًا للقواعد؟ هذا هو كل ما في الأمر.»

قالت مولي في عدائية: «أرأيتِ؟ لكنني لست شخصية نظرية. إنك تفعلين ذلك على الدوام؛ تبدئين في اختلاق النظريات عندما تُواجهين بشيء. إنني قلقة بشأن تومي فقط.»

لم تستطع آنا أن ترد هذه المرة، إذ كانت نبرة صوت صديقتها غاية في القوة. عادت إلى تفقد الشارع، كان السيد جيتس وابنه ينعطفان عند ناصيته ويتواريان بعيدًا عن الأنظار وهما يسحبان عربة اللبن الحمراء خلفهما، في الجانب الآخر من الشارع أثار اهتمامهما شيء آخر؛ بائع متجول يدفع عربة بيده صائحًا: «فراولة طازجة من خير الريف ... فراولة طازجة، فراولة طازجة من خير الريف ...».

بعثت مولي لآنا بنظرة سريعة وأومأت الثانية مبتسمة ابتسامة عريضة كفتاة صغيرة. (كانت آنا تعي أن ابتسامة الفتاة الصغيرة مقصودة لتخفيف انتقاد مولي لها، وأزعجها ذلك.) هرعت مولي خارجة من الغرفة، والتقطت حقيبة يدها من فوق أحد الكراسي، بعد أن قالت: «سأحضر بعضًا لريتشارد أيضًا.»

استمرت آنا في الانحناء والنظر من النافذة في مساحة دافئة من أشعة الشمس وهي تراقب مولي التي اندمجت بالفعل في محادثة نابضة بالحياة مع بائع الفراولة. كانت مولي تضحك وتلوح بيدها وهي تتحدث وهز الرجل رأسه غير موافق وهو يصب الفاكهة الحمراء الثقيلة على كفة ميزانه.

سمعتها آنا تقول: «حسنًا، أنت لا تدفع أي تكاليف إضافية مثل المتاجر، فلماذا إذن ندفع ما يمكن أن ندفعه في المتاجر؟»

– إن المتاجر لا يُباع فيها فراولة طازجة مثل هذه يا سيدتي.

قالت مولي وهي تختفي ومعها طبق الفاكهة الحمراء الأبيض: «اذهب. محتالون، لستم إلا محتالين!»

رفع بائع الفراولة وجهه المكفهر نحو النافذة التي عادت مولي إليها، وهو شابّ نحيل ذو وجه شاحب، يبدو عليه الفقر، ولما رأى السيدتين معًا قال وهو يتحسس ميزانه المتلألئ: «التكاليف الإضافية، ماذا تعرفان عنها؟»

قالت مولي وقد ملأت هذه المواجهة وجهها بالحيوية: «إذن فلتصعد وتحتس القهوة وتخبرنا.»

وعندها أنزل وجهه عن النافذة وقال وهو ينظر إلى أرضية الشارع: «على بعض الناس أن يعملوا حتى لو لم يضطر الآخرون للعمل.»

قالت مولي: «هيا، لا تكن شخصًا كئيبًا هكذا. اصعد وتناول بعض الفراولة التي تبيعها، على حسابي.»

تحير الرجل في أمرها، فوقف وهو عابس الوجه متشكك، وشعره الأشقر الدهني الطويل أكثر من اللازم منسدل على وجهه، قال في النهاية وهو يرحل تاركًا مسرح الأحداث، إن جاز التعبير: «لست من هذا النوع إن كنتِ منه.»

نظرت مولي إلى آنا وهي تترك النافذة وتضحك ضحكة يطل منها رفضها أن تعترف بأنها مخطئة: «أتمنى لك يومًا سيئًا.»

ولكنّ آنا أطلت من النافذة وأكدت على وجهة نظرها فيما حدث بالنظر إلى كتفي الرجل العنيد المستاء وقالت بصوت خفيض: «جرحتِ مشاعره.»

هزت مولي كتفيها في غير اكتراث وقالت: «اللعنة، ها قد عدت إلى إنجلترا مرة أخرى حيث الجميع يحجم عن الحديث ويشعر بالاستياء، إنني أرغب في الهروب، في الصياح والصراخ، كلما وطئت قدمي هذه التربة الجليدية. أشعر أنني سجينة في اللحظة التي أتنفس فيها هواءنا المقدس.»

قالت آنا: «لا فرق، إنه يظن أنك كنت تسخرين منه.»

يخرج مشترٍ آخر من المنزل المقابل؛ إنها سيدة تنعم بالراحة المعتادة في يوم من أيام الآحاد، ترتدي بنطلونًا واسعًا وقميصًا فضفاضًا ووشاحًا أصفر اللون تغطي به رأسها. قدم لها بائع الفراولة الفاكهة وهو يراوغها، وقبل أن يرفع يدي العربة ليدفعها إلى الأمام رفع نظره لأعلى مرة أخرى تجاه النافذة ولم ير سوى آنا وذقنها المستدق الصغير مختفٍ في ساعدها، وعيناها السوداوان متحولتان إليه في اهتمام وهي تبتسم، قال بلهجة مازحة امتزج بها الاستياء: «تكاليف إضافية .... تقول تكاليف إضافية.» وبدا في صوته التذمر الطفيف، وقد سامحهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدأ يبتعد عن المنزل صائحًا خلف أكوام الفاكهة الحمراء الباهتة اللامعة في الشمس: «فراولة طازجة من قطف الصباح!» ثم خبا صوته في ضجيج المرور الصادر من الشارع الكبير الذي يبعد عن البيت مائتي ياردة.

استدارت آنا ووجدت مولي تضع طبقي الفاكهة الممتلئين بالكريمة على حافة النافذة، قالت مولي: «قررت ألا أضيع وقتًا أطول في إعداد شيء لريتشارد، إنه لا يستمتع مطلقًا بأي شيء. أتريدين المزيد من البيرة؟»

قالت آنا في نهم: «نعم، مع الفراولة والخمر.» ثم حركت الملعقة في طبق الفاكهة وشعرت بحبات الفراولة الناعمة أسفل الملعقة وبالكريمة الزلقة أسفل طبقة حبيبات السكر. وملأت مولي الكأسين سريعًا بالخمر ووضعتهما على الحافة البيضاء، وتبلورت أشعة الشمس بجانب كل كأس على الحافة البيضاء في صورة معينات مهتزة من اللون القرمزي والضوء الأصفر، جلست السيدتان في ضوء الشمس تتنهدان بسعادة وتمدان رجليهما في خيط الدفء الرفيع، وتنظران إلى ألوان الفاكهة في الطبقين اللامعين وإلى النبيذ الأحمر.

ولكن رن جرس الباب، فاتخذت السيدتان تلقائيًّا وضعين أقل استرخاء، وانحنت مولي مطلة من النافذة مرة أخرى وصاحت: «احذر من أن يصطدم المفتاح برأسك!» ورمت مفتاح الباب لأسفل ملفوفًا في وشاح قديم.

راقبتا ريتشارد وهو ينحني لأسفل من أجل التقاط المفتاح من الأرض دون أن يلقي نظرة سريعة لأعلى مع أنه يعرف بالتأكيد أن مولي على الأقل موجودة. قالت: «إنه يكره أن أفعل ذلك، أليس ذلك غريبًا؟ وبعد هذه السنوات كلها؟ وطريقته في التعبير عن ذلك هو التظاهر بعدم حدوثه.»

دخل ريتشارد الغرفة وبدا أصغر من كونه رجلًا في منتصف العمر، وقد اكتسب سمرة رائعة بعد إجازة قضاها في أوائل الصيف بإيطاليا. كان يرتدي قميصًا رياضيًّا ضيقًا أصفر اللون، وبنطلونًا جديدًا فاتح اللون، وكل يوم من أيام الآحاد في العام، سواء في الشتاء أو الصيف، يرتدي ريتشارد بورتمين ملابس تلائم وجوده في الهواء الطلق. إن ريتشارد عضو بارز في أكثر من نادي جولف وتنس، لكنه نادرًا ما يلعب إلا إذا كان للعب أسباب تخدم أعماله وتجارته. يملك فيلا في الريف منذ سنوات، إلا أنه أرسل عائلته إليها بمفردهم ولا يذهب إلى هناك إلا إذا كان من المستحسن استقبال أصدقاء العمل والترويح عنهم في عطلات نهاية الأسبوع، ولديه ميل طبيعي للعيش في الحضر، إذ يقضي عطلة الأسبوع في الانتقال من نادٍ لآخر ومن حانة

لأخرى ومن بار لآخر. وهو قصير القامة قليلًا، أسمر البشرة، يميل جسده المكتنز إلى السمنة، ووجهه المستدير — الذي يصبح جذابًا حين يبتسم — عنيد حتى إن التجهم ربما يرتسم على ملامحه عندما لا يكون مبتسمًا. وبدا على هيئته القوية بصفة عامة — حيث عنقه الممتد إلى الأمام وعيناه اللتان لا ترمشان — التصميم الذي يطل منه التعنت. أعطى لمولي المفتاح الملفوف على نحو غير محكم داخل وشاحها القرمزي في ضجر. أخذت المفتاح وبدأت تحركه فوق أظافرها البيضاء الصلبة وهي تقول: «هل أنت في طريقك للاستمتاع بيوم صحي في الريف يا ريتشارد؟»

استعد ريتشارد لهذه الملحوظة الساخرة، فأرسل ابتسامة صارمة، ثم حدق في أشعة الشمس المنعكسة على النافذة البيضاء، وعندما رأى آنا عبس على نحو لاإرادي وأومأ برأسه في حدة، وأسرع إلى أحد المقاعد في الجانب الآخر من الغرفة مبتعدًا عن كلتيهما وجلس عليها ثم قال: «لم أكن أعلم أن لديك ضيفة يا مولي.»

قالت مولي: «آنا ليست ضيفة.»

تعمدت مولي النظر إلى عيني ريتشارد اللتين تنظران إليهما وهما جالستان في استرخاء في أشعة الشمس، واتجهت رأسها نحوه في حركة متسائلة في كرم عما يريده وقدمت له الاختيارات: «أتريد نبيذًا يا ريتشارد؟ أم بيرة؟ أم قهوة؟ أم تريد فنجانًا من الشاي؟»

– أريد إسكوتش، إن كان موجودًا.

قالت مولي: «إنه بجانبك.»

لكنه لم يتحرك من مكانه، بعد أن فعل ما شعر أنه تصرف رجولي. قال: «جئت لأناقش موضوع تومي.» ونظر نظرةً خاطفة إلى آنا التي كانت تلعق آخر حبة فراولة في طبقها.

– لكنك ناقشت كل هذا بالفعل مع آنا، هكذا علمت، ولذا الآن يمكن لثلاثتنا مناقشة الأمر.

– إذن فإن آنا أخبرتك بأن ....

قالت مولي: «لم تخبرني شيئًا، تلك هي المرة الأولى التي سنحت لنا الفرصة لترى إحدانا الأخرى.»

– إذن فأنا أقتحم أول لقاء شخصي ودود لكما.

هكذا قال ريتشارد باذلًا مجهودًا حقيقيًّا لكي يتحدث بمثل هذه السماحة التي يشوبها المرح، ومع ذلك بدا مغرورًا. وبدا الانزعاج على السيدتين تجاه ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نهض ريتشارد على نحو مفاجئ.

وتساءلت مولي: «هل ستغادر مبكرًا هكذا؟»

– سأنادي على تومي.

وعندما قاطعته مولي بقولها: «لا تصرخ فيه يا ريتشارد، إنه لم يعد صبيًّا صغيرًا، إلى جانب أنني أظن أنه غير موجود بالداخل»، أخذ نفسًا عميقًا وصاح صيحة حاسمة توقعتها السيدتان: «بالطبع إنه بالداخل.»

– كيف عرفت؟

– لأنه ينظر من النافذة بالأعلى. إنني مندهش من أنك لا تعرفين حتى إن كان ابنك هنا أم لا.

– لماذا؟ إنني لا أراقبه.

– حسنًا، ولكن إلى أين أوصلك هذا السلوك؟

واجه أحدهما الآخر الآن على نحو جاد وأطل من وجهيهما العداء الصريح، وردًّا على سؤاله هذا قالت مولي: «إنني لن أدخل معك في جدال حول الطريقة التي كان من المفترض أن يتربى بها. دعنا ننتظر إلى أن يكبر أطفالك الثلاثة قبل أن نبدأ في عد الأهداف التي سجلها كل منا في مرمى الآخر.»

– لم آت لأناقش مشكلة أبنائي الثلاثة.

– ولم لا؟ ناقشنا مشكلاتهم لمئات المرات من قبل، وأظن أنك ناقشت الأمر نفسه مع آنا أيضًا.

توقف الحديث برهة ليتحكم الاثنان في غضبهما فقد فوجئا وتنبها إلى أنه غضب عارم بالفعل. وهذه حكاية هذين الشخصين: تقابلا عام ١٩٣٥ وكانت مولي منخرطة انخراطًا شديدًا في قضية أسبانيا الجمهورية، وكذلك ريتشارد. (ولكن، على حد قول مولي، في المناسبات التي يتحدث فيها عن هذا الأمر يعتبره زلة مؤسفة من جانبه في الوسط السياسي الأجنبي، ومن لم يكن كذلك في تلك الأيام.) قطعت عائلة بورتمين — وهي عائلة ثرية ظنت على نحو مفاجئ أن هذا دليل على اتجاهات شيوعية دائمة — مصاريف المعيشة التي كانت تزوده بها. (علقت مولي على هذا الأمر: سُر ريتشارد بطبيعة الحال عندما قرر أهله أن يحرموه من الميراث! فهذه هي أول مرة يأخذون أفعاله على محمل الجد وشجعه ذلك على أن يستخرج على الفور بطاقة حزبية.) ظل ريتشارد الذي لا يعتبر موهوبًا في أي شيء إلا في صنع المال، معتمدًا على مولي عامين، في حين كان يعد نفسه ليكون كاتبًا. (قالت مولي

بعد بضعة أعوام بالطبع: هل يمكنك أن تتخيلي شيئًا عاديًّا أكثر من ذلك؟ كان على ريتشارد بالطبع أن يكون عاديًّا في كل شيء. الجميع كانوا سيصبحون كتابًا عظماء، كل الأشخاص! هل تعلمين ما الأدوات الأساسية التي لا تخلو منها الخزانة الشيوعية، أتعرفين هذه الحقيقة الفظيعة؟ تكمن هذه الحقيقة في أن كل فرد من مناضلي الحزب القدامى، كل هؤلاء الأشخاص الذين لم يُتَخَيَّل أنهم لا يفكرون في أي شيء آخر لسنوات سوى الحزب، الجميع كان يحتفظ في أحد أدراجه بهذه المخطوطة القديمة أو بمجموعة من القصائد. كل الأشخاص كانوا سيصبحون الكاتب جوركي أو الشاعر ماياكوفسكي لعصرنا، أليس ذلك مخيفًا؟ أليس مثيرًا للشفقة؟ كل واحد منهم لو فعل لأصبح فنانًا فاشلًا. إنني على يقين أن ذلك ينم عن شيء، ولكن كيف لنا أن نعرف «ماهية» هذا الشيء.) ظلت مولي متكفلة بنفقات ريتشارد لشهر بعد أن تركته، بدافع من الازدراء. وتزامن نفوره من سياسات الجناح الأيسر الذي كان مفاجئًا مع قراره أن مولي شخصية غير أخلاقية ومستهترة وبوهيمية، ومن حسن حظها مع ذلك أنه أقام علاقة غرامية مع فتاة مثلها، عرفت في الأوساط العامة — رغم قصرها — فمنعه ذلك من أن يطلقها ويحصل على حضانة تومي، وهو الأمر الذي هدد بفعله. بعد ذلك عاد ريتشارد إلى كنف عائلة بورتمين وقَبِلَ ما أشارت إليه مولي ببعض الازدراء على أنه «وظيفة في المدينة». ليس لدى مولي، حتى هذه اللحظة، فكرة عن مدى القوة التي أصبح يمتلكها ريتشارد بعد أن قرر أن يرث هذا المنصب. بعد ذلك تزوج ريتشارد بماريون وهي فتاة شابة رومانسية وودودة وهادئة، تنحدر من عائلة شهيرة إلى حد ما وأنجبا ثلاثة أبناء.

في الوقت نفسه عملت مولي، التي كانت تمتلك مواهب عدة، بالرقص لبعض الوقت، إلا أنها لا تتمتع فعليًّا بالهيئة التي يجب أن تكون عليها راقصة الباليه، وغنت ورقصت في مسرحية استعراضية، ثم قررت أنه نشاط عابث جدًّا. إلى جانب ذلك، تلقت دروسًا في الرسم، لكنها توقفت عنها عندما بدأت الحرب وعملت صحفية، ثم أقلعت عن العمل في الصحافة لتعمل في إحدى المشاريع الثقافية الخارجية الخاصة بالحزب الشيوعي، وتركته للسبب نفسه الذي دفع كل الأشخاص الذين يشبهونها لتركه، وهو أنها لم تتحمل الملل المميت لهذا المشروع. وأصبحت ممثلة ثانوية ثم تقبلت، بعد تعاسة كبيرة، حقيقة أنها هاوية في الأساس. ونبع مصدر احترامها لذاتها من أنها لم تقلع عن أي نشاط — على حد قولها — وتنسحب إلى الشعور بالأمان في مكان ما؛ إلى الزواج الآمن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان مصدر قلقها السري هو تومي الذي حاربت لأجله سنوات في معركة طويلة مع ريتشارد، الذي عارض في قوة رحيلها وتركها الفتى في منزلها عامًا وحده ليعتني بأموره.

والآن قال في استياء: «رأيت تومي كثيرًا خلال العام الماضي عندما تركته وشأنه ...».

قاطعته بقولها: «إنني أعكف على أن أشرح لك، أو أحاول أن أفعل، أنني فكرت في الأمر تفكيرًا شاملًا وقررت أن من مصلحته تركه بمفرده. لماذا تتحدث دائمًا وكأنه طفل صغير، إنه تجاوز التسعة عشر عامًا وتركته في منزل جيد ومعه المال وكل شيء كان جيد التنظيم.»

– لم لا تعترفين أنك استمتعت كثيرًا بالنزهات في جميع أنحاء أوروبا دون أن يكون تومي معك يقيدك؟

– بالطبع حظيت بوقت ممتع، ولم لا؟

ضحك ريتشارد ضحكات عالية بأسلوب مزعج، وقالت مولي في ضجر: «أوه، دعك من هذا، بالطبع كنت سعيدة لأنني كنت حرة للمرة الأولى منذ أن رُزقت بطفل. ولم لا؟ وماذا عنك، إنك متزوج بماريون، هذه المرأة الطيبة التي تقضي كل دقيقة من وقتها مع أطفالها وتفعل أنت ما يحلو لك، كما أن هناك شيئًا آخر: إنني أعكف على محاولة التوضيح ولكنك لا تستمع أبدًا، إنني لا أريده أن يكبر ويصبح أحد هؤلاء الرجال البريطانيين الملعونين الذين تقودهم أمهاتهم، بل أريده أن ينطلق ويتحرر من قيودي. نعم، هذا ما أريده، ولا تضحك، فلم يكن من الجيد أن نكون أنا وهو في المنزل معًا قريبين جدًّا دائمًا وكل منا على علم بكل ما يفعله الآخر.»

تجهم ريتشارد وبدا عليه الشعور بالضيق وقال: «نعم، أعرف نظرياتك البسيطة في هذا الموضوع.»

عندها دخلت آنا في الحوار وقالت: «ليس الأمر متعلقًا بمولي فقط — بل بكل النساء اللاتي أعرفهنّ — أعني النساء الحقيقيات، فجميعهنّ يقلقن من أن يكبر أبناؤهنّ مثل ... إن لديهنّ سببًا منطقيًّا للقلق.»

صوب ريتشارد نظرات عدائية تجاه آنا، وراقبت مولي كليهما عن كثب.

– مثل ماذا، يا آنا؟

قالت آنا بأسلوب عذب متعمد: «كنت سأقول، تعيسات إلى حد ما في حياتهن الجنسية. أم رأيك أن هذا يعبر عما أقوله تعبيرًا شديد الصدق؟»

احمرّ وجه ريتشارد، فبدا بشعًا، واستدار إلى مولي وقال لها: «حسنًا، إنني لا أقول إنك تعمدت فعل شيء ما كان عليك فعله.»

– أشكرك.

– ولكن ما السوء الذي ينزل بالولد؟ إنه لم يجتز اختبارًا قط بما يتوافق مع المعايير المطلوبة، ولم يذهب إلى أكسفورد، والآن يقضي الوقت دون أن يفعل أي شيء مفيد، يتأمل و....

ضحكت آنا ومولي عند سماع كلمة يتأمل.

قال ريتشارد: «إن الصبي يقلقني، يثير كثيرًا من القلق بداخلي فعليًّا.»

قالت مولي في ترو: «إنه يقلقني أيضًا وهذا هو ما سنناقشه الآن، أليس كذلك؟»

– إنني أعكف على عرض أشياء عليه، وأدعوه لكل أنواع التجمعات التي يقابل فيها الناس الذين سيقدمون له النفع.

ضحكت مولي مرة أخرى.

– حسنًا، اضحكي واسخري، ولكن في هذا الوضع لا يمكننا أن نضحك.

– عندما قلت يقدمون له النفع، تخيلت النفع العاطفي. إنني أنسى دائمًا أنك شخص متكبر مغرور.

قال ريتشارد في وقار غير متوقع: «إن الكلمات لا تجرح أحدًا، اشتميني كما يحلو لك، عشتِ حياة وعشتُ حياة. كل ما أقوله هو أن موقعي يسمح لي بأن أقدم للصبي أي شيء يحبه. والآن إنه ببساطة غير مهتم. وإذا فعل أي شيء بنّاء مع أصدقائك فسيكون الأمر مختلفًا.»

– أنت تتحدث دائمًا كأنني أحاول جعل تومي ضدك.

– بالطبع تحاولين فعل ذلك.

– إذا كنت تعني أنني كنت أطرح عليه دائمًا أفكاري بخصوص طريقة حياتك وقيمك ولعبة نجاحك، إلخ، فبالطبع فعلت ذلك. ولماذا يكون متوقعًا مني أن أخفي كل شيء أؤمن به؟ لكنني كنت أقول له دائمًا، ها هو والدك، ولا بد أن تعرف هذا العالم، إنه موجود رغم كل الأماني.

– يا لك من كريمة ومعطاءة.

قالت آنا: «إن مولي دائمًا تحثه على أن يعرف أكثر عنك، وأنا أعلم ذلك، وأنا أيضًا أحثه على فعل ذلك.»

أومأ ريتشارد في ضجر موحيًا بأن ما قالتاه لم يكن مهمًّا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت مولي: «إنك غبي جدًّا يا ريتشارد في تربيتك للأطفال، إنهم لا يحبون التشتت. انظر إلى الناس الذين يعرفهم وهو بجانبي؛ فنانون وكتاب وممثلون ... وما شابه.»

– وساسة. ولا تنسي الرفقاء في الحزب.

– حسنًا، ولم لا؟ إنه سيكبر وهو يعرف أشياء عن العالم الذي يعيش فيه، الذي هو أكثر اتساعًا من العالم الذي تعرف عليه أطفالك الثلاثة، سيكون عالمهم منحصرًا في أكسفورد وإيتون. إن تومي يعرف كل أنواع الناس، ولن يرى العالم من المنظور الضيق للطبقة الراقية.

قالت آنا: «لن تتوصلا لأي شيء إذا واصلتما هكذا.» بدا على صوتها الغضب وحاولت أن تزيله بدعابة: «إن هذا الموقف يعني أنه لم يكن من الممكن إطلاقًا زواجكما، لكنكما تزوجتما أو على الأقل لم يكن من الضروري إنجاب طفل، ولكنكما أنجبتما ...» وبدا على صوتها الغضب مرة أخرى، ومرة أخرى خففت من حدة صوتها بقولها: «أتدركان أنكما قلتما الكلام نفسه مرارًا وتكرارًا على مدار سنوات؟ لماذا لا تتقبلان أنكما لن تتفقا على أي شيء وينتهي الأمر على ذلك؟»

قال ريتشارد في انزعاج وصوت عالٍ: «كيف ينتهي الأمر على ذلك وبيننا تومي؟! علينا أن نفكر بشأنه.»

قالت آنا: «هل لا بد من أن تصيحا؟! كيف تعرفان أنه لم يسمع كل كلمة قيلت؟ من المحتمل أن يكون هذا هو ما يؤرقه. لا بد أنه يشعر بسبب هذا الخلاف.»

ذهبت مولي فورًا ناحية الباب وفتحته وأنصتت، ثم قالت: «هراء، بوسعي سماعه يكتب على لوحة المفاتيح بأعلى.» ثم عادت وهي تقول: «أزعجتني يا آنا عندما غلب عليك الطابع الإنجليزي وعندما أطبقت شفتيك غضبًا.»

– إنني أكره الأصوات العالية.

– حسنًا إنني يهودية وأحب الأصوات العالية.

انزعج ريتشارد مرة ثانية وبدا عليه ذلك وقال: «نعم، وتسمين نفسك الآنسة جاكوبس، الآنسة، وهذا يخدم حقك في الاستقلالية وفي أن يكون لك هويتك الخاصة مهما عنى ذلك. ولكن تومي لديه الآنسة جاكوبس أمّ له.»

قالت مولي مبتهجة: «إنك لا تعترض على لقب الآنسة، ولكن على لقب جاكوبس، نعم إنه لقبي، فلطالما كنت معاديًا للسامية.»

قال ريتشارد وقد نفذ صبره: «تبًّا!»

– أخبرني كم عدد اليهود بين أصدقائك الشخصيين؟

– أنت لا تعترفين أن لي أصدقاء شخصيين، ولكن أصدقاء عمل؟

– فيما عدا صديقاتك بالطبع، فقد لاحظت عن كثب أن ثلاثًا من صديقاتك بعد انفصالنا كن من اليهود.

قالت آنا: «ياللعبث، إنني ذاهبة إلى المنزل.» ونهضت آنا بالفعل من فوق حافة النافذة. ضحكت مولي ونهضت ثم أجلستها وقالت: «لا بد أن تظلي معنا، باعتبارك رئيس جلسة، إننا في حاجة إلى رئيس.»

قالت آنا في إصرار: «حسنًا، سأظل، ولذا توقفا عن المشاجرة. لم كل هذا على أي حال؟ الحقيقة أننا اتفقنا جميعًا على أن نسدي له النصيحة نفسها، أليس كذلك؟»

قال ريتشارد: «أحقًّا؟»

– نعم، تظن مولي أن عليك تقديم وظيفة لتومي في عمل من أعمالك.

ومثل مولي تتحدث آنا بازدراء تلقائي تجاه عالم ريتشارد، وابتسم هو ابتسامة عريضة بسخط.

– أية وظيفة؟ وهل توافقين على ذلك يا مولي؟

– إذا أعطيتني الفرصة لقول ذلك، نعم أوافق.

قالت آنا: «ها نحن عدنا ثانية، لا مجال لأي مناقشة.»

صب ريتشارد لنفسه كأسًا من الويسكي وانتظر في صبر، وانتظرت مولي هي الأخرى في صبر.

قال ريتشارد: «إذن حُلّ كل شيء؟»

قالت آنا: «بالطبع لا، لأن تومي لا بد أن يوافق.»

– إذن عدنا إلى نقطة البداية، انظري يا مولي هل يمكنني أن أعرف لماذا تعارضين انخراط ابنك العزيز مع عبدة المال؟

– لأنني ربيته على نحو جعل منه إنسانًا فاضلًا، ولذا سيكون بخير حال.

قال ريتشارد مبتسمًا وبغضب متحكم فيه: «إذن لا يمكن أن أفسده؟ وهل يمكن أن أسألك من أين جاءك هذا الاطمئنان الفائق للعادة بخصوص قيمك، هذه القيم باتت تتساقط في السنتين الأخيرتين، أليس كذلك؟»

تبادلت السيدتان النظرات أحدهما مع الأخرى، مما يوحي بقولهما: كان من المرجح أن يقول ذلك، لننهي الأمر إذن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لم يخطر في بالك أن المشكلة الحقيقية التي يتعرض لها تومي أنه كان محاطًا نصف حياته بالشيوعيين أو ما يُطلق عليهم الشيوعيين — الذين عانوا التشتت بمختلف صوره، والآن يتركون جميعًا الحزب أو تركوه بالفعل — ألا تظنين أن يكون لذلك أي تأثير؟

قالت مولي: «حسنًا، من الواضح أن ما تقوله صحيح.»

قال ريتشارد مبتسمًا ابتسامة عريضة فيها سخط: «من الواضح؟ بهذه البساطة وما الثمن الذي دفعته مقابل قيمك الثمينة، أن تومي تربى على جمال الوطن السوفييتي المجيد وحريته؟!»

– إنني لا أناقش معك الأمور السياسية يا ريتشارد.

قالت آنا: «لا، بالطبع ليس عليك مناقشة السياسة.»

– ولم لا، إذا كانت ذات صلة بموضوعنا؟

قالت مولي: «لأنك لا تناقشها، إنك تستخدم ببساطة شعارات مستعارة من الجرائد.»

– حسنًا هل أستطيع أن أصف الموضوع بأسلوب آخر؟ منذ عامين كنت أنت وآنا تهرولان مسرعتين إلى الاجتماعات وتنظمان كل الأحداث المرتقبة ....

قالت آنا: «لم أكن كذلك على أي حال.»

– لا تراوغي. مما لا شك فيه أن مولي كانت تفعل ذلك. وماذا يحدث الآن؟ إن روسيا في موقف لا تُحسد عليه وما فائدة الرفقاء الآن؟ إن معظمهم أصيبوا بانهيار عصبي أو جمعوا أموالًا طائلة، وفقًا لما استطعت فهمه.

قالت آنا: «أساس المشكلة أن الاشتراكية في حالة سبات في هذا البلد ...».

– وكذلك في أي مكان آخر.

– حسنًا، إذا كنت تود أن تقول إن إحدى مشكلات تومي أنه تربى اشتراكيًّا وأن المرء لا يواجه القليل حتى يكون اشتراكيًّا، فنحن إذن موافقتان بالطبع.

– نحن رفيعتا المقام، أم نحن الاشتراكيتان، أم نحن آنا ومولي؟

قالت آنا: «بخصوص هذه المناقشة، الاشتراكيتان.»

– ومع ذلك في السنتين الأخيرتين تغيرتما تغيرًا شاملًا.

– لا، لم نتغير. إن هذا الأمر متعلق بطريقة نظرتنا للحياة.

– أتريدينني أن أصدق أن الطريقة التي تنظران بها إلى الحياة التي هي، وفقًا لما أراه، نوع من الفوضى تعد اشتراكية؟

نظرت آنا نظرة خاطفة إلى مولي، وهزت مولي رأسها بأسلوب غير ملحوظ كعادتها دائمًا، ولكنّ ريتشارد رآها وقال: «لا يجب المناقشة أمام الأطفال، هل تقصدين ذلك؟ إن ما يذهلني هو غطرستك الخيالية. من أين اكتسبتها يا مولي؟ من تكونين؟ في هذه الآونة حصلت على دور في رائعة فنية اسمها «أجنحة كيوبيد».»

– نحن الممثلات الثانويات لا نختار المسرحيات التي نمثلها، إلى جانب أنني قضيت عامًا كاملًا أتجول بلا عمل، ولم أجن أي مال وأفلست.

– إذن فإن ثقتك تنبع من تجوالك بلا عمل؟ فمن المؤكد أنها لا تنبع من العمل الذي تؤديه.

قالت آنا: «توقفا، إنني رئيس الجلسة، وهكذا أُغلقت المناقشة. إننا نتحدث عن تومي.»

تجاهلت مولي آنا وهاجمته بقولها: «ربما يكون ما تقوله صحيحًا وربما يكون خاطئًا، ولكن ما مصدر عجرفتك هذه؟ إنني لا أريد لتومي أن يصبح رجل أعمال، فلا يمكن أن تكون هذه شخصية تمثل الحياة. أي فرد يمكن أن يصبح رجل أعمال، ولطالما قلت لي ذلك. أوه ريتشارد إنك لست مقتنعًا بما تقوله، كم مرة حضرت لزيارتي وجلست هنا تتحدث عن مدى فراغ حياتك وغبائها؟»

أصدرت آنا حركة تحذيرية سريعة وقالت مولي وهي تهز كتفيها في غير اكتراث: «حسنًا، إنني لست لبقة في الكلام، ولماذا يجب أن أكون هكذا؟ يقول ريتشارد إن حياتي لا تساوي الكثير، وإنني أتفق معه، ولكن ماذا عن حياته؟ إن زوجتك المسكينة ماريون تعاملها كأنها ربة منزل أو مضيفة ولكنك لا تعاملها أبدًا كإنسانة. وأولادك الذين وُضعوا في دوامة الطبقة الراقية ببساطة لأنك تريد ذلك ولم يُمنحوا أي اختيار. هذا بالإضافة إلى علاقاتك الغرامية التافهة والحمقاء، لماذا من المفترض أن أنبهر؟»

قال ريتشارد وهو ينظر لآنا نظرة عدائية صريحة: «أرى أن كلتيكما تناقشتما بخصوصي.»

قالت آنا: «لا لم نناقش أمورك، أو لم نقل أكثر مما نقوله منذ سنوات. إننا نتحدث عن تومي، جاء لزيارتي وأخبرته أن عليه الذهاب إليك وزيارتك يا ريتشارد وعليه أن يرى هل باستطاعته أن يصرف نظرًا عن أداء إحدى وظائفك الاختصاصية — فيجب ألّا ينخرط في عالم الأعمال، فمن الغباء أن تؤدي وظائف تتعلق بهذا العالم فقط — ويفعل شيئًا بناء، مثل العمل في الأمم المتحدة أو منظمة اليونسكو. إن بإمكانك أن تساعده على الوصول إلى هذه الهيئات، أليس كذلك؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم، بإمكاني أن أفعل.

سألت مولي: «ماذا قال يا آنا؟»

– قال إنه يريد أن يكون بمفرده ليفكر. ولماذا لا؟ إنه في العشرين من عمره. ولماذا لا يفكر ويجرب في حياته؟ إن هذا ما يريده، لماذا علينا أن نرهبه؟

قال ريتشارد: «المشكلة هي أن أحدًا لم يُرْهِبْ من قبل.»

قالت مولي: «أشكرك.»

– إنه لم يُوَجَّه قط. وتركته مولي ببساطة وشأنه كأنه شخص بالغ، وحدث ذلك دائمًا. ما المنطق الذي يفهمه الطفل نتيجة ذلك؛ الحرية، أن يتوصل إلى القرارات بمفرده، أن أهله لن يضغطوا عليه، وفي الوقت نفسه يكون محاطًا بالرفقاء والنظام وفكرة التضحية بالنفس والخضوع للسلطة ....

قالت مولي: «لماذا عليك أن تفعل ذلك، إن عليك أن تجد مكانًا في أحد مشروعاتك لا يتمركز فقط حول رفع الأسهم أو الترقية أو جمع المال. ابحث عن وظيفة مثل هذه إن لم تستطع إيجاد شيء بناء، ثم اعرضها على تومي ودعه يقرر.»

أمسك ريتشارد بكأس الويسكي بين يديه ووجهه محمرّ من الغضب وبدا قميصه الضيق فاقع الاصفرار، ولفّ الكأس مرارًا وتكرارًا ونظر داخلها، وقال أخيرًا: «أشكرك، سوف أفعل ما تقولين.» تحدث بثقة شديدة في جودة ما سيعرضه على ابنه، حتى إن آنا ومولي رفعتا حاجبيهما مرة أخرى وإحداهما تنظر إلى الأخرى مما يوحي بأن المحادثة بأكملها ضاعت هباءً، كما هو معتاد. قطع ريتشارد هذه النظرة وقال: «إن كلتيكما في منتهى السذاجة.»

قالت مولي، وتعالت ضحكاتها مرحًا: «بخصوص شئون الأعمال؟»

ردت آنا: «بخصوص شئون الأعمال الضخمة!» قالتها بهدوء بعد أن فوجئت خلال محادثاتها مع ريتشارد باكتشاف مدى قوته. إن هذا لم يتسبب في تعظيم صورته في مخيلتها، بل بدا ينكمش أمام خلفية الأموال الدولية، وأحبت مولي أكثر لافتقارها الكامل لاحترام هذا الرجل الذي كان زوجها، وهو في الواقع أحد مراكز القوة المادية في البلد.

تأوهت مولي في ضجر.

قالت آنا وهي تضحك محاولة جعل مولي تصدر أي رد فعل: «الأعمال الضخمة للغاية» ولكن صديقتها الممثلة تجاهلت الأمر باعتباره غير مهم وهزت كتفيها في لامبالاة، وبسطت يديها البيضاوين وكفيها للخارج ووضعتهما على ركبتيها.

قالت آنا لريتشارد: «سوف أؤثر فيها، أو على الأقل سأحاول فعل ذلك.»

سألت مولي: «عما تتحدثان؟»

قال ريتشارد ساخرًا ومستاءً وغاضبًا: «هراء، أتعرفين أنه على مدار كل هذه السنوات لم تكن مهتمة إطلاقًا حتى بأن تسأل عن الأمر؟»

– كنت تدفع مصاريف المدرسة لتومي وهذا هو كل ما أردته منك.

قالت آنا: «إنك تعرضين ريتشارد على كل فرد منذ سنوات على أنه ... رجل أعمال صغير مغامر، مثل بقال مغرور ببضاعته.» وأضافت ضاحكة: «وتبين أنه من كبار رجال الأعمال حقًا، فرد ذو شأن، واحد من الناس الذين تحتم المبادئ أن نكرههم.»

– أحقًّا؟ وأضافت مولي وهي تنظر إلى زوجها السابق باندهاش إن هذا الرجل العادي الذي — من وجهة نظرها — لا يتمتع بالذكاء الشديد على الإطلاق أصبح ذا أهمية.

فهمت آنا النظرة — كانت تشير إلى ما شعرت به — وضحكت.

قال ريتشارد: «يا إلهي، إن التحدث مع كلتيكما مثله مثل التحدث مع اثنتين من البرابرة.»

قالت مولي: «لماذا؟ أيجب أن نبدي الانبهار؟ إنك حتى لست عصاميًّا، لقد ورثت ما تملكه الآن.»

– وهل هذا يهم؟ إن المهم أنني أصبحت ثريًّا. ربما يكون نظامًا عقيمًا، وإنني لن أناقشه ولن أستطيع مناقشته معكما، إنكما جاهلتان بعلم الاقتصاد جهل القرود، إلا أن ذلك هو ما يحكم هذه الدولة.

قالت مولي: «بالطبع معك حق.» وكانت يداها لا تزال على ركبتيها وكفيها لأعلى، لكنها ضمتهما معًا على رجلها في محاكاة لاإرادية لحركة طفل في انتظار تلقي الدرس.

– لِم تحتقرا هذا الأمر؟ توقف ريتشارد الذي كان ينوى الاستمرار في الحديث ونظر إلى اليدين الرقيقتين الساخرتين وقال مستسلمًا: «يا إلهي!»

– إننا لا نحتقر شيئًا، إن المرء يفقد هويته إذا احتقر شيئًا. إننا نحتقر ....

لم تكمل مولي كلمة «نحتقرك» وحررت يديها من ذلك الوضع، وكأنها شعرت بالذنب لأنها تصرفت على نحو لا يليق سلوكيًّا. أخفت يديها سريعًا وراء ظهرها، وخطر لآنا أنها إذا قالت لمولي إنها أوقفت ريتشارد عن التحدث عن طريق السخرية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منه بحركة من يديها، لن تفهم ما تقصده، ما أروع أن يكون المرء قادرًا على أن يفعل ذلك، يا لها من محظوظة ....

– نعم، أعلم أنكما تحتقرانني، ولكن لماذا؟ أنت لست إلا ممثلة لم يكتمل نجاحها، وآنا مؤلفة لكتاب واحد؟

تحركت يدا مولي تلقائيًّا من جانبيها، ولمست أصابعها ركبتها في تراخٍ وكأنها تقول: «يا لك من ممل يا ريتشارد». وعندها نظر ريتشارد إليهما وعبس وجهه.

قالت مولي: «ليس لهذا أي علاقة بالموضوع.»

– حقًّا؟

قالت مولي على نحو جاد: «إن السبب هو أننا لم نستسلم.»

– تستسلمان لماذا؟

– إذا لم تكن تعرف فلا نستطيع إخبارك.

كان ريتشارد على وشك أن يهب واقفًا من كرسيه، واستطاعت آنا رؤية عضلات فخذه وهي متوترة وترتعد. ومن أجل أن تمنع حدوث مشاجرة قالت سريعًا وهي تحاول توجيه غضبه تجاهها: «هذا هو أساس المشكلة، أنك تتحدث كثيرًا، لكنك بعيد جدًّا عما هو حقيقي، ولا تفهم أي شيء أبدًا.»

نجحت في فعل ما تريد. إذ استدار ريتشارد بجسده تجاهها وانحنى إلى الأمام فأصبحت في مواجهة ذراعيه السمراوين الناعمين الدافئين المغطيين على نحو طفيف بشعر ذهبي، ورقبته السمراء العارية، ووجهه المتوهج المحمر المائل للسمرة. تراجعت للخلف قليلًا وعلا النفور وجهها لاإراديًّا. قال ريتشارد: «حسنًا يا آنا، بدأت أعرفك أكثر من قبل، ولا يسعني إلا أن أقول إنك أبهرتني بمعرفة ما تريدين، وما تفكرين فيه، أو كيف تتعاملين مع الأمور.»

نظرت آنا التي كانت واعية أن وجهها بدأ يتغير لونه إلى عينيه بصعوبة، وتحدثت في بطء متعمد قائلة: «أو ربما ما لا تحبه هو أنني أعرف ما أريد، وأكون مستعدة لخوض التجربة دائمًا، ولا أكذب على نفسي وأتظاهر بأن الأشياء من الدرجة الثانية تعني لي أي شيء أكثر من قيمتها الحقيقية، وأعرف متى يجب أن أقول لا، أليس كذلك؟»

زفرت مولي أنفاسها وهي تنقل بصرها سريعًا بين آنا وريتشارد، وعبرت عن اندهاشها بحركة يديها اللتين انسدلتا على ركبتيها في قوة، ودون أن تعي أومأت برأسها لأن الشك الذي يساورها تأكد ولأنها كانت تستحسن وقاحة آنا. وقالت،

وهي تتحدث في بطء وعجرفة جعلتا ريتشارد يستدير عن وجه آنا ويتوجه إليها: «ما الأمر؟ إن كنت تهاجمنا بسبب الأسلوب الذي نعيش به مرة أخرى، فإن كل ما يجب أن أقوله هو أنه لا يجدر بك أن تتكلم في هذه المسألة كثيرًا ولتنظر إلى حياتك الخاصة كيف تسير.»

قال ريتشارد مظهرًا استعداده لمسايرة ما توقعتاه منه حتى إن كلتيهما، في اللحظة ذاتها، دوت ضحكاتهما عالية: «أنا أحافظ على الشكليات.»

قالت مولي: «نعم، يا عزيزي، نعرف أنك كذلك. حسنًا، كيف حال ماريون؟ كم أحب أن أعرف.»

وللمرة الثالثة يقول ريتشارد: «أرى أنكما ناقشتما الأمر.» قالت آنا: «أخبرت مولي أنك جئت لزيارتي، وأخبرتها بما لم أخبرك به، وهو أن ماريون جاءت لزيارتي.»

قالت مولي: «حسنًا، لنتكلم في هذا الأمر.»

قالت آنا كما لو أن ريتشارد ليس موجودًا معهما بالغرفة: «إن ريتشارد قلق لأن ماريون أصبحت تمثل مشكلة له.»

قالت مولي بنبرة الصوت نفسها: «هذا ليس أمرًا جديدًا.»

ظل ريتشارد جالسًا ينظر إلى السيدتين الواحدة بعد الأخرى. وانتظرت المرأتان أن يُنَحَّى الموضوع جانبًا، أو أن ينهض ريتشارد ويذهب، أو يبرر موقفه، إلا أنه لم يقل شيئًا، وبدا مستمتعًا برؤية السيدتين اللتين تنظران له في عدائية بين الحين والحين، وبفترة الضحك التي تنم عن الاستنكار، حتى إنه أومأ برأسه كأنه يقول: حسنًا، استمرا.

قالت مولي: «كما نعرف جميعًا، تزوج ريتشارد من امرأة أقل منه، ليس من الناحية الاجتماعية بالطبع، فهو لم يكن ليفعل ذلك، ولكنه قال إنها امرأة عادية لطيفة، حباها الله بكل هؤلاء اللوردات والسيدات صاحبات المقام الرفيع المنتشرين في فروع شجرة العائلة القريبة، وهو الأمر الذي أثبت فائدة كبيرة بلا شك للافتات التي تحتوي على أسماء الشركات.»

ضحكت آنا في استخفاف على هذه الكلمات؛ إذ كان اللوردات والسيدات صاحبات المقام الرفيع غير ذوي صلة بالأموال التي يتحكم فيها ريتشارد. لكنّ مولي تجاهلت المقاطعة واستمرت: «بالطبع وعمليًّا كل الرجال المعروفين متزوجون من نساء عاديات لطيفات مملات، وهو أمر محزن، ومن المثير للدهشة أن ماريون شخص جيد وليست غبية على الإطلاق، لكنها تزوجت لمدة خمس عشرة سنة رجلًا جعلها تشعر بالغباء ...».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنهدت آنا وقالت: «ماذا كان سيفعل هؤلاء الرجال بدون زوجاتهم الغبيات؟!»

– أوه، لا أستطيع التفكير في الأمر، عندما أريد فعليًّا إحباط نفسي، أفكر في كل الرجال الأذكياء الذين أعرفهم المتزوجين من زوجات غبيات، هذه هي الحقيقة التي تثير معرفتها الشعور بالأسى. ولذا تعتبر ماريون امرأة عادية غبية، وبالطبع كان ريتشارد مخلصًا لها كما يفعل معظم الرجال إلى أن تدخل مستشفى الولادة للمرة الأولى.

صاح ريتشارد على نحو لاإرادي كأن هذه المحادثة جادة: «لماذا تعودين إلى الماضي البعيد هكذا؟» مرة أخرى انطلقت ضحكات السيدتين.

لكن مولي أوقفتها وقالت على نحو جاد فيه ضجر: «اللعنة يا ريتشارد لماذا تتحدث كشخص أحمق؟ إنك لا تفعل شيئًا سوى الشعور بالندم على نفسك لأن ماريون نقطة ضعفك وتسأل لِم أعود إلى الماضي البعيد هكذا؟» قالت له غاضبة، على نحو جاد للغاية، وهي تلقي الاتهامات: «متى ذهبت ماريون إلى مستشفى الولادة؟»

قال ريتشارد مستاءً من سوء المعاملة: «منذ ثلاثة عشر عامًا.»

– أتيت مباشرة إليّ، وأنت توقن أنني سوف أضاجعك دون تفكير، حتى إنك شعرت بأن كرامتك كرجل جرحت عندما رفضت، أتتذكر؟ والآن نحن النساء الأحرار نعرف أن اللحظة التي يذهب فيها زوجات أصدقائنا الرجال إلى مستشفيات الولادة، يأتي أزواجهن إلينا، إنهم دائمًا يريدون مضاجعة إحدى صديقات زوجاتهم. لا يعرف أحد ما الدافع وراء ذلك إلا الله؛ إنها ظاهرة نفسية حقيقية ومبهرة منتشرة بين الكثيرين، ولكنها واقع. لم يكن لديّ أي صديقة، ولذا لا أعرف إلى من ذهبت ....

– كيف تعرفين أنني ذهبت إلى امرأة؟

– لأن ماريون تعرف، ويا للأسف إذ تنتشر مثل هذه الأخبار، ومنذ ذلك الحين وأنت تعرف فتيات كثيرات، وعرفتهن ماريون جميعًا، لأن عليك أن تعترف بخطاياك لها، وإلا لما كان الأمر سيصبح ممتعًا، وهل كان سيصبح كذلك إن لم تعترف لها؟

تحرك ريتشارد كأنه سينهض ويذهب، ومرة أخرى رأت آنا توتر عضلات فخذيه واسترخائها، لكنه عدل عن رأيه وظل جالسًا، وابتسامة صغيرة فضولية على شفتيه، بدا رجلًا عازمًا على الابتسام تحت التهديد.

– في ذلك الوقت كانت ماريون تربي ثلاثة أطفال، وهي في شدة التعاسة. ومن حين لآخر تصرف أنظارك عنها حتى إن الأمر لم يكن سيبدو سيئًا للغاية لك لو أنها بحثت لنفسها عن حبيب، أو فعلت ما هو أكثر من ذلك قليلًا. وصل الأمر

بك إلى أن تقول عنها إنها سيدة من الطبقة الوسطى، امرأة رجعية إلى حد يبعث على الملل ... سكتت مولي وابتسمت ابتسامة عريضة لريتشارد واستطردت بنبرة صوت ودودة تنم عن الازدراء قليلًا: «إنك منافق وضيع مغرور.» ومرة أخرى حرك ريتشارد أطرافه على نحو ينم عن عدم الشعور بالراحة وقال كأنه مُنَوَّم تنويمًا مغناطيسيًّا: «أكملي.» ثم قال سريعًا عندما رأى أن هذه الكلمة طلب منه لأن تفعل ذلك: «إن لدي فضولًا لأن أعرف كيف ستقصين الأمر.»

قالت مولي: «لكن من المؤكد أنك لست مندهشًا؟ لا أستطيع أن أتذكر أنني أخفيت قط ما فكرت فيه بخصوص كيفية معاملتك لماريون، أنت أهملتها فيما عدا العام الأول، وعندما كان الأطفال صغارًا لم ترك قط، فيما عدا عندما تضطر إلى الترحيب بأصدقائك في العمل وتنظيم حفلات العشاء الرفيعة وكل هذا الهراء. لكنها لم تكن تجني شيئًا من هذا، ثم أعجب بها أحد الرجال وكانت ساذجة بما يكفي للتفكير في أنك لن تمانع؛ فقد قلت كثيرًا عندما كانت تشكو من علاقاتك بالأخريات: لماذا لا تتخذين لنفسك حبيبًا؟ ومن ثم أقامت علاقة معه، ففتحت عليها أبواب جهنم. لم تستطع أن تتحمل الوضع، وبدأت تهددها. ثم أراد الرجل أن يتزوجها وبالإضافة إلى ذلك يأخذ الأطفال الثلاثة، نعم، كان مهتمًّا بها إلى هذا الحد. ولكنك فجأة أصبحت رجلًا ذا خلق وكأنك أحد الرسل المذكورين في العهد القديم.»

– كان صغيرًا جدًّا عليها، ولم تكن الزيجة ستستمر.

قالت مولي وهي تضحك بازدراء: «أتعني أنها ربما كانت ستصبح تعيسة معه؟ وأنك كنت قلقًا عليها من أن تشعر بالتعاسة؟ لا، لقد جُرحت في غرورك، وعملت بجد من أجل أن تجعلها تقع في غرامك مرة أخرى، ووقعت بينكما مشاهد الغيرة والحب والقبلات إلى اللحظة التي قطعت فيها علاقتها معه نهائيًّا. وفي اللحظة التي عادت لك فيها دون منازع فقدت اهتمامك بها وعدت إلى موظفات السكرتارية على الأريكة الخيالية في مكتبك الكبير الرائع. وتظن أنه من غير العدل ألا تكون ماريون تعيسة وتثير الشجار وتشرب أكثر مما ينبغي لها، أو ربما يجب أن أقول أكثر مما ينبغي لزوجة رجل في مركزك. حسنًا يا آنا، هل هناك جديد منذ أن غادرت في العام الماضي؟»

قال ريتشارد بغضب: «لا حاجة لتمثيل هذه المسرحية الرديئة.» غضب ريتشارد الآن إذ انضمت آنا إلى المحادثة ولم يعد الأمر معركة مع زوجته السابقة.

– جاء ريتشارد ليسألني هل من حقه أن يرسل ماريون إلى أحد الدور أو أي مكان، لأنها تؤثر تأثيرًا سيئًا في الأطفال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شهقت مولي وقالت: «لم يحدث ذلك يا ريتشارد، أليس كذلك؟»

– بل حدث، وأنا لا أرى سببًا لكون رأيي هذا مروعًا. كانت تشرب بشراهة في هذه الفترة، وهذا سيئ للأولاد، إذ وجدها بول — البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا — في إحدى الليالي عندما نهض من نومه ليشرب فاقدة الوعي على الأرض ثملة.

قالت مولي وصوتها خالٍ من أي مشاعر، حتى من الإدانة: «أكنت تفكر حقًّا في إبعادها عن المنزل؟»

– حسنًا يا مولي، حسنًا، ولكن ماذا كنتِ ستفعلين؟ وأنتِ لستِ في حاجة إلى الشعور بالقلق، فلم تكن صدمة آنا، نائبتك هنا في البلاد، أخف من صدمتك، وجعلَتْني أشعر بأنني مذنب مثلما جعلتني أنت.

كان يضحك لكنه يضحك بأسف، واستطرد: «وفي الحقيقة، عندما تركتك سألت نفسي هل أستحق حقًّا كل هذا البغض؟ لقد بالغت كثيرًا يا مولي، وتتحدثين وكأنني شهريار الذي يقتل زوجاته. أقمت ست علاقات غرامية تافهة، وهكذا فعل معظم الرجال الذين أعرفهم والذين تزوجوا لفترة من الوقت أيًّا كانت، ولكن زوجاتهم لم تعتدن على شرب الكحوليات.»

قالت مولي: «ربما سيصبح من الأفضل إن كنت اخترت امرأة حمقاء متبلدة الشعور، أو يجدر بك ألا تخبرها بما كنت تفعل دائمًا؟ غبي! إنها أفضل منك بآلاف المرات.»

قال ريتشارد: «بديهيًّا، تسلمين جدلًا دائمًا أن النساء أفضل من الرجال، لكنّ هذا لا يساعدني كثيرًا، والآن انظري هنا يا مولي، إن ماريون تثق بك. من فضلك اذهبي إليها بأسرع ما يمكنك وتحدثي معها.»

– ماذا أقول لها؟

– لا أعرف، ولا أهتم، تحدثي قولي لها أي شيء. اشتميني إن أردتِ لكن جربي أن توقفيها عن الشرب.

تنهدت مولي على نحو مفتعل وجلست تنظر إليه وعلى وجهها نظرة ازدراء وشيء من الشفقة.

قالت أخيرًا: «حسنًا، إنني لا أعرف حقًّا، إن الأمر غريب جدًّا. لماذا لا تفعل شيئًا حياله يا ريتشارد؟ لم لا تحاول جعلها تشعر بحبك لها على الأقل؟ ماذا لو أخذتها معك في إجازة أو شيء من هذا القبيل؟»

– أخذتها معي إلى إيطاليا.

لم يستطع ريتشارد أن يمنع نبرة استيائه من أن تملأ صوته لأنه كان عليه أن يصطحبها معه.

قالت السيدتان معًا: «ريتشارد!»

قال ريتشارد: «إنها لا تستمتع بصحبتي، وتعكف على مراقبتي طوال الوقت، وأستطيع أن أراها تراقبني طوال الوقت تحسبًا أن أنظر إلى أي امرأة، وفي انتظار أن أعاقب نفسي، ولا أستطيع تحمل ذلك.»

– هل كانت تشرب وأنتما في الإجازة؟

– لا، ولكن ...

قالت مولي: «هذا هو المطلوب.» وهي تبسط يديها ناصعتي البياض وكأنها تقول، ماذا يمكن أن يُقال إضافةً إلى ذلك؟

– انظري يا مولي، إنها لم تشرب لأنه كان نوعًا من المنافسة، ألم تري ذلك؟ وغالبًا مساومة؛ لن أشرب إن لم تنظر إلى الفتيات. وهذا دفعني دفعًا للجنون، وبالرغم من كل ذلك يواجه الرجال صعوبات عملية معينة، إنني واثق أنكما أيتها السيدتان الحرتان كنتما ستتعاملان مع الأمر بهدوء، لكنني لا أستطيع فعل ذلك مع امرأة تراقبني مثل السجان ... كان الاجتماع بماريون في الفراش بعد ظهر أحد أيام هذه الإجازة الرائعة مثل منافسة للتحدي لإثبات الذات. باختصار لم أستطع تحقيق الانتصاب، هل هذا واضح بما يكفي لكما؟ وقد عدنا منذ أسبوع. وحتى الآن هي بخير حال، وأنا أعود إلى المنزل كل مساء كأي زوج صالح، نجلس ونسلك سلوكًا مهذبًا أحدنا مع الآخر. وهي حريصة على ألا تسألني عما أفعل وعمن أرى، وأنا حريص على ألا أراقب مستوى الويسكي في الزجاجة. لكن عندما لا تكون في الغرفة آخذ الزجاجة، وأستطيع سماع الأفكار التي تعتمل داخل عقلها: لا بد أنه مع إحدى السيدات لأنه لا يريدني. أنا أحيا في الجحيم بحق.

ثم صاح وهو متكئ للأمام ولديه شعور باليأس الحقيقي: «حسنًا يا مولي، لكنك لا تستطيعين تحقيق الاستفادة من كلا الموقفين. إنكما تستمران في الحديث عن الزواج، وربما تكونان على حق، بل من الأرجح أنكما على حق. ولم أرَ زيجة بعد اقتربت بأي حال من الأحوال من الوضع المفترض أن تكون عليه. وهذا حسن، لكنكما تحرصان على عدم الدخول إلى عالم الزواج، فأنا أوافقكما الرأي أن مؤسسة الزواج هي شيء كريه وبشع، ولكنني أحيا في قلبها وأنتما تقدمان الوعظ من الكواليس الآمنة للغاية.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرت آنا إلى مولي نظرة شديدة الجفاف، ورفعت مولي حاجبيها وتنهدت.

قال ريتشارد بروح دعابة: «وماذا نفعل الآن؟»

قالت آنا ردًّا على قوله بروح دعابة أيضًا: «إننا نفكر في الكواليس الآمنة.»

قالت مولي: «هذا هراء، هل لديك أي فكرة عن نوع الألم الذي تتحمله سيدات مثلنا؟»

قال ريتشارد: «حسنًا، إنني لا أعرف شيئًا عن هذا وصراحةً إنه شأنكما أنتما، فلم عليّ الاهتمام؟ لكنني أعرف أن هناك مشكلة واحدة لم تتعرضا لها؛ إنها مشكلة بدنية خالصة: كيف يتحقق انتصاب مع سيدة استمر الزواج منها خمسة عشر عامًا؟»

قال هذا بتعبير من الصداقة الحميمة كأنه يلعب آخر أوراقه وقت الضرورة.

عقبت آنا بعد فترة من الصمت الوجيز: «ربما كان من الأسهل إن اعتدت على ذلك؟»

وهنا تدخلت مولي بقولها: «بدنية؟ أتقول مشكلة بدنية؟ إنها عاطفية. بدأت علاقاتك مع الأخريات في بداية زواجك لأن لديك مشكلة عاطفية، وليس للأمر علاقة بالبدن.»

– لا؟ إن الأمر سهل للنساء.

– لا، إنه ليس سهلًا على السيدات، لكن على الأقل لدينا إحساس أكبر من استخدام كلمات مثل بدني أو عاطفي وكأنهما ليستا متصلتين.

استلقى ريتشارد للخلف على كرسيه وضحك وقال أخيرًا: «حسنًا، إنني مخطئ. بالطبع مخطئ. ربما كان عليّ أن أعرف، لكنني أريد أن أطرح عليكما سؤالًا: هل تظنان فعلًا أنني مخطئ؟ هل أنا الوغد من وجهة نظركما؟ لماذا؟»

قالت آنا ببساطة: «كان عليك أن تحبها.»

قالت مولي: «نعم، هذا صحيح.»

قال ريتشارد حائرًا: «يا إلهي! يا إلهي! أنا أرفع الراية البيضاء. بعد كل ما قلته، ولم يكن الأمر سهلًا ...» كان يتحدث بلهجة تهديد واحمرّ وجهه عندما اهتزت المرأتان وهما تطلقان ضحكات عالية رنانة نابضة بالحياة: «لا، ليس من السهل التحدث بصراحة عن الجنس لسيدات.»

قالت مولي: «لا أتخيل سبب عدم حدوث ذلك، فما قلته ليس جديدًا.»

قالت آنا: «يا لك من ... أبله مغرور، إنك توضح كل هذه الأمور كأنها الإظهار الأخير لنبوءة من نوع ما. أراهن أنك تتحدث عن الجنس عندما تكون بمفردك مع إحدى فتياتك الجميلات، لماذا إذن تتصرف كأنك رجل راقٍ لا لشيء إلا لأن كلتينا موجودتان.»

قالت مولي سريعًا: «إننا لم نتخذ قرارًا بعد بشأن تومي.»

كانت هناك حركة خارج الباب سمعتها آنا ومولي، لكنّ ريتشارد لم يسمعها. قال ريتشارد: «حسنًا يا آنا إنني أنحني أمام ثقافتك الرفيعة. وليس لدينا المزيد لنقوله. والآن أريد منكما أيتها السيدتان البارعتان أن ترتبا لي شيئًا. إنني أريد من تومي أن يأتي إلينا ويقيم معي ومع ماريون، إذا تكرم. أم أنه لا يحب ماريون؟»

خفضت مولي صوتها وقالت وهي تنظر تجاه الباب: «إنك لست في حاجة للشعور بالقلق. عندما تأتي ماريون لزيارتي تتحدث هي وتومي معًا لساعات طويلة.»

صدر صوت آخر، مثل السعال أو صوت طرق، جلس الثلاثة في صمت، فتح تومي الباب ودخل.

لم يكن من الممكن أن يعرفوا هل سمع شيئًا أم لا. ألقى تومي التحية على والده أولًا وفي حرص: «مرحبًا أبي» وأومأ برأسه لآنا وأرخى بصره مخافة أن تتذكر أنه كشف نفسه أمام فضولها الحنون عندما تقابلا آخر مرة، وابتسم لأمه ابتسامة ودودة ولكن ساخرة. بعد ذلك أدار ظهره لهم، ليعد لنفسه بعض الفراولة المتبقية في الطبق الأبيض، وتساءل وهو لا يزال مديرًا ظهره لهم: «كيف هي ماريون؟»

إذن اتضح أن تومي سمع الحوار، تظن آنا أن بإمكانه الوقوف خارج الباب للتنصت. نعم، استطاعت تخيله يتنصت وعلى وجهه الابتسامة الساخرة الخالية من المشاعر التي حيًّا بها والدته.

لم يرد ريتشارد الذي شعر بالارتباك، في حين أصر تومي على سؤاله: «كيف حال ماريون؟»

قال ريتشارد بحماس: «بخير، في أحسن حال.»

– حسن، لأنني عندما قابلتها أمس لاحتساء فنجان قهوة بدت في حالة مذرية.

رفعت مولي حاجبيها سريعًا في وجه ريتشارد، وبدا على وجه آنا الاستغراب الطفيف، وحدق ريتشارد النظر في كلتيهما كأنه يقول إن الموقف بأكمله خطؤهما.

جلس تومي مستمرًّا في عدم النظر إليهما، ومشيرًا بكل حركة من حركات جسمه إلى أنهم استخفوا بفهمه للموقف وعدم مرونة حكمه عليهم، وتناول الفراولة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إبطاء، وبدا أشبه بوالده، شابًّا ممتلئ الجسم مكتنزًا غامق البشرة، ولم يكن فيه أي أثر لحيوية مولي وثقتها وحماسها. لكن على العكس من ريتشارد، الذي كان عناده الشديد صريحًا ومطلًّا من عينيه الغامقتين وظاهرًا في كل حركة ضجرة يقوم بها، بدا تومي كأنه أخرس، سجين طبيعته الخاصة. كان يرتدي، هذا الصباح، قميصًا ثقيلًا قرمزيًّا وبنطلون جينز أزرقًا واسعًا، لكنه كان سيبدو بمظهر أفضل في سترة عمل بسيطة. وكل حركة تصدر منه وكل كلمة يقولها بدت بطيئة، واعتادت مولي على الشكوى — بروح الدعابة بالطبع — أنه بدا مثل شخص أقسم على العد حتى رقم عشرة قبل أن يتحدث، وشكت أيضًا — بمزاح — في إحدى إجازات الصيف عندما نما لديه شعر اللحية أنه بدا كأنه ألصق اللحية الأنيقة على وجهه الجاد. واستمرت في قول هذه الشكاوى الظريفة بصوت عالٍ إلى أن قال تومي: «نعم، أعلم أنك كنت تفضلين أن أبدو مثلك؛ أعني جذابًا مثلك، لكنه الحظ السيئ. أخذت منك صفاتك الشخصية، وكان من المفترض أن يحدث العكس — أن آخذ منك مظهرك ومن أبي شخصيته — أي آخذ قوة إرادة أبي التي تجعله يستمر إلى النهاية مهما حدث، كان ذلك سيصبح أفضل، أليس كذلك؟» ألح تومي بعناد على رأيه هذا، كما كان يفعل عندما يود أن يُفْهِم أمه إحدى النقاط التي تتظاهر بعدم فهمها. ظل قلقها حيال هذا الأمر يجيش داخلها بضعة أيام حتى إنها تتصل بآنا وتسألها: «ألا يعتبر ذلك شنيعًا يا آنا؟ من كان سيصدق ما حدث؟ أن تفكري في أمر ما سنوات وتتقبليه، ثم تكتشفي فجأة أن من حولك كانوا يفكرون فيه أيضًا؟»

– لكن المؤكد أنك لم تريديه أن يصبح مثل ريتشارد؟

– لا، لكنه محق فيما قاله بشأن الإرادة التي لا تفتر، والطريقة التي قالها بها، إذ قال إن من سوء حظه أن يأخذ مني صفاتي الشخصية.

أكل تومي الفراولة التي في طبقه واحدة بعد أخرى إلى أن انتهى منها، لم يتكلم ولم يتكلموا هم أيضًا، جلسوا يشاهدونه وهو يأكل كأنه أراد منهم فعل ذلك. كان يأكل الفراولة بحذر، وفمه يتحرك وهو يأكل بنفس الطريقة التي يتحرك بها عندما يتحدث، إذ كل كلمة تخرج منفصلة عن التي تليها مثل كل حبة فراولة تدخل فمه كاملة ومستقلة بذاتها. وعبس وجهه طوال الوقت، وعقد حاجبيه الغامقين الخفيفين، مثل صبي صغير يستذكر دروسه، وتحركت شفتاه أيضًا تحركات تمهيدية قبل أن يدفع بالفراولة إلى فمه، مثل شخص مسن، أو كرجل أعمى، هكذا خطر لآنا إذ إنها رأت هذه الحركات من قبل عندما جلست ذات مرة أمام رجل أعمى في القطار، بدا

عليه أنه مسيطر تمامًا على حركات فمه وقد مد شفتيه إلى الأمام بحركة توحي أنه غارق في ذاته وعيناه مثل عيني مولي تبدوان كأنهما تنظران إلى داخله حتى ينظر إلى أحد الأشخاص، كان أعمى بالطبع. شعرت آنا بحالة هستيرية طفيفة تتصاعد داخلها وهي تجلس أمام الرجل الأعمى وتنظر إلى العينين المحرومتين من النظر اللتين بدتا كأن سحابة من التأمل تغيم عليهما. وعرفت أن ريتشارد ومولي لديهما الشعور نفسه؛ كانا عابسين ويتحركان تحركات عصبية تنم عن الشعور بالقلق. إنه يرهبنا جميعًا، يرهبنا ببشاعة، هذا ما خطر لآنا وضايقها. ومرة أخرى تخيلت كيف وقف خارج الباب يتنصت، على الأرجح لفترة طويلة؛ كانت آنا على اقتناع أنه فعل ذلك، واقتناعها هذا فيه نوع من تحامل، وشعرت نحوه بالنفور لأنه مستمتع بجلوسهم في ترقب منتظرين ما سيحدث، وهذه رغبته.

كانت آنا تجبر نفسها أن تقول شيئًا، وتكسر حاجز الصمت لمقاومة ذلك الشعور الذي يبثه تومي والذي جعلها تشعر بأن الكلام شيء محرم، عندها وضع تومي طبقه والملعقة فوقه بعناية، وقال بهدوء: «كنتم أنتم الثلاثة تتناقشون بخصوصي مرة أخرى.»

قال ريتشارد بحماس وبلهجة مقنعة: «بالطبع لا.»

قالت مولي: «بالطبع نعم.»

ابتسم تومي إلى كليهما ابتسامة متسامحة وقال: «جئت لتعرض عليّ وظيفة في إحدى شركاتك، وفكرت في الأمر بعناية كما اقترحت، لكنني لا أظن أنني أستطيع أن أقبلها.»

قالت مولي بنبرة يأس: «أوه يا تومي.»

قال تومي وهو ينظر تجاهها ولكن ليس لها: «أنت مشتتة يا أمي.» كان لديه أسلوب في توجيه بصره تجاه أحد الأشخاص، في حين يظل محتفظًا بتلك النظرة الموجهة إلى داخله، كان وجهه مكفهرًا، حتى إنه يبدو غبيًّا، بفعل المجهود الذي بذله لكي يعامل كلًّا منهم بالطريقة التي تليق به: «إن المسألة لا تتعلق بالحصول على الوظيفة فقط، أليس كذلك؟ إنها تعني أن عليّ الاعتياد على العيش مثلهم.» بدل ريتشارد بين ساقيه، ونفخ في غضب لكن تومي استطرد: «لا أقصد أي نقد يا أبي.»

قال ريتشارد وهو يضحك بغضب: «إن لم يكن هذا نقدًا، فماذا يُعد إذن؟»

قالت مولي وفي صوتها نبرة انتصار: «ليس نقدًا بل هو حكم تقديري.»

قال ريتشارد: «اللعنة.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجاهلهم تومي واستمر في التحدث ناحية الجانب الذي تجلس فيه أمه في الغرفة: «المشكلة أنكِ ربيتني — سواء أكانت النتيجة إيجابية أم سلبية — على الاعتقاد في أشياء معينة، والآن تقولين إنني يمكنني أيضًا أن أرحل وأشغل وظيفة في إحدى شركات بورتمين، لماذا؟»

قالت مولي في مرارة وتوبيخ للذات: «أتقصد لماذا لا أقدم لك شيئًا أفضل؟»

– ربما لا يكون هناك أي شيء أفضل، وهذا ليس خطأك، وإنني لا أوحي بأنه خطؤك.

قالها تومي بلهجة رقيقة لم تخلُ من حسم شديد حتى إن مولي تنهدت في وضوح وبصوت عالٍ وهزت كتفيها وبسطت يديها.

– لم أكن سأمانع أن أكون مثل أصدقائك، ليست هذه هي المشكلة، ولكنني ظللت أستمع إلى أصدقائك سنوات طويلة، وبدوتم جميعكم مشتتين أو تظنون هذا حتى وإن لم تكونوا كذلك.

كان يتكلم وهو عاقد حاجبيه وينطق كل عبارة بعد تفكير عميق. واستطرد: «ليست لدي مشكلة في ذلك، ولكن الأمر لم يكن إلا صدفة لكم، فلم يقف أي منكم ويقول لنفسه في مرحلة ما: إنني سوف أكون هذا الشخص بعينه. أقصد إنني أظن أنه فيما يتعلق بك وأيضًا فيما يتعلق بآنا هناك لحظة قالت كل منكما لنفسها فيها باندهاش: يا إلهي، أنا هذا الشخص بعينه، أليس كذلك؟»

تبادلت آنا ومولي ابتسامة وابتسمتا له معترفتين بأن ما قاله صحيح.

قال ريتشارد بلهجة طروبة: «إذن، حُسِمَ هذا الأمر، إن لم ترد أن تصبح مثل مولي وآنا، فهناك بديل متاح.»

قال تومي: «لا، إنني لم أعبر عن نفسي بعد، إن جاز هذا التعبير. لا.»

صاحت مولي بأسلوب لا يحمل أي دعابة بل بدت حادة وخائفة: «لكن عليك أن تفعل شيئًا.»

قال تومي: «أنتِ لا تفعلين شيئًا.» كأن ذلك كان بديهيًّا.

قالت مولي: «لكنك قلت الآن إنك لا تريد أن تصبح مثلنا.»

– ليس الأمر هو أنني لا أريد أن أكون مثلكما، لكنني لا أظن أن ذلك باستطاعتي.

ثم استدار إلى أبيه في توضيح تروى في ذكره، واستطرد: «بخصوص أمي وآنا لا يدعهما أحد بآنا وولف الكاتبة أو بمولي جاكوبس الممثلة إلا إذا كان لا يعرفهما. ما أقصده هو أنهما لا يعبران عما يفعلانه، لكن إن بدأت أعمل معك فسأصبح ما أفعل. ألا ترى ذلك؟»

– بصراحة لا

– إن ما أقصده هو أنني أفضل ....

تلعثم تومي ثم صمت برهة محركًا شفتيه وهو عابس الوجه وقال بصبر، وهو مستعد تمامًا لتحقيق مطالب أبويه الظالمة: «كنت أفكر في الأمر لأنني عرفت أنني سأضطر إلى شرحه لك؛ إن آنا ومولي وأمثالهما لا يمثلون شيئًا واحدًا، بل أشياء متعددة، وأنت تعرف أنه كان باستطاعتهما أن يتغيرا وأن يصبحا شيئًا آخر مختلفًا. إنني لا أقصد أن شخصيتيهما ستتغيران، لكنهما لم يَتَقَوْلبا في قالب معين. إذا حدث شيء في العالم، أو حدث تغير من نوع ما، ثورة أو ما شابه ...» انتظر لحظة بأناة حتى يزفر ريتشارد النفس الذي استنشقه بحدة وتوتر بعد نطق كلمة ثورة، واستطرد بعدها: «كانتا ستصبحان مختلفتين إذا اضطرتا لذلك، لكنك لن تكون مختلفًا إطلاقًا يا أبي، وستكون دومًا مضطرًا للعيش بالطريقة التي تعيش بها الآن. حسنًا إنني لا أريد أن يحدث هذا لي.» اختتم بقوله هذا سامحًا لشفتيه بالانضمام في غضب، بعد ذكر هذا الشرح.

قالت مولي بصوت متأوه: «ستكون في منتهى التعاسة.»

قال تومي: «نعم، وهذا أمر آخر، فالمرة الأخيرة التي تناقشنا فيها بخصوص كل شيء ختمت حديثك بقولك «يا إلهي، لكنك ستكون تعيسًا جدًّا.» وكأن هذا هو أسوأ شيء في الوجود. ولكنني لم أكن لأصفك أنتِ وآنا بالسعيدتين، لكنكما تعتبران أسعد من أبي على الأقل، فما بالكما بماريون.» أضاف العبارة الأخيرة برقة متهمًا أباه اتهامًا مباشرًا.

قال ريتشارد بانفعال: «لم لا تسمع القصة من منظوري، كما سمعتها من منظور ماريون؟»

تجاهل تومي هذا القول واستطرد: «أعرف أنني أبدو سخيفًا بالضرورة، وكنت أعرف قبل أن أبدأ الحديث أنني سأبدو ساذجًا.»

قال ريتشارد: «بالطبع أنت ساذج.»

قالت آنا: «لست ساذجًا.»

– عندما انتهيت من التحدث معك يا آنا في المرة السابقة، عدت إلى المنزل وظننت أنكِ ستفكرين أنني ساذج للغاية بالضرورة.

– لا، لم أظن فيك هذا الظن، وهذا ليس بالمهم، إن ما يبدو أنك لا تفهمه هو أننا نريدك أن تفعل أفضل مما فعلنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لماذا عليّ فعل ذلك؟

قالت آنا محترمة رأي الشاب: «حسنًا ربما لا تزال هناك احتمالية للتغير وأن نصبح أفضل.» وعندما سمعت نبرة التوسل التي تغلف صوتها ضحكت وقالت: «يا إلهي! ألا تدرك يا تومي كيف جعلتنا نشعر أننا محكوم علينا؟»

ولأول مرة أظهر تومي مسحة من روح الدعابة ونظر إليهما، في البداية لها، ثم لأمه وهو يبتسم: «أنسيتما أنني استمتعت بحديثكما معي طوال حياتي؟ إنني أعرفكما، أليس كذلك؟ وأظن أنكما تتسمان بالطفولية أحيانًا لكنني أفضل هذا على ...» لم ينظر إلى والده، ولم يكمل حديثه.

قال ريتشارد ولديه شعور بالشفقة على نفسه: «من المؤسف أنك لم تعطني قط أي فرصة للحديث.» رد تومي على ذلك بالانسحاب سريعًا عنه بعناد، وقال لآنا ومولي: «إنني أفضل أن أفشل مثلكما، بدلًا من أن أحقق النجاح وأعيش في تداعياته كافة، لكنني لا أقول إنني أختار الفشل، أعني أنه لا يوجد أحد يختار الفشل، أليس ذلك صحيحًا؟ فأنا أعرف ما لا أريد وليس ما أريد.»

قال ريتشارد: «لدي سؤال عملي أو اثنان» في حين كانت آنا ومولي تفكران بسخرية في كلمة الفشل الكلمة التي قالها الصبي بالمعنى نفسه الذي استخدمتاه به من قبل، ومع ذلك فهما لم يطبقاها على نفسيهما، أو على الأقل ليس بهذا الشكل التلقائي والنهائي.

قال ريتشارد: «بماذا ستستعينون على أمور المعيشة؟»

غضبت مولي لأنها لم ترد إخراج تومي من الإطار الزمني التأملي الآمن الذي وفرته له بسبب النيران التي صوبها ريتشارد نحوه متهكمًا.

لكن تومي قال: «إن لم تمانع أمي يمكنني أن أعتمد عليها بعض الوقت. وعلى أي حال أنا لا أكاد أنفق أي شيء. لكن إن اضطررت إلى كسب المال يمكن أن أصبح مدرسًا.»

قال ريتشارد: «هذه الحياة ستكون أكثر تقيدًا بكثير مما أعرضه عليك.»

شعر تومي بالحرج وقال: «لا أظن أنك فهمت حقًّا ما أحاول قوله، فربما لم أقل ما أريد على نحو صائب.»

قال ريتشارد: «ستصبح عاطلًا متسكعًا في المقاهي.»

– لا، لا أشعر أنني سيؤول بي الحال إلى هذا، وأنت تقول هذا فقط لأنك تحب الناس الذين لديهم الكثير من المال.

والآن حل الصمت على آنا ومولي وريتشارد؛ أما السيدتان فلأن الصبي يمكن الثقة به ليدافع عن نفسه، وأما ريتشارد فخاف من إطلاق العنان لغضبه. وبعد برهة عقب تومي: «ربما أحاول أن أكون مؤلفًا.»

تأوه ريتشارد، ولم تنبس مولي ببنت شفة مجاهدةً نفسها، لكنّ آنا صاحت: «أوه يا تومي، حتى بعد كل النصائح المجدية التي منحتها إياك.»

رد على ذلك في رفق خالطه العناد وقال: «إنك تنسين يا آنا، فأنا ليس لدي أفكارك المعقدة عن الكتابة.»

تساءلت مولي بعنف: «أي أفكار معقدة؟»

قال تومي موجهًا كلامه لآنا: «عكفت على التفكير في كل الأشياء التي قلتها لي.»

ألحت مولي في السؤال: «أي أشياء؟»

قالت آنا: «إن المخيف أن يطلعك المرء على شيء يا تومي، قلت شيئًا وتناولته على محمل جدي.»

– لكنك كنت جادة؟

كبحت آنا جماح دافع بداخلها لإنهاء الحديث بدعابة وقالت: «نعم، كنت جادة.»

– نعم، أعلم أنك كنت جادة، ولذا فكرت فيما قلته، وكان فيه شيء من الغرور.

– الغرور؟

– نعم، أظن ذلك، ففي المرتين اللتين أتيت فيهما لزيارتك تحدثت، وعندما رتبت كل ما قيل بدا لي أن به غرورًا، مثل نوع من الازدراء.

كان ريتشارد ومولي جالسين الآن متكئين على ظهر مقعديهما يبتسمان، ويشعلان السجائر، ويتبادلان النظرات، بعد أن نُحِّيا جانبًا.

لكنّ آنا عندما تذكرت صدق الطلب الذي طلبه الصبي منها، قررت أن تهجر حتى صديقتها مولي القديمة، على الأقل هذه الفترة.

– إذا بدا الأمر كازدراء، إذن لا أظن أنني شرحت كلامي على نحو صحيح.

– نعم، لكن يعني ذلك أنكِ لا تثقين بالناس، وأظنك خائفة.

تساءلت آنا: «مما؟» وشعرت أنها عرضة لأن تُفشى أسرارها خاصة أمام ريتشارد وكان حلقها جافًّا ومتألمًا.

– من الوحدة، نعم أعرف أن هذا يبدو غريبًا لكِ لأنك بالطبع اخترت أن تكوني وحيدة بدلًا من أن تتزوجي، لكنني أقصد شيئًا آخر؛ إنك خائفة من كتابة أفكارك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن الحياة، لأنك ربما تجدين أن أمرك كُشف، وربما تفضحين نفسك، وربما تكونين وحيدة.

قالت آنا في يأس: «أوه، أتظن ذلك؟»

– نعم، وإن لم يكن خوفًا فهو ازدراء. عندما تحدثنا عن السياسة قلتِ إن الشيء الذي تعلمته من كونك شيوعية تمثل في أن أبشع شيء هو ألا يقول القادة السياسيون الحقيقة. قلتِ إن كذبة واحدة صغيرة يمكن أن تمتد وتصبح مستنقع كذب وتفسد كل شيء ... أتتذكرين؟ لقد تحدثتِ عن ذلك لفترة طويلة ... قلتِ ذلك عن السياسة، لكنك تملكين كتبًا كاملة كتبتها لنفسك ولم يرها غيرك. قلتِ إنك تظنين أنه في جميع أنحاء العالم كتبٌ في الأدراج يكتبها الناس لأنفسهم ... حتى في الدول التي لا تعد فيها كتابة الحقيقة أمرًا خطيرًا. أتتذكرين يا آنا؟ حسنًا هذا نوع من الازدراء.

كان ينظر ولكن ليس تجاهها، بل كان موجهًا إليها نظرة محدقة صادقة تأملية منقبة في ذاته، ورآها الآن ووجهها محمرّ وبدا عليه التأثر الشديد، لكنه استعاد نفسه وقال بتردد: «آنا، كنتِ تقولين ما تفكرين فيه فعليًّا، أليس ذلك صحيحًا؟»

– نعم.

– لكنك لم تتوقعي دون شك يا آنا ألا أفكر فيما قلتِ؟

أغمضت آنا عينيها وهلة وابتسمت ابتسامة تنم عن شعورها بالألم وقالت: «أظن أنني لم أقدر جيدًا جدية تناولك للموضوع.»

– هذا هو الشيء نفسه، مثله مثل موضوع الكتابة، لماذا يجب ألا أتناوله على محمل الجد؟

قالت مولي منضمة إلى المحادثة بحزم: «لم أعرف أن آنا تكتب على الإطلاق في هذه الأيام.»

قالت آنا سريعًا: «لم أكتب.»

قال تومي: «ها أنت تعودين مرة أخرى، لماذا تقولين ذلك؟»

– أتذكر أنني أخبرتك أنني أصبت بشعور مروع بالاشمئزاز والعبث، وربما لا أحب نشر هذه الأحاسيس.

قال ريتشارد وهو يضحك: «إذا كانت آنا تملؤك بالاشمئزاز من الأدب، فلن أتشاجر معها هذه المرة إذن.»

كانت هذه الملحوظة غير حقيقية حتى إن تومي تجاهل والده ببساطة، عن طريق إحراجه بأدب والاستمرار مباشرة بقوله: «إذا كنت تشعرين بالاشمئزاز فأظهري شعورك هذا، لِمَ تتظاهرين بعدم الشعور به؟ ولكن المهم هو أنكِ كنتِ تتحدثين عن المسئولية، وهذا هو ما أشعر به أيضًا ... فلا يتحمل أحد من الناس مسئولية الآخر. قلتِ إن الاشتراكيين لم يصبحوا قوة أخلاقية، على الأقل في هذا الوقت، لأنهم لم يتحملوا المسئولية الأخلاقية، فيما عدا بعض الأفراد، قلت ذلك، أليس كذلك؟ ولكنكِ تكتبين مرارًا وتكرارًا في دفاترك وتسردين أفكارك عن الحياة ولكنك تحبسينه في الأدراج، وهذا ليس من المسئولية في شيء.»

– عدد كبير جدًّا من الناس سيقولون إنه الاستهتار بالمسئولية أن ننشر مشاعر الاشمئزاز أو الفوضى أو الشعور بالارتباك.

هكذا قالت آنا وهي تضحك ضحكة خفيفة، وهي حزينة ونادمة، محاولة أن تجعله يتفق معها على ما قالته.

أنهى تومي على الفور الحديث، وعاد بظهره إلى الخلف، مظهرًا أنها خيبت أمله. كانت آنا مثلها مثل الجميع — حسبما تشير وضعية جلوسه التي أطل منها الصبر والعند — من المرجح جدًّا أن تسبب له الشعور بالإحباط. انسحب إلى داخل نفسه وقال: «على أي حال هذا هو ما نزلت إليكم لأقوله، فأنا أفضل أن أستمر دون الالتزام بالعمل أو الدراسة لمدة شهر أو اثنين، فلذلك تكلفة تقل كثيرًا عن الذهاب إلى الجامعة كما أردتم.»

قالت مولي: «إن النقود ليست هي ما يهم.»

قال ريتشارد: «ستعرف أن النقود هي ما يهم. عندما تغير رأيك اتصل بي»

قال تومي معاملًا أباه بما يليق به: «سأتصل بك في جميع الأحوال.»

قال ريتشارد موجزًا وهو يشعر بالمرارة: «أشكرك.» ووقف برهة وهو يبتسم للسيدتين ابتسامة عريضة يطل منها الغضب الشديد وقال: «سأمر عليك في الأيام القادمة يا مولي.»

قالت مولي في لطف: «في أي وقت.»

أومأ ريتشارد في برود لآنا ووضع يده برهة على كتف ابنه الذي لم يتجاوب معه فخرج. وعلى الفور نهض تومي وقال: «سأصعد إلى غرفتي.» مشى للخارج، ورأسه للأمام، ويده تتلمس مقبض الباب، انفتح الباب واسعًا بما يكفي الخروج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منه، وبدا يستخرج نفسه من الغرفة بشق الأنفس، وسمعت مولي وآنا خطوات قدمه المنتظمة القوية على السلم.

قالت مولي: «حسنًا.»

ردت آنا: «ماذا الآن؟» ولديها الاستعداد لأن تدخل في تحدٍّ.

– يبدو أن أشياء كثيرة حدثت وأنا مبتعدة.

– لسبب واحد، يبدو أنني قلت لتومي أشياء ما كان ينبغي قولها.

– أو ربما لم تقولي له ما يكفي.

قالت آنا بجهد: «نعم، أعرف أنكِ تريدينني أن أتحدث عن المشكلات الفنية وما شابه، لكن الأمر لم يكن هكذا لي ...» تمهلت مولي وبدت متشككة فيما تقول صديقتها ولديها شعور بالمرارة. استطردت آنا: «إن نظرت إلى الموضوع من منظور مشكلة فنية فسيكون الأمر سهلًا إذن، أليس كذلك؟ فبإمكاننا أن ندخل في أحاديث ذكية عن الرواية الحديثة.» كان صوتها مفعمًا بالقلق وحاولت الابتسام من أجل تخفيف حدته.

– ما المكتوب في هذه الدفاتر إذن؟

– إنها ليست دفاتر.

– أيًّا كانت، ماذا فيها؟

– فوضى وتشتت، هذا ما تشتمل عليه.

جلست آنا تراقب أصابع مولي السميكة البيضاء وهي تلتوي وتتعانق وكأن يديها تقولان: «لماذا تجرحينني هكذا؟ وإن أصررت على جرحي سأتحملك.»

قالت مولي: «إذا كتبت رواية من قبل فلا أرى أي سبب لا يجعلك قادرة على أن تكتبي أخرى.» لم تستطع آنا أن تكتم ضحكتها وامتلأت عينا صديقتها بالدموع فجأة.

– لم أكن أضحك مما تقولين.

قالت مولي وهي مصرة على أن تكبت الدمع في مقلتيها: «إنكِ لا تفهمين، دومًا ما كان إنتاجك لعمل ما هو شيء مهم جدًّا لي، حتى إن لم أقدم أي شيء.»

كانت آنا على وشك أن تقول لها في عناد: «لكنني لستِ امتدادًا لكِ.» لكنها كانت تعرف أن هذه الكلمات يمكن أن تقولها لأمها، ولذا توقفت. باستطاعة آنا تذكر أمها على نحو طفيف؛ إذ ماتت منذ زمن بعيد، ولكن في لحظات كهذه كانت قادرة على أن تكون بمخيلتها صورة شخصية قوية مسيطرة وعلى آنا أن تقاومها.

قالت آنا: «إنك تستشيطين غضبًا بسبب أشياء معينة.»

– نعم، إنني غاضبة، إنني في شدة الغضب من كل الناس الذين أعرف أنهم يضيعون أنفسهم هباءً. ليس الأمر متعلقًا بكِ وحدك، بل كثير من الناس يفعلون ذلك.

– حينما كنتِ بعيدة عن هنا حدث شيء أثار اهتمامي؛ أتتذكرين بيزل ريان الرسام؟

– بالطبع أعرفه.

– نشر تصريحًا في الجريدة يقول فيه إنه لن يرسم مرة أخرى إطلاقًا، قال إن ذلك بسبب أن العالم فوضوي جدًّا وأن الفن لا يمت له بصلة.

ساد الصمت إلى أن استأنفت آنا: «ألا يعني ذلك أي شيء لكِ؟»

– لا، وخاصة حينما تقولينه أنت لي، فأولًا وأخيرًا لست شخصًا يكتب الروايات الصغيرة التي تتحدث عن العواطف، إنك تكتبين عما هو واقعي.

كانت آنا على وشك أن تنخرط في الضحك مرة أخرى، ولكنها قالت في جدية: «أتدركين عدد الأشياء التي نقولها وتعد صدى لأشياء أخرى؟ فالملحوظة التي ما لبثت أن قلتها هي صدى من نقد الحزب الشيوعي ... في أسوأ لحظاته، ولا أحد يعرف سوى الله ماذا تعني، وأنا لا أعرف أيضًا، ولم أعرف قط. فإن كانت الماركسية تعني أي شيء فإنها تعني أن رواية صغيرة عن العواطف يجب أن تعكس «ما هو واقعي» لأن العواطف هي وظيفة المجتمع ونتاجه ...» توقفت بقولها هذا بسبب التعبير الذي ارتسم على وجه مولي. «لا تنظري هكذا يا مولي، قلتِ إنكِ أردتِ مني التحدث عن هذا الأمر، وها أنا ذا أتحدث. وهناك شيء آخر، رائع إن لم يكن محزنًا للغاية؛ ها نحن عام ١٩٥٧ بعدما طويت كل الصفحات القديمة ... تظهر فجأة في إنجلترا ظاهرة في الفنون لم أتوقع حدوثها قط، إذ ظهرت على حين غرة مجموعة كبيرة من الأفراد الذين لا يمتون إطلاقًا للحزب بصلة، يهتفون هتافات قوية — وكأنهم فجأة تدبروا الأمر — إن الروايات أو المسرحيات الصغيرة التي تتحدث عن العواطف لا تعكس الواقع، والشيء الذي يثير دهشتك لسماعه هو أن الواقع هو الاقتصاد أو الأسلحة الآلية التي تبيد الناس الذين يعترضون على النظام الجديد.»

أسرعت مولي بقولها: «لأنني لا أستطيع التعبير عن نفسي، أظن أنه من غير العدل فعل ذلك.»

– على أي حال كتبت رواية واحدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم، وماذا ستفعلين عندما تتوقف الأموال التي تدرها عليك عن التدفق؟ كنتِ محظوظة في هذه الرواية لكن سيكون للنقود نهاية في أحد الأيام.

ظلت آنا محتفظة بهدوئها بشق الأنفس، فما قالته مولي كان ضغينة واضحة، كانت تقول: إنني سعيدة لأنكِ سوف تتعرضين للضغوط التي اضطررنا لمواجهتها، في حين حدثت آنا نفسها: أتمنى لو لم أصبح شديدة الوعي بكل شيء، بكل الفروق البسيطة. في الماضي لم أكن ألحظ هذه الأشياء، ولكن الآن تبدو كل محادثة وكل مقابلة مع أحد الأشخاص كأنها محاولة لعبور حقل ألغام، ولماذا ليس بوسعي تقبل أن يغرس أقرب الأصدقاء في لحظة من اللحظات سكينًا — بعمق — بين الضلوع؟

كادت آنا تقول لها بلهجة جافة: ستكونين سعيدة لسماع أن المال الذي يأتيني بات شحيحًا، وسأضطر إلى إيجاد وظيفة سريعًا. ولكنها قالت بمرح ردًّا على المعنى السطحي لكلمات مولي: «نعم، أظن أنني سأكون في حاجة إلى المال سريعًا جدًّا وسأضطر إلى الحصول على وظيفة.»

– ولم تفعلي أي شيء وأنا بعيدة.

– من المؤكد أنني فعلت أشياء كثيرة معقدة في حياتي.» نظرت إليها مولي في تشكك، لذا استسلمت آنا وقالت بلهجة مازحة ولكنها حزينة: «كان عامًا سيئًا، وأحد الأشياء السيئة التي وقعت فيه هي أنني كدت أدخل في علاقة مع ريتشارد.

– لا بد أنه كان عامًا سيئًا لك حتى إنك فكرتِ في ريتشارد.

– هناك حالة مثيرة جدًّا من الفوضى، ستفاجئين بها ... لماذا لم تتحدثي قط مع ريتشارد عن عمله، يا له من أمر شديد الغرابة.

– أتعنين أنكِ كنت مهتمة به لأنه ثري جدًّا؟

– يا إلهي، بالطبع لا يا مولي. أخبرتك أن كل شيء ينهار، وهؤلاء الناس، أبناء الطبقات العليا، لا يثقون بأي شيء، إنهم يذكرونني بالبيض في وسط أفريقيا ... اعتادوا أن يقولوا: «بالطبع سيزج بنا السود في البحر في غضون خمسين عامًا.» واعتادوا أن يقولوا ذلك بمرح، وكأنهم يقولون: «إننا نعرف أن ما نفعله خطأ» لكن حدث في أقل من خمسين عامًا بكثير.

– وماذا عن ريتشارد؟

– اصطحبني لتناول عشاء فاخر؛ كان ذلك بمناسبة حصوله على حصة كبيرة من الأسهم تعطيه حق إدارة في كل شركات أوروبا العاملة في تصنيع أواني الألمونيوم أو المنظفات أو ربما مراوح الطائرات أو شيء من هذا القبيل. وكان هناك أربعة

رجال أعمال أثرياء وأربع سيدات جميلات وكنت أنا إحداهن. جلست ونظرت في الوجوه المحيطة بالطاولة، ويا إلهي، كان الأمر مروعًا. عدت إلى قاعدتي الشيوعية الأكثر بدائية، أتتذكرين عندما نفكر أن كل ما علينا فعله هو التخلص من الأوغاد؛ أي قبل أن نعلم أن نظراءهم غير مسئولين عن شيء. نظرت إلى هذه الوجوه، وجلست أنظر مرارًا وتكرارًا إليها.

قالت مولي: «لكنّ هذا هو ما قلناه دائمًا، إذن ما الجديد؟»

– أنا أود أن أرسم لك الصورة كاملة. ثم إن الطريقة التي تعاملوا بها مع السيدات اللاتي كن بصحبتهم كانت لاإرادية. يا إلهي، ربما نمر بلحظات نشعر فيها بالاستياء من حياتنا ولكن ما أسعد حظنا، فرجالنا على الأقل يعرفون شيئًا عن التحضر.

– لم تخبريني بشأن ريتشارد.

– نعم، حسنًا، لم يكن الأمر مهمًّا، كان عارضًا، فقد اصطحبني إلى منزلي في سيارته الجاجوار الجديدة، وعرضت عليه احتساء القهوة، وكان مستعدًّا لأقصى درجة. جلست معه وفكرت: لا يعتبر ريتشارد أسوأ من بعض البلهاء الذين أقمت معهم علاقات.

– ماذا دهاكِ يا آنا؟

– تقصدين أنك لم تشعري قط بهذا الاستنزاف الأخلاقي البشع، ما أهمية ذلك بحق الجحيم؟

– إنه أسلوب تحدثك الجديد.

– ربما تكونين على حق، إلا أنه خطر لي أننا إذا عشنا الحياة المعروفة بأنها حياة حرة، الحياة التي يعيشها الرجال، فلمَ لا نستخدم اللغة نفسها التي يستخدمونها؟

– لأننا لسنا سواء، هذا هو السبب.

ضحكت آنا وقالت: «الرجال، السيدات، القيود، الحرية، الخير، الشر، القبول، الرفض، الرأسمالية، الاشتراكية، الجنس، الحب ...».

– ماذا حدث مع ريتشارد يا آنا؟

– لم يحدث شيء، أنت تعطين الموضوع أكبر من حجمه. جلست أحتسي القهوة وأنظر في وجهه الغبي وأفكر في أنني إن كنت رجلًا فسأذهب إلى الفراش ببساطة شديدة لأنني ظننت أنه غبي ... أنا أقصد إن كان هو امرأة. ثم شعرت بالسأم الشديد، قمة السأم. وبعدها شعر هو بشعوري وقرر أن يستردني، لذا وقف وقال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أرى أنه من الأفضل العودة إلى المنزل رقم ١٦ في بلان أفينيو، أو أيًّا كان عنوان المنزل. وتوقع مني أن أقول له: لا، لا أستطيع تحمل مغادرتك. أتعرفين، إنه يحاول أن يبدو الرجل المسكين المتزوج المتعلق جدًّا بزوجته وأولاده، فجميعهم يفعلون ذلك. أرجو أن تعذريني، لا بد أن أذهب إلى المنزل رقم ١٦ في بلان أفينيو؛ ذلك المنزل الكئيب المزود بالأجهزة المريحة في الضواحي. قالها مرة واحدة، ثم كررها ثلاث مرات كأنه لم يسكن هناك ولم يكن متزوجًا وكأنه لا علاقة له بشيء؛ المنزل الصغير الكائن في رقم ١٦ ببلان أفينو وسيدة هذا المنزل.

– لنكن أكثر دقة؛ إنه قصر عظيم به خادمتان وثلاث سيارات في ريتشموند.

– لا بد أن تعترفي أنه يوحي لكِ بأنه من قاطني الضواحي، أمرٌ غريب، لكنهم جميعًا كذلك، أقصد كبار رجال الأعمال جميعهم، فبإمكان المرء أن يتخيل هذا المنزل المزود بالأجهزة المريحة والأطفال في ملابس النوم وهم ذاهبون ليقبلوا والدهم ويتمنون له ليلة هادئة. يا لهم جميعًا من خنازير قانعون بما هم فيه.

قالت مولي: «إنكِ تتحدثين كأنك عاهرة.» ثم بدت تعي ما تقول وابتسمت لأنها فوجئت باستخدامها الكلمة.

– من الغريب أنني أبذل مجهودًا شاقًّا للغاية حتى لا أشعر أنني كذلك. إنهم يبذلون مجهودًا كبيرًا — دون وعي منهم بالطبع، وهذا هو سبب فوزهم — لكي يجعلوكِ تشعرين أنك عاهرة. حسنًا على أي حال قلت له: «طاب مساؤك يا ريتشارد، أنا أشعر بالنعاس، أشكرك شكرًا جزيلًا على أنك أريتني مظاهر الحياة الراقية هذه.» وقف في مكانه يتساءل هل يجب أن يقول: عزيزتي، لا بد أن أعود إلى المنزل إلى زوجتي الكئيبة للمرة الرابعة. كان يتساءل عن سبب كون هذه المرأة الواقعية — آنا — غير متعاطفة معه، ثم استطعت ملاحظة أنه يفكر في أنني لست إلا امرأة مهتمة بالفكر، ويتحسر لأنه لم يذهب مع إحدى الفتيات الأخريات اللاتي يعرفهنّ. تمهلت لحظة، تلك اللحظة التي يردون فيها لنا ما نستحقه. قال ريتشارد: «يجب أن تهتمي بنفسك أكثر يا آنا، إنكِ تبدين أكبر من سنك بعشر سنوات، كما تزداد التجاعيد على نحو هائل.» لذا قلت له: «لكن يا ريتشارد إذا قلت لك هيا معي إلى الفراش، فستقول في هذه اللحظة ما أجملك، ومن المؤكد أن الحقيقة تكمن في مكان ما بين هذين الوصفين، أليس كذلك؟ ...

كانت مولي تمسك بوسادة بالقرب من ثدييها، حاضنة إياها، وتضحك.

– ولذا قال: «ولكن عندما دعوتني لاحتساء القهوة يا آنا لا بد أنكِ كنتِ تعرفين ماذا تعني. إنني رجل مكتمل الرجولة، وإما أن أقيم علاقة مع امرأة أو لا.» لذا سئمت منه بعد ذلك وقلت له: «أوه، انصرف يا ريتشارد، يا لك من شخص ممل شنيع ...» لذا بوسعك فهم أنه كان لا بد أن توجد «توترات» بيني وبين ريتشارد اليوم.

توقفت مولي عن الضحك وقالت: «أنتِ وريتشارد! لا بد أنكما مجنونان.»

قالت آنا بنبرة صوت شديدة الجدية: «نعم، نعم يا مولي، أظن أنني لست بمنأى عن الجنون.»

عندما سمعت مولي هذه الجملة نهضت وسريعًا قالت: «سأعد الغداء الآن.» كانت النظرة التي رمقت بها آنا تنم عن الشعور بالذنب والندم. ونهضت آنا أيضًا وقالت: «إذن سوف أذهب إلى المطبخ لحظة.»

– أخبريني بما لديكِ.

قالت آنا وهي تتثاءب غير مهتمة تمامًا: «فكري في الأمر، ماذا هناك من جديد يمكنني أن أخبرك به؟ كل شيء على حاله، تمامًا كما هو.»

– ألم يحدث أي جديد خلال عام؟ المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي. المجر، السويد. ودون شك التقدم الطبيعي الذي يحدث في قلب البشرية من شيء لآخر؟ وتقولين لم يتغير شيء؟

كان المطبخ الصغير أبيض اللون وشديد التنظيم يتلألأ بفعل الضوء المنعكس من الأكواب والأطباق الملونة المصطفة بعضها فوق بعض، بالإضافة إلى نقاط البخار الذي يتكثف على الجدران والسقف، وغطت قطرات الماء زجاج النوافذ. وبدا الفرن كأنه يتمدد بفعل الحرارة المستعرة بداخله. فتحت مولي النافذة بقوة فاندفعت رائحة اللحم المشوي الساخنة فوق الأسطح الرطبة والأفنية المتربة في حين تسللت أشعة الشمس من فوق حافة النافذة وبسطت خيوطها على الأرض.

قالت مولي: «إنجلترا، إنجلترا. إن الرجوع في هذا الوقت كان أسوأ من المعتاد، إذ شعرت أن الحيوية تتسلل من داخلي حتى وأنا لا أزال على سطح المركب. ذهبت إلى المتاجر بالأمس ونظرت في الوجوه اللطيفة الجميلة، وكان الناس جميعهم طيبين ولطفاء، ولكن السأم الشديد ينبعث منهم.» حدقت النظر برهة خارج النافذة، ثم استدارت بجسمها وظهرها لآنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– من الأفضل أن نتقبل حقيقة أننا والجميع ممن نعرفهم من المحتمل أن نقضي حياتنا متذمرين من إنجلترا، ومع ذلك نعيش فيها.

– سأغادر قريبًا مرة أخرى، لولا تومي كان من الممكن أن أغادر غدًا، فبالأمس كنت أتدرب في المسرح، ووجدت أن كل الرجال في فريق التمثيل شواذ ما عدا شخصًا واحدًا يبلغ من العمر ١٦ عامًا. إذن ماذا أفعل هنا؟ عندما سافرت وابتعدت، كان كل شيء يحدث على نحو من التلقائية، والرجال يعاملونك كما يجب أن تُعامل النساء، ولذا تشعرين أنك في خير حال. ولم أتذكر قط ما عمري ولم أفكر في الجنس قط. أقمت علاقة مع اثنين من الشواذ ولم يكن فيها أي شيء يبعث على الشعور بالألم، كل شيء سهل. لكن فور أن وطئت قدمي هذه الأرض، كان يجب أن أكبح جماح نفسي وأتذكر دائمًا أن هؤلاء الرجال إنجليز وأن أكون على حذر دائم، فيما عدا استثناءات نادرة، ومن ثم أصبح على وعي بذاتي وبالجنس، فكيف لبلد يعج بأشخاص ضائعين أن يكون ذا فائدة؟

– ستعتادين الأمر بعد أسبوع أو اثنين.

– لا أريد أن أعتاد الأمر، وأستطيع أن أشعر بالرغبة في الرحيل تزحف بالفعل بداخلي، وهذا المنزل يجب أن يعاد طلاؤه مرة أخرى، وأنا لا أريد أن أقوم بأعمال الدهان وتعليق الستائر. لماذا يتطلب كل شيء كل هذا العمل الشاق هنا؟ إن الأمر ليس كذلك في أوروبا، فقد يهجع المرء ساعتين بالليل ويكون سعيدًا، لكن هنا ينام المرء ويبذل مجهودًا ....

قالت آنا ضاحكة: «نعم، معكِ حق، وأنا على يقين من أننا سنظل سنوات نقول الكلام نفسه إحدانا للأخرى في كل مرة نعود فيها من مكان ما بالخارج.»

اهتز المنزل بسبب مرور قطار تحت الأنفاق بالقرب منه، وأضافت آنا وهي تنظر إلى السقف: «وعليكِ أن تفعلي شيئًا حيال هذا السقف.» ظل المنزل — الذي دمر سقفه بعد إلقاء قنبلة عليه قرب نهاية الحرب — خاويًا مدة عامين، تطيح بحجراته الرياح والأمطار، ثم رُمم مرة أخرى، وعندما تمر القطارات يمكن سماع صوت حبيبات مواد البناء وهي تتساقط خلف الأسطح التي يغطيها الدهان النظيف، إلى جانب أن السقف متصدع.

قالت مولي: «اللعنة! لا أستطيع تقبل الأمر، لكنني أظن أن عليّ فعل ذلك. ولماذا يحدث ذلك، وفي هذا البلد فقط، يبدو كل شخص نعرفه كأنه يضع قناعًا جميلًا على الأشياء، وجميعهم يحملون عبئًا بجسارة.» غشيت الدموع عينيها، فأغمضتهما للتخلص منها، واستدارت وظهرها للفرن.

– لأن هذا هو البلد الذي نعرفه، والدول الأخرى لا نفكر فيها.

– هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، وأنتِ تعرفين ذلك، ومن الأفضل أن تجهزي ما لديك من أخبار. سأعد الغداء في دقيقة.

كان هذا دور مولي للإفصاح عن جو الوحدة الذي تعيش فيه، وأنها لم تجد من يفهمها. كانت يداها اللتان أطل منهما الشجن والجَلَدْ تلومان آنا، وآنا تفكر: إذا اشتركت الآن في جلسة «ماذا دهى الرجال» فلن أعود إلى المنزل إذن، وسأظل للغداء وطوال فترة بعد الظهيرة، وسوف نشعر أنا ومولي بدفء المشاعر والمودة، وتختفي كل الحدود، وعندما أرحل وأتركها سيأتيها شعور بالاستياء المفاجئ والضغينة لأن ولاءنا الحقيقي على الرغم من أي شيء يكون للرجال دومًا وليس للنساء ... جلست آنا محاولة أن تكف عن التفكير في هذا الأمر، ولكنها لم تفعل، إذ حادثتها نفسها: أريد أن أنتهي من هذا كله، أنتهي من قضية «الرجال في مواجهة النساء»، وأنتهي من كل الشكاوى وكلمات اللوم وحوادث الخيانة، فهذا كله نوع من الخداع، لقد اخترنا أن نعيش على نحو معين في ظل معرفتنا بكل العقوبات التي ستواجهنا، وحتى إن لم نكن على علم بها في السابق فقد عرفناها الآن. إن لم أكن حذرة فسننحدر أنا ومولي إلى اثنتين من العوانس المسنات، إذ نجلس تقول إحدانا للأخرى: هل تتذكرين كيف قال هذا الرجل الذي لا أذكر اسمه هذا القول الجارح، لا بد أن ذلك حدث عام ١٩٤٧ ....

قالت مولي بحماس لآنا التي وقف صامتة بعض الوقت: «هاتي ما عندك.»

– إنكِ لا تريدين سماع أي شيء عن الرفقاء على ما أظن؟

– في فرنسا وإيطاليا يتحدث المفكرون طوال الليل والنهار عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والمجر، والتوقعات والدروس والأخطاء التي يجب التعلم منها.

– في هذه الحالة، نظرًا لأن الأمر سواءٌ، مع أن الناس حمدًا لله يتنامى لديهم الشعور بالملل من هذا الأمر، فسوف أسقط هذا الموضوع من الحديث.

– جيد.

قالت آنا: «لكنني أرى أنني سأذكر ثلاثة من الرفقاء بصورة عابرة فقط» ثم أضافت سريعًا في حين عبست مولي: «ثلاثة من خيرة أبناء الطبقة العاملة ومسئولي اتحاد نقابات العمال.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– من؟»

– توم وينترز، ولين كولون، وبوب فاولر.

قالت مولي سريعًا: «بالطبع أعرفهم.» فهي دائمًا تعرف كل الناس أو تكون على معرفة سابقة بهم، واستطردت: «وماذا عنهم؟»

– قبل المؤتمر مباشرةً، عندما كانت هناك كل هذه البلبلة في الأوساط الخاصة بنا، بسبب هذه المؤامرة أو تلك، أو حول قضية يوغوسلافيا ... أو ما شابه من الأمور، وتصادف أن واجهتم بخصوص ما أشاروا له إشارة طبيعية على أنه من الأمور الثقافية، كانوا يتصرفون على نحو من الاستعلاء، وفي تلك الأثناء كنت أقضي أنا وأمثالي كثيرًا من الوقت في نضال داخل الحزب – ويالنا من أشخاص ساذجين – محاولين إقناع من حولنا بأنه من الأفضل كثيرًا الاعتراف بأن الأمور تسوء في روسيا بدلًا من إنكار ذلك. وفجأة تلقيت خطابات من ثلاثتهم، كل على حدة بالطبع، ولم يعرف أحد منهم أن الآخريّن أرسلا لي شيئًا. كم كانوا صارمين. وانتشرت الإشاعات التي تقول إن هناك أعمالًا قذرة في موسكو، أو كان هناك في الماضي أو أن ستالين الأب أخطأ، على ألسنة أعداء الطبقة العاملة.

ضحكت مولي على الطريقة المهذبة التي عرضت بها آنا الأمر، فكثيرون تجرءوا على إثارة هذه النقطة من قبل.

– لا، ليس ذلك هو المقصود، ما أعنيه أن كل خطاب من هذه الخطابات يمكن أن يحل أحدها مكان الآخر، إذا أسقطنا من حسابنا الخط.

– ليس هذا بالشيء الهين الذي يمكن أن نسقطه.

– وحتى أسلي نفسي كتبت الخطابات الثلاثة، وهي خطابات طويلة وضعتها جنبًا إلى جنب، وكانت متطابقة في البناء اللغوي وأسلوب التعبير واللهجة، ولم يكن بإمكانك أن تقولي إن كاتب هذا الخطاب شخص وكاتب ذاك الخطاب شخص غيره.

قالت مولي باستياء: «بخصوص هذا الدفتر أو أيًا كان، هل تحتفظين أنتِ وتومي بسر بخصوصها؟»

– لا، أنت تحاولين أن تكتشفي شيئًا ما، ولكنني لم أنته من هذا الموضوع بعد.

– حسنًا، لن أضغط عليكِ.

– ثم أقيم المؤتمر، وتلقيت على الفور تقريبًا ثلاث خطابات أخرى، وجميعها هستيرية، متهمة للذات، ومليئة بالشعور بالذنب واحتقار الذات.

– هل كتبتِ الخطابات مرة أخرى؟

– نعم، ووضعتها جنبًا إلى جنب، وربما كانت مكتوبة بقلم الشخص نفسه، ألا تفهمين؟

– لا، ما الذي تحاولين إثباته؟

– مما لا شك فيه أن الفكرة التالية راودتني، أي نموذج شائع هذا الذي أمثله؟ وما الكيان المتكامل مجهول الهوية الذي صرت جزءًا منه؟

قالت مولي: «حقًّا؟ إن الأمر ليس كذلك لي، إذا اخترتِ أن تجعلي من نفسك شخصًا بلا هوية فافعلي ما تشائين، لكن لا تلحقي بي هذا التوصيف.»

شعرت آنا بالإحباط لأن هذا الاكتشاف وهذه الأفكار التي نتجت عنه تطلعت غالبًا للتحدث عنها مع مولي، وقالت سريعًا: «أثار هذا الأمر اهتمامي، مرت فترة من الوقت يمكن أن تُوصف بأنها فترة ارتباك، وبعض الناس تركوا الحزب. أو بالأحرى ترك الجميع الحزب ... أنا أعني هؤلاء الذين لم يعد هناك دواعٍ نفسية لوجودهم. ثم على حين غرة — وفي الأسبوع نفسه — وهذا هو الشيء الفائق للعادة إلى حد بعيد يا مولي ...» رغمًا عنها تحاول آنا أن تسترضي مولي مرة أخرى: «في الأسبوع نفسه تلقيت ثلاثة خطابات أخرى خالية من الشك وصارمة، وكلها تصميم. وكان هذا الأسبوع هو الذي تلا أحداث المجر، وبعبارة أخرى كان الجميع يعملون على قدم وساق وأصبح المذبذبون تحت السيطرة. وكانت هذه الخطابات الثلاثة متشابهة أيضًا؛ إنني لا أتحدث عن الكلمات داخلها بالطبع ...» استطردت آنا في ضجر ونظرت مولي عن عمد إليها نظرة متشككة: «أعني الأسلوب والعبارات وطريقة ارتباط الكلمات بعضها ببعض. وهذه الخطابات الثلاثة التي تلقيتها في المرة الثانية والتي تتسم بالهستيرية المحتقرة للذات، كانت وكأنها لم تكتب قط، وفي الواقع إني واثقة أن توم ولين وبوب قبعوا ذلك الجزء من ذاكرتهم الذي يحمل هذه الخطابات داخله.»

– ولكنك تحتفظين بها؟

– نعم، ولن أستخدمها في المحكمة إن كان هذا هو ما تقصدينه.

وقفت مولي تجفف الأكواب في بطء بقطعة قماش مخططة باللونين البنفسجي والقرنفلي، وترفع كل كوب لأعلى في الضوء قبل أن تضعه في مكانه. قالت: «حسنًا، سئمت هذا الأمر ولا أظن أنني أريد أن أهتم به مرة أخرى.»

– لكن يا مولي لا نستطيع فعل ذلك، بالطبع لا نستطيع؟ كنا شيوعيتين أو شبه شيوعيتين أو أيًّا كان الاسم سنوات طويلة، ولا يمكننا فجأة أن نقول إننا سئمنا الأمر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– الشيء العجيب هو أنني سئمت، وأعرف أن هذا غريب، فمنذ عامين أو ثلاثة أعوام كنت أشعر بالذنب إذا لم أقض كل وقت فراغي في تنظيم أي شيء. والآن لا أشعر بالذنب على الإطلاق إن أديت مهام وظيفتي فقط واسترخيت للحصول على قسط من الراحة. إنني لم أعد أهتم يا آنا، لم أعد أهتم على الإطلاق.

– إن الأمر لا يتعلق بالشعور بالذنب، بل بالتفكير في المغزى منه.

لم ترد مولي، ولذا استطردت آنا سريعًا: «أتودين سماع أخبار عن الجالية؟»

الجالية هو الاسم الذي أُعطي لمجموعة الأمريكيين الذين يعيشون في لندن لأسباب سياسية. – يا إلهي! سئمت منهم أيضًا، لا أريد معرفة أي شيء عنهم. لا، ولكنني أود أن أعرف ماذا حدث لنيلسون، إنني معجبة به.

– إنه يكتب ملحمة أمريكية، وترك زوجته لأنها عصابية، وأصبح على علاقة بإحدى الفتيات، وكانت رائعة جدًّا لكنه توصل إلى أنها عصابية أيضًا وعاد إلى زوجته، ووجدها عصابية فتركها، ومن ثم أقام علاقة مع فتاة أخرى لم تصبح عصابية بعد.

– وماذا عن الأخريات؟

– بطريقة أو بأخرى حدث معهنّ الشيء نفسه.

– حسنًا لنترك الحديث عن هذا الموضوع. قابلت الجالية الأمريكية في روما، ويا لهم من أشخاص في منتهى التعاسة.

– هذا صحيح، وقابلتِ من أيضًا؟

– صديقك السيد ماثلونج، الرجل الأفريقي.

– نعم، إنه في السجن حاليًّا ولذا أظن أنه بحلول هذا الوقت في العام القادم سوف يكون رئيس وزراء.

ضحكت مولي.

– وصديقك دي سيلفا أيضًا له قصة.

قالت مولي وهي تضحك مرة أخرى ولكن مقاومة لنبرة صوت آنا الانتقادية: «كان صديقي.» – إذن إليك الحقائق التالية: عاد إلى سيلان مع زوجته، إن كنت تتذكرين أنها لم ترد الذهاب. وأرسل لي خطابات لأنه أرسل لكِ ولم يصله أي رد، أرسل يقول إن سيلان رائعة وتعج بالأشعار، وإن زوجته في انتظار طفل آخر.

– لكنها لم ترد إنجاب طفل آخر.

فجأة ضحكت آنا ومولي، فقد دخلتا فجأة في حالة من التناغم.

– ثم أرسل لي خطابًا يقول فيه إنه افتقد لندن وكل الحرية الثقافية فيها.

– إذن أظن أن بإمكاننا توقع مجيئه في أي لحظة.

– عاد بالفعل منذ أشهر قليلة، وترك زوجته تمامًا، مع أنه يقول إنها أفضل منه بكثير، ويذرف الدمع عليها، لكن ليس كثيرًا فهي أولًا وأخيرًا متورطة مع طفلين في سيلان وليس معها نقود، لذا فهو مطمئن.

– هل رأيته؟

– نعم.

لكنها وجدت نفسها عاجزة عن إخبار مولي بما حدث بينهما، فما فائدة ذلك؟ ستكون النتيجة أن مجرى الحديث سينعطف بهما إلى تلك النبرة المريرة الجافة التي يسهل أن تنحدرا إليها وستقضيان فترة بعد الظهيرة في مثل هذه الحوارات، أقسمت آنا أنها لن تدع ذلك يحدث. – وماذا عنكِ يا آنا؟

لأول مرة توجه مولي لصديقتها سؤالًا على نحو استطاعت آنا أن ترد عليه وقالت على الفور: «جاء مايكل لزيارتي منذ ما يقرب من شهر.» عاشت آنا مع مايكل خمس سنوات وانتهت علاقتها به منذ ثلاثة أعوام مضت رغمًا عنها.

– كيف كانت الزيارة؟

– إلى حد ما كأن شيئًا لم يكن.

– بالطبع ما دام أحدكما يعرف الآخر معرفة وثيقة.

– لكنه كان يتصرف بأسلوب ... كيف يمكنني أن أصف لكِ؟ كان يتصرف وكأنني صديقة قديمة عزيزة عليه. أوصلني إلى مكان أردت الذهاب إليه وكان يتحدث عن زميل له، قال: «أتتذكرين ديك؟» أمرٌ غريب، ألا تظنين أنه لم يستطع تذكر هل أتذكر ديك أم لا، وقد رأيناه كثيرًا من قبل. قال إن ديك حصل على وظيفة في غانا وإنه اصطحب زوجته معه وأرادت عشيقته أن تذهب معه أيضًا، وقال معلقًا إن العشيقات من الصعب إرضاؤهن، ثم ضحك ضحكة طبيعية وفي غير تكلف، كان يود أن يتحدث مثل رجل منتعش وواثق من نفسه، وهذا ما آلمني، ثم بدا محرَجًا لأنه تذكر أنني كنت عشيقته واحمر وجهه خجلًا وشعورًا بالذنب.

لم تعقب مولي، ونظرت إلى آنا من قرب.

– هذا كل ما في الأمر.

قالت مولي بابتهاج، متعمدة قول الشيء الذي سيجعل آنا تضحك: «كلهم خنازير.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت آنا في ألم بلهجة متوسلة: «مولي!»

– ماذا؟ ليس من المفيد التحدث كثيرًا عن هذا الموضوع، أليس كذلك؟

– جال بخاطري أنه من المحتمل أننا ارتكبنا خطأ.

– عذرًا، خطأ واحدًا؟!

لكنّ آنا لم تضحك وقالت: «لا، إنني جادة، نحن مقتنعتان تمامًا أننا على درجة عالية من الصلابة. لا، استمعي إلي، إنني جادة. أعني أننا عندما انتهى زواجنا قلنا إن زواجنا كان فاشلًا، وهذا أمر شديد السوء، وعندما يهجرنا رجل، وهو شيء سيئ جدًّا، نقول إنه ليس مهمًّا، وعندما نربي أطفالنا بلا رجال نقول إنه ليس شيئًا صعبًا على الإطلاق وإن باستطاعتنا التعايش معه، ونقضي سنوات في الحزب الشيوعي ثم نقول حسنًا اقترفنا خطأ ويا له من أمر سيئ.»

قالت مولي في حذر شديد وهي مبتعدة كثيرًا عن آنا: «ما الذي تحاولين قوله؟»

– ألا تظنين أنه من المحتمل أن الأشياء التي تحدث لنا تكون سيئة للغاية حتى إننا لا نستطيع التغلب عليها؟ لأنني عندما أواجه الأمر، لا أظن أنني استطعت أن أتخطى علاقتي بمايكل، وأظن أن الظروف هي ما جعلتني أفعل ذلك. أوه، أعرف أن ما علي قوله هو: لقد هجرني، وخمس سنوات ليست شيئًا كثيرًا وعليّ أن أواصل حياتي.

– ولكن لا يمكن أن تفعلي شيئًا آخر سوى مواصلة حياتك.

– لماذا لا نعترف مطلقًا بالفشل؟ وربما يكون من الأفضل لنا أن نعترف به، والأمر ليس متعلقًا بالحب والرجال فقط، لماذا لا نستطيع أن نقول شيئًا مثل هذا — إننا بشر — ولكن في خيالنا فقط، وهذا هو بيت القصيد — من الحلم العظيم — وعلينا الآن أن نعترف أن الحلم العظيم تلاشى والحقيقة اختلفت، وأنه لن تكون لنا أي فائدة على الإطلاق. لن يمثل الأمر يا مولي خسارة كبيرة؛ أن عددًا قليلًا من الأشخاص الذين ينتمون إلى اتجاه معين اعترفوا بأن أمرهم انتهى. إنه لغرور منا أننا غير قادرين على أن نقول ذلك.

– يا إلهي! كل هذا يا آنا بسبب مايكل، ومن المحتمل أنه سيعود مرة أخرى في أحد الأيام وسوف تنجحين في إكمال طريقك، وإن لم تستمر علاقته بكِ، ما الذي تشكين منه؟ لديكِ موهبة الكتابة.

قالت آنا بوداعة: «يا إلهي! يا إلهي!»

ثم بعد برهة استعادت نبرة الصوت المطمئنة وقالت: «نعم، إن الأمر شديد الغرابة ... حسنًا، لا بد أن أسرع إلى المنزل.»

– «ظننت أنكِ قلتِ إن جانيت مع صديقة لها؟»

– «نعم، لكن لدي أشياء عليّ فعلها.»

قبلت إحداهما الأخرى في حماس، وحقيقة أنهما لم تتقابلا في نقطة مشتركة ظهرت في ضغطة يد خفيفة وحنونة تنم عن خفة الظل. خرجت آنا إلى الشارع لتعود إلى منزلها مشيًا على الأقدام، إذ تعيش على بُعد بضع دقائق في «إيرلز كورت». وقبل أن تلف إلى الشارع الذي تسكن فيه أوقفت على نحو تلقائي رؤيتها لما حولها، فهي لم تكن تؤمن بأنها تسكن في هذا الشارع أو حتى في المبنى السكني الكائن به، بل كانت تسكن بشقتها. ولم توجه نظرها إلى ما حولها مرة أخرى إلا بعدما أغلقت الباب الأمامي لمسكنها خلفها.

كانت الغرف مقسمة إلى دورين أعلى المنزل، خمس غرف كبيرة، اثنتان في الدور السفلي وثلاث في العلوي. وأقنع مايكل آنا منذ أربع سنوات بالانتقال إلى شقتها، إذ قال لها إنه من السيئ أن تعيش في منزل مولي تحت جناح الأخت الكبرى دائمًا. وعندما شكت من عدم استطاعتها تحمل نفقات العيش في شقتها أخبرها أن تؤجر غرفة، فانتقلت متخيلة أنه سوف يشاركها حياتها، إلا أنه تركها بعد ذلك بقليل، ولبعض الوقت استمرت في العيش على الغرار الذي حدده لها. وكان هناك طالبان في غرفة كبيرة، وسكنت ابنتها في غرفة أخرى ورُتبت غرفة نومها وحجرة المعيشة لشخصين، هي ومايكل. غادر أحد الطالبين الغرفة الكبيرة لكنها لم تعبأ بإحلال محله. اشمأزت من غرفة نومها التي خُططت ليشاركها مايكل فيها، وانتقلت إلى غرفة المعيشة حيث تنام وتكتب دفاترها. وبالأعلى لا يزال الطالب قاطنًا وهو شاب من ويلز. تفكر أحيانًا في أن الناس ربما يقولون إنها تعيش مع شاب في شقتها، لكنه شاذ ولا يوجد أي توتر في الترتيبات، ولم تكن آنا تراه تقريبًا؛ إنها تهتم بحياتها الخاصة وجانيت في المدرسة التي تبعد مبنيين عن المنزل، وعندما تكون جانيت في المنزل تكرس نفسها لخدمتها. تأتي عجوز مرة أسبوعيًّا من أجل تنظيف المنزل، وأدرت عليها روايتها الوحيدة «حدود الحرب» الأموال على نحو غير منتظم، فقد أصبحت في فترة معينة من الكتب الأكثر مبيعًا، ولا تزال تدر عليها حتى الآن الأموال التي تكفيها للاستعانة على أمور العيش. الشقة جذابة، مطلية بالدهان الأبيض، وأرضياتها ساطعة، وشكّل الدرابزين وأعمدة السلم أشكالًا بيضاء في خلفيتها ورق أحمر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذاك هو الإطار المحيط بحياة آنا؛ غرفتها الكبيرة هي المكان الوحيد الذي تكون فيه على طبيعتها، اتخذت الغرفة شكل المستطيل وبُني أحد جدرانها متراجعًا للخلف بحيث يمكن وضع سرير ضيق فيه. ومن حول السرير رُصّت الكتب والأوراق والتليفون، وفي الجدار الخارجي ثلاث نوافذ طويلة، وفي أحد جوانب الغرفة — بالقرب من المدفأة — مكتب عليه آلة كاتبة تكتب عليها الخطابات، ومراجعات الكتب والمقالات التي تكتبها أحيانًا ولكن بصفة غير معتادة، وفي الجانب الآخر من الغرفة طاولة طويلة ذات قوائم خشبية مطلية بالطلاء الأسود، وبها درج يشمل الأربع دفاتر، وأما سطح هذه الطاولة فلا يكون عليه شيء دائمًا، والجدران وسقف الغرفة بيضاء لكنها في حالة رثة بسبب هواء لندن المعتم، والأرضية سوداء، وللسرير غطاء أسود، والستائر الطويلة ذات لون أحمر باهت.

تنقلت آنا تنقلًا بطيئًا بين النوافذ الثلاث، تتفقد أشعة الشمس الرفيعة الباهتة التي عجزت عن الوصول إلى الأرصفة التي كانت مساحات تفصل بين البنايات العالية التي بنيت في العصر الفيكتوري. ثم أسدلت الستائر على النوافذ وهي تستمع في سعادة إلى صوت الانزلاق المعتاد الصادر عن قضيب انزلاق الستائر في تجاويفها العميقة، والحفيف العذب لالتقاء ثنيات الحرير الثقيل معًا. أضاءت النور فوق الطاولة ذات القوائم الخشبية حتى تألق الطلاء الأسود اللامع عاكسًا وميضًا أحمر من الستارة القريبة. وأخرجت الأربع دفاتر من الدرج، واحدًا تلو الآخر، ووضعتهم متجاورين.

استخدمت كرسيًّا للعزف على البيانو من طراز قديم لتجلس عليه، ورفعته لأعلى ليكون مساويًا للطاولة في الارتفاع. جلست تنظر إلى الدفاتر الأربع كأنها جنرال يقف على قمة جبل، يراقب انتشار جيوشه في الوادي بالأسفل.

الدفاتر

[صنعت الدفاتر الأربع معًا شكل مربع يبلغ طول أضلاعه قرابة ثماني عشرة بوصة، وفي لمعان أغلفتها الشبيهة بملمس الحرير المموج الرخيص، ولكنّ الألوان هي التي ميزت إحداها عن الأخرى؛ تنوعت الألوان بين الأسود والأحمر والأصفر والأزرق. وعندما تُزال الأغلفة وتظهر الأربع صفحات الأولى يبدو لنا أن ترتيب المذكرات لم يكن مقررًا من البداية، ففي كل دفتر تظهر على أول صفحة أو صفحتين كلمات متقطعة مكتوبة بخط رديء وجمل غير مكتملة، ثم يظهر عنوان، وكأن آنا قسمت نفسها — تلقائيًّا غالبًا — إلى أربعة أجزاء، ومن طبيعة ما كتبته أطلقت التسميات على هذه الأجزاء. وهذا ما حدث بالفعل؛ فأول ما كتب في الدفتر الأول، ذي اللون الأسود، شخبطة ورموز موسيقية متناثرة وعلامات ثلاثية تتحول إلى علامة «£» ثم تعود مرة أخرى إلى أصلها، ثم يظهر تصميم معقد من الدوائر المتشابكة، ثم تظهر الكلمات:]

السواد

الظلام، إنه ظلام حالك

الجو مظلم

نوع من الظلام يسود المكان

[وبعد ذلك تستمر الكلمات بأسلوب مختلف يطل منه الشعور بالفزع:]

كل مرة أجلس فيها لأكتب وأترك لفكري العنان تطل هذه العبارة: «إنه ظلام حالك» أو أي كلمات أخرى تتعلق بالظلام. أجد رعبًا؛ الرعب الكامن في هذه المدينة. الخوف من الوحدة. شيء واحد يمنعني عن القفز والصراخ أو الإسراع إلى التليفون للاتصال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بشخص ما، هذا الشيء هو أن أعمد إلى أن أسرح بأفكاري وأعود بنفسي إلى الضوء الملتهب ... الضوء الأبيض الذي يعمي العيون، الضوء الأحمر الذي يلسع مقلات العيون؛ الحرارة المنبعثة من حجر الجرانيت وكفي منبسط فوقه، ينساب فوق نبات حزاز الصخر الحبيبي النامي عليه، متحسسًا حبيباته متناهية الصغر التي تشبه آذان الحيوانات الصغيرة جدًّا، وكأنني أمرر كف يدي فوق حرير خشن دافئ ما يلبث أن يلتصق بجلدي وأنا أحرك يدي فوقه. الطقس حار، تنبعث رائحة الشمس من الصخور الساخنة. طقسٌ حار وجاف، وأستشعر التراب الناعم كالحرير على وجنتي، وأشم رائحة الشمس تنبعث منه، الشمس. أعود بذاكرتي إلى الخطابات التي ترسلها وكيلة الأعمال بخصوص الرواية، وكل مرة أستقبل أحدها أود أن أضحك ... ضحكة اشمئزاز، ضحكة رديئة، ضحكة من لا حيلة له، ضحكة عقوبة أفرضها على نفسي. إنها خطابات زائفة، عندما أتذكر في منحدر من الجرانيت الساخن المتدفق، ووجنتي في مواجهة الصخر الملتهب، والضوء الأحمر ينعكس على جفني، والغداء مع وكيلة الأعمال، كان كل شيء زائفًا ... إن الرواية يتزايد كونها باستمرار مخلوقًا له حياته الخاصة. والآن ليست لرواية «حدود الحرب» علاقة بي، بل هي ملك أفراد آخرين. قالت وكيلة الأعمال إنها يجب أن تُحول إلى فيلم، فقلت لا، فتحلت بالصبر ... وتلك هي وظيفتها.

[كُتب هنا تاريخ بخط رديء غير واضح في عام ١٩٥١.]

(١٩٥٢) تناولت الغداء مع أحد رجال صناعة السينما، وتناقشنا بخصوص فريق عمل الفيلم المأخوذ عن الرواية. أثار الأمر رغبتي في أن أضحك ورفضت العرض، ثم وجدته ينجح في إقناعي بالأمر، فنهضت سريعًا وأنهيت الحديث، ووجدت نفسي أتخيل عنوان الرواية: «حدود الحرب» على أبواب السينما مع أنه أراد تسميتها «الحب المحظور».

(١٩٣٥) قضيت طوال فترة الصباح أحاول تذكر جلوسي في ظل الأشجار في المنخفض القريب من فندق ماشوبي، وعجزت عن التذكر.

[هنا ظهر عنوان الدفتر:]

الظلام

[قُسمت الصفحات من المنتصف بخط أسود منمق، ووردت التقسيمات الفرعية تحت عنواني:]

الإلهام **المال**

[أسفل العنوان الوارد في الناحية اليمنى ظهرت عبارات متقطعة ومشاهد تتذكرها آنا وخطابات من أصدقاء في أفريقيا الوسطى ملصقة بالصفحة. وعلى الجانب الآخر دُوِّنَ سجل التعاملات المتعلقة برواية «حدود الحرب»، والنقود التي حصلت عليها من التراجم وغيرها، وتقارير العمل ... إلخ.

وبعد بضع صفحات توقفت المدونات المكتوبة في الجانب الأيمن. وطوال ثلاث سنوات لم يشمل الدفتر الأسود شيئًا سوى البيانات المتعلقة بالعمل والمعلومات العملية التي بدت مسيطرة على الذكريات التي تتجسد فيها قارة أفريقيا. بدأت المدونات المكتوبة تحت العمود الأيمن تظهر مرة أخرى قبالة صفحة مطبوعة تشبه البيانات الرسمية لصقت بالصفحة، واحتوت هذه المدونات على ملخص لرواية «حدود الحرب»، التي تحول عنوانها إلى «الحب المحظور»، وكتبت آنا هذا الملخص على سبيل السخرية، ووافق عليه القسم الخاص بالملخصات في مكتب وكيل الأعمال:]

أُرسل الشاب الرائع بيتر كيري — الذي انتهت حياته الدراسية الواعدة في أكسفورد بسبب الحرب العالمية الثانية — إلى أفريقيا الوسطى ضمن مجموعة من الشباب يرتدون الزي الرسمي ذا اللون الأزرق السماوي للقوات الملكية الجوية ليتدرب كطيار، ولأنه مثالي وسريع الانفعال صُدم الشاب بيتر بالمجتمع الصغير الوصولي المهووس بلون البشرة الذي وجده هناك، وانضم إلى الجماعة المحلية لليساريين الذين يحظون بمستوى معيشة مرتفع والذين استغلوا نزعة التطرف الساذجة التي تسيطر على الشاب الصغير. كانوا يقضون الأسبوع في تذمر صاخب من الظلم الذي يُمارس ضد السود، وفي عطلات نهاية الأسبوع ينفقون ببذخ في أحد الفنادق المرموقة خارج المدينة التي يديرها بوثبي صاحب الفندق — وهو نموذج تقليدي للرجل الإنجليزي — وزوجته الجميلة اللذين وقعت ابنتهما المراهقة الجميلة في حب بيتر. وشجعها بيتر على مشاعرها بطيش الشباب، وفي الوقت ذاته تنمو داخل السيدة بوثبي — التي أهملها زوجها المحب للمال الذي يشرب بشراهة — عاطفة قوية تجاه الشاب الوسيم ولكنها ظلت سرًّا بداخلها. ولأن بيتر انزعج من عربدة اليساريين في عطلات نهاية الأسبوع فقد اتصل سرًّا بالمتمردين الأفارقة المحليين الذين يتزعمهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طباخ الفندق، ووقع في غرام زوجته التي أهملها زوجها المهووس بالسياسة، إلا أن هذا الحب وقف في وجه محرمات المجتمع المستعمر وتقاليده. وفاجأتهما السيدة بوثبي، التي تعشق الفتى، وهما في موعد غرامي، وجعلها غضبها الغيور تخبر السلطات في معسكر القوات الملكية الجوية المحلي بالأمر ونتيجة لذلك وعدوها بأن بيتر سيُرحَّل من المستعمرة. أخبرت ابنتها بما حدث دون أن تعي الدافع اللإرادي الذي حثها على فعل ذلك، وهو إهانة الفتاة الشابة العذراء التي فضلها بيتر عليها فمرضت بسبب الإهانة التي أُلحقت بكبريائها كفتاة بيضاء، وأعلنت أن المرأة السوداء يجب أن تترك المنزل بفضيحة، صرخت أمها في جنون: «لم تستطيعي حتى لفت نظره إليك، لقد فضل الفتاة السوداء القذرة عليك.» أما الطباخ الذي أعلمته السيدة بوثبي بخيانة زوجته الشابة فقد طرد زوجته مخبرًا إياها أن تعود إلى عائلتها، لكنّ الفتاة المتمردة ذهبت بدلًا من ذلك إلى أقرب مدينة، وسلكت الطريق السهل للخروج من مأزقها وأصبحت فتاة ليل. ومن ثم قضى بيتر ليلته الأخيرة في المستعمرة ثملًا بعد أن أصبح كسير القلب وتبددت أوهامه، وتقابل بالصدفة مع حبيبته السمراء في حانة قذرة غير مرخصة، وأمضيا ليلتهما الأخيرة معًا، في المكان الوحيد الذي ربما يتقابل فيه البيض والسود، في بيت سيئ السمعة بالمدينة يطل على مياه النهر الملوثة. لن يرى حبهما الطاهر البريء — الذي قضت عليه قوانين هذا البلد الوحشية والغيرة التي اعتملت في نفوس الفاسدين — النور. وفي لقائهما هذا تحدثا في شجن عن لقائهما في إنجلترا عندما تنتهي الحرب، لكن كليهما يعلم أن هذه كذبة تنم عن تحليهما بالشجاعة. وفي الصباح يودع بيتر جماعة «التقدميين» المحليين، ومشاعر الازدراء التي يشعر بها تجاههم تطل من عينيه الفتيتين الجادتين. وفي الوقت نفسه تتوارى حبيبته السمراء الشابة على الجانب الآخر من الرصيف بين مجموعة من أقاربها. وما إن تحرك القطار البخاري حتى لوحت لكنه لم يرها، وتعكس عيناه تفكيره في الموت الذي ينتظره ... يا له من طيار بارع. وتعود حبيبته إلى شوارع المدينة السوداء معلقة في ذراع رجل آخر وهي تضحك بوقاحة لتخفي شعورها الحزين بالإهانة.

[قبالة ما سبق كُتب:]

سعد الرجل المسئول عن قراءة الملخصات بما كتبته وبدأ يتكلم معي عن طريقة تجعل القصة «أقل بعثًا للإحباط» في نفوس أصحاب الأعمال والأثرياء، وقال إن

البطلة يجب ألّا تكون زوجة خائنة لأن الجمهور لن يتعاطف معها في هذه الحالة، يمكن أن تكون ابنة الطباخ. قلت له إنني كتبت الرواية محاكاةً ساخرة لما اقترحه هو، وبعد لحظة من الشعور بالضيق ضحك الرجل، وشاهدت وجهه يرتسم عليه قناع التسامح ودماثة الأخلاق الزائف، وهو قناع الفساد في هذا الوقت (بدا أحد الرفقاء عند مقتل ثلاثة شيوعيين بريطانيين في سجون ستالين تمامًا مثل هذا الرجل وقال: «لكنكم لم تضعوا في اعتباراتكم قط الطبيعة البشرية.») قال لي: «يا آنسة وولف، أنت تعرفين أنك عندما تأكلين مع الشيطان فلا بد ألا تكون الملعقة طويلة فقط بل يجب أن تكون مصنوعة من مادة مقاومة للنيران أيضًا، هذا الملخص في منتهى الروعة ومكتوب وفقًا لشروطهم.» عندما أصررت على التمسك بموقفي، تحكم في غضبه وتساءل في تسامح شديد وهو يرسم على وجهه ابتسامة لا تخبو أبدًا، هل أتفق معه على أنه مع كل عيوب الصناعة ثمة أفلام جيدة تُنتج. «حتى الأفلام التي تحمل رسالة تقدمية جيدة يا آنسة وولف؟» كان مسرورًا للعثور على عبارة أيقن أنها ستجذبني فأظهرها، وكانت نظرته يبدو منها أنه يهنئ نفسه على اختياره، وكانت أيضًا مليئة بالقسوة الساخرة. عدت إلى المنزل وأنا على علم بأن لديّ شعورًا بالاشمئزاز الشديد للغاية، الذي كان أقوى من المعتاد، حتى إنني جلست وأجبرت نفسي على قراءة الرواية لأول مرة منذ أن نُشرت، كأنها كُتبت بقلم شخص آخر. ولو طُلب مني أن أراجعها عام ١٩٥١ عندما صدرت، فهذا ما ينبغي قوله:

> أول رواية لي تبدي موهبة داخلية أصيلة. إن المكان الذي تدور فيه الأحداث مكان غير معهود: محطة قطار في أحد مروج «روديسيا» يطوقها المستعمرون البيض الذين لا ينتمون إلى هذه الأرض والذين جاءوا طمعًا في المال، وفي الخلفية الأفارقة الغاضبون الذين جردوا من ملكية أراضيهم. وتتميز الرواية أيضًا بحداثة قصتها؛ فعلاقة الحب بين شاب إنجليزي مرسل إلى المستعمرة بسبب الحرب وسيدة سوداء شبه بدائية، تخفي أن هذه الفكرة تقليدية ولم تتطور كثيرًا. وتكمن قوة آنا وولف في بساطة أسلوبها، إلا أنه لا يزال هناك وقت طويل لنحدد هل هذه البساطة هي البساطة الواعية الناشئة عن تحكم الكاتب بأسلوبه الفني، أم حدة الشكل الخادعة التي تتحقق أحيانًا عفويًّا عندما يُسمح لعاطفة قوية بأن تحدد شكل الرواية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن بداية من عام ١٩٥٤ فصاعدًا أقول:

> بهذا يستمر فيض الروايات التي تدور أحداثها داخل أفريقيا. ونجحت الرواية عن جدارة وقوة في سبر أغوار العلاقات الجنسية التقليدية، لكن من المؤكد أنه لم يعد ممكنًا قول الكثير عن الصراع بين البيض والسود؛ فمشاعر الكراهية والقسوة التي ترتبط بالتمييز العنصري أصبحت هي الأفضل توثيقًا في الأدب الروائي. وأكثر التساؤلات تشويقًا مما طرحه هذا التقرير الجديد عن الحدود العنصرية هي: لماذا وُجدت الاضطهادات والتوترات في أفريقيا التي استعمرها البيض إلى حد ما في شكلها الجديد لمدة عقود ومتى؟ وهل تفجرت هذه الاضطهادات والتوترات في شكلها الفني في أواخر الأربعينيات والخمسينيات؟ إن عرفنا الإجابة، فسنفهم الكثير عن العلاقات بين المجتمع والموهبة التي يخلقها، بين الفن والتوترات التي تغذيه. انبعثت رواية وولف فقط من استياء من الظلم، جيد لكنه لم يعد كافيًا ....

خلال فترة الثلاثة أشهر التي كنت أكتب فيها المراجعات لعشرة كتب أو أكثر كنت أقرؤها في الأسبوع الواحد، اكتشفت شيئًا: أن الاهتمام الذي أقرأ به هذه الكتب لا يتعلق أبدًا بما أشعر به عندما أقرأ — فلنقل — توماس مان، آخر الكتّاب بالمعنى التقليدي الذين استخدموا الرواية لتوضيح آراء فلسفية عن الحياة. ما أعنيه أن هناك تغييرًا يطرأ على وظيفة الرواية، إذ أصبحت تؤدي وظيفة تقارير المراسلات الصحفية. إننا نقرأ الروايات للحصول على معلومات عن مناطق في الأرض لا نعرفها، نيجيريا وجنوب أفريقيا والجيش الأمريكي، أو عن قرية تعج بمناجم الفحم، أو عن الطوائف الموجودة في تشيسلي ... إلخ. إننا نقرأ لنعرف ماذا يحدث، ورواية واحدة من بين خمسمائة أو ألف رواية فقط هي التي تحمل الصفة التي يجب أن تكمن في أي كتاب لتجعله رواية، هي صفة الفلسفة. ووجدت أنني أقرأ بالفضول نفسه معظم الروايات وكتابًا عن المقابلات الصحفية. ومعظم الروايات، إن كانت ناجحة أساسًا، تُعتبر أصلية بمعنى أنها توضح وجود منطقة في المجتمع ونوع من الأشخاص لم يُعترف بهم في وعي المتعلمين العام. وأصبحت الرواية وظيفة المجتمع المحطم والوعي المحطم، وكذلك الناس، فهم ممزقون، ويتزايد تمزقهم، ويتزايد تجزؤ تمزقهم داخل أنفسهم، عاكسين العالم الذي يحاولون جاهدين أن يصلوا إليه، دون أن يعرفوا كيف يفعلون ذلك، للحصول على معلومات عن الجماعات الأخرى داخل

بلدهم، فما بالنا بتلك الجماعات الموجودة في بلدان أخرى. إنهم يحاولون محاولة عمياء أن يتشبثوا بوحدتهم، والروايات التي تشبه التقارير الصحفية هي وسيلة لتحقيق ذلك. داخل هذا البلد، بريطانيا، لا تعرف الطبقة المتوسطة شيئًا عن الطبقة العاملة، والعكس صحيح. وداخل حدود هذا البلد تُباع التقارير والمقالات والروايات في المناطق المختلفة، يقرؤها الناس كأنهم يقرءون كتبًا تمكنهم من التحقق من حياة القبائل الهمجية، فالصيادون في اسكتلندا يختلفون عن عمال مناجم الفحم الذين أقمت معهم في يوركشاير، وكلاهما أتى من عالم مختلف عن عالم العقارات السكنية الواقعة في أطراف لندن.

مع ذلك أجدني غير قادرة على كتابة النوع الوحيد من الروايات الذي يثير اهتمامي؛ كتاب تدعمه عاطفة فكرية أو أخلاقية، قوية بما يكفي لخلق النظام، والتوصل لرؤية جديدة للحياة، ويرجع ذلك إلى أنني مشتتة في اتجاهات عدة. قررت ألا أكتب رواية أخرى، مع أن لدي خمسين «موضوعًا» باستطاعتي الكتابة عنها، وكلها على درجة كافية من الكفاءة. وإذا كان هناك شيء واحد مؤكد فإنه يتمثل في أن الروايات الإخبارية التي تكون على درجة من الكفاءة سوف تستمر في التدفق من دور النشر. وليس لدي سوى رواية واحدة وأقل الصفات الضرورية أهميةً للكتّاب على الإطلاق، ألا وهي الفضول، إنه فضول الصحفي. إنني أتعذب لشعوري بعدم الرضا وبأنني شخص ينقصه الكثير بسبب عدم قدرتي على اقتحام جوانب الحياة التي يمنعني عنها أسلوب حياتي والتعليم والجنس والسياسة والطبقة الاجتماعية التي أنتمي إليها. إنه الداء الذي أصاب أفضل الأشخاص في هذا الوقت، وبعضهم يمكنهم تحمله، وبعضهم ينهارون تحت الضغط الذي يشكله هذا الأمر عليهم. إنه إدراك جديد ومحاولة شبه لاواعية تجاه إدراك تخيلي جديد، مع أن ذلك الأمر مدمر للفن. إني أهتم فقط بالاستمتاع بكل لحظة أعيشها. عندما قلت هذا للأم شوجر أجابت بإيماءة بسيطة تنم عن شعورها بالرضا، يستخدمها الناس ردًّا على هذه الحقائق الرنانة التي مفادها أن الفنان يكتب بسبب عجزه عن العيش. وأتذكر أنني شعرت بالغثيان عندما قالت ذلك، وأستشعر ترددي النابع من الاشمئزاز الآن عندما أكتب ما قالته، ويرجع ذلك إلى أن كل ما يتعلق بالفن والفنانين أصبح منحطًّا، أصبح الفن ملكًا لكل هاوٍ لا يتمتع بالتفكير الجيد والسليم، حتى إن أي شخص يرتبط ارتباطًا حقيقيًّا بالفنون سيود أن يجري مئات الأميال عندما يرى هذه الإيماء أو الابتسامة اللتين يطل منهما الشعور بالرضا. إلى جانب ذلك، عندما تُكتشف إحدى الحقائق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اكتشافًا كليًا، تمثلت هذه الحقيقة في مادة الفن هذا القرن، عندما تصبح شعارًا متكررًا، يبدأ المرء يتساءل: هل هي فعلًا حقيقة؟ ويبدأ المرء يفكر في عبارات مثل «العجز عن الحياة» و«الفنان» ... إلخ، سامحًا لها بالتضخم والانكماش في عقله، وهو يحارب الشعور بالاشمئزاز والتفاهة، مثلما حاولت محاربتهما ذاك اليوم وأنا جالسة أمام الأم شوجر. ولكن المثير للدهشة هو كيف خرجت هذه الأفكار التي عفى عليها الزمن بهذا الشكل المهيب والمبتكر من بين شفتي واحدة من المحللين النفسيين. الأم شوجر، التي هي أكثر من امرأة مثقفة وإحدى الأوروبيات المنغمسات في عالم الفن، ذكرت بوصفها طبيبة نفسية تفاهات ستخجل من أن تقولها لو كانت جالسة مع أصدقائها وليس في غرفة الفحص، فهي تتبع مسلكًا في حياتها يختلف تمامًا عن ذلك المسلك التي تتبعه بوصفها طبيبة. لم أستطع تحمل ذلك، فهذا آخر شيء أستطيع أن احتمله، لأنه يعني أنها تتبع مستوى من الأخلاقيات في حياتها، ومستوى آخر مع المرضى. وأنا أعرف جيدًا من أي مستوى في نفسي بزغت هذه الرواية، رواية «حدود الحرب»، وعرفت وأنا أكتبها، وكرهتها في ذاك الحين وأكرهها الآن. ولأن هذا الجانب في نفسي أصبح قويًا جدًا، ويهدد بأن يقضي على كل شيء آخر، فقد هرعت إلى الطبيبة النفسية، وأنا أحمل روحي على كفيّ، لكنّ المعالجة نفسها ابتسمت برضا عندما سمعت كلمة «فن»، فكل ما يفعله الحيوان المقدس، الفنان، مبرر. والابتسامة التي تنم عن الشعور بالرضا، والإيماءة المتسامحة ليستا مقتصرتين فقط على المعالجين المثقفين أو الأساتذة، إنها ملك أيضًا للأشخاص المعنيين بالصِرافة، بكلاب الصحافة، الذين يمثلون العدو. عندما يريد أحد الأثرياء المختصين في صناعة الأفلام شراء فنان فالسبب الحقيقي وراء سعيه نحو الموهبة الأصيلة وبريق الإبداع أنه يريد تحطيمه، فهذه هي الرغبة التي تكمن عنده في اللاوعي، ولكي يبرر لنفسه تدمير هذه الموهبة الحقيقية يطلق على الضحية فنانًا؛ أنت فنان دون شك ... والضحية عادةً تبتسم ابتسامة متكلفة وتمتص شعورها بالاشمئزاز.

السبب الحقيقي وراء ولع فنانين كثيرين بالسياسة ومنهج «الالتزام» وغيرهما من الأمور المشابهة، هو أنهم يندفعون نحو نظام، أي نظام ينقذهم من شر كلمة «فنان» التي يستخدمها العدو.

إنني أتذكر في وضوح شديد اللحظة التي وُلدت فيها روايتي، ودق قلبي دقًا عنيفًا فيما بعد عندما عرفت أنني سوف أكتب، وتوصلت إلى ما يمكنني أن أكتبه؛ كان «الموضوع» غير مادي غالبًا، ولكن هذا ما يثير اهتمامي الآن: لماذا لم أكتب حكاية

خاصة بما حدث بدلًا من أن أؤلف «قصة» لم تكن لها أي علاقة بالظروف التي ألهمتني إياها. بالطبع لم تكن الحكاية المباشرة البسيطة التي لا شكل لها لتصبح «رواية»، ولم تكن لتنشر، لكنني لم أكن مهتمة في الحقيقة بأن «أصبح كاتبة» أو حتى بأن أكون ثروة. إنني لا أتحدث الآن عن هذه اللعبة التي يمارسها الكتاب مع أنفسهم عندما يكتبون، اللعبة النفسية ... فهذه الحادثة المكتوبة نبعت من حادثة حقيقية، وهذه الشخصية نُقلت من شخصية أخرى في الحياة، وهذه العلاقة كانت التوأم النفسي لنظيرتها. وإني أسأل نفسي ببساطة: لماذا نعمد إلى كتابة قصة، حتى وإن لم تكن قصة رديئة أو غير حقيقية أو منحطة على الإطلاق، لماذا لا ننقل الحقيقة وحسب؟

أشعر بالاشمئزاز عندما أنظر إلى ملخص المحاكاة الساخرة والخطابات من شركة الأفلام، مع أنني أعرف أن ما جعل شركة الأفلام شديدة الاهتمام باحتمالات تحويل هذه الرواية إلى فيلم كان تمامًا ما جعلها ناجحة كرواية. وتتحدث الرواية «عن» مشكلة العرق، ولم أقل فيها شيئًا غير صحيح، لكنّ العاطفة التي نبعت منها كانت مخيفة؛ الإثارة الرديئة المحمومة والمحظورة التي سادت فترة الحرب، والحنين الخادع، والاشتياق للفجور، للحرية، لحياة الغابة، ولانعدام الأشكال. من الواضح جدًّا لي أنني لا أستطيع قراءة هذه الرواية الآن دون الشعور بالخزي كأنني أقف عارية في أحد الشوارع. مع ذلك لا يبدو أن أحدًا غيري يرى ذلك، حتى المراجعين لم يروا ذلك، ولم ير أحد من أصدقائي المثقفين وأصدقائي في الوسط الأدبي ذلك. إنها رواية لاأخلاقية لأن هذا الحنين الزائف الشنيع يطل برأسه من كل عبارة، وأنا أعرف أنه من أجل أن أكتب رواية أخرى، فمن أجل أن أكتب خمسين تقريرًا عن المجتمع لدي المادة اللازمة لكتابتها، علي أن أشحن نفسي بهذه العاطفة نفسها، تلك العاطفة التي ستجعل هذه الكتب خمسين رواية وليست تحقيقات صحفية.

عندما أتذكر هذه الفترة، وتلك العطلات الأسبوعية التي قضيتها في فندق ماشوبي مع هذه المجموعة من الناس، عليّ أن أوقف شيئًا يعتمل بداخل نفسي، والآن وأنا أكتب عن هذه الأيام، عليّ أيضًا أن أوقف هذا الشيء، وإلا كانت «قصة» ستبدأ في الظهور، وستكون رواية، لكنها لن تعكس الكلمات الحقيقة. فالأمر يشبه تذكر علاقة حب متأججة المشاعر، أو الانشغال بالجنس. ومن المذهل أيضًا أنه كلما تعمق الشعور بالحنين بدأت «قصص» الإثارة تتكون وتتكاثر مثل الخلايا تحت الميكروسكوب. مع ذلك أجد هذا الحنين شديد القوة حتى إنني لا أستطيع أن أكتب سوى بضع جمل في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل مرة. لا شيء يفوق هذا الشعور بالعدمية من حيث القوة، ذلك الاستعداد النابع من الغضب للتخلص من كل شيء، ذلك التأهب، وهذا الاشتياق لأن يكون المرء جزءًا من عملية الانحلال والذوبان. وهذه العاطفة أحد أقوى الأسباب لاستمرار الحروب، وسوف تتسرب هذه العاطفة إلى نفوس قراء رواية «حدود الحرب»، حتى وإن لم يعوا ذلك، وهذا هو سبب شعوري بالخزي، وشعوري المستمر بأنني ارتكبت جريمة.

هذه المجموعة التي عشت معها هناك كانت تتكون من أفراد ألقت الصدفة بكل منهم في طريق الآخر، وأدركوا أنهم لن يلتقوا مرة أخرى ما إن تنتهي هذه المرحلة من الحرب، وجميعهم عرفوا واعترفوا بكل صراحة أنه لا يوجد بينهم أي شيء مشترك.

وأيًّا كانت المشاعر المتأججة والمعتقدات والضروريات البشعة التي خلقتها الحرب في أجزاء أخرى من العالم، فإنها تميزت في المكان الذي نعيش فيه — من البداية — بشعور مزدوج. وكان من الواضح على الفور أن الحرب ستصبح لنا حادثًا رائعًا، ولم يكن هذا شيئًا معقدًا في حاجة لأن يوضحه الخبراء، فوسط أفريقيا وجنوبها شهدا حالة من الانتعاش المادي على نحو ملموس؛ إذ الكل بات يحصل فجأة على كمية أكبر من الأموال، حتى الأفارقة، وحتى في ظل اقتصاد صُمم ليضمن عدم امتلاكهم إلا لأقل ما يلزمهم لكي يحيوا ويعملوا. ولم يكن هناك أيضًا أي نقص كبير في البضائع، وعلى الأقل لم يكن ذلك النقص خطيرًا جدًّا ليعوق الاستمتاع بالحياة. وبدأ المصنعون المحليون في صنع ما جرى استيراده من قبل، ومن ثم أثبتوا على نحو آخر أن الحرب لها وجهان ... فالاقتصاد كان خاملًا ومهملًا يعتمد فيما سبق على القوة العاملة غير المتطورة وغير الفعالة حتى إنه كان في حاجة إلى دفعة من الخارج من نوع ما، وكانت الحرب هي هذه الدفعة.

كان هناك سبب آخر للتشاؤم المغلف بالسخرية، ألا وهو أن الناس بدءوا يتحولون إلى التشاؤم عندما سئموا الشعور بالخزي — مثلما كانوا — في البداية. فقد قُدمت هذه الحرب لنا على أنها حملة صليبية ضد معتقدات هتلر الشريرة، ضد العنصرية وغيرها من هذه الأمور. ومع ذلك كل هذه المساحات الضخمة التي تقرب من نصف قارة أفريقيا الإجمالية كانت تدار وتحكم على أساس الافتراض الذي وضعه هتلر والذي يقضي بأن بعض الناس أفضل من غيرهم بسبب انتمائهم لعرق معين. وما يعجب له أن جموع الأفارقة في شمال القارة وجنوبها استمتعوا برؤية سادتهم البيض يقودون حملة صليبية للتخلص من الشيطان المتعصب للجنس ... ولم يكن

هؤلاء الأفارقة من المتعلمين. كانوا مستمتعين برؤية السادة البيض وهم في قمة التحمس للانطلاق والمحاربة على أي جبهة متاحة ضد عقيدة كانوا سيموتون للدفاع عنها على أرضهم. وخلال الحرب ازدحمت أعمدة مراسلات الصحف بالمناقشات حول تأمين ترك بندقية — ولو كانت طلقاتها من الفلين — في أيدي أي جندي أفريقي، فمن المحتمل أن يديرها في وجه سادته البيض، أو يستخدم هذه المعرفة المفيدة فيما بعد، وفي النهاية وصلوا للقرار الصائب بأن إجراء كهذا لن يكون آمنًا.

هذان هما السببان اللذان جعلا من هذه الحرب ساخرة وممتعة، من البداية.

(ها أنا ذا أعود مرة أخرى إلى النبرة الخاطئة، وإني لأكره هذه النبرة، مع ذلك عشنا جميعًا داخلها أشهر وسنوات وألحقت بنا جميعًا — وأنا واثقة من ذلك — دمارًا كبيرًا، فهي نوع من معاقبة النفس، وكبت المشاعر، ورفض تركيب الأشياء المتنافرة، أو العجز عن هذا التركيب، لتكوين كل متكامل يستطيع الجميع العيش فيه مهما كان شنيعًا. ويعني الرفض عدم استطاعة المرء التغيير أو التدمير؛ يعني الرفض في النهاية الموت أو استنزاف الفرد.)

سوف أحاول أن أسرد الحقائق فقط. أما العوام من السكان فكان للحرب عندهم مرحلتان؛ أولهما: عندما ساءت الأمور وكانت الهزيمة ممكنة، وانتهت هذه المرحلة نهائيًّا في ستالينجراد، واستمرت المرحلة الثانية حتى تحقق النصر.

أما نحن، أقصد اليساريين والليبراليين ذوي الصلة باليسار، فنرى أن للحرب ثلاث مراحل؛ الأولى: عندما أنكرت روسيا الحرب، مما أدى إلى كبح جماح إخلاصنا جميعًا؛ إخلاص الخمسين أو المائة فرد الذين كان الإيمان بالاتحاد السوفييتي منبع عاطفتهم، وانتهت هذه المرحلة عندما هاجم هتلر روسيا، وعلى الفور انفجرت الهمة.

اتسم الناس بالعاطفة الشديدة تجاه الشيوعية أو بالأحرى تجاه أحزابهم الشيوعية، ومنعهم ذلك من التفكير في موضوع سوف يكون يومًا ما مبحثًا لعلماء الاجتماع، وهذا الموضوع هو الأنشطة الاجتماعية التي تتواصل كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لوجود أحد الأحزاب الشيوعية، ويتجسد في البشر أو مجموعات البشر الذين لا يعرفون أن هذه النشاطات استلهمت أو أصبحت أكثر حيوية أو اكتسبت دفعة جديدة بثت فيها الحياة بسبب الحزب الشيوعي، وهذا صحيح لكل الدول التي كان فيها أفرع للحزب الشيوعي حتى ولو كانت أفرعًا صغيرة. وفي مدينتنا الصغيرة، بعد عام من اشتراك روسيا في الحرب واستعادة اليسار نشاطه بسبب الحرب، كُوِّن أوركسترا صغير وحلقات قراءة ومجموعتان مسرحيتان وجمعية خاصة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالأفلام السينمائية، وأجرى مجموعة من الهواة استطلاعًا للرأي حول الأطفال الأفارقة في الحضر، وأثار هذا الاستطلاع عند صدوره وعي البيض، وكانت بداية لظهور شعور بالذنب كان يجب أن يظهر منذ وقت طويل، وعقدت نحو ست مناقشات أجرتها مجموعات مختلفة لتتحدث بشأن المشكلات الأفريقية، هذا فضلًا عن الأنشطة المباشرة التي ليست هي موضوع حديثي الآن. ولأول مرة في تاريخ هذه المدينة كان هناك شيء يشبه حياة ثقافية، واستمتع بهذه الحياة مئات الناس الذين عرفوا عن الشيوعيين أنهم مجموعة من الناس عليهم أن يبغضوهم. وبالطبع الكثير من جوانب هذه الظواهر لم يوافق عليها الشيوعيون أنفسهم، ورفضوها أيضًا فيما بعد وهم في أوج نشاطهم وتمسكهم بآرائهم. مع ذلك ألهم الشيوعيون هذه النشاطات بأفكارهم لأن الإيمان المكرس للبشرية ينشر آثاره في كل مكان.

فيما يتعلق بنا، في المرحلة التي تلت ذلك (وكان ذلك هو الوضع في جميع المدن في الشمال والجنوب في هذا الجزء من أفريقيا) بدأت فترة من النشاط المكثف. وانتهت هذه المرحلة — مرحلة الثقة الممتزجة بالشعور بالسعادة — في وقت ما عام ١٩٤٤، قبل نهاية الحرب. ولم يكن هذا التغيير نابعًا من حدث خارجي مثل تغير في «اتجاه» الاتحاد السوفييتي، بل كان داخليًّا وناشئًا عن التطور الذاتي، وعندما أنظر للخلف أستطيع رؤية بداياته غالبًا من اليوم الأول لتأسيس الجماعة الشيوعية. ومما لا شك فيه أن كل اجتماعات المناقشة والجماعات المختلفة انتهت أنشطتها تمامًا عندما بدأت الحرب الباردة، وأصبح أي اهتمام بالصين والاتحاد السوفييتي من أي نوع مشكوكًا فيه بعد أن كان يمثل نوعًا من مسايرة روح العصر. (واستمرت الهيئات التي لم يكن لها أي نشاط سوى النشاطات الثقافية البحتة مثل فرق الأوركسترا والمجموعات المسرحية وغيرها في الوجود.) لكن عندما كان الشعور «اليساري» أو «التحرري» أو «الشيوعي» — أيًّا كانت الكلمة الصحيحة، فمن هذه المسافة يصعب تحديد الكلمة الصائبة — في أوجه في مدينتنا، أصابت المجموعة الداخلية — التي تشتمل على من أوجدوا — حالة من الكسل أو الحيرة أو على أحسن تقدير يمكننا أن نقول إنهم كانوا يعملون من منطلق الشعور بالواجب. في هذه الفترة لم يفهم أحد بالطبع الأمر، ولكنه كان حتميًّا. والآن من الواضح أن مبدأ الانقسام الذاتي هو مبدأ مغروس بالفطرة في هيكل أي حزب أو مجموعة شيوعية، فأي حزب شيوعي بأي مكان يمكن أن يولد ويزدهر عن طريق استبعاد الأفراد أو المجموعات، ليس بناء على ميزات أو نقائص شخصية ولكن طبقًا للكيفية التي يتوافقون بها مع الديناميكية الداخلية للحزب في

أي لحظة من اللحظات. لم يحدث شيء لمجموعتنا الصغيرة المكونة من مجموعة من الهواة والمثيرة للسخرية المضحكة لم تشهده من قبل مع مجموعة إسكرا في لندن في بداية القرن، في بداية الشيوعية المنظمة. ولو عرفنا أي شيء على الإطلاق عن تاريخ حركتنا، لنجونا من النظرة التشاؤمية الساخرة والإحباط والحيرة، لكن ليس هذا هو ما أريد قوله الآن. في حالتنا المنطق الداخلي «للمركزية» جعل عملية الانحلال حتمية، لأنه لم تربطنا أي علاقة على الإطلاق مع الحركات الأفريقية التي نشأت قبل ظهور أي نوع من نقابات العمال، وقبل مولد أي حركة منادية بالقومية، ففي ذلك الوقت كان هناك عدد قليل من الأفارقة الذين التقوا سرًّا بالقرب من الشرطة دون أن تلاحظهم، لكنهم لم يثقوا بنا لأننا من ذوي البشرة البيضاء. حضر شخص أو اثنان طالبين نصيحتنا بخصوص أمور تقنية لكننا لم نعلم قط ما كان يدور في عقولهم بالضبط. وتمثل الموقف في أن مجموعة من الناشطين السياسيين البيض المزودين بكل أنواع المعلومات عن تنظيم الحركات الثورية عملت بمفردها لأن همة الجماهير السوداء لم تتحرك بعد ولن تتحرك إلا بعد بضع سنين، وكان هذا هو الوضع نفسه داخل الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا، فالمعارك والنزاعات والنقاشات التي تدور داخل مجموعتنا — والتي كان من الممكن أن تكون سبب ازدهار لولا أنها أجنبية بلا جذور في هذه الأرض — سرعان ما دمرتنا. وفي أقل من عام انقسمت مجموعتنا، وأصبحت تضم مجموعات فرعية وخائنين ومجموعة أساسية مخلصة ظل أعضاؤها يتغيرون ما عدا واحدًا منهم أو اثنين، ولأننا لم نفطن لهذه العملية فقد استنزفت طاقتنا العاطفية. ومع أنني عرفت منذ أن شُكِّلَت هذه المجموعة أنها ستدمر نفسها، فلم أستطع أن أحدد اللحظة التي تغيرت فيها نبرة حديثنا وسلوكياتنا. كنا نعمل بجهد شديد ولكن نزعة تشاؤمية تعمقت داخلنا باستمرار، والنكات التي نتبادلها خارج الاجتماعات الرسمية مضادة لما قلناه وما كنا نظن أنا نؤمن به. ومن هذه الفترة من حياتي تعلمت كيف أراقب مزاح الناس، فنبرة الصوت التي بها مسحة من المكر، نزعة يمكن في غضون عشر سنوات أن تتحول إلى سرطان يدمر شخصية بأكملها، رأيت ذلك كثيرًا وفي أماكن أخرى بخلاف المنظمات السياسية والشيوعية.

المجموعة التي أريد الكتابة عنها أصبحت كذلك بعد صراع مرير في «الحزب»، (لا بد أن أضع هذه الكلمة بين قوسين لأن الحزب لم يتأسس رسميًّا، وكان أشبه بكيان عاطفي.) وانقسمت المجموعة إلى كيانين بسبب شيء لم يكن شديد الأهمية؛ بل شيء تافه جدًّا حتى إنني لا أستطيع تذكره، ولا أتذكر سوى الاندهاش البالغ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي شعرنا به جميعًا من أن كل هذا البغض الشديد وكل هذه المرارة البالغة ربما يتولدان نتيجة مسألة ثانوية تتعلق بالتنظيم، واتفقت المجموعتان على الاستمرار في العمل معًا ... واستمرت حالة من العقلانية الشديدة تمتعنا بها، لكن في ظل وجود سياستين مختلفتين. أريد أن أطلق ضحكة بدافع من اليأس حتى في هذه اللحظة؛ إذ كان الموضوع برمته عديم الصلة، وتمثلت الحقيقة في أن المجموعة كانت شبيهة بمجموعة من المنفيين يحملون داخلهم شعورًا محمومًا بالمرارة بسبب تفاهات، وكنا جميعًا منفيين واقترب عددنا من العشرين شخصًا، لأن أفكارنا كانت مبتعدة تمام البعد عن تطوير الدولة. والآن أتذكر أن المشاجرة حدثت بسبب شكوى نصف الأعضاء من أن أعضاءً بعينهم لم تكن «جذورهم مرسخة في الدولة»، ومن ثم انقسمنا إلى هذين الاتجاهين.

في مجموعتنا الفرعية الصغيرة كان ثلاثة رجال من المعسكرات الجوية الذين عرف أحدهما الآخر في البداية في أكسفورد، وهم بول وجيمي وتيد. بعد ذلك انضم إليهم جورج هاونسلو الذي عمل في الطرق، ثم انضم إليهم أيضًا ويلي رود اللاجئ من ألمانيا وأنا، إلى جانب ماريروز التي وُلدت في هذا البلد. كنت شاذة عن بقية أعضاء المجموعة لأنني الوحيدة التي تتمتع بالحرية؛ الحرية بمعنى أنني اخترت الحضور إلى المستعمرة في المقام الأول وباستطاعتي أن أغادر متى أحببت، ولمَ لا أتركها؟ فأنا كرهت هذا المكان وكان هذا شعوري منذ أن انضممت إليه لأول مرة عام ١٩٣٩ لأتزوج وأصبح زوجة مزارع تبغ. قابلت ستيفن في لندن في العام السابق عندما كان في عطلة، وفي اليوم الذي تلا وصولي إلى المزرعة علمت أنني أحببت ستيفن لكنني لم أستطع قط تحمل الحياة. وبدلًا من العودة إلى لندن ذهبت إلى المدينة وعملت سكرتيرة، ولأعوام بدت حياتي مكونة من أنشطة بدأت أفعلها مؤقتًا في حماس ناقص وظللت أفعلها؛ فمثلًا أصبحت «شيوعية» لأن اليساريين كانوا الوحيدين في المدينة الذين يتمتعون بقدر من الأخلاق، والوحيدين الذين سلموا بأن التمييز العنصري شديد البشاعة، ومع ذلك كان هناك دائمًا شخصيتان داخلي؛ آنا الشيوعية وآنا التي تحكم على الشخصية الشيوعية طوال الوقت، والعكس صحيح، وأفترض أن هذه لامبالاة من نوع ما. عرفت أن الحرب على الأبواب ومن الصعب السفر للعودة إلى الوطن، ومع ذلك بقيت هناك، إلا أنني لم أستمتع بالحياة، ولم أستمتع بالسعادة، بل ذهبت إلى حفلات الشرب المسائية والحفلات الراقصة ولعبت التنس واستمتعت بأشعة الشمس. ويبدو أنه مضى وقت طويل على هذه الأشياء، فأنا لا أستطيع أن

«أشعر» بنفسي وأنا أقوم بأي من هذه الأنشطة. لا أستطيع أن «أتذكر» كيف كنت وأنا سكرتيرة السيد كامبيل، أو وأنا أرقص كل ليلة، أو وأنا أقوم بأي نشاط آخر، كأنها حدثت مع شخص آخر، ومع ذلك أستطيع رؤية نفسي وأنا أفعل هذه الأمور، ولكن لم يتحقق ذلك إلى أن عثرت على صورة قديمة غير ملونة أول أمس بها فتاة ضئيلة الحجم نحيفة هشة تشبه الدمية. كنت أكثر رقيًّا من الفتيات اللاتي يعشن في المستعمرة بالطبع، لكنني أقل خبرة بكثير، حيث يتمتع الناس في المستعمرات بحرية أكبر لفعل ما يريدون، ويمكن أن تفعل الفتيات هناك الأشياء التي كنت سأضطر إلى المحاربة من أجل فعلها في إنجلترا. وتمتعت برقي أدبي واجتماعي، ومقارنةً بفتاة مثل ماريروز، وعلى الرغم من رقتها وضعفها الواضحين، كنت طفلة. وتظهرني الصورة واقفة على مدرجات النادي وفي يدي مضرب التنس، على وجهي في الصورة ملامح الاستمتاع والسخط، ووجهي صغير وحادّ. لم أكتسب قط هذه الصفة الاستعمارية الفاتنة؛ خفة الظل (ولم هي فاتنة؟ ولكنني مع ذلك استمتعت بها حقًّا.) لكنني لا أستطيع أن أتذكر كيف شعرت، فيما عدا أنني كنت أردد لنفسي كل يوم، حتى بعد أن بدأت الحرب، إنني لا بد أن أحجز تذكرة للعودة إلى الوطن. في تلك الفترة تقريبًا قابلت ويلي رود وانخرطت في أمور سياسية، ولم تكن تلك هي المرة الأولى. كنت صغيرة في السن جدًّا بالطبع على أن أنشغل بقضية أسبانيا، ولكن أصدقائي فعلوا، لذا فالشيوعية والحزب اليساري لم يكونا شيئًا جديدًا عليّ. لم أعجب بويلي، ولم يعجب هو بي، لكننا بدأنا نعيش معًا، أو فعلنا قدر المستطاع، في مدينة صغيرة يعرف الجميع فيها ما يفعله الآخرون. أقمنا في الفندق نفسه وتشاركنا معًا في الوجبات، وبقينا معًا قرابة ثلاث أعوام، ومع ذلك لم يحب أحدنا الآخر ولم يفهم أحدنا الآخر. ولم نستمتع حتى بعلاقة الفراش، ومما لا شك فيه أنني وقتئذٍ لم أكن ذات خبرة، نظرًا لأنني لم أضاجع رجلًا سوى ستيفن، وحدث ذلك لمرات قليلة. ولكنني حينذاك علمت، أنا وويلي، أننا لم نكن متوافقين. ولأنني خبرت العلاقة الجنسية منذ هذه اللحظة، فأنا أعرف أن كلمة عدم التوافق تعني شيئًا مهمًّا جدًّا، ولا تعني الكلمة عدم حب كل طرف للآخر أو عدم الشعور بالتعاطف أو عدم الصبر أو الجهل، فيمكن أن يحدث عدم التوافق الجنسي بين شخصين يشعران بالسعادة في الفراش مع أشخاص آخرين، وكأن التركيبات الكيميائية في أجسادهنّ معادية أحدها للآخر. فهمت أنا وويلي هذا الأمر جيدًا ولذا لم ندخل كبرياءنا في الموضوع. كانت المشاعر المتبادلة بيننا متعلقة بهذه النقطة فحسب. كان لدينا شعور بالشفقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من نوع ما أحدنا تجاه الآخر؛ إذ ابْتُلِي كلانا على نحو مستمر بشعور انعدام الحيلة الذي ينم عن الشعور بالحزن لعجزنا عن إسعاد أحدنا الآخر في هذا الموضوع. ومع أنه لم يكن شيء يمنعنا عن اختيار شركاء آخرين، فلم نفعل. وحقيقة أنني لم أفعل ذلك لا تثير الدهشة، لأن تلك الصفة في شخصيتي التي أسميها لامبالاة أو فضولًا تجعلني دائمًا عالقة في موقف ما وقتًا طويلًا في حين كان يجب أن أتركه من أوله. تُرى أضعف هذا؟ حتى كتابة هذه الكلمة لم أفكر فيها مطلقًا على أنها منطبقة عليّ، إلا أنني أظن أنها تنطبق عليّ. على النقيض من ذلك لم يكن ويلي ضعيفًا، بل كان أكثر الأشخاص الذين قابلتهم قسوةً.

بكتابة هذا الكلام أشعر بالاندهاش؛ ماذا أعني بما ذكرته؟ كان ويلي قادرًا على منح الكثير من الحنان، والآن أتذكر أنني على مدار كل هذه السنوات السابقة، اكتشفت أنه أيًّا كانت الصفة التي طبقتها على ويلي فقد استطعت دائمًا استخدام عكسها. نعم، هذا صحيح، ونظرت في أوراقي القديمة ووجدت قائمة عنوانها «ويلي»:

قاس حنون
فاتر دافئ
عاطفي واقعي

وهكذا حتى نهاية الصفحة، وبالأسفل كتبت: «من كتابة هذه الكلمات عن ويلي اكتشفت أنني لا أعرف شيئًا عنه؛ فالمرء ليس مضطرًّا لكتابة قوائم من الكلمات عن شخص يفهمه.»

لكن ما اكتشفته حقًّا، مع أنني لم أكن أدركه حينئذٍ، هو أنه في وصف أي شخصية، لا تحمل كل هذه الكلمات أي معنى، فمن أجل وصف شخص على المرء أن يقول: «ويلي، وهو يجلس متيبسًا على رأس الطاولة، حدق بعينيه في الناس الذين يشاهدونه مما جعل عدستي نظارته المستديرتين تتألقان في بريق، وقال في لهجة رسمية لم تخل من روح الدعابة التي كانت فظة وغير متقنة ...» هكذا يمكن أن يصف المرء شخصًا. والفكرة هنا، وهي الفكرة التي تسيطر على تفكيري (من المثير للدهشة أن هذا الهوس يطرح نفسه، منذ زمن طويل، في صورة قوائم لا فائدة لها مشتملة على كلمات متناقضة، ولم أعرف إلى أي شيء ستتحول.) كنت أقول إن الفكرة هنا هي أنني بذكري لكلمات مثل جيد/سيئ وقوي/ضعيف لا صلة لها بالموضوع فهذا معناه أنني أتقبل فكرة تنحية الأخلاق جانبًا، وأتقبلها أيضًا في اللحظة التي

أبدأ فيها كتابة «قصة» أو «رواية»، لأنني ببساطة لا أبالي بهذا الأمر، وكل ما أهتم به هو أن عليّ وصف ويلي وماريروز حتى يستطيع أي قارئ الشعور بحقيقتهما. وبعد عشرين عامًا من العيش مع حزب اليسار وبالقرب منه، أي عشرين عامًا من الانشغال بقضية الأخلاقية في الفن، هذا هو ما تبقى بحوزتي. لذا فهل ما أقوله هو أن الشخصية الإنسانية، هذا اللهب الفريد من نوعه، مقدسة جدًّا عندي حتى إن كل شيء آخر يصبح عديم الأهمية؟ هل هذا هو ما أقوله؟ إن كان الأمر كذلك فماذا يعني ما أقول؟

لنعد إلى ويلي، أقول إنه كان المركز العاطفي في مجموعتنا الفرعية، وكان قبل الانقسام مركز المجموعة الكبيرة، ولكن بعد الانقسام بات هناك رجل آخر قوي شبيه بويلي يقود المجموعة الفرعية الأخرى. كان ويلي هو مركز المجموعة بسبب يقينه الحازم في أنه على حق. كان أستاذًا في الجدل، وربما كان شديد الدقة والذكاء عند تشخيص المشكلات الاجتماعية، ويمكن أن يكون في الجملة التالية متعصبًا لرأيه على نحو من الحمق. وبمرور الوقت بدأ ويلي يصبح أكثر تبلدًا، لكن الشيء الغريب أن الناس استمروا في معاملته على أنه الأكثر أهمية، الناس الأكثر ذكاء منه، حتى عندما عرفوا أنه يهذي، حتى عندما بلغنا المرحلة التي استطعنا فيها أن نضحك أمامه ساخرين منه ومن بعض حواراته المتحذلقة، ظللنا نعامله على أنه الأكثر أهمية وظللنا نعتمد عليه. إن من المرعب أن ذلك يمكن أن يكون صحيحًا.

مثلًا، عندما ظهر في حياتنا عنوة وتقبلنا وجوده أخبرنا أنه كان عضوًا في الجماعة السرية المناهضة لهتلر. وهناك أيضًا قصة رائعة عن قيامه باغتيال ثلاثة من رجال قوات الشرطة الخاصة بالحزب النازي ودفنهم سرًّا ثم هروبه إلى الحدود وبعدها إلى إنجلترا. صدقنا هذه القصة بالطبع، ولِم لا نصدقها؟ ثم جاء سام كيتنر من جوهانسبرج، وهو شخص كان يعرفه لسنوات، وأخبرنا أن ويلي لم يمثل أي شيء في ألمانيا سوى شخص ليبرالي، وأنه لم ينضم قط لأي مجموعة مناهضة لهتلر، وأنه لم يغادر ألمانيا إلا عندما أصبح مطلوبًا للالتحاق بالجيش، حتى بعد أن عرفنا ذلك تصرفنا وكأننا نصدق القصة. هل لأننا ظننا أنه قادر على فعل ذلك؟ حسنًا إنني واثقة من أنه كانت لديه هذه القدرة، لأن الرجل يكون رائعًا على قدر روعة قصصه وخيالاته.

لكنني لا أريد أن أكتب تاريخ ويلي، فقد كان ذلك شيئًا شائعًا جدًّا في هذه الفترة. كان ويلي لاجئًا من قارة أوروبا الراقية وظل عالقًا في منطقة نائية منعزلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن كل جديد طوال فترة الحرب. ولذا فإن شخصيته هي التي أود وصفها، إن استطعت. كان اللافت للنظر في شخصيته الكيفية التي يجلس بها ليحسب كل شيء سيحدث له في السنوات العشرة المقبلة، ثم يضع الخطط سلفًا. ولا يوجد شيء يصعب على معظم الناس فهمه أكثر من أن يوجد رجل يستطيع أن يخطط على نحو مستمر لمواجهة جميع الاحتمالات التي ربما ستحدث بعد خمس سنوات، والمصطلح المستخدم لوصف هذه الحالة هو النفعية، وقلة قليلة جدًّا من الناس من يكونون نفعيين حقًّا، ولا يتطلب ذلك فقط صفاء العقل عندما يفكر في الذات، وهو شائع إلى حد ما، بل يتطلب أيضًا قوة راسخة دافعة، وهي نادرة. فمثلًا، على مدار الخمس سنوات التي استغرقتها الحرب، شرب ويلي الجعة (التي يكرهها) صباح كل يوم سبت بصحبة رجل التحقيق الجنائي (الذي يحتقره) لأنه رأى أن هذا الرجل بعينه قد يصبح مسئولًا رفيع المستوى وعندها يصبح ويلي بحاجة إليه، وكان محقًّا في ذلك لأنه عندما انتهت الحرب استخدم هذا الرجل علاقاته ونفوذه من أجل حصول ويلي على حقوق الجنسية قبل أن يحصل عليها أي لاجئ آخر، ومن ثم كان ويلي حرًّا لترك المستعمرة قبل عامين من منح زملائه اللاجئين حرية المغادرة. وكما تبين قرر ويلي ألا يعيش في إنجلترا وأن يعود إلى برلين؛ ذلك أنه إذا اختار إنجلترا، كان سيحتاج للحصول على الجنسية البريطانية ... إلخ، فكل شيء فعله اتسم بالتخطيط المحسوب على نحو دقيق، لكن بدا واضحًا جدًّا أن أحدًا لم يصدق أنه يتمتع بهذه الصفة. لا أدل على ذلك من ظننا أنه أحب حقًّا الرجل الذي يعمل في مكتب التحقيق الجنائي كشخص، لكنه كان خجولًا من الاعتراف بأنه أحب «عدوًّا للشعب»، وعندما اعتاد ويلي أن يقول: «لكنه سيكون مفيدًا لي»، كنا نضحك من قلوبنا على نقطة الضعف هذه التي تجعله أقرب إلى الطبيعة البشرية.

كنا نظنه شخصًا غير آدمي. لعب ويلي دور المفوض، القائد الشيوعي المفكر، لكنه أكثر نماذج الأشخاص الذين قابلتهم تعبيرًا عن أبناء الطبقة الوسطى، أعني بذلك أنه في كل دوافعه يؤيد النظام والاستقامة والحفاظ على ما هو موجود. أتذكر جيمي وهو يسخر منه ويقول إنه لو تزعم ثورة ناجحة يوم الأربعاء، فبحلول الخميس سيُقلد وزارة الأخلاق التقليدية، وحينها قال ويلي إنه اشتراكي وليس فوضويًّا.

لم يكن متعاطفًا مع الضعفاء أو المحتاجين أو المهمشين، وكان يحتقر الذين سمحوا لحياتهم بأن تضطرب بسبب الانفعالات الشخصية. وذلك لا ينفي قيامه

بقضاء ليال كاملة يسدي النصائح السديدة لشخص في مأزق، لكن النصيحة كانت تهدف جعل الشخص الذي يعاني يشعر أنه غير مؤهل وبلا قيمة.

تربى ويلي بأكثر أساليب التربية التقليدية التي يمكن تصورها في محيط الطبقة المتوسطة العليا في برلين في أواخر العشرينيات والثلاثينيات وسط بيئة وصفها بالمنحلة على الرغم من أنه كان جزءًا منها إلى حد بعيد. مارس الشذوذ التقليدي لفترة وجيزة وهو في الثالثة عشر من عمره، واغتصبته خادمة عندما كان عمره أربعة عشر عامًا، ثم انخرط في حضور الحفلات وركوب السيارات السريعة وتداخل مع مطربي الملاهي الليلية، وأجرى محاولة رقيقة الشعور لتقويم إحدى فتيات الليل بات الآن يسخر منها، وازدرى هتلر ازدراء الأرستقراطيين، وكان معه دائمًا أموال كثيرة.

كان حسن الهندام، حتى وهو في المستعمرة وقت حصوله على بضعة جنيهات أسبوعيًّا، وكان يبدو أنيقًا جدًّا وهو مرتدٍ الحلة التي صنعها له خياط هندي مقابل عشر شلنات. كان متوسط الطول نحيفًا منحني الظهر قليلًا، يغطي رأسه شعر أسود لامع ناعم للغاية يتراجع سريعًا للوراء، وله جبهة عريضة، وعينان خضراوان خاليتان تمامًا من أي تعبير — تكادان لا تُريان وراء عدستي نظارته — يطل منهما التركيز على نحو مستمر، وأنف بارز ينم عن تسلطه، يستمع في صبر حين يتحدث الآخرون، وتومض عدستا نظارته، ثم يخلعها من فوق عينيه، فتظهران فتكونا ضعيفتين في البداية وترمشان في محاولة للتأقلم مع الرؤية دون وجود النظارة، ثم فجأة تضيقان وتنظران نظرات تقييمية، ويتحدث في لهجة استعلائية غير متكلفة، فيأخذ بألباب الجميع. كان هذا هو ويلهيلم رود، الثوري المحنك الذي ذهب إلى شرق ألمانيا فيما بعد (بعد أن فشل في الحصول على الوظيفة الملائمة ذات الراتب المناسب في شركة بلندن) وأصبح مسئولًا يتمتع بقدر معقول من السلطة، وكان قد ألمح بصراحته الفظة المعتادة: قيل لي إن الناس يعيشون حياة رائعة هناك حيث السيارات والسائقون. وإني واثقة من أنه مسئول شديد الكفاءة، وأوقن كذلك أنه عطوف وقت أن تسمح الظروف، لكنني أتذكره في ماشوبي، وأتذكرنا جميعًا حينما كنا هناك، وتبدو لي كل هذه السنوات التي قضينا فيها الليالي في التحدث والأنشطة — عندما كنا كيانات سياسية — لا تكشف الكثير من حقيقتنا مثل تلك الليالي التي قضيناها في ماشوبي. وذلك بالطبع كما قلت يرجع فقط إلى انعزالنا عن الآخرين من الناحية السياسية وافتقادنا لأية فرصة للتعبير عن أنفسنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن هناك أي تشابه بين الرجال الثلاث الملحقين بمعسكر الطيران سوى الزي الرسمي مع أنهم كانوا أصدقاء في أكسفورد، واعترفوا أن نهاية الحرب ستكون نهاية صداقتهم، وأحيانًا يقرون بافتقارهم إلى حب أحدهم الآخر محبة حقيقية في صوت واضح قاسٍ ومستهزئ بالذات، وهو الصوت الذي كان مشتركًا بيننا جميعًا خلال هذه الفترة عينها؛ جميعًا ما عدا ويلي الذي تنازل عن نبرة الصوت أو الأسلوب المميز لتلك الفترة بهدف السماح بمساحات من الحرية للآخرين، كان هذا هو أسلوبه في المشاركة في حالة الفوضى. وفي أكسفورد كان هؤلاء الرجال الثلاث من الشواذ، وعندما كتبت هذه الكلمة ونظرت إليها أدركت قوتها على إحداث حالة من الإرباك، عندما أتذكر الرجال الثلاث وما كانوا عليه وشخصياتهم لا أصاب بأية صدمة ولا تنتابني لحظة ارتباك، لكن أن أنظر إلى كلمة «شواذ» وهي مكتوبة على الورق، عليّ أن أقاوم الشعور بالنفور والقلق، إنه لأمر غريب. إن توصيفي للكلمة يكمن في أن هؤلاء الشبان بعد مرور ثمانية عشر شهرًا، كانوا يمزحون بشأن «مرحلة الشذوذ التي مروا بها» ويسخرون من أنفسهم في ازدراء لفعل شيء ببساطة كان رائجًا. كانوا يفعلون ذلك بين مجموعة منحلة مكونة من عشرين فردًا، لم تكن اتجاهاتهم اليسارية والأدبية واضحة، وأقاموا جميعًا علاقات بعضهم مع بعض بشتى الأشكال الجنسية، ووجود الأمر في هذا الشكل جعله ملحًا جدًا، كان ذلك في بداية الحرب، وكانوا جميعًا في انتظار استدعائهم، وبات واضحًا عندما نعيد النظر أنهم كانوا يخلقون عن عمد حالة من الطيش كنوع من الاحتجاج الاجتماعي وكان الجنس جزءًا من هذه الحالة.

كان بول بلاكينهيرست أكثر الرجال الثلاث لفتًا للنظر، بسبب طبيعته الساحرة، بول هو الشاب الذي استلهمت منه في رواية «حدود الحرب» شخصية «الطيار الشاب الباسل» الذي يفيض حماسة ومثالية. وفي الحقيقة لم تكن شخصيته مشتملة على أي نوع من أنواع الحماسة، لكنه يعطي الانطباع بها لتقديره الشديد لأي شيء خارج عن الأعراف الاجتماعية أو الأخلاقية، أما بروده الحقيقي فقد توارى خلف سحره والكياسة التي تغلف كل شيء يفعله. كان شابًا طويل القامة، حسن الهيئة، قوي البنية، وفي الوقت ذاته يقظ ورشيق في تحركاته. وجهه مستدير، وعيناه مكتملتا الاستدارة وشديدتا الزرقة، وبشرته ناصعة البياض وصافية بخلاف تناثر النمش أعلى قصبة الأنف الفاتنة، وشعره الناعم الكثيف ينسدل دائمًا للأمام على جبينه، وفي ضوء الشمس يبدو ذهبيًا جدًا، وفي الظل بنيًا مائلًا إلى اللون الذهبي الدافئ، وحاجباه

الواضحان يلمعان لمعانًا خفيفًا مثل شعره. كان بول يواجه كل من قابله بشعاع من عينيه أزرق اللون مشرقًا، مراعيًا للآخرين في إيجابية، شديد الجدية، ومتفرسًا بكياسة، ينحني قليلًا محاولًا أن يعبر للآخر عن تقديره الخالص. وفي اللقاء الأول كان صوته لا يعدو كونه همسًا ساحرًا رقيقًا، وعجز القليلون عن عدم الاستسلام لهذا الشاب الفاتن الذي يثير ارتداؤه للزي العسكري شفقة الآخرين (على الرغم من أنه بالطبع لم يرتدِ إياه راغبًا). استغرق معظم الناس وقتًا طويلًا لاكتشاف أنه يسخر منهم. رأيت نساءً، وحتى رجالًا، تصفر وجوههم تمامًا من الصدمة عندما يدركون معنى عبارة ينطقها في بطء وهدوء وتطل منه القسوة، ويحدقون فيه وهم لا يكادون يصدقون أن هذا الوجه الذي تطل منه البراءة الصريحة ربما يعمد إلى التصرف بمثل هذه الوقاحة. وفي الحقيقة كان بول مثل ويلي إلى حد بعيد في سمة غروره فحسب، هذا الغرور المميز للطبقة العليا، إنه إنجليزيّ من الطبقة المتوسطة العليا وشديد الذكاء، وأبواه ذوا مكانة اجتماعية راقية؛ إذ حاز أبوه لقب سير أو شيئًا من هذا القبيل. يتمتع بثقة مطلقة في النفس، وهي ثقة انفعالية وجسمانية تنبع من تربيته في عائلة تقليدية دون أي مشاكل مالية، وتنتشر «العائلة» — التي تحدث عنها بالطبع في سخرية — في أرجاء المناطق الشمالية من المجتمع الإنجليزي. وكان يقول: «منذ عشر سنوات كنت سأعلن أن إنجلترا لي وأنا أعرف ذلك! بالطبع سوف تقضي الحرب على ذلك كله، أليس كذلك؟» وتوحي ابتسامته بأنه لا يثق بأي شيء من هذا القبيل ويأمل أن نتمتع نحن بالذكاء لنصدق ذلك، ومن الترتيبات أنه سيذهب إلى المدينة عندما تنتهي الحرب، وتحدث عن ذلك أيضًا في سخرية، قال والتفكه مرتسم على جانبي فمه الجذاب: «إن تزوجت امرأة غنية فسأصبح أحد أقطاب الصناعة، فلدي الذكاء والتعليم والخلفية، وكل ما أحتاج إليه هو المال. وإن لم أتزوج من امرأة غنية فسوف أكون ملازمًا، والأكثر متعة بالطبع أن أكون خاضعًا للأوامر مع عدم تحمل مسئوليات كثيرة.» لكننا جميعًا عرفنا أنه سيصبح على الأقل عقيدًا، لكن الشيء الغريب هو أن مثل هذا الحوار كان يدور عندما بلغت الجماعة «الشيوعية» أقصى درجات الثقة، كان يظهر بشخصية في الغرفة المخصصة لانعقاد اللجنة وبشخصية أخرى فيما بعد عندما نذهب إلى المقهى، ولا يعتبر ذلك عبثًا كما يبدو، لأنه إذا تورط بول في حركة سياسية تستطيع استخدام مواهبه فسيظل فيها، مثله مثل ويلي الذي أصبح قائدًا شيوعيًّا عندما عجز عن فهم الاستشارات الخاصة بمجال الأعمال (التي خلق من أجلها). وعند إعادة النظر أرى أن الأشياء الخارجة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن الأعراف والنزعة التشاؤمية التي سادت هذا العصر هي انعكاسات فحسب لما كان ممكنًا.

في الوقت ذاته سخر بول من «النظام»، ولم يكن يثق به، ومن المسلم به أن استهزاءه منه كان حقيقيًّا، ولكن عندما يتقمص شخصية الملازم المستقبلية ينظر بعينيه الزرقاوين نظرة صافية لويلي ويقول: «إنني أستغل هذا العصر على نحو مثمر، ألن تقول ذلك؟ بملاحظة الرفقاء؟ ولسوف أبدأ بداية ناجحة مقارنة بالملازمين المنافسين، أليس كذلك؟ نعم، سأفهم العدو، وربما ستكون أنت العدو يا عزيزي ويلي.» وعندها يبتسم ويلي ابتسامة يطل منها التقدير والحقد. وذات مرة قال: «الوضع ملائم جدًّا لك، فلديك شيء تعود من أجله، أما أنا فلاجئ.»

استمتع كلاهما بصحبة الآخر، مع أن بول (بوصفه أحد أقطاب الصناعة في المستقبل) كان من الأفضل لديه أن يموت بدلًا من الاعتراف باهتمامه الشديد بأي شيء. أُغرم بول بالتاريخ بسبب المتعة الذهنية التي يجدها في المفارقات، وهذا هو التاريخ من وجهة نظره، وويلي مثله محبّ للتاريخ ولكن ليس لكونه متميزًا بالمفارقات ... أتذكره يقول لبول: «إن من يعتبر التاريخ مجموعة من الأحداث الغريبة بعيدة الاحتمال هو هاوٍ حقيقي.» ويرد بول: «لكن يا عزيزي ويلي أنا عضو من طبقة متحضرة وربما تكون أول من يقدّر أنني لا أستطيع أن أتبنى أي موقف آخر؟» أفلتت من يدي بول فرصة الدخول في حوار جاد عندما انحسر في دوامة الحديث مع المسئولين الذين عدهم مجموعة من المغفلين، على الرغم من أنه بالطبع لم يقل قط شيئًا كهذا، وإني أجرؤ على أن أقول إن السبب الذي جعله ينضم إلينا في المقام الأول هو أننا عرضنا عليه ذلك، وهناك سبب آخر هو أنه أحبني، ولكن وقتئذٍ كنا جميعًا في أوقات مختلفة يحب أحدنا الآخر. وكما أوضح بول، كان «حتميًّا في الوقت الذي نعيش فيه أن نحب الكثيرين قدر الإمكان.» لم يقل بول ذلك لأنه شعر أنه من المحتمل أن يُقتل، فهو لم يظن لحظة واحدة أنه ربما يلقى مصرعه، فقد حسب الفرص المتاحة أمامه حسابًا رياضيًّا، وكانت أفضل بكثير عما سبق خلال معركة بريطانيا الجوية مع ألمانيا؛ فسيقود قاذفات القنابل التي تُعتبر أقل خطرًا من الطائرات المقاتلة، إلى جانب أن أحد أعمامه الذين تربطهم صلة بالقيادات العليا بالقوات الجوية أجرى تحريات وعزم (أو ربما رتب) أن يرسَل بول إلى الهند، وليس إنجلترا، حيث كان عدد الضحايا هناك قليلًا نسبيًّا. وأظن أن بول كان «رابط الجأش»، أو بمعنى آخر، لم يفارقه الشعور بالأمان قط، ولم يخامره قط شعور

بأنه هالك، وأخبرني الرجال الذين يحلقون معه أنه دائمًا رابط الجأش، شديد الدقة، يتمتع بالثقة، وكأنه وُلد طيارًا.

وفي هذا الصدد اختلف عن جيمي ماكجراث، الذي كان طيارًا ماهرًا أيضًا، ويعانى الخوف الشديد. اعتاد جيمي على الحضور إلى الفندق بعد الطيران ليوم كامل وهو يقول إن أعصابه معتلة، ويعترف أنه لم ينم ليالٍ بسبب شعوره بالقلق، ويسر لي في أسف بأن هاجسًا بأنه سيموت في الغد تملكه، ثم يتصل بي من المعسكر اليوم التالي ليقول إن هاجسه مبرر لأن طائرته «كادت تتحطم» حقًا، ومن حسن حظه أنه لم يمت، وإن تدريبه بمنزلة تعذيب يستمر تعرضه له.

مع ذلك قاد جيمي قاذفات القنابل، وأجاد قيادتها بكل وضوح، فوق أراضي ألمانيا خلال المرحلة الأخيرة للحرب عندما كنا ندمر المدن الألمانية، واستمر في قيادة الطائرات لما يزيد عن عام وظل على قيد الحياة.

قُتل بول قبل أن يترك المستعمرة بيوم واحد، وكان قد أُرسل إلى الهند، لذا كان عمه على حق. قضى بول الليلة الأخيرة معنا في حفلة، والمعتاد أنه يتحكم في شرابه حتى عندما يتظاهر بالإفراط في احتساء الخمر مع بقيتنا، وفي هذه الليلة شرب حتى الثمالة واضطر جيمي وويلي إلى وضعه في حوض الاستحمام في الفندق ليستعيد وعيه، وعاد إلى المعسكر مع طلوع الشمس ليودع أصدقاءه هناك، كان واقفًا على مهبط الطائرات، هكذا أخبرني جيمي فيما بعد، ولم يكن واعيًا وعيًا كاملًا بسبب احتساء الكحول، والشمس في عينيه، ولأنه بول دون شك لم يكن ليظهر الحالة التي عليها، هبطت طائرة على الأرض وتوقفت على بعد خطوات، واستدار بول، وأعمى ضوء الشمس المشرقة عينيه، فمشى مباشرة نحو مروحة الطائرة التي لا بد أنها تراءت له بريق شعاع ضوء، فقطعت ساقاه ومات من فوره.

كان جيمي من الطبقة المتوسطة أيضًا، ولكنه لم يكن إنجليزيًّا بل اسكتلنديًّا، ولكنه لا يبدو رجلًا اسكتلنديًّا إلا عندما يثمل، وعندما ينفعل في الحديث عن الوحشية الإنجليزية القديمة مثل مذبحة جلينكو. وكان صوته متأثرًا بتباطؤ المقاطع المميز لسكان أكسفورد، ومن الصعب التحدث بهذه اللهجة في إنجلترا، لكن في مستعمرة كانت هذه اللهجة مضحكة، وعرف جيمي هذا، وكان يعمد إلى الإكثار من استخدامها حتى يضايق من لا يحبهم. أما نحن — الذين أحبهم — فكان يعتذر لنا، ويقول: «أعلم أن هذه اللهجة سخيفة لكنّ هذا الصوت النفيس سوف يكون مصدر رزقي بعد الحرب.» ولذا رفض جيمي مثلما رفض بول — على الأقل على مستوى واحد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من مستويات شخصيته — الإيمان بمستقبل الاشتراكية التي تنبأ بها. وكانت عائلته أقل إثارة للإعجاب من عائلة بول، أو بالأحرى ينتمي إلى فرع من فروع إحدى العائلات التي شرع نجمها في الأفول. كان أبوه عقيدًا متقاعدًا سيء الشخصية خدم في الهند — سيء الشخصية، كما أكد جيمي، لأنه «لم يكن حقيقيًّا، إذ كان يحب الهنود ويدعم الإنسانية والبوذية.» وكان يسكر بشدة، هكذا ذكر جيمي، لكنني أظن أن هذا الكلام قيل من أجل تحسين صورته، لأنه عرض لنا أيضًا قصائد من تأليف أبيه، ومن المحتمل أنه كان شديد الفخر به ولكن سرًّا. وجيمي طفل وحيد وُلد عندما تخطت أمه التي يعشقها سن الأربعين، ومن الوهلة الأولى يبدو مثل بول من حيث الشكل الخارجي، إذ يتشابهان على نحو واضح وهما على بعد مئة ياردة ويصعب التمييز بينهما، ولكن عن قرب يؤكد تشابههما على الاختلاف التام بين تركيب جسديهما؛ فجيمي سمين، وأخرق متثاقل، له يدان كبيرتان قصيرتان وبدينتان، مثل أيادي الأطفال، أما ملامحه فتشبه البياض الناصع لملامح بول المنحوتة، مع العينين الزرقاوين نفسيهما، ولكنها تفتقر إلى البهاء، ونظرته مثيرة للشفقة تعلوها نظرة استجداء طفولية لحب الآخرين، شعره فاتح وغير براق وينسدل في خصال دهنية، ووجهه، كما كان يقول، شديد الامتلاء وشبه مترهل، ولم يكن طموحًا ولم يرد إلا أن يصبح أستاذًا للتاريخ في إحدى الجامعات وهو ما توصل إليه فيما بعد، وعلى النقيض من الآخرين كان شاذًّا كلية على الرغم من أنه تمنى ألا يكون ذلك، وأحب بول الذي احتقره وانزعج منه، وبعد ذلك بوقت طويل تزوج امرأة تكبره بخمسة عشر عامًا، وفي العام الماضي أرسل لي خطابًا وصف فيه هذه الزيجة، ومن الواضح أنه كتبه وهو ثمل وأرسله «إلى الماضي»، إن جاز قول ذلك. كانت هناك علاقة بين الزوجين، ولم تصل الزوجة إلى المتعة إلا قليلًا ولم يستمتع هو قط — «على الرغم من أنني بذلت كل ما بوسعي، أؤكد لكِ!» انقضت بضعة أسابيع، وبعدها حملت الزوجة وكان هذا الحمل هو نهاية العلاقة الحميمة بينهما، وفي إيجاز لم يكن هذا الزواج غير معتاد في إنجلترا، ويبدو أن زوجته لم تساورها الشكوك بشأن كونه رجلًا غير طبيعي، اعتمد عليها أيما اعتماد وإن ماتت أظن أنه سينتحر أو يعود إلى إدمان الشراب.

كان تيد براون الأكثر تفردًا، ولأنه من عائلة كبيرة تنتمي للطبقة العاملة، فقد حصل على المنح طوال حياته وأخيرًا حصل على منحة إلى أكسفورد، وهو الاشتراكي الأصيل الوحيد من بين الثلاثة؛ أعني الاشتراكي فطرة وسليقة. اعتاد ويلي الشكوى

من أن تيد يتصرف «وكأنه عاش في مجتمع شيوعي في أوج ازدهاره أو كأنه تربى في مزرعة.» وتيد ينظر إليه وبه حيرة حقيقية، إذ لم يستطع فهم سبب نظر تيد لهذا الكلام على أنه انتقاد، وبعدها يهز كتفيه ويقرر أن ينسى ويلي ويعود إلى حماسة جديدة. كان شابًّا نشيطًا، حيويًّا، ضئيل الحجم، نحيلًا، ذا شعر أسود كثيف، بني العينين، ليس معه نقود دائمًا — إذ كان يضيعها — وكان رَثّ الملبس؛ لأنه لم يكن لديه وقت للنظر في هندامه أو لأنه كان يعطي ملابسه للآخرين، ولم يكن لديه وقت لنفسه؛ إذ كان يمنح وقته للجميع. وهو ميال للموسيقى التي علم نفسه عنها الكثير، وميال للأدب، ولزملائه الذين اعتبرهم ونفسه ضحايا مؤامرة كبيرة وشبه كونية لحرمانهم من طبائعهم الحقيقية الرائعة والكريمة والحسنة بالطبع. وأحيانًا يقول إنه يفضل اتصافه بالشذوذ، مما يعني أنه تعاقب عليه من كان عليه حمايتهم. والحقيقة أنه لم يستطع تحمل عدم حصول الشباب الآخرين من طبقته الاجتماعية على الميزات التي تمتع بها؛ فيدفعه ذلك إلى أن يبحث عن ميكانيكي ماهر في المعسكر أو في الاجتماعات العامة في المدينة، عن شاب يبدو عليه أنه قَدِمَ بسبب اهتمام فعلي وليس لأنه لا شيء أفضل لديه ليفعله، ويطوقه برعايته ويجعله يقرأ ويعلمه الموسيقى ويشرح له أن الحياة مغامرة جليلة ويأتي إلينا هاتفًا أنه «عندما يجد المرء فراشة أسفل حجر عليه أن ينقذها.» وينطلق دائمًا إلى الفندق ومعه شاب عديم الخبرة ترتسم على ملامحه الحيرة، ويطلب منا جميعًا «تبنيه» ونفعل ما يطلبه منا دائمًا. وخلال العامين اللذين أمضاهما في المستعمرة، أنقذ تيد عشرات الفراشات وجميعهم يحترمونه احترامًا يصحبه شعور بالسعادة وينم عن الإعجاب، وقد أحبهم جميعًا وغير حياتهم، وظل على صلة بهم بعد الحرب في إنجلترا، وجعلهم يدرسون ووجههم إلى حزب العمل، وفي هذا الوقت لم يعد شيوعيًّا، وتأكد من أنهم — كما أوضح — لم يتكاسلوا. وقد تزوج تيد زواجًا شديد الرومانسية — وعارض أنواع الاعتراض كافة — من فتاة ألمانية، وأنجب ثلاثة أطفال، وكان يدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة للأطفال المتأخرين ذهنيًّا. كان طيارًا كفئًا لكنه اعتاد تعمد الإخفاق في الاختبارات النهائية، لأنه في ذاك الوقت كان يصارع روح شاب أحمق من مانشيستر رفض أن يصبح موسيقيًّا وأصر على تفضيل كرة القدم على الأدب. أوضح تيد لنا أن إنقاذ شخص من الظلام يُعد أكثر أهمية من إضافة طيار آخر إلى قوة الحرب ضد الفاشية أو غيرها، لذا ظل على الأرض وأُرسل عائدًا إلى إنجلترا وخدم في مناجم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفحم، وهي التجربة التي أثرت في صحة رئتيه للأبد، ومن مفارقات القدر أن يكون الشاب الذي فعل من أجله هذا هو الشخص الوحيد الذي خذله.

عندما طُرد من منجم الفحم لأنه غير مؤهل للعمل فيه عاد إلى ألمانيا وعمل معلمًا، وكانت زوجته الألمانية رائعة إذ كانت امرأة عملية وكفئًا وممرضة بارعة، وفي ذاك الوقت يحتاج تيد إلى العناية، إذ يشكو شكوى مريرة من أن حالة رئتيه تجبره على «التكاسل».

حتى تيد تأثر بالحالة السائدة، ولم يستطع تحمل المشاحنات ومشاعر المرارة التي انتشرت داخل جماعة الحزب، والانقسام وقت حدوثه هو القشة التي قصمت ظهر البعير. قال تيد لويلي في حزن ومرارة: «من الواضح أنني لست شيوعيًّا لأن كل هذه التحريات تبدو لي هراءً.» أجاب ويلي: «لا، لست كذلك، وكنت أتساءل عن الفترة التي ستستغرقها لتكتشف ذلك.» الأهم من أي شيء أن تيد كان قلقًا لأن المنطق الجدلي السابق أدى إلى المجموعة الفرعية التي يقودها ويلي، إذ رأى أن قائد المجموعة الأخرى «بيروقراطي عديم الفائدة»، وقد كان ذلك القائد عريف بأحد المعسكرات الجوية وماركسي محنك، لكنه فضله على ويلي من الناحية الإنسانية، ومع ذلك كان منتميًا إلى ويلي ... وهو الأمر الذي جعلني أفكر في شيء لم أفكر فيه من قبل: ها أنا أستمر في كتابة كلمة «مجموعة» التي تعني جمعًا من الناس والتي تستحضر في ذهن المرء نوعًا من أنواع العلاقات الجماعية، فقد التقينا حقًّا يومًا بعد يوم على مدار الشهور والساعات، ولكن عند إعادة النظر من أجل تذكر ما حدث لم يكن الأمر هكذا، فمثلًا، لا أظن أن تيد وويلي تحدثا حقًّا أحدهما مع الآخر، ولكن سخر أحدهما من الآخر من حين لآخر. مع ذلك تكلم أحدهما مع الآخر في إحدى المرات وحدثت مشاجرة عنيفة بينهما، وذلك في إحدى شرفات الفندق في ماشوبي، ولا أستطيع تذكر سبب المشاجرة لكنني أتذكر تيد يصيح: «إنك من الرجال الذين يقتلون خمسين شخصًا قبل الإفطار ثم يأكل ستة أطباق. لا، بل تأمر شخصًا آخر بأن يقتلهم، وهذا ما ستفعله.» ويرد ويلي: «نعم، وإذا لزم الأمر فسوف ...» إلخ، واستمرت المشاجرة ساعة أو أكثر والعربات التي تجرها الثيران تمر على التربة الرملية البيضاء، وتهتز القطارات على الطريق من المحيط الهندي حتى العاصمة، ويشرب المزارعون المرتدون ملابسهم الضاربة إلى الصفار في البار، وتقضي مجموعات الأفارقة أوقاتهم سدًى — بحثًا عن العمل — أسفل شجرة الجكارندا، ساعةً بعد ساعة، منتظرين في صبر اللحظة التي

يكون لدى السيد بوثبي — صاحب العمل — الوقت ليأتي ويجري معهم مقابلة شخصية.

وماذا عن الآخرين؟ بول وويلي يتحدث أحدهما مع الآخر حديثًا مطولًا عن التاريخ، ويدخل جيمي في جدال مع بول وغالبًا أيضًا عن التاريخ، لكن ما كان جيمي يقوله في الواقع مرارًا وتكرارًا هو إن بول طائش وبارد وقاسٍ. لكنّ بول وتيد لم تجمعها أية علاقة، إنهما حتى لم يتشاجرا. أما أنا فأديت دور «صديقة القائد»؛ كنت مثل الملاط الذي يربط الآخرين بعضهم ببعض، وهو دور قديم بالفعل، وإذا كانت أي من علاقاتي مع هؤلاء الأشخاص عميقة فسأصبح مصدرًا للمشكلات بدلًا من أن أقوم بدور الموفق بينهم. وماريروز ذات الجمال الذي استعصى على الآخرين الوصول إليه، وبذلك ما ماهية هذه المجموعة؟ وما الذي يربط أفرادها معًا؟ أظن أن ما يربطهم معًا هو النفور الشديد وفي الوقت ذاته الإعجاب الذي شعر به أعضاء هذه المجموعة تجاه بول وويلي المتشابهين، اللذين كان ينتظرهما مصير مختلف.

بالطبع استمر ويلي ذو اللغة الإنجليزية الرائعة والصوت الحنجري، وبول بطريقة نطقه الفاتنة الفاترة في التحدث ساعة تلو أخرى ليلًا في فندق جرينزبورو. هذا ما أتذكره في وضوح شديد عن المجموعة خلال الفترة التي سبقت ذهابنا إلى ماشوبي وبعدها كل شيء تغير.

أما فندق جينزبورو فهو نُزل يقدم خدمات الإقامة والطعام، مكان عاش فيه الناس لفترات طويلة، والأنزال بالمدينة هي غالبًا منازل خاصة تحولت إلى فنادق، ومن المؤكد أنها كانت أكثر بعثًا على الشعور بالراحة، لكنها أنيقة على نحو مزعج ومبالغ فيه. مكثت في أحد هذه الأنزال لمدة أسبوع وتركته، فالتناقض بين الوضع الاستعماري البدائي للمدينة والدقة والإتقان اللذين يتميز بهما النزل — المليء بأفراد الطبقة الإنجليزية المتوسطة الذين ربما لم يكونوا ليتركوا إنجلترا قط — أكبر مما استطعت تحمله. وفندق جينزبورو بناء حديث وكبير وقبيح يعج باللاجئين والموظفين وموظفي السكرتارية والمتزوجين الذين لم يستطيعوا إيجاد منزل أو شقة يسكنون فيها؛ فقد ازدحمت المدينة بسبب الحرب وارتفعت الإيجارات ارتفاعًا هائلًا.

اعتاد ويلي عدم الحضور إلى الفندق قبل أسبوع من حصوله على مميزات خاصة، وهذا مع أنه ألمانيّ وأجنبيّ من الأعداء بكل ما تحمله الكلمة من معنى. تظاهر اللاجئون الألمان الآخرونِ بأنهم نمساويون أو نحوا أنفسهم جانبًا، أما ويلي فاسمه كان مقيدًا في سجل الفندق: دكتور ويلهيلم كارل جوتليب رود، من سكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

برلين السابقين، ١٩٣٩، هكذا كُتب اسمه في السجلات. كانت السيدة جيمز، التي تدير الفندق، تهاب ويلي، وحرص هو على أن يعلمها أن أمه كونتيسة، وفعلًا كانت كذلك، ظنت السيدة جيمز أنه دكتور بشري، ولم يهتم ويلي بإخبارها معنى كلمة دكتور في أوروبا، قال ويلي عندما انتقدناه بسبب ذلك: «ليس خطئي أنها حمقاء.» منحها نصائح مجانية خاصة بالقانون وتعامل معها في استعلاء، وتصرف بوقاحة عندما لم يحصل على ما يريد، وبإيجاز جعلها تركض وراءه في كل مكان «مثل جرو مذعور»، وهذه السيدة أرملة عامل في منجم تُوفي بسبب سقوط صخرة في منطقة الراند، تبلغ من العمر خمسين عامًا، وهي بدينة الجسم، دائمة الشعور بالضيق، تفوح منها رائحة العرق، تصنع لنا اليخني والقرع العسلي والبطاطس، وتعرضت للخيانة على يد خادميها الأفارقة، حتى أخبرها ويلي بكيفية إدارة المكان دون أن يُطلب منه ذلك في نهاية الأسبوع الأول لوجوده. كانت تخسر أموالها، ولكن بعد تنفيذ تعليماته جنت الكثير، وبحلول الوقت الذي غادر فيه ويلي الفندق أصبحت امرأة ثرية تستثمر أموالها في شراء العقارات والأراضي التي اختارها ويلي في جميع أرجاء المدينة.

كانت لي الغرفة المجاورة لغرفة ويلي، وكنا نتناول الطعام على الطاولة نفسها، وأصدقاؤنا يزوروننا ليلًا ونهارًا، وغرفة العشاء الشنيعة الفسيحة التي تغلق أبوابها في الثامنة مساءً (إذ كان العشاء يُقدم من السابعة حتى الثامنة) تُفتح لنا حتى بعد منتصف الليل، أو نعد الشاي لأنفسنا في المطابخ، وعلى الأكثر كان من الممكن أن تنزل السيدة جيمز من غرفتها في ثياب النوم تعلو وجهها ابتسامة لطيفة لتطلب منا أن نخفض أصواتنا. كان ضد القواعد أن نستضيف أحدًا في غرفنا بعد التاسعة ليلًا، لكننا أقمنا فصولًا دراسية في غرفنا حتى الرابعة أو الخامسة صباحًا لعدة أيام خلال الأسبوع. كنا نفعل ما يحلو لنا، في حين تزداد السيدة جيمز ثراء. وأخبرها ويلي أنها امرأة غبية سخيفة ليس لديها أي حس خاص بالأعمال.

كانت تقول: «نعم يا سيد رود» وتقهقه وتجلس في خجل على فراشه لتدخن سيجارة، كأنها تلميذة في المدرسة، وأتذكر بول يقول: «أترون حقًّا أنه من الصواب للاشتراكي أن يحصل على ما يريد بخداع امرأة عجوز؟» فيرد ويلي: «إنني أجلب لها مالًا وفيرًا.» فيردف بول: «إنني أتحدث عن الجنس»، فيرد ويلي: «لا أعرف ما تقصد.» وحقًّا لم يعرف ما يعنيه بول؛ فالرجال أكثر جهلًا من النساء فيما يخص استخدام رجولتهم على هذا النحو، وأقل إخلاصًا أيضًا.

إذن كان فندق جينزبورو لنا امتدادًا للتنظيم اليساري وجماعة الحزب، وارتبط في أذهاننا بالعمل الشاق.

ذهبنا إلى فندق ماشوبي للمرة الأولى دون قصد، وكان بول هو من وجهنا إليه. كان يقود طائرة في مكان ما في المنطقة، وهبطت الطائرة بسبب عاصفة مفاجئة، وعاد مع مدربه باستخدام السيارة، وتوقفا عند فندق ماشوبي لتناول الغداء. جاء إلى فندق جينزبورو هذه الليلة ومعنوياته شديدة الارتفاع ليشارك الآخرين بهجته، قال: «لن تصدقوا أبدًا ما سأقول؛ اسمه فندق ماشوبي، مشيد وسط الأدغال، ومحاط بالتلال الصغيرة والبدائيين والغرائب، وبه حانة يُلعب فيها بالسهام ولوح لعبة دفع النقود وفطيرة اللحم البقري والكلاوي التي تُقدم ساخنة، وبالإضافة إلى هذا كله، فيه السيد بوثبي وزوجته؛ إنهما نسخة من آل جاتسبيز، أتتذكرونهما؟ الزوجان اللذان يديران الحانة في آيلزبيري؟ ربما لم تخرج عائلة بوثبي من إنجلترا قط وأقسم أن السيد بوثبي رقيب أول سابق، ولا يمكن أن يكون شيئًا غير ذلك.»

قال جيمي: «إذن فزوجته نادلة سابقة، ولديهما ابنة وسيمة يريدان تزويجها، أتذكر يا بول كيف لم تستطع هذه الفتاة المسكينة إبعاد نظرها عنك في آيلزبيري؟»

قال تيد: «بالطبع أنتم يا سكان المستعمرة لن تقدروا غرابة الموضوع.» وفيما يتعلق بهذا المزاح كنت أنا وويلي من سكان المستعمرة.

قلت: «الرقباء الأوائل السابقون الذين ربما لم يتركوا إنجلترا قط يديرون نصف الفنادق والحانات في البلد، هذا ما ستعرفونه إذا تمكنتم من الانسلاخ عن جينزبورو.»

فيما يتعلق بالمزاح على هذه الشاكلة كان تيد وجيمي وبول يحتقرون المستعمرة، حتى إنهم لم يعرفوا أي شيء عنها، لكنهم بالطبع على درجة عالية من الاطلاع.

اقتربت الساعة من السابعة مساءً وأوشك ميعاد تقديم العشاء في فندق جينزبورو، واشتمل على القرع المقلي والبيف المطهو والفاكهة المطبوخة.

قال تيد: «لننزل إلى المكان ونلقِ نظرة عليه، وبإمكاننا تموين السيارة بنصف لتر بنزين العودة لنأخذ الأتوبيس إلى المعسكر.» قال اقتراحه في حماسته المعهودة كأن فندق ماشوبي من المؤكد أنه سيكون أفضل تجربة لم تقدمها لنا الحياة بعدُ.

نظرنا إلى ويلي، إذ من المخطط عقد اجتماع هذه الليلة يديره التنظيم اليساري وهو وقتئذٍ في أوج ازدهاره، ويتوقع منا جميعًا أن نحضر الاجتماع، فلم يحدث أن تخلينا عن الواجب ولو لمرة واحدة، لكنّ ويلي وافق غير مبالٍ كثيرًا وكأنه لا يوجد شيء مميز في هذه الليلة: «هذا شيء باستطاعتنا فعله جيدًا، والقرع العسلي الذي أعدته السيدة جيمز يمكن أن يأكله شخص آخر هذه الليلة.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قاد ويلي سيارة رخيصة مستعملة، وركبنا نحن الخمسة واتجهنا جنوبًا نحو فندق ماشوبي الذي كان يبعد عنا ستين ميلًا. أتذكر أنها كانت ليلة صافية مع أنها قابضة للصدر؛ حيث النجوم متزاحمة في السماء ومنخفضة، ويطل من بينها بريق حاد للرعد المقترب. مشينا بالسيارة بين التلال الصغيرة التي كانت أكوامًا من صخور الجرانيت وسمة من سمات هذه المنطقة من البلد. وهذه الصخور مشبعة بالحرارة والكهرباء حتى إن تيارات الهواء الساخن لفحت وجوهنا ونحن نمر بجانب التلال الصغيرة كأنها قبضات يد رفيقة.

وصلنا إلى فندق ماشوبي قرابة الساعة الثامنة والنصف، ووجدنا الحانة متوهجة الأضواء ومكتظة بالمزارعين المحليين، وكانت مكانًا صغيرًا يلمع خشبه المصقول والأرضية الأسمنتية السوداء المصقولة، وكما قال بول، في المكان لوحة للرشق بالسهام بدا عليها أنها استخدمت كثيرًا، ولعبة دفع النقود، وخلف البار وقف السيد بوثبي الذي بلغ طوله ستة أقدام، وكان بدينًا بارز البطن، وظهره مستقيم كالحائط، ووجهه ممتلئ بالعروق المتداخلة المنتفخة من الكحول، التي تطل من بينها عينان بارزتان ثاقبتان خاليتان من أي تعبير. تذكر بول منذ أن رآه في منتصف اليوم وسأله عما وصلت إليه الإصلاحات التي حدثت للطائرة، لم تتحطم، لكنّ بول بدأ حديثه بقصة طويلة تتحدث عن ضرب البرق لجناح الطائرة وصعوده على قمم الأشجار بالمظلة وقد تشبث مدربه بذراعه. ومن الواضح أن ذلك كله لم يكن حقيقيًّا، حتى إن السيد بوثبي بدا غير مرتاح من أول كلمة نطقها بول، ومع ذلك حكى بول هذه الأحداث في لهجة تطل منها الكياسة الصادقة والمهذبة حتى اختتم كلامه بقوله: «إن مثلي لا يسأل عن السبب، ولكن أمثالي خُلقوا ليحلقوا في السماء ويلقوا حتفهم.» قال ذلك وهو يمسح دمعة نبل ساخرة، حتى إن السيد بوثبي أطلق ضحكة خافتة مترددة واقترح علينا احتساء شراب، وتوقع بول أن يكون الشراب داخل المنزل مكافأةً للبطل إن جاز قول ذلك، لكنّ السيد بوثبي مد يده لأخذ النقود وتعتلي عينيه نظرة محدقة متفحصة طويلة كأنه يقول: «نعم، أعلم أن هذه ليست دعابة وإن استطعت أن تخدعني فستفعل.» دفع بول النقود في كياسة ملائمة واستمر في الحديث، وجاء إلينا مشرقًا بابتسامة عريضة بعد بضع دقائق ليقول لنا إن السيد بوثبي كان رقيبًا في شرطة جنوب أفريقيا البريطانية، وأنه تزوج امرأته وهو في إجازة في إنجلترا، وأنها عملت بالبار في إحدى الحانات، وأنجبا ابنة يبلغ عمرها ثمانية عشر عامًا،

وهما يديران هذا الفندق منذ أحد عشر عامًا. وحينها قال بول: «والمثير للإعجاب أيضًا، إن حق لي القول، أنني استمتعت أيما استمتاع بغدائي اليوم.»

قال بول: «لكن الساعة الآن التاسعة، وغرفة تناول الطعام تُغلق، ومضيفي لم يعرض علينا الطعام، لذا خيبت أملكم، وسوف نتضور جوعًا، عذرًا.»

قال ويلي: «سأرى ما أستطيع فعله.» ذهب إلى السيد بوثبي وطلب منه إحضار ويسكي وفي غضون خمس دقائق نجح في فتح غرفة الطعام، لنا فقط على نحو خاص، ولا أعرف كيف فعل ذلك. بداية كان ويلي شخصًا غريبًا في هذه الحانة التي تعج بالمزارعين الملتهبة جلودهم من أشعة الشمس في ثيابهم الضاربة إلى اللون الأصفر وزوجاتهم مزدريات الهيئة، حتى إنه لفت كل الأعين إليه، مرارًا وتكرارًا، منذ أن دخل، يرتدي حلة أنيقة صفراء فاتحة اللون من الحرير، وشعره يسطع سوادًا أسفل الأضواء البراقة، ووجه شاحب تبدو عليه الثقة. قال بلهجته الإنجليزية التي ليس فيها أي خطأ، والتي أظهرت في وضوح تام أنه ألماني الجنسية، إنه وأصدقاءه المقربين قطعوا كل هذه المسافة من المدينة من أجل تذوق طعام فندق ماشوبي الذي سمعوا عنه الكثير، وإنه واثق في أن السيد بوثبي لن يخيب آماله. تحدث بأسلوب تطل منه القسوة الخفية التي تنطوي على الغرور والتي أطلت من الأسلوب الذي استخدمه بول عند سرد قصة هبوط المظلة، ووقف السيد بوثبي صامتًا يحدق ببرود في ويلي، ويداه الحمراوان الكبيرتان ثابتتان على طاولة البار، بعد ذلك، وفي هدوء تام، أخرج ويلي محفظة جيبه وأخرج ورقة نقدية تبلغ قيمتها جنيهًا، لا أفترض أن أحدًا جرؤ على إعطاء السيد بوثبي إكرامية لسنوات. ولم يرد السيد بوثبي على الفور، بل أدار رأسه في بطء وعن عمد وازدادت عيناه بروزًا وهو يضيقهما وهو يفكر في احتمالات الحصول على المال من بول وتيد وجيمي، الذين وقفوا جميعًا والكئوس الكبيرة في أيديهم، ثم عقب: «سأرى ما باستطاعة زوجتي فعله.» ثم غادر البار وترك الجنيه الذي أخرجه ويلي على الطاولة. كان من المفترض أن يسترد ويلي الجنيه، لكنه تركه كما هو وأتى إلينا صائحًا: «لا توجد مشكلة.»

لفت بول بالفعل انتباه ابنة مزارع، وهي في السادسة عشر من عمرها، تتمتع بالجمال مع قصر قامتها وامتلاء بدنها، ترتدي ثوبًا من نسيج قطني رقيق مزخرف بالورود تعلوه كشكشة، وقف بول أمامها، وكأسه مرفوعة في ثبات في إحدى يديه، يقول بصوته المبتهج الهادئ: «كنت أود إخبارك منذ أن جئت إلى هذا البار أنني لم أر مثل ثوبك هذا قط، منذ أن كنت في أسكوت قبل ثلاثة أعوام.» فُتنت الفتاة به

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واحمر وجهها خجلًا، مع أنني أظن أنها في لحظة من اللحظات ستفهم أنه كان وقحًا، وقتئذٍ وضع ويلي يده على ذراع بول وقال: «هيا بنا.»

خرجنا إلى الشرفة، ورأينا عبر الطريق أشجار صمغ تلمع أوراقها تحت ضوء القمر، ووقف قطار يصدر منه صوت تصاعد البخار الذي يحركه الماء على القضبان الحديدية. قال تيد في انفعال وصوت خفيض: «إنك يا بول أفضل سبب عرفته على الإطلاق لإبادة الطبقة العليا بأكملها من أجل التخلص منك ومن أمثالك.» وافقت على ما قاله على الفور، إذ لم تكن تلك هي المرة الأولى لحدوث ذلك، فقبل قرابة أسبوع أثارت عجرفة بول غضب تيد الشديد، ولذا انصرف شاحبًا كأنه مريض وهو يقول إنه لن يتحدث مع بول مرة أخرى، وأضاف: «وكذلك أنت يا ويلي، فأنتما من صنف واحد.» استغرق الأمر مني ومن ماريروز ساعات لإقناع تيد بالعودة والانضمام إلينا، وفي هذا الحين قال بول في غير اكتراث: «لم تسمع الفتاة قط عن أسكوت وعندما تعرف ما أقصده سوف تبتهج.» وكل ما قاله تيد بعد فترة صمت طويلة: «لا، لن تبتهج، لن يحدث ذلك أبدًا.» وبعد ذلك ساد الصمت ونحن نشاهد الأوراق فضية اللون المتجعدة، ثم قال تيد: «ما هذا بحق الجحيم؟ لن تفهما ما أقصده أبدًا ما دمتما على قيد الحياة، لن يفهم أحدكما، ولا أبالي بذلك.» قيلت عبارة «لا أبالي بذلك.» بنبرة لم أسمعها قط من تيد، إذ بدت سخيفة، ثم ضحك، ولم أسمعه قط يضحك هذه الضحكة. شعرت بالندم، وأصابني الارتباك والحيرة؛ لأنني وتيد كنا حلفاء في هذه المعركة والآن شعرت بأنني أصبحت وحدي.

كان المبنى الأساسي للفندق يطل على الطريق الرئيسي مباشرة، وتكون من البار وغرفة الطعام والمطابخ التي تقع خلفها، وهناك شرفة بطول الواجهة تدعمها أعمدة خشبية نمت فوقها النباتات. جلسنا على مقاعد طويلة في صمت نتثاءب، وعلى حين غرة شعرنا بالتعب والجوع الشديد، وسريعًا ما استقبلتنا السيدة بوثبي بعد أن استدعاها زوجها من منزلها في غرفة الطعام وأغلقت الأبواب مرة ثانية حتى لا يدخل المسافرون ويطلبون الطعام. هذا الطريق أحد الطرق الرئيسية للمستعمرة، وهو مكتظ بالسيارات دائمًا. أما السيدة بوثبي فسيدة ضخمة لا تتمتع بأي جمال من نوع خاص، وذات وجه متورد البشرة وشعر باهت شديد التجعد، ترتدي أحزمة لشد الجسم، برزت أردافها بروزًا واضحًا وارتفع ثدياها كأنهما رفان من أمامها. وهي امرأة ودودة حنونة تواقة لمساعدة الآخرين، ولكنها تعاملهم على نحو من الرسمية. اعتذرت عن عدم استطاعتها تقديم عشاء كامل نظرًا لأننا تأخرنا للغاية،

لكنها ستفعل كل ما بوسعها، ثم تركتنا بإيماءة وأمنية بقضاء ليلة سعيدة، وكان النادل متجهم الوجه لبقائه طويلًا بعد ساعات العمل الرسمية. تناولنا أطباقًا من البيف المشوي السميك الشهي والبطاطا المشوية والجزر، وبعد ذلك حلينا بفطيرة التفاح والكريمة والجبن المحلي، وهذا طعام الحانات الإنجليزية المطهو في عناية. اتسمت غرفة الطعام الكبيرة بالصمت، كل الطاولات قد نُظفت استعدادًا لتقديم إفطار اليوم التالي، أما النوافذ والأبواب فمزينة بقماش الكتان السميك المزخرف بالورود، واستمرت المصابيحُ الأماميةُ للسياراتِ المارةِ على الطريقِ في توجيه ضوئها على ذلك الكتانَ، مما طمس ملامح الزخرفة، حتى إن ألوان الزهور الحمراء والزرقاء تألقت زاهيةً عند اندفاع الضوء في رشاقة على الطريق المؤدي للمدينة. شعرنا جميعًا بالحاجة إلى النوم ولم نتحدث كثيرًا، لكنني شعرت بتحسن بعد فترة لأن بول وويلي كالعادة عاملا النادل كأنه خادم، بطلب أشياء منه وتوجيه أوامر له، ثم فجأة استعاد تيد وعيه وبدأ يتحدث مع الرجل باعتباره إنسانًا، حتى بأسلوب أكثر رأفة من المعتاد، ومن ثم استطعت التوصل إلى أنه استحى من كلامه الأخير الذي قاله في الشرفة. سأل تيد الرجل عن عائلته وعمله وحياته وأخبره عن نفسه، أما بول وويلي فأكلا غير مبالين كالعادة في مثل هذه المواقف، فقد أوضحا وجهة نظرهما منذ وقت طويل: «أتتخيل يا تيد أنك إن كنت متسامحًا مع الخدم فإنك ستحرز تقدمًا في قضية الاشتراكية؟» أجاب تيد: «نعم» وقال ويلي: «وقتها لا أستطيع مساعدتك.» قالها وهو يهز كتفيه قاصدًا أنه لا أمل له. طلب جيمي المزيد من الشراب، وهو ثمل بالفعل، وهو يثمل أسرع من أي شخص عرفته. وعلى الفور حضر السيد بوثبي وقال إننا كمسافرين لنا حق احتساء الشراب موضحًا سبب السماح لنا بتناول الطعام في هذا الوقت المتأخر في المقام الأول، ولكن بدلًا من أن نطلب المشروبات الكحولية القوية التي اقترحها علينا طلبنا النبيذ، وأحضر لنا نبيذ مقاطعة الكاب الأبيض المثلج، وكان رائعًا، ومع أننا لم نرد احتساء براندي الكاب الخام الذي أحضره لنا السيد بوثبي فقد شربناه، ثم احتسينا المزيد من النبيذ، وبعد ذلك صرح ويلي بأننا سنحضر إلى الفندق جميعًا في العطلة الأسبوعية القادمة، وطلب من السيد بوثبي ترتيب غرف لنا، وقال السيد بوثبي إنه لا مشكلة في هذا وقدم لنا فاتورة وجدنا صعوبة في دفعها.

لم يسألنا ويلي هل نحن منشغلون بفعل شيء آخر في عطلة نهاية الأسبوع أم أنه يمكننا قضاء هذه العطلة في ماشوبي، لكنها بدت فكرة جيدة. قدنا السيارة في طريق العودة في ضوء القمر والطقس البارد والضباب ممتد بارد وغائم على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طول الأودية والوقت متأخر جدًّا ونحن جميعًا ثملون إلى حد ما، وجيمي فاقد الوعي. وعندما وصلنا المدينة كان الوقت متأخرًا جدًّا على الرجال الثلاث لأن يعودوا إلى المعسكر، ولذا أخذوا غرفتي في جينزبورو، وذهبت إلى غرفة ويلي. في مثل هذه المواقف اعتادوا أن ينهضوا من نومهم مبكرًا جدًّا، في الرابعة صباحًا تقريبًا، ويمشوا إلى حدود المدينة الصغيرة، في انتظار سيارة تأخذهم إلى المعسكر حيث عليهم بدء الطيران قرابة الساعة السادسة، عند شروق الشمس.

ذهبنا في عطلة الأسبوع التالي إلى فندق ماشوبي: أنا وويلي وماريروز وتيد وبول وجيمي، وذلك في وقت متأخر من ليلة الجمعة لأننا كانت لدينا مناقشة عن «اتجاه» الحزب، وكالعادة كانت بشأن كيفية توجيه الشعب الأفريقي نحو العمل الحربي. كانت المناقشة من أولها لآخرها لاذعة بسبب الانقسام الرسمي الذي لم يمنعنا من أن نعتبر أنفسنا كُلًّا مُتَّحِدًا في هذه الليلة بعينها. حضر المناقشة ما يقرب من عشرين شخصًا، وحصادها أننا اتفقنا على أن «الاتجاه» الموجود فعليًّا «صحيح»، لكننا اتفقنا أيضًا على أننا لن نحقق أي شيء.

ركبنا السيارة وليس معنا حقائب سفر أو حقائب شخصية، ساد الصمت بيننا طوال الطريق حتى خرجنا من الضواحي، بعد ذلك بدأت مناقشة أخرى بخصوص «اتجاه الحزب» بين كل من بول وويلي. لم يقولا شيئًا لم يُطرح بالتفصيل في الاجتماع، لكننا سمعناهما أملًا، على ما أظن، في التوصل إلى فكرة جديدة تخرجنا من التشوش الذي نعيش فيه. وكان «الاتجاه الحزبي» بسيطًا ومثيرًا للإعجاب، ففي مجتمع تسيطر عليه العنصرية مثل هذا المجتمع، من الواضح أن واجب الاشتراكيين هو مقاومة التمييز العنصري، لذا ليس ثمة «سبيل إلى التقدم» إلا عن طريق الدمج بين الجبهتين التقدميتين من البيض والسود، ولكن مَن المُقَدَّر له أن يكون في جبهة البيض؟ إنها نقابات العمل بكل وضوح، ومَن في جبهة السود؟ إنها نقابات العمال من السود. في هذا الوقت لم يكن هناك نقابات للعمال السود إذ النقابات من هذا القبيل غير قانونية ولم يكن السود من التقدم والتطور بعد لاتخاذ أي إجراء غير قانوني، ونقابات العمال البيض — الذين عمتهم الغيرة من الميزات المتمتعين بها — أكثر عدائية للأفارقة عن أي قطاع آخر من السكان البيض، لذا فإن فكرتنا عما يجب أن يحدث — أو لا بد أن يُطبق على أرض الواقع لأنه مبدأ أولي أن تشق طبقة العمال طريقها نحو الحرية — لم تنعكس بأي حالة على الواقع. ومع ذلك كان المبدأ الأول أقدس من أن يُشكك فيه، والقومية السوداء — في محيطنا (وهذا صحيح للحزب

الشيوعي بجنوب أفريقيا) — انحراف نحو الجناح الأيمن لا بد من مقاومته. وملأنا المبدأ الأول — القائم كما كان دائمًا على الأفكار الإنسانية المثلى — بالمشاعر الأخلاقية المرضية.

أعرف أنني أميل مرة أخرى إلى أن أستخدم في حديثي تلك النبرة الساخرة التي أعاقب بها نفسي، مع ذلك أرى أنها تبعث شعورًا بالراحة كأنها ضمادة جرح، لأن ما أشعر به جرحٌ بالتأكيد؛ فأنا — مثل آلاف آخرين — لا أستطيع أن أتذكر الأوقات التي قضيناها في «الحزب» أو بالقرب منه دون أن أعاني معاناةً بشعة ساخرة، ومع ذلك فإن هذا الألم شبيه بالألم الخطير المصاحب للشعور بالحنين، فهما من أصل واحد، وكلاهما مميت. وسوف أتحدث عن هذا عندما أستطيع الكتابة عنه مباشرة، وليس باستخدام هذه النبرة.

أتذكر أن ماريروز وضعت حدًّا لهذا الجدال بتعليقها: «لكنكما لا تقولان أي شيء لم تقولاه من قبل.» وأغلقت هذه الجملة الحوار، وكانت تفعل ذلك كثيرًا إذ لديها القدرة على إسكاتنا جميعًا، ولكن الرجلين عاملاها على نحو فيه استعلاء لأنهما ظنا أنه لا قدرة لها على التعامل مع الفكر السياسي بسبب عدم استطاعتها — أو عدم وجود نية لديها — لاستخدام المصطلحات السياسية، لكنها تفهم الأمور سريعًا وتصوغها في مصطلحات بسيطة؛ فهناك نوع من العقول، مثل عقل ويلي، لا يمكن أن يقبل سوى الأفكار المصاغة باللغة التي يستخدمها هو.

بعد ذلك قالت ماريروز: «لا بد أن هناك خطأ، لأنه لولا ذلك ما قضينا ساعات وراء ساعات في مناقشة هذا الأمر مثل ما حدث.» تحدثت في ثقة ولم يرد الرجلان، وشعرت أنهما يصطبران عليها، فشعرت بعدم الارتياح وناشدتهما: «لا أقول هذا على نحو صائب، لكنكما تعرفان ما أعنيه ...» ولأنها فعلت ذلك، عادا إلى طبيعتهما وقال ويلي في لطف: «بالطبع قلتِ ما قلتِه على نحو صائب، وأي شخص جميل مثلك لا يمكن أن يصوغ هذا الأمر على نحو فيه خطأ.»

كانت تجلس بجواري، وحينها أدارت رأسها في ظلمة السيارة لتبتسم لي، وقد تبادلنا هذه الابتسامة كثيرًا جدًّا، قالت: «سأنام.» ووضعت رأسها على كتفي وخلدت إلى النوم كقطة صغيرة.

كنا جميعًا في غاية التعب، ولا أظن أن الناس الذين لم يكونوا من قبل قط جزءًا من حركة اليساريين قد فهموا مدى الصعوبة التي يؤدي بها الاشتراكيون المخلصون عملهم على مدار أيام وسنوات متعاقبة بالخارج، والأهم من ذلك كله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أننا جميعًا نعمل لكسب قوت يومنا، والرجال في المعسكرات — على الأقل الرجال المدربون فعليًّا — يعملون تحت ضغط عصبي مستمر. وكل مساء ننظم الاجتماعات ومجموعات النقاش والجدالات، ونقرأ كثيرًا، وعادةً نظل مستيقظين حتى الرابعة أو الخامسة صباحًا، بالإضافة إلى أننا كنا معالجي أرواح، واتخذ تيد موقفًا مبالغًا فيه اتخذناه جميعًا، تمثل في أن أي شخص واقع تحت وطأة أي مشكلة من أي نوع هو مسئوليتنا، وكان جزءًا من واجبنا أن نبيّن لكل فرد لديه قدر من الذكاء أن الحياة مغامرة جليلة. وبإعادة النظر عليّ أن أتخيل أنه من بين العمل الشاق المزعج كله الذي أديناه، كان تحول المعتقدات الشخصية هو الجزء الوحيد في هذا العمل الذي حقق إنجازًا، وأشك أن أيًّا من الناس الذين تبنيناهم سوف ينسون الحماسة الشديدة لاقتناعنا بجلال الحياة، التي إن لم تكن جزءًا من طبيعتنا، فقد كانت جزءًا من مبادئنا. كل الأحداث عادت إلى ذاكرتي؛ ويلي، على سبيل المثال، قرر، بعد قضاء بضعة أيام يتساءل عما يفعل لامرأة تعيسة بسبب خيانة زوجها لها، أن يعرض عليها كتاب «الغصن الذهبي» لأن «المرء عندما يكون تعيسًا لأسباب شخصية، فإن التصرف الصائب المفترض اتخاذه هو النظر إلى الأمر نظرة تاريخية.» أعادت السيدة الكتاب معتذرةً تقول إنه فوق مستوى تفكيرها وإنها قررت على أي حال أن تترك زوجها لأنها توصلت إلى أنه يسبب إزعاجًا أكثر مما يستحق، لكنها عندما تركت المدينة، كانت ترسل إلى ويلي على نحو منتظم خطابات مهذبة مؤثرة تعبر عن امتنانها، وأتذكر الكلمات المؤثرة: «لن أنسى أبدًا أنك كنت عطوفًا بما يكفي واهتممت لأمري.» (ولكن لم تذهلني هذه الكلمات وقتها.)

عشنا على مدار عامين في هذا السواد وأظن أننا جميعًا فقدنا بعضًا من صوابنا نتيجة الإرهاق الشديد الذي كنا نعيش فيه.

بدأ تيد يغني ليظل مستيقظًا، وبدأ ويلي بصوت مختلف اختلافًا تامًّا عن الصوت الذي تحدث به في مناقشته مع ويلي؛ بدأ ينسج تخيلات غريبة عما سيحدث في مستعمرة خيالية ساكنوها من البيض عندما يثور الأفارقة. (كان ذلك قبل عقد تقريبًا من أحداث كينيا والماو ماو.) ووصف بول كيف عمل «رجلان ونصف الرجل» (واحتج ويلي على هذه الإشارة إلى دوستويفسكي الذي اعتبره كاتبًا رجعيًّا) على مدار عشرين عامًا لجعل البرابرة المحليين يدركون مكانهم باعتبارهم طليعة الحركات الثورية، وفجأة أنشأ خطيب شعبي لم يكمل تعليمه — إذ أمضى ستة أشهر فقط في مدرسة لندن للاقتصاد — حركة شعبية بين ليلة وضحاها شعارها: «فليخرج البيض». صُدم

الساسة المسئولون المتأثرون بشخصيات «رجلان ونصف الرجل» من هذا الفعل، لكنّ الأوان كان قد فات؛ إذ اتهمهم الخطيب الشعبي بأنهم عملاء للبيض، وأصاب الذعر البيض ولذا اعتقل البيض الخطيب الشعبي والمسئولين المتأثرين بشخصيات «رجلان ونصف الرجل» بتهمة ملفقة، وتعود الشعب الأسود — الذي تُرك دون قائد — على المكوث بالغابات والتلال الصغيرة وأصبحوا من مقاتلي العصابات. «وعندما هزمت الأفواج العسكرية البيضاء في بطء أفواج الجنود السود، أُحضر عشرات الشباب المهذبين المتعلمين تعليمًا عاليًا من ذوي العقول المميزة مثلنا من إنجلترا للحفاظ على تطبيق القانون والنظام، وخضع هؤلاء الشباب للسحر الأسود والسحرة الذين يعملون بالمداواة، وهذا السلوك البغيض الذي لا يمت للمسيحية بصلة أبعد كل الناس من ذوي الآراء السديدة عن قضية السود، وأوسع الشباب الأصحاء اللطفاء مثلنا — في غمرة التجريم الأخلاقي — السود ضربًا وعذبوهم وشنقوهم. وبذلك فاز القانون والنظام، وأطلق البيض سراح الساسة المتأثرين بشخصيات «رجلان ونصف»، لكنهم شنقوا الخطيب الشعبي، وأُعلن عن القليل جدًّا من الحقوق الديمقراطية للعامة السود ولكن الساسة المتأثرين بكتاب «رجلان ونصف» ... إلخ.»

لم يقل أي منا شيئًا ردًّا على هذه الفكرة التخيلية، إذ هي بعيدة كل البعد عن تكهناتنا، إلى جانب أننا صُدمنا بنبرة صوته. (وبالطبع أرى رأيه الآن مثالية مبعثها الشعور بالإحباط، وما يفاجئني أنني أكتب هذه الكلمة عن بول، فهذه هي المرة الأولى التي أؤمن أن بإمكانه أن يكون كذلك.) استطرد: «هناك احتمال آخر؛ افترضوا أن الجيوش السوداء فازت، ففي هذه الحالة لا يوجد سوى شيء واحد يمكن أن يفعله أي قائد قومي ذكي، ألا وهو تعزيز الشعور القومي وتطوير الصناعة. هل خطر ببالنا أيها الرفقاء أن من واجبنا، باعتبارنا تقدميين، أن ندعم الدول القومية التي سيكون شغلها الشاغل تنمية كل أخلاقيات عدم المساواة القائمة على الرأسمالية التي نكرهها أيما كراهية؟ هل حدث ذلك؟ الإجابة نعم، لأنني أرى هذه الحالة، حقًّا أراها في بلورتي السحرية، لكننا سنضطر إلى دعمها جميعًا، لأننا ليس لدينا بديل آخر.»

عقب ويلي عند هذا القول: «أنت في حاجة إلى كأس من الشراب.»

في هذا الوقت كانت الحانات كلها مغلقة في الفنادق الموجودة على الطريق، ولذا خلد بول إلى النوم، وكانت ماريروز نائمة بالفعل، وكذلك جيمي، لكنّ تيد ظل مستيقظًا جالسًا بجوار ويلي في المقعد الأمامي، يصفر لحنًا ما. لا أظن أنه كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يستمع إلى بول؛ فعندما يدندن تيد بألحان موسيقية أو يغني فإن هذا دليل على عدم موافقته على ما يُقال.

بعد ذلك بوقت طويل أتذكر أننا استنادًا إلى التفكير طيلة كل هذه السنوات من المناقشات التحليلية اللانهائية، كدنا نتوصل مرة واحدة فقط إلى الحقيقة (التي كانت بعيدة كما كانت دائمًا) وذلك حينما تحدث بول بروح المحاكاة الساخرة الغاضبة.

حل الظلام قبل أن نصل إلى الفندق، وكان بانتظارنا خادم ناعس في الشرفة ليأخذنا إلى غرفنا. وكان مبنى غرف النوم على بعد مائتي ياردة من غرفة تناول الطعام ومبنى الحانة، على منحدر في الخلف، وثمة عشرون غرفة يعلوها سقف واحد، إحداها في اتجاه معارض للأخرى، وشرفتان على كلا الجانبين؛ شرفة لكل عشر غرف. الغرف لطيفة وممتعة على الرغم من عدم وجود نظام تهوية متبادلة، بها مراوح كهربية ونوافذ كبيرة. خُصص لنا أربع غرف؛ اشترك جيمي مع تيد في غرفة، وأنا وويلي في غرفة أخرى، وماريروز وبول لكل منهما غرفة، ظل هذا الترتيب كما هو فيما بعد، أو بالأحرى لأن عائلة بوثبي لم تعقب على هذا الأمر، اشتركت دائمًا أنا وويلي في غرفة واحدة في فندق ماشوبي. لم يستيقظ أي منا حتى وقت متأخر بعد ميعاد الإفطار، وكانت الحانة مفتوحة واحتسينا القليل من الخمر دون أن نتكلم تقريبًا، ثم تناولنا طعام الغداء في صمت أيضًا، وأبدينا من وقت لآخر مدى استغرابنا من شعورنا بالتعب الشديد. طعام الغداء في الفندق دائمًا ممتاز واشتمل على كميات من اللحم البارد وكل أصناف السلاطة والفاكهة التي يمكن تخيلها. نمنا جميعًا مرة أخرى، وكادت الشمس تغرب عندما استيقظت أنا وويلي وأيقظنا الآخرين. وبعد انتهاء العشاء بنصف ساعة ذهبنا إلى الفراش مرة أخرى. لم يكن اليوم التالي، يوم الأحد، بأحسن حالًا من يوم السبت. وفي الواقع كانت عطلة نهاية الأسبوع الأولى هذه أروع العطلات التي قضيناها هناك، إذ استمتعنا جميعًا بحالة الهدوء التي خلفها شعورنا الشديد بالإرهاق. وخلالها لم نكد نشرب، وخيب ذلك آمال السيد بوثبي فينا، وكان ويلي خاصة ملازمًا للصمت، وأظن أنه في هذه العطلة قرر الانسحاب من السياسة، أو على الأقل الابتعاد عنها قدر استطاعته، وتكريس نفسه للدراسة. أما بول فكان حقًا بسيطًا ولطيفًا مع الجميع خاصة السيدة بوثبي التي أُغرمت به.

قدنا السيارة في طريق العودة إلى المدينة في وقت متأخر جدًّا يوم الأحد لأننا لم نرد مغادرة فندق ماشوبي. جلسنا في الشرفة نحتسي الجعة قبل أن نغادر، وظلمة

الفندق من خلفنا، وضوء القمر قوي للغاية حتى إننا استطعنا رؤية حبيبات الرمال البيضاء المتلألئة التي قذفت بها عجلات العربات التي تجرها الثيران على الطريق الأسفلتي رأيناها كلًّا على حدة، ولمعت الأوراق المدببة لأشجار الصمغ المتدلية بوفرة كأنها رماح صغيرة. وأتذكر تيد يقول: «انظروا إلينا ونحن جالسون جميعًا لا نتفوه بكلمة واحدة. إن ماشوبي مكان رائع، وسنأتي إلى هنا عطلة بعد أخرى وتسلبنا الجعة والطعام الشهي وضوء القمر حيويتنا، وسؤالي الآن: متى سينتهي كل ذلك؟»

لم نعد إلى ماشوبي لمدة شهر، وأدركنا جميعًا كم كنا متعبين، وأظن أننا كنا خائفين مما ربما يحدث إن سمحنا للتوتر الناتج عن التعب بالانفجار. وكان هذا الشهر مفعمًا بالعمل الشاق؛ بول وجيمي وتيد ينهون تدريبهم ويطيرون يوميًّا، وكان الطقس رائعًا، جرى خلال هذا الشهر قدر كبير من النشاط السياسي الهامشي مثل المحاضرات ومجموعات الدراسة والعمل الاستكشافي، لكن «الحزب» لم يتقابل سوى مرة واحدة، وفقدت المجموعة الفرعية الأخرى خمسة أعضاء. ومن المثير للاهتمام أننا في المناسبة الوحيدة التي تقابلنا فيها جميعًا شرعنا في التشاجر العنيف حتى كاد الصبح يبزغ، لكن على مدار الفترة المتبقية من الشهر اجتمعنا بصفة شخصية طوال الوقت وساد بيننا شعور طيب، من أجل مناقشة تفاصيل العمل الهامشي الذي كنا مسئولين عنه. وفي الوقت نفسه استمرت جماعتنا في الاجتماع بفندق جينزبورو، وكنا نمزح بشأن فندق ماشوبي وتأثيره المرعب الذي يبعث على الاسترخاء. استخدمنا هذا الفندق رمزًا للرفاهية بكل أنواعها والانحطاط والحمق. قال أصدقاؤنا الذين لم يذهبوا إلى هناك، لكنهم علموا أنه فندق عادي يقع على الطريق، إن الجنون أصابنا. وبعد شهر من زيارتنا الأولى أخذنا عطلة مطولة من يوم الخميس ليلًا وحتى الأربعاء الذي تلاه، والناس في المستعمرة يأخذون إجازاتهم على نحو جاد، وشكلنا مجموعة للذهاب مرة أخرى. واشتملت هذه المجموعة على الأشخاص الستة الأساسيين وشاب جديد تولى تيد رعايته يُدعى ستانلي ليت من مانشتسر، ومن أجله ضحى بمستقبله كطيار، إلى جانب جوني، عازف البيانو لموسيقى الجاز وصديق ستانلي، بالإضافة إلى ذلك رتبنا أمورنا حتى يقابلنا هناك جورج هاونسلو، وذهبنا إلى هناك بالسيارة والقطار، وفي الوقت الذي أُغلق فيه البار يوم الخميس ليلًا، كان من الواضح أن عطلة نهاية الأسبوع هذه سوف تكون شديدة الاختلاف عن العطلة التي سبقتها.

كان الفندق مليئًا بالناس على مدار أيام العطلة الطويلة، ففتحت السيدة بوثبي ملحقًا به اثنتا عشرة غرفة إضافية. كان من المرتب إقامة حفلين راقصين ضخمين،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحدهما عام والآخر خاص، وهناك بالفعل انطباع بالانفصال الساحر عن الحياة العادية. عندما جلسنا لنتناول العشاء في وقت متأخر جدًّا، كان نادل يزين أركان غرفة تناول الطعام بالورق الملون والمصابيح، وقُدم لنا بودنج مثلج خاص أُعد لليلة التالية. وأرسلت السيدة بوثبي شابة لتسألنا أيمانع «شباب القوات الجوية» في مساعدتها في تزيين الغرفة الكبيرة غدًا، وتُدعى هذه الشابة جون بوثبي، ومن الواضح أنها أتت فضولًا منها لترى هؤلاء الشباب، على الأرجح لأن أمها تحدثت عنهم، ومن الواضح بالمثل أنها لم تكن مبهورة؛ فالكثيرات من فتيات المستعمرة الرائعات ينظرن إلى شباب إنجلترا، ثم يصرفن النظر عنهم إلى الأبد باعتبارهم جبناء وضعاف الشخصية، وجون إحداهنّ، وفي هذا المساء بقيت جون معنا حتى أبلغت رسالة والدتها وسمعت رد بول الذي أطلت السعادة المفعمة بالأدب المفرط من صوته وهو يقبل دعوة والدتها الطيبة «نيابة عن القوات الجوية»، ثم خرجت مرة أخرى على الفور. وتبادل بول وويلي بعض النكات عن الابنة التي كانت في سن الزواج، لكن في سياق مزاحهم بشأن «السيد بوثبي صاحب الحانة وزوجته». على مدار الأيام المتبقية في عطلة نهاية الأسبوع هذه، والعطلات المتعاقبة، تجاهلها هؤلاء الشباب. ومن الواضح أنهم اعتبروها فتاة عادية جدًّا حتى إنهم أمسكوا عن ذكرها من منطلق الشعور بالشفقة، أو ربما الشعور بالمروءة؛ مع أن هؤلاء الرجال عامةً لم يظهروا كثيرًا أي دليل على هذه العاطفة. وجون فتاة طويلة القامة، ضخمة الجثة، ذات ذراعين وساقين يغطيهما اللون الأحمر وعلى قدر من الضخامة وتعوزهما الرشاقة، ووجهها متورد مثل أمها، وزين وجهها المستدير ذا الملامح غير المتناسقة الشعر الباهت نفسه، ولم يكن فيها ملمح واحد أو صفة خلابة، ومع ذلك تمتعت بطاقة هائمة تفيض كآبة، لأنها كانت في غمرة المرحلة التي تمر بها فتيات كثيرات؛ هي مرحلة الهوس الجنسي التي يمكن أن تكون نوعًا من فقدان الوعي. عندما كنت في الخامسة عشر من عمري ولا أزال أعيش في شارع بيكر مع أبي، قضيت بعض الأشهر منغمسة في هذه الحالة، حتى إنني الآن لا أستطيع أن أمشي في هذه المنطقة دون أن أتذكر — وأنا مستمتعة ومحرجة في آن واحد — هذه الحالة العاطفية التي كانت قوية للغاية حتى إنها احتوت الأرصفة والمنازل ونوافذ المتاجر. ما كان مثيرًا للانتباه في جون هو أن الطبيعة دون شك يجب أن تكون قد رتبت الظروف حتى يدرك الرجال الذين يقابلونها ما ابتُليت به، ولكن ذلك لم يحدث. في أول مساء قابلناها فيه تبادلت أنا وماريروز نظرات عن غير عمد وكدنا نضحك في صوت

مرتفع لأننا أدركنا ما بها وشعرنا تجاهها بالشفقة الممزوجة بالاستمتاع، لكننا لم نضحك لأننا فهمنا أيضًا أن هذه الحقيقة شديدة الوضوح لم تكن واضحة للرجال وأردنا حمايتها من ضحكاتهم، فكل السيدات في المكان يفهمن جون، وأتذكر أنني جلست ذات صباح في الشرفة مع السيدة لاتيمير؛ السيدة الجميلة ذات الشعر الأحمر التي غازلت ستانلي ليت الشاب، وظهرت جون متسللة وهي لا تكاد ترى أمامها أسفل أشجار الصمغ الواقعة بجانب خطوط السكك الحديدية، كان الأمر يبدو كأنني أشاهد شخصًا يمشي نائمًا؛ تقدمت بضع خطوات للأمام وهي تحملق عبر الوادي في الجبال الزرقاء المتراكمة، ورفعت يدها إلى شعرها، وأظهر جسدها — الذي حدد ثوبها القطني متألق الحمرة ملامحه بإحكام — كل الخطوط التي رسمها التوتر، وبقع العرق تحت إبطيها، ثم أنزلت ذراعيها وقبضت على كفيها، وذراعاها مفرودان بجانبها، تقف ساكنة، ثم تمشي مرة أخرى وتتوقف، تبدو كأنها تحلم، وتركل رماد الفحم بطرف صندلها الأبيض العالي، هكذا في إلى أن اختفت عن الأنظار خلف أشجار الصمغ المتلألئة في ضوء الشمس. تنهدت السيدة لاتيمير تنهيدة عميقة، وضحكت ضحكتها الواهنة التي تنم عن رحابة الصدر، وقالت: «يا إلهي! لا أود أن أعود فتاة مرة أخرى حتى لو دُفع لي مليون جنيه، يا إلهي! لن أقبل ولو مقابل مليار جنيه، أن أمر بكل هذا مرة أخرى.» وافقتها أنا وماريروز على هذا الرأي، ومع أن كل ملمح من ملامح هذه الفتاة محرج جدًّا من وجهة نظرنا، فلم ير الرجال هذا، وحرصنا على ألا نفهمهم، فهذه مروءة نسائية بين امرأة وأخرى، تماثل في قوتها كل أنواع الولاء، وربما لأننا لا نريد أن نصدق أن رجالنا يعانون خيالًا مريضًا.

قضت جون معظم أوقاتها في شرفة منزل عائلة بوثبي الذي يبعد مائتي ياردة عن أحد جانبي الفندق، وبُني على أساسات يبلغ عمقها عشرة أقدام بعيدًا عن مستعمرات النمل، وشرفة الفندق واسعة وباردة، ومطلية بطلاء أبيض، إلى جانب انتشار النباتات المعترشة والزهور في كل مكان، ومن ثم فهي مبهجة وجميلة على نحو فائق للعادة، وها هي جون تجلس فيها على أريكة قديمة مغطاة بقماش الكريتون تستمع إلى الجرامافون المحمول، ساعة بعد أخرى، وترسم صورة في مخيلتها للرجل الذي سيُسمح له بأن يحررها من حالة السير وهي نائمة. وبعد بضعة أسابيع أصبحت الصورة قوية بما يكفي لتخلق هذا الرجل على أرض الواقع؛ كنت أجلس أنا وماريروز في شرفة الفندق عندما توقفت شاحنة في طريقها نحو الشرق، وخرج منها شاب فظ ضخم ذو ساقين عظيمين حمراوين وذراعين لوحتهما الشمس في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حجم فخذي ثور. جاءت جون متسللة أسفل الطريق المفروش بالأحجار الصغيرة من منزل أبيها، تركل الحصى بصندلها المدبب، اندفعت واحدة من الحصى تجاه قدميه وهو يمشي إلى البار، ثم توقف وحدق النظر فيها، وبعد ذلك دخل البار وهو يرسل نظرات متكررة خاطفة خلفه، لكنها خالية من أي تعبير وكأنه منوم تنويمًا مغناطيسيًّا، وتبعته جون. وقتها كان السيد بوثبي يقدم لجيمي وبول مشروبات الجن وماء الصودا ويتحدث عن إنجلترا. لم يلاحظ ابنته التي جلست في أحد الأركان، تنظر بعينين حالمتين إلى ما ورائي أنا وماريروز؛ نحو غبار الصباح الذي يتلألأ في ضوء الشمس الساخن. احتسى الشاب الجعة وجلس على المقعد الطويل الذي يبعد عنها ياردة واحدة. وبعد نصف ساعة، عندما ركب شاحنته مرة أخرى كانت جون بصحبته، وعلى حين غرة انطلقت ضحكاتي أنا وماريروز في لحظة واحدة على نحو لم نتحكم فيه، ولم نتوقف عن الضحك إلا عندما نظر بول وجيمي إلى خارج الحانة ليعرفا لم نضحك. وبعد شهر خُطبت جون والشاب خطوبة رسمية، وحينئذٍ فقط أصبح الجميع على وعي بأنها هادئة، مرحة، وشاعرية، وتلاشت تمامًا من ملامحها نظرة البلادة التي تجعلها تبدو كأنها مدمنة للمخدرات. وحينها فقط أدركنا مدى انزعاج السيدة بوثبي من وضع ابنتها السابق، إذ بدت في الطريقة التي تقبلت بها مساعدتها في الفندق حالة من الابتهاج والراحة الشديدة وأصبحت صديقة لها مرة أخرى، وتحدثت معها عن خطط الزواج. وبدا الأمر كأنها شعرت بالذنب عن شعورها السابق بالانزعاج، وربما كان هذا الانزعاج الذي استمر طويلًا هو السبب الجزئي لفقدان أعصابها فيما بعد وتصرفها على نحو شديد الإجحاف.

بعد أن تركتنا جون في الليلة الأولى بوقت قليل دخلت السيدة بوثبي، وطلب منها ويلي أن تجلس وتنضم إلينا، وأسرع بول في دعوتها أيضًا، وتحدث كلاهما بأسلوب بدا لنا مهذبًا على نحو مبالغ فيه وعلى نحو جارح أيضًا. مع ذلك في المرة الأخيرة التي قابلها بول، في العطلة التي تعبنا فيها جميعًا للغاية، كان بسيطًا ولا يبدي أي تعجرف، وتحدث معها عن والده وأمه وعن «الوطن»، مع أن إنجلترا وطنه وإنجلترا وطنها بلدان مختلفان أحدهما عن الآخر.

كان المزاح بيننا بشأن نقطة ضعف السيدة بوثبي المتمثلة في بول، ولم يصدق أي منا في الواقع هذا الأمر؛ لأننا لو صدقنا ما كنا لنمزح بشأنه، أو أن لو لم نكن نمزح؛ ففي هذه المرحلة المبكرة من علاقتنا كنا نحب السيدة بوثبي، لكنها أُغرمت

دون شك ببول وبويلي أيضًا، وذلك على نحو دقيق بسبب الصفة التي كرهناها في كليهما؛ الوقاحة والتعجرف المستتريين أسفل طباعهما الرائعة الجذابة.

يرجع الفضل لويلي في بإعلامي كيف تفضل الكثيرات أن يتعرضن للإرهاب، وكم كان هذا مهينًا واعتدت مقاومة تصديق صحته، مع أنني رأيته يحدث أمامي مرارًا وتكرارًا. فإن أبدينا الاحترام لإمرأة صعبة المراس وحاولنا إرضاءها وتلمسنا لها الأعذار، قال ويلي: «إنكم لا تعرفون أي شيء، إن ما تحتاجه هو مخبأ جيد.» (وعبارة «المخبأ الجيد» هي عبارة استعمارية يستخدمها البيض عادةً على هذا النحو: «إن ما يحتاجه السود الملعونون مخبأ جيد» وقد لاءمها ويلي للاستخدام العام.) إنني أتذكر والدة ماريروز، وكانت سيدة متسلطة عصابية استنفدت حيوية ابنتها، تقترب من الخمسين من عمرها، امرأة شرسة وصعبة المراس، كنا مهذبين تجاهها من أجل ماريروز، وتقبلناها عندما هرولت خلف ابنتها في جينزبورو، وعندما تأتي أم ماريروز إلى هناك تغرق ماريروز في حالة من القلق الموهن للهمة والإنهاك العصبي، فهي تعلم أن عليها مقاومة أمها لكن لم تكن لديها الطاقة الأخلاقية لفعل ذلك، فهذه السيدة التي كنا نضجر منها وعلى استعداد لإرضاء رغباتها، عالجها ويلي ببضع كلمات؛ أتت إلى جينزبورو ذات مساء ووجدتنا جميعًا جالسين في غرفة تناول الطعام بعد أن هجرها زوارها نتحدث، وقالت بصوت عالٍ: «ها أنتم كالعادة موجودون جميعًا، يجب أن تكونوا في الفراش.» وبينما كادت تجلس معنا وتنضم إلينا، إذ قال ويلي دون أن يرفع صوته لكنه رفع بصره إليها بعدستي نظارته اللامعتين: «سيدة فاولر.» أجابته: «نعم، يا ويلي؟ أهذا أنت مرة أخرى» قال: «سيدة فاولر، لماذا تأتِين إلى هنا تطاردين ماريروز وتصنعين من نفسك امرأة مزعجة إلى هذا الحد؟» شهقت واحمر وجهها، لكنها ظلت واقفة بجانب الكرسي التي لم تجلس عليه محملقة فيه. استطرد ويلي في هدوء: «نعم، إنك سيدة عجوز مزعجة، يمكنك الجلوس إن أحببت لكن عليك أن تظلي هادئة ولا تقولي هراءً.» شحب وجه ماريروز من الخوف والألم نيابةً عن أمها، لكن السيدة فاولر بعد لحظة صمت ضحكت ضحكة خاطفة يطل منها الارتباك وجلست وظلت هادئة تمامًا، وبعد ذلك إذا أتت إلى جينزبورو تصرفت دائمًا مع ويلي كأنها فتاة صغيرة جيدة التربية في حضرة أب مخيف، ولم يحدث ذلك فقط مع السيدة فاولر ولكن مع السيدة التي تملك فندق جينزبورو أيضًا.

الآن جاء دور السيدة بوثبي التي لم تكن قط مستأسدة تبحث عن شخص أقوى منها وأكثرها استئسادًا، ولم تكن غير مرهفة الحس فيما يتعلق بالتطفل عنوة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الآخرين. لا بد أن هذه المرأة استوعبت بحسها وليس بذكائها — إذ لم تكن امرأة ذكية — أنها تتعرض لعملية إرهاب، ولكنها مع ذلك تعود مرارًا وتكرارًا لتتعرض للمزيد. لم تستسلم هذه السيدة إلى الشعور بالرضا الممتزج بالحيرة عند منحها «مخبأ» مثل السيدة فاولر، وكذا لم تتظاهر بالحياء وعدم النضج مثل السيدة جيمز في فندق جينزبورو؛ بل كانت تستمع في صبر وتجادل محدثها، وتشترك — إن صح القول — في المستوى السطحي للحديث، متجاهلة الإهانة الكامنة تحته، وبهذه الطريقة تحرج ويلي وبول أحيانًا ليعودا إلى التزام الكياسة في معاملتها. لكنني على ثقة في أنها شعرت قطعًا بالحرج سرًّا وقبضت على كفيها وهمهمت: «نعم، أود أن أصفعهما. نعم، كان يجب أن أصفعهما عندما قالا ذلك.»

في هذا المساء كاد بول دون تردد أن يبدأ أحد ألعابه المفضلة؛ محاكيًا على سبيل السخرية العبارات الدارجة على لسان سكان المستعمرة إلى المرحلة التي لا بد أن يدرك عندها ساكن المستعمرة موضع الحديث أنه يتعرض للاستهزاء، وبعدها انضم ويلي إليه.

– «لا يزال طباخكِ معك منذ سنوات، أتودين سيجارة؟»

– «أشكرك يا عزيزي لكنني لا أدخن. نعم، إنه صبي رائع، ولا بد أن أقول ذلك عنه، فهو شديد الولاء دائمًا.»

– «أرى أنه كاد يصبح أحد أفراد العائلة، أليس كذلك؟»

– «نعم، أظن ذلك، وهو مولع بنا، أنا واثقة من ذلك، إذ نعامله في لطف دائمًا.»

– «ربما تعامليه كطفل أكثر مما تعامليه كصديق؟» (ويلي هو من وجه لها هذا السؤال.)

– «لأنه وأمثاله أطفال كبار.»

– نعم، هذا صحيح، إنهم ليسوا إلا أطفالًا عندما تفهمهم جيدًا، وهم يفضلون أن تعاملهم على النحو الذي تعامل بها طفلًا؛ في حزم وعدل، وأؤمن أنا والسيد بوثبي بمعاملة السود معاملة عادلة، وهذا هو الصواب.

قال بول: «لكن على الجانب الآخر يجب ألّا تسمحي لهم بالاستفادة منك، لأنك إن فعلت ذلك ستفقدين كل الاحترام الموجه إليك.»

– أنا سعيدة لسماعك تقول ذلك يا بول لأن معظمكم أيها الشباب الإنجليزي لديكم أفكار خيالية من كل نوع بخصوص السود الأفارقة، لكنّ هذا صحيح، فلا بد أن يعرفوا أن هناك حدًّا لا بد ألا يتخطوه. واستمر الحديث في هذا الموضوع.

لم تخجل وتُدِرْ نظرها بعيدًا حتى قال بول، وهو جالس جلسته المفضلة ممسكًا كأس الشراب الكبيرة في يده وعيناه الزرقاوان مركزتان على عينيها وتلمع بهما نظرة يطل منها الشعور بالانتصار: «وبالطبع هناك قرون من التطور بيننا وبينهم، فهم ليسوا إلا قرود بابون.» كانت قرود البابون كلمة شديدة الإساءة في المستعمرة، على الرغم من أنها كانت مقبولة منذ خمس سنوات مضت، وحتى في مقالات الصحف الرئيسية. (مثلما أصبحت كلمة السود بدورها كلمة شديدة الإساءة في فترة زمنية بلغت عشر سنوات.) لم تستطع السيدة بوثبي أن تصدق أن «شابًّا متعلمًا من إحدى أفضل الكليات في إنجلترا» استخدم كلمة قرود البابون، لكنها عندما نظرت إلى بول مرة أخرى، ووجهها المتورد الصادق مستعد لاستقبال الإساءة، كان جالسًا وشفتاه تعلوهما ابتسامته الملائكية التي يطل منها الاهتمام والسحر تمامًا كما كانت منذ شهر مضى وهو على نحو لا يمكن إنكاره فتى شديد الاشتياق لوطنه، سعيدًا بالقدر القليل من التدليل. تنهدت فجأة، ونهضت تقول في أدب: «والآن إن سمحتم لي فسأذهب وأعد عشاء زوجي، فالسيد بوثبي يحب تناول وجبة خفيفة في وقت متأخر، فهو يقدم الطلبات في الحانة طوال فترة المساء، ولا وقت له لتناول العشاء.» تمنت لنا ليلة سعيدة ونظرت إلى ويلي ثم إلى بول نظرة تفقدية محدقة جادة يطل منها شعورها بأنها جُرحت، ثم تركتنا.

أعاد رأسه إلى الوراء وضحك وقال: «إنهم رائعون، ممتازون، إنهم ليسوا إلا مزيفون.»

قال ويلي ضاحكًا: «السكان الأصليون» وكانت هذه هي كلمته التي يشير بها إلى سكان المستعمرة البيض.

قالت ماريروز في هدوء: «لا أفهم ما تقصد يا بول، إنك تستخف بالآخرين فقط.»

قال بول ضاحكًا ضحكة خافتة وهو يحتسي الجعة: «عزيزتي ماريروز، عزيزتي ماريروز الجميلة.»

كانت ماريروز تتمتع بالجمال، وهي فتاة نحيفة صغيرة الجسم، وشعرها بني اللون مموج، وعيناها بنيتان كبيرتان. ظهرت ماريروز على أغلفة المجلات في الكاب، وعملت عارضة أزياء لفترة، ولم تكن مغرورة على الإطلاق. ابتسمت في أناة وقالت مصرة بأسلوبها البطيء المرح: «نعم، يا بول، على الرغم من أي اعتبارات لقد تربيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنا، وأنا على دراية بالسيدة بوثبي، وكنت مثلها أيضًا إلى أن أوضح لي الناس مثلك أنني مخطئة، ولن تغيرها بسخريتك منها، إنك تحرج مشاعرها فحسب.»

ضحك بول ضحكة خافتة مرة أخرى، وأصر على موقفه: «أنت أيضًا يا ماريروز رائعة للغاية لدرجة لا يمكن أن تكون حقيقية.»

لكن فيما بعد في هذا المساء نجحت في إشعاره بالخجل.

جورج هاونسلو — وهو سائق شاحنة — يعيش في مدينة صغيرة مع زوجته على بعد مئة ميل أو ما يقرب من ذلك جنوب خط القطار، وأنجب ثلاثة أطفال، ويعيش معه والداه ووالدا زوجته، ومن المتوقع أن يصل بشاحنته في منتصف الليل، وعرض أن يقضي معنا أمسيات عطلات نهاية الأسبوع، وفي النهار يتفرغ لعمله على الطريق الرئيسي. غادرنا غرفة تناول الطعام وانصرفنا لنجلس أسفل مجموعة من أشجار الصمغ بالقرب من خط السكة الحديدية في انتظار جورج، وفي ظل الأشجار طاولة خشبية غير متقنة الصنع وبعض المقاعد الخشبية الطويلة. أرسل لنا السيد بوثبي اثنتي عشرة زجاجة نبيذ أبيض مثلج من نبيذ الكاب، وكنا حينها جميعًا في أولى مراحل السكر. كان الفندق مظلمًا، وانطفأت الأنوار سريعًا في منزل عائلة بوثبي، ولكن هناك ضوء خافت صادر من مبنى المحطة ووميض خافت من مبنى غرف النوم المُقام أعلى المنحدر الذي يبعد عدة مئات من الياردات. وحال جلوسنا أسفل أشجار الصمغ، وضوء القمر البارد يتراقص فوقنا من خلال فروع الشجر، ورياح المساء تنقل الغبار وتسكنه تحت أقدامنا، قد نكون وسط المرج. ذاب الفندق وسط المناظر الطبيعية البرية للتلال الصغيرة جرانيتية الصخور والأشجار وضوء القمر. وعلى بُعد أميال اعترض الطريق الرئيسي مرتفع وهو كخيط رفيع لضوء خافت بين جانبي الأشجار الداكنة. وقد زاد من حالة السكر التي كنا فيها الرائحة الزيتية الجافة المنبعثة من أشجار الصمغ، ورائحة الغبار المزعجة، ورائحة النبيذ البارد.

خلد جيمي إلى النوم متكئًا على بول الذي أحاطه بذراعه، وأنا شبه نائمة على كتف ويلي، وجلس كل من ستانلي ليت وجوني عازف البيانو أحدهما بجوار الآخر يشاهدان بقيتنا في فضول ودي، وأوضحا في ذاك الوقت وأي وقت آخر أننا — وليس هما — غير مرغوب في وجودنا، وذلك استنادًا إلى الأسباب شديدة الوضوح المتمثلة في أنهما من الطبقة العاملة، وسيظلان من الطبقة العاملة، لكنهما لا يعترضان على أن يلاحظا مباشرة، بسبب الحوادث السعيدة الناشئة عن الحرب، سلوك مجموعة

المفكرين. وستانلي هو من استخدم الكلمة، ورفض التخلي عنها، أما جوني عازف البيانو فلم يتحدث قط، ولم ينطق كلمة واحدة قط، ودائمًا يجلس بالقرب من ستانلي متحالفًا معه في صمت.

بدأ تيد بالفعل يعاني من ستانلي، «الفراشة الواقعة تحت الحجر»، الذي رفض النظر إلى نفسه باعتباره في حاجة إلى الإنقاذ، ومن أجل تعزية نفسه جلس بجوار ماريروز ووضع ذراعه حولها، فابتسمت الفتاة في رقة وظلت بين ذراعه لكنها بدت كأنها أبعدت نفسها عنه وعن أي رجل آخر، فعدد كبير للغاية من الفتيات الجميلات يمتلكن موهبة السماح للآخرين بلمسهنّ وتقبيلهنّ واحتضانهنّ كأن هذه الأفعال رسوم عليهنّ دفعها مقابل هذا الجمال، ويصاحب هذا الاستسلام لأيدي الرجال ابتسامة متسامحة مثلها مثل التثاؤب أو التنهيدة الموحية بالصبر، ولكن في حالة ماريروز لم يقتصر الأمر على ذلك فحسب.

قال تيد بصراحة وهو ينظر إلى الرأس الصغيرة ذات الشعر اللامع المتكئة على كتفه: «لم لا تحبين أيًّا منا يا ماريروز، ولم لا تسمحين لأي منا بالوقوع في غرامك؟»

كادت ماريروز تبتسم، وحتى في هذا الضوء الذي تقطعه الفروع والأوراق بدت عيناها البنيتان واسعتين ولمعتا في وداعة.

عقب ويلي الذي كنت مستندة برأسي على كتفه: «ماريروز قلبها جريح.»

قال بول: «القلوب الجريحة تنتمي إلى الروايات القديمة، ولا تتناسب مع الزمن الذي نعيش فيه.»

قال تيد: «على العكس، هناك قلوب جريحة أكثر من أي وقت مضى، بسبب الزمن الذي نعيش فيه، وإني لأثق أن أي قلب يرجح أن نقابله هو قلب محطم، مصدوم، ومصدع، وهو كتلة تقطعها الندوب.»

ابتسمت ماريروز لتيد خجلًا وامتنانًا، وقالت على نحو جاد: «نعم، لا شك في صحة ذلك.»

كان لماريروز أخٌ أحبته حبًّا جارفًا، وكانا قريبين أحدهما من الآخر، لكن الأهم أنهما مرتبطان بأقوى الروابط بسبب أمهما المشاكسة صعبة المراس التي دعم أحدهما الآخر ضدها. قُتل أخوها في شمال أفريقيا العام السابق، وكانت ماريروز آنذاك في مقاطعة الكاب تعرض الأزياء. واشتدت رغبة الكثيرين فيها بالطبع نظرًا لحسنها، وكان أحد هؤلاء الشباب يشبه أخاها، ورأينا صورة له؛ شابّ ضئيل الحجم، أشقر الشارب، يطل من وجهه العداء، وقعت في غرامه على الفور، وقالت لنا — وأتذكر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشعور بالصدمة الذي شعرنا به كما نشعر تجاهها دائمًا بسبب صراحتها المطلقة العرضية — «نعم، أعرف أنني أحببته بسبب تشابهه مع أخي، لكن ما عيب ذلك؟» كانت دائمًا تسأل أو تقول في حزم: «ما عيب ذلك؟» ولم نستطع قط أن نفكر في الإجابة عن هذا السؤال، لكنّ الشاب الذي أحبته يشبه أخيها ظاهريًّا فقط، ولم يرغب في الزواج منها لكنه كان سعيدًا بعلاقته معها.

قال ويلي: «ربما يكون ما تقولينه صحيحًا، لكن الأمر شديد السخافة. أتعرفين ما سيحدث لكِ يا ماريروز إن لم تأخذي حذرك؟ ستولعين بهذا الصديق، وكلما طالت علاقتك به ازدادت تعاستك، وستبعدين عنكِ كل الشباب الصالحين الذين يمكنك الزواج بهم، وفي النهاية ستتزوجين شخصًا من أجل الزواج فحسب، وستكونين واحدة من الزوجات الساخطات رفيعات المقام اللاتي نراهنّ حولنا.»

على سبيل التوضيح، لا بد من القول إن ما سبق هو ما حدث تحديدًا لماريروز، إذ استمرت لبضع سنوات أخرى في التمتع بالجمال والجاذبية الشديدين، وسمحت للرجال بالتودد إليها وحافظت على ابتسامتها الساحرة التي كانت مثل التثاؤب، وجلست بأناة بين ذراعي هذا الرجل أو ذاك، وفي النهاية، وعلى حين غرة، تزوجت رجلًا في منتصف العمر لديه من الأطفال ثلاثة. لم تحب هذا الرجل، فقد ذهب عن قلبها نبضه بالحياة عندما سُحِقَ أخوها أسفل دبابة.

تساءلت ماريروز بلطفها الشديد، وضوء القمر يظللها، موجهة حديثها إلى ويلي: «إذن، ماذا ترى أن أفعل؟»

رد عليها ويلي: «عليكِ أن تذهبي إلى الفراش في صحبة أحدنا، سريعًا قدر المستطاع، فليس هناك علاج للوله بشخص ما أفضل من هذا.» قالها ويلي في صوت شديد الابتهاج يتحدث به دائمًا من منطلق دوره كأحد مثقفي برلين. عبس تيد وأزاح ذراعه عنها، موضحًا أنه غير مستعد ليشترك في هذه السخرية، وأنه لو ذهب إلى الفراش مع ماريروز فسيكون ذلك بدافع من الرومانسية البحتة. كان الأمر سيكون كذلك.

عقبت ماريروز: «على أي حال، لا أفهم ما ترمي إليه، إنني لا أزال أفكر في أخي.»

قال بول: «لم أعرف قط أي شخص شديد الصراحة في حديثه عن زنى المحارم.» قالها قاصدًا المزاح لكنّ ماريروز أجابته في جدية تامة: «نعم، أعرف أن ما بيننا

كان زنى محارم، لكن المضحك أنني لم أفكر في العلاقة على هذا النحو قط في ذاك الوقت، فأنت تعلم أنني وأخي أحب أحدنا الآخر.»

صُدمنا مرة أخرى، وشعرت بتوتر عضلات كتف ويلي، وأتذكر أنني فكرت أنه منذ بضع لحظات فحسب كان الشخص الأوروبي المنحل، لكن فكرة مضاجعة ماريروز لأخيها أعادته في قوة إلى طبيعته الأصلية المتزمتة.

عم الصمت على المكان، ثم عقبت ماريروز: «أستطيع فهم سبب صدمتكم، لكنني أفكر كثيرًا في الأمر في الوقت الحالي، وتوصلت إلى أننا لم نحدث أي مشكلات، أليس كذلك؟ ومن ثم لا أفهم ما عيب ذلك.»

ساد الصمت مرة أخرى، ثم تحدث بول مندفعًا، وفي لهجة طروبة: «إن لم يكن هناك اختلاف، فلم لا تذهبين إلى الفراش بصحبتي يا ماريروز؟ فأنى لك أن تعرفي، أليس من المحتمل أن تُشفي؟»

جلس بول هادئًا متحملًا جسد جيمي المرتخي على كتفه مثل طفل صغير، تحمل وزنه في تسامح، تمامًا مثلما سمحت ماريروز لتيد بأن يضع ذراعه حولها، إذ لعب بول وماريروز الأدوار نفسها في المجموعة، هو كرجل وهي كامرأة.

قالت ماريروز في هدوء: «إن لم يستطع صديقي في مقاطعة الكاب أن يجعلني أنسى أخي، فلِم ينبغي لك فعل ذلك؟»

قال بول: «ما طبيعة العائق الذي يحول بينك وبين زواجك من هذا العاشق؟»

قالت ماريروز: «ينتمي هذا الشاب إلى عائلة كريمة من مقاطعة الكاب، ولن يسمح لي والداه بالزواج منه، لأنني لا أليق به.»

أطلق بول ضحكته الخافتة الجذابة، ولم أقل إنه عمل على صقل هذه الضحكة الخافتة، لكنه دون شك كان يعرف أنها إحدى سيماه الجذابة. قال مستهزئًا: «عائلة كريمة، عائلة كريمة من مقاطعة الكاب، وثرية بالفعل.»

لم يدل هذا الكلام على الغرور مثلما بدا، إذ بدا غرور بول على نحو غير مباشر في المزاح أو اللعب بالكلمات. وفي الواقع كان يشبع رغبته الأساسية المتمثلة في الاستمتاع بالتنافر، وأنا لست في موقف يمكنني من توجيه النقد إليه لأنني أفترض أن السبب الحقيقي وراء بقائي في المستعمرة بعدما انقضت الحاجة إلى وجودي أن مثل هذه الأماكن تقدم الفرصة لهذا النوع من الاستمتاع. كان بول يدعونا جميعًا للاستمتاع، مثلما فعل عندما اكتشف أن السيد بوثبي وزوجته اللذين يديران فندق ماشوبي هما جون وماري بول شخصيًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن ماريروز قالت في هدوء: «أظن أن ما قلته يبدو مضحكًا من وجهة نظرك، وأنت معتاد على العائلات الكريمة في إنجلترا، وبالطبع أستطيع إدراك أنها مختلفة عن أي عائلة كريمة في مقاطعة الكاب، لكن لا فرق بينهما من وجهة نظري، أليس كذلك؟»

ظل على وجه بول تعبير غامض أخفى وراءه بداية شعوره بعدم الارتياح، بالإضافة إلى أنه تحرك في تلقائية — كأنه يثبت أن هجومها عليه لم يكن عادلًا — حتى إن رأس جيمي استقرت على نحو أكثر ارتياحًا على كتفه، في محاولة منه لإظهار قدرته على منح الحنان.

قالت ماريروز: «إن ضاجعتك يا بول، أظن أنني سأعجب بك، لكنك مثل صديقي من مقاطعة الكاب، لن تتزوجني أبدًا، ولن أليق بك، بالإضافة إلى أنك رجل بلا قلب.»

ضحك ويلي ضحكة سخيفة، وقال تيد: «هذا هو ما تستحقه يا بول.» ولم يرد بول. تحرك جيمي منذ برهة وانزلق جسده حتى اضطر بول للجلوس داعمًا رأسه وكتفيه على ركبتيه. كان بول يهدهد جيمي كأنه طفل، وعلى مدار الفترة المتبقية من المساء راقب ماريروز بابتسامة هادئة نادمة، بعد ذلك اتسم حديثه باللطف الدائم، محاولًا التودد حتى يغير شعورها بالازدراء نحوه، لكنه لم ينجح.

في قرابة منتصف الليل فاق سطوع ضوء المصابيح الأمامية لإحدى الشاحنات ضوء القمر، وحاد عن الطريق الرئيسي ليستقر على مساحة من الرمال العارية بجانب خطوط السكك الحديدة. كانت شاحنة كبيرة محملة بالتروس، ومثبتًا خلفها قاطرة صغيرة هو منزل جورج هاونسلو أثناء إدارته لعمله على الطرق. قفز جورج من مقعد السائق وجاء إلينا، ألقينا عليه التحية بكأس من النبيذ ممتلئًا عن آخره أعطاه إياه تيد، شربه ووقف، وقال بين ارتشافاته: «تمثلون سذج حمقى سكارى يجلسون هنا مسرفين في الشراب.» أتذكر رائحة النبيذ الرائعة القوية عندما أمال تيد زجاجة أخرى لإعادة ملء الكأس، أحدث النبيذ فورانًا وتناثرت قطراته على التراب الذي صدرت رائحته القوية العطرة كأن المطر تساقط عليها.

أتى جورج إلي ليقبلني وقال: «آنا الجميلة الجذابة، لا أستطيع إقامة علاقة معك بسبب هذا الرجل العنيف، ويلي.» ثم حل محل تيد وقبل ماريروز على وجنتها التي أدارتها، وقال: «من بين كل جميلات العالم ليس بصحبتنا سوى اثنتين منهنّ، وهذا يدفعني للبكاء.» ضحك الرجال وابتسمت ماريروز لي، ورددت لها الابتسامة، فاضت ابتسامتها بألم مفاجئ ومن ثم أدركت أن ابتسامتي حملت الشعور نفسه أيضًا.

بعد ذلك بدت قلقة لأن ابتسامتها فضحت مشاعرها، وتباعدت نظرات إحدانا عن الأخرى سريعًا، وبعيدًا عن اللحظة التي كشفنا فيها عن أنفسنا، ولا أظن أن أيًّا منا كانت ستهتم بتحليل الألم الذي شعرنا به. وقتئذٍ جلس جورج منحنيًا للأمام ومعه كأس ممتلئة عن آخرها بالنبيذ وقال: «أيها الحمقى والرفقاء، توقفا عن التكاسل، جاءت اللحظة لإخباري بما لديكم من أخبار.»

نهضنا وملأتنا الإثارة ونسينا نعاسنا، واستمعنا لويلي وهو يطلع جورج على الأخبار المتعلقة بالموقف السياسي في المدينة. كان جورج رجلًا شديد الجدية، ويحترم ويلي احترامًا شديدًا؛ يحترم عقل ويلي، وهو مقتنع بأنه رجل غبي، ومقتنع كذلك — طوال حياته على الأرجح — بقصور قدراته عامة، وبقبحه أيضًا.

وفي الواقع كان جورج وسيمًا إلى حد ما أو على الأقل تستجيب السيدات له دائمًا حتى عندما لم يدركن ذلك، مثل السيدة لاتيمير الجميلة ذات الشعر الأحمر التي أعربت كثيرًا عن مدى بغضها له، مع أنها لم تستطع قط إبعاد نظرها عنه. كان طويلًا، مع أنه يبدو أقصر بسبب كتفيه العريضين المنحنيين للأمام، ومن الكتفين حتى جانبيه يتناقص عرض جسده سريعًا، له هيئة كهيئة الثور، اتسمت كل تحركاته بعدم المرونة والمفاجأة المصحوبة بالانزعاج المسيطر عليه الناتج عن القوة الخاضعة للسيطرة رغمًا عنه. ويرجع ذلك إلى حياته العائلية الصعبة، ففي وطنه كان صبورًا مضحيًا بذاته ومنظمًا، واضطر لأن يستمر في سلوكياته هذه سنوات كثيرة. وبطبيعة الحال بوسعي أن أقول إنه لم يتمتع بأي من هذه الصفات، وربما هذا هو السبب وراء حاجاته لانتقاد ذاته، السبب وراء عدم ثقته بنفسه، فهو رجل كان باستطاعته أن يكون أفضل مما سمحت له الحياة بأن يكون، وعرف ذلك على ما أظن وبسبب شعوره بالذنب سرًّا لإحباطه بسبب ظروف العائلة، كان انتقاده لنفسه أسلوبًا لتعذيب نفسه. لا أعرف ... أو ربما عاقب نفسه بهذه الطريقة لعدم إخلاصه المستمر لزوجته؟ كان يجب أن أكون أكبر سنًّا مما كنت عليه وقتها حتى أفهم علاقة جورج مع زوجته، كان يشفق عليها إشفاقًا صادقًا شديدًا؛ إشفاق الضحية على الأخرى.

جورج أحد أكثر الناس المحبوبين الذين عرفتهم، ودون شك أكثرهم من حيث خفة ظل، يتمتع بخفة ظل تلقائية لا تُقاوم، رأيته يجعل أناسًا يملئون غرفة يضحكون على نحو يتعذر التحكم فيه منذ أن تُغلق الحانة وحتى بزوغ الشمس، ونرقد على الأسرة والأرض نضحك، حتى إننا لا نستطيع أن نتحرك، وفي اليوم التالي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما تذكرنا النكات التي قالها رأينا أنها ليست مضحكة على نحو خاص. ومع ذلك ننفجر في الضحك، بسبب وجهه الوسيم وسامةً تقليدية للغاية تكاد تكون فاترة بسبب تناسق ملامحه، حتى إن المرء يتوقع منه أن يتحدث ليأسر الآخرين بكلماته، لكنني أظن أن السبب الذي يدفعنا لأن ننفجر في الضحك هو تلك الشفة العلوية الصغيرة والطويلة للغاية التي منحت وجهه مظهر تعنت مجردًا من التعبير ويكاد يكون غبيًّا، ثم تتدفق على شفتيه الكلمات الحزينة التي لا تقاوم والموجهة نحو ذاته كالسهام، ويرانا ونحن ننفجر في الضحك، لكنه لم يضحك قط مع ضحاياه، بل يشاهدنا في اندهاش إيجابي كأنه يفكر: لا يمكن أن أكون قليل الحيلة كما أظن وبوسعي إضحاك كل هؤلاء الماهرين بهذه الطريقة.

كان في قرابة الأربعين؛ أي أكبر من أكبر شخص في جماعتنا — وهو ويلي — باثني عشر عامًا. لم نفكر في ذلك الأمر قط، ومع ذلك لم يستطع هو أن ينساه. كان جورج ينظر إلى الأعوام المنقضية من عمره كأنه ينظر إلى جواهر تنزلق واحدة بعد أخرى من بين أصابعه إلى البحر، بسبب مشاعره تجاه السيدات، وعاطفته الأخرى الموجهة تجاه السياسة. ولم تكن أقل مشكلاته أنه تربى مع والدين استقيا خلفيتهما من التقاليد الاشتراكية القديمة في بريطانيا — اشتراكية القرن التاسع عشر — حيث العقلانية والعملية والأهم من ذلك معاداة الدين المتعصبة. جعلته هذه التربية غير مناسب للعيش مع سكان المستعمرة، فهو رجل منعزل ووحيد يعيش في مدينة منعزلة صغيرة غير متحضرة، ونحن — مجموعة الأشخاص الأصغر منه سنًّا بكثير — أول أصدقاء حقيقيين له على مدار سنوات، وأحببناه جميعًا، لكنني لا أظن أنه أدرك حبنا له لحظة، أو أنه سيسمح لنفسه بمعرفة ذلك، فهو شديد التواضع، خاصةً تواضعه في تعامله مع ويلي، وأتذكر ذات مرة أن طريقة جلسته أزعجتني إذ عبر عن مهابته لويلي بكل جوارحه، حين كان ويلي يوضح القواعد الخاصة بأحد الأمور، وقلت: «بالله عليك يا جورج، إنك رجل لطيف للغاية، وأنا لا أستطيع رؤيتك وأنت تداهن رجلًا مثل ويلي.»

رد جورج: «لكن لو أن لي عقل ويلي.» وكان من عادته ألا يسأل كيف استطعت التعقيب بهذه الملاحظات على رجل أعيش معه بالرغم من كل شيء، واستطرد: «لو أن لي عقله فسأصبح أسعد رجل في العالم.» ثم ضم شفته العليا في تواضع وقال: «ماذا تعني برجل لطيف؟ إنني رجل بغيض، وأنت تعرفين ذلك، وقد أخبرتك بالأشياء

التي أفعلها ثم تقولين إنني لطيف.» كان يشير إلى ما أخبرني به أنا وويلي ولم يخبر آخر عن علاقاته مع النساء.

منذ ذلك الحين وأنا أفكر في هذا الأمر كثيرًا، أقصد في كلمة لطيف، ربما أعني فاضل، إن مثل هذه الكلمات لا تعني شيئًا بالطبع عندما يبدأ المرء بالتفكير فيها، فالمرء يقول رجل فاضل وامرأة فاضلة، ورجل لطيف وامرأة لطيفة، وهذا في الحديث فقط وهما كلمتان لا تُستخدمان في رواية، وسوف أكون حريصة ألا أستخدمهما.

ولكن فيما يتعلق بهذه المجموعة سوف أقول دون المزيد من التحليلات إن جورج رجل فاضل وويلي ليس كذلك، وإن ماريروز وجيمي وتيد وجوني عازف البيانو فاضلون، وإن بول وستانلي ليت لم يكونا فاضلين. بالإضافة إلى ذلك، أراهن أن عشرة أشخاص مُختارين عشوائيًّا من الشارع لمقابلة هذه المجموعة أو مدعوون للجلوس في هذا الحزب أسفل أشجار الكينا هذه الليلة، سوف يوافقون على الفور على هذا التصنيف، وسيعرفون ما أقصد عندما أستخدم كلمة «فاضل» على هذا النحو.

وبالتفكير في هذا الأمر، وهو الشيء الذي فعلته كثيرًا، اكتشفت أن هذا قادني إلى أحد الأشياء الأخرى التي تسيطر عليّ؛ أقصد بالطبع موضوع «الشخصية»، ويعلم الله أننا ليس مسموحًا لنا على الإطلاق نسيان أن «الشخصية» لم يعد لها وجود، وتلك هي الفكرة الأساسية التي تدور حولها نصف الروايات المؤلفة، والفكرة الأساسية التي تسيطر على علم الاجتماع وكل العلوم الأخرى، وقيل لنا كثيرًا إن الشخصية الإنسانية ظلت تتدهور حتى تلاشت تحت ضغط جميع معارفنا، حتى إنني أصبحت أصدق ذلك الأمر، لكن عندما فكرت في المجموعة الجالسة أسفل الأشجار، وأعدت تكوينهم في ذاكرتي، اكتشفت فجأة أن هذا الكلام لا يعدو عن أن يكون هراءً؛ فلو فرضت أنني قابلت ماريروز الآن، بعد كل هذه السنوات، فلا شك أنها سترسل إيماءة أو تدير عينيها على نحو معين، ومن ثم ستكون تلك هي ماريروز، ستقف مقاومة كل محاولة لتدميرها، أو لنفترض أنها «انهارت» أو أصابها الجنون، ستنهار وتتفكك إلى مكوناتها، وستبقى لإيماءتها وحركة عينيها، مع أن بعض الروابط التي تجمع بين هذه المكونات ستتلاشى، ومن ثم يصبح كل هذا الكلام — الكلام المرعب المعادي للبشرية عن تبخر الشخصية — بلا معنى من وجهة نظري عند المرحلة التي أكوّن فيها طاقة وجدانية كافية داخل نفسي لأخلق في ذاكرتي شخصًا عرفته. جلست وتذكرت رائحة الغبار وضوء القمر، ورأيت تيد وهو يقدم كأس النبيذ لجورج، واستجابة جورج التي يطل منها الامتنان الشديد له. أو أتخيل، وكأنني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أرى فيلمًا يجري بالتصوير البطيء، ماريروز وهي تدير رأسها بابتسامتها شديدة التمهل ... هل كتبت كلمة فيلم؟ نعم كتبتها، فاللحظات كافة التي أتذكرها تحمل معها يقين كل ابتسامة ونظرة وإيماءة، كما في لوحة أو فيلم. هل أقول إذن إن اليقين الذي أتشبث به ينتمي إلى الفنون المرئية وليس إلى الرواية، أو لا ينتمي إلى الرواية على الإطلاق؛ تلك الرواية التي منيت بالتفكك والانهيار؟ وما مصلحة أي روائي ليتشبث بذكرى ابتسامة أو نظرة وهو يعلم جيدًا التعقيدات التي تقف وراءهما؟ ومع ذلك، إن لم أفعل ذلك، فلم يكن من الممكن أن أتمكن من كتابة كلمة واحدة على الورق؛ تمامًا كما اعتدت على أن أقي نفسي الإصابة بالجنون في هذه المدينة الشمالية الباردة عن طريق تذكير نفسي ضوء الشمس الساخن على بشرتي.

ومن ثم سوف أكتب مرة أخرى أن جورج رجل فاضل، وأنني لم أستطع رؤيته يتحول إلى تلميذ أخرق عندما يستمع إلى ويلي ... ففي هذا المساء عرف حقائق عن المشكلات التي تحدق بالجماعات اليسارية في المدينة في تواضع تام، وأشارت إيماءة إلى أنه سيفكر في هذه المشكلات بينه وبين نفسه، ولمدة طويلة، لأنه بالطبع شديد الغباء ولا يمكنه التفكير في أي شيء دون استغراق ساعات وساعات في التفكير حتى إن كان بقيتنا شديدي الذكاء ولا نحتاج للتفكير.

اعتبرنا جميعنا أن ويلي غير مبال في تحليله؛ إذ تحدث كأنه في لجنة ولم يشر قط إلى القلق الذي سيطر علينا منذ وقت، ولا إلى نبرة الشك والسخرية الجديدة.

اختار بول بعدئذٍ، متنصلًا من موقف ويلي، أن يخبر جورج بالحقيقة على النحو الخاص به، فبدأ في التحدث مع تيد، وأتذكر مشاهدة تيد وأنا أتساءل هل سيستجيب لتلك المواجهة الغريبة التي لم تكن على درجة عالية من القوة، فتردد تيد وبدا متوترًا لكنه اشترك في هذه المواجهة، ولأن هذه ليست شخصيته، ولأن ما يفعله ضد معتقداته الدفينة، فقد أطل من حديثه شعور متكلف بالوحشية صدمنا أكثر من استماعنا لبول.

بدأ بول بوصف اجتماع إحدى اللجان مع السياسيين المتأثرين بعبارة «رجلين ونصف»، وهو اجتماع يتقرر فيه مصير قارة أفريقيا بأكملها «دون الإشارة بالطبع إلى الأفارقة أنفسهم». (وكان بالطبع من الخيانة الاعتراف أمام غرباء مثل ستانلي ليت وجوني عازف البيانو باحتمالية وجود أي شك في معتقداتنا، نظر جورج في ارتياب إليهما مقررًا أنهما انضما إلينا ولا بد، لأنه لو لم يحدث ذلك فلن نتصرف بمثل هذا التهاون، وابتسم في سعادة لأن لدينا عضوان جديدان.) ووقتئذٍ وصف

بول كيف سيبدأ السياسيون المتأثرون بشخصيات «رجلان ونصف الرجل» — عندما يجدون أنفسهم في ماشوبي — في «توجيه ماشوبي تجاه إجراء صائب».

– أرى أن الفندق سيكون مكانًا ملائمًا كنقطة بداية، أليس كذلك يا تيد؟

– بالقرب من الحانة يا بول حيث كل وسائل الترفيه.

(لم يكن تيد يفرط في الشراب، وعبس جورج إليه متحيرًا وهو يتحدث.)

– المشكلة هي أن هذا الفندق ليس مركز الطبقة العاملة الصناعية النامية، وبالطبع باستطاعتي أن أقول الشيء نفسه عن البلد بأكمله وفي الواقع علينا قول ذلك.

– هذا صحيح يا بول، لكن على الجانب الآخر تُعتبر المقاطعة ممتلئة بالكثير من العمال المزارعين المتخلفين المتضورين جوعًا.

– إنهم يحتاجون فقط إلى يد تمدها لهم طبقة العمال سابقة الذكر إن كانت موجودة.

– وجدتها، أرى أن هناك خمسة أشخاص سود فقراء يعملون في خط السكة الحديدية هنا، وكلهم يرتدون ملابس بالية وتعساء، ألا يصلحون؟

– إذن، فكل ما علينا فعله هو إقناعهم بأن يفهموا مكانتهم الطبقية فهمًا صائبًا، وسوف نملك المقاطعة بأكملها في اضطراب ثوري قبل أن يمكننا أن نقول إن الشيوعية اليسارية ليست إلا فوضى في مراحلها الأولى.

نظر جورج إلى ويلي منتظرًا منه الاحتجاج، لكن هذا الصباح قال ويلي لي إنه نوى تكريس كل وقته للدراسة، وليس لديه أي وقت إضافي «لكل هؤلاء المتهاونين والفتيات اللاتي يبحثن عن أزواج.» وكان من السهولة أنه طرح جانبًا الناس الذين تعامل معهم تعاملًا جديًّا لسنوات.

شعر جورج الآن بالتوتر الشديد، وأن جوهر اعتقادنا لم يعد داخلنا، وهذا يعني أن بقاءه وحيدًا أصبح مؤكدًا، وتحدث جورج إلى عازف البيانو جوني الذي يجلس بجانب بول وتيد اللذين توسطاهما: «إنهما يقولان الكثير من الهراء، أليس كذلك يا صديقي؟»

أومأ جوني موافقًا؛ ليس على الكلمات، أظن أنه نادرًا ما يستمع إلى الكلمات، بل يشعر فقط هل يعامله الناس في مودة أم لا.

– ما اسمك؟ لم نتقابل صدفةً من قبل، أليس كذلك؟

– جوني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– هل أنت من مقاطعات إنجلترا الوسطى؟
– من مانشستر.
– هل أنتما عضوان؟

هز جوني رأسه بالنفي، وصُدم جورج واندهش اندهاشًا بطيئًا، ثم حرك يده سريعًا على عينيه وجلس مسترخيًا في صمت، وفي الوقت نفسه ظل جوني وستانلي أحدهما بجانب الآخر يشاهدانه، وهما يحتسيان الجعة، وقتئذٍ قفز جورج لأعلى في محاولة يائسة مفاجئة لكسر الحواجز، وأمسك زجاجة جعة بتوازن وقال لستانلي: «لم يتبق منها الكثير، لكن لا يزال فيها بعض الشراب.»

قال ستانلي: «لا يهمني ما تبقى، فالجعة كلها معي.» ثم ربت على جيوبه، وسترته من الأمام حيث زجاجات الجعة شديدة الوضوح من كل الزوايا؛ تمثلت عبقرية ستانلي الشديدة في «تنظيم» موارد الجعة لجوني ولنفسه دائمًا، حتى عندما تنضب الجعة من المستعمرة، وهو الأمر الذي يحدث من وقت لآخر يظهر ستانلي بصناديق الجعة التي خزنها بعيدًا في المخابئ في جميع أنحاء المدينة، والتي يبيعها ويربح فيها في فترة الجفاف.

قال جورج: «أنت محق، لكن مَعِداتنا نحن سكان المستعمرة المساكين تكيفت مع نبيذ مقاطعة الكاب الرديء منذ أن فُطمنا.» كان جورج يحب النبيذ، ولكن تلك الحركة التي تدلل على المودة لم تلن من طبع الرجلين. «ألا تظن أننا يجب أن نأخذ على أيدي هذين الرجلين؟» تساءل جورج مشيرًا إلى تيد وبول. (ابتسم بول، وبدا تيد محرجًا.)

قال ستانلي: «لا أهتم بمثل هذه الأشياء.» وفي البداية ظن جورج أنه لا يزال يشير إلى النبيذ، لكنه عندما أدرك أنه يقصد شئون السياسة، نظر إلى ويلي نظرة خاطفة ليوجهه، لكن ويلي دفن رأسه بين كتفيه وهمهم لنفسه، عرفت أنه كان يعاني الحنين إلى الوطن، ولم يكن لويلي أذن موسيقية، ولم يكن بإمكانه أن يغني، لكنه عندما يتذكر برلين يهمهم دون نغم مرارًا وتكرارًا بأحد ألحان مسرحية أوبرا ثلاث بنسات لبريخت:

القرش له أسنان بارعة
يحافظ عليها بيضاء لامعة ...

بعد مرور سنوات أصبحت هذه كلمات لأغنية شهيرة، لكنني سمعتها لأول مرة في ماشوبي من ويلي، وأتذكر الإحساس الشديد بالاقتلاع من الوطن الذي شعرت به عند سماع الأغنية الحديثة في لندن، بعد دندنة ويلي الحزينة التي يطل منها الحنين لما أخبرنا أنها «أغنية اعتدت على غنائها عندما كنت طفلًا. هناك رجل يدعى بريخت كان بارعًا جدًّا، ترى ماذا حدث له؟»

تساءل جورج بعد فترة صمت طويلة مفعمة بالتوتر: «ماذا يحدث أيها الرفاق؟»

قال بول متعمدًا: «أرى أن قدرًا معينًا من الارتباك يتصاعد.»

قال تيد: «يا إلهي لا ...» ثم راجع نفسه ولم يكمل وجلس عابسًا، ثم قفز لأعلى وقال: «سأذهب إلى الفراش.»

قال بول: «كلنا سنذهب إلى الفراش، انتظر قليلًا.»

قال جوني: «أرغب في النوم، وأشعر بالنعاس الشديد.» وهي جملة أطول مما سمعناه يقوله على الإطلاق، فنهض وكاد يقع، ثم وازن نفسه بوضع يده على كتف ستانلي، وبدا أنه يفكر فيما قيل والآن رأى أنه من الضروري قول شيء آخر، قال لجورج: «أتيت إلى الفندق لأنني صديق ستانلي، وقال لي إن لديهم بيانو ويقيمون حفل رقص صغيرًا في ليالي الآحاد، ولكنني لا أهتم بأمور السياسة. أنت جورج هاونسلو، سمعتهم يتحدثون عنك، وأنا مسرور بمقابلتك.» وبسط يده له وصافحه جورج في حماس.

مشى ستانلي وجوني نحو المنطقة التي انعكس عليها ضوء القمر تجاه مبنى غرف النوم، ونهض تيد يقول: «وأنا أيضًا، لن أعود إلى هنا مجددًا.»

قال بول ببرود: «يا إلهي، لا تكن دراماتيكيًّا هكذا.» تفاجأ تيد بهذا البرود المفاجئ، فحدق تيد النظر فينا جميعًا، وهو شارد، وأطل من عينيه الشعور بالإهانة والإحراج، لكنه جلس مرة أخرى.

تساءل جورج في فظاظة: «ماذا يفعل هذان الرجلان معنا؟» وأطل الشعور بالحزن من لهجته الفظة: «إني على يقين من أنهما لطيفان، ولكن كيف لنا أن نتحدث عن مشاكلنا في وجودهم؟»

لم يتحدث ويلي أيضًا، واستمرت الدندنة الحزينة الخافتة مقتربة من أذنيّ: «القرش له أسنان بارعة ...».

قال بول لتيد متعمدًا وغير مبال: «أظن أننا أخطأنا تقييم الموقف الطبقي في ماشوبي، وتناسينا الرجل المهم، وها هو طباخ السيدة بوثبي يمكث على مقربة منا طوال الوقت دون أن نلحظه.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تساءل جورج في فظاظةٍ شديدة: «ماذا تقصد بالطباخ؟» كان ينهض وقد بدت عليه العدائية والشعور بالجرح، وظل يحرك النبيذ في كأسه إلى أن تناثر على التراب، وظننا جميعًا أن سلوكه العدواني بسبب مفاجأته بحالتنا النفسية. لم نره منذ بضعة أسابيع، وأظن أننا جميعًا كنا نقيّم عمق التغيير في أنفسنا، لأن هذه المرة هي المرة الأولى التي رأينا انعكاس أنفسنا — إن جاز التعبير — في أعيننا منذ فترة زمنية قصيرة جدًّا، ولأننا شعرنا بالذنب فقد استأنا من جورج؛ استأنا منه بما يكفي رغبتنا في جرح مشاعره. وأتذكر في وضوح شديد وأنا جالسة هناك أنظر إلى وجه جورج الغاضب الصادق، وأقول لنفسي: يا إلهي! أظن أنه قبيح، وأظن أنه سخيف، ولا أتذكر أنني أحسست بهذا الشعور من قبل، ثم أدركت لم شعرت بذلك. بالطبع لم ندرك السبب الحقيقي وراء رد فعل جورج تجاه ذكر بول للطباخ إلا فيما بعد.

قال بول متعمدًا: «نعم الطباخ في وضوح تام، فباستطاعته القراءة، والكتابة، إلى جانب أن لديه فكرًا، وهذا ما تشكو منه السيدة بوثبي، إذن فهو مثقف، وبالطبع سيكون قتله لازمًا فيما بعد عندما تصبح أفكاره عائقًا، لكنه سيكون بلا شك حقق المراد منه، ومهما يكن من شيء فسوف نُقتل معه.» وحثه على هذا القول رغبته الجديدة في استفزاز جورج وجرح مشاعره.

أتذكر نظرة جورج المطولة التي أطلت منها الحيرة في وجه ويلي، ثم الكيفية التي حدق النظر بها في تيد الذي أرجع رأسه إلى الوراء واتجهت ذقنه لأعلى تجاه فروع الأشجار، وهو يتفحص النجوم المتلألئة بين أوراق الأشجار، ثم نظر نظرة محدقة قلقة لجيمي الذي لا يزال جثة هامدة بين ذراعي بول.

قال تيد بلهجة طروبة: «يكفيني هذا، سوف نرافقك إلى قاطرتك يا جورج ونتركك هناك.» وكانت تلك بادرة مصالحة وصداقة، لكن جورج قال بأسلوب حاد: «لا» ولأن رده جاء على ذلك النحو، نهض بول على الفور وأزاح جيمي الذي سقط على المقعد وقال في إصرار يطل منه البرود: «بالطبع سنصطحبك إلى فراشك.»

قال جورج مجددًا: «لا» وبدا خائفًا، وعندما ترامت إلى سمعه نبرة صوته، قال مغيرًا إياها: «أيها السخفاء الثملون، سوف تتساقطون على طول خطوط السكك الحديدية.»

عقب بول بلهجة عفوية: «قلت إننا سنأتي ونضعك في فراشك.» تمايل بول وهو يقف لكنه استعاد توازنه، وهو مثل ويلي بإمكانه أن يفرط في الشراب دون أن تظهر عليه علامات السكر، ولكنه كان ثملًا عندئذٍ.

قال جورج: «لا، قلت لا، ألم تسمعني؟»

حينئذٍ أفاق جيمي وتحرك عن المقعد مترنحًا وتشبث ببول ليحفظ توازنه، وتمايل الرجلان برهة، ثم انطلقا على عجالة تجاه خطوط السكة الحديدية والقاطرة الخاصة بجورج.

صاح جورج: «ارجعا، أيها الأحمقان السخيفان، الأبلهان الثملان الغبيان.» إنهما الآن على بعد عدة ياردات ويوازنان جسديهما فوق أرجلهما المتعثرة. تحركت ظلال أرجلهما السوداء التي تتحرك بخطوات غير منتظمة في حدة قاطعة الرمال المتلألئة حتى كادت تصل إلى المكان الذي يقف جورج فيه، وبدوا كأنهما دميتا ماريونت صغيرتان تهبطان سلمًا أسود طويلًا بحركات متشنجة. حملق جورج عابسًا، ثم تلفظ بسباب خفيض عنيف، وعدا خلفهما. وفي الوقت نفسه لوينا قسمات وجوهنا في تسامح ونحن ينظر بعضنا إلى بعض، تساءلنا: ما خطب جورج؟ بلغ جورج الرجلين وأمسك بهما من كتفيهما، وأدارهما لمواجهته. سقط جيمي ووقع على الأحجار السائبة، وبجانب خطوط السكة الحديدية خط من الحصى الخشن، ظل بول واقفًا وقد تيبس جسده إذ يحاول في صعوبة أن يحافظ على توازنه، ونزل جورج إلى الوحل مع جيمي وحاول أن يُنهضه مرة أخرى وأن يرفع جسده الثقيل المغطى بزي سميك مصنوع من نسيج مجدول، وقال بأسلوب رقيق إلى حد ما للرجل الثمل: «أيها الأبله السخيف، ألم أخبرك بأن تعود، ألم أفعل ذلك؟» وكاد يهزه بغضب شديد لكنه راجع نفسه ولم يفعل، حتى عندئذٍ حاول في تعاطف شديد أن يُنهضه. وقتئذٍ هرع بقيتنا للأسفل ووقفنا بجانب الآخرين على مسار خط السكك الحديدية، وكان جيمي مستلقيًا على ظهره وعيناه مغمضتان، جُرح في جبهته على الحصى وتناثر الدم الملطخ باللون الأسود على وجهه الأبيض، وبدا نائمًا، وهذه المرة فقط منحه شعره الباهت جمالًا، وقد استرسل على جبينه في تموجات متمايلة، ولمعت كل شعرة منه على حدة.

قال جورج وقد ملؤه اليأس: «يا إلهي.»

قال تيد: «لم افتعلت هذه الضجة؟ كنا سنذهب لنصطحبك إلى شاحنتك فقط.»

تنحنح ويلي، ودائمًا يصدر صوتًا خشنًا أو بالأحرى فظًّا عندما يتنحنح، ومن عادته أن يفعل ذلك، ولم يكن ذلك بسبب العصبية على الإطلاق، بل كتحذير لبق في بعض الأحيان، أو كأنه يقول في أحيان أخرى: أنا أعرف شيئًا لا تعرفونه. وعرفت أنه في هذه المرة يعني الشيء الثاني، وقال إن السبب وراء رغبة جورج في عدم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اقتراب أي شخص من القاطرة هو وجود امرأة بداخله، ولم يخن ويلي قط الثقة حتى ولو على نحو غير مباشر وهو واعٍ وهذا يعني أنه كان ثملًا، وحتى أغطي على هذا العمل الطائش همست لماريروز: «إننا نظل ننسى أن جورج أكبر منا، ولا بد أننا نبدو مجموعة من الأطفال في نظره.» تحدثت بصوت عالٍ بما يكفي لأن يسمعه الآخرون، وسمعني جورج وابتسم لي ابتسامة امتنان تهكمية وهو يدير رأسه إلى الخلف. ولكننا لم نستطع بعد أن نحرك جيمي، وقفنا جميعًا ننظر له وهو على الأرض، انقضى وقت طويل على منتصف الليل، وتلاشت الحرارة من التربة، وانخفض القمر أعلى الجبال التي خلفنا. وأتذكر أنني تساءلت كيف بدا جيمي عظيمًا ومثيرًا هذه المرة فقط وهو راقد ثملًا على رقعة من الحصى القذر، بهذا الجرح الأسود أعلى جبينه، الذي يبدو وهو واعٍ شخصًا مثيرًا للشفقة يفتقر إلى الوسامة والجاذبية. وفي الوقت نفسه تساءلت من تكون هذه المرأة؛ سواء أكانت إحدى زوجات المزارعين القاسيات، أم واحدة من الفتيات اللاتي كن في سن الزواج، أم واحدة من ضيفات الفندق اللاتي شربنا معهنّ في الحانة هذه الليلة، تلك التي تسللت إلى شاحنة جورج محاولة أن تختبئ في ضوء القمر المضيء بلون الماء، وأتذكر أنني حسدتها، وأتذكر حبي لجورج في هذه اللحظة فقط حبًّا عنيفًا مؤلمًا، واعتبرت نفسي غبية وحمقاء، لأنني رفضته كثيرًا بما يكفي. وفي هذا الوقت من حياتي، ولأسباب لم أفهمهما حتى وقت لاحق، لم أسمح لنفسي بأن يختارني الرجال الذين يرغبونني حقًّا.

وأخيرًا استطعنا إيقاف جيمي على قدميه، وتطلب حدوث ذلك أن نشده جميعنا لأعلى بقوة، ثم أسندناه ورفعناه لأعلى بين أشجار الصمغ، وعبر الممر الطويل بين أحواض الزهور إلى غرفته في الفندق، هناك تدحرج على الفور نائمًا وظل نائمًا ونحن ننظف جرحه، وكان جرحًا عميقًا ومليئًا بالحصى واستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإيقاف النزيف. قال بول إنه سيظل مستيقظًا ليلاحظ جيمي: «مع أنني أكره قيامي بهذا الدور؛ دور ملاك الرحمة.» وما إن جلس حتى غلبه النعاس، وفي النهاية كانت ماريروز هي من ظلت مستيقظة ساهرة إلى جانب فراشهما حتى الصباح. غادر تيد للذهاب إلى غرفته متمنيًا للآخرين ليلة سعيدة على نحو مقتضب ويكاد يكون غاضبًا. (ومع ذلك فإنه في الصباح سيتبدل حاله إلى حالة مزاجية مستهزئة بالنفس وساخرة، وسيقضي شهورًا وحاله متبدل في عنف بين الوقار الذي يطل منه الشعور بالذنب والسخرية المريرة المتزايدة ... وفيما بعد سيقول إن هذه هي أكثر مرحلة في حياتي شعرت بالخزي منها.)

وقَفْتُ أنا وجورج وويلي على السلم في ضوء القمر الذي بدا خافتًا حينئذ، قال جورج «شكرًا لكم.» بعدها حدق في وجهي ثم في وجه ويلي في قسوة وعن كثب، وبدا عليه التردد، ولم يتلفظ بما كان ينوي أن يقول، بدلًا من ذلك أضاف الدعابة الواجبة بصوت أجش: «عسى أن أرد لكما الجميل في يوم من الأيام.» وخطا خطوات واسعة إلى الأسفل باتجاه الشاحنة الواقفة بالقرب من خطوط السكة الحديدية، وتمتم ويلي: «يبدو رجلًا على موعد غرامي.» عاد ويلي إلى طبيعته المتكلفة وهو يتشدق بالكلام ويبدي ابتسامة المطلع على الأمور، لكني كنت أغبط المرأة المجهولة كثيرًا حتى إني عجزت عن الرد، وذهبنا إلى النوم في صمت، سننام — على الأرجح — حتى منتصف النهار ما لم يوقظنا رجال القوات الجوية الثلاثة الذين أحضروا لنا طعام الإفطار. وضع جيمي عصابة حول رأسه وبدا متعبًا، وكان تيد مبتهجًا بصورة جامحة وغير محتملة، أما بول فكان يشع سحرًا وهو يقول: «بدأنا بالفعل في تقويض دور الطاهي، لأنه سمح لنا بإعداد فطورِك يا عزيزتي آنا، وفطور ويلي كعمل إضافي ولكنه ضروري.» دفع بول صينية الطعام برفق أمامي: «الطاهي مشغول بإعداد جميع الأشياء الطيبة لهذه الليلة. هل أعجبكم ما أحضرناه لكم؟»

أحضروا من الطعام ما يكفينا جميعًا، تناولنا فاكهة البابايا والأفوكادو ولحم الخنزير المقدد والبيض والخبز الطازج الساخن والقهوة. النوافذ مفتوحة وضوء الشمس حار بالخارج، والرياح التي تهب داخل الغرفة دافئة تفوح منها رائحة الزهور. جلس بول وتيد على سريري وتغازل ثلاثتنا؛ في حين جلس جيمي على سرير ويلي وبدا صاغرًا بسبب ما وصل إليه من سُكْر الليلة الماضية. لكن الوقت تأخر بالفعل، والحانة مفتوحة، وسرعان ما ارتدينا ملابسنا ونزلنا معًا وسط أحواض الزهور التي ملأت ضوء الشمس بالرائحة الجافة النفاذة لبتلات الأزهار الذابلة وشديدة السخونة. تعج شرفات الفندق بالأشخاص الذين يشربون الخمر، والحانة ممتلئة، وبدأت الحفلة فور أن أعلن بول ملوحًا بكأسه.

لكن ويلي انسحب من الحفلة، وأحد أسباب ذلك أنه لا يوافق على مظاهر الحياة البوهيمية كتناول الإفطار الجماعي داخل غرف النوم، تذمر وقال: «لو كنا متزوجين فربما سارت الأمور على ما يرام.» لكني ضحكت فقال: «حسنًا، اضحكي كما تشائين. لكن القواعد القديمة لم توضع اعتباطًا، فهي التي تجعلنا بمنأى عن المشكلات.» امتعض لأني ضحكت وقال إن امرأة في مكانتي تحتاج إلى وقار أكثر في التصرف، «أية مكانة هذه؟» انتابني غضب شديد فجأة بسبب شعوري بالحرج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي ينتاب النساء في مثل هذه اللحظات. «صحيح يا آنا، لكن الأمور تختلف بين الرجال والنساء. هكذا كانت دائمًا ومن المرجح أن تظل هكذا.» أجبته محاولةً تذكيره بماضيه: «هكذا كانت دائمًا؟»

– طوال الوقت الذي كان فيه الأمر مهمًّا.

– مهم لك وليس لي.

لكننا خضنا هذه المشادة الكلامية من قبل، كنا نعرف جميع العبارات التي سيستخدمها كل طرف على الأرجح؛ ضَعْف النساء، حس التملك لدى الرجال، المرأة في العصور القديمة، إلى آخر ذلك من العبارات المثيرة للملل. أدركنا أنه خلاف عميق جدًّا في الطبائع، حتى إن أيًّا من الكلمات لن تمثل فارقًا لأي منا — فالحقيقة أننا يصدم أحدنا الآخر في أعماق مشاعره وفطرته طوال الوقت. لذلك وجه ثوري المستقبل المحترف إليَّ إيماءة معادية وجلس في شرفة الفندق مع كتب قواعد اللغة الروسية، لكن لن تتاح له فرصة الاطلاع بمفرده طويلًا، فجورج يخطو خطوات واسعة بين أشجار الصمغ وبدا عليه العبوس الشديد.

ألقى بول التحية عليَّ وقال: «آنا، تعالي لتري الأشياء الجميلة في المطبخ.» أحاطني بذراعه، وعرفت أن ويلي رآنا فتعمدت ذلك، وسرنا معًا عبر الممرات المغطاة بالحجارة حتى وصلنا إلى المطبخ وهو حجرة واسعة منخفضة خلف الفندق. كانت الموائد ممتلئة بالطعام، ومغطاة بشِباك تحول دون وصول الذباب إليه. السيدة بوثبي في المطبخ مع الطاهي، تتساءل حتمًا كيف سمحتْ لنا أن نكون ضيوفًا مميزين نستطيع التجول داخل المطبخ وخارجه في أي وقت نشاء. ألقى بول التحية على الطاهي في الحال وسأله عن حال أسرته. لم يرق ذلك بالطبع للسيدة بوثبي، وهو السبب وراء ما قاله بول من الأساس. كانت استجابة الطاهي والسيدة بوثبي لبول متشابهة، فكلاهما بدا عليه الترقب والحيرة والارتياب، فاقتناع الأفارقة بأنه من الممكن — من بين أشياء أخرى كثيرة — أن يعامل رجل أبيض رجلًا أسود على أنه إنسان لم يكن أقل النتائج التي خلفها المئات والآلاف من رجال القوات الجوية في المستعمرة طوال خمس سنوات. كان طاهي السيدة بوثبي يعلم عن عدم الكلفة في علاقات الإقطاعيين، ويعلم بقسوة العلاقات الجديدة غير المتأثرة بالمشاعر الشخصية، لكنه الآن يتحدث مع بول عن أبنائه حديث الند للند. سُبقت جميع تعليقات الطاهي بشيء من التردد؛ إنه تردد بسبب عدم خوض مثل هذه المناقشات، لكن الكبرياء الفطري للرجل — الذي عادةً يُقابل بالتجاهل — حمله سريعًا على أن يبدو شخصًا

يتحدث مع ند له. استمعت السيدة بوثبي إليهما بضع دقائق، ثم قطعت حديثهما فجأة لتقول: «إن كنت تود المساعدة حقًّا يا بول، يمكنك الذهاب أنت وآنا إلى القاعة الكبيرة لتنسيق بعض الديكورات.» تحدثت بنبرة أرادت من خلالها أن تخبر بول بأنها فهمت أنه سخر منها ليلة أمس. قال بول: «طبعًا، بكل سرور.» ولكنه تعمد مواصلة حديثه مع الطاهي بعض الوقت، كان هذا الرجل حسن المظهر على نحو غير معتاد، وقوي البنيان في منتصف العمر ذا وجه مفعم بالحياة وعينين كذلك، وكان العديد من الأفارقة في هذا الجزء من المستعمرة ضعاف البنية بسبب سوء التغذية والأمراض، ولكن هذا الرجل يعيش خلف منزل السيدة بوثبي في كوخ صغير مع زوجته وأطفاله الخمسة، بالطبع هذا مخالف للقانون الذي أقر بعدم مشروعية إقامة السود على أرض البيض، الكوخ رديء إلى حدٍّ بعيد ولكنه أفضل عشرين مرة من الأكواخ الأفريقية المألوفة، وهو محاط بالفاكهة والخضروات والدجاج وطيور الغرغر. يمكنني أن أتصور أنه راضٍ إلى أقصى حد عن خدمته في فندق ماشوبي.

عندما غادرت أنا وبول المطبخ ألقى علينا الطاهي تحيته المعتادة: «وداعًا سيدي. وداعًا سيدتي.»

قال بول في سخط وغضب عندما أصبحنا خارج المطبخ: «يا إلهي!» بعدئذٍ وبلهجته الهادئة الغريبة التي تفصح عن حفظه لذاته قال: «من الغريب أن أشعر بالقلق بأي حال من الأحوال، ففي النهاية قضت مشيئة الرب أن أكون في هذا الموقف في الحياة وهو الذي سيناسب رغباتي وقدراتي في وضوح شديد، لِمَ يفترض بي إذن أن أبالي؟ لكن على الرغم من ذلك ...».

صعدنا إلى القاعة الكبيرة وسط ضوء الشمس الحار، والتراب الذي نسير عليه دافئ عَطِر الرائحة. كانت ذراع بول تلتف حولي مرة ثانية، وأنا سعيدة هذه المرة لسبب آخر غير أن ويلي يراقبنا، أتذكر الشعور بضغطة ذراعه الحانية أسفل ظهري، ومع التفكير في الحياة في مجموعة كما فعلنا، كان من الممكن أن تتوهج مشاعر الانجذاب السريعة ثم تخبو في لحظة واحدة، تاركةً وراءها شعورًا بالرقة والفضول غير المُحَقَّق وألم الضياع الممتع والمسلي إلى حد ما، وظننت أن الأمر ربما يفوق جميع الألم الرقيق للفرص غير المحققة التي أحاطت بنا. وأسفل شجرة جاكاراندا كبيرة نمت بجوار القاعة الكبيرة، وبعيدًا عن مرأى ويلي أدارني بول ناحيته وابتسم لي، وبدأ الألم العذب يخترقني على نحو متكرر. قال بول، أو بالأحرى شدا: «آنا، آنا الجميلة، آنا الطائشة، آنا الهوجاء، سلوانا في هذه البرية، آنا ذات العيون السوداء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي تطل منها البهجة الممزوجة بالتسامح.» ابتسم كل منا للآخر والشمس تتخلل الشبكة التي تكونها مجموعة الأشجار الخضراء الكثيفة لتوجه نحونا أشعتها كأنها إبر ذهبية حادة. ما قاله بول حينئذٍ كان أشبه بالإلهام، ولأني كنت دائمًا مرتبكة ومستاءة وبائسة يعذبني الشعور بالعجز ويسوقني الشعور بالحاجة تجاه جميع أشكال المستقبل البغيض، فإن الحالة التي وصفها بول بقوله: «ذات العيون السوداء التي تطل منها البهجة الممزوجة بالتسامح» كانت أبعد ما تكون عني، لا أظن أني رأيت أناسًا آنذاك إلا كتوابع لسد احتياجاتي. لم أدرك ذلك إلا الآن عندما أسترجع الأحداث، أما في ذلك الوقت فكنت أعيش في حالة شديدة الوضوح من الغموض أتبدل وأتأرجح تبعًا لرغباتي المتقلبة. بالطبع لا يعدو هذا أن يكون وصفًا لكوني صغيرة السن. لكن بول — الوحيد من بيننا — هو الذي كان يمتلك «عينين تطل منهما البهجة» دخلنا القاعة الكبيرة وكلانا يمسك يد الآخر، وأنا أنظر إليه وأتساءل هل من الممكن أن يكون مثل هذا الشاب رابط الجأش بائسًا ومعذَّبًا مثلي، وإن كان صحيحًا أني أمتلك «عينين تطل منهما البهجة» مثله، فما الذي يمكن أن يعنيه ذلك؟ أصبت على الفور بكآبة حادة سريعة الاهتياج — مثلما حدث معي مرارًا وتكرارًا وما بين لحظة وأخرى في تلك الأيام — وتركت بول وذهبت وحدي نحو النافذة.

أرى أن هذه القاعة هي أفضل حجرة رأيتها في حياتي كلها، بناها السيد والسيدة بوثبي لأنه لم تكن هناك قاعة عامة في هذه المحطة، وكان عليهما دائمًا إخلاء حجرة الطعام للحفلات الراقصة والاجتماعات السياسية، ولكنهما بنياها بدافع من دماثة أخلاقهما، كهدية منهما للمقاطعة، وليس بهدف تحقيق الربح.

الحجرة تشبه في اتساعها إحدى القاعات الكبيرة، ولكنها بدت حجرة معيشة جدرانها مغطاة بقرميد أحمر مصقول وأرضيتها مكسوة بأسمنت أحمر قان. أما الأعمدة — وهي ثمانية أعمدة كبيرة تدعم السقف المغطى بالقش — فمبنية من قرميد غير مصقول برتقالي اللون مائل إلى الحمرة، والمدفأتان على جانبي القاعة كبيرتان بما يكفي لشَيّ ثور كامل. الأخشاب المصنوعة منها الروافد شائكة وذات رائحة حمضية شيئًا ما وتتغير رائحتها تبعًا لجفاف أو رطوبة الجو، عند أحد جانبي الغرفة وُضع بيانو كبير على منصة صغيرة، وفي الجانب الآخر وُضع جهاز راديوجرام ومعه مجموعة كبيرة من أسطوانات الفونوغراف، وعلى جانبي القاعة مجموعة كبيرة من النوافذ، إحداها تُظْهِر الصخور الجرانيتية المتراكمة خلف المحطة والأخرى تظهر الأميال الممتدة عبر البلدة حتى الجبال الزرقاء.

جوني يعزف على البيانو في الجانب الآخر وستانلي ليت وتيد بجواره دون أن يلاحظ وجودهما، يحرك كتفيه وينقر بأصابع قدميه على أنغام موسيقى الجاز وخلا من التعبير وجهه الأبيض الممتلئ وهو يحدق بعيدًا نحو الجبال. لم ينزعج ستانلي بسبب عدم اكتراث جوني له؛ فجوني مصدر رزقه والسبيل لدعوته إلى الحفلات التي يعزف فيها جوني ووسيلته أيضًا لقضاء وقت ممتع، لم يُخْفِ ستانلي سبب مرافقته لجوني؛ فهو من أكثر المحتالين السخفاء صراحة، ورأى أن جوني لديه الكثير من السجائر والخمر والفتيات، وكل ذلك بلا مقابل، نَعَتُّ ستانلي بأنه محتال، لكن هذا هراء بالطبع؛ إنه رجل أدرك منذ البداية أن هناك قانونًا للأغنياء وآخر للفقراء، كانت تلك معرفة نظرية خالصة في نظري حتى عشت بالفعل في منطقة تسكنها الطبقة العاملة في لندن، عندئذٍ فهمت ستانلي ليت، إنه يكن ازدراءً فطريًّا عميقًا للقانون؛ ازدراء للدولة التي نتحدث عنها كثيرًا، أظن أن ذلك ما كان يثير اهتمام تيد بشأنه، يقول دائمًا: «لكنه ذكي للغاية!» هكذا تكون النتيجة أنه إن استُغِل هذا الذكاء أمكن تسخير ستانلي لخدمة القضية. أظن أيضًا أن تيد لم يكن مخطئًا حتى الآن، فهناك نوع من مسئولي النقابات المهنية يشبه ستانلي حيث يكون صارمًا ومقيَّدًا وفعالًا ومعدوم الضمير. لم يحدث قط أن رأيت ستانلي يتخلى عن ضبطه لنفسه وهو سلاح يستخدمه للحصول على كل ما يستطيع نيله من عالم هو على يقين من أنه مهيأ لمصلحة الآخرين. كان ستانلي مُرَوِّعًا؛ أوقع الخوف في نفسي بكل تأكيد بهيئته القوية الضخمة وملامحه الواضحة الصارمة وعينيه الرماديتين اللتين تطل منهما نظرات فاترة متفحصة. وما الذي جعله يحتمل تيد المتحمس والمثالي؟ أظن أن ذلك لم يكن من أجل ما يمكنه الحصول عليه منه. أثر في تيد هذا تأثيرًا حقيقيًّا؛ «شاب حاصل على منحة دراسية» ولا يزال مهتمًّا بصفه. في الوقت نفسه كان يراه مجنونًا، ويقول: «انظر يا صديقي، كنت محظوظًا وعقلك يفوق عقولنا جميعًا، فأنت تستغل الفرص ولا تتصرف بحماقة. لا يسيء أفراد الطبقة العاملة معاملة أي شخص سوى أنفسهم. كلانا يعلم أن هذا الأمر صحيح.» أجابه تيد في انفعال وعيناه تلمعان وشعره الأسود يتحرك حركة ثائرة فوق رأسه: «لكن يا ستانلي، إذا أبدى عدد كبير منا اهتمامًا بالآخرين فسنتمكن من تغيير الأمر برمته، ألا تتفق معي؟» يقرأ ستانلي الكتب التي يعطيها تيد له ثم يعيدها إليه ويقول: «ليس لي مآخذ عليه. حظًّا موفقًا لك، هذا كل ما يسعني قوله.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في هذا الصباح وضع ستانلي صفًّا من أقداح الخمر فوق سطح البيانو، في أحد الأركان ثمة صندوق مليء بزجاجات الخمر، الهواء حول البيانو معبأ بالدخان ومضاءً بأشعة شاردة من ضوء الشمس المنعكس، والرجال الثلاثة معزولون عن الحجرة وسط سحابة من الدخان الذي تتخلله أشعة الشمس. عزف جوني كثيرًا دون أن يبدي وعيًا تامًّا. شرب ستانلي الخمر ودخن السجائر وظل يراقب الفتيات اللاتي يدخلن الحجرة عله يجد فتاة تناسبه هو أو جوني، في حين تاقت نفس تيد إلى شخصية ستانلي السياسية وشخصية جوني الموسيقية. كما ذكرت من قبل، عَلَّم تيد نفسه الموسيقى، لكنه لا يستطيع العزف، كان يدندن بمقتطفات من موسيقى بروكوفييف أو موتسارت أو باخ ووجهه البائس تطل منه رغبة واهنة مما يدفع جوني إلى العزف، جوني يعزف أي شيء يسمعه، ويعزف الألحان التي يدندن بها تيد، ويده اليسرى تتأرجح في عجالة فوق المفاتيح، وفي اللحظة التي يهدأ فيها تركيز تيد المثير للخمول تبدأ اليد اليسرى في عمل تأخير للنبر، ثم تثور كلتا اليدين في عزف موسيقى الجاز، وتيد يبتسم ويومئ برأسه ويتنهد ويحاول النظر في عيني ستانلي في شيء من العبث الذي يرثى لها، لكن الابتسامة التي يرد بها ستانلي عليه تكون بدافع الود فحسب لأنه لم يكن يسمع شيئًا قط.

ظل هؤلاء الثلاثة بجوار البيانو طوال اليوم.

كثير من الأشخاص داخل القاعة لكنها واسعة حتى إنها بدت خالية، يعلق ماريروز وجيمي أكاليل الزهور الورقية في روافد السقف الداكنة وهما واقفان فوق كرسيين ويساعدهما نحو اثني عشر رجلًا تابعين للقوات الجوية البريطانية أتوا من المدينة بالقطار بعدما سمعوا أن ستانلي وجوني هناك. جون بوثبي تستند على أسكفة إحدى النوافذ تتطلع إلى الخارج من بين ثنيات حلمها الشخصي، عندما دُعِيَت للمساعدة في العمل حركت رأسها على مهل واستدارت لتحدق في الجبال خارج النافذة. وقف بول إلى جانب مجموعة العمل برهة، ثم أتي لينضم إليّ عند أسكفة النافذة التي أقف عندها بعد أن استحوذ على بعض الجعة الخاصة بستانلي.

قال بول وهو يشير إلى مجموعة من الشباب الواقفين مع ماريروز: «أليس هذا مشهدًا مؤسفًا، عزيزتي آنا؟ ها هم هناك، كل واحد منهم يبدو عليه الخزي على نحو لا يدعو للجدل بسبب رفضها له، وها هي تبدو جملية كضوء النهار لا تفكر في أي شخص سوى أخيها الراحل، ويقف جيمي بالقرب منها لا يفكر في أي شخص في هذا العالم سواي. في بعض الأحيان أقول لنفسي إنه ينبغي أن أقيم علاقة معه،

ولِمَ لا؟ سوف يمنحه هذا الأمر شعورًا بالسعادة البالغة، ولكن حقيقة الأمر أني أتوصل على مضض إلى أنني لست شاذًّا فحسب، بل لم أكن هكذا قط. من الذي أتوق إليه وأنا أنام وحيدًا في فراشي؟ هل أتوق لتيد؟ أو حتى لجيمي؟ أو أي واحد من الأبطال الشباب البواسل الذين يحيطون بي دائمًا؟ كلا على الإطلاق، فأنا أتوق لماريروز، وأتوق إليكِ أيضًا، ومن الأفضل بالطبع ألا تكونا معًا!»

دخل جورج هاونسلو القاعة واتجه مباشرةً إلى ماريروز التي لا تزال واقفة على كرسيها يساعدها عشاقها من النبلاء الذين تفرقوا في جميع الاتجاهات عندما اقترب جورج، وعلى حين غرة وقع أمر مروع؛ فالطريقة التي يتبعها جورج عندما يقبل على امرأة تتميز بالافتقار إلى الكياسة والخنوع الشديد، وربما يتلعثم في كلامه. (ولكن يعطي تلعثمه انطباعًا بأنه يقوم بذلك عن عمد دائمًا.) في الوقت نفسه تثبت عيناه الغائرتان بنيتا اللون على النساء في تركيز يكاد ينذر بالتهديد، ومع ذلك فأسلوبه يظل متواضعًا ودفاعيًّا، نتيجة ذلك إما أن تشعر النساء بالارتباك أو الغضب أو أن تضحك من فرط الشعور بالقلق. بالطبع كان جورج شخصًا شهوانيًّا، أعني شهوانيًّا حقًّا، ليس كرجل يؤدي دور شخص واحد فحسب — مثلما يفعل الكثيرون — لسبب أو لآخر، جورج رجل يحتاج إلى النساء إلى حد بعيد بالفعل. أقول ذلك لأنه لم يعد هناك الكثير من الرجال الذين يحتاجون إلى النساء، وأعني هنا الرجال المتحضرين؛ هؤلاء الذين يمنحون لمشاعرهم الأولوية فوق إشباع رغباتهم الحسية والذين تتميز بهم حضارتنا. احتاج جورج امرأةً تخضع له، وتكون أسيرةً لتأثيره فيها بدنيًّا، فلم يعد باستطاعة الرجال — أو عدد قليل للغاية منهم — أن يسيطروا على المرأة دون أن يشعروا بالذنب تجاه ذلك. عندما ينظر جورج إلى واحدة من النساء يتخيل ما قد تبدو عليه هذه المرأة عندما يقيم معها علاقة تصل بها إلى حالة من التبلد الحسي، ويخشى أن تفضح عيناه أمره. لم أكن أفهم هذا الأمر حينئذٍ، ولم أكن أفهم السبب وراء شعوري بالارتباك كلما نظر إليَّ، لكنني قابلت عددًا قليلًا من أمثال هذا الرجل منذ هذا الوقت، وكل واحد منهم يبدو عليه نفس الخنوع الأخرق نافد الصبر، ونفس القوة المستورة المتعجرفة.

وقف جورج في مستوى أدنى من ماريروز التي رفعت ذراعيها لأعلى، شعرها اللامع ينسدل على كتفيها، وترتدي فستانًا أصفر بلا أكمام، وذراعاها وساقاها برونزيتا اللون، وكاد رجال القوات الجوية أن يصعقوا من فرط جمالها. أطلت من عيني جورج — لفترة قصيرة — نفس نظرة الجمود الممزوجة بالذهول، قال جورج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيئًا فأرخت ماريروز ذراعيها ونزلت في بطء عن كرسيها وصارت تقف حينئذ في مستوى أدنى منه وهي تنظر إلى أعلى باتجاهه، ثم قال شيئًا آخر. أتذكر تلك النظرة التي علت وجهه؛ ذقنه بارزة للأمام على نحو عدواني، وعيناه متمركزتان على ماريروز، وهيئته ذليلة على نحو يوحي بالحماقة. رفعت ماريروز قبضة يدها ووجهت لكمة إلى وجهه، وبقدر قوة ماريروز ارتد وجه جورج إلى الخلف فجأة حتى إنه عاد خطوة إلى الوراء، بعد ذلك — ودون أن تنظر إليه — اعتلت الكرسي مرة أخرى وواصلت تعليق أكاليل الزهور، ابتسم جيمي لجورج في ارتباك شديد، كما لو أنه مسئول عن تلك اللكمة، أقبل جورج علينا، ومرة أخرى بدا كالمهرج المتحفز، وعاد عاشقو ماريروز ينظرون إليها مرة أخرى في إعجاب بائس.

قال بول: «حسنًا، أنا متأثر للغاية؛ إذا وجهت لي ماريروز لكمة كهذه فسأظن أني أحرز تقدمًا.»

لكن عيني جورج اغرورقتا بالدموع، وقال: «أنا أحمق. أنا أبله. لِمَ يُفترض بفتاة جميلة مثل ماريروز أن تنظر إلى شخص مثلي من الأساس؟»

قال بول: «حقًّا لِمَ؟»

قال جورج محاولًا إيجاد عذر كي يتمخط: «أظن أن أنفي ينزف.» ثم ابتسم وقال: «أنا في ورطة من جميع الجهات، والوغد ويلي مشغول تمامًا بلغته الروسية اللعينة حتى إنه لا يلقي بالًا لما حدث.»

قال بول: «إننا جميعًا في ورطة.» بدا بول في حالة جيدة، وقال جورج: «أنا أكره الشباب ذوي العشرين عامًا؛ أي نوع من المشكلات يمكن أن تعاني؟»

قال بول: «إنها مسألة صعبة؛ أولًا: أنا أبلغ من العمر عشرين عامًا، وهذا يعني أنني عصبي المزاج للغاية ولا أبلي جيدًا مع النساء، ثانيًا: أنا في العشرين من عمري، وهذا يعني أن حياتي بأسرها لا تزال أمامي، واحتمالات المستقبل عادةً تفزعني، وأخيرًا: أنا في العشرين من عمري، وأحب آنا وقلبي يتحطم.»

نظر جورج إليَّ نظرة خاطفة ليرى هل هذا صحيح، وهززت كتفي. شرب جورج كأسًا من الجعة ممتلئًا عن آخره دفعة واحدة، ثم قال: «على أي حال، ليس لدي الحق في أن أهتم مَن على علاقة بمَن، فأنا أحمق ووغد. ربما يكون هذا أمرًا محتملًا، ولكنني اشتراكي نشط أيضًا. أنا أيضًا خنزير، كيف يمكن لخنزير أن يكون اشتراكيًّا، هذا بالضبط ما أود معرفته.» إنه يمزح، لكن عينيه امتلأتا بالدموع مرة أخرى، وجسده مشدود من الحسرة.

أدار بول رأسه بسحره الهادئ المميز، وثبت عينيه الزرقاوين الواسعتين على جورج، أكاد أسمع ما يجول بخاطره: يا إلهي، ها هي مشكلة حقيقية لا أود السماع عنها. نزل بول على الأرض، ووجه إليَّ ابتسامة مفعمة بالدفء والمودة، وقال: «حبيبتي آنا، أحبك أكثر من حياتي، ولكني سوف أقدم يد المساعدة إلى ماريروز.» شعرت بأنه يود أن يقول لي: «تخلصي من هذا الأخرق الكئيب، وسوف أعود إليك.» على الأرجح لم يره جورج وهو يرحل.

قال جورج: «آنا، لا أدري ماذا أفعل.» عندئذٍ شعرت بما شعر به بول تمامًا؛ لا أود التورط في مشكلة حقيقية، أود الابتعاد عن المجموعة التي تعلق أكاليل الزهور، أما الآن وقد أصبح بول فردًا فيها، فقد أطل منها المرح فجأة. بدأت المجموعة ترقص؛ بول وماريروز وجون بوثبي، وعدد الرجال يفوق عدد الفتيات، والناس يتوافدون من الفندق تجتذبهم الموسيقى الراقصة.

قال جورج: «لنخرج بعيدًا عن كل هؤلاء الشباب وهذا الهزل، إنهم يشعرونني بالإحباط على نحو لا يمكن وصفه. بجانب ذلك، إذا جئتِ أنتِ أيضًا فسوف يتحدث بول، وهو من أود الحديث إليه.»

أجبت دون أن أُبدي قدرًا كبيرًا من الكياسة: «شكرًا لك»، لكنني ذهبت معه إلى شرفة الفندق التي كانت تخلو سريعًا من شاغليها بسبب ذهابهم إلى قاعة الرقص. وضع ويلي كتاب قواعد اللغة في أناة وقال: «أظن أنه من الصعب للغاية أن أقرأ في هدوء.»

جلسنا نحن الثلاثة وأرجلنا ممددة في الشمس، وباقي أجسادنا في الظل. كانت الجعة في كئوسنا الطويلة شفافة بلون ذهبي يتلألأ ضوء الشمس داخلها، بدأ جورج يتحدث، كان كلامه جادًّا للغاية، لكنه تحدث بلهجة هزلية يسخر فيها من نفسه بحيث بدا كل شيء قبيحًا وبغيضًا، وطوال الوقت يَرِد صوت الموسيقى من حجرة الرقص وأنا أود أن أكون هناك.

هذا واقع الأمر؛ قلت إن حياته الأسرية قاسية لا تحتمل، لجورج زوجة وولدان وبنت ويعيل والديه ووالدي زوجته. زرت هذا المنزل الصغير وزيارته لا تطاق. لم يكن بمقدور الزوجين الشابين — أو بالأحرى الزوجين اللذين بلغا منتصف العمر — الاستمتاع بأي حياة فعلية في ظل رعايتهما لأربعة مسنين وثلاثة أطفال، جورج وزوجته يكدان في العمل طوال اليوم، والمسنون الأربعة مرضى وبحاجة إلى رعاية ونظام غذائي من نوع خاص وغير ذلك. في حجرة المعيشة في المساء يلعب الأربعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الورق لفترات طويلة تكاد لا تنتهي وسط الكثير من الشجار وحدة الطبع المعهودة لدى المسنين؛ يلعبون لساعات في منتصف الحجرة، والأطفال يعملون واجباتهم المدرسية حيثما يتسنى لهم ذلك، ويذهب جورج وزوجته إلى النوم مبكرًا — بسبب الإرهاق التام في معظم الأحيان — فضلًا عن أن غرفة النوم هي المكان الوحيد الذي يمكنهم الحصول فيه على بعض الخصوصية؛ هذا هو منزل جورج. وجورج يعمل على الطريق معظم أيام الأسبوع، وفي بعض الأحيان يعمل على بعد مئات الأميال في الجانب الآخر من البلدة. أحب جورج زوجته، وبادلته الشعور نفسه، لكنه يشعر بالذنب دائمًا لأن تدبير شئون هذه الأسرة في حد ذاته عمل شاق لأي امرأة، ناهيك عن أنها تعمل سكرتيرة في الوقت نفسه، لم يحظ أي منهما بإجازة واحدة طوال سنوات، وهم جميعًا بحاجة إلى المال، والشجار البائس يدور على بضعة بنسات.

في غضون ذلك كان جورج على علاقة بنساء أخريات وأُعْجِبَ بالنساء الأفريقيات على وجه الخصوص. قبل خمس سنوات قضى جورج ليلة في فندق ماشوبي، وأُعجب كثيرًا بزوجة الطاهي التي صارت معشوقته. قال ويلي: «إن جاز لك استخدام هذه الكلمة» لكن جورج أصر وبلا أي اهتمام بالحس الدعابي: «حسنًا، ولِمَ لا؟ بالتأكيد إذا لم نلق بالًا للونها فهي في نهاية الأمر سيدة تستحق الاحترام كغيرها من النساء.»

جورج يجوب ماشوبي كثيرًا. في العام الماضي شاهد بين مجموعة الأطفال طفلًا أفتح في لون البشرة عن الآخرين ويشبهه، سأل جورج المرأة عن الطفل، وقالت نعم، إنها تظن أنه والد الطفل، كانت المرأة واثقة.

قال ويلي: «حسنًا! ما المشكلة إذن؟»

أتذكر نظرة الشك المطلق والبائس التي علت وجه جورج، ثم قال: «لكن يا ويلي — أيها الأبله الغبي — إنه ابني، أنا مسئول عن حياته في هذا المكان الوضيع هناك.»

قال ويلي مرة أخرى: «حسنًا؟»

قال جورج: «أنا اشتراكي، وبقدر ما يسمح هذا المكان البغيض أحاول أن أكون اشتراكيًّا وأن أناهض التمييز العنصري. ما يحدث أني أعتلي المنصات وألقي الخطابات في لباقة شديدة بالطبع، وأقول إن التمييز العنصري ليس الخيار الأفضل لجميع الأطراف المعنية، وأن يسوع بحلمه ودَعَتِه لم يكن ليوافق عليه، لأنه عمل غير إنساني وغير أخلاقي إلى أبعد الحدود، والبيض ملعونون أبد الدهر بسبب ذلك.

والآن أعتزم أن أتصرف كأي سكِّير دنيء أبيض اللون يقضي الليل مع امرأة سوداء ويضيف طفلًا هجينًا إلى سكان المستعمرة.»

قال ويلي: «إنها لم تطلب منك فعل أي شيء.»

قال جورج: «لكن ليس هذا هو المهم.» وأخفى وجهه داخل راحتيه المنبسطتين، ورأيت العرق يتصبب من بين أصابعه، ثم قال: «الأمر يفسد عليَّ حياتي. عرفت بهذا الشأن العام الماضي، وهو يدفعني نحو الجنون.»

قال ويلي: «وهذا لن يفيد الأمور كثيرًا.» أنزل جورج يديه من فوق وجهه فجأة فبدا وجهه غارقًا في الدموع ونظر إلى ويلي.

ناشدني جورج وهو ينظر إليَّ: «آنا؟» كنت أشعر باختلال غير عادي في مشاعري؛ أولًا كنت أشعر بالغيرة من المرأة، كنت أتمنى أن أكون مكانها الليلة الماضية، ولكن لم يكن للأمر علاقة بمشاعري الشخصية تجاهها. الآن عرفت من كانت هذه المرأة، وذُهِلت عندما أدركت أنني أكره جورج وأحتقره، تمامًا مثلما احتقرته ليلة أمس عندما جعلني أشعر بالذنب. إضافة إلى ذلك — وهو الأسوأ — شعرت بالدهشة إزاء ازدرائي لحقيقة أن المرأة سوداء؛ تخيلت أني متحررة من مثل هذه المشاعر، ولكن بدا أني لم أكن هكذا، وشعرت بالخزي والغضب من نفسي ومن جورج، لكن الأمر يفوق ذلك، فلكوني صغيرة جدًّا لم أبلغ من العمر إلا ثلاثة أو أربعة وعشرين عامًا، فإنني عانيت — شأني في ذلك شأن الكثيرات من الفتيات «المتحررات» — الشعور بالخوف أن أصبح أسيرة وخاضعة للحياة الزوجية، فالمنزل الذي كان جورج وزوجته أسيرين بداخله دون أمل في النجاة — إلا في حالة وفاة المسنين الأربعة — يمثل منتهى الرعب لي، هالني هذا الأمر كثيرًا حتى إن الكوابيس راودتني بشأنه. ومع ذلك فإن جورج — هذا الرجل الأسير الذي ألقى بزوجته البائسة داخل قفص — كان مثالًا، وهو ما عرفته، للرغبة الجنسية الطاغية التي أفر منها في داخلي، ولكنني مع ذلك أتحرك حتمًا باتجاهها، أدركت بفطرتي أني لو أقمت علاقة مع جورج فسأتعلم أمورًا عن العلاقة الحميمة لم يسبق لي معرفتها قط. ومع كل هذه الأفكار والمشاعر المتضاربة داخلي لا أزال معجبة به، بل أكن له مشاعر الحب — ببساطة شديدة — كإنسان. جلست هناك في الشرفة عاجزة عن الكلام لبرهة عرفت خلالها أن وجهي متورد وأن يدي ترتعشان، استمعت إلى الموسيقى والغناء المنبعثين من القاعة الكبيرة أعلى التل، وشعرت بأن جورج يبعدني عن شيء بالغ الجمال والمتعة بسبب وطأة تعاسته. في هذا الوقت بدا لي أني قضيت نصف حياتي وأنا أرى أني مبعَدة عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الشيء الجميل، ولكني بفطنتي أدركت أن هذا الأمر هراء، وأن ماريروز — على سبيل المثال — تكن لي شعورًا بالحسد لأنها ظنت أني وويلي نمتلك كل ما تريده هي؛ تظن أننا نتبادل الشعور بالحب.

كان ويلي ينظر إليَّ، ثم قال: «أصيبت آنا بالذهول لأن المرأة سوداء.»

قلت: «هذا جزء من الأمر، ومع ذلك أنا مذهولة لهذا الشعور.»

قال ويلي في فتور ونظارته تتحرك حركة سريعة: «أنا مذهول لهذا الاعتراف.»

قال جورج لويلي: «وأنا مذهول لأنك لم تعترف بذلك. توقف عن ذلك أيها المنافق اللعين.» رفع ويلي كتب قواعد اللغة ووضعها على ركبته.

سأل ويلي: «ما البديل، ألديك اقتراح ذكي؟ لا تقل لي إنه نظرًا لأنك جورج فأنت تظن أن واجبك يملي عليك أخذ الطفل إلى منزلك، معنى هذا أن المسنين الأربعة سيصابون بصدمة ربما تودي بحياتهم، فضلًا عن أن أحدًا لن يتحدث إليهم مرة أخرى، وسوف يصبح الأطفال الثلاثة منبوذين في مدرستهم. ستفقد زوجتك وظيفتها، وستفقد وظيفتك أنت الآخر، سوف تنهار حياة تسعة أشخاص. وما الفائدة التي ستعود على ابنك من وراء ذلك يا جورج؟ هل لي أن أسألك؟»

سَأَلْتُ: «وهكذا تكون نهاية الأمر؟»

أجاب ويلي: «نعم، هكذا تكون.» علت وجه ويلي نظرة التعنت والصبر المعتادة منه في مثل هذه المواقف وبدا عليه الغضب.

قال جورج: «يمكنني أن أختبر الأمر.»

– أي شيء ستختبر؟

– كل هذا النفاق اللعين.

– لماذا تستخدم هذه الكلمة معي، لقد نعتَّني للتو بأنني منافق.

بدا جورج ذليلًا، وقال ويلي: «من الذي سيدفع ثمن لفتتك النبيلة وأنت تعيل ثمانية أشخاص؟»

– زوجتي ليست عالة عليَّ، بل العكس صحيح إذا نحن قصدنا الجانب العاطفي، أتتخيل أني لا أعرف ذلك؟

قال ويلي وهو يحملق في كتبه وبدا أنه فقد صبره: «أتريد أن أكرر على مسامعك ما ذكرته من حقائق؟» أعرف أنا وجورج أن ويلي لن يلين الآن بعد أن وُصف بأنه منافق، ولكن جورج استطرد: «أليس هناك أي حل على الإطلاق يا ويلي؟ بالتأكيد، لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا.»

– هل تودني أن أقول إن هذا أمر جائر أو غير أخلاقي أو أي شيء من هذا القبيل؟

قال جورج بعد فترة من الصمت وبعد أن تدلت ذقنه على صدره: «نعم، أظن أن هذا ما أريد، لأن الأسوأ من ذلك أنه إن ظننت أنني قطعت علاقتي بها فأنت مخطئ، وربما يكون هناك ابن لي في مطبخ السيد بوثبي في أي يوم. بالطبع أنا أكثر حذرًا مما كنت.»

قال ويلي: «هذا شأن خاص بك.»

قال جورج بعد برهة: «يا لك من وغد وضيع.»

قال ويلي: «شكرًا لك، ولكن ليس هناك ما يمكن القيام به؟ ألا تتفق معي؟»

– سوف يكبر هذا الطفل هناك وسط المزروعات والدواجن، وسيصبح عاملًا في المزرعة أو موظفًا غير مؤهل، في حين سيصل أبنائي الثلاثة الآخرون إلى الجامعة، وسيرحلون عن هذه البلدة اللعينة، حتى وإن اضطررت إلى قتل نفسي لقاء تحقيق ذلك.

قال ويلي: «وما فائدة ذلك؟ دمك؟ ماؤك الطاهر؟ أم ماذا؟»

تملكني أنا وجورج الذهول، ولاحظ ويلي ذلك وهو يقطب وجهه، وظل غاضبًا عندما قال جورج: «كلا، إنها المسئولية؛ إنه الفارق بين ما أؤمن به وما أفعله.»

هز ويلي كتفيه وخيم علينا الصمت، ووسط سكون وقت الظهيرة الكئيب جاء صوت أقدام جوني الذي يشبه قرع الطبول.

نظر جورج إليَّ مجددًا، واستجمعت شجاعتي لخوض جدال مع ويلي. عندما أفكر في ذلك تتملكني رغبة في الضحك، لأني أستخدم المصطلحات الأدبية بعفوية في جدالي، تمامًا مثلما يرد ويلي مستخدمًا المصطلحات السياسية بأسلوب عفوي، ولكن في ذلك الوقت لم يبد الأمر غريبًا، ولم يبد غريبًا أيضًا في نظر جورج الذي جلس يومئ برأسه وأنا أتحدث.

قلت: «اسمع يا ويلي، في القرن التاسع عشر كان الأدب مليئًا بمثل هذه الأمور؛ كان هذا ضربًا من المعايير الأخلاقية، مثل البعث على سبيل المثال، لكنك الآن تكتفي بهز كتفيك ولا يعنيك الأمر.»

قال ويلي: «لم ألحظ أني هززت كتفي، لكن ربما يكون صحيحًا أن المعضلة الأخلاقية لأي مجتمع لم تعد تتبلور بحقيقة الطفل غير الشرعي.»

سألت: «ولِمَ لا؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال جورج في حدة: «ولِمَ لا؟»

– حسنًا، أيمكنك حقًّا أن تقول إن مشكلة الأفارقة في هذا البلد تتلخص في الطفل الأبيض الذي يعيش مع أسرة طاهي عائلة بوثبي؟

قال جورج في غضب: «أنت تجيدين اختيار الكلمات.» (ومع ذلك كان جورج يواصل اللجوء إلى ويلي خانعًا يطلب النصيحة وظل يوقره ويكتب إليه الخطابات التي تحط من شأنه لسنوات بعد تركه المستعمرة). أخذ جورج يحدق في ضوء الشمس وهو يطبق جفنيه ويفتحهما محاولًا التخلص من دموعه، وقال: «سوف أذهب لإحضار كأس أخرى.» ثم ذهب إلى الحانة.

رفع ويلي كتابه وقال دون أن ينظر إليَّ: «نعم، أعرف ذلك، لكني لا أهتم بنظرة التقريع في عينيك. يمكنك إسداء النصيحة نفسها إليه، أليس كذلك؟ قد تكون مليئة بكلمات التعجب والدهشة، ولكنها النصيحة نفسها.»

– ما يعنيه هذا أن كل شيء صار مروعًا للغاية حتى إننا أصبحنا متحجري القلوب بسبب ذلك، وأننا لا نهتم بأمر الآخرين حقًّا.

– أيمكنني أن أشير عليك بالالتزام بمبادئ أساسية محددة، مثل محو الخطأ أو تصحيحه؟ بدلًا من قضاء الوقت في البكاء عليه؟

– وفي غضون ذلك؟

– في غضون ذلك سوف أقرأ كتبي، وتذهبين أنت وتدعين جورج يبكي على كتفيك وتشعرين نحوه بالأسف الشديد، وهو ما لن يؤدي إلى أي نتيجة مطلقًا.

تركته وسرت في بطء في اتجاه القاعة الكبيرة. كان جورج يستند إلى الحائط والكأس في يده وعيناه مغمضتان، أدركت أنه عليَّ الذهاب إليه، لكنني لم أفعل ودخلت القاعة الكبيرة، تجلس ماريروز وحدها عند إحدى النوافذ وانضممت إليها؛ إنها تبكي.

قلت: «يبدو أنه يوم البكاء الجماعي.»

قالت ماريروز: «باستثنائك أنت.» قصدت أني سعيدة للغاية مع ويلي فينبغي ألا أبكي، لذا جلست بجوارها وقلت: «ما الخطب؟»

– كنت أجلس هنا وشاهدتهم وهم يرقصون، وبدأت أفكر: منذ بضعة أشهر ظننا أن العالم سيتغير وأن كل شيء سيغدو مبهجًا، والآن نعرف أن ذلك لن يحدث.

قلت في شيء من الفزع: «أهذا صحيح؟»

سألتني ببساطة: «ولِمَ يفترض بالعالم أن يتغير؟» لم تكن لدي القدرة على الدخول في جدال معها، وبعد برهة قالت: «ما الذي كان يريده جورج منك؟ أظن أنه نعتني بأني وقحة عندما ضربته.»

– وهل يمكنك أن تتخيلي جورج وهو ينعت أي شخص بالوقاحة بسبب ضربه له؟ لِمَ فعلتِ ذلك؟

– كنت أبكي بخصوص هذا الأمر أيضًا؛ لأن السبب الحقيقي بالطبع وراء ضربي له أني أدركت أن شخصًا مثل جورج يمكن أن يجعلني أنسى أخي.

– ربما عليك إتاحة الفرصة أمام شخص كجورج للمحاولة؟

قالت: «ربما.» وجهت ماريروز إليَّ ابتسامة صغيرة مألوفة فهمت منها في وضوح أنها تود أن تقول لي: «يا لك من ساذجة!» مما جعلني أقول في حدة: «لكن إن كنت تعرفين شيئًا، لم لا تفعلين شيء حيال ذلك؟»

ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة الصغيرة مرة أخرى وقالت: «لن يحبني أحد أبدًا مثلما أحبني أخي، كان يحبني حقًّا. ربما يحبني جورج، ولكن لن يكون الأمر واحدًا، أليس كذلك؟ لكن ما الخطأ في أن أقول: كان لديَّ أفضل شيء بالفعل، ولن أتمكن من تعويضه أبدًا، بدلًا من أن أقيم علاقات مع الآخرين. ما الخطأ في ذلك؟»

– عندما تسألين عن الخطأ في ذلك على هذا النحو، فلن أتمكن من الرد عليك أبدًا، مع أني على ثقة أن هناك خطأ في الأمر.

بدت ماريروز فضولية حقًّا وهي تقول: «ماذا إذن؟» قلت بحدة أكثر: «أنت لا تحاولين، اكتفيتِ بالاستسلام فحسب.»

– كل شيء على ما يرام في حياتك.

قالتها ماريروز وهي تعني علاقتي بويلي مرة أخرى، والآن لم أستطع أن أنبس ببنت شفة. حان دوري الآن في الرغبة في البكاء، ولاحظت هي ذلك، ثم قالت كأن أحدًا لا يوازيها في معاناتها: «لا تبكي يا آنا، فلا فائدة من ذلك على الإطلاق. سوف أذهب لأغتسل قبل موعد الغداء.» ثم ذهَبَت. يغني جميع الشباب الآن حول البيانو، لذا غادَرْتُ القاعة أيضًا وذهَبْتُ إلى حيث كان جورج. تحركت في صعوبة وسط نباتات القُرَّاص وأشجار البلوط، لأن جورج تحرك مسافة أبعد إلى الخلف، وكان واقفًا يحدق بنظره من خلال بستان من أشجار البابايا في الكوخ الصغير الذي يعيش فيه الطاهي مع زوجته وأبنائه، وهناك طفلان بُنِّيَا البشرة يجلسان القرفصاء في التراب ووسط الدواجن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لاحظت أن ذراع جورج الجذاب يرتعش وهو يحاول إشعال سيجارة، وبعد أن أخفق في إشعالها ألقى بها بعيدًا في انزعاج دون أن يشعلها، وقال بهدوء: «ابني غير الشرعي ليس هنا.»

دق جرس داخل الفندق معلنًا عن وقت الغداء.

قلت: «من الأفضل أن ندخل.»

– ابقي معي هنا قليلًا.

وضع جورج يده على كتفي، وشعرت بحرارتها عبر ملابسي. توقف الجرس عن إصدار الموجات الصوتية الطويلة الرنانة، وتوقف البيانو في الداخل. خيم الصمت على المكان، وجاء صوت هديل إحدى الحمامات على شجرة الجاكاراندا. وضع جورج يده على صدري، وقال: «آنا، يمكنني أن أقيم علاقة معك الآن، ثم مع فتاتي السوداء ماري، ثم أعود لأقيم علاقة مع زوجتي الليلة، وأكون راضيًا بكن جميعًا. هل تفهمين هذا يا آنا؟»

قلت في غضب: «كلا.» لكن يده التي فوق صدري أفهمتني ما يعنيه.

قال في تهكم: «كلَّا؟ ألا تفهمين؟»

– كلَّا. قلتها في إصرار وأنا أكذب نيابة عن جميع النساء وأفكر في زوجته التي أشعرتني بأني مقيدة.

أغمض جورج عينيه، شكلت رموش عينيه السوداء ظلالًا لونية دقيقة وهي ترتجف على وجنته البنية. ثم قال دون أن يفتح عينيه: «في بعض الأحيان، أنظر إلى نفسي من الخارج لأجد جورج هاونسلو، ذلك المواطن الوقور، غريب الأطوار بالطبع بمبادئه الاشتراكية، لكن تكريس حياته لكل من الآباء المسنين وزوجته الجميلة وأبنائه الثلاثة يلغي ذلك. وبجواري يمكنني أن أرى غوريلا كبيرة ضخمة تحرك ذراعيها وتكشر عن أنيابها. يمكنني رؤية الغوريلا في وضوح شديد حتى إني أتعجب من عدم رؤية الآخرين لها.» أنزل يده من فوق صدري حتى استطعت أن أتنفس بانتظام مرة أخرى وقلت: «إن ويلي محق. لا يمكنك فعل أي شيء حيال ذلك، لذا لا بد أن تكف عن تعذيب نفسك.» لا تزال عيناه مغمضتين. لم أكن أعرف أني سأقول ما قلت، لكنه فتح عينيه سريعًا وتراجع، كأن نوعًا من توارد الخواطر كان بيننا. قلت: «ولا يمكنك الانتحار.»

أجاب في فضول: «ولِمَ لا؟»

– «للسبب نفسه الذي يمنعك من أخذ الطفل إلى منزلك، فلديك تسعة أشخاص تعتني بهم.»

– آنا، كنت أتساءل هل يمكنني أخذ الطفل إلى منزلي لو كان لديّ، لنقل شخصان فقط لأعتني بهما؟

لم أجد ردًّا على سؤاله، وبعد دقيقة أحاطني بذراعه وسرنا معًا وسط أشجار البلوط والقراص وهو يقول: «تعالي معي إلى الفندق لتُبقي الغوريلا بعيدة عني.» ومع أن ما فعلته كان هو الصواب، فقد شعرت بالضيق لأنني رفضت أن أرقد بين أحضان الغوريلا ولعبت دور الأخت التي لن تدخل معه في أي علاقة جنسية. وعلى الغداء لم أجلس بجوار جورج بل جلست بجوار بول. وبعد تناول الغداء خلدنا إلى النوم جميعًا لفترة طويلة، ثم بدأنا الشرب مبكرًا. ومع أن الرقص هذه الليلة كان خاصًّا – «برابطة المزارعين في ماشوبي» – فإنه عند وصول المزارعين وزوجاتهم في عرباتهم الكبيرة كانت حجرة الرقص ممتلئة عن آخرها بالفعل. كنا هناك جميعًا وعدد كبير من رجال القوات الجوية الذين أتوا من المدينة، وجورج يعزف على البيانو حيث ذهب عازف البيانو الدائم – الذي لم تكن براعته تساوي شيئًا من براعة جوني – بمحض إرادته عن طيب خاطر إلى البار. أضفى المشرف على حفل هذه الليلة صفة رسمية على الأمور عن طريق إلقاء خطاب سريع – يفتقر إلى الصدق – للترحيب بشباب القوات الجوية. رقصنا جميعًا حتى أصيب جوني بالتعب، وذلك نحو الساعة الخامسة صباحًا. بعد ذلك وقفنا في مجموعات أسفل السماء الصافية التي تبعث على الشعور بالبرودة والمليئة بالنجوم، وألقى القمر بظلال سوداء واضحة علينا. كنا نغني وكل منا يحيط الآخر بذراعه، ورائحة الزهور واضحة عطرة في هواء الليل المنعش، وظلت رائحتها منعشة ونفاذة. قضيت أنا وبول الليل بأكمله نرقص معًا، وكان ويلي مع ماريروز بعد مراقصته لها في الفندق. أما جيمي فكان يتعثر في سيره بعد أن صار مخمورًا تمامًا. جرح جيمي نفسه على نحو ما مجددًا، ونزف من جرح صغير أعلى عينه؛ كانت تلك نهاية يومنا الأول الذي حدد النمط الذي ستسير عليه بقية الأيام. في الحفلة الراقصة «العامة» التي أقيمت الليلة التالية حضر الأشخاص أنفسهم جميعهم، وقُدمت أفضل خدمة في حانة السيد والسيدة بوثبي، وأصيب طاهي الفندق بالإنهاك من كثرة العمل، وعلى ما يبدو كانت زوجته على موعد غرامي مع جورج الذي كان يصب جام اهتمامه على ماريروز على نحو مؤلم وغير مجدٍ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في هذه الليلة الثانية بدأ ستانلي ليت يبدي اهتمامه بالسيدة لاتيمير ذات الشعر الأحمر؛ الأمر الذي انتهى، كنت سأصف نهاية الأمر بالكارثة، لكنها كلمة سخيفة، فمن أكثر ما يثير مشاعر الألم بخصوص تلك الفترة أنه لم يكن يحدث شيء إلا وتعقبه كارثة. الأمر برمته غير ملائم وبغيض ومثير للتعاسة ومصبوغ بالنزوع إلى الشك، لكن لم يوجد شيء مأساوي؛ لم توجد لحظات تغير أي شيء أو أي شخص. ومن آن لآخر يومض برق شعوري يكشف عن مشهد من التعاسة الشخصية، وبعدها نواصل الرقص مرة أخرى. لم تسفر علاقة ستانلي ليت بالسيدة لاتيمير إلا عن حدث أظن أن وقوعه تكرر مرات عديدة في زواجها.

السيدة لاتيمير في الخامسة والأربعين من عمرها تقريبًا، ممتلئة الجسم قليلًا، ذات يدين فاتنتين وساقين رشيقتين، تتمتع ببشرة ناعمة بيضاء وعينين واسعتين بلون أزرق فاتح؛ تلك العينان الغائمتان الرقيقتان قصيرتا النظر بلونهما الأزرق الذي يكاد يميل إلى البنفسجي اللتان تنظران إلى الحياة من خلال غشاوة من الدموع. لكن في حالة السيدة لاتيمير كان الكحول سببًا في تلك النظرة التي تطل من عينيها، وزوجها سريع الغضب حريص على المادة همجيّ ومعاقر للخمر؛ يبدأ شرب الخمر عندما تفتح الحانة ويظل هكذا طوال اليوم ليزداد مزاجه سوءًا على نحو مستمر، مع أن شرب الخمر يجعل عينيه ضعيفة متأوهة دامعة، لم أسمعه — ولو لمرة واحدة — يقول لها شيئًا يخلو من القسوة، يبدو أنها لم تلحظ ذلك أو أنها توقفت عن الاهتمام به، لم ينجبا أطفالًا لكنها لم تبتعد عن كلبها ساطر شديد الجمال أحمر الشعر — كلون شعرها — ذي العينين المتلهفتين والدامعتين كعينيها. تجلس السيدة مع كلبها — بشعريهما الأحمر — في شرفة الفندق يحظيان بتقدير النزلاء الآخرين ويتلقيان المشروبات منهم. اعتاد الثلاثة على المجيء إلى الفندق في عطلة كل أسبوع. افتتن ستانلي ليت بها، وقال عنها إنها شخصية طيبة للغاية. رافقها ستانلي في الليلة الثانية التي أقيم فيها الحفل الراقص وظل زوجها يشرب الخمر في الحانة حتى إغلاقها حيث وقف يترنح بجانب البيانو حتى أعطاه ستانلي مشروبًا أخيرًا جعله يترنح في سيره حتى الفراش تاركًا زوجته تراقص ستانلي، من الواضح أنه لم يكن يهتم بما تفعله. كانت تقضي وقتها معنا أو بالأحرى مع ستانلي الذي «دَبَّرَ» لجوني لقاءً بامرأة ذهب زوجها إلى الحرب في مزرعة تبعد ميلين. قضى الأربعة وقتًا ممتعًا كما اعتادوا القول مرارًا وتكرارًا. رقصنا في القاعة الكبيرة وعزف جوني وكانت زوجة المزارع — امرأة شقراء ضخمة الجسم من جوهانسبرج — تجلس بجواره. تنحى

تيد مؤقتًا عن ساحة المعركة ليفسح المجال لستانلي، فعلى حد قوله كان الدخول في علاقة جنسية أمرًا صعبًا للغاية عليه. قضينا هذه العطلة الطويلة — التي بلغت الأسبوع تقريبًا — في الشرب والرقص وأصداء عزف جوني على البيانو تتردد في آذاننا دومًا.

عندما عدنا إلى المدينة أدركنا أننا لم نستفد كثيرًا من هذه العطلة، مثلما أشار بول. كان ويلي الشخص الوحيد الذي حافظ على شيء من ضبط الذات حيث كان يقضي وقتًا كافيًا كل يوم في دراسة كتب قواعد اللغة، مع أنه انصاع قليلًا إلى ماريروز. اتفقنا على ضرورة عودتنا جميعًا إلى ماشوبي، أظن أننا عدنا بعد أسبوعين. كانت العطلة هذه المرة مختلفة عن العطلة العادية، كان الفندق خاليًا إلا منا نحن وعائلة السيد لاتيمير وكلبها وعائلة السيد بوثبي. قابلتنا عائلة السيد بوثبي على نحو شديد الكياسة، كان واضحًا أن السيد والسيدة بوثبي تناقشا بشأننا، وأن تصرفاتنا داخل الفندق على أنه ملك لنا لم تكن محل ترحيب منهما، لكن الأموال الطائلة التي ننفقها جعلتهما يغضان الطرف عن ذلك. لا أتذكر الكثير عن تلك العطلة الأسبوعية أو الأربع أو الخمس عطلات التي تلتها — على فترات متباعدة — لأننا لم نكن نذهب كل أسبوع.

لا بد أن ستة أو ثمانية أشهر مرت على زيارتنا الأولى عندما وقعت الأزمة، إن جاز لنا أن نسميها كذلك. كانت آخر مرة ذهبنا فيها إلى ماشوبي؛ كنا الأشخاص أنفسهم الذين جاءوا من قبل: جورج وويلي وماريروز وأنا، وتيد وبول وجيمي. كان ستانلي ليت وجوني قد انضما حينئذٍ إلى مجموعة أخرى مع السيدة لاتيمير وكلبها وزوجة المزارع، في بعض الأحيان ينضم تيد إليهم ويجلس صامتًا لا يندمج معهم كثيرًا ثم يعود إلينا بعد فترة وجيزة ليجلس صامتًا ومبتسمًا لنفسه، وتلك ابتسامة جديدة لم نعهدها على تيد؛ ابتسامة تمتزج فيها السخرية بالمرارة وبالحكم على الذات. عندما نجلس أسفل أشجار الصمغ نسمع صوت السيدة لاتيمير المتراخي قادمًا من الشرفة: «ولدي ستانلي، أيمكنك أن تحضر لي شرابًا؟ ولدي ستانلي، ماذا لو أحضرت لي سيجارة؟ تعال هنا يا بني وتحدث إلي.» كان يناديها بالسيدة لاتيمير، لكنه ينسى في بعض الأحيان ويناديها مايرا فترتخي رموشها الأيرلندية السوداء إثر سماع ذلك. ستانلي في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، حيث تفصل بينهما عشرون عامًا ويستمتعان للغاية بممارسة دور الأم والابن على مرأى من الناس على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرغم من وجود رغبة قوية من جانب كل منهما تجاه الآخر جعلتنا ننظر حولنا في توجس كلما اقتربت السيدة لاتيمير.

عندما أفكر في العطلات الأسبوعية هذه، تبدو لي مثل حبات الخرز المصفوفة على خيط يبدأ بحبتين كبيرتين لامعتين تأتي بعدهما سلسلة حبات ثانوية صغيرة ثم حبة أخرى لامعة في النهاية، ولكن ذلك يعود إلى ضعف ذاكرتي فحسب، لأني حالما أبدأ التفكير في عطلة الأسبوع الماضية أدرك أنه لا بد من وقوع أحداث أثناء العطلات الأسبوعية المتخللة التي أدت إليها. لكن لا يمكنني أن أتذكر، غاب كل شيء عن بالي. شعرت بحنق شديد وأنا أحاول التذكر، فالأمر يشبه مصارعة نفس أخرى عنيدة تصر على الحفاظ على خصوصيتها، لكن الأمر برمته موجود في عقلي إذا تمكنت فحسب من الوصول إليه. ينتابني شعور بالهلع بشأن مدى عجزي عن الملاحظة وأنا أعيش وسط غشاوة ذاتية شديدة القتامة. كيف لي أن أعرف أني «أتذكر» من الأمور ما كان أهمها؟ إن ما أتذكره اختارته آنا من عشرين عامًا مضت. لا أدري ما تختار آنا اليوم، لأن تجربتي مع الأم شوجر وتجاربي مع الدفاتر جعلت موضوعيتي أكثر حدة بدرجة كبيرة (لكن هذا النوع من الملاحظة خاص بالدفتر الأزرق، وليس هذا الدفتر). على أي حال، مع أنه يبدو لي الآن أن عطلة الأسبوع الأخيرة تفجرت إلى كل أنواع الدراما دون أي إنذار مسبق، فهذا الأمر غير ممكن بالطبع.

على سبيل المثال، لا بد أن صداقة بول بجاكسون تطورت إلى حد بعيد حتى إنها أثارت حفيظة السيدة بوثبي مثلما حدث، يمكنني أن أتذكر لحظة طرد بول في النهاية من المطبخ، لا بد أن ذلك حدث في عطلة الأسبوع قبل الأخيرة، كنت أنا وبول داخل المطبخ نتحدث إلى جاكسون فدخلت علينا السيدة بوثبي وقالت: «أنتما تعرفان أن القواعد لا تسمح لنزلاء الفندق بالدخول إلى المطبخ.» أتذكر في وضوح شديد شعور الصدمة الذي انتابني، كأن نوعًا من الظلم وقع علي، تمامًا مثلما يشعر الأطفال عندما يتصرف الكبار بتعسف معهم، لذا يعني هذا أننا كنا ندخل ونخرج من المطبخ طوال الوقت دون اعتراض منها. عاقب بول السيدة بوثبي بأنه نفذ ما طلبته تمامًا؛ انتظر عند الباب الخلفي للمطبخ حتى يحين موعد انصراف جاكسون بعد الغداء، ثم سار معه في تعال عبر السياج المعدني المحيط بكوخ جاكسون وهو يتحدث معه ويضع يده على كتف الرجل وذراعه، كان هذا الاتصال الجسدي بين رجلين أحدهما أبيض والآخر أسود متعمدًا لاستفزاز أي شخص أبيض من الممكن أن يشاهد ذلك. لم نقترب من المطبخ ثانية. ولأن سلوكياتنا كانت شديدة الطفولية،

تحدثنا عن السيدة بوثبي وضحكنا عليها مثلما يصنع الأطفال مع مديرة المدرسة. يبدو لي أن قدرتنا على التصرف بهذا القدر من الطفولية وعدم اكتراثنا بإيذائها أمر غريب. أصبحت السيدة بوثبي «ذات تفكير بدائي» لأنها شعرت بالامتعاض إزاء علاقة الصداقة التي جمعت بين بول وجاكسون. لكننا نعلم يقينًا أنه ما من شخص أبيض داخل المستعمرة إلا وشعر بالامتعاض تجاهها، وفي الأدوار السياسية التي نلعبها كنا قادرين على درجة مطلقة من الصبر والفهم عندما نوضح لبعض البيض الأسباب لوصف مواقفهم العنصرية بأنها غير إنسانية.

ثمة شيء آخر أتذكره، ألا وهو رأي تيد وستانلي ليت في السيدة لاتيمير؛ قال تيد إن السيد لاتيمير يشعر بالغيرة لأسباب معقولة، ومع أن رد ستانلي كان تهكميًا، فقد كان لطيفًا، قال إن السيد لاتيمير يعامل زوجته على أنها حثالة وإنه يستحق ما حدث له. لكن السخرية كانت بالفعل من نصيب تيد — لأنه هو الذي شعر بالغيرة — وكذلك ستانلي. لم يكن ستانلي يهتم بإيذاء مشاعر تيد، ولم يفترض به ذلك؟ عندما يتودد شخص ما إلى أي شخص من درجته من أجل مصلحة شخص آخر، دائمًا يُقابل هذا بالاستياء. بالطبع كان تيد يبحث في المقام الأول عن «الفراشة أسفل الحجر» ومشاعره الرومانسية قيد السيطرة، لكنها موجودة تمامًا، واستحق تيد هذه اللحظة — التي تكررت أكثر من مرة — عندما يبتسم ستانلي ابتسامته المعهودة المرتسمة على شفتيه القاسيتين التي تنم عن إدراكه للأمر، وتضيق عيناه ويقول: «كف عن هذا يا صديقي، أنت تعرف أن هذا ليس كوب الشاي الخاص بي.» مع أن تيد ربما يعرض عليه كتابًا أو يقترح عليه الاستماع إلى الموسيقى معه في الليل. أصبح ستانلي يكن الازدراء علانية لتيد، وساعده تيد على ذلك بدلًا من أن يعبر له عن غضبه تجاه ذلك. كان تيد واحدًا من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم تدقيقًا في الأمور، لكنه كان يمكن أن يساعد ستانلي في «تنظيم الرحلات الاستكشافية» بغية الحصول على شراب من الجعة أو قدر زهيد من الطعام خلسة، بعد ذلك يأتي إلينا ويقول إنه ذهب مع ستانلي فقط كي تتسنى له الفرصة ليوضح له أن الطريقة التي يعيش بها ليست طريقة الحياة الصحيحة «كما سيكتشف مع مرور الوقت». لكن بعدها يوجه إلينا نظرة خاطفة ممزوجة بالخجل، ويدير وجهه وهو يبتسم ابتسامته الجديدة المعبرة عن بغضه لنفسه على نحو قاس.

كانت هناك أيضًا مسألة ابن جورج، فالمجموعة بأكملها عرفت ما حدث. كان جورج بطبيعته شخصًا كتومًا، وأنا على يقين من أنه شعر بالعذاب طوال هذه السنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأنه لم يتحدث مع أي شخص عن هذا الأمر. لم أخبر أحدًا بما حدث، وكذلك فعل ويلي، لكننا عرفنا جميعًا. أظن أنه في إحدى الليالي عندما كنا ثملين إلى حد ما، قال جورج كلامًا عن هذا الشأن ظن أنه لا يمكن فهمه، وبعد وقت وجيز سخرنا من الأمر مثلما نسخر الآن من الإشارات المعبرة عن اليأس للحالة السياسية في الدولة. أتذكر أن جورج أضحكنا في إحدى الليالي حتى إننا لم نعد نستطيع التحكم في أنفسنا ونحن نتخيل الابن وهو يأتي إلى منزله ويطلب أن يعمل خادمًا فيه، لن يتمكن جورج حينئذ من معرفته، لكن رابطًا خفيًّا أو شيئًا من هذا القبيل سيجذبه نحو الطفل البائس. سوف يحصل على عمل في المطبخ، وسريعًا ستمكنه قدرته على فهم طبيعته وذكائه الفطري — «كل تلك الصفات التي ورثها عني» من كسب ود الأسرة بأكملها — وربما يجمع في وقت وجيز أوراق اللعب التي يلقيها المسنون الأربعة على طاولة اللعب ويمنح الأطفال الثلاثة — إخوته غير الأشقاء — صداقة حانية لم تطلب منه. على سبيل المثال، ربما يثبت أنه سيجدي نفعًا كبيرًا عندما يلعبون التنس حيث يلتقط الكرات لهم، في النهاية سوف يكافئ على خدمته المتفانية. ربما يومض عقل جورج فجأة — في أحد الأيام — في اللحظة التي يناوله الولد فيها حذاءه «بعد أن يلمعه جيدًا بالطبع» «سيدي، أهناك شيء آخر أقوم به؟» «ولدي!» «أبي، أخيرًا!» إلخ.

شاهدنا جورج تلك الليلة وهو يجلس وحيدًا أسفل الأشجار، ورأسه في يديه، بلا حراك، كظل ثقيل يائس وسط الظلال المتحركة لأوراق الشجر التي تشبه الحراب اللامعة. ذهبنا للأسفل للجلوس معه، لكن لم يعرف أي منا ماذا يقول.

في عطلة الأسبوع الأخيرة أُقيمت حفلة راقصة كبيرة أخرى ووصلنا مستقلين السيارات والقطار — في أوقات مختلفة من يوم الجمعة — واحتشدنا في القاعة الكبيرة. عندما وصلت أنا وويلي، كان جوني عند البيانو وفتاته الشقراء ذات الوجه الأحمر إلى جانبه، وستانلي يرقص مع السيدة لاتيمير، وجورج يتحدث إلى ماريروز. اتجه ويلي نحوهما مباشرة وحل محل جورج، وأتى جورج ليقف معي. استمرت علاقتنا كما هي؛ مفعمة بالحنان، وبعض من السخرية والأمل. ربما — وعلى الأرجح — ظن من شاهدونا من الخارج أن العلاقة بين ويلي وماريروز وبيني أنا وبول، مع أنهم ربما ظنوا في بعض الأوقات أن العلاقة بيني أنا وجورج وبين بول وماريروز. بالطبع كان السبب وراء إمكانية قيام مثل هذه العلاقات الرومانسية المراهقة أن علاقتي بويلي كانت — كما ذكرت — بعيدة إلى حد بعيد عن العلاقة الحميمة. فإذا وجد ثنائي وسط

مجموعة وكانت تربطهم علاقة حميمة كاملة، فإنهم يكونون بمنزلة حافز للآخرين وكثيرًا ما يدمرون المجموعة بأكملها، رأيت الكثير من هذه المجموعات — سياسية وغير سياسية — ويستطيع الشخص دائمًا الحكم على علاقة الثنائي الرئيسي (لأنه دائمًا يوجد ثنائي رئيسي) عن طريق علاقات الثنائيات الأخرى حولهم.

في يوم الجمعة هذا وقعت مشكلة بعد وصولنا بساعة واحدة؛ دخلت جون بوثبي القاعة الكبيرة لتطلب مني أنا وبول الذهاب إلى مطبخ الفندق ومساعدتها في إعداد طعام العشاء لهذه الليلة، لأن جاكسون مشغول بطعام الحفلة التي ستقام غدًا. ارتبطت جون في هذا الوقت بفتاها وتحررت من قيود الحلم الذي عاشت بداخله. ذهبت أنا وبول معها. يمزج جاكسون الفاكهة والكريمة لإعداد بودنج الآيس كريم، وبدأ بول على الفور حديثه معه، تحدثا عن إنجلترا وهي في نظر جاكسون مكان بعيد ساحر يمكن أن يستمع لساعات عن أدق تفاصيله؛ شبكة مترو الأنفاق على سبيل المثال أو الحافلات أو البرلمان. وقفت أنا وجون معًا نعد السلاطات الخاصة بوجبة العشاء في الفندق، وهي تتوق إلى الانتهاء من العمل كي لا تكون مشغولة بشيء عندما يأتي فتاها الذي تتوقع قدومه في أي لحظة. دخلت السيدة بوثبي ونظرت إلى بول وجاكسون ثم قالت: «أظن أني طلبت منك ألا تدخل المطبخ؟»

قالت جون سريعًا: «أمي، أنا التي طلبت منهما ذلك، لم لا تحضرين طاهيًا آخر، فهذا العمل شاق للغاية على جاكسون.»

– يؤدي جاكسون هذا العمل طوال خمسة عشر عامًا، ولا مشكلة قط حتى الآن.

– لا مشكلة يا أمي، لكن منذ اندلاع الحرب وفتيان القوات الجوية يتوافدون علينا، وأصبح هناك الكثير من العمل. أنا لا أمانع في تقديم المساعدة، وكذلك بول وأنا.

قالت الأم: «سوف تفعلين ما أطلبه منك يا جوني.»

– آه يا أمي. قالتها جون في غضب لكن مع حفاظها على دماثة خلقها، ثم قطبت جبينها ونظرت إليّ وقالت: «لا تشغلي بالك.» رأتها السيدة بوثبي وقالت: «تعديت حدودك أيتها الفتاة. منذ متى وأنت تصدرين الأوامر في المطبخ؟»

فقدت جون صوابها وخرجت من الحجرة مباشرة.

نظرت السيدة بوثبي في غضب إلى بول وكانت تتنفس في صعوبة وبدا وجهها الذي يفتقر إلى الجمال والجاذبية والذي تغطيه مساحيق التجميل ذات الألوان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصارخة أشد حمرة من المعتاد. وإذا قال بول تعليقًا دمثًا أو فعل أي شيء ليهدئها لعادت إلى طبيعتها الطيبة في الحال، لكنه كرر ما فعله من قبل؛ أشار إليّ برأسه كي أذهب معه، وخرج في هدوء من الباب الخلفي وقال لجاكسون: «سأراك عندما تنتهي من عملك، هذا إن انتهيت منه.» قلت للسيدة بوثبي: «لم نكن لنأت ما لم تطلب جون منا ذلك.» لكنها لم تهتم لكلامي ولم أتلق منها ردًا، لذا عدت مرة أخرى إلى القاعة الكبيرة ورقصت مع بول.

طوال هذه الفترة كنا نتندر على أن السيدة بوثبي تحب بول. ربما كانت كذلك، إلى حد ما. لكنها امرأة بسيطة للغاية ومُتْعَبَة، مُتْعَبَة للغاية منذ الحرب، والفندق الذي كان ذات مرة مكانًا يتوقف عنده المسافرون لقضاء الليل أصبح ملاذًا للكثيرين في عطلة الأسبوع، لا بد أن هذا الأمر كان عبئًا عليها، هذا بالإضافة إلى أن جون تحولت في الأسابيع القليلة الماضية من مراهقة عبوس إلى فتاة ذات مستقبل. عندما أفكر في هذا أظن أن زواج جون كان السبب الرئيسي وراء تعاسة السيدة بوثبي، فجون هي الشخص الوحيد الذي تنفس له عن مشاعرها، والسيد بوثبي يقف دائمًا خلف البار، وهو من نوعية الرجال السكيرين الذين يصعب العيش معهم، فالرجال الذين يكثرون من الشرب على فترات زمنية متباعدة لا يقارنون بهؤلاء الذين «يحملون ينبوع الخمر معهم» أينما ذهبوا، هؤلاء الذين يشربون كميات كبيرة من الخمر كل يوم وكل أسبوع عامًا بعد عام، هؤلاء الذين يفرطون في معاقرة الخمر يسببون معاناة جمة لزوجاتهم، فقدت السيدة بوثبي ابنتها جون التي ستنتقل للعيش على بعد ثلاثمائة ميل، إنها ليست بالمسافة البعيدة عن المستعمرة، لكنها فقدتها على الرغم من ذلك، وربما تأثرت بعدم الاستقرار الملازم لفترة الحرب، لا بد أن السيدة بوثبي أذعنت إلى أنها ليست امرأة على الإطلاق، وشاهدت السيدة لاتيمير — وهي في مثل عمرها — على مدار أسابيع وستانلي ليت يتودد إليها.

ربما اختبأت داخلها أحلام بشأن بول، لا أدري حقًا، ولكن عندما أعيد التفكير في تلك الأوقات أرى السيدة بوثبي شخص وحيد مثير للشفقة، ولكني لم أفكر هكذا حينئذ. كنت أراها بلهاء «ذات تفكير بدائي». يا إلهي، كم يكون التفكير في الأشخاص الذين أسأت إليهم يومًا مؤلمًا. ربما كنا نستطيع منحها شعورًا بالسعادة دون أن نبذل الكثير، كأن ندعوها إلى تناول شراب معنا أو نتحدث إليها، لكننا كنا منطويين على أنفسنا داخل مجموعتنا وأطلقنا عليها دعابات حمقاء وسخرنا منها. يمكنني أن أتذكر وجهها عندما غادرت أنا وبول المطبخ، كانت تحدق نحو بول وهي مجروحة

وحائرة وبدت عيناها مذعورتين لعجزها عن فهم ما حدث، ثم قالت لجاكسون بصوتها الحاد المرتفع: «أنت تتصرف بصفاقة يا جاكسون، لماذا تتصرف هكذا؟»

تقضي القواعد أن ينال جاكسون قسطًا من الراحة ما بين الساعة الثالثة والخامسة عصر كل يوم، ولكن لأنه كان خادمًا إقطاعيًّا مخلصًا فإنه يتنازل عن ذلك الحق عندما يوجد الكثير من العمل. في عصر هذا اليوم لم نر جاكسون يغادر المطبخ ويسير في بطء نحو منزله إلا في الساعة الخامسة. قال بول: «عزيزتي آنا، إنني لن أحبك كثيرًا إن لم أحب جاكسون أكثر. ومنذ الآن أصبح الأمر في نظري مسألة مبدأ ...» ثم تركني وذهب للقاء جاكسون، وقف الاثنان يتحدثان بجوار السور، وشاهدتهما السيدة بوثبي من نافذة المطبخ. انضم جورج إليّ عندما غادر بول، نظر جورج إلى جاكسون وقال: «ها هو مربي ابني.»

قلت له: «كف عن هذا، فإنه لن يُجدِي نفعًا.»

– هل تعرفين آنا أن الأمر برمته يشبه مسرحية هزلية؟ لا أستطيع حتى أن أعطي هذا الطفل بعض المال؟ أتدركين كم أن هذا الأمر شاذ على نحو قاس بكل ما تحمله الكلمة من معنى، يكسب جاكسون خمسة جنيهات شهريًّا. مما لا شك فيه أن خمسة جنيهات مبلغ كبير عليّ وأنا شخص عجوز هكذا يحمل على عاتقه عبء الإنفاق على الأطفال، لكني لو أعطيت ماري خمسة جنيهات لتشتري للطفل البائس بعض الملابس اللائقة، فسيكون هذا المبلغ كبيرًا جدًّا في نظرهم لدرجة ... أخبرتني ماري أن طعام أسرة جاكسون يتكلف عشرة شلنات أسبوعيًّا؛ فهم يعيشون على القرع ودقيق الذرة وفتات الطعام الذي يتبقى في المطبخ.

– ألم يساور جاكسون الشك؟

– لا تظن ماري ذلك، فأنا طرحت عليها السؤال نفسه. هل تعرفين ما قالته لي: «جاكسون زوج طيب، وهو حنون علي وعلى أبنائي.» ... أتعرفين يا آنا، عندما قالت لي ذلك لم أشعر في حياتي بمثل ما شعرت به من الوضاعة.

– ألا تزال على علاقة بها؟

– نعم، أتعرفين يا آنا، أنا أحب هذه المرأة، أحب هذه المرأة لدرجة ....

بعد برهة رأينا السيدة بوثبي وهي تخرج من المطبخ وتسير نحو بول وجاكسون، دخل جاكسون إلى كوخه، وذهبت السيدة بوثبي إلى منزلها وبدت عليها القسوة من فرط شعورها بالغضب. جاء بول إلينا وأخبرنا أنها قالت لجاكسون: «أنا لا أعطيك قسطًا من الراحة كي تتحدث في وقاحة مع البيض الذين يعرفون أكثر منك.» غضب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بول للغاية لدرجة لا يمكن أن نقول معها إنه تحدث في وقاحة. قال بول: «يا إلهي، آنا، يا إلهي، يا إلهي.» وبعد أن عاد إلى طبيعته على نحو تدريجي جذبني إلى الداخل لنرقص مجددًا وقال: «ما يثير اهتمامي حقًّا أن هناك أشخاصًا — مثلك على سبيل المثال — يعتقدون في صدق إمكانية تغيُّر العالم.»

قضينا هذه الليلة ونحن نرقص ونشرب، ذهبنا جميعًا إلى النوم في وقت متأخر، ذهبت أنا وويلي إلى النوم وكلانا في حالة معكر المزاج بسبب الآخر. كان ويلي غاضبًا لأن جورج يحدثنا عن مشكلاته مرة بعد مرة وقد سئم منه. قال لي: «يبدو لي أن علاقتك ببول جيدة للغاية.» كان من الممكن أن يقول هذا الأمر في أي وقت خلال الأشهر الستة الأخيرة. أجبت: «وكذلك علاقتك بماريروز.» جلس كل واحد منا على سريره في أحد جانبي الغرفة. أمسك هو ببعض الكتب حول تطور الشيوعية الألمانية المبكرة، جلس هناك وكل إدراكه مركز خلف نظارته اللامعة وهو يتساءل هل الأمر يستحق عناء الشجار، أظن أنه فكر أن الأمر سيتحول إلى نقاشنا المعتاد حول جورج ... «الرومانسية الحمقاء» في مقابل «البيروقراطية المتعصبة» أو ربما — نظرًا لأنه رجل جاهل لدوافعه على نحو لا يصدق — ظن أنه مستاء من علاقتي ببول، وربما فعل ذلك حقًّا. بعد أن شعرت بالتحدي حينئذ أجبت: «ماريروز.» ولأني أشعر بالتحدي الآن، يمكنني أن أقول إن أي امرأة تعتقد يقينًا أنه إذا لم يتمكن رجلها من إشباع رغباتها فإن لها الحق في الارتباط بآخر، هذا هو تفكيرها الأول والأقوى، بصرف النظر عن أنها قد تتنازل قليلًا بعد ذلك من منطلق الشفقة أو النفعية. لكن ارتباطنا أنا وويلي لم يكن بسبب العلاقة الحميمية. وماذا بعد؟ أنا أكتب ذلك وأنا أفكر في مدى قوة تلك الصفة المتصارعة والمولعة بالجدل بيننا حتى إنني الآن على نحو غريزي ومن منطلق التعود الكامل أقيِّم الأمر من منظور الصواب والخطأ. إنها لحماقة، الأمر دائمًا يتسم بالحماقة.

لم نتشاجر تلك الليلة. بعد دقيقة بدأ ويلي همهمته ... القرش له أسنان بارعة، وأخذ كتابه وخلدت أنا إلى النوم.

في اليوم التالي سادت حدة الطبع داخل الفندق، فجون بوثبي ذهبت مع خطيبها إلى حفلة راقصة ولم تعد إلا في الصباح، صاح السيد بوثبي في وجه ابنته عندما أتت إلى الفندق وبكت السيدة بوثبي. ذاع الشجار مع جاكسون بين العاملين في الفندق، وأصبح النُّدُل متجهمي الوجوه منا جميعًا. ذهب جاكسون في تمام الساعة

الثالثة مثلما ينص القانون تاركًا السيدة بوثبي تعد الطعام للحفلة الراقصة، ولم تكن جون لتقدم يد المساعدة إلى أمها بسبب الطريقة التي تحدثت بها إليها في اليوم السابق، وكذلك الحال فيما يتعلق بي وببول. سمعنا جون وهي تصيح: «لو لم تكوني بخيلة، لاستأجرت طاهيًا آخر يساعد في العمل بدلًا من أن تجعلي من نفسك ضحية مقابل خمسة جنيهات شهريًا.» احمرت عينا السيدة بوثبي وبدت على وجهها مرة أخرى نظرة انفعال جنوني مشوش، وتبعت جون وهي تؤكد اعتراضها على ما قالته، لأنها — بالطبع — لم تكن بخيلة، لم تكن الجنيهات الخمسة تمثل فرقًا لدى أسرة السيد بوثبي، وأظن أن السبب الذي لم يجعل السيدة بوثبي تستعين بطاه آخر أنها لم تفكر في أن القيام بعمل مضاعف أمر شاق، وأنها تظن أنه ما من سبب يحول دون تحمل جاكسون المشقة نفسها.

ذهبت السيدة بوثبي إلى منزلها لتنال قسطًا من الراحة. كان ستانلي ليت جالسًا مع السيدة لاتيمير في الشرفة. وأحد العمال يقدم شاي الفندق في الساعة الرابعة، لكن السيدة لاتيمير كانت تعاني الصداع وأرادت تناول قهوة سادة. أظن أنها كانت تعاني بعض المشكلات مع زوجها، لكننا كنا لا نشك في دماثة خلقه حتى إننا لم نفكر في ذلك إلا في وقت متأخر. ذهب ستانلي ليت إلى المطبخ ليطلب من النادل إعداد القهوة، لكن القهوة كانت موضوعة بداخل خزانة مغلقة، ومفاتيح الخزانة لدى جاكسون باعتباره الخادم الأمين للأسرة، انطلق ستانلي إلى كوخ جاكسون ليستعير منه المفاتيح. ولا أظنه فكر في أن تصرفه هذا يفتقر إلى اللباقة في مثل هذه الظروف، فلم يكن ذلك التصرف يختلف في نظره عن «تأمينه» لمخزون الجعة. جاء جاكسون — الذي كان يحب ستانلي لربطه بين القوات الجوية الملكية وبين المعاملة الإنسانية — من كوخه ليفتح الخزانة ويعد القهوة السادة للسيدة لاتيمير. من المؤكد أن السيدة بوثبي شاهدت هذا كله من نافذة غرفة نومها، لأنها نزلت من الغرفة وأخبرت جاكسون أنه إذا أعاد تكرار ما حدث فسوف يُصرف من الخدمة. حاول ستانلي تهدئة السيدة بوثبي ولكن دون جدوى، كانت تبدو مثل امرأة مجنونة، وكان على زوجها أن يأخذها بعيدًا كي تستريح مرة أخرى.

جاء جورج إلي أنا وويلي وقال: «هل تعرفون ما الذي سيحدث إذا فُصل جاكسون من الخدمة؟ ستنهار الأسرة بأكملها.»

قال ويلي: «تقصد أنك ستنهار.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– كلَّا أيها الأحمق، فأنا أفكر فيهم هذه المرة. لن يتمكن جاكسون قط من العثور على مكان آخر يمكنه فيه أخذ أسرته معه. سيضطر إلى الحصول على وظيفة في أي مكان وسوف تعود الأسرة إلى نياسالاند.

قال ويلي: «هذا الأمر مرجح للغاية، سوف يكونون في نفس وضع الأفارقة الآخرين، بدلًا من كونهم في وضع لا يحظى به سوى نصف في المائة منهم، هذا إن كانت النسبة تصل إلى هذا الرقم من الأساس.»

فتحت الحانة أبوابها بعد فترة قصيرة، وانطلق جورج لتناول الشراب، وأخذ معه جيمي. يبدو أني نسيت أهم حدث على الإطلاق، وهو إغضاب جيمي للسيدة بوثبي؛ حدث ذلك في عطلة الأسبوع السابقة، ففي حضور السيدة بوثبي وضع جيمي ذراعه حول بول وقبَّله، كان جيمي ثملًا آنذاك، أصيبت السيدة بوثبي — تلك المرأة البسيطة — بذهول بالغ، حاولت أن أوضح لها أن العادات والأفكار المرتبطة بمفهوم الرجولة في المستعمرة تختلف عنها في إنجلترا، لكنها لم تستطع النظر بعد ذلك إلى جيمي دون أن تبدي بغضها له. لم تكن السيدة بوثبي تعترض على حقيقة أنه كان ثملًا دائمًا وأنه لم يكن حليقًا وأنه يبدو بغيضًا حقًّا بندبتيه اللتين لم تلتئما تمامًا وتطلان من خلال شعر لحيته الأصفر، أو لأنه يمشي مسترخيًا في لباسه غير المزرر الذي ليس به ياقة؛ كل تلك الأمور مقبولة لدى السيدة بوثبي، فمقبول للرجال الحقيقيين أن يشربوا الخمر وألا يحلقوا لحيتهم وألا يعيروا اهتمامًا لمظهرهم، بل إنها كانت تعامله في لطف مثلما تعامل الأم ابنها، لكن كلمة «شاذ» دفعتها إلى مقته، قالت السيدة بوثبي: «أظن أنه من النوع الذي يسمونه شاذًّا.» ونطقت هذه الكلمة كما لو كانت مسممة هي الأخرى.

شرب جيمي وجورج في الحانة حتى الثمالة، وفور أن بدأ الرقص بدآ يتصرفان في حمق يستعرض كل منهما عاطفته للآخر. كانت القاعة الكبيرة ممتلئة عندما أتى جيمي وجورج ورقصا معًا، وأدى جورج محاكاة تهكمية ساخرة، لكن جيمي بدا سعيدًا على نحو طفولي، حدث ذلك مرة واحدة حول القاعة، لكنها كافية. كانت السيدة بوثبي هناك بالفعل، وتبدو مثل فقمة في فستانها الأسود الستان، ووجهها مضطرم من الشعور بالأسى، اتجهت مباشرة نحو جيمي وجورج وطلبت منهما مغادرة المكان بسبب أفعالهما المثيرة للاشمئزاز. لم يلاحظ أحد آخر هذا الحدث، وطلب منها جورج أن تكف عن حماقتها، وبدأ يرقص مع جون بوثبي، وقف جيمي

فاغرًا فاه قليل الحيلة يشبه إلى حد بعيد الطفل الصغير الذي نال صفعة على وجهه دون أن يدري سببها. بعد ذلك تجول جيمي بمفرده في الليل.

رقصت أنا وبول، وويلي وماريروز، وستانلي والسيدة لاتيمير. كانت السيدة لاتيمير في الحانة، وتركنا جورج ليتفقد مسكنه المتنقل.

كنا جميعًا أكثر صخبًا وتهكمًا من كل شيء عن ذي قبل. أظن أننا أدركنا جميعًا أنها آخر عطلة أسبوعية لنا، لكن لم يُتخذ قرار بشأن عدم المجيء مرة أخرى، مثلما لم يُتخذ قرار رسمي بشأن المجيء في المقام الأول. كان ثمة إحساس بالضياع؛ حيث من المقرر أن يرحل بول وجيمي قريبًا.

بحلول منتصف الليل تقريبًا ذكر بول أن جيمي لم يظهر من فترة طويلة، بحثنا عنه وسط حشد الأشخاص الموجودة داخل القاعة الكبيرة، لكن لم يره أحد، ذهبت أنا وبول للبحث عنه، وقابلنا جورج عند الباب. كان الليل رطبًا وغائمًا في الخارج. في هذا الجزء من البلدة، نتوقع عادةً أن يتخلل هذا الطقس الصحو دائمًا يومان أو ثلاثة أيام يتساقط المطر الصافي أو ينزل الضباب في اعتدال، مثل المطر الصافي الطفيف الذي يتساقط في أيرلندا، هكذا كان الجو آنذاك، وجلس الأشخاص في مجموعات وثنائيات ينعمون بالهدوء، لكن الجو كان مظلمًا للغاية حتى إننا لم نتمكن من رؤية وجوههم، وسرنا فيما بينهم محاولين الاستدلال على هيئة جيمي. كانت الحانة مغلقة حينئذٍ، ولم يكن هو في شرفة الفندق أو في حجرة الطعام. بدأنا نشعر بالقلق، لأننا أنقذناه أكثر من مرة قبل ذلك من أحد أحواض الزهور أو أسفل أشجار الصمغ وهو ثمل إلى حد ميئوس منه. بحثنا في غرف النوم، وبحثنا في تروٍ وسط الحدائق ونحن نتعثر في الشجيرات والنباتات دون أن نجده. كنا نقف خلف المبنى الرئيسي للفندق ونتساءل عن المكان الذي يمكننا أن نبحث فيه بعد ذلك عندما أضيئت الأنوار في المطبخ على بعد ست خطوات منا. دخل جاكسون المطبخ في بطء وبمفرده دون أن يدرك أن أحدًا يراه. لم يسبق لي أن رأيته من قبل إلا وكان كيِّسًا وحذرًا، لكنه الآن غاضب ومنزعج، أتذكر حالي وأنا أنظر إلى هذا الوجه وأفكر أنني لم أره من قبل قط. تغيرت النظرة التي كانت على وجه جاكسون، كان ينظر إلى شيء ما على الأرض. تقدمنا للأمام كي نستطلع الأمر، وكان جيمي ممدًا على أرضية المطبخ إما نائمًا أو ثملًا أو كليهما معًا. انحنى جاكسون ليرفع جيمي، دخلت السيدة بوثبي من الخلف وهو يفعل ذلك. استيقظ جيمي ورأى جاكسون ثم رفع ذراعيه ووضعهما حول رقبته كما لو كان طفلًا استيقظ من النوم لتوه. قال الرجل الأسود: «سيدي جيمي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيدي جيمي، عليك أن تذهب إلى الفراش. لا يجدر بك أن تكون هنا.» قال جيمي: «أنت تحبني يا جاكسون، أليس كذلك، أنت تحبني، لا أحد يحبني من الآخرين.»

أصيبت السيدة بوثبي بالذهول حتى إنها تركت جسدها يصطدم بالجدار، وبدا وجهها شاحبًا. في ذلك الوقت كان ثلاثتنا داخل المطبخ نرفع جيمي ونبعد قبضته التي أحكمها حول رقبة جاكسون.

قالت السيدة بوثبي: «سوف تترك العمل غدًا يا جاكسون.»

قال جاكسون: «ماذا فعلت يا سيدتي؟»

قالت السيدة بوثبي: «اخرج من هنا، اذهب بعيدًا. ارحل من هنا أنت وأسرتك الحقيرة. نفِّذ الأمر غدًا وإلا استدعيت الشرطة.»

نظر جاكسون إلينا وحاجباه ينعقدان ثم ينفرجان، وقسمات وجهه تتقلص شعورًا بالأسى الممزوج بالحيرة ثم تنبسط، حتى بدا كأن وجهه ينقبض ويرتخي؛ فلم تكن لديه أي فكرة عن سبب ذلك الغضب العارم الذي يجتاح السيدة بوثبي.

قال جاكسون في أناة: «سيدتي، إنني خدمتك طوال خمسة عشر عامًا!»

قال جورج: «سوف أتحدث إليها يا جاكسون.» كانت تلك أول مرة يتحدث فيها جورج مع جاكسون مباشرة، فقد شعر بالذنب الشديد أمامه.

في تلك اللحظة أدار جاكسون عينيه في بطء نحو جورج وطرف بعينيه في بطء كشخص تلقى ضربة، وظل جورج منتظرًا في سكون، بعدها قال جاكسون: «ألا تريدنا أن نرحل يا سيدي؟»

لا أعرف ما الذي كان يعنيه ذلك؛ ربما كان جاكسون يعلم بأمر زوجته طوال الوقت، يبدو الأمر هكذا لا محالة، لكن جورج أغلق عينيه برهة، ثم تمتم بكلام بدا مضحكًا كأن أحمق يتحدث، ثم سار في اضطراب إلى خارج المطبخ.

رفعنا جيمي ودفعناه خارج المطبخ وقلنا: «طابت ليلتك يا جاكسون، وشكرًا لأنك ساعدت السيد جيمي.» لكنه لم يرد.

أخذت أنا وبول جيمي إلى فراشه، وكنا ننزل من مبنى غرف النوم عبر الظلام النديِّ، سمعنا جورج يتحدث إلى ويلي على بعد ست خطوات منا، كان ويلي يقول: «تمامًا.» و«بالتأكيد.» و«على الأرجح.» وجورج يزداد حدةً وارتباكًا.

قال بول بصوت خافت: «يا إلهي، آنا، تعالي معي الآن.»

قلت: «لا أستطيع.»

– ربما أرحل عن البلدة في أي وقت من الآن، ولا أراك ثانية.

– أنت تعلم أني لا أستطيع.

سار بول وسط الظلام دون أن يجيب، وكنت على وشك أن أتبعه عندما ظهر ويلي، كنا قريبين من غرفة نومنا فدخلناها، قال ويلي: «هذا أفضل شيء يمكن أن يحدث؛ سوف يرحل جاكسون وأسرته، وسيعود جورج إلى رشده.»

– يعني ذلك — إلى حدٍّ مؤكد — أن الأسرة سيتفرق شملها. لن يتمكن جاكسون من العيش مع أسرته مجددًا.

قال ويلي: «كنت أتوقع أنكِ ستردين هكذا. كان جاكسون محظوظًا بما يكفي لأن لديه أسرة، فمعظم الرجال ليسوا هكذا، والآن سوف يصبح مثل الآخرين. هذا كل ما في الأمر. هل تذرفين الدمع وتنتحبين على كل هؤلاء الذين يعيشون دون أُسرهم؟»

– كلا، فقد كنت أدعم السياسات التي من شأنها وضع حد لهذا الأمر اللعين برمته.

– تمامًا، هذا صحيح تمامًا.

– لكن صادف الأمر أني تعرفت على جاكسون وأسرته. أحيانًا لا أظن أنك تعني ما تقول.

– بالطبع لا يمكنك ذلك، فالأشخاص العاطفيون لا يمكنهم مطلقًا الاعتقاد في أي شيء آخر إلا في مشاعرهم.

– ولن يشكل الأمر فرقًا في نظر جورج، لأن مأساة جورج لا تكمن في ماري، بل تكمن في نفسه؛ فعندما ترحل ماري ستكون هناك امرأة أخرى.

قال ويلي وبدا وجهه قبيحًا: «ربما يعلمه ذلك درسًا.»

تركت ويلي في غرفة النوم ووقفت في الشرفة. انقشع الضباب ليُظهر ضوءًا منتشرًا خافتًا يبعث على الشعور بالبرودة من السماء المعتمة. كان بول واقفًا على بعد خطوات قليلة ينظر إليّ، وفجأة ثارت داخلي كل مشاعر النشوة والغضب والتعاسة كأن قنبلة تنفجر، ولم أهتم بأي شيء إلا أن أكون مع بول. نزلت إليه مسرعةً وأمسك بيدي ودون أن ننبس ببنت شفة، ركضنا معًا دون أن ندري وجهتنا أو السبب الذي دفعنا لذلك. ركضنا على طول الطريق الرئيسي شرقًا ونحن ننزلق ونتعثر على الطريق الأسفلتي الموحل المبلل، وانحرفنا نحو طريق وعر مكسو بالحشائش يؤدي إلى مكان ما، لكننا لم ندر إلى أين، ركضنا على طول هذا الطريق — عبر برك مياه رملية لم نرها من قبل — ووسط الضباب الخافت الذي نزل مرة أخرى. بدت الأشجار المبللة قاتمة اللون على الجانبين لكننا تخطيناها وتابعنا ركضنا. بدأنا نلهث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لهثًا شديدًا وقطعنا الطريق في صعوبة حتى وصلنا إلى المرج العشبي، وهو مغطى ببراعم مورقة قصيرة غير ظاهرة. ركضنا بضع خطوات، وارتمينا على الأرض وكل منا يطوق الآخر بذراعه وسط أوراق النباتات المبللة والمطر ينزل في بطء، وفوقنا السحب المنخفضة القاتمة تتحرك سريعًا في السماء والقمر يومض ويختفي — في صراع مع الظلام — إلى أن حل الظلام مجددًا. بدأنا نرتجف ارتجافًا شديدًا حتى إننا انفجرنا ضحكًا، واصطكت أسناننا بعضها ببعض. أنا لا أرتدي سوى فستان رقص من الكريب الرقيق. خلع بول سترته الرسمية ووضعها حولي، واستلقينا على الأرض مرة أخرى. كانت أجسادنا دافئة وكل الأشياء الأخرى مبتلة وباردة. قال بول، وهو لا يزال محتفظًا بوقاره: «لم يسبق لي أن فعلت ذلك عزيزتي آنا. أليس ذكاءً مني أن أختار امرأة متمرسة مثلك؟» الأمر الذي أضحكنا مرة أخرى. لم يكن أي واحد منا يتمتع بالذكاء على الإطلاق، لكننا كنا سعيدين للغاية. بعد ساعات بزغ ضوء النهار من فوقنا، وتوقف الصوت البعيد الذي كان صادرًا عن عزف جوني على البيانو داخل الفندق، وعندما نظرنا إلى الأعلى رأينا أن السحب تحركت بعيدًا ولاحت النجوم من قريب. نهضت أنا وبول، ومن خلال استحضار مصدر صوت البيانو سرنا في طريق ظننا أنه الاتجاه المؤدي إلى الفندق. سرنا ونحن نتعثر في طريقنا — وسط الأشجار المنخفضة والأعشاب — وتعانقت أيدينا في دفء والدموع والندى المتساقط من الأعشاب ينسابان على وجوهنا. لم نستطع الوصول إلى الفندق؛ لا بد أن الرياح تحرك صوت الموسيقى الراقصة بعيدًا عن مساره. تسلقنا وسط الظلام حتى وجدنا أنفسنا أخيرًا فوق قمة تل صغير. هناك ظلمة يخيم عليها الصمت التام لمسافة أميال من جميع الجهات أسفل البريق الرمادي للنجوم. جلسنا معًا على صخرة رطبة من الجرانيت يحيط كل منا الآخر بذراعه ونحن ننتظر طلوع النهار. كنا نشعر بالبرد والتعب الشديد حتى إننا لم نتحدث. جلسنا ووجنتانا الباردتان متلاصقتان وانتظرنا.

لم يسبق لي — في حياتي بأسرها — أن شعرت بالسعادة الممزوجة بالأسى والوحشة والألم إلى هذا الحد مثلما حدث آنذاك، كان شعورًا قويًّا حتى إنني لم أصدقه. أتذكر أني قلت لنفسي: إنها هي، تلك هي السعادة، وفي الوقت نفسه شعرت بالهلع لأن تلك السعادة تنبثق من الشعور بالقبح والبؤس البالغين. وطوال الوقت تنهمر الدموع الدافئة على وجوهنا الباردة المتلاصقة معًا.

بعد مرور وقت طويل سطع وهج أحمر وسط الظلمة أمامنا، ولاح المنظر الطبيعي ساكنًا وغائمًا وخلابًا على بعد مسافة منه. ظهر الفندق — الذي بدا غريبًا

من هذا الارتفاع — على مسافة نصف ميل، وليس في المكان الذي توقعناه. بدا الفندق مظلمًا، ولا ضوء ينبعث منه. الآن استطعنا أن نرى أن الصخرة التي نجلس عليها تقع عند مدخل كهف صغير، وأن الجدار الصخري المستوي خلف الفندق مغطى برسوم قبائل البوشمان، الرسوم مبهجة ولامعة حتى في هذا الضوء الخافت، لكنها متكسرة للغاية؛ تغطى هذه الرسوم هذا الجزء من البلدة بأكمله، لكن معظمها تهدم لأن السذج البيض كانوا يلقون الحجارة عليها غير مدركين لقيمتها. نظر بول إلى الرسوم الملونة الصغيرة للرجال والحيوانات التي تصدعت جميعها وتشوهت بما عليها من علامات وقال: «هذا هو المصير الذي يستحقونه جميعًا، إلا أنني لا أستطيع في وضعي الحالي أن أجد الكلمات الملائمة لأشرح لك السبب الذي يقف وراء هذا المصير.» قبَّلني بول — للمرة الأخيرة — ونزلنا في بطء خلال الكتل المتشابكة للأعشاب وأوراق النباتات المخضلة. انكمش فستاني المصنوع من الكريب بفعل المياه وارتفع فوق ركبتي، وهو ما أضحكنا، لأنني لم أستطع أن أخطو إلا خطوات قصيرة فيه. سرنا سيرًا شديد البطء على طريق مؤدٍّ إلى الفندق، ثم صعدنا إلى مبنى غرف النوم، وهناك كانت السيدة لاتيمير تجلس في الشرفة وهي تبكي، كان الباب داخل غرفة النوم خلفها غير مغلق تمامًا، والسيد لاتيمير يجلس على الأرض بجوار الباب، ولا يزال ثملًا، ويقول بصوت ثمل يطل منه الحرص والحذر: «أيتها البغية، أيتها البغية القبيحة، أيتها البغية عديمة الفائدة.» بالتأكيد حدث هذا الأمر من قبل. رفعت وجهها الشاحب نحونا، وهي تزيح شعرها الأحمر الجميل بيديها والدموع تتساقط من ذقنها، وكلبها رابض بجوارها يئن في رفق ورأسه داخل حجرها وذيله الأحمر الخفيف يتحرك جيئة وذهابًا على الأرض في حركة تنم عن الاعتذار. لم يلحظ السيد لاتيمير وجودنا على الإطلاق، كانت عيناه الحمراوان القبيحتان مثبتتين على زوجته: «أيتها البغية الكسولة عديمة الفائدة. أيتها البغية الحقيرة.»

تركني بول، ودخلت غرفة النوم، كانت الغرفة مظلمة ورديئة التهوية، قال ويلي: «أين كنت؟»

قلت: «أنت تعرف أين كنت.»

– تعالي هنا.

ذهبت إليه، فأمسك رسغي بإحكام وجذبني إلى جواره. أتذكر حالي حينئذٍ ومدى الكراهية التي أكنها له وتعجبي من أن المرة الوحيدة التي أتذكره وهو يقيم علاقة معي في حماس عندما علم أني أقمت علاقة لتوي مع شخص آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رسم هذا الحدث نهاية علاقتي أنا وويلي، ولم يسامح أحد منا الآخر قط بسببه، لم نذكره قط بعد ذلك، لكنه كان حاضرًا في أذهاننا دائمًا، وهكذا فإن علاقتنا التي لم يكن «الجنس» هو أساسها انتهت بممارستنا للجنس بحق.

كان اليوم التالي يوم الأحد، واجتمعنا قبل الغداء مباشرة أسفل الأشجار على طول خطوط السكة الحديدية؛ جورج يجلس هناك وحيدًا، وبدا طاعنًا في السن وحزينًا ومحطمًا، فجاكسون أخذ زوجته وأطفاله واختفى في الليل، يتجهون الآن شمالًا إلى نياسالاند. أصفر الكوخ الذي بدا من قبل حافلًا بمظاهر الحياة وصار مهجورًا بين عشية وضحاها، بدا كمكان صغير منهار قائم هناك على مسافة من أشجار البابايا وليس به أحد، لكن جاكسون كان في عجلة شديدة من أمره فلم يأخذ معه دجاجاته، فهناك عدد من طيور الغرغر وبعض الدجاجات الكبيرة ذات اللون الأحمر ترقد على البيض، وديك صغير جميل بريشه اللامع ذي اللونين البني والأسود وذيل مكسو بالريش الأسود، تظهر منه ألوان كألوان قوس قزح في ضوء الشمس، ينبش الأرض ببراثنه البيضاء الصغيرة ويصيح في صوت مرتفع. قال جورج: «ها أنا ذا.» وهو ينظر إلى الديك ويمزح كي ينقذ حياته.

عندما عدنا إلى الفندق لتناول الغداء جاءت السيدة بوثبي لتعتذر إلى جيمي، كانت مسرعة وعصبية وعيناها حمراوين، لكنها مع ذلك لم تستطع النظر إلى جيمي دون إبداء نفورها منه، فقد كانت صادقة إلى حد بعيد، قبل جيمي اعتذارها معربًا عن بالغ امتنانه، فلم يكن يتذكر ما حدث الليلة الماضية، ولم يخبره أحد منا قط، ظن جيمي أنها تعتذر عما حدث في الحفلة الراقصة مع جورج.

قال بول: «وماذا عن جاكسون؟»

قالت: «رحل، وهذا أفضل.» قالتها بصوت متثاقل متقطع يعبر عن الشك والحيرة. كانت تتساءل قطعًا عن السبب الذي جعلها تطرد في سهولة تامة خادم الأسرة الأمين طوال خمسة عشر عامًا. ثم أضافت: «ثمة كثيرون على استعداد لقبول تلك الوظيفة.»

قررنا أن نغادر الفندق بعد ظهر هذا اليوم، ولم نعد إليه قط. بعد مرور بضعة أيام قُتل بول، وانطلق جيمي ليقود قاذفات القنابل فوق أراضي ألمانيا. أخفق تيد سريعًا في عمله كطيار، وأخبره ستانلي ليت أنه أحمق. واصل عازف البيانو جوني العزف في الحفلات، وظل الصديق الصامت والبعيد لنا والمهتم لشئوننا.

تمكن جورج — بمساعدة مفتشي الشرطة المحليين — من اقتفاء أثر جاكسون؛ أخذ جاكسون أسرته إلى نياسالاند، وتركهم هناك، وهو يعمل الآن طاهيًا لدى أحد

المنازل الخاصة في المدينة، في بعض الأحيان يرسل جورج بعض المال إلى الأسرة آملًا أن يُظن أنها ترد إليهم من أسرة السيد بوثبي التي — كما زعم جورج — ربما تشعر بتأنيب الضمير على ما بدر منها في حق جاكسون. لكن لِمَ يُفترض بهم ذلك؟ لم يحدث شيء قط — إلى الحد الذي يعنيهم — يُشعرهم بالاستحياء.

وكانت تلك هي نهاية القصة بأكملها.

كانت هذه هي المادة التي نُسجت منها رواية «حدود الحرب». بالطبع ما من شيء مشترك على الإطلاق بين «القصتين». أتذكر في وضوح شديد اللحظة التي أدركت خلالها أني سأكتب الرواية. كنت أقف على سلم مبنى غرف النوم التابع لفندق ماشوبي يكتنفني ضوء لامع قاسٍ يبعث على الشعور بالبرودة من جميع الاتجاهات، في الأسفل وعلى مسافة من أشجار الكينا على خطوط السكة الحديدية، جاء قطار بضائع فوقف يصدر هسيسًا وتنبعث منه سحب من البخار الأبيض، وقرب القطار شاحنة جورج واقفة وخلفها القاطرة، وهو صندوق مطلي باللون البني يشبه إحدى علب التغليف سهلة الكسر، جورج موجود في تلك اللحظة مع ماري داخل القاطرة، رأيتها للتو تتسلل وتصعد إليه. رائحة النمو تفوح من أحواض الزهور الرطبة المنعشة، وصوت بيانو جوني يصدر من قاعة الرقص، ومن خلفي أمكنني سماع أصوات بول وجيمي يتحدثان مع ويلي، وكذلك ضحكة بول المفعمة بالشباب التي انطلقت فجأة. امتلأت نفسي بذلك الشعور بالنشوة الممتعة المحفوفة بالمخاطر فكنت أستطيع السير في خط مستقيم على السلم حتى أحلق في الهواء وأتخذ من القوة المستمدة من ثمالتي سبيلًا للوصول إلى النجوم. والنشوة — كما عرفتها حينئذٍ — تتمثل في شدة الخطر؛ خطر الضربة المخيفة القبيحة الخفية للحرب نفسها، والموت الذي تمنيناه جميعًا، بعضنا لبعض ولأنفسنا.

[بعد بضعة شهور ...]

تمعنت في قراءة ما كتبت اليوم، للمرة الأولى منذ أن كُتب. إنها حافلة بمشاعر الحنين، فكل كلمة فيها محملة بتلك المشاعر، مع أني ظننت أنها «موضوعية» في الوقت الذي كتبتها فيه. مشاعر الحنين لأي شيء؟ لا أدري، لأنني أفضل الموت على أن أمر بأي من هذا الأمر مجددًا. أعتبر أن «آنا» في ذلك الوقت هي عدو لي، أو صديق قديم؛ شخص عرفته جيدًا ولا أود أن أراه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

[بُدئ الدفتر الثاني — وهو الدفتر الأحمر — دون تردد على الإطلاق. كُتبت كلمات «الحزب الشيوعي البريطاني» بعرض الصفحة الأولى ورسم تحتها خطان وكتب التاريخ ٣ يناير ١٩٥٠ أدناه:]

في الأسبوع الماضي اقتربت مني مولي لتخبرني أن أعضاء الحزب وُزِّعَت عليهم استمارة تضم أسئلة خاصة بتاريخهم كأعضاء، وجزء يطلبون فيه من الأعضاء كتابة «شكوكهم والأمور الملتبسة عليهم» تفصيلًا. قالت مولي إنها بدأت كتابة هذه الاستمارة وهي تتوقع أن تكتب بضع جمل لا أكثر، لكنها وجدت نفسها تكتب «موضوعًا كاملًا، عشرات من الصفحات حادة اللهجة». بدت مولي غاضبة من نفسها، وقالت: «ماذا أريد؛ أن أجلس على كرسي الاعتراف؟ على أي حال، ما دمت كتبت هذا فسوف أرسله.» أخبرتها أنها فقدت عقلها، وقلت لها: «لنفترض أن الحزب الشيوعي البريطاني تمكن من الوصول إلى السلطة في أي وقت، ستكون هذه الوثيقة ضمن الملفات، وإذا أرادوا الدليل لشنقك آلاف المرات، لوجدوه لديهم.» وجهت لي ابتسامتها الصغيرة التي كادت تكون متجهمة؛ تلك الابتسامة التي تعلو وجهها عندما أقول شيئًا من هذا القبيل، مولي ليست شيوعية ساذجة. قالت: «أنت متشائمة للغاية.» فقلت لها: «أنت تعلمين أنها الحقيقة، أو أنها ربما تكون كذلك.» قالت: «إذا كنت تفكرين على هذا النحو فلم تتحدثين عن الانضمام إلى الحزب؟» قلت: «ولم لا تزالين منضمة إليه إذا كنت تفكرين على ذلك النحو أيضًا؟» ابتسمت مجددًا في تهكم — ولكن نظرة التجهم اختفت — وأومأت برأسها. جلست مولي برهة من الوقت وهي تفكر وتدخن ثم قالت: «الأمر برمته غريب يا آنا، أليس كذلك؟» وفي الصباح قالت: «عملت بنصيحتك، ومزقت الاستمارة.»

في اليوم نفسه تلقيت مكالمة هاتفية من الرفيق جون يقول فيها إنه سمع أني في طريقي للانضمام إلى الحزب، وأن «الرفيق بيل» — وهو المسئول عن النواحي الثقافية — يود مقابلتي، وأضاف سريعًا: «ليس عليك لقاءه بالطبع إن كنت لا ترغبين في ذلك، ولكنه قال إنه سيكون متحمسًا للقاء أول مثقفة مستعدة للانضمام إلى الحزب منذ أن بدأت الحرب الباردة.» راق لي الطابع التهكمي لهذا الكلام، وأخبرته أني سأقابل الرفيق بيل. قلت هذا مع أني لم أتخذ بالفعل قرارًا نهائيًّا بالانضمام إلى الحزب؛ أحد أسباب ذلك أني أكره الانضمام إلى أي شيء، وهو ما يبدو لي جديرًا بالازدراء. والسبب الثاني المؤكد قطعًا يتمثل في أن آرائي فيما يتعلق بالشيوعية لن

تمكنني من إخبار أي رفيق بأي شيء أرى صحته، وهو سبب قاطع. لا يبدو الأمر هكذا على الرغم من ذلك، لأني قلت لنفسي طوال شهور أنه لا يمكنني الانضمام إلى أي منظمة تبدو في نظري غير أمينة، لكني وجدت نفسي مرارًا وتكرارًا على شفا اتخاذ قرار الانضمام. ويحدث ذلك دائمًا في اللحظات نفسها، وثمة اثنتان من تلك اللحظات؛ الأولى كلما قابلت — لأي سبب كان — كتابًا أو ناشرين وغيرهم من يمثلون العالم الأدبي، وهو عالم متحذلق إلى حد بعيد، ويحكمه النظام الطبقي، وإن تحدثنا عن الجانب التجاري، فإنه عالم سافِر إلى حد بعيد حتى إن أي احتكاك به يجعلني أفكر في الانضمام إلى الحزب. واللحظة الأخرى تكون عندما أرى مولي تنطلق مسرعة لتنظيم شيء ما تملؤها الحيوية والحماسة، أو وأنا أصعد السلم وأسمع أصواتًا قادمة من المطبخ، فأنضم إليهم، إنه جو مفعم بالمودة يعمل فيه الأفراد معًا لتحقيق غاية مشتركة، لكن هذا ليس كافيًا. سوف أقابل رفيقهم بيل غدًا وأخبره أني بطبعي «متعاطفة» مع سياسات الحزب لكن دون أن تكون لدي الرغبة في الانتماء الرسمي له، ولذا سوف أظل خارجه.

اليوم التالي.

مقابلة في شارع كينج ستريت، وهو شارع مكتظ بالمكاتب الصغيرة خلف الواجهات المصنوعة من الزجاج المحمي بطبقة من الحديد. لم ألحظ المكان حقًّا من قبل مع أني مررت به كثيرًا. بث الزجاج المحمي بالحديد في نفسي شعورين؛ الأول: شعور بالخوف من عالم العنف، والثاني: شعور بالحاجة إلى الحماية ... حماية منظمة يقذفها الناس بالحجارة. صعدت عبر السلالم الضيقة وأنا أفكر في الشعور الأول: كم عدد الأشخاص الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي البريطاني، لأنه — في إنجلترا — حيث يكون من الصعب تذكر الحقائق الخاصة بالقوة وبالعنف، يمثل الحزب الشيوعي لهم حقائق القوة المكشوفة المحجوبة عن الأنظار داخل إنجلترا نفسها. اتضح أن الرفيق بيل شاب صغير السن للغاية، يهودي، يرتدي نظارة، ذكي، وينتمي إلى الطبقة العاملة. كان موقفه تجاهي حادًّا وحذرًا، وصوته حادّ تعوزه الحماسة وتشوبه لهجة الازدراء. لفت نظري أنني بسبب لهجة الازدراء التي لم يدرك أنه يظهرها شعرت في نفسي ببدايات الحاجة إلى الاعتذار، وكدت أصل إلى حد التلعثم. كانت المقابلة مثمرة للغاية؛ أُخبر الرفيق بأني على استعداد للانضمام للحزب، ومع أني ذهبت كي أعلمه برفضي وجدتني أتقبل الموقف. شعرت — ربما بسبب موقفه الازدرائي تجاهي — أنه على صواب، وأنهم يؤدون عملهم على ما يرام، وقضيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعض الوقت أصارع ضميري. (على الرغم من أني لا أظن أنه على صواب.) قبل أن أغادر قال الرفيق فجأة معلقًا: «في غضون خمس سنوات أتوقع أن تكتبين مقالات في صحافة النظام الرأسمالي تظهريننا فيها على أننا وحوش، تمامًا مثل البقية.» بالطبع عنى المثقفين بقوله «البقية» لأن الأسطورة الشائعة داخل الحزب تقول إن المثقفين هم الطبقة الأكثر نزوعًا إلى مغادرة الحزب، في حين أن الحقيقة تقول إن معدل الدوران لا يختلف في جميع الطبقات والجماعات. شعرت بالغضب، وشعرت بالإهانة أيضًا، وهو ما جعلني عاجزة عن الرد. قلت له: «من حسن الحظ أنني من الأعضاء القدامى بالحزب. وإذا كنت عضوًا جديدًا فربما تحررت من الوهم بسبب هذا الموقف الذي تبديه.» وجه إليّ نظرة طويلة فاترة تنم عن الدهاء أراد من خلالها أن يقول: بالطبع لم أكن لأعقب بقولي هذا لو لم تكوني من الأعضاء القدامى. وهذا الأمر أسعدني من ناحية، لأني دخلت من جديد — إن جاز التعبير — في الزمرة المخولة بإبداء التعليقات التهكمية بشأن المنضمين الجدد، وجعلني أيضًا منهكة القوى فجأة من ناحية أخرى. نسيت بالطبع المناخ التهكمي الذي يميز الجماعات الداخلية، نظرًا لبعدي عن هذا المناخ طويلًا. ولكن في اللحظات التي وددت فيها الانضمام إلى الحزب كنت على دراية تامة بطبيعة الجماعات الداخلية، فجميع الشيوعيون الذين أعرفهم — هؤلاء الذين يتمتعون بأي قدر من الذكاء — يتبنون موقفًا واحدًا تجاه «المركز»؛ إن مسئولية الحزب في يد مجموعة من البيروقراطيين غير الفاعلين الذين يقومون على إدارته، وإن العمل الحقيقي يُنجز بصرف النظر عن المركز، فالرفيق جون على سبيل المثال قال عندما أخبرته للمرة الأولى أني ربما أنضم إلى الحزب: «إنك بلهاء، فهم يكنون مشاعر الكراهية والازدراء للكتاب الذين ينضمون إلى الحزب. هؤلاء يحترمون من لا ينضم إلى الحزب فقط.» كان يعني بكلمة «هؤلاء» مركز الحزب. كانت دعابة بالطبع، لكنها كانت حقيقية إلى حد ما. قرأت جريدة المساء وأنا أستقل مترو الأنفاق. ثمة خبر يتعلق بهجوم على الاتحاد السوفييتي. ما ورد عن هذا الحدث بدا فعليًّا في نظري إلى حد بعيد، لكن اللهجة التي شابهها الخبث والتشفي والابتهاج جعلتني أشعر بالاشمئزاز، وشعرت بالسعادة لانضمامي إلى الحزب. عدت إلى المنزل لأبحث عن مولي، كانت قد خرجت، فقضيت بضع ساعات أشعر خلالها بالاكتئاب وأنا أتساءل عن السبب الذي جعلني أنضم إلى الحزب. أتت مولي وأخبرتها بما حدث، وقلت: «الشيء المضحك أني كنت سأقول إني لن أنضم إلى الحزب، ولكني فعلتها.» ابتسمت مولي ابتسامتها الصغيرة المتجهمة (وهذه الابتسامة لا تظهر إلا

عند الحديث عن السياسة، لا لأي شيء آخر، فالتجهم ليس من طبيعتها) ثم قالت: «أنا أيضًا انضممت إلى الحزب رغمًا عني.» لم يسبق من قبل أن أبدت مولي أي إشارة عن ذلك، وبدت دائمًا على درجة من الولاء حتى إنني اندهشت. قالت: «حسنًا، بما أنك الآن واحدة من الحزب فسوف أخبرك.» كان ذلك يعني أنه لا يمكن إخبار أي شخص غريب عن الحزب. قالت مولي: «كنت أتواصل مع مجموعات الحزب لوقت طويل جدًّا حتى ...» لكنها حتى الآن لم تستطع أن تقول مباشرة «حتى إني عرفت الكثير بما يكفي لتحريك رغبتي في الانضمام.» ابتسمت مولي، أو بالأحرى كشرت عن أنيابها وقالت: «بدأت العمل على قضية السلام لأني آمنت بها. كان الآخرون جميعًا أعضاءً في الحزب. في أحد الأيام سألتني تلك الحقيرة إلين عن السبب وراء عدم انضمامي للحزب. لم أبد القدر اللازم من الجدية — الأمر الذي اعتبرته خطأً فيما بعد — وبدت عليها أمارات الغضب. بعد مرور بضعة أيام أخبرتني بأن ثمة شائعة تقول إنني عميلة لأني لست عضوًا في الحزب. أظن أنها من أطلقت الشائعة. والشيء المضحك في هذا الأمر أني بالتأكيد لو كنت عميلة لانضممت إلى الحزب، لكني كنت منزعجة للغاية، فانطلقت ووقعت على انضمامي للحزب ...» جلست تدخن وقد بدت عليها التعاسة، ثم قالت مجددًا: «الأمر برمته غريب تمامًا. أليس كذلك؟» ثم ذهبت إلى النوم.

٥ فبراير/شباط ١٩٥٠

الأمور تسير كما توقعت، فالمناقشات الوحيدة التي أجريها عن الأمور السياسية والتي أقول فيها ما أظنه تجري مع أشخاص كانوا في الحزب ورحلوا عنه الآن. وكان موقفهم تجاهي موقفًا متسامحًا حقًّا، مما شجعني على الانضمام للحزب.

١٩ أغسطس/آب ١٩٥١

تناولت طعام الغداء مع جون للمرة الأولى منذ انضمامي للحزب، بدأت أتحدث مثلما أفعل مع أصدقائي السابقين في الحزب، حيث اعترفت في صراحة بما يحدث في الاتحاد السوفييتي. بدأ جورج يدافع عن الاتحاد السوفييتي على نحو تلقائي وهو غاضب للغاية. ولكن في الليلة نفسها تناولت طعام العشاء مع جويسي — إحدى الشخصيات المحتكة بأوساط مجلة نيوستيسمان — وبدأت في مهاجمة الاتحاد السوفييتي، وعلى الفور وجدت نفسي أنتهج أسلوب الدفاع عن الاتحاد السوفييتي على نحو تلقائي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الأسلوب الذي لم أكن أطيقه عندما ينتهجه الآخرون معي. استمرت جويسي في هجومها، واستمررت أنا في دفاعي. من وجهة نظرها هي تتحدث مع أحد الشيوعيين، لذا بدأت تطلق العبارات المعتادة في مثل هذا الموقف، ورددت عليها بالمثل. حاولت مرتين أن أنهي هذا الجدال، وأن نبدأ الحديث في أمر مختلف، لكني فشلت، فالشعور بالعداوة سيطر على الجو العام. زارني مايكل في هذه الليلة، وأخبرته عما حدث بيني وبين جويسي. قلت له إنه على الرغم من أنها إحدى صديقاتي القدامى، فربما لن نلتقي مجددًا. على الرغم من أني لم أغير اتجاهاتي العقلية فيما يتعلق بأي شيء، فحقيقة أني أصبحت واحدة من أعضاء الحزب جعلتني في نظرها مثالًا لشيء ما تتبنى تجاهه اتجاهات محددة، وأنا استجبت لها بالمثل. هنا علق مايكل: «حسنًا، ماذا كنت تتوقعين؟» كان يتحدث معي ممارسًا دور الشخص الذي نُفي إلى أوروبا الشرقية والثوري السابق الذي أكسبته التجارب السياسية الواقعية حنكة، وأنا أمارس دور «البريئة السياسية» وأرد عليه من هذا المنطلق وأنطق بجميع أنواع التفاهات الليبرالية. كانت الأدوار التي نلعبها والطريقة التي نلعب بها رائعة.

١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٥١

قضية جاك بريجز الذي كان يعمل صحفيًّا في جريدة التايمز والذي تركها مع اندلاع الحرب. في ذلك الوقت لم يكن مهتمًّا بالأمور السياسية. عمل في أثناء الحرب لمصلحة المخابرات البريطانية. تأثر آنذاك بالشيوعيين الذين التقى بهم، وتحول في ثبات إلى اليسار. بعد انتهاء الحرب رفض العديد من الوظائف ذات الرواتب المجزية في الصحف التابعة للحزب المحافظ، وعمل في صحيفة يسارية مقابل راتب زهيد، أو لنقل إنه أبدى ميولًا يسارية لأنه عندما أراد أن يكتب مقالًا عن الصين وضعه ريكس — الذي يحظى بنفوذ قوي داخل الحزب اليساري — في موقف اضطر فيه للاستقالة. لم يعد لديه المال، وفي هذا الوقت اعتبر في عالم الصحف شيوعيًّا، ومن ثَم فإنه غير مؤهل للعمل، وورد اسمه في المحاكمة المجرية على أنه عميل بريطاني يتآمر للإطاحة بالشيوعية. التقيت به مصادفة، وكان واهن العزيمة إلى حد بعيد، فقد انطلقت حملة من الشائعات في كل أرجاء الحزب وفي الأوساط المجاورة للحزب تقول إنه «جاسوس رأسمالي» وشرع أصحابه في التعامل معه على نحو من الريبة. جرى اجتماع بين مجموعة الكتاب ناقشنا خلاله هذا الأمر وقررنا التحدث مع بيل كي يضع حدًّا لتلك الحملة البغيضة. التقيت أنا وجون ببيل، وقلنا إن اتهام جاك

بريجز بأنه عميل ليس له أساس من الصحة بكل تأكيد، وطلبنا منه أن يقوم بشيء حيال ذلك. كان بيل لطيفًا ودمثًا، وقال إنه سوف «يجري تحقيقات» ويطلعنا على النتائج. تركنا «التحقيقات» تجرى ونحن نعرف أن هذا يعني مناقشة القضية على مستوى عال في الحزب. لم نتلق أي أخبار من بيل. ومرت الأسابيع، فالأسلوب المعتاد لمسئولي الحزب في اللحظات الحرجة هو ترك الأمور تسير على ما هي عليه. ذهبنا للقاء بيل مرة أخرى، وكان دمثًا إلى أقصى حد، وقال إنه لا يستطيع فعل شيء. ولم لا؟ «حسنًا، في هذه النوعية من الأمور عندما يكون هناك شك ...» سألنا أنا وجون بيل بلهجة غاضبة هل يظن — بصورة شخصية — أنه من المتصور أن يكون جاك عميلًا. تردد بيل، وبدأ تبريرًا طويلًا ومخادعًا في وضوح عن أنه من الممكن أن يكون أي شخص عميلًا «حتى هو نفسه». ابتسم لنا ابتسامة ودية رائقة، وغادرت أنا وجون ونحن نشعر بالإحباط والغضب من أنفسنا. بذلت أنا وجون جهدًا للقاء جاك بريجز شخصيًّا والإصرار على قيام الآخرين بهذا أيضًا، لكن الشائعات والوشايات المغرضة لم تتوقف. كان جاك بريجز يمر بحالة من الاكتئاب الحاد، وعُزِلَ تمامًا عن الحزبين اليميني واليساري. ومما يزيد الأمر سخرية أنه بعد ثلاثة أشهر من شجاره مع ريكس عن المقال عن الصين الذي قال عنه ريكس إنه «مكتوب بلهجة شيوعية» بدأت الصحف التي كانت تستحق الاحترام في نشر مقالات باللهجة نفسها، وهكذا وجد ريكس — الرجل الشجاع — أن هذا هو الوقت المناسب لنشر مقال عن الصين، ودعا جاك بريجز لكتابة المقال. ورفض جاك إذ تغيرت حالته المزاجية تمامًا وانتابه شعور بالمرارة.

إن هذه القصة — التي تكاد تكون ميلودرامية على اختلاف أشكالها — هي قصة عن المفكرين الشيوعيين أو شبه الشيوعيين في هذا الوقت تحديدًا.

٣ يناير/كانون الثاني ١٩٥٢

أكتب قدرًا ضئيلًا للغاية في هذا الدفتر. لِمَ؟ أرى أن أي شيء أكتبه هو انتقاد للحزب. على الرغم من ذلك فأنا لا أزال عضوًا فيه، وكذلك حال مولي.

شُنق ثلاثة من أصدقاء مايكل بالأمس في براج. قضى الليل يتحدث إلي، أو بالأحرى إلى نفسه. كان يفسر — أولًا — السبب الذي يجعل من المستحيل أن يكون هؤلاء الرجال خونة للنظام الشيوعي. بعد ذلك فسر — بكثير من الفطنة السياسية — السبب الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يجعل من المستحيل إدانة الحزب الأبرياء وشنقهم، وأن هؤلاء الثلاثة ربما ورطوا أنفسهم — دون قصد — في مواقف مناهضة للثورة «على نحو موضوعي». استمر مايكل في الكلام كثيرًا حتى قلت في النهاية إنه علينا الخلود إلى النوم. طوال الليل كان مايكل يبكي في نومه، وأنا أتقلب في الفراش وقد جفاني النوم، وكنت أجده يئن والدموع تبلل الوسادة. في الصباح أخبرته أنه كان يبكي، شعر بالغضب من نفسه. ذهب إلى العمل وهو يبدو كرجل مسن وجهه مجعد وشاحب ووجه لي إيماءة غير مبالية ... بدا بعيدًا جدًّا عني، أسير ذلك الاستجواب المرير الذي كان يجريه مع نفسه. في غضون ذلك كنت أساعد في تقديم عريضة لمصلحة عائلة روزنبرج. من المحال أن أجعل الأشخاص يوقعون عليها، باستثناء مفكري الحزب ومن هم على صلة به. (ليس الأمر هكذا في فرنسا، فالجو العام في هذا البلد تغير تغيُّرًا كبيرًا في السنتين أو الثلاث سنوات الماضية، فبات يسيطر عليه التزمت والريبة والهلع. وقد يتطلب الأمر دَفعة قليلة للغاية لإخلال توازنه وتحويله إلى صورة من المكارثية التي تطبق في بلدنا.) سألني بعض الأشخاص من الحزب — ناهيك عن المفكرين «الجديرين بالاحترام» — عن السبب الذي يدفعني لتقديم عريضة لمصلحة عائلة روزنبرج وليس لمصلحة من لفقت لهم التهم في براج؟ وجدت الإجابة على هذا السؤال بالمنطق أمرًا مستحيلًا، باستثناء أنه على شخص ما تنظيم التماس عن عائلة روزنبرج. أشعر بالاشمئزاز من نفسي، ومن الأشخاص الذين لن يوقعوا لعائلة روزنبرج. يبدو أني أعيش في مناخ من الاشمئزاز المشوب بالريبة. بدأت مولي في البكاء هذه الليلة على نحو غير متوقع تمامًا؛ كانت تجلس على سريري وتتحدث عن يومها ثم أخذت في البكاء الصامت البائس. ذكرتني بشيء ما، لكني لم أستطع تذكره، لكنها حتمًا كانت ماريروز وهي تترك الدموع تنهمر فجأة على وجهها في القاعة الكبيرة بفندق ماشوبي وتقول: «ظننا أن كل شيء سيتغير إلى الأحسن، والآن نعرف أن ذلك لن يحدث.» كانت مولي تبكي هكذا. كانت الصحف تملأ أرضية الغرفة، وفيها أخبار عائلة روزنبرج وغيرها من الأمور التي تحدث في أوروبا الشرقية.

أعدمت عائلة روزنبرج بالكهرباء. شعرت بغثيان طوال الليل، واستيقظت هذا الصباح وأنا أسأل نفسي: لم يراودني هذا الشعور بشأن عائلة روزنبرج، ولِمَ أشعر باليأس والإحباط فحسب بشأن تلفيق التهم في الدول الشيوعية؟ الإجابة تدعو إلى السخرية. أشعر بأني مسئولة عما يحدث في الغرب، لكن ليس قطعًا عما يحدث في هذه الدول.

ومع ذلك فأنا عضو في الحزب. قلت شيئًا كهذا لمولي، وأجابت بحدة وحذاقة بالغتين (كانت في منتصف مهمة تنظيم شاقة): «أعلم ذلك، لكني مشغولة.»

قال كاستلر شيئًا يعلق بذهني، وهو أن أي شيوعي في الغرب يظل في الحزب بعد تاريخ معين إنما يفعل ذلك على أساس أسطورة خاصة، أو قال شيئًا من هذا القبيل؛ لذا سألت نفسي: ترى ما أسطورتي الخاصة؟ في حين أن العديد من الانتقادات الموجهة للاتحاد السوفييتي صحيحة، لا بد من وجود مجموعة من الأفراد يتحينون الفرصة وينتظرون إرجاع الوضع الحالي إلى الاشتراكية الحقيقية. لم يسبق لي أن صغت الأمر في وضوح هكذا من قبل. بالطبع ليس هناك عضو في الحزب يمكنني أن أقول له ذلك، مع أن تلك طبيعة المناقشة التي أجريها مع أفراد الحزب السابقين. أيمكن أن أفترض أن جميع أعضاء الحزب لديهم أساطير خاصة يتعذر عليهم الإفصاح عنها، كل له أسطورة مختلفة، طرحت السؤال على مولي، فأردفت في حدة: «لم تقرئين لهذا الوغد كاستلر؟» كان هذا التعقيب بعيدًا تمامًا عن مستواها العادي في الحوار — سواء السياسي أو غير ذلك — أصبت بالذهول وحاولت مناقشة الأمر معها، ولكنها كانت مشغولة للغاية، وعندما تكون مشغولة بعمل تنظيمي (كانت تعد لمعرض كبير للفنون من أوروبا الشرقية)، تنكب عليه للغاية لدرجة تجعلها غير مهتمة بأي شيء آخر. كانت مولي تظهر في صورة أخرى تمامًا. خطر ببالي اليوم أني عندما أتحدث مع مولي حول القضايا السياسية، لا أدري مطلقًا أي شخصية ستجيب عليّ؛ المرأة السياسية التهكمية الحكيمة الجادة أم المتعصبة للحزب التي تبدو — بمعنى الكلمة — مجنونة تمامًا؟ وأنا نفسي أمتلك هاتين الشخصيتين. على سبيل المثال، قابلت المحرر ريكس في الشارع وكان هذا اللقاء في الأسبوع الماضي. بعد تبادل التحية رأيت نظرة انتقادية مشوبة بالضغينة تعلو وجهه، وعرفت أننا سنخوض جدالًا حول الحزب. أدركت أنه إن وجه نقدًا للحزب فسأدافع عنه، لم أتحمل سماعه لكونه بغيضًا أو لكوني حمقاء. لذا اعتذرت له وانصرفت. تكمن المشكلة — وهو ما لا تعرفه إلا عندما تنضم إلى الحزب — في أنك قريبًا لن تقابل أحدًا إلا الشيوعيين أو من كانوا شيوعيين ممن يعرفون كيف يتحدثون دون أن تطل من كلماتهم هذه الضغينة البغيضة، ومن ثَم يصبح المرء منعزلًا، وهذا هو السبب الذي يفرض عليّ مغادرة الحزب بالطبع.

ألاحظ أني كتبت بالأمس أني سأغادر الحزب. أتساءل متى، وعلى أي أساس؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تناولت طعام العشاء مع جون. نادرًا ما نلتقي، ونكون على شفا الدخول في خلاف سياسي دائمًا. في نهاية العشاء قال جون: «السبب الذي لا يجعلنا نغادر الحزب هو أننا لا نطيق أن نقول وداعًا للمثل العليا التي نؤمن بها من أجل عالم أفضل.» إنه كلام مبتذل للغاية، وهو مثير للانتباه لأن يدل ضمنًا على أنه يوقن — وأن عليه أن يوقن — أن الحزب الشيوعي يمكن أن يجعل العالم مكانًا أفضل. على الرغم من ذلك، فإن أحدنا لا يظن هذا الأمر، ولكن فوق هذا كله أذهلني هذا التعليق لأنه يناقض كل ما كان يقوله من قبل. (كنت أقول إن قضية براج ملفقة في وضوح تام، ويقول هو إنه على الرغم من ارتكاب الحزب «أخطاءً» فإنه لم يستطع أن يكون مولعًا بالانتقاد على نحو متعمد.) عدت إلى المنزل وأنا أفكر أنه في مكان ما في عقلي كانت تراودني رغبة في الكمال عندما انضممت إلى الحزب وفي وضع حد للأسلوب المجزأ المقسم غير المرضي الذي نحيا به. لكن الانضمام إلى الحزب زاد من الانقسام، ليس الانضمام إلى منظمة يكون كل معتقد فيها على الورق مخالفًا لأفكار المجتمع الذي نعيش فيه على أي حال، لكنه شيء أعمق من ذلك بكثير، أو على أي حال صعب حتى إنه يتعذر فهمه. حاولت التفكير في الأمر، وظل عقلي يسبح في الفراغ حتى أصبت بالارتباك والإنهاك. جاء مايكل — في وقت متأخر جدًّا — وأخبرته بما كنت أحاول التفكير فيه، فمايكل في نهاية الأمر طبيب نفسي. نظر إليَّ — نظرة جامدة وساخرة للغاية — وقال معلقًا: «عزيزتي آنا، النفس البشرية وهي تجلس في المطبخ أو في الفراش تكون معقدة بما يكفي ولا نفهم عنها أقل القليل. ومع ذلك فأنت تجلسين هنا يساورك القلق لأنك لا تستطيعين فهم النفس البشرية وسط ثورة عالمية.» وهكذا توقفت عن التفكير في الأمر، وكنت سعيدة لذلك، لكني مع ذلك شعرت بالذنب لأني سعدت إلى هذا الحد بتوقفي عن التفكير فيه.

ذهبت لزيارة برلين مع مايكل. كان يبحث عن أصدقاء قدامى، تفرقوا أثناء الحرب، وربما يكونون في أي مكان. «أتوقع أن يكونوا لقوا حتفهم.» قالها بنبرة صوته الجديدة التي كانت خافتة وممزوجة بحزم لا يمكن الشعور به. ظهر هذا الصوت منذ محاكمة براج. برلين الشرقية مكان مروع تسيطر عليه الوحشة والكآبة والدمار، ولكن علاوة على هذا المناخ، فإن الافتقار إلى الحرية يشبه سمًّا خفيًّا ينتشر على الدوام في كل مكان. وهذه الحادثة هي أكثر الأحداث أهمية: التقى مايكل مصادفة ببعض الأشخاص الذين كان يعرفهم قبل الحرب. رحبوا به في عداء حتى إن مايكل — الذي

اندفع للأمام للفت انتباههم — رأى نظرة العداء تعلو وجوههم وتراجع. حدث ذلك لأنهم عرفوا أنه كان صديقًا للرجال الذين شنقوا في براج — أو ثلاثة منهم — ولأنهم كانوا خونة فهذا يعني أنه خائن أيضًا. حاول مايكل — في هدوء ودماثة بالغين — أن يتحدث إليهم. كانوا يشبهون مجموعة من الكلاب أو الحيوانات وجوههم متجهة للخارج ويتدافع بعضهم بجوار بعض كملاذ من الشعور بالخوف. لم يحدث أن مررت بتجربة كهذه من قبل، ذلك الخوف والكراهية اللذان ظهرا على وجوههم. كانت من بينهم سيدة عيناها متقدتان من الغضب، وقالت: «ما الذي تفعله أيها الرفيق وأنت ترتدي هذه الحلة الثمينة؟» كان مايكل يرتدي الملابس العادية المتوفرة في الأسواق، لذا كان بالكاد ينفق شيئًا على هذا البند. قال: «ولكن يا إيرين إنها أرخص حلة يمكنني شراؤها في لندن.» سيطر الشعور بالارتياب على ملامحها، وألقت نظرة سريعة على رفاقها، ثم بدا عليها شيء من نشوة الانتصار. قالت: «لم جئت إلى هنا، ألكي تنشر سم الرأسمالية؟ نحن نعلم أنك ترتدي ملابس بالية وأنه ليس هناك سلع للمستهلك.» كان مايكل مذهولًا في البداية، ثم قال — بلهجة السخرية نفسها — إن لينين نفسه أدرك إمكانية أن مجتمعًا شيوعيًّا حديث التأسيس ربما يعاني نقصًا في سلع المستهلكين. ففي حين أن إنجلترا — «كما أظن أنك تعرفينها يا إيرين» — هي مجتمع رأسمالي صارم للغاية، فإن لديها الكثير من سلع المستهلكين. لوت إيرين قسمات وجهها من شدة الغضب، أو الكراهية، ثم استدارات فجأة وانطلقت، وذهب معها رفاقها. كان كل ما قاله مايكل: «كانت امرأة ذكية.» بعد ذلك تندر مايكل عليها وهو يبدو متعبًا ومكتئبًا. قال على سبيل المثال: «تخيلي يا آنا أن كل هؤلاء الشيوعيين البواسل لقوا حتفهم في سبيل تأسيس مجتمع تأتي فيه الرفيقة إيرين لتبصق عليّ لارتدائي حلة أفضل بقليل جدًّا من التي يمتلكها زوجها.»

توفي ستالين اليوم. جلست أنا ومولي في المطبخ ونحن نشعر بالانزعاج. ظللت أقول: «نحن نناقض أنفسنا. علينا أن نكون سعداء، فطوال شهور ونحن نقول إنه ينبغي أن يموت.» قالت: «لا أدري يا آنا، ربما لم يعرف قط بأمر الأعمال الوحشية التي كانت ترتكب.» ثم ضحكت وقالت: «السبب الحقيقي وراء شعورنا بالقلق هو أننا خائفون للغاية. والمساوئ التي نعرفها أفضل من غيرها.»

– حسنًا، لا يمكن أن تسوء الأمور عن ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولم لا؟ جميعنا يرى أن الأمور ستتغير إلى الأفضل. لم يفترض ذلك؟ في بعض الأحيان أشعر بأننا نتحرك باتجاه عصر جليدي جديد من الاستبداد والهلع، ولم لا؟ من الذي سيوقفه، نحن؟!

عندما جاء مايكل أخبرته بما قالت مولي، بشأن جهل ستالين بما كان يحدث؛ لأني فكرت في مدى غرابة أنه كانت لدينا جميعًا تلك الرغبة في هذا الرجل العظيم وأننا نصبناه حكمًا لنا مرارًا وتكرارًا على الرغم من كل الأدلة التي أمامنا. بدا مايكل متعبًا ومتجهمًا. ومما أثار دهشتي أنه قال: «حسنًا، ربما يكون الأمر صحيحًا، أليس كذلك؟ تلك هي النقطة الأساسية، فأي شيء ربما يكون صحيحًا في أي وقت، وما من طريقة قط لمعرفة الحقيقة بالفعل عن أي شيء. أي شيء ممكن، كل شيء يتسم بالجنون، وأي شيء على الإطلاق ممكن.»

بدا وجهه واهنًا ومحمرًا وهو يقول ذلك، وخلا صوته من العاطفة، كعادته في هذه الأيام. بعد ذلك قال: «حسنًا، نحن سعداء لأنه توفي. لكن عندما كنت صغيرًا وناشطًا سياسيًّا كان رجلًا عظيمًا في نظري. كان رجلًا عظيمًا في نظرنا جميعًا.» ثم حاول أن يضحك وقال: «في النهاية ليست الرغبة في وجود رجال عظماء في العالم خطأً في حد ذاتها.» ثم وضع يده فوق عينيه محاولًا إخفاء عينيه كأن الضوء يؤذيهما، وقال: «إني أشعر بالصداع، لنخلد إلى النوم.» في الفراش لم يتودد أحدنا للآخر، واستلقينا جنبًا إلى جنب في هدوء ولم نتحدث. كان يبكي في نومه، وكان علي أن أوقظه من حلم مزعج.

تجرى الانتخابات الفرعية في شمال لندن، وتضم القائمة مرشحين من الحزب المحافظ وحزب العمال والحزب الشيوعي، ثمة مقعد واحد لحزب العمال، ولكن بأغلبية منخفضة عن الانتخابات السابقة. وكالمعتاد تدور نقاشات مطولة داخل دوائر الحزب الشيوعي عن جواز تقسيم صوت حزب العمال، وشاركت في العديد منها، فهذه المناقشات يغلب عليها طابع واحد: كلا، لا نود تقسيم الصوت؛ فمن الضروري أن يشارك حزب العمال، بدلًا من أحد المحافظين. لكن على الجانب الآخر إذا كنا نؤمن بسياسية الحزب الشيوعي، فعلينا محاولة جعل مرشحنا يخوض الانتخابات. لكننا نعلم أنه لا أمل في اشتراك أحد مرشحي الحزب الشيوعي. سيظل هذا المأزق قائمًا حتى يأتي مبعوث من المركز ليقول إنه من الخطأ النظر إلى الحزب الشيوعي كجماعة تستقطب الآخرين، وإنها ليست إلا روحًا انهزامية، وعلينا أن

نخوض الانتخابات كما لو كنا على يقين بأننا سنفوز بها. (لكننا نعلم أننا لن نفوز بها). لذا فإنه على الرغم من أن الخطاب النضالي الذي ألقاه مبعوث المركز يحض الجميع على الكد في العمل، فإنه لم يضع حلًّا للمأزق الأساسي. في المرات الثلاث التي شاهدت فيها حدوث ذلك، كانت الشكوك والاضطرابات تحل بواسطة مزحة. نعم، تلك المزحة مهمة للغاية في عالم السياسة. تلك المزحة أطلقت من الرجل المبعوث من المركز نفسه: كل شيء على ما يرام أيها الرفاق، سوف نخسر وديعتنا، ولن نفوز بعدد من الأصوات يكفي لتقسيم أصوات حزب العمال. تصدر ضحكة تنم عن راحة البال، ثم ينفض الاجتماع. في واقع الأمر تلخص تلك المزحة — التي تناقض كل ما هو متبع في السياسة الرسمية تمامًا — شعور الجميع. كنت أذهب التماسًا لأصوات الناخبين في الثالثة عصر كل يوم. نُظمت حملة في المقر الرئيسي في منزل رفيق يعيش في المنطقة. نظم الحملة المؤثر دومًا بيل الذي يعيش في الدائرة الانتخابية. حضرت اثنتا عشرة امرأة أو نحو ذلك، فليس لديهن ما يشغلهن عن التماس أصوات الناخبين عصر كل يوم، ويأتي الرجال ليلًا. كان الجميع يعرف بعضهن بعضًا، ووجدت الجو العام رائعًا للغاية؛ فهؤلاء أناس يعملون معًا لتحقيق غاية مشتركة. وبفضل المنظم الرائع بيل جرى التخطيط لكل شيء في دقة تامة. تناولنا الشاي، ودارت بيننا مناقشات حول ما كانت عليه الأمور قبل خروجنا لالتماس أصوات الناخبين. إنها منطقة يسكنها أفراد الطبقة العاملة. قالت إحدى السيدات في فخر: «ثمة دعم قوي للحزب في هذه المنطقة.» أُعطيت أربعًا وعشرين بطاقة تضم أسماء أشخاص جرى التماس أصواتهم بالفعل وأمامهم علامة تفيد بأنهم «مترددون». كان علي مقابلتهم مرة أخرى وإقناعهم بالتصويت للحزب الشيوعي. وبينما أهم بمغادرة المقر الرئيسي للحملة دارت مناقشة حول الطريقة المناسبة في ارتداء الملابس عند الذهاب لالتماس أصوات الناخبين، فمعظم النساء المشاركات في الحملة يرتدين ملابس أفضل من النساء في هذه المنطقة. قالت إحداهن: «لا أظن أنه من الملائم أن نرتدي ملابس مختلفة عن المعتاد، فهذا نوع من الخداع.»

– لكنك إذا قرعت بابهن وأنت مبالغة في أناقتك فسيتخذن موقفًا هجوميًّا.

قال الرفيق بيل — الذي كان مرحًا ودمث الخلق، نفس دماثة الخلق المفعمة بالحيوية التي تميز مولي عندما تكون منهمكة في مهمة حافلة بالتفاصيل: «المهم هو الحصول على نتائج إيجابية.» قرعته المرأتان واصفتين إياه بأنه مخادع: «اعتدنا على التحلي بالأمانة في كل شيء نفعله، وإلا فلن يودعن ثقتهن فينا.» كانت الأسماء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي أُعطيت لأشخاص متفرقين عبر منطقة واسعة من شوارع الطبقة العاملة، وهي منطقة قبيحة للغاية بمنازلها المتماثلة الصغيرة الفقيرة، على بعد نصف ميل محطة تملأ الأرجاء بدخان كثيف. للمنزل الأول باب متصدع باهت اللون، هناك قابلت السيدة سي التي كانت ترتدي ثوبًا من الصوف البالي ومئزرًا ويبدو عليها الإنهاك. لديها ولدان صغيران حَسَنا المظهر ومعتنى بهما جيدًا. أخبرتها أني من الحزب الشيوعي، فأومأت برأسها. قلت لها: «أعلم أنك مترددة في تصويتك لنا.» قالت: «لست ضدكم.» لم تكن المرأة معادية، بل كيِّسة. قالت: «المرأة التي أتت الأسبوع الماضي تركت كتابًا.» (تقصد منشورًا.) في النهاية قالت: «لكننا نصوت دائمًا لحزب العمال يا عزيزتي.» وضعت علامة على البطاقة أمام «حزب العمال» وشطبت «متردد» وواصلت طريقي. المنزل الثاني لأسرة قبرصية، وأكثر فقرًا وبه شاب بدا مهمومًا وفتاة سوداء ورضيع حديث الولادة، خلا المنزل من الأثاث تقريبًا، الأسرة قادمة حديثًا إلى إنجلترا، اتضح أن النقطة التي كانوا «مترددين» بشأنها هي هل لهم الحق في الإدلاء بأصواتهم من الأساس، أوضحت لهم أن لهم الحق في ذلك، كان الاثنان سهلي المراس للغاية، لكنهما أرادا أن أغادر، فالرضيع يبكي والجو العام مشحون بالقلق والتوتر. قال الرجل إنه لا يمانع في التصويت للشيوعيين، لكنه لا يحب الروس. راودني شعور بأنهم لن يزعجوا أنفسهم بالتصويت، لكني تركت كلمة «متردد» على البطاقة واتجهت إلى المنزل التالي، إنه منزل معتنى به جيدًا، مع وجود حشد من الشباب المتمرد بالخارج. انطلقت صافرات وتعليقات الإعجاب حالما وصلت. تسببت في إزعاج ربة المنزل التي كانت حبلى ومستلقية. قبل أن تسمح لي بالدخول، أبدت تذمرها من ولدها لأنها أرادت منه أن يذهب للتسوق لها، ورد الولد بأنه سيذهب فيما بعد، كان صبيًّا جذابًا قويًّا حسن المظهر يبلغ من العمر ستة عشر عامًا أو نحو ذلك — جميع الأطفال في المنطقة كانوا حسني المظهر، حتى وإن لم يكن آباؤهم كذلك. قالت المرأة لي: «ماذا تريدين؟» قلت لها: «أنا من الحزب الشيوعي.» وأوضحت سبب زيارتي. قالت: «نعم، جاءنا أحد من طرفكم من قبل.» كانت المرأة مهذبة، لكنها كانت غير مبالية. بعد مناقشة كان من الصعب خلالها أن أجعلها تبدي موافقتها أو اعتراضها على أي شيء، قالت إن زوجها اعتاد دائمًا على التصويت لحزب العمال، وإنها تنفذ ما يقوله زوجها. وأنا أغادر صاحت المرأة في ابنها، لكنه تحرك في بطء بعيدًا مع مجموعة من أصدقائه وهو يقطب جبينه، فصرخت فيه مرة أخرى. لكن هذا المشهد يوحي بشيء من سلامة النية: فهي لا تتوقع

حقًّا أن يذهب ابنها للتسوق بدلًا منها، لكنها تصيح فيه على أنها مسألة مبدأ، في حين أنه يتوقع منها أن تصيح فيه، ولا يبالي بذلك حقًّا. في المنزل التالي قدمت المرأة في الحال وفي حماس كوبًا من الشاي، وقالت إنها تحب الانتخابات «دائمًا يأتي أفراد للحديث معنا.» باختصار، هذه المرأة وحيدة، تحدثت كثيرًا عن مشاكلها الشخصية بنبرة متراخية متوانية مشحونة بالضيق. (من بين المنازل التي زرتها كان هذا هو المنزل الذي بدا لي أنه يضم مشكلة ومأساة فعلية.) قالت إن لديها ثلاثة أطفال صغار وإنها تشعر بالسأم وتريد العودة إلى عملها لكن زوجها لن يدعها تفعل ذلك. تحدثت المرأة كثيرًا — باستغراق — ظللت هناك ما يقرب من الثلاث ساعات دون أن أستطيع المغادرة. عندما سألتها أخيرًا هل ستصوت للحزب الشيوعي، قالت: «نعم، إن كنت تودين يا عزيزتي.» وهو ما أظن أنها قالته لكل جامعي أصوات الناخبين الآخرين، أضافت إن زوجها دائمًا يصوت لحزب العمال. استبدلت كلمة «متردد» بكلمة «حزب العمال» وواصلت طريقي. عدت في نحو الساعة العاشرة من هذه الليلة بجميع البطاقات عدا ثلاثة منها تغيرت إلى «حزب العمال» وسلمتها إلى الرفيق بيل، ثم قلت: «لدينا بعض المتجولين التماسًا للأصوات يتحلون بالتفاؤل إلى حد ما.» تفحص بيل البطاقات سريعًا دون إبداء تعليق وأعادها إلى صناديقها، ثم عقب بصوت مرتفع قاصدًا إسماع جامعي الأصوات الآخرين: «سياستنا تلقى تأييدًا حقيقيًّا، سوف يخوض مرشحنا الانتخابات في نهاية الأمر.» ذهبت لجمع أصوات الناخبين عصر ثلاثة أيام في المجمل، لم يكن أصحاب المنازل التي ذهبت إليها في اليومين الآخرين «مترددين» بل كانت تلك زيارتي الأولى لهذه المنازل. وجدت اثنين من ناخبي الحزب الشيوعي، كلاهما أعضاء في الحزب، والبقية تتبع حزب العمال. كان الغضب ينتاب خمس نساء وحيدات دون مبرر، على الرغم من وجود الزوج والأطفال أو بالأحرى بسببهم، عدم الثقة في النفس هي السمة التي تميزهن جميعًا، ثمة شعور بالذنب لأنهن لسن سعداء، والعبارة التي استخدمنها جميعًا: «لا بد من وجود مشكلة فيّ.» عدت إلى المقر الرئيسي للحملة، وأخبرت المرأة المسئولة عن وقت الظهيرة بأمر هؤلاء السيدات، قالت: «نعم، كلما ذهبت لجمع الأصوات واجهت تلك العصبية المفرطة، فهذا البلد مأهول بالنساء اللاتي يشعرن بالغضب دون مبرر.» توقفت برهة، ثم أضافت — في عدوانية طفيفة — الجانب الآخر من عدم الثقة بالنفس؛ ذلك الشعور بالذنب الذي أظهرته النساء اللاتي تحدثت إليهن: «حسنًا، اعتدت أن أكون هكذا حتى التحقت بالحزب وأصبحت لي قيمة في الحياة.» كنت أفكر في هذا الأمر،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحقيقة أن هؤلاء النساء يثرن اهتمامي أكثر من الحملة الانتخابية نفسها. حان يوم الانتخابات، وخاضها حزب العمال بأغلبية ضئيلة. خسر المرشح الشيوعي الوديعة. إنها مزحة، (في المقر الرئيسي للحملة قال المازح، الرفيق بيل: «إذا حصلنا على ألفي صوت آخرين لأصبحت أغلبية حزب العمال في موقف عصيب. ورُبَّ ضارة نافعة.»)

جين باركر؛ زوجة مسئول صغير في الحزب، تبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا، قصيرة سوداء ممتلئة الجسم، تفتقر إلى الجمال شيئًا ما، يعاملها زوجها باعتبارها ساذجة، تعلو وجهها دائمًا نظرة من الطيبة الممزوجة بالفضول والتوتر، تمر على المنازل لتحصيل رسوم الانضمام للحزب، ثرثارة بالفطرة، لا تتوقف عن الكلام مطلقًا، لكنها من أكثر أنواع الثرثارين إثارة للدهشة، فهي لا تعرف ما ستنطق به حتى يخرج من بين شفتيها، ولذا يحمر وجهها خجلًا دائمًا ثم تذكر ما كانت تعنيه تحديدًا أو تضحك في عصبية، وربما تتوقف في منتصف الجملة وقد قطبت جبينها في ارتباك كأنها تقول: «بالتأكيد، لا أقصد ذلك؟» لذلك تبدو وهي تتحدث كأنها تنصت لحديث آخر. بدأت كتابة رواية وقالت إنه لم يتوفر لديها الوقت لإنهائها. لم أقابل من قبل أحدًا من أعضاء الحزب — في أي مكان — إلا وكتب أو لا يزال يكتب أو ينوي كتابة رواية أو قصة قصيرة أو مسرحية. أرى هذا الأمر واقعًا عجيبًا مع أني لا أفهمه. وبسبب عجزها عن التحكم فيما يصدر عنها من كلام — الأمر الذي يصدم الآخرين، أو يُضحكهم — فإنها تتقمص دور المهرج أو الفَكِه الحاصل على رخصة بذلك. إنها لا تملك حس دعابة على الإطلاق، لكنها عندما تسمع تعليقًا ما، فإنها تتظاهر بالدهشة؛ فهي تدرك من واقع خبرتها أن الآخرين سيضحكون أو يرتبكون، لذا فإنها تضحك في عصبية يشوبها الارتباك. لدى جين ثلاثة أطفال تُعَوِّل هي وزوجها عليهم الكثير من الآمال، ويستحثونهم على النجاح في دراستهم حتى يتمكنوا من الحصول على منح دراسية. يتميز هؤلاء الأطفال بأنهم شديدو الإطلاع على سياسة الحزب وطبيعة الظروف في روسيا، إلخ، وعند الحديث مع الغرباء فإنهم يتخذون هيئة دفاعية انطوائية لعلمهم بأنهم أقلية، أما مع الشيوعيين فإنهم يميلون إلى استعراض معرفتهم عن الحزب، ويراقبهم آباؤهم في فخر.

تعمل جين مديرة لمقصف لساعات طويلة، وتولي بيتها وأطفالها ونفسها اهتمامًا كبيرًا، وتعمل أيضًا سكرتيرة لدى فرع الحزب المحلي. لا تشعر بالرضا عن نفسها: «أنا لا أبذل قصارى جهدي، أعني أن الحزب لا يكفي، لقد سئمت ذلك، لا شيء غير

الأعمال المكتبية، كأنها مصلحة حكومية، الأمر لا يعني شيئًا ...» ضحكة متوترة «... يقول جورج ...» (زوجها) «... إن هذا السلوك يجانبه الصواب، ولكن لا أفهم لمَ يتعين أن أخضع دائمًا. أعني أنهم كثيرًا ما يكونون مخطئين، أليس كذلك؟ ...» ضحكة «... قررت أن أفعل شيئًا جديرًا بالاهتمام على سبيل التغيير ...» ضحكة «أعني شيئًا مختلفًا، ففي النهاية حتى الرفاق البارزون يتحدثون عن المذهبية، أليس كذلك ... حسنًا، بالطبع لا بد أن يكون الرفاق البارزون أول من يقول ذلك ...» ضحكة «مع أن ذلك الأمر لن يحدث كما يبدو ... على كل حال قررت أن أفعل شيئًا مفيدًا من أجل التغيير ...» ضحكة «أقصد شيئًا مختلفًا، الآن أعلِّم الأطفال متبلدي الذهن عصر السبت من كل أسبوع. كنت أعمل مدرسة من قبل كما تعرفين. إنني أدربهم. كلا، إنهم ليسوا أبناءً لأعضاء الحزب، هم أطفال عاديون ...» ضحكة «عددهم خمسة عشر طفلًا، إنه عمل شاق. يقول جورج إنه من الأفضل أن أشغل نفسي باستقطاب أعضاء الحزب، لكني أردت القيام بشيء مفيد حقًّا ...» وأشياء أخرى من هذا القبيل. يتألف الحزب الشيوعي إلى حد بعيد من أعضاء لا يهتمون بالقضايا السياسية على الإطلاق، بل لديهم رغبة قوية في خدمة الآخرين، وهناك من الأعضاء من هم وحيدون، والحزب لهم بمنزلة العائلة، ومن أمثال هؤلاء الشاعر بول الذي شرب حتى الثمالة الأسبوع الماضي وقال إنه يشعر بالغثيان والاشمئزاز من الحزب، ولكنه انضم إليه عام ١٩٣٥، وتركه له يعني تخليه عن «حياته كاملة».

[اتخذ الدفتر الأصفر شكل مخطوطة رواية لأنه كان يسمى «ظل الأخرى»، وقطعًا بدأ الدفتر كرواية:]

جاء صوت جوليا عاليًا فوق السلم: «إيلا، ألست ذاهبة إلى الحفل؟ هل ستستخدمين الحمام؟ سأدخل إذا لم تكوني في حاجة إليه.» لم تجب إيلا؛ السبب الأول: أنها تجلس على فراش ابنها تنتظره حتى ينام. والسبب الثاني: أنها اتخذت قرارًا بألا تذهب إلى الحفل ولا تود الدخول في جدال مع جوليا. بعد قليل قامت إيلا في حذر عن الفراش ولكن مايكل استيقظ على الفور وقال: «أي حفل؟ هل ستذهبين؟» قالت: «كلَّا، هيا اخلد إلى النوم.» أغمض عينيه وظلت أهدابه تتحرك برهة ثم توقفت. مايكل يبلغ أربعة أعوام وبدا في نومه جادًّا قوي البنيان حازمًا، في الضوء الخافت لمع شعره الرملي وأهدابه وحتى الشعيرات الدقيقة على ساعده المكشوف بلون ذهبي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبشرته ذات اللون البني تلمع قليلًا بفعل حرارة الصيف. أطفأت إيلا الأنوار في هدوء ثم توقفت، وذهبت إلى الباب ثم توقفت، وخرجت في هدوء ثم توقفت. لم تسمع صوتًا. صعدت جوليا السلم في خفة وهي تتساءل بصوتها المرتجل المرح «حسنًا، هل ستذهبين؟»

– صَهِ، نام مايكل لتوه.

خفضت جوليا صوتها وقالت: «اذهبي للاستحمام الآن، أود أن أنعم بالهدوء عندما تذهبين.» قالت إيلا وقد انفعلت قليلًا: «ولكني قلت إني لن أذهب.»

قالت جوليا وهي تتجه إلى الغرفة الكبيرة في الشقة: «ولِمَ لا؟» توجد غرفتان ومطبخ جميعها صغيرة إلى حد ما ومنخفضة السقف لأنها تقع أسفل سطح المبنى مباشرةً، هذا منزل جوليا، وإيلا تعيش مع ابنها مايكل في هذه الغرف الثلاث. تحتوي الغرفة الكبيرة على سرير مثبت داخل فجوة بالجدار وكتب وبعض الصحف، الغرفة لامعة ومضيئة — أكثر من المعتاد — أو تبعث على الشعور بالملل. لم تحاول إيلا أن تفرض ذوقها على المكان، فبعض الموانع اعترضتها: فهذا منزل جوليا وأثاث جوليا، ربما تضع لمستها في مكان ما في المستقبل، شعرت بشيء كهذا، لكنها مستمتعة بحياتها هنا ولا تخطط للرحيل. ذهبت إيلا خلف جوليا وقالت: «لا أشعر بالرغبة في ذلك.»

– لم تشعري بالرغبة في ذلك قط.

كانت جوليا تجلس القرفصاء على كرسي حجمه كبير للغاية مقارنة بحجم الغرفة، وتدخن. جوليا ممثلة يهودية ممتلئة الجسم ومفعمة بالحيوية. لم تحسب جوليا حسابًا قط لكونها ممثلة، فقد أدت أدوارًا صغيرة بكفاءة، وتبدي تذمرها من أن هذه الأدوار نوعان: إما «كوميدية مبتذلة تخاطب طبقة العمال» أو «تراجيدية مبتذلة تخاطب طبقة العمال». بدأت العمل لدى التليفزيون، وهي مستاءة من نفسها إلى حد بالغ. عندما قالت: «لم تشعري بالرغبة في ذلك قط.» كان هذا شكوى تذمر ضد إيلا وضد نفسها. تشعر دائمًا بالرغبة في الخروج، وليس بمقدورها أبدًا رفض دعوة تقدم إليها. قالت إنه حتى مع ازدرائها لبعض الأدوار التي تؤديها وبغضها للمسرحية وتمنيها أن لو لم تكن لها علاقة بها، فإنها تستمتع بما أطلقت عليه «التباهي بنفسها هنا وهناك»؛ إنها مولعة بأداء البروفات والتسوق من أجل شراء احتياجات المسرح والأحاديث القصيرة والحقد.

تعمل إيلا في إحدى المجلات النسائية، وعلى مدار ثلاث سنوات كتبت مقالات عن الملابس ومستحضرات التجميل وأخرى عن كيفية استمالة الرجال والحفاظ عليهم، وتكن مشاعر البغض لهذا العمل. لم تكن بارعة في القيام بذلك. ربما تعرضت للطرد من العمل لولا أنها صديقة لرئيسة التحرير. بدأت إيلا منذ وقت قريب تقوم بعمل أحبته حبًّا كبيرًا؛ بدأت المجلة تنشر عمودًا طبيًّا يقوم أحد الأطباء على كتابته، ولكن ترد كل أسبوع عدة مئات من الخطابات ونصفها لم يكن له علاقة بالطب، بل ذات طبيعة شخصية ولا بد من الرد عليها سرًا، تولت إيلا مهمة الرد على هذه الخطابات. وكتبت ست قصص قصيرة وصفتها على سبيل الهجاء بأنها «حساسة وأنثوية» وقالت عنها هي وجوليا إنها من أنواع القصص التي تبغضها كثيرًا، وكتبت أيضًا جزءًا من رواية. وفي إيجاز، لا يوجد سبب ظاهر يجعل جوليا تحسد إيلا، لكنها فعلت.

الحفلة الليلة في منزل الطبيب الذي تعمل إيلا معه، والمنزل بعيد في شمال لندن، كانت إيلا متكاسلة، والانتقال من مكان لآخر يمثل دائمًا عبئًا عليها، وإذا لم تذهب جوليا وراءها لكانت في فراشها الآن تقرأ شيئًا.

قالت جوليا: «قلت إنك تودين الزواج، لكن كيف يتسنى لك ذلك إن لم تقابلي أحدًا على الإطلاق.»

قالت إيلا في غضب مفاجئ: «ذلك الأمر هو ما لا أطيقه. أنا معروضة للبيع مجددًا، لذا يجدر بي الذهاب إلى الحفلات.»

– التفكير على هذا النحو لن يجدي نفعًا، هكذا تسير جميع الأمور، أليس كذلك؟

– أفترض ذلك.

جلست إيلا — ولديها رغبة في رحيل جوليا — على حافة الفراش (الذي تحول في هذه اللحظة إلى أريكة مغطاة بمادة منسوجة ذات لون أخضر فاتح) وبدأت تدخن معها. تخيلت أنها تخفي ما تشعر به، ولكنها في الواقع عابسة وقلقة. قالت جوليا: «على الرغم من كل شيء، أنت لا تقابلين سوى أولئك المتصنعين البغيضين في مكتبك» ثم أضافت: «علاوةً على أن حكمك كان مطلقًا الأسبوع الماضي.»

ضحكت إيلا فجأة، وبعد دقيقة ضحكت جوليا معها، وشعرتا فجأة بالمودة إحداهن تجاه الأخرى.

لامس تعليق جوليا الأخير وترًا حساسًا، فكلتاهما تشعر أنها امرأة عادية للغاية، بل تقليدية، أو على الأحرى، امرأة ردود أفعالها عاطفية تقليدية. وحقيقة أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حياتهما بدا أنها لن تسير أبدًا على الدرب المعتاد ترجع إلى — هكذا شعرتا، أو ربما قالتا — أنهما لم تقابلا رجالًا قادرين على رؤية حقيقتهما قط. تنظر النساء إليهما بمزيج من الحسد والحقد، أما الرجال فينظرون إليهما بمشاعر مبتذلة تشعرهما بالكآبة. كان أصدقاؤهما ينظرون إليهما على أنهما امرأتان احتقرتا الفنائية في إيجابية. جوليا الوحيدة التي ستصدق إيلا إن قالت إنها طوال الفترة التي انتظرت فيها طلاقها قد حرصت على تحجيم مشاعرها — أو بالأحرى حجمت مشاعرها نفسها — تجاه أي رجل يبدي إعجابًا بها، إيلا حرة الآن، تزوج زوجها السابق في اليوم الذي تلا إنهاء إجراءات الطلاق. لم تكن إيلا مبالية بهذا الأمر، فقد كان زواجًا بائسًا؛ غير أنه لم يكن أسوأ من الكثير من علاقات الزواج، لكن وقتها ربما شعرت إيلا بأنها ستكون خائنة لنفسها لو استمرت في زواج ترى أنها تتعرض فيه للمساومة. ردد الغرباء أن جورج — زوج إيلا — تركها من أجل امرأة أخرى، وإيلا تستاء من شعور الآخرين بالشفقة عليها فيما يتعلق بهذا الموقف، لكنها لم تفعل شيئًا يعيد الأمور إلى نصابها بسبب جميع صور الأَنَفة المعقدة، علاوةً على ذلك، ما أهمية ما يظنه الآخرون؟

حظيت إيلا بطفلها واحترامها لذاتها ومستقبلها. لم تستطع أن تتخيل هذا المستقبل دون وجود رجل في حياتها. ومن ثم — وبالطبع توافق على أن جوليا محقة بشأن كونها عملية جدًا — كان عليها الذهاب إلى الحفلات وقبول الدعوات، بدلًا من ذلك تنام إيلا كثيرًا وتشعر بالاكتئاب.

– علاوة على ما سبق، إذا ذَهَبْتُ إلى الحفلة فسيكون عليّ الدخول في جدال مع الدكتور ويست، وهذا لا يفيد. تعني إيلا أنها تظن أن الدكتور ويست يحجم من مدى فائدته ليس بسبب الافتقار إلى الاجتهاد بل بسبب نقص الخيال، فأي سؤال لا يتمكن من الإجابة عليه بنصيحة تتعلق بالمستشفى أو الدواء أو العلاج المناسب يحيله إلى إيلا.

– أنا أعرف أنهم بغيضون تمامًا. بقولها «هم» تعني عالم المسئولين والبيروقراطيين وأي شخص في مكتبه، فكلمة «هم» في نظر جوليا تعني الطبقة المتوسطة، كانت جوليا شيوعية مع أنها لم تنضم إلى الحزب قط، وكان والداها من الطبقة العاملة.

قالت إيلا في انفعال وهي تسحب ورقة زرقاء مطوية من حقيبة يدها: «انظري إلى هذا.» كان خطابًا — على ورق كتابة رخيص — ورد به: «عزيزي دكتور أولسوب،

أشعر أنه يتحتم أن أكتب إليك وسط ما أشعر به من يأس. أصبت بالروماتيزم في رقبتي ورأسي، وأنت تتفضل بتقديم النصح في عمودك لغيري ممن يعانون. من فضلك أرغب في النصيحة؛ بدأت إصابتي بالروماتيزم عندما توفي زوجي في التاسع من شهر مارس/آذار عام ١٩٥٠ الساعة الثالثة عصرًا داخل المستشفى. الآن يتملكني شعور بالخوف لأني أعيش وحيدة في شقتي، ما الذي يحدث إن هاجم الروماتيزم جسدي كله ولم أستطع التحرك حينئذٍ لطلب المساعدة؟ أتطلع إلى الحصول على اهتمامك الكريم، المخلصة السيدة دوروثي براون.»

– وماذا قال؟

– قال إنه معني بكتابة عمود طبي لا بإدارة عيادة خارجية لمرضى الاضطراب العصبي.

قالت جوليا التي قابلت دكتور ويست مرة واحدة واعتبرته عدوًّا من النظرة الأولى: «رد متوقع من شخص مثله.»

– هناك مئات وآلاف الأشخاص — في كل مكان في الدولة — يستشيطون غضبًا من البؤس ولا أحد يهتم لأمرهم.

قالت جوليا: «لا أحد يهتم البتة.» أطفأت سيجارتها ثم قالت — وبدا أنها تخلت عن صراعها من أجل إقناع إيلا بالذهاب إلى الحفل — «سوف أذهب لأستحم.» ثم نزلت الطابق الأسفل وهي تغني بصوت صاخب مرح.

لم تتحرك إيلا في الحال، فهي تفكر: إذا ذهبت، فسيكون علي كيُّ شيء لأرتديه. كادت أن تنهض وتبحث وسط ملابسها عما سترتديه، لكنها قطبت جبينها وفكرت: إذا كنت أفكر فيما سأرتديه فهذا يعني أني أود الذهاب بالفعل، يا له من أمر غريب. ربما تكون لدي الرغبة في الذهاب؟ في النهاية، أقوم بذلك دائمًا، أقول إني لن أفعل هذا الشيء، ثم أغير رأيي. أهم ما في الأمر أن عقلي على الأرجح يكون قد اتخذ قرارًا، ولكن أي قرار هذا؟ أنا لا أغير رأيي. فجأة أجدني أفعل شيئًا قلت إني لن أفعله. نعم، والآن ليست لدي فكرة على الإطلاق عن القرار الذي اتخذته.

بعد بضع دقائق ركزت فكرها في روايتها التي أنهت نصفها، موضوع هذه الرواية عن الانتحار؛ وفاة شاب لم يعرف أنه مقدم على الانتحار حتى لحظة الوفاة عندما أدرك أنه يخطط للأمر في الواقع — وبالتفصيل الشديد — منذ شهور. ربما تكون الفكرة الرئيسية في الرواية هي التناقض بين المظهر الخارجي لحياته — التي كانت منظمة ومخططة ولكن ينقصها هدف بعيد المدى — والباعث المضمر الذي له

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صلة بالانتحار والذي ربما أدى إلى الانتحار. كانت جميع خططه المستقبلية غامضة ومستحيلة، على النقيض من حياته الحالية التي تميزها العملية الشديدة؛ فالمشاعر الكامنة من اليأس أو الجنون أو اللامنطقية ربما تؤدي إلى — أو بالأحرى تنبع من — الخيالات المستحيلة للمستقبل البعيد. لذلك فإن ترابط الأحداث الحقيقي في الرواية ربما يتمثل في أساس اليأس الذي يمكن ملاحظته في صعوبة من البداية وكذلك في ظهور النية المجهولة لمحاولة الانتحار. وربما تكون لحظة الموت أيضًا هي تلك اللحظة التي يُفهم فيها أن الاستمرارية الحقيقية لحياته، ليست استمرارية الترتيب أو النظام أو العملية أو حسن التمييز، وإنما استمرارية الوهم. ربما يُفهم في لحظة الموت أن العلاقة بين الرغبة الدفينة في الموت وبين الموت نفسه كانت الخيالات المجنونة الجامحة لحياة جميلة، وأن حسن التمييز والترتيب لم يمثلا علامات على سلامة العقل (كما بدا قبل ذلك في القصة) بل كانا من دلالات الجنون.

راودت فكرة هذه الرواية آنا في اللحظة التي وجدت نفسها ترتدي ملابسها للخروج من أجل تناول العشاء مع بعض الأشخاص بعدما أخبرت نفسها أنها لا تود الخروج. قالت لنفسها وهي مندهشة إلى حد ما من هذه الفكرة: يمكن أن أنتحر على هذا النحو تمامًا. ربما أجد نفسي على وشك القفز من نافذة مفتوحة أو أفتح الغاز في حجرة صغيرة مغلقة، وربما أقول لنفسي دون أي انفعال، بل بالأحرى بحس الإدراك المفاجئ لشيء كان ينبغي أن أدركه طويلًا من قبل: «يا إلهي! هذا إذن ما كنت أنوي فعله. هذا ما أفكر فيه طوال الوقت!» ثم أتعجب كيف أن كثيرًا من الناس يقدمون على الانتحار على هذا النحو تمامًا؟ دائمًا يُفسر ذلك على أنه حالة نفسية بائسة أو فترة عصيبة. لكن ينبغي أن يحدث الأمر هكذا لدى الكثيرين، فهؤلاء يجدون أنهم يرتبون أوراقهم، ويكتبون خطابات وداع، وربما يهاتفون أصدقاءهم مهاتفة ودودة مرحة يكاد يراودهم شعور بالفضول ... لا بد أنهم يجدون أنفسهم يضعون أكوامًا من الصحف أسفل الباب أو على حواف النوافذ في هدوء وكفاءة تامين قائلين لأنفسهم وهم يشعرون بالتحرر التام: حسنًا، حسنًا! يا له من أمر ممتع للغاية. يا له من أمر غريب أني لم أدرك أي شيء مما كان يدور من بين هذا كله قبل ذلك!

وجدت إيلا أن هذه الرواية صعبة، ليس لأسباب فنية. على العكس، استطاعت أن تتخيل الشاب في وضوح شديد: أدركت كيف يعيش وكيف هي عاداته، يبدو الأمر كما لو أن القصة مكتوبة بالفعل في مكان ما بداخلها، وأنها تنسخها، المشكلة

تكمن في شعورها بالخجل من الرواية. لم تخبر جوليا عنها، إنها تعرف أن صديقتها ستقول شيئًا كهذا: «هذا الموضوع سلبي للغاية، أليس كذلك؟» أو ربما تقول: «تلك الرواية لن تجعل الطريق إلى الأمام أكثر وضوحًا ...» أو أي رأي آخر من مجموع الآراء التي يتسلح بها الشيوعيون حاليًّا. اعتادت إيلا أن تسخر من جوليا بسبب هذه العبارات، ولكن في أعماق قلبها يبدو أنها تتفق معها، لأنها لم تر فائدة في قراءة أي شخص لرواية من هذا النوع، لكنها تكتب الرواية. وبجانب دهشتها وخجلها من موضوع الرواية تشعر بالخوف في بعض الأحيان، فيجول بخاطرها: ربما اتخذت قرارًا سريًّا بالانتحار دون أن أعرف عنه شيئًا؟ (لكنها لم ترَ صحة ذلك.) واستمرت في كتابة الرواية، وهي تتذرع بأعذار مثل: «حسنًا، ليس هناك داع لنشرها، سوف أكتبها لنفسي فحسب.» وعندما تتحدث عنها مع أصدقائها تقول مازحة: «لكن جميع من أعرفهم يكتبون رواية.» وهو ما كان صحيحًا تقريبًا. في واقع الأمر موقفها تجاه هذا العمل مشابه تمامًا لموقف شخص يعشق تناول الحلوى، مستغرقًا في العزلة، أو أي متعة شخصية أخرى، مثل تمثيل بعض المشاهد مع النفس الثانية الخفية أو إجراء حوار مع صورة الشخص في المرآة.

أخرجت إيلا ثوبًا من الدولاب وأعدت طاولة الكي، قبل أن تقول: «إذن أنا ذاهبة إلى الحفل في نهاية الأمر، أليس هذا صحيحًا؟ أتساءل عن اللحظة التي قررت فيها ذلك؟» واصلت إيلا التفكير في روايتها، أو بالأحرى إلقاء الضوء على مزيد من أشياء موجودة بالفعل تنتظر وسط الظلام، وهي تكوي الثوب. ارتدت الثوب وهي تنظر لنفسها في المرآة الطويلة قبل أن تكف في النهاية عن التفكير في الشاب، وتركز على ما تفعله. لم تشعر بالرضا عن مظهرها، لم يرق لها هذا الثوب كثيرًا قط. يحوي دولابها الكثير من الثياب، لكن أيًّا منها لم يرق لها كثيرًا. وهكذا الحال مع وجهها وشعرها، لم يكن شعرها مناسبًا، لم يكن هكذا قط، ولكنها مع ذلك تمتلك كل شيء يجعلها جذابة حقًّا؛ إنها صغيرة الجسم وضئيلة البنية، وجهها الصغير ذو ملامح مقبولة وواضحة. ظلت جوليا تقول: «إذا أوليت نفسك اهتمامًا حقيقيًّا، فربما صرت واحدة من هؤلاء الفتيات الفرنسيات الفاتنات — المثيرات للغاية — فأنت تصلحين لذلك.» لكن إيلا دائمًا تخفق، وثوبها هذه الليلة بسيط أسود اللون من الصوف وبدا كما لو أنه ينبغي أن يكون «مثيرًا للغاية» لكنه ليس كذلك؛ على الأقل ليس عندما ترتديه إيلا. كان شعرها معقودًا للخلف، وبدت شاحبة وعابسة إلى حد بعيد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فكرت إيلا وهي تدير وجهها بعيدًا عن المرآة: «لكني لا أهتم بأمر الأشخاص الذين سأذهب للقائهم، لذا فالأمر لا يهم. ربما أبذل جهدًا أكبر عندما أكون ذاهبة إلى حفل لدي رغبة فعلية في الذهاب إليه.»

كان ابنها نائمًا. نادت على جوليا بصوت مرتفع خارج باب الحمام: «أنا ذاهبة في نهاية الأمر.» وهو ما ردت عليه جوليا بضحكة هادئة تعبر عن النصر: «كنت واثقة أنك ستذهبين.» شعرت إيلا بالغضب قليلًا بسبب فرحة النصر التي أظهرتها جوليا ولكنها قالت: «سوف أعود مبكرًا.» وهو ما لم ترد عليه جوليا مباشرة. ثم قالت: «سوف أترك باب غرفة نومي مفتوحًا لمايكل. تصبحين على خير.»

يتطلب الوصول إلى منزل الدكتور ويست ركوب مترو الأنفاق مدة نصف ساعة وتغيير الاتجاه بداخله مرة ثم استقلال الحافلة لفترة قصيرة. كان أحد أسباب عزوف إيلا عن الخروج من منزل جوليا هو أن المدينة تصيبها بالهلع، فالسير — ميلًا بعد ميل — وسط وطأة الشعور بالقبح المتمثل في لندن بما تحتويه من أوجه الخراب الخارجي مجهول الهوية يُشعرها بالغضب، ثم ينحسر الغضب تدريجيًّا مخلفًا وراءه الشعور بالخوف. في محطة الحافلات، وأثناء انتظارها للحافلة، غيرت رأيها وقررت أن تسير عقابًا لها على جبنها. سوف تسير مسافة ميل إلى المنزل وتواجه ما كانت تكرهه. وأمامها امتد الشارع المليء بالمنازل الصغيرة الحقيرة الكئيبة في غير انتهاء. أضاف الضوء الغائم لهذا المساء الصيفي المتأخر ظلمة إلى السماء الرطبة. امتد هذا القبح وهذه الوضاعة على مسافة أميال من جميع الجهات. هذه لندن، سلسلة من الشوارع التي تضم منازل كهذه المنازل. إن العبء الجسدي الكامل المصاحب للمعرفة أمر يفوق الاحتمال — أين القوة التي يمكنها تغيير هذا القبح؟ في كل شارع — قالت إيلا لنفسها هناك أشخاص حالهم كحال المرأة التي تحمل خطابها في حقيبة يدها. هذه الشوارع محكومة بالخوف والجهل، وقائمة على أكتاف الجهل والحقارة، تلك هي المدينة التي عاشت فيها، وهي جزء منها ومسئولة عنها ... أسرعت إيلا الخطى وحيدة في الشارع وهي تسمع صوت كعاب حذائها من ورائها، تشاهد الستائر الموضوعة على النوافذ. في هذه الجهة، الشارع يضم سكانًا من الطبقة العاملة؛ يمكن الاستدلال على ذلك من خلال الستائر المصنوعة من الخيوط المجدولة والمزينة بأشكال الزهور. هؤلاء هم الأشخاص الذين يكتبون الخطابات الفظيعة التي يتعذر الإجابة عليها والتي اضطرت إيلا إلى التعامل معها. لكن الأمور تغيرت الآن على حين غرة، لأن الستائر الموجودة على النوافذ تغيرت، هنا يظهر بريق من اللون الأزرق المائل

للخضرة، كان هذا منزلًا رديئًا انتقل إليه أحد الرسامين وجعل منه منزلًا جميلًا، ثم انتقل بعض المهنيين إليه من بعده. هنا تعيش مجموعة صغيرة من الأفراد الذين يختلفون عن الآخرين في المنطقة. لم يتمكن هؤلاء من التواصل مع الأشخاص الذين يعيشون على مسافة بعيدة في نهاية الشارع الذين لم يستطعوا — وعلى الأرجح لن يستطيعوا — دخول هذه المنازل قط. هنا منزل الدكتور ويست الذي عرف أول القادمين إلى المكان — وهو الرسام — والذي اشترى المنزل المواجه له تقريبًا. قال الدكتور ويست: «اشتريته في الوقت المناسب، فقيمة المنازل بدأت ترتفع بالفعل.» الحديقة غير منظمة، فالدكتور ويست مشغول بأبنائه الثلاثة، وزوجته تساعده في ممارسة عمله، ولا وقت لديه للاعتناء بالحدائق. (أما الحدائق البعيدة التي في نهاية الشارع فمشمولة بعناية جيدة في الأغلب.) فكرت إيلا أنه لن يخرج من هذا العالم أي خطاب للمشاورين الحكماء لدى المجلات النسائية. فُتح الباب وأطل منه وجه السيدة ويست المفعم بالحيوية والمودة. قالت: «إذن ها أنت هنا أخيرًا.» ثم أخذت معطف إيلا. ردهة المنزل جميلة ونظيفة ومناسبة، هكذا كان عالم السيدة ويست. قالت: «أخبرني زوجي أنك اختلفت معه مرة أخرى حول الأقلية غريبة الأطوار التي يتعامل معها. إنه عطف منك أن تتحملي هذا العبء كله مع مثل هؤلاء الأشخاص.» قالت إيلا: «إنه عملي، وأنا أتقاضى أجرًا على ذلك.» ابتسمت السيدة ويست في سماحة يفيض منها العطف. إنها تشعر بالاستياء من إيلا؛ ليس لأنها تعمل مع زوجها، كلًّا، كان هذا شعورًا بدائيًّا للغاية للسيدة ويست. لم تفهم إيلا سبب استياء السيدة ويست منها إلا في أحد الأيام عندما نطقت بعبارة: أنتن أيتها الفتيات الطموحات. كانت تلك عبارة ناشزة للغاية، مثل عبارة «الأقلية غريبة الأطوار» وعبارة «هؤلاء الأشخاص»، حتى إن إيلا لم تستطع الرد عليها. والآن تعمدت السيدة ويست أن تخبر إيلا بأن زوجها يناقش الأمور المتعلقة بعمله معها، تأكيدًا على حقوقها الزوجية. في الماضي قالت إيلا لنفسها: «لكنها سيدة مهذبة على الرغم من كل شيء.» أما الآن فقالت وقد تملكها الغضب: «إنها ليست سيدة مهذبة.» جميع هؤلاء الأشخاص فاقدو الشعور وملعونون بما يرددونه من عبارات، مثل عبارة «أقلية غريبة الأطوار» وعبارة «فتيات طموحات». أنا لا أحبها ولن أتظاهر بأني أحبها ... تبعت إيلا السيدة ويست إلى غرفة المعيشة التي ضمت أشخاصًا تعرفهم، ومن بينهم على سبيل المثال السيدة التي تعمل لديها في المجلة؛ هي في منتصف العمر أيضًا، ولكنها جذابة وأنيقة ذات شعر رمادي مجعد لامع. إنها سيدة عاملة، ومظهرها جزء من عملها، على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عكس السيدة ويست التي يبعث مظهرها على الشعور بالبهجة لكنها لم تكن أنيقة على الإطلاق. تدعى باتريشيا برينت، واسمها هو الآخر جزء من مهنتها، السيدة باتريشيا برينت رئيسة التحرير. ذهبت إيلا للجلوس بجوار باتريشيا التي قالت: «كان الدكتور ويست يخبرنا أنك تشاجرت معه بشأن الخطابات.» نظرت إيلا حولها سريعًا وشاهدت الآخرين يبتسمون في ترقب. قُدِّم هذا الحدث على أنه وسيلة التسلية في هذا الحفل، وكان مُتوقعًا منها أن تجاريهم قليلًا ثم تطرح الموضوع جانبًا. لكن لا ينبغي الدخول في نقاش أو خلاف فعلي. قالت إيلا وهي تبتسم: «لم يصل الأمر إلى حد الشجار.» ثم أضافت — بنبرة مزجت فيها الهزل والكآبة في احتراس — وهو ما يتوقعونه منها: «لكن هذا الأمر محزن للغاية، ففي النهاية لا يمكنك فعل أي شيء لهؤلاء الأشخاص.» أدركت أنها استخدمت عبارة «هؤلاء الأشخاص» وتملكها الغضب والكآبة، وفكرت في أنه لم يكن عليها المجيء إلى ذلك المكان، فهؤلاء الأشخاص (تعني هذه المرة أسرة السيد ويست وما يرمزون إليه) لن يتقبلوك إلا إن أشبهتهم.

قال الدكتور ويست: «آه، لكن هذا هو أصل الحكاية.» قالها الدكتور في حيوية، فقد كان رجلًا مؤهلًا ومفعمًا بالحيوية بكل ما تحمله الكلمة من معان. أضاف قاصدًا مضايقة إيلا: «ما لم يتغير النظام بأكمله بالطبع، فإيلا ثورية دون أن تكون مدركة لذلك.» قالت إيلا: «تصورت أننا جميعًا أردنا تغيير النظام.» لكن هذا كان تعليقًا خاطئًا تمامًا، فقد قطب الدكتور ويست جبينه على نحو لاإرادي، ثم ابتسم وقال: «لكننا بالطبع نريد ذلك، وكلما كان هذا أسرع كان أفضل.» انتخبت أسرة السيد ويست حزب العمال. وكون السيد ويست «عماليًّا» هو مصدر لشعور باتريشيا برينت — التي كانت «محافظة» — بالفخر. هكذا ثبت الدليل على تسامحها. لم تكن لدى إيلا معتقدات سياسية، لكنها كانت مهمة هي الأخرى لدى باتريشيا، نظرًا للعلة التهكمية التي مفادها أنها لم تخف حقيقة الازدراء التي شعرت بها تجاه المجلة. إنها تشترك في مكتب واحد مع باتريشيا، والجو العام لهذا المكتب وجميع المكاتب التي لها علاقة بالمجلة واحد، جو يتميز بالخجل والسيطرة الأنثوية النسبية والغطرسة. ومن الواضح أن جميع النساء اللاتي عملن هناك اكتسبن الروح نفسها — رغمًا عنهن — حتى باتريشيا نفسها التي لم تكن كذلك على الإطلاق؛ فباتريشيا عطوفة ومخلصة وواضحة ولديها الكثير من مشاعر احترام الذات المتضاربة، لكن في المكتب من الممكن أن تقول بعض الأشياء البعيدة تمامًا عن شخصيتها، وإيلا — التي تخاف على نفسها — تنتقدها بسبب ذلك. بعدها تواصل القول إنه على الرغم من أن كلًّا

منهما في موقف يفرض عليها كسب قوتها، فإنهما ليستا مضطرتين إلى الكذب على أنفسهما بشأن ما ينبغي لهما القيام به. كانت تتوقع — بل تتمنى إلى حد ما — أن تطلب منها باتريشيا الرحيل. بدلًا من ذلك دُعيت إيلا إلى غداء فاخر دافعت فيه باتريشيا عن نفسها. اتضح أن هذه الوظيفة إخفاق في نظر باتريشيا؛ كانت تعمل محررة موضة لدى واحدة من أكبر المجلات النسائية وأكثرها تميزًا، لكن فيما يبدو أنها لم تُعتبر على قدر المسئولية الموكلة إليها، كانت مجلة ذات بريق ثقافي عصري، ومن الضروري أن تتمتع محررة المجلة بحس تجاه كل ما هو عصري في الفنون، وباتريشيا لا تتمتع بموهبة التعامل مع الاتجاهات الثقافية الحديثة على الإطلاق، وهو ما كان — بقدر ما يهم إيلا — نقطة لمصلحتها، لكن مالك هذه المجموعة الخاصة من المجلات النسائية نقل باتريشيا إلى مجلة «ربات البيوت» الموجهة إلى سيدات الطبقة العاملة، وهي تخلو من أي تظاهر بتبني أسلوب ثقافي. إنها الآن مناسبة تمامًا لأداء عملها، وهو ما يكدر صفوها سرًّا. استمتعت باتريشيا في شغف بالجو العام في المجلة الأخرى التي تضم مؤلفين وفنانين عصريين. ولدت باتريشيا في أسرة أرستقراطية ثرية لكنها غير مستنيرة، تولى الخدم رعايتها في طفولتها، وهذا الاحتكاك المبكر «بالطبقات الدنيا» — هكذا تشير إليهم؛ داخل المكتب على استحياء، وخارجه على نحو تلقائي — هو ما أمدها بمعرفة مباشرة ومتبصرة بما تقدمه لقرائها.

وبدلًا من فصل إيلا من العمل شعرت باتريشيا نحوها الإعجاب الشغوف نفسه الذي شعرت به تجاه المجلة الملونة التي اضطرت لتركها. ذكرت مصادفةً أن شخصًا «رفيع الثقافة» — واحدًا من هؤلاء الذين تنشر قصصهم في الصحف الموجهة لذوي الثقافة الرفيعة — يعمل لديها.

إنها تتمتع بقدرة على فهم الخطابات التي ترد إلى المكتب فهمًا أكثر دفئًا وإنسانية من دكتور ويست.

الآن قالت باتريشيا مدافعة عن إيلا: «أتفق مع إيلا، فكلما ألقي نظرة على جرعة البؤس التي تتعامل معها أسبوعيًّا، لا أدري كيف تقوم بذلك. يصيبني هذا الأمر بالإحباط الشديد حتى إنني لا أستطيع تناول الطعام. وصدقوني عندما أسترد شهيتي للطعام يكون الوضع عصيبًا.»

هنا ضحك الجميع، ووجهت إيلا ابتسامة معبرة عن الامتنان إلى باتريشيا التي أومأت برأسها، كما لو أنها تود أن تقول: «كل شيء على ما يرام، فنحن لم نكن ننتقدك.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن بدأ الحديث مرة أخرى وصار بإمكان إيلا أن تسترق النظر حولها؛ غرفة المعيشة واسعة، وأحد الجدران متهدم. في المنازل الصغيرة المتطابقة الأخرى في الشارع توجد غرفتان صغيرتان في الطابق الأرضي تستعمل إحداها مطبخًا يكون ممتلئًا بالأشخاص ويُتخذ مكانًا للمعيشة، والأخرى غرفة استقبال للضيوف. هذه الغرفة تمثل الطابق الأرضي الكامل للمنزل، وهناك سلم يقود إلى غرف النوم، الغرفة زاهية بالعديد من الألوان المختلفة الجذابة؛ كتل صارخة من الألوان المتناقضة كالأخضر الداكن والقرنفلي الزاهي والأصفر. السيدة ويست تفتقر إلى الذوق، ولم يكن مظهر الغرفة مؤثرًا. فكرت إيلا أنه في غضون خمسة أعوام ستكون جدران المنازل على طول الشارع ذات ألوان خالصة زاهية، وسيكون ثمة تناسق بين الستائر والوسائد، فنحن نسعى إلى إقناعهم بهذه المرحلة من الذوق، في مجلة «ربات البيوت» على سبيل المثال. وسوف تكون هذه الحجرة، ماذا؟ أيًا كان وصفها، فأنا أظن ... لكن عليّ أن أكون اجتماعية أكثر، فهذا حفل على الرغم من كل شيء ....

نظرت إيلا حولها مرة أخرى ورأت أنه ليس حفلًا، بل اجتماع لمجموعة من الأفراد جاءوا لأن دكتور ويست وزوجته قالا: «حان الوقت لأن ندعو بعض الأشخاص.» وجاء هؤلاء الأشخاص ولسان حالهم يقول: «نظن أنه علينا الذهاب إلى أسرة السيد ويست.»

فكرت إيلا في أنها تتمنى لو لم تكن جاءت، وأن أمامها هذا الطريق الطويل في العودة، في هذه اللحظة غادر رجل في الجانب الآخر من الغرفة مقعده وجاء ليجلس بجوارها؛ انطباعها للوهلة الأولى أنها رأت وجه شاب نحيل وابتسامة متلهفة جادة ومشوبة بالتوتر استغرقت دقائق من العذوبة — تحدث مقدمًا نفسه (اسمه بول تانر ويعمل طبيبًا) — كأنها كانت رغمًا عن إرادته أو دون علمه. أدركت إيلا أنها ترد الابتسامة بأخرى مستشعرة دفء هذه اللحظات، وهو ما جعلها تنظر إليه عن كثب. بكل تأكيد كانت إيلا مخطئة، فهو ليس صغير السن مثلما ظنت. شعره الخشن إلى حد ما خفيف عند أعلى رأسه، وتطل عيناه من بشرته شديدة البياض التي يعلوها بعض النمش، عيناه زرقاوان غائرتان وجميلتان إلى حد ما؛ عينان متأهبتان للهجوم وجادتان يطل منهما بصيص من الشك. رأت إيلا أن جسده مشدود في أثناء حديثه الذي أداه ببراعة دون أن يخلو من الاحتراز لنفسه. وعيه لذاته جعلها تتراجع بعيدًا عنه، على الرغم من أنها منذ دقيقة واحدة كانت مستجيبة للدفء اللاإرادي المنبعث من ابتسامته.

كانت تلك ردود فعلها الأولى تجاه الرجل الذي أحبته من أعماق قلبها بعد ذلك. بعدئذٍ شكا وسط مزيج من الأسى والهزل: «في البداية أنت لم تحبيني قط. كان عليك أن تحبيني من النظرة الأولى. أتمنى أن أقابل مرة في حياتي امرأة تقع في حبي فور أن تنظر إلي، لكن هذا لا يحدث أبدًا.» بعدها على الرغم من ذلك، كان يطور الموضوع — الآن هزلي في إدراك — بسبب اللغة العاطفية: «وجه الإنسان يعكس روحه. كيف يمكن لرجل أن يثق بامرأة تقع في حبه فقط بعد أن يقيما علاقة؟ أنت لم تقعي في حبي قط.» ويستمر في ضحكه الذي يمتزج فيه الأسى بالهزل، وتتعجب إيلا: «كيف يمكنك الفصل بين إقامة علاقة وبين جميع الأشياء الأخرى؟ هذا الأمر يخلو من أي منطق.»

بدأ اهتمامها ينصرف بعيدًا عنه. أدركت أنها بدأت تتململ في مكانها، وأنه لاحظ ذلك. وأدركت أنه يفكر في أنه معجب بها. وجهه عازم على أن يظفر بها، وأحست بأنه في مكان ما وسط كل هذا ثمة اعتزاز بالنفس، وأن هذا الاعتزاز سيستهان به إذا لم يلق استجابة منها، وهو ما جعلها تشعر برغبة مفاجئة في الفرار. هذه المجموعة من المشاعر — التي كانت جميعها مفاجئة وعنيفة لدرجة لا يمكن الشعور بالراحة معها — دفعت إيلا إلى التفكير في زوجها جورج؛ تزوجت جورج بدافع الكلل تقريبًا، بعد أن ظل يمعن في التودد إليها طيلة عام كامل، أدركت أنه لا ينبغي أن تتزوجه، بعد الزواج بفترة قصيرة أصبحت إيلا تنفر من إقامة علاقة معه، وهو شعور لم تتمكن من السيطرة عليه أو إخفائه، ضاعف ذلك من لهفة جورج إليها الذي أدى بدوره إلى زيادة كرهها له، وبدا أنه كان يستمتع بشيء من النشوة أو الرضا كلما نفرت منه، من الواضح أنهما كانا يمران بأزمة نفسية ميئوس منها إلى حد ما، بعد ذلك، وبغية إثارة غضبها، أقام علاقة مع امرأة أخرى وأخبرها عن ذلك. بعد فوات الأوان وجدت الشجاعة — التي افتقدتها من قبل — لإنهاء علاقتها به، عبرت عن رأيها — بتحايل وفي يأس — في أنه أخل بوعده معها. لم يكن هذا هو قانون أخلاقها، وحقيقة أنها استخدمت حججًا تقليدية — مرددة دائمًا أنه خانها لأنها كانت جبانة — جعلتها تحتقر نفسها. كانت الأسابيع الأخيرة التي قضتها مع جورج أشبه بكابوس من احتقار الذات والهستيريا، حتى غادرت المنزل في النهاية كي تضع حدًّا لذلك، ولكي تبعد بنفسها عن الرجل الذي ضيق الخناق عليها وسجنها، ويبدو أنه سلب إرادتها. بعد ذلك تزوج جورج من المرأة التي استعان بها كي يعيد إيلا إليه، وهو ما جعل إيلا تشعر بارتياح شديد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من عادة إيلا – عندما تكون مكتئبة – أن تقلق طويلًا بشأن تصرفاتها خلال هذا الزواج. أبدت العديد من التعليقات النفسية المعقدة حوله؛ شوهت سمعته وسمعتها أيضًا، شعرت بالكلل والخزي من التجربة بأسرها، والأسوأ من ذلك أنها خشيت بينها وبين نفسها أن يكون محكومًا عليها – بسبب قصور ما في شخصها – بتكرار لا مفر منه لتلك التجربة مع رجل آخر.

لكن بعد أن قضت وقتًا قصيرًا مع بول تانر قالت في سذاجة مطلقة: «من المؤكد تمامًا أنني لم أقع في حب جورج قط.» كما لو أنه لا يوجد ما يقال عن هذه العلاقة غير ذلك. وفيما يتعلق بإيلا لم تكن هناك أمور أكثر يمكن قولها. ولم يشغل بالها قط أن جميع المواقف النفسية المعقدة لم تكن على نفس المستوى كقولها: «لا شك إنني لم أقع في حبه.» مع نتيجته التلقائية التي مفادها: «أنا أحب بول.»

في غضون ذلك كانت إيلا قلقة من الابتعاد عنه وشعرت بأنها أسيرة، ليس لديه بل أسيرة احتمالات تكرار ماضيها معه مرة أخرى.

قال بول: «ما القضية التي أججت جدالك مع ويست؟» يحاول قضاء وقت أطول معها. قالت: «أوه، أنت طبيب مثله، جميع القضايا بالتأكيد تثير بيننا الجدل.» بدا صوتها حادًّا وعدائيًّا، والآن ابتسمت وقالت: «أرجو المعذرة، لكني أظن أن العمل يشغل بالي أكثر مما ينبغي.» قال: «أعلم ذلك.» لم يقل دكتور ويست قط: «أعلم ذلك.» وعلى الفور شعرت بالانجذاب نحوه. وفي الحال تلاشى الفتور الذي غلب على أسلوبها – دون وعي منها بذلك – والذي لم تكن لتتخلى عنه قط إلا مع الأشخاص الذين تعرفهم جيدًا. بحثت في حقيبة يدها عن الخطاب ورأته وهو يبتسم في تساؤل بسبب ما أبدته من اضطراب، أخذ منها الخطاب ولا تزال الابتسامة تعلو وجهه. جلس والخطاب في يده – دون أن يفتحه – وهو ينظر إليها في إعجاب كما لو أنه يرحب بها وبذاتها الحقيقية التي صارت منفتحة أمامه الآن، ثم قرأ الخطاب وجلس وهو في يده، ولكن مفتوح هذه المرة: «ما الذي يمكن أن يقوم به ويست المسكين؟ هل أردت أن يصف بعض المراهم؟»

– كلَّا، كلَّا، لم أفكر في ذلك بكل تأكيد.

– على الأرجح كانت مصدر إزعاج لطبيبها ثلاث مرات أسبوعيًّا منذ ذلك الحين ....

نظر في الخطاب واستطرد «... التاسع من شهر مارس/آذار عام ١٩٥٠. كان الرجل المسكين يصف جميع المراهم التي تخطر بباله.» قالت: «نعم، أعرف هذا.

يتعين الرد على هذا الخطاب صباح غد إلى جانب مائة خطاب آخر تقريبًا.» مدت يدها لتستعيد الخطاب. «بم ستردين عليها؟»

– ما الذي يمكن أن أقوله؟ المشكلة أن هناك آلافًا وآلافًا، على الأرجح ملايين من هذه الخطابات.

بدا استخدام كلمة ملايين أحمق، فنظرت إليه بانتباه محاولة نقل رؤيتها عن العبء الثقيل القاتم للجهل والشقاء. أعطاها الخطاب وقال: «لكن ما الذي ستقولينه؟»

– لا يمكنني قول أي شيء مما تحتاجه هي بالفعل. لأن ما تريده — بالطبع — هو أن يحل دكتور أولسوب ضيفًا عليها وأن ينقذها، تمامًا كفارس على جواد أبيض.

– بالتأكيد.

– تلك هي المشكلة. لا يمكنني أن أقول لها، عزيزتي سيدة براون، أنت لست مصابة بالروماتيزم، كل ما هنالك أنك تعانين الوحدة والهجر، وتخترعين أعراضًا كي تطالبي بحقك في هذا العالم لربما يوليك أحد اهتمامًا. أيمكنني ذلك؟

– يمكنك قول كل هذا ولكن على نحو من اللياقة. ربما كانت تعرف ذلك بنفسها. يمكنك أن تطلبي منها أن تسعى إلى مقابلة الناس والانضمام إلى إحدى المؤسسات أو أي شيء من هذا القبيل.

– أظن أنه من التعالي أن أخبرها بما ينبغي أن تفعله.

– كتبت الخطاب لطلب المساعدة، فمن التعالي ألا تفعلي ذلك.

– قلت إحدى المؤسسات! لكنها لا تريد ذلك. إنها لا تريد شيئًا غير شخصي، فهي ظلت متزوجة سنوات والآن تشعر كما لو أن نصفها رحل عنها في عجالة.

في هذه اللحظة حدق بول في وجهها بصرامة بضع دقائق، ولم تعرف ما يفكر فيه، في النهاية قال: «أظن أنك محقة، لكن يمكنك أن تقترحي عليها أن تكتب إلى أحد مكاتب الزواج.» ثم ضحك بسبب نظرة النفور التي علت وجهها واستطرد: «نعم، لكنك ربما تفاجئين من كم الزيجات الناجحة التي نظمتها بنفسي عن طريق مكاتب الزواج.»

قالت إيلا: «تبدو كعامل اجتماعي متخصص في الطب النفسي.» وفور أن نطقت بها أدركت كيف سيكون الرد. كان دكتور ويست — الممارس العام الموثوق الذي لم يكن يطيق «التكلف» — يسخر من زميله «الطبيب النفسي» الذي يرسل إليه المرضى ذوي الاضطرابات الذهنية الخطيرة، إذن فهذا هو «الطبيب النفسي». قال بول تانر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على مضض: «هذا ما أكون عليه في بعض الحالات.» أدركت أن تردده في كلامه بسبب عدم رغبته في الحصول على رد واضح منها. عرفت الرد لأنها شعرت داخلها براحة واهتمام؛ اهتمام مشوب بالارتباك لأنه طبيب نفسي يمتلك شتى أنواع المعرفة التي تمكنه من أن يكتشف جوانب شخصيتها. قالت مسرعة: «لن أخبرك بمشاكلي.» بعد فترة من الصمت — أَدْرَكَتْ خلالها أنه يبحث عن الكلمات التي ربما تثنيها عن فعل ذلك، قال: «وأنا لا أقدم الاستشارات مطلقًا أثناء الحفلات.»

قالت: «إلا لأرملة السيد براون.»

ابتسم وعقب: «أنت من الطبقة المتوسطة، أليس كذلك؟» تمثل هذه الجملة حكمًا عليها بلا شك، وشعرت إيلا بالإساءة. قالت: «أنحدر منها.» فقال: «أنا من الطبقة العاملة، لذا ربما أعرف عن أرملة السيد براون أكثر مما تعرفين.»

في هذه الأثناء جاءت باتريشيا برينت وأخذته بعيدًا ليتحدث إلى أحد العاملين لديها. أدركت إيلا أنهما كوَّنا ثنائيًّا كل واحد فيه يبدي اهتمامًا بالغًا بالآخر في حفلة لم تكن مخصصة للثنائيات. دل تصرف باتريشيا على أنهما جذبا انتباه الآخرين، لذا شعرت إيلا بالضيق قليلًا. لم يشأ بول الذهاب، ووجه إليها نظرة ملؤها الإلحاح والمناشدة، لكنها كانت صارمة. فكرت إيلا أن نظرة صارمة بمنزلة إيماءة بإصدار أمر لها أن تظل مكانها حتى تتسنى له فرصة العودة إليها مرة أخرى.

حان وقت العودة إلى المنزل؛ لم يمر على وجودها في منزل عائلة ويست سوى ساعة واحدة، لكنها أرادت الرحيل. كان بول تانر جالسًا الآن بين باتريشيا وفتاة أخرى، لم تستطع إيلا سماع ما دار بينهم، لكن علت وجوه المرأتين تعبيرات توحي ببعض الإثارة وبعض الاهتمام الماكر، الأمر الذي يعني أنهم يتحدثون — بطريقة مباشرة أو غير مباشرة — عن مهنة الدكتور تانر، وحافظ هو على ابتسامة مهذبة لكنها قاسية. فكرت إيلا في أنه لن يتخلص منهما قبل ساعات، فنهضت واعتذرت للسيدة ويست التي تضايقت لرحيلها بهذه السرعة. أومأت برأسها إلى الدكتور ويست الذي ستقابله في الصباح بشأن كومة من الخطابات، وابتسمت لبول الذي تحركت عيناه الزرقاوان في دهشة بالغة عندما علم بمغادرتها. دخلت إلى الردهة لترتدي معطفها، خرج مسرعًا وراءها ليعرض عليها أن يقلها إلى منزلها. كان أسلوبه الآن تلقائيًّا — أو كاد يكون فظًّا — لأنه لم يرغب في أن يُحمل على ملاحقتها علنًا. قالت إيلا: «على الأرجح أني لست في طريقك.» قال: «أين تسكنين؟» وعندما أخبرته عن مكان سكنها قال في حزم إنه ليس بعيدًا عن طريقه على الإطلاق.

كان يمتلك سيارة إنجليزية صغيرة قادها في سرعة وبراعة. تختلف مدينة لندن من وجهة نظر مالكي السيارات ومستخدمي سيارات الأجرة اختلافًا شاسعًا عنها من وجهة نظر راكبي مترو الأنفاق والحافلات. فكرت إيلا أن أميال القذارة الكئيبة التي قطعتها في طريق الذهاب صارت الآن مدينة ضبابية لامعة تزدهر بالأضواء وليس لديها من القوة ما يخيفها. في تلك الأثناء رماها بول تانر بنظرات حادة مستفسرة وسألها أسئلة عملية موجزة عن حياتها. أخبرته إيلا — بِنِيَّة التصدي لأفكاره الخاطئة عنها — أنها عملت طوال فترة الحرب في مقصف يخدم النساء العاملات في المصانع وعاشت في النُّزُل نفسه، وأنها أصيبت بعد الحرب بداء الدرن — لكن ليس بدرجة سيئة — وقضت ستة أشهر ترقد في إحدى المصحات. غيرت تلك التجربة حياتها؛ غيرتها على نحو أعمق بكثير مما فعلت سنوات الحرب التي قضتها مع نساء المصانع. توفيت والدتها وهي في سن صغيرة جدًّا وتولى تربيتها والدها، ذلك الرجل الهندي الصلب قليل الكلام الذي عمل ضابطًا سابقًا في الجيش. قالت وهي تضحك: «إن جاز لنا أن ندعوها تربية، فقد تركت بمفردي، وأنا ممتنة لذلك.» تزوجت لفترة قصيرة ولم يكن زواجًا موفقًا. أومأ بول تانر برأسه إزاء سماع كل واحدة من هذه المعلومات، رأته إيلا جالسًا خلف مكتب يومئ برأسه على الردود التي يحصل عليها من إجابات المرضى على الأسئلة. قال وهو يوقف السيارة خارج منزل جوليا: «يقولون إنك تكتبين روايات.» أجابت وهي تشعر بالغضب لانتهاك خصوصيتها: «أنا لا أكتب روايات.» ثم خرجت من السيارة في الحال. خرج مسرعًا من جهته ووصل إلى الباب في نفس الوقت الذي وصلت فيه. بدا التردد واضحًا عليهما، لكنها أرادت أن تدخل إلى المنزل بعيدًا عن إصراره على ملاحقتها. قال في فظاظة: «هل تأتين معي في نزهة بالسيارة عصر غد؟» ألقى نظرة خاطفة على السماء التي بدت مثقلة بالغيوم وأضاف بعد تفكير: «يبدو أن الجو سيكون صافيًا.» هنا ضحكت إيلا، وبسبب الشعور الطيب الذي خلفه هذا الضحك قالت إنها ستأتي. بدا على وجهه شعور بالارتياح، والأكثر من هذا، فرحة النصر. فكرت في أنه حقق نوعًا من الانتصار وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها. بعد برهة أخرى من التردد مد يده ليصافحها ثم أومأ برأسه وانطلق إلى سيارته وهو يقول إنه سيمر عليها في تمام الساعة الثانية. دخلت إلى المنزل عبر الردهة المظلمة وصعدت السلم المظلم والصمت يخيم على أرجاء المنزل. ظهر ضوء من أسفل باب جوليا، فالوقت مبكر. نادت إيلا: «عدت يا جوليا.» قالت جوليا بصوت شديد الوضوح: «لا بد أن نتحدث.» غرفة نوم جوليا كبيرة ومريحة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجوليا تنام على مجموعة من الوسادات على سرير مزدوج كبير وهي تقرأ، وترتدي بيجامة أكمامها مرفوعة حتى مرفقيها. بدت طيبة الخلق ثاقبة الفكر وفضولية للغاية. «حسنًا، كيف كان الحفل؟» قالت إيلا — محاولة توجيه النقد لجوليا لحملها على الذهاب عن طريق قوة إرادتها المستترة: «كان مملًا ...» «رافقني في طريق العودة طبيب نفسي.» أضافتها إيلا مستخدمة الكلمة عن قصد لترى على وجه جوليا النظرة التي شعرت بارتسامها على وجهها والتي رأتها على وجه باتريشيا والفتاة الأخرى، عندما رأت تلك النظرة شعرت بالخزي والندم على قولها ذلك، كأنها ارتكبت عن قصد فعلًا عدائيًّا تجاه جوليا، ورأت أن هذا ما حدث بالفعل، أضافت وقد عادت إلى التصرفات الطفولية وهي تعبث بقوارير العطر المتراصة فوق تسريحة جوليا: «ولا أظن أنه يروق لي.» دلكت رسغيها بالعطر وهي تراقب وجه جوليا من المرآة حيث ارتسمت تعبيرات الشك والصبر والفطنة عليه مجددًا. جال في خاطر إيلا: حسنًا، بالتأكيد تمثل جوليا صورة الأم في نظري، لكن هل عليّ استرضاؤها طوال الوقت؟ وبالإضافة لذلك، أشعر في معظم الأوقات بالأمومة تجاه جوليا وبالرغبة في حمايتها، على الرغم من أني لا أدري من أي شيء. سَألَتْ جوليا: «لماذا لم يرق لك؟» كان السؤال جديًّا، ولا بد لإيلا أن تفكر الآن تفكيرًا جديًّا. بدلًا من ذلك قالت: «أشكرك على اعتنائك بمايكل.» وصَعَدَتْ إلى الطابق العلوي لتنام وابتسمت لجوليا ابتسامة صغيرة تنم عن الاعتذار وهي تهم بالانصراف.

في اليوم التالي استقر ضوء الشمس على مدينة لندن، وبدت الأشجار في الشوارع كأنها ليست جزءًا من كتلة المباني أو الأرصفة بل امتداد للحقول والمرعى والريف. تحول تردد إيلا بشأن الذهاب في نزهة عصر هذا اليوم إلى شعور بالسعادة عندما تخيلت إشراقة الشمس فوق الأعشاب الخضراء، وأدركت — من خلال الارتفاع المفاجئ في معنوياتها — أنها شعرت في الآونة الأخيرة بإحباط أكبر مما تخيلت. أدركت إيلا أنها تغني وهي تعد غداء الطفل، حدث ذلك لأنها تذكرت صوت بول. في تلك الأثناء لم تكن إيلا مدركة لصوت بول، أما الآن فهي تسمعه؛ صوتًا دافئًا أجش قليلًا تسيطر عليه دلالات لهجة غير مثقفة. (كانت تستمع إليه — أثناء تفكيرها فيه — أكثر من النظر إليه.) لم تكن تستمع إلى الكلمات التي كان يستخدمها، بل إلى نبرات الصوت التي تميز فيها الآن كياسة وسخرية وحنوًّا.

أخذت جوليا مايكل عصر اليوم لزيارة بعض الأصدقاء، وذهبت مبكرًا — فور الانتهاء من طعام الغداء — كي لا يعرف الولد الصغير أن أمه ذاهبة في نزهة من

دونه. قالت جوليا: «يبدو أنك راضية عن نفسك للغاية، على الرغم من كل شيء.» قالت إيلا: «لم أذهب خارج لندن منذ شهور، وعدم وجود رجل في حياتي أمر لا يناسبني.» أجابت جوليا سريعًا: «ومن يناسبه ذلك؟ لكنني لا أظن أن وجود أي رجل في حياة المرأة أفضل من عدم وجوده مطلقًا.» وبعد أن قذفتها بهذا السهم الصغير رحلت مع الطفل في مزاج رائق.

جاء بول متأخرًا، ومن خلال اعتذاره على نحو كاد يكون روتينيًّا ومن خلال حالته المزاجية أدركت أنه معتاد على التأخير ليس فقط لأنه طبيب مشغول بالكثير من الضغوط الواقعة عليه. على العموم سعدت إيلا بهذا التأخير، فثمة نظرة على وجهه — الذي بدت عليه مجددًا حدة الطبع الممزوجة بالعصبية — ذكرتها بأنه لم يَرُقْ لها الليلة الماضية. إلى جانب ذلك فإن تأخيره يعني أنه لا يبالي بها حق المبالاة، وهو ما خفف مما كانت تشعر به من وطأة الذعر المرتبطة بجورج، وليس ببول، (علمت ذلك الأمر بنفسها.) لكن ما إن صارا معًا داخل السيارة في طريقهما خارج لندن حتى أدركت أنه عاد يرميها مجددًا بنظرات عصبية خاطفة، وشعرت بالعزم داخله. تحدث بول واستمعت إلى صوته الذي كان كل ما فيه ممتعًا كلما تذكرته. كانت تستمع إليه وتنظر خارج النافذة وتضحك، أخبرها عن سبب تأخيره الذي حدث نتيجة سوء تفاهم بينه وبين مجموعة الأطباء الذين يعمل معهم في المستشفى «في الواقع لم يتحدث أحد بصوت عال، لكن الطبقات المتوسطة العليا يتواصل بعضهم مع بعض في صرصرة غير مفهومة مثل الخفافيش، وهو ما يمثل عقبة مفزعة أمام الأشخاص الذين يشاركونني خلفيتي الاجتماعية.»

– أنت الطبيب الوحيد الذي ينحدر من أصول الطبقة العاملة هناك؟

– كلَّا، ليس في المستشفى، في هذا القسم فحسب، وهم لا يتيحون لك فرصة نسيان ذلك أبدًا. إنهم حتى غير مدركين لكي يقوموا بذلك.

كان حديثًا وديًّا وظريفًا، ولكنه قاس أيضًا، غير أن القسوة كانت بسبب الطباع القديمة ولم يكن بها ما يؤذي المشاعر.

صار تبادل الحديث بينهما سهلًا عصر ذلك اليوم كأن الحاجز بينهما تلاشى في صمت أثناء الليل. تركا الأطراف الممتدة لمدينة لندن خلفهما، وامتد ضوء الشمس حولهما، وارتفعت معنويات إيلا سريعًا جدًا حتى إنها شعرت بأنها ثملة. إلى جانب ذلك أدركت أن هذا الرجل سيكون حبيبها، أدركت ذلك من السعادة التي أغدقها صوته عليها، وغمرها شعور خفي بالبهجة. أصبحت نظراته إليها الآن مبتسمة — كأنها تصدر برحابة صدر — وكما علقت جوليا: «يبدو أنك راضية عن نفسك للغاية.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم، ها نحن نخرج من لندن.

– أتكرهينها إلى هذا الحد؟

– كلّا، أنا أحبها، أعني إني أحب أسلوب حياتي فيها، لكني أكره هذا.

وأشارت خارج النافذة. اختفت أسوار الشجيرات وكذلك الأشجار مرة أخرى وراء إحدى البلديات الصغيرة. لم يبق شيء من إنجلترا القديمة، كانت المدينة جديدة وقبيحة. قاد السيارة عبر شارع التسوق الرئيسي، أسماء المحلات هي الأسماء نفسها التي مروا بها من قبل مرارًا وتكرارًا طوال الطريق خارج لندن.

– لماذا؟

– لأنها قبيحة جدًّا بلا شك.

إنه يتطلع في وجهها بفضول. بعد برهة علق: «الأشخاص الذين يعيشون فيها.» هزت كتفها. «هل تكرهينهم أيضًا؟» شعرت إيلا بالامتعاض، وخطر ببالها أن أي شخص كان من الممكن أن تقابله على مدار سنوات سيتفهم — دون تفسير — الأسباب التي جعلتها تكره «هذا كله»، وأن سؤالها هل «تكره هؤلاء أيضًا» — تعني الأشخاص العاديين — لهو سؤال عديم الصلة. لكن بعد التفكير في الأمر مليًّا قالت في تحدٍ: «على نحو ما، نعم، فأنا أكره ما أذعنوا له، ولا بد من اكتساحه برمته.» حركت يديها كأنها تزيل العبء القاتم الكبير للندن وآلاف المدن القبيحة وعشرات آلاف الحيوات في إنجلترا.

قال في عناد وهو يبتسم ابتسامة صغيرة: «لكنك تعرفين أن هذا لن يحدث. سوف يستمر الحال هكذا وسيكون هناك المزيد من سلاسل المحلات وهوائي التلفاز والأشخاص الجديرين بالاحترام. هذا ما تعنيه، أليس كذلك؟»

– بالطبع، لكنك تقبل الأمر فحسب، لم تسلم بالأمر برمته؟

– إنه الزمن الذي نحيا فيه، والأمور الآن أفضل مما كانت عليه من قبل.

– أفضل!

تعجبت إيلا — على نحو لاإرادي — لكنها كبحت جماح نفسها، لأنها أدركت أنها تربط كلمة «أفضل» برؤية شخصية يرجع تاريخها إلى فترة إقامتها في المستشفى؛ تجربة تضم قوة تدميرية لا شخصية غامضة أثرت في جذور حياتها ظهرت في وضوح في الحرب والوحشية والعنف، وهو ما ليس له علاقة بما يتجادلون حوله. قالت: «تعني أفضل بمعنى أنه لا توجد بطالة ولا يعاني أحد الجوع؟»

– على نحو يدعو للغرابة، أجل هذا ما أعنيه.

قالها على نحو وضع حاجزًا بينهما — فهو من الطبقة العاملة وهي ليست كذلك. لذا لازمت الصمت حتى ألح في إصرار: «الأمور أفضل بكثير، أجل أفضل بكثير، كيف لا يمكنك ملاحظة ذلك؟ أتذكر ...» توقف هذه المرة — ليس لأنه (على حد تعبير إيلا) كان «يرهبها» بسبب اتساع معرفته عنها، بل بسبب الألم المصاحب لما تذكره.

لذلك حاولت مجددًا: «لا يمكنني أن أفهم كيف أن شخصًا يرى ما يحدث لهذا البلد ولا يكرهه. في الظاهر يبدو كل شيء على ما يرام؛ الهدوء والوداعة سمتان لجميع سكان الضواحي. لكن الخطر يكمن أسفل هذا حيث أقصى قدر من الكراهية والحقد والشعور بالوحدة.»

– ينطبق هذا على كل شيء، وفي كل مكان. ينطبق هذا على أي مكان وصل إلى مستوى معيشة معين.

– وهذا لا يجعل الوضع أفضل على الإطلاق.

– أي شيء أفضل من الخوف.

– تقصد الفقر الحقيقي، وبالطبع تقصد أيضًا أني لست مؤهلة لفهم هذا كله.

هنا رمقها بنظرة سريعة متعجبًا من إصرارها ومقدرًا بالفعل — كما شعرت إيلا — لذلك. دلت هذه النظرة يقينًا على أن تقديره لها يفوق بكثير التفكير الحسي فيها فقط، وهو ما جعلها تشعر باطمئنان بالغ.

– إذن أنت تريدين جرافة عملاقة تزيل كل شيء فوق أرض إنجلترا؟

– أجل.

– وستتركين عددًا قليلًا من الكاتدرائيات والمباني القديمة وبعض القرى حسنة المنظر؟

– أجل.

– بعدها سوف تعيدين الناس إلى مدن جديدة جميلة تمثل كل منها حلم مهندس معماري وتطلبين من الجميع أن يحبوها أو يقبلوها على حالها.

– أجل.

– أو ربما ترغبين في عودة إنجلترا إلى عهد البساطة حيث الجعة ولعبة البولنج والفتيات اللاتي يرتدين الملابس الطويلة يدوية الصنع؟

قالت في لهجة غاضبة: «بالقطع لا! فأنا أكره كل ما له صلة بويليام موريس. لكنك الآن تلجأ إلى الخداع. انظر إلى نفسك، أنا واثقة من أنك بذلت معظم طاقتك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كي تتخطى الحاجز الطبقي فقط. لا يمكن أن توجد علاقة بين أسلوب حياتك الآن وبين أسلوب حياة والديك. لا بد أنك غريب عنهما، ولا بد أنك ممزق إلى جزأين. ذلك هو حال هذا البلد وأنت تعرف ذلك. أنا أكرهه، أكره هذا كله. أكره ذلك البلد الذي تمزق حتى إني لا أعرف أي شيء عنه حتى الحرب والفترة التي عشت فيها مع كل هؤلاء السيدات.»

قال في النهاية: «كانوا على حق الليلة الماضية وأنت ثورية في نهاية الأمر.»

– كلَّا، لست كذلك. هذه الكلمات لا تمثل لي أي شيء، فأنا لا أهتم بالقضايا السياسية على الإطلاق.

ضحك بول ولكنه قال بعاطفة حركت مشاعرها: «لو تحقق لك ما أردت — تشييد جنة على الأرض — فسيكون ذلك بمنزلة قتل نبات عن طريق نقله فجأة إلى تربة غير صالحة. ثمة نوع من الاستمرارية؛ ثمة منطق مستتر وراء ما يحدث. سوف تقضين على أرواح الناس لو تحقق لك ما تريدين.»

– الاستمرارية ليست صحيحة بالضرورة فقط لأنها استمرارية.

– حسنًا إيلا، هكذا تسير الأمور. صدقيني تلك هي الحقيقة.

أصبح الحوار شخصيًّا حتى إن دورها حان لترمقه بنظرة تنم عن الدهشة، وقررت ألا تقول شيئًا. فكرت إيلا في أنه يقول إن التمزق بداخله مؤلم للغاية حتى إنه يتساءل في بعض الأحيان هل يستحق الأمر ذلك ... واستدارت بعيدًا ونظرت خارج النافذة مجددًا. كانا يمران على قرية أخرى، لكنها أفضل من سابقتها: هناك مركز قديم من المنازل العتيقة الراسخة التي يشع منها الدفء تحت أشعة الشمس. لكن حول المركز منازل جديدة قبيحة، وحتى في الميدان الرئيسي يوجد أحد متاجر وولويرث — التي يتعذر تمييزها عن كل المباني الأخرى — وحانة تيودر. توجد سلسلة من هذه القرى واحدة بعد أخرى. قالت إيلا: «لنبتعد عن القرى حيث لا يوجد فيها شيء على الإطلاق.»

هذه المرة رمقها بنظرة لاحظت فيها الدهشة الكاملة، لكنها لم تدرك ذلك إلا فيما بعد. صمت برهة، لكن عندما ظهر طريق صغير — يأخذ شكلًا منحنيًا وسط الأشجار التي غمرها ضوء الشمس — غير مساره إليه. سألها: «أين يعيش والدك؟»

قالت: «أوه، أفهم ما ترمي إليه. حسنًا، هو لا يشبه ذلك على الإطلاق.»

– يشبه ماذا؟ أنا لم أقل أي شيء.

– كلّا، لكنك تلمح إلى ذلك طوال الوقت. كان يعمل في الجيش الهندي، لكنه لا يشبه الرسوم الكاريكاتورية. أصبح غير مؤهل صحيًّا للعمل في الجيش وعمل في الإدارة فترة من الوقت، وهو لا يشبه ذلك أيضًا.

– إذن ماذا يشبه؟

ضحكت إيلا، وجمع صوتها بين عاطفة تلقائية صادقة ومرارة لم تدرِ أنها داخلها. «عندما ترك الهند اشترى منزلًا قديمًا في مقاطعة كورنوول. إنه منزل صغير ومنعزل وجميل للغاية. قديم، أنت تفهمني بالطبع. والدي شخصية منعزلة، كان هكذا دائمًا. يقرأ كثيرًا، ويعرف الكثير عن الفلسفة والدين، مثل بوذا على سبيل المثال.»

– هل يشبهك؟

– يشبهني؟

كان السؤال مفاجئًا لإيلا. لم تسأل نفسها ولو مرة واحدة هل تشبه والدها. استدارت نحو بول بنظرة تنم عن التقدير وقالت ضاحكة: «يا له من سؤال. لكن أتعرف أني لا أدري؟» ثم أضافت بصوت منخفض: «كلّا، عندما أفكر في ذلك الآن، وهو ما لم يحدث من قبل، لا أظن أنه يشبهني.»

قال بول في عجالة بالغة وقد بدا نادمًا على سؤاله: «من المؤكد أنه كذلك.»

– ما من شيء مؤكد في هذا.

وجلست إيلا في صمت تفكر. أدركت أن نظرات بول لها تعبر عن الشعور بالذنب والعاطفة، وشعرت نحوه بحب كبير لاهتمامه بها.

حاولت توضيح الأمر: «عندما أذهب للمنزل لقضاء العطلة الأسبوعية، يكون مسرورًا لرؤيتي، يمكنني إدراك ذلك. مع ذلك فهو لا يشكو من عدم ذهابي كثيرًا. لكن عندما أكون هناك لا يبدو أن الأمر يمثل له أي اختلاف، فحياته تسير وفق روتين محدد؛ ثمة سيدة مسنة تعتني بالمنزل، وهو منظم في تناول طعامه. يواظب على تناول بعض الأشياء مثل لحم البقر الأحمر وشرائح اللحم والبيض، يتناول كأسًا من شراب الجين قبل الغداء وكأسين أو ثلاثة من الويسكي بعد العشاء. يخرج في نزهة طويلة على الأقدام كل صباح بعد تناول الإفطار. يرعى الحديقة بعد الظهيرة، ويقرأ حتى وقت متأخر من الليل. عندما أكون هناك تسير جميع الأمور على المنوال نفسه، حتى إنه لا يتحدث إليّ.» ضحكت مرة أخرى «هذا ما قلتَه من قبل، إنني أفكر تفكيرًا مختلفًا، لديه صديق حميم يعمل كولونيل ويبدو أنهما متشابهان، فكلاهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نحيل وصلب ولديه حاجبان مخيفان، ويتحدثان معًا بصوت حاد مرتفع وكلمات غير مفسرة. في بعض الأحيان يجلس كل منهما أمام الآخر ساعات دون أن تنبس شفتاهما ببنت شفة، ليس إلا أن يشربا الويسكي، أو يتحدثا في إيجاز عن حياتهما في الهند في بعض الأحيان. وعندما يكون والدي وحيدًا أظن أنه يتحدث مع الرب أو بوذا أو شخص ما، لكن ليس معي. غالبًا إن تحدثْتُ بشيء، بدا مرتبكًا أو تحدث عن شيء آخر.» صمتت إيلا وأخذت تفكر أن هذا هو أطول حديث تحدثت إليه به، ولا بد لحديثها أن يكون غريبًا؛ فهي نادرًا ما تتحدث عن والدها، أو حتى تفكر فيه. لم يعلق بول على حديثها، بل قال بدلًا من ذلك وعلى نحو مفاجئ: «ما رأيك في هذا؟» وصل الطريق الوعر إلى نهايته في حقل مُسَوَّر صغير. قالت إيلا: «نعم، تمنيت هذا الصباح أن تأخذني إلى حقل صغير، تمامًا كهذا.» خرجت مسرعة من السيارة وهي مدركة تمامًا لنظراته المعبرة عن الدهشة، لكنها لم تتذكرها إلا فيما بعد عندما فتشت في ذاكرتها عن شعوره تجاهها في ذلك اليوم.

تجولت فترة وسط الأعشاب تتحسسها بأصابعها وتشم رائحتها وأشعة الشمس تسقط على وجهها. عندما عادت إليه على مهل وجدت أنه فرش الأرض ببساط وجلس فوقه ينتظرها. قضت نظرة الترقب المطلة من عينيه على الراحة التي شعرت بها جراء حصولها على قدر ضئيل من الحرية في حقل تنيره أشعه الشمس، وأوجدت شيئًا من التوتر. ظنت إيلا وهي تجلس أنه عازم على فعل شيء ما — يا إلهي — هل سيقيم معي علاقة بهذه السرعة؟ كلَّا، لن يفعل ذلك، ليس بعد. ومع ذلك استلقت بجواره وهي تشعر بالسعادة والرضا بأن تأخذ الأمور مجراها.

بعد مرور فترة ليست بالطويلة على علاقتهما من المتوقع أن يقول لها — بغية استثارة غضبها — إنها أحضرته إلى هنا لأنها قررت أن يقيم علاقة معها وأنها خططت لهذا الأمر، وكعادتها سيتملكها سخط عارم، وبعدئذٍ ومع إصراره ستشعر بالفتور تجاهه، بعدها سوف تتغاضى عن التفكير في الأمر، ثم يعود هو إليه مجددًا، ولأنها تدرك أن الأمر مهم في نظره، فإن المشادة البسيطة والمتكررة ستكدر علاقتهما بمقدار ضئيل يتفاقم فيما بعد. لم يكن ذلك صحيحًا، فقد أدركت في السيارة أنه سيكون حبيبها بسبب ذلك الطابع المميز لصوته الذي تثق به. لكن في بعض الأحيان لا يكون الوقت مهمًّا. شعرت أنه سيعرف الوقت الملائم، ومن ثم إن كان الوقت المناسب حينئذٍ — في أول يوم لهما بمفردهما — فلا بد أن يكون هو الوقت المناسب.

ربما تسأله — فيما بعد — بلهجة فضولية وعدائية: «ماذا تفترض أني سأفعل إذا لم تقم علاقة معي؟»

– ستكونين سريعة الغضب.

أجابها وهو يضحك ولكن بصوت خافت غريب يدل على شعوره بالندم؛ ذلك الندم — الذي كان صادقًا — جذبها إليه كأنهما ضحيتان لقسوة الحياة وكل منهما عاجز عن مساعدة نفسه.

وربما تقول له: «لكنك رتبت لهذا كله، حتى إنك أحضرت معك البساط. أظن أنك تحمل دائمًا بساطًا في سيارتك من أجل رحلات الظهيرة تحسبًا للظروف.»

– لا شك، ما من شيء أجمل من بساط جميل دافئ فوق الأعشاب.

وهو ما قد يضحكها، وربما تفكر فيما بعد وهي ترتجف: «أظن أنه اصطحب امرأة أخرى إلى هذا الحقل، على الأرجح إنها عادة.»

لكنها تشعر بسعادة غامرة في تلك النزهة؛ زال عنها عبء المدينة، وفاحت من العشب والشمس رائحة عطرة، بعد ذلك لاحظت ابتسامته الساخرة جزئيًّا فاعتدلت في جلستها واتخذت موقفًا دفاعيًّا. بدأ يتحدث عن زوجها في لهجة يدرك أنها ساخرة. أخبرته بما أراد معرفته — في إيجاز — لأنها عرضت عليه الحقائق الليلة الماضية، ثم أخبرته — في إيجاز أيضًا — عن طفلها، لكنها هذه المرة كانت متعجلة لأنها شعرت بالذنب لوجودها هنا في هذا الجو المشمس في حين كان مايكل سيستمتع بهذه النزهة وبالحقل الدافئ.

أدركت أن بول ذكر شيئًا عن زوجته. استغرقت بضع دقائق في فهم ذلك. قال أيضًا إن لديه طفلين. شعرت بصدمة، لكنها لم تدع ذلك يزعزع ثقتها بتلك اللحظة. من خلال الطريقة التي تحدث بها عن زوجته — التي كانت متسرعة وغاضبة إلى حد بعيد — أدركت إيلا أنه لم يحبها. كانت تستخدم كلمة «الحب» في ذلك الحين وفي سذاجة غريبة تمامًا عن أسلوبها المعتاد في تحليل العلاقات. تصورت أنه لا بد أنه مفصول عن زوجته ما دام يتحدث عنها بأسلوب عادي للغاية.

أقام بول علاقة معها، وقالت إيلا لنفسها: «حسنًا إنه محق، هذا هو الوقت المناسب حيث يمكن أن تشعر بجمال الحدث.» يحمل جسدها العديد من الذكريات الخاصة بزوجها لدرجة تجعلها عاجزة عن التخلص من التوتر. لكنها سرعان ما رضخت له في ثقة لأن جسديهما تفاهما. (لكنها لم تستخدم عبارة مثل «تفاهم جسدانا» إلا بعد مرور وقت على علاقتهما.) في ذلك الوقت كانت تقول لنفسها: «نحن»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يفهم بعضنا بعضًا. لكنها ذات مرة، عندما فتحت عينيها رأت وجهه وقد علته نظرة صارمة تكاد تكون قبيحة. أغمضت عينيها كي لا تراه، وكانت سعيدة لوجودها بجواره. بعد فترة رأت وجهه يستدير والنظرة القاسية تعلوه مجددًا. ابتعدت عنه على نحو تلقائي، لكنه جذبها إليه. قال كأنما يستثير غضبها: «أنت نحيلة جدًّا.» ضحكت — دون أن تشعر بالإهانة — لأنها أحست من طريقة لمسه لها أنه يحبها على هذه الحال. أُعجبت بنفسها وهي متجردة من ثيابها؛ جسدها ضئيل ونحيل تبرز منه كتفاها وركبتاها، لكن بشرتها ناصعة البياض وقدماها جميلة بيضاء. أرادت كثيرًا أن تكون مختلفة وتمنت أن تكون ممتلئة الجسم «على نحو يشعرها بأنها امرأة» لكن الطريقة التي لمسها بها ألغت كل ذلك وجعلتها تشعر بالسعادة. ظلت يداه تضغطان في رقة على جسدها الرقيق بضع دقائق، ثم سحبهما فجأة وبدأ يرتدي ملابسه. بدأت — عندما شعرت بأنها مهمَلة — في ارتداء ملابسها هي الأخرى. شعرت فجأة وعلى نحو غير مبرر بأنها على وشك البكاء، وبدا جسدها مرة أخرى نحيلًا وضئيلًا. سألها: «متى كانت آخر مرة أقمت فيها علاقة؟»

بدت مرتبكة وتساءلت: أيقصد جورج؟ لكنه بعيد عن هذا، فأنا لم أحبه، بل كنت أكره مجرد اقترابه مني. قالت «لا أدري.» وأثناء حديثها أدركت أنه يعني أنها أقامت معه علاقة لأنها كانت متعطشة لذلك. بدأ وجهها يتقد وقامت عن البساط سريعًا وهي تشيح بوجهها بعيدًا ثم قالت — في صوت بدا قبيحًا في نظرها: «لم يحدث ذلك منذ الأسبوع الماضي، تعرفت على رجل في إحدى الحفلات واصطحبته معي إلى المنزل.» فتشت في ذكرياتها عن كلمات سمعتها من فتيات المقصف أثناء فترة الحرب، وأخيرًا وجدتها وقالت: «ويا لها من علاقة!» دخلت إلى السيارة وأغلقت الباب وراءها في عنف. ألقى بالبساط في مؤخرة السيارة وركبها مسرعًا وأخذ يحركها للأمام وللخلف حتى يجعل مقدمتها في اتجاه طريق الخروج من الحقل.

سألها بول: «أنت معتادة على هذا إذن؟» كان صوته رصينًا مجردًا من التحيز الشخصي. فكرت أنه على الرغم من أنه سأل منذ قليل بدافع شخصي — بصفته رجلًا — فإنه الآن يتحدث بموضوعية وحيادية. جال بخاطرها أنها لا تريد سوى العودة إلى المنزل كي تتسنى لها الفرصة للبكاء. الآن صارت العلاقات مرتبطة في ذهنها بذكرياتها مع زوجها وانكماشها على نفسها كلما اقترب منها جورج، لأنها كانت منكمشة على نفسها داخليًّا من هذا الرجل الجديد.

كرر عليها السؤال: «هل أنت معتادة على هذا؟»

قالت ضاحكة: «على ماذا؟ آه، فهمت.» ونظرت إليه في ارتياب، كما لو كان مجنونًا. في تلك اللحظة بدا لها أنه مجنون إلى حد ما، وأن وجهه مشدود من الشك. الآن لم يعد ذلك الرجل الحيادي على الإطلاق، بل بدا عدوًّا لها. الآن أصبحت على اختلاف تام معه، وضحكت في غضب وقالت: «أنت أحمق تمامًا في النهاية.»

لم يتحدثا ثانية حتى وصلا إلى الطريق الرئيسي وانضما انضمامًا بطيئًا إلى السيارات على الطريق والجمود يسيطر عليهما طوال طريق العودة إلى المدينة. بعدئذٍ علَّق بصوت مختلف تميزه المودة والاسترضاء: «لست في موقف يمكنني من توجيه النقد في النهاية؛ فحياتي العاطفية بأسرها لا يمكن أن توصف بالمثالية.»

– أتمنى أن تكون قد وجدتني تسلية مُرضية.

ظهر عليه الارتباك، وبدا في نظرها أحمق لأنه لم يفهمها. رأت أنه يصوغ الكلمات ثم يتركها جانبًا. ولذلك لم تعطه الفرصة للتحدث. شعرت أن ضربات توجه إليها — عن عمد — واحدة بعد أخرى مستهدفة أسفل صدرها مباشرة. كادت تلهث من فرط الألم الذي تسببه تلك الضربات. كانت شفتاها ترتجفان، لكنها فضلت الموت على البكاء أمامه. أشاحت بوجهها وأخذت تشاهد الريف والظلمة والبرودة تلقيان بظلالهما عليه، وبدأت تتحدث. كان بوسعها أن تكون — إذا أرادت — قاسية وشريرة ومسلية. شغلته بثرثرة معقدة عن مكتب المجلة، وعلاقات باتريشيا برينت الشخصية، وغير ذلك الكثير، وكانت في الوقت نفسه تزدريه لقبوله بتظاهرها هذا. تحدثت طويلًا وظل هو صامتًا، وعندما وصلا إلى منزل جوليا خرجت مسرعة من السيارة، وصارت عند مدخل الباب قبل أن يلحق بها. كانت تحاول وضع المفتاح داخل القفل في ارتباك عندما جاء من خلفها وقال: «أتستطيع صديقتك جوليا أن تعتني بابنك هذه الليلة؟ يمكننا الذهاب إلى المسرح إن شئت؛ كلَّا، إنه يوم الأحد، يمكننا مشاهدة أحد الأفلام.» شهقت من المفاجأة وقالت: «لكني لن أراك ثانية، قطعًا أنت لا تتوقع مني ذلك.»

أمسك كتفيها بيديه من الخلف وقال: «لكن، لم لا؟ لقد أحببتني، لا فائدة من التظاهر بعكس ذلك.» لم تحر إيلا جوابًا، فليس هذا أسلوبها في الحديث. ولم تستطع أن تتذكر — عندئذ — مدى السعادة التي شعرت بها معه في الحقل. قالت: «لن أراك ثانية.»

– ولِمَ لا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حررت كتفيها من بين يديه في غضب شديد، ووضعت المفتاح في الباب وأدارته ثم قالت: «لم أقم علاقة مع أي شخص على الإطلاق منذ فترة طويلة. حدث ذلك في علاقة غرامية استمرت أسبوعًا منذ عامين. كانت علاقة رائعة ...» رأته وهو يُجْفِل وشعرت بالمتعة لأنها تؤذي مشاعره، ولأنها تكذب؛ فلم تكن تلك علاقة رائعة. لكنها — وهي الآن تخبره الحقيقة وتوجه إليه الاتهام بكل ذرة في جسدها — قالت: «كان أمريكيًّا، لم يشعرني قط بأني سيئة. لم يكن بارعًا في الفراش على الإطلاق، أنا واثقة من أنها واحدة من الجمل التي تستعين بها، أليس كذلك؟ لكنه لم يحتقرني.»

– لِمَ تخبريني ذلك؟

قالت بلهجة ازدراء هازئة: «أنت شديد الحماقة.» شعرت بابتهاج مرير قاس يسيطر عليها؛ ابتهاج مدمر لكليهما. «أنت تتحدث عن زوجي، لكن ما علاقته بالأمر؟ من وجهة نظري، أعتبر أني لم أقم علاقة معه قط ...» ضحك — في ارتياب ومرارة — لكنها استطردت: «كرهت إقامة علاقة معه. ذلك الأمر كأنه لم يكن في حياتي، وأنت تسأل عن آخر مرة أقمت فيها علاقة مع رجل آخر. من المؤكد أن الأمر بسيط تمامًا. تقول إنك طبيب نفسي تستطيع كشف خبايا النفس البشرية وأنت لا تفهم أبسط الأمور عن أي شخص.»

دخلت بعدها على الفور إلى منزل جوليا، وأغلقت الباب واستندت إلى الحائط وأخذت تبكي. من الجو العام للمنزل أدركت إيلا أنه لا يزال خاليًا. دق جرس الباب، في أذنها تقريبًا: يحاول بول إقناعها بفتح الباب. لكنها تجاهلت صوت الجرس وصعدت إلى الأعلى عابرة مسقط السلم المظلم حتى وصلت إلى الشقة الصغيرة المضيئة في الأعلى في بطء وهي تبكي. والآن رن جرس الهاتف. أدركت أنه بول يتحدث من كابينة الهاتف في الجانب الآخر من الشارع. تركت الهاتف يرن، لأنها تبكي. توقف صوت الهاتف ثم بدأ ثانية. نظرت إلى الانحناءات السوداء المضغوطة المجردة من المشاعر لهذه الآلة وشعرت ببغضها لها، حبست دموعها واستعادت توازن صوتها وأجابت، جوليا هي المتحدثة، قالت جوليا إنها تود البقاء مع أصدقائها حتى العَشاء، وإنها ستحضر الطفل معها إلى المنزل وستعتني به حتى يخلد إلى النوم، وإنه يمكن لإيلا الخروج إن شاءت. «ما خطبك؟» جاء صوت جوليا جهوريًّا وهادئًا كعادتها على بعد ميلين من الشارع. «أنا أبكي.»

– أعرف أنك تبكين، ولكن لماذا؟

– هؤلاء الرجال الأوغاد، إني أكرههم جميعًا.

– حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، من الأفضل أن تذهبي الآن إلى السينما، ستشعرين بالابتهاج.

على الفور شعرت إيلا بأنها في حال أفضل، فما حدث لم يكن على قدر الأهمية، وضحكت.

عندما رن جرس الهاتف بعد نصف ساعة أجابت دون أن تفكر في بول، لكنه هو المتصل. قال إنه انتظر في سيارته حتى يتصل مجددًا، أراد أن يتحدث إليها. قالت إيلا، وقد بدا عليها الهدوء والدعابة: «لا أدري ما الذي سنحققه من وراء ذلك؟» قال في صوت هزلي ساخر: «تعالي نذهب إلى السينما، ولن نتحدث.» لذا ذهبت. قابلته في سلاسة، لأنها قالت لنفسها إنها لن تقيم معه علاقة مرة أخرى، فالأمر انتهى تمامًا. كانت تعزو خروجها معه إلى أن الموقف سيبدو دراميًّا أكثر من اللازم إذا لم يحدث ذلك، ولأن صوته في الهاتف لم يكن له علاقة على الإطلاق بالقسوة التي بدت على وجهه عندما كانا معًا في الحقل، ولأنه سيمكنهما العودة إلى علاقتهما حيث التنزه بالسيارة بعيدًا عن لندن، فموقفه عندما ضاجعها في الحقل ألغى رغبتها في هذه العلاقة تمامًا؛ كأن الأمر لم يحدث في نظرها إذا كان هذا هو شعوره تجاهها.

سيقول فيما بعد: «عندما اتصلت بك — بعد أن اندفعت غاضبة إلى المنزل — خرجت على الفور، كنت تحتاجين إلى الإقناع فحسب.» ضحك بول، وكرهت إيلا صوت الضحكة. في مثل هذه اللحظات تظهر على وجهه ابتسامة تجمع بين المجون والأسى وهو يتظاهر بدور الماجن كي يسخر من نفسه. لكن إيلا شعرت أنه يجمع بين الأمرين، لأن شكواه صادقة، لذا فإنها في مثل هذه اللحظات تبتسم معه في البداية على محاكاته لدور الماجن ثم تغير الموضوع سريعًا. يبدو كأنه يتقمص شخصية غير شخصيته في تلك الأوقات، وهي على يقين من أنها ليست شخصيته.

لم يذهبا إلى السينما، بل ذهبا إلى مقهى. أخبرها مجددًا حكايات عن عمله في المستشفى؛ إنه يعمل في وظيفتين في مستشفيين مختلفين. كان استشاريًّا نفسيًّا في إحداهما، ويعيد تنظيم الأمور في الأخرى. يقول: «أحاول تغيير مستشفى الأمراض العقلية إلى مكان أكثر تحضرًا. ومن الذي يتعين أن أدخل في صراع معهم؟ العامة؟ على الإطلاق، إنهم الأطباء المحافظون ...» تدور حكاياته حول موضوعين؛ الأول ذلك الغرور المتعجرف للمستوى المتوسط من المنشأة الطبية. أدركت إيلا أن جميع انتقاداته مأخوذة من أكثر وجهات النظر الطبقية بساطة — والمفهومة ضمنًا من كلامه على الرغم من عدم نطقه بها — وتتمثل في أن الحماقة والافتقار إلى الخيال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سمات مميزة للطبقة المتوسطة وأن موقفه – المتقدم والمتحرر – يرجع إلى أنه من الطبقة العاملة، وهي قطعًا الطريقة نفسها التي تتحدث جوليا بها، والطريقة نفسها التي تنتقد إيلا الدكتور ويست بها، لكنها في كثير من المرات أدركت أنها تبالغ في تبرمها كما لو أن النقد موجه إليها، وعندما يحدث ذلك فإنها تعود إلى ذكرياتها في السنوات التي قضتها في المقصف، وتفكر في أنه لولا تلك التجربة لما استطاعت أن ترى الطبقة العليا في هذا البلد – من مستوى أدنى مرتبة – من خلال عيون فتيات المصانع، كما هو حال العديد من الأسماك الغريبة عندما تشاهد من خلال القاع الزجاجي لأحد أحواض السمك. أما الموضوع الثاني الذي يتحدث عنه بول فهو الجانب المضاد للموضوع الأول وهو يتميز بتغير في شخصيته بالكامل عندما يتطرق إليه، ففي حديثه عن القصص الانتقادية تملؤه سخرية يمتزج فيها البهجة بالفظاظة، أما عند الحديث عن مرضاه فإنه يكون جادًّا، موقفه تجاههم هو نفس موقفها تجاه من يراسلونها ابتغاء طلب المساعدة كأمثال «السيدة براون»، يتحدث عنهم في عطف غير عادي وشفقة غاضبة، وهذا الغضب بسبب قلة حيلتهم.

شعرت إيلا بإعجاب شديد تجاهه حتى إن ما حدث في الحقل كان كأن لم يكن. رافقها إلى المنزل وتبعها إلى الردهة وهو لا يزال يتحدث. صعدا السلم وإيلا تفكر: أظن أننا سنتناول بعض القهوة وسيرحل بعدها. كانت صادقة للغاية في ذلك، ولكن عندما أقام علاقة معها مجددًا فكرت مرة أخرى: نعم، لا مشكلة في الأمر لأننا كنا قريبين كثيرًا طوال الليل. عندما يبدي تذمره فيما بعد ويقول: «بالتأكيد كنت تعرفين أنني سأقيم علاقة معك مرة أخرى.» سترد عليه: «بالتأكيد لم أكن أعرف. ولو لم يحدث ذلك فلم أكن لأبالي به.» وهو ما سيرد عليه بقوله: «أوه، يا لك من منافقة!» أو «إذن ليس لديك الحق في أن تكوني غير مدركة لدوافعك إلى هذا الحد.»

قضاء تلك الليلة مع بول تانر أعمق تجربة خاضتها إيلا مع رجل، إنها تختلف تمامًا عن أي شيء عرفته من قبل حتى إن كل ما حدث في الماضي لم يعد يعنيها في شيء. كان هذا الشعور حاسمًا للغاية حتى إنه عندما سألها بول قرب الصباح الباكر: «كيف تفكر جوليا في الأمر؟» أجابت في غموض: «أي أمر؟»

– الأسبوع الماضي على سبيل المثال؛ قلت إنك اصطحبت رجلًا إلى المنزل من إحدى الحفلات.

قالت إيلا وهي تضحك في ارتياح: «أنت مجنون». أدارت إيلا رأسها وسط الظلام لترى وجهه؛ ظهرت تجعيدة قاتمة على وجنته وسط الضوء المطل من النافذة،

أطل من وجهه شيء من البعد والعزلة، وجال بخاطرها: عاد إلى الحالة نفسها التي كان عليها فيما مضى، لكن هذا الأمر لم يعكر صفوها هذه المرة، لأن بساطة لمساته الحانية جعلت من البعد المطل من وجهه أمرًا غير مهم.

– لكن ماذا تقول جوليا؟

– عن أي شيء؟

– ماذا ستقول في الصباح؟

– لِمَ يفترض بها أن تقول شيئًا من الأساس؟

قال في إيجاز: «أنا أفهم.» ثم نهض وأضاف: «سأحتاج للذهاب إلى المنزل كي أحلق وأرتدي قميصًا نظيفًا.»

طوال هذا الأسبوع ظل يأتي إليها في وقت متأخر كل ليلة — عندما يكون مايكل نائمًا — ويغادر في الصباح الباكر كي يرتدي «قميصًا نظيفًا».

شعرت إيلا بسعادة غامرة، وانجرفت في موجة من عدم التفكير. عندما يبدي بول تعليقًا نابعًا من «شخصيته السلبية» تكون إيلا متيقنة من مشاعرها حتى إنها تجيب: «يا لك من أحمق، لقد أخبرتك، أنت لا تفهم أي شيء.» (جوليا هي من استخدمت كلمة سلبية بعد أن رمقته بنظرة خاطفة على السلم: «ثمة شيء موجع وسلبي في هذا الوجه.») ظنت أنه سيتزوجها قريبًا، أو ربما ليس قريبًا. سيحدث ذلك في الوقت المناسب، وسوف يعرف عندما يحين هذا الوقت. ليس من الضروري أن تصبح علاقته بها زواجًا على الإطلاق، ما دام يقيم معها — ليلة بعد ليلة — ويذهب إلى منزله مع طلوع الفجر لارتداء «قميص نظيف».

في يوم الأحد التالي — بعد أسبوع من نزهتهما في الريف — اصطحبت جوليا الطفل الصغير ثانية لرؤية بعض الأصدقاء، واصطحب بول إيلا هذه المرة إلى ضاحية كيو. استلقيا فوق العشب خلف سياج من النباتات الوردية المظلة والأشجار تعلوهما والشمس تلقي بأشعتها عليهما. تشابكت أيديهما وقال بول وقد عقد وجهه في استهتار: «أترين، نبدو كأننا متزوجان بالفعل منذ وقت طويل؛ كلانا يعرف أننا سنلتقي في الفراش بالليل، لذا يكتفي كل منا بإمساك يد الآخر.»

قالت إيلا باستمتاع: «لكن ما الخطب في ذلك؟»

كان يميل عليها ويحدق النظر في وجهها. ابتسمت إليه، وأدركت أنه يحبها. شعرت بثقة متناهية تجاهه. قال بنوع من اليأس الممزوج بالدعابة: «ما الخطب في ذلك؟ الأمر خطير للغاية. أنا وأنت هنا ...» انعكس ما كان سينطق به على وجهه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعينيه اللتين أشاعتا الدفء في وجهها «تخيلي كيف سيكون الأمر لو كنا متزوجين.» بدأت إيلا تشعر ببرودة تسري في جسدها. قالت لنفسها: مؤكد أنه لا يقول ذلك كرجل يوجه تحذيرًا إلى امرأة، من المؤكد أنه ليس دنيئًا إلى هذا الحد. رأت نظرة استياء قديمة تعلو وجهه وفكرت: كلَّا، إنه ليس هكذا، الحمد لله، إنه يحدث نفسه بشيء ما، وأضاء النور بداخلها مرة أخرى. قالت: «لكنك لست متزوجًا على الإطلاق. لا يمكنك أن تسمي ذلك زواجًا، فأنت لا تراها أبدًا.»

أضاف بالقدر نفسه من اليأس الممزوج بالدعابة وهو يقبلها: «تزوجنا عندما كان كل منا في العشرين من عمره. لا بد من وجود قانون يجرم ذلك. أنت عاقلة جدًّا يا إيلا لأنك لم تتزوجي. كوني متعقلة واستمري على هذا الوضع.»

ابتسمت إيلا وأخذت تفكر: وهكذا كنت مخطئة في النهاية، هذا ما يفعله ويقوله تمامًا: يمكنك أن تتوقعي الكثير مني. شعرت بأنها مرفوضة تمامًا، وهو لا يزال مستلقيًا ويداه فوق ذراعيها، يمكنها أن تشعر بدفئهما يتخلل مباشرة إلى جسدها، وعيناه — الدافئتان والمفعمتان بحبها — على قيد أنملة منها وهو يبتسم لها.

كانت علاقتها الحميمة معه تلك الليلة عملًا روتينيًّا خلا من أي مشاعر من جانبها، تجربة مختلفة عن الليالي الأخرى. يبدو أنه لم يدرك ذلك، وخلدا إلى النوم بعدها وكلاهما يعانق الآخر كالمعتاد. كانت إيلا ترتجف وتشعر بالهلع الشديد.

في اليوم التالي تحدثت مع جوليا التي لم تعلق طوال هذه الفترة على قضاء بول الليل في المنزل. قالت: «إنه متزوج منذ ثلاثة عشر عامًا؛ إنه زواج من النوع الذي لم يعد فيه المبيت خارج المنزل كل ليلة أمرًا ذا أهمية، ولديه طفلان أيضًا.» قطبت جوليا جبينها دون إبداء رأي واضح وانتظرت. «كل ما في الأمر أني لست واثقة على الإطلاق ... وهناك أيضًا مايكل.»

– وما شعوره تجاه مايكل؟

– رآه مرة واحدة فقط لم تستغرق أكثر من دقيقة، فهو يأتي في وقت متأخر — كما تعرفين — ويغادر حالما يستيقظ مايكل ليرتدي قميصًا نظيفًا من المنزل.

وهو ما أضحك جوليا، وشاركتها إيلا ذلك.

قالت جوليا: «لا بد أنها امرأة غريبة. هل يتحدث عنها؟»

– قال إنهما تزوجا في سن صغيرة جدًّا، وإنه ذهب بعدها إلى الحرب وعندما عاد شعر أنه غريب عنها. وبقدر ما فهمت لم يفعل شيئًا منذ ذلك الحين سوى الدخول في علاقات غرامية.

قالت جوليا: «لا يبدو الأمر ملائمًا تمامًا. كيف تشعرين تجاهه؟» في تلك اللحظة لم تشعر إيلا بشيء سوى يأس مؤلم قاس. لم تستطع التوفيق بين سعادتيهما وبين نزوعه إلى الشك على حد تعبيرها مع ما بذلته من جهد في سبيل ذلك. إنها تشعر بشيء كالهلع، وإيلا تتفحصها في دهاء: «ظننت — في المرة الأولى التي رأيته فيها — أن وجهه بائس متجهم.» ردت إيلا سريعًا: «إنه ليس بائسًا على الإطلاق.» بعدئذٍ — عندما انتبهت لدفاعها الغريزي عنه والمحكوم بالعاطفة — ضحكت من نفسها وقالت: «أعني، أجل إنه كذلك، يسيطر عليه شيء كالشعور بالاستياء، ولكن تلك طبيعة عمله وهو يحب ذلك؛ إنه ينتقل مسرعًا من مستشفى إلى آخر، ويروي قصصًا رائعة عن ذلك كله، وهنالك أيضًا الأسلوب الذي يتحدث به عن مرضاه، إنه يهتم حقًا بأمرهم. وبعدها يأتي لقضاء الليل معي ولا يبدو أبدًا في حاجة إلى النوم.» احمر وجه إيلا خجلًا عندما أدركت أنها تتباهى به. قالت وهي تراقب ابتسامة جوليا: «حسنًا، هذا الأمر صحيح، وبعدها ينطلق في الصباح — دون نوم حقيقي — للحصول على قميص نظيف والمفترض إجراء حديث قصير ولطيف مع زوجته عن هذا وذاك. إن تلك الطاقة التي يتمتع بها لا تجعل منه شخصًا بائسًا أو حتى مستاءً إن وصل الأمر لذلك؛ فكلا الأمرين لا علاقة بينهما.»

قالت جوليا: «حسنًا، في مثل هذه الحالة من الأفضل لك أن تنتظري لتري ما يحدث، أليس كذلك؟»

كان بول مرحًا ولطيفًا للغاية تلك الليلة، وفكرت إيلا أنه يعتذر لها. تلاشى شعورها بالألم. وفي الصباح وجدت أنها استعادت شعورها بالسعادة مجددًا. قال وهو يرتدي ملابسه: «لن أتمكن من زيارتك الليلة إيلا.» قالت في غير خوف: «حسنًا، ما من مشكلة.» لكنه استطرد ضاحكًا: «على الرغم من كل شيء، لا بد أن أرى أطفالي من وقت لآخر.» بدا كأنه يوجه إليها اتهامًا بأنها تعمدت إبعاده عنهما. قالت: «لكني لم أمنعك.»

– أوه بلى فعلت.

قالها وكأنه يشدو بها. طبع قبلة هادئة على جبينها وهو يضحك. جال في خاطرها أن تلك هي الطريقة التي يقبل بها نساءه الأخريات عندما يتركهن بلا نية للعودة. إنه لم يهتم بأمرهن، فهو يضحك ويقبلهن فوق جبينهن. وفجأة تراءت في خيالها صورة جعلتها تحدق من الذهول؛ رأته يضع مالًا فوق رف الموقد، لكنها كانت تعرف أنه ليس من الرجال الذين يدفعون للمرأة، لكنها تراه — في وضوح — يضع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المال فوق رف الموقد. نعم، كان ذلك مفهومًا ضمنًا من سلوكه، ولكن ما علاقة ذلك بتلك الساعات التي قضيناها معًا عندما كانت كل نظرة وحركة يقوم بها تخبرني بأنه يحبني؟ (لأن حقيقة أن بول أخبرها — مرارًا وتكرارًا — بحبه لها لم تعنِ شيئًا، أو بالأحرى لم تكن لتعني شيئًا إن لم يبرهن على حبه لها بلمساته ودفء صوته.) الآن — وهو يستعد للرحيل — قال وقد اعتلى وجهه شيء من العبوس المرير: «وهكذا ستصبحين حرة الليلة إيلا.»

– ماذا تقصد بأني سأصبح حرة؟

– من أجل عشاقك الآخرين؛ فأنت تهملينهم، أليس كذلك؟

ذهبت إلى المكتب — بعد أن تركت الطفل في دار الحضانة — وهي تشعر بأن البرد تسلل إلى عظامها، إلى عمودها الفقري. كانت ترتجف مع أنه يوم دافئ. ابتعدت إيلا عن باتريشيا بضعة أيام، لأنها غارقة تمامًا في شعورها بالسعادة. الآن اقتربت في ارتياح من المرأة المسنة مرة أخرى، باتريشيا متزوجة منذ أحد عشر عامًا، وتركها زوجها من أجل امرأة أصغر سنًّا. كانت تتحدث عن الرجال بأسلوب ساخر تميزه الرقة ودماثة الخلق والدعابة، وذلك يستثير غضبها؛ إنه أمر غريب عليها. باتريشيا في العقد الخامس من عمرها تعيش بمفردها ولديها ابنة راشدة. أدركت إيلا أن باتريشيا امرأة شجاعة، لكنها لم ترغب في تركيز تفكيرها على باتريشيا؛ فمشاركتها مشاعرها — حتى وإن كان من باب المشاركة الوجدانية — يعني أنه ربما يقلل من فرصتها، أو هكذا شعرت إيلا. اليوم ذكرت باتريشيا تعليقًا لاذعًا عن زميل يسعى للانفصال عن زوجته وردت إيلا عليها في حدة، بعدها عادت إلى الحجرة واعتذرت لأن باتريشيا تأذت من حدة إيلا، شعرت إيلا دائمًا أنها في مأزق مع المرأة المسنة؛ فهي لم تكن تهتم بأمر باتريشيا بقدر ما تهتم باتريشيا بأمرها. أدركت أنها ربما تكون نموذجًا من باتريشيا في شبابها. (لكنها لم تفكر في ذلك، فهذا أمر خطير.) الآن تعمدت إيلا البقاء مع باتريشيا والتحدث معها وإطلاق الدعابات، ورأت الدموع في عيني باتريشيا وهو ما جعلها تشعر بالفزع. رأت — في وضوح شديد — امرأة ممتلئة الجسم عطوفة أنيقة في منتصف العمر ترتدي ملابس من مجلات الموضة، وخصلات شعرها المجعد الأنيق والمصبوغ باللون الرمادي وعيناها اللتان كانتا قاسيتين في العمل ورقيقتين تجاه إيلا. أثناء وجودها مع باتريشيا تلقت اتصالًا هاتفيًّا من محرر إحدى المجلات التي نشرت واحدة من قصصها. سألها هل هي مشغولة كي يتناولا الغداء معًا، قالت إنها ليست مشغولة، وذكرها ذلك بكلمة

«حرية» فهي لم تشعر بالحرية طوال العشرة أيام الأخيرة. لم تشعر في هذه اللحظة بأنها حرة، بل إنسانة مبعثرة، وكأنها تهيم على وجهها وفقًا لإرادة شخص آخر؛ إرادة بول. أراد هذا المحرر من قبل أن يقيم علاقة معها لكنها رفضته. الآن فكرت أنها ستقيم معه علاقة في أغلب الظن، ولم لا؟ ما الفارق الذي ترتب على ذلك؟ هذا المحرر رجل جذاب وذكيّ، لكنها نَفَرَت من فكرة اقترابه منها؛ لم يكن يتمتع بمثقال ذرة من ذلك الدفء الغريزي تجاه النساء — والولع بهن — الذي استشعرته في بول، وهذا هو السبب الذي قد يدفعها لإقامة علاقة معه؛ فهي لا يمكن بأي حال أن تدع رجلًا — تجده جذابًا — ليمسها. لكن بدا لها أن بول لا يهتم بذلك؛ فهو من أطلق مِزحات بشأن «الرجل الذي اصطحبته إلى المنزل من الحفلة» وكأنه أعجب بها لذلك. عظيم جدًّا إذن، عظيم جدًّا، إذا كان هذا هو ما يريده فإنها لا تهتم على الإطلاق. ذهبت لتناول الغداء وهي في كامل زينتها وحالتها المزاجية تنم عن تحدٍ شديد للعالم بأسره.

الغداء فاخر كالمعتاد، وإيلا تحب الطعام المترف. المحرر خفيف الظل، وراق لها حديثه. شعرت بالراحة تجاه توافقها الفكري معه، وفي أثناء ذلك كانت تنظر إليه وتفكر أن إقامة علاقة معه أمر لا يمكن تصوره. لكن لم لا؟ أعجبت به، أليس كذلك؟ وماذا بعد؟ ماذا عن الحب؟ لكن الحب سراب وحكر على المجلات النسائية فحسب. بالتأكيد لا يمكن استخدام كلمة الحب مع رجل لا يهتم إن كانت المرأة تقيم علاقة مع غيره من الرجال أم لا. لكن إذا كنت سأقيم علاقة مع هذا الرجل فمن الأفضل أن أفعل شيئًا حيال ذلك. لم تكن تعرف كيفية القيام بذلك؛ لقد رفضته من قبل ولذا فإنه غالبًا سيعتبر الرفض أمرًا مؤكدًا. بعد انتهاء الغداء، وأثناء وجودهما على الرصيف، صارت إيلا حرة فجأة: ما هذا الهراء، بالطبع لن تقيم علاقة معه، سوف تعود الآن إلى البيت وهو قرار حاسم. بعدها رأت اثنتين من بائعات الهوى عند مدخل أحد المباني، وتذكرت الصورة التي رأتها في مخيلتها عن بول هذا الصباح، وعندما قال المحرر: «إيلا، كم كنت أتمنى أن …» قاطعته بابتسامة وقالت: «أن تأخذني إلى المنزل. كلّا، إلى منزلك وليس منزلي.» لأنها لم تطق أن يحل أي رجل محل بول في فراشها. كان هذا الرجل متزوجًا، واصطحبها إلى الشقة التي كان يسكن فيها قبل الزواج. كان منزله في الريف، وهو حريص على إبقاء زوجته وأبنائه هناك، وخصص هذه الشقة للمغامرات من هذا النوع. ظلت إيلا تفكر في بول طوال الفترة التي قضتها مع هذا الرجل. لا بد أنه مجنون. ما الذي أفعله مع رجل مجنون؟ أيتخيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقًّا أنه يمكنني أن أنام مع رجل آخر وأنا معه؟ لا يمكنه على الأرجح تصديق ذلك. في تلك الأثناء حاولت أن تكون لطيفة قدر المستطاع مع هذا الرجل الذكي الذي يشاركها طعام الغداء لمناقشة أمور فكرية. شعر الرجل بانزعاج وأدركت إيلا أن ذلك يرجع إلى افتقادها لرغبة حقيقية تجاهه، ومن ثَم فهو خطؤها، مع أنه يلقي باللوم على نفسه. ولذلك عقدت العزم على أن ترضيه وهي تفكر أنه ما من سبب يجعله يشعر بالانزعاج، لأنها ببساطة اقترفت إثمًا عندما أقامت علاقة مع رجل لا تهتم بأمره البتة ... وعندما انتهى الأمر أسقطت الحدث بأكمله من اعتبارها. لم يعن هذا الأمر شيئًا في نظرها على الإطلاق. على الرغم من ذلك فقد باتت ضعيفة — ترتجف من فرط حاجتها للبكاء — وتعيسة تمامًا. في الواقع كانت تحن إلى بول الذي اتصل بها في اليوم التالي ليخبرها أنه لن يتمكن من المجيء هذه الليلة أيضًا. الآن صارت حاجة إيلا لبول كبيرة جدًّا حتى إنها أخبرت نفسها أنه ما من مشكلة على الإطلاق، فبالطبع لا بد أن يذهب للعمل أو للمنزل لرؤية أطفاله.

التقيا في الليلة التالية وكل منهما يتخذ موقفًا هجوميًّا ضد الآخر. بعد مرور بضع دقائق تلاشى كل هذا تمامًا، وعادا إلى طبيعتهما مجددًا. في وقت ما من تلك الليلة علق: «الأمر غريب أليس كذلك؟ فالحقيقة أنه إذا أحب الرجل امرأة ونام مع امرأة أخرى، فهذا لا يعني شيئًا.» لم تسمع إيلا تلك الكلمات في ذلك الوقت؛ ثمة آلية في مكان ما داخلها تبدأ في العمل لتحول دون سماعها إياه عندما يدلي بتعليقات ربما تثير غضبها، لكنها سمعتها اليوم التالي، فجأة خطرت الكلمات بعقلها واستمعت إليها. إذن فقد خاض تجربة مع امرأة أخرى في هاتين الليلتين، تمامًا كالتجربة التي خاضتها، لذلك امتلأت نفسها بالثقة مجددًا بنفسها وبه. ثم بدأ يسألها عما فعلته في هذين اليومين، قالت إنها تناولت الغداء مع محرر نَشَر إحدى قصصها. «قرأت واحدة من قصصك. كانت جيدة إلى حد ما.» قالها بشيء من الأسى، وكأنه يود أن تكون القصة سيئة. سألته: «حسنًا، لم لا ينبغي أن تكون جيدة؟»

– أفترض أنه كان زوجك جورج؟

– إلى حد ما، ليس تمامًا.

– وهذا المحرر؟

فكرت لدقيقة أن تقول: خضت التجربة نفسها التي خضتها، ثم أعادت التفكير: إذا كان ينزعج بسبب أشياء لم تحدث قط، فما الذي يمكن أن يقوله إن أخبرته أني

أقمت علاقة مع هذا الرجل؟ على الرغم من أني لم أفعل ذلك، فأنا لم آخذها بعين الاعتبار، كانت أمرًا مختلفًا تمامًا.

فيما بعد اعتبرت إيلا أن «وجودهما معًا» (لم تستخدم كلمة علاقة غرامية قط) بدأ من هذه اللحظة، عندما اختبر كلاهما ردود فعله تجاه أشخاص آخرين واكتشفا أن ما شعرا به أحدهما تجاه الآخر جعلهما يسقطان الآخرين من حساباتهما. كانت تلك المرة الوحيدة التي خانت بول فيها، مع أنها لم تشعر بأن الأمر ذو أهمية، لكنها شعرت بالتعاسة إزاء ما فعلت لأنه أصبح بلورة لجميع اتهاماته اللاحقة لها. بعد هذه المرة ظل بول يأتي إليها كل ليلة تقريبًا، وعندما لا يأتي تدرك أن ذلك ليس بسبب عدم رغبته في المجيء، يأتي في وقت متأخر بسبب عمله وبسبب الطفل. ساعدها في الخطابات التي تردها من أمثال «السيدة براون» وأصبح ذلك مصدر سعادة غامرة لها، فهما يعملان معًا من أجل هؤلاء الأشخاص الذين يمكنها تقديم المساعدة لهم في بعض الأحيان.

لم تفكر في زوجته قط، على الأقل في البداية. كان مصدر قلقها الوحيد — في البداية — هو مايكل، فالطفل الصغير أحب والده وهذا الوالد متزوج الآن ويعيش في أمريكا. كان من الطبيعي أن تتجه عاطفة الطفل نحو هذا الرجل الجديد. لكن بول يبدو عليه التوتر عندما يطوقه مايكل بذراعه أو يندفع نحوه مرحبًا به. لاحظت إيلا كيف يبدو على بول التوتر لاإراديًا ويبتسم ثم يبدأ عقله (عقل الطبيب النفسي الذي يفكر في أفضل طريقة للتصرف في هذا الموقف) في العمل، فينزل ذراعي مايكل في رفق ويتحدث إليه بهدوء كما لو كان شخصًا بالغًا، ويتجاوب مايكل معه. تشعر إيلا بالألم لرؤية الطريقة التي يستجيب بها الطفل الصغير — المحروم من تلك العاطفة الذكورية — لأن يكون بالغًا وجادًا ويجيب عن أسئلة جادة. أصبحت عفوية المشاعر العاطفية داخله قاصرة عليها فحسب، حيث يكون حنونًا ومتجاوبًا معها في اللمس وفي الكلام، أما مع بول — ومع مجتمع الرجال — فاستجابته هادئة ومدروسة. في بعض الأحيان ينتابها الذعر قليلًا: إنني أضر مايكل، سوف يتعرض للأذى. لن يتمتع أبدًا مجددًا باستجابة حنونة طبيعية تجاه الرجال. ثم تفكر بعدها: لكنني لا أؤمن بهذا حقًا. لا بد أن يكون على ما يرام لأني أشعر بالسعادة، لا بد أن يكون على ما يرام لأني وجدت نفسي أخيرًا. وهكذا لم تشعر إيلا بالقلق طويلًا، فقد طمأنها حدسها بأنه لا داعي للقلق. أطلقت لنفسها العنان للاستمتاع بحب بول لها ولم تفكر في شيء. وكلما وجدت نفسها تنظر إلى هذه العلاقة من الخارج — مثلما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد يراها الآخرون — شعرت بالخوف والسخرية، لذا لم تفكر فيها على هذا النحو؛ كانت تعيش يومًا بعد يوم دون أن تفكر في المستقبل.

خمس سنوات ...

إذا كنت سأكتب هذه الرواية، فسيكون الموضوع أو الفكرة الرئيسية متوارية في البداية، ثم تظهر رويدًا رويدًا حتى تصبح هي الفكرة المسيطرة. وتدور هذه الفكرة حول زوجة بول، المرأة الأخرى. في البداية لم تفكر إيلا فيها. بعدها صار لزامًا أن تبذل جهدًا متعمدًا كي لا تفكر فيها. كان هذا عندما أدركت أن موقفها تجاه هذه المرأة جدير بالازدراء: فهي تشعر بالانتصار عليها وبالمتعة لأنها أخذت بول منها. عندما صارت إيلا مدركة لهذا الشعور، شعرت بالهلع والخزي حتى إنها دفنته سريعًا داخلها. لكن صورة الشبح أخذت تظهر مجددًا، وأصبح مستحيلًا على إيلا ألا تفكر فيه. فكرت كثيرًا في المرأة المجهولة التي يعود إليها بول (والتي سيظل يعود إليها دومًا)، وتفكيرها حينئذٍ ليس نابعًا من الشعور بالانتصار بل من الحسد، فهي تكن مشاعر الحسد لتلك الزوجة. وتدريجيًّا كونت إيلا — لاإراديًّا — صورة في ذهنها لامرأة هادئة رصينة متساهلة لا تشعر بالغيرة أو الحسد وتتمتع بكل مصادر السعادة في داخلها وباكتفاء ذاتي، لكنها مستعدة دائمًا أن تمنح السعادة للآخرين عندما يُطلب منها ذلك. خطر ببال إيلا (لكن بعد وقت طويل؛ حوالي ثلاث سنوات) أن تلك الصورة غريبة، لأنها لا تتفق مع أي شيء يقوله بول عن زوجته. إذن من أين أتت تلك الصورة؟ أدركت إيلا تدريجيًّا أن هذه الصورة هي ما تتمنى أن تكون عليه تلك المرأة بالفعل؛ تلك المرأة في خيالها تمثل شبحها بكل ما يحمل من صفات لا تتصف بها. إنها الآن تدرك اعتمادها المطلق على بول وتخشى ذلك. صارت كل ذرة فيها مرتبطة به ولا يمكنها تخيل الحياة بدونه، ففكرة الحياة بدونه تحيطها بشعور من الخوف الكئيب القاتم، لذا فإنها لا تفكر في ذلك. إنها تتشبث — هكذا أدركت إيلا — بصورة تلك المرأة الأخرى كنوع من الأمان أو الوقاية لنفسها.

تمثل الفكرة الثانية في واقع الأمر جزءًا من الفكرة الأولى، على الرغم من أنها لن تظهر إلا مع انتهاء الرواية، إنها غيرة بول. يزداد الشعور بالغيرة، ويرتبط بإيقاع انسحابه التدريجي. إنه يوجه إليها اتهامًا — بأسلوب دعابي ساخر — أنها تقيم علاقة مع غيره من الرجال. عندما يكونان معًا في أحد المقاهي، يتهمها بأنها ترمق رجلًا — لم تلاحظه هي من الأساس — بنظرات إعجاب. في بداية الأمر ضحكت منه،

وبعدها تشعر بالمرارة، لكنها دائمًا تكبت شعورها بالمرارة وهو ما يمثل خطرًا بالغًا. بعدئذٍ عندما بدأت تعي الصورة التي رسمتها للمرأة الأخرى الهادئة، إلخ، تعجبت من غيرة بول، وبدأت تفكر — ليس بسبب المرارة بل بدافع الفهم — في الدلالة الحقيقية لذلك. تبادر إلى ذهنها أن شبح بول — شخصه الخيالي الثالث — ليس إلا ماجنًا يكره الانفلات واللامبالاة والقسوة. (هذا هو الدور الذي يمارسه في بعض الأحيان — مستهزئًا بنفسه — معها.) من ثم فإن ما يعنيه هذا أنه عند التقائه إيلا في علاقة جدية يكون الشخص الماجن فيه مستبعدًا ومتنحيًّا جانبًا، وحينئذٍ يكون خاملًا لفترة مؤقتة متحينًا الفرصة ومترقبًا للعودة. الآن ترى إيلا — جنبًا إلى جنب مع شبحها المتجسد في صورة امرأة هادئة رصينة — صورة هذا الماجن الكاره لنفسه الذي اعتاد ملاحقة النساء. تتحرك هاتان الصورتان المتنافرتان جنبًا إلى جنب، وتلاحقان بول وإيلا خطوة بخطوة. وعندها تأتي لحظة (لكن عند نهاية الرواية تمامًا، عند ذروة الأحداث) تفكر فيها إيلا أن صورة شبح بول — الذي يراه في كل مكان — هو ذلك الماجن الذي يكاد يؤدي دورًا في مسرحية غنائية هزلية. وهذا بالضرورة يعني أن بول يتعامل معي بشخصيته «الإيجابية» (على حد تعبير جوليا) فهو يتسم بدماثة الخلق معي. لكن شبح شخصيتي تجسده امرأة صالحة ناضجة قوية سهلة المراس، وهو ما يعني أني أتعامل مع بول بشخصيتي «السلبية». لذلك فإن المرارة التي أشعر بها تنمو داخلي — ضده — إنما هي تزييف للحقيقة. في الواقع، هو أفضل مني في تلك العلاقة، وصورة الأشباح التي تلازمنا طوال الوقت تثبت ذلك.

تضم الرواية عددًا من الأفكار الثانوية؛ أولها تلك الرواية التي تكتبها إيلا. سألها بول عما تكتب وأجابته في تردد لأن صوته دائمًا يكون مليئًا بالارتياب عندما يتحدث عن كتاباتها، قالت: «إنها رواية عن حادثة انتحار.»

– وما الذي تعرفينه عن الانتحار؟

– لا شيء؛ أنا أكتب الرواية فحسب.

(تطلق جوليا نوادر مريرة بشأن إخفاء جين أوستن تحت الورق النشاف عندما يدخل عليها أحد الغرفة، وتستشهد بمقولة ستاندال بأن أي امرأة تود الكتابة وهي لم تتجاوز الخمسين من عمرها لا بد أن تفعل ذلك تحت اسم مستعار.)

على مدار الأيام القليلة التالية يخبرها قصصًا عن مرضاه الذين لديهم ميول انتحارية. تستغرق إيلا وقتًا طويلًا حتى تدرك أنه يفعل ذلك لأنه يرى أنها ساذجة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجاهلة بدرجة لا تعينها على الكتابة عن موضوع الانتحار. (وهي تتفق معه في ذلك.) إنه يوجهها، وتبدأ هي في إخفاء كتاباتها عنه وتقول إنها لا تهتم بأن «تصبح كاتبة، إنها تود تأليف الرواية فحسب لترى ما سيحدث.» يبدو أنه يرى هذا الأمر على أنه هراء وسرعان ما يبدأ بالتذمر من أنها تستغل معرفته المهنية للحصول على الحقائق من أجل روايتها.

تدور الفكرة الثانوية الثانية عن جوليا. يبدي بول نفوره من علاقة إيلا بجوليا، فهو يعتبرها تحالفًا ضده ويذكر مزحات ذكية حول جوانب الشذوذ في هذه العلاقة، وهو ما ترد عليه إيلا بسؤاله — في هذه الحالة — هل من الممكن اعتبار صداقاته مع الرجال لواطًا؟ لكنه يقول إنها تفتقر إلى الحس الدعابي. أول شعور راود إيلا في البداية هو أن تضحي بجوليا من أجل بول، لكن فيما بعد تغيرت صداقتهما، وأصبحت حاسمة في نظر بول، فأطراف الحديث التي تتجاذبها المرأتان معقدة وحافلة بأفكار يفهم منها ضمنًا أنها تنتقد الرجال. لكن إيلا لا تشعر بأن ذلك خيانة لبول لأن تلك الأحاديث ترد من عالم مختلف، وعالم الأفكار المعقدة لا علاقة له بمشاعرها تجاه بول.

ثمة فكرة أخرى تتعلق بعاطفة أمومة إيلا لمايكل، إنها تكافح دائمًا حتى يصبح بول أبًا لمايكل ودائمًا تذهب جهودها أدراج الرياح. ويقول بول: «سوف تشعرين بالسعادة في نهاية الأمر، سترين أني كنت على صواب.» وهو ما يعني: عندما أتركك سوف تشعرين بالرضا عن أني لم أوطد علاقتي بابنك. واختارت إيلا عدم سماع ذلك.

أما عن فكرة موقف بول من مهنته فهو منقسم على نفسه في هذا؛ يأخذ عمله مع مرضاه على محل الجد، لكنه يتهكم من اللغة التي يستخدمها، فقد يقص حكاية عن أحد المرضى بأسلوب حاذق وعميق للغاية، مستخدمًا لغة الأدب والعاطفة، وبعدها يحكم على القصة نفسها باستخدام مصطلحات التحليل النفسي مضيفًا إليها بعدًا مختلفًا. بعد ذلك بخمس دقائق يتهكم — بأقصى درجة من الذكاء والسخرية — من المصطلحات التي استخدمها لتوه كمقاييس للحكم على المعايير الأدبية والحقائق العاطفية. وفي كل لحظة، وأثناء تقمصه كل شخصية — سواء أكانت الشخصية الأدبية أم التي تستخدم التحليل النفسي أم الرجل الذي يرتاب في كل منظومات التفكير التي تعتبر نفسها قاطعة — سوف يكون جادًّا وسيتوقع من إيلا أن تتقبله تمامًا في تلك اللحظة، ويستاء منها عندما تحاول الربط بين هذه الشخصيات بداخله.

تتحول حياتهما معًا إلى حياة مليئة بالكنايات والرموز. تشير «السيدة براون» إلى مرضاه والسيدات اللاتي يطلبن منها المساعدة.

أما «غداؤك الأدبي» فتلك عبارته التي يشير بها إلى خيانتها والتي يستخدمها بأسلوب دعابي في بعض الأحيان وبأسلوب جدي في أحيان أخرى.

ويستخدم «رسالتك عن الانتحار» كناية عن روايتها.

كذلك يستخدم عبارة أخرى تزداد أهميتها تدريجيًّا، مع أنه عندما استخدمها لأول مرة لم تفهم مدى عمق الموقف الذي تعكسه داخله، وهي «كلانا يدفع صخرة كصخرة سيزيف»، يستخدم ذلك التعبير للدلالة على فشله وصراعه من أجل التخلص من البيئة الفقيرة التي نشأ فيها، والحصول على منح دراسية وعلى أعلى المراتب الطبية إنما هو نتاج لطموحه في أن يكون عالمًا مبدعًا. إنه يدرك الآن أنه لن يصير أبدًا هذا العالم المبدع. وهذه العلة هي نتاج جزئي لأفضل ما يتمتع به وهو إشفاقه الدائم الذي لا ينضب على الفقراء والجُهَّال والمرضى. وفي الوقت الذي ينبغي له الاختيار بين الأدب والعلم يختار دائمًا فئة المستضعفين بدلًا منهما. الآن لن يصبح أبدًا مكتشفًا أو حاملًا لمشاعل العلم. أصبح رجلًا يصارع الطبقة المتوسطة؛ مشرفًا طبيًّا رجعيًّا يود بقاء أجنحته في المستشفى مغلقة ومرضاه داخل سترات المرضى العقليين: «أنا وأنت يا إيلا نموذجان للفشل. إننا نقضي حياتنا في صراع كي نجعل الأشخاص الذين يتصفون بغباء أكثر منا بمقدار طفيف للغاية يتقبلون الحقائق التي يعرفها الرجال العظماء دائمًا؛ فقد عرفوا منذ آلاف السنين أن عزل شخص مريض في حبس انفرادي يجعله في حالة أسوأ. عرفوا منذ آلاف السنين أن الفقير الذي يخشى سيده ورجال الشرطة إنما هو عبد. عرفوا ذلك، ونحن نعرفه. لكن هل يعرفه جمهور المثقفين العظام من الشعب البريطاني؟ كلَّا، فتلك مهمتنا أنا وأنت التي تتمثل في إخبارهم؛ لأن الرجال العظماء هم عظماء حتى إنهم لا يبالون بمثل هذه الأمور، فهم مشغولون بالفعل باكتشاف كيفية استيطان كوكب الزهرة وخلق حياة على سطح القمر. تلك هي الأمور المهمة في وقتنا الحاضر. أنا وأنت من يدفع الصخرة. طوال حياتنا ونحن نضع جميع طاقاتنا ومواهبنا في دفع صخرة ضخمة إلى أعلى جبل، فالصخرة هي تلك الحقيقة التي يعرفها العظماء بفطرتهم، والجبل هو حماقة الجنس البشري. إننا ندفع الصخرة. في بعض الأحيان أتمنى لو مت قبل أن أعمل في هذه الوظيفة التي تمنيتها كثيرًا، فكرت فيها كعمل إبداعي. كيف أقضي وقتي؟ أقضيه في إخبار دكتور شاكرلي — رجل عادي مذعور قادم من برمنجهام يُرهب زوجته لأنه لا يعرف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كيف يبادل امرأة مشاعر الحب — أنه لا بد أن يفتح أبواب مستشفاه وأن عليه ألا يترك المرضى المساكين حبيبي زنزانة مبطنة بالجلد الأبيض وسط الظلام، وأن سترات المرضى النفسيين شيء أحمق. هكذا أقضي أيامي، كذلك أعالج الأمراض التي يسببها مجتمع غبي جدًّا لدرجة ... وأنت يا إيلا تخبرين زوجات العمال اللاتي يتمتعن ببراعة تساوي ما يتمتع به أرباب عملهن أن يستخدموا التصميمات والأثاثات المطابقة لذوق العصر التي يصنعها رجال الأعمال الذين يستعينون بخيلائهم في كسب المال. أنت تخبرين الزوجات المساكين اللاتي هن إماء لحماقة الجميع أن يخرجن وينضممن إلى أحد النوادي الاجتماعية أو يشغلن أنفسهن بهواية مفيدة لصحتهن من أي نوع وألا يفكرن في حقيقة أنهن لسن محبوبات. وإن لم تؤت تلك الهواية المفيدة للصحة ثمارها — وهذا هو المتوقع — ينتهي بهن المطاف بأن يأتينني مريضات ... أتمنى أن لو مت يا إيلا، كلَّا، بالطبع أنت لا تفهمين ذلك. يمكنني أن أستشف من نظرات عينيك أنك لا تفهمين ...».

الموت مجددًا؛ يخرج شبح الموت من روايتها ليدخل حياتها، لكنه موت في صورة همَّة، لأن هذا الرجل يعمل كرجل مجنون؛ يعمل بدافع شفقة غاضبة محتدة، فهذا الرجل الذي يقول إنه يتمنى أن لو كان ميتًا لا يتوقف مطلقًا عن العمل من أجل الضعفاء.

بدا الأمر كأن هذه الرواية كتبت بالفعل وأنني أقرؤها. وأنا أنظر إليها الآن كاملة أرى فكرة أخرى لم أكن على وعي بها عندما بدأت الرواية، وهي فكرة السذاجة؛ فاللحظة التي التقت فيها إيلا ببول وأحبته واللحظة التي استخدمت فيها كلمة الحب شهدتا مولد السذاجة.

وهكذا الآن، عند التفكير في علاقتي بمايكل (استخدمت اسم محبوبي الحقيقي للإشارة لابن إيلا الخيالي مع تلك الابتسامة شديدة اللهفة التي من خلالها يقدم المريض إلى المحلل النفسي دليلًا كان ينتظره، لكن المريض على يقين أنه لا صلة له بالمشكلة) فإنني أرى سذاجتي كاملة. كان من الممكن لأي شخص فطن أن يتنبأ بنهاية هذه العلاقة منذ بدايتها. لكنني أنا — مثلما فعلت إيلا مع بول — رفضت أن أرى ذلك. وهب بول إيلا الساذجة حياة جديدة، وحطم داخلها إيلا المتكلفة النزاعة إلى الشك والمطلعة، ومجددًا أخمد ذكاءها — بموافقة طوعية منها — حتى إنها هامت في غياهب حبها له وفي سذاجتها التي هي مرادف لإيمان تلقائي مستوحًى

من الخيال. وعندما حطم عدم ثقته بنفسه تلك المرأة المحبة حتى تتسنى لها فرصة التفكير، كانت تصارع للعودة ثانية إلى السذاجة.

الآن عندما أشعر بالانجذاب تجاه رجل ما، يمكنني تقييم عمق العلاقة المحتملة معه بواسطة الدرجة التي بها يعاد تشكيل آنا الساذجة داخلي.

في بعض الأحيان عندما أفكر في الماضي تتولد لدي رغبة في الضحك بصوت عال. إنها ضحكة المعرفة المرتاعة من البراءة والحاقدة عليها. سأكون عاجزة الآن عن التحلي بمثل هذه الثقة. لن أدخل في علاقة أبدًا مع بول، أو مايكل، أو بالأحرى سوف أدخل في علاقة أعرف تمامًا ما سيحدث فيها، سوف أبدأ عمدًا علاقة عقيمة مقيدة.

ما فقدته إيلا خلال هذه السنوات الخمس هي قدرتها على أن تخرج من وسط السذاجة عملًا إبداعيًّا.

نهاية العلاقة؛ على الرغم من أن إيلا لم تكن تستخدم تلك الكلمة حينئذٍ، فقد استخدمتها فيما بعد ولكن وسط إحساس بالمرارة.

أدركت إيلا للمرة الأولى أن بول يبتعد عنها في اللحظة نفسها التي أدركت فيها أنه لا يساعدها فيما يصل إليها من خطابات، فهو يقول: «وما الفائدة؟ إنني أتعامل مع أرملة السيد براون كل يوم في المستشفى، لكنني لا أستطيع تحقيق شيء مُجْدٍ، ليس على الإطلاق. فأنا أساعد أحد الأشخاص هنا وهناك. وفي النهاية لا يقدم دافعو الصخرة الأبدية في الواقع مساعدة من أي نوع. نحن نتخيل القيام بذلك. طب النفس والعمل الاجتماعي يشبهان وضع كمادات فوق مصدر للبؤس لا حاجة له.»

– لكن بول، أنت تعلم أنك تقدم لهم يد المساعدة.

– طوال الوقت وأنا أفكر أن عهدنا قد انتهى. أي نوع من الأطباء هذا الذي ينظر إلى مرضاه على أنهم أعراض لمرض أصاب العالم؟

– إن كان صحيحًا أنك تشعر بذلك حقًّا، فلن تتمكن من الجد في العمل.

بدا مترددًا ثم تنهد وقال: «لكنك يا إيلا معشوقتي ولست زوجتي. لم تريدينني أن أشاركك جميع الأمور المهمة في الحياة؟»

انتاب إيلا شعور بالغضب: «كل ليلة تنام في فراشي وتخبرني كل شيء. أنا زوجتك.» أدركت أنها تشدو بإعلان النهاية وهي تقول هي ذلك. وعدم قولها ذلك من قبل جعل الأمر يبدو على أنه جبن مهول. رد عليها بول بضحكة مستاءة صغيرة في إيذان بالانسحاب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنهت إيلا روايتها وجرت الموافقة على نشرها. إنها تعلم أنها رواية جيدة إلى حد ما وليس بها ما يثير الدهشة. إذا قرأت الرواية فستقول إنها رواية صغيرة صادقة. لكن بول يقرؤها ويأتي تعليقه عليها مستفيض في التهكم.

يقول بول: «حسنًا، ما من سبب لا يجعلنا — نحن الرجال — نعتزل الحياة.»

تشعر إيلا بالهلع وتقول: «ماذا تقصد؟» لكنها تضحك بسبب الأسلوب الدرامي الذي نطقها به في محاكاة ساخرة لنفسه.

الآن يتخلى بول عن محاكاته الساخرة لنفسه ويقول في جدية بالغة: «عزيزتي إيلا، أتعرفين ما الثورة الكبرى في وقتنا الحاضر؟ الثورة الروسية، الثورة الصينية — كلَّا، فتلك الثورات لا تعني شيئًا على الإطلاق. الثورة الحقيقية تكمن في ثورة النساء ضد الرجال.»

– لكن بول، لا يعني هذا الأمر شيئًا في نظري.

– شاهدت فيلمًا الأسبوع الماضي، لم تكوني معي لأني ذهبت بمفردي، كان الفيلم موجهًا لرجل يحيا بمفرده.

– أي فيلم؟

– أتعرفين أن المرأة يمكنها إنجاب الأطفال الآن من دون رجل؟

– ولكن لماذا؟

– على سبيل المثال يمكن استعمال الثلج على مبايض الأنثى، وستنجب طفلًا. لم يعد وجود الرجال أمرًا حتميًّا للبشرية.

على الفور تضحك إيلا في ثقة ثم تقول: «لكن أين المرأة التي تتخذ من الثلج بديلًا عن الرجل؟»

يضحك بول هو الآخر: «فيما يتعلق بهذا كله يا إيلا — وليكن حديثنا جديًّا — إنها من دلالات الوقت الحاضر.»

هنا تصيح إيلا: «يا إلهي، لو طلبت مني أن أنجب طفلًا في أي وقت طوال السنوات الخمسة الماضية، كنت سأشعر بسعادة بالغة.»

في البداية قام بحركة فطرية مثيرة للدهشة تعبر عن انسحابه من حياتها، ثم أجابها في حذر وتأن وهو يضحك: «لكن إيلا، إنه المبدأ في هذا الأمر؛ لم تعد هناك أهمية للرجال.»

تقول إيلا وهي تضحك: «أوه، المبادئ. أنت مجنون، دائمًا قلت عنك ذلك.»

وهنا يقول في جدية: «حسنًا، ربما تكونين محقة. إنك عاقلة للغاية إيلا. كنت دومًا هكذا. تقولين إنني مجنون. أنا أعلم ذلك، ويزداد جنوني شيئًا فشيئًا. في بعض

الأحيان أتعجب من عدم حبسهم لي بدلًا من مرضاي. وأنت تزدادين عقلًا وحكمة، وذلك هو مصدر قوتك، وسوف تستخدمين الثلج على مبايضك في النهاية.»

صاحت إيلا لأنها شعرت بإساءة بالغة حتى إنها لم تعد تهتم بما ستبدو عليه أمامه: «أنت مجنون. دعني أخبرك أني أفضل الموت على إنجاب طفل هكذا. ألا تدري أنه منذ أن عرفتك وأنا أريد أن أنجب منك طفلًا؟ منذ أن عرفتك وكل شيء صار مبهجًا للغاية لدرجة ...» ترى وجهه الذي يأبى بأسلوب فطري الموافقة على ما قالته لتوها. «حسنًا، لكن هب أن ذلك هو السبب الذي جعلك تصير في النهاية بلا جدوى — لأنك لا تتحلى بأي ثقة فيما أنت عليه ...» بدت على وجهه الآن نظرات الدهشة والحزن لكنها وصلت إلى ذروة انفعالها ولم تهتم به. «أنت لم تفهم قط أمرًا بسيطًا، إنه بسيط وعادي حتى إني أتعجب من عدم فهمك له. كل شيء معك كان مغبطًا وسهلًا ومبهجًا، وأنت تتحدث الآن عن استعمال النساء للثلج على المبايض؛ ثلج، مبايض، ما معنى ذلك؟ حسنًا، إن كنتم تريدون اعتزال الحياة على الأرض فلتفعلوا، فأنا لا أبالي بذلك.» هنا يقول لها وهو يفتح ذراعيه: «إيلا. إيلا! تعالي هنا.» تذهب إليه فيمسك بها لكنه بعد لحظة يثير غضبها: «لكن أترين، كنت محقًّا؛ عندما تدخلن في صلب الموضوع تعترفن بالحقيقة جهرًا وهي أنكن ستزحننا جميعًا من هذا العالم وتضحكن.»

العلاقة الحميمة، تجد النساء صعوبة في الكتابة عن العلاقة الحميمة لأنهن يفضلنها أكثر عندما لا يتطرقن إليها سواء بالتفكير أو التحليل. تختار النساء عمدًا عدم التفكير في تفاصيل العلاقة الحميمة، وينتابهن الغضب عندما يتطرق الرجال إلى تلك التفاصيل، وهو ما يكون نابعًا من الرغبة في حماية النفس: فهن يردن الاحتفاظ بالمشاعر التلقائية التي تحقق لهن الإشباع.

تنظر النساء إلى العلاقة الحميمة على أنها مسألة شعورية في الأساس. كم عدد المرات التي كُتب فيها ذلك؟ لكن هناك دائمًا — حتى مع أكثر الرجال فطنة وذكاءً — مرحلة تنظر فيها المرأة إلى الرجل ولسان حالها يقول إنه لم يفهم. وفجأة تجد نفسها تشعر بالوحدة وتتعجل نسيان هذه اللحظة لأنها إذا لم تفعل فستضطر إلى التفكير فيها. كنت أنا وجوليا وبوب جالسين في مطبخ جوليا نتجاذب أطراف الحديث. أخبرنا بوب قصة عن انتهاء علاقة زوجية فقال: «المشكلة كانت في العلاقة الحميمة، فالرجل لم يكن يحقق لها الإشباع.» جوليا: «دائمًا كنت أفكر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في أنها لا تحبه.» فكر بوب أنها لم تسمعه فقال: «كلَّا، دائمًا كان هذا الأمر يقلقه تمامًا.» جوليا: «لكنها لم تبادله مشاعر الحب قط وهو ما يمكن لأي شخص إدراكه من النظر إليهما فقط.» بدأ صبر بوب ينفد: «لم يكن هذا خطأهما أيتها الحمقاء، فالطبيعة كانت ضد هذه العلاقة من البداية.» جوليا: «بالتأكيد كان ذلك خطأها، لم يكن عليها أن تتزوجه قط ما دامت لا تحبه.» هنا ثارت ثائرة بوب بسبب حماقتها وبدأ يتناول الموضوع بشرح مفصل مستفيض في حين تتنوع ردود فعل جوليا بين النظر إليّ والتنهد والابتسامة وتحريك كتفيها. بعد بضع دقائق من استمرار بوب في الحديث، قاطعته جوليا بمزحة غاضبة ومنعته من مواصلة الحديث.

من الحقائق الجديرة بالملاحظة أنه حتى وقت جلوسي للكتابة عن هذا الأمر، لم يحدث قط أن تطرقت إلى تحليل علاقتي الحميمة بمايكل. لكن كان هناك تطور واضح تمامًا خلال السنوات الخمسة، وهو ما يلوح في ذاكرتي كخط منحنٍ فوق رسم بياني.

عندما أقامت إيلا علاقة مع بول للمرة الأولى خلال الأشهر القليلة الأولى، كان بلوغها مرحلة النشوة القصوى في الحال دليلًا دامغًا على أنها أحبته وهو ما مكنها من استخدام هذه الكلمة؛ فهي لم تكن لتصل إلى هذا الشعور لولا أنها أحبته، فالنشوة القصوى هي التي تتولد عن شعور الرجل بالحاجة إلى المرأة وإيمانه بهذا الشعور.

بمرور الوقت بدأ بول يتصرف على نحو تلقائي. (أتأمل كلمة آلية التي لن يستخدمها أي رجل.) بدأ بول يعتمد على التأثير فيها ظاهريًّا من خلال بلوغها النشوة الصغرى التي على الرغم مما تتضمنه من إثارة فإن شيئًا ما بداخلها كان يمقتها دائمًا. والسبب في ذلك أنها شعرت بأنه يرغب في التعبير عن رغبته الغريزية لا أن يلزم نفسه بعلاقتهما. أحسَّت أنه كان خائفًا من هذا الشعور دون معرفته أو إدراكه لذلك (على الرغم من أنه ربما كان مدركًا له)، فالنشوة القصوى تتعلق بالمشاعر فحسب ولا تحدث إلا عندما تكون هناك حاجة ورغبة صادقة من جانب الرجل تجاه المرأة. وكل ما عدا ذلك يكون وهمًا وزيفًا يمكن لأي امرأة أن تميزه. لم تبلغ إيلا مرحلة النشوة الصغرى قبل علاقتها ببول، وعندما أخبرته بذلك بدا مسرورًا وقال: «حسنًا إيلا، ها قد وجدنا شيئًا لم تجربيه من قبل.» لكن عندما أخبرته أنها لم تشعر من قبل قط بما أصرت على تسميته «نشوة حقيقية» بالدرجة نفسها التي شعرت بها معه قطب جبينه تقطيبًا لاإراديًّا وقال: «أتعرفين أن هناك

اختصاصيين فسيولوجيين بارزين يقولون إنه ما من أساس فسيولوجي يثبت بلوغ النساء مرحلة النشوة القصوى؟»

– إذن فهم لا يعرفون الكثير، أليس كذلك؟

وهكذا مع مرور الوقت تحول التركيز في علاقتهما الحميمة من النشوة القصوى إلى النشوة الصغرى وهنا جاءت لحظة أدركت فيها إيلا (ورفضت سريعًا التفكير في ذلك) أنها لم تعد تشعر بنشوة حقيقية. حدث ذلك قبل نهاية علاقتهما عندما تركها بول. باختصار أدركت إيلا الحقيقة على المستوى الشعوري في حين أن عقلها كان يرفض الاعتراف بها.

قبل انتهاء علاقتهما أيضًا أخبرها بول شيئًا لم تهتم به معتبرة إياه دليلًا آخر على أن هذا الرجل منقسم على نفسه لأن طبيعة القصة وأسلوبه في روايتها كان مناقضًا لما تشعر به معه.

قال بول: «وقع أمر اليوم في المستشفى كنت ستسعدين به.» كانا يجلسان داخل السيارة الواقفة وسط الظلام خارج منزل جوليا. تحركت من مكانها لتقترب منه وأحاطها بذراعيه. شعرت بجسده وهو يرتجف من الضحك. «كما تعرفين، ينظم مستشفانا الشهير محاضرة كل أسبوعين بغية استفادة هيئة الأطباء منها. بالأمس أُعلن أن البروفيسور بلودروت سوف يلقي محاضرة عن بلوغ مرحلة النشوة لدى أنثى البجع.» ابتعدت إيلا عنه في حركة تلقائية، فجذبها إليه ثانية وقال: «عرفت أنك ستقومين بذلك. اجلسي في هدوء واستمعي. كانت القاعة تعج بالحاضرين. وقف البروفيسور — الذي كان طوله يقترب من المترين — ولحيته البيضاء الصغيرة تهتز وقال إنه أثبت إثباتًا نهائيًّا أن إناث البجع لا تبلغ مرحلة النشوة، وإنه سيستخدم هذا الاكتشاف العلمي المفيد كأساس لبحث موجز حول طبيعة بلوغ النشوة في الإناث بوجه عام.» ضحكت إيلا. «أجل، عرفت أيضًا أنك ستضحكين على هذه النقطة تحديدًا، لكنني لم أنته من كلامي.» بدا واضحًا في هذه اللحظة أن ارتباكًا ما ساد القاعة والحاضرون يقومون من أماكنهم استعدادًا للمغادرة. قال البروفيسور الموقر — وقد بدا عليه الغضب — إنه واثق من أن هذا الموضوع لن يكون مهينًا لأي شخص، فعلى الرغم من كل شيء هناك أبحاث تجرى حول طبيعة العلاقات الحميمة في جميع المستشفيات من هذا النوع في شتى أنحاء العالم. على الرغم من ذلك استمر الحاضرون في مغادرة القاعة. ومن الذي يغادر؟ النساء جميعهن. كان هناك نحو خمسة عشر رجلًا وخمس عشرة امرأة، وكل طبيبة من هؤلاء النساء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقوم من مكانها وتتجه نحو الخارج كأن أمرًا وُجِّه إليها. انتابت البروفيسور حالة من الغضب الشديد، ومدَّ لحيته الضئيلة أمامه وقال إنه مندهش من أن زميلاته اللائي يكِنُّ لهن درجة كبيرة من الاحترام يتصرفن بهذا المستوى من الخجل. لكن كلامه لم ينفع وخلت القاعة من النساء جميعًا. هنا تنحنح البروفيسور وأعلن أنه سيواصل إلقاء محاضرته على الرغم من سلوك الطبيبات الباعث على الأسى. قال إنه يرى – استنادًا إلى أبحاثه عن طبيعة أنثى البجع – أنه ما من أساس فسيولوجي يدعم بلوغ النساء مرحلة النشوة الكبرى ... كلَّا، لا تبتعدي إيلا، في الواقع يمكن التنبؤ بأفعال النساء على نحو يثير الدهشة. كنت جالسًا إلى جوار الدكتور بنويرثي وهو أب لخمسة أبناء وهمس لي إن هذا الأمر غريب للغاية، كثيرًا ما يرد ذكر زوجة البروفيسور التي تشتهر بحبها الشديد للمصلحة العامة في أحاديث زوجها القصيرة لكنها لم تكن حاضرة هذه المرة. في هذه اللحظة قمت بعمل أظنه خيانة لأبناء جنسي من الرجال حيث تبعت النساء إلى خارج القاعة، لكنهن اختفين جميعًا. اندهشت اندهاشًا شديدًا لأنني لم أر امرأة واحدة أمامي. لكن في النهاية وجدت صديقتي القديمة ستيفاني تتناول القهوة داخل المقصف. جلست إلى جوارها. كان واضحًا تمامًا أنها لا تود الانخراط في حديث معي. قلت: «ستيفاني، لم تركتن جميعًا المحاضرة الحاسمة التي يلقيها البروفيسور الشهير عن العلاقة الحميمة؟» ابتسمت لي ابتسامة يمتزج فيها العداء بالعذوبة البالغة وقالت: «لكن عزيزي بول، تتمتع المرأة أيًّا كانت بحكمة – بعد هذه القرون كلها – تمنعها من مقاطعة الحديث عندما يبدأ الرجال في الحديث عما يشعرون به تجاه العلاقة الحميمة.» استغرق الأمر نصف ساعة من الحوار الشاق وثلاثة أكواب من القهوة حتى تتخلى ستيفاني عن شعورها بالعداء تجاهي.» بدأ يضحك مجددًا وهو يحيطها بذراعيه. استدار كي ينظر إلى وجهها وقال: «لا تغضبي مني أنت الأخرى لأنني رجل كالبروفيسور الذي ألقى المحاضرة، هذا ما قلته لستيفاني أيضًا.» تلاشى شعور إيلا بالغضب وضحكت معه. كانت تفكر: سوف يأتي معي الليلة. على الرغم من أنه حتى وقت قريب كان يقضي معها كل ليلة تقريبًا، فإنه الآن يقضي ليلتين أو ثلاث ليال في منزله كل أسبوع. قال على نحو بدا عشوائيًّا: «إيلا، أنت أقل النساء اللائي عرفتهن شعورًا بالغيرة.» سرت في جسد إيلا قشعريرة مفاجئة ثم شعور بالهلع وبعدها بدأت الآلية الوقائية لديها تعمل سريعًا: لم تستمع إيلا إلى ما قاله ببساطة وقالت: «هل ستأتي معي الليلة؟» أجابها: «قررت ألا أفعل. لكن إن كنت قررت ذلك حقًّا لما كنت جالسًا هنا،

أليس كذلك؟» صعدا إلى الطابق العلوي من المنزل وكل منهما يمسك بيد الآخر. قال: «أتساءل عن كيفية حدوث توافق بينك وبين ستيفاني؟» فكرت أن نظرته إليها غريبة «كأنه يختبر شيئًا ما.» مرة أخرى راودها الشعور بالخوف وفكرت: إنه يتحدث كثيرًا عن ستيفاني هذه الأيام، أتساءل هل ... ثم شرد ذهنها وقالت: «لدي عشاء جاهز إن كنت تريد.»

تناولا الطعام ثم رمقها بنظرة متأملة وقال: «أنت طاهية ماهرة أيضًا. ماذا سأفعل معك إيلا؟»

قالت: «ما تفعله الآن.»

كان ينظر إليها نظرة دعابة بائسة ومعبرة عن اليأس اعتادت أن تراها منه كثيرًا في الوقت الحاضر. «أخفقت في تغييرك مطلقًا، حتى ملابسك وطريقة تصفيف شعرك.»

كان هذا النوع من الجدال يتكرر كثيرًا بينهما. كان يحرك شعر رأسها هنا أو هناك أو يحاول تغيير فستانها ليتخذ شكلًا مختلفًا ويقول: «إيلا، لماذا تصرين على أن تظهري كمدَرِّسة صعبة المراس في حين أنك أبعد ما تكونين عن ذلك؟» كان يشتري لها بلوزة مفتوحة من الأعلى أو يريها ثوبًا معروضًا في واجهة أحد المحلات ويقول: «لم لا تشترين ثوبًا كهذا الثوب؟»

لكن إيلا داومت على تصفيف شعرها الأسود بحيث يكون معقودًا إلى الخلف ورفضت ارتداء الملابس المثيرة التي تروق له. في عقلها الباطن كانت إيلا تفكر: إنه يشكو الآن من أنني لست راضية عن علاقتي به وأنني أريد رجلًا آخر. إلى أي حد سيصل تفكيره إن بدأت أرتدي ملابس مثيرة؟ إذا جعلت من نفسي امرأة فاتنة فلن يقوى على تحمل ذلك، فالوضع سيئ بطبيعة الحال.

قالت إيلا ذات مرة في لهجة تهكم: «لكن بول، أنت اشتريت لي تلك البلوزة الحمراء المفتوحة من أعلى، لكن عندما ارتديتها ودخلت عليّ في الحجرة تقدمت إلي وزررتها؛ فعلت ذلك تلقائيًا.»

في هذه الليلة اقترب بول منها وفك شعرها وتركه منسدلًا. كان يحملق في وجهها عن كثب وهو مقطب جبينه ثم مشط خصلات الشعر فوق جبهتها إلى الخلف ورتبه حول عنقها. تركته يفعل ما يحلو له وظلت هادئة تستشعر دفء يديه وابتسامته لها. فجأة فكرت: إنه يقارنني بامرأة أخرى، إنه لا يراني على الإطلاق. ابتعدت عنه سريعًا فقال: «إيلا، يمكنك أن تصيري امرأة جميلة حقًا إذا منحت نفسك الفرصة؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت: «ألا ترى أني جميلة إذن؟»

أصدر صوتًا يجمع بين التأوه والضحك ثم جذبها بجواره على الفراش وقال: «بالطبع لا.» قالت وهي تبتسم والثقة تملؤها: «حسنًا إذن.»

في تلك الليلة أخبرها بول — تقريبًا بالمصادفة — أنه معروض عليه وظيفة في نيجيريا وأنه يفكر في الذهاب. سمعته إيلا لكن وهي شاردة الذهن تقريبًا وراضية عن اللهجة الارتجالية التي فرضها على الموقف. بعد ذلك أدركت أن شعورًا بالهلع أصابها وأن النهاية أوشكت. لكنها أصرت على التفكير: حسنًا سوف يضع ذلك حلًّا لكل شيء، يمكنني أن أذهب معه، لا شيء يحملني على البقاء هنا. يمكن لمايكل أن يذهب إلى أي مدرسة هناك. ماذا لدي هنا كي أبقى من أجله؟

كان ذلك حقيقيًّا. فكرت إيلا وهي ترقد في الظلام بين ذراعي بول أن هاتين الذراعين استبعدتا — رويدًا رويدًا على مر السنين — جميع الأشخاص الآخرين من حياتها. نادرًا ما كانت إيلا تخرج لأنها لم تكن تستمتع بالخروج بمفردها ولأنها سلمت — في بداية علاقتهما — أن خروجهما معًا وسط مجموعة من الناس يعني حدوث مشكلات أكثر مما هو قائم فعلًا، فإما أن يشعر بول بالغيرة أو أن يقول إنه كان غريبًا وسط أصدقائها من الوسط الأدبي وهو ما ترد عليه: «إنهم ليسوا أصدقاء، إنهم معارف فحسب.» لم يكن لإيلا أي ارتباط حيوي إلا بابنها وبول وجوليا. يمكنها الحفاظ على علاقتها مع جوليا، فصداقتهما أبدية. لذلك قالت له حينئذٍ: «يمكنني أن آتي معك. أليس كذلك؟» بدا عليه التردد ثم قال وهو يضحك: «لكنك لا ترغبين في التخلي عن جميع نشاطاتك الأدبية المثيرة في لندن؟» أخبرته أنه مجنون تمامًا، وبدأت تضع خططًا للذهاب.

ذات مرة ذهبت معه إلى منزله حيث كانت زوجته وأبناؤه في إجازة، قبل ذلك شاهدا فيلمًا ثم قال إنه يريد ارتداء قميص نظيف. أوقف سيارته خارج منزل صغير يقع ضمن صف من المنازل المتطابقة في ضاحية إلى الشمال من منطقة شيبرد بوش. كانت لعب الأطفال متروكة على رقعة صغيرة من حديقة معتنى بها جيدًا.

قال بول غاضبًا: «دائمًا أتحدث مع موربيل بشأن الأطفال. لا يمكن أن يتركوا أشيائهم على الأرض هكذا.»

كانت تلك هي اللحظة التي أدركت فيها إيلا أن هذا هو منزله.

قال: «حسنًا، ادخلي لحظة.» لم تكن ترغب في الدخول لكنها تبعته. كانت الصالة مغطاة بورق حائط تقليدي منقوش برسوم زهرية وبها خزانة سوداء وبساط من

السجاد الأنيق. شعرت إيلا بالراحة على نحو ما. بدت غرفة المعيشة كأنها من عصر مختلف في الذوق: تضم ثلاثة أنواع مختلفة من ورق الحائط وستائر ووسائد متنافرة. من الواضح أنه جرى تغيير ديكور الغرفة للتو؛ فهي لا تزال كأنها في مرحلة العرض. أوقعت هذه الغرفة الكآبة في نفس إيلا، فتبعته إلى المطبخ أثناء بحثه عن القميص النظيف ولكنه هذه المرة يبحث عن جريدة طبية يحتاجها. بدا واضحًا أن المطبخ هو الحجرة المستعملة في هذا المنزل وكان يعج بالفوضى. لكن أحد الجدران مغطى بورق حائط أحمر اللون، لذلك بدا أن هذه الغرفة أيضًا تخضع لعملية تغيير الديكور. على مائدة المطبخ عشرات النسخ المتراكمة من مجلة «ربات البيوت». شعرت إيلا بأنها تلقت ضربة مباشرة؛ لكنها قالت لنفسها إنها تعمل في النهاية في هذه المجلة المتعجرفة ذات المستوى الرديء، وأي حق يتيح لها أن تتهكم من الأشخاص الذين يقرءونها؟ أخبرت نفسها أنها تدرك أنه ما من شخص واحد مستغرق تمامًا في العمل الذي يؤدونه، فكلهم يعملون على مضض وبأسلوب ساخر أو عقل مشتت، لذلك فإنها ليست أسوأ حالًا من الآخرين، لكن لم ينفع هذا الأمر، ويوجد تلفاز صغير في أحد أركان المطبخ؛ تخيلت زوجة بول وهي تجلس هناك ليلة بعد ليلة تقرأ مجلة «ربات البيوت» أو تشاهد التلفاز حال مراقبتها أصوات الأطفال في الطابق العلوي. شاهدها بول تقف هناك وتتحسس المجلات بأصابعها وتتأمل الغرفة فقال بأسلوبه الدعابي المتجهم والمعتاد: «هذا هو منزلها إيلا، ولها أن تنظمه كما تشاء. بالتأكيد هذا أقل ما يمكنني القيام به.»

– «أجل، ذلك أقل شيء.»

– أجل لا بد أنه في الطابق العلوي.

غادر بول المطبخ وبدأ يصعد السلم ثم أدار رأسه إلى الوراء وقال: «ما رأيك أن تصعدي إلى الأعلى؟» تساءَلَت: هل يريني منزله كي يوضح لي شيئًا؟ أيود أن يخبرني شيئًا؟ ألا يعرف أني أكره وجودي في هذا المكان؟

لكنها تبعته مجددًا ودون اعتراض إلى الطابق العلوي وإلي داخل غرفة النوم؛ هذه الغرفة مختلفة هي الأخرى، ومن الواضح أنها على هذه الحال تمامًا منذ وقت طويل، يوجد سريران على جانبي طاولة صغيرة أنيقة موضوع عليها صورة فوتوغرافية كبيرة لبول محاطة بإطار. تنوعت ألوان الغرفة ما بين الأخضر والبرتقالي والأسود واحتوت على الكثير من خطوط الحمار الوحشي المتواصلة. أرى أمامي غرفة مؤثثة حسب الذوق الذي كان سائدًا أيام عصر موسيقى الجاز التي ظهرت منذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خمس وعشرين سنة. عثر بول على مجلته — كانت موضوعة على طاولة بجانب الفراش — وأصبح مستعدًّا لمغادرة المنزل مرة أخرى. قالت إيلا: «في أحد الأيام سوف يعطيني دكتور ويست خطابًا يقول: «عزيزي دكتور أولسوب. أخبرني كيف أتصرف رجاءً. لم أعد أستطيع النوم. حاولت تناول اللبن الدافئ قبل الذهاب إلى النوم وحاولت تصفية ذهني لكن ما من فائدة. من فضلك وجه لي نصيحة، موربيل تانر.» وفي حاشية الخطاب: «نسيت أن أذكر أن زوجي يوقظني مبكرًا، قريبًا من السادسة، بعد عودته متأخرًا من العمل في المستشفى. في بعض الأحيان لا يأتي إلى المنزل طوال الأسبوع. حالتي النفسية تزداد سوءًا. يحدث ذلك منذ خمس سنوات.»»

أنصت بول بوجه جاد عبوس ثم قال في النهاية: «لم أخف عنك أنني لست فخورًا تمامًا بدوري كزوج.»

– لم لا تضع حدًّا لذلك إذن؟

تعجب ضاحكًا: «ماذا؟» ثم تقمص دوره كشخص ماجن وقال: «أترك المرأة المسكينة والطفلين؟»

– ربما تجد رجلًا يهتم بأمرها. لا تخبرني أنك ستمانع إن فعَلَتْ ذلك. بالطبع لا تروق لك حياتها هكذا؟

أجابها في جدية: «أخبرتك من قبل، إنها امرأة بسيطة للغاية. تفترضين دائمًا أن الآخرين يشبهونك، إنهم ليسوا كذلك. إنها تفضل مشاهدة التلفاز وقراءة «ربات البيوت» ولصق قصاصات من ورق الحائط فوق الجدران وهي أيضًا أم صالحة.»

– وهي لا تمانع ألا يكون في حياتها رجل؟

قال وهو يضحك مرة أخرى: «على حد علمي ثمة رجل في حياتها، لم أتحقق من هذا الأمر قط.»

– أوه حسنًا، لا أدري!

قالتها إيلا — في حالة من البؤس التام — وهي تتبعه إلى الطابق السفلي مرة أخرى. غادرت هذا المنزل المتنافر فشعرت براحة شديدة كأنها نجت من شَرَك نُصِبَ لها. ألقت بنظرها على طول الشارع وفكرت أنهم على الأرجح يشبهون ذلك، جميعهم مشتتون، ليس لأي منهم كيان مكتمل يعكس حياة مكتملة أو شخصًا كاملًا أو — في حالتهم هذه — أسرة كاملة. قال بول وهو ينطلق بالسيارة: «ما لا يروق لك إيلا أن موربيل ربما تكون سعيدة بهذه الحياة.»

– كيف يمكنها ذلك؟

– سألتها قبل حين هل ترغب في تركي. قلت لها إن بإمكانها العودة إلى أهلها إن أرادت ذلك. لكنها قالت لا. إضافة إلى أنها ستشعر بالضياع من دوني.

قالت إيلا وهي تشعر بالخوف والاشمئزاز: «يا إلهي!»

– إنها حقيقة، أنا لها بمنزلة الأب، فهي تعتمد عليّ في كل شيء.

– لكنها لا تراك مطلقًا.

قال في إيجاز: «لن أساوي شيئًا إذا لم أكن فاعلًا. عندما أذهب إلى المنزل أتولى الاهتمام بكل شيء كمدفأة الغاز وفاتورة الكهرباء والمكان الذي يمكن شراء سجادة زهيدة الثمن منه والأمور المتعلقة بتعليم الأطفال؛ في المجمل أتولى الاهتمام بكل شيء.» عندما لم تحر جوابًا استطرد: «أخبرتك من قبل إيلا أنك متغطرسة. لا يمكنك تحمل حقيقة أنها ربما تحب الحياة على هذا النحو.»

– كلَّا، لا أستطيع ولا يمكنني أن أصدق ذلك؛ فما من امرأة في هذا العالم ترغب في الحياة من دون الحب.

– إنك تنشدين الكمال، وأنت أيضًا مستبدة تُقَيِّمين كل شيء وفقًا لبعض المُثُل التي تؤمنين بها، وإن صادفت شيئًا لا يروق لمستوى أفكارك المهيبة ترفضينه تمامًا أو تتظاهرين أمام نفسك بأنه أمر جيد حتى إذا لم يكن كذلك.

فكرت إيلا: إنه يعنينا، في حين لا يزال بول مستطردًا: «على سبيل المثال ما من سبب لا يجعل موريبل تقول عنك: ما الذي يجعلها تتحمل حياتها كعشيقة لزوجي، أي أمان تشعر به في ظل هذا الوضع؟ علاوةً على أن هذا الوضع ليس جديرًا بالاحترام.»

– أوه، أمان!

– هكذا تمامًا. أنت تقولين — في استهزاء — أوه، أمان! أوه، جدير بالاحترام! لكن موريبل لن تقول ذلك، فهذان الأمران مهمان كثيرًا في نظرها، ومهمان كثيرًا في نظر معظم الناس.

خطر ببال إيلا أنه يبدو غاضبًا وأن كلامها أساء إليه. وخطر ببالها أيضًا أنه متعاطف مع زوجته (ولكن كل ما كان يرضيه وهو معها — إيلا — كان مختلفًا) وأن الأمان وجدارة الوضع بالاحترام أمران مهمان في نظره أيضًا.

كانت إيلا صامتة تفكر: إن كان يحب حياته حقًا على ذلك النحو أو على الأقل يريدها كذلك فهذا يفسر السبب وراء عدم شعوره الدائم بالرضا معي؛ فعلى النقيض من الزوجة الرصينة الجديرة بالاحترام العشيقة المستهترة المثيرة التي لا تستحق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاحترام. ربما كنت سأعجبه فعلًا إذا لم أكن مخلصة له وكنت أرتدي ملابس مثيرة. حسنًا لن أفعل ذلك. هذا ما أنا عليه، وإذا لم يرق له ذلك فليغض الطرف عنه.

في وقت متأخر من هذه الليلة قال وهو يضحك ولكن بأسلوب عدواني: «من الأفضل لك إيلا أن تصبحي كغيرك من النساء.»

– ماذا تقصد؟

– أن تكوني زوجة تقبعين في المنزل وتحاولين الحفاظ على زوجك من النساء الأخريات بدلًا من أن يكون لديك حبيب مفتون بك.

قالت في سخرية: «أهكذا ترى نفسك؟ لكن لِمَ تنظر إلى الزواج على أنه معركة؟ إنني لا أراه هكذا.»

قال في سخرية هو الآخر: «لا ترينه هكذا!» وبعد برهة: «كتبتِ للتو رواية عن الانتحار.»

– وما علاقة ذلك بما نتحدث عنه؟

– كل تلك الأفكار الذكية ....

توقف فجأة عن الكلام وجلس ينظر إليها نظرات ملؤها الأسى والانتقاد والاستنكار، مثلما فعلت إيلا. كانا في الطابق العلوي في غرفتها الصغيرة والطفل نائم في الغرفة المجاورة — وبقايا الطعام الذي أعدته موضوع على طاولة منخفضة بينهما — كما حدث مرات عديدة. حرك كأسًا من الخمر بين أصابعه وقال والألم يعتصره: «لا أدري كيف كنت سأجتاز الأشهر الأخيرة من دونك؟»

– ما الذي حدث تحديدًا في الأشهر القليلة الماضية؟

– لا شيء، وهذا هو لب المشكلة، فالحياة تسير بلا توقف. حسنًا، في نيجيريا لن أعالج القرح القديمة وجروح أسد أجرب. تلك طبيعة عملي؛ وضع المراهم على جروح حيوان كبير في السن ليس لديه من النشاط ما يعينه على مداواة نفسه. على الأقل في أفريقيا سوف أعمل من أجل شيء جديد ومتطور.

ذهب بول إلى نيجيريا فجأة دون توقع، على الأقل لإيلا. كانا لا يزالان يتحدثان عن الموضوع كأنه شيء سيحدث في المستقبل عندما أتي إليها يقول إنه سيسافر غدًا. كانت الخطط المتعلقة بكيفية سفرها معه غير واضحة لا محالة حتى يعرف طبيعة الحال هناك. ودعته إيلا في المطار كأنها ستلقاه مرة أخرى في غضون بضعة أسابيع. لكن بعد أن قبّلته مودعة إياه، استدار بابتسامة ملتوية كأن جسده بالكامل يتجهم في ألم، في حين أحست إيلا فجأة بالدموع تنهمر على وجهها وشعرت بالبرد

يسري في جميع جسدها بسبب الإحساس بالضياع. لم تستطع التوقف عن البكاء كي يتوقف شعورها بالبرد الذي جعلها ترتجف بصورة دائمة لأيام عدة بعد هذا اليوم. كتبت إيلا خطابات ورسمت خططًا وقد ولد بداخلها شبح وبدأ رويدًا رويدًا يلقي بظلاله القاتمة عليها ... كتب لها بول ذات مرة خطابًا أخبرها فيه أنه من المستحيل أن يحدد بعد كيف يمكن لها ولمايكل أن يلحقا به، ثم انقطعت خطاباته.

في ظهر أحد الأيام كانت إيلا تساعد دكتور ويست في قراءة كومة من الخطابات المعتادة فقال: «وصلني خطاب من بول تانر بالأمس.»

– حقًا؟

لم يكن دكتور ويست – على حد علمها – يعلم شيئًا عن علاقتها ببول.

– يبدو أن الوضع يروق له هناك، لذلك أظن أن أسرته ستلحق به.

جمع عددًا من الخطابات إلى بعضها في عناية من أجل مجموعة الخطابات الخاصة به واستطرد: «أظن أن رحيله كان أفضل له، فقد أخبرني قبل رحيله مباشرة أنه تورط مع امرأة طائشة تمامًا. بدا الأمر وكأنه تورط معها بدرجة كبيرة. أرى أنها لم تكن مناسبة.»

حملت إيلا نفسها على التنفس على نحو طبيعي ودققت النظر فيه، وقررت أن قوله لا يعدو أن يكون ثرثرة عادية عن صديق مشترك وأنه لم يستهدف الإساءة إليها. التقطت إيلا خطابًا أعطاه إياها ورد في بدايته: «عزيزي دكتور أولسوب، أكتب إليك بشأن صغيري الذي يسير أثناء النوم ...» وقالت: «هذه المشكلة من اختصاصك بكل تأكيد دكتور ويست؟» استمرت هذه المشاكسة الهادئة دون تغير على الرغم من السنوات التي عملا معًا خلالها. «كلّا إيلا، إنها ليست كذلك. إذا كان هناك طفل يسير أثناء نومه، فلن يجدي وصفي للأدوية شيئًا وستكونين أول من يلقي باللوم عليّ إن فعلت ذلك. أخبري هذه السيدة أن تذهب إلى أحد الإخصائيين وألمحي إليها في براعة أن ذلك خطؤها وليس خطأ الطفل. لست في حاجة لأن أخبرك بما تقولين.» أمسك خطابًا آخر وقال: «أخبرت تانر أن يبقى خارج إنجلترا بقدر ما يستطيع. ليس من السهل دائمًا وضع نهاية لمثل هذه العلاقات، علاوة على أن هذه الفتاة كانت تلح عليه كي يتزوج بها. في الواقع لم تكن فتاة صغيرة السن، وتلك هي المشكلة. أظن أنها سئمت حياة اللهو وأرادت أن تنعم بالاستقرار.»

لم تفكر إيلا في هذا الحوار حتى انتهت من تقسيم الخطابات مع دكتور ويست. توصلت إيلا إلى قرار في النهاية: لقد كنت ساذجة. أظن أنه كان على علاقة بستيفاني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

داخل المستشفى. على الأقل، لم يتحدث عن أحد سوى ستيفاني، دائمًا يتحدث عنها. لكنه لم يتحدث عنها قط بهذه اللهجة؛ كأن يصفها بأنها «امرأة طائشة». كلَّا، إنها لغة دكتور ويست وزوجته، فهما يستخدمان عبارات حمقاء مثل «امرأة طائشة» و«سَئِمَتْ حياة اللهو». يا لهذه اللغة المبتذلة التي يستخدمها أفراد الطبقة المتوسطة الجديرون بالاحترام على نحو ملحوظ.

في تلك الأثناء شعرت إيلا بكآبة بالغة، والشبح الذي ظلت تقاومه منذ رحيل بول تمكن منها كليًّا. فكرت في زوجة بول: لا بد أنها شعرت بالشعور نفسه — الشعور بالرفض التام — عندما تخلى بول عن الاهتمام بها. على الأقل يبدو أنها — إيلا — استفادت من حماقتها الشديدة التي لم تدرك معها أن بول كان على علاقة بستيفاني، لكن من الممكن أن تكون مورييل اختارت هي الأخرى أن تكون حمقاء؛ فاختارت تصديق أن بول يقضي كثير من الليالي داخل المستشفى.

رأت إيلا في نومها حلمًا بغيضًا ومزعجًا: كانت في المنزل الصغير القبيح ذي الغرف الضيقة التي تختلف جميعًا بعضها عن بعض. رأت أنها زوجة بول وأنها لم تستطع أن تحول دون تحطم المنزل وتناثر أجزائه في شتى الاتجاهات بسبب حالة التنافر الموجودة بين غرف المنزل إلا عن طريق بذل جهد نابع من إرادتها. اتخذت إيلا قرارًا بأن تؤثث المنزل بأكمله من جديد في نمط واحد يعبر عن أسلوبها. لكن حالما كانت تعلق ستائر جديدة أو تطلي إحدى الحجرات تجد غرفة مورييل تعود من جديد. كانت إيلا بمنزلة شبح في هذا المنزل وأدركت أن المنزل سيتماسك — على نحو ما — ما دامت روح مورييل داخله، وإن كان متماسكًا على وجه التحديد لأن كل حجرة تنتمي إلى عصر مختلف وروح مختلفة. رأت إيلا نفسها واقفة في المطبخ ويدها على كومة من «ربات البيوت»؛ كانت «امرأة مثيرة» (بإمكانها أن تتخيل دكتور ويست وهو يلقي على مسامعها هاتين الكلمتين) ترتدي تنورة ملونة ضيقة وقميصًا ضيقًا جدًّا وشعرها مصفف بأناقة. أدركت إيلا أن موريل لم تكن هناك في النهاية؛ فقد ذهبت إلى نيجيريا للحاق ببول، وأن إيلا تنتظر عودة بول داخل المنزل.

كانت إيلا تبكي عندما استيقظت من هذا الحلم. خطر ببالها — للمرة الأولى — أنها هي المرأة التي يتعين أن ينفصل عنها بول والتي بسببها سافر إلى نيجيريا لأنه كان لا بد له أن ينفصل عنها مهما كلفه الأمر، إنها هي المرأة الطائشة.

أدركت إيلا أيضًا أن دكتور ويست تحدث إليها قاصدًا، ربما بسبب بعض الجمل التي ذكرها بول في خطابه. كان حديثه معها تحذيرًا لإيلا من هذه الطبقة الجديرة بالاحترام التي ينتمي إليها دكتور ويست وكأنما يحاول حماية أحد أتباعه.

من الغريب أن الصدمة كانت كافية — لفترة من الوقت على الأقل — لكسر شوكة المزاج الكئيب الذي أحكم قبضته المظلمة عليها طوال شهور. سيطرت على إيلا حالة من التحدي الغاضب المرير. أخبرت جوليا أن بول قطع علاقته بها وأنها كانت حمقاء لأنها لم تفهم ذلك من قبل (وأشار صمت جوليا إلى أنها تتفق مع إيلا تمامًا). قالت إنها لا تنوي إهدار وقتها في البكاء على ما حدث.

خرجت إيلا وابتاعت لنفسها ملابس جديدة دون أن تدري أنها تخطط لذلك على نحو لاإرادي. لم تكن الملابس «مثيرة» كتلك التي كان بول يحثها على ارتدائها، لكنها اختلفت عن أي ملابس ارتدتها من قبل وناسبت شخصيتها الجديدة الصارمة والطبيعية وغير المبالية تمامًا، أو على الأقل ظنت ذلك. قصت شعرها بحيث اتخذ شكلًا ناعمًا ومثيرًا حول وجهها الصغير البارز وقررت أن تترك منزل جوليا، فهذا هو المنزل الذي عاشت فيه مع بول ولم تستطع تحمله أكثر من ذلك.

وجدت إيلا — في رباطة جأش وصفاء ذهن وحذاقة بالغة — لنفسها شقة جديدة واستقرت بها. كانت شقة واسعة كثيرًا لتقيم فيها هي والطفل. لم تدرك أن هذه المساحة الزائدة تحتاج رجلًا إلا بعد أن استقرت فيها. في الواقع فكرت أنها بحاجة إلى بول ولا تزال تحيا على أمل أنه سيعود إليها.

بعد ذلك تنامى إلى سمعها — عن طريق الصدفة البحتة — أن بول عاد إلى إنجلترا لقضاء إجازة وأنه موجود فعلًا منذ أسبوعين. في الليلة التي تلت سماعها تلك الأخبار وجدت إيلا نفسها ترتدي ملابسها وتتزين وتصفف شعرها في عناية وتقف أمام النافذة تنظر إلى الشارع وتنتظر مجيئه. ظلت تنتظر بعد منتصف الليل بوقت طويل وهي تفكر: ربما يؤخره عمله في المستشفى هكذا، ليس عليّ الذهاب إلى النوم مبكرًا جدًّا لأنه سيرى الأنوار مطفأة ولن يصعد خشية أن يوقظني من النوم.

واصلت إيلا وقوفها على هذه الحال ليلة بعد ليلة. كانت ترى نفسها واقفة هناك وهي تقول لنفسها: ما أفعله ضرب من الجنون. هكذا الجنون؛ يصبح المرء مجنونًا عندما يكون غير قادر على منع نفسه من القيام بشيء يعرف أنه مخالف للصواب، لأنك تعرفين أن بول لن يأتي. على الرغم من ذلك استمرت إيلا في ارتداء ملابسها والانتظار أمام النافذة لساعات كل ليلة. وأثناء وقوفها هناك وتأملها لحالها استطاعت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تفهم كيف أن هذا الجنون مرتبط بالجنون الذي حال دون رؤيتها لحقيقة النهاية المحتومة لهذه العلاقة، أو بعبارة أخرى السذاجة التي جعلتها تشعر بسعادة بالغة. أجل، كان الإيمان الأعمى والسذاجة — على نحو منطقي تمامًا — سببين في وقوفها أمام النافذة منتظرة رجلًا تعرف حق المعرفة أنه لن يعود إليها أبدًا.

بعد مرور بضعة أسابيع سمعت إيلا من دكتور ويست — بدا الكلام في الظاهر مصادفة على الرغم من أنه حمل بين طياته خبثًا مستترًا ممزوجًا بنشوة الانتصار — أن بول عاد إلى نيجيريا مرة أخرى. قال دكتور ويست: «لن تذهب زوجته معه؛ فهي لا تريد التخلي عن جذورها. وكما يبدو فإنها راضية تمامًا عن حالها.»

تكمن المشكلة في هذه القصة أنها كتبت من منظور تحليل القوانين التي حكمت انتهاء العلاقة بين بول وإيلا. لا أرى أسلوبًا آخر لكتابتها غير ذلك، فإذا عايش المرء تجربة ما فإنها تصبح قالبًا. وقالب العلاقة العاطفية — حتى التي استمرت خمس سنوات وكانت أقرب ما تكون من الزواج — يُرى من منظور ما تئول إليه العلاقة. وهذا هو السبب الذي يجعل ذلك كله خاليًا من الصحة لأنه أثناء معايشة التجربة لا يفكر المرء على هذا النحو مطلقًا.

لنفترض أني كنت سأكتبها على النحو الآتي: يومان كاملان بأدق تفاصيلهما؛ أحدهما يجسد بداية العلاقة والثاني يتجه بها نحو النهاية. كلَّا، لأني كنت سأفكر في العوامل التي أدت إلى تدمير العلاقة كل عامل على حدة وأؤكد عليها فطريًّا. فهذا هو الأسلوب الذي سيعطي القصة شكلًا وإلا ستصبح نوعًا من الفوضى، لأن هذين اليومين — اللذين تفصل بينهما شهور عدة — لن يكونا مصطبغين بأي صبغة من أي نوع، ولكنهما سيمثلان تدوينًا لشعور بالسعادة الرائقة التي ربما تتخللها لحظة صادمة أو اثنتان (قد يعكسان في واقع الأمر اقتراب النهاية، ولكن ذلك الشعور لن يكون واضحًا في حينه) ولكن الشعور بالسعادة سيمتص الصدمة ويخفيها بين طياته.

يُعْنَى الأدب بتحليل ما بعد الحدث.

تتخذ المقطوعة الأدبية الثانية — التي تدور حول ما حدث في ماشوبي — شكل الحنين إلى الماضي؛ في حين تخلو هذه المقطوعة — التي تحكي عن قصة بول وإيلا — من فكرة الحنين إلى الماضي وتتخذ شكل لون من ألوان الألم.

إذا أردنا استعراض صورة امرأة تبدي مشاعر الحب تجاه رجل، فعلينا أن نظهرها وهي تعد له الطعام أو تفتح زجاجة من الخمر أثناء انتظار قرعه جرس الباب، أو تستيقظ في الصباح قبله كي ترى وجهه وهو يتغير من هدوء النوم إلى ابتسامة الاحتفاء بها، لكن ذلك ليس أدبًا، ربما يكون من الأفضل أن يُصنع فيلمًا؛ أجل، فذلك تجسيد للطابع المادي للحياة وليس تحليل لما بعد الأحداث أو لحظات الخلاف وسيطرة الهواجس. ربما يمثل المشهد التالي لقطة في أحد الأفلام: إيلا تقشر برتقالة في أناة، تعطي بول فصوص الثمرة الصفراء التي يتناولها واحدًا تلو الآخر في تأمل وتجهم: فهو يفكر في شيء آخر.

[يبدأ الدفتر الأزرق بجملة:]

«يبدو أن تومي يوجه اتهامًا إلى أمه.»

[بعدها كتبت آنا:]

صعدت إلى الطابق العلوي بعد المشهد الذي رأيته بين تومي ومولي وعلى الفور بدأت أصوغ ما حدث في صورة قصة قصيرة. خطر ببالي أن فعل ذلك — تحويل كل شيء إلى خيال — لا بد أن يكون وسيلة للهروب. لم لا أكتب — فحسب — ما حدث بين مولي وابنها اليوم؟ لم لا أكتب ما يحدث دائمًا فحسب؟ لم لا أحتفظ بدفتر يومي؟ من الواضح أن تحويل كل ما يحدث إلى خيال هو في بساطة وسيلة لإخفاء شيء عن نفسي. كان ذلك واضحًا تمامًا اليوم: أجلس وأستمع إلى الجدال بين مولي وتومي وأشعر بالانزعاج الشديد لذلك، بعدها أصعد إلى الطابق العلوي مباشرة وأبدأ في كتابة قصة دون التخطيط لذلك. عليّ الاحتفاظ بدفتر يومي.

٧ يناير/كانون الثاني ١٩٥٠

بلغ تومي السابعة عشرة من عمره هذا الأسبوع. لم تمارس مولي قط أي ضغط عليه كي يتخذ قرارًا بشأن مستقبله. في الواقع أخبرته مولي منذ وقت قريب أن يكف عن القلق وأن يذهب إلى فرنسا لبضعة أسابيع كي «تتسع مداركه». (أثارت هذه الجملة حفيظته عندما استخدمتها.) اليوم دخل تومي إلى المطبخ وهو ينوي الشجار، أدركت أنا ومولي ذلك فور دخوله. كان تومي يتخذ موقفًا عدائيًّا من مولي لبعض الوقت، وهو ما بدأ عقب زيارته الأولى لمنزل والده. (في ذلك الوقت لم ندرك مدى تأثير هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزيارة فيه.) بعدها بدأ ينتقد أمه لأنها شيوعية ولأنها «بوهيمية». استخفت مولي بهذا القول وقالت إن زيارة منازل البلدة المليئة بالأعيان من أصحاب الأراضي والأموال أمر ممتع لكنه محظوظ للغاية أنه لم يحيا تلك الحياة. زار منزل والده ثانية بعد بضعة أسابيع وعاد إلى أمه دمثًا للغاية، ومشحونًا بالعداوة. تدخلتُ في هذه اللحظة: أخبرته عن تاريخ مولي مع أبيه؛ ذلك التاريخ الذي كانت مولي تفتخر به كثيرًا؛ عن تعسفه المادي في التعامل معها حتى يحملها على العودة إليه ثم تهديداته لها بأنه سيخبر رؤساءها في العمل بأنها شيوعية وما شابه حتى تفقد وظيفتها، أخبرته تلك القصة الطويلة والبشعة بأكملها. لم يصدقني تومي في البداية؛ فأنا أتخيل أنه ما من أحد يفوق ريتشارد سحرًا عند قضاء إجازة طويلة معه. صَدَّقَني بعد ذلك، لكن هذا لم يجد نفعًا. اقترحت مولي أنه يجدر بتومي الذهاب إلى أبيه لقضاء الصيف على أمل أن يختفي هذا السحر بمرور الوقت (على حد تعبيرها). قضى تومي ستة أسابيع في منزل ريفي يضم زوجة فاتنة متمسكة بالأعراف المتبعة وثلاث فتيات صغيرات يملأن النفس سرورًا. يأتي ريتشارد إلى المنزل في عطلات الأسبوع برفقة الضيوف من أعيان البلدة الذين يعمل معهم. كانت لفكرة مولي مفعول السحر، فقد قال تومي: «كانت عطلات الأسبوع طويلة إلى حد بعيد.» شَعُرْت بالسعادة لكن لفترة وجيزة. كان شجار اليوم يشبه مشهدًا من إحدى المسرحيات. دخل تومي في الظاهر على أساس أن عليه اتخاذ قرار بشأن الخدمة العسكرية، وبدا واضحًا أنه يتوقع من مولي أن تشير عليه برفض أداء الخدمة العسكرية. بالطبع أرادت مولي ذلك لكنها قالت إن القرار يعود إليه. بدأ بجدال عن ضرورة أدائه الخدمة العسكرية، ثم تحول الأمر إلى هجوم على أسلوب حياتها ومعتقداتها السياسية وأصدقائها وكل ما هي عليه. جلس كل منهما في مواجهة الآخر على طاولة المطبخ ووَجْهُ تومي القاتم المتعنت المتجهم مستهدفًا إياها، وجلست هي هادئة ومسترخية تمامًا تركز اهتمامها جزئيًا على إعداد طعام الغداء وتندفع على نحو متستمر صوب الهاتف لمناقشة قضايا تتعلق بالحزب، وهو ينتظر في غضب وترو أثناء كل مكالمة حتى تعود مولي. في نهاية الجدال الذي استمر طويلًا أقنع نفسه بضرورة رفض الخدمة العسكرية، والآن صار هجومه عليها مرتبطًا بهذا الموقف؛ سيطرة السلطة العسكرية في الاتحاد السوفييتي، إلخ. عندما صعد إلى الطابق العلوي معلنًا — كأنه نتيجة طبيعية لما حدث من قبل — أنه سيتزوج في سن صغيرة جدًّا وسيحظى بأسرة كبيرة، لم تستطع مولي الوقوف على قدميها من الإنهاك وبدأت في البكاء. أما أنا فصَعَدْت إلى أعلى كي أقدم

لجانيت غداءها وأنا أشعر بالانزعاج لأن مولي وريتشارد ذكراني بوالد جانيت. في رأيي كانت تلك علاقة حمقاء مشحونة بأقصى درجات الجنون وبلا أهمية. ومهما كررت من عبارات مثل: «والد طفلتي» لن يتغير موقفي حيال ذلك، فيومًا ما ستقول جانيت: «تزوجت أمي من أبي عامًا ثم انفصلا.» وعندما تتقدم في السن وأخبرها بالحقيقة ستقول: «عاشت أمي مع أبي ثلاثة أعوام، ثم قررا إنجاب طفل وتزوجا كي لا أكون ابنة غير شرعية ثم انفصلا.» لكن هذه الكلمات ليست لها أي علاقة بأي شيء أشعر أنه حقيقي، فكلما فكرت في ماكس غمرني إحساس بالعجز. أذكر أن إحساسي بالعجز جعلني أكتب عنه من قبل. (ويلي في الدفتر الأسود.) لكن اللحظة التي ولدت فيها الطفلة رسمت نهاية هذا الزواج الأحمق العقيم. أذكر أنني فكرت عندما رأيت جانيت للمرة الأولى: حسنًا، ما الذي يهمني، الحب، الزواج، السعادة، إلخ. ها هي تلك الطفلة الرائعة. لكن جانيت لن تفهم ذلك، وتومي أيضًا لا يفهمه. وإن استطاع تومي أن يشعر بذلك فسيكف عن ازدراء مولي لأنها تركت أباه. أتذكر أنني بدأت كتابة دفتر ذات مرة قبل ولادة جانيت. سوف أبحث عنه. حسنًا، ها هو المدخل الذي أتذكره على نحو مبهم:

٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٤٦

عدت من العمل في وقت متأخر من الليل ودخلت إلى حجرة الفندق الكئيبة لأجد ماكس مستلقيًا على الفراش في صمت. جلست على الأريكة، فجاء إليَّ ووضع رأسه في حجري وذراعيه حول خصري، وأمكنني الشعور بيأسه. قال: «آنا، ما من شيء يقوله أحدنا للآخر، لِمَ ذلك؟»

– لأن طباعنا مختلفة.

سألني وهو يقحم لهجة التهكم التلقائية في صوته — كنوع من التشدق المتهكم الوقائي والمتعمد في الكلام: «ما معنى هذا؟ ماذا تقصدين بأن طباعنا مختلفة؟» شعرت برجفة وأنا أفكر أن هذا ربما لا يعني شيئًا، لكنني تطلعت إلى المستقبل وقلت: «من المؤكد أن توافق الطباع يعني شيئًا؟» بعد ذلك قال: «تعالي إلى الفراش.» وهناك وضع يده فوق صدري فشعرت بالنفور من إقامة علاقة معه وقلت: «وما الفائدة، نحن لا يصلح أحدنا للآخر ولم نكن قط؟» وهكذا خلدنا إلى النوم. مع اقتراب الصباح أقام الزوجان الشابان في الحجرة المجاورة لنا علاقة. كانت الجدران رقيقة جدًّا حتى إننا سمعنا كل شيء، وهو ما جعلني أشعر بتعاسة لم يسبق لي أن شعرت بها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استيقظ ماكس وقال: «ما الخطب؟» قلت: «أترى، من الممكن أن نكون سعداء، وعلينا مواصلة الاعتقاد في ذلك.» كان الجو حارًّا جدًّا، والشمس مشرقة والزوجان يضحكان بجوار الباب، وهناك بقعة دافئة باهتة من الضوء الوردي القادم من الشمس فوق الجدار. استلقى ماكس بجواري والسخونة والبؤس يشعان من جسده. كانت الطيور تعلو أصواتها بالتغريد، ثم زادت حرارة الشمس كثيرًا مما جعل الطيور تهدأ. وفجأة بدَأَت تُحدث جلبة متنافرة صاخبة مفعمة بالحياة ثم راح يعاودها الصمت. كان الزوجان يتحدثان ويضحكان ثم استيقظ صغيرهما وبدأ يبكي. قال ماكس: «ربما يجدر بنا إنجاب طفل؟» قلت: «أتقصد أن إنجاب طفل سيجمع بيننا؟» قلتها في انفعال وكرهت نفسي لقولها، لكن تصرفاته العاطفية تجاهي تشعرني بالغضب. بدا عنيدًا وقال ثانية: «يجدر بنا إنجاب طفل.» ثم فكرت فجأة: ولِمَ لا؟ لن نستطيع ترك المستعمرة قبل شهور، فنحن لا نملك المال. لننجب طفلًا إذن، دائمًا أحيا كأن حدثًا رائعًا سوف يتجسد في وقت ما في المستقبل. لنفعل شيئًا الآن ... وهكذا استدرت إليه وأقمنا علاقة. حملت في جانيت هذا الصباح، وتزوجنا الأسبوع التالي في مكتب الزواج المدني، ثم انفصلنا بعد مرور عام. لكن هذا الرجل لم يمسني قط ولم يقترب مني قط. لكن هناك جانيت ... أظن أنه علي الذهاب إلى محلل نفسي.

١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٥٠

قابلت السيدة ماركس اليوم، بعد الإجراءات الأولية قالت: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟» قلت: «لأني مررت بتجارب كان من المفترض أن تؤثر فيّ، لكن ذلك لم يحدث.» كانت تنتظر المزيد، لهذا قلت: «على سبيل المثال، قرر ابن صديقتي مولي الأسبوع الماضي رفض الخدمة العسكرية، لكنه كان من الممكن أيضًا ألا يتخذ قرارًا بذلك. إنه أمر أدركه في نفسي.»

– ماذا؟

– أنا أراقب الآخرين — إنهم يتخذون قرارًا بالاختيار بين أمرين، لكن يبدو الأمر كأنه رقصة أو ما شابه — فهم قادرون أيضًا على فعل النقيض بالدرجة نفسها من الاقتناع.

تردَّدَت برهة ثم سألتني: «هل كتبت رواية؟»

– أجل.

– أتكتبين أخرى؟

– كلَّا، لا ينبغي لي كتابة رواية أخرى أبدًا.

أومأت برأسها. كنت أعرف تلك الإيماءة فقلت: «لست هنا لأنني أعاني مشكلة انقطاع الأفكار.» أومأت برأسها ثانية فقلت: «عليك أن تصدقي أنه إذا ...» كان هذا التردد مقيتًا ومشحونًا بالعداء وقلت بابتسامة أدركت أنها عدائية: «... إن كنا سنحرز تقدمًا.» ابتسمت بأسلوب جاف ثم قالت: «لم لا تريدين تأليف كتاب آخر؟»

– لأنني لم أعد أؤمن بالفن.

– إذن أنت لا تؤمنين بالفن؟

قالتها وهي تفصل بين الكلمات وتتمهل عند كل كلمة حتى أتأملها.

– كلَّا.

– حسنًا.

١٤ يناير/كانون الثاني ١٩٥٠

تراودني في نومي أحلام كثيرة جدًّا: أحلم أني في قاعة حفلات موسيقية تضم جمهورًا يشبه الدمى يرتدي ملابس سهرة. ثمة بيانو كبير أجلس عليه مرتدية ثوبًا من الساتان على الطراز الإدواردي على نحو سخيف وقلادة من اللؤلؤ كالملكة ماري. أعجز عن العزف، والجمهور ينتظر. يظهر الحلم كأنه مشهد من إحدى المسرحيات أو صورة قديمة. أخبر السيدة ماركس عن هذا الحلم، فتسألني: «عن أي شيء يدور هذا الحلم؟» أجيبها: «عن الافتقار إلى المشاعر.» ترتسم على وجهها تلك الابتسامة الصغيرة الحصيفة التي تدير جلساتنا مثل عصا المايسترو. حلم آخر: فترة الحرب في أفريقيا الوسطى، قاعة رقص دنيئة المستوى، جميع الحاضرين سكارى، يأتون بحركات راقصة مثيرة للغرائز. أنتظر على جانب صالة الرقص. يقترب مني رجل يشبه دمية ملساء. أدرك أنه ماكس. (لكنه يتميز بسمة أدبية من تلك السمات التي كتبتها عن ويلي في الدفتر.) أرتمي بين ذراعية كأني دمية متجمدة عاجزة عن الحركة. يسيطر على الحلم مجددًا طابع مخيف، إنه يشبه رسمًا كاريكاتوريًّا. تسألني السيدة ماركس: «وعن أي شيء يدور هذا الحلم؟»

– الشيء نفسه، الافتقار إلى المشاعر؛ كنت أعاني فتورًا في المشاعر تجاه ماكس.

– أنت تخشين إذن من فتور المشاعر؟

– كلَّا، لأنه كان الرجل الوحيد الذي شعرت تجاهه بهذا الفتور.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أومأت برأسها، وفجأة بدأ ينتابني القلق: أيمكن أن أُصاب بفتور المشاعر مرة أخرى؟

١٩ يناير/كانون الثاني ١٩٥٠

هذا الصباح كنت في غرفتي في الطابق العلوي. سمعت طفلًا صغيرًا يبكي عبر الجدار، فتذكرت حجرة الفندق في أفريقيا عندما كان الطفل يوقظنا ببكائه في الصباح، وبعد أن يتناول طعامه يبدأ في إصدار أصوات فرحة في حين يقيم أبواه علاقة. كانت جانيت تلعب على الأرض بمكعباتها. طلب مني مايكل الليلة الماضية أن نخرج في نزهة بالسيارة، وقلت إنني لا أستطيع لأن مولي ستخرج ولا يمكنني ترك جانيت. قال بأسلوب ساخر: «حسنًا، الاهتمام بالأبناء يسبق دائمًا الاهتمام بمن نحب.» وبسبب هذه السخرية اللاذعة أعربت عن نفوري منه. وشعرت هذا الصباح أني محاصرة بهذه الصفة المتكررة؛ الطفل الصغير الذي يبكي بالقرب من الباب وعداوتي لمايكل. (تذكرت عداوتي لماكس.) بعد ذلك انتابني شعور بالشك — لم أستطع تذكر المكان الذي كنت فيه — هنا في لندن أم هناك في أفريقيا في المبنى الآخر حيث أسمع بكاء الصغير عبر الجدار. نظرت جانيت إليّ وهي على الأرض وقالت: «تعالي لتلعبي معي يا أمي.» لم أستطع التحرك. حملت نفسي على القيام عن الكرسي بعد برهة وجلست على الأرض بجوار الطفلة الصغيرة، لكني لم أشعر بها. قالت ثانية: «العبي معي يا أمي.» حرَّكْتُ مكعبات خشبية لبناء منزل، لكنني كنت كآلة أجبر نفسي على أداء كل حركة. أستطيع أن أراني جالسة على الأرض، صورة «أم شابة تلعب مع ابنتها الصغيرة.» كأنها مشهد من فيلم أو صورة فوتوغرافية. أخبرت السيدة ماركس عن ذلك وقالت: «وليكن؟» قلت: «إنها كسائر الأحلام، هذا ما يحدث فجأة في الواقع فقط.» تريثت قليلًا فقلت: «كان ذلك بسبب شعوري بالعداء لمايكل، وهو ما أصاب كل شيء بالفتور.»

– أتقيمين علاقة معه؟

– أجل.

تمهلت ثانية فقلت وأنا أبتسم: «كلَّا، لا أشعر بالفتور تجاهه.» أومأت برأسها إيماءة تنم عن الانتظار. لم أستطع أن أدرك ما كانت تتوقع مني أن أقول. حثتني على مواصلة الحديث بقولها: «طلبت منك ابنتك الصغيرة أن تأتي وتلعبي معها؟» لم أفهم ما ترمي إليه. قالت: «طلبت منك أن تلعبي؛ أن تأتي وتلعبي، وأنت لم تستطيعي اللعب.» فهمت ما ترمي إليه وشعرت بالغضب. طوال الأيام القليلة الماضية

كانت تحدث أمور تدفعني إلى الفكرة نفسها مرارًا وتكرارًا بمهارة فائقة، وكل مرة كنت أشعر بالغضب، ودائمًا يبدو غضبي كدرع يحميني من الحقيقة. قلت: «كلَّا، لم يكن هذا الحلم عن الفن، لم يكن كذلك.» وأضفت في دعابة: «من الذي رأى هذا الحلم، أنت أم أنا؟» لكنها لم تضحك على هذه الدعابة: «عزيزتي، كتبت هذه الرواية؛ أنت فنانة.» نطقت كلمة فنانة بابتسامة هادئة متفهمة دالة على الاحترام. «سيدة ماركس، لا بد أن تصدقينني، لن أهتم إذا لم أكتب كلمة أخرى قط.»

– أنت لا تهتمين.

قالتها وهي تقصد أن تسمعني كلماتي الكامنة وراء عبارة «لن أهتم»: الافتقار إلى المشاعر. تشبثت بموقفي وقلت: «أجل، أنا لن أهتم.»

– عزيزتي، صرت محللة نفسية لأنني ظننت ذات مرة أني فنانة. إنني أعالج عددًا كبيرًا من الفنانين. كم من الأشخاص جلسوا مكانك بسبب انقطاع أفكارهم وعجزهم — في أعماق أنفسهم — عن المزيد من الإبداع.

– لكنني لست واحدة من هؤلاء.

– صِفي نفسك.

– كيف؟

– صِفي نفسك كأنك تصفين شخصًا آخر.

– آنا وولف امرأة ضئيلة الجسم داكنة البشرة نحيلة القوام حادة الطبع مفرطة في انتقاد الآخرين ومتأهبة دائمًا للدفاع عن نفسها، تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا. تزوجت لمدة عام من رجل لا تهتم بأمره ولديها طفلة صغيرة، وتنتمي للحزب الشيوعي.

ابتسَمَت، فقلت: «أهذا سيئ؟»

– حاولي مرة أخرى: آنا وولف مؤلفة رواية نالت إشادة من النقاد ونجحت نجاحًا كبيرًا حتى إنها في الواقع لا تزال تنفق على نفسها من الأموال التي حققتها الرواية.» كنت مشحونة بالغضب.

– حسنًا: آنا وولف تجلس على كرسي أمام طبيبة نفسية. ذَهَبَتْ إلى هناك لأنها لا تستطيع الشعور بأي شيء بعمق. إنها متجمدة. لديها عدد كبير من الأصدقاء والمعارف. يشعر الآخرون بالسعادة عندما يرونها، لكنها تهتم بأمر شخص واحد فقط في العالم؛ ابنتها جانيت.

– ما الذي يجعلها هكذا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إنها خائفة.

– من أي شيء؟

– من الموت.

أومأت برأسها فقاطعتها: «كلَّا، لا أخشى موتي. يبدو لي أنه منذ صارت لدي القدرة على تذكر الأمور، فإن الشيء الحقيقي الذي يحدث في العالم هو الموت والفناء.»

– لم أنت شيوعية؟

– على الأقل هم يؤمنون بشيء ما.

– لِمَ تقولين هم في حين أنك عضو في الحزب الشيوعي؟

– لو كنت أستطيع أن أقول نحن — وأنا أعنيها حقًّا — لما كنت هنا، أليس كذلك؟

– إذن أنت لا تأبهين حقًّا لرفاقك؟

– تربطني بالجميع علاقة طيبة إن كان هذا ما تقصدين.

– كلَّا، ليس هذا ما أقصد.

– أخبرتك أن الشخص الوحيد الذي أهتم بأمره حقًّا هو ابنتي، وتلك أنانية.

– ألا تهتمين بأمر صديقتك مولي؟

– أُكِنُّ لها الكثير من الحب.

– ولا تهتمين بأمر صديقك مايكل؟

– لنفترض أنه تخلى عني غدًا، إلى متى سأظل أذكر أن إقامة علاقة معه أمر يروق لي؟

– منذ متى وأنت تعرفينه.

– ثلاثة أسابيع؟

– لِمَ يتخلى عنك؟

لم أستطع الرد، في الواقع كنت مندهشة من أنني قلت هذا. انتهى وقت الجلسة، فقلت لها وداعًا، وأنا أهم بالانصراف قالت: «عزيزتي، لا بد أن تتذكري أن الفنان لديه واجب مقدس.» لم أستطع منع نفسي من الضحك،

– علام تضحكين؟!

– ألا تجدين الأمر مضحكًا، أن يكون الفن مقدسًا وأن يكون نغمًا مهيبًا يُعزَف على مفتاح سي الكبير؟

– سأراك بعد غد كالمعتاد عزيزتي.

٣١ يناير/كانون الثاني ١٩٥٠

ذهبت إلى السيدة ماركس اليوم وأنا أحمل في ذهني عشرات الأحلام راودتني جميعها على مدار الأيام الثلاثة الماضية. جميع الأحلام تحمل الطابع نفسه من فن زائف ورسم كاريكاتوري وصورة توضيحية ومحاكاة ساخرة. كانت كل الأحلام تبدو في صورة حية مبهرة ورائعة منحتني شعورًا بالسعادة الغامرة. قالت: «أنت تحلمين كثيرًا.» قلت: «فور أن أغمض عينَيَّ.» قالت: «وعن أي شيء تدور كل هذه الأحلام؟» أبتسم — قبل أن تبتسم هي وهو ما جعلها تنظر إليّ في عبوس — وأنا على استعداد أن أبدو حازمة، لكني أقول: «أود أن أطرح عليك سؤالًا. نصف تلك الأحلام كانت أحلامًا مروعة أشعر فيها بهلع شديد وأتصبب عرقًا عندما أستيقظ، ولكني مع ذلك أستمتع بكل لحظة فيها. إنني أستمتع بالحلم وأتطلع شوقًا إلى النوم كي تراودني الأحلام. أوقظ نفسي في الليل — مرات ومرات — كي أستمتع بإدراك حلمي. في الصباح أشعر بسعادة كأني شيدت مدنًا وأنا نائمة. لكن بالأمس قابلت امرأة تعمل في مجال الطب النفسي منذ عشر سنوات، من أصل أمريكي.» هنا ابتسمت السيدة ماركس. «أخبرتني هذه المرأة بابتسامة باهتة أن أحلامها كانت أهم كثيرًا في نظرها من حياتها لأنها أكثر واقعية في رأيها من أي شيء حدث لها في وضح النهار مع طفلها وزوجها.» ابتسمت السيدة ماركس: «نعم، أعرف ما ستقولينه، وهو حقيقي، فقد أخبرتني أنها ظنت ذات مرة أنها كاتبة. لكني بعدها لم أقابل أحدًا في أي مكان ينتمي لأي طبقة أو لون أو عقيدة لم يظن في وقت ما أنه كاتب أو رسام أو راقص أو شيء من هذا القبيل. ومن المرجح أن تكون تلك حقيقة أكثر تشويقًا من أي شيء آخر تحدثنا فيه في هذه الغرفة، ففي النهاية لا يمكن أن يخطر ببال معظم الناس أنهم فنانون، فهؤلاء أدركوا المكانة التي ارتضاها الرب لهم في الحياة. لكن أما من خطب في حقيقة أن نومي يكون أكثر إشباعًا وإثارة ومتعة من أي شيء يحدث لي في يقظتي؟ لا أود أن أكون كهذه المرأة الأمريكية.» ساد الصمت وارتسمت على وجهها تلك الابتسامة التي تدير دفة الحوار. «أجل، أعرف أنك تريدينني أن أقول إن كل إبداعي ينحصر في أحلامي.»

– حسنًا، أليس هذا صحيحًا؟

– سيدة ماركس، أود أن أسألك إن كنا نستطيع طرح أحلامي جانبًا بعض الوقت.

قالت بلهجة جافة: «أجئت إلى طبيب نفسي وتسألين هل من الممكن تجاهل أحلامك؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أليس ممكنًا على الأقل أن تكون المتعة التي تكتنف حلمي وسيلة للهروب من المشاعر.

جلست تفكر في هدوء؛ إنها سيدة متقدمة في السن تتسم بكثير من الحكمة والذكاء. أومأت إلي بحركة بسيطة تطلب من خلالها أن أحافظ على هدوئي حال تفكيرها عن معقولية ما قلت. وفي غضون ذلك بدأت أختلس النظر إلى الغرفة التي نجلس فيها؛ إنها غرفة واسعة مرتفعة السقف ضوؤها خافت ويسودها الهدوء. ثمة أزهار في كل مكان. الجدران مغطاة بنسخ طبق الأصل من التحف وثمة تماثيل. إنها تكاد تشبه متحفًا للفن. الغرفة مخصصة لغرض معين وهي تمنحني شعورًا بالسعادة كأنها متحف للفن. أهم ما في الأمر أنه ما من شيء في حياتي يتطابق مع أي شيء في هذه الغرفة؛ حياتي دائمًا بسيطة غير ناضجة ينقصها شيء ما، وهكذا الحال مع حياة الأشخاص الذين عرفتهم جيدًا. خطر ببالي — وأنا أتأمل هذه الغرفة — أن طابع البساطة وعدم الاكتمال الذي ميز حياتي كان تحديدًا أكثر ما فيها قيمة وأنه ينبغي لي التمسك بها تمسكًا شديدًا. توقفت عن التفكير العميق الذي استغرق فترة قصيرة وقالت: «حسنًا يا عزيزتي، سوف نترك أحلامك جانبًا بعض الوقت، وسوف تخبرينني عن خيالات اليقظة.»

شهد ذلك اليوم آخر ما كتبته. لم تعد الأحلام تراودني كأنه أُشِير إليّ بعصا سحرية. «أي أحلام؟» سألتني في تلقائية لتكتشف هل أنا مستعدة لنسيان مراوغتي العبثية لها. نناقش التحولات الطفيفة التي طرأت على مشاعري تجاه مايكل. إننا نشعر بالسعادة معًا معظم الوقت، وفجأة تتملكني مشاعر الكراهية له والنفور منه، ولكن يحدث ذلك دائمًا لأسباب متشابهة: عندما يهزأ من حقيقة أنني ألفت رواية فهو يستاء من تلك الحقيقة، وعندما يسخر من كوني «مؤلفة»، وعندما يتحدث عن جانيت بأسلوب متهكم متهمًا إياي بأني أقدم واجبات الأمومة على واجبات علاقتنا، وعندما يحذرني من أنه لا ينوي الزواج بي. دائمًا يطلق هذا التحذير بعد أن يقول إنه يحبني وإنني أهم شيء في حياته. شعرت بالإساءة والغضب وقلت له ذات مرة في انفعال: «بالتأكيد هذا تحذير يُطلق مرة واحدة فحسب.» بعدئذٍ ظل يمازحني حتى هدأت ثورتي. لكني شعرت بالفتور تجاهه للمرة الأولى تلك الليلة. عندما أخبرت السيدة ماركس فقالت: «ذات مرة عالجت سيدة ثلاث سنوات بسبب الفتور. كانت تعيش مع رجل تحبه، لكنها لم تبلغ مرحلة النشوة في علاقتهما ولو مرة واحدة

طوال هذه السنوات الثلاث. في اليوم الأول من زواجهما بلغت مرحلة النشوة للمرة الأولى.» عندما قالت ذلك أومأت برأسها — على نحو لافت للانتباه — كأنها تود أن تقول: «ذلك هو أصل المشكلة. أتفهمين!» ضحكت وقلت لها: «سيدة ماركس، أتدركين كم أنك ركيزة للاستجابة؟» قالت وهي تبتسم: «وماذا تعني هذه الكلمة يا عزيزتي؟» قلت: «إنها تعني الكثير في رأيي.»

– ولكنك أصبت بفتور في الليلة التي قال فيها إنه لن يتزوجك؟

– لكنه قالها صراحة وضمنًا في مرات أخرى ولم يحدث ذلك.

كنت مدركة لعدم أمانتي لذلك قلت معترفة: «فعلًا، ترتبط استجابتي له في الفراش بمدى تقبله لي.»

– بالتأكيد فأنت إنسانة.

استخدمت كلمة إنسانة تمامًا كما استخدمت كلمة فنانة، كأنها حقيقة مطلقة. عندما قالت لي: «أنت إنسانة.» بدأت أضحك فاقدة السيطرة على مشاعري وبعد برهة ضحِكَت هي الأخرى. ثم سألتني عما يضحكني وأجبتها. كانت على وشك استغلال هذا الحدث لتذكر كلمة «الفن» — التي لم يذكرها أي منا منذ أن انقطعت أحلامي — لكنها قالت بدلًا من ذلك: «لماذا لم تتحدثي معي من قبل عن حياتك السياسية؟»

فكَّرْتُ في الأمر مليًّا وقلت: «فيما يتعلق بالحزب الشيوعي فقد تحولت من الخوف منه وكراهيته إلى التعلق البالغ به نتيجة الرغبة في حمايته والاهتمام به، أتفهمين ذلك؟» أومأت برأسها فاستطردت: «وعن جانيت، يمكنني أن أشعر بالاستياء الشديد منها لأنها تحول بيني وبين تحقيق الكثير من الأمور التي أود القيام بها، وأن أحمل مشاعر الحب لها في الوقت نفسه. أما مولي فقد أكرهها بسبب ميلها إلى السيطرة واهتمامها الدائم بحمايتي ساعة ثم أشعر بالحب تجاهها في الساعة المقبلة. وينطبق الأمر نفسه على مايكل. لذلك يمكننا بالتأكيد الاقتصار على واحدة من علاقاتي فحسب ومن خلالها نتطرق إلى شخصيتي بالكامل.» ابتسمت ابتسامة مقتضبة وقالت: «حسنًا، لنقتصر على علاقتك بمايكل.»

١٥ مارس/آذار ١٩٥٠

ذهبت إلى السيدة ماركس وقلت لها إنه على الرغم من أني شعرت بالسعادة مع مايكل أكثر من أي وقت في حياتي فإن شيئًا كان يحدث لا أستطيع فهمه. ما يحدث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أني أخلد إلى النوم بين ذراعيه مستسلمة وسعيدة وأستيقظ في الصباح وأنا أشعر تجاهه بالكراهية والازدراء. قالت: «حسنًا يا عزيزتي، ربما بدأت الأحلام تراودك ثانية؟» ضحِكْت وانتظرتني حتى أكف عن الضحك؛ لذا قلت: «دائمًا تفوزين.» بدأت أحلم مجددًا الليلة الماضية كأن أمرًا وُجِّه إلي بذلك.

٢٧ مارس/آذار ١٩٥٠

أبكي في نومي. كل ما أستطيع تذكره عندما أستيقظ هو أني كنت أبكي. عندما أخبرت السيدة ماركس قالت: «الدموع التي نذرفها في نومنا هي أصدق الدموع التي نذرفها في حياتنا، فدموع اليقظة ما هي إلا إشفاق على النفس.»

– كلامك بليغ جدًّا، لكن لا يمكنني أن أصدق أنك تعنيه.

– ولم لا؟

– لأنني عندما أذهب إلى النوم وأنا أعلم أني سأبكي، أجد متعة في الأمر.

تبتسم، أنتظر منها أن تقول شيئًا لكنها لا تساعدني الآن. أقول بأسلوب ساخر: «لن تقولي إنني ماسوشية؟» تومئ برأسها قطعًا. أقول محثة إياها على مواصلة الحديث: «ثمة شعور باللذة في الألم.» تومئ برأسها، فأقول: «سيدة ماركس، هذا الألم الممزوج بالأسى والحنين الذي يجعلني أبكي هو الشعور نفسه الذي ألفت هذه الرواية اللعينة بسببه.» تعتدل في جلستها والصدمة تبدو على وجهها لأني وصفت الرواية — التي تعد ضربًا من ضروب الفن — ذلك العمل المهيب بأنها لعينة. أقول: «كل ما فعلتِه هو أنك تقودينني — خطوة بخطوة — إلى الإدراك الشخصي لشيء كنت أعرفه من قبل على أي حال، وهو أن الأصول التي قامت عليها الرواية كانت أفكارًا مسمومة.» قالت: «جميع معرفة الذات هي إدراك — على مستويات أكثر تعمقًا — لأشياء يعرفها المرء من قبل.» أقول: «لكن هذا الأمر ليس جيدًا بما يكفي.» تومئ برأسها وتجلس متأملة. أعرف أن شيئًا سيحدث لكنني لا أدري ما هو. بعدئذٍ تقول: «هل تحتفظين بدفتر يومي؟»

– في بعض الأحيان.»

– أتدونين فيها ما يجري هنا؟

– أحيانًا.

تومئ برأسها، فأفهم ما يدور في خلدها، وهو أن كتابة الدفاتر بداية لما تظن أنه انطلاقة وتحرر من انقطاع الأفكار الذي يعيقني عن الكتابة. شعَرْت بغضب

واستياء بالغين حتى إنني لم أحر جوابًا. عندما تطرقت إلى أمر الدفتر وجعلته جزءًا من طريقتها في العلاج – إن صح التعبير – كما لو أنها سلبتني إياه.

[عند هذه النقطة يتوقف الدفتر كمستند شخصي، ولكنه يستمر في صورة قصاصات من الصحف جرى لصقها وتأريخها في دقة:]

مارس/آذار ١٩٥٠

يطلق المصمم عليها اسم «تسريحة شعر القنبلة الهيدروجينية» موضحًا أن «الهيدروجينية» هنا إشارة لبيروكسيد الهيدروجين الذي يستخدم في صبغ الشعر. يصفف الشعر ليأخذ مظهرًا مموجًا – كالذي يبدو عند انفجار قنبلة – على مؤخر العنق.

ديلي تليجراف

١٣ يوليو/تموز ١٩٥٠

سادت حالة من الهتاف اليوم في الكونجرس عندما طالب السيد لويد بنستين – أحد أعضاء الحزب الديمقراطي – بضرورة توجيه الرئيس ترومان أمرًا للكوريين الشماليين بالانسحاب في غضون أسبوع وإلا ستُدَك مدنهم بقنبلة ذرية.

إكسبريس

٢٩ يوليو/تموز ١٩٥٠

قرار بريطانيا بإنفاق ١٠٠ مليون جنيه إسترليني إضافية لدعم وزارة الدفاع حيث صرح السيد أتلي بأنه سيجرى إرجاء التحسينات المرجوة والمتعلقة بمستويات المعيشة والخدمات الاجتماعية.

نيو ستيتسمان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣ أغسطس/آب ١٩٥٠

استعداد أمريكا للمضي قدمًا في تصنيع القنبلة الهيدروجينية التي يُتوقع أن يكون تأثيرها أقوى مئات المرات من القنابل الذرية.

إكسبريس

٥ أغسطس/آب ١٩٥٠

استنادًا إلى الدروس المستفادة من تجربة هيروشيما ونجازاكي فيما يتعلق بالمدى الذي وصل إليه الانفجار والانبعاثات الحرارية الكثيفة والإشعاع إلخ، يفترض أن تتسبب قنبلة ذرية واحدة في قتل ٥٠٠٠٠ شخص في إحدى التجمعات السكنية البريطانية. ولكن — بصرف النظر عن القنبلة الهيدروجينية — بكل تأكيد من الخطورة افتراض أن ....

نيو ستيتسمان

٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٠

ماك آرثر يستعين بعدد ١٠٠٠٠٠ جندي في هجوم لوضع نهاية للحرب في كوريا.

إكسبريس

٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٠

عرض مباحثات السلام الكورية دون تهدئة من جانب الحلفاء.

إكسبريس

١٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٠

«خطر فادح» تتعرض له الولايات المتحدة، نداء الطوارئ اليوم؛ صرح الرئيس ترومان الليلة للشعب الأمريكي أن «خطرًا فادحًا» يلم بالولايات المتحدة معرضة بسبب القواعد التي يتبعها الاتحاد السوفييتي.

١٣ يناير/كانون الثاني ١٩٥١

وضع ترومان بالأمس أهدافًا كثيرة للولايات المتحدة. تتضمن جهود الدفاع تضحيات لجميع الأمريكيين.

إكسبريس

١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٥١

موقف آيزنهاور من القنابل النووية. سوف أستخدمها على الفور إن ظننت أنها ستسبب دمارًا شاملًا للعدو.

إكسبريس

٦ أبريل/نيسان ١٩٥١

إعدام سيدة بتهمة التجسس على أخبار القنبلة. حكم الإعدام بالكهرباء لزوجها أيضًا. القاضي: أنت سبب فيما حدث في كوريا.

٢ مايو/أيار

كوريا: ٣١٧ قتيلًا وجريحًا أو مفقودًا.

٩ يونيو/حزيران ١٩٥١

أيدت المحكمة العليا الأمريكية إدانة الزعماء الأحد عشر التابعين للحزب الشيوعي الأمريكي بتهمة التآمر للإطاحة بالحكومة وسط موجة من العنف. والآن ستنفذ الأحكام التي تقضي بالسجن خمس سنوات وغرامة قدرها ١٠٠٠٠ دولار على كل منهم.

ستيتسمان

١٦ يونيو/حزيران ١٩٥١

سيدي: صرحت لوس أنجلوس تايمز في عددها الصادر بتاريخ ٢ يونيو/حزيران: «في كوريا قدر أن نحو مليوني مدني — معظمهم من الأطفال —

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قُتلوا أو لقوا حتفهم بعد أن صاروا بلا مأوى منذ بداية الحرب. وهناك، علاوة على ذلك، أكثر من عشرة ملايين مشرد ومعدم.» رفع المبعوث الخاص لجمهورية كوريا تقريرًا بتاريخ ١ يونيو/حزيران: «في ليلة واحدة فقط احترقت ١٥٦ قرية كانت تقع في طريق تقدم العدو. لذلك لم تجد الطائرات التابعة للأمم المتحدة بدًّا من تدميرها. وهكذا فإن جميع المسنين والأطفال الذي كانوا لا يزالون هناك لأنهم لم يلتفتوا إلى أوامر الإخلاء لقوا مصرعهم.»

نيو ستيتسمان

١٣ يوليو/تموز ١٩٥١

توقف محادثات الهدنة بسبب رفض الشيوعيين دخول ٢٠ صحفيًّا ومصورًا تابعًا للحلفاء إلى مدينة كيسونج.

إكسبريس

١٦ يوليو/تموز

١٠٠٠٠ في أعمال شغب في أراضي البترول وقوات الأمن تستخدم الغاز المسيل للدموع.

إكسبريس

٢٨ يوليو/تموز

لم تسفر إعادة التسليح عن حدوث أي تنازلات من جانب الشعب الأمريكي حتى الآن. على العكس تمامًا، ما زال هناك ارتفاع في معدلات الاستهلاك.

نيو ستيتسمان

١ سبتمبر/أيلول ١٩٥١

ربما تؤدي تقنية تجميد الخلايا الجرثومية تجميدًا سريعًا والاحتفاظ بها إلى حدوث تغير تام في أهمية الوقت إلى أجل غير مسمى. تُطَبَّق هذه التقنية في الوقت الحاضر على السائل المنوي للرجل، ولكن ربما يطبق أيضًا على

بويضات المرأة، وهكذا يمكن عمل «تزاوج» بين رجل يعيش عام ١٩٥١ وامرأة من عام ٢٠٥١ في عام ٢٢٥١ لإنجاب طفل بواسطة أم بالتبني قبل الولادة.

ستيتسمان

١٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥١

ثورة غضب في العالم الإسلامي وإرسال المزيد من القوات إلى قناة السويس.

إكسبريس

٢٠ أكتوبر/تشرين الأول

قوات الجيش تفرض حصارًا على مصر.

إكسبريس

١٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥١

قتل ١٢٧٩٠ سجين حرب تابعًا للحلفاء و٢٥٠٠٠٠ مدني جنوب كوري على يد الشيوعيين في كوريا.

إكسبريس

٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥١

من المتوقع أن يصل عدد سكان العالم إلى ٤٠٠٠ مليون نسمة خلال الفترة التي سيعيش فيها أبناؤنا. كيف سيتسنى لنا توفير غذاء ٤٠٠٠ مليون شخص؟

ستيتسمان

٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥١

ما من أنباء عن عدد الأفراد الذين قتلوا أو سجنوا أو أرسلوا إلى معسكرات العمل الإجباري أو لقوا حتفهم خلال أشهر التحقيق في أحداث القمع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكبرى التي قام بها الاتحاد السوفييتي الكبير في الفترة ١٩٣٧–٣٩، وما من أنباء عن عدد الأشخاص الذين يستعملون سخرةً؛ هل هو مليون أم عشرون مليونًا.

ستيتسمان

١٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥١

روسيا تصنع قاذفة قنابل ذرية يقال إنها الأسرع في العالم.

إكسبريس

١ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥١

الولايات المتحدة تحقق أكبر انتعاش اقتصادي في التاريخ على الرغم من أن ما تنفقه على التسلح وعلى المساعدات الاقتصادية الخارجية في الوقت الراهن أكبر من إجمالي الموازنة الفيدرالية في فترة ما قبل الحرب.

ستيتسمان

٢٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥١

كانت تلك أولى سنوات فترة السِّلْم في تاريخ بريطانيا حيث صارت لدينا إحدى عشرة فرقة عسكرية في الخارج وأنفقنا عشرة بالمائة من الدخل لقومي على عمليات التسلح.

ستيتسمان

٢٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥١

ثمة دلالات تشير إلى أنه ربما يكون ماكارثي ورفاقه تجاوزوا كل منطق أخيرًا داخل الولايات المتحدة.

ستيتسمان

١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٥٢

عندما صرح الرئيس ترومان للعالم -- أوائل عام ١٩٥٠ -- أن الولايات المتحدة سوف تعجل من جهودها لإنتاج قنبلة هيدروجينية سيكون تأثيرها الانفجاري أكبر ألف مرة من قنبلة هيروشيما أو يساوي عشرين مليون طن من مادة تي إن تي شديدة الانفجار وفقًا لما ذكره العلماء، أشار ألبرت أينشتاين إشارة هادئة إلى أن هذه القنبلة تمثل «ظهورًا -- أكثر وضوحًا -- لشبح الإبادة الشاملة.»

ستيتسمان

١ مارس/آذار ١٩٥٢

مثلما أُدين مئات الآلاف من الأبرياء بممارسة أعمال الشعوذة في العصور الوسطى، فإن أعدادًا هائلة من الشيوعيين والوطنيين الروس تعرضوا لأعمال قمع بتهمة مزاولة أنشطة مناهضة للثورة هي في حقيقة الأمر ملفقة. في الواقع، حدث ذلك على وجه التحديد لأنه لم يكن هناك ما يكشف النقاب عن أن عمليات الاعتقال وصلت إلى هذه النسب الخيالية (وباستخدام أسلوب مبتكر توصل السيد ويسبرج إلى أنه من المرجح أن يكون ثمانية ملايين بريء تعرضوا للسجن في الفترة ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٩).

ستيتسمان

٢٢ مارس/آذار ١٩٥٢

لا يمكن غض الطرف عن اتهام الأمم المتحدة باستخدام أدوات حرب بكتريولوجية لمجرد أن ذلك سيكون ضربًا من ضروب الجنون.

ستيتسمان

١٥ أبريل/نيسان ١٩٥٢

أصدرت الحكومة الشيوعية الرومانية أمرًا بترحيل «الأفراد غير المنتجين» من بوخارست وعددهم ٢٠٠٠٠٠ أو ما يعادل خمس سكان المدينة.

إكسبريس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٨ يونيو/حزيران ١٩٥٢

لا يمكن تحديد عدد الأمريكيين الذين تعرضوا لرفض استخراج جوازات سفر أو لفرض قيود على استخراجها، لكن حالات معروفة تشير إلى أن نسبة كبيرة من الأفراد ذوي المرجعيات والآراء والمعتقدات السياسية المختلفة تأثرت بذلك. وتضم القائمة ....

ستيتسمان

٥ يوليو/تموز ١٩٥٢

يتمثل أكثر الموضوعات أهمية في أن الحملات الأمريكية لملاحقة المنشقين تهدف إلى تحقيق مستوى عام من التوافق؛ أي إرساء معتقد جديد يكون خروج المرء عنه ضد مصلحته الاقتصادية.

ستيتسمان

٢ سبتمبر/أيلول ١٩٥٢

صرح وزير الداخلية بأنه على الرغم من أن التوجيه الدقيق لقنبلة ذرية يؤدي حتمًا إلى إحداث دمار هائل، فإن هناك مبالغة مفرطة في بعض الأحيان.

إكسبريس

إني على يقين تام أنه لا يمكنكم شن ثورة باستخدام ماء الورد؛ كنت أتساءل هل من الضروري — للقضاء على خطر الحرب الوارد من فورموسا — قتل مليون ونصف مليون فرد أو يكفي نزع سلاحهم.

ستيتسمان

١٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٢

اليابانيون يطالبون بالتسلح.

إكسبريس

١٣ ديسمبر/كانون الأول

يُجيز البند الثاني من قانون ماكاران تحديدًا إنشاء ما يسمى بمراكز الاعتقال. وبعيدًا عن «توجيه الأمر» بإنشاء مثل هذه المراكز، فإن القانون «يخول» للنائب العام في الولايات المتحدة حق اعتقال واحتجاز «جميع الأشخاص الذين يوجد بحقهم سبب معقول يدعو للاعتقاد بأنهم ربما يشتركون — أو يتآمرون مع غيرهم على الاشتراك — في أعمال تجسس وتخريب» في أماكن الاعتقال التي يحددها.

٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٢

انفجار قنبلتنا؛ نجح انفجار أول سلاح ذري بريطاني.

إكسبريس

١١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٢

حركة الماو ماو تصيب عقيدًا.

إكسبريس

٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٢

قاضي المحكمة العليا اللورد جودارد: «عاقبهم ضربًا بالعصا.»

إكسبريس

٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٢

العقيد روبرت سكوت قائد وحدة القاعدة الجوية الأمريكية في مدينة فورشتنفيلدبروك الألمانية: «وُقِّعَت المعاهدة التمهيدية بين أمريكا وألمانيا. أتمنى من قلبي أن يحتل وطنكم في القريب العاجل مكانة كبرى بين أعضاء قوات حلف شمال الأطلسي (الناتو) ... أنتظر بفارغ الصبر معكم ذلك اليوم الذي سنقف فيه جنبًا إلى جنب كأصدقاء وأخوة لمواجهة خطر الشيوعية. أتمنى وأرجو أن تأتي اللحظة التي ستشهد تسليمي أنا أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غيري من قادة الوحدة الأمريكيين راية هذه القاعدة الجوية الرائعة إلى قائد جناح في سلاح الطيران الألماني قريبًا إيذانًا ببداية عهد قوات جوية ألمانية جديدة.»

ستيتسمان

١٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢

الولايات المتحدة تختبر القنبلة الهيدروجينية.

إكسبريس

١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢

كوريا: أوشك إجمالي الضحايا — بما في ذلك المدنيون — منذ بدء محادثات الهدنة على الاقتراب من عدد السجناء الذين يمثل وضعهم العقبة الرئيسية في طريق الاتفاق على الهدنة.

ستيتسمان

٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢

أعلنت الحكومة الكينية الليلة إجلاء ٧٥٠ رجلًا و٢٢٠٠ امرأة وطفل عن منازلهم كعقاب جماعي بسبب مقتل القائد جاك ميكيلجون السبت الماضي.

إكسبريس

٨ نوفمبر/تشرين الثاني

في السنوات الأخيرة شاع اتهام منتقدي المكارثية بأنهم «مناهضو أمريكا» العابسون.

ستيتسمان

٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢

مر عامان فحسب على إعطاء الرئيس ترومان إشارة البدء في تنفيذ برنامج القنبلة الهيدروجينية. وعلى الفور بدأ إنشاء مصنع على ضفاف نهر سافانا بولاية كارولينا الجنوبية لإنتاج التريتيوم (الهيدروجين الثلاثي)، وبنهاية عام ١٩٥١ صارت صناعة القنبلة الهيدروجينية نشاطًا صناعيًّا لا يقل أهمية عن نشاط شركتي يو إس ستيل وجنرال موتورز.

ستيتسمان

٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢

أطلق السيناتور الجمهوري أليكساندر ويلي بولاية ويسكنسن أولى طلقات الحملة الانتخابية الحالية عندما كشف النقاب عن مطالبته بإجراء تحقيق حول «الاختراق الموسَّع» لسكرتارية الأمم المتحدة على يد الشيوعيين الأمريكيين، وهو ما يتزامن على نحو ملائم تمامًا مع النشاط المحموم الذي تشهده حملة الانتخابات الجمهورية التي حققت كل استفادة ممكنه من وراء اتهام ألجر هيس بوزارة الخارجية. بعدئذٍ واصلت اللجنة الفرعية المعنية بالأمن الداخلي في مجلس الشيوخ العمل لاستجواب الضحايا الاثني عشر الأُوَل — وجميعهم من كبار المسئولين — في الهجوم الجديد ... بيد أن رفض الاثني عشر شاهدًا الإدلاء بشهادتهم حول أي من الانضمامات الشيوعية لم ينقذهم من ... لكن أعضاء مجلس الشيوخ المسئولين عن إدارة حملات ملاحقة المنشقين كانوا يسعون سعيًا واضحًا لنيل فريسة أكبر من اثني عشر شخصًا اعتُبِرَ صمتهم الدليل الوحيد الذي يثبت تورطهم في أعمال تخريب وتجسس.

ستيتسمان

٢٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢

تحظى المحاكمة التشيكية للمتورطين في أعمال التخريب باهتمام غير عادي على الرغم من اتباعها النموذج المعتاد للعدالة السياسية في أنظمة الحكم الديمقراطية الشعبية. في المقام الأول تعد تشيكوسلوفاكيا الدولة الوحيدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الكتلة الشرقية التي تمتلك أسلوب حياة ديمقراطيًّا ثابت الجذور، بما في ذلك الحريات المدنية المطلقة والنظام القضائي المستقل.

ستيتسمان

٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٢

جَلْد رجل في دارتمور؛ نال السفاح ١٢ جلدة بالسوط.

إكسبريس

١٧ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٢

إعدام ١١ زعيمًا شيوعيًّا — على حد زعم الحكومة التشيكية — في العاصمة براج.

٢٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٢

تخصيص مفاعل ذري جديد بتكلفة ١٠٠٠٠ جنيه إسترليني لمضاعفة إنتاج بريطانيا من الأسلحة الذرية.

إكسبريس

١٣ يناير/كانون الثاني ١٩٥٣

مؤامرة اغتيال سوفييتية تُحْدِث صدمة مدوية. اتهمت إذاعة موسكو في وقت مبكر اليوم مجموعة من الأطباء اليهود الإرهابيين بمحاولة اغتيال قادة روس، من بينهم عدد من أهم العسكريين السوفييت وعالم ذرة.

إكسبريس

٦ مارس/آذار ١٩٥٣

وفاة ستالين.

إكسبريس

٢٣ مارس/آذار ١٩٥٣

إلقاء القبض على ٢٥٠٠ شخص من قبائل الماو ماو.

إكسبريس

٢٣ مارس/آذار ١٩٥٣

العفو العام عن السجناء في روسيا.

إكسبريس

١ أبريل/نيسان ١٩٥٣

ما الذي يعنيه السلام في كوريا من وجهة نظرك؟

إكسبريس

٧ مايو/أيار ١٩٥٣

تصاعد آمال إحلال السلام في كوريا.

إكسبريس

٨ مايو/أيار ١٩٥٣

أمريكا تناقش الإجراء الذي يُتوقع أن تتخذه الأمم المتحدة بشأن «قمع العدوان الشيوعي في جنوب شرق آسيا» وترسل كميات كبيرة من الطائرات والدبابات والذخيرة إلى شبه الجزيرة الهندية الصينية.

١٣ مايو/أيار ١٩٥٣

وقوع أعمال وحشية في مصر.

إكسبريس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٨ يوليو/تموز ١٩٥٣

اندلاع القتال ليلًا في برلين. ١٥٠٠٠ شخص يخوضون قتالًا مع فرقة من الدبابات السوفييتية وجنود المشاة في الشوارع المظلمة في وقت مبكر من صباح اليوم.

إكسبريس

٦ يوليو/تموز

اندلاع ثورة في رومانيا.

إكسبريس

١٠ يوليو/تموز ١٩٥٣

محاكمة لافرينتي بيريا وإعدامه رميًا بالرصاص.

إكسبريس

٢٧ يوليو/تموز ١٩٥٣

وقف إطلاق النار في كوريا.

إكسبريس

٧ أغسطس/آب ١٩٥٣

أسرى حرب يقومون بأعمال شغب جماعي. إخماد الحراس التابعين للأمم المتحدة أعمال شغب جماعي شارك فيها ١٢٠٠٠ أسير حرب كوري جنوبي مستخدمين الغاز المسيل للدموع والأسلحة الخفيفة.

٢٠ أغسطس/آب ١٩٥٣

٣٠٠ قتيل في أحداث تمرد في إيران.

إكسبريس

١٩ فبراير/شباط ١٩٥٤

بريطانيا تمتلك مخزونًا من القنابل الذرية في الوقت الحاضر.

إكسبريس

٢٧ مارس/آذار ١٩٥٤

إرجاء إطلاق القنبلة الهيدروجينية الثانية، فالجزر لا تزال ملتهبة من الانفجار الأول.

إكسبريس

٣٠ مارس/آذار

انفجار القنبلة الهيدروجينية الثانية.

إكسبريس

[وهنا تبدأ المدونات الشخصية مرة أخرى:]

٢ أبريل/نيسان ١٩٥٤

أدركت اليوم أنني بدأت أنسحب مما تسميه السيدة ماركس «تجربتي» معها، ولا بد أنها كانت مدركة لذلك طوال فترة من الوقت بسبب شيء قالته لي ذات مرة وهو: «لا بد أن تتذكري أن نهاية التحليل النفسي لا تعني نهاية التجربة ذاتها.»

– أتقصدين أن أثر هذا التحليل سيظل فعالًّا؟

ابتسمت وأومأت برأسها.

٤ أبريل/نيسان ١٩٥٤

بدأ الحلم المروع يراودني مجددًا — تعرضت للتهديد بسبب هذا الفكرة الفوضوية، ولكن هذه المرة في شكل قزم غير بشري. في الحلم رأيت السيدة ماركس، كانت ضخمة وقوية جدًّا كأنها ساحرة رقيقة الجانب. استمَعَتْ إلى الحلم في إنصات وقالت: «عندما تشعرين أنك وحيدة ومهددة، عليك أن تستدعي الساحرة الطيبة كي تساعدك.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت: «أنت. كلَّا، لا أقصد شخصك بل صورة مجسدة لما فعلت معي.» وهكذا انتهى الأمر حينئذٍ، وبدا كما لو أنها قالت: أنت الآن وحيدة، وذلك لأنها تحدثت بأسلوب عادي يكاد يقترب من حد اللامبالاة. أُعْجِبْت بمهارة هذا التصرف؛ بدا الأمر كأنها تعطيني شيئًا وأنا أودعها، ربما غصنًا مزهرًا أو تميمة ضد الشرور.

٧ أبريل/نيسان ١٩٥٤

سألتني هل احتفظتُ بمذكرات لهذه «التجربة»؟ لم تذكر شيئًا قط — ولو مرة واحدة — عن الدفتر اليومي في السنوات الثلاث الماضية؛ لذلك لا بد أنها أدركت بفطرتها أني لا أحتفظ بمذكرات. قلت: «لا.»

– لم تدوني أي شيء على الإطلاق؟

– لا، لكنني أتمتع بذاكرة قوية.

تصمت هنيهة ثم تقول: «إذن فالمذكرات التي بدأتِ في كتابتها ظلت خالية؟»

– لا، فقد ألصقتُ فيها قصاصات من الصحف.

– أي نوع من القصاصات؟

– أحداث لفتت انتباهي فحسب؛ أحداث بدت مهمة.

رمقتني بتلك النظرة الفضولية التي تقول من خلالها: حسنًا، إنني أنتظر ردًّا محددًا. قلت: «ألقيتُ نظرة سريعة عليها منذ بضعة أيام ووجدت سجلًّا لأحداث الحرب والقتل والفوضى والتعاسة.»

– وهل تلك حقيقة السنوات القليلة الماضية في نظرك؟

– ألا تبدو لك أنها الحقيقة؟

رمقتني بنظرة ملؤها التهكم. كانت تقول دون أن تنطق شفتاها إن «تجربتي» معها كانت خلاقة ومثمرة، وأنني غير صادقة فيما قلت. قلت لها: «حسنًا إذن، قصاصات الصحف هذه كانت بهدف رؤية الأحداث من منظور متوازن. قضيت ثلاث سنوات وأنا أصارع روحي الغالية، وفي الوقت نفسه ...».

– في الوقت نفسه ماذا؟

– إنها مسألة حظ فحسب أني لم أتعرض للتعذيب أو القتل أو الموت جوعًا أو داخل أحد السجون.

علت وجهها نظرة تهكمية ممزوجة بالصبر، فقلت: «لا بد أنك ترين أن ما يحدث هنا في هذه الغرفة لا يربط المرء فحسب بما تطلقين عليه إبداعًا، إنه يربط المرء بـ ... لا أعرف ماذا أطلق عليه.»

– أنا سعيدة لأنك لن تستخدمي كلمة الدمار.

– حسنًا، لكل شيء وجهان، لكن على الرغم من ذلك كلما وقع أمر مروع في أي مكان راودني حلم بشأنه كأنني متورطة فيه شخصيًّا.

– كنت تقصين جميع الأحداث السيئة من الصحف وتلصقينها في دفاترك اليومية الخاصة بهذه التجربة كأنه توجيه لعقلك بما ستحلمين به؟

وصلنا إلى هذا الطريق المسدود تحديدًا مرات عديدة، ولم تحاول إحدانا اختراقه. جلست وهي تبتسم لي ابتسامة جافة صابرة؛ فقد واجهتها في تحدٍ.

٩ أبريل/نيسان ١٩٥٤

قالت لي اليوم وأنا أهم بالانصراف: «والآن يا عزيزتي، متى ستعاودين الكتابة مرة أخرى؟» بالطبع كان يمكن أن أقول إنه طوال هذه الفترة وأنا أكتب من دون عناية في الدفاتر بين الحين والآخر لكنها لم تكن تقصد ذلك. قلت لها: «لن يحدث ذلك أبدًا على الأرجح.» أومأت إيماءة متبرمة كادت أن تصل إلى حد الغضب الشديد وبدا عليها الانزعاج كأنها ربة منزل أخفقت خططها، كانت الإيماءة صادقة وبعيدة تمامًا عن أي من الابتسامات أو الإيماءات أو الأصوات التي كانت تستخدمها في إدارة الجلسة. قلت وأنا أقصد بالفعل مساعدتها في فهم الأمر: «لم لا تفهمين أنني لا أستطيع مطالعة أي صحيفة دون أن يبدو ما فيها مروعًا تمامًا في نظري حتى إن أي شيء سأكتبه سيكون بلا فائدة؟»

– إذن يجدر بك التوقف عن مطالعة الصحف.

ضَحِكْتُ وبعد فترة ابْتَسَمَتْ معي.

١٥ أبريل/نيسان ١٩٥٤

رأيت في نومي أحلامًا كثيرة تدور جميعها حول مفارقة مايكل لي. وهكذا أدركت من خلال أحلامي أنه سيتركني قريبًا. في نومي أرى مشاهد الفراق هذه دون أن تتحرك مشاعري. في يقظتي تنتابني حالة من الحزن الشديد الواضح، أما في نومي فلا أحرك ساكنًا. سألتني السيدة ماركس اليوم: «إن طلبت منك أن تلخصي ما تعلمته مني في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جملة، فماذا تقولين؟» أجبتها بأسلوب جاف: «إنك علمتني أن أبكي.» ابتسمت لي في تقبل لهذا الأسلوب الجاف. «وإذن؟»

– وإذن صرت هشة أكثر مما كنت عليه من قبل بمائة مرة.

– وماذا أيضًا؟ أهذا كل شيء؟

– تعنين أني صرت أقوى مائة مرة؟

لا أعرف. لا أدري على الإطلاق. أتمنى أن يكون ذلك صحيحًا. قالت بنبرة تأكيد: «أنا أعرف، أنت الآن أقوى بكثير جدًّا، وستكتبين عن هذه التجربة.» أومأت إيماءة خاطفة حازمة ثم قالت: «سوف ترين في غضون بضعة أشهر، ربما بضعة أعوام.» هززت كتفي، وحددنا موعدًا للأسبوع المقبل؛ سيكون هذا آخر موعد معها.

٢٣ أبريل/نيسان ١٩٥٤

راودني حلم قبل موعدي الأخير، وذهبت به إلى السيدة ماركس: رأيت أني أحمل علبة جواهر في يدي وبداخلها شيء نفيس جدًّا. كنت أسير في حجرة طويلة — تشبه متحفًا للفن أو قاعة محاضرات — تعج برسوم وتماثيل تبدو ميتة بلا حياة (عندما استخدمت كلمة ميتة ابتسمت السيدة ماركس ابتسامة ساخرة.) ينتظر حشد صغير من الناس في نهاية القاعة على شيء يشبه المنصة، ينتظرونني كي أعطيهم علبة المجوهرات. أشعر بسعادة لا توصف لأني أخيرًا سوف أعطيهم هذا الشيء النفيس. ولكن عندما سلمت هذا الشيء أدركت فجأة أن جميعهم رجال أعمال وسماسرة أو أشخاص كهؤلاء. لم يفتحوا الصندوق، بل بدءوا في إعطائي الكثير من المال. بدأت أصرخ: «افتحوا الصندوق، افتحوا الصندوق.» لكنهم لم يسمعوني أو يعيروني اهتمامهم. فجأة رأيت أنهم جميعًا شخصيات في فيلم أو مسرحية كتبتها وشعرت بالخجل من كتابتها. تحول كل شيء إلى هزل وجلبة وشخصيات غريبة، وكنت واحدة من الشخصيات في مسرحيتي. فتحت الصندوق وحملتهم على النظر إلى ما بداخله، لكن بدلًا من أن رأي شيئًا جميلًا ظننت أنني رأيت قدرًا كبيرًا من الشظايا والقطع الصغيرة داخل الصندوق. لم يكن شيئًا مكتملًا وانكسر في صورة شظايا، بل كان قطعًا صغيرة مختلفة من كل مكان، من جميع أنحاء العالم — رأيت كتلة طفلية حمراء عرفت أنها من أفريقيا، ثم قطعة من المعدن سقطت عن مدفع من شبه الجزيرة الهندية الصينية، وكل ما عدا ذلك كان مروعًا — أجزاء من جثث أشخاص قتلوا في الحرب الكورية وشارة الحزب الشيوعي بجوار رجل لقي حتفه

في أحد السجون السوفييتية. كان النظر إلى هذه الكتلة من الشظايا البغيضة مؤلمًا جدًّا حتى إنني لم أستطع النظر وأغلقت الصندوق. لكن مجموعة رجال الأعمال أو أصحاب الأموال لم يلاحظوا ذلك. أخذوا الصندوق مني وفتحوه، واستدرت كيلا أرى شيئًا، لكنهم كانوا سعداء. في النهاية نظرت ورأيت شيئًا داخل الصندوق؛ تمساحًا صغيرًا أخضر مصنوعًا من اليشب أو الزمرد، ثم رأيته حيًّا حيث تحدرت على وجنتيه دموع كبيرة متجمدة تحولت إلى أحجار ماسية. على صوتي بالضحك عندما أدركت أني خدعت رجال الأعمال ثم استيقظت. استمعت السيدة ماركس إلى الحلم دون تعليق؛ كانت تبدو غير مبالية. ودعت كل منا الأخرى وداعًا حارًا لكنها من الداخل أدارت ظهرها لي بالفعل مثلما فعلت أنا الأخرى. قالت إنه عليّ «الذهاب لرؤيتها» إن احتجتها. فكرت: كيف لي أن أحتاجك وقد منحتني صورتك؛ إنني أدرك تمامًا أنه ينبغي لي أن أحلم بهذه الساحرة الكبيرة التي تشبه الأم كلما وقعت في ورطة. (على الرغم من أن السيدة ماركس امرأة ضئيلة الجسم نحيلة ومفعمة بالحيوية، فإنني دائمًا أراها في أحلامي كبيرة وقوية.) خَرَجْتُ من هذه الغرفة المظلمة التي يسيطر على جوها العام طابع الرصانة والتي قضيت فيها ساعات كثيرة من الخيال والأحلام؛ تلك الحجرة التي تشبه ضريحًا للفن، ووَصَلْتُ إلى رصيف الشارع المثير لمشاعر البرودة والكآبة. رأيت نفسي في نافذة أحد المحلات: امرأة ضئيلة الجسم شاحبة تمامًا واهنة نحيلة تعلو وجهها نظرة ساخرة أدركت أنها تشبه الابتسامة العريضة التي ارتسمت على فم التمساح الصغير الماكر داخل علبة المجوهرات البلورية التي رأيتها في حلمي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثانية

آنا تتلقى زيارتين، وبعض المكالمات الهاتفية، وخبرًا مأساويًّا

رن جرس الهاتف حين كانت آنا تتسلل خارجة لتوها من غرفتها الصغيرة تمشي على أطراف أصابعها.

أفاقت جانيت مرة أخرى وقالت بصوت يحمل بين طياته الارتياح: «هذه مولي، على ما أظن، وسوف تتحدثان لساعات وساعات.»

قالت آنا: «اهدئي.» ومشت تجاه الهاتف وهي تفكر في أن الشعور بالطمأنينة لا يتكون عند أطفال مثل جانيت من وجود جد وجدة وأولاد عم وبيت مستقر، ولكن يبعث به الأصدقاء الذين يتصلون بأمها كل يوم والكلمات المعروفة التي سيتبادلونها معها.

قالت آنا في صوت مرتفع وهي تمسك بالهاتف: «كانت جانيت على وشك أن تنام وهي ترسل لكِ سلامها.» أجابتها مولي، وهي تؤدي دورها في إتقان: «ابعثي بسلامي إلى جانيت وقولي لها إنها يجب أن تنام فورًا.»

قالت آنا بصوت عالٍ وهي تستدير نحو الغرفة التي أُطفئت أنوارها: «تقول مولي إنكِ يجب أن تنامي، وتتمنى لكِ ليلة سعيدة.» أجابتها جانيت: «كيف يمكن أن أنام وأنتما الاثنتان ستتحدثان لساعات وساعات؟» ولكن آنا عرفت من السكون الذي خيم على غرفة جانيت، أن الطفلة ستنام وهي تشعر بالارتياح، خفضت آنا صوتها وقالت: «حسنًا، كيف حالكِ؟»

سألتها مولي في تلقائية شديدة: «آنا، هل تومي معكِ؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا، ولماذا سيكون معي؟

– إنه سؤال فقط ... فإذا عرف أنني قلقة عليه فسيستشيط غضبًا بالتأكيد.

شهر مضى ونشرة أخبار المنزل الذي يبعد عنها بنصف ميل التي تذيعها عليها مولي كل يوم لا يتصدر عناوينها سوى تومي الذي يظل جالسًا لساعات في غرفته، وحيدًا، دون أن يتحرك، وعلى ما يبدو حتى دون أن يفكر.

ولكن مولي نحت ابنها عن موضوع الحديث، وأخذت تسهب في إخبار آنا بالعشاء الذي تناولته في الليلة الماضية مع أحد أصدقائها القدامى من أمريكا، لم يخل حديثها من روح الدعابة ولا من بعض التبرم. استمعت آنا إلي حديثها الذي تخللته نبرة هستيرية منتظرة إياها أن تختمه: «حسنًا، على أي حال نظرت إلى هذا الرجل الدميم المنتفخ الذي كان في منتصف العمر، وتذكرت ما كان يبدو عليه في الماضي، حسنًا، أظن أنه هو الآخر كان يفكر في الحالة المزرية التي أصبحت عليها، ولكن لماذا أنتقد الجميع هكذا؟ لم يرضني أي شخص قط؟ ليس وكأنني أفاضل بين ما يهبه لي الحاضر وبين تجربة سعيدة عشتها في الماضي، لأنني لا أتذكر أنني شعرت من قبل بالرضا، لم أقل قط: نعم، لقد وجدت بغيتي، ولكنني ظللت أتذكر سام لسنوات وأنا أشعر بحنين جارف تجاهه كأفضل من عرفت، وكنت أتساءل لماذا بلغ بي الحمق هذه الدرجة ورفضت عرضه بالزواج، واليوم تذكرت كم كنت أشعر حينها بالملل وأنا معه. ماذا ستفعلين عندما تنام جانيت؟ هل ستخرجين؟»

– لا، سأبقى بالمنزل.

– عليَّ أن أهرع إلى المسرح، تأخرت كعادتي، آنا، هل يمكنك الاتصال بتومي هنا بعد ساعة تقريبًا، اختلقي أي عذر.

– ما الذي يقلقكِ؟

– ذهب تومي إلى مكتب ريتشارد بعد الظهيرة. اتصل ريتشارد بي وقال: «إني أصر على أن يأتي تومي إليّ حالًا.» فقلت لتومي: «والدك يصر على أن تذهب إليه حالًا» فقال تومي: «حسنًا يا أمي» ونهض من مكانه وذهب إليه، هكذا ليرضيني، لقد شعرت بأنني لو طلبت منه أن يلقي بنفسه من النافذة كان سيفعل.

– هل قال ريتشارد أي شيء؟

– اتصل بي منذ ثلاث ساعات وقال بأسلوب ساخر ولهجة متعالية إنني لم أفهم تومي، فقلت له إنني سعيدة لأنه هو، على الأقل، يفهمه. ولكنه قال إن تومي غادر لتوه، ولكنه لم يصل إلى المنزل حتى الآن، صعدت إلى غرفة تومي ووجدت

نصف دستة من كتب علم النفس على فراشه، أخرجها من المكتبة ليقرأها كلها في الوقت نفسه على ما يبدو ... يجب أن أسرع يا آنا، سوف أحتاج إلى نصف ساعة لكي أعوض هذا الجزء، اللعنة على تلك المسرحية السخيفة، لماذا وافقت على المشاركة فيها؟ على أي حال، طابت ليلتكِ.

بعد عشرة دقائق كانت آنا تقف بجانب طاولتها ذات القوائم الخشبية تستعد للكتابة في دفترها الأزرق عندما اتصلت بها مولي مرة أخرى: – اتصلت بي ماريون الآن، هل تصدقين؟ ذهب تومي لزيارتها، لا بد أنه استقل أول قطار ذاهب إلى هناك بعد أن غادر مكتب ريتشارد، ظل لديها عشرين دقيقة ثم غادر مرة أخرى، قالت ماريون إنه كان قليل الكلام للغاية، وهو لم يذهب إلى هناك منذ فترة طويلة. أليس ذلك غريبًا يا آنا؟

– كان قليل الكلام للغاية؟

– كانت ماريون مخمورة كالعادة، ولم يعد ريتشارد حتى الآن بالتأكيد، إنه لا يعود إلى المنزل هذه الأيام قبل منتصف الليل، فهذه الفتاة تكون موجودة بمكتبه، تحدثت ماريون كثيرًا عن هذا الموضوع، لا بد أنها تحدثت كثيرًا إلى تومي أيضًا، تحدثت عنكِ، فهي تنتقدكِ دائمًا، ولذلك أظن أن ريتشارد لا بد أنه أخبرها بأنه كان على علاقة بكِ.

– ولكن ذلك لم يحدث.

– هل رأيته مجددًا؟

– لا، ولا رأيت ماريون.

وقفت كلاهما بجانب هاتفها صامتة، لو كانتا بالحجرة نفسها لتبادلتا النظرات الساخرة أو الابتسامات. فجأة انطلقت الكلمات من الهاتف إلى أذني آنا: «أنا مرعوبة يا آنا، هناك شيء مريب يحدث، أنا على يقين من ذلك، يا إلهي، أنا لا أعرف ماذا أفعل، ويجب أن أسرع، سيكون عليَّ أن أستقل سيارة أجرة الآن، مع السلامة.»

عند سماعها لوقع أقدام على السلم عادة تتنحي آنا عن ذلك الجزء من الحجرة الكبيرة الذي سيضطرها إلى أن تنزل عن رغبتها وتتبادل التحية مع الشاب الصغير القادم من ويلز، ولكن هذه المرة نظرت خلفها نظرات سريعة وكانت على وشك أن تهتف في ارتياح حينما تبينت أن تومي هو من يصعد السلم. ابتسم تومي حينما رآها هي وحجرتها والقلم الذي تمسك به ودفترها المفتوح، وكأن ذلك هو المشهد الذي توقع أن يراه. ولكن بعد أن غادرت هذه الابتسامة وجهه حلت محلها ملامح الحزن وشردت عيناه الداكنتان اللتان أطلت منهما نظرة تأملية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدت آنا يدها إلى الهاتف في عفوية، ثم انتبهت وفكرت في أن تصعد إلى الدور العلوي متعللة بأي عذر لتستخدم الهاتف الموجود بالأعلى، ولكن تومي قال لها: «أظن أنكِ تفكرين أنكِ لا بد أن تتصلي بأمي؟»

– نعم، اتصلت بي منذ قليل.

– إذن، فلتصعدي إلى الأعلى إن كنتِ تريدين، فذلك لن يضايقني.

كانت لهجته ودودة بما يكفي لكي تعيد إليها هدوءها: «لا، سأتصل بها من هنا.»

– أظن أنها كانت تفتش في غرفتي، وأنها منزعجة من كل هذه الكتب التي تتحدث عن الجنون.

عندما نطق تومي بكلمة الجنون شعرت آنا بأن عضلات وجهها تنكمش في ذهول، وعرفت من وجه تومي أنه لاحظ ذلك، هتفت آنا في حماس: «اجلس يا تومي، فيجب أن أتحدث معك ولكن عليَّ أولًا أن أتصل بمولي.» لم يندهش تومي من لجهتها الحاسمة المفاجئة.

جلس تومي يشاهد آنا وهي تجري المكالمة الهاتفية وقد هندم ملابسه وعدل مظهره، فقد ضم ساقيه واستند بذراعيه على مسندي المقعد، ولكن مولي غادرت فعلًا. جلست آنا على فراشها وقطبت جبينها في ضيق، فهي الآن مقتنعة أن تومي يتلذذ بإثارة الخوف في نفوسهم جميعًا. أبدى تومي هذه الملاحظة: «آنا إن فراشكِ يشبه التابوت تمامًا.» نظرت آنا إلى نفسها؛ بشرتها الشاحبة وجسدها الضئيل المتشح بسروال وقميص أسودين مهندمين وهي تجلس القرفصاء على الفراش الضيق المكسو بغطاء أسود. قالت آنا: «إذن، فهو مثل التابوت.» ونزلت من الفراش وجلست أمام تومي على أحد المقاعد، إنه الآن يحرك عينيه في بطء وحذر، ينقلهما في أرجاء الغرفة من شيء لآخر معطيًا آنا قدر الاهتمام نفسه الذي يعطيه للمقعد والكتب والمدفأة واللوحة.

– سمعت أنك ذهبت لزيارة أبيك؟

– نعم.

– لماذا أراد أن يراك؟

قال تومي: «كنتِ ستقولين، إن لم يكن سؤالي يزعجك ...».

ثم ضحك مقهقهًا، كانت ضحكته غير معهودة، ضحكة حادة وجامحة وماكرة، انتابتها موجة من الخوف عندما سمعت صوت قهقهته، حتى إنها شعرت برغبة في

أن تقهقه هي الأخرى، ولكنها أخمدت تلك الرغبة وهي تفكر في أنه لم يمر على وجوده سوى خمس دقائق، ومع ذلك بدأت تصرفاته الهستيرية تعديها، يجب أن تحذر.

قالت وهي تبتسم: «كنت سأقول ذلك، ولكنني تداركت نفسي.»

– ما جدوى ذلك؟ أعرف أنكِ أنتِ وأمي تتحدثان عني طوال الوقت. أنتِ قلقة عليَّ.

مرة أخرى حملت لهجته الهادئة بين طياتها المكر، واستشعرت آنا بهجته وفخره بهذا المكر، لم يبدُ لها يومًا تومي شخصًا ماكرًا أو حقودًا، شعرت أنها تجلس مع شخص غريب في حجرتها، حتى ملامحه تبدو غريبة، فوجهه المستدير الداكن الذي يطل منه العند تغيرت ملامحه بفعل الابتسامة الماكرة التي تكسوه كأنها قناع يغطيه، كان ينظر إلى الأعلى تجاهها بوجهه المبتسم والحقد يطل برأسه من بين عينيه المفتوحتين قليلًا.

– ماذا يريد والدك؟

– قال إن إحدى الشركات التي تديرها «مجموعته» تبني سدًّا في غانا، وسألني هل أريد أن أسافر إلى الخارج وأعمل هناك في القيام على أمور الأفارقة ... عمل اجتماعي.

– وقلت له لا؟

– قلت إنني لا أرى جدوى من ذلك، أعني أن ميزتهم الرئيسية هي أنهم عمالة رخيصة، إذن فحتى إذا سعيت إلى تحسين ظروفهم الصحية وتحسين الغذاء وتحسين الأشياء الأخرى المماثلة، وحتى إذا وفرت مدارس لأطفالهم، ليس هذا هو أصل المشكلة. فقال لي إن شركة أخرى من شركاته تقوم بمهمة هندسية في شمال كندا وعرض عليّ وظيفة في الشئون الاجتماعية هناك.

نظر تومي إلى آنا منتظرًا ردها. اختفى ذلك الغريب الماكر من الحجرة، وعاد تومي إلى نفسه مرة أخرى حائرًا، مقطبًا جبينه، منهمكًا في التفكير. فجأة قال تومي: «أتعلمين، هو ليس أحمق على الإطلاق.»

– لا أظن أننا قلنا إنه ذلك.

ابتسم تومي ابتسامة متأنية وكأنه يقول: أنتِ مخادعة، ثم علا صوته وهو يقول: «عندما قلت إنني لا أريد العمل بتلك الوظائف سألني عن السبب، فذكرته له، فقال لي إنني أتصرف هكذا بسبب تأثير الحزب الشيوعي.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أطلقت آنا ضحكة تعني: قلت لك ذلك، وقالت: «هو يعني أنا وأمك.»

انتظرها تومي حتى تكمل الكلمات التي توقعها منها وقال: «ها أنتِ ذا تفكرين بالطريقة نفسها مرة أخرى، ليس هذا هو ما قصده، لا عجب في أن كلًّا منكم ينتظر من الآخر تصرفًا أو رأيًا أحمق، لأن كلًّا منكم يظن أن الآخرين هم مجموعة من الحمقى. حينما أرى أبي وأمي معًا، لا أعرفهما، إنهما أحمقان للغاية، وأنتِ كذلك حينما تكونين مع ريتشارد.»

– ما الذي كان يقصده إذن؟

– قال إن ردي على العروض التي قدمها لي يلخص تأثير الأحزاب الشيوعية في الغرب، وقال إن أي شخص كان أو لا يزال عضوًا بالحزب الشيوعي، أو أي فرد لديه أي أمر يتعلق بهذا الحزب هو شخص مصاب بجنون العظمة، وأضاف إنه إذا كان في موقع رئيس جهاز شرطة يحاول أن يكشف الشيوعيين ليتخلص منهم فسيطرح سؤالًا واحدًا: هل يمكن أن تذهب إلى أي دولة غير متقدمة لتدير وحدة صحية ريفية لخمسين شخصًا؟ كل أنصار العلم الأحمر ستكون إجابتهم كالآتي: «لا، لأنه ليس هناك جدوى من تحسين صحة خمسين شخصًا إذا ظلت بنية المجتمع الأساسية على «حالها». انحنى تومي إلى الأمام وواجهها وألح في سؤالها: «ما رأيكِ يا آنا؟» أومأت آنا برأسها وكأنها تقول له: معك حق. ولكن تلك الإيماءة لم تكن لتكفي تومي، فقالت آنا مؤكدة على موقفها: «لا، إن هذا ليس حمقًا بأي حال من الأحوال.»

– نعم، إنه ليس كذلك.

انحنى إلى الوراء في ارتياح. ولكنه بعد أن أنقذ أباه من أن يكون موضعًا لما يمكن أن يطلق عليه سخرية آنا وموللي، كان عليه أن يعطيهما حقهما: «ولكنني قلت له إنكِ أنتِ وأمي لن تكونا ضمن الراسبين في هذا الاختبار، لأن كلتيكما ستذهب لإدارة هذه الوحدة الصحية، أليس كذلك؟» كان من المهم له أن تكون إجابتها بنعم، ولكن آنا صممت، من أجل مصلحتها، على أن تكون أمينة معه. «نعم، ولكنه محق، هذا هو ما كنت سأشعر به تمامًا.»

– ولكنكِ كنتِ ستذهبين؟

– نعم.

– كنت أتساءل هل ستذهبين؟ لأنني لا أظن أنني كنت سأذهب، أعني أنني لم أقبل أيًّا من هاتين الوظيفتين وهذا يدلل على ذلك التأثير؛ أنا لم أكن قط من

أنصار الشيوعية، فقط رأيتكِ أنتِ وأمي وأصدقاءكما تمارسونها، وقد أثر ذلك فيّ. إني أعاني عجز الإرادة.

قالت آنا وهي لا تكاد تصدق نفسها: «هل استخدم ريتشارد هاتين الكلمتين، عجز الإرادة؟»

– لا، هذا ما قصده، قرأتهما في واحد من كتب الجنون، ما قاله هو أن تأثير الدول الشيوعية على أوروبا جعل الأفراد غير مهتمين بالعمل، لأن الجميع اعتاد رؤية دول بأكملها تتغير تمامًا في ثلاث سنوات، مثل الصين وروسيا، ولو لم يروا الطريق إلى تغيير شامل أمامهم فلن يكلفوا أنفسهم عناء العمل ... هل تظنين أن هذا صحيح؟

– إلى حد ما، إن ذلك فعلًا هو حال الأشخاص الذين لا يزالون يعيشون في وهم أسطورة الشيوعية.

– منذ فترة ليست بطويلة كنت تؤمنين بالشيوعية والآن تتفوهين بعبارة مثل أسطورة الشيوعية.

– أحيانًا أشعر بأنك تلومني أنا وأمك وبقية أصدقائنا لأننا لم نعد من أنصار الشيوعية.

أطرق تومي برأسه وقطب جبينه: «أنا أتذكر تلك الفترة، حينما كنتِ شعلة من الحيوية، تنطلقين في كل مكان وتقومين بنشاطات مختلفة، ولكنكِ لستِ كذلك الآن.»

– هل القيام بأي نشاط أفضل من لا شيء؟

رفع رأسه وقال بلهجة حادة متهمًا: «أنتِ تعرفين ما أعنيه.»

– نعم، بالطبع أعرف.

– هل تعلمين ماذا قلتُ لأبي؟ قلت له إنني إذا قبلت هذه الأعمال الاجتماعية الزائفة فسوف أنظم مجموعات من الثوار بين صفوف العمال، لم يغضب قط، قال لي إن الثورات هي أحد المخاطر الأساسية التي تواجهها المشروعات الكبيرة هذه الأيام، وإنه سوف يحرص على استخراج وثيقة تأمين مضادة للثورة التي سأعمل على إشعالها.

لم تجبه آنا فاستطرد تومي: «كانت هذه مزحة، هل تفهمين ما أقصد؟»

– نعم.

– ولكنني أخبرته بألا يحمل همًّا من جانبي، لأنني لن أنظم أي ثورات، كان من الممكن أن أقوم بذلك منذ عشرين سنة، ولكن ليس الآن، لأننا نعرف جيدًا ماذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحدث الآن لمجموعات الثوار؛ سوف ينتهي بنا الأمر إلى قتل بعضنا بعضًا في خلال خمس سنوات.

– ليس بالضرورة.

نظر تومي إليها ولسان حاله يقول: أنتِ مخادعة، ثم قال: «أنا أتذكر أنه منذ عامين كنتِ أنتِ وأمي تتناقشان فقلتِ لها إنه لو ألقى حظكما العسر بكما ضمن مجموعات الشيوعيين في روسيا أو المجر أو أي من هذه الدول، لأطلقت واحدة منكما الرصاص على الأخرى لأنها خائنة. هذه أيضًا كانت مزحة.»

قالت آنا: «أنا وأمك يا تومي عشنا حياة صعبة، وتحملنا الكثير من الأشياء، لا يمكنك أن تنتظر منا أن نفيض حماسًا بمعتقدات وشعارات الشباب وصيحات الاستنفار؛ فنحن الاثنتان نقترب من منتصف العمر.» انتابتها الدهشة والانزعاج حينما ترامت إلى أذنيها تلك الكلمات، إنها حتى كرهت قولها لها؛ فهي تبدو، كما حدثتها نفسها، مثل أحد الليبراليين القدامى المنهكين، ولكنها قررت أن تدافع عن رأيها هذا، وحينما نظرت إلى تومي وجدت نظرات الانتقاد الحاد تطل من عينيه، أجابها: «أتعنين أنه ليس من حقي أن أبدي آراء تعبر عمّن هم في منتصف العمر وأنا في هذا السن؟ حسنًا يا آنا، أنا أشعر وكأنني في منتصف العمر، الآن يا آنا، ما رأيكِ؟» مرة أخرى يجلس هذا الغريب الماكر أمامها والحقد يفيض من عينيه.

كان ردها سريعًا: «أخبرني يا تومي، كيف تلخص مقابلتك مع أبيك؟»

تنهد تومي وعادت إليه طبيعته مرة أخرى: «كلما ذهبت إلى مكتبه انتابتني الدهشة. أنا أذكر أول مرة ذهبت فيها إلى هناك، دائمًا كنت أراه بمنزلنا، وقد رأيته مرة أو اثنتين بمنزل ماريون. كنت دائمًا أظن أنه إلى حد بعيد ... شخص عادي، ليس خارقًا، ليس حاد الذكاء، مثلكِ أنتِ وأمي، ولكن في أول مرة رأيته بمكتبه شعرت بالارتباك. أعرف أنكِ ستقولين إن ذلك بسبب سلطته، والأموال الطائلة التي يمتلكها، ولكن الأمر كان أكبر من ذلك؛ فجأة لم يعد يبدو كشخص عادي أحمق.»

ظلت آنا صامتة وهي تتساءل من داخلها: ما الذي اكتشفه تومي؟ ماذا هناك لا أستطيع أن أراه؟

قال تومي: «أنا أعرف ما تفكرين فيه، أنت ترين أن تومي نفسه شخص عادي وأحمق.»

احمر وجه آنا خجلًا؛ إن هذا هو ما كانت تظنه في الماضي، ابتسم تومي ابتسامة ماكرة حينما لاحظ احمرار وجهها وقال: «ليس بالضرورة أن يكون الأشخاص

العاديون حمقى يا آنا، أنا أعرف نفسي جيدًا، ولذلك أصابني الارتباك حينما ذهبت إلى مكتب والدي وشاهدته وهو يقوم بدور واحد من عمالقة رجال المال، لأنني أصلح أن أكون كذلك، ولكنني لم أتمكن قط، لأنني كنت ألعب هذا الدور بعقل مشتت (مقسوم نصفين)؛ بسببكِ أنتِ وأمي. إن الفرق بيني وبين أبي هو أنني أعرف أنني لست خارقًا وهو لا يعرف، أنا أعرف جيدًا أن أمثالكم أنتِ وأمي خير منه ألف مرة، حتى مع كل هذا الفشل والاضطراب في حياتيكما، ولكنني آسف لأنني أعرف ذلك. أنا حزين للغاية لأن أبي لم يربِّني منذ الصغر، لو فعل لورثت مكانه وأنا سعيد، يجب ألّا تخبري أمي بذلك.»

لم تستطع آنا أن تمنع نفسها من أن توجه له نظرة حادة، فقد داخلها الشك في أنه يقول لها ذلك لكي يجرح مولي لأنه يفترض أنها في الحقيقة ستخبرها بما قاله، ولكن عينيه تحملان تلك النظرة الصبورة الجادة التي تنم عن أنه يحاول أن يتأمل ذاته ويسبر أغوارها. ولكن آنا شعرت بموجة من الهستيريا تعلو داخلها؛ كانت تعرف أنها تعكس الإحساس الهستيري داخله. بحثت، والغضب يتصاعد داخلها، عن الكلمات التي يمكن أن تكبح جماح هذا الإحساس الذي انتابه. رأته آنا وهو يلوي عنقه وينظر إلى دفاترها المفتوحة التي تستقر على سطح الطاولة ذات القوائم الخشبية، فتبادر إلى ذهنها سؤال: يا إلهي أيكون أتى إلى هنا ليتحدث عنها؟ عني أنا؟ أتمنى ألا يكون قد أتى من أجل ذلك. تكلمت سريعًا: «أظن أنك تحاول أن تظهر شخصية أبيك على نحو أبسط مما هي عليه، أنا لا أظن أن عقله ليس مشتتًا، قال ذات مرة إن رجال الأعمال الكبار هذه الأيام مثلهم مثل السعاة المغرورين، ويبدو أنك نسيت أنه أصيب بوباء الشيوعية في الثلاثينيات، وقد قضى فترة من حياته كرجل بوهيمي.»

– والطريقة التي يتذكر بها أنه حان الوقت لممارسة العلاقات الخاصة مع موظفات السكرتارية لديه، هي نفسها الطريقة التي يقنع بها نفسه أنه ليس فردًا عاديًّا محترمًا ضمن شريحة واسعة من أبناء الطبقة المتوسطة فقط.

كان تومي يتحدث بنبرة عالية وحادة يملؤها الحقد، إن هذا هو ما أتى ليتحدث عنه، انتابها الارتياح حينما تبادرت هذه الفكرة إلى رأسها.

قال تومي: «بعدما ذهبت إلى مكتب أبي بعد الظهر ذهبت لزيارة ماريون، كنت أريد فقط أن أراها، فأنا أراها بمنزلنا عادة. كانت مخمورة، والأطفال تظاهروا بأنهم لا يلاحظون ذلك، تحدثت عن أبي وموظفة السكرتارية بمكتبه، ولكنهم تظاهروا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأنهم لا يعرفون عما تتحدث.» كان تومي ينتظر ما ستقوله، انحنى إلى الأمام وضاقت عيناه اللتان أطلت منهما نظرات الاتهام، ولكنه أكمل حديثه حينما لم تتكلم آنا: «حسنًا، لماذا لا تقولين ما تفكرين فيه؟ أنا أعرف أنكِ تحتقرين أبي لأنه ليس على خلق.»

لم تستطع آنا أن تكتم ضحكتها حينما نطق تومي بهذه الكلمة الأخيرة، وحينما رأته يقطب جبينه قالت: «أنا آسفة، ولكن ليست هذه كلمة من الكلمات التي أستخدمها.»

– ولمَ لا؟ إنها تعبر عما تعنيه أنتِ؟ لقد دمر أبي حياة ماريون وهو الآن يدمر حياة هؤلاء الأطفال، ألم يفعل؟ لن تقولي لي إن هذا هو خطأ ماريون؟

– أنا لا أعرف ماذا أقول يا تومي، أتيت إلى هنا لتسمع مني إجابات منطقية على تساؤلاتك، ولكنني ببساطة لا أعرف ....

كان العرق يقطر من وجه تومي الشاحب، وقد كست ملامحه الجدية التامة، ولمع الصدق بعينيه، ولكن شيئًا آخر برق داخلهما، شعور بأنه أشبع مشاعر الحقد داخله، كان يتهمها بأنها خذلته، وشعر بالسعادة لأنها خذلته فعلًا. استدار مرة أخرى ونظر إلى الدفاتر، لا بد أن أقول له الآن ما يود أن يسمعه، ذلك ما تبادر إلى ذهن آنا، ولكن قبل أن تتمكن من أن تفكر فيما ستقوله، نهض تومي ومشى تجاه الطاولة التي وضعت الدفاتر فوقها. شعرت آنا بالتوتر ولكنها ظلت صامتة؛ إنها لا تحتمل أن يرى أي شخص هذه المذكرات، ولكنها شعرت أن من حق تومي أن يراها، لم يكن لديها تفسير لهذا الشعور. وقف مديرًا ظهره إليها وهو ينظر إلى الدفاتر، ثم أدار رأسه وقال: «لماذا تحتفظين بأربع دفاتر؟»

– لا أعرف.

– لا بد أن تعرفي.

– لم أكن أنوي الاحتفاظ بأربع دفاتر، ولكن هذا ما حدث.

– ولماذا لا تحتفظين بدفتر واحد؟

فكرت آنا لبرهة ثم قالت: «ربما لأنه سيصبح مزدحمًا بأفكار شتى، وستتداخل هذه الأفكار على نحو فوضوي.»

– ولماذا يجب ألّا تتداخل هذه الأفكار على نحو فوضوي؟

كانت آنا تبحث داخلها عن الكلمات المناسبة التي يمكن أن ترد بها حينما سمعت صوت جانيت آتيًا من الدور العلوي: «أمي؟»

– نعم؟ ظننت أنكِ نائمة.

– كنت نائمة، أنا أشعر بالعطش، مع من تتحدثين؟

– إنه تومي، هل تريدين أن يصعد ليسلم عليك قبل أن تنامي؟

– نعم، وأريد بعض الماء.

استدار تومي في هدوء وخرج من الغرفة، سمعته آنا وهو يفتح الصنبور الموجود بالمطبخ، ثم ترامى إلى سمعها وقع خطواته الثقيلة وهو يصعد السلم، في تلك اللحظة انتابتها حالة شديدة من الهياج وكأن كل خلية بجسدها لامست شيئًا يهيجها ويثيرها. إن وجود تومي معها بالغرفة وضرورة التفكير في طريقة لمواجهته يبقي آنا التي تعرفها بين جنباتها، ولكنها الآن لا تكاد تعرف من تكون، كانت تريد أن تضحك، وأن تبكي، تريد حتى أن تصرخ، داخلها رغبة في أن تحطم شيئًا ما، أن تمسك به وتظل تهزه وتهزه حتى ... يصبح تومي هو من تراه أمامها وهي تمسك بهذا الشيء. لا بد أنه نقل إليها حالته المزاجية المضطربة، وأن المشاعر التي انتابته اجتاحتها، هكذا حدثتها نفسها. أدهشها أن تكون معالم الحقد والكراهية التي عكستها ملامح وجهه والنبرة العالية والغلظة اللتان كانتا تغلفان صوته للحظات قليلة هي علامات خارجية تعكس تلك الثورة الهائجة التي تعج بها نفسه من الداخل. فجأة شعرت ببرودة ونداوة في كفيها وأسفل إبطيها، إنها خائفة، كل الأحاسيس المختلفة والمتضاربة التي تشعر بها تعكس خوفها، ليس من المعقول أن تكون خائفة من قوة تومي البدنية؟ أينتابها كل هذا الرعب منه ومع ذلك تبعث به إلى الدور العلوي ليتحدث مع طفلتها؟ ولكن لا، إنها لا تخشى منه على جانيت مطلقًا. ترامى إلى سمعها صوتهما وهما يتحدثان، كان الحديث مرحًا، سمعت أحدهما يضحك، إنها جانيت، ثم سمعت صوت خطوات بطيئة ثابتة تهبط السلم؛ عاد تومي إلى الحجرة مرة أخرى. بادرها بالسؤال على الفور: «في رأيكِ، ماذا ستعمل جانيت حينما تكبر؟» لم يعد وجهه شاحبًا ولم تعد ملامحه تحمل بين طياتها ذلك العناد، وأصبحت آنا أكثر هدوءًا. كان يقف بجانب الطاولة ذات القوائم الخشبية وهو يستند عليها بكفه، أجابته آنا: «لا أعرف، إنها لا تزال في الحادية عشرة من عمرها.»

– ألا يشغلكِ هذا الأمر؟

– لا، إن الأطفال يستمرون في التغيُّر، كيف لي أن أعرف ما ستريده فيما بعد؟

مد تومي شفتيه إلى الأمام وقد ارتسمت عليهما ابتسامة ساخطة، فقالت آنا: «لماذا تلك الابتسامة، هل قلت شيئًا أحمق مرة أخرى؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– بل المضحك الطريقة التي قلته بها، موقفكِ.

– أنا آسفة.

مع أنها لم ترغب في ذلك فقد غلف الحزن نبرة صوتها التي ملأها الضيق، وابتسم تومي ابتسامة واهنة وقد داخله الارتياح: «هل فكرتِ من قبل في والد جانيت؟»

حبست الصدمة أنفاسها، ولكنها أجابته: «لا، نادرًا ما كنت أفكر فيه.» حملق تومي بها واستطردت: «أنت تريدني أن أقول لك ما أشعر به حقًّا، أليس كذلك؟ أنت تذكرني بالأم شوجر، كانت تقول لي أشياء مثل إنه والد طفلتكِ، أو إنه كان زوجكِ. ولكن هذا لم يكن قط يعني لي شيئًا. ماذا يزعجك، أن أمك لم تكن تهتم كثيرًا بأمر ريتشارد؟ حسنًا لقد كانت صلتها بريتشارد أقوى من صلتي بماكس ولف.» كان يقف منتصب القامة وبدا وجهه شاحبًا للغاية، ونظرات التأمل بعينيه الشاردتين عميقة للغاية حتى إن آنا شكت في أنه يراها، ولكن بدا لها أنه يستمع إليها فواصلت حديثها: «أنا أعرف ماذا يعني أن تنجب المرأة طفلًا من الرجل الذي تحبه، ولكنني لم أستطع أن أتفهم ذلك جيدًا حتى أحببت رجلًا. كنت أود أن أنجب طفلًا من مايكل، ولكن ما حدث هو أنني أنجبت من الرجل الذي لم أكن أحبه ...» خفت صوتها شيئًا فشيئًا ثم صمتت، وهي تسأل نفسها هل يستمع إليها تومي، إنه ينظر إلى الجدار الموجود على بعد أمتار قليلة، حَوَّلَ عينيه الداكنتين اللتين تسرحان في شرود إليها وقال بنبرة فيها بعض من التهكم الذي لم تعهده في صوته من قبل: «أكملي يا آنا، إنه لسبق عظيم لي أن أستمع إلى شخص خبر الحياة جيدًا يحكي عن مشاعره.» على الرغم من تلك النبرة التهكمية، حملت عيناه نظرة صادقة للغاية، فأخمدت آنا الضيق الذي أثارته تلك النبرة داخلها وواصلت حديثها: «هكذا يبدو الأمر لي، إنه ليس شيئًا سيئًا، أعني أن يعيش المرء من دون شيء يريده ربما يكون شيئًا سيئًا، ولكنه لن يحطم حياته، لن يقضي عليها. ليس من العيب أن أقول: إنني لا أعمل بالمجال الذي أرغب فيه، فأنا أستطيع أن أقوم بشيء أفضل، أو إنني امرأة تحتاج إلى الحب، ولكنني أستطيع أن أحيا دونه. ولكن العيب هو أن نتظاهر بأن ما هو ضروري وحيوي ليس أساسيًّا لنا، أن نتظاهر بأننا لا نحتاج إلى الحب ونحن في حاجة له، أو نتظاهر بأننا نحب عملنا ونحن على يقين من داخلنا أنه بإمكاننا أن نقوم بشيء أفضل. سوف أكون مخطئة لأبعد الحدود إن قلت — بدافع الشعور بالذنب أو أي شعور سلبي آخر — إنني أحب والد جانيت، وأنا أعرف جيدًا أنني لا

أحبه، وسوف تكون أمك مخطئة أيضًا إن قالت إنها كانت تحب ريتشارد، وسوف أكون مخطئة إن قلت إنني أحب العمل الذي أقوم به ...» هنا توقفت آنا.

أومأ تومي برأسه، ولكن آنا لم تستطع أن تفهم هل هو راضٍ عما قالته، أم أنه من الواضح أنه لم يرغب في سماع تلك الأفكار. استدار مرة أخرى ونظر إلى الدفاتر الموجودة على سطح الطاولة وفتح الدفتر الأزرق، رأته آنا وهو يهز كتفيه ويضحك في سخرية، أطلق هذه الضحكة لكي يستفزها.

– ماذا هناك؟

قرأ تومي الكلمات المكتوبة بصوت عالٍ: «١٢ مارس/آذار، ١٩٥٦: فجأة أصبحت جانيت عدوانية وأصبح من الصعب أن أرضيها. إنها مرحلة صعبة بأكملها.»

– ماذا في ذلك؟

– أذكر أنه في إحدى المرات سألتِ أمي عني، إن نبرة صوتها الواضحة لا تصلح للأحاديث السرية، فقد أجابتكِ وهي تهمس بنبرة رنانة: رباه، إنه يمر بمرحلة صعبة.

– ربما كنت كذلك.

– مرحلة ... كان ذلك في إحدى الليالي التي تتناولين فيها العشاء مع أمي بالمطبخ، استمعت إلى حديثكما وضحكاتكما وأنا مستلقٍ بفراشي. نزلت من غرفتي لأحضر كوبًا من الماء، شعرت بالتعاسة حينها، كل شيء كان يقلقني. لم أستطع أن أحل واجباتي المنزلية وسيطر عليَّ الرعب حينما حل الليل، بالطبع لم يكن كوب الماء إلا حجة لكي أنزل إلى المطبخ، أردت أن أبقى بالقرب من الضحكات التي تنطلق بأرجائه، ولكنني لم أرغب في أن تعرف أيكما أنني خائف، سمعتكِ من الخارج تسألين أمي: ما أخبار تومي؟ ردت عليكِ: إنه يمر بمرحلة صعبة.

– وماذا في ذلك؟

استغرقت آنا في تفكيرٍ مُضْنٍ بشأن جانيت، استيقظت لتوها من النوم وطلبت منها كوبًا من الماء، هل يريد تومي أن يقول إن جانيت حزينة؟

قال تومي بنبرة غاضبة: «تجاهلت كل ما كنت أشعر به، طوال أيام طفولتي كنت دائمًا أحقق أشياء تبدو لي مهمة وغير مسبوقة، دائمًا أحرز الانتصارات. في تلك الليلة أحرزت انتصارًا بهبوطي السلم المظلم وحدي وتظاهري بأنني على ما يرام، في كل انتصار أحرزته هناك شيء أعض عليه بنواجذي، شعور بشيء ما كنت أتشبث به، شعور بواقعي وشخصيتي، ثم تأتي أمي وتقول إنها ليست إلا مرحلة، أي أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل ما شعرت به وقتها لم يكن مهمًّا، ليس إلا نتيجة لبعض التغيرات الفسيولوجية، مرحلة ستنقضي.»

لم ترد آنا، القلق بشأن جانيت لا يزال يسيطر عليها، ولكن الصغيرة تبدو ودودة ومرحة، وأمورها الدراسية تسير على ما يرام، إنها نادرًا ما تستيقظ بالليل، ولم تلمح لها قط بخوفها من الظلام.

قال تومي: «أظن أنكِ أنتِ وأمي كنتما تقولان إنني أمر بمرحلة صعبة؟ فمع كل شيء يا آنا ...».

قالت آنا بنبرة ساخرة: «لا أظن أننا قلنا ذلك، ولكننا خمنا.»

– لا يهم ما أشعر به الآن؟ ولكن عند أي مرحلة سيحق لي أن أقول لنفسي إن ما أشعر به الآن شعور طبيعي ومنطقي؟ فمع كل شيء يا آنا ... — استدار تومي ليواجهها ثم استطرد — لا يمكن أن يمضي المرء في حياته ينتقل من مرحلة إلى أخرى، لا بد أن يكون هناك هدف يبلغه في وقت ما.

كانت نظرات الكراهية تلمع بعينيه، وفي صعوبة تمكنت آنا من أن ترد عليه: «إن كنت تلمح إلى أنني بلغت غايتي وأنني أصدر حكمي عليك من موقع شخص بلغ منزلة عالية، فهذا ليس صحيحًا.»

قال تومي بلهجة يملؤها الإصرار: «مراحل وأطوار، وعقبات مع كل مرحلة جديدة.»

– ولكن هكذا في اعتقادي ترى المرأة من حولها من أشخاص، وأولهم أولادها. في البداية تظل طوال تسعة أشهر لا تعرف هل الجنين الذي تحمله داخلها ذكر أم أنثى، في بعض الأحيان أتساءل كيف كانت جانيت ستبدو لو وُلدت ذكرًا. أتفهم ذلك؟ ثم يظل الرضيع ينتقل من مرحلة إلى أخرى حتى يصبح طفلًا، وحينما تنظر المرأة إلى طفلها ترى فيه كل المراحل التي مر بها في وقت واحد. حينما أنظر إلى جانيت أراها أحيانًا طفلة صغيرة لم تولد بعد وأشعر بها تتحرك داخل أحشائي، وأراها فتاة يختلف حجمها باختلاف الأعمار التي تمر بها الفتيات الصغيرات، وذلك كله في وقت واحد.» كان الاتهام والتهكم يطلان من عيني تومي ولكن آنا واصلت حديثها في إصرار: «هذه هي الطريقة التي ترى بها المرأة الأشياء من حولها، كل شيء يتدفق في تجدد في خط لا نهاية له، أليس من الطبيعي أن تكون هذه رؤيتها؟

– ولكننا من وجهة نظركن لسنا أفرادًا نتمتع بكيانات مستقلة، إننا لسنا إلا انعكاسات مؤقتة لأشياء ترونها «مراحل».

لأول مرة يضحك تومي، ومع أن ضحكته كانت غاضبة فقد شجعتها تلك الضحكة. ظلا صامتين لبرهة، كان تومي يعبث بالدفاتر بأصابعه وهو يدير ظهره قليلًا إليها، وجلست آنا تشاهده وهي تحاول أن تهدئ من روعها، تحاول أن تتنفس بعمق وتبقى هادئة ومسيطرة على أعصابها، ولكنها لا تزال تشعر بنداوة في كفيها، ولا يزال الشعور نفسه يتسلل إلى أفكارها، إنها شعرت كأنها تقاوم شيئًا ما، تحارب عدوًّا خفيًّا، كادت أن ترى ذلك العدو — كتلة من الشر، إنها على يقين من ذلك، تجسيد ملموس للخبث والرغبة في التدمير — يقف بينها وبين تومي محاولًا أن يدمرهما.

أخيرًا قطعت آنا فترة الصمت: «أنا أعرف سبب زيارتك، جئت إليَّ حتى أخبرك ما غاية حياتك، ولكنك تعرف سلفًا ما يمكن أن أقوله، لأنك تعرفني جيدًا، وهذا يعني أنك جئت إلى هنا وأنت تعرف فعلًا ما سأقوله ... لكي تؤكد شيئًا ما ... — استطردت آنا بصوت منخفض — ولذلك أنا خائفة للغاية.» لم تقصد آنا أن تتلفظ بهذه الجملة الأخيرة التي بدت مثل نوع من الرجاء. نظر إليها تومي نظرة خاطفة كأنه يقول لها إنه من الصواب أن تكون خائفة.

ثم قال في لهجة يملؤها العناد: «ستقولين لي إن شعوري سيصبح مختلفًا بعد شهر، فلنفترض أن هذا لم يحدث؟ ... أخبريني يا آنا ما غايتنا من الحياة؟» أدار تومي ظهره إليها وكان جسده يرتعش وكأنه يضحك في صمت فرحًا بذلك النصر الذي حققه له هذا السؤال.

قالت آنا: «نحن أنصار الفلسفة الجبرية المعاصرون، أمثالنا من الأشخاص ...».

– هل ألحقتني بطبقة الأشخاص الذين يشبهونكِ؟ شكرًا لكِ يا آنا.

– ربما مشكلتك هي أن أمامك الكثير من الخيارات.

حينما رأته آنا واقفًا في ثبات عرفت أنه يصغي إليها فواصلت حديثها: «يستطيع أبوك أن يوفر لك فرصة السفر إلى ست دول مختلفة وأن يمدك بوظائف في أي مجال من المجالات، وأنا وأمك بوسعنا أن نوفر لك عشرة وظائف مختلفة في المسرح أو في مجال النشر. ويمكنك أيضًا أن تقضي بضع سنوات وأنت تجوب الحياة دون عمل، فبوسعي أنا وأمك أن نتحمل نفقاتك، حتى إن لم يدفع أبوك شيئًا.»

ولكن تومي لا يزال متمسكًا برأيه: «لدي مئات من الأشياء يمكن أن أقوم بها، ولكن لدي شيء واحد يمكن أن أكونه. ربما أشعر أنني لا أستحق كل هذه الفرص جميعها؟ وربما أنا لست من أنصار الفلسفة الجبرية يا آنا ... هل قابلت ريجي جايتس من قبل؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ابن بائع اللبن؟ لا، ولكن أمك حكت لي عنه.

– إني على يقين من أنها أخبرتك عنه، وأكاد أعرف ما قالته لك. الموضوع هو — وأنا واثق من أنها قالت لكِ ذلك — إن هذا الشاب ليس لديه أي اختيار، حصل على منحة دراسية، ولكنه إذا رسب في الاختبار فسيقضي بقية عمره يوزع اللبن على المنازل مع أبيه، ولكن إذا اجتاز الاختبار، وسوف يفعل، فسيرتقي بنفسه ليصبح من أبناء الطبقة المتوسطة مثلنا، إنه لا يمتلك مئات الفرص، إنها فرصة واحدة فقط، ولكنه يعرف ما يريده حقًّا، إنه لا يعاني عجز الإرادة.

– أتحسد ريجي جايتس على ما يواجهه من صعوبات؟

– نعم، أتعلمين أنه من المحافظين ويظن أن الأشخاص الذين يشكُون من النظام حمقى، ذهبت معه الأسبوع الماضي إلى مباراة كرة قدم، وكم تمنيت أن أكون مكانه.

ضحك تومي مرة أخرى ولكن صوت ضحكته هذه المرة جعل آنا ترتجف. استطرد تومي: «أتذكرين توني؟»

– نعم.

هكذا قالت آنا، وقد تذكرت أحد أصدقائه بالمدرسة، لقد أذهل الجميع حينما رفض أن يؤدي الخدمة العسكرية، وعمل بمنجم فحم عامين بدلًا من أن يذهب إلى الجيش، مما سبب انزعاجًا شديدًا للعائلة المحترمة التي ينحدر منها.

– انضم توني إلى الاشتراكيين منذ ثلاثة أسابيع.

ضحكت آنا ولكن تومي استطرد: «لا، ولكن هذا هو أصل المشكلة، أتذكرين حينما رفض أن يؤدي الخدمة العسكرية؟ فعل ذلك فقط لكي يثير حنق أبويه، إن هذا صحيح يا آنا.»

– حسنًا، ولكنه أكمل الطريق، أليس كذلك؟

– كنت أعرف توني جيدًا، وأعرف أن الأمر عنده كان نوعًا من المزاح تقريبًا، قال لي في إحدى المرات إنه لم يكن واثقًا من صحة اختياره، ولكنه لم يكن ليدع أبويه يسخران منه، هذا ما قاله تحديدًا.

قالت آنا في لهجة يملؤها الإصرار: «ومع ذلك، لم يكن ذلك سهلًا أن يظل عامين يقوم بهذه النوعية من العمل، ولكنه ثابر واستمر في مواصلته.»

– هذا ليس شيئًا جيدًا يا آنا، إن هذا هو ما دفعه إلى الانضمام إلى الاشتراكيين، أتعرفين تلك المجموعة من الاشتراكيين الجدد؟ إنهم يشبهون تلك المجموعات العاملة بأكسفورد، سوف يصدرون مجلة سيسمونها صوت اليساريين أو شيئًا من هذا

القبيل. المهم أنني قابلتهم، إنهم يطلقون الشعارات الحماسية ويتصرفون كمجموعة من ....

– تومي، هذه حماقة.

– لا، إنها ليست كذلك. السبب الوحيد الذي يدفعهم إلى أن يقوموا بذلك هو أن الحزب الشيوعي لا يقبل عضوية أي فرد الآن، إنهم يلجئون إلى ذلك كبديل. إنهم يستخدمون هذه المصطلحات الكريهة ... سمعتكِ أنتِ وأمي تسخران من تلك المصطلحات، فلماذا لا يجدون في أنفسهم غضاضة حينما يستخدمونها؟ أظن أنكِ ستعللين ذلك بصغر سنهم، ولكن ذلك ليس تعليلًا منطقيًّا يا آنا. ودعيني أخبرك بشيء، في خلال خمس سنوات سيحصل توني على وظيفة مرموقة في المجلس القومي لمناجم الفحم أو غيره من الهيئات المشابهة، وربما يصبح أحد نواب حزب العمال في البرلمان، ويلقي الخطب حول هذا اليساري وذاك الاشتراكي ....

كان تومي يتحدث بنبرة عالية وهو يلهث.

قالت آنا: «وربما أيضًا يؤدي عملًا جيدًا ومفيدًا.»

– إنه لا يؤمن حقًّا بذلك، إنه موقف اتخذه فقط، إن لديه صديقة سيتزوجها، وهي عاملة اجتماع منضمة أيضًا لتلك الجماعة، إنهم يجوبون المدينة ويعلقون الملصقات ويهتفون بالشعارات.

– تتكلم كأنك تحقد عليه.

– آنا لا تعامليني وكأنني طفل صغير، أنتِ تتكلمين معي وكأنني كذلك.

– لم أقصد ذلك، لا أظن أنني فعلت.

– بل فعلتِ، أنا أعرف جيدًا أنكِ لو كنت تتحدثين مع أمي بشأن توني، لكنتِ قلت شيئًا مختلفًا. وأكاد أعرف ما ستقولينه إذا رأيتِ تلك الفتاة، إنها تلعب دور الأم الراعية نوعًا ما. لماذا لا تكونين صادقة معي يا آنا؟

امتلأت لهجته بالثقة وارتفعت نبرة صوته وهو يسألها هذا السؤال وتبدلت معالم وجهه تمامًا، نظر إليها والغضب يلمع بعينيه، ثم استدار سريعًا وكأنه كان في حاجة إلى تلك اللحظة الخاطفة من الغضب لكي يتشجع. بدأ يتفحص دفاترها مديرًا ظهره إليها على نحو يوحي بأنه يرفض رفضًا باتًّا أي محاولة يمكن أن تقوم بها لمنعه من قراءة الدفاتر.

جلست آنا دون حراك وأفكارها تتعرى أمامه، محاولة أن تمنع نفسها من أن تنهض من مكانها. شعرت بانزعاج شديد حينما تذكرت خصوصية تلك الكلمات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كتبتها. قلب تومي صفحة بعد صفحة كأنه يسابق الزمن ليقرأ المزيد والمزيد، وآنا تجلس في مكانها. أرهقها الشعور بالانزعاج حتى كادت أن تفقد وعيها وراودتها بعض الأفكار المشوشة: إذن، لا يهم، إذا كان هذا هو ما يحتاج إليه، لا يهم ما أشعر به.

مر بعض الوقت، ربما ساعة كاملة، سألها تومي بعدها: «لماذا تكتبين الأشياء بخطوط مختلفة؟ وتضعين الأقواس حول بعض الأجزاء لتفصليها عن غيرها؟ تضفين أهمية على بعض المشاعر دون غيرها؟ كيف تحددين الأشياء الهامة والأشياء غير الهامة؟»

– لا أعرف.

– هذا غير منطقي، وأنتِ تعرفين ذلك. هناك جزء دونته حينما كنت لا تزالين مقيمة بمنزلنا يقول: «وقفت أنظر من النافذة وبدا لي من الأعلى أن الشارع على بعد أميال مني، وفجأة شعرت وكأنني ألقيت بنفسي من النافذة، بإمكاني أن أرى نفسي مستلقية على الرصيف، ثم بدا لي أنني أقف بجانب الجسد المستلقي فوق ذلك الرصيف، كنت شخصين. انفلقت رأسي وتناثرت أشلاء مخي وملأت الدماء المكان، فركعت وبدأت ألعق الدماء وأشلاء المخ المتناثرة.»

وجه تومي عينيه إليها ونظرات الاتهام تطل منهما، ولكن آنا كانت صامتة: «أحطتِ هذا الجزء بأقواس عريضة حينما كتبته. وبعد ذلك كتبتِ الآتي: «ذهبت إلى المتجر واشتريت رطلًا ونصفًا من الطماطم، ونصف رطل من الجبن وعلبة من مربى الكريز وربع رطل من الشاي، ثم أعددت سلطة الطماطم واصطحبت جانيت في نزهة إلى الحديقة.»»

– وماذا في ذلك؟

– كان ذلك كله في يوم، لماذا أحطت ذلك الجزء الذي تتحدثين فيه عن لعقكِ للدماء وأشلاء المخ بأقواس؟

– كلنا نمر بتلك اللحظات الجنونية الخاطفة، نتخيل أنفسنا أجسادًا هامدة فوق أرصفة الشوارع، أو نتصور أننا صرنا متوحشين أو أقدمنا على الانتحار أو غيرها من الأشياء المشابهة.

– أوليست هذه أشياء ذات أهمية؟

– لا.

– طماطم وربع رطل من الشاي، أهذا هو ما يهم؟

- نعم.

- ما الذي يجعلكِ تقررين أن الجنون والوحشية ليسا على القدر نفسه من الأهمية مثل ... مواصلة أمور الحياة اليومية.

- إن الأمر ليس كذلك فقط، أنا لا أفصل الجنون والوحشية بأقواسي ... إن الأمر مختلف تمامًا.

- ماذا تعنين؟

كان تومي مصرًّا على أن يحصل على إجابة، وقد بحثت آنا بين غيابات الإرهاق المسيطر عليها عن واحدة.

- إنها طريقة أخرى لإدراك الأشياء وفهمها، ألا ترى ذلك؟ ففي أحد الأيام التي أشتري فيها الطعام وأطهوه وأعتني بجانيت وأؤدي عملي، تومض لحظة جنونية خاطفة، ولكنها تتحول إلى لحظة دراماتيكية بغيضة حينما أدونها، لا لشيء إلا لأنني كتبتها، ولكن الأشياء الحقيقية التي حدثت في ذلك اليوم هي الأشياء العادية.

- إذن لماذا دونتها من البداية؟ هل تعرفين أن محتويات هذه الدفاتر بأكملها، أعني الدفتر الأزرق، هي إما كتابات قُصَّت من الصحف، أو أجزاء مثل ذلك الذي يتحدث عن الدماء وأشلاء المخ، جميعها إما محاطة بأقواس تفصلها عن بقية الأجزاء أو مشطوبة، أو فقرات تدون شراءكِ للطماطم والشاي؟

- أظن ذلك، لأنني أحاول دائمًا أن أدون ما هو حقيقي ثم أدرك أنه غير حقيقي.

باغتها تومي: «ربما يكون حقيقيًّا، ربما يكون كذلك، ولكنكِ لم تستطيعي أن تحتمليه، فشطبته.»

- ربما.

- ولكن لماذا أربع دفاتر؟ ماذا سيحدث لو كان لديكِ دفتر واحد كبير من دون كل هذه التقسيمات والأقواس والخطوط المختلفة؟

- قلت لك حتى لا تموج الأفكار برأسي.

استدار تومي لينظر إليها وقال بلهجة لاذعة: «إنك سيدة منظمة حقًا، وهذا واضح مما كتبتِهِ.»

قالت آنا: «إنك تتحدث مثل أمك، تنتقدني على هذا النحو دائمًا، بنبرة الصوت نفسها.»

- لا تتهربي مني يا آنا، هل أنتِ خائفة من أن تتملككِ الفوضى الفكرية؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تسلل الخوف إليها وشعرت بانقباض في معدتها، ثم أجابته بعد فترة من الصمت: «أظن أنني يجب أن أكون كذلك.»

– إذن، فأنتِ مخادعة. فمع كل شيء لهذا الموقف أساس، أليس كذلك؟ نعم هو كذلك. أنتِ تحتقرين أبي وأمثاله لأنهم يقيدون أنفسهم، ولكنكِ أنتِ الأخرى تقيدين نفسكِ، لنفس السبب، لأنكِ خائفة. أنتِ غير قادرة على تحمل المسئولية.

ارتسمت على شفتيه الممدودتين إلى الأمام ابتسامة تنم عن الارتياح حينما أصدر حكمه عليها. وأدركت آنا أن هذا هو ما جاء من أجل أن يقوله، هذه هي النقطة التي يتحركان نحوها طيلة هذا المساء. كان تومي على وشك أن يبدأ بالحديث مرة أخرى، ولكنها بادرته بسؤال حينما تكشفت أمامها حقيقة مهمة: «أنا غالبًا أترك باب منزلي مفتوحًا ... هل أتيت إلى هنا لكي تقرأ ما كُتب بتلك الدفاتر.»

– نعم، أتيت بالأمس، ولكنني رأيتكِ قادمة في الطريق فخرجت قبل أن تصلي إلى المنزل وتكتشفي أمري. أدركت أنكِ مخادعة يا آنا. إنك امرأة سعيدة ولكن ....

قالت آنا بلهجة ساخرة: «أنا، سعيدة؟»

– فلنقل، راضية. نعم، أنتِ كذلك، أكثر من أمي ... أو أي شخص آخر أعرفه. ولكن إذا فكرنا تفكيرًا جديًّا، فسنجد أن الأمر بأكمله ليس إلا كذبة. إنكِ تجلسين هنا تكتبين، ولكن لا أحد يمكن أن يطلع على ما كتبته، إن هذا غرور، قلت لكِ ذلك من قبل. إنكِ حتى لا تملكين من الصدق ما يسمح لكِ بأن تدعي نفسكِ تكون على طبيعتها ... الأشياء كلها منقسمة ومتفرقة. إذن ما جدوى ذلك النصح الذي توجهيه إليَّ وكأنني طفل صغير: أنت تمر بمرحلة صعبة، وإن لم تكن تمر بمرحلة صعبة فهذا لأنك لا تستطيع أن تمر بأي مرحلة، يجب أن تهتم بأن تقسم أفكارك لأجزاء مستقلة. إذا كانت الفوضى هي طبيعة الأشياء فعلينا أن نقبل ذلك. أرى أنه ليس هناك نظام يحكم أي شيء، أنتِ تخلقين الأنظمة بدافع من خوفكِ. أنا لا أظن أن هناك وجودًا للخير بحياة البشر، إنهم وحوش، وحينما ترين الأمر على حقيقته فستجدين أنه لا أحد يهتم بغيره. في أفضل الأحوال ربما يهتم الإنسان بشخص واحد آخر أو بعائلته، ولكن ذلك يكون نابعًا من غروره وأنانيته وليس من رغبته في أن يهتم بالآخرين. نحن لسنا أفضل حالًا من الحيوانات، ولكننا نتظاهر بأننا كذلك، فأبناء جنسنا لا يهتمون مطلقًا بعضهم ببعض.

مشى تومي نحو المقعد المواجه لها وجلس عليه قبالتها، إنه يبدو مرة أخرى هذا الفتى العنيد صاحب الخطوات الثقيلة الذي تعرفه. فجأة أطلق تومي قهقهة عالية أثارت في نفسها الرعب، ورأت آنا لمحة الحقد تعود لتكسو وجهه مرة أخرى.

قالت آنا: «ليس معقولًا أن أغضب مما قلته، أليس كذلك؟»

انحنى إلى الأمام وقال: «سوف أمنحكِ فرصة أخرى يا آنا.»

أدهشها كلامه وقالت وهي تكتم ضحكتها: «ماذا؟!» ولكن ملامح وجهه كانت مخيفة، فاستطردت بعد فترة من الصمت: «ماذا تعني؟»

– أنا جاد فيما أقول، والآن أخبريني: اعتدتِ أن تسيري في حياتك وفقًا لفلسفة معينة تؤمنين بها، أليس كذلك؟

– أظن ذلك.

– والآن أنت ترين أن الشيوعية أسطورة، فبماذا تؤمنين الآن؟ لا تقولي لي إنكِ تتبعين مذهب الجبريين، فهذا هراء.

– أرى أن الأمر يشبه ما تقول كثيرًا. من حين لآخر، ربما مرة كل مائة عام، يظهر اتجاه يناصر الإيمان بمعتقد ما. تمتلئ النفوس بالإيمان في هذا المعتقد، فيقفز إلى حدود بعيدة بدولة ما أو أخرى، وهذا يمثل دفعة إلى الأمام للعالم أجمع، لأنه يعبر عن تخيل ... ما يمكن أن يعم العالم أجمع. في القرن الذي نعيش فيه تجسد هذا الاتجاه في ثورة ١٩١٧ في روسيا، ثم في الصين. ثم بعد ذلك ينضب الإيمان في النفوس، لأن الوحشية والقبح، مثلما قلت، يصبحان أقوى. ثم يبدأ هذا الإيمان في التجمع مرة أخرى شيئًا فشيئًا، وبعد ذلك يظهر الدافع لأن يقفز ذلك الإيمان فجأة.

– سألها تومي: «يقفز فجأة؟»

– نعم.

– مع كل ما يحدث، وتقولين يقفز فجأة؟

– نعم، لأنه في كل مرة يصبح التمسك بالحلم أقوى. فإذا استطاع الناس أن يتخيلوا شيئًا ما، سيأتي اليوم الذي يحققونه فيه.

– يتخيلون ماذا؟

– يتخيلون ما قلته: الخيرية، حب الغير؛ نهاية السلوك الحيواني.

– ونحن، ماذا يمكن أن نفعل؟

– أن نبقي الحلم حيًّا داخل النفوس، لأنه دائمًا ستظهر نفوس بشرية جديدة لا تعاني ... عجز الإرادة.

ختمت آنا حديثها بنبرة عالية وإيماءة تنم عن حماسها، خطر لها أنها تبدو مثل الأم شوجر وهي تنهي أحد خطاباتها: لا بد أن تمتلئ نفوسنا بالإيمان! فتنطلق الهتافات التي تحييها. على الرغم من أنها تؤمن حقًّا بما قالته، فقد خطر لها أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شفتيها تحملان ابتسامة يبدو منها أنها تدين نفسها أو تشعر بالذنب، إنها تكاد ترى تلك الابتسامة مرتسمة على شفتيها، فالطريقة الماكرة التي أومأ بها تومي إليها كانت تنم عن أنه انتصر عليها. رن جرس الهاتف، فقال تومي: «إنها أمي، تود أن تطمئن أن العاصفة ستمر في سلام.»

أجابت آنا على الهاتف، لم تقل شيئًا إلا نعم ولا، ثم أغلقت السماعة واستدارت لتنظر إلى تومي: «لا، إنها ليست أمك، ولكنني أنتظر ضيفًا.»

– إذن، يجب أن أرحل.

نهض تومي في بطء، ومشى بخطواته الثقيلة المعهودة، ورسم على وجهه الملامح نفسها التأملية والنظرة السارحة في ذاته اللتين كانتا تطلان منه حينما دخل إلى الحجرة. قال تومي: «شكرًا لأنكِ تحدثتِ معي.» كان يعني: شكرًا لأنكِ أكدتِ لي ظني بكِ.

اتصلت آنا بمولي بعد أن خرج تومي مباشرة، إنها عادت لتوها من المسرح. قالت آنا: «كان تومي هنا، وغادر لتوه. أنا قلقة عليه. هناك شيء مريب يحدث، ولكنني لا أعرف ما هو، ولا أظن أن ما قلته كان مناسبًا.»

– ماذا قال لكِ؟

– قال إن كل شيء فاسد.

ردت عليها مولي بنبرة عالية ومرحة: «معه حق.» مرت ساعتان منذ آخر مرة تحدثت فيها مولي عن ابنها، كانت مولي تؤدي خلالها دور سيدة خفيفة الظل تمتلك حانة، دور تكرهه في مسرحية تكرهها، وذهبت إلى الحانة مع بعض زملائها من فريق العمل وقضت وقتًا ممتعًا هناك؛ لقد خرجت تمامًا من حالتها المزاجية السابقة.

– اتصلت ماريون بي الآن من كابينة الهاتف الموجودة بالأسفل، استقلت آخر قطار فقط لكي تزورني.

قالت مولي في تذمر: «لماذا؟»

– لا أعرف، إنها ثملة، سوف أخبركِ في الصباح.

ملأها الخوف حينما تذكرت كيف غادر تومي فاستطردت: «مولي، علينا أن نفعل شيئًا من أجل تومي، على نحو من السرعة. أنا على يقين من ذلك.»

قالت مولي في لهجة عملية: «سوف أتحدث إليه.»

– ماريون عند الباب، يجب أن أفتح لها، طابت ليلتكِ.

– ليلة سعيدة، في الصباح سأبلغكِ كيف كانت حالة تومي المعنوية، أظن أنه لا داعي لأن نقلق، فقد انتابتنا أشياء مؤسفة حينما كنا في مثل سنه.

سمعت آنا ضحكة مرحة عالية أطلقتها صديقتها وهي تغلق سماعة الهاتف.

ضغطت آنا على الزر الذي يفتح مزلاج الباب الخارجي وترامى إلى سمعها وقع خطوات ماريون وهي تترنح أثناء صعودها على السلم؛ ليس بإمكانها أن تهبط إليها لتساعدها، فسيضايقها ذلك كثيرًا.

عندما دلفت ماريون إلى الداخل كانت ترتسم على وجهها ابتسامة تشبه تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه تومي عند دخوله: ابتسامة مرسومة على الوجه مسبقًا وموجهة إلى كل أرجاء الغرفة. مشت تجاه المقعد الذي جلس عليه تومي وألقت بنفسها عليه في قوة، إن مولي امرأة طويلة ومكتنزة، يمتلئ جسدها المنهك باللحم. ملامح وجهها غير بارزة وكأنها متداخلة بعضها مع بعض، وعيناها البنيتان تحملان الشك، ولكنهما في الوقت نفسه تحملان تعبيرًا مبهمًا. في أيام صباها كانت مولي فتاة نحيفة خفيفة الظل مفعمة بالحيوية، «فتاة غجرية» مثلما كان ريتشارد يصفها بلهجة مفعمة بالحب فيما مضى، ومملوءة الآن بالعداء.

أدارت ماريون عينيها المحدقتين في أرجاء الغرفة من حول آنا، وقد اختفت الابتسامة المرتسمة على وجهها، كانت تضيق عينيها ثم تتركهما تتسعان. من الواضح جدًّا أنها مخمورة للغاية، وعلى آنا أن تحاول أن تدخلها إلى الفراش. جلست آنا أمام ماريون — حيث كان يمكن أن تسقط تحت نظرها — على المقعد نفسها الذي جلست عليه في مواجهة تومي.

عدلت ماريون من وضع رأسها، وغيرت اتجاه نظراتها حتى تستطيع أن ترى آنا، ثم قالت في صعوبة: «كم أنتِ ... محظوظة يا آنا، أنا ... أظن ... أنكِ ... محظوظة جدًّا لأنكِ تعيشين ... تعيشين كما ... يحلو لكِ. يا لها من حجرة جميلة، وأنتِ ... أنتِ ... أنتِ حرة، تفعلين ما يحلو لكِ.»

– ماريون، دعيني أدخلكِ إلى الفراش، ويمكننا أن نتكلم في الصباح.

قالت ماريون في وضوح يشوبه الضيق: «أتظنين أني ثملة؟»

– نعم أنتِ ثملة. لا يهم ذلك. يجب أن تنامي.

إن آنا الآن تشعر بالتعب، فقد تحول الإرهاق الذي كان يعتريها فجأة إلى عبء ثقيل يشدها إلى الأسفل، استرخت في جلستها وهي تقاوم موجات الإجهاد التي تجتاحها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت ماريون في لهجة طفولية غاضبة: «أريد شرابًا، أريد شرابًا، أريد شرابًا.»

نهضت آنا من مقعدها ودلفت إلى باب المطبخ المجاور للحجرة، وملأت كوبًا ببعض الشاي الخفيف المتبقي لديها ثم أضافت ملعقة صغيرة من الويسكي وأحضرت الكوب إلى ماريون.

قالت ماريون: «شكرًا.» ثم ألقت الشراب في فمها وأومأت برأسها، كانت تمسك الكوب في حرص شديد، وقد أحكمت قبضتها عليه.

– كيف حال ريتشارد؟

كان هذا سؤالها التالي الذي طرحته على آنا في حرص وبدا من عضلات وجهها المنقبضة المجهود الذي بذلته لكي تخرج تلك الكلمات من شفتيها، لقد صاغته برأسها قبل أن تدخل إلى منزل آنا، تبادرت إلى آنا هذه الفكرة عندما تخيلت ماريون تسألها هذا السؤال نفسه ولكن بنبرة صوتها العادية التي تتحدث بها عندما لا تكون ثملة: يا إلهي، لم يخطر لي قط من قبل أن ماريون تغار مني.

ردت آنا بنبرة جافة: «ولكن يا ماريون من المؤكد أنكِ تعرفين ذلك أكثر مني؟»

تلاشت نبرة صوتها الجافة في الفراغ الذي يفصل بينها وبين ماريون الثملة، وبدا لها أن ماريون تفكر في معنى كلامها وقد داخلها الشك. قالت آنا في صوت عالٍ وبطء: «لستِ بحاجة لأن تغاري مني يا ماريون، إن كان ريتشارد قد قال لكِ شيئًا فاعلمي أنه غير صحيح.»

ردت عليها ماريون وهي تهمس في غضب وقد تدافعت الكلمات إلى شفتيها: «أنا لا أغار منكِ.» أثارت آنا بداخلها مشاعر الغيرة حينما ألصقت بها ذلك الوصف، فأصبحت ماريون لبضع لحظات امرأة تتأجج داخلها تلك الغيرة، انكمشت ملامح وجهها وهي تدير بصرها في أرجاء الغرفة محدقة بالأشياء التي تغذي تلك الخيالات التي تثيرها غيرتها وفي كل مرة ترجع ببصرها إلى الفراش.

قالت آنا: «ليس صحيحًا.»

– لن يختلف الأمر كثيرًا. ولماذا لا تكونين أنتِ، إذا كان هناك كثيرات؟ على الأقل أنا لن أشعر بالإهانة إذا أتى إليك.

بدت لهجة ماريون مازحة ودودة.

– ولكن شيئًا لم يحدث.

رفعت ماريون رأسها وقذفت بثلاث جرعات من الشراب إلى حلقها مفرغة الكوب وقالت: «كنت أحتاج لهذا الشراب.» ومدت الكوب إلى آنا لكي تملأه مرة أخرى، ولكن

آنا لم تتناول منها الكوب. قالت آنا: «ماريون أنا سعيدة بقدومكِ لرؤيتي، ولكنكِ ترتكبين خطأً حقيقيًّا.»

غمزت ماريون بعينها على نحو مرعب وقالت والشر يتطاير من صوتها الثمل: «أوه، ولكنني أظن أن الحقد هو ما دفعني لأن آتي إليكِ، أنتِ المرأة التي أردت أن أكون مثلها ... امرأة حرة لديها عشاق تفعل ما يحلو لها.»

قالت آنا: «أنا لست حرة.» استطاعت آنا أن تتبين جفاف نبرتها وأدركت أنها يجب أن تنهي تلك النبرة الجافة التي تتحدث بها، فاستطردت: «أنا أود أن أتزوج يا ماريون، أنا لست سعيدة بالعيش هكذا.»

– ما أسهل أن تقولي هذا الكلام، وبإمكانكِ أن تتزوجي إن كنتِ ترغبين في ذلك. سيكون عليكِ أن تسمحي لي بقضاء تلك الليلة عندكِ، فقد رحل آخر قطار مغادر، وريتشارد يبخل عليَّ، ولن يؤجر لي سيارة خاصة، إن ريتشارد بخيل للغاية، نعم هو كذلك.

(لاحظت آنا أن أمارات السكر لا تبدو واضحة للغاية على ماريون وعلى نبرة صوتها حينما تقدم على مهاجمة زوجها وكشف مساوئه.) «هل تصدقين أنه بخيل إلى هذا الحد؟ إنه شخص فاحش الثراء، أتعلمين؛ هناك واحد بالمائة فقط يمتلكون هذا القدر من الثروة ونحن ضمنهم، ومع ذلك يراجع ريتشارد حساباتي كل شهر، إنه يفتخر بأننا ضمن الواحد بالمائة الأغنى، ولكنه تذمر حينما اشتريت فستانًا في أحد عروض الأزياء. إنه يراجع حساباتي بحجة أنه يود أن يعرف كم أنفق على الشراب، ولكن المال في حد ذاته يعنيه أيضًا.»

– لماذا لا تذهبين إلى الفراش؟

– أي فراش؟ من هناك بالأعلى؟

– جانيت والرجل الذي يستأجر الغرفة ولكن هناك فراشًا آخر.

لمعت عينا ماريون بنظرات الشك وأطلت منهما البهجة وقالت: «كم هو غريب أن تؤجري إحدى الغرف لشخص ما. إنه رجل، كم أنتِ غريبة!»

مرة أخرى تتخيل آنا ماريون وهي تبدي ملاحظتها تلك بنبرة صوت عادية بعيدة كل البعد عن تلك النبرة الثملة، وتتردد داخل أذنيها النكات التي ربما يتبادلها ريتشارد وماريون بشأنها عندما لا تكون ماريون تحت تأثير الشراب المسكر؛ إنهما يتبادلان النكات بشأن هذا الرجل الذي يستأجر غرفة بمنزلها. اجتاحها شعور مفاجئ بالاشمئزاز من أمثال ريتشارد وماريون، لم يكن هذا الشعور يداخلها كثيرًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه الأيام كما كان من قبل. ربما تكون حياتها هكذا مجهدة ومرهقة، ولكنها على الأقل لا تعيش مع أشخاص مثل ريتشارد وماريون، لا تعيش بعالم لا تسلم فيه المرأة من النكات الوضيعة إذا استأجر رجل إحدى الغرف بمنزلها.

– ماذا تظن جانيت؟ أنكِ تعيشين في شقتكِ بصحبة رجل؟

– أنا لا أعيش في شقتي بصحبة رجل يا ماريون. أنا أمتلك شقة كبيرة وأؤجر إحدى غرفها، والرجل الذي يقطن بتلك الغرفة هو أول شخص أتى ليراها ورغب في أن يؤجرها. هناك غرفة صغيرة بالأعلى لا يشغلها أحد، من فضلك دعيني أدخلكِ إلى الفراش.

– ولكنني أكره أن أذهب إلي الفراش. قضيت أسعد أيام عمري في بداية زواجنا، لذلك أحقد عليكِ، لن يرغب أي رجل في الزواج مني مرة أخرى، لقد انتهى ذلك العهد. إن ريتشارد يضاجعني في بعض الأحيان، ولكن يكون عليه أن يثير نفسه بنفسه قبل المضاجعة، يا لهم من أغبياء هؤلاء الرجال، يظنون أننا لا نعرف. آنا، هل جمعكِ الفراش من قبل مع رجل كنتِ تعرفين أنه يعمد إلى إثارة نفسه؟

– كان الأمر مثل ذلك حينما كنت متزوجة.

– نعم، ولكنكِ تركتِ زوجكِ، وهذا أفضل لكِ. أتعلمين، كان هناك رجل يبادلني مشاعر الحب، كان يرغب في الزواج مني وقال إنه سيقوم على رعاية الأطفال أيضًا، ولكن ريتشارد تظاهر بأن حبه لي استيقظ داخله مرة أخرى، كان كل ما يريده مني هو أن أبقى معه مربية للأطفال ليس إلا، ليتني رحلت وتركته حينما عرفت أن هذا هو ما يريده. أتعلمين أن ريتشارد اصطحبني معه في إجازة هذا الصيف، كانت الأمور تسير على هذا النحو طوال الوقت. عندما كنا ندخل إلى الفراش، كان يباشرني وأنا أعرف أنه يفكر طوال الوقت في فتاة الليل الصغيرة الموجودة بمكتبه.

دفعت ماريون بالكوب في وجه آنا وقالت بلهجة آمرة: «املئيه.» دلفت آنا إلى الباب المجاور للغرفة وصنعت مزيجًا من الشاي والويسكي وأحضرته إلى ماريون، تجرعت ماريون الشراب وعلا صوتها في نحيب طويل وكأنها ترثي حالها: «ماذا سيكون شعوركِ يا آنا إن عرفتِ أنه لن يحبك أي رجل مرة أخرى؟ عندما ذهبنا لقضاء الإجازة ظننت أن الأمر سيكون مختلفًا، لا أعرف لماذا، في أول ليلة ذهبنا إلى المطعم الموجود بالفندق كانت هناك فتاة إيطالية تجلس على الطاولة المجاورة، ظل ريتشارد ينظر إليها، أرى أنه يظن أنني لم ألاحظ، ثم قال لي إنني يجب أن أذهب إلى الفراش مبكرًا، أراد أن يحظى بالفتاة الإيطالية، ولكنني لم أذهب إلى الفراش

مبكرًا.» أطلقت ماريون في ارتياح صيحة عالية ممزوجة بالنشيج واستطردت: «قلت له: جئت إلى هنا لكي تقضي الإجازة معي، لا لكي تصطاد الساقطات.» اغرورقت عيناها المحمرتان اللتان أطلت منهما نظرات الانتقام بالدموع وبللت البقع الحمراء الخشنة التي ظهرت على وجنتيها المتلئتين. «قال لي: أنتِ لديكِ مسئولية الأطفال، أليس كذلك؟ ولكن لماذا يكون عليَّ أن أقوم على رعاية الأطفال إذا كنت أنت لا تهتم بي؟ هكذا أجبته. ولكنه لا يفهم ذلك. لماذا يكون عليكِ أن تقومي على رعاية أطفاله إذا كان لا يحبكِ؟ أليس ذلك صحيحًا يا آنا؟ بالله عليكِ أليس ذلك صحيحًا؟ قولي شيئًا، إن ذلك صحيح أليس كذلك؟ عندما قال لي إنه يرغب في أن يتزوجني، قال إنه يحبني، لم يقل لي إنه سيهبني ثلاثة أطفال ثم يذهب إلى فتيات الليل الصغيرات ويتركني مع الأطفال. قولي شيئًا يا آنا. فيما يخصك ليس هناك أي مشكلة، فلديكِ طفلة واحدة ويمكنكِ أن تفعلي ما يحلو لكِ. من السهل جدًّا أن تجذبي ريتشارد حينما يأتي في زيارة خاطفة بين الحين والآخر ليتناول معكِ الشراب.»

رن جرس الهاتف مرة واحدة ثم توقف.

قالت ماريون: «ربما يكون هذا أحد عشاقكِ على ما أظن، أو ربما يكون ريتشارد، إذا كان هو من يتصل أخبريه أنني هنا، أخبريه أنني على علم بكل أخطائه، أخبريه بذلك.»

رن جرس الهاتف مرة أخرى دون انقطاع.

نهضت آنا ومشت تجاه الهاتف وهي تفكر في أن ماريون تتكلم وكأنها لم تعد تحت تأثير الشراب المسكر.

أجابت آنا: «مرحبًا» ترامى إلى سمعها صوت مولي وهي تصرخ: «قتل تومي نفسه يا آنا، أطلق على نفسه الرصاص.»

– ماذا؟

– عاد إلى المنزل بعد أن اتصلتِ بي مباشرة وصعد إلى الأعلى دون أن ينطق بكلمة واحدة. ثم سمعت صوت فرقعة، ولكنني ظننت أنه جذب باب غرفته بقوة ليغلقه، ثم سمعت صوت تأوه بعد ذلك بكثير، فصرخت منادية عليه ولكنه لم يرد، فظننت أنه خُيِّلَ لي، ولكن الخوف داخلني فخرجت من الغرفة ورأيت الدماء تسيل على درجات السلم، لم أكن أعلم أن بحوزته مسدسًا، إنه لم يمت، ولكنه سيموت، هذا ما فهمته من الشرطة؛ سوف يموت.

تعالت صرخات مولي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– سوف آتي إلى المستشفى، ما اسمها؟

سمعت آنا في الخلفية صوت رجل يقول: «دعيني أتحدث إليها يا سيدتي.» ثم قال الرجل: «سوف نأخذ صديقتكِ وابنها إلى مستشفى سانت ماري؛ أرى أن صديقتكِ تحتاج إلى وجودكِ معها.»

– سوف آتي حالًا.

استدارت آنا لتنظر إلى ماريون، كانت رقبتها قد انحنت إلى الأسفل فلامست ذقنها صدرها. في صعوبة شديدة انتزعتها آنا من مقعدها ومشت معها وهي تترنح حتى وصلتا إلى الفراش، فدحرجتها آنا فوقه، استلقت ماريون على ظهرها وقد بسطت ذراعيها وساقيها وفتحت فمها فسال لعابها الذي بلل وجهها هو ودموعها وبدت وجنتاها كقطعتي جَمْر من أثر الشراب، غطتها آنا بمجموعة بطاطين وأطفأت المدافئ والأنوار ثم انطلقت إلى الشارع كما هي دون أن تغير ملابسها، انتصف الليل منذ ساعات وخلا الشارع من المارة ومن سيارات الأجرة، كانت آنا تركض وتكاد تجهش بالبكاء، رأت شرطيًّا فجرت نحوه وقالت وهي تتشبث به: «يجب أن أذهب إلى المستشفى.» ظهر شرطي آخر عند إحدى النواصي. استندت آنا على أحدهما وعثر الآخر على سيارة أجرة واصطحبها إلى المستشفى. لم يمت تومي، ولكن الأطباء توقعوا أن شمس اليوم الجديد لن تشرق عليه.

الدفاتر

[في دفترها الأسود ظل العمود الأيسر الذي يحمل عنوان «النبع» بلا كلمات، وكان العمود الذي يقع في الجانب المقابل وتتصدره كلمة «المال» ممتلئًا بالكلمات.]

خطاب من السيد ريجينالد تاربروكي من تليفزيون الرؤية إلى السيدة آنا ولف: في الأسبوع الماضي قرأت مصادفة روايتك الممتعة «حدود الحرب» وأعجبت جدًّا بالأسلوب المتميز والصادق المستخدم في الرواية. إننا ننقب عن أفكار تصلح عروضًا تليفزيونية، وأود أن أناقش هذا الموضوع معكِ، ربما يمكننا أن نلتقي يوم الجمعة المقبل الساعة الواحدة لنحتسي الشراب، هل تعرفين كافيتيريا (بلاك بال) الموجودة في شارع جريت بورتلاند؟ يسعدني أن أتلقى منكِ مكالمة تأكيد.

خطاب من آنا ولف إلى ريجينالد تاربروكي: شكرًا جزيلًا على رسالتك، من الأفضل أن أقول لك من البداية إنني لاحظت أن عدد الأعمال التي تعرض في القنوات التليفزيونية قليل، مما شجعني على أن أكتب لهذا المجال بالتحديد، ولكنني أعتذر عن قبول طلبك.

خطاب من ريجينالد تاربروكي إلى آنا ولف: أشكركِ على صراحتكِ معي، أنا أتفق معكِ تمامًا وهذا ما دفعني لأن أكتب إليكِ بعد أن انتهيت مباشرة من قراءة روايتك الرائعة «حدود الحرب». نحن في أمس الحاجة إلى أفكار جديدة لعروض ترصد الواقع رصدًا صادقًا. إني أدعوكِ إلى تناول الغداء معي يوم الجمعة القادم في مطعم (ريد بارون)، إنه مطعم صغير ومتواضع ولكنهم يعدون شرائح اللحم بطريقة ممتازة.

خطاب من آنا ولف إلى ريجينالد تاربروكي: شكرًا جزيلًا لك، ولكنني صادقة فيما أخبرتك به. وإن كنت أظن أنه يمكن معالجة رواية «حدود الحرب» تليفزيونيًّا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على نحو يرضيني، فسوف تكون لي رؤية مختلفة عن رؤيتك، لكن موقفي لم يتغير.
مع أرق تحياتي

خطاب من ريجينالد تاربروكي إلى آنا ولف: يا لها من خسارة ألا يكون هناك الكثير من الكتاب الذين يتمتعون بمثل هذه المصداقية الرائعة! أنا أؤكد لكِ أنني لم أكن لأكتب إليكِ لو لم نكن نبحث بحثًا صادقًا عن موهبة صاحبة إبداع حقيقي. إن القنوات التليفزيونية بحاجة إلى هذه الموهبة الصادقة! أرجو أن تقبلي دعوتي لتناول الغداء يوم الاثنين المقبل في مطعم (وايت تاور)، فأنا أعتقد أنه يجب أن يكون لنا حديث مطول حول هذا الموضوع الذي يحتاج منا أن نناقشه في روية. مع خالص تحياتي

غداء مع ريجينالد تاربروكي، من تليفزيون الرؤية بمطعم (وايت تاور).

فاتورة الغداء: ستة جنيهات إسترليني وخمسة عشر شلنًا وسبعة بنسات.

كنت أفكر في أن مولي تستمتع باختيار الأزياء الخاصة بالأدوار التي ستلعبها وأنا أختار الملابس التي سأرتديها أثناء الغداء، قررت أن أبدو مثل «امرأة تعمل بالكتابة» كان لدي تنورة طويلة جدًّا إلى حد ما وبلوزة لا يناسبني مقاسها، ارتديتهما، وارتديت أيضًا عقدًا من الأحجار المزيفة وحلقًا من المرجان يتدلى من أذني، كنت أبدو فعلًا كاتبة، ولكنني شعرت بالانزعاج الشديد، شعرت وكأنني داخل ملابس شخص آخر، ليس هناك فائدة من التفكير في استمتاع مولي باختيار الملابس المناسبة لأدوارها، شعرت بضيق شديد وقررت أن أعود إلى نفسي، فغيرت ملابسي متحملة عناء ذلك. اندهش السيد تاربروكي (الذي طلب مني أن أناديه بريجي)، فقد كان يتوقع أن يرى أمامه امرأة يدل مظهرها على أنها تعمل بالتأليف. كان ريجي رجلًا إنجليزيًّا في منتصف العمر، حسن المظهر ذا وجه غير بارز الملامح: «حسنًا يا سيدة ولف — أتسمحين لي أن أناديكِ بآنا — ماذا تكتبين في الوقت الحالي؟»

– أنا أعتمد في الوقت الحالي على الإيرادات التي تحققها «حدود الحرب».

تخلل الاندهاش ملامحه فنبرة صوتي أوحت بأنني شخص يهتم بالمال فقط.

– لا بد أنها رواية ناجحة؟

– ترجمت إلى خمس وعشرين لغة.

هكذا قذفت بالمعلومة في وجهه بنبرة يعلوها عدم الاهتمام، فالتوت ملامحه في محاولة منه أن يبين ابتهاجه بتلك المعلومة ولكن الحقد أطل منه. عدلت من نبرة صوتي لأبدو كاتبة متفانية في عملها وقلت له: «أنا لا أود بالطبع أن أتعجل في بدء

روايتي الثانية، فالرواية الثانية تكون مهمة جدًّا، ألا ترى ذلك؟» بدا عليه الابتهاج وعلا الارتياح وجهه وأجابني وهو يتنهد: «لا يكون الجميع موفقين في إنجاز الرواية الأولى.»

– أنت كاتب، أليس كذلك؟

– يالكِ من امرأة فطنة، تخمينكِ في محله!

يكتسي وجهه على نحو تلقائي مرة أخرى بأمارات البهجة والملامح البراقة المفتعلة: «أنا أحتفظ في درج مكتبي بأوراق لرواية لم تكتمل بعد، ولكن مهام العمل لا تتيح لي الوقت الكافي للكتابة.» ظل هذا هو الموضوع المسيطر على الحوار حتى انتهينا من تناول الجمبري المقلي والطبق الرئيسي، انتظرت حتى قال لي: «وبالطبع يظل المرء يناضل ويناضل لكي يخرج بشيء على درجة ما من القبول من بين كل هذه الأفكار المتشابكة التي تعرِض عليه، وبالطبع لا يعرف أصحاب المناصب العليا شيئًا عن العناء الذي يحتاجه هذا الأمر. (كان على بعد خطوة من هذه المناصب العليا.) لا يفقهون شيئًا على الإطلاق، إنهم في قمة السخف. حتى إن المرء في بعض الأحيان يتساءل ما جدوى كل ما يفعله؟» كنت أعرف أنه سيقول ذلك. تناولنا الحلاوة الطحينية وفنجانين من القهوة التركي، ثم أشعل سيجارًا واشترى لي سجائر، ولكننا لم نتطرق إلى أي تفاصيل خاصة بروايتي التي تأسر الألباب بعد. «أخبرني يا ريجي، هل يتضمن عرضك اصطحاب فريق التمثيل إلى أواسط أفريقيا من أجل تصوير رواية «حدود الحرب»؟» تجمدت ملامحه لحظة، ثم ارتسمت عليها لمحات الإعجاب: «حسنًا، أنا سعيد لأنكِ سألتني هذا السؤال، لأن هذه بالطبع هي المشكلة.»

– ألا ترى أن المناظر الطبيعية تلعب دورًا هامًّا في تلك الرواية؟

– نعم، أنا أوافقكِ الرأي في أنها تلعب دورًا أساسيًّا، إنكِ تمتلكين حسًّا رائعًا بالطبيعة، كان بإمكاني أن أتلمس معالم المناظر الطبيعية، أن أشم رائحة الأشجار والزهور بالمكان، كان ذلك رائعًا حقًّا.

– إذن ستصورها داخل الأستوديو؟

– إن هذه هي النقطة التي تهمنا، ولذلك أردت أن أتكلم معكِ بخصوص هذا الموضوع. أخبريني يا آنا، ماذا ستقولين إذا سئلت عن الفكرة الرئيسية لروايتكِ الرائعة؟ وأنا أسألك هذا السؤال بالطبع لأن التليفزيون هو وسيلة عرض بسيطة.

– إنها «ببساطة» تتحدث عن التمييز العنصري ضد أصحاب البشرة السوداء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أنا أتفق معكِ أن ذلك شيء سيئ، أنا لم أتعرض له بالطبع، ولكنني شعرت بمدى فظاعته حينما قرأت روايتك، ولكنني أتساءل هل ستفهمين وجهة نظري، وأتمنى أن تتفهميها، سيكون من المستحيل أن تعرض رواية «حدود الحرب» — تتشكل تلك اللمحة ذات البريق المفتعل مرة أخرى فوق ملامحه — على الشاشة الفضية كما كُتبت، سيكون علينا أن نبسطها مع الحفاظ على الجوهر الرائع للرواية. ولذلك كنت أفكر في نقل أحداث الرواية إلى بريطانيا، ما رأيكِ؟ ... لا، انتظري لا تردي الآن، فلا أظن أنكِ سترفضين إن استطعت أن أجعلكِ ترين ما أراه، إن التليفزيون يتعلق بـما يسمى «المنظور» أو «الرؤية» أليس كذلك؟ هذا هو أساس المشكلة ولكنني أشعر بأن معظم كتابنا يميلون ميلًا شديدًا إلى تناسي هذه النقطة. دعيني أخبركِ بتصوري؛ إنها قاعدة تدريب جوي أثناء الحرب. كنت أعمل بالدفاع الجوي ببريطانيا، لم أكن واحدًا من الضباط بالطبع، ولكنني كنت كاتبًا فقط، ربما لذلك أثرت فيّ روايتك هذا التأثير، لقد عبّرتِ عن هذا الجو العام في براعة شديدة ....

– أي جو عام؟

– رباه، أنتِ مدهشة يا عزيزتي، كل الكتّاب من ذوي الموهبة الحقيقية مدهشون حقًا، إنكم لا تتذكرون ما كتبتموه في معظم الوقت ....

اندفعت الكلمات فجأة على شفتي دون أن أقصد: «أو ربما نتذكره، ولكننا لا نعجب به.» قطب جبينه، ثم قرر أن يتجاهل تلك الكلمات وأكمل حديثه: «يا له من يقين رائع، ويأس يغلف كل شيء وإثارة تتحرك داخل النفوس، لم يحدث أنني كنت مفعمًا بهذا القدر من الحيوية كما كنت وقتها ... حسنًا إن اقتراحي هو أن نحتفظ بالفكرة الرئيسية لروايتكِ، لأنني أتفق معكِ على أنها مهمة للغاية، ستدور الأحداث في قاعدة جوية حيث يقع طيار شاب في غرام فتاة بسيطة من فتيات القرية ولكن أبويه يرفضان ارتباطهما بسبب الفرق الاجتماعي بين الطبقات الذي لا يزال للأسف يفرق بين الأشخاص في هذه البلد. سيتحتم على الحبيبين أن يفترقا، فتختتم الرواية بهذا المشهد الرائع في محطة القطار حيث يرحل الفتى ونحن نعلم أنه سيلقى حتفه ... فكري في الأمر للحظة واحدة، ما رأيكِ؟»

– أترغب في أن أكتب سيناريو جديدًا من البداية؟

– ليس تمامًا، فقصتكِ هي بالأساس قصة رومانسية، نعم إنها كذلك، أما مسألة التمييز العنصري ضد أصحاب البشرة السوداء، فأنا أعرف أنها مهمة للغاية، وأتفق معكِ تمامًا أنها مسألة غير أخلاقية، ولكن قصتكِ ليست إلا قصة عاطفية مؤثرة،

وهذه السمات جميعها موجودة في الفكرة التي أطرحها عليكِ، صدقيني، إنها نسخة أخرى من الفيلم البريطاني «لقاء عابر». أنا آمل أن يكون لديكِ التصور نفسه الذي أراه، وتذكري أن الفكرة في العروض التليفزيونية هي «المشاهدة».

– أنا أتذكر ذلك جليًّا، ولكن بهذه الطريقة يمكننا أن ننحي رواية «حدود الحرب» جانبًا ونبدأ من جديد؟

– ليس بالضبط كما تقولين، لأن الرواية حازت على شهرة واسعة وهي رائعة للغاية، وأنا أود أن أحتفظ بالعنوان لأن كلمة حدود هنا لا تشير إلى الحدود الجغرافية بالطبع؟ ليس هذا هو معناها الجوهري؟ فأنا لم أتصورها كذلك، إنها الحدود الفاصلة للتجربة نفسها.

– ربما يكون من الأفضل أن تكتب لي خطابًا تحدد فيه ما تود أن يتوفر في سيناريو تليفزيوني جديد؟

– ولكنه ليس جديدًا «بكل ما تعني الكلمة».

(يطل ذلك البريق المفتعل من عينيه)

– ألا تظن أن من قرءوا الرواية سيندهشون حينما يرونها تتحول إلى صورة من فيلم قطار الحب أو بالأحرى طائرة الحب؟

(يعلو ذلك البريق المفتعل وجهه)

– لا يا عزيزتي آنا، إنهم لا يندهشون من أي شيء، وكيف لهم أن يندهشوا وهم يشاهدون الشاشة السحرية الصغيرة؟»

– شرفت بدعوتك لي للغداء.

– عزيزتي آنا، أنتِ على حق فيما تقولين، ولكنني أظن أن امرأة في مثل ذكائكِ تعرف أننا لا نستطيع أن نصور هذه الرواية في أواسط أفريقيا، فالأشخاص الذين يشغلون المناصب العليا لن يتيحوا لنا الميزانية الكافية لذلك.

– نعم، أنا أعرف، ولكنني أظن أنني أشرت إلى ذلك في خطاباتي.

– يمكن أن تتحول هذه الرواية إلى فيلم سينمائي بديع، هل تودين أن أقترحها على أحد أصدقائي الذين يعملون بالسينما؟

– قد فعلت ذلك.

– نعم، يا عزيزتي أنا أعرف، كل ما يمكننا أن نفعله — في ظني — هو أن نستمر في الخوض في الحديث عن العمل، حينما أعود إلى المنزل ليلًا وأنظر إلى مكتبي أجد عشرات الكتب التي يتحتم أن أقرأها بحثًا عن القصص التي يمكن أن تصلح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للأعمال التليفزيونية، ومئات من السيناريوهات، وروايتي التي لم تكتمل بعد لا تزال قابعة بدرج مكتبي، منذ شهور لم تتح لي فرصة لألقي نظرة عليها، ولكنني أعزي نفسي بأنني أحصل أحيانًا على فكرة صادقة وجديدة من بين كل الأفكار المتشابكة التي أبحث بها، أرجوكِ أن تفكري باقتراحي بشأن «حدود الحرب» فأنا أظن أنه سينجح.

نحن الآن نغادر المطعم، ينحني لنا اثنان من النُّدُل، ويتناول ريجينالد معطفه واضعًا في يد الرجل الذي ناوله إياه قطعة معدنية وهو يرسم على شفتيه ابتسامة واهنة يكاد الخجل يطل منها. نقف الآن على الرصيف. أشعر بالسخط الشديد على نفسي: ما جدوى ما أفعله؟ كنت أعرف ماذا سيحدث منذ أن قرأت أول خطاب أرسله لي تليفزيون الرؤية، غير أن القائمين عليها يبدون تصرفات أسوأ من المتوقع دائمًا، ولكن إذا كنت أعرف ذلك فلماذا أشعر بالضيق؟ هل فعلت ما فعلت لأثبت فقط أن هذه هي النتيجة؟ بدأ ازدرائي يتحول إلى شعور آخر أعرفه جيدًا؛ لمحة من الهستيريا تتسلل إلى نفسي. أنا أعرف جيدًا أنني في لحظة ما سأتفوه بكلمات غير لائقة أو وقحة، أو سألقي بالاتهامات التي تدينه أو تدينني، في لحظة معينة أعرف أنه يكون عليَّ أن أوقف نفسي وإلا سأنجرف إلى حديث لا يمكنني أن أنهيه. نحن الآن واقفان على الرصيف، وهو يريد أن يتملص من رفقتي، ثم نسير باتجاه محطة مترو (توتينهام كورت رود)، أوجه حديثي إليه: «هل تعلم يا ريجي ماذا أود أن أصنع من حدود الحرب؟»

– أخبريني يا عزيزتي عما تريدين.

(يقطب جبينه لاإراديًّا)

– أريد أن أصنع منها عملًا كوميديًّا.

تحل ملامح الدهشة مكان العبوس ويسألني: «عمل كوميدي؟!» ينظر إليّ بجنب عينيه نظرة تكشف عن كم الكراهية التي يكنها لي في واقع الأمر، ثم يقول: «ولكن الرواية يا عزيزتي مكتوبة بأسلوب جزل للغاية، إنها قصة تراجيدية، فأنا لا أستطيع أن أتذكر أن بها مشهدًا كوميديًّا واحدًا.»

– هل تتذكر الشعور بالإثارة الذي تحدثت عنه؟ نبض الحرب؟

– نعم يا عزيزتي، أذكره جيدًا؟

– أنا أوافقك على أن هذا هو ما تعكسه الرواية حقًا.

تسود فترة من الصمت، ينكمش وجهه الجميل ذو الملامح الودودة، يكسوه الحذر فقط، وامتلأ صوتي الغاضب بالغلظة والازدراء، ازدرائي لنفسي.

– يجب أن تخبريني الآن ماذا تعنين تحديدًا.

نحن الآن في مدخل محطة المترو وسط الجموع الغفيرة، يبدو وجه بائع الجرائد بلا ملامح، فأنفه الصغير للغاية لا يكاد يرى، وفمه يبدو مثل ثقب يكشف عن أسنان تشبه أسنان الأرنب، وعيناه غائرتان وسط نسيج جلدي مليء بالندوب. «مثلًا القصة التي اقترحتها، طيار شاب، وسيم وجذاب ومندفع، وفتاة من فتيات القرية، والابنة الجميلة لأحد صيادي القرية، الزمان بريطانيا في وقت الحرب، والمكان قاعدة جوية لتدريب الطيارين، والآن أتذكر هذا المشهد الذي رأيناه نحن الاثنان مئات المرات في أفلام السينما، طائرة ترحل تغادر إلى ألمانيا، ثم لقطة لحجرة طعام الطيارين، لقطة لفتيات جميلات مثل اللائي تظهر صورهن على أغلفة المجلات، حسناوات أكثر منهن فاتنات، لا يمكن أن يوحين بأن فتياتنا لديهن غرائز طبيعية، ثم يظهر فتى وسيم يقرأ خطابًا من والدته وفي الخلفية كأس لأحد البطولات الرياضية يستقر فوق رف المدفأة.»

تسود فترة من الصمت،

– نعم يا عزيزتي، أنا أتفق معكِ تمامًا أننا نكرر هذه الفكرة في الكثير من الأفلام السينمائية.

– ثم تهبط الطائرة على أرض الوطن، هناك اثنان لم يعودا، يتجمع عدد من الرجال ينتظرون وهم ينظرون إلى السماء، الألم يعتصر قلوب بعضهم، ثم مشهد لحجرة نوم الطيارين يظهر به فراش خالٍ، يدخل شاب إلى الحجرة دون أن يقول شيئًا، يجلس على فراشه ثم ينظر إلى الفراش الخاوي، يعتصر الألم قلبه، ثم يذهب إلى هذا الفراش الخاوي الذي تستقر فوقه دمية من الفرو، يمسك الشاب بها، يعتصر الألم قلبه، ثم تظهر لقطة لطائرة تشتعل فيها النيران، ثم تعود الكاميرا مرة أخرى إلى الشاب الذي يمسك بالدمية وهو يشاهد صورًا فوتوغرافية لفتاة جميلة، لا ليس لفتاة وإنما لشاب ذي ملامح قوية وشجاعة، ثم تعود الكاميرا مرة أخرى إلى مشهد الطائرة التي تشتعل فيها النيران وتنزل موسيقى النشيد الوطني.

يسود الصمت ويصيح بائع الجرائد صاحب الأنف الصغير وأسنان الأرنب: «أخبار الحرب في كنمن، أخبار الحرب في كنمن.» تأكد ريجي من أنني أسأت فهم ما اقترحه فابتسم وقال: «ولكن يا عزيزتي آنا، استخدمتِ كلمة «عمل كوميدي».»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– تمكنت بفطنتك من أن تعرف الفكرة الحقيقة التي تتحدث عنها الرواية ... الحنين إلى الموت.

قطب الرجل جبينه، ولكن هذه المرة ظل العبوس يسكن ملامحه.

– حسنًا، أنا أشعر بالخجل وأود أن أقوم بتعديل بسيط، لننتج عملًا كوميديًّا يتحدث عن البطولات العقيمة، لنحاكي هذه القصة اللعينة التي تحكي عن خمسة وعشرين شخصًا في ريعان شبابهم يرحلون من الوطن ليلقوا حتفهم تاركين وراءهم أكوام من الدمى وكئوسًا لبطولات رياضية في كرة القدم وامرأة تنتظر عند بوابة المطار تنظر وهي تكتم الألم بداخلها إلى السماء التي تشق عنانها موجة من الطائرات في طريقها إلى ألمانيا، والألم يعتصر جوفها، ما رأيك؟

صوت بائع الجرائد يقرع الآذان من حولنا: «أخبار الحرب في كنمن.» فأشعر فجأة أنني أقف وسط مشهد من مسرحية تحاكي شيئًا ما، أطلق ضحكة، ضحكة هستيرية، نظر إليَّ ريجي مقطبًا جبينه وملامح الازدراء تبدو على وجهه، وبدت لهجته — التي امتلأت من قبل بالمجاملة والرغبة في كسب الود — خشنة وحادة شيئًا ما. توقفت عن الضحك، واختفت فجأة الضحكات والكلمات التي جرفتني إليها حالتي المزاجية، وعدت إلى رزانتي مرة أخرى. قال ريجي: «حسنًا يا آنا، أنا أتفق معكِ، ولكن عليَّ أن أتصرف في حدود اختصاصات وظيفتي. فاقتراحكِ ينطوي على فكرة كوميدية رائعة، ولكنها تصلح كفكرة لفيلم سينمائي وليس لعمل تليفزيونيّ، نعم، فبإمكاني أن أتصورها.» (بدأت لهجته تعود إلى طبيعتها، لأنني عدت إلى لهجتي المعهودة.)

– أنا أعرف أنها فكرة عنيفة، أتظن أن الجمهور يستطيع أن يستنبطها؟

(عاد ذلك الإعجاب المفتعل يطل من لهجته مرة أخرى. ينظر ريجي إليّ وكأنه لا يصدق أن تلك اللحظة التي انكشفت فيها مشاعر الكراهية التي يكنها أحدنا للآخر وقعت فعلًا، أنا أيضًا لم أصدق ذلك.)

– يمكن أن «تنجح» هذه الفكرة؟ فعشر سنوات مرت على انتهاء الحرب ... ولكنها «لا» تصلح كعمل تليفزيوني، فهو وسيلة ذات إمكانيات بسيطة، والجمهور، كما تعرفين، ليس أذكى جمهور نتعامل معه، علينا أن نتذكر ذلك.

أشتري صحيفة تحمل هذا العنوان: الحرب في كنمن، وأقول في عفوية: «هذا هو مكان آخر لم نكن لنسمع عنه لولا الحرب الدائرة فيه.»

– نعم، يا عزيزتي، إنه لشيء محزن أن نكون جميعًا محدودي المعرفة بهذا الشكل.

– معذرة أنا أبقيك واقفًا هنا، ولا بد أنك تود أن تعود إلى مكتبك.

– أنا متأخر كالعادة، إلى اللقاء يا آنا، سعدت كثيرًا بمقابلتك.

– إلى اللقاء يا ريجي وشكرًا على هذه الدعوة اللطيفة.

يعتصرني الاكتئاب حينما أعود إلى المنزل، ثم يجتاحني شعور بالازدراء والغضب تجاه نفسي، ولكن الشيء الوحيد في هذه المقابلة الذي لا أشعر تجاهه بالخجل هو تلك اللحظة التي تصرفت فيها على نحو هستيري وسخيف، يجب ألّا أوافق على أي دعوات بخصوص العروض التليفزيونية أو الأفلام، فما جدواها؟ كل ما أفعله هو أنني أقول لنفسي: يجب ألّا تخوضي تجربة الكتابة مرة أخرى، إنها تجربة مهينة وكريهة يجب أن تبتعدي عنها. ولكنني أعرف ذلك، فلماذا أستمر بها؟

خطاب من السيدة إدوينا رايت، ممثلة قنوات (بلو بيرد) التليفزيونية لعروض الساعة الواحدة، الولايات المتحدة: عزيزتي السيدة ولف، في سياق ترقبنا لأعمال تحظى باهتمام واسع لعرضها على شاشتنا لفتت روايتكِ «حدود الحرب» انتباهنا. إني أكتب لأعبر عن رغبتي في أن نعمل معًا في الكثير من المشاريع ذات النفع المشترك لنا، سوف أزور لندن لثلاثة أيام في طريقي إلى باريس وروما، وأتمنى أن أتلقى منكِ مكالمة بفندق (بلاك) لنحدد موعدًا للقاء قصير لاحتساء الشراب، أرفق لكِ نشرة إرشادية أعددناها للكتاب الذين يعملون معنا. مع خالص تمنياتي.

كانت النشرة المطبوعة المرفقة مع الخطاب تتكون من تسع صفحات ونصف، وتبدأ كالآتي: «في كل عام نتلقى المئات من الأعمال المكتوبة بمقرنا، الكثير منها يعكس حسًّا صادقًا بطبيعة المجال التليفزيوني، ولكنها تفشل في تلبية متطلباتنا بسبب عدم توافر الصفات الرئيسية الضرورية التي تحتاجها قنواتنا. نحن نقدم عرضًا واحدًا كل أسبوع، مدته ستون دقيقة، إلخ، إلخ، إلخ ...» الفقرة الأولى تقول: «إن جوهر العمل بقنوات (بلو بيرد) هو التنوع! إننا لا نحظر عرض أي موضوع أو فكرة! فنحن نحتاج إلى الأعمال التي تتحدث عن المغامرة والأعمال الرومانسية وقصص الأسفار والرحلات والقصص التي تتناول التجارب التي تنتمي إلى بلدان وثقافات أخرى، والأعمال التي تتناول الحياة الأسرية وعلاقة الآباء بالأبناء والقصص الخيالية والأعمال الكوميدية والتراجيدية. فقنوات (بلو بيرد) «لا» ترفض أي سيناريو يلمس في صدق وأمانة أي تجربة حقيقية من أي نوع.» الفقرة قبل الأخيرة تقول: «يشاهد تسعة ملايين أمريكي من جميع الفئات العمرية العروض الأسبوعية التي تظهر على قنوات (بلو بيرد)، فقنوات (بلو بيرد) تعرض السيناريوهات التي تجسد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الواقع الحي للرجل العادي والمرأة والطفل. وتعتبر قنوات (بلو بيرد) أن عليها واجبًا تجاه الثقة التي وضعها مشاهدوها فيها، ولذلك يجب ألّا ينسى الكتّاب العاملون معنا المسئولية التي يشتركون في حملها مع قنوات (بلو بيرد): فقنوات (بلو بيرد) لن تلتفت لأي سيناريوهات تتعامل مع الأمور الدينية أو العرقية أو السياسية أو الخيانة الزوجية.»

– نحن ننتظر في تلهف أن نطلع على السيناريو الخاص بكم.

من السيدة آنا ولف إلى السيدة إدوينا رايت: السيدة رايت: شكرًا لكِ على خطابكِ الذي انطوى على الكثير من الثناء، ولكنني فهمت من قراءة النشرة الإرشادية الموجهة إلى الكتاب الذين تتعاونون معهم أنكم لا تفضلون الأعمال التي تلمس مسألة التمييز العرقي أو الخيانة الزوجية، ورواية حدود الحرب تعرض للموضوعين كليهما، ولذلك أحسب أنه لن يكون هناك جدوى من مناقشة إمكانية معالجة هذه الرواية تليفزيونيًّا لتُقدم ضمن عروضكم. مع خالص تحياتي.

من السيدة إدوينا رايت إلى السيدة آنا ولف. تلغراف: شكرًا جزيلًا لك على التزامك بسرعة الرد على خطابي (فاصل) أنا أدعوكِ إلى تناول العشاء معي بفندق (بلاك) الساعة الثامنة مساء (فاصل) إرسال رد: القيمة مدفوعة من قبل المرسل.

عشاء مع السيدة رايت بفندق (بلاك). فاتورة العشاء: ١١ جنيه إسترليني و٤ شلنات و٦ بنسات.

إدوينا رايت هي سيدة ممتلئة في الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمرها، بشرتها بيضاء مشربة بحمرة وردية، وشعرها الرمادي المموج لامع، تتلألأ ظلال جفون زرقاء مائلة إلى الرمادي فوق عينيها وتلمع طبقة من أحمر الشفاه الوردي فوق شفتيها، أما أظافرها فتكسوها طبقة من طلاء الأظافر الوردي الباهت. كانت ترتدي بذلة نسائية من قطعتين لونها أزرق فاتح، باهظة الثمن، إنها امرأة تنفق الكثير على مظهرها. نتبادل الأحاديث الودية ونحن نحتسي شراب المرتيني، تطلب ثلاث كئوس وأنا أطلب اثنتين، تفرغ كئوس الشراب في جوفها، كانت حقًّا تحتاج إلى هذه الكئوس. تحول مسار الحديث إلى الشخصيات العاملة بمجال الأدب الإنجليزي محاولة أن تعرف أيهم أعرفه شخصيًّا، ولكنني لم أكن على معرفة شخصية بأي مما ذكرتهم، تحاول المرأة أن تتعرف عليَّ جيدًا وفي النهاية تنجح في أن تدرجني ضمن تصنيف معين من الكتاب، تبتسم وتقول لي: «واحد من أعز أصدقائي (تذكر اسم كاتب أمريكي) ... كان دائمًا يقول لي إنه يكره أن يلتقي بالكتاب الآخرين. أرى

أن مستقبله سيكون باهرًا.» ندخل إلى المطعم، الحجرة ليست بكبيرة ولكنها مريحة ودافئة. تنظر المرأة حولها بعد أن تجلس على الطاولة، بدت للحظة عاجزة أن تبدي أي تعبير، فقد انكمش جفناها اللذان غطتهما ظلال الجفون الملونة وهي تضيق عينيها وابتعدت شفتاها الورديتان إحداهما عن الأخرى قليلًا، ثم بدا على وجهها الحزن وارتسمت على ملامحها أمارات الندم، تبدو هذه المشاعر المرتسمة على وجهها صادقة حيث تقول بلهجة جادة: «أنا أحب إنجلترا، أحب أن آتي إلى إنجلترا، فأنا أخترع الأعذار حتى يرسلوني إلى هنا.» أتساءل هل يبدو لها هذا الفندق «إنجليزيًّا»؟ ولكنها كانت على درجة كبيرة من الذكاء والفطنة ولا يمكن أن ينطلي عليها هذا الأمر. تسألني هل أود أن أحتسي كأسًا أخرى من المرتيني، كنت سأرفض ولكنها قالت إنها تود واحدًا آخر فوافقت، أشعر بتقلص في معدتي، ثم أدرك أن ذلك هو التوتر الذي تشعر هي به، ينتقل إليَّ. أنظر إلى وجهها الجميل ذي الملامح التي تبدو عليها أمارات التأهب ويبدو عليها أيضًا أنها محافظة على رباطة جأشها، أشعر بالأسف تجاهها، فأنا أعرف جيدًا كيف حياتها. تطلب العشاء، إنها شخصية واعية ولبقة، أشعر وكأنني بصحبة رجل على العشاء، ولكنها لا تفتقر إلى الأنوثة على الإطلاق، كل ما في الأمر أنها اعتادت أن تمسك بالخيوط في يدها في هذه المواقف، بإمكاني أن أشعر كم يبدو هذا الدور غير ملائم لطبيعتها، وما الثمن الذي تدفعه من أجل أن تقوم به، تشعل سيجارًا قبل أن تنزل أطباق الشمام على الطاولة، تجلس وهي ترخي جفنيها إلى الأسفل والسيجارة تطل برأسها من بين شفتيها وتدير بصرها بأرجاء المطعم مرة أخرى، يلمع بريق الارتياح على وجهها ولكنها تداريه على الفور، ثم تبتسم وهي تومئ برأسها إلى رجل أمريكي يدخل إلى المطعم ويجلس بمفرده في أحد الأركان يطلب العشاء، يلوح لها بيده محييًا، فتبتسم ويتصاعد الدخان في دوائر أمام عينيها. تلتفت إليَّ مرة أخرى وتحاول في صعوبة أن تركز تفكيرها معي، فجأة تبدو كأنها أكبر سنًّا بكثير، أنا معجبة بها جدًّا، أكاد أراها وهي تجلس في غرفتها في وقت متأخر هذه الليلة وهي مفعمة بالحيوية، ترتدي ثوبًا أنثويًّا للغاية، ثوبًا من الشيفون المنقوش أو غيره من الأقمشة الشفافة ... نعم، فمثل هذه الأقمشة يمكن أن تزيل عنها عبء القيام بهذا الدور أثناء يومها بالعمل، إنها تنظر إلى تلك التموجات بثوبها الشفاف ساخرة من ذلك الدور العملي، إنها تنتظر ثم يترامى إلى سمعها صوت طرقات خافتة على الباب فتفتحه وهي تقص نكتة على زائرها، لقد فعل الشراب برأسيهما ما فعل فصارا منتشيين، يحتسيان كأسًا أخرى ثم يدخلان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معًا إلى الفراش. سوف يلتقيان في إحدى الحفلات بنيويورك، فيتبادلان العبارات الساخرة حول تلك الليلة. إنها الآن تتذوق قطع الشمام، ثم تقول بعد أن تنتهي منها إن الأكل في إنجلترا له مذاق أفضل، تقول إنها تنوي أن تترك عملها وتذهب للعيش بالريف في نيو إنجلاند لتبدأ في تأليف رواية. (لم تذكر زوجها قط.) أدرك أن كلينا لا يود التحدث عن رواية «حدود الحرب»، استطاعت أن تكون رأيًا عني، ولكنني لم أحظ بقَبولها أو رفضها، لقد وجدت أمامها فرصة فاقتنصتها، لم يحقق لها هذا العشاء أي مكسب عملي ولكن هذه هي طبيعة هذا العمل، بعد لحظة ستعلق على روايتي بلهجة ودودة، ولكن تعقيبها سيكون روتينيًّا. إننا نتناول شرائح اللحم مع المشروم والكرفس ونحتسي زجاجة من خمر البرجاندي الفرنسي المركز، مرة أخرى تقول إن طعامنا مذاقه أفضل، ولكن علينا أن نتعلم كيف نطهوه. أصبحت الآن معتادة على الشراب مثلها، ولكن كنت أشعر داخل معدتي بذلك التوتر يزداد، التوتر الذي تنقله هي لي. لم تتوقف عن النظر إلى ذلك الأمريكي الجالس في ركن المطعم، أدرك فجأة أنني إذا لم أنتبه إلى نفسي فقد أبدأ ذلك الحديث الهستيري الذي قادني منذ أسابيع قليلة إلى الانخراط في تمثيل فصل من مسرحية كوميدية ساخرة أمام ريجينالد تاربروكي. قررت أن أنتبه لنفسي لأني أعجبت بها كثيرًا، ولأنها تثير خوفي: «أعجبت بروايتك كثيرًا يا آنا.»

– أشكركِ، إن هذا من دواعي سروري.

– في بلادي، هناك اهتمام حقيقي بأفريقيا، بالمشكلات الأفريقية.

أبتسم وأقول لها: «ولكن «يوجد» خط في هذه الرواية يمس مسألة التمييز العرقي.» تبتسم المرأة وهي ترسم معالم الامتنان على وجهها لأنني رسمتها على وجهي: «ولكن هذا الأمر عادة ما يتعلق بدرجة تعرضكِ إلى تلك المسألة، فمثلًا في روايتك الرائعة تحدثت عن أن الطيار الشاب ضاجع الفتاة الزنجية، هل ترين أن ذلك كان مهمًّا؟ هل ترين أن ممارستهما للجنس شيء حيوي لقصتكِ؟»

– لا، لم تكن كذلك.

يبدو التردد عليها، وتلمع عيناها المتعبتان اللتان يطل منهما الدهاء بخيبة الأمل. كانت تأمل في ألا أوافق على أي حلول وسط، على الرغم من أن وظيفتها هي أن تعمل على أن أقبل بذلك. أستطيع الآن أن أتفهم أن النقطة التي تثير قلقها من الرواية هي تعرضها لمسائل جنسية. يتغير أسلوبها تغيرًا طفيفًا؛ فهي الآن تتعامل مع كاتبة على استعداد للتضحية ببعض الأفكار التي تتعرض لها روايتها في سبيل

عرضها على الشاشة الفضية. أبادرها بالسؤال: «ولكن حتى إذا كانت مظاهر الحب الذي يجمع بينهما هي أنقى وأطهر مظاهر يمكن سردها، فسيكون ذلك قطعًا خرقًا للقواعد التي تلتزمون بها؟»

– إن ذلك يتوقف على كيفية التعامل مع هذا الأمر.

في تلك اللحظة أشعر بأن الأمر برمته لن يستمر على طاولة الحديث، ليس بسبب موقفي، ولكن بسبب قلقها بشأن ذلك الأمريكي الجالس بمفرده في ركن المطعم، فقد رأيته ينظر إليها مرتين، أظن أن لديها ما يبرر هذا القلق؛ فهو يسأل بعينيه هل من الممكن أن يأتي إليها أو يذهب إلى أي مكان آخر بمفرده، ولكن يبدو عليه أنه معجب بها لدرجة قد تدفعه إلى الانتظار. يرفع النادل الأطباق الفارغة من فوق الطاولة، ويتملكها الارتياح حينما أطلب القهوة فقط دون أي نوع من الحلوى، فمنذ أن بدأت رحلتها وهي تخوض مقابلات خاصة بالعمل على طاولات الطعام مرتين يوميًّا. وشعرت أيضًا بالارتياح لأن حذف طبق الحلوى من قائمة العشاء سوف يختصر المناقشة الدائرة بيننا، تنظر مرة أخرى إلى هذا الرجل الأمريكي الذي يجلس منفردًا على طاولته، والذي لم يبد تأهبه بعد للرحيل، ثم تقرر أن تعود مرة أخرى إلى شئون العمل: «أثناء تفكيري على نحو يتيح لنا استخدام المحتوى الرائع لروايتكِ، تبادر إلى ذهني أننا يمكن أن نعالج هذه الرواية من خلال عمل استعراضي، فإمكانية طرح رسالة أكثر جدية على المشاهد ستكون متوفرة في العمل الاستعراضي أكثر من الأعمال التي تعرض الأحداث القصصية مباشرةً.»

– عمل استعراضي في أواسط أفريقيا؟

– إن كون العمل استعراضيًّا سيحل لنا مشكلة المناظر الخلفية للمشاهد القصصية، إن الخلفيات التي استخدمتها بروايتك رائعة، ولكنها لا تصلح للأعمال التليفزيونية.

– أتعنين أننا سنستخدم نماذج ديكورية جاهزة للمناظر الطبيعية في أفريقيا؟

– نعم، هذا هو ما أعنيه، وستكون القصة بسيطة للغاية. طيار شاب من إنجلترا يتلقى تدريبًا بأواسط أفريقيا، فيقابل الفتاة الزنجية الجميلة في إحدى الحفلات. هو يشعر بالوحدة وهي تتعامل معه في رقة، ويلتقي الطيار بأهلها.

– ولكن ليس من الممكن أن يقابل شاب فتاة زنجية في حفل مقام في هذه المناطق، فبعيدًا عن المناسبات السياسية، لا يحاول كسر ذلك الحاجز الذي تفرضه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البشرة السوداء سوى عدد قليل للغاية من الأشخاص، أنا لا أظن أنكِ تفكرين بعمل استعراضي سياسي؟

– لا، ولكني لم أكن أعلم ذلك ... فلنفترض أنه تعرض لحادث بالشارع وأن الفتاة ساعدته وأخذته إلى منزلها؟

– لا يمكن أن تأخذه إلى منزلها من دون انتهاك أكثر من عشرة قوانين مختلفة، وإذا جاءت بفعل طائش مثل تهريبه سيحيط ذلك القصة بجو من الخوف، وهو ليس جوًّا مناسبًا بالمرة لعمل استعراضي.

– من الممكن أن يكون الجو العام للأعمال الاستعراضية جادًّا للغاية — هكذا قالت بلهجة تقليدية مؤنبة — بإمكاننا أن نستخدم الموسيقى والأغاني المحلية، فموسيقى أفريقيا الوسطى هي لون جديد من الموسيقى لمشاهدينا.

– في الوقت الذي تقع فيه أحداث القصة كان الأفريقيون يستمعون إلى موسيقى الجاز الأمريكية، فلم يطوروا أشكالًا موسيقية خاصة بهم بعد.

إنها الآن تنظر إليَّ ولسان حالها يقول: إنكِ تحاولين أن تصعبي الأمور. تطرح المرأة فكرة العمل الاستعراضي جانبًا وتقول: «حسنًا، إذا اشترينا حق ملكية الرواية على أساس إنتاجها من خلال عمل يعرض الأحداث القصصية عرضًا مباشرًا، فأنا أرى أن مكان الأحداث يجب أن يتغير. أنا أقترح أن يكون المكان هو قاعدة تابعة للجيش في بريطانيا، قاعدة أمريكية، جندي أمريكي يقع في غرام فتاة إنجليزية.»

– جندي أمريكي زنجي؟

بدا التردد على وجهها.

– حسنًا، سيكون ذلك صعبًا، لأن القصة هي قصة رومانسية فقط. أنا من أشد المعجبين بأفلام الحرب البريطانية، إنكم تنتجون أفلام حرب رائعة، فلديكم مهارة عالية للغاية. إننا يجب أن نعبئ العمل بهذا الشعور، وبجو الحرب، الجو الذي يحيط بمعركة مثل «معركة بريطانيا الجوية»، وقصة رومانسية بسيطة تجمع بين أحد فتياننا وإحدى فتياتكم.

– ولكن إذا جعلنا الجندي الأمريكي زنجيًّا فسيكون بإمكانكِ أن تستخدمي الموسيقى الفلكلورية التي تشتهر بها الولايات الأمريكية الجنوبية، ما رأيكِ في ذلك؟

– نعم، هذا صحيح، ولكن كما تعرفين لن يكون هذا اللون الموسيقي جديدًا على مشاهدينا.

أقول لها: «بإمكاني أن أرى ما تعنيه الآن.»

– فرقة موسيقية تؤدي دور مجموعة من الجنود الأمريكيين الزنوج بإحدى القرى الإنجليزية وقت الحرب، وفرقة أخرى تقوم بدور مجموعة من الفتيات الإنجليزيات الصغيرات يؤدين الرقصات الفولكلورية الريفية.

أنظر لها وابتسامة عريضة ترتسم على وجهي، تقطب هي جبينها ثم تبتسم، ثم تلتقي أعيننا فتطلق ضحكة عالية مفاجئة. تضحك مرة أخرى، ثم تنتبه لنفسها وتجلس مقطبة جبينها، ثم تأخذ نفسًا عميقًا وتبدأ في الحديث كأنها لم تطلق تلك الضحكات التي أطلت منها السخرية والازدراء: «أنتِ فنانة حقيقة، وفنكِ رفيع المستوى، وأنا محظوظة للغاية لأنني التقيت بكِ وتحدثت معكِ. أنتِ ترفضين من داخلك تغيير أي من الأشياء التي كتبتها، وهذا شيء طبيعي، ولكن اسمحي لي أن أقول لكِ إنه من الخطأ أن تسمحي لحساسيتكِ الزائدة وعدم احتمالكِ لإدخال أي تغييرات على كتاباتك بأن يفقداكِ فرصة تحويل أحد أعمالكِ إلى عرض تليفزيوني، فالأعمال التليفزيونية هي القنوات التي سيعرض من خلالها الفن في المستقبل، هذه هي رؤيتي لها، ولذلك أعد نفسي محظوظة بالعمل في هذا المجال ومن أجله.» تتوقف عن الحديث، فالرجل الأمريكي الجالس بمفرده يبحث عن النادل ... لا، لن يرحل ولكنه يريد المزيد من القهوة، تلتفت إليَّ مرة أخرى وتستطرد: «فجوهر الفن، كما قال أحد العظماء، هو الصبر. إذا كنت ترغبين في أن تفكري فيما ناقشناه معًا ثم تكتبين إليَّ ... أو ربما ترغبين في أن تحاولي وتكتبي لنا سيناريو يدور حول فكرة أخرى؟ لن يكون بإمكاننا بالطبع أن نسند إلى كاتب ليس له أي تجربة سابقة في المجال التليفزيوني مهمة مدفوعة الأجر، ولكن سيسرنا كثيرًا أن نقدم لكِ كل ما تحتاجينه من دعم ومشورة.»

– أشكركِ.

– هل تفكرين في زيارة الولايات المتحدة؟ سأكون سعيدة إذا تلقيت منكِ مكالمة ويمكننا أن نناقش ما لديكِ من أفكار؟

يداخلني التردد وأكاد أوقف نفسي، ثم أدرك أنني لن أتمكن من ذلك، أقول لها: «إنني أتمنى كثيرًا لو تتاح لي الفرصة لكي أزور بلدكِ، ولكن للأسف لن يُسمح لي بالدخول، فأنا شيوعية.» تتسع عيناها وتطل منهما الدهشة، وترشق سهام نظراتها بوجهي، وفي اللحظة نفسها تدفع مقعدها إلى الخلف بحركة عفوية وكأنها ستغادر، تتلاحق أنفاسها، أراها أمامي الآن امرأة مذعورة، وبالفعل يداخلني الأسف والشعور بالخجل، لقد قلت ما قلته لأسباب عدة؛ السبب الأول سبب صبياني وسخيف: رغبت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في أن أصدمها، والثاني لا يقل عنه سخفًا: شعرت أنني يجدر بي أن أقول ذلك، حتى إذا ما عرفت فيما بعد من أي شخص أنني أنتمي إلى الفكر الشيوعي لا تظن أنني كنت أخفي عنها ذلك، أما السبب الثالث: فيرجع إلى رغبتي في معرفة ماذا سيحدث. إنها تجلس قبالتي بعينين حائرتين وأنفاس متلاحقة فاغرة شفتيها الورديتين اللتين بدت طبقة الطلاء الدهنية التي تغطيهما واضحة الآن، إنها تفكر في أنها يجب أن تتحرى الأمر جيدًا في المرة القادمة، إنها أيضًا ترى نفسهاضحية، قرأت هذا الصباح في مجموعة من المقالات من جرائد أمريكية عن فصل عشرات من الأشخاص من أعمالهم بعد تعرضهم لتحقيقات مكثفة من قبل لجان مكافحة الأنشطة المعادية لأمريكا. قالت المرأة وأنفاسها تتلاحق: «إن الأمور هنا في إنجلترا تختلف اختلافًا كبيرًا، أنا أتفهم أنه ...» يسقط قناع المرأة المحنكة القادرة على إدارة الأمور المعقدة الذي ترتديه مع تلك الكلمات التي تتفوه بها دون قصد: «ولكن يا عزيزتي، لم يخطر لي قط أنه حتى بعد ألف عام قد ...» كانت تعني أن تقول: أعجبت بكِ، فكيف يمكن أن تكوني شيوعية؟ فجأة أشعر بالغضب من انغلاقها على تلك الفكرة السائدة ببلدها حتى إنه يداخلني الشعور المعتاد في هذه المواقف: إنه من الأفضل أن أكون شيوعية وأتحمل أي ثمن، من الأفضل أن أبقى متصلة بمن حولي بدلًا من أن أنعزل عن أي حقيقة لدرجة ربما توصلني إلى أن أبدي ملاحظة على هذا القدر من السخف والغباء، الآن يتصاعد بداخلنا نحن الاثنتين شعور بالغضب، تحول هي نظرها عني وتحاول أن تستعيد رباطة جأشها. تجول بخاطري تلك الليلة التي جمعني فيها حوار مع أحد الكتاب الروسيين منذ عامين، كنا نتحدث اللغة نفسها، لغة الشيوعية، ومع ذلك فخبراتنا مختلفة بعضها عن بعض إلى حد أن كل عبارة كنا نستخدمها كان كل منا يفهمها على نحو مختلف، اجتاحني شعور بالزيف، وأخيرًا، في وقت متأخر جدًّا من الليل، أو على الأصح في الساعات الأولى من الصباح، خرجت من زيف المصطلحات السياسية الآمنة إلى الواقع ورويت له واقعة حدثت بالفعل تجسد أحد هذه المصطلحات، حكيت له عن (جان) التي تعرضت للتعذيب بأحد سجون موسكو، وفي تلك اللحظة نفسها رشق سهام نظراته بوجهي والرعب يطل من عينيه، ودفع مقعده إلى الخلف مستخدمًا الحركة العفوية نفسها كأنه يريد أن يهرب، كنت أروي له شيئًا لو رواه في بلده، لزج به إلى السجن، ففي الواقع كانت العبارات الخاصة بالفلسفة المشتركة بيننا ما هي إلا محاولة لإخفاء الحقيقة، والحقيقة هي أننا لم نكن نشترك في أي شيء إلا في التوصيف، فكل منا يُدعى شيوعي.

وهذه الليلة تجمعني طاولة واحدة مع هذه المرأة الأمريكية، بإمكاننا أن نتحدث بلغة الديمقراطية طوال الليل، ولكن كل منا ستستخدم هذه اللغة للتعبير عن تجربتها التي تختلف عن تجربة الأخرى، كنا نجلس معًا على تلك الطاولة متذكرتين أن كلًّا منا أعجبت بالأخرى كامرأة، ولكن ليس هناك ما يمكن أن نقوله، مثلما كان الحال مع الكاتب الروسي؛ فبعد تلك اللحظة المرعبة لم يعد هناك المزيد مما يمكن أن يقال. في النهاية تقول هي: «حسنًا يا عزيزتي، أنا لم أتعرض من قبل لمفاجأة مثل هذه، أنا فقط لا أستطيع أن أفهم ذلك.» تتحدث تلك المرة بلهجة توجيه الاتهامات، فيثور بداخلي الغضب مرة أخرى. تستطرد: «أنا معجبة للغاية بأمانتكِ.» تخطر لي فكرة: إذا كنت بأمريكا الآن وتلاحقني لجان التحقيق، فلم أكن لأجلس على طاولة بأحد الفنادق وأصرح في هدوء بأنني شيوعية، إذن ليس من الأمانة أن أشعر بكل هذا الغضب، وعلى الرغم من ذلك فهذا الغضب يدفعني إلى أن أقول لها بلهجة جافة: «ربما من الأفضل أن تتحري جيدًا قبل أن توجهي دعوة عشاء إلى الكتّاب بهذا البلد، لأن كثيرًا منهم ربما يتسببون في إحراجكِ.» ولكن التعبير البادي على وجهها يبدو منه أنها سرحت بعيدًا بفكرها، لا بد أن الشك يداخلها، أنا من وجهة نظرها أصنف ضمن زمرة الشيوعيين، ولذلك هناك احتمال أنني أكذب عليها. تذكرت في تلك اللحظة الكاتب الروسي، كان أمامه خياران، إما أن يواجهني بشأن ما قلته ويناقشه معي، أو ينسحب تمامًا، وهذا هو ما فعله حيث رسم على وجهه ملامح السخرية التي يثيرها تكشف الحقائق وقال: «على أي حال، هذه ليست أول مرة يتحول أحد حلفاء بلادنا إلى عدو.» كان يعني أن يقول: استسلمتِ إلى الضغوط التي مارسها عليكِ العدو الرأسمالي. من حسن الحظ أن الرجل الأمريكي يظهر في تلك اللحظة واقفًا بجانب الطاولة التي نجلس عليها. أتساءل هل دفعه انشغالها العفوي عنه الذي لم تقصده، لأن يأخذ هذه الخطوة، يحزنني ذلك لأنني أرى أن تفكيري كان صائبًا. تقول المرأة: «جيري، أهلا، كنت أتساءل هل سنلتقي مصادفة، سمعت أنك موجود بلندن.» رد عليها: «مرحبًا، كيف حالكِ، تسعدني رؤيتكِ.» كان الرجل رزينًا، بشوش الوجه، حسن المظهر.

– هذه هي السيدة ولف.

تخرج الكلمات منها في صعوبة، فبداخلها يطوف هذا الشعور: أنا أقدم صديقي إلى أحد أعدائنا، يجب أن أحذره بطريقة ما. تقول له: «السيدة ولف هي كاتبة ذات صيت واسع للغاية.» أشعر بأن حدة توترها تخفت قليلًا حينما تصفني بأني ذات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صيت واسع. أبادرهما بالقول: «هل تسمحان لي بأن أترككما؟ عليَّ أن أعود إلى المنزل، فلديَّ بعض الأمور الخاصة بطفلتي يجب أن أنجزها.» يبدو عليها الارتياح، نخرج ثلاثتنا من المطعم، أراها تتأبط ذراعه حينما أودعهما وأستدير مبتعدة، أسمعها تقول له: «أنا سعيدة جدًّا يا جيري لأنك هنا، فقد ظننت أنني سأقضي المساء بمفردي.» يرد عليها: «منذ متى وأنت تقضين الأمسيات بمفردكِ يا عزيزتي إيدي إلا إذا اخترتِ أنتِ ذلك؟» أراها تبتسم له ابتسامة امتنان جافة. أما أنا فأعود إلى المنزل وأنا أفكر في أنه بالرغم من كل ما حدث كانت اللحظة التي حطمت بها السلاسة التي كانت تسير بها عملية تعارفنا إحدانا إلى الأخرى هي اللحظة الوحيدة الصادقة في هذه الأمسية، ولكنني مع ذلك أشعر بالخجل وعدم الارتياح ويتمكن الاكتئاب مني كما حدث تمامًا بعد حواري في تلك الليلة مع الكاتب الروسي.

[الدفتر الأحمر]

٢٨ أغسطس/آب ١٩٥٤

قضيت الليلة الماضية في محاولات لمعرفة كل ما يمكنني أن أعرفه عن كنمن، ولكنني لم أجد في مكتبتي أو في مكتبة مولي سوى القليل عنها. تملك الرعب كلتينا، فربما تكون هذه هي بداية حرب عالمية جديدة، قالت مولي: «كم فعلنا هذا من قبل، نجلس هنا يعتصرنا القلق، وفي النهاية لا تكون حربًا ضخمة.» أستطيع أن أرى أن هناك شيئًا آخر يدفعها نحو القلق، في النهاية أخبرتني بما حدث: كانت تربطها صداقات قوية مع أعضاء جماعة فورست برازرز، حينما «فُقدوا» في تشيكوسلوفاكيا، على الأرجح، ذهبت مولي إلى مقر الحزب الرئيسي لتسأل عنهم، فقالوا لها إنه لا داعي للقلق، فهم يؤدون مهمة جليلة لمصلحة الحزب، ولكنها عرفت بالأمس أنهم خرجوا من السجن لتوهم بعد أن قضوا به ثلاث سنوات، فذهبت مولي إلى المقر الرئيسي بالأمس لتسأل هل كانوا على علم بوجود رفاقها بالسجن، فاتضح لها أنهم يعرفون ذلك من البداية. «أنا أفكر في أن أنسحب من الحزب.» هكذا قالت مولي لي، فأجبتها: «ولمَ لا تنتظرين لتعرفي هل تتحسن الأمور أم لا، إنهم لا يزالون يقومون بعمليات التطهير بعد رحيل ستالين.» تقول مولي: «أخبرتني الأسبوع الماضي أنكِ ستنسحبين، على أي حال هذا هو ما قلته لهال، نعم رأيت الزعيم شخصيًّا، قلت له: «ألم ترحل كل الوجوه القبيحة؟ ألم يرحل ستالين وبيريا وغيرهما؟ فلماذا تسيرون على النهج

المعتاد نفسه؟» قال لي إن المسألة تتعلق بدعم الاتحاد السوفييتي الذي يتعرض للهجوم، الكلام نفسه الذي تعرفينه. قلت له: «وماذا عن اليهود الموجودين بالاتحاد السوفييتي؟» فقال لي إن هذه كذبة يروج لها الرأسماليون، قلت له: «لا أناشدك الله، لا تكرر القصة نفسها مرة أخرى.» المهم أنه ألقى عليَّ محاضرة طويلة عن عدم وجود أسباب تبعث على الخوف أو القلق وكان يتحدث بلهجة هادئة وودودة للغاية. فجأة شعرت أنه إما أنني مجنونة أو أنهم جميعًا مجانين، قلت له: «هناك شيء هام عليكم أن تتفهموه وسريعًا وإلا لن يبقى أحد بداخل حزبكم، عليكم أن تتعلموا كيف تخبرون الناس بالحقيقة وتضعوا حدًّا لكل المؤامرات الخفية التي تُحاك في الظلام وأن تتوقفوا عن الترويج لكل هذه الأكاذيب التي تزيف واقع الأشياء.» أخبرني بأنني أشعر بالضيق لأن أصدقائي كانوا موجودين بالسجن وبأنه يتفهم مبررات هذا الضيق، فجأة وجدتني أحاول تبرير موقفي بلهجة اعتذارية، مع أنني كنت أعرف جيدًا أنني على الحق وهو على الباطل، أليس ذلك غريبًا يا آنا؟ في ظرف دقيقة واحدة بدأت أعتذر إليه؟ وفي صعوبة استطعت أن أوقف نفسي وغادرت سريعًا وعدت إلى المنزل وخلدت للنوم وأنا أشعر بضيق شديد. أتى مايكل متأخرًا وأخبرته بما قالته مولي، قال لي: «إذن هل ستنسحبين من الحزب؟» كانت لهجته توحي بأنه لا يرغب في أن أترك الحزب، بالرغم من كل ما حدث. ثم استطرد قائلًا بلهجة جافة للغاية: «ألا تلاحظين يا آنا أنه حينما تتكلمين أنتِ ومولي عن الانسحاب من الحزب، تتحدثان وكأن خطوة المغادرة ستلقي بكما وسط مستنقع من الفساد يصعب الخروج منه، في حين أن هناك فعلًا ملايين من ذوي التفكير السليم انسحبوا من الحزب (إذا كانوا نجوا من محاولات القتل)، لأنه بانسحابهم من الحزب فهم يتركون وراءهم محاولات القتل، ودوائر الشك ومسلسلات الرعب والخيانة.» أجبته: «ربما ليس هذا هو أصل المشكلة.»»

– إذن ما أصل المشكلة؟

– منذ دقيقة واحدة كنت أشعر بأن انسحابي من الحزب لن يسعدك.

أطلق ضحكة معترفًا بما خطر لي، ثم صمت لبرهة، ثم أطلق ضحكة أخرى وقال: «ربما أنا أتفق معكِ يا آنا، لأنه من الجيد أن نتفق مع شخص يمتلئ إيمانًا حتى لو كنا نحن أنفسنا لا نمتلك هذا الإيمان.»

– الإيمان!

– حماسكِ المتقد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت له: «أنا لم أعبر من قبل عن موقفي تجاه الحزب مستخدمة تلك الكلمات.»

– لا يهم، أنت عضو به، وهذا يفوق بكثير ما يمكن أن يقال لـ ....

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه وسألته: «لك؟» كانت ملامح الحزن الشديد تبدو واضحة على وجهه وقد جلس يفكر في صمت، وفي النهاية قال لي: «حسنًا، لقد حاولنا يا آنا، حاولنا بكل ما أوتينا من قوة، لم يحالفنا الحظ، ولكن ... هيا يا آنا لندخل إلى الفراش.»

في تلك الليلة راودني حلم عجيب، رأيت في منامي قطعة ممتدة من القماش نسجت من الخيوط المتشابكة، كانت جميلة للغاية، مطرزة بلوحات تصور خرافات البشر، ولكن هذه النقوشات لم تكن لوحات مرسومة فقط، بل كانت هي الخرافات البشرية متجسدة، ولذلك كان نسيج القماش اللامع الرقيق حيًّا، وهناك الكثير من الألوان الرائعة والألوان الباهتة، ولكن اللون السائد الذي يخضب هذا النسيج الضخم من القماش هو الحمرة، درجات مختلفة من اللون الأحمر المتوهج، رأيت نفسي في الحلم أمسك بهذا النسيج الضخم وأتحسسه وتنحدر على وجهي دموع الفرح، نظرت إلي قطعة القماش الضخمة مرة أخرى فرأيت أمامي خريطة الاتحاد السوفييتي، تبدأ قطعة القماش تكبر وتتمدد مثل بحر تتلألأ مياهه البراقة متدافعة إلى خارج الشطآن، إنها الآن تضم المدن التي تحيط بالاتحاد السوفييتي مثل بولندا والمجر وغيرهما، ولكن حوافها رقيقة وشفافة، كانت دموع الفرح لا تزال تنحدر على وجهي، ولكن التوجس والقلق يطلان منها، الآن تمتد السحابة الحمراء المتوهجة لتظلل الصين ويبدأ لونها الأحمر الممتد فوق الصين يصبح داكنًا حتى تتحول الصين إلى بقعة قرمزية داكنة للغاية. أنا الآن أقف في مكان ما في الفضاء الخارجي، وأحيانًا تتحرك قدماي وكأنني أحاول أن أسحق بهما شيئًا وأنا أقف بمكاني في الفضاء، يحيط بي سديم أزرق وأنا واقفة في الفضاء والعالم يدور أمامي تغطيه ظلال من اللون الأحمر تكسو الدول الشيوعية، ومزيج آخر من الألوان يكسو بقية الدول، السواد يظلل أفريقيا، ولكنه سواد حالك ومتوهج يجذب الأنظار، مثل سواد الليل حينما يكون القمر عند حافة الأفق يوشك أن يضيء السماء، في تلك اللحظة اجتاحني خوف شديد وتصاعد بداخلي شعور بالغثيان، وكأن هناك خاطرة ما تجتاحني وأنا لا أريد أن أعترف بها. شعرت بدوار شديد حتى إنني لم أستطع أن أنظر إلى الأسفل وأرى العالم وهو يدور، ثم أنظر نحو العالم فيلوح أمامي طيف ... توقف الزمن وبدا التاريخ البشري — تلك القصة الطويلة التي تحكي عن الإنسان — واضحًا أمامي فيما أراه وكأنه أرجوزة

حبور وانتصار تتصاعد أنغامها يصاحبها لحن قصير نابض بالحياة يعزف آهات الألم، أنظر إلى العالم فأرى الألوان الزاهية التي تكسو دول العالم المختلفة تغزو المساحات الحمراء، تذوب الحدود بين الألوان المختلفة وتتداخل بعضها مع بعض، فيصبح العالم وحدة واحدة يغطيه لون واحد براق غاية في الجمال، لون لم أره من قبل في حياتي، في تلك اللحظة يغمرني شعور هائل بالسعادة، شعور يفوق طاقتي على الاحتمال ويبدو لي أن تلك السعادة تتصاعد بداخلي فيتفجر كل شيء فجأة، ويخفت كل شيء من حولي وأجد نفسي فجأة واقفة في قلب السكون، الصمت يخيم على الفضاء أسفل مني، والعالم الذي كان يدور في بطء، يتلاشى في بطء، يذوب ويتحلل وتتطاير شظاياه في كل مكان بالفضاء من حولي، أصبحت أقف وسط شظايا سابحة في الفضاء، تتراكب بعضها مع بعض وتنجرف بعيدًا. اختفى العالم، وحلت الفوضى، وكنت أقف وحدي وسط تلك الفوضى، وترامى إلى مسامعي صوت خافت يتردد داخل أذني في وضوح: جذب أحدهم طرف الخيط فتفكك النسيج. استيقظت وأنا أشعر أنني أحلق في سماء السعادة، ووددت أن أوقظ مايكل لكي أروي له ما رأيته، ولكنني كنت أعرف أن الكلمات لا يمكن أن تترجم له الشعور الذي خلفه هذا الحلم داخلي. في اللحظة نفسها بدأ مغزى الحلم يخفت، نبهت نفسي إلى أنه يتلاشى، هيا أمسكي به، أسرعي، ثم خطر لي أنني لا أعرف ما المغزى. تلاشى المعنى، رحل وتركني وراءه يغمرني شعور بالسعادة لا أستطيع أن أصفه. كنت أجلس في الظلام بجانب مايكل، وقد اختفى كل ما أشعر به وعدت إلى طبيعتي مرة أخرى، استلقيت على الفراش مرة أخرى وأحطت مايكل بذراعي، فاستدار دون أن يستيقظ ووضع رأسه على صدري. ثم خطر لي شيء: إنني لا أهتم في الحقيقة أدنى اهتمام بالسياسة أو الفلسفة أو أي شيء، كل ما أهتم به هو أن يستدير مايكل في الظلام ويضع رأسه فوق صدري، ثم تسلل النوم إلى عينيّ. حينما استيقظت في الصباح كان بإمكاني أن أتذكر الحلم والشعور الذي خلفه في نفسي، وتذكرت على الأخص تلك الكلمات: جذب أحدهم طرف الخيط فتفكك النسيج. وطوال اليوم ظل الحلم ينكمش ويتضاءل، حتى إنه الآن يبدو مثل نقطة صغيرة مضيئة ولكن بلا معنى. ولكن حينما استيقظ مايكل هذا الصباح وهو بين ذراعيّ ونظر إليَّ وابتسم، نظرت إلى عينيه الزرقاوين الدافئتين وهو يبتسم لي فخطر لي أن حياتي شابها كم كبير من المشكلات والآلام حتى إني لا أكاد أصدق نفسي حينما تغمرني أمواج السعادة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكأنها أمواج من المياه الزرقاء اللامعة التي تشع دفئًا. «أنا آنا ولف، هذه أنا آنا ولف، وأنا سعيدة» هكذا حدثت نفسي.

[هنا لصقت بعض الصفحات التي دُوِّنَت في ١١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٢. لم يكن الخط منمقًا، فعلى ما يبدو أن آنا دونتها وهي في عجلة من أمرها:]

بالأمس اجتمعت مع مجموعة من الكتاب، كنا خمسة، لمناقشة كتاب «ستالين واللغويات». يقترح ريكس، وهو ناقد أدبي، أن نناقش هذا الكتيب حرفًا حرفًا، فيرد جورج (كاتب بروليتاري منذ الثلاثينيات، حاد الصراحة يهوي تدخين الغليون): «رباه، أعلينا أن نفعل ذلك؟ إنه «لا يستحق».» يقول كليف، صحفي ومؤلف سياسي شيوعي: «نعم، علينا أن نناقشه في عناية» فيعرض ديك، وهو مؤلف اشتراكي يكتب روايات واقعية، رأيه قائلًا: «علينا على الأقل أن نضع أيدينا على النقاط الأساسية للكتاب.» يبدأ ريكس النقاش متحدثًا عن ستالين باستخدام النبرة المحترمة المعهودة منذ سنين، تخطر ببالي فكرة: إن التقى كل من الأشخاص الموجودين بهذه الحجرة في حانة من الحانات أو في الطريق سوف يتحدث كل منهم بنبرة مختلفة تمامًا، نبرة جافة ومؤلمة. نجلس كلنا في صمت بينما يلقي ريكس كلمة تمهيدية قصيرة، ثم يتكلم ديك، عاد لتوه من روسيا (فهو يذهب في رحلات للدول الاشتراكية دائمًا)، يروي لنا حوارًا دار بينه وبين كاتب سوفييتي في موسكو حول هجوم وحشي آخر شنه ستالين على أحد الفلاسفة: «علينا أن نتذكر أن الأسلوب المصطلح عليه في المناظرات هناك أكثر شراسة وقسوة من الأسلوب الذي نتبعه.» كان يتحدث بلهجة بسيطة ومباشرة ونبرة توحي بأنه شخص ذو خلق لا يلوي الحقائق أو يزيفها، هذا هو الأسلوب الذي أعمد إلى استخدامه في بعض الأحيان، يستطرد: «حسنًا، عليكم أن تتذكروا أن التقاليد القانونية هناك تختلف اختلافًا شاسعًا عما نحن عليه هنا.» ثم يسهب في عرض المزيد من الاختلافات، يتخللني شعور بعدم الراحة حينما أستمع لتلك النبرة وهذه اللهجة، منذ أيام قليلة سمعت نفسي وأنا أتحدث بهذا الأسلوب وبدأت أتلعثم في الحديث، أنا لا أصاب بالتلعثم غالبًا، كلنا لدينا نسخ من هذا الكتيب، ولكنني لست متحمسة لإبداء رأيي لأن الأمر من وجهة نظري لا يعدو أن يكون هراء، ولكنني أيضًا لست متمرسة في المجال الفلسفي (مثل ريكس) وأخشى أن أبدي تعليقات سخيفة. ولكن ليس هذا فقط، فالأمر أكبر من ذلك. تسيطر عليَّ حالة تتضح رويدًا

رويدًا أمام عينيّ: الكلمات تفقد مغزاها فجأة، وأجد نفسي أستمع إلى كملة، عبارة، مجموعة من الكلمات وكأنني أستمع إلى لغة أجنبية. فالهوة التي تفصل بين ما يفترض أن تعنيه تلك الكلمات وما تعنيه في الحقيقة تبدو شاسعة ولا يمكن سدها، كنت أفكر في الروايات التي تتحدث عن انهيار اللغة مثل فينيجانز ويك، وفي الاهتمام الزائد بعلم دلالات الألفاظ، إن إقدام ستالين على تأليف كتيب حول هذا الموضوع هو دلالة على وجود إحساس عام بالقلق بشأن اللغة، ولكن كيف يحق لي أن أنقد أي شيء إذا كانت الجمل والعبارات المكتوبة بأكثر الروايات جمالًا وإبداعًا تبدو لي سخيفة؟ ولكن الأسلوب المستخدم في هذا الكتيب يبدو ركيكًا لي، فأقول: «ربما الترجمة ليست جيدة.» تتملكني الدهشة من تلك النبرة الاعتذارية التي تحدثت بها. (أنا أعرف أنني إذا كنت أجتمع بمفردي مع ريكس، ما كنت سأتحدث بهذه النبرة الاعتذارية.) يتضح لي على الفور أن كلماتي نقلت الإحساس الذي يداخل الجميع بأن الكتيب ليس جيدًا، منذ سنين ونحن نبدي تلك الملاحظة حينما نناقش الكتيبات والمقالات والروايات والبيانات القادمة من روسيا، كنا نقول: «ربما الترجمة ليست جيدة.» والآن عليَّ أن أجاهد نفسي حتى أبدي هذا الرأي: «هذا الكتيب ليس جيدًا.» تدهشني قوة رغبتي في الإحجام عن عرض هذا الرأي. (أتساءل كم منا يأتي إلى هذه الاجتماعات وهو عازم على أن يبدي عدم ارتياحه واشمئزازه، ثم فور أن يبدأ الاجتماع يلجمه هذا الإحساس القوي بأن ما يود أن يقوله يعد خوضًا في منطقة محظورة؟)، في النهاية أتحدث في نبرة توحي بأنني «فتاة طائشة» نبرة بها مسحة من الانبهار: «أنا لست مؤهلة بما يكفي لكي أحكم على الكتيب من الناحية الفلسفية، ولكن من المؤكد أن هذه الجملة الموجودة هنا هي جملة محورية، فالعبارة التي تقول إن الأمر لا يتعلق بالقاعدة ولا بالبناء الفوقي الماركسيين تخرج دون ريب عن المبدأ الماركسي، إنه فكر جيد تمامًا، أو ربما انسلاخ من الفكر الرئيسي، أو ربما ليس إلا نزعة تفاخرية.» (أشعر بالارتياح لأنه مع تقدم الحوار تفقد نبرتي مسحة «الانبهار» التي كنت أغلفها بها لكي أخفف من وقع الملاحظة، وتبدأ لهجتي تميل إلى الجدية، ولكنها في الوقت ذاته تميل إلى الإثارة الزائدة.) يحمر وجه ريكس، ويقلب صفحات الكتيب ويقول: «نعم، يجب أن أعترف أن هذه الجملة أصابتني بالصدمة لأن ...» يسود الصمت ثم يقول جورج في لهجته شديدة الصراحة: «أنا لا أستطيع أن أفهم سبب الخوض في هذه الأمور والمسائل النظرية كلها.» يبدو الارتياح علينا جميعًا الآن، ما عدا جورج. الكثير من الرفقاء في الحزب باتوا متبعين لهذا الموقف السوقي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتهور، فهم ينظرون إلى الثقافة الرفيعة في نوع من العداء الكثير والنفور، أصبح هذا الموقف جزءًا من شخصية جورج ولكنه مع ذلك سعيد بتلك الصفة، تخطر لي فكرة: حسنًا، هناك أشياء تبرر هذا الأمر ... أدى جورج الكثير من الخدمات الجليلة للحزب، فإن كان هذا هو أسلوبه في الاستمرار به، فما يمنع — من دون أن نأخذ قرارًا بأننا لن نناقش هذا الكتيب — أن نترك الأمر كله يتسلل بعيدًا عن طاولة الحوار، نتكلم عن الأمور العامة، السياسات الشيوعية في أي من البلدان، روسيا أو الصين أو فرنسا أو هنا في بلدنا. طوال الوقت تجول برأسي هذه الفكرة: لم يذكر أي منا ولو لمرة واحدة أن هناك شيئًا خاطئًا من الأساس، ولكن المعنى الضمني لما نقوله يوحي بذلك، لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير في تلك الظاهرة ... فحينما يلتقي اثنان منا تأخذ المناقشة بينهما مستوى مختلفًا تمامًا عما تكون عليه إذا التقى ثلاثة أشخاص، فعندما يدور حوار بين شخصين فقط من زاوية نقدية، تجري مناقشة الأمور السياسية كما لو كانت تجري بين شخصين لا ينتميان إلى الشيوعية. (وأنا أعني بالأشخاص غير المنتمين إلى الفكر الشيوعي الأشخاص الذين لا يستطيع أي مستمع خارج دائرة هذا الحوار أن يرى فيهم أي صفات للشيوعية فيما عدا المصطلحات المستخدمة.) ولكن إذا انضم أي شخص إلى الاثنين يسيطر على الحوار جو مختلف تمامًا، وهذا ينطبق تمامًا على ما قيل عن ستالين، فمع أنني مستعدة تمامًا إلى أن أؤمن بأنه قاتل ومجنون (ولكنني أتذكر دائمًا ما قاله مايكل عن أن هذه هي اللحظة التي يستحيل فيها معرفة حقيقة أي شيء.) فتلك النبرة البسيطة التي يعبر بها الناس عن احترامهم له تعجبني، لأن هذه النبرة إذا طرحت جانبًا فسيختفي معها شيء مهم للغاية؛ الإيمان بفرص تحقق الديمقراطية والاستقامة، ربما يبدو ذلك متناقضًا ولكنه حقيقي، فهناك حلم سيموت على الأقل في زماننا.

أصبح الحوار فوضويًا، وتفككت أفكاره، قلت لهم إني سأعد الشاي، وتخلل الارتياح الجميع لأن الاجتماع على وشك أن ينتهي، أعددت الشاي ثم تذكرت قصة بعثها إليَّ أحد الرفقاء المقيمين بالقرب من مدينة ليدز، حينما قرأتها أول مرة ظننتها محاولة للكتابة التهكمية، ثم ظننتها محاولة بارعة لمحاكاة موقف فكري محدد، ثم بعد ذلك أدركت أنها قصة واقعية، أدركت ذلك في اللحظة التي فتشت فيها بذاكرتي عن أحداث معينة عشتها بنفسي ربما تبدو من نسج الخيال. ما جذب انتباهي في هذه القصة هو أنها يمكن أن تُقرأ من أكثر من زاوية: زاوية التهكم أو المحاكاة، أو الزاوية الواقعية، هذه هي حقيقة أخرى تدلل على التفكك الذي يلازم كل شيء،

على الانحلال الفاجع لشيء يرتبط بالصفة التي أشعر أنها تنطبق فعلًا على اللغة، وهي: تضاؤل اللغة أمام عظمة تجاربنا وثرائها، ولكنني مع ذلك قلت لهم، بعد أن أعددت الشاي، إنني أود أن أقرأ لهم قصة.

[هنا لُصق بعض الورق المسطر العادي، قُطعت هذه الأوراق من نوتة زرقاء وكتبت بخط منمق للغاية:]

حينما عرف الرفيق تيد أنه وقع الاختيار عليه للسفر ضمن وفد المدرسين الذاهب إلى الاتحاد السوفييتي، شعر بالفخر الشديد. في البداية لم يكن يصدق نفسه، فهو يشعر بأنه لا يستحق هذا الشرف العظيم، ولكنه لن يفوت فرصة السفر إلى الدولة الأولى على مستوى العالم التي يحكمها العمال! وأخيرًا جاء هذا اليوم العظيم، يوم لقائه بالرفقاء الآخرين في المطار، ضم الوفد ثلاثة مدرسين من خارج الحزب، واتضح له أنهم أناس أخيار أيضًا! استمتع تيد كثيرًا برحلته الجوية فوق أوروبا، وكانت متعته تزيد كل دقيقة حتى وجد نفسه في النهاية داخل غرفة فاخرة جدًّا بأحد فنادق موسكو، كادت الفرحة تفقده صوابه! انتصف الليل حينما وصل الوفد إلى المطار، ولذلك ينبغي تأجيل موجة السعادة التي ستغمر العيون عندما ترى لأول مرة دولة شيوعية حتى صباح اليوم التالي. جلس الرفيق تيد إلى طاولة كبيرة، تكفي لاثني عشر شخصًا على الأقل، زُودت بها غرفة نومه ليدون ملاحظاته عن أحداث اليوم، فقد كان مصممًا على ألا يدع أي لحظة نفيسة تمر دون أن يسجلها. وبينما هو جالس يدون ملاحظاته سمع طرقًا على الباب، أجاب تيد صوت الطرق وهو يتوقع أن يرى أحد الرفقاء من الوفد: «تفضل بالدخول.» ولكنه وجد أمامه شابين يرتديان قبعتين مسطحتين وحذاءين من أحذية الطبقة العاملة، قال أحدهما: «تفضل معنا أيها الرفيق.» لم يكن هناك أي غموض يشوب تعبيراتهما، ولم أسألهما إلى أين سيأخذانني. (ولكنني يجب أن أعترف، وأنا شاعر بالخجل، أنني تذكرت لجزء من الثانية تلك القصص التي قرأناها في الصحافة الرأسمالية ... إن سمومها تسربت رغمًا عنا إلى نفوسنا جميعًا!) دخلت إلى المصعد مع مُرْشِدَيّ الودودَيْن ونزلت إلى الدور السفلي، ابتسمت لي المرأة التي تجلس في الاستقبال وحييت صديقيّ الجديدين. كانت هناك سيارة سوداء تنتظرنا خارج الفندق، فركبنا بها وجلسنا متجاورين دون أن نتحدث، أمامنا مباشرة ظهرت أبراج قصر الكرملين، ولذلك لم نقطع مسافة كبيرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالسيارة. دخلنا من البوابات الرئيسية الكبيرة وتوقفت السيارة أمام باب جانبي صغير، نزل صديقاي من السيارة وفتحا لي الباب، وابتسما: «تفضل معنا أيها الرفيق.» صعدنا سلمًا رخاميًّا رائعًا تزين جانبيه الأعمال الفنية، ثم دلفنا إلى ردهة جانبية صغيرة لا يوجد بها أي مظاهر للترف، توقفنا أمام باب عادي للغاية، مثله مثل أي باب، وطرق أحد مرشديّ الباب، فأجابه صوت أجش: «تفضل.» مرة أخرى يبتسم لي الشابان ويومئان برأسيهما. انصرفا عبر الردهة وكل يتأبط ذراع الآخر، وأنا دلفت إلى الحجرة بخطوات جريئة، كنت أعرف ما سأراه تقريبًا، فقد جلس الرفيق ستالين خلف مكتب عادي — تبدو عليه آثار كثيرة وواضحة للاستخدام الشاق — يرتدي قميصًا بدون سترة فوقه ويدخن الغليون. قال بلهجة ودودة: «تفضل أيها الرفيق بالجلوس.» تخللني الارتياح وجلست أنظر إلى الوجه الذي تعلوه الطيبة والعينين اللامعتين. قلت له وأنا أجلس قبالته: «شكرًا أيها الرفيق.» ساد الصمت برهة، كان يبتسم ويتفرس وجهي، ثم قال: «أيها الرفيق، أرجو أن تعذرني لأنني أزعجتك في وقت متأخر من الليل هكذا ...» ولكنني قاطعته في حماس: «الكل يعرف أنك تنهمك في أعمالك حتى ساعات متأخرة من الليل ...» مرر يده الخشنة على حاجبه.

الآن تبدو علامات التعب والإرهاق جلية أمام عينيّ ... إنه عناء العمل من أجلنا! من أجل العالم! شعرت بالزهو وأنا أجلس أمام هذا الرجل وبالتواضع وأنا أنظر إليه. «أزعجتك في هذا الوقت المتأخر أيها الرفيق لأنني أحتاج إلى مشورتك، سمعت أن هناك وفدًا من المدرسين قادمًا من بلدك وفكرت في أن أستفيد من هذه الفرصة.»

– هل هناك أي شيء أستطيع أن أخبرك به أيها الرفيق ستالين ....

– أنا أتساءل دائمًا هل أتلقى المشورة الصائبة حول سياستنا في أوروبا وخاصة سياستنا في بريطانيا العظمى.

لم أتكلم، ولكن ملأني الزهو ... نعم، إنه حقًّا رجل عظيم، فهو مثال للقائد الشيوعي الحقيقي يتقبل النصيحة حتى من العامة من كوادر الحزب مثلي! «سأكون شاكرًا أيها الرفيق إذا بينت لي ما يجب أن تكون عليه سياستنا مع بريطانيا العظمى، أنا أدرك أن التقاليد الخاصة بكم تختلف كثيرًا عن تقاليدنا، وأدرك أن سياستنا لم تكن تأخذ هذه التقاليد في الاعتبار.» في تلك اللحظة شعرت أنني يمكن أن أبدأ حديثي وأنا أشعر بالارتياح. أخبرته أن هناك العديد من الأخطاء في سياسة الحزب الشيوعي بالاتحاد السوفييتي فيما يخص بريطانيا العظمى، وأنني أظن أن السبب

في هذا هو الانعزال المفروض على الاتحاد السوفييتي بسبب الكراهية التي تكنها القوى الرأسمالية للدولة الشيوعية الواعدة، كان الرفيق ستالين يستمع إليَّ وهو يدخن غليونه ويومئ برأسه، وعندما ترددت قال لي أكثر من مرة: «أرجوك أن تكمل أيها الرفيق، لا تخش أن تقول لي ما يدور بذهنك تحديدًا.» ولذلك أكملت حديثي، استغرق الحديث نحو ثلاث ساعات بدأتها بنبذة تحليلية عن الموقع التاريخي للحزب الشيوعي البريطاني. ضغط الرفيق ستالين على زر الجرس الذي بجانبه، فجاء رفيق شاب آخر يحمل صينية عليها كوبان من الشاي الروسي، ووضع واحدًا أمامي. كان ستالين يرشف رشفات واهنة من كوبه، ويومئ برأسه وهو يستمع إليَّ، أوضحت له السياسة التي أراها مناسبة لبريطانيا. وعندما انتهيت من حديثي قال في تواضع: «أشكرك أيها الرفيق، أنا أدركت الآن أنني كنت أتلقى نصائح خاطئة.» ثم نظر إلى ساعته وقال: «يجب أن تعذرني أيها الرفيق، فلدي الكثير من العمل يجب أن أنجزه قبل شروق الشمس.» نهضت فمد إليَّ يده، وشددت عليها. «إلى اللقاء أيها الرفيق ستالين.»

– إلى اللقاء يا رفيقي من بريطانيا العظمى، وشكرًا لك مرة أخرى.

تبادلنا ابتسامة صامتة، أعرف أن عينيّ كانتا ممتلئتين بالدموع، الدموع التي سأظل أفخر بها حتى أموت! وأنا أغادر الغرفة كان ستالين يعبئ غليونه وعيناه منصرفتان إلى كومة من الوثائق لم يُبت بأمرها بعد. خرجت من باب الحجرة وقد عشت أعظم لحظة مرت عليَّ في حياتي. كان الرفيقان الشابان بانتظاري، تبادلنا الابتسامات التي تعبر عن تفهمنا العميق بعضنا لبعض، وقد لمعت أعيننا بالدموع. ركبنا السيارة عائدين إلى الفندق وقد ساد الصمت، مرة واحدة فقط تحدثت بهذه الكلمات: «إنه رجل عظيم.» أومآ برأسيهما. عندما وصلنا إلى الفندق رافقاني حتى باب غرفة نومي، وشدا على يدي في صمت، ثم عدت مرة أخرى إلى كتابة يومياتي، إن لدي الآن بالتأكيد شيئًا يستحق أن أسجله! جلست أنجز هذا العمل حتى شروق الشمس وأنا أفكر في الرجل العظيم الساهر في مقر عمله على بعد أقل من نصف ميل ينجز المهام التي تلقي بها على كاهله أقدارنا جميعًا!

[آنا تكتب بخط يدها مرة أخرى:]

عندما انتهيت من قراءة هذه القصة، لم يبدِ أي شخص أي تعليقات حتى قال جورج: «قصة جيدة، مباشرة وصادقة.» كلمات ربما يكون لها أكثر من معنى. علقت: «أنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أذكر أنني تخيلت نفسي بطلة هذه القصة، أمر بكل حدث فيها، الفرق الوحيد هو أنني وضعت السياسة المناسبة لأوروبا أيضًا.» فجأة انطلقت ضحكة ساخطة رنانة وقال جورج: «في البداية ظننتها مكتوبة بأسلوب ساخر ... إن الأسلوب والأحداث يجعلانك تظن ذلك، أليس كذلك؟»

قال كليف: «أنا أذكر أنني قرأت إحدى الكتابات المترجمة من الروسية، كان ذلك في أوائل الثلاثينيات على ما أظن: رجلان يقفان في الساحة الحمراء وقد تعطلت قاطرتهما ولا يعرفان ما سبب هذا العطل، فجأة يريان رجلًا قوي البنية يتقدم نحوهما. كان يدخن غليونًا: سألهما: «ماذا أصاب القاطرة؟»

– هذه هي المشكلة أيها الرفيق، نحن لا نعلم ماذا أصابها؟

– إذن أنتما لا تعلمان، هذا سيئ!

أشار الرجل ذو البنية القوية بقصبة غليونه إلى إحدى الآلات الموجودة بالقاطرة وقال: «هل جربتم ذلك؟» جرب الرجلان ما قاله، فدبت الروح في القاطرة، استدارا ليشكرا الرجل الغريب الذي كان واقفًا يشاهدهما بعينين تطل منهما نظرة أبوية براقة، فيتعرفان عليه: إنه ستالين، ولكنه استدار مبتعدًا بالفعل، ورفع يده ليحييهما، يسير وحيدًا قاطعًا الساحة الحمراء في طريقه إلى الكريملن.»

انطلقت ضحكاتنا جميعًا وقال جورج: «إنها حلقة عن الذكريات، تذكروا ما شئتم، سأنصرف إلى بيتي.»

ملأت رائحة العداء الحجرة ونحن نفترق منصرفين كل إلى شأنه، كنا نكره بعضنا بعضًا ونعرف ذلك.

[بقية الحكاية: الدفتر الأصفر]

خيال الظل

باتريشيا برينت، التي تعمل بقسم التحرير، هي من اقترحت على إيلا أن تقضي أسبوعًا بباريس. ولأن باتريشيا هي من اقترحت ذلك، راود إيلا ميل فطري تجاه رفض هذا الاقتراح على الفور. قالت لها باتريشيا: «يجب ألّا نفقد الأمل بسببهم.»؛ تشير إلى «الرجال». باختصار، كانت باتريشيا تتحرق شوقًا لأن تضم إيلا إلى طائفة النساء البائسات اللاتي عانين الهَجْر، ذلك بدافع من شعورها الطيب، ولكن على جانب آخر انضمام إيلا لتلك الطائفة من النساء سيشعرها بنوع من الارتياح الشخصي. عللت

باتريشيا هذه الرحلة بمقابلة يجب أن تجريها إيلا مع محرر يعمل بمجلة فرنسية مماثلة بخصوص شراء حقوق نشر قصة مسلسلة لمجلتهما البريطانية. قالت إيلا إن السفر إلى باريس سيكون مضيعة للوقت، فقد كانت ترى أن القصة ربما تكون مناسبة لربات البيوت في فوجيرار بباريس، ولكنها لا تناسب السيدات في بريكستون بلندن. «إنها إجازة مدفوعة الأجر.» هكذا قالت باتريشيا بلهجة لاذعة لأنها أدركت أن فكرة السفر إلى باريس ليس هي ما ترفضه إيلا، ولكن هناك شيئًا أكبر من ذلك. بعد أيام قليلة غيرت إيلا رأيها، فقد أدركت أنه خلال تلك السنة الماضية، أي منذ أن تركها بول، كل ما قالته أو فعلته أو شعرت به لا يزال يحمل رائحته، كانت حياتها تدور حول رجل لن يعود إليها، يجب أن تحرر نفسها، كان ذلك قرارًا عقلانيًّا ولم يكن مبنيًّا على أي دوافع معنوية. كانت إيلا تشعر بفتور الهمة والاكتئاب، وكأن بول لم يأخذ معه كل قدراتها على الشعور بالسعادة فقط، بل رحلت معه أيضًا إرادتها. قالت إنها ستسافر إلى باريس وكأنها مريض مشاكس يقبل في النهاية أن يتناول الدواء ولكنه يعارض الطبيب في إصرار: «بالطبع لن يفيدني أبدًا.»

كان ذلك في شهر أبريل/نيسان، وارتدت باريس كعادتها ثوبها الفاتن، نزلت إيلا في إحدى الغرف بالفندق المتواضع بالليفت بانك الذي نزلت به منذ عامين مع بول. رتبت أمتعتها بالغرفة تاركة مساحة لأمتعة بول، لم يخطر لها أنها يجب ألّا تكون بهذا الفندق إلا عندما أدركت ما تفعله. ولكن يبدو أنها ستبذل مجهودًا شاقًا لكي تترك هذا الفندق وتبحث عن آخر. المساء لا يزال في أوله، وباريس تزخر، أسفل نوافذ غرفتها العالية، بالأشجار المخضرة والمارة الذين يجوبون الشوارع. تطلب الأمر منها ساعة كاملة حتى تدفع إيلا نفسها إلى الخروج من الغرفة والذهاب إلى أحد المطاعم. أسرعت في تناول طعامها وهي تشعر أنها عارية أمام العيون. في طريق عودتها إلى الفندق تعمد إلى أن تبقى منشغلة بالنظر إلى أي شيء، ومع ذلك ألقى رجلان عليها التحية بأدب وفي كل مرة تنزعج انزعاجًا شديدًا وتتجمد أوصالها، ثم تكمل السير بخطوات سريعة. دخلت غرفتها وأغلقت الباب وكأنها تغلقه في وجه خطر قادم إليها، ثم جلست بجوار النافذة تفكر في أنه منذ خمس سنوات كان وجودها بمفردها على طاولة عشاء في أحد المطاعم سيسعدها كثيرًا، فبالإضافة إلى متعة الجلوس وحدها على الطاولة، يفتح المقعد الخالي على طاولتها الباب دائمًا أمام احتمالية أن تلتقي بأي شخص مصادفة ليشاركها العشاء، وكانت رحلة العودة سيرًا على الأقدام من المطعم إلى الفندق ستمتعها جدًّا، ومن المؤكد أنها ستتناول فنجان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قهوة أو أي مشروب مع أحد الرجلين، إذن ماذا أصابها؟ لقد دربت نفسها على ألا تنظر إلى أي رجل ولو من قبيل المصادفة حينما تكون مع بول، فهو يغار غيرة شديدة. حينما تكون برفقته تبدو مثل سيدة بسيطة آتية من دولة جنوبية بصحبة وليها، ولكنها كانت تتخيل أنها تحاول أن تجعل هذه الصفات تنطبق عليها من الخارج فقط حتى تغنيه عن أن يجر على نفسه العناء والألم، ولكنها أدركت الآن أن شخصيتها تغيرت تغيرًا كاملًا.

جلست بجانب النافذة لبرهة، وهي تشعر بفتور همتها، تشاهد المدينة التي تنبض بالحياة رغم الظلام الذي بدأ يتسلل إليها. حدثتها نفسها بأن عليها أن تتجول وسط شوارع تلك المدينة، وتجبر نفسها على أن تتحدث إلى الناس، وتدع الرجال يختارونها من وسط الأخريات وتتلطف في التعامل معهم. ولكنها تعرف جيدًا أنها عاجزة عن أن تنزل سلالم الفندق وتترك مفتاح غرفتها على طاولة الاستقبال وتخرج إلى الشوارع مثلها مثل شخص قضى أربع سنوات من الحبس الانفرادي ثم طُلب منه أن يتصرف على نحو طبيعي للغاية، دخلت إلى الفراش ولكنها لم تستطع أن تنام، وكعادتها بدأت تفكر في بول لكي تستطيع أن تخلد إلى النوم. مرت سنة ولم يضاجعها بول، لم تصل خلالها مشاعرها إلى ذروة النشوة. حاولت أن تحقق لنفسها هذا الشعور، فتخيلت نفسها مع بول في الفراش، ولكنها رأت نفسها في وضع شاذ ومؤلم، شعرت بالندم لأنها فعلت ذلك، الندم على فقدان إيلا الحقيقية. خلدت إلى النوم ومشاعرها تثور بداخلها وقد تملكها الضيق والإرهاق والإحساس بأنها وقعت فريسة للخديعة. تخيلها لبول في تلك الصورة جعل شخصيته «السلبية» تقترب منها أكثر، رجل يفتقر تمامًا إلى الثقة بالنفس. إن صورته الحقيقية كرجل تبتعد عنها أكثر فأكثر. أصبح من الصعب أن تتذكر الدفء الذي ينبعث من عينيه وخفة روحه التي تتدفق مع صوته، إنها تنام بجانب شبح مهزوم، وحينما تستيقظ على غير العادة لتفتح ذراعيها حتى يضع رأسه على صدرها أو تستند برأسها على كتفيه، يرسم هذا الشبح ابتسامة واهنة تطل منها المرارة وسخريته من نفسه. ومع ذلك، حينما كانت تراه في منامها، تراه دائمًا في الصورة المختلفة التي يفضلها هو، لأن صورته كانت تنبض بالدفء والرجولة والرزانة، صورة بول الذي أحبته، ظلت نائمة، ولكنها حينما استيقظت لم تتذكر شيئًا سوى أشكال الألم.

استيقظت متأخرًا في صباح اليوم التالي، كعادتها دائمًا حينما لا يكون طفلها بصحبتها، وهي تفكر في أن مايكل لا بد أنه استيقظ وارتدى ملابسه وتناول إفطاره

مع جوليا ويوشك على أن يتناول غداءه في المدرسة، ثم حدثتها نفسها بأنها لم تأتِ إلى باريس لكي تستعرض المراحل التي يمر بها طفلها أثناء اليوم، وذكرت نفسها بأن شوارع باريس تنتظرها بالخارج تضيئها أشعة الشمس المشرقة، وأنه حان الوقت لكي ترتدي ملابسها لكي تلحق بميعادها مع المحرر الفرنسي.

كانت حجرات مكاتب مجلة «المرأة والأسرة» تطل على ضفة نهر السين في قلب بناية عتيقة على المرء أن يمر من تحت قنطرة حفرت عليها نقوشات غاية في الروعة كي يدخلها، كانت العربات التي جرها الخيول، ومن قبلها القوات الخاصة بالجنود المرتزقة، تمر من تحتها قديمًا. مجلة «المرأة والأسرة» تمتلك اثنتي عشرة حجرة من ذلك المبنى العتيق المتهالك الذي تفوح منه رائحة الكنيسة ورائحة الإقطاع، وقد اتسمت الغرف الخاصة بالمجلة بالفخامة وبالديكورات الحديثة. مسيو بران ينتظر إيلا، أوصلها أحد العاملين إلى مكتبه وهناك استقبلها ذلك الشاب ضخم الجثة ذو العضلات المفتولة والمظهر المنمق، ألقى عليها مسيو بران التحية في أدب جم ولكن لم تفلح أخلاقه المهذبة في إخفاء عدم اكتراثه بإيلا وبالعرض المقدم منها. كان من المفترض أن يغادرا المكتب ويذهبا لتناول كأسين من الشراب الخفيف، أعلن روبرت بران على مسامع ستٍّ من موظفات السكرتارية الحسناوات أنه لن يعود قبل الساعة الثالثة لأنه سيتناول الغداء مع خطيبته وتلقى منهن ابتسامات عديدة تعبر عن تفهمهن للخبر السعيد وفرحتهن به. عبرت إيلا الفناء الخارجي الفخم والبوابة الرئيسية العتيقة بصحبة روبرت بران، واتجها إلى المقهى. سألته في أدب عن مشروع زواجه المستقبلي، فأخبرها بلغة إنجليزية سليمة أن خطيبته هي فتاة غاية في الحسن والذكاء والنبوغ، وأنه سيتزوجها الشهر القادم، وأنهما مشغولان في الوقت الحالي بتجهيز مسكنهما، كان بران طلق في تحدث الإنجليزية. إليز (نطق اسمها بأسلوب به الكثير من اللياقة والرزانة والوقار، لم تكن لهجته عفوية ولكنها توحي بأنه تمرن كثيرًا على هذا الأسلوب.) كانت في هذه اللحظة تتفاوض مع البائع حول سعر سجادة حازت على إعجاب كليهما. وهي، أي إيلا، ستحظى بفرصة رؤية خطيبته بنفسها. وسريعًا أخبرته إيلا أن ذلك سيسعدها وهنأته مرة أخرى. في تلك الأثناء وصلت إيلا بصحبة روبرت بران إلى المكان الذي ينشدانه، وهو مجموعة من الطاولات المرصوصة على الرصيف تحت المظلات الشمسية، جلس روبرت وطلب كأسين من الشراب المنكه بالينسون، الوقت الآن هو ملك للعمل، كانت إيلا في موقف لا تُحسد عليه، فهي تعرف أنها إذا عادت إلى باتريشيا برينت بحقوق نشر هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصة المسلسلة التي تحمل عنوان «الهروب من الحب الحقيقي» فسوف تنال رضا رئيستها ذات الأفق شديد الضيق، فهي ترى أن كلمة فرنسي تعني ضربًا من ضروب التميز الذي يتمثل في عرض العشق الحسي مباشرة ولكنه تمييز صادق، ويتضح أيضًا في أسلوب الكتابة الراقي والمتحضر، فهي ترى أن التأثير الذي قد تحدثه عبارة مثل: بالتنسيق مع مجلة «المرأة والأسرة» في باريس لن يختلف عن السحر الذي لا يثيره سوى عطر فرنسي فاخر. ولكن إيلا تعرف أيضًا أنه فور أن تقرأ باتريشيا القصة (من النسخة المترجمة، فهي لا تعرف الفرنسية.) ستتفق معها — وإن كان ذلك على مضض — أنها ليست جيدة على الإطلاق. يمكنها إذا اختارت ذلك أن ترى أن ما تفعله هو أنها تحمي باتريشيا من الانسياق وراء إحدى نقاط ضعفها. ولكن إيلا ليس لديها في الحقيقة أي نية لشراء القصة، ولم يكن لديها أي نية لذلك، ومن ثَمّ فهي تضيع فرصة وجودها مع شاب أنيق قوي البنية ذي مظهر منمق، تضيع فرصة جاءت في وقتها. يجدر بها أن تشعر بالذنب، ولكنها لم تفعل. كان يمكن أن تشعر بالخجل من نفسها لو أعجبت به، ولكن هذا الشاب الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة في نظرها حيوان مدرب تدريبًا فائقًا، وليس لديها مانع من أن تستغله. قدرتها على التصرف كامرأة ذات كيان مستقل تراجعت كثيرًا، ولذلك فهي لا تستطيع أن تستمع بالجلوس على طاولة طعام في مكان عام وحدها من دون وجود رجل يشاركها الطاولة حتى يحميها من الأنظار المحيطة بها، والرجال في هذا كلهم سواء من وجهة نظرها. لكي تكتمل الشكليات المتعلقة بالمقابلة بدأت إيلا تشرح له كيف يمكن أن تعالج القصة لتتناسب مع الوضع في إنجلترا. تحكي القصة عن فتاة يتيمة وفقيرة تحمل في قلبها حزنها على أمها التي ماتت وهي شابة صغيرة بسبب زوجها قاسي القلب، تربت هذه الفتاة في أحد الأديرة على يد مجموعة من الراهبات الصالحات. وبالرغم من ورعها استدرجها البستاني المتحجر القلب إلى علاقة غير شرعية. لم تستطع أن تواجه الراهبات النقيات بما حدث، فهربت إلى باريس، وهناك ارتمت في أحضان الرجال الواحد بعد الآخر، ومع أن الخطيئة كانت تدنس ثوبها فقد بقيت الفتاة نقية من داخلها. وفي النهاية تلتقي تلك الفتاة وهي في سن العشرين — بعد أن أصبحت أمًّا لطفل غير شرعي أُودع هو الآخر عند مجموعة من الراهبات الصالحات — بعامل في أحد المخابز ويتحرك حبها في قلبه ولكنها تشعر بأنها غير جديرة بهذا الحب، فتهرب منه، من الحب الحقيقي، إلى المزيد من الأحضان التي لا تهتم بها وهي تتأوه وتتألم طوال الوقت، ولكن في النهاية (بعد

المزيد من التفاصيل والأحداث) يقابلها هذا العامل مرة أخرى ويصفح عنها ويعدها بأنه سيهبها حبًّا أبديًّا وسيقوم على حمايتها إلى آخر يوم في عمره، وتنتهي هذه الملحمة بتلك الجملة: «لم أكن أعرف يا حبيبي أنني يوم هربت منك كنت أهرب من الحب الحقيقي.»

قالت إيلا: «أترى، هذه القصة فرنسية الطابع للغاية حتى إننا سنحتاج إلى أن نكتبها من جديد.»

– أحقًّا؟ وكيف ذلك؟

أطلت نظرات الضيق من عينيه المستديرتين اللتين بدا لونهما البني الداكن جذابًا، كادت إيلا أن تتصرف على نحو غير محسوب ولكنها أوقفت نفسها، فقد كانت تنوي أن تعبر عن عدم رضاها عن أسلوب الكتابة الحسي الممتزج بنبرة التدين والورع، ولكن خطر لها أن باتريشيا ستغضب بالقدر نفسه إذا قال شخص كروبرت على سبيل المثال: «هذه القصة إنجليزية الطابع للغاية.»

قال روبرت بران: «إن القصة ذات طابع حزين للغاية، والأجزاء التي تعالج طبائع النفس البشرية واقعية جدًّا.»

علقت إيلا على رده: «تكون الأجزاء التي تعالج النفس البشرية دائمًا في القصص المكتوبة لمجلات أجزاء غير مختَلقة على الإطلاق، ولكن الأهم هو إلى أي درجة تكون غير مفتعلة؟»

تجمدت تعبيرات وجهه ونظرات عينيه الواسعتين لحظة وبدا عليهما الضيق الشديد النابع من عدم فهمه لملاحظتها، رأته إيلا يحول عينيه ويحركهما بطول الرصيف، فقد تأخرت خطيبته عن موعدها. قال روبرت معلقًا: «فهمت من خطاب الآنسة باتريشيا أنها قررت أن تشتري القصة.» أجابته إيلا: «إذا كنا سننشرها فيجب أن نعيد كتابتها من دون أديرة أو راهبات أو ذكر للتدين.» – ولكن محور القصة، وبالتأكيد أنتِ تتفقين معي على ذلك؟ يدور حول صلاح الفتاة الفقيرة، فهي فتاة صالحة من داخلها.

أدرك بران أن إيلا لن تشتري القصة، ولم يكن مهتمًّا بأي حال من الأحوال، تركزت نظراته باتجاه نهاية الرصيف حين ظهرت فتاة نحيلة حسناء، من نوع الفتيات اللاتي يشبهن إيلا، وجهها شاحب وذقنها مدبب قليلًا وشعرها متطاير ذو لون أسود. ربما أكون من نوع الفتيات اللاتي يحببن، ولكنه ليس لي، هكذا حدثتها نفسها. عندما اقتربت الفتاة من طاولتهما انتظرت إيلا أن ينهض روبرت ويسلم على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خطيبته، ولكنه حول نظره عنها في آخر لحظة ومرت الفتاة ومضت في طريقها، ثم عاد ووجه نظراته المتفحصة إلى نهاية الرصيف. جلست إيلا ترقب تعبيرات وجهه ونظرات عينيه التحليلية وهو يقيم مفاتن المرأة تلو الأخرى، حتى إذا باتت إحداهن على وشك أن تنظر إليه مستفسرة سواء في ضيق أو اهتمام، يحول عينيه إلى الجانب الآخر.

وفي النهاية ظهرت امرأة ليست بجميلة، ولكنها جذابة، شاحبة الوجه وممتلئة، وقد أتقنت استخدام مساحيق التجميل وبدت ملابسها غاية في الروعة. هذه هي خطيبته، تبادلا التحية وعلى وجهيهما آيات السعادة التي تليق بشاب وفتاة أُعلن ارتباطهما الرسمي، فتحولت الأعين بالطبع نحو الخطيبين اللذين تغمرهما السعادة وارتسمت الابتسامات على الوجوه. ثم قدم روبرت إيلا إلى خطيبته، واستُؤنف الحوار باللغة الفرنسية. دارت المحادثة حول السجادة؛ سعرها أعلى مما توقع الاثنان ولكنها أقدمت على شرائها. تعجب روبرت وأبدى تذمره، أما زوجة بران المستقبلية، فقد تنهدت ورمشت بعينيها اللتين أحيطتا بإطار رفيع من الكحل الأسود الداكن، وهمهمت بلهجة تبدو في خلفيتها مشاعر الحب إنه لا يوجد شيء يحوز إعجابه بدرجة كبيرة. ابتسم الاثنان وأمسك كل منهما بيد الآخر، الابتسامة المرتسمة على وجهه تعبر عن رضاه عن نفسه، أما ابتسامتها فالرضا والسعادة اللذان يطلان منها يشوبهما بعض القلق. غلبته العادة، فتحولت عيناه في حركة خاطفة إلى نهاية الرصيف حيث ظهرت فتاة جميلة، ثم قطب جبينه عندما انتبه إلى نفسه. تجمدت الابتسامة المرتسمة على وجه زوجة المستقبل لحظة عندما لاحظت ذلك، ولكنها استدنت بظهرها على المقعد وهي تبتسم في بهاء وبدأت تتحدث إلى إيلا عن مشاكل تجهيز المسكن في تلك الأوقات العصيبة، كانت تتحدث بأسلوب مهذب. ذكرتها نظرات تلك الفتاة إلى خطيبها بفتاة ليل رأتها في وقت متأخر من الليل بإحدى محطات مترو الأنفاق بلندن، هكذا كانت المرأة تلاطف أحد الرجال وتغريه بتلك النظرات التي ترسلها له خلسة من عينيها الحسناوين.

أبدت إيلا بعض الملاحظات عن تجهيز المساكن في إنجلترا، وهي تفكر في وجودها غير المرغوب فيه مع شاب وخطيبته، فهي تشعر بالعزلة وبأنه لا مكان لها، تشعر أنها عارية مرة أخرى أمام العيون. بعد دقيقة سوف يرحلان ويتركانها وسيزداد شعورها بالعري، «ماذا حدث لي؟» هكذا خطر لها. ومع ذلك تفضل إيلا الموت عن أن تكون في مكان تلك المرأة، هذه بالفعل هي الحقيقة.

عشرون دقيقة أخرى جمعت الثلاثة معًا، ظلت خلالها الخطيبة مفعمة بالحيوية والأنوثة تداعب أسيرها وتشاكسه. وظل الخطيب يتصرف على نحو من اللياقة ومن منطلق سيادي، كانت عيناه تخوناه ولكن الخطيبة التي أسرها هواه لم تغفل عنه لحظة واحدة، فعيناها تتحركان مع عينيه اللتين تعمدان إلى تفحص الطريق لحظات (بات عليه الآن أن يختصرها) حينما تعبر امرأة.

اتضحت الحقيقة المؤلمة أمام إيلا، كما كانت ستتضح، في اعتقادها لأي شخص يجلس مع خطيبين خمس دقائق؛ فقد جمعت بينهما علاقة حب منذ فترة طويلة، هي تمتلك المال وهذا شيء ضروري له. إنها تحبه حبًا شديدًا وتود أن تحافظ عليه، وهو معجب بها، ولكنه لم يكن يود أن يرتبط بها ارتباطًا رسميًا، يبدو أن العصفور السمين تردد كثيرًا قبل أن يدخل إلى القفص ويغلق بابه عليه. في خلال سنتين أو ثلاثة سيكون السيد والسيدة بران مستقرين بمنزلهما المجهز على مستوى جيد (هي من تحملت نفقات تلك التجهيزات) وبصحبتهما طفلهما الصغير وربما مربية تقوم على شئونه. هي ستظل تلاطفه وتداعبه بأسلوبها المرح نفسه الذي يتخلله القلق، وهو سيظل يتصرف في لياقة محافظًا على مزاجه المعتدل، ولكنه سيكون في بعض الأحيان حاد المزاج إذا منعته واجباته المنزلية من الاستمتاع بعشيقته.

ومع أن تفاصيل كل مرحلة من هذا الزواج كانت واضحة أمام عينيها وكأنها كلها مرت فيما مضى وهي الآن تستمع إليها، ومع أن الموقف برمته يثير حنقها، فقد شعرت بالخوف الشديد من قدوم اللحظة التي سيرحل فيها الخطيبان ويتركانها، وها هي اللحظة، نهض الاثنان، واستأذناها في الرحيل بأسمى آيات اللياقة الفرنسية المعروفة، لياقته يشوبها القليل من عدم الاهتمام، أما هي فتتصرف في أدب جم ومفرط وهي تنظر إليه وكأنها تود أن تقول له: أترى كيف أعامل أصدقاءك في العمل بكل هذا الذوق والأدب. إيلا تجلس الآن على الطاولة وحدها في وقت الغداء الذي يشترك فيه الأصدقاء عادة، وشعرت بأنها تجردت من ملابسها وأصبحت عارية أمام الجميع، على الفور حاولت أن تغطي نفسها العارية أمام الأعين فتخيلت أن بول أتى ليجلس معها في المقعد نفسه الذي كان روبرت بران يجلس عليه. لاحظت أن رجلين بدآ يفحصانها حينما أصبحت بمفردها على الطاولة، ليقيما الفرص السانحة أمامها. بعد لحظة سيأتي إليها أحدهما، وهي «ستتصرف مثل أي امرأة متحضرة» ستتناول معه كأسًا أو اثنتين من الشراب، وتستمتع بالمقابلة، وتعود إلى الفندق وقد ازدادت قوتها وتحررت من شبح بول. هناك حوض منخفض من الزرع الأخضر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وراءها وفوقها المظلة الشمسية المثبتة فوق الطاولة بالظلال ذات اللون الأصفر المتوهج الذي يبعث الدفء في النفوس. أغلقت عينيها وخطرت لها تلك الفكرة: ربما أجد بول أمامي حينما أفتح عينيّ. (فجأة أصبحت عاجزة عن أن تدرك أنه ليس موجودًا في مكان قريب منها، وأنه ليس بإمكانها أن تنتظره حتى يأتي ويلحق بها.) فكرة أخرى قفزت إلى ذهنها: حينما أقول إنني كنت أحب بول، ماذا يعني ذلك إذا خلفني رحيله مثل سمكة صغيرة ألقى بها الموج إلى الشط فالتقطها طائر النورس بمنقاره؟ كان عليَّ أن أقول إن بقائي مع بول يعني أنني بقيت محتفظة بنفسي بين جنباتي، بقيت شخصًا حرًّا له استقلاليته. أنا لم أسأله شيئًا، لم أطلب منه الزواج بالطبع، ومع ذلك فها أنا ذا لا أعدو أن أكون شتات امرأة، إذن كل ما حدث خدعة، كنت في الحقيقة أستتر تحت عباءته، لم أكن أفضل حالًا من زوجته التي تملكها الرعب، وأنا لست أفضل حالًا من إليز، زوجة روبرت المستقبلية؛ استطاعت موريل تانر أن تحافظ على بول بالامتناع عن طرح أي أسئلة وبطمس شخصيتها، وإليز تشتري روبرت بأموالها، أما أنا فأستخدم كلمة الحب وأنا أظن أنني حرة ولكن الحقيقة هي أن ... سمعت صوتًا لشخص على مقربة منها يسأل هل المكان خالٍ، فتحت إيلا عينيها فرأت رجلًا فرنسيًّا ضئيل الجسم ومفعمًا بالحيوية يجر المقعد إلى الخلف ليجلس عليه، قالت لنفسها إنه يبدو شخصًا لطيفًا وأنها ستبقى جالسة مكانها، ولكنها ابتسمت في توتر وقالت له إنها تشعر بآلام الصداع وإنها ليست بخير ونهضت من مكانها ورحلت وهي على يقين أنها تصرفت كفتاة مراهقة مذعورة.

الآن حسمت أمرها، سارت في شوارع باريس عائدة إلى الفندق، حزمت أمتعتها وبعثت ببرقية إلى جوليا وأخرى إلى باتريشيا واستقلت حافلة لتوصلها إلى المطار، وجدت مقعدًا خاليًا في الطائرة التي ستقلع في الساعة التاسعة، أي بعد ثلاث ساعات. جلست بمطعم المطار تتناول طعامها دون أي توتر أو قلق، تشعر بأنها تتصرف بطبيعتها، فكونها مسافرة يعطيها الحق في أن تكون وحدها. قرأت الكثير من المجلات الفرنسية الخاصة بالمرأة، قرأتها كمحررة محترفة، محددة السمات والقصص التي ربما تفيد باتريشيا برينت. قامت بهذا العمل بنصف عقل، ووجدت تلك الفكرة تتخلل ذهنها: إن العمل هو العلاج المناسب لهذه الحالة التي تنتابني، يجب أن أكتب رواية أخرى. ولكن المشكلة هي أنني حينما كتبت الرواية الأخيرة لم أتوقف قط قبلها وأتحدث إلى نفسي: يجب أن أكتب رواية. يجب أن أدخل نفسي في تلك الحالة الذهنية نفسها، تلك الحالة من الاستعداد الدائم والانتظار الكامن بداخلي ربما أجد

نفسي يومًا ما أمسك بالقلم وأكتب. ولكنني لا أهتم في الحقيقة بكتابة رواية، ولم أهتم بكتابة الرواية السابقة. فلو قال بول لي: سأتزوجكِ إذا عاهدتني ألا تكتبي أي حرف آخر، ما رأيكِ؟ لوافقت، رباه! كنت سأبدي استعدادي لشراء بول مثلما تشتري إليز روبرت بران، ولكن ذلك نوع من الخداع المزدوج، لأن فعل الكتابة لم يكن في محله، فهو لن يكون فعلًا إبداعيًّا، ولكنه نوع من التدوين أو التسجيل، فالقصة كانت مكتوبة بالفعل بالحبر السري ... وربما هنا في مكان ما بداخلي كُتبت قصة أخرى بالحبر السري ... ولكن ما جدوى ذلك؟ أنا أشعر بالتعاسة لأنني فقدت جزءًا من استقلالي ومن حريتي، ولكن كوني «حرة» لا يتعلق بكتابة رواية، ولكن يتعلق بموقفي تجاه رجل ما اتضح لي الآن بعد أن انتهى بي الحال إلى هذا التشتت أنه كان موقفًا مضلِّلًا وخادعًا. الحقيقة هي أن سعادتي مع بول كانت أهم لي من أي شيء آخر، ولكن إلى أين أوصلني ذلك؟ إلى هنا: وحيدة، مذعورة من أكون بمفردي، بلا موارد، أهرب من مدينة مفعمة بالإثارة لأنني أفتقر إلى الطاقة المعنوية التي ربما تدفعني لأن أتعامل مع أي شخص من الكثيرين الذين سيسعدون جدًّا بالتعامل معي، أو على الأقل ربما ينتهي بهم الأمر إلى الترحيب بهذا التعامل.

إن الشيء المزعج هو أنه كلما انتهت مرحلة ما من حياتي لاحت أمامي فكرة مستهلكة الكل يعرفها وهي أن مشاعر النساء لا تصلح لهذا الزمان الذي نعيش فيه الآن، فالمشاعر المتأصلة في نفسي، مشاعري الحقيقية، ترتبط بعلاقتي برجل ما، رجل واحد فقط. ولكنني أعرف أنني لا أعيش هذه الحياة، ولا أعرف الكثير من النساء اللاتي يعشنها، ولذلك تبدو الأحاسيس التي تتحرك بداخلي سخيفة ولا تتناسب مع الحياة التي أحياها ... في كل مرة أنتهي إلى أن مشاعري الحقيقية مشاعر حمقاء، ويكون عليّ، كما هو الحال دائمًا، أن ألغي ذاتي، يكون عليّ أن أتصرف كرجل، أهتم بعملي أكثر من اهتمامي بالناس، يكون عليّ أن أضع مهام عملي في المقام الأول، وأنتظر الرجال الذين ستلقي بهم الحياة في طريقي، أو أبحث عن أي رجل عادي ميسور الحال يؤمن لي نفقات المعيشة، ولكنني لن أفعل ذلك، لا يمكنني أن أكون هكذا ....

سمعت النداء على رحلتها في مكبر الصوت، فمشت مع الآخرين عبر المدرج الإسفلتي إلى الطائرة وجلست في مقعدها، تملكها الارتياح حينما جلست امرأة بالمقعد المجاور لها، لو كان ذلك حدث منذ خمسة أعوام، لكانت شعرت بالأسف. تحركت الطائرة حركة بطيئة فوق الممر ثم استدارت وبدأت تتحرك حركة سريعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استعدادًا للإقلاع. اهتزت الطائرة وعجلاتها تتسارع فوق المدرج، وبدا لراكبيها أن الجسم المعدني شبّ إلى الأعلى في محاولة للارتفاع في الهواء، ثم بدأت سرعة الطائرة تقل، وظلت واقفة بمكانها دقائق قليلة وزئير محركاتها يدوي دون جدوى، يبدو أن شيئًا ما ليس على ما يرام. اختلس الركاب الجالسون بالمقاعد — المتكدسة المتقاربة بعضها من بعض داخل الجسم المعدني المهتز — النظر بعضهم إلى وجوه بعض ليرى كل منهم هل القلق الذي انتابه طال الآخرين أم لا، ثم أدركوا أن وجوههم التي كساها الإشراق والتفاؤل ما هي إلا أقنعة من عدم الاهتمام يرتدونها لكي يحافظوا على هدوئهم، فعاد كل منهم إلى مخاوفه الشخصية موجهين بعض النظرات الخاطفة إلى المضيفة التي بدت تعبيرات الهدوء والاطمئنان التي كست وجهها مبالغًا فيها للغاية. ثلاث مرات تتسارع عجلات الطائرة وهي تمضي إلى الأمام، تزداد سرعتها استعدادًا للإقلاع، ثم تتناقص سرعتها وتقف مكانها ويتعالى زئير محركاتها. عادت الطائرة في بطء إلى مبنى المطار ودعا طاقم الضيافة الركاب لمغادرة الطائرة ريثما يقوم عمال الصيانة «بإصلاح عطل بسيط بالمحرك.» عاد الجميع إلى المطعم مرة أخرى حيث أعلن المسئولون في أدب مفتعل تتخلله مسحة من الضيق أنه ستُقدم وجبة لركاب الطائرة. جلست إيلا بمفردها في أحد الأركان وقد تملكها الضيق والملل. الآن خيم الصمت على الركاب من حولها، جلسوا يفكرون كيف أن اكتشاف العطل الذي أصاب المحرك في الوقت المناسب خدمة جليلة قدمها لهم القدر. تناول الجميع طعامهم، وطلبوا بعض المشروبات ليشغلوا الوقت وجلسوا ينظرون عبر النوافذ إلى عمال الصيانة الملتفين حول طائرتهم تحت الأضواء الساطعة.

وجدت إيلا نفسها في قلب إحساس يتملكها ويستحوذ عليها، وعندما أنعمت النظر فيه أدركت أنه الإحساس بالوحدة. بدا لها كأن هناك فراغًا باردًا يفصلها عن المجموعات الجالسة بصالة الطعام من حولها، إنه فراغ خالٍ من أي مشاعر أو أحاسيس. تشعر ببرودة في جسدها، تشعر بأنها منعزلة فعلًا بلحمها وشحمها عن الآخرين. مرة أخرى تفكر في بول، تستغرق في التفكير حتى إنها لم تستطع أن تتصور أنه لن يدخل من الباب ويأتي إليها. تشعر بأن البرودة التي تلفها تتبدد وتذوب في حرارة يقينها بأنه سوف يأتي إليها بعد قليل. وفي صعوبة شديدة استطاعت أن تقطع تلك اللحظة الخيالية، وقفزت تلك الفكرة إلى ذهنها في ذعر: لو لم أستطع أن أوقف ذلك، أن أنهي هذا الجنون، فلن أستعيد نفسي مرة أخرى أبدًا، لن أعود كما كنت أبدًا. نجحت في أن تطرد صورة بول من خيالها، وعاد الفراغ

البارد يلفها من جديد. من أعماق تلك العزلة وذلك الفراغ البارد تصفحت إيلا أكوام المجلات الفرنسية الموجودة أمامها وهي لا تفكر في أي شيء على الإطلاق. على مقربة منها يجلس رجل وقد انشغل تمامًا بتصفح بعض المجلات عرفت حينما نظرت إليها أنها مجلات طبية. بدا من النظرة الأولى أنه رجل أمريكي، قصير وذو بنية عريضة وقوية وشعر بني قصير يتلألأ وكأنه مكسو بطبقة من الطلاء. يشرب أكواب عصير الفاكهة الواحد تلو الآخر، ولم يبد عليه أي مظاهر للقلق بشأن تأخر الطائرة عن موعد إقلاعها. فور أن التقت عيناه بعينيّ إيلا بعد أن نظرا عبر النافذة ليفحصا وضع الطائرة التي احتشد حولها عمال الصيانة أطلق ضحكة عالية وقال: «يبدو أننا سنظل عالقين هنا طوال الليل.» ثم عاد إلى المجلات الطبية التي انهمك في قراءتها. جاوزت الساعة الحادية عشرة ولا توجد أي مجموعات تنتظر بالمبنى غيرهم. فجأة سُمعت جلبة عالية حيث انطلقت صيحات وهتافات فرنسية من الأسفل، اختلف عمال الصيانة حول مسألة ما وكانوا يتشاجرون. يصيح واحد — غالبًا الشخص المسئول عن عملية الصيانة — مستحثًّا الآخرين أو متذمرًا منهم، وهو يلوح بيديه ويهز كتفيه كثيرًا. في البداية كان صوت العمال الآخرين وهم يردون عليه عاليًا ثم بعد ذلك تجهمت وجوههم، وبعدها توجه العمال نحو المبنى الرئيسي تاركين رئيسهم وحده عند قاعدة الطائرة، غضب الرجل في البداية، ثم هز كتفيه بقوة للمرة الأخيرة وتبع بقية العمال إلى المبنى الرئيسي، تبادل الرجل الأمريكي وإيلا النظرات مرة أخرى، قال هو في لهجة يبدو منها الانبساط حين أعلن أحدهم في مكبر الصوت أنه بإمكان الركاب أن يتخذوا مقاعدهم بالطائرة: «لا يهمني ذلك كثيرًا.» في الطريق إلى الطائرة صحبته إيلا: «ربما يمكننا أن نرفض الذهاب؟» هكذا علقت إيلا، رد عليها: «إن لديّ موعدًا في الصباح.» أسنانه تبدو من بين شفتيه حادة وناصعة البياض وتلألأت عيناه الزرقاوان اليافعتان بنظرات مفعمة بالحماس. يبدو أن هذا الموعد مهمّ للغاية حتى إنه يستحق منه أن يعرض نفسه لخطر التعرض لحادث جوي. لبى الركاب النداء وصعدوا مرة أخرى إلى الطائرة وبداخلهم على ما يبدو اعتقاد بضرورة إخفاء مخاوفهم وقلقهم. لا بد أن كثيرًا منهم غضوا الطرف عن مشهد المشاجرة التي نشبت بين عمال الصيانة. حتى المضيفة، التي رسمت معالم الهدوء والاطمئنان على ملامحها، ظهر عليها التوتر. في مقصورة الطائرة الداخلية التي أضاءتها الأنوار الساطعة تملك الذعر الأربعين راكبًا، وتشاغل الجميع بإخفاء خوفهم. كل الركاب انتابتهم تلك الحالة فيما عدا هذا الأمريكي، هكذا تبادر إلى إيلا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن يجلس ذلك الرجل بجانبها منهمكًا بالفعل في قراءة كتبه الطبية. أما إيلا فقد صعدت إلى الطائرة وكأنها صاعدة إلى غرفة إعدام، ولكنها حينما استعادت أمامها مشهد رئيس العمال وهو يهز كتفيه في عدم اكتراث قبل أن يعود إلى المبنى الرئيسي أدركت أن هذا هو ما تشعر به الآن. عندما بدأت الطائرة تهتز قالت في نفسها: من المحتمل جدًّا أن ألقى حتفي وأنا سعيدة بذلك.

للوهلة الأولى صدمتها تلك الحقيقة التي تكشفت لها، ولكن تلك الصدمة تبددت تمامًا بعد مرور لحظة واحدة. كانت تعرف ذلك طوال الوقت: أنا منهكة للغاية، متعبة إلى أقصى الحدود، كل خلية بجسدي أنهكها التعب، وكل مرة أدرك فيها أنني لست مضطرة لأن أستمر في هذه الحياة أرجئ إقدامي على التخلص منها. كم هو غريب هذا الأمر! وكل شخص من هؤلاء، فيما عدا هذا الشاب المفعم بالحيوية، يتملكه الخوف من أن تتعرض هذه الطائرة لحادث جوي، ومع ذلك انصعنا جميعًا للنداء وصعدنا إليها مرة أخرى. ربما يداخلنا جميعًا الشعور نفسه، دفعها الفضول إلى أن تنظر إلى الثلاثة الجالسين في الجانب المقابل، بدت وجوههم التي اعتلاها الخوف شاحبة، وتلألأت قطرات من العرق فوق جباههم. مرة أخرى تتسارع عجلات الطائرة استعدادًا للارتفاع في الهواء، انطلقت محركاتها تدوي وهي تجري فوق المدرج، ثم اهتزت اهتزازًا شديدًا وهي ترتفع في الهواء بعد عناء كأنها شخص متعب أثقلت الأعباء كاهله، وفي بطء شديد ارتفعت الطائرة فوق الأسطح، وفي بطء شديد ترتفع حاملة نفسها إلى الأعلى بعد مجهود شاق وعسير. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الرجل الأمريكي وقال: «نجحنا.» ثم عاد مرة أخرى إلى كتبه التي انهمك في قراءتها. دبت الروح من جديد في المضيفة التي كانت تقف متسمرة في مكانها، فتهللت أساريرها وانطلقت لكي تحضر المزيد من الطعام إلى الركاب، قال الأمريكي: «سوف يحظى الركاب بوجبة شهية.» قالت إيلا في نفسها: لدي يقين في أن الطائرة سوف تتعرض لحادث، أو على الأقل في أن هناك احتمالًا كبيرًا لحدوث ذلك. ولكن ماذا عن مايكل؟ أنا حتى لم أفكر في أمره ... حسنًا سوف تعتني جوليا به. للحظة علت بداخلها رغبتها في أن تستمر في الحياة حينما تذكرت مايكل، ولكنها عادت تفكر في أن وفاة أم في حادث تحطم طائرة ربما يكون حادثًا سيئًا ولكنه ليس مدمرًا، ليس مثل أن تتوفى على إثر محاولة انتحار. كم هو غريب أن تهب تلك العبارة الطفل الحياة، ولكن الطفل ربما يهب أمه أو أباه الحياة حينما يقرر أحدهما أن يعيش فقط لأن إقدامه على الانتحار ربما يجرح مشاعر طفله. ترى كم من الآباء

قرروا أن يستمروا في هذه الحياة لأنهم قرروا ألا يتسببوا في جرح مشاعر أطفالهم، بالرغم من أنهم هم أنفسهم لا يهتمون بحياتهم؟ (بدأت إيلا تشعر بالنعاس)، حسنًا سوف يعفيني ذلك من المسئولية. كان يمكنني بالطبع أن أرفض السفر على هذه الطائرة ولكن مايكل لن يعرف أبدًا بشأن الخلاف الذي نشب أمام أعيننا بين عمال الصيانة. انتهى كل شيء، أنا أشعر كأنني جئت إلى هذه الدنيا وأنا أحمل على كاهلي عبئًا ثقيلًا أحمله وأسير به طوال حياتي، المرة الوحيدة التي لم أشعر فيها أنني أجر ورائي حملًا ثقيلًا وأصعد به فوق أحد التلال هي تلك الفترة التي كنت فيها مع بول. يكفيني كل هذا التفكير في أمر بول وفي الحب وفي نفسي، كم هي مملة تلك المشاعر التي نُعَلِّق بداخلها ولا نستطيع أن نتحرر منها مهما كانت رغبتنا في أن ... شعرت أن الطائرة تهتز اهتزازًا شديدًا، قالت في نفسها: سوف تتحطم الطائرة ويتناثر حطامها في الهواء، وسوف أهوي إلى الظلام مثل ورقة شجر يحملها الهواء، سوف أدور في الفضاء كريشة بلا وزن حتى أسقط ويبتلعني البحر المظلم. نامت إيلا واستيقظت لتجد الطائرة واقفة في مكانها لا تتحرك والرجل الأمريكي يهزها حتى تفيق، هبطت الطائرة في مطار لندن في الساعة الواحدة صباحًا، ولكنها كانت تقترب من الثالثة حينما وصلت الحافلة التي شُحِنَت بالركاب بعد نزولهم من الطائرة إلى محطتها الأخيرة. تجمدت أطراف إيلا من البرودة وأثقل التعب كاهلها، والرجل الأمريكي لا يزال يقف بجانبها، ولا يزال ممتلئًا بالنشاط والمرح، يتلألأ وجهه الوردي العريض بالحيوية. دعا الرجل إيلا أن تركب معه بالسيارة نفسها إذ لا يوجد الكثير من سيارات الأجرة بالمكان.

قالت إيلا: «ظننت أننا انتهينا.» ولاحظت أن نبرة صوتها أصبحت مفعمة بالدرجة نفسها من المرح وعدم الاهتمام اللذين يملأن نبرة صوته.

– نعم، بدا الأمر كذلك.

أطلق ضحكة فبدت أسنانه جميعها من بين شفتيه ثم استطرد: «عندما رأيت الرجل يهز كتفيه مخلفًا الطائرة وراءه قلت في نفسي انتهى أمرنا. أين تسكنين؟» أخبرته إيلا بعنوانها وأضافت: «أين ستقضي ليلتك؟»

– سوف أبحث عن فندق.

– لن يكون ذلك سهلًا في هذا الوقت من الليل. كنت أود أن أدعوك للنزول بمنزلي، ولكن لديَّ غرفتان وطفلي يشغل واحدة منهما.

– هذا لطف منكِ، ولكن لا داعي فأنا لست قلقًا بشأن البيات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم يكن حقًا قلقًا، أوشك الفجر على البزوغ وهو لا يعرف أين سيقضي ليلته، ولكنه لا يزال مفعمًا بالحيوية وممتلئًا بالمرح مثلما كان في أول المساء. حينما وقفت السيارة عند منزلها قال إنه سيكون سعيدًا إذا قبلت دعوته على العشاء، ترددت إيلا في البداية ثم وافقت على تناول العشاء معه في مساء اليوم التالي، أو بالأحرى، مساء اليوم الذي بدأ فعلًا. صعدت إيلا إلى أعلى وهي تفكر في أنه لن يكون هناك مادة مشتركة للحوار بينها وبين هذا الرجل الأمريكي وبدأت فكرة الخروج هذا المساء تشعرها بالملل. وجدت طفلها نائمًا بغرفة تشبه كهف حيوان صغير إذ انبعثت من أرجائها رائحة أنفاسه الدافئة التي بدا منها أنه مستغرق في النوم الهانئ، لفته جيدًا بالأغطية وجلست برهة تشاهد الوجه الوردي الصغير الذي بدا واضحًا من خلال الضوء الرمادي المتسلل من النافذة وترى البريق الخافت الذي يلمع فوق خصلات شعره البني. حدثتها نفسها: إنه يشبه ذلك الرجل الأمريكي، كلاهما ذو بنية قوية وضخمة، وكلاهما يتمتع بتلك العضلات القوية والبشرية الوردية، ومع ذلك تشعرني سمات ذلك الرجل البدنية بالنفور، ولكنني لا أشعر تجاهه بذلك النفور الذي أثاره في نفسي روبرت بران، ذلك الشاب الفرنسي العريض المنكبين. ولم لا ألبي دعوته؟ دخلت إيلا إلى فراشها وللمرة الأولى منذ ليالٍ عدة لم تستدعِ ذكرياتها عن بول، فكرت في أن الأربعين راكبًا الذين حسبوا أنفسهم في عداد الموتى يرقدون الآن كل في فراشه منتشرين في أرجاء المدينة.

أيقظها طفلها بعد ساعتين وقد أشرق وجهه حينما فوجئ بوجودها بالمنزل. لم تذهب إيلا إلى مكتبها، إذ لم تنته إجازتها الرسمية بعد، ولكنها اتصلت بباتريشيا وأخبرتها بأنها لم تشترِ القصة المسلسلة وبأن رحلة باريس لم تحدث أي تحسن بحالتها. جوليا تتمرن على مسرحية جديدة، ولذلك قضت إيلا اليوم بمفردها تنظف المنزل وتعيد ترتيبه وتطهو الطعام وتلهو مع طفلها بعد عودته من المدرسة. لم يتصل بها الرجل الأمريكي، الذي عرفت أن اسمه سي ماتلاند، إلا متأخرًا، قال إنه رهن إشارتها وسألها أين تود أن تقضي الليلة: في المسرح، أم في الأوبرا، أم في إحدى حفلات البالية. تملكه الارتياح فور أن قالت له إن الوقت تأخر ولن يستطيعا الذهاب إلى أي مكان واقترحت عليه أن يتناولا العشاء معًا بأي مطعم: «في الحقيقة أنا لا أذهب كثيرًا إلى مثل هذه العروض، فهي لا تستهويني. أين تودين أن تتناولي العشاء؟»

– هل ترغب في الذهاب إلى مكان معين أم إلى مطعم يقدم أصنافًا عادية مثل شرائح اللحوم وغيرها من الأصناف المشهورة؟

مرة أخرى يتملكه الارتياح: «نعم، سيكون ذلك مناسبًا للغاية لي، فأنا أحب الأطعمة العادية.» ذكرت له إيلا اسم مطعم ممتاز وأنيق، وغيرت الفستان الذي اختارته للعشاء هذا المساء، لم تكن لترتدي مثل هذا الفستان وهي بصحبة بول، فهو لم يكن من أنواع الفساتين التي يمكن أن يسمح بها بول تحت أي مسمى، ومنذ أن تركها وهي تعمد إلى ارتدائه لتتحداه. ارتدت قميصًا وتنورة ووضعت بعض مساحيق الزينة رغبة منها في أن تخفي مظاهر الضعف والشحوب أكثر من أن تبدو مثيرة أو جذابة. كان مايكل جالسًا في فراشه محاطًا بالمجلات المصورة. سألها مايكل متعمدًا أن يضفي نبرة حزينة على صوته: «لماذا ستخرجين وقد عدتِ لتوكِ من السفر؟» ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيها حينما سمعت تلك النبرة وأجابته: «لأنني أود أن أخرج.» ابتسم مايكل حينما أدرك أنها كشفت أمره ثم قطب جبينه وقال متظلمًا: «هذا ليس عدلًا.»

– ولكنك ستخلد إلى فراشك بعد ساعة، أنا آمل ذلك.

– هل ستقرأ جوليا لي قصة؟

– جلست ساعات أقرأ لك القصص، وأنت ستذهب غدًا إلى المدرسة ويجب أن تنام.

– ولكنني سأقنعها بأن تقرأ لي قصة حينما تذهبين.

– من الأفضل حينها ألا تخبرني لأنني سأغضب.

نظر إليها وهو يجلس في الفراش في ثبات والجرأة تطل من عينيه ووجهه الوردي ممتلئ بالثقة في نفسه وفي كيانه بهذا المنزل: «لماذا لم ترتدي الفستان الذي قلتِ إنكِ ستلبسينه؟»

– قررت أن أرتدي هذه الملابس بدلًا منه.

– هذا دائمًا شأن النساء مع أمور الأناقة.

هكذا قال الصبي الذي لم يتعد عمره تسع سنوات في نبرة بها الكثير من التعالي، قالت إيلا وهي تطبع على خده الوردي الدافئ قبلة وتشتم في بهجة رائحة الصابون التي خلفها في الاستحاشعره استحمامه منذ قليل: «حسنًا، تصبح على خير.» عندما نزلت إلى الدور السفلي وجدت جوليا تغتسل فصاحت بصوت عالٍ: «سأمضي!» ردت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليها جوليا وهي تصيح: «من الأفضل أن تعودي مبكرًا إلى المنزل لأنكِ لم تنامي تقريبًا بالأمس.»

كان سي ماتلاند ينتظرها بالمطعم ووجهه يشع بالحيوية والنشاط، وبريق عينيه الزرقاوين الصافيتين لم يتأثر بطول السهر، قالت إيلا وهي تجلس بجانبه وقد انتابها فجأة الشعور بالتعب: «ألا تشعر بالنعاس على الإطلاق؟» أجابها على الفور بصوت ممتلئ بالبهجة: «أنا لا أنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات كل ليلة.»

– ولم ذلك؟

– لأنني لن أصل إلى ما أبغيه إذا ما أضعت وقتي في النوم.

قالت إيلا: «حدثني عن نفسك أولًا، ثم أحدثك أنا عن نفسي.» رد عليها: «حسنًا.» ثم استطرد: «في الواقع، أنتِ عندي لغز محير ولذا سيكون عليكِ أن تحدثيني كثيرًا عن نفسك حتى أستطيع أن أفك رموزه.» أتى النُّدُل عارضين خدماتهم، وطلب سي «أكبر حجم متوفر لديهم من شرائح اللحم» مع صلصة الطماطم، وكوكاكولا، ولم يطلب بطاطس مقلية لأنه يرغب في أن يفقد نحو ستة كيلوجرامات من وزنه. «ألا تتناول المشروبات الكحولية مطلقًا؟»

– مطلقًا، أشرب فقط عصير الفواكه.

– أخشى أنه سيكون عليك أن تطلب لي زجاجة من الخمر.

رد سي عليها: «بكل سرور.» وأمر النادل المختص بتقديم الخمر بإحضار زجاجة «من أفضل الأنواع الموجودة لديه.» شعر بالارتياح عندما انصرف النُّدُل وقال: «في باريس يحتاج النُّدُل إلى بذل مجهود فائق ليجعلوا المرء يشعر بأنه ليس من الطبقات الراقية، أما هنا فهم يجعلون المرء يفطن إلى هذه الحقيقة ببساطة، حتى دون أن يعمدوا إلى ذلك.»

– وهل أنت لا تنتمي إلى الطبقات الراقية؟

– أجابها وقد لمع بريق أسنانه الحادة الناصعة البياض: «أجل.»

– حسنًا حان الوقت لكي أسمع قصة حياتك.

روى لها سي قصته — ذاكرًا بالطبع الأحداث المهمة من وجهة نظره — في عشر دقائق تقريبًا انتهيا خلالها من تناول العشاء، ولكنه لم يمانع في أن يجيب على كل أسئلتها بشأن حكايته؛ ولد لعائلة فقيرة، ولكنه كان شخصًا ذكيًّا واستطاع أن يستغل ذكاءه هذا جيدًا، فأوصلته المنح العلمية والدراسية إلى ما تمناه؛ جراح مخ وأعصاب متزوج من فتاة تنحدر من أسرة عريقة ولديه خمسة أطفال، وأمامه

مستقبل واعد ومنصب مرموق، قال ذلك بنفسه. «وماذا يعني أن تكون شابًّا فقيرًا في أمريكا؟»

– قضى والدي حياته في بيع الجوارب الحريمي ولا يزال يعمل بهذه المهنة، أنا لا أعني أنه حدث أن مات شخص من الجوع، ولكنني أراهن بعمري على أن عائلتنا ليس بها جراح مخ وأعصاب واحد سواي.

كانت لهجة التفاخر التي يتحدث بها بسيطة جدًّا وتلقائية حتى إنها لم تشعر فيها بأي تعالٍ. بدأت حيويته تسري في جسد إيلا، حتى أنستها التعب والإرهاق. عندما طلب منها أن تحكي له عن حياتها عمدت إيلا إلى تأجيل رواية قصتها إذ أدركت أن ذلك سيكون بمنزلة مهمة شاقة جدًّا، فقد خطر لها أن حياتها لا يمكن أن تصفها مجموعة من الجمل المتتابعة: كان أبواي يعملان في كذا وكذا، وعشت في مناطق كذا وكذا وأنا أعمل في كذا وكذا، ولكن هناك سبب آخر؛ إنها أدركت أن ذلك الرجل جذبها، وضايقها ذلك كثيرًا. حينما لامست يده ذراعها شعرت بقشعريرة في جسدها. ولكنهما مختلفان تمامًا ولا يوجد أي شيء مشترك بينهما. إنها لا تتذكر أنها شعرت ولو حتى لمرة واحدة بالانجذاب تجاه رجل إلا رجل يشبهها إلى حد ما، نظرة أو ابتسامة أو نبرة صوت أو ضحكة، هذا هو ما يلفت انتباهها تجاه شخص ما. أما ما يلفت انتباهها تجاه هذا الشخص فتلك القوة البادية عليه. إن إدراكها لتلك الرغبة التي تجيش بداخلها في أن تستلقِي معه في فراش واحد قسمتها نصفين، أشعرتها بالضيق والحنق اللذين يسيطران عليها حينما كان زوجها يحاول أن يثيرها حسيًّا على نحو يجرح مشاعرها كثيرًا، والنتيجة النهائية هي الفتور. من السهل جدًّا أن أصبح امرأة باردة، هكذا حدثتها نفسها، ولكن سخرية هذا الموقف أثارت دهشتها: إنها تجلس هنا تجيش داخلها رغبة قوية تجاه ذلك الرجل، ومع ذلك تفترض أننها امرأة باردة ويثير هذا الافتراض قلقها. ضحكت إيلا فسألها الرجل: «ماذا يضحككِ؟» كانت هذه هي الإجابة التي خطرت على بالها، فقال في لهجة مرحة: «حسنًا، أنت أيضًا تظنين أنني رجل بسيط وساذج، هذا لا يضايقني. لديَّ اقتراح، لديَّ عشرون مكالمة تقريبًا يجب أن أجريها، وأود أن أجريها من الفندق الذي أنزل به، لم لا تعودين معي لنحتسي الشراب معًا ثم تحدثيني عن نفسكِ بعد أن أفرغ من هذه المكالمات.» وافقت إيلا على دعوته وتساءلت هل فسر ذلك على أنها مستعدة لأن تضاجعه، ولكن إذا كان هذا هو ما فهمه، فلِمَ لمْ يبدِ أي أمارة تدل على ذلك؟ أدهشها كثيرًا أنه مع كل الرجال الذين قابلتهم طوال حياتها، كانت تستطيع أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تتعرف على المشاعر والأفكار التي تتحرك داخلهم من نظرة أو إيماءة أو عبر الجو المحيط بهم، ولذلك لم تكن الكلمات التي يتفوهون بها تضيف إلى معلوماتها شيئًا جديدًا لا تعرفه عنهم، لكن الوضع يختلف تمامًا مع ذلك الرجل، فهي لا تعرف عنه أي شيء على الإطلاق. إنها لم تعرف أنه متزوج إلا حينما أخبرها، وعلى عكس ما حدث مع روبرت بران، لا تعرف ماذا يمكن أن يكون موقفه تجاه الخيانة الزوجية. ولأنها لا تعرف أي شيء عنه فهو إذن لا يعرف أي شيء عنها، إنه لا يعرف على سبيل المثال أن هناك رغبة جارفة تتحرك بداخلها الآن، ولذا وافقت إيلا على أن تذهب معه إلى الفندق.

تحتوي غرفته الموجودة بأحد الفنادق الفاخرة على غرفة للجلوس وحمام ومكان للنوم، وغرف النزلاء تقع في قلب المبنى، وزودت بنظام لتكييف الهواء وبقطع أثاث منمقة، ولكنها خلت من أي نافذة مما يبعث في النفس شعورًا بالانقباض والخوف أيضًا بوصفها أماكن مغلقة تمامًا. شعرت إيلا أنها مثل عصفور محبوس داخل قفص، ولكنه يتصرف في اطمئنان وكأنه في منزله. قدم لها كأسًا من الويسكي ثم أحضر الهاتف وأجرى فعلًا نحو عشرين مكالمة مثلما قال لها استغرقت نصف ساعة تقريبًا جلست إيلا خلالها تستمع إليه فعرفت أن لديه عشرة مواعيد غدًا على الأقل منها أربع زيارات إلى مستشفيات مشهورة بلندن. عندما انتهى من إجراء مكالماته أخذ يقطع الغرفة الصغيرة ذهابًا وإيابًا: «رباه! أنا في خير حال اليوم.» هكذا صاح بصوت عالٍ. «إذا لم أكن هنا الآن، ماذا كنت ستفعل؟»

– كنت سأنجز عملي.

على الطاولة الصغيرة الموجودة بجانب فراشه كومة كبيرة من المجلات الطبية، سألته: «كنت ستقرأ؟»

– نعم، على المرء أن يقرأ الكثير حتى يتسنى له متابعة ما هو جديد.

– هل تقرأ أي شيء آخر في غير مجال عملك؟

– لا.

أطلق ضحكة ثم قال مستطردًا: «إن زوجتي هي التي تهتم بالثقافة، أما أنا فليس لديَّ وقت.»

– حدثني عنها.

أخرج لها على الفور صورة فوتوغرافية تظهر بها سيدة شقراء جميلة ذات وجه طفولي بريء محاطة بخمسة أطفال صغار. «يا إلهي! أليست جميلة، إنها أجمل فتاة في المدينة كلها!»

– ألهذا تزوجتها؟

– نعم، بالطبع ....

وقال وهو يهز رأسه وكأنه يعجب من ذاته: «بالطبع! قلت لنفسي إنني سأتزوج أجمل فتاة في المدينة وقد فعلت، بلهذا هو ما فعلته تحديدًا.»

– هل أنت سعيد؟

أجابها على الفور بلهجة تفيض حماسًا: «إنها امرأة عظيمة.» ثم استطرد: «إنها لطيفة وأنا لديَّ خمسة أولاد ممتازون، كنت أتمنى أن أنجب طفلة ولكن أولادي ممتازون، وأتمنى أن يكون لدي وقت أطول لأقضيه معهم، ولكن حينما يتسنى لي ذلك أشعر أنني في أحسن حال.»

قالت إيلا في نفسها: إذا نهضت الآن وقلت إنني يجب أن أذهب، لن يتضايق على الإطلاق، بل سيوافق في لطف. ربما أراه مرة أخرى وربما لا، لن يهتم أي منا بهذا الأمر، ولكن عليَّ أن آخذ المبادرة وأدير الموقف الآن لأنه لا يعلم ماذا يفعل معي. عليَّ أن أذهب ... ولكن لماذا؟ قررت بالأمس فقط أنه من السخف أن تتحرك بداخل أمثالي من النساء مشاعر لا تتناسب مع ظروف حياتنا، وأي رجل في هذا الموقف، «أقصد الرجل الذي كنت سأكونه لو كنت ولدت رجلًا»، كان سيدخل إلى الفراش دون أن يفكر في هذا الأمر مرة أخرى. كان سي يحدثها: «والآن يا إيلا، كنت أتحدث طوال الوقت عن نفسي وأنتِ مستمعة جيدة للغاية، ولكنكِ لم تذكري شيئًا واحدًا عن نفسكِ.»

الآن، هكذا حدثتها نفسها. الآن.

ولكنها حاولت أن تكسب بعض الوقت قبل أن تحسم أمرها: «هل تعلم أن الساعة جاوزت الثانية عشرة؟»

– أحقًّا ذلك، ياللحظ. أنا لا أنام قبل الساعة الثالثة أو الرابعة وأستيقظ في السابعة صباحًا كل يوم.

الآن، هكذا تحدثها نفسها مرة أخرى. خطر لها أنه من السخف أن يكون الأمر في مثل هذه الصعوبة. إن تفوهها بما فكرت فيه الآن يتعارض مع كل جزء من فطرتها الداخلية، وقد أدهشها للغاية أن تخرج منها الكلمات في تلقائية وهي تحبس أنفاسها إلى حد ما وليس إلى حد بعيد: «هل تود أن ندخل معًا إلى الفراش؟»

نظر إليها وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، لم يكن مندهشًا، ولكن بدا عليه الاهتمام بما قالته. نعم، إنه يبدو مهتمًّا بالأمر، هكذا حدثتها نفسها. هذا جيد،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعجبها تصرفه. فجأة ألقى برأسه الكبيرة إلى الوراء وهتف: «يا إلهي، أتسألينني إن كنت أود ذلك؟ نعم بالطبع يا إيلا، لو لم تقولي ما قلتِه ما عرفتُ كيف يمكن أن أقوله.»

قالت إيلا وعلى وجهها ابتسامة خجولة: «ولكنني أعرف.» (كان بإمكانها أن تستشعر تلك الابتسامة الخجولة وتعجبت منها.) قالت إيلا: «حسنًا، أحسب أنك يجب أن تهدئ من لوعتي.» تكلمت في لهجة يشوبها الخجل.

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، كان واقفًا أمامها في الجانب المقابل من الحجرة، ورأته رجلًا نابضًا بالقوة والحيوية والدفء، حركت هذه المشاعر بداخلها الآمال العريضة. (في تلك اللحظة انفصلت إيلا عن نفسها وانسلخت منها إيلا أخرى تقف في أحد أركان الغرفة تشاهد وتتعجب.)

نهضت من مقعدها وهي تبتسم وتعمدت أن تخلع ملابسها، فابتسم سي وخلع سترته وقميصه.

(حينما رأتهما إيلا الأخرى الواقفة في ركن الغرفة بالفراش معًا ارتسمت على وجهها ملامح السخرية.) على الفور بدأ في مباشرتها وما هي إلا لحظات قليلة حتى انتهى وهو يشعر بالراحة، ولكنها لم تشعر بالارتياح أو النشوة.

(في تلك اللحظة عادت إيلا إلى نفسها، شخصًا واحدًا، وفكرًا واحدًا.)

كانت تستلقي بجانبه وهي تبتسم محاولة أن تخفي خيبة أملها. قال بنبرة يملؤها الارتياح والرضا: «رباه!» أحاطته بذراعيها، ثم بدأ يتحدث عن زوجته، يبدو أن هذا هو ما خطر له بالصدفة في تلك اللحظة: «هل تعرفين؟ نحن نذهب إلى النادي مرتين أو ثلاثة في الأسبوع لنرقص، إنه أفضل نادٍ بالمدينة. كل الرجال ينظرون إليَّ ويفكرون في أنني شخص محظوظ للغاية، إنها لا تزال أجمل امرأة هناك حتى بعد أن أنجبت خمسة أطفال. وهم يظنون أننا نقضي وقتًا رائعًا معًا. في بعض الأحيان أتساءل هل يجدر بي أن أخبرهم ... نحن لدينا خمسة أطفال، وقد فعلنا ذلك خمس مرات منذ أن تزوجنا، ربما أبدو مبالغًا، ولكن هذا هو ما حدث. إنها لا تهتم بهذا الأمر، على الرغم من أنها تبدو مهتمة.»

سألته إيلا في لهجة خجولة: «ما المشكلة؟»

– لا أعرف، كنا نلتقي قبل أن نتزوج، كانت امرأة مثيرة للغاية حينذاك.

– كم من الوقت ظللتما تتقابلان؟

– ثلاث سنوات، ثم استمرت خطبتنا بعد ذلك لأربع سنوات.

– ولمْ تباشرها قط؟!

– أجامعها؟! لا، لم تكن لتسمح لي، ولم أرغب في أن تسمح لي بذلك، فعلنا كل شيء ماعدا ذلك. كانت مثيرة جدًّا آنذاك، آه كلما أتذكر! ولكنها أصبحت باردة للغاية ونحن في شهر العسل، والآن لا أقترب منها أبدًا إلا إن كنا ثملين بعد عودتنا من إحدى الحفلات.

أطلق ضحكته المعهودة المفعمة بالحيوية وقال: «وحينما نذهب إلى إحدى حفلات الرقص ترتدي ملابس غاية في الروعة والإثارة وكل الرجال ينظرون إليها وعيونهم تمتلئ حقدًا عليَّ وأنا أقول في نفسي: آه لو كانوا يعرفون.»

– وهل يضايقك ذلك؟

– بالطبع يضايقني، ولكنني لن أفرض نفسي على أحد، وهذا ما أعجبني بشأنكِ، هيا نذهب إلى الفراش، هكذا قلتِ، وأنا لا مانع لديَّ. أنا معجب بكِ.

ابتسمت وهي تستلقي بجانبه، كان رجلًا يتمتع بصحة وقوة وافرة.

– هل تقضي وقتك مع أخريات؟

– في بعض الأحيان، حينما تسنح الفرصة. أنا لا أطارد أحدًا، ليس لدي الوقت.

– مشغول بالوصول إلى ما تنشده؟

– نعم هذا صحيح.

شعرت إيلا أنه في حاجة إلى بعض المداعبة، ففعلت. اندهش هو من استعدادها لأن تقوم بذلك، فزوجته لا تداعبه أبدًا وهو يظن أن النساء لا يفضلن أن يداعبن الرجال، واندهشت حينما غمرته النشوة لأنها لم تظن أنها كامرأة يمكن أن «تحقق مثل هذا الشعور لأي رجل»، حينما كانت برفقة بول كانت تدخل فقط إلى الغرفة المظلمة وتتوقف عن التفكير. ولكنها لم تشعر بتلك النشوة التي كانت تشعر بها حينما يضاجعها بول، أدركت إيلا أنها لن تشعر أبدًا بالنشوة مع هذا الرجل فهي لا تحبه، ولكنها سعيدة بنفسها لأنها جعلته سعيدًا.

اتصلت بالهاتف لتطلب سيارة أجرة وهي ترتدي ملابسها لتعود إلى المنزل حينما قال: «أنا أتساءل كيف كان الوضع سيكون لو كنتِ زوجتي ... «غاية في الروعة».»

سألته إيلا في خجل: «كنت ستستمتع بذلك؟»

– كنت سأصبح ... رجلًا، يمكن لامرأة أن تتكلم معه وتقضي معه وقتًا رائعًا في الفراش، أنا لا أستطيع حتى أن أتصور ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ألا تتحدث مع زوجتك؟

– إنها امرأة لطيفة، أنا أقدرها جدًّا وأهتم بها كثيرًا هي والأولاد.

تحدث في لهجة جادة.

– وهل هي سعيدة؟

أدهشه السؤال كثيرًا حتى إنه نهض مستندًا على مرفقه ليفكر فيه ... قطب جبينه وارتسمت على وجهه ملامح الجدية. قال سي بعد أن فكر جيدًا في السؤال: «لديها أفضل منزل في المدينة، كل طلباتها الخاصة بالمنزل تُجاب، ولديها خمسة أولاد، أعرف أنها تود أن تنجب طفلة، ولكن ربما في المرة القادمة ... إنها تقضي وقتًا رائعًا معي، نذهب إلى حفلات الرقص مرة أو اثنتين كل أسبوع وتكون المرأة الأكثر أناقة في أي مكان نذهب إليه دائمًا، ولديها أنا، وأنا أقول لكِ يا إيلا، ولا أعني أن أتفاخر، فأنا أستطيع أن أرى ذلك من ابتسامتكِ حينما أقوله، أقول لك إنني رجل يعمل من أجل إسعاد من حوله.»

تناول صورة زوجته من فوق الطاولة الموجودة بجانب الفراش وقال: «هل تبدو مثل امرأة تعيسة؟» نظرت إيلا إلى الوجه الصغير الجميل وقالت: «لا، لا تبدو كذلك.» ثم استطردت: «أنا لا أرى زوجتك سوى حشرة.»

– نعم، معكِ حق، لن تستطيعي أن تفهمي أكثر من ذلك فيما يخص هذا الأمر.

التاكسي ينتظرها بالأسفل، قبلته وقبل أن تنصرف قال لها: «سوف أتصل بكِ غدًا، بل أود أن أقابلكِ.»

قضت إيلا المساء معه في اليوم التالي، لأنها شعرت بالإعجاب نحوه، وشعرت أنها ستجرحه إذا رفضت أن تراه.

تناولا العشاء معًا في المطعم نفسه. («هذا هو مطعمنا المفضل يا إيلا» قالها بلهجة عاطفية جدًّا كأنه يقول: «هذه هي المقطوعة التي نحبها يا إيلا.»

حدثها عن عمله.

– وماذا بعد أن تجتاز كل الاختبارات التي تود أن تجتازها وتحضر كل المؤتمرات التي تود أن تحضرها؟

– سوف أحاول أن أنضم إلى مجلس الشيوخ وأصبح عضوًا فيه.

– ولمَ لا تصبح رئيسًا للجمهورية؟

أطلق سي كعادته ضحكة مثل ضحكتها ساخرًا وإياها من نفسه دون أن يجد في ذلك أي غضاضة: «لا، لا أود أن أصبح رئيسًا للجمهورية ولكن أود أن أصبح

عضوًا في مجلس الشيوخ ... نعم، دعيني أخبركِ بشيء يا إيلا، إذا نظرتِ إلى اسمي في عالم الطب فستجدين أنه في غضون خمسة عشر عامًا سيصبح الاسم الأول في تخصصي. فعلت كل شيء قلت إنني سأفعله حتى الآن، أليس كذلك؟ ولذلك أعرف ماذا سأصبح في المستقبل، عضو مجلس الشيوخ سي ماتلاند عن ولاية وايومنج، أتراهنني على ذلك؟»

– أنا لا أراهن ملطقًا على أي شيء، فأنا أعرف أنني سأخسر الرهان.

غدًا سيرحل سي إلى الولايات المتحدة مرة أخرى، أجرى مقابلات مع أكثر من عشرة أطباء متميزين في تخصصه، وزار أكثر من عشر مستشفيات، وحضر أربعة مؤتمرات، أنهى ما كان يريد أن يقوم به في إنجلترا.

قال سي: «أود أن أذهب إلى روسيا، ولكن ليس بإمكاني الذهاب الآن في ظل هذه الأوضاع.»

– أتعني مكارثي؟

– هل سمعتم عنه؟

– نعم، سمعنا عنه.

– هؤلاء الروس، إنهم متقدمون جدًّا في تخصصي، قرأت لهم، ولا أمانع في زيارة روسيا ولكن ليس في ظل الأوضاع الحالية.

– عندما تصبح عضوًا في مجلس الشيوخ، ماذا سيكون موقفك من مكارثي؟

– موقفي؟ أنتِ تسخرين مني مرة أخرى؟

– لا، على الإطلاق.

– موقفي؟ إنه على حق، لا يمكن أن ندع أصحاب العلم الأحمر يتولون زمام الأمور.

ترددت إيلا ثم قالت في لهجة خجولة: «المرأة التي أسكن معها بالمنزل تنتمي إلى الحزب الشيوعي.» شعرت إيلا بانقباض في ملامحه، وبدا أنه منهمكًا في التفكير ثم عاد الانبساط والطلاقة إلى ملامح وجهه وقال: «أنا أعرف أن الأوضاع هنا مختلفة، وأنا لا أستطيع أن أتفهم تلك الأوضاع، ولا يضايقني أن أصرح لكِ بذلك.»

– حسنًا، لا يهم ذلك.

تحدثا عن عمله، إنه متخصص في جراحات الفص الأمامي من المخ: «شققت بالفعل مئات من الأمخاخ إلى نصفين.»

– ألا يزعجك ذلك، أعني ما تقوم به؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولمَ يزعجني؟

– ولكنك تعلم أن إجراءك مثل هذه العمليات خطوة حاسمة لا رجوع فيها، لن يعود الأشخاص الذين يخضعون لتلك الجراحات كما كانوا أبدًا؟

قال سي: «ولكن هذا هو الهدف المنشود، فمعظمهم لا يريدون العودة إلى ما كان عليه.» ثم استطرد بتلك النبرة المنصفة المعتادة منه: «ولكن يجب أن أعترف أن الأمر يستوقفني أحيانًا حينما أفكر في أنني أجريت مئات الجراحات وأن هذه الجراحات حسمت الأمر لأصحابها.»

– إن الروس لن يستحسنوا أبدًا ما تقوم به.

– أنا أعرف، ولذلك لا أمانع من القيام بزيارة إلى روسيا لكي أعرف ما الحل البديل الذي يلجئون إليه.

– أخبرني كيف علمت بشأن جراحات الفص الأمامي من المخ؟

– كنت على علاقة بطبيب نفسي، كان طبيب أعصاب أيضًا ولكنه لم يكن متخصصًا في جراحات المخ، قال لي إنه لا يؤيد أبدًا جراحات الفص الأمامي إلا في حالات نادرة للغاية.

باغتها بقوله: «منذ أن أخبرتكِ بأنني متخصص في هذا النوع من الجراحات وإعجابكِ بي ليس بالقدر نفسه الذي كان عليه.»

صمتت إيلا لبرهة ثم قالت: «لا ولكن الأمر ليس بيدي.»

ضحك سي وقال: «حسنًا وليس بيدي أنا أيضًا.»

سألها: «قلتِ إنكِ كنتِ على علاقة بهذا الرجل، هل كانت علاقة عابرة مثل تلك العلاقة؟»

كانت إيلا تفكر حينما استخدمت تلك الكلمة في أنها تعني تمامًا ما كان بول يعنيه حينما يذكر شيئًا عن «نزوة طائشة» أو غيرها من تلك الكلمات التي كان يستخدمها ليعبر بها عن المعنى نفسه. قفزت إلى ذهنها فكرة دون أن تشعر: رائع! إنه يقول إنني من فتيات العلاقات العابرة وأنا سعيدة لأنه قال ذلك.

انشغلت إيلا بتلك الفكرة وسألها سي: «هل كنتِ تحبينه؟»

إنها أول مرة تُذكر فيها كلمة الحب، فسي لم يستخدم تلك الكلمة حينما كان يحكي عن زوجته.

قالت إيلا: «للغاية.»

– لم تكوني تريدين أن تتزوجي؟

قالت إيلا بلهجتها الخجولة: «لا يوجد امرأة لا تريد أن تتزوج.»

أطلق ضحكة عالية ثم استدار إليها وبعينيه نظرة ثاقبة: «أنا لا أفهمكِ يا إيلا، لا أفهمكِ على الإطلاق، ولكنني أستطيع أن أدرك أنكِ امرأة ذات شخصية مستقلة.»

– نعم، أنا أظن أنني كذلك.

أحاطها بذراعيه وقال: «علمتني الكثير من الأشياء يا إيلا.»

– أنا سعيدة بذلك، أتمنى أن تكون أشياء طيبة.

– نعم، كانت طيبة للغاية.

– عظيم.

– أنتِ تسخرين مني؟

– قليلًا.

– حسنًا، إن ذلك لا يزعجني، أتعلمين يا إيلا ذكرت اسمكِ إلى أحد الأشخاص اليوم يقولون إنكِ ألفتِ رواية؟

– كل منا لديه كتابه.

– إن أخبرت زوجتي أنني التقيت فعلًا بإحدى الكاتبات فلن تصدق ذلك، فهي مهووسة بالثقافة وشئونها.

– ولكن ربما من الأفضل ألا تخبرها.

– ماذا لو قرأت روايتك؟

– ولكنك لا تقرأ كتبًا.

رد عليها سي في لهجة مرحة: «بإمكاني أن أقرأ، عن ماذا تدور روايتك؟»

– لنقل إنها مليئة بالأحداث التي تعكس حدة البصيرة والنزاهة والكثير من الأشياء الأخرى.

– أنتِ تظنين أنني غير جاد في نيتي.

– لا بالطبع أظن أنك جاد في نيتك.

– حسنًا، أنتِ لن ترحلي، أليس كذلك؟

– بل عليّ أن أرحل فابني سيستيقظ بعد أربع ساعات، وأنا على عكسك أحتاج إلى النوم.

– حسنًا، أنا لن أنساكِ يا إيلا، ولا أعرف كيف كان الأمر سيكون لو كنتِ أنت زوجتي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا أظن أنك كنت ستحب ذلك كثيرًا.

ثم ودع أحدهما الآخر وداعًا عاطفيًّا.

واستقلت إيلا سيارة أجرة إلى منزلها، وصعدت السلم متسللة حتى لا تزعج جوليا، ولكن ينبعث ضوء من تحت عقب باب غرفتها وصاحت متسائلة في صوت عالٍ: «إيلا؟»

– نعم، هل كان مايكل ولدًا مطيعًا؟

– لم أسمع له صوتًا. كيف كانت ليلتكِ؟

أجابتها إيلا متعمدة: «مثيرة.»

– مثيرة؟

دلفت إيلا إلى داخل الغرفة فوجدت جوليا تستلقي متكئة على الوسائد تقرأ وتدخن سيجارًا. نظرت إليها جوليا متفحصة وبدا عليها أنها تفكر في شيء ما.

قالت إيلا: «كان رجلًا لطيفًا للغاية.»

– عظيم.

– ولكنني أعرف أنني سأصاب باكتئاب شديد في الصباح، إنني أشعر فعلًا ببوادر هذه الحالة.

– لأنه سيعود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة؟

– لا.

– تبدين في حالة سيئة للغاية، ماذا حدث؟ ألم يستطع أن يشبع رغبتكِ؟

– نعم، إلى حد ما.

قالت جوليا بنبرة عطوفة: «أترغبين في سيجارة؟»

– لا، سوف أخلد إلى النوم قبل أن تجتاحني تلك الموجة الاكتئابية.

– اجتاحتكِ بالفعل، لماذا تذهبين إلى الفراش مع رجل لا يجذبك إليه؟

– أنا لم أقل إنه لم يجذبني إليه، ولكن الفكرة هي أنه لا فائدة لي في مضاجعة أي رجل آخر غير بول.

– سوف تتغلبين على هذا الأمر.

– نعم بالطبع، ولكن ذلك يحتاج إلى الكثير من الوقت.

– يجب أن تثابري.

– أنا أعتزم ذلك.

ودعتها إيلا متمنية لها ليلة سعيدة وصعدت إلى غرفتها بأعلى.

[بقية الحكاية: الدفتر الأزرق]

١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٥٤

في الليلة الماضية قال لي مايكل (لم أره منذ أسبوع): «إذن فحبنا العظيم في طريقه إلى النهاية يا آنا؟» وكعادته يصوغ مايكل أقواله في قالب استفهامي، إنه هو من ينهي هذا الحب ويتحدث كأنما أنا من فعلت ذلك. قلت له بابتسامة مرتسمة على وجهي وفي لهجة تهكمية لم أستطع أن أخفيها: «ولكنه كان على الأقل حبًّا عظيمًا؟» أجابني: «آهٍ يا آنا، أنتِ دائمًا تختلقين قصصًا عن هذه الحياة وترويها لنفسكِ وأنتِ لا تعلمين ما الحقيقي منها وما المزيف؟»

– إذن فحبنا لم يكن عظيمًا؟

خرجت مني تلك الكلمات وأنا أحبس أنفاسي، وامتلأت لهجتي بالرجاء مع أنني لم أقصد ذلك. تملكتني الدهشة وشعرت بالبرودة تسري في جسدي حينما خرجت تلك الكلمات من بين شفتيه كأنه ينكر وجودي وكياني، قال في لهجة غامضة: «إذا قلتِ إنه كان عظيمًا فهو كذلك، وإذا قلتِ إنه لم يكن فهو كذلك.»

– أليس لمشاعرك قيمة؟!»

– أنا؟ ولكن يا آنا منذ متى ومشاعري ذات قيمة؟!

امتلأت لهجته بالمرارة والسخرية، وبالعاطفة في الوقت نفسه. فيما بعد ظللت أصارع إحساسًا يتملكني دائمًا بعد مثل هذه الحوارات؛ إحساس بأنني وهم وزيف كأن نفسي تتفكك وتذوب، ثم خطر لي أنه من سخرية الموقف أن يكون عليَّ أن ألجأ إلى آنا التي يكرهها مايكل حتى أستعيد نفسي، آنا المفكرة صاحبة النظرة التحليلية. حسنًا، هو يقول إنني أختلق القصص حول حياتنا معًا، يجب أن أدون كل مرحلة من مراحل اليوم، ملتزمة بالواقع قدر ما أستطيع. غدًا عندما تحل نهاية اليوم سأمسك بقلمي وأكتب.

١٧ سبتمبر/أيلول ١٩٥٤

لم أستطع أن أكتب في الليلة الماضية لأنني كنت تعيسة للغاية، وأنا أتساءل الآن بالطبع هل غَيَّرَ من يومي اختياري بأن أكون واعية ومنتبهة للغاية لكل شيء حدث بالأمس؟ هل صنعت منه يومًا خاصًّا فقط لأنني كنت واعية ومنتبهة إلى ما مر فيه؟ يتحتم أن أدون ما حدث وأرى كيف سيبدو ذلك اليوم: استيقظت مبكرًا في الخامسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقريبًا، كنت متوترة لأنني ظننت أنني سمعت صوت جانيت عبر الجدار وهي تتحرك في غرفتها، لا بد أنها كانت تتحرك في الغرفة ثم نامت. تناثرت قطرات الماء على لوح النافذة الزجاجي التي انعكس عليها الضوء الرمادي، وبدت قطع الأثاث ضخمة في ذلك الضوء الخافت، كنت أستلقي أنا ومايكل في مواجهة النافذة، أحيطه بذارعيّ، اندفعت نحوي شحنات من الدفء الذي يشع من جسده، فتملكني الارتياح، قلت في نفسي: قريبًا جدًّا سيرحل مايكل ولن يعود، ربما أتمكن من معرفة آخر ليلة سنقضيها معًا، وربما لا، ربما تكون هذه هي آخر ليلة، ولكن من المستحيل أن أجمع بين هذين الإحساسين كليهما: إحساسي بمايكل وهو نائم بين ذراعيّ وجسده يشع دفئًا، وإحساسي بأنه سيرحل قريبًا ولن يعود أبدًا. فزع مايكل من نومه وحينما شعر بأنني مستيقظة قال في لهجة حادة: «آنا، ماذا هناك؟» كان يحلم، كان صوته مذعورًا وغاضبًا. استلقى على ظهره وراح في النوم مرة أخرى. نظرت إلى وجهه فرأيت الحلم منعكسًا على عضلاته المنقبضة. ذات مرة قال لي بعد أن فزع مستيقظًا من حلم يراوده: «عزيزتي آنا، إذا كنتِ مصممة على النوم بجانب رجل يحمل على عاتقه تاريخ أوروبا في العشرين عامًا الماضية، عليكِ أن تتحملي أحلامه الليلية المزعجة.» كانت لهجته يشوبها الضيق؛ الضيق من أنني لست جزءًا من هذا التاريخ، ولكنني أعرف أن أحد أسباب وجوده معي هو أنني لست جزءًا من هذا التاريخ، ولأنني لست جزءًا من هذا التاريخ لم ينكسر شيء بداخلي. في الصباح نظرت مرة أخرى إلى الوجه المنقبض المستغرق في النوم وحاولت أن أتخيل ما حدث له على أنه جزء من تجربتي، ماذا سيعني ذلك لي: «سبعة من أفراد عائلتي، من بينهم والدي ووالدتي، قُتلوا في أفران الغاز، ومعظم أصدقائي المقربين ماتوا في عمليات اغتيال الشيوعيين للشيوعيين، والناجون منهم يعيشون في دول غريبة كلاجئين، وأنا سأعيش بقية عمري في دولة لا يمكن أن تصبح وطنًا حقيقيًّا لي.» لكنني لم أفلح كعادتي في أن أتخيل تلك التجربة. كان الضوء بالخارج قاتمًا بسبب الأمطار. انبسطت عضلات وجه مايكل وبدا على ملامحه السكون والاسترخاء والطمأنينة، الهدوء يلف جفنيه المرتخيين ومن فوقهما حاجباه الخفيفان اللذان لمع بريقهما، بإمكاني أن أتخيله وهو طفل يشعر بالأمان ويملئوه الزهو وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة صافية مفعمة بالحيوية. وبإمكاني أن أتخيله وهو شيخ كبير: سوف يكون رجلًا ذكيًّا حاد المزاج ممتلئًا بالطاقة، يعيش حبيس مرارة الوحدة الفكرية. يملؤني ذلك الإحساس الذي ربما ينتاب المرء، أو بالأخص ينتاب المرأة عند ولادة طفل صغير، ذلك الشعور

القوي بالانتصار، الإحساس بأنه بالرغم من كل المخاطر وبالرغم من أن الموت هو النهاية المحتومة لكل إنسان، هناك طفل صغير ولد، ككتلة حية تجسد من خلالها الإعجاز. عززت هذا الإحساس بداخلي وقويته حتى يقف في وجه الإحساس الآخر بأن مايكل سيرحل قريبًا ولن يعود. لا بد أنه شعر بما يتحرك داخلي وهو نائم، فقد استدار وقال: «فلتنامي يا آنا.» ثم ابتسم وأغلق عينيه، كانت ابتسامته دافئة ومفعمة بالمشاعر، تطل من عالم آخر غير ذلك العالم الذي كان يقف فيه حينما سألني: منذ متى ومشاعري تكون ذات قيمة؟! شعرت بأنه لا يمكن أن يتركني، لا يمكن أن يبتسم لي هكذا وهو ينوي أن يتركني. استلقيت بجانبه على ظهري، وحرصت على ألا أخلد إلى النوم، فجانيت سوف تستيقظ بعد قليل. تسللت إلى الغرفة خيوط رفيعة من الضوء الرمادي تتحرك مع الأمطار المتدفقة التي تصطدم بألواح النافذة الزجاجية. الألواح تهتز قليلًا، في الليالي العاصفة تنقر قطرات المطر عليها نقرًا حادًا وتهزها الرياح، ولكنني لا أستيقظ، ومع ذلك أفيق من نومي إذا تحركت جانيت في فراشها.

لا بد أنها الآن السادسة صباحًا، أشعر بتقلص في عضلات ركبتيّ، فأدرك أن أعراض ذلك المرض الذي كنت أذكره للأم شوجر على أنه «داء ربات البيوت» انتابتني. ذهبت حالة الهدوء والاسترخاء وحل محلها توتر مبعثه تلك الدورة اليومية التي أوشكت على البدء: عليَّ أن أساعد جانيت في ارتداء ملابسها–وأحضر لها الإفطار–وأرسلها إلى المدرسة–ثم أجهز إفطار مايكل–ولا أنسى أنني لن أحتسي الشاي ... إلخ إلخ إلخ، ومع بدء موجة التوتر الذي لا يوجد مبرر له ولكن لا يمكن تجنبه، تبدأ موجة من الضيق تتحرك بداخلي، ولكن الضيق من ماذا؟ من «اللاعدالة»، من كوني مضطرة أن أقضي معظم وقتي وأنا قلقة بشأن هذه التفاصيل، يتركز ضيقي نحو مايكل، مع أنني أعرف بفطنتي أنه لا علاقة له بشيء، ومع ذلك أشعر بالضيق منه لأنه سيقضي يومه محاطًا بموظفات السكرتارية والممرضات وغيرهن من النساء — أيًّا كانت وظائفهن — اللاتي يحملنه على أكفّ الراحة متحملين هذا العبء بدلًا منه، أحاول أن أسترخي وأطرد هذه الدورة اليومية من رأسي، ولكن أطرافي بدأت تؤلمني ويجب أن أستدير على أحد جانبيّ، هناك حركة أخرى من وراء الجدار ... إن جانيت تستيقظ. في الوقت نفسه أشعر بمايكل وهو يتقلب في الفراش من خلفي، فيبدأ شعوري بالضيق في الالتفاف حول هذا السبب: إنه بالطبع اختار ذلك الوقت لكي يتقلب في الفراش محدثًا تلك الضجة في حين أشعر بالتوتر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأحاول أن أستمع إلى صوت جانيت. ولكن غضبي لم يكن له أي علاقة بمايكل. منذ زمن طويل – أثناء جلساتي مع الأم شوجر – تعلمت أن الضيق والغضب من المشاعر التي لا علاقة لها بالأشخاص، إنهما يمثلان مرض النساء في العصر الحالي، بإمكاني أن أراه كل يوم في وجوه النساء ونبرة أصواتهن، أو في الخطابات التي تصل إلى المكتب، إنها العاطفة التي تجيش بها نفوس النساء؛ الضيق والسخط من غياب العدالة، ذلك السم المجرد الذي يسري في النفوس. النساء اللاتي لم يحالفهن الحظ ويدركن أن هذا الضيق مجرد ولا يرتبط بأي شخص، أما المحظوظات أمثالي فيقاومنه، ولكن المقاومة تكون صعبة. يحيطني مايكل بذراعه في قوة وهو نصف نائم ليقربني منه وأنا مديرة ظهري إليه، إنه لا يعير شخصي اهتمامًا وهو يلف ذراعه حولي، ولذلك لا أستجيب له مثلما أفعل حينما يوجه حبه ومشاعره إلى آنا، بالإضافة إلى أن نصف عقلي مع جانيت، فقد كنت أفكر كيف أنهض وأذهب إلى باب الغرفة إذا سمعت وقع قدمي جانيت الصغيرتين بالخارج لكي لا أدعها تدخل، إنها لا تأتي إليَّ بالداخل قبل السابعة، هذه هي القاعدة، وأنا لا أتوقع أن تدخل الغرفة، ولكن عليَّ أن أكون منتبهة. بينما كان مايكل يحيطني بذراعه ممسكًا بي إذ استمرت الأصوات الآتية من الغرفة المجاورة، أعرف أنه هو الآخر يسمع تلك الأصوات، ولكن ذلك كان جزءًا من متعته؛ أن يفتح الباب وتدخل جانيت علينا الغرفة ونحن نائمان، فقد كان يرى في جانيت، الفتاة ذات السنوات الثمانية، من ناحية النساء اللاتي يخونهن بوجوده معي في فراش واحد، ومن ناحية أخرى يرى فيها ذلك الطفل، ذلك الكيان الصغير، الذي يقف مايكل في وجهه مؤكدًا حقوقه في أن يحيا. إنه لا يتحدث مطلقًا عن أبنائهدون تلك الابتسامة التي تمتزج بها العاطفة بالشعور العدائي، فأبناؤه هم ورثته وقاتلوه، وهو لن يسمح لطفلتي، القابعة خلف الجدار على بعد أمتار قليلة، أن تسلبه حريته. حينما ننتهي يقول لي: «والآن يا آنا، أظن أنكِ ستتركينني لكي تذهبي إلى جانيت؟» يتحدث وكأنه طفل صغير تهمله أمه وتتجاهله من أجل أن تذهب إلى أخيه أو أخته الأصغر منه، أضحك وأقبله رغم أن الشعور بالضيق يتعاظم بداخلي فجأة، لكنني غضبت غضبًا شديدًا، وكعادتي كبحت جماح هذا الغضب حينما فكرت في أنني لو كنت رجلًا فسأتصرف على النحو الذي أتصرف به الآن؛ كنت سأحاول أن أتحكم في نفسي. وفي صعوبة شديدة استطعت أن أتحكم في نفسي وأضبطها بوصفي أمًّا، حتى إنني لم أستطع أن أخدع نفسي وأظن أنني لو كنت رجلًا، غير مجبر على أن يتحكم في ذاته، فسأفعل شيئًا مختلفًا عما

يفعله الرجال. ومع ذلك في تلك الثواني القليلة التي استغرقتها وأنا أرتدي ملابسي حتى أذهب إلى جانيت كان الغضب يهيج بداخلي وكأنه سم يقطع أحشائي، اغتسلت سريعًا قبل أن أذهب إلى جانيت حتى لا تزعجها رائحة الفراش مع أنها لا تعلم ما تلك الرائحة. أنا أحب تلك الرائحة وأكره أن أغتسل بمثل هذه السرعة، ولكن كوني مضطرة لأن أفعل ذلك زاد من حدة اعتلال مزاجي (أتذكر أن كوني أراقب كل ردود أفعالي عن عمد بهذه الطريقة يزيد من حدتها، فهي في الحقيقة لن تكون بهذه القوة.) ولكنني حينما أدخل إلى غرفة جانيت وأغلق الباب ورائي وأجدها جالسة في فراشها وقد تشابكت خصلات شعرها الأسود وارتسمت ابتسامة على وجهها الصغير الشاحب (الذي يشبه وجهي)، يتلاشى ذلك الشعور بالضيق، كما تقتضي حالة ضبط النفس، ويتحول على الفور إلى عاطفة تجيش بداخلي. إنها الآن السادسة والنصف، الغرفة الصغيرة باردة جدًّا فقطرات المطر تصطدم أيضًا بلوح نافذتها الذي انعكس عليه الضوء الرمادي. أشعل مدفأة الغاز، في حين تجلس جانيت في فراشها محاطة بمجلاتها المصورة ذات الألوان الزاهية وهي ترقبني لترى هل أقوم بكل شيء كما هو معتاد، وتقرأ في الوقت نفسه. تجعلني العاطفة التي تتحرك بداخلي أتضاءل حتى أصبح في حجم طفلتي، أصبح جانيت، النار الصفراء العظيمة تبدو لي مثل عين كبيرة والنافذة تبدو ضخمة يمكن أن يدخل أي شيء من خلالها، مثل ضوء رمادي قاتم يسبق سطوع الشمس، أو شيطان أو ملاك يزيح المطر عن السماء، ثم أعود مرة أخرى إلى نفسي، أصبح آنا: أرى جانيت طفلة صغيرة تستلقي بفراش كبير، يمر قطار فتهتز الجدران قليلًا، أذهب إليها لأقبلها وأشتم رائحة جسدها الدافئ وشعرها ورداء النوم الذي تسلل دفء جسدها إليه أثناء الليل. تُدَفًّأ غرفتها وأذهب إلى المطبخ لأعد إفطارها: حبوب الإفطار والبيض المقلي والشاي، أضع الطعام على صينية ثم آخذها إلى غرفتها، تجلس جانيت في الفراش تتناول إفطارها وأشرب الشاي وأدخن سيجارًا. لم تدب الحياة في المنزل بعد، فمولي لن تستيقظ قبل ساعتين أو ثلاثة، وتومي أتى بالأمس في وقت متأخر بصحبة إحدى الفتيات وهما نائمان أيضًا. يترامى إلى سمعنا من خلال الجدار صوت طفل يبكي، يشعرني ذلك الصوت بالاستمرارية، بالاستقرار، فهذا الطفل يبكي مثلما كانت جانيت تبكي في يوم من الأيام، إن صوت بكائه هو ذلك الصوت الهانئ لطفل ناعس أكل وشبع ويوشك أن يغرق في النوم. تسأل جانيت سؤالها المعهود: «لماذا لا يكون لدينا طفل آخر؟» فأقول: «لأنني ليس لدي زوج وأنتِ لا بد أن يكون لديكِ زوج حتى تنجبي طفلًا.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنها تسأل هذا السؤال لأنها تتمنى أن أنجب طفلًا، ومن ناحية أخرى تطمئن نفسها حول حدود الدور الذي يقوم به مايكل. ثم تسأل جانيت: «هل مايكل هنا؟»

– نعم، وهو نائم.

هكذا أقول لها في لهجة قاطعة تشعرها بالاطمئنان فتعود وتكمل إفطارها. الآن أصبحت الغرفة دافئة، تنزل آنا من فراشها، تبدو ضعيفة وواهنة في رداء نومها الأبيض، تلف ذراعيها حول رقبتي وتتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف وهي تغني أغنية طفولية، أهزها وأنا أغني وألاطفها وكأنها طفل صغير، تتحول جانيت إلى ذلك الطفل الصغير الذي تسلل صوت بكائه إلينا، تصبح هي الطفل الذي لن أنجبه. ثم ترسلني جانيت فجأة، فيستقيم ظهري الذي كان منحنيًا مثل جزع شجرة انحنى إلى الأسفل تحت حمل وزن يعلق به. ترتدي جانيت ملابسها وهي تدندن ولا تزال ناعسة شيئًا ما، وتشعر بذلك السلام الذي يملأ نفسها، أظن أنها ستظل تحتفظ بهذا السلام لسنوات، حتى تحط ضغوط الحياة فوق كتفيها وحينها سيكون عليها أن تفكر. يجب أن أتذكر أنه في الساعة والنصف القادمة عليَّ أن أطهو البطاطس ثم أعد قائمة بالطلبات التي أحتاج لإحضارها من البقالة، ثم أغير ياقة فستاني ثم ... بداخلي رغبة قوية في أن أحميها من تلك الضغوط، أن أؤجلها، ثم تحادثني نفسي بأنه ليس هناك شيء يتحتم أن أحمي جانيت منه، إن هذه الرغبة التي بداخلي هي رغبة آنا في أن تحمي آنا. ترتدي جانيت ملابسها في بطء وهي تثرثر وتدندن، وتجر قدميها مثل نحلة كسولة تطير في بطء تحت أشعة الشمس. ترتدي جانيت تنورة حمراء قصيرة ذات طيات متعددة وسترة صوفية لونها أزرق داكن وزوج من الجوارب الطويلة بلون السترة نفسه: فتاة حسناء صغيرة، أرى أمامي جانيت وأرى أمامي آنا. الطفل الرضيع الموجود بالشقة المجاورة خلد إلى النوم، فقد سادها الصمت الذي يلف طفلًا صغيرًا هانئًا مستغرقًا في النوم. الكل نائم فيما عداي أنا وجانيت، إنه إحساس بالألفة والخصوصية، إحساس بدأ حينما ولدت جانيت، حينما كنت أستيقظ أنا وهي والمدينة نائمة من حولنا. إنه إحساس بالبهجة يتهادى بداخلنا بفعل ذلك الدفء وتلك الألفة اللذين يلفاننا. تبدو لي جانيت ضعيفة وهشة حتى إنني أود أن أمد يدي لأحميها من أن تخطو خطوة غير صحيحة أو تقوم بحركة غير محسوبة، وفي الوقت نفسه تبدو لي صلبة للغاية لدرجة لا يمكن أن يؤثر فيها زمان أو وقت، يداخلني شعور يشبه ذلك الذي تحرك داخلي حينما كنت مع مايكل النائم في الفراش، رغبة في أن أطلق ضحكة عالية ابتهاجًا بالنصر، شعور يحركه

بداخلي الإنسان، ذلك الكائن الرائع الذي تحفه المخاطر وفي الوقت نفسه يُكتب له الخلود وهو يحمل على أكتافه النهاية المحتومة، الموت.

تقترب الساعة الآن من الثامنة صباحًا، تبدأ سلسلة جديدة من الضغوط، فاليوم هو موعد ذهاب مايكل إلى المستشفى الموجود بجنوب لندن، ولذلك عليه أن يستيقظ في الثامنة حتى يصل هناك في موعده، وهو يفضل أن تذهب جانيت إلى المدرسة قبل أن يستيقظ، وأنا أيضًا أفضل ذلك، حتى لا أنقسم إلى نصفين، فالشخصيتان: والدة جانيت وخليلة مايكل، ستكونان أكثر سعادة إذا فُصِلَ بينهما، فمن الصعب جدًّا أن أقوم بالدورين معًا في وقت واحد. توقف المطر، أمسح بخار الماء الذي تكثف على سطح النافذة الزجاجي أثناء الليل بفعل الأنفاس والعرق، فأرى أن السماء صافية مع أن الجو بالخارج بارد ورطب. إن مدرسة جانيت ليست بعيدة فهي لن تحتاج إلا أن تمشي مسافة قصيرة، أقول لها: «يجب أن تأخذي معطف المطر.» على الفور يعلو صوتها وتقول محتجة: «لا يا أمي، أنا أكره معطف المطر، أنا أريد معطفي الصوفي الثقيل.» أقول لها في لهجة هادئة وحازمة: «لا، بل معطف المطر، إنها ظلت تمطر طوال الليل.»

– كيف عرفتِ ذلك وأنتِ نائمة؟

يشعرها انتصارها لحجتها بالنشوة، سوف تأخذ الآن معطف المطر وترتدي حذاءها المطاطي دون أن تستمر في جدالها معي. «هل ستحضرينني من المدرسة هذا المساء؟»

– نعم، أظن ذلك، ولكن إن لم آتِ لأصحبك إلى المنزل، عودي أنتِ إليه، ستكون مولي هنا.

– أو تومي.

– لا، لن يكون تومي هنا.

– لماذا؟

– إن تومي فتى كبير الآن، ولديه صديقة.

تعمدت أن أقول لها ذلك، لأنها أظهرت بعض علامات الغيرة من صديقة تومي. ترد عليَّ في هدوء: «سأظل أنا فتاة تومي المفضلة.» ثم تستطرد: «إذا لم تأتِي لتصحبينني إلى المنزل، فسأذهب إلى منزل باربرا لألعب هناك.»

– حسنًا إذا ذهبتِ إلى هناك فسآتي في الساعة السادسة لأحضركِ إلى المنزل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تندفع إلى أسفل محدثة ضجة رهيبة وهي تهبط السلم كأن كتلة ثلج ضخمة تتدحرج من أعلى إلى قلب المنزل، أخشى أن تستيقظ مولي، أقف عند رأس السلم أستمع إليها حتى يترامى إلى سمعي صوت الباب الرئيسي وهو ينغلق بعد عشر دقائق، فأغلق معه كل الأفكار الخاصة بجانيت حتى يحين الوقت المناسب لكي أستدعيها مرة أخرى. أعود مرة أخرى إلى حجرة النوم، يبدو مايكل وهو مستلقٍ تحت الأغطية مثل ربوة داكنة، أزيح الستائر عن النافذة وأجلس على الفراش وأقبل مايكل ليستيقظ، يمسك بي مايكل ويقول: «عودي إلى الفراش.»

– جاوزت الساعة الثامنة صباحًا.

– أين جانيت؟

– ذهبت إلى المدرسة.

يرسلني مايكل وأشعر بخيبة الأمل لأننا لن نلتقي في الفراش، ولكن في الوقت نفسه يداخلني الارتياح لأننا إن فعلنا فسوف يتأخر عن ميعاده وسوف يغضب مني. وبالطبع يتملكني الضيق؛ ذلك البلاء الذي أصابني، ذلك العبء الذي أحمله على كتفيّ، الضيق من أنه يطلب مني ذلك حينما يكون وجودي معه بالفراش هو ما سيؤخره لساعتين عن موعد استيقاظه.

ينهض مايكل من الفراش ويغتسل ويحلق ذقنه وأعد له الإفطار، نتناول الإفطار دائمًا على طاولة منخفضة بجانب الفراش الذي رتبت أغطيته في عجلة. إننا الآن نتناول الفاكهة والخبز المحمص ونشرب القهوة، ويبدو أمامي ذلك الرجل العملي المنمق المتزن صاحب النظرة الصافية. إنه يرقبني، وأنا أعرف أنه يفعل ذلك لأنه ينوي أن يقول لي شيئًا، هل ينوي أن ينهي كل شيء اليوم؟ أنا أذكر أن هذه هي أول مرة نقضي فيها الصباح معًا منذ أسبوع، أنا لا أود أن أفكر في ذلك لأنه ليس من المحتمل أن يقضي مايكل الستة أيام الماضية مع زوجته بمنزله الذي لا يستطيع أن يشعر فيه بحريته وسعادته. ترى أين كان؟ إن شعوري أقرب إلى مرارة الألم منه إلى الغيرة، مرارة ألم الخسارة، ولكنني مع ذلك أبتسم وأناوله الخبز المحمص والجرائد، يأخذ الجرائد ويتصفحها ثم يقول: «سوف أقضي هذه الليلة هنا فلديَّ محاضرة في المستشفى القريب هذا المساء، هذا إذا استطعت أن تحتملي وجودي ليلتين متتاليتين.» أبتسم، ونتبادل النظرات الساخرة لحظة، فمنذ سنين ونحن نقضي معًا الليلة تلو الأخرى. يحول مايكل لهجته إلى لهجة عاطفية، ولكنها لم تكن نابعة من داخله بل يحاكيها في سخرية: «رباه، انظري يا آنا كيف فترت مشاعركِ.» لا أفعل

شيئًا إلا أن أبتسم، فليس هناك جدوى من أن أقول أي شيء، ثم يقول مايكل في استخفاف محاكيًا أسلوب الحديث شديد الرومانسية: «مع كل طلعة شمس يزداد توجهكِ نحو الفكر العملي، إن أي رجل عاقل يعرف أنه حينما تتفوق عليه امرأة يحين وقت الرحيل.» يتصاعد الألم داخلي فجأة وأشعر أنني لا أستطيع أن ألعب هذه اللعبة فأقول: «حسنًا، سأكون سعيدة على أي حال إذا جئت هذا المساء، أتود أن تأكل هنا؟»

– كيف لي أن أرفض تناول الطعام مع طباخة ماهرة مثلكِ؟

– سوف أنتظرك.

يقول مايكل: «إذا كان بإمكانكِ أن ترتدي ملابسكِ سريعًا، يمكن أن أصطحبكِ في طريقي إلى مكتبكِ؟» أتردد في قبول عرضه لأنني إن كنت سأجهز الطعام هذا المساء، فعليَّ أن أشتريه قبل أن أذهب إلى العمل، يقول سريعًا حينما يرى أنني مترددة: «ولكن إن كنتِ لا تريدين فسوف أنطلق أنا.» يقبلني مايكل قبلة تحمل معها كل لحظات الحب التي عشناها معًا، ثم ينهي لحظة الألفة والقرب مستأنفًا حديثه عن ذلك الموضوع الآخر: «إن لم يكن هناك شيء مشترك بيننا، فهناك ذلك الوقت الذي نقضيه معًا في الفراش.» كلما قال تلك الكلمات، التي لم أعتد سماعها منه إلا قريبًا، شعرت بغصة في حلقي، إنه يعبر عن رفضه المطلق لي، أو هكذا أشعر، الهوة بيننا شاسعة، ومن خلف تلك الهوة أقول في لهجة ساخرة: «أهذا هو كل ما يجمعنا؟»

– كل ما يجمعنا؟ ولكن يا عزيزتي آنا، عزيزتي آنا ... عليَّ أن أرحل، فقد تأخرت.

يغادر مايكل وعلى وجهه ابتسامة بائسة تطل منها المرارة التي تداخل رجلًا قوبل بالرفض.

عليَّ أن أسرع الآن، أغتسل مرة أخرى وأرتدي ملابسي، ألبس فستانًا من الصوف الأبيض والأسود له ياقة بيضاء صغيرة، أختار ذلك الفستان لأن مايكل يحبه وربما لا يوجد وقت لتغيير ملابسي مرة أخرى هذا المساء، ثم أهرع إلى البقال والجزار، كم هو ممتع أن أشتري الطعام الذي سأطهوه من أجل مايكل، تتجسد أمامي تلك المتعة وكأنني أقوم بعملية الطهي، أتخيل شرائح اللحم وهي مغطاة بفتات الخبز والبيض وشرائح عش الغراب وهي تغلي مع حلقات البصل والقشدة لتكون شوربة الكريمة الصافية المركزة ذات اللون الأصفر، أعددت الوجبة في خيالي، ورتبت الحركات التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سأؤديها، وتفقدت المكونات ودرجة حرارة الطهي وملمس الطعام. أضع المكونات التي اشتريتها على الطاولة ثم أتذكر أن شرائح اللحم يجب أن تُدق الآن حتى لا أوقظ جانيت لو فعلت ذلك فيما بعد، فأدق شرائح اللحم حتى تصبح مسطحة وألف تلك الشرائح الرفيعة بورقة وأتركها، إنها الآن التاسعة، وأنا لم يتبق معي الكثير من النقود ولذلك عليَّ أن أذهب بالأوتوبيس، وليس بسيارة أجرة، إن أمامي ربع ساعة. أكنس الغرفة على عجل وأرتب الفراش لأغير الملاءة التي لوثتها آثار الليلة الماضية.

فجأة أشعر بالتوتر والإرهاق، ولكن عليَّ أن أكبح جماح ذلك التوتر قبل أن أذهب إلى العمل، وإلا سأنهار وأقع فريسة لاعتلال المزاج أثناء وجودي بالمكتب، يمكنني أن أستقل سيارة أجرة وبذلك أوفر عشر دقائق من وقتي. أجلس بالمقعد الكبير وأحاول أن أسترخِي، ولكنني متوترة للغاية، أبحث عن طريقة أتخلص بها من ذلك التوتر، يقع بصري على ستة أوانٍ فخارية موضوعة على حافة النافذة تطل منها أغصان ملتفة لنبات متسلق لا أعرف اسمه، أوراقه ذات لون أخضر يشوبه لون رمادي. آخذ الأواني الفخارية الستة إلى المطبخ وأغمرها الواحد تلو الآخر في حوض به ماء وأنا أرقب الفقاقيع الهوائية التي تطفو إلى السطح حينما ينزل الماء إلى الأسفل دافعًا الهواء إلى أعلى. تلمع الأوراق المبتلة، وتنبعث رائحة النبات الرطبة من التربة الداكنة، أشعر أنني أصبحت أفضل، أضع الأواني على حافة النافذة مرة أخرى حتى تصل إليها أشعة الشمس، إن وجدت من الأساس، ثم ألتقط معطفي سريعًا وأهرع هابطة السلم، أمر بمولي، إنها ترتدي رداء النوم ويبدو النعاس واضحًا عليها، تسألني: «لماذا أنتِ متعجلة هكذا؟»، فأرد عليها وأنا أصيح: «تأخرت.» ألاحظ التناقض بين نبرتها العالية ولهجتها المتأنية ولهجتي التي يملؤها التوتر. لا أجد سيارة أجرة في طريقي إلى محطة الأوتوبيس، أصل إلى المحطة، يمر واحد فأركبه في حين تبدأ الأمطار في الهطول. تلطخ المياه جوربي قليلًا، يجب أن أتذكر أن أغيره الليلة، فمن السهل أن يلحظ مايكل ذلك. تتحول الأفكار التي تعبر رأسي إلى الاتجاه العملي مرة أخرى، فتقفز إلى ذهني الأشياء التي يجب أن أقوم بها اليوم، هذه المرة كانت تلك الأشياء تتعلق بالمكتب.

يجدر بي أن أفكر في اللقاء القادم مع الرفيق بيوتي، أنا أدعوه كذلك على سبيل السخرية، وهو أيضًا يناديني بالرفيقة آنا على سبيل السخرية. في الأسبوع الماضي قلت له بعد أن أثار غضبي عن أحد الأشياء: «أيها الرفيق بيوتي، ألا تدرك أنه لو تصادف أن أكون أنا وأنت من الشيوعيين الروس، لكنت تخلصت مني منذ سنوات؟»

– طبعًا أيتها الرفيقة آنا، أنا أرى ذلك تمامًا.

(إن هذا الأسلوب الفكاهي يسود الأجواء هذه الأيام بالحزب.) كان جاك ينظر إلينا وهو جالس من خلف عدسات نظارته الدائرية ويضحك. إنه يستمتع بمشاهدة المشاجرات التي تجمع بيني وبين الرفيق بيوتي، عندما غادر جون بيوتي قال لي جاك: «هناك شيء لا تأخذيه في الاعتبار، وهو أنه ربما كنتِ أنتِ من أمر بالتخلص من جون بيوتي.» اقتربت هذه الملاحظة كثيرًا من الكابوس الذي يراودني، ولذلك حاولت أن أصرفه عن ذهني فقلت لجاك: «يا عزيزي جاك، إن أساس موقفي ينبني على أنني أنا الشخص الذي سيتلقى الرصاصة ... فهذا هو الدور التقليدي الذي أؤديه.»

– يجب ألّا تكوني على هذا القدر من الثقة، لو عرفتِ بيوتي في الثلاثينيات، لما دفعت به دون تردد إلى دور الجلاد الهمجي.

– على أي حال ليس هذا ما يهمنا.

– ما الذي يهمنا إذن؟

– مات ستالين منذ عام تقريبًا، ولم يتغير شيء.

– الكثير من الأشياء تغيرت.

– إنهم يطلقون الناس من السجون، ولكنهم لا يغيرون المواقف والآراء التي وضعتهم هناك.

– إنهم يدرسون مشروع تغيير القانون.

– بهذه الطريقة سوف يتغير النظام القانوني، وهذه الطريقة لن تسهم على أي نحو في تغيير الروح التي أتكلم عنها.

صمت برهة ثم أومأ برأسه، «من المحتمل جدًّا، ولكننا لا نعرف.» كان يتفحصني، ولكن في رفق. طالما راودني هذا السؤال: هل ذلك الرفق وتلك الحيادية، اللذان يجعلاننا قادرين على الدخول في مثل هذه الحوارات يدلان على انكسار الشخصية، لحظة الخيانة التي يقع فيها معظم الأشخاص في وقت من الأوقات، أم إنه دلالة على القوة التي تحملها النفوس المتواضعة؟ أنا لا أعرف، لكنني أعرف جيدًا أن جاك هو الشخص الوحيد بالحزب الذي يمكن أن أدخل معه في هذه النوعية من النقاشات. منذ بضعة أسابيع أخبرته بأنني أفكر في أن أخرج من الحزب، رد على في لهجة ساخرة: «منذ ثلاثين عامًا وأنا داخل الحزب، وأحيانًا يخطر لي أنني وجون بيوتي الوحيدان اللذان سنظل به من بين الآلاف الذين كنت أعرفهم.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– وهل هذا الانتقاد موجه للحزب أم للآلاف الذين تركوه؟

رد عليَّ وهو يضحك: «للآلاف الذين تركوه بطبيعة الحال.» وبالأمس قال لي: «آنا، إن كنتِ ستغادرين، أرجو أن تعلميني قبل تاريخ المغادرة بشهر، لأنكِ أحد الأعضاء المتعاونين للغاية وسوف أحتاج إلى فترة من الوقت لكي أجد من يحل محلكِ.»

اليوم سوف أقدم تقريرًا لجون بيوتي عن كتابين قرأتهما، سوف تندلع مشاجرة، استخدمني جاك كسلاح في المعركة التي يخوضها مع الروح التي تسود الحزب، التي لا يفعل حيالها أي شيء سوى استعداده لأن يصفها بأنها عفى عليها الزمن. من المفترض أن جاك هو من سيدير دار النشر تلك، سوف يشغل وظيفة مدير إداري، يعلوه جون بيوتي، وضعه «الحزب» فوقه. إن القرارات النهائية بشأن ما ينشر وما لا ينشر تتخذ في المقر الرئيسي للحزب. إن جاك «شيوعي صالح»؛ أي أنه استل من صدره بكل أمانة وصدق سخيمة ذلك الزهو الزائف الذي يمكن أن يثير حنقه بشأن الانتقاص من استقلاليته، إنه غير مستاء، من حيث المبدأ، من أن اللجنة التي يلتزم بتنفيذ قراراتها هي لجنة فرعية بالمقر الرئيسي، يرأسها جون بيوتي، على العكس إنه يساند هذا النوع من المركزية. ولكنه يظن أن سياسات المقر الرئيسي خاطئة، والأكثر من ذلك أن المسألة ليست أنه غير راضٍ عن شخص ما أو حتى عن مجموعة من الأشخاص، ولكنه يقول إن الحزب «في هذا العهد» أصبحت آراؤه مثل بركة من المياه الراكدة لا حراك فيها، وليس أمامه إلا أن ينتظر أن تتغير الأشياء. وفي الوقت نفسه هو على استعداد لأن يربط اسمه بالآراء الفكرية التي يزدريها. إن الفرق بيني وبينه هو أنه يرى الحزب في إطار العقود وحتى القرون (أنا دائمًا أحاول إغاظته فأقول له إنه يتصرف مثل: الكنيسة الكاثوليكية.) وأنا أرى أن الانهيار الفكري غالبًا سيكون نهائيًّا. ندخل دائمًا في نقاشات مطولة عن هذا الموضوع ونحن نتناول غداءنا أو في فترات الراحة التي تفصل العمل بالمكتب، ويكون جون بيوتي موجودًا أحيانًا وربما يشارك، وهذا يسعدني ويغضبني، لأن نوعية الأحاديث التي نناقش من خلالها هذا الموضوع بعيدة كل البعد عن «الخط» العام للحزب، والأكثر من ذلك أن نوعية هذه الأحاديث يمكن أن تعد نوعًا من الخيانة إذا تمت في دولة شيوعية ... ولكن هذا هو ما سأفتقده حينما أترك الحزب، رفقة هؤلاء الأشخاص الذين قضوا حياتهم في إطار محدد يعتبر ارتباط حياتهم بفلسفة مركزية أمرًا مسلمًا به، ولذلك فالعديد ممن يفضلون أن يتركوا الحزب، أو يرتئوا أن عليهم تركه، لا يتركونه. ولكن كل المجموعات والمفكرين من خارج الحزب الذين قابلتهم لا يقلون تفاهة عن بعض

المفكرين من داخل الحزب ويشتركون معًا في ضيق الأفق وفقر المعلومات والمعرفة، والمأساة الحقيقية هي أنه لا يوجد هناك من يملأ الفراغ ويتحمل هذه المسؤولية شديدة الجسامة، المسؤولية الفكرية. إن هذا الفراغ الفكري لا يرتبط ببريطانيا أو بالدول الشيوعية بوضعها الحالي، ولكنه يرتبط بالروح التي كانت تسود أجواء الشيوعية الدولية منذ سنين، قبل أن يقضي عليها ذلك الصراع المجنون والملح من أجل البقاء الذي نطلق عليه اليوم الفكر الإستاليني.

عندما أنزل من الأوتوبيس أدرك أن التفكير في المشاجرة الآتية في الطريق أثارني للغاية، وأساس كسب أي معركة مع الرفيق بيوتي هو أن تظل هادئًا. وأنا لست هادئة وأشعر بألم في أسفل بطني، إلى جانب أنني تأخرت عن موعدي نصف ساعة، أنا أحرص دائمًا على أن أصل في موعدي لأقضي بالمكتب ساعات العمل نفسها، لأنني لا أتقاضى أجرًا عن عملي ولا أريد أي مزايا خاصة تترتب على ذلك. (كان مايكل يمازحني ويقول: إنك تتصرفين الطريقة التقليدية نفسها التي كان أبناء الطبقات الراقية في بريطانيا يتبعونها في خدمة المجتمع، يا عزيزتي آنا أنتِ تعملين من أجل الحزب الشيوعي، دون أن تتقاضي أجرًا، مثلما كانت جدتكِ ستعمل لخدمة الفقراء المحتاجين. أنا نفسي أردد هذه النكتة في بعض الأحيان ولكن حينما يذكرها مايكل يداخلني شعور بأنني جُرحت.)

أصعد إلى مكتب جاك مباشرة دون أن أدخل مكتبي، فأجد جون بيوتي هناك برفقته، يقول جاك: «عطركِ رائع يا آنا.» فيغمرني على الفور شعور بالراحة وأستعيد قدرتي على التعامل مع الأمور كلها. أنظر إلى جون بيوتي الذي وهن جسمه وابيض شعره، فأراه رجلًا مسنًّا تبددت طاقاته كلها، أتذكر أن جاك أخبرني ذات مرة أنه كان في شبابه، في أوائل الثلاثينيات، رجلًا مرحًا خفيف الظل ومتوقد القريحة ومتحدثًا شعبيًّا لامعًا، ومن معارضي السياسات العقيمة لمسئولي الحزب آنذاك، وكان معروفًا بانتقاداته وعدم توقيره للمسئولين، وبعدما أخبرني هذا كله بأسلوبه الساخر وهو مستمتع بدهشتي وعدم قدرتي على تصديق ما يقول، أعطاني رواية ألفها بيوتي من عشرين سنة، رواية تتحدث عن الثورة الفرنسية، إنها رواية رائعة تتميز بأسلوبها الجريء وأحداثها النابضة بالحياة، والآن أنظر إليه مرة أخرى وتلقائيًّا تقفز إلى رأسي هذه الفكرة: إن الجريمة الحقيقية التي ارتكبها الحزب الشيوعي البريطاني تكمن في عدد الأشخاص الرائعين الذين تعرضوا بسبب الحزب للانكسار أو تحولوا إلى شخصيات ذات عقول متحجرة تهتم بصغائر الأمور يعيشون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسط مجموعة محددة من الشيوعيين الآخرين منعزلين عن كل ما يجري في بلدهم. تدهشني الكلمات التي أستخدمها وتثير ضيقي في الوقت نفسه: فكلمة «جريمة» هي كلمة من القاموس الشيوعي، ولا تعني أي شيء. ولكن هناك حدثًا اجتماعيًّا حاليًّا يجعل استخدام كلمات مثل كلمة «جريمة» شيئًا سخيفًا، تتولد بداخلي فكرة في حين يراودني هذا الشعور، فأمضي في طريقي نحوها ولكن في صعوبة: إن الحزب الشيوعي، مثله مثل أي مؤسسة أخرى، يحافظ على بقائه عن طريق التصالح مع نقاده ومعارضيه، فهو إما يتصالح معهم أو يدمرهم. لطالما رأيت أن مجتمعًا ما، بل مجموعة من المجتمعات، تُنظم على هذا النحو: يبدأ الأمر بوجود فريق حاكم أو حكومة ترافقها فرق أخرى معارضة، وينتهي الأمر بأن الفريق المعارض إما يغير الفريق الحاكم أو يستأصله. لا، إن المسألة ليست هكذا، فجأة أرى الأمر مختلفًا تمامًا؛ مجموعة من الأشخاص ذوو العقول المتحجرة يقابلهم مجموعة من الشباب الثوريين المعارضين أصحاب الفكر المتجدد، كما كان جون بيوتي في يوم من الأيام، وبذلك يتشكل بين المجموعتين نوع من التوازن، ثم تأتي مجموعة من أصحاب الفكر المتجمد مثل جون بيوتي، تعارضها مجموعة من الأشخاص أصحاب الفكر النقدي المتجدد، ولكن تجمد الفكر والركود لا يمكن أن يستمرا من دون أن تنبت براعم فكرية جديدة تتحول بدورها في سرعة رهيبة إلى عقول راكدة ومتحجرة، وبمعنى آخر، أنا بوصفي «الرفيقة آنا» — تتملكني الرهبة حينما أتذكر نبرة صوت الرفيق بيوتي المليئة بالسخرية وهو يناديني بهذا اللقب — أضمن استمرار الرفيق بيوتي وأغذيه، وفي الوقت المناسب أتحول إلى نسخة أخرى منه. يخطر لي أنه ليس هناك شيء صحيح أو شيء خاطئ في هذه الفكرة، إنها ببساطة عملية من مراحل متعددة تؤدي كل منها إلى الأخرى، يتملكني الرعب لأن كل خلية من خلايا جسمي تصرخ محتجة على هذه الرؤية الحياتية. كلما شعرت بأن هناك كارثة ستصيبني، عاودني مرة أخرى هذا الكابوس الذي يبدو أنني ظللت حبيسته لسنين؛ يتخذ ذلك الحلم المزعج أشكالًا متعددة، أحيانًا يراودني في منامي، وأحيانًا أخرى في يقظتي، والحلم ببساطة كالآتي: أرى رجلًا معصوب العينين يقف أمام حائط من الطوب، هذا الرجل عُذِّب عذابًا شديدًا حتى كاد أن يموت، وقبالته يقف ستة جنود مصوبين بنادقهم نحوه ومستعدين لإطلاق الرصاص ولكنهم ينتظرون الأمر من سابعهم الذي وقف رافعًا يده، حينما ينزلها إلى أسفل ستخرج الطلقات من أفواه البنادق ويموت السجين، ولكن فجأة يحدث شيء غير متوقع بالمرة؛ إذ كان الشخص السابع يقف مترقبًا طوال

تلك الفترة يستمع إلى الأصوات الآتية من الخارج ليرى هل حدثت هذه الواقعة. تُسمع أصوات لصراخ ومشاجرات بالطريق في الخارج، فينظر الستة إلى الضابط في تساؤل والضابط يقف منتظرًا نهاية تلك المشاجرة المندلعة بالخارج، تسمع صيحة عالية من الخارج: «انتصرنا!» عندها يعبر الضابط المساحة الخالية متوجهًا إلى الحائط ويحل الرجل الواقف أمامها من وثاقه ويقف في مكانه، ويقوم الرجل الذي كان مقيدًا منذ لحظة بتقييد الضابط. يسود الرعب الأجواء في تلك اللحظة التي ينظر فيها الاثنان أحدهما إلى الآخر وقد ارتسمت على وجهيهما ابتسامة رضا واهنة تطل منها المرارة، إنهما حقًا أخوان ذوا مصير واحد تلخصه هذه الابتسامة التي معها حقيقة مرعبة أحاول دائمًا أن أتجنبها لأنها تقضي على أي أثر للطاقة الإبداعية داخل النفوس. الضابط، سابع الجنود، يقف الآن معصوب العينين أمام الجدار ينتظر مصيره. ويتوجه الشخص الذي كان مسجونًا إلى فرقة الجنود المكلفة بإطلاق الرصاص، كانوا لا يزالون واقفين مصوبين أسلحتهم ومستعدين لإطلاق الرصاص، يرفع يده ثم ينزلها، فتخرج الطلقات من فوهات بنادقهم ويسقط الجسد الواقف أمام الحائط على الأرض منتفضًا. تسري رعدة بجسد الجنود الستة ويتملكهم شعور بالامتعاض، إنهم سيذهبون الآن ليحتسوا الشراب حتى يغرق طيف هذه الجريمة التي ارتكبوها في كئوسهم، ولكن الرجل الذي كان مقيدًا وأصبح الآن حرًا طليقًا يبتسم وهم يجرون أقدامهم مبتعدين وهم يلعنونه بنفوس تمتلئ بالكراهية كما لو كانوا سيفعلون مع الشخص الآخر الذي لقي حتفه. وتنطوي هذه الابتسامة التي وجهها ذلك الرجل إلى الجنود الستة الأبرياء على شعور بالسخرية خلفه الإدراك والفهم. هذا هو الكابوس الذي يراودني، كان الرفيق بيوتي جالسًا في ترقب وكعادته يرسم على وجهه ابتسامته النقدية المعهودة، ليست ابتسامة عريضة ولكنها تقف فوق وجهه كدرعٍ واقٍ فتجعله يبدو متجهمًا. «حسنًا، أيتها الرفيقة آنا، هل سيُسمح لنا بنشر هذين الكتابين الرائعين؟» تجهم وجه جاك على نحو عفوي، إنه أدرك لتوه مثلي أن هذين الكتابين سيُنشران، فالقرار اتخذ فعلًا. قرأهما جاك وعلق عليهما بأسلوبه اللين المعهود وقال: «إنهما ليسا ذوا قيمة هائلة، ولكنهما كان من الممكن أن يكونا أسوأ مما هما عليه.» أقول: «إذا كنت حقًّا مهتمًّا بما أفكر فيه فيجدر بك أن تنشر كتابًا واحدًا، ولتختر ما شئت، فأنا لا أظن أن أيًّا منهما جيد بما يكفي.»

– أنا لا أتوقع بطبيعة الحال أن يبلغ أي منهما ذلك المستوى الرفيع من الاستحسان النقدي الذي بلغته روايتك الرائعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا لا يعني أن رواية «حدود الحرب» لم تلق استحسانه، لقد قال لجاك إنها أعجبته، ولكنه لم يذكر ذلك لي قط. إنه يرى أنها لاقت هذا النجاح بسبب «الضجة المثارة حول عمليات النشر المتعلقة بالنشاطات الرأسمالية.» وأنا أتفق معه بالطبع، إلا أنني أرى أن كلمة الرأسمالية يمكن استبدالها بكلمات أخرى مثل الشيوعية أو مجلات المرأة. إن نبرة صوته تمثل جزءًا من اللعبة التي نلعبها، أقوم أنا فيها بدور «كاتبة برجوازية ناجحة» وهو يمثل «الراعي الأمين المعني بالحفاظ على بقاء قيم الطبقة العاملة سليمة ونقية.» (ينحدر الرفيق بيوتي من عائلة إنجليزية تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الراقية، ولكن هذا بالطبع ليس موضوعنا.) «ربما يكون علينا أن نناقش كل كتاب على حدة.» هكذا أقترح عليه وأنا أضع رزمتين من الأوراق لنسختين مكتوبتين بخط اليد على المكتب وأدفع بواحدة منهما تجاه بيوتي الذي يومئ برأسه موافقًا. عنوان الكتاب هو: «من أجل السلام والسعادة» ومؤلفه هو عامل شاب، هذا هو الوصف الذي أطلقه عليه الرفيق بيوتي. إنه يقترب من الأربعين، وطوال العشرين عامًا الماضية كان من مسئولي الحزب الشيوعي، وكان يعمل فيما سبق عامل بناء. أسلوب الكتابة ركيك، والقصة تفتقد للحيوية، ولكن الأمر الباعث على الخوف هو أن هذه الرواية تغوص تمامًا في قلب الأسطورة الحالية. ولذلك لو وجد ذلك الشخص الأسطوري القادم من المريخ الذي يمكن أن يقرأها (أو الشخص القادم من روسيا، فيما يخص هذا الشأن) فسوف يتكون لديه انطباعٌ أن المدن البريطانية تغرق في غياهب الفقر المدقع، والبطالة والوحشية، مستنقعات قذرة كتلك التي كان ديكنز يصورها في رواياته، والانطباع الثاني الذي سيأخذه القارئ هو أن جميع العمال البريطانيين شيوعيون أو على الأقل ينظرون إلى الحزب الشيوعي بوصفه الزعيم الشرعي لهم، إن هذه الرواية لا تمت إلى الواقع بصلة. (لقد وصفها جاك بقوله إنها تتحدث عن «بلاد الواق واق الشيوعية.») ولكنها مع ذلك تصور تصويرًا دقيقًا تلك الأساطير الوهمية التي يخدع بها الحزب الشيوعي نفسه في ذلك الوقت تحديدًا، قرأت هذه الفكرة نفسها من خلال عشرات الأشكال والقوالب الكتابية المختلفة خلال السنة الماضية. أقول له: «أنت تعرف جيدًا أن هذا كتاب سيئ.» فترتسم على وجه الرفيق بيوتي النحيل والطويل ملامح العند القوي، أتذكر تلك الرواية التي كتبها منذ عشرين عامًا، كانت فكرتها مبتكرة ومتقنة ورائعة حتى إنه يصعب الإذعان لأن هذا الرجل الواقف أمامي هو نفسه من ألف تلك الرواية. يعلق على رأيي بقوله: «أنا لم أقل إنها واحدة من الروائع، ولكنني أرى أنها رواية جيدة.» يمكننا أن نقول إن

هذه الكلمات هي مقدمة لما سيتبعها، أنا سأتحداه وهو سيعارضني، ولكن النتيجة النهائية لن تختلف، سينشر الكتاب، وسوف يزداد الإحساس بالخجل داخل نفوس الأعضاء الذين يمتلكون أي قدر ولو قليل من الحس الأدبي بسبب المبادئ التي يتبعها الحزب والتي تحط من قدره يومًا بعد يوم، سوف تمتدح صحيفة «الديلي وركر» الإنجليزية الرواية على صفحاتها: «بالرغم من بعض العيوب الفنية، تجسد هذه الرواية الصادقة قصة الحزب.» أما النقاد «البرجوازيون» الذين ربما يعيرون مثل هذه القصة انتباههم، فسوف ينظرون إليها بعين الازدراء، سوف تسير الأمور كلها على النحو المعهود نفسه، فجأة تهبط عليَّ حالة من عدم الاهتمام، فأقول: «حسنًا، سوف تنشر الرواية، فلا جدوى من الاستمرار في الحديث.» تلجم الدهشة الألسنة، وينظر جاك والرفيق بيوتي أحدهما إلي الآخر، ثم يرخي الرفيق بيوتي نظره إلى أسفل، ويبدو عليه الضيق. أدرك أن دوري هو أن أجادله، أن ألعب دور الناقد، حتى يوهم الرفيق بيوتي نفسه أنه شق طريقه في صعوبة بين الأصوات الواعية التي تعارضه، فأنا في الواقع صورة منه في أيام شبابه تجلس أمامه، وعليه هو أن يهزمها، كم أشعر بالخجل لأنني لم أدرك هذه الحقيقة الواضحة من قبل، حتى إنني فكرت في أنه من الجائز أن الكتب الأخرى لم تكن لتنشر لو أنني رفضت أن أقوم بدور الناقد الذي لا يملك من أمره شيئًا، يطرح رأيًا وهو يعرف أنه لن يؤخذ به. بعد فترة من الصمت يقول جاك في رفق: «ولكن يا آنا، هذا لا يصح، فمن المفترض أن تقدمي رأيًا نقديًّا بشأن ذلك الكتاب لكي تساعدي الرفيق بيوتي على أن يتخذ قرارًا بشأنه.» أجيبه: «أنت تعلم أن الكتاب ليس على المستوى المطلوب، والرفيق بيوتي يعلم أنه ليس على المستوى المطلوب ...» في تلك اللحظة يرفع الرفيق بيوتي عينيه اللتين خبا بريقهما وأحاطت بهما خطوط العمر ويحملق في، في حين أكمل أنا حديثي: «وأنا أعلم أنه ليس على المستوى المطلوب، وكلنا يعلم أن الكتاب سينشر.» يقول جون بيوتي: «إن كان من الممكن أن تعطيني بعضًا من وقتكِ الثمين، هل يمكن أن تلخصي لي في بضع كلمات لماذا لا يرقى الكتاب إلى المستوى المطلوب؟»

– من خلال ما رأيت استجمع الكاتب ذكرياته مجتمعة عن فترة الثلاثينيات وجسدها كأنها واقع يمثل بريطانيا عام ١٩٥٤، بالإضافة إلى أنه من الواضح أنه متأثر في كتابه برأي يقول إن القاعدة العريضة من الطبقة العاملة في بريطانيا تدين بنوع من الولاء للحزب الشيوعي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمعت نظرات الغضب بعينيه، ورفع يده فجأة وقد أطبق أصابعه ثم ضرب بقبضته على مكتب جاك وصاح: «فليُنشر الكتاب، وليراع كل شخص حدوده! فلينشر الكتاب وليراع كل شخص حدوده، هذا هو قراري.» يفاجئني هذا الأسلوب الذي تحدث به كثيرًا فأضحك، ثم أرى كيف كانت إجابته على هذا النحو متوقعة إلى حد بعيد. حينما أضحك، وحينما يبتسم جاك، يعتصر الغضب ملامح وجه جون بيوتي، وينسحب داخل نفسه حتى يغوص بأعماقها مطلًّا علينا من داخل تلك الأعماق بعينين غاضبتين تحملقان بنا: «يبدو أنني أضحكتكِ يا آنا، هلا تكرمت وتعطفتِ وفسرتِ لي سبب هذا الضحك؟» أضحك وأنظر إلى جاك الذي يومئ برأسه لي وكأنه يدعوني إلى أن أمضي قدمًا وأشرح لجون بيوتي السبب، أنظر مرة أخرى إلى جون بيوتي وأفكر ثم أقول له: «إن ما قلته يلخص الأخطاء الجسيمة المتعلقة بسياسة الحزب، إنه تجسيد واضح للفساد الفكري، إن ما قلته يكشف عن أن الأهداف التي نادي بها أصحاب الفكر الإنساني في القرن التاسع عشر، والدعوة إلى التحلي بالشجاعة في مواجهة الصعوبات وإدحاض الأكاذيب بالحقائق، هذه الأمور كلها تستخدم الآن للدفاع عن كتاب من الدرجة الثانية يروج لمجموعة من الأكاذيب وتبرير أن تنشره مؤسسة شيوعية لا تملك ما يمكن أن تخاطر بخسارته إن نشرت هذا الكتاب، لا تملك حتى سمعة طيبة يمكن أن تخاطر بخسارتها.» يتصاعد الغضب داخلي تصاعدًا كبيرًا، ثم أتذكر أنني أعمل لدى تلك المؤسسة، وأنني لست في موقع يسمح لي بانتقادها، وأن جاك يدير هذه المؤسسة وسيكون عليه أن ينشر هذا الكتاب، أخشى أنني جرحت جاك، أنظر إليه، فيلتفت إليَّ في هدوء ويومئ برأسه مرة واحدة ويبتسم. يراه جون بيوتي وهو يومئ إليَّ ويبتسم، يستدير جاك ليواجه موجات الغضب العارمة التي تجتاح بيوتي، إن الغضب يعتصر ملامحه فعلًا، ولكنه غضب مبرر، فهو يدافع عن قيم الحق والخير والصواب. فيما بعد سوف يناقش الاثنان ما حدث، وسوف يتفق جاك مع الرأي الذي أبديته، ولكن الكتاب سينشر. يسأل بيوتي: «وماذا عن الكتاب الآخر؟» ولكنني أشعر بالملل ولا أطيق الاستمرار في تلك المناقشة. أنا أفكر في أن هذه هي الزاوية التي يجب أن نحكم على الحزب منها، الزاوية الواقعة على المستوى التنفيذي، مستوى اتخاذ القرارات وتنفيذها، وليس المستوى الحواري المتعلق بالنقاشات التي تدور بيني وبين جاك والتي لا يكون لها أي تأثير في قرارات الحزب. أقرر فجأة أنني لا بد أن أترك الحزب، وسأعمل على أن أنفذ هذا القرار الآن وليس فيما بعد. أقول في لهجة مهذبة: «إذن سوف تنشر المؤسسة الكتابين، سعدت

بتلك المناقشة.» يجيبني جون بيوتي: «حسنًا شكرًا أيتها الرفيقة آنا، كان الحوار معكِ ممتعًا فعلًا.» إن جاك ينظر إليَّ، أظن أنه يعرف أنني أخذت القرار، ولكن هذين الرجلين لديهما أشياء أخرى لا تهمني عليهما أن يناقشاها الآن، ولذلك أستأذن جون بيوتي في الانصراف وأذهب إلى غرفتي المجاورة التي تتقاسمها معي روز سكرتيرة جاك، أنا لا أحبها وهي كذلك، ألقي عليها التحية في برود، فترد عليَّ بالبرود نفسه، ثم أجلس على مكتبي لأتصفح تلك الكومة المستقرة على سطحه من المجلات والجرائد.

أنا أقرأ المجلات والدوريات التي تنشر باللغة الإنجليزية في الدول الشيوعية مثل روسيا والصين وألمانيا الشرقية وغيرها من الدول، وإذا وجدت قصة أو مقالة تتناسب مع «الأوضاع في بريطانيا»، ألفت انتباه جاك إليها، وهو بدوره يلفت انتباه بيوتي. لا يتناسب الكثير مع «الأوضاع في بريطانيا» فقد يتصادف أن أجد مقالة أو قصة قصيرة تصلح لهذا الغرض. ومع ذلك فأنا أقرأ كل هذه المجلات والجرائد في حماس شديد مثلما يفعل جاك، لأن كلينا يقرأ ما بين السطور ليضع يده على الميول والاتجاهات الفكرية هناك.

ولكنني اكتشفت حديثًا أن هناك سببًا آخر يدفعني إلى أن أغوص في أعماق هذه الكتابات؛ إن معظم الكتابات الموجودة بتلك الجرائد هي رتيبة تساير الأهواء الشيوعية، وهي مكتوبة بأسلوب يعكس الأمل في غد أفضل وتسيطر عليها نبرة من الابتهاج غير المبرر حتى عندما تلمس هذه الكتابات الحروب والمعاناة، إنها تنبثق من قلب الأسطورة. ولكن هذا الأسلوب الركيك المستهلك الذي لا روح فيه ولا حياة مغاير تمامًا لأسلوبي. أنا أشعر بالخجل من ذلك الدافع النفسي الذي استحثني على أن أكتب رواية «حدود الحرب» قررت ألا أكتب مرة أخرى إذا كانت هذه المشاعر هي التي ستثري كتاباتي.

خلال السنة الماضية حينما كانت تصادفني وأنا أقرأ هذه القصص والروايات فقرة أو جملة أو عبارة تعكس الحقيقة، كنت أجد نفسي مجبرة على أن أعترف أن هذه الومضات من الفن الأصيل نابعة كلها من المشاعر الشخصية المتأصلة التي أجدها فجأة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا يمكن تجاهلها أو إغفالها، حتى في النصوص المترجمة تلمع هذه الومضات التي لا يمكن أن تخطئها العين عاكسة أحاسيس شخصية صادقة وأصيلة، وأظل أدعو وأنا أقرأ هذه الكتابات — التي هي كتابات بلا روح — أن أعثر ولو مرة واحدة على قصة قصيرة أو رواية أو حتى مقال ينبع بأكمله من تلك المشاعر الشخصية الأصيلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهنا تكمن المفارقة: أنا، آنا، أرفض الفن الذي أؤمن به ويعد من وجهة نظر الفكر الشيوعي فنًّا «هدامًا»، ولكنني في الوقت ذاته أرفض ما تراه الشيوعية فنًّا «بناءً» حينما أقرؤه.

إن الفكرة الرئيسية في هذا الموضوع هو أن هذه الكتابات متجردة تمامًا من المشاعر والأحاسيس الشخصية، فنقطة ضعفها تكمن في كونها كتابات بلا هوية، بلا معالم ترسم شخصية كاتبها. إن الأمر يبدو كما لو أن هناك دعوة أخرى تنادي بالتجرد من الهوية في هذا القرن.

منذ أن انضممت إلى الحزب، وجزء كبير من مهامي يتمثل في إلقاء محاضرات قصرت الفن على مجموعات صغيرة من الأشخاص، وكانت محاضراتي تتضمن كلمات مثل: «كان الفن في العصور الوسطى فنًّا اشتراكيًّا متجردًا من الملامح الفردية، كان نابعًا من إدراك الجماعة، لم يكن الفن آنذاك متأثرًا بتلك النزعة الفردية المخزية المسيطرة على الفن في العصر البرجوازي. سوف يأتي اليوم الذي نتخطى فيه تلك «الأنا» الواضحة والمسيطرة على الفن الذي يدور حول الفرد، وسوف نعود مرة أخرى إلى الفن الذي يعبر عن الإخاء الذي يجب أن يتحلى به البشر وعن مسئولية الإنسان تجاه بني جلدته، وليس عن تلك الحدود الفارقة التي تفصل الإنسان عن غيره من البشر وتميزه عنهم. إن الفن القادم من الغرب ...» عادة ما أكمل هذه الجملة بتلك الكلمات حتى أحوذ اهتمام الحضور: «إن الفن القادم من الغرب يقترب أكثر وأكثر من صرخة ألم تطلقها الأرواح المعذبة التي تدون معاناتها، إن الألم أصبح هو الحقيقة الأكثر تأصلًا فينا ...» هذه هي نوعية المحاضرات التي كنت ألقيها. ومن نحو ثلاثة أشهر، أثناء إحدى هذه المحاضرات، بدأت أتلعثم ولم أستطع أن أنهي حديثي. لم ألق محاضرات من وقتها، ولكنني أعلم جيدًا ما معنى ذلك التلعثم الذي أصابني وسط المحاضرة.

خطر لي أنني دون أن أعلم اخترت أن أعمل مع جاك حتى أضع اهتماماتي الخاصة بالفن، وبالأدب (والأدب هو عندي الحياة)، وانشغالي بقراري بأن أتوقف عن الكتابة في دائرة الضوء، حيث يجب أن أقف وأتفحصها كل يوم.

كنت أتكلم مع جاك في هذا الموضوع، يجلس وينصت إليَّ ليفهم (إن بإمكانه دائمًا أن يفهمني) ثم يقول: «لم يمضِ على ولادة الفكر الشيوعي أربعة عقود بعد يا آنا، وكل الأعمال الفنية التي أفرزها هذا الفكر حتى الآن رديئة، ولكن لم لا تنظرين إليها على أنها أولى الخطوات التي يتخذها هذا الفن على الطريق، إن هذه الحركة

الفنية لا تزال في مهدها بعد، وربما بعد أن يمر عليها قرن ...» — «أو خمسة قرون ...» هكذا أقول لأغيظه، ثم يكمل هو: «وربما بعد قرن يولد الفن الجديد، ولم لا؟» أقول له: «أنا لا أعرف كيف ينبغي أن أفكر، ولكن الخوف من أنني كل ما كنت ألقيه كان هراء بدأ يداخلني. هل لاحظت أن كل الجدل الدائر هنا بيننا يتركز حول شيء واحد: الإدراك الفردي، الوعي الفردي؟» يغيظني ويقول: «وهل هذا الوعي الفردي يمكن أن يفرز فنًّا مثل فنكِ الاشتراكي المتحرر من النزعة الأنانية المفعم بالأمل؟»

– ولم لا؟ ربما يكون الإدراك الفردي لا يزال في مهده يخطو خطواته الأولى؟

يومئ جاك برأسه وكأنه يريد أن يقول لي: نعم، هذا النقاش ممتع للغاية، ولكن يجب أن نستأنف عملنا.

إن قراءة كل هذه الأعمال الأدبية التي لا روح فيها ولا حياة جزء ضئيل من عملي، التي تحولت دون قصد أو نية من أي شخص إلى اتجاه مختلف تمامًا. أصبحت مهامي متركزة في «العمل التطوعي» هذا هو التعبير الذي أستخدمه أنا وجاك على سبيل المزاح، مايكل أيضًا يمازحني فيقول: «ما أخبار جهودكِ في العمل التطوعي يا آنا؟ هل أنقذت المزيد من الأرواح المعذبة؟»

قبل أن أبدأ في مباشرة مهام عملي التطوعي أذهب إلى الحمام، أضع بعض مساحيق الزينة على وجهي وأنا أتساءل هل القرار الذي اتخذته لتوي، بأن أترك الحزب، مبعثه هو أنني كنت أفكر تفكيرًا عمليًا وعقلانيًا أكثر من المعتاد لأنني قررت أن أدون كل شيء يحدث لي على مدار هذا اليوم؟ وإن كان ذلك صحيحًا، فمن هي آنا التي ستقرأ ما أكتبه؟ من تلك الشخصية الأخرى التي بداخلي والتي أخشى من حكمها على الأمور، أو، على أقل تقدير، التي تختلف نظرتها للأشياء عن نظرتي إليها حينما لا أعمل عقلي وأدون ما يحدث وأستدعي إدراكي ووعيي، وربما غدًا، حينما أنظر إلى الأشياء بعينها هي، بعين آنا الأخرى، أتراجع عن قراري بترك الحزب؟ لسبب واحد، وهو أنني سأفتقد جاك ... مع من يمكنني أن أناقش معه كل هذه المشاكل التي تعترض طريقي بلا أي حدود أو قيود؟ مع مايكل بالطبع، ولكنه سيتركني، كما أن نقاشتنا دائمًا تكون لاذعة؟ ولكن الغريب هو أن يكون مايكل هو ذلك الشخص المنشق عن الشيوعية، الخائن، هو تلك الروح الهائمة، وجاك هو ذلك المسئول البيروقراطي، يمكننا القول إن جاك بوصفه السابق هو من قتل رفقاء مايكل (ولكن إن صح ذلك فأنا أيضًا قتلتهم، لأنني عضو بالحزب)،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إن جاك هو من وصف مايكل بالخائن، ومايكل هو من وصف جاك بالقاتل، ومع ذلك فهذان الرجلان (اللذان إذا التقيا فلن يتبادلا كلمة واحدة تنم عن وجود أزمة ثقة) هما من أتحدث إليهما وهما من يمكن أن يفهما كل ما أشعر به، إنهما جزء من تجربة واحدة. أقف بداخل الحمام أرش العطر على ذراعيّ، ثم تقفز إلى رأسي فجأة هذه الفكرة: إن العلاقة بين ديفيد ومايكل هي نفسها العلاقة بين السجينين اللذين تبادلا الأماكن أمام فرقة الجنود المسكين ببنادقهم في الكابوس المرعب الذي راودني، أشعر بالارتباك وتدور الحجرة من حولي، فأصعد إلى مكتبي بأعلى، وأدفع بأكوام المجلات المستقرة على مكتبي جانبًا: فوكز، وسوفييت ليتريتشار، وبيبولز فور فريدوم أواك، وتشينا ريبورن، وغيرها من المجلات (تلك المرآة التي ظللت أنظر بها كل يوم لمدة سنة)، أظن أنني لا أستطيع أن أقرأ مثل هذه المجلات مرة أخرى، أنا ببساطة لا أستطيع أن أقرأها. سئمتها وسئمتني، سوف أرى ما لديَّ اليوم من مهام خاصة بالعمل التطوعي، في تلك اللحظة يدخل جاك إلى المكتب، فقد عاد جون بيوتي إلى المقر الرئيسي للحزب، «هل تودين أن تتناولي معي فنجانًا من الشاي وبعض الشطائر؟» هكذا قال لي جاك الذي يعيش على راتبه الرسمي من الحزب وهو ثمانية جنيهات إسترليني تتقاضى زوجته التي تعمل بالتدريس مثلهم، ومن ثَم فهو يحتاج إلى أن يقتصد في نفقاته وأحد أوجه هذا الاقتصاد هو عدم الذهاب إلى المطاعم لتناول الغداء. أشكره وأدخل معه إلى مكتبه ونتجاذب أطراف الحديث. لا يدور الحديث عن الروايتين اللتين كنا نناقشهما مع بيوتي، لأنه لم يعد هناك ما يمكن أن يقال في هذا الشأن، فقد اتُّخذ القرار بنشرهما وكلانا لديه أسبابه التي تبعث بداخله الشعور بالخجل من هذا القرار. عاد أحد أصدقاء جاك من الاتحاد السوفييتي بمعلومات خاصة عن موجة معاداة السامية السائدة هناك، وشائعات حول وجود عمليات اغتيال وارتكاب وقائع تعذيب وكل أنواع الترهيب الأخرى. أجلس أنا وجاك معًا نمحص كل تفصيلة من تفاصيل هذه المعلومات: هل هذا صحيح؟ هل يبدو هذا صحيحًا؟ إذا كان هذا صحيحًا فمعنى ذلك أنه ... تراودني تلك الفكرة التي راودتني من قبل مئات المرات: كم يبدو غريبًا أن هذا الرجل وهو جزء من آلية اتخاذ القرارات الخاصة بالحزب الشيوعي لا يعرف مثلي ومثل أي شيوعي عادي من العامة ما الحقيقة التي يمكن أن يصدقها. وأخيرًا نتفق، كما اتفقنا من قبل كثيرًا، على أن ستالين كان يعاني مرض الجنون. نجلس معًا نشرب الشاي ونأكل الشطائر ونتحدث عن الطقس وأسباب المطر، إذا كنا عشنا بالاتحاد السوفييتي في

آخر سنوات حكم ستالين، لكنا قررنا أن اغتياله هو أحد الواجبات التي علينا أن نؤديها. يعارضني جاك، يقول إن ستالين هو جزء من تجربة عاشها، جزء من أكثر التجارب تأصلًا في نفسه، ولذا حتى وإن كان يعلم أنه شخص يعاني الجنون الذي يدفعه إلى ارتكاب جرائم عدة، كان سيعجز عن قتله حينما تحين اللحظة التي يكون عليه فيها أن يضغط على الزناد، كان سيدير المسدس ويصوبه تجاه نفسه، وأنا أيضًا أقول إنني كنت سأعجز عن ذلك لأن «الاغتيالات السياسية تتعارض مع مبادئي.» ويتفرع بنا الحوار ويمتد، فتراودني فكرة: كم يبدو هذا الحوار أجوف، وكم نبدو نحن مخادعين، فنحن نخوض في مثل هذا الحوار ونحن جالسان في لندن ننعم بالأمان والراحة والرفاهية، لا شيء على الإطلاق يهدد حريتنا أو حياتنا، يحدث شيء يثير فزعي أكثر وأكثر ... تفقد الكلمات مغزاها، بإمكاني أن أسمع جاك وهو يتكلم وأسمع نفسي وأنا أتكلم، يبدو لي أن الكلمات تخرج من داخلي، من مكان مجهول ... ولكنها لا تحمل أي معنى على الإطلاق. طوال الوقت تلوح أمام عينيَّ تلك المشاهد التي نتحدث عنها، مشاهد القتل والتعذيب والاستجوابات الدقيقة المرهقة وغيرها، ولكن الكلمات التي نستخدمها ليست لها أي علاقة بما أراه أمامي، إنها تبدو مثل هذيان شخص مجنون، أو تخاريف رجل أبله. يباغتني جاك بقوله: «هل ستتركين الحزب يا آنا؟» أرد عليه: «نعم.» فيومئ برأسه إيماءة ودودة لا تعبر عن رأي معين، ولكن مشاعر الوحدة تطل منها. فجأة أصبحت مسافة شاسعة تفصل أحدنا عن الآخر، ليس نتيجة وجود أزمة ثقة بيننا، فكل منا يثق بالآخر، ولكن نتيجة لمعالم تجاربنا المستقبلية التي أصبحت مختلفة تمامًا، فجاك سيبقى بالحزب، لأنه انضم إليه من أعوام عديدة، وقضى حياته داخل الحزب، ولأن كل أصدقائه أعضاء بالحزب وسيبقون به، وقريبًا جدًّا حينما نلتقي سيكون كل واحد منا غريبًا عن الآخر. كم هو عظيم هذا الرجل وأمثاله من الرجال، ولكن التاريخ خانهم، صحيح أن هذه الجملة هي جملة ذات طابع عاطفي، ولكنني حينما أستخدمها هنا تفقد كل السمات العاطفية لأنها تصف ما أعنيه وصفًا دقيقًا وصادقًا. وإذا قلتها له الآن فسوف يومئ لي تلك الإيماءة الودودة، وسوف نتبادل النظرات الساخرة التي تنبع من إدراكنا (مثل الرجلين اللذين تبادلا المكانين أمام فرقة الجنود الممسكين ببنادقهم استعدادًا لإطلاق النار).

أتفحصه بعيني وهو جالس على مكتبه ممسكًا بإحدى شطائر الخبز الجاف الذي لا طعم له ولم ينته منها بعد، إنه يبدو مع كل شيء مثل أمير أو نبيل، وربما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا هو ما اختار أن يكونه، رجلًا ذا فكر وذا ملامح فتية جذابة تعلو وجهه الشاحب ومن فوقها نظارته، رجلًا دمث الخلق، نعم هذه هي الكلمة المناسبة، ولكن يلوح من ورائه تاريخ أسود يلقي ببعض ظلاله عليه مثلي، تاريخ من الدم والاغتيالات والشقاء والخيانة والأكاذيب. يقول جاك: «أتبكين يا آنا؟»

– ربما أفعل، فمن السهل جدًّا أن تنهال دموعي.

– عليكِ أن تفعلي ما تشعرين أنكِ يجب أن تفعليه.

أضحك لأنني أعلم أن رأيه هذا نابع من نشأته البريطانية، من ضميره الحي المتمرد على مبادئ الفكر الشيوعي، إنه يعلم لماذا أضحك، فيومئ برأسه ويقول: «نحن نتاج تجاربنا يا آنا وأنا كُتب عليَّ أن أنجرف مع التيار بفكري وهمومي إلى أوائل الثلاثينيات.» يجتاحني فجأة شعور بالحزن لا أستطيع أن أتحمله، أقول لجاك: «سوف أذهب إلى مكتبي لأستأنف العمل.» أعود إلى مكتبي أتكئ برأسي على ذراعيَّ مستندة على المكتب وأشعر بارتياح شديد لأن موظفة السكرتارية السخيفة خرجت لكي تتناول غداءها. أقول في نفسي: سوف يتركني مايكل، لقد حُسم هذا الأمر، ولكنه ترك الحزب منذ سنوات، ومع ذلك فلا يزال جزء من هذا الأمر بكل جوانبه، وأنا سأترك الحزب، لأنه مرحلة انتهت من حياتي، وماذا بعد؟ سوف أخرج إلى الحياة بإرادتي، أبدأ نشاطًا جديدًا، يتحتم عليَّ ذلك، يبدو الأمر كأنني أغير جلدي أو أولد من جديد. تدخل روز، موظفة السكرتارية إلى المكتب وتراني متكئة على المكتب برأسي فتسأل هل أنت مريضة، أقول لها إنني لم أنم جيدًا بالأمس وإنني غفوت قليلًا. أبدأ مهام «العمل التطوعي» التي سأفتقدها كثيرًا حينما أترك الحزب، وأجد تلك الفكرة تعبر رأسي: سوف أفتقد إحساسي الوهمي بأنني أفعل شيئًا مفيدًا وأتساءل هل أنا حقًّا على قناعة بأنه إحساس وهمي.

منذ ثمانية عشر شهرًا نشرت فقرة في إحدى المجلات التابعة للحزب مقتضاها أن مؤسسة بولز آند هارتلي، هذه المؤسسة التي أعمل بها، قررت أن تنشر الروايات بجانب كتب علم الاجتماع والتاريخ وغيرهما من المجالات التي تمثل المجالات الرئيسية التي تعمل بها المؤسسة، وفجأة امتلأ المكتب بأكوام من مخطوطات الروايات حتى إننا كنا يمازح بعضنا بعضًا قائلين إنه من أجل أن يكون هناك مثل هذا العدد من الروايات التي تنتظر النشر لا بد أن كل عضو من أعضاء الحزب يمتهن الكتابة الروائية إلى جانب عمله الأساسي، ولكن بعد فترة تبين لي أن هذا القول ليس طرفة، فمع كل نسخة من هذه الروايات، التي من الواضح أن بعضها ظل مختبئًا داخل

الأدراج لسنوات، يصلنا خطاب من المؤلف، وأصبحت أنا المسئولة عن قراءة هذه الخطابات. لم تكن معظم هذه الروايات على مستوى جيد، فبعضها مكتوب بأسلوب مستَهلك يفتقر إلى المعالم التي توضح معالم الشخصيات وتبرزها والبعض الآخر مكتوب بأسلوب عادي للغاية لا تظهر به أي سمة من سمات التميز أو التفرد أو المنافسة. أما الخطابات فقد كانت نابعة من حالة مغايرة تمامًا، قلت لجاك إننا سنكون مخطئين لو لم نجمع بعض الخطابات في كتاب وننشره، فرد عليَّ: «ولكن يا عزيزتي آنا، هذا الاقتراح الذي تعرضينه مخالف تمامًا لأفكار الحزب ومبادئه.»

«الرفيق العزيز بريستون: أنا لا أعلم ماذا سيكون رأيك في رواياتي التي أرسلتها إليك. كتبتها منذ أربع سنوات وأرسلتها إلى تلك الزمرة المعروفة من الناشرين «المشهورين» وأظن أنه بإمكانك أن تخمن ردهم، وحينما قرأت أن بول آند هارتلي قررت أن تشجع الأشخاص الموهوبين في مجال الكتابة الإبداعية مثلما تشجع الكتَّاب في المجال الفلسفي، تشجعت أن أجرب حظي مرة أخرى، ربما هذا القرار الذي اتخذتموه هو تلك الإشارة التي انتظرناها طويلًا على ولادة منظور جديد بشأن المواهب الإبداعية داخل الحزب، على أي حال أنا أنتظر قرارك. مع خالص تحياتي أيها الرفيق العزيز.

ملحوظة: إنه من الصعب جدًّا أن أجد وقتًا لكي أخصصه للكتابة، فأنا أعمل سكرتير الفرع المحلي للحزب (الذي تناقص عدد أعضائه من ستة وخمسين عضوًا إلى خمسة عشر عضوًا، وهؤلاء الأعضاء ليست لهم نشاطات فعالة داخل الحزب.) وأنا عضو نشط أيضًا بالاتحاد العمالي الخاص بمهنتي، وأشغل أيضًا منصب سكرتير الجمعية المحلية للموسيقى ... معذرة، فأنا أود أن أقول إن هذه المظاهر الخاصة بالثقافة المحلية يجب أن تُحترم، مع أنني أعرف رأي المسئولين في المقر الرئيسي للحزب بشأن هذا الأمر. أنا متزوج ولديَّ ثلاثة أطفال، ولذلك كنت أضطر إلى أن أستيقظ في الرابعة صباحًا وأجلس لكي أكتب ثلاث ساعات قبل أن يستيقظ أطفالي وزوجتي حتى أنجز هذه الرواية (هذا إن كانت الأوراق التي أرسلتها إليك تستحق هذا الاسم!) ثم بعد ذلك أنطلق إلى مكتبي لأبدأ يومًا جديدًا مليئًا بالمهام الشاقة التي تنتظرني كأحد المديرين في شركة بيكلي المتحدة للأسمنت. هل سمعت عن القائمين عليها؟ صدقني إذا كتبت رواية عنهم وعن النشاطات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي يقومون بها لوضعت نفسي تحت طائلة القانون بتهمة السب والقذف، أنت تفهم بالطبع؟»

هذا هو نموذج للخطابات التي كانت تصلنا، وهذا خطاب آخر:

الرفيق العزيز، أبعث إليك بقصصي وكلي ريبة وخشية، فأنا أتوقع منك رأيًا منصفًا بشأن كتاباتي. رفضتها العديد من مجلاتنا التي تسمي نفسها مجلات ثقافية، وأنا سعيد أن الحزب ارتأى أخيرًا أنه من الصواب أن يشجع المواهب الموجودة به، بدلًا من الحديث عن أهمية الثقافة في كل المؤتمرات دون اتخاذ خطوات عملية في هذا الشأن. إن كل الكتب الضخمة التي تتحدث عن المادية الجدلية وثورات الفلاحين هي كتب جيدة ولكن أين المقالات المعاصرة؟ أنا لدي خبرة جيدة في الكتابة فقد بدأت في الحرب (الحرب العالمية الثانية) أكتب في صحيفة الكتيبة. ومنذ ذلك الوقت كلما أتيحت لي الفرصة كتبت. ولكن المشكلة الأساسية تكمن في من حولي، فأنا متزوج ولديَّ طفلان وزوجتي تؤمن تمامًا بالفكرة التي تقول إن الرفقاء من الأفضل أن يستغلوا وقتهم في توزيع المنشورات بدلًا من أن يهدروه في كتابات لا معنى لها، وهذا يعني أنني في عراك مستمر ليس معها فقط بل أيضًا مع المسئولين في الفرع المحلي للحزب الذين يبدو على وجوههم الامتعاض حينما أقول إنني أحتاج إلى التفرغ للكتابة بعض الوقت. مع خالص تحياتي أيها الرفيق العزيز.

الرفيق العزيز، أنا لا أعرف من أين أبدأ هذا الخطاب، ولكنني إذا استسلمت لترددي وخوفي، فلن أستطيع أن أعرف هل ستجد في نفسك الرغبة لكي تساعدني أم لا. أنا أكتب لك بوصفي أمًّا في المقام الأول. هُدم بيتي، مثلي مثل آلاف النساء الأخريات، في الفترة التي تلت الحرب وكان عليَّ أن أتحمل مسئولية طفليّ، وانتهيت وقتها لتوي من كتابة يوميات (وليس رواية) ترصد فترة صباي، وامتدحها الشخص المعني بقراءة الكتب في واحدة من أشهر دور النشر في بلدنا (إنها دار نشر رأسمالية، ولذلك كان القرار النهائي منحازًا فأنا لم أخفِ انتماءاتي السياسية). بعد أن أصبحت مسئولة مسئولية كاملة عن طفليّ فقدت الأمل كليًّا في أن أتمكن من التعبير عن نفسي من خلال الكتابة. خدمتني الظروف واستطعت أن أعثر على عمل

كمديرة منزل لدى رجل توفيت زوجته وتركت له ثلاثة أطفال، قضيت خمس سنوات في هذا العمل، ثم تركته بعد أن تزوج الرجل وأصبح وجودي في منزله أمرًا غير ضروري (لم يختر الرجل زوجته بحكمة، ولكن هذا ليس موضوعنا). بعد ذلك عملت موظفة استقبال في إحدى عيادات الأسنان مقابل ١٠ جنيهات إسترليني في الأسبوع، كان عليَّ أن أطعم نفسي وطفليّ بها وأظهر في الوقت ذاته بمظهر لائق ومحترم. نزل ولداي إلى ساحة العمل، وأصبح وقتي فجأة ملكًا لي، أنا في الخامسة والأربعين من عمري ولكنني أرفض أن أستسلم لفكرة أن حياتي انتهت ولا يوجد ما يمكن أن أفعله، يقول أصدقائي أو رفقائي أو هما معًا إن الواجب يقتضي أن أقضي وقت فراغي في خدمة الحزب، ظللت طوال هذه السنوات الماضية على انتمائي للحزب ولكن لم يكن لدي الوقت الكافي للاضطلاع بنشاطات فعلية للحزب. أود أن أعترف لك بشيء، وأرجوك أن تعذرني إن كان ما سأقوله فيه قدر كبير من الجرأة، إن تفكيري بشأن الحزب مشوش للغاية وغالبًا ما يكون سلبيًّا، فأنا لا أستطيع أن أستعيد إيماني بالمستقبل المشرق الذي ينتظر البشرية مع كل ما نقرؤه (في الصحافة الرأسمالية بالطبع، ومع أنني أعرف أن هذه الصحف تروج للشائعات فيبدو لي أن هذه الشائعات لا بد أن يكون لها أساس، أليس كذلك؟) أنا أرى أنني أستطيع أن أساعد نفسي على نحو أكثر جلبًا للنفع عن طريق الكتابة. كنت منغمسة طوال الأعوام الماضية في الأعمال المنزلية وكسب العيش، ولم يكن لي أي صلة بالأمور الحياتية الأكثر عمقًا ولذلك أرجو منك أن تشرح لي بعض العناوين التي يمكن أن أقرأها وترشدني إلى الطريقة التي يمكن من خلالها أن أطور نفسي وأعوض ما فاتني. مع خالص تحياتي أيها الأخ العزيز.

ملحوظة: أكمل ولداي تعليمهما الثانوي، ويؤسفني أن أقول لك إن مجال معرفتهما أوسع من مجال معرفتي بكثير، وهذا الشيء يؤرقني جدًّا ويزرع في نفسي شعورًا بالدونية لا أستطيع أن أقاومه، لن أستطيع أن أصف كيف سأكون ممتنة لنصائحك ومساعدتك.

منذ عام ومسئوليتي هي أن أرد على هذه الخطابات وأقابل الكتّاب وأقدم لهم نصائح عملية، نصحت الأشخاص الذين تعرضوا لمصادمات مع المسئولين الحزبيين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في مقراتهم المحلية من أجل الحصول على وقت يتفرغون فيه للكتابة، طلبت من هؤلاء الأشخاص أن يأتوا إلى لندن. ثم آخذهم أنا وجاك لنتناول الغداء أو نشرب الشاي معًا (إن وجود جاك في هذه المقابلات ضروري، لأنه مسئول رفيع المستوى بالحزب) وكنا نخبرهم بأن عليهم ألا يستسلموا لهؤلاء المسئولين وأن يصروا على أن من حقهم أن يحصلوا على وقت يتفرغون فيه لأنفسهم. وفي الأسبوع الماضي ساعدت إحدى السيدات على الوصول إلى مكتب الاستشارات القانونية لكي يرشدوها كيف يمكن أن تحصل على وثيقة طلاق من زوجها.

على المكتب المقابل لي كانت روز لانيمير تجلس أمامي وأنا أقرأ هذه الخطابات أو أكتب ردودًا بشأنها أو أثناء مقابلتي لمرسليها، تجلس أمامي تغلف مشاعر العداء طريقة تعاملها الجافة. إنها نموذج للأشخاص الذين ينضمون للحزب هذه الأيام، فهي تنحدر من الطبقة المتوسطة الدنيا، تمتلئ عيناها بالدموع حينما تسمع كلمة «العمال» وحينما تلقي كلمة تضمن فيها عبارات مثل العمال البريطانيين أو الطبقة العاملة تلين نبرة صوتها إجلالًا لمكانة العمال، وحينما تذهب إلى الأقاليم من أجل إلقاء كلمة أو التنظيم لأحد الاجتماعات تعود والانبهار يملؤها: «يا لهم من أناس رائعين هؤلاء الأشخاص، إنهم حقًّا صادقون.» هكذا تقول عند عودتها من إحدى المدن الإقليمية. في الأسبوع الماضي وصلني خطاب من زوجة أحد المسئولين بالاتحاد العمالي، قضت روز بصحبته إحدى عطلات نهاية الأسبوع في العام الماضي وعادت وهي تنشد مديحها المعهود وتثني على هؤلاء الأشخاص الصادقين، كانت الزوجة تشكو من أن الكيل فاض بها، فزوجها يقضي كل وقته إما مع إخوانه في الاتحاد العمالي أو في الحانة، فهو لا يساعدها على الإطلاق في أي شأن من شئون أطفالها الأربعة. وأضافت السيدة في الملاحظة التوضيحية التي تذيل معظم الخطابات دائمًا أن «العلاقة الحميمة» منقطعة بينهما منذ ثمان سنوات. أعطيت هذا الخطاب، دون أن أصدر أي تعليق عليه، إلى روز، فما لبثت أن قرأته ثم قالت بنبرة غاضبة مدافعة عن الرجل: «أنا لم ألاحظ أي شيء من ذلك عندما كنت هناك، إن هذا الرجل من ملح الأرض. إنهم ملح الأرض، هؤلاء الأشخاص.» ثم ناولتني الخطاب مرة أخرى وهي ترسم على وجهها ابتسامة مشرقة زائفة وقالت: «أظن أنكِ ستشجعينها على أن تشعر أكثر بمأساتها.»

أنا على يقين من أنني سوف أرتاح عندما أتخلص من رفقة روز، أنا عادة لا أكره الأشخاص، (وإن راودني هذا الإحساس تجاه شخص ما فهو غالبًا لا يستمر

سوى بضع لحظات)، ولكنني أكرهها فعلًا، وأظل أشعر بكرهي لها طوال الوقت. وأنا أكره أن أنظر إلى ملامحها الشكلية، فرقبتها الطويلة رفيعة ومعوجة، تغطيها الرءوس السوداء وبعض الخطوط الداكنة، وفوق هذه الرقبة المثيرة للاشمئزاز رأس صغير ومحدود مثل رءوس الطيور يغطيها شعر لامع. إن زوجها — وهو واحد من المسئولين بالحزب يتمتع بشخصية لطيفة ولكنه ليس حاد الذكاء — خاضع تمامًا لسيطرتها، ولديها طفلان تربيهما وفقًا لتقاليد الطبقة الوسطى، فهي تزرع فيهما التيقظ والانتباه الدائم لتصرفاتهما ومستقبلهما. فيما مضى كانت روز فتاة حسناء، وقد قيل لي إنها كانت «إحدى فاتنات الحزب» في الثلاثينيات. إن سبب خوفي منها هو نفسه سبب خوفي من جو بيوتي ... فأنا لا أريد أن أتحول إلى نسخة أخرى منها في يوم من الأيام، ولكن كيف ذلك؟

أنظر إلى روز، فلا أستطيع أن أحرك عيني من فوق رقبتها التي تعلوها الأوساخ السوداء، فأتذكر أنني يجب أن أهتم جيدًا بنظافتي هذه الليلة وأذهب مرة أخرى إلى الحمام. عندما أعود إلى مكتبي أجد ملف البريد المسائي فوقه وبداخله مخطوطتان لروايتين جديدتين وخطابان، أحدهما من رجل مسن في الخامسة والسبعين يعيش بمفرده بعد تقاعده من العمل، يعلق كل آماله على أن نشر كتابه الذي أرسله لي (والذي يبدو كتابًا رديئًا للغاية) سوف يضيف بعض الحلاوة إلى مرارة أيامه وهو في هذه السن. أقرر أن أذهب لزيارته، ولكنني أتذكر أنني سوف أترك هذه الوظيفة. هل سيؤدي أحد مهام هذا العمل إن تركته أنا؟ لن يحدث ذلك غالبًا. وهل ما أقوم به يحدث فارقًا كبيرًا؟ أنا لا أظن أن الخطابات التي كتبتها أو الزيارات التي قمت بها أو النصائح التي أسديتها أو حتى المساعدات الفعلية التي قدمتها لمرسلي هذه الخطابات على مدار السنة الماضية في إطار مهام «العمل التطوعي» الذي أقوم به أحدثت فارقًا يذكر في حياة هؤلاء الأشخاص، ربما رفعت من معنوياتهم قليلًا أو خففت من حزنهم قليلًا، ولكن التفكير على هذا النحو — الذي أصبح ملازمًا لي — شيء خطير جدًّا، وأخشى عواقبه.

أدخل إلى مكتب جاك، الذي يجلس بمفرده مرتديًا قميصًا بلا سترة فوقه واضعًا قدميه فوق المكتب وهو يدخن غليونه، إنه مقطب جبينه وعلامات التركيز تعلو وجهه الشاحب الذي يلمع به الذكاء، يبدو، أكثر من أي مرة أخرى، مثل أستاذ جامعي، مختليًا بنفسه بعيدًا عن محاضراته وطلبته. أنا أعرف أنه يفكر في أعماله الخاصة، فجاك متخصص في تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، وكتب مؤلفًا دسمًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن هذا الموضوع ولكن يصعب نشره الآن لأنه أورد فيه وصفًا حقيقيًّا للأدوار التي أداها السياسي البارز تروتسكي وأمثاله. يكوم أوراق المؤلف والملاحظات والتسجيلات الخاصة بالمحادثات والحوارات بعضها فوق بعض، أشاكسه بقولي: «لا يمكن أن تكشف الحقيقة إلا بعد قرنين من الزمان.» يضحك ويقول في هدوء: «أو بعد عشرين أو خمسين عامًا.» إنه ليس مستاءً على الإطلاق من أن عمله الدءوب هذا لن يلقى أي تقدير لسنوات، وربما لا يلقى أي تقدير في حياته، قال لي ذات مرة: «أنا لن أندهش أبدًا إن خدم الحظ أي شخص من خارج الحزب واستطاع أن ينشر عملًا عن هذا الموضوع قبلي، ولكن في الوقت نفسه، أي شخص من خارج الحزب لن يستطيع أن يحصل على الوثائق التي أمتلكها أو يصل إلى الأشخاص الذين أستطيع أن أقابلهم، فكل منا يمتلك ميزة لا يمتلكها الآخر.»

أقول لجاك: «هل سيكون هناك شخص مسئول عن حل مشاكل كل هؤلاء الأشخاص عندما أرحل؟» يجيبني: «أنا ليس لديَّ الإمكانيات لكي أدفع راتبًا لأحد الأشخاص للقيام بتلك الوظيفة، فلا يوجد الكثير من الرفقاء الذين يمكنهم الاستغناء عن الراتب والعيش من الإيرادات التي تحققها رواياتهم مثلكِ»، ثم يستطرد بنبرة أكثر لينًا: «ولكنني سأحاول أن أساعد أصحاب المشكلات الأكثر سوءًا.»

– وصلني خطاب من رجل مسن تقاعد عن العمل.

هكذا أقول له وأجلس لكي نناقش ما الذي يمكن عمله لمساعدة هذا الرجل. «أفهم من ذلك أنكِ لن تنتظري معنا شهرًا قبل أن تتركي وظيفتك؟ كنت أعرف ذلك ... ستغادرين فور أن تأخذي قرار الرحيل.»

– لو لم أتصرف هكذا، فربما لن أتمكن أبدًا من أن أرحل وأغادر الحزب.

يومئ برأسه ويسألني: «هل ستتولين عملًا آخر؟»

– لا أعرف، أريد أن أفكر أولًا.

– هل تعنين أنكِ ستنسحبين لفترة؟

– إن الفكرة هي أنني أشعر أن عقلي أصبح كتلة من الآراء والأفكار المتناقضة تمامًا عن كل شيء.

– إن عقولنا جميعًا هي كتل من الأفكار المتناقضة، فما المشكلة؟

– يجب أن تكون هناك مشكلة لنا نحن؟» (وأنا أعني نحن الشيوعيين.

– ولكن هل فكرتِ يا آنا أنه على مدار التاريخ ....

– دعنا من التاريخ يا جاك، أنا لا أريد أن أتحدث عن أشياء حدثت منذ خمسة قرون فنحن بذلك نحيد عن الموضوع.

– لا يا آنا، إننا لا نحيد عن الموضوع، لأنه على مدار التاريخ ربما كان هناك خمسة أو عشرة أشخاص أو ربما خمسون شخصًا توافق إدراكهم ووعيهم مع الأزمان التي عاشوا فيها، ولكن إذا كان إدراكك للحقيقة لا يتماشى مع زماننا هذا فذلك ليس شيئًا سيئًا، فأولادنا ....

– أو أحفاد أحفاد أحفاد أحفادنا

هكذا أقاطعه بنبرة يبدو بها بعض الضيق، «حسنًا، أحفاد أحفاد أحفادنا سوف يتأملون الماضي وسوف يتضح لهم أن الطريقة التي كنا نرى العالم بها — والطريقة التي نراه بها الآن — خاطئة، ولكن وجهة نظرهم تلك ستكون خاصة بزمانهم هم، فماذا يهمنا؟»

– ولكن يا جاك، هذا الهراء ....

تطرق أذنيّ حدة صوتي فأتوقف عن الكلام. أشعر بالضيق لأن هذا الرجل أمضى العديد من السنوات بالجامعة يدرس الفلسفة ولا يمكنني أن أقول له بهذه البساطة: أنا أعرف أنك مخطئ لأنني أشعر أنك كذلك. (كما أنني أشعر في كلامه بجاذبية خطيرة، وأعلم أن جزءًا من الضيق الذي أشعر به ينبع من مقاومتي لتلك الجاذبية)، تجاهل جاك حدة صوتي وقال بلهجة لينة: «أنا أتمنى يا آنا أن تفكري في كلامي ... فإصرارنا على أن ما نراه هو الصواب من أجل أن نظهر فقط أننا على حق هو ضرب من ضروب الغرور.» (تصدمني كلمة الغرور، لأنني كثيرًا ما أتهم نفسي بالغرور.) أقول بلهجة بها كثير من الضعف: «ولكنني أفكر وأفكر وأفكر.»

– أعطيني فرصة أخرى: لقد أحدثت الإنجازات العلمية ثورة في كل المجالات في العقد أو العقدين الأخيرين، ولا يوجد على الأرجح عالم واحد في العالم يمكنه أن يفهم التأثيرات التي أحدثتها كل هذه الإنجازات العلمية أو حتى بعضها، ربما يكون هناك عالم في ماساتشوستس يعرف عن التأثيرات المتعلقة بواحد من هذه الإنجازات، وآخر في كامبريدج يعلم التأثيرات الخاصة بإنجاز ثانٍ وعالم آخر في الاتحاد السوفييتي يعرف بشأن التأثيرات المترتبة على إنجاز علمي ثالث، وهكذا ... ولكنني حتى أشك في ذلك، أشك في أنه يوجد شخص على وجه الأرض يعرف كل التطبيقات الخاصة باكتشاف مثل الطاقة الذرية على سبيل المثال في مجال الصناعة ....

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشعر أنه حاد عن الموضوع كثيرًا، فأتمسك بموقفي وأقول: «كل ما تقول يعني أننا يجب أن نستسلم لفكرة تقسيم الأدوار ومحدودية تخصص كل منا.»

– تقسيم الأدوار ومحدودية التخصص؟

– نعم.

– ما أقوله هو أنكِ لست عالمة، ومن ثَم لا تملكين القدرة على التخيل العلمي.

أقول له: «إنك مختص في المقام الأول في الفلسفة الإنسانية، كان هذا هو تخصصك الدراسي، ولكنك فجأة ترفع الراية البيضاء وتقول لي إنه ليس بإمكاني أن أصدر حكمًا على أي شيء لأنني لست متمرسة بمجال الفيزياء أو الرياضيات؟» يبدو على وجهه الانزعاج، وهو شيء نادرًا ما يحدث، مما يجعلني أشعر أنا الأخرى بالانزعاج، ومع ذلك أكمل عرض وجهة نظري: «اغتراب الذات وإنكارها وتقسيم الأدوار ومحدوديتها، يمكننا أن نقول إن هذا هو الجانب المعنوي للرسالة التي يوصلها الفكر الشيوعي. وفجأة تقول في عدم اكتراث إننا لا نحاول أن نفهم الأشياء كوحدة واحدة ونحن قانعون لأن الآليات الميكانيكية لحياتنا تصبح أكثر تعقيدًا كل مدة؟» أرى ملامح العند التي تحمل بين طياتها تصميمًا على عدم التنازل عن رأيه ترتسم على وجهه، تذكرني تلك الملامح بجون بيوتي، يقول جاك: «أنا لا أعني أن تكون الأدوار التي يقوم بها كل منا مقسمة ومحدودة، وألا يُعمل أي منا خياله لكي يفهم كل ما يدور حوله، أو يحاول أن يفهمه، ولكن أعني أن كلًّا منا عليه أن يقوم بعمله قدر استطاعته، وأن يكون شخصًا صالحًا.» أشعر أنه يخون المبدأ الذي من المفترض أن يدافع عنه فأقول: «هذه خيانة.»

– خيانة لأي شيء؟

– لمبادئ الفلسفة الإنسانية.

يفكر برهة ويقول: «إن أفكار الفلسفة الإنسانية ستتغير مثل أي شيء.»

– سيكون الموقف مختلفًا تمامًا حينئذ، ولكن الأفكار الحالية الخاصة بالفلسفة الإنسانية ترى الفرد وحدة واحدة، يجاهد من أجل أن يدرك قدر المستطاع كل شيء يدور حوله في الكون ويتحكم فيه قدر ما يستطيع، ولكنك الآن أيها الفيلسوف الإنساني، تجلس على مكتبك وتقول في هدوء تام إنه بسبب الطبيعة المعقدة للإنجازات العلمية، يجب ألّا يتوقع الإنسان أنه من الممكن أن يكوِّن وعيًا كاملًا بأي شيء، وأن وعيه وقدرته سيصبحان محدودين ومشتتين طوال الوقت بين كل هذه التعقيدات.

يجلس أمامي وهو يفكر فيما أقوله، ويخطر لي فجأة أن نظرتي له كانت قاصرة وغير مكتملة، أتساءل هل رد فعلي الذي أبديته تجاهه مبعثه هو أنني قررت أن أترك الحزب ولذلك بدأت ألصق كل هذه الصفات به دون وعي بدافع من المشاعر التي تجيش داخلي، أم أنه فعلًا لم يكن ذلك الشخص الذي عرفته طوال ذلك الوقت وعندما أنظر إليه لا أستطيع أن أمنع نفسي من ملاحظة معالم الصبا والفتوة الواضحة على وجهه العجوز، أتذكر كيف تبدو ملامح الهرم على وجه زوجته حتى إن من يراهما معًا يمكن أن يظن أنها والدته، من الواضح جدًّا أن زواجهما كان وراءه قصة عاطفية. أصمم على استئناف الحوار وأقول: «حينما قلت إن المسألة ليست متعلقة بالمحدودية أو بتقسيم الأدوار، بل بإنجاز العمل الذي نحن مكلفون به جيدًا وما إلى ذلك، هل يمكنك أن تقول إن هذه الفكرة تنطبق على روز؟»

- نعم، يمكنني، بل أقول إنها كذلك.

أنا لا أستطيع أن أصدق أنه يعني هذا الكلام حقًّا وأظل أبحث في لهجته عن نبرة الفكاهة التي يجب أن تصحب مثل هذه الكلمات، ثم أتبين أنه يعني ما قاله حقًّا، وأتساءل مرة أخرى لماذا في تلك اللحظة تحديدًا، بعدما قلت إنني سأترك الحزب، تبدأ هذه الخلافات تدب بيننا.

فجأة يخرج جاك الغليون من فمه ويقول: «آنا، أنا أظن أن روحك في خطر.»

- أنا أعرف، وهل ذلك شيء سيئ؟

- أنتِ في وضع خطير للغاية، فأنت تكسبين من المال ما يغنيك عن الحاجة إلى العمل، وذلك نتيجة للأرباح التي يدرها عليك نظام النشر التعسفي المعمول به لدينا ....

- أنا لم أَدَّعِ يومًا أن هذا النجاح هو نتيجة ميزة أمتلكها.

(ألاحظ أن نبرة صوتي تصبح حادة مرة أخرى، فأرسم ابتسامة على وجهي.)

«أنا لم أقل إنكِ ادعيتِ ذلك، ولكم من المحتمل أن روايتك اللطيفة ستدر عليكِ من المال ما سيغنيكِ عن العمل لفترة من الوقت. وابنتك تذهب إلى المدرسة كل يوم ولا تسبب لك الكثير من المشاكل، ولذلك لن يمنعك شيء من أن تجلسي على مقعد بغرفة في منزلكِ لا تفعلين شيئًا على الإطلاق سوى أنكِ تفكرين ليلًا ونهاراً في كل شيء مطلقة العنان لهواجسكِ.» أطلق ضحكة (يطل منها الضيق) «لماذا تضحكين؟»

- في أيام المراهقة الصاخبة كانت إحدى مدرساتي تقول لي دائمًا: «لا تفكري كثيرًا يا آنا اذهبي وافعلي شيئًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ربما كانت على حق.

– دعني أقل لك إنني لست مقتنعة بأنها كانت على حق، أو بأنك على حق.

– حسنًا يا آنا، لم يعد هناك كلام يمكن أن يقال.

– أنا لا أظن على الإطلاق أنك على قناعة بأنك محق.

عندما تخرج مني هذه الكلمات يحمر وجهه قليلًا، ويوجه إليّ نظرة خاطفة يطل منها العداء، يدهشني أن يتولد بيننا فجأة العداء، وخاصة عندما تحين لحظة الفراق، في تلك اللحظة التي تحمل في طياتها العداء، لا يبدو الفراق مؤلمًا إلى هذا الحد الذي تخيلته. تلمع الدموع في أعيننا ويطبع كل منا قبلة على خد الآخر، ويحتضن أحدنا الآخر برهة، أدخل إلى مكتبي مسرعة وأتناول حقيبة يدي ومعطفي وأهبط السلم وأنا أحمد الله أن روز لم تكن بالمكتب وأنني لست بحاجة إلى أن أقدم لها أي تفسير عن أسباب مغادرتي.

مرة أخرى يسقط المطر، قطرات خفيفة منتظم، تبدو المباني التي بللتها ضخمة وداكنة، وتبدو معالمها غير واضحة من وراء قطرات المطر التي انعكس عليها الضوء، تبدو الأوتوبيسات الحمراء مفعمة بالحياة، تأخرت كثيرًا على جانيت ولن ألحق بها حتى لو أخذت سيارة أجرة إلى مدرستها، ولذلك أصعد إلى أحد الأوتوبيسات وأجلس وسط الركاب الذين تفوح من ملابسهم الرطبة رائحة كريهة، أنا في حاجة ماسة إلى الاغتسال، فأنا أشعر بنداوة تحت إبطيّ وحكة في فخذيّ. يلفني شعور بالخواء الداخلي وأنا أجلس في الأوتوبيس في طريقي إلى المنزل، ولكنني أقرر ألا أفكر في هذا الأمر، فيجب أن أكون في حالة نفسية جيدة وأنا أستقبل جانيت. هذه هي الطريقة التي تمكنني من أن أنسلخ من آنا التي تذهب إلى مكتبها، وتخوض في جدال طويل مع جاك، وتقرأ هذه الخطابات الحزينة اليائسة، وتكره روز، عندما أصل إلى المنزل لا أجد أحدًا، فأتصل بوالدة صديقة جانيت. سوف تعود جانيت إلى البيت في السابعة، فهي منهمكة في لعبة مع صديقتها أوشكت على أن تنتهي، أملأ حوض الاستحمام بالمياه الساخنة فيمتلئ الحمام بالبخار، وأستمتع بحمامي على مهل، بعد ذلك ألقي نظرة على الفستان ذي الصوف الأبيض والأسود، فأرى أن ياقته البيضاء اتسخت قليلًا، ولذلك لن أستطيع أن أرتديه، أشعر بالضيق لأنني لم أدخر هذا الفستان إلى المساء، هذه المرة أرتدي بنطلون مقلمًا ذا لون فاتح وجاكيت من القطيفة السوداء، ولكنني على يقين بأن مايكل سيسألني هذا السؤال حينما يراني: «لماذا ترتدين ملابس رجالية اليوم يا آنا؟» ولذلك أصفف شعري بحيث

تبدو تسريحتي غاية في الأنوثة، أشعل كل المدافئ الآن، وأبدأ في تجهيز وجبتين في الوقت نفسه: واحدة لجانيت، وأخرى لي أنا وريتشارد. إن جانيت مولعة هذه الأيام بالسبانخ المخبوزة في الفرن مع الكريمة والبيض، والتفاح المخبوز في الفرن أيضًا، نسيت أن أشتري كمية من السكر البني، أهرع إلى البقالة بالأسفل وأدلف إلى الداخل، كان الدكان على وشك أن يغلق أبوابه، يسمح البائعون لي بالدخول، أهرع مرة أخرى إلى المنزل، لقد عادت مولي ومعها تومي، يتناقشان بصوت عالٍ، فتظاهرت بأنني لم أسمع شيئًا وصعدت إلى أعلى، عادت جانيت، لم يسلبها يومها الدراسي حيويتها ونشاطها، ولكنها سارحة في عالمها لا تتكلم معي، ففي المدرسة في قلب عالمها الطفولي، وحينما ذهبت مع صديقتها انغمست في عالم طفولي أيضًا وهي لا تريد أن تخرج منه. تسألني جانيت: «هل يمكن أن أتناول العشاء وأنا في الفراش.» أجيبها الإجابة الشكلية التي يجب أن تصدر مني كأم: «ياإلكِ من طفلة كسولة.» تقول جانيت: «حسنًا، لا يهمني ذلك.» تذهب إلى الحمام، دون أن أطلب منها ذلك، وتملأ حوض الاستحمام، حينما تهبط ثلاث درجات من السلم أسمعها وهي تتحدث إلى مولي وتضحك معها، إن مولي تبذل ما في وسعها لكي تهبط بتفكيرها وشخصيتها إلى عالم الطفولة حينما تكون بصحبة أطفال صغار، إنها تقص على جانيت حكاية خيالية عن مجموعة من الحيوانات استولوا على أحد المسارح وأداروها دون أن يلحظ أحد أنهم حيوانات وليسوا بشرًا. تشدني القصة، فأنزل إلى بسطة السلم لأسمعها، تومي يقف على البسطة السفلي يستمع أيضًا إلى الحكاية وعلى وجهه ملامح السخط والضيق، إن ضيقه من أمه يبلغ أقصى مراحله حينما تكون مع جانيت أو طفلة أو طفل آخر. تضحك جانيت وتدفع بالمياه إلى خارج حوض الاستحمام، يترامى إلى سمعي صوت المياه وهي تسقط على الأرض، فأشعر بالضيق، لأنه سيكون عليَّ أن أمسح كل هذه المياه التي سقطت على أرضية الحمام. تصعد جانيت إلى الأعلى وهي ترتدي ثياب نومها البيضاء ومن فوقها رداءً أبيض والنعاس يبدو عليها، أما أنا فأهبط إلى الأسفل وأمسح بحيرة المياه التي تعلو أرضية الحمام، وعندما أعود أجد جانيت في فراشها ومن حولها مجلاتها المصورة، فأحضر صينية العشاء وعليها طبق من السبانخ المخبوزة مع البيض وطبق آخر من التفاح المخبوز في الفرن ومن فوقه كتلة من الكريمة السائلة، تطلب مني جانيت أن أقص عليها حكاية، «كان يا ما كان فتاة صغيرة اسمها جانيت.» هكذا بدأت الحكاية فتبتسم جانيت في فرح، أما أنا فأحكي لها كيف ذهبت هذه الفتاة الصغيرة إلى مدرستها وحفظت دروسها ولعبت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع الأطفال الآخرين، وتشاجرت مع صديقتها ... «لا يا أمي، هذا كان بالأمس، أنا سأظل أحب ماري إلى الأبد.» فأغير الحكاية وأخبرها أن جانيت ستظل تحب ماري للأبد. تتناول جانيت عشاءها، تملأ ملعقتها بالطعام وتدفع بها في فمها ثم تعيدها إلى طبقها مرة أخرى، كل هذا وهي غارقة في عالم من الأحلام، تنصت إليَّ وأنا أرسم أمام عينيها يومها وما مر به وأشكل لها أحداثه، أنظر إليها، فأرى آنا بصحبة جانيت، يبكي الطفل بالشقة المجاورة، فيتولد بداخلي ذلك الإحساس بالاستمرارية مرة أخرى، ويتهادى داخلي شعور بالفرح الذي يولده إحساسي بالألفة بيني وبين جانيت، أنتهي من الحكاية التي أقصها عليها: «وبعد ذلك تناولت جانيت عشاءها وأكلت السبانخ والبيض والتفاح المحشو بالكريمة، وبكى جارها ذلك الطفل الصغير قليلًا ثم كف عن البكاء وراح في النوم وجانيت غسلت أسنانها ونامت.» وأنا أحمل صينية العشاء تقول جانيت: «هل يجب أن أغسل أسناني؟»

– طبعًا، هكذا تقول الحكاية.

تنزل قدميها من فوق الفراش وتدسهما في حذائها المنزلي وتذهب إلى الحوض وهي تترنح كأنها تمشي وهي نائمة، ثم تغسل أسنانها وتعود إلى الفراش، أطفئ مدفأة غرفتها وأسدل الستائر على النافذة، قبل أن تخلد إلى النوم، تستلقي جانيت في فراشها مثل فتاة ناضجة، فهي تنام على ظهرها واضعة يديها تحت رقبتها وتهيم في الستارة التي تتحرك حركة خفيفة فوق لوح النافذة، يسقط المطر مرة أخرى بغزارة، أسمع صوت باب المنزل وهو ينغلق بالأسفل، فأعرف أن مولي ذهبت إلى عملها بالمسرح، جانيت أيضًا تسمع صوت انغلاق الباب فتقول: «سوف أصبح ممثلة حينما أكبر.» بالأمس قالت لي إنها ستصبح مدرسة، تقول والنعاس يطل من صوتها: «غني لي.» تغلق عينيها وتتمتم لنفسها: «أنا اليوم طفلة رضيعة صغيرة أمها ستغني لها.» فأغني وأغني وهي تنصت إليَّ لترى كيف سأغير كلمات الأغنية، فأنا عادة أغير الكلمات وأبدلها بكل الطرق: «توتة، توتة، توتة، بنوتة حلوة وكتكوتة، أكلت أكلها كله، وماما حكت لها حدوتة.» عادة تقاطعني إذا لم تعجبها الكلمات التي غيرتها وتطلب مني أن أغني لها كلمات أخرى، ولكنني الليلة استطعت أن أخمن جيدًا ما الكلمات التي تريد أن تسمعها، أظل أغني وأغني حتى تغرق جانيت بالنوم، أنظر إليها تبدو صغيرة وهشة وهي نائمة، تتولد داخلي رغبة قوية في أن أحميها، أدفع عنها أي خطر محتمل، إن صوت هذه الرغبة داخلي هذا المساء أعلى من أي يوم آخر حتى إنني أضطر إلى أن أكبح جماحها، ولكنني أعرف أن ذلك بسبب أن اليوم هو

أول يوم من عادتي الشهرية، ولذلك أحتاج إلى أن أطرح نفسي على أي شخص آخر وأحاول أن أحميها من خلاله، أخرج من غرفة جانيت وأغلق الباب خلفي في رفق.

والآن يحين وقت إعداد الطعام من أجل مايكل، أنزع الورق الذي لففت فيه شرائح اللحم التي تذكرت أن أدقها هذا الصباح لكي تصبح رفيعة، ثم أغمس هذه الشرائح في البيض وأمررها فوق فتات الخبز، حمصت فتات الأمس بالأمس، ومع ذلك فلا تزال رائحته طازجة ولا يزال جافًّا بالرغم من رطوبة الجو. الآن أقطع عش الغراب إلى شرائح وأضعها مع الكريمة، إن لديَّ قدرًا ممتلئًا بالنخاع أخرجه من المجمِّد وأتركه ليذوب ثم أخلط معه بعض التوابل، ولديَّ بعض التفاح الفائض من الوجبة التي طهوتها لجانيت، أفرغ قلب التفاح من بين القشور المحمصة التي لا تزال دافئة وأنزع منها البذور ثم أخلطها بكريمة الفانيليا السائلة، وأخفقها حتى يصبح قوامها سميكًا. أعبئ هذا الخليط داخل القشور التي فرغتها ثم أدفع بها إلى الفرن حتى تكتسب لونًا ذهبيًّا، تعبئ روائح الأكل اللذيذة المطبخ، ويغمرني فجأة شعور بالسعادة فيسري الدفء في أوصال جسدي، ثم أشعر بشيء يعتصر معدتي وأقول في نفسي: إن هذه السعادة التي تغمرني الآن ليست إلا كذبة، إن ما أشعر به لا يعدو أن يكون شيئًا معتادًا، الشعور بالفرح بعد لحظات مثل تلك اللحظات خلال الأربع سنوات الماضية، والآن يختفي هذا الشعور، ويحل محله شعور بالتعب الشديد، ومع شعوري بالتعب يهاجمني الإحساس بالذنب، خبرت جيدًا كل أنواع هذا الإحساس وأشكاله حتى إنني أحسب أنها ملتني وتعبت مني أكثر مما تعبت أنا منها، ولكنني مع ذلك يجب أن أقاوم هذا الشعور بكل أشكاله. ربما لا أعطي جانيت حقها، لا أقضي معها الكثير من الوقت ... ولكن هذا هراء، لو كنت مقصرة ما كانت جانيت ستكون على هذا القدر من السعادة والراحة النفسية. إن جاك على حق، فأنا أهتم أكثر من اللازم بنفسي، يجب أن أشغل نفسي بأي عمل، بدلًا من أن أنهك نفسي في عذاب الضمير ... لا ولكنني لست مقتنعة بما يقوله جاك. يجب ألّا أكره روز إلى هذا الحد، ولكن لا، ليس بإمكان أي شخص أن يتحملها إلا إذا كان قديسًا، فهي امرأة بشعة. أنا أعيش من المال الذي يهبط عليَّ دون تعب فقط لأن الحظ خدمني وحققت روايتي مبيعات جعلتها من بين أكثر الكتب رواجًا، في حين يعيش من هم أفضل مني موهبة حياة يملؤها الجهد والعرق ... ولكن ما ذنبي أنا، إن هذا ليس خطئي. يرهقني هذا الصراع الذي أخوضه مع ذلك الشعور بالانزعاج الذي يجتاحني بكل صوره المختلفة، ولكنني أعرف أن هذا الصراع لا يخصني أنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحدي، فعندما أتحدث مع النساء الأخريات أعرف منهن أنه يكون عليهن أن يدخلن في صراع مع إحساسهن بالذنب بكل الصور غير المنطقية التي يتخذها هذا الشعور والتي تتعلق بأعمالهن أو باحتياجهن إلى المزيد من الوقت للاهتمام بأنفسهن. إن الشعور بالذنب هو ذلك الشعور الاعتيادي الذي توارثناه عبر الأزمان، مثلما كان الشعور بالسعادة الذي اجتاحني منذ لحظات هو شعور طبيعي ولده موقف انتهى. أحضرت زجاجة خمر لكي أدفئها، وأذهب إلى غرفتي محاولة أن أستقي الشعور بالراحة من سقفها الأبيض المنخفض وجدرانها الباهتة التي تتراقص عليها الظلال في نار المدفأة التي يتلألأ لهيبها باللون الأحمر، أجلس على المقعد الضخم الوثير، إن مشاعر الاكتئاب تلفني الآن، تحيطني من كل جانب حتى إنني أقاوم الدموع التي تكاد تسقط من عينيّ، أقول في نفسي، وأنا أحاول أن ألملم شتاتها: ماذا يعني أن أقف بالمطبخ وأطهو الطعام من أجل مايكل وأجلس هنا في انتظاره؟ إن لديه الآن امرأة أخرى تهمه أكثر مما أهمه أنا، إن ما يدفعه إلى أن يأتي إليَّ الليلة هو العطف أو التعود. أحاول مرة أخرى أن أقاوم هذه المشاعر الباعثة على الاكتئاب وأحاول أن أستعيد الشعور بالثقة والأمان (كأنني أستدعي جزءًا آخر من نفسي) وأقول في نفسي: أوشك موعد وصول مايكل، سوف نأكل معًا ونحتسي الخمر وسوف يحكي لي عن أخبار يومه في العمل ثم بعد ذلك سيدخن كل منا سيجارًا وسوف يضمني مايكل بين ذراعيه، وسوف ننام في فراش واحد طوال الليل. أدرك أن الوقت تأخر، وعادت مولي من المسرح، تسألني: «هل سيأتي مايكل؟» أجيبها: «نعم.» ولكنني أرى من ملامح وجهها أنها لا تظن أنه سيأتي، تسألني كيف مر اليومان فأقول لها إنني قررت أن أترك الحزب، أومأت برأسها وقالت لي إنها كانت بالماضي منضمة لأكثر من ستة لجان بالحزب ومنغمسة في القيام بالمهام والأعمال الخاصة بتلك اللجان، ولكنها الآن عضو بلجنة واحدة فقط ولا تستطيع أن تحمل نفسها على أن تؤدي الأعمال الحزبية التي تختص بها هذه اللجنة. «إذن فالنتيجة واحدة على ما أظن.» ولكن ما يشغلها هذا المساء هو تومي، فهي لا تحب صديقته الجديدة (ولا أنا أيضًا)، تقول مولي: «أنا أرى أن كل من يصادقهن على شاكلة واحدة، شاكلة البنات اللائي بالتأكيد لن يحببوني، كلما أتت واحدة منهن إلى هنا أظهرت عدم رضائها عما أفعل، وبدلًا من أن يرى تومي أننا لن نتقابل في نقطة ما يدفع كل منا تجاه الأخرى، أو بمعنى آخر، إنه يستخدم صديقاته كشخصيات ثانوية، لكي يقولوا ما يخطر له بشأني ولكن لا يصرح به. هل يبدو لكِ هذا الاحتمال بعيدًا للغاية؟» إنه لا يبدو

لي احتمالًا بعيدًا للغاية، لأنني أرى أنها على حق، ولكنني أقول لها إنه يبدو كذلك، فأنا أتعامل مع موضوع تومي بلباقة، كما تتعامل هي بلباقة بخصوص موضوع مايكل الذي ينوي أن يتركني ... فكل منا تحاول أن تحمي الأخرى. ثم تذكر مولي مرة أخرى أسفها بشأن رفض تومي تأدية الخدمة العسكرية، لأن العامين اللذين قضاهما في مناجم الفحم جعلا منه بطلًا في محيط ضيق للغاية: «أنا لا أستطيع أن أحتمل تصرفاته التي تعكس خيلاءه ورضاه عن نفسه.» تضايقني هذه التصرفات أنا الأخرى، ولكنني أقول لها إنه لا يزال صغيرًا وإنه سوف يتغلب على تلك التصرفات مع مرور الوقت. «قلت شيئًا آخر سيئًا الليلة، قلت: آلاف الأشخاص يقضون حياتهم بأكملها يعملون في مناجم الفحم دون أي غضاضة، وإنه يجب عدم تهويل الأمر، ولكن ما حدث لم يكن من العدل، أن يعمل شاب في مثل خبرته بمناجم الفحم، ولكنه مع ذلك ظل مستمرًّا بالعمل هناك!» تشعل مولي سيجارًا، وأرى يديها فوق ركبتيها، تبدوان هزيلتين، ثم تقول: «إن ما يخيفني هو أنني لا أرى مطلقًا أي شيء نقيًّا فيما يفعله الناس ... هل تفهمين ما أقصده؟ حتى عندما يفعلون شيئًا جيدًا، أجد نفسي أسيء الظن فيما فعلوه على نحو لاإرادي ... إن هذا شيء سيئ يا آنا، أليس كذلك؟» أنا أفهم جيدًا ما تعنيه وأقول لها ذلك ونجلس نحن الاثنتين في صمت وكآبة حتى تقول مولي: «أنا أظن أنه سيتزوج تلك الفتاة، لدي إحساس بذلك.»

– حسنًا، إنه حتمًا سيتزوج واحدة منهن.

– أنا أعرف أن هذا الأمر يبدو مثل أم تشعر بالضيق من فكرة أن ابنها سيتزوج ... حسنًا، إلى حد ما هو كذلك. ولكنني أقسم لكِ بأنها شخصية كريهة. إنها بحق نموذج لأبناء الطبقة المتوسطة، وبعيدة كل البعد عن الفكر الاشتراكي. عندما قابلتها أول مرة قلت في نفسي: من هذه المحافظة اللعينة التي ابتلاني بها تومي؟ ثم اتضح لي أنها اشتراكية، واحدة من هؤلاء المحافظين الأكاديميين من أكسفورد، تدرس علم الاجتماع، أتعلمين أن المرء حينما يجلس معها يشعر كأنه يرى أمامه شبح كيير هاردي. سيدهش هؤلاء الأشخاص إذا رأوا ما صنعوه، ستكون فتاة تومي الجديدة مفاجأة حقيقية لهم، فبإمكان المرء أن يرى سندات التأمين وصناديق الادخار تتبلور وتتشكل من حولهم وهم يتحدثون عن جعل حزب العمل يفي بتعهداته. بالأمس قالت لتومي إنه لا بد أن يخطط لحياته عندما يشيخ ويكبر، هل تصدقين؟

ضحكنا معًا، ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا. هبطت مولي إلى الدور السفلي بعد أن تمنت لي ليلة سعيدة، كانت تتكلم بكلام رفيق (كما أودع أنا جانيت قبل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تذهب إلى النوم)، وكنت أعلم أن السبب في ذلك هو أنها تشعر بالأسف من أجلي لأن مايكل لن يأتي. إن الساعة الآن الحادية عشرة، وأنا أعرف أن مايكل لن يأتي. يرن جرس الهاتف، إنه مايكل: «معذرة يا آنا، ولكنني لن أستطيع أن آتي الليلة.» قلت له إنه لا توجد مشكلة، وقال لي: «سأتصل بكِ غدًا، أو خلال يومين. تصبحين على خير يا آنا.» ثم أضاف وهو يتلعثم: «أنا آسف إن كنت قد أعددت طعامًا خاصًا من أجلي.» تشعرني فجأة كلمة «إن» بالغضب الشديد، ثم تنتابني الدهشة من أن شيئًا تافهًا كهذا يغضبني، حتى إنني أضحك. تترامي إلى مسامع مايكل ضحكتي، فيقول لي: «آه، نعم يا آنا ...» كان يعني أنني امرأة بلا قلب، وأنني لا أهتم بأمره. ولكنني أشعر فجأة بأنني لا أستطيع أن أحتمل هذا الأمر وأقول له: «تصبح على خير يا ريتشارد.» ثم أغلق الخط.

أخرج الطعام كله من الفرن، وأحتفظ بما يمكن أن أستخدمه، وأتخلص من الباقي، الذي هو كل شيء تقريبًا. ثم أجلس وأفكر: حسنًا، إن هاتفني غدًا ... ولكنني أعرف أنه لن يفعل. أدرك أخيرًا أن هذه هي النهاية. أذهب لأرى هل نامت جانيت، أعرف أنها خلدت إلى النوم، ولكن يجب أن أتأكد. أعرف أن هناك دوامة من الفوضى السوداء تقترب مني لتجتاحني. يجب أن أسرع في الخلود للنوم قبل أن تغمرني هذه الفوضى. أرتعش من الحزن والإعياء. أملأ كأسًا عن آخرها بالشراب وأحتسيه سريعًا ثم أدخل إلى الفراش. تعبر رأسي هذه الفكرة: غدًا سأصبح امرأة مسئولة، سأواجه مستقبلي، ولن أرضخ إلى الحزن. ثم أنام، ولكن قبل أن أستسلم إلى النوم أسمع صوت بكائي، ولكنه هذه المرة مليء بالحزن، لا أثر للمتعة على الإطلاق.

[شطبت آنا كل ما كتبته بأعلى وكتبت تحته: لم ينجح هذا الأمر، فشلت كالعادة. وبخط أكثر تنميقًا وتنظيمًا من خط المدونة الطويلة التي كُتِبت من غير ترتيب، كتبت أسفل هذه العبارة الفقرة التالية:]

١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٥٤

يوم عادي، قررت وأنا أتناقش مع جون بوتي وجاك أن أترك الحزب. يجب أن آخذ حذري حتى لا أكره الحزب مثلما نكره تلك المراحل التي نتخطاها في حياتنا حينما نصبح أكثر نضجًا، فقد لاحظت أن هناك إشارات لهذه الكراهية بدأت تظهر فعلًا: ففي بعض اللحظات أشعر بالنفور من جاك دون وجود سبب منطقي لذلك. لم

يكن هناك أي شيء غير معتاد بخصوص جانيت، لم توجد أي مشكلات بخصوصها. كانت مولي قلقة بشأن تومي، وأرى أنها على حق. إنها تظن أنه سيتزوج من صديقته الجديدة، ويصدق ظنها غالبًا. أدرك أن مايكل قرر أخيرًا أن يقطع علاقته بي، يجب أن أتماسك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثالثة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثالثة

يتأقلم تومي مع وضعه كشخص كفيف ويحاول الكبار أن يساعدوه

ظل تومي يتأرجح بين الحياة والموت أسبوعًا، قالت مولي في نهاية ذلك الأسبوع: «أليس هذا غريبًا يا آنا؟ ظل يتأرجح بين الحياة والموت. والآن سيعيش، فوفاته تبدو شيئًا مستحيلًا. ولكنني أظن أنه لو مات لشعرنا أيضًا أن موته أمر حتمي.» ولكنها تكلمت بلهجة بعيدة تمامًا عن لهجة الثقة الرنانة التي تعودت أن تتكلم بها. طوال أسبوع كانت المرأتان تجلسان بجانب فراش تومي في المستشفى، أو بغرف الانتظار حتى يتشاور الأطباء، فيقررون أمرًا ما أو يجرون العمليات الجراحية، ثم تعودان إلى شقة آنا حتى تعتنيا بجانيت، وتستقبلا خطابات المواساة والزوار الذين قدموا لمواساتهما، وتستجمعا كل ما لديهما من طاقة حتى تتعاملا مع ريتشارد الذي يتهمهما علنًا هما الاثنتين بأنهما مسئولتان عما حدث. طوال ذلك الأسبوع، وفي حين توقف الوقت وتجمد الإحساس (كانت كل واحدة منهما تسأل نفسها وتسأل الأخرى لماذا لا تشعران إلا بالعجز والتخبط، مع أن هذا هو رد الفعل المعهود في هذا الوضع.) تكلمت المرأتان — في إيجاز واختزال، إن جاز التعبير، حيث إن نقاط المناقشة معروفة لهما — عن كيفية اعتناء مولي بتومي وعلاقة آنا به في محاولة منهما لمعرفة الحدث أو اللحظة التي خذلتاه فيها. أيكون ما حدث هو نتيجة لسفر مولي إلى الخارج عامًا؟ لا، إنها لا تزال تشعر بأن ذلك كان هو التصرف السليم. أو ربما نتيجة لحياتهما الهلامية؟ ولكن كيف كان يمكنهما أن يكونا في وضع مختلف؟ أو ربما نتيجة لشيء ذُكر أو لم يُذكر خلال زيارة تومي الأخيرة لآنا؟ من المحتمل،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكنهما تشعران أن هذا ليس هو السبب، وكيف يمكن أن يعرفا ذلك؟ لم تلقِ آنا ومولي بمسئولية هذه المأساة على ريتشارد ولكن حينما اتهمهما بأنهما هما السبب، كان ردهما هو: «لن يفيدنا الآن أن نتبادل الاتهامات يا ريتشارد، المهم هو ماذا سنفعل من أجله في الأيام القادمة؟»

لقد دُمر العصب البصري لدى تومي، وفقد بصره، ولكن المخ سليم، أو على الأقل، الضرر الذي حدث به يمكن تلافيه.

عادت عجلة الوقت تسير مرة أخرى، حينما أعلن الأطباء أن الخطر زال، وانخرطت مولي في ساعات من النحيب المكتوم الذي يطل منه الشعور بالعجز. كانت آنا منشغلة للغاية بها وبجانيت التي يجب ألّا تعرف أن تومي حاول أن يقتل نفسه. شرحت لها آنا الأمر بقولها إن تومي «تعرض لحادث.» ولكنها لم تكن موفقة في كلامها، لأنها رأت في عيني طفلتها أن احتمال تعرض المرء لحادث سيئ يجعله مستلقيًا على ظهره بالمستشفى وقد فقد بصره إلى الأبد، هذا الاحتمال لا يطرح نفسه في وضوح في العادات اليومية والأشياء التي نراها كل يوم، ولذلك تداركت آنا نفسها وقالت لجانيت إن تومي جرح نفسه دون أن يقصد وهوا ينظف مسدسه، فعلقت جانيت إنه لا يوجد مسدس بشقتهما، قالت لها آنا إنه لا يوجد بالشقة مسدس ولن يكون بها أبدًا، إلى آخر هذا الكلام المطمئن، فزالت تلك المخاوف التي انتابت الطفلة.

لقد تحرك تومي ودبت فيه الحياة وتكلم، بعد أن كان جسدًا لا يتكلم راقدًا في غرفة مظلمة ملفوفًا في رداء أبيض، يعتني به الأحياء، ويقلبونه بين أيديهم وهو لا حول له ولا قوة. وهؤلاء الأشخاص، مولي وآنا وريتشارد وماريون، الذين ظلوا ساهرين ينتظرون ويترقبون طوال أسبوع توقف فيه الزمن عن المسير، أدركوا كيف سمحوا لتومي أن يتخطاهم وينزلق نحو الموت. وحينما تكلم تومي كانت الصدمة؛ إنهم نسوا تمامًا حينما رأوه مصابًا مستلقيًا أمامهم تحت الملاءات البيضاء ملفوفًا بالضمادات تلك الخصلة المتأصلة فيه؛ العناد الشديد والإصرار على اتهام الآخرين وهذا ما دفعه إلى أن يطلق رصاصة على رأسه. أول ما ردده على أسماعهم جميعًا: «أنتم هنا، أليس كذلك؟ أنا لا أستطيع أن أراكم.» ثم استطرد: «فقدت بصري، أليس كذلك؟» الطريقة التي تحدث بها جعلت من المستحيل أن يكون أول شيء يقومون به هو التخفيف من وقع الصدمة على تومي عندما يفيق، أخبرته مولي بالحقيقة بعد لحظة، ووقف الأربعة حول الفراش ينظرون إلى العينين الملفوفتين برباط من الشاش الأبيض اللتين انطفأ نورهما، إن الذعر والشفقة يجيشان بصدورهم جميعًا وهم

يتخيلون الصراع الذي لا بد أنه يدور داخل رأس تومي وحده. ولكن تومي لم يقل شيئًا، ظل ممَددًا بلا حراك وكفّاه بجانبه، وهما كفان ممتلئان قبيحان ورثهما عن أبيه، رفع يديه وتحسسهما وطواهما أمام صدره في حركة يبدو منها أنه يحاول أن يتحمل شيئًا ما، ولكن الطريقة التي أدى بها هذه الحركة جعلت مولي وآنا تتبادلان نظرة تحمل بين طياتها شيئًا أكثر من الشفقة، تحمل نوعًا من الذعر ... بدت هذه النظرة وكأنها إيماءة تؤكد على شيء ما.

رأى ريتشارد المرأتين وهما تتبادلان هذا الشعور، فجز على أسنانه في غضب، لم يكن المكان مناسبًا للبوح بما شعر به، ولكنه باح به في الخارج. كانوا يسيرون مغادرين المستشفى، وتأخرت ماريون قليلًا عنهم. إن الصدمة التي أصابتها نتيجة ما حدث لتومي جعلتها تتوقف عن شرب الخمر في تلك الفترة، ولكنها لا تزال تعيش في عالمها الذي يسير بإيقاع متباطئ. تحدث ريتشارد مع مولي بحديث عنيف وقد استشاط غضبًا وينظر إلى آنا لكي يفهمها أن كلامه موجه إليها هي الأخرى: «كان عملًا عظيمًا حقًّا ذلك الذي قمتِ به، أليس كذلك؟» ردت عليه مولي الواقفة أمام آنا المستندة على ذراعها: «عما تتحدث؟» إنهم الآن خارج المستشفى، أخذت مولي ترتعد وقد انخرطت في النحيب. «تخبرينه بهذه البساطة أنه فقد بصره إلى الأبد، ياللفظاعة.» رأت آنا أن مولي التي ترتعد ارتعادة شديدة عاجزة عن الكلام، فردت على ريتشارد بالنيابة عنها وهي تعرف أن ما قاله ريتشارد ليس هو ما يتهمهما به حقًّا: «إنه يعرف ذلك.» قال ريتشارد مستهجنًا: «يعرف ذلك! يعرف ذلك! أفاق لتوه من غيبوبته، فأخبرته أنه فقد بصره إلى الأبد.» قالت آنا ردًّا على كلماته وليس على الإحساس الذي يداخله: «كان يجب أن يعرف ذلك.» تجاهلت مولي ريتشارد واستأنفت حوارها الذي بدأته مع آنا بنظرة التأكيد الصامتة تلك التي تبادلانها عند فراش تومي بالمستشفى والتي أطل منها الذعر: «آنا، أنا على يقين من أنه كان واعيًا لبعض الوقت، ولكنه انتظر وصولنا جميعًا، وكأنه سعيد بهذا الأمر، أليس ذلك «مفزعًا» للغاية يا آنا؟» انخرطت مولي في نوبة نحيب هستيرية. قالت آنا لريتشارد: «لا تفرغ غضبك في مولي الآن.» تمتم ريتشارد بتعبير غير مفهوم في اشمئزاز وأسرع عائدًا إلى ماريون التي كانت تمشي خلفهم وهي شاردة، وأمسك بذراعها في ضجر، وعبر معها حديقة المستشفى الخضراء التي تناثرت بين حشائشها بانتظام أحواض الزهور ذات الألوان الزاهية. انطلق بسيارته مع ماريون دون أن ينظر خلفه وتركهما تبحثان لنفسيهما عن سيارة أجرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يفقد تومي أعصابه لحظة واحدة، لم يظهر عليه قط أنه استسلم للتعاسة أو رثاء النفس. منذ اللحظة الأولى، ومنذ أول كلمات لفظها، كان صبورًا وهادئًا ومتعاونًا بطيب نفس مع الممرضين والممرضات والأطباء، وراح يناقش مع آنا ومولي وحتى مع ريتشارد الخطط الخاصة بمستقبله، إنه «مريض مثالي» كما ردد الممرضون والممرضات من دون أي شعور بذلك التوتر الذي يتملك آنا ومولي. قالوا وظلوا يرددون إنهم لم يقابلوا في حياتهم أحدًا يتصرف بمثل هذه الشجاعة، فما بالهم بفتى صغير مسكين في العشرين من عمره يواجه هذا المصير المأساوي.

كان هناك اقتراح بشأن قضاء تومي بعض الوقت في مستشفى خاص بتدريب الأشخاص الذين فقدوا بصرهم حديثًا، ولكنه أصر على أن يعود إلى المنزل، لكنه استفاد جيدًا من الأسابيع التي قضاها بالمستشفى، فقد أصبح قادرًا على أن يطعم نفسه، ويغتسل بنفسه ويعتني بأموره، وبإمكانه أن يتحرك في بط داخل أرجاء غرفته، آنا ومولي تجلسان وتشاهدانه وقد عاد طبيعيًّا مرة أخرى، يبدو مثلما كان من قبل — فيما عدا ذلك الواقي الأسود الذي يلبسه فوق عينيه الكفيفتين — وهو يتحرك ممتلئًا بالصبر من الفراش إلى الكرسي، ومن الكرسي إلى الحائط، وشفتاه مضمومتان في تركيز، كل حركة صغيرة يؤديها وراءها إرادة لا تكل: «شكرًا لكِ أيتها الممرضة، بإمكاني أن أقوم بذلك.» «لا يا أمي، من فضلكِ لا تساعديني.» «لا يا آنا، أنا لا أحتاج إلى مساعدة.» ولم يكن فعلًا بحاجة إلى مساعدة.

تقرر أن تكون غرفة المعيشة الخاصة بمولي الموجودة بالطابق الأول هي غرفة تومي، حتى لا يكون عليه أن يصعد الكثير من الدرجات. كان مستعدًّا لتقبل الوضع الجديد، ولكنه أصر على أن حياته وحياة مولي يجب ألّا يحدث بهما أي تغيير: «ليس هناك داعٍ لتغيير أي شيء يا أمي، أنا لا أريد أي شيء مختلف.» عادت نبرة صوته إلى تلك النبرة التي عهدوها؛ نبرة الهستيريا التي تلازمها القهقهة، أما تلك الحدة التي بدت في صوته في ذلك المساء الذي ذهب فيه لزيارة آنا، فقد اختفت تمامًا. كانت نبرة صوته تشبه حركته، نبرة متمهلة واضحة ومنظمة، كل كلمة يحكمها تفكير منهجي. ولكن حينما قال: «ليس هناك أي داعٍ لتغيير أي شيء.» نظرت المرأتان إحداهما إلى الأخرى — ليس هناك خطر من أن تفعلا ذلك الآن، فتومي لن يستطيع أن يراهما (ومع ذلك لم تستطيعا أن تتخلصا من الإحساس بأن تومي بالرغم من حالته يعرف أنهما تبادلتا النظرات.) — وانتابهما ذلك الذعر الكامن بداخلهما نفسه، فتومي يتكلم وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن كونه الآن أصبح كفيفًا هو شيء ثانوي، وأنه إذا

كانت أمه حزينة على هذا الشيء فهي حزينة لأنها اختارت ذلك، أو بدافع المشاكسة والتدقيق، مثلما قد تثير الفوضى في المنزل أو العادات السيئة أي امرأة. كان تومي يلاطفهما وكأنه رجل يلاطف سيدتين صعبتي المراس. والمرأتان تراقبانه، وتنظر كل منهما إلى الأخرى في ذعر، ثم تحولان نظرهما بعيدًا بعد أن يداخلهما شعور بأنه يستشعر تلك الرسالة الصامتة التي يطل منها الفزع. لم يكن في أيديهما أي شيء تفعلانه وهما تراقبان الفتى يتأقلم وقد تملكه الضجر — ولكن دون أن يبدو عليه أنه متألم — مع العالم المظلم الذي أصبح الآن عالمه.

الشيء الوحيد الذي بقي على حاله بالغرفة عتبة النافذة ذات الوسائد البيضاء التي كانت آنا ومولي تجلسان عليها تتحدثان ومن خلفهما أواني الزهور ورذاذ المطر أو أشعة الشمس الباهتة المنعكسة على الزجاج، فالغرفة الآن تحتوي على فراش صغير مرتب وطاولة بمقعد ذي ظهر مستقيم، وبعض الأرفف التي اختيرت أماكنها بحيث يستطيع تومي أن يستخدمها. كان تومي يتعلم القراءة بطريقة برايل، ويعلم نفسه الكتابة مرة أخرى بواسطة كتاب للتمارين ومسطرة أطفال. لم تكن كتابته تبدو مثلما كانت، أصبحت كبيرة ومربعة وواضحة مثل كتابات الأطفال. عندما تنقر مولي على الباب لكي تدخل يرفع تومي وجهه ذو الرباط الأسود من كتاب برايل أو من الأوراق التي يكتب فيها، ويقول بلهجة قاسية ولكنها مهذبة يظهر منها اهتمام رجل جالس وراء مكتبه في مكان عمله: «تفضلي.»

عادت مولي — التي رفضت من قبل دورًا بإحدى المسرحيات كي تعتني بتومي — إلى عملها وأصبحت تمثل مرة أخرى. لم تعد آنا تذهب إلى منزل مولي بالمساء حينما تكون هي بالمسرح، فقد قال تومي لها ذات مرة: «إنه للطف منكِ يا آنا أن تأتي وتحاولي أن تخففي عني، ولكنني لا أشعر بالملل على الإطلاق، أنا أحب أن أكون بمفردي.» قال ذلك كرجل عادي يفضل العزلة باختياره. لبت آنا رغبته، فقد ظلت تحاول أن تستعيد علاقة الود التي كانت تجمعها بتومي قبل الحادث، ولكن محاولاتها باءت بالفشل (شعرت أن تومي شخص غريب لم تعرفه من قبل.) فهي لم تكن تستطيع فعلًا أن تفكر في أي شيء يمكن أن تقوله له، إلى جانب أن وجودها معه بالغرفة بمفردهما يجعلها تستسلم لموجات الذعر التي تنتابها، وهو أمر عجزت عن تفسيره.

لم تعد مولي تتصل بآنا من منزلها، فالهاتف موجود الآن خارج غرفة تومي مباشرة، كانت تحادثها من أكشاك التليفون أو من المسرح، تسألها آنا: «كيف حال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تومي؟» فتجيبها مولي بصوت عالٍ تبدو منه رباطة الجأش، ولكن يطل منه دائمًا سؤال محير، نبرة تحدٍّ للشعور بالألم: «إن الوضع غريب للغاية يا آنا، أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل أو أقول، إنه لا يفعل شيئًا سوى الجلوس في تلك الغرفة، يعمل بعيدًا في صمت طوال الوقت، وحينما أصبح غير قادرة على تحمل ذلك الوضع لحظة واحدة أخرى أدخل إليه، فيرفع رأسه ويقول: «هل أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلكِ يا أمي؟»»

– نعم، أعرف.

– فأقول بطبيعة الحال أي شيء سخيف، كأن أقول له مثلًا إنني كنت أسأل هل تريد كوبًا من الشاي وعادة ما يقول لا، بلهجة مهذبة بالطبع، فأخرج مرة أخرى. وهو الآن يتعلم كيف يعد لنفسه الشاي والقهوة، وكيف يطهو الطعام أيضًا.

– أيستخدم الغلايات وهذه الأشياء؟

– نعم، أنا مرعوبة، أضطر إلى الخروج من المطبخ لأنه يعرف ما الذي أشعر به، ويقول لي، لا داعي للخوف يا أمي، فأنا لن أحرق نفسي.

– أنا لا أعرف ماذا أقول لكِ يا مولي.» (ساد الصمت برهة، بسبب هذا الشيء الذي تخشيان هما الاثنتان أن تقولاه.

ثم استطردت مولي: «والناس يأتون لزيارتي، يتصرفون بمنتهى اللياقة واللطف، أنتِ تفهمين بالطبع ماذا يعني ذلك؟»

– نعم، بالطبع أفهم، يالولدكِ المسكين، يالحظ تومي العاثر ... أنا أعرف أننا نعيش في غابة، ولكنني لم أتخيل أنها شرسة إلى هذا الحد.

كانت آنا تفهم ما تعنيه مولي، فأصدقاؤهما ومعارفهما المشتركون يعلقون تعليقات تبدو في ظاهر الأمر طيبة ولكنها تخفي بين طياتها شعورهم بالحقد الذي يودون أن يسددوه نحو مولي، كأن يقول أحدهم: «إنه لأمر محزن بالطبع أن مولي ذهبت في ذلك العام وتركت الولد بمفرده» ... «أنا لا أظن أن سفرها له أي علاقة بما حدث، وقد فكرت جيدًا قبل أن تتخذ هذه الخطوة.» أو يعلق آخر: «هذا طبيعي، فقد انفصل الزوجان، لا بد أن ذلك أثر في تومي أكثر مما ظنه أي شخص.» وتجيب آنا على ذلك وهي ترسم ابتسامة على شفتيها: «أحقًّا؟ انفصلت عن زوجي أنا أيضًا، وأنا على يقين من أن جانيت لن تنتهي إلى هذا المصير.» وطوال الوقت وفي الوقت الذي تدافع آنا فيه عن مولي وعن نفسها سَبَّبَ شيءٌ آخر ذلك الذعر الذي شعرتا

به، شيء كانتا تخشيان أن تفصحا عنه:

منذ ستة أشهر فقط كانت آنا تتصل بمنزل مولي لتتجاذب معها أطراف الحديث وتبعث بالرسائل إلى تومي، وتزور مولي، وربما تدخل إلى غرفة تومي لتتحدث معه قليلًا، وتحضر الحفلات التي تقيمها مولي والتي يكون تومي فيها ضيفًا وسط مجموعة المدعوين، تشارك في حياة مولي، مغامراتها مع الرجال، احتياجها للزواج وفشلها في أن تتزوج. أما الآن، فهذه المودة التي نمت رويدًا رويدًا طوال سنوات انكمشت شيئًا فشيئًا ثم تلاشت، وهذا ما أثبته الواقع. إن آنا لا تهاتف مولي مطلقًا إلا إذا كان هناك سبب عملي للغاية، لأنه حتى إن لم يكن الهاتف بالخارج قريبًا من باب غرفة تومي، فبإمكانه أن يخمن ما يقوله الآخرون من خلال حاسة سادسة اكتسبها حديثًا؛ فقد اتصل ريتشارد، الذي لا يزال يتهم مولي وآنا بعنف، بمولي في إحدى المرات وقال لها: «أجيبيني بنعم أو لا، هذا كل ما أريده منك. أنا أود أن أرسل تومي إلى الخارج في إجازة مع ممرضة مدربة مختصة برعاية المكفوفين، هل سيوافق؟» وقبل أن تتمكن مولي من الرد رفع تومي صوته من داخل الغرفة وقال: «قولي لأبي إنني في خير حال، واشكريه وأخبريه أنني سأتصل به غدًا.»

لم تعد آنا تذهب لزيارة مولي في المساء دون موعد أو حينما يخطر لها، أو تصعد إليها عندما تمر من أمام المنزل. رنت آنا الجرس، بعد أن اتصلت بمولي لتخبرها بأنها قادمة، فترامى إلى سمعها صوت ذبذباته بالأعلى وهي على يقين من أن تومي يعلم من بالباب. فتحت مولي الباب وعلى وجهها تلك الابتسامة التي تطل منها الفطنة والألم ولكنها مع ذلك لا تزال تقحم على ابتسامتها المرح والسرور. صعدت المرأتان إلى المطبخ، تتحدثان عن أمور عادية وتستشعران وجود الفتى من خلال الحائط، تُعدّ القهوة أو الشاي، ويُقدم فنجان إلى تومي، الذي يرفضه دائمًا. ثم تصعد المرأتان إلى الغرفة التي كانت فيما سبق غرفة نوم مولي وأصبحت الآن غرفة للجلوس والنوم. لم تستطع آنا ومولي أن تمنعا نفسيهما من التفكير في الفتى الكفيف الجالس بأسفل الذي أصبح محل اهتمام كل أفراد البيت، والمسيطر عليه، يعرف كل شيء يجري به، كفيف ولكنه على علم بكل شيء. ثرثرت مولي قليلًا، حكت عن بعض أخبار المسرح، بحكم العادة. ثم صمتت ولوت شفتيها في جزع، واحمرت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عيناها اللتان تجمعت بهما الدموع التي حبستها. إنها الآن أصبحت تميل إلى أن تنفجر فجأة وبدون مقدمات في البكاء، وهي تلفظ كلمة أو في منتصف جملة تقولها، شلال من الدموع الهستيرية ينحدر على خديها ولكنها توقف انحداره على الفور وتحبس الدموع بعينيها. تغيرت حياتها تمامًا، كانت تذهب إلى المسرح ثم تذهب لشراء ما هو ضروري، ثم تعود إلى المنزل وتجلس بمفردها في المطبخ أو في غرفتها المستخدمة للجلوس والنوم.

سألتها آنا: «ألا تقابلين أحدًا؟»

– طلب تومي مني ذلك، في الأسبوع الماضي قال لي: أنا لا أريدكِ أن توقفي نشاطاتك الاجتماعية من أجلي، لماذا لا تحضرين أصدقاءك إلى المنزل؟ فنفذت كلامه ودعت المنتج إلى المنزل، ذلك الرجل الذي أراد أن يتزوجني، ديك، أتذكرينه؟ كان لطيفًا جدًّا فيما يخص تومي، أعني تعامل في لطف وحنان غير مصطنعين وفي غير حقد، كنت أجلس معه هنا ونحتسي شراب الإسكوتش، وفكرت في الأمر لأول مرة، حسنًا، أنا لم أكن أمانع ... إنه بحق شخص حنون، وأنا سوف أقبل بالأمر الليلة من أجل هذا الكتف الحنون الذي سأستند عليه. كنت على وشك أن أعطي له الضوء الأخضر، ولكنني أدركت أنه ليس من الممكن أن أعطي هذا الرجل قبلة أخوية من دون أن يعلم تومي بالأمر، مع أن تومي لن يغضب مني بالطبع بسبب ذلك، أليس كذلك؟ كان سيقول لي في الصباح: هل أمضيت مساءً طيبًا يا أمي؟ يسعدني ذلك.

خطر لآنا أن تخبر مولي أنها تبالغ، ولكنها لم تخبرها بذلك لأن مولي لم تكن تبالغ، وهي لم تستطع أن تكذب على مولي. «أتعرفين يا آنا، عندما أنظر إلى تومي وذلك الشيء الأسود السيئ فوق عينيه ... أتعرفين؟ كل شيء في مكانه، فمه، أنتِ تعرفين ذلك الفم العنيد الذي يؤمن دائمًا أنه على حق ... عندما أنظر إليه يقفز بداخلي فجأة شعور بالاستياء ...».

– نعم، أنا أتفهم ما تشعرين به.

– ولكن، أليس ذلك سيئًا؟ إن بدني يقشعر من الاستياء، هذه الحركات البطيئة الحذرة، أتفهمين؟

– نعم.

– إن لب الموضوع هو أن تومي لم يتغير، إن شخصيته كما هي، كما كانت في السابق، الفرق الوحيد هو أن سماتها أصبحت ... متأصلة، هل تفهمين ما أعنيه؟

– نعم، أفهمكِ.

– إنه يبدو مثل روح شريرة بُعثت من قبرها.

– نعم.

– يبلغ بي الاستياء مبلغه حتى إنني أريد أن أصرخ، والأمر السيئ هو أنني أضطر إلى مغادرة الغرفة لأنني أعرف جيدًا أنه يعلم تمامًا أن هذا هو الشعور الذي يجيش بداخلي و ....

حبست مولي الكلمات بحلقها، ثم استطردت في عناد: «وهو يتلذذ بذلك.» أطلقت ضحكة عالية وحادة وكأنها كلب يعوي، ثم قالت: «إنه سعيد يا آنا.»

– نعم.

أخيرًا خرج ذلك الشيء الذي كانتا تكتمانه في صدريهما، وشعرتا هما الاثنتان بالراحة. «لأول مرة في حياته يكون سعيدًا، وهذا هو أبشع ما في الموضوع ... بإمكانكِ أن تري ذلك في حركاته وكلامه ... لأول مرة في حياته يجمع شتات نفسه في وحدة واحدة.» حبست مولي أنفاسها في رعب حينما استعادت على مسامعها ما قالته: يجمع شتات نفسه في وحدة واحدة، وربطته بحقيقة تلك الإعاقة التي أصابت تومي. أخفت وجهها بين كفيها وانخرطت في البكاء، ليس كما كانت تبكي من قبل، حتى اهتز جسدها كله. عندما فرغت من البكاء رفعت رأسها وقالت وهي تحاول أن تبتسم: «يجب ألّا أبكي، سوف يسمعني.» من بين ابتسامتها أطلت مشاعر الشهامة.

لأول مرة تلحظ آنا أن هناك خطوطًا رمادية تتناثر بين خصلات شعر صديقتها الذهبي الخشن، وأن عظام عينيها الغائرة إلى الداخل بدت حادة ورفيعة من تحت بشرتها الداكنة. قالت آنا: «أرى أنكِ يجب أن تصبغي شعركِ.» ردت مولي في غضب: «وماذا سأستفيد من ذلك؟» ثم جعلت نفسها تطلق ضحكة وقالت: «أنا أعرف ما سيقوله الآن وكأني أسمعه؛ سوف أصعد درجات السلم بهذه التسريحة الأنيقة، وأنا سعيدة جدًّا بنفسي، سوف يشتم تومي رائحة الصبغة أو يكتشف أنني صففت شعري بأي طريقة أخرى مماثلة، وما إن يشعر بالذبذبات التي تحدثها خطواتي على الأرض حتى يقول لي: هل صبغت شعركِ يا أمي؟ أنا سعيد لأنكِ لم تستسلمي لليأس.»

– حسنًا، أنا سأكون سعيدة إذا لم تجعلي نفسكِ تتسرب من بين يديكِ.

– أظن أنني سأعود إلى رشدي حينما أتعود على ذلك كله ... كنت أفكر ليلة أمس بهذا الأمر ... أعني، الكلمات، أن أعتاد على تلك الكلمات، هذه هي الحياة، أن نعتاد على أشياء لا يمكن في واقع الأمر احتمالها ... احمرت عيناها وامتلأت بالدموع، ولكنها رمشت بعينيها في إصرار حتى تتلاشى دموعها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد بضعة أيام قليلة اتصلت مولي بآنا من أحد أكشاك التليفون لتقول: «هناك شيء غريب للغاية يحدث يا آنا، بدأت ماريون تزورنا في كل ساعات اليوم لترى تومي.»

– كيف هي؟

– إنها لم تتجرع الشراب منذ حادثة تومي.

– من أخبركِ؟

– أخبرت تومي وهو قال لي.

– يا إلهي، ماذا قال تومي؟

قلدت مولي لهجة ابنها المتأنية الدقيقة وقالت: «إن وضع ماريون جيد للغاية بوجه عام، فهي تتحسن تحسُّنًا لا بأس به.»

– أقال ذلك حقًّا؟

– نعم قاله.

– حسنًا، لا بد أن ريتشارد سعيد بذلك.

– إنه ثائر جدًّا، يكتب لي خطابات غاضبة طويلة، وحينما أفتح واحدًا منها حتى عندما يكون هناك عشرة خطابات أخرى وصلتني في الوقت نفسه، يقول تومي: وما الذي يجدر بأبي أن يقوله؟ ... تأتي ماريون كل يوم وتقضي الساعات مع تومي، إنه يبدو مثل أستاذ عجوز يرحب بتلميذته الأثيرة.

قالت آنا بلهجة مستسلمة: «حسنًا، ليس في أيدينا شيء نفعله.»

– نعم، أنا أعرف.

بعد بضعة أيام جاءت آنا إلى مكتب ريتشارد، اتصل بها وقال بلهجة فظة تحركها مشاعر العداء: «أود أن أراكِ، «يمكنني» أن آتي إليكِ إن شئتِ.»

– ولكن من الواضح أنك لا ترغب في ذلك.

– حسنًا يمكنني أن أوفر ساعة أو ساعتين بعد الظهيرة غدًا.

– لا، أنا واثقة من أنه ليس لديك وقت، سوف آتي إليك، هلا اتفقنا على موعد؟

– حسنًا، غدًا في الساعة الثالثة، أيكون ذلك مناسبًا؟

قالت آنا وهي تدرك تمامًا أنها مرتاحة لأن ريتشارد لن يأتي إلى شقتها: «في الثالثة إذن.» في الشهور الأخيرة ظلت تطاردها صورة تومي في تلك الليلة التي حاول فيها أن يقتل نفسه وهو واقف عند مذكراتها يقلب الصفحة تلو الأخرى. دونت بعض الأحداث القليلة في صعوبة. تشعر بأن الفتى يقف بجانبها وعيناه الداكنتان

الغاضبتان يطل منهما الاتهام. شعرت أن غرفتها لم تعد غرفتها ووجود ريتشارد فيها سيزيد الأمر سوءًا.

في الثالثة تمامًا كانت آنا تقف أمام موظفة السكرتارية بمكتب ريتشارد، وهي تقول في نفسها إنه سوف يتعمد أن يبقيها منتظرة بعض الوقت، عشر دقائق ستكون في رأيها كافية لإشباع غروره، بعد خمس عشرة دقيقة أبلغوها أنها من الممكن أن تدخل.

يبدو ريتشارد وهو جالس على مكتبه، كما قال تومي، مثيرًا للإعجاب على نحو لم تتوقعه. تشغل المكاتب الرئيسية لهذه الإمبراطورية التجارية أربعة أدوار في مبنى قديم من مباني المدينة. لم تكن هذه هي المكاتب التي تنجز بها الأعمال الفعلية، ولكنها واجهة لشخصية ريتشارد وشركائه. الديكور صمم بعناية واعتمد على تصميمات عالمية، يمكن أن يراها المرء في أي مكان في العالم. منذ اللحظة الأولى التي يدخل فيها المرء من الباب الرئيسي الكبير، كل شيء يمر به في طريقه، المصاعد والردهات وغرف الانتظار، يُعِدُّه على نحو غير مباشر لتلك اللحظة التي سيدخل فيها مكتب ريتشارد في النهاية. الأرضية مفروشة بسجاد داكن اللون سمكه ست بوصات، والحوائط زجاج داكن فيما بين الألواح البيضاء، الإضاءة بالغرفة خافتة وآتية في الغالب من خلف النباتات المتسلقة على الحائط التي تدلت فروعها الخضراء اليانعة من مستوى إلى آخر. جلس ريتشارد بوجهه الذي بدت عليه أمارات التجهم والعناد يرتدي حلة من الصوف وهو جالس خلف مكتب من الرخام الأخضر بدا مثل المقبرة.

في أثناء انتظار آنا خارج مكتب ريتشارد أخذت تتفحص موظفة السكرتارية ولاحظت أنها مثل ماريون: «فتاة غجرية أخرى» تبدو بمظهرها لمحة من عدم الاهتمام، ومع ذلك جذابة ومفعمة بالحيوية. حرصت آنا على أن ترقب كيف سيتصرف ريتشارد مع هذه الفتاة في الثواني القليلة التي استغرقها الطريق من مكتب السكرتارية إلى مكتب ريتشارد، فلاحظت أنهما تبادلا نظرة وفهمت أنه على علاقة بها. أدرك ريتشارد أن آنا توصلت إلى النتيجة فقال لها: «أنا لا أريد أن أستمع إلى واحدة من محاضراتكِ يا آنا، أريد أن أتحدث معكِ في أمور جادة.»

– جئت إلى هنا من أجل أن أتحدث في هذه الأمور الجادة، أليس كذلك؟

كبت ريتشارد ضيقه، لم تجلس آنا على المقعد المقابل لمكتبه كما عرض عليها، ولكن اختارت أن تجلس على حافة إحدى النوافذ على مسافة من مكتبه. قبل أن يبدأ ريتشارد حديثه معها أضاء نور أخضر على شاشة الهاتف الموضوع على مكتبه، فاستأذن آنا أن يجيبه. «دقيقة واحدة.» هكذا قال مرة أخرى، ثم فُتح باب داخلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ودلف شاب يمسك بملف في يده ووضعه بأسلوب مهذب للغاية على الحجر الرخامي أمام ريتشارد ويكاد ينحني ثم انصرف خارجًا وهو يسير على أطراف أصابعه.

فتح ريتشارد الملف سريعًا وكتب ملاحظة بقلم رصاص وكان على وشك أن يضغط على زر آخر حينما نظر إلى وجه آنا فسألها: «هل ترين أي شيء غريب على وجه التحديد؟»

– على وجه التحديد، لا. أنا أذكر قولًا سمعته يقول إن قدر أي رجل من الشخصيات العامة يقاس بعدد الشباب دمثي الخلق المحيطين به.

– أظن أن مولي هي من قالت ذلك.

– نعم، هي مولي. يدفعني فضولي إلى أن أسألك كم شابًّا يحيط بك؟

– أربعة وعشرون على ما أظن.

– أظن أن رئيس الوزراء لا يمكن أن يذكر مثل هذا العدد.

– نعم لا يمكنه. آنا، أعليك دائمًا أن تسخري مني؟

– كنت أحاول أن أفتح مجالًا للحوار فقط.

– في هذه الحالة سوف أوفر عليك هذه المشقة. أنا أود أن أتحدث معكِ بخصوص ماريون، هل علمت أنها تقضي كل وقتها مع تومي؟

– أخبرتني مولي، وأخبرتني أيضًا أنها لم تعد تشرب.

– إنها تذهب إلى المدينة كل صباح، تشتري كل الجرائد وتقضي الوقت في قراءتها لتومي، وتعود إلى المنزل في السابعة أو الثامنة، وكل ما تتكلم عنه إما تومي وإما شئون السياسة.

– توقفت عن الشرب. هكذا قالت له آنا مرة أخرى.

– أما أطفالها فإنها تراهم على مائدة الإفطار، وإن كانوا محظوظين تجلس معهم ساعة في المساء، أظن أن وجودهم من الأساس لا يخطر ببالها معظم الوقت.

– أظن أنك يجب أن تبحث عن واحدة في الوقت الحالي.

– اسمعي يا آنا، لقد طلبت منكِ أن تأتي إلى هنا حتى نناقش الأمر مناقشة جدية.

– أنا لا أمزح، أرى أنك يجب أن تبحث عن سيدة لطيفة لتجلس مع الأولاد حتى تفصح الأمور عن نفسها.

– يا إلهي، كم سيكلفني ذلك من ... هنا تدارك ريتشارد نفسه وتوقف وقطب جبينه وبدا عليه الشعور بالإحراج.

– أتعني أنك لا ترغب في وجود امرأة غريبة بمنزلك ولو لفترة مؤقتة؟ لا يمكن أن تكون المسألة متعلقة بالتكلفة المادية، فماريون تقول إنك تكسب ثلاثين ألف جنيه كل عام بالإضافة إلى الدخول الإضافية والبديلة.

– إن حديث ماريون عن المال يكون هراءً غالبًا. أنا لا أرغب في وجود امرأة غريبة بالمنزل، إن الأمر كله مستحيل! لم تفكر ماريون يومًا بشئون السياسة. فجأة أصبحت تقص المقالات من الجرائد وتحفظ عن ظهر قلب ما يُكتب بمجلة نيو ستيتسمان.

ضحكت آنا وقالت: «ما الأمر يا ريتشارد؟ وماذا في ذلك؟ كانت ماريون تبدو سخيفة وحمقاء حينما تشرب، ولكنها توقفت عن احتساء الشراب، وهذا يستحق التضحية بأي شيء، أتصور أنها تؤدي دورها الآن كأم أفضل مما مضى.»

– أنت تبالغين للغاية!

ارتعشت شفتا ريتشارد، وانتفخ وجهه واحمر، ولكنه حينما رأى وجه آنا الذي بدا واضحًا عليه أنها أيقنت أنه يرثي لنفسه، حاول أن يستعيد رباطة جأشه بالضغط على جرس الاستدعاء. وعندما دخل شاب آخر مهذب وهادئ أيضًا ناوله الملف وقال: «اتصل بالسيد جونز وادعه لتناول الغداء معي يوم الأربعاء أو الخميس بالنادي.»

– من هو السيد جونز؟

– أنتِ تعلمين أن هذا الأمر لا يهمكِ.

– بلى أنا مهتمة.

– إنه رجل جذاب للغاية.

– عظيم.

– ويحب الأوبرا ... ويعرف كل شيء عن الموسيقى.

– رائع.

– وسوف نشتري قريبًا حصة من أسهم شركته تعطينا حق الإدارة.

– كل هذا عظيم جدًّا يا ريتشارد، أليس كذلك؟ أتمنى أن تدخل في صلب الموضوع مباشرة، في ماذا تفكر؟

– إن دفعت لأي امرأة لكي تأتي وتحل محل ماريون مع الأولاد، فسوف تنقلب حياتي رأسًا على عقب، هذا بالإضافة إلى التكلفة المادية التي سأتحملها. لم يستطع ريتشارد أن يمنع نفسه من أن يقول هذه الجملة الأخيرة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أرى أن سبب اهتمامك بالمال إلى هذا الحد هو فترة الضياع التي عشتها في الثلاثينيات، أنا لم أقابل في حياتي شخصًا وُلِد غنيًّا يفكر في المال مثلما تفكر فيه، أظن أنك صدمت صدمة حقيقية عندما حرمتك عائلتك من الميراث في الثلاثينيات، أنت تتصرف وكأنك رجل أعمال بسيط وصل إلى أكثر مما يتوقع.

– نعم، معك حق، كان الأمر صدمة لي، لأول مرة في حياتي أدرك قيمة المال، أنا لم أنس ذلك قط، وأوافقكِ الرأي أنني أفكر في المال مثل شخص صنعه بمجهوده، ولكن ماريون لم تفهم قط هذا الأمر ... وأنتِ ومولي دائمًا تقولان لي إنها حادة الذكاء.

كانت نبرته وهو يلفظ هذه الجملة الأخيرة نبرة رجل ذي خلق طعنه الآخرون في مبادئه حتى إن آنا أطلقت ضحكة أخرى، ضحكة صادقة. «أنت لطيف للغاية يا ريتشارد، أنت لطيف حقًّا. حسنًا، دعنا من الجدال. أصبت بصدمة حقيقية حينما أخذت عائلتك تسليتك بالمبادئ الشيوعية على محمل الجد، ومن ثَم حرمتك من المال إلى الأبد، ولم يحالفك الحظ مع المرأتين اللتين تزوجتهما، فمولي وماريون كلتاهما غبيتان وكل منهما صدمتك بشخصيتها.»

يواجه ريتشارد الآن آنا بذلك العناد المتأصل فيه: «نعم، هكذا أرى الموقف.»

– عظيم، وماذا بعد؟

ولكن ريتشارد حول عينيه عنها، وجلس ينظر — وقد قطب جبينه — إلى خط من الأوراق الخضراء الجميلة انعكست صورتها على الزجاج الداكن. خطر لآنا أنه لم يرغب في مقابلتها لكي يطرح عليها هجومه على مولي كعادته، ولكن لكي يطلعها على خطة ما تدور برأسه.

– فيما تفكر يا ريتشارد؟ هل ستستغني عن ماريون؟ هل هذا هو الأمر؟ هل تفكر في أن تعيش ماريون ومولي عندما يطعن بهما السن في مكان ما بينما أنت ... تكتشف آنا أن هذه الفكرة الخيالية التي طافت برأسها تقترب في واقع الأمر من الحقيقة: «لا يا ريتشارد، لا يمكنك أن تتخلى عن ماريون الآن، في تلك اللحظة التي استطاعت أن تتغلب فيها على إدمانها للشراب».

قال ريتشارد في غضب: «إنها لا تأبه بي، ليس لديها وقت لي، ربما أنا لست موجودًا في تفكيرها على الإطلاق.» كان يتكلم بلهجة تطل منها كرامته المجروحة، صُعقت آنا، إنه يشعر حقًّا بأنه جُرح. أصبح يشعر بالوحدة والإهانة حينما خرجت ماريون من عباءة السجينة التي كانت ترتديها، أو كفت عن لعب دور الزوجة الضحية.

– بالله عليك يا ريتشارد، أنت تجاهلتها سنوات، استخدمتها ببساطة وكأنها ....
مرة أخرى ترتعش شفتاه في غضب وتمتلئ عيناه الداكنتان بالدموع.

– يا إلهي! هكذا قالت آنا ولم تزد، كانت تقول في نفسها: أنا ومولي حمقاوان، هكذا يحب ريتشارد، ولا يعرف سبيلًا آخر غير ذلك، وهذا أيضًا هو السبيل الذي تعرفه ماريون في الأغلب.

قالت آنا: «ما خطتك إذن؟ داخلني شعور بأنك على علاقة مع هذه الفتاة التي تجلس بالخارج؟ هل هذا هو الأمر؟»

– نعم، هو كذلك. على الأقل هي تحبني.

قالت آنا في لهجة يائسة: «ريتشارد.»

– هذه هي الحقيقة، ربما ماريون لا تبادلني هذا الشعور.

– ولكن إذا طلقت ماريون الآن سوف تنهار تمامًا.

– أنا لا أظن أنها حتى لاحظت ذلك. على أي حال أنا لا أنوي أن أقوم بأي شيء فجأة، أقترح أن تذهب ماريون لقضاء إجازة مع تومي، إنهما يمضيان كل وقتهما معًا. سوف أرسلهما إلى أي مكان يريدانه، وليمضيا المدة التي يرغبانها، وأثناء فترة سفرهما سوف أحاول أن أدخل جين إلى حياة الأطفال بالتدريج، إنهم يعرفونها بالطبع ويحبونها، ولكنني أود أن أهيئهم إلى تقبل فكرة زواجي منها عندما يحين الوقت المناسب.

ظلت آنا صامتة حتى استحثها هو في تصميم: «حسنًا يا آنا، ما ترين؟»

– أنت تعني، ماذا ترى مولي؟

– أنا أسألكِ أنتِ يا آنا، أعرف أن الأمر ربما يمثل صدمة لمولي.

– لن يكون الأمر صدمة لمولي، وأنت تعرف أنها لم تصدم يومًا بسبب أي فعل من أفعالك، ماذا تريد أن تعرف إذن؟

لم تشأ آنا أن تساعده، ليس لأنها تنفر منه فقط، بل لأنها تنفر من نفسها أيضًا وهي تجلس بمقعدها في موقع الحكم، توجه الانتقادات بمشاعر باردة ويجلس هو أمامها بوجه مبتئس. ظلت آنا تجلس على حافة النافذة تدخن سيجارًا وقد طأطأت رأسها.

– آنا، ماذا ترين؟

– فيما يتعلق بمولي، أظن أنها سترتاح إذا سافر تومي وماريون إلى أي مكان لفترة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– بالطبع سترتاح، سيخف عنها العبء!

– اسمع يا ريتشارد، إذا كنت تسيء إلى ماريون أمام الآخرين، فلن يكون بإمكانك أن تفعل ذلك أمامي.

– أين هي المشكلة إذن، إذا كانت مولي لن تمانع؟

– المشكلة في تومي.

– لمَ؟ قالت لي ماريون إنه من الواضح أنه لا يرغب حتى في وجود مولي بغرفته، إنه يكون سعيدًا معها هي فقط، أعني مع ماريون.

ترددت آنا برهة ثم قالت: «أعدّ تومي كل شيء بحيث تبقى أمه بالمنزل، ليس بجانبه، ولكن بالقرب منه، وكأنها سجينته، وهو على الأغلب لن يضحي بذلك، ربما يتنازل ويفكر في الذهاب مع ماريون في إجازة، ولكن على شرط أن ترافقهما مولي حتى تكون تحت السيطرة ...».

انفجر ريتشارد غاضبًا: «رباه، كان لا بد أن أعرف ذلك، أنتما قذرتان ووضيعتان وقاسيتا القلب، أنتما زوج من ...» هكذا غمم ريتشارد ثم صمت وتعالى صوت أنفاسه، ولكنه كان ينظر إليها وقد اعتلى الفضول وجهه، منتظرًا أن يسمع ماذا ستقول.

– دعوتني إلى هنا لكي أقول ما قلته، حتى يتسنى لك أن تكيل لي أو لمولي الشتائم، وقد أسديت لك معروفًا وقلت ما تريد أن تسمعه، وسوف أعود الآن إلى منزلي.

نزلت آنا من فوق حافة النافذة العالية ووقفت مستعدة لأن ترحل وتملكها شعور بالنفور من نفسها، كانت تقول في نفسها: من المؤكد أن ريتشارد دعاني إلى مكتبه من أجل الأسباب المعتادة نفسها ... حتى ينتهي بي الأمر إلى أن أوجه له الإهانات، كان لا بد أن أفهم ذلك من البداية، إذن أنا هنا لأنني أرغب في أن أهينه وأهين ما يمثله. لا بد أن أخجل من نفسي لأنني جزء من هذه اللعبة الغبية. ومع أنها كانت تفكر في ذلك، ومع أن ما تفكر فيه كان صحيحًا، فقد وقف ريتشارد أمامها منتظرًا أن توجه له لطمتها، فاستطردت آنا: «البعض يحتاج إلى ضحايا يا عزيزي ريتشارد، لا بد أنك تفهم ذلك؟ فتومي هو ابنك.» مشت آنا تجاه الباب الذي دخلت منه، ولكن الباب بلا مقبض، فبداخل هذا المكتب يفتح الباب بضغطة زر من الخارج أو من مكتب ريتشارد.

– ماذا سأفعل يا آنا؟

– أنا لا أظن أنه سيكون بإمكانك أن تفعل أي شيء.

– لن أدع ماريون تخدعني وتنتصر عليَّ!

مرة أخرى تتملكها الدهشة فتضحك: «كف عن هذا يا ريتشارد! عانت ماريون كثيرًا ولم تعد تحتمل المزيد، وهذا هو كل ما في الأمر، فهناك دائمًا طرق للهرب حتى لدى أضعف الأشخاص إرادة، اتجهت ماريون نحو تومي لأنه يحتاج إليها، هذا هو كل ما في الأمر، أنا على ثقة من أنها لم تخطط لأي شيء ... أنت تقول إن ماريون تخدعك لتنتصر عليك هو شيء ....».

– حتى وإن كان ذلك صحيحًا، إنها تقصد كل ما تفعله وتتفاخر به، هل تعلمين ماذا قالت لي منذ شهر؟ قالت لي: يمكنك أن تنام بمفردك يا ريتشارد و ....

كاد ريتشارد أن يقول كل ما قالته له ولكنه تدارك نفسه.

– ولكنك كنت تشتكي حتى من النوم معها على فراش واحد يا ريتشارد!

– ولكنني أعيش الآن وكأنني أعزب، فماريون لديها غرفتها الخاصة، وهي لا توجد بالمنزل، لماذا أُحرم من أن أعيش حياة طبيعية؟

– ولكن يا ريتشارد ....

توقفت آنا حينما شعرت أن النقاش سيكون عقيمًا، ولكن ريتشارد لا يزال مترقبًا، يرغب في أن يعرف ماذا ستقول. قالت آنا: «ولكن أنت لديك جين يا ريتشارد، ومن المؤكد أنك ستبحث عن علاقة بمكان ما، لديك سكرتيرتك.»

– إنها لن تظل تنتظر إلى الأبد، فهي تريد أن تتزوج.

– ولكن يا ريتشارد لديك مخزون من موظفات السكرتارية لا ينقطع، لا ترسم التأثر على وجهك هكذا، أقمت علاقات مع أكثر من عشر موظفات بالسكرتارية لديك، هذا على أقل تقدير.

– أريد أن أتزوج من جين.

– لا أظن أن هذا الأمر سيكون سهلًا، لن يسمح تومي بذلك حتى إذا وافقت ماريون على الطلاق.

– قالت إنها لن توافق على الطلاق.

– أعطها بعض الوقت.

– الوقت؟ إن العمر يتقدم بي، في العام القادم سأبلغ الخمسين من عمري، ليس لدي وقت لأضيعه، إن جين في الثالثة والعشرين من عمرها، لماذا ستنتظر وتضيع ما لديها من فرص بينما ماريون ....

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا بد أن تتكلم مع تومي، أنت تعرف بالطبع أنه هو من يملك مفاتيح كل شيء.

– لن أحصل منه إلا على مزيد من التعاطف، إنه دائمًا يقف إلى جانب ماريون.

– ربما عليك أن تحاول أن تُوقفه إلى جانبك.

– ليس هناك فرصة لذلك.

– نعم، ليس هناك فرصة لذلك، أظن أنه سيكون عليك أن تمشي على الخط الذي رسمه تومي، مثلما تفعل مولي وماريون أيضًا.

– هذا هو ما توقعته منكِ تمامًا، إن الولد معاق، وأنت تتحدثين عنه وكأنه مجرم.

– أعرف أن هذا هو ما توقعته، وأنا لا أسامح نفسي لأنني نفذت ما توقعته، دعني أعد إلى منزلي يا ريتشارد، افتح الباب.

وقفت آنا بجانب الباب منتظرة أن يفتحه ريتشارد.

– ووصل بكِ الأمر إلى أنكِ تضحكين على هذه الفوضى المثيرة للشفقة.

– أنا أضحك، كما تعرف جيدًا، على منظر رجل من أعمدة القوة المالية لبلدنا العظيمة وهو يقف فوق سجادة مكتبه الفاخرة يترنح من الغضب مثل طفل في الثالثة، دعني أخرج يا ريتشارد من فضلك.

تحامل ريتشارد على نفسه واتجه إلى مكتبه وضغط على أحد الأزرار، فانفتح الباب.

– لو كنت مكانك لانتظرت بضعة أشهر ثم عرضت على تومي وظيفة هنا، وظيفة مرموقة ومهمة.

– هل تعنين أنه سيتعطف ويقبلها الآن؟ أنتِ مجنونة، إنه يركب موجة اليساريين، هو وماريون، يجن جنونهما بلا داعٍ من أجل الأخطاء التي ترتكب في هذه الآونة في حق السود المساكين، عليهم اللعنة.

– حسنًا، ولمَ لا؟ إنه شيء عصري للغاية، ألا تعلم ذلك؟ إنك فقط تفتقر إلى ذلك الحس بالأحداث المعاصرة، أتعلم أنك تفتقر إلى هذا النوع من الحس دائمًا، هذه ليست موجة اليسار، بل موجة الموضة.

– كنت أظنكِ ستسعدين بذلك.

– أنا سعيدة بذلك. وتذكر ما قلته لك ... إذا استطعت أن تتصرف على نحو صحيح، فسوف يسعد تومي بقبول وظيفة هنا، وربما يأخذ مكانك.

– سوف أكون سعيدًا بذلك، لطالما لم تفهميني يا آنا، أنا لا أستمتع بهذا العمل، أنا أرغب في أن أتقاعد بأسرع ما يمكنني، وأذهب لأعيش حياة هادئة مع جين وربما أنجب المزيد من الأطفال، هذا هو ما أخطط له، أنا لم أخلق من أجل الأعمال المالية.

– ومع ذلك ضاعفت أرباح إمبراطوريتك المالية وأصولها، كما تقول ماريون، أربع مرات منذ أن توليت إدارتها. إلى اللقاء يا ريتشارد.

– آنا.

– ما الأمر؟

أسرع ريتشارد إليها ليقف بينها وبين الباب نصف المفتوح ودفعه بمقعدته في حركة فجائية سريعة ليغلقه. ذكرها التناقض بين هذه الحركة الفجائية من جهة والسلاسة التي تدار بها أجهزة ذلك المكتب الفاخر — أو بالأحرى ذلك المعرض — التي يُتَحَكم فيها من بعد، ذكرها ذلك، وهي تقف بالباب منتظرة أن ترحل، بنفسها التي تشذ عما حولها، رأت نفسها: صغيرة وجميلة وذات وجه شاحب اعتلته ابتسامة ناقدة يومض بها الذكاء. شعرت كأنها باتت مثل موجة من فوضى القلق والتوتر، فتلك الحركة الفجائية القميئة التي قام بها ريتشارد بمقعدته التي تغطيها الثياب الفاخرة ليست إلا انعكاسًا لحالة التخبط والارتباك الداخلية التي تخفيها داخلها، ولذلك فمن النفاق أن تشعر نحوه بالاشمئزاز أو النفور. داخلها شعور بالإرهاق وهي تفكر في هذا الأمر وتمليه على نفسها وقالت: «أنا لا أرى أي جدوى من ذلك يا ريتشارد، فكلما التقينا سارت الأمور على هذا النحو نفسه.»

شعر ريتشارد بتلك اللحظة الخاطفة التي استسلمت فيها آنا إلى الإحباط، كان يقف أمامها مباشرة وقد تعالت أنفاسه وضاقت عيناه الداكنتان، ثم بدأ يرسم على شفتيه في بطء ابتسامة ساخرة. تساءلت آنا: ما الذي يحاول أن يذكرني به؟ إنه لا يحاول بالتأكيد أن يذكرني بتلك الواقعة ... لا، بل هو يحاول أن يفعل. كان ريتشارد يحاول أن يستحضر إلى ذاكرتها ذلك المساء الذي ربما تكون قد ضاجعته فيه، فقط من قبيل الصدفة. وبدلًا من أن تشعر بالغضب أو الازدراء عرفت أنها بدت محرجة ومرتبكة تحت الأضواء التي سلطها ريتشارد عليها. قالت آنا: «من فضلك يا ريتشارد افتح الباب.» ولكنه ظل واقفًا مسلطًا عليها سهام سخريته لكي يضغط عليها، وهو يتلذذ بذلك، ثم مشت آنا أمامه إلى الباب وحاولت أن تدفعه حتى يُفتح، بإمكانها أن ترى نفسها وهي تدفع الباب في ارتباك بحركات خرقاء دون جدوى، ثم انفتح الباب عندما عاد ريتشارد إلى مكتبه وضغط على الزر المناسب، مشت آنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مباشرة إلى الخارج ومرت من أمام موظفة السكرتارية، تلك الفتاة اليافعة التي ربما تخلف ماريون، ثم هبطت عبر قلب المبنى المضيء الذي فرشت به الوسائد وغطى السجاد أرضيته وامتلأ بنباتات الزينة، وخرجت إلى الشارع القبيح الذي استقبلته في امتنان.

اتجهت آنا إلى أقرب محطة مترو ومخها متوقف تمامًا عن التفكير، أدركت أنها على وشك الانهيار. بدأ وقت الذروة ووجدت آنا نفسها تشق طريقها وسط قطيع من البشر، فجأة تملكها الذعر، وتمكن منها حتى إنها تراجعت مبتعدة عن الناس، تتخبط في طريقها إلى شباك التذاكر، وقفت هناك مستندة على إحدى الجدران والعرق يبلل كفيها وإبطيها. انتابتها تلك الحالة منذ وقت قريب مرتين خلال زحام وقت الذروة، بدأت تفكر وهي تحاول بكل جهدها أن تستعيد رباطة جأشها: هناك شيء يحدث لي، أنا أنزلق على سطح شيء ما وأحاول ألا أقع ... ولكن ما هذا الشيء؟ ظلت واقفة أمام الجدار، عاجزة عن أن تعود إلى الزحام مرة أخرى. إن المدينة الآن تموج في الزحام، فهذه هي ساعة الذروة ... وليس أمامها سبيل لكي تقطع سريعًا الأميال الخمسة أو الستة التي تفصلها عن بيتها إلا مترو الأنفاق، لا أحد يستطيع أن يصل إلى منزله سريعًا إلا عن طريقه، كل هؤلاء الأشخاص واقعون في شِباك ذلك الضغط الذي توقعه عليهم المدينة، كلهم فيما عدا ريتشارد وأمثاله، إذا صعدت إلى المبنى مرة أخرى وطلبت منه أن يطلب لها سيارة لتوصلها إلى المنزل فسيفعل، وسوف يسعد بذلك، ولكنها بالطبع لن تكون سعيدة. ليس أمامها حل سوى أن تحمل نفسها على المضي قُدُمًا. أجبرت نفسها على أن تتقدم إلى الأمام، ووجدت لنفسها مكانًا وسط الزحام، وانتظرت دورها لكي تشتري تذكرة ثم هبطت السلم الكهربي وسط سيل من الأشخاص. على الرصيف مرت أربعة قطارات قبل أن تتمكن من أن تدفع بنفسها داخل إحدى العربات وسط الأشخاص المتدافعين الذين يعتصرونها، مرت المرحلة الصعبة، كل ما عليها الآن أن تقف معتدلة القامة بفضل الأشخاص الملتحمين بها داخل العربة المزدحمة التي تضيئها الأنوار الساطعة وتنبعث منها الروائح الكريهة، وفي خلال عشر أو اثنتي عشرة دقيقة ستصل إلى المحطة التي ستنزل بها. ما كانت تخشاه آنا هو أن تفقد وعيها.

كانت آنا تفكر: إن انهار شخص ما، ماذا يعني ذلك؟ في أي لحظة يستطيع الشخص الذي على وشك أن يهوي وتتناثر شظاياه أن يقول: أنا أنهار؟ وإذا كنت سأنهار فكيف سيحدث ذلك؟ أغمضت عينيها، وهي ترى وميض الضوء المنعكس

على جفنيها وتشعر بالأجساد الملتحمة بها حولها وتشتم رائحة العرق والقذارة. كانت تعلم بوجود آنا، التي تضاءلت فأصبحت نقطة صغيرة من المثابرة تومض بداخلها. ظلت تردد آنا، آنا، أنا آنا، ولكن على أي حال لا يمكن أن أمرض أو أستسلم من أجل جانيت، يمكن أن أختفي من العالم غدًا، ولن يهتم أحد بذلك سوى جانيت، ماذا إذن يمكن أن أكون أنا، آنا؟ ... شيء ضروري لجانيت. ولكن هذا شيء سيئ، هكذا تبادر إليها وتصاعد الخوف داخلها، هذا ليس في مصلحة جانيت، إذن فلأحاول مرة أخرى: من أكون أنا، آنا؟ لم تفكر الآن في جانيت، دفعت بها إلى خارج الصورة. إنها الآن ترى غرفتها الفسيحة البيضاء ذات الأضواء الخافتة، وترى دفاترها بألوانها الأربعة مستقرة على الطاولة ذات القوائم الخشبية، وترى نفسها، ترى آنا تجلس على كرسي البيانو تكتب وتكتب، تدون شيئًا بإحدى الدفاتر، ثم تشد فوقه خطًّا وتشطبه، كانت ترى الصفحات مكتوبة بأساليب مختلفة، ترى الخطوط تقسمها، والأقواس تحيط بما كتب فيها، ترى كتابات ناقصة ... شعرت آنا بالغثيان الشديد، ثم رأت تومي، وليس هي، يقف وقد ضم شفتيه في تركيز يقلب صفحات دفاترها المرتبة.

فتحت عينيها وهي تشعر بدوار ويتملكها الخوف، رأت سقف العربة الذي تلألأت فيه الأضواء يتأرجح من فوقها، ومرت أمام عينيها لافتات الإعلانات التي اختلطت معالمها بعضها ببعض، ورأت الوجوه تخلو من أي تعبير كأنها صفحات بيضاء يظهر من عيونها المفتوحة عن آخرها كيف يحاول أصحابها جاهدين أن يحافظوا على توازنهم داخل عربة القطار. على بعد ست بوصات وجه ذو بشرة رمادية تميل إلى الصفرة تتناثر عليها البثور الكبيرة، وشفتان مجعدتان ورطبتان، عينا صاحب ذلك الوجه مثبتتان عليها، ارتسمت على ذلك الوجه ابتسامة امتزج الترحيب فيها بالخوف، قالت آنا في نفسها: كان ينظر إلى وجهي وأنا أغمض عيني متخيلًا وجهه وهو يعلوه، داخلها شعور بالامتعاض، فلوت عنقها وحولت بصرها بعيدًا عنه. أنفاسه غير المنتظمة تلفح وجنتها برائحتها الكريهة، ولا يزال أمامها محطتان قبل أن تنزل من العربة. سحبت نفسها مبتعدة عنه في بطء، بوصة بوصة، وهي تشعر كيف شق الرجل طريقه وسط زحام العربة التي تهتز وتتمايل متبعًا إياها، وبدا وجهه الذي اعتلته الإثارة منفرًا، كان قبيحًا. يا إلهي، إنهم قبحاء، كلنا قبحاء، هكذا تبادر لآنا، وشعرت ببدنها يقشعر من اقترابه وتخللها إحساس بالنفور، عندما قدمت المحطة نزلت آنا وسط سيل الأشخاص الذين نزلوا من العربة وصعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إليها سيل آخر من البشر، نزل الرجل وشق طريقه وسط الزحام وراءها على السلم الكهربي ووقف خلفها عند ماكينات العبور. وضعت تذكرتها في الماكينة وأسرعت بالعبور ثم استدارت إليه مقطبة جبينها وهو يقول من خلفها تمامًا: «أترغبين في التنزه؟ أترغبين في التنزه معي؟» إنه يبتسم ابتسامة عريضة مزهوًّا بانتصاره، فقد أهانها في مخيلته وانتصر عليها وهي تقف مغمضة العينين في عربة القطار. قالت: «اذهب من هنا.» ثم واصلت سيرها وخرجت من محطة المترو إلى الشارع، لا يزال الرجل يتتبعها، داخلها إحساس بالخوف، ثم اندهشت من نفسها وشعرت بالخشية من كونها خائفة. ماذا حدث لي؟ إن هذا الشيء يحدث كل يوم، هكذا هي الحياة في المدينة، إنها لا تؤثر فيَّ ... ولكنها تؤثر فعلًا فيها، مثلما أثرت فيها رغبة ريتشارد العنيفة في أن يهينها منذ نصف ساعة بمكتبه. معرفتها بأن الرجل لا يزال يتتبعها وهو يبتسم تلك الابتسامة البغيضة حركت داخلها رغبة في أن تعدو هاربة في ذعر. قالت في نفسها: لو كان بإمكاني أن أرى أو ألمس شيئًا ليس قبيحًا ... أمامها تمامًا عربة فاكهة، تراصت عليها كميات من البرقوق والخوخ والمشمش. وقفت لتشتري الفاكهة وأخذت تشتم الرائحة النقية اللاذعة، وتتحسس القشور الناعمة أو تلك التي يكسوها الزغب الناعم، شعرت بأنها أفضل، وتلاشت موجة الذعر التي اجتاحتها، يقف الرجل الذي ظل يتتبعها على مقربة منها في ترقب وهو يبتسم، ولكنها الآن في مأمن منه، مشت أمامه وشعورها بالأمان يحيطها ويحصنها.

تأخرت آنا، ولكن لم تكن قلقة ... فسيكون إيفور هناك. عندما كان تومي في المستشفى وآنا تمضي معظم الوقت مع مولي دخل إيفور حياتهما، وتحول من ذلك الشاب الذي لا يكادون يعرفونه، الذي يسكن بالغرفة العليا ويلقي عليهم التحية في الصباح والمساء، ويدخل ويخرج في هدوء دون أن يلفت إليه الانتباه، تحول إلى صديق لجانيت؛ يأخذها إلى السينما عندما تكون آنا في المستشفى ويساعدها في أداء واجباتها المدرسية، ويقول لآنا دائمًا إنه لا داعي لأن تقلق، فهو سعيد للغاية لرعايته جانيت، وكان سعيدًا بذلك حقًّا. ومع ذلك لم تشعر آنا بالارتياح حيال هذا الوضع الجديد، ليس بسببه أو بسبب جانيت، فهو يظهر أسمى آيات التفهم وهو مع جانيت.

جالت برأسها فكرة وهي تصعد السلم القبيح المؤدي إلى باب شقتها: إن جانيت تحتاج لرجل في حياتها، إنها تفتقد وجود الأب، وإيفور يتعامل معها بمنتهى اللطف، ولكنه ليس رجلًا ... ماذا أعني حينما أقول إنه ليس رجلًا؟ إن ريتشارد رجل،

ومايكل رجل، ولكن إيفور ليس رجلًا، أعرف أنه في وجود «رجل حقيقي» ستُخلق مساحة كاملة من التوتر، من التفهم الساخر الذي لا يمكن أن يكون موجودًا مع إيفور، سيوجد بعد جديد ليس موجودًا الآن، ولكنه مع ذلك يتصرف في رقة شديدة معها، إذن ما الذي أعنيه بكلمة «رجل حقيقي»؟ فقد تعلقت جانيت بإيفور كثيرًا، وتعلقت أيضًا — أو قالت كذلك — بصديقه روني.

منذ بضعة أسابيع سأل إيفور آنا هل بإمكانه أن يحضر صديقًا له ترك وظيفته وليس معه ما يكفي من المال، ليتقاسم معه غرفته، قامت آنا بالترتيبات التقليدية المعروفة بداية من وضع فراش آخر بالغرفة إلى آخر هذه الأشياء. أدى كل طرف من الطرفين دوره، ولكن روني لم ينتقل إلى غرفة إيفور فقط بل إلى فراشه أيضًا، ولأن المسألة لم تشكل فرقًا لآنا فلم تقل شيئًا، وعلى ما يبدو فإن روني ينوي أن يبقى ما دامت لم تقل شيئًا. عرفت أن وجود روني بالمنزل هو الثمن الذي عليها أن تدفعه مقابل تودد إيفور لجانيت ورعايته لها.

روني شاب جذاب ذو بشرة سمراء وشعر لامع مجعد صُفِّفَ بعناية وابتسامة براقة تكشف عن أسنان بيضاء. كانت آنا تنفر منه، ولكن لأنها تعرف أن نفورها هذا من النوع وليس من الشخص، استطاعت أن تتحكم في ذلك الشعور. يتصرف هو أيضًا في لطف مع جانيت ولكن ليس من قلبه (مثلما يفعل إيفور)، ولكن تلطفه معها من باب الحيلة. وربما علاقته بإيفور من باب الحيلة أيضًا. كل ذلك لم يكن يهم آنا، ولم يكن يؤثر في جانيت، فهي تثق بإيفور وتثق في أن طفلتها لن تتعرض لأي صدمة، ومع ذلك تشعر بعدم الارتياح. يجول بخاطرها: لو افترضت أنني أعيش مع رجل ... «رجل حقيقي» ... أو كنت متزوجة، من المؤكد أن ذلك سيخلق نوعًا من التوتر لجانيت، فسوف تتضايق منه ويكون عليها أن تتقبله، ويكون عليها أن تصل معه إلى اتفاق، وسوف ينبع ضيقها تحديدًا من صفته الجنسية، من كونه رجلًا. أو هب أن رجلًا يعيش هنا، رجل لا أضاجعه، أو لا أريد أن أضاجعه، كونه «رجلًا حقيقيًّا» سوف يثير التوتر، ويوجد نوعًا من التوازن. حسنًا، لماذا إذن أشعر بأنه يجب أن يكون لديّ رجل حقيقي — من أجل مصلحة جانيت، ولأدع مصلحتي الآن جانبًا — بدلًا من إيفور ذلك الشاب الرقيق المتفهم الودود؟ هل هذا يعني أنني أقول، أو أتصور (هل الجميع يتصورون؟) أن الأطفال يحتاجون التوتر حتى يكبروا؟ ولكن لمَ؟ ولكنني أشعر فعلًا بذلك وإلا لما كان القلق يداخلني حينما أرى إيفور جالسًا مع جانيت لأنه يبدو مثل كلب كبير ودود، أو أخ أكبر لا ضرر منه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأنا أقول لا ضرر منه. الازدراء، أنا أشعر بالازدراء، وإنه لعار أن أشعر بذلك. رجل حقيقي؟ ... مثل ريتشارد؟ أو مايكل؟ إن كليهما يتصرف بغباء مع أولادهما، ولكنني مع ذلك أشعر أنه من المؤكد أن صفتهما، انجذابهما للنساء وليس للرجال أفضل لجانيت مما لدى إيفور.

صعدت آنا السلالم المعتمة والمتربة ووصلت إلى شقتها النظيفة وسمعت صوت إيفور قادمًا من أعلى، يقرأ لجانيت، عبرت آنا باب حجرتها الكبيرة وصعدت السلالم الداخلية البيضاء، ووجدت جانيت تجلس القرفصاء في فراشها بشعرها الأسود وملابسها غير المهندمة، أما إيفور ذلك الشاب الودود ذو البشرة السمراء والشعر الكثيف الأشعث فيجلس على الأرض رافعًا إحدى يديه، يقرأ في اهتمام شديد قصة عن بعض فتيات المدارس. هزت جانيت رأسها وهي تنظر لوالدتها لكي تحذرها من مقاطعة إيفور، أما إيفور الذي استخدم يده المرفوعة وكأنها عصا مايسترو فقد غمز لجانيت ورفع صوته بالقراءة: «وهكذا سجلت بيتي اسمها في فريق الهوكي، هل سيختارونها؟ هل سيحالفها الحظ؟» ثم قال بنبرة صوته العادية موجهًا حديثه إلى آنا: «سوف نخبرك حينما نفرغ من القصة؟» ثم استأنف القراءة: «كل شيء كان في يد ميس جاكسون، تساءلت بيتي هل كانت صادقة حينما تمنت أن يحالفها الحظ يوم الأربعاء الماضي بعد المباراة؟ هل كانت حقًّا تعني ذلك؟» توقفت آنا عند الباب تستمع لإيفور، لقد اكتسب صوته خاصية جديدة؛ السخرية، وتلك السخرية موجهة إلى فتيات المدارس، إلى العالم النسائي، وليس إلى كون القصة سخيفة، بدأت هذه السخرية من اللحظة التي تنبه فيها إيفور إلى حضور آنا. نعم، ولكن ليس هناك شيء جديد في ذلك، إنها تعرف هذا الأمر، لأن السخرية، آلية الدفاع عن الشذوذ، ليست إلا تمثيلًا مكثفًا للشهامة المهذبة التي يتمتع بها الرجل «الحقيقي» ذلك الرجل «الطبيعي» الذي يرغب في أن يضع حدودًا لعلاقته مع المرأة، سواء يفعل ذلك إراديًّا أو لاإراديًّا، ولكن في أغلب الأحيان يكون ذلك لاإراديًّا، إنها عاطفة التهرب الباردة نفسها ولكن بعمق، الاختلاف في الدرجة وليس في النوع. أدارت آنا بصرها نحو جانيت، فرأت ابتسامة عريضة تنم عن السعادة مرتسمة على وجه الطفلة، غير أنها ممتزجة بمسحة من عدم الارتياح، تشعر جانيت بأن تلك السخرية موجهة نحوها، نحو الأنثى. نظرت آنا إلى طفلتها نظرة تفيض بالتعاطف وقالت لها في نفسها: حسنًا يا طفلتي المسكينة، من الأفضل أن تعتادي على ذلك مبكرًا، لأنه سيكون عليكِ

أن تعيشي وسط عالم ممتلئ به. ابتعدت آنا وعاد صوت إيفور إلى طبيعته، وتبخرت مسحة المحاكاة الساخرة التي كانت تتخلله.

كان الباب المؤدي إلى الغرفة التي يتقاسمها إيفور وروني مفتوحًا. روني يغني، بصوت تتخلله أيضًا نبرة محاكاة ساخرة، الأغنية التي يغنيها تنشد في كل مكان بنبرة تحمل الاشتياق والرغبة الجارفة: «فلتعطيني ما أريده الليلة يا حبيبتي، أنا لا أود أن أختلف معك يا حبيبتي، قبليني، وعانقيني ...» يسخر روني أيضًا من الحب «الطبيعي» وبأسلوب وقح ووضيع، قالت آنا في نفسها: لماذا أتوقع أن كل هذا لن يؤثر في جانيت؟ لماذا أسلم بأن الأطفال لا يفسدون؟ إن هذا يعني أنني على يقين بأن تأثيري، التأثير الصحي الذي أوجده كامرأة، أقوى بما يكفي من تأثيرهما، ولكن لماذا أظن ذلك؟ استدارت آنا لتهبط السلم، وتوقف روني عن الغناء وأطل برأسه من زاوية الباب، صفف شعره بعناية حتى بدا رأسه كأنه رأس فتاة صغيرة ذات ملامح صبيانية. ابتسم لها في حقد. كان روني يقول، بقدر ما يستطيع من وضوح، إنه يظن أن آنا تتجسس عليه. أحد الأشياء المزعجة بشأن روني هو أنه يرى دائمًا أن الأشياء التي يقولها الناس أو يفعلونها تشير إليه، ولذلك يبقيه المرء دائمًا قيد تفكيره. أومأت آنا له، تقول في نفسها: أنا لا أستطيع أن أتحرك في بيتي بحرية بسبب هذين الاثنين، أكون دائمًا في وضع دفاعي وفي شقتي. فضل روني أن يخفي حقده، وخرج من الغرفة ووقف في تكاسل على قدم واحدة: «لم أعلم يا آنا أنكِ أنتِ أيضًا تشاركين في النشاطات الممتعة بالساعة المخصصة للأطفال؟»

– صعدت إلى أعلى لأتفقد الأمر.

هكذا ردت باقتضاب. رسم روني على وجهه علامات اللطف والتودد وقال: «يا لها من طفلة لطيفة، ابنتكِ جانيت.» تذكر أنه يعيش هنا دون مقابل وأنه تحت رحمة مزاج آنا. يبدو تمامًا مثل بنت صغيرة مهذبة، هكذا رأته آنا. قالت له في نفسها: تبدو فعلًا مثل صبية صغيرة، وابتسمت له ابتسامة قصدت بها أن تقول له: أنت لا تخدعني بسلوكك هذا، ولا تظن أنك تستطيع. هبطت السلم وحينما نظرت إلى أعلى رأت أنه لا يزال هناك، لم يكن ينظر إليها ولكنه يحملق في حائط السلم واعتلت وجهه الوسيم المنمق الملامح معالم الإرهاق الذي تخلله الخوف. قالت في نفسها: رباه، أعرف ماذا سيحدث، أريد أن أطرده من المنزل، ولكن قلبي لن يطاوعني، لأنني سأشعر بالأسف من أجله، لو كنت أستطيع ألا ألقي بالًا لهذا الأمر!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دخلت آنا إلى المطبخ، وفتحت الصنبور لتملأ كوبًا من المياه، جعلت المياه تنساب في بطء، كانت تود أن ترى الفقاقيع والضوء المتلألئ على سطحها وتستمع إلى خريرها الهادئ، المياه عندها مثل الفاكهة، شيء يهدئها ويطمئنها أنه لا يزال من الممكن أن توجد أشياء طبيعية حولها. ولكن تجول بخاطرها فكرة طوال الوقت: أنا أفقد توازني، أشعر كأن الجو في هذه الشقة أصبح مسممًا، كأن روحًا تمتلئ بالحقد الكريه والفاسد تجوب كل مكان بالمنزل، ولكن هذا هراء، فالحقيقة هي أن كل ما أفكر فيه في هذه اللحظة ليس صوابًا، أنا أشعر فعلًا أنه ليس كذلك ... لكنني أنقذ نفسي بهذه الطريقة في التفكير، ولكن أنقذ نفسي من ماذا؟ يتملكها شعور بالإعياء والخوف مثلما حدث لها تمامًا عندما كانت في المترو. قالت في نفسها: يجب أن أنهي ذلك، ببساطة عليَّ أن أنهي ذلك ... ولكنها لم تستطع أن تقول ما ذلك الذي يجب أن تنهيه. مرة أخرى تجول برأسها فكرة: سوف أذهب إلى الحجرة المجاورة، وأجلس و... ولكنها لم تنهِ الفكرة التي جالت برأسها، قفزت إلى ذهنها صورة بئر جاف يمتلئ بالماء رويدًا رويدًا. هذا هو خطبي ... أنا جافة، خاوية، يجب أن أتلمس أي مورد في مكان ما أو ... فتحت آنا باب حجرتها الكبيرة ورأت جسدًا كبيرًا لسيدة لم يكشف الضوء الذي تخلل النوافذ عن معالمه، جعلها هذا الجسد المعتم تشعر بالخوف كأن خطرًا بات وشكيًا. قالت آنا في حدة: «من أنتِ؟» وأضاءت الأنوار فاتضحت أمامها معالم هذا الجسد وشخصيته. «ماريون، يا إلهي، أهذه أنتِ؟» بدا الضيق في صوت آنا، تشعر بالارتباك لأنها ارتكبت مثل هذا الخطأ، ونظرت إلى ماريون عن قرب، فطوال سنين معرفتها بها تبدو ماريون امرأة بائسة، مثيرة للشفقة، ولكنها لم تكن يومًا منذرة بأي سوء أو خطر. وبينما هي تنظر إلى ماريون إذ وجدت نفسها تنخرط في القيام بمجموعة من الخطوات، بدا لها أنها باتت تستخدمها مئات المرات في اليوم الواحد: جعلت قامتها تعتدل وشدت عضلاتها واستجمعت حذرها، ولأنها متعبة ولأن «البئر جف» وضعت عقلها، تلك الآلة النقدية الصغيرة التي نضبت، في حالة تأهب. تشعر أنه حتى ذلك القدر من الذكاء الذي يسكن عقلها ويعمل بكفاءة كقوة دفاعية ليس إلا آلة. قالت في نفسها: هذا الذكاء هو الحاجز الوحيد الذي يفصل بيني وبين ... هذه المرة أكملت الجملة، عرفت كيف تنهيها، نعم، إنه يفصل بيني وبين الانهيار.

قالت ماريون: «أنا آسفة إذا أفزعتكِ، ولكنني صعدت إلى أعلى ووجدت فتاكِ يقرأ لجانيت ولم أرد أن أزعجهما، ثم خطر لي كيف سيكون جميلًا أن أجلس في

الظلام.» طرقت أذنيها كلمة «فتاكِ» تلعثمت ماريون واعتراها الخجل عندما نطقت بها، خطر لآنا أنه في كل مرة تلتقي فيها بماريون، تنتابها تلك الدهشة الصارخة نفسها بعد خمس دقائق، ثم ذكّرت آنا نفسها بالعالم الذي نشأت به ماريون. قالت آنا: «أنا آسفة لأنني تحدثت بأسلوب سيء، فأنا مرهقة، فقد علقت بالمواصلات في وقت الذروة.» أخذت آنا تسدل الستائر وتعيد إلى غرفتها تلك الصرامة الهادئة التي تحتاجها منها. «ولكن يا آنا، أنتِ مدللة للغاية، فأمثالنا من الأشخاص العاديين الفقراء عليهم أن يواجهوا مثل هذه الأشياء كل يوم.» نظرت آنا إلى ماريون في دهشة، فهي لم تضطر طوال حياتها إلى مواجهة الأشياء العادية مثل زحام وقت الذروة. رأت وجه ماريون؛ بريئًا ذا عينين لامعتين ومفعمًا بالحماس. قالت آنا: «أحتاج إلى كأس من الشراب، هل تريدين كأسًا؟» ... تذكرت، ثم شعرت بالارتياح لأنها نسيت، ثم قدمت إلى ماريون كأسًا من الشراب في تلقائية شديدة، فقد ردت عليها ماريون: «نعم، أرغب في كأس صغيرة، يقول تومي إنه من الأفضل أن يشرب المرء على نحو طبيعي بدلًا من أن يمتنع عن الشرب تمامًا، فذلك أكثر شجاعة منه. هل تظنين أنه على حق؟ أنا أرى أنه محق، أنا أظن أنه شخص ماهر للغاية وقوي للغاية.»

– نعم، ولكن لا بد أن ذلك سيكون أصعب بكثير.

صبت آنا الويسكي في الكأسين وظهرها إلى ماريون وهي تحاول أن تفكر: هل أتت إلى هنا لأنها علمت أنني قابلت ريتشارد اليوم؟ وإذا كان هناك سبب آخر لقدومها، فما هو؟ قالت آنا: «قدمت لتوي من مكتب ريتشارد؟» ردت ماريون وهي تتناول كأسها الذي وضعته بجانبها في غير اكتراث بدا طبيعيًّا: «حقًّا؟ كنتما دائمًا صديقين مقربين.» لم تشأ آنا أن تلوي وجهها امتعاضًا عندما وصفتها ماريون هي وريتشارد بأنهما صديقان مقربان، ولاحظت في قلق كيف تصاعد بانتظام الشعور بالضيق، ثم زادت من تركيز شعاع ذكائها الساطع الذي خلا من أي نوع من المشاعر، طرق أذنيها صوت إيفور الجهور آتيًا من أعلى: «هيا سدديها! هكذا هتفت أصوات الخمسين متفرجًا في حماس فضربت بيتي — التي تركض في الملعب في إصرار على أن تثبت نفسها — الكرة وسددتها مباشرة في الهدف، لقد فعلتها! تعالت صيحات الصغار الفرحة في الهواء وانحدرت دموع الفرح من عيني بيتي وهي تنظر إلى أصدقائها.»

قالت ماريون بلهجة تشبه لهجة فتاة صغيرة متلعثمة: «كنت أعشق قصص المدرسة الرائعة وأنا طفلة.»

– كنت أكرهها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولكنكِ كنتِ دائمًا فتاة صغيرة ذكية.

جلست آنا وهي تمسك بكأس الويسكي وأخذت تتفحص ماريون، ترتدي بذلة نسائية فاخرة لونها بني، يبدو أنها جديدة وقد جعدت شعرها الداكن الذي تخللته بعض الشعيرات البيضاء، وبدت عيناها العسليتان لامعتين ووجنتاها ورديتان. إنها تبدو مثل امرأة سعيدة في منتصف العمر مفعمة بالحيوية والصحة.

– ولهذا قدمت لزيارتكِ، هذه فكرة تومي. نحن نحتاج إلى مساعدتكِ يا آنا، خطرت لتومي فكرة رائعة للغاية، أنا أرى أنه شاب ماهر للغاية، وفكرنا نحن الاثنان في أن نسألكِ عن الأمر.

أخذت ماريون رشفة من الويسكي، ولوت شفتيها قليلًا في امتعاض من طعمه، ثم وضعت الكأس بجانبها وهي تتكلم عن تومي: «هو من جعلني أدرك كم كنت أجهل الكثير للغاية، بدأ الأمر بقراءتي الجرائد له، أنا لم أقرأ قط أي شيء من قبل. وهو أيضًا مستنير للغاية، ويُفهمني الكثير من الأمور، أنا أشعر أنني شخص آخر تمامًا، وينتابني الخجل الشديد لأنني لم أهتم يومًا إلا بنفسي.»

– قال لي ريتشارد إنكِ أصبحتِ مهتمة بأمور السياسة.

– نعم، هذا صحيح، وهو متضايق للغاية ووالدتي وأخواتي غاضبات من ذلك الأمر. جلست أمام آنا تبتسم مثل فتاة مشاغبة، تعض على شفتيها أحيانًا، وتبعث بنظرات من جانب عينيها يطل منها الشعور بالذنب.

– يمكنني أن أتخيل. آنا تدرك كم ستستمتع مولي بمضايقتهن، فوالدتها أرملة لواء في الجيش، وأخواتها من سيدات المجتمع الراقي.

– ولكن ليس لديهن أي فكرة، مثلما كنت قبل أن يأخذ تومي بيدي، إني أشعر كأن حياتي بدأت من تلك اللحظة، أشعر أنني شخص آخر تمامًا.

– أنتِ تبدين شخصًا مختلفًا.

– أنا أعرف ذلك. آنا، هل رأيتِ ريتشارد اليوم؟

– نعم، قلت لكِ إنني زرته في مكتبه.

– هل ذكر أي شيء عن مسألة الطلاق؟ أسألكِ لأنه إذا قال أي شيء لكِ، فإنني يجب أن أفكر في الموضوع تفكيرًا جديًّا، إنه يتوعد ويرهب دائمًا، فهو يجيد فن البلطجة، ولذلك لم آخذ كلامه على محمل الجد، ولكن إذا تحدث عن هذا الأمر فأنا أظن أن عليَّ أنا وتومي أن نتعامل الأمر في جدية.

– أظن أنه يريد أن يتزوج من سكرتيرته، أو هكذا قال.

– هل رأيتها.

ابتسمت ماريون ابتسامة عريضة في ثقة وارتسمت على وجهها ملامح الخبث.

– نعم.

– ألم تلحظي أي شيء؟

– إنها تشبهكِ حينما كنتِ في عمرها.

ابتسمت ماريون ابتسامة عريضة مرة أخرى وقالت: «نعم، أليس ذلك غريبًا؟»

– إن كنتِ تظنين ذلك.

– نعم، أنا أظن ذلك.

تنهدت ماريون فجأة وتغيرت ملامح وجهها، آنا تراها أمامها وقد تحولت ملامحها من ملامح فتاة شابة إلى ملامح امرأة بائسة، تجلس أمامها بعينين محملقتين، ووجه ترتسم عليه أمارات الجدية والسخرية: «ألا ترين أنني يجب أن أفكر في هذا الأمر على أنه أمر غريب؟»

– نعم.

– بدأ كل شيء فجأة، في صباح أحد الأيام على مائدة الإفطار. ريتشارد شخص سيئ على مائدة الإفطار دائمًا. دائمًا حاد المزاج، دائمًا ينتقدني. ولكن الغريب في الأمر هو لماذا كنت أسمح له بذلك؟ استمر في ذلك، أخذ يشكو من زياراتي المتكررة لتومي. فجأة بدا لي كأن الغشاوة انقشعت عن عيني، كان الأمر كذلك حقًّا يا آنا. أخذ يقطع غرفة الإفطار جيئة وذهابًا، كان وجهه محمرًّا وفي حالة مزاجية سيئة وأنا أستمع إلى صوته، إن لديه صوتًا قبيحًا، أليس كذلك؟ يشبه صوت السوقة، أليس كذلك؟

– نعم، هو كذلك.

– خطر لي يا آنا، وليتني أنجح في أن أفسر لكِ ما خطر لي، بدا الأمر لي مثل الرؤية التي أنارت أمامي الطريق، خطر لي أنني أتزوجه منذ سنين طويلة وطوال كل هذه الفترة لا أرى سواه، حسنًا، هكذا النساء، أليس كذلك؟ لم أفكر في أي شيء آخر. أُبكي نفسي بالليل حتى أنام، ليلة بعد أخرى سنوات طويلة، أثير الفضائح، كنت مغفلة وتعيسة ... والسؤال هو، لمَ كل ذلك؟ أنا جادة فيما أقول يا آنا.

ابتسمت آنا واستأنفت مولي حوارها، «لأن أساس المشكلة يا آنا هو أنه لا يساوي أي شيء، أليس كذلك؟ إنه حتى ليس خارق الوسامة، ولا حاد الذكاء، وأنا لا يعنيني هل هو شخص مهم أو واحد من أعمدة الصناعة، هل تفهمين ما أقصده؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم، وماذا بعد؟

– تعجبت من نفسي كيف أضعت حياتي من أجل هذا المخلوق، أتذكر هذه اللحظة جيدًا، كنت أجلس على طاولة الإفطار، ألبس رداء فضفاضًا اشتريته لأنه يحبني أن أرتدي مثل هذه الأشياء التي تعرفينها، الأردية المزخرفة والمزينة بنقوش الورد، أو لنقل إنه اعتاد أن يحبني وأنا ألبس هذا الزي، دائمًا أكره هذه الملابس وخطر لي أنني لسنوات وسنوات أرتدي ملابس أكرهها فقط من أجل أن أرضي هذا المخلوق.

ضحكت آنا وأخذت ماريون تضحك وانبعثت علامات سخريتها من نفسها على وجهها الجميل، وأطلت من عينيها نظرات صادقة حزينة، «إنه لشيء مهين، أليس كذلك يا آنا؟»

– نعم، إنه كذلك.

– ولكنني أراهن على أنكِ لم تجعلي نفسك مغفلة من أجل أي رجل أحمق، أنتِ شخصية حسنة التقدير للغاية.

ردت عليها آنا بلهجة جافة: «هذا ما تظنينه أنتِ.» ولكنها أدركت أن تصرفها هذا لم يكن سليمًا، فماريون تحتاج أن ترى آنا القوية ذات الشخصية المستقلة.

ولكن ماريون أصرت على رأيها وكأنها لم تسمع ما قالته آنا: «لا، أنتِ تتمتعين بقدرة عظيمة على حسن التقدير، ولهذا أنا معجبة بكِ.» قبضت ماريون بأصابعها على كأس الشراب، وتجرعت كمية منه، ثم تناولت جرعة ثانية وثالثة ... أجبرت آنا نفسها على ألا ترى ذلك، وترامى إلى سمعها صوت ماريون وهي تقول: «ثم تأتي هذه الفتاة، جين. عندما رأيتها شعرت كأن المزيد من الحجب تتكشف أمامي، إنه يحبها، هكذا يقول، ولكن المهم هو في حب من وقع ريتشارد، إنه يحب هذه النوعية من الفتيات، النوعية التي تثير شهوته الحيوانية.» أدهشها أن تنطق ماريون بعبارة فجة مثل عبارة «شهوته الحيوانية»، فنظرت إليها مرة أخرى. تملك التوتر ماريون، إنها تجلس على المقعد وقد تصلب جسدها الضخم واستقام ظهرها وضمت شفتيها ولفت أصابعها التي بدت مثل الحوافر حول كأس الشراب الفارغة التي تنظر إليها في نهم.

– إذن ماذا يعني هذا الحب؟ إنه لم يحبني قط، إنه يحب الفتيات الممتلئات ذوات الشعر البني والنهود الكبيرة. عندما كنت في شبابي كان لدي نهدان جميلان.

قالت آنا وهي ترقب اليد النهمة التي أُحكمت قبضتها حول كأس الشراب الفارغة: «فتاة غجرية.»

– نعم، إذن فالأمر لا يتعلق بي تمامًا، هذا هو القرار الذي توصلت إليه، إنه على الأرجح لا يعرف كيف أنا، فلماذا نتكلم عن علاقة الحب؟

وفي صعوبة أطلقت ماريون ضحكة، وأرجعت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها، أغمضتها بشدة حتى إن رموشها البنية ترتعش فوق وجنتيها اللتين باتتا شاحبتين، ثم فتحت عينيها ورمشت بهما وأخذت تحركهما بحثًا عن شيء ما، إنهما تبحثان عن زجاجة الويسكي المستقرة فوق الطاولة ذات القوائم الخشبية الموضوعة أمام الحائط. قالت آنا في نفسها: إن طلبت مني كأسًا أخرى فسيكون عليّ أن أعطيها إياها، كأن آنا منغمسة بكل كيانها في الصراع الدائر داخلها، أغلقت ماريون عينيها، وحبست أنفاسها ثم فتحتهما ونظرت إلى الزجاجة، وحركت الكأس الفارغة بين أصابعها، ثم أغلقت عينيها مرة أخرى.

جال بخاطر آنا أنه على الرغم من كل شيء من الأفضل لماريون أن تشرب الخمر وتنأى بنفسها عن التشتت، من الأفضل أن تكون مخمورة وحادة وصادقة، عن أن تكون سيدة واعية ليست من أرباب الكئوس، إذا كان الثمن الذي ستدفعه لكي تكون كذلك هو أنها لا بد أن تصبح مثل فتاة صغيرة خجولة ضعيفة الشخصية ... احتدم الصراع للغاية فوجدت نفسها تنهيه بهذا السؤال: «ماذا يريدني تومي أن أفعل؟» اعتدلت ماريون في جلستها، وفي لحظة واحدة تحولت من امرأة حزينة صادقة منهزمة إلى فتاة صغيرة.

– إنه شخص رائع للغاية، رائع في كل شيء يا آنا، أخبرته أن ريتشارد يريدنا أن ننفصل وكان تصرفه في غاية الروعة.

– ماذا قال؟

– إنه يقول إنني يجب أن أقوم بما هو صحيح، بما أرى حقًّا أنه صحيح، وإنني يجب ألّا أطاوع ريتشارد في إحدى نزواته، فقط لأنني أظن أن ذلك سيكون من قبيل الشرف أو لأنني أريد أن أتصرف تصرفًا نبيلًا. أول ما فكرت فيه هو أن أوافق ريتشارد على الانفصال، فماذا يهمني من هذا الأمر؟ لدي ما يكفيني من أموالي الخاصة، ولهذا لن يمثل الطلاق لي أي مشكلة. ولكن تومي لم يتفق معي في هذا الرأي، قال لي إنني يجب أن أفكر في مصلحة ريتشارد على المدى البعيد، ولذا أجعله قادرًا على القيام بمسئولياته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أجل.

– إن تفكيره سليم للغاية، مع أنه لا يزال في الواحدة والعشرين من عمره، ولكنني أرى أن هذه الحادثة الشنيعة التي تعرض لها هي السبب في ذلك ... أقصد أنه على الرغم من بشاعتها لا يستطيع المرء أن يصفها بالمأساة حينما يرى شجاعته وتصميمه على ألا يستسلم، ويرى كيف هو حقًّا شخص رائع إلى هذا الحد.

– نعم، أنا لا أظن أنها مأساة.

– ولذا قال لي تومي إنني يجب ألّا أعطي ريتشارد أي قدر من الاهتمام وأن أتجاهله، لأنني حينما أقول إنني سأكرس حياتي لأشياء أكثر أهمية، فأنا أعني ما أقول. وتومي يُريني الطريق إلى ذلك، سأعيش من أجل الآخرين وليس من أجل نفسي.

– عظيم.

– وهذا هو سبب قدومي إليك، يجب أن تساعديني أنا وتومي.

– بالطبع، ماذا يمكنني أن أفعل؟

– هل تذكرين ذلك القائد الأسود، الرجل الأفريقي الذي كنتِ تعرفينه، اسمه ماثيو، أو شيء من هذا القبيل؟

لم يكن هذا ما توقعته آنا. «لا تقولي لي إنكِ تقصدين توماثلونج؟»

أخرجت ماريون من حقيبتها دفترًا بالفعل وأمسكت قلمًا رصاصًا واستعدت لأن تدون شيئًا ما.

– نعم هو، هل يمكن أن تعطيني عنوانه؟

قالت آنا بلهجة تطل منها قلة الحيلة: «ولكنه في السجن.» ولكنها استطاعت أن تميز في صوتها نبرة احتجاج خافتة، فعرفت أنها لم تشعر فقط بقلة الحيلة بل بالخوف، إنه الذعر نفسه الذي هاجمها عندما كانت مع تومي.

– نعم، أنا أعرف أنه في السجن، ولكن أي سجن؟

– ما الذي تخططين له يا ماريون؟

– قلت لكِ، من الآن فصاعدًا لن أعيش لنفسي، سوف أكتب إلى هذا المسكين، وأرى ماذا يمكنني أن أفعل من أجله.

– ولكن يا ماريون ....

نظرت آنا إليها محاولة أن تتواصل مع تلك المرأة التي كانت تحدثها منذ بضع لحظات، فواجهتها نظرة من العينين البنيتين اللتين لمع فيهما الشعور بالذنب الذي

بدا شعورًا هستيريًّا ولكنه مع ذلك ينطوي على السعادة. استطردت آنا بلهجة حازمة: «إنه ليس سجنًا يخضع للنظام مثل سجن بريكستون أو غيره من السجون المماثلة، إنه في الأغلب كوخ يقع في الأدغال، يبعد مئات الأميال عن كل الأماكن العامرة، يقبع داخله خمسون سجينًا سياسيًّا، وفي أغلب الظن لا تصلهم أي خطابات. ماذا تظنين؟ ... هل تظنين أن لديهم أيامًا للزيارة واحترامًا لحقوق السجناء ومثل هذه الأشياء الأخرى؟»

مدت ماريون شفتها وقالت: «أظن أن موقفك هذا من هؤلاء المساكين هو موقف في غاية السلبية.»

قالت آنا في نفسها عبارة «موقف في غاية السلبية» هي عبارة تومي ... إنها تشبه كثيرًا العبارات الخاصة بالحزب الشيوعي، أما كلمة «مساكين» فهي نابعة تمامًا من ثقافة ماريون، ففي الأغلب كانت أمها وأخواتها يتبرعن بالملابس القديمة للجمعيات الخيرية.

قالت ماريون في ابتهاج: «أنا أعني أن هناك قارة ترزح تحت الأغلال، أليس كذلك؟» (عبارات من جريدة التريبيون أو من الديلي وركر، هكذا خطر لآنا.) «وهناك إجراءات يجب أن تتخذ فورًا من أجل إعادة الإيمان بالعدالة إلى نفوس الأفارقة، هذا إن لم يكن الأوان قد فات.» (قالت آنا في نفسها: هذه جريدة نيو ستيتسمان.) «على الأقل يجب أن يصب الموقف بالكامل في مصلحة الجميع.» (عبارات من جريدة مانشستر جارديان في أوقات الأزمات الحادة.) «ولكنني لا أستطيع أن أتفهم موقفكِ يا آنا، أنت تتفقين معي بالطبع أن هناك دليلًا على أن شيئًا ما فسد؟» (مقالات الرأي التي نُشرت بالتايمز بعد أسبوع من مقتل عشرين أفريقيًّا وسجن خمسين آخرين من دون محاكمة على يد حكومة البيض.)

– ماذا أصابكِ يا ماريون؟ (انحنت ماريون إلى الأمام في توتر، وحركت لسانها فوق شفتيها المبتسمتين، وأخذت ترمش بعينيها في حركة سريعة.) اسمعي يا ماريون، إذا كنتِ ترغبين في الاشتغال بأمور السياسة الأفريقية فهناك منظمات يمكن أن تنضمي إليها، ولا بد أن تومي يعرف ذلك.

قالت ماريون في لهجة يملؤها العتاب: «وهؤلاء المساكين يا آنا.»

قالت آنا في نفسها: إن معدل تطور فكر تومي السياسي قبل الحادثة التي تعرض لها كان يتخطى بكثير شئون «هؤلاء المساكين» فإما أن يكون عقله تأثر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تأثرًا شديدًا، أو ... جلست آنا في صمت تفكر للمرة الأولى في حادثة تومي هل أثرت في عقله.

– هل طلب منكِ تومي أن تأتي وتسأليني عن عنوان السجن المحتجز به السيد ماثلونج حتى يتسنى لكما أن تبعثا للسجناء المساكين بعلب الطعام وخطابات التعزية؟ إنه يعرف جيدًا أن هذه الأشياء لن تصل أبدًا إلى السجن من الأساس ... بعيدًا عن أي شيء آخر.

لم تكن عينا ماريون البنيتان المثبتتان على آنا تراها، فابتسامتها الفتية موجهة نحو صديق لها يتمتع بالجاذبية ولكنه متصلب الرأس.

– قال تومي إن نصيحتك ستكون مفيدة للغاية، وأن بإمكاننا نحن الثلاثة أن نعمل معًا من أجل قضية واحدة.

تملك الغضب آنا، فقد بدأت تفهم الأمر. قالت في صوت مرتفع ولهجة جافة: «إن تومي لم يستخدم كلمة «القضية» لسنوات إلا لدواعي السخرية، وإذا استخدمها الآن، فهذا إذن ...».

– ما كل هذا الكم من سوء الظن، هذه ليست أنتِ يا آنا.

– ولكنكِ نسيت أننا جميعًا، بما فينا تومي، كنا منغمسين سنوات في أجواء القضايا النبيلة، وأنا على يقين من أننا لو كنا أحطنا هذه الكلمة طوال الوقت بتلك المهابة التي في صوتكِ لما كنا أنجزنا أي شيء.

نهضت ماريون، وقد بدت عليها أمارات الشعور بالذنب واضحة جلية، ولكن الخبث أيضًا يطل من وجهها في وضوح وتملكها شعور قوي بالرضا عن نفسها. أدركت آنا الآن أن ماريون وتومي تحدثا بشأنها وقررا أن يأخذا بيدها إلى الطريق السليم، من أجل ماذا؟ انتابها غضب شديد ولكنه لم يكن نابعًا مما حدث بالفعل، عرفت ذلك، ولهذا تصاعد شعورها بالخوف.

رأت ماريون الغضب على وجه آنا، فانتابها شعور بالنشوة والارتباك وقالت لها: «أنا آسفة أنني أزعجتكِ بلا فائدة.»

– لا، ليس بلا فائدة، فلتكتبي خطابًا إلى السيد ماثلونج على هذا العنوان: عناية: مصلحة السجون، الإقليم الشمالي، لن يصله بالطبع، ولكن المهم في هذه الأمور هو تلك اللفتة، أليس كذلك؟

– شكرًا لكِ يا آنا على مساعدتكِ، كنا نعرف أنكِ ستقدمين لنا العون، والآن يجب أن أرحل.

انصرفت ماريون وهبطت السلم بخطوات بطيئة كأنها فتاة صغيرة مخطئة ولكن مصرة على خطئها، ترقبها آنا كأنها ترى في ماريون الواقفة على السلم نفسها ... امرأة عنيدة ومتذمرة ومتماسكة.

عندما غابت ماريون عن نظرها ذهبت آنا إلى الهاتف واتصلت بتومي.

جاءها صوته من منزله الذي يبعد عنها نصف ميل تقريبًا متأنيًا ورسميًّا: «صفران خمسة ستة سبعة؟»

– أنا آنا، انصرفت ماريون لتوها. هل فكرة مراسلة السجناء الأفريقيين السياسيين هي حقًّا فكرتك؟ لأنها إن كانت فكرتك فهذا ليس له معنى سوى أنك تعيش في برج عاجي؟

سادت فترة قصيرة من الصمت، «أنا سعيد لأنكِ اتصلتِ بي يا آنا، أرى أن الأمر سيكون مفيدًا؟»

– للسجناء المساكين؟

– لا أخفي عليكِ أنني أظن أنه سيكون شيئًا جيدًا لماريون، ألا ترين ذلك؟ أظن أنها تحتاج أن تهتم بشيء آخر سوى نفسها.

– تعني أنه نوع من العلاج؟

– نعم، ألا تتفقين معي؟

– ولكنني لا أظن أنني أحتاج إلى علاج يا تومي، أو على الأقل هذا النوع من العلاج.

بعد فترة من الصمت قال تومي: «شكرًا لاتصالكِ بي يا آنا وتبليغي برأيكِ، أنا ممتن لكِ للغاية.»

ضحكت آنا في غضب. وتوقعت أن يبادلها هو الآخر الضحك، فبالرغم من كل شيء هي تفكر في تومي الذي عرفته قبل الحادث الذي سيضحك. أغلقت الخط ووقفت بجانب الهاتف وهي ترتعش ... كان عليها أن تجلس.

جالت برأسها هذه الخواطر وهي جالسة: هذا الفتى، تومي ... أنا أعرفه منذ أن كان طفلًا، لقد تعرض لمأساة مدمرة ... ومع ذلك فأنا أرى فيه الآن روحًا شريرة، خطرًا يهدد من حوله، شيئًا يثير الرعب في النفوس. كلنا يداخلنا الشعور نفسه. لا، إنه ليس مجنونًا، ليس هذا هو السبب. تحول إلى شيء آخر، شيء لم نعهده من قبل ... ولكن لا يمكنني أن أفكر في الأمر الآن، فيما بعد، فيجب أن أحضر العشاء لجانيت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الساعة التاسعة، وقد فات موعد عشاء جانيت، وضعت آنا الطعام على صينية وأخذتها إلى أعلى وأخذت ترتب الخواطر التي تجول بعقلها حتى تنحي جانبًا في الوقت الحالي تومي وماريون وما يمثلانه.

وضعت جانيت الصينية على ركبتيها وقالت: «أمي؟»

– نعم.

– هل تحبين إيفور؟

– أجل.

– أنا أحبه كثيرًا، فهو طيب للغاية.

– أجل هو كذلك.

– هل تحبين روني؟

ترددت آنا ثم قالت: «أجل.»

– ولكنكِ في الحقيقة لا تحبينه.

اندهشت آنا وسألتها: «ما الذي يجعلكِ تقولين هذا؟»

قالت الطفلة: «لا أعرف، فكرت فقط في أنكِ لا تحبينه لأنه يجعل إيفور يتصرف على نحو من السخف.» لم تقل جانيت شيئًا آخر بل جلست تتناول عشاءها وهي منهمكة في التفكير وذاهلة عما حولها، نظرت بعينين ثاقبتين عدة مرات إلى أمها التي جلست محاولة أن تكون هادئة، وسمحت لنظرات جانيت الثاقبة أن تتفحصها.

عندما خلدت جانيت إلى النوم هبطت آنا إلى المطبخ وجلست تدخن السجائر وتحتسي الشاي كوبًا بعد كوب. إنها قلقة بشأن جانيت: إن جانيت تشعر بالضيق من الوضع بأكمله، ولكنها لا تعرف لماذا. ولكن إيفور ليس هو السبب، بل ذلك الجو الذي خلقه روني. يمكنني أن أبلغ إيفور أن روني يجب أن يترك المنزل، وهو حتمًا سيعرض عليَّ أن يدفع مبلغًا مقابل إقامة روني، ولكن ليست هذه هي المشكلة، أنا أشعر بذلك الشعور الذي كان يخامرني تجاه جيمي ....

جيمي هو طالب من السيلان استأجر الغرفة الخالية بالطابق الأعلى لشهرين، كانت آنا تكرهه ولكن لم تطاوعها نفسها أن تخبره بأن عليه أن يرحل بسبب بشرته السمراء. حُلت المشكلة في النهاية بعودة جيمي إلى السيلان. وهي الآن عاجزة عن أن تطلب من الشابين اللذين يعكران عليها صفو حياتها أن يرحلا، فهما من الشواذ، وسيتعذر عليهما — مثلهما مثل الطالب ذي البشرة السمراء — أن يجدا غرفة ليستأجراها.

ولكن لِمَ يكون على آنا أن تشعر بالمسئولية؟ ... إن الأمر لا يبدو كأنني لا يكفيني ما أواجهه من مشاكل مع الرجال «الطبيعيين» هكذا قالت لنفسها محاولة أن تبدد قلقها بتلك الطرفة، ولكنها لم تفلح. حاولت مرة أخرى: إنه منزلي، منزلي أنا، منزلي ... تحاول هذه المرة أن تبعث في كل كيانها شعورًا قويًّا بملكيتها لبيتها، ولكنها لم تفلح أيضًا. جلست تفكر: ولكن لماذا لدي منزل من الأساس؟ لأنني ألفت كتابًا أخجل منه، وأدر عليَّ الكثير من الأموال. إنه الحظ، ولا شيء سوى الحظ. أنا أكره كل ذلك ... بيتي وممتلكاتي وحقوقي. ولكن ما إن ينتابني الانزعاج حتى أعود إلى هذه الأشياء مرة أخرى مثلي مثل الجميع. أشيائي، ممتلكاتي. سوف أوفر الحماية لجانيت بفضل ممتلكاتي أنا. ولكن ما فائدة حمايتي لها؟ إنها سوف تنشأ في إنجلترا، في دولة تعج بالرجال، منهم الصبيان والشواذ وأنصاف الشواذ ... ولكن هذه الخواطر المملة اختفت في طيات موجة من المشاعر الصادقة ... يا إلهي، لم يتبق الكثير من الرجال الحقيقيين، وسوف أعمل على أن يكون بصحبة جانيت واحد منهم، يجب أن أكون مطمئنة إلى أن الطريقة التي ستُنشَّأ بها جانيت ستجعلها قادرة على أن تعرف من هو الرجل الحقيقي حينما تقابل أحد الرجال الحقيقيين. وسيكون على روني أن يرحل.

نهضت آنا وذهبت إلى الحمام لكي تستعد إلى النوم. وقفت عند الباب، فروني يقف أمام المرآة المعلقة فوق الرف الذي وضعت أدوات تجميلها فوقه، ينظر بحماس إلى صورته المنعكسة عليها. يدهن غسولًا على وجنتيه باستخدام القطن الطبي الذي تستخدمه ويحاول أن يخفي الخطوط الموجودة بجبهته.

قالت آنا: «أتفضل لوسيوني أكثر من ذلك الذي تستخدمه؟»

التفت إليها دون أن يندهش، فأدركت أنه يقصد أن تجده هناك.

رد عليها في رقة ودلال: «كنت أجرب لوسيونكِ يا عزيزتي، هل يعطيكِ نتيجة جيدة؟»

قالت آنا: «ليست جيدة للغاية.» استندت على الباب ترقبه، وتنتظر أن يتكشف أمامها الأمر.

يرتدي روني رداءً حريريًّا فاخرًا لونه بنفسجي هادئ ويلف حول عنقه ربطة يميل لونها إلى الأحمر، وبقدميه حذاء منزلي أكثر فخامة مصنوع من الجلد الأحمر ومصمم على الطراز المغربي مثبت على قدميه بشريط ذهبي بين إصبعيه. مظهره يوحي بأنه يسكن في قصر من قصور الحرملك، وليس في هذه الشقة الموجودة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمنطقة نائية من لندن التي يسكنها الطلاب. أدار رأسه وأخذ يداعب بأصابعه التي غُطت أظافرها بالطلاء الملون خصلات شعره المموجة التي امتزجت بسوادها بعض الشعيرات البيضاء. قال روني: «جربت أن أصبغه، ولكن الشعر الأشيب لم يختفِ تمامًا.»

قالت آنا: «إنه رائع، حقًا.» أدركت الآن ما يحدث: بدأ روني يتودد إليها كما تتودد الفتيات بعضهن لبعض، خوفًا من أن تطرده من المنزل. حاولت أن تقنع نفسها بأنها سعيدة بذلك، ولكن الحقيقة هي أنها تشعر بالامتعاض والخجل من كونها كذلك.

قال روني في رقة: «ولكن يا عزيزتي آنا، أن يبدو المرء رائعًا هو شيء عظيم، إذا كان ذلك — إن جاز التعبير — سيفيده في أن يحصل على وظيفة.»

على الرغم من شعورها بالامتعاض فقد استسلمت آنا وبدأت تقوم بالدور الذي توقعه منها روني: «ولكنك تبدو رائعًا للغاية يا روني حتى مع تلك الشعيرات البيضاء القليلة، أنا واثقة من أن العشرات يرون أنك جذاب للغاية.»

– لا أخفي عليكِ الأمر، فيما مضى كانوا أكثر من ذلك. أنا بالطبع في وضع جيد، مع كل أوقات اليسر والعسر، ولكن يجدر بي أن أعتني جيدًا بنفسي.

– ربما عليك أن تعثر سريعًا على شخص ميسور الحال يكفل لك الرعاية الدائمة.

قال تومي وهو يتمايل في خلاعة، محركًا ردفيه من دون أن يتنبه على الأرجح إلى ذلك: «آه يا عزيزتي، هل تظنين أنني لم أحاول؟»

– لم أكن أعلم أن المعروض في السوق يفوق الطلب إلى هذا الحد.

هكذا قالت آنا في اشمئزاز، وهي تشعر بالخجل من ذلك حتى من قبل أن تخرج هذه الكلمات من فمها. قالت آنا في نفسها: يا إلهي، ماذا لو وُلدت وأصبحت مثل روني؟! أن أولد هكذا ... أنا أشكو من الصعوبات التي أواجهها بوصفي امرأة، ولكن يا إلهي ... أكان من الممكن أن أكون مثل روني؟!

نظر إليها نظرة مفعمة بالكراهية الصريحة، تردد، فقد اجتاحته رغبة أقوى منه بكثير، ثم قال: «أنا أفضل غسولك.» كان يضع يده على الزجاجة، معلنًا حقه في أن يأخذها. ابتسم لها بجنب شفتيه في تحدٍّ ووجهه تطل منه الكراهية الصريحة.

مدت آنا يدها وهي تبتسم وأخذت الزجاجة: «حسنًا، من الأفضل أن تشتري زجاجة منه لنفسك، أليس كذلك؟»

ابتسم ابتسامة خاطفة في وقاحة يطل منها اعترافه بأنها انتصرت عليه، وأنه يكرهها من أجل ذلك وأنه سيحاول مرة أخرى، ثم خبت ابتسامته وحلت محلها معالم خوف يتحرك داخله وقد ارتسمت على وجهه الشاحب. كان يقول لنفسه إن نوازع الحقد التي بداخله تشكل خطرًا عليه، فمن المفترض أن يسترضي آنا لا أن يتحداها.

استأذن روني في الانصراف بصوت هامس جذاب متوددًا إليها وتمنى لها ليلة سعيدة ثم صعد بخطوات رشيقة إلى إيفور.

اغتسلت آنا وصعدت إلى الأعلى لترى هل استغرقت جانيت في نومها، كان الباب المؤدي إلى غرفة الشابين مفتوحًا. اندهشت آنا فهما يعرفان أنها تصعد كل ليلة في هذا الميعاد لتطمئن على جانيت، ثم أدركت أنهما قصدا أن يتركا الباب مفتوحًا. ترامى إلى سمعها صوت إيفور: «يا لهؤلاء النسوة الممتلئات ذوات الأرداف السمينة ...» ثم جعل إيفور يصدر أصواتًا نابية وتبعه صوت روني: «والنهود الرطبة المتدلية ...» ثم بدأ يصدر صوتًا كأنه يتقيأ.

تصاعد الغضب داخل آنا وكانت على وشك أن تتشاجر معهما، ولكنها وجدت نفسها ترتجف وسرت رعشة في جسدها ودب فيها الخوف. تسللت إلى الأسفل، وهي ترجو ألا يكونا أحسا بوجودها، لكنهما أغلقا بابهما في عنف وترامت إلى سمعها ضحكات إيفور الغليظة وصوت روني وهو يضحك في دلال بصوت رنان. دخلت إلى الفراش وهي مصدومة من نفسها، أدركت أن تلك المسرحية الإباحية التي أُعدت من أجلها ليست سوى ذلك الوجه الآخر الذي يتكشف بالليل بعد أن يخلع روني عباءة الرقة النسائية التي يرتديها، ويتحرر إيفور من قناع التودد الذي يلبسه والذي يُبديه مثل كلب كبير وفي، كان من الممكن أن تستنتج ذلك كله دون أن تنتظر لتعلن الحقيقة عن نفسها، إنها تشعر بالرعب لأنها تأثرت بما حدث، جلست بفراشها في الغرفة الكبيرة المظلمة تدخن وهي تشعر بأنها هشة وعاجزة، تقول لنفسها مرة أخرى: إذا انهرت فسوف ... ذلك الرجل الذي قابلته بعربة المترو الذي جعلها ترتجف، وهذان الشابان القابعان بالأعلى اللذان جعلاها تنكمش لتصبح امرأة ترتعد خوفًا. منذ أسبوع عندما كانت في طريق عودتها من المسرح بوقت متأخر، رأت رجلًا يعري نفسه عند إحدى النواصي المظلمة. وبدلًا من أن تتجاهل الأمر اجتاحها الخوف كأن الرجل سيعتدي عليها هي شخصيًّا ... شعرت كأن الأمر يمثل تهديدًا لها، تهديدًا لها هي شخصيًّا. ولكنها عندما عادت بفكرها إلى الوراء لفترة قصيرة رأت آنا التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمشي بين المخاطر وعلامات القبح في المدينة الكبيرة ولا تشعر بأي خوف. ولكنها تشعر الآن أن القبح اقترب منها وأصبح يقف على بعد قريب للغاية حتى إنها ربما تنهار وتصرخ.

ومتى ولدت آنا هذه الهشة الخائفة؟ كانت تعرف؛ إنها ولدت عندما تركها مايكل.

كانت آنا تشعر بالخوف والإعياء ولكنها مع ذلك تشعر بالرضا عن نفسها، وتشعر بالسعادة لأنها تعرف أنها هي، المرأة ذات الشخصية المستقلة، لم تكن تتأثر بذلك القبح الكامن في ذلك الجنس المنحل، في ذلك الجنس العنيف وهي بعيدة عنه تمامًا طوال تلك الفترة التي يبادلها الحب فيها رجل. جلست في الظلام وابتسمت، أو أجبرت نفسها على ابتسامة عريضة على شفتيها، تفكر في أنه لا أحد يمكن أن يشاركها ذلك الشعور بالسعادة سوى مولي، ولكنها لا تستطيع أن تتصل بها في ذلك الوقت وهي في تلك الظروف. أجل ... غدًا ستتصل بها وتتحدث معها بشأن تومي.

عاد تومي في تلك اللحظة إلى ذهن آنا، الذي كان مشغولًا أيضًا بأمر إيفور وروني، الأمر يفوق احتمالها بكثير، تسللت داخل الأغطية وهي تتشبث بها.

قالت آنا لنفسها في محاولة منها أن تهدئ من روعها: في الحقيقة أنا لا أصلح للتأقلم مع كل الأمور. أنا أسمو فوق كل هذه ... الفوضى بفضل ذلك العقل النقدي الصغير الذي يساعدني على أن أوازن بين الأمور المختلفة والذي يزداد فتورًا. (مرة أخرى رأت آنا عقلها مثل ماكينة صغيرة باردة تبعث بدقاتها الآتية من مكان بعيد في رأسها.)

كانت تستلقي في خوف وبدأت تلك الكلمات تتردد بداخلها مرة أخرى: جف النبع، ومع تلك الكلمات تتراءى لها صورة البئر الجاف؛ شق مفتوح وسط الأرض لا يملؤه شيء سوى التراب.

تبحث حولها عن شيء تتمسك به، فتشبثت بذكرى الأم شوجر. أجل، يجب أن أحلم بالماء، هكذا قالت لنفسها. فما إذن فائدة «خبرتها» الطويلة مع الأم شوجر، إذا كانت لا تستطيع الآن، في وقت الجدب، أن تستجلب المساعدة؟ يجب أن أحلم بالماء، يجب أن أحلم بالطريق الذي سيعيدني مرة أخرى إلى النبع.

خلدت إلى النوم وراودها حلم: إنها تقف على حافة صحراء شاسعة من الرمال الصفراء في منتصف النهار، الغبار المعلق في الهواء يحجب أشعة الشمس، فتحول

لونها إلى لون برتقالي كئيب منعكس في الأفق الممتلئ بالغبار. عرفت أن عليها أن تعبر الصحراء، ففي الجانب البعيد الآخر جبال تتنوع ألوانها ما بين البنفسجي والبرتقالي والرمادي. الألوان التي رأتها آنا في الحلم جميلة للغاية وزاهية. ولكنها محبوسة داخلها، محبوسة داخل تلك الألوان الزاهية الجافة، لا توجد مياه في أي مكان، بدأت تسير عبر الصحراء حتى يتسنى لها أن تعبر الجبال.

هذا هو الحلم الذي أفاقت منه في الصباح، وعرفت ما يعنيه، فالحلم يعكس تغييرًا حدث لها، تغييرًا في طريقة إدراكها لنفسها، في الصحراء كانت وحدها بعيدًا جدًّا عن الينابيع، وليس ثَمّ مياه. استيقظت وهي تعرف أنه إذا كان عليها أن تعبر الصحراء فعليها أن تتحمل المتاعب التي سيجلبها ذلك الأمر. خلدت إلى النوم وهي لا تعلم ماذا يمكن أن تفعل بشأن إيفور وروني، ولكنها استيقظت وهي تعرف ماذا ستفعل. استوقفت إيفور قبل أن يخرج إلى العمل، (وروني لا يزال نائمًا مثل عشيقة مدللة.) قالت له: «إيفور، أريدكما أن ترحلا.» هذا الصباح يبدو إيفور شاحب الوجه، وعلامات الترقب والخوف والاستعطاف تبدو عليه، لو تكلم وقال: «أنا آسف، أنا أحبه ولا أستطيع أن أفعل شيئًا في نفسي.» لما عبرت الكلمات على نحو أبلغ من تلك الملامح المرتسمة على وجهه.

قالت: «لا بد أنك تفهم يا إيفور أن الوضع لا يمكن أن يستمر هكذا.»

رد: «كنت أنوي أن أفاتحكِ في هذا الأمر منذ فترة، كنتِ كريمة للغاية يا آنا، أنا أود أن أدفع لكِ مقابل إقامة روني هنا.»

– لا.

قال: «أي مبلغ تطلبينه.» مع أنه كان يشعر بالخجل من ذلك الوجه الذي أظهره الليلة الماضية، والأهم أنه يشعر بالخوف من أن يُحرم من تلك الهناءة والسعادة اللتين يعيش فيهما، على الرغم من كل ذلك لم يستطع أن يُبقي تلك النغمة التهكمية الساخرة بعيدًا عن صوته.

قالت آنا: «بما أن روني يقيم هنا منذ أسابيع وأنا لم أتطرق قط إلى موضوع الإيجار، فمن الواضح أن المسألة لا تتعلق بالنقود.» وشعرت بالنفور من ذلك الشخص الانتقادي ذي المشاعر المتجمدة الذي يقف مكانها يتكلم بمثل هذه النبرة.

انتابه التردد مرة أخرى وارتسمت على وجهه أمارات امتزج فيها الإحساس بالذنب بالوقاحة والخوف: «تأخرت للغاية عن العمل، سوف أمر عليكِ في المساء لنتحدث في ذلك الأمر.» كان إيفور يقف في منتصف السلم، فهبط بقيته مهرولًا هرولة سريعة حتى يهرب منها، قاصدًا أن يسخر منها ويتحداها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عادت آنا إلى المطبخ، جانيت تتناول إفطارها.

سألتها جانيت: «عن ماذا كنتِ تتحدثين مع إيفور؟»

– كنت أقول له إن عليه أن يرحل، أو أن يرحل روني على الأقل.

ثم أضافت سريعًا إذ رأت أن جانيت على وشك أن تبدي اعتراضها: «هذه الغرفة لشخص واحد فقط وليس لشخصين، وهما صديقان وربما يفضلان أن يعيشا معًا.»

اندهشت آنا حين قررت جانيت ألا تبدي أي اعتراض، ظلت صامتة ومنهمكة في التفكير طوال الإفطار، مثلما كان حالها وهي تتناول العشاء في الليلة الماضية. عندما انتهت من إفطارها قالت: «لماذا لا يمكنني أن أذهب إلى المدرسة؟»

– ولكنكِ تذهبين بالفعل إلى المدرسة.

– لا، أنا أقصد مدرسة حقيقية، مدرسة داخلية.

– إن الوضع في المدارس الداخلية لا يشبه على الإطلاق القصة التي قرأها لكِ إيفور بالأمس.

بدا على جانيت أنها ستستأنف الحوار، ولكنها تركته ينتهي وذهبت إلى مدرستها كعادتها.

بعد برهة نزل روني من غرفته، قبل ميعاد استيقاظه المعهود. كان يرتدي ثيابًا مهندمة، وبدا وجهه شاحبًا للغاية. للمرة الأولى يعرض على آنا أن يذهب لشراء ما تحتاجه من مستلزمات: «أنا ماهر جدًّا في هذه المهام المنزلية البسيطة.» وعندما رفضت آنا جلس بالمطبخ يحادثها في تودد، وعيناه تستعطفانها طوال الوقت.

ولكن آنا مصممة على رأيها، وحينما أتى إيفور إلى غرفتها في المساء ليقابلها ظلت محتفظة بتصميمها، فاقترح إيفور عليها أن يرحل روني ويبقى هو: «أنا أقيم هنا منذ عدة شهور يا آنا ولم يحدث أننا احتككنا معًا أو تدخل أحد منا في أمور الآخر، أنا معكِ أن روني يسأل أكثر من اللازم، ولكنه سيرحل، أنا أعدكِ بذلك.» ترددت آنا في الموافقة ولكنه ألح عليها. «وهناك جانيت، سوف أفتقدها؟ ولن أكون مبالغًا إذا قلت لكِ إنني أظن أنها ستفتقدني أيضًا، اعتاد أحدنا على الآخر للغاية عندما كنتِ منشغلة بمساعدة صديقتك المسكينة في رعاية ابنها بعد ذلك الحادث الذي تعرض له.»

استسلمت آنا، ورحل روني، بعد أن جعل من أمر رحيله فرصة للتشهير بالآخرين. أوضح لآنا أنها امرأة بلا أصل لأنها طردته (وكانت آنا تشعر أنها بلا أصل)، وأوضح لإيفور أنه فقد عشيقه الذي لا يكلفه سوى ثمن زهيد، سقف ينام تحته. تضايق إيفور من آنا لأنه فقد صديقه، وأظهر لها ضيقه، لقد غضب.

وغضبه يعني أن الأمور عادت إلى ما كانت عليه قبل حادثة تومي. لم تعد آنا وجانيت تريانه إلا نادرًا، عاد مرة أخرى ذلك الفتى الذي يلقي عليهما التحية إذا تقابلوا على درجات السلم، وأصبح يبيت معظم الوقت بالخارج. عرفت آنا أن روني لم ينجح في الإبقاء على الشخص الذي يوفر له الرعاية وأنه وجد لنفسه غرفة صغيرة في شارع قريب وأن إيفور هو الذي ينفق عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدفاتر

[يبدو الدفتر الأسود الآن مثلما خططت له آنا من البداية، أفرغت خواطرها حول العنوانين اللذين يقتسمان صفحاته، في العمود الأيسر الذي يحمل عنوان «الإلهام» كتبت:]

١١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٥

اليوم كانت حمامة سمينة من حمام لندن تحجل بين نعال المارة وأحذيتهم ذات الرقاب الطويلة وهم يسرعون من أجل اللحاق بإحدى الحافلات، يركل رجل الحمامة بقدمه، فتندفع في الهواء وهي تترنح، وتسقط مرتطمة بعمود إنارة، فتتمدد على الأرض برقبة مشدودة ومنقار مفتوح، يقف الرجل مأخوذًا، فقد ظن أن الحمامة ستطير بعيدًا عندما يركلها. يسترق النظر إلى ما حوله حتى يهرب، ولكن الأوان فات، فهناك امرأة تتقدم نحوه بالفعل وقد اعتلى التحفز وجهها المحمر: «ماذا فعلت أيها المتوحش؟ أتركل حمامة؟» أصبح وجه الرجل محمرًّا أيضًا ودفعه شعوره بالإحراج والارتباك إلى أن يبتسم ابتسامة عريضة، وبدا مندهشًا للغاية لدرجة تثير الضحك، علق الرجل مناشدًا إياها ألا تتشدد في حكمها عليه: «إن الحمام يطير بعيدًا دائمًا.» تصرخ المرأة في وجهه: «قتلتها ... ركلت حمامة صغيرة مسكينة بقدمك!» ولكن الحمامة لم تمت، فهي تستلقي على مقربة من عمود الإنارة تمد رقبتها محاولة أن ترفع رأسها، تحاول بكل ما أُوتيت من قوة أن ترفع جناحيها فيسقطان، وتحاول ويسقطان، تحاول ويسقطان. في تلك الأثناء تجمع بعض المارة من بينهم فتيان في الخامسة عشرة من عمرهما، تبدو على وجهيهما ملامح الترقب الحادة التي تميز وجوه قطاع الطرق، فهما واقفان يرقبان ما يحدث دون تأثر وكل منهما يمضغ قطعة من اللبان. يقول أحد الأشخاص: «اتصلوا بجمعية الرفق بالحيوان.» فتصرخ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرأة: «لو لم يركل هذا السوقي تلك الحمامة المسكينة، لما كان هناك داعٍ لذلك.» يمشي الرجل بخطوات متثاقلة وقد اعتراه الخجل والارتباك إذ أصبح في نظر المارة مجرمًا ممقوتًا، الشخصان الوحيدان اللذان لم يتأثرا بهذا المشهد هما الفتيان، يقول أحدهما معلقًا: «السجن هو مكان أمثاله من المجرمين.» فتصيح المرأة: «أجل، أجل.» انشغلت عن النظر إلى الحمامة بصب مشاعر الكراهية على من ركلها. يقول الفتى الآخر: «السجن! إنه في رأيي يستحق الجلد بالسياط.» تتفقد المرأة الفتيين بنظرات حادة وتدرك أنهما يسخران منها، فتقول لهما وهي تلهث وقد تحشرج صوتها بعد أن بلغ بها الغضب مبلغه: «وأنتما الاثنان، أتضحكان وتسخران وهناك طائر صغير يعاني؟!» الآن يبتسم الفتيان ابتسامة عريضة ولكنها لم تكن مثل تلك الابتسامة الخجولة التي ارتسمت على وجه بطل هذه الواقعة الشرير والتي أطل منها الذهول والصدمة. تقول المرأة: «أتضحكان؟ أتضحكان! أنتما تستحقان فعلًا الجلد بالسياط، نعم تستحقانه.» في هذه الأثناء ينحني رجل يبدو عليه أنه من أهل الخبرة ليتفقد الحمامة وقد قطب جبينه، ثم يرفع رأسه ويقول: «سوف تموت.» إنه على حق، فجفناها يكادان يرتخيان فوق عينيها والدماء تتدفق من منقارها المفتوح، في هذه اللحظة تنسى المرأة الثلاثة أشخاص الذين كانت تصوب نحوهم مشاعر الكراهية التي بداخلها وتنحني إلى الأمام وتنظر إلى الطائر المُلقى على الأرض، تفتح فاها قليلًا وترتسم على وجهها ملامح الفضول البغيضة والحمامة تلهث وتلوي رأسها في ألم، ثم تسكن حركتها تمامًا.

يقول الرجل ذو الخبرة الذي تفحص الحمامة: «ماتت.»

يستعيد القاتل الشرير رباطة جأشه ويقول معتذرًا ولكن بلهجة يبدو منها أنه لن يسمح بأي مهاترات أخرى: «أنا آسف، ولكنها كانت حادثة غير مقصودة، فأنا لم أر من قبل حمامة لا تطير مبتعدة من أمام المارة.»

ننظر جميعًا في استنكار إلى راكل الحمام هذا القاسي القلب.

تقول المرأة: «حادثة غير مقصودة! أتقول حادثة غير مقصودة؟»

في هذه اللحظة يبدأ الجمع المحتشد في التفرق، ويلتقط الرجل ذو الخبرة الحمامة الميتة، ولكن هذا كان خطأً منه، فهو لا يدري ماذا يفعل بها الآن، ينصرف الرجل الذي ركل الحمامة، ولكن المرأة تتبعه بقولها: «أعطني اسمك وعنوانك، فسوف أقدم ضدك بلاغًا.» فيقول الرجل في ضيق: «يا إلهي، لمَ تعطين الموضوع أكبر من حجمه.» ترد المرأة: «هل ترى أن قتل طائر صغير مسكين هو شيء تافه مثل كومة التراب

فقط؟» يقول أحد الفتيين ذوي الخمسة عشر عامًا وهو يضع يديه في جيبي سترته وابتسامة عريضة على وجهه: «حسنًا إنها ليست عظيمة كالجبل، واقعة قتل حمامة ليست جبلًا.» يتناول الفتى الآخر من زميله طرف الخيط ويقول بلهجة تبدو غاية في الحكمة: «أنت على حق، فقتل حمامة هو مسألة تافهة مثل كومة من التراب، ولكنها ليست عظيمة كالجبل.» يقول الفتى الأول: «هذا صحيح؟ منذ متى يكون شأن الحمامة عظيمًا كالجبل وهو لا يعدو أن يكون كومة تراب؟» تستدير المرأة إليهما، فيهرب القاتل الشرير ممتنًّا لهما، وملامح تأنيب الضمير تبدو صارخة على وجهه بالرغم من أنه لم يرد ذلك. تحاول المرأة أن تبحث عن كلمات الاستنكار المناسبة لتعنف بها الولدين، ولكن في تلك اللحظة يقف الرجل ذو الخبرة ممسكًا بجثة الطائر وقد أُسقط في يده، فيسأله واحد من الولدين متهكمًا: «هل ستصنع اليوم فطيرة بالحمام يا رجل؟» فيرد الرجل ذو الخبرة على الفور: «أنت تتطاول عليَّ وسوف أطلب لك الشرطة.» تتهلل أسارير المرأة وتقول: «هذا صحيح، معك حق، كان يجب أن نطلب الشرطة منذ فترة.» يطلق أحد الولدين صفارة طويلة في تهكم وغرور مشككًا فيما قاله الرجل ويقول: «هذه فكرة رائعة، اتصل بالشرطة، وسوف يعنفونك لأنك سرقت حمامة من حمام الدولة أيها السيد!» ينصرف الاثنان وقد انخرطا في الضحك ولكن بأسرع ما يمكنهما دون أن يحرجا نفسيهما، فقد ذُكرت الشرطة.

لم يبق الآن سوى المرأة الغاضبة والرجل ذو الخبرة وجثة الحمامة وبضع من المارة، ينظر الرجل حوله، فتسقط عينه على سلة للقمامة معلقة على عمود الإنارة فيتجه نحوها ليلقي بالحمامة الميتة بها، فتعترض المرأة سبيله وتمسك بالحمامة وتقول بصوت مفعم بالرقة: «اتركها لي، سوف أدفن هذه المسكينة الصغيرة في صندوق الزرع المعلق بنافذتي.» يسرع الرجل ذو الخبرة بإعطائها إياها وهو ممتن، وتبقى المرأة وحدها تنظر بامتعاض إلى الدماء الكثيفة التي تتساقط من منقار الحمامة.

١٢ نوفمبر/تشرين الثاني

في الليلة الماضية حلمت بالحمامة، ذكرتني بشيء، ولكنني لم أكن أعرف ما هو، حاولت محاولة صادقة أن أتذكره وأنا أحلم، ولكنني تذكرته عندما أفقت من نومي ... إنها تذكرني بواقعة حدثت في إحدى العطلات الأسبوعية بفندق (ماشوبي). لم تخطر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بذهني هذه الواقعة منذ سنوات، ولكنني أستطيع الآن أن أرى تفاصيلها في وضوح. ينتابني الضيق والإحباط مرة أخرى لأن الكثير من الذكريات المحبوسة بعقلي لا أستطيع أن أصل لها، إلا إذا لعب الحظ دوره وأرسل لي واقعة مثل تلك التي حدثت بالأمس، لا بد أن هذه الواقعة لم تحدث بآخر عطلة أسبوعية قضيناها في ذلك الفندق، وهي عطلة حفلت بالأحداث الحرجة، كنا حينها لا نزال على علاقة طيبة بآل بوثبي. أذكر أن السيدة بوثبي أتت إلينا في حجرة الطعام ونحن نتناول الإفطار وهي تمسك ببندقية من طراز «إيه ٢٢» وقالت لنا: «هل يعرف أحد منكم الصيد؟» رد بول وهو يتناول البندقية منها: «لم يغفل تعليمي الراقي التدريب على مهارات قتل الدجاج البري وطيور الدراج.» ردت السيدة بوثبي: «ليس هناك شيء أروع من ذلك.» واستطرت: «هناك دجاج بري ودراج بالقرب من هنا، ولكن لا يوجد الكثير منها، قال لي السيد بوثبي إنه يود أن يتناول فطيرة بالحمام، كان معتادًا على الخروج إلى الصيد كل فترة، ولكنه اكتسب الكثير من الوزن ولم يعد قادرًا على الصيد، لذا فكرت، هل بإمكانك أن تصنع لي معروفًا؟»

كان بول يقلب البندقية محاولًا أن يعرف طريقة استخدامها ثم قال لها في النهاية: «أنا لم أفكر من قبل في أن أصطاد الطيور ببندقية، ولكن إذا كان السيد بوثبي يستطيع أن يقوم بذلك فبإمكاني أنا أيضًا أن أقوم به.»

تظاهرت السيدة بوثبي كعادتها بأن ذلك الذوق والأدب الذي يغلف تصرفات بول خال عليها وقالت: «إنه ليس أمرًا صعبًا، هناك منخفض صغير بين التلال القريبة يعج بالحمام، دعهم يستقرون على الشجر ثم صوب البندقية تجاههم واصطد.»

قال جيمي بلهجة جادة: «إن الرياضة لا تبرر مثل هذه الفعلة.»

صاح بول بلهجة بها الكثير من المبالغة وهو يضرب جبينه بيده ويبعد البندقية عنه باليد الأخرى: «يا إلهي، ألا تبرر الرياضة هذا الأمر؟»

لم تكن السيدة بوثبي على يقين من مدى جديته فيما يقول، ولكنها فسرت له الأمر بقولها: «إن الأمر مقبول للغاية، لا تطلق الرصاص إلا إذا كنت على يقين أنه سيصيب، فأين الضرر إذن في هذا الأمر؟»

قال جيمي لبول: «إنها على حق.»

– أنتِ على حق، على حق تمامًا، سوف نصطاد الحمام، كم حمامة تريدين لإعداد فطيرة الحمام من أجل مضيفنا السيد بوثبي؟

– لا يمكن أن أعدها بأقل من ست حمامات، وإذا كان بإمكانك أن تصطاد كمية كافية يمكنني أن أصنع فطيرة لكم أيضًا، سوف يكون ذلك رائعًا.

قال بول: «نعم سيكون ذلك رائعًا بحق، اعتمدي علينا.»

شكرته شكر شديدًا وانصرفت تاركة لنا البندقية.

انتهينا من تناول الإفطار في العاشرة صباحًا تقريبًا، وكنا سعداء بأن لدينا شيئًا يمكن أن نشغل به وقتنا حتى موعد الغداء. على مقربة من الفندق طريق فرعي غير مستوٍ متعامد على الطريق الرئيسي يمتد متعرجًا فوق أرض المرج بمحاذاة ممر أفريقي قديم استخدمه المارة فيما مضى، يؤدي هذا الطريق الفرعي إلى مقر الإرسالية التبشيرية الكاثوليكية الموجودة في البرية على بعد سبعة أميال، أحيانًا تسير العربة التي تزود مبنى الإرسالية بالمؤن في هذا الطريق، وأحيانًا يسلك عمال المزارع العائدون من مقر الإرسالية الملحق بها مزرعة كبيرة أو الذاهبون إلى هذا المقر هذا الطريق في مجموعات، ولكن في أغلب الأحيان كان هذا الطريق خاليًا. هذه البلد بأكملها أرض مرتفعة من الرمال المتموجة تقطعها بكثرة في أرجاء مختلفة التلال الصغيرة. عندما ترسل السماء أمطارها تغلق التربة أمامها الأبواب في عناد، فأثناء المطر كانت المياه التي يصل ارتفاعها لقدمين أو ثلاثة أقدام تتراقص فوق التربة الصلبة وترتطم بها في عنف قطرات المطر البيضاء المتساقطة من السماء، ولكن بعد ساعة من انتهاء العاصفة تعود الأرض جافة كما كانت، وترتفع المياه في الجداول والمستنقعات وتجري في صخب. انهمرت الأمطار بغزارة في الليلة الماضية حتى إن سقف غرف النوم المعدني كان يرتعش بقوة فوق رءوسنا وقطرات المطر تضربه بعنف، ولكن الشمس الآن ترتفع في كبد السماء الصافية. مشينا بجانب الأسفلت فوق طبقة رفيعة من التربة الرملية البيضاء الجافة التي تتكسر تحت أرجلنا كاشفة عن مياه المطر الداكنة الموجودة بالأسفل.

في ذلك الصباح كنا خمسة فقط. لا أذكر أين كان الباقون، ربما لم يحضر لقضاء هذه العطلة بالفندق سوانا نحن الخمسة. حمل بول البندقية، بدا في كل خطوة يخطوها مثل رجل رياضي وكان معجبًا بنفسه وهو يقوم بذلك الدور. ويسير جيمي بجانبه بجسده الممتلئ شيئًا ما ووجهه الشاحب بخطوات خرقاء، وتعود نظراته الثاقبة في النهاية إلى بول دائمًا، وبعينيه نظرة تواضع تطل منها الرغبة، ونظرة سخرية يطل منها تألمه لحاله. أما أنا وماريروز وويلي، الذي يمسك بيده كتابًا، فنسير بالخلف. أنا وماريروز نرتدي ملابس مناسبة للعطلة، فقد لبست سروالًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورديًّا بحمالة ومن تحته قميص أبيض، وماريروز ارتدت سروالًا أزرق مماثلًا ومن تحته قميص وردي.

بعد انعطافنا من الطريق الرئيسي إلى الطريق الرملي المتفرع منه كان علينا أن نسير في تأنٍ وحذر، لأنه بعد هطول المطر بالأمس تجمعت حشود من الحشرات في الصباح، بدا كل شيء يتحرك ويزحف في كل الاتجاهات، ففوق الحشائش المنخفضة أكثر من مليون فراشة بيضاء لها أجنحة يميل لونها الأبيض إلى الخضرة تطير متمايلة في الهواء، أحجامها مختلفة ولكنها جمعيًا بيضاء، فربما خرج نوع معين من الفراشات هذا الصباح إلى الحياة، أو تسللت فراشاته من شرانقها، وتحتفل جميعًا بحريتها، أما فوق الأعشاب نفسها فيسير نوع من الجراد ذي اللون الزاهي في أزواج بمختلف أرجاء الطريق، هناك الملايين منها أيضًا.

ترامى إلينا من الأمام صوت بول المرح والرزين في الوقت ذاته وهو يقول: «وقفزت جرادة فوق ظهر الجرادة الأخرى.» توقف بول، فتبعه جيمي الذي يسير بجانبه وتوقف مثله، فتوقفنا نحن الثلاثة من ورائهما. قال بول: «كم هو غريب هذا الأمر، أنا لم أدرك من قبل المعنى الدفين والحقيقي لهذه الأغنية.» كان الأمر مثيرًا للاشمئزاز ولكننا لم نشعر بالحرج بقدر شعورنا بالرهبة والاستغراب، انطلقت منا الضحكات، ولكن أصوات ضحكاتنا كانت عالية للغاية. بدأت الحشرات المنتشرة حولنا في كل الاتجاهات تتجمع في أزواج. وقفت واحدة من الحشرات بلا حراك وثبتت أرجلها بقوة في الرمال، وثبتت أخرى — تبدو مطابقة لها — نفسها بإحكام فوق ظهرها، فلم تستطع الحشرة التي تحتها أن تتحرك، وحشرة أخرى تحاول أن تتسلق فوق ظهر أخرى، ووقفت الأخرى ثابتة، محاولة على ما يبدو أن تساعد تلك التي تحاول أن تتسلقها لأن حركتها القوية والسريعة إلى الأعلى والأسفل تنذر بقلبهما على جنبيهما. وربما ينقلب زوج من حشرتين غير متناغمين معًا، فتعتدل تلك التي كانت بالأسفل، وتقف بانتظار الأخرى التي تحاول محاولة صادقة أن تعود إلى وضعها السابق، وربما تأتي حشرة أخرى، تبدو من نفس نوع تلك الحشرة التي بالأسفل وتأخذ مكانها. الحشرات السعيدة، أو المتناغمة معًا، تقف حولنا في كل مكان في أزواج من حشرتين الواحدة فوق الأخرى تحملق بعيونها البلهاء المستديرة ذات اللون الأسود الزاهي. انفجر جيمي في الضحك، فضربه بول على ظهره وقال: «هذه الحشرات القذرة لا تستحق منا أن نعيرها أي اهتمام.» كان بول على حق، فواحدة من هذه الحشرات، أو ستة أو حتى مائة، ربما تبدو جذابة بألوانها المختلفة الزاهية

وهي نصف مختبئة في الحشائش الخضراء التي يشبه لونها لون الزمرد، ولكن الآلاف منها، بلونها الأحمر الصارخ والأخضر الصارخ وأعينها الجوفاء السوداء التي تحملق فيما حولها تبدو سخيفة ومقززة، والأفظع من ذلك أنها تبدو مثل مجسمات للغباء. قالت ماريروز التي صرفت نظرها بالفعل تجاه الفراشات: «مشاهدة الفراشات أفضل بكثير.» كانت جميلة للغاية، رأينا أمامنا السماء الزرقاء مرصعة بالأجنحة البيضاء، وعندما نظرنا إلى الأسفل، تجاه المنخفض البعيد، رأينا الفراشات وكأنها سحابة تتلألأ فوق الحشائش الخضراء.

رد عليها بول: «ولكن يا عزيزتي ماريروز، لا بد أنكِ تتخيلين أن هذه الفراشات تحتفل بخروجها إلى الحياة أو تحاول أن تسلي نفسها، ولكن ليست هذه هي الحقيقة، إنها تلهث وراء الشهوة الوضيعة، مثلها مثل هذه الجرادات الحقيرة.»

سألته ماريروز بصوتها الرقيق الهادئ: «كيف عرفت؟» كانت تتحدث بلهجة جادة للغاية، أطلق بول ضحكته الرنانة التي يثق بأنها جذابة للغاية وعاد إلى الوراء بجانب ماريروز، مخلفًا جيمي وحده في المقدمة. تحرك ويلي الذي رافق ماريروز نحوي مفسحًا المجال لبول ولكنني تقدمت نحو جيمي الذي بدا بائسًا بعد أن تركه بول يسير بمفرده.

قال بول بلهجة يطل منها الاستياء الحقيقي: «إن الأمر مثير للاشمئزاز فعلًا.» نظرنا إلى حيث ينظر، فوجدنا أنه من بين هذا الحشد الكبير من الجراد زوجان من الدخلاء، الأول يتكون من حشرة ضخمة قوية، تبدو بسيقانها اللولبية مثل المكبس الذي يستخدم في تدوير المحركات، وعلى ظهرها حشرة هزيلة عاجزة، لا تستطيع أن تتسلق ظهر قرينتها المرتفع. وبجوار هاتين الحشرتين زوج آخر من الحشرات في وضع معكوس؛ فجرادة زاهية هزيلة تقبع تحت عبء حشرة قوية أكبر منها بكثير تكاد تسحقها بجسدها الضخم. قال بول: «سوف أقوم بتجربة علمية بسيطة.» ثم تقدم بحذر إلى الحشائش الواقعة على جانب الطريق وسط الحشرات، ووضع البندقية على الأرض وجذب عودًا من الحشائش وجثا على ركبته واضعًا إياها على الرمل مبعدًا الحشرات جانبًا ببراعة غير مهتم بها. وبحركة بارعة رفع الحشرة الضخمة عن ظهر قرينتها الضئيلة بواسطة عود الحشيش، ولكن هذه الحشرة قفزت على الفور إلى مكانها مرة أخرى، بحركة فجائية واحدة وهي ممتلئة بالعزم والتصميم. «هذه التجربة تحتاج إلى شخصين.» هكذا أعلن بول، فانتزع جيمي على الفور عودًا من الحشائش واتخذ مكانه بجانب بول، ولكنه لوى ملامحه ممتعضًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأنه مضطر أن يقترب من سرب الجراد. كان الشابان جاثيين على الطريق الرملي، يحركان عودي الحشائش اللذين في يديهما، ووقفت أنا وماريروز وويلي نشاهدهما وقد قطب ويلي جبينه. قلت معلقة على ما يفعلانه بلهجة ساخرة: «ياللعبث.» ومع أن علاقتي بويلي لم تكن، كعادتها، على خير حال في هذا الصباح، فقد أنعم عليَّ بابتسامة وقال بلهجة تنم عن استمتاعه الحقيقي بما يحدث: «ولكنه مع ذلك أمر ممتع.» تبادلنا الابتسامات الرقيقة، لأن مثل هذه اللحظات كانت نادرة للغاية. تقف ماريروز على الجانب المقابل ترقبنا ومشاعر الأسى والحقد تتحرك داخلها، فهي ترى أمامها فتى وفتاة في أسعد حال وشعرت بأنها أصبحت منبوذة، لم أستطع أن أتحمل ذلك، فذهبت إلى ماريروز وتركت ويلي. انحنيت أنا وويلي وماريروز من خلف بول وجيمي لنشاهد ما يحدث.

قال بول: «الآن.» ورفع الحشرة الضخمة مرة أخرى عن ظهر قرينتها الضئيلة، ولكن جيمي لم يكن ماهرًا بما يكفي فلم يستطع أن يرفع الحشرة الصغيرة عن ظهر قرينتها الضخمة وقبل أن يتمكن من إعادة المحاولة قفزت حشرة بول مرة أخرى إلى مكانها. قال بول بلهجة يملؤها الاستياء: «يالك من أحمق.» إنه يحاول دائمًا أن يكبت استياءه لأنه يعلم ما يكنه له جيمي من إعجاب، أسقط جيمي العود من يده وضحك في ألم، حاول جيمي أن يغطي على تلك الإهانة التي وُجهت له ... ولكن بول أمسك بعودي الحشيش ورفع الحشرة الضخمة من فوق ظهر قرينتها الضئيلة والحشرة الضئيلة من فوق ظهر قرينتها الضخمة، والآن أصبح هناك زوجان متناغمان من الحشرات، الأول يتكون من حشرتين كبيرتين والثاني من حشرتين صغيرتين.

قال بول: «هذا هو المنهج العلمي، غاية في الإتقان، غاية في السهولة، ويؤدي الغرض على نحو ممتاز.»

وقفنا هناك جميعًا، نحن الخمسة، نتفقد ذلك الانتصار الذي حققه المنطق السليم، ثم انفجرنا جميعًا، بما فينا ويلي، في الضحك الهستيري حينما فكرنا في تفاهة الأمر برمته. في تلك الأثناء استمرت الحشود المؤلفة من الجراد الملون في عملية التناسل من أجل الحفاظ على نوعها من دون أي مساعدة منا، وحتى ذلك الانتصار الهزيل الذي حققناه سرعان ما انتهى حينما سقطت الحشرة الضخمة من فوق ظهر قرينتها الضخمة أيضًا، واعتلت تلك الحشرة التي كانت بالأسفل ظهر قرينتها التي لم نكن نعلم أذكر هي أم أنثى.

قال بول بلهجة جادة: «ياللوضاعة.»

قال جيمي محاولًا أن يقلد نبرة صديقه التي تغلفها مسحة من الجدية: «لا يوجد دليل.» ولكنه يفشل، لأنه يتحدث دائمًا وهو يحبس أنفاسه أو يتكلم بلهجة حادة أو فكاهية، «لا يوجد دليل على أن تلك الممارسات التي نطلق عليها الممارسات الطبيعية منظمة تنظيمًا أفضل مما نقوم به. فأين الدليل الذي لدينا على أن هذه المخلوقات البدائية المتناهية الصغر مرتبة في أزواج يعتلي فيها الذكور ظهور الإناث؟» أضاف جيمي بلهجة جريئة إلى تعقيبه البعيد كل البعد عن الصواب: «لا يوجد أي دليل على أن هذه أزواج من الذكور والإناث؟ فكل ما نعرفه أن هذه الحشود الغفيرة منغمسة في الملذات، سواء أكانوا ذكورًا مع ذكور أم إناثًا مع إناث ...» أنهى كلامه بضحكة عالية، وعندما نظرنا إلى وجهه الذي تطل الفطنة من بين ملامحه وقد اتقد احمرارًا وارتسم عليه الإحراج، عرفنا أنه كان يتساءل لماذا لا يمر أي تعقيب قاله أو يمكن أن يقوله في سلاسة مثلما كان سيمر لو قاله بول، فلو ألقى بول علينا هذه الخطبة، بأسلوبه البارع، لكنا جميعًا نضحك الآن بدلًا من ذلك الانزعاج الذي انتابنا، فقد أدركنا أن هذه الحشرات القبيحة التي يحاول أحدها أن يعتلي ظهر الآخر أصبحت مثل سياج يقيد حركتنا.

فجأة قفز بول وخطا بقدميه متعمدًا فوق الحشرتين الكبيرتين اللتين رتب لتزاوجهما، ثم فوق الحشرتين الصغيرتين.

قالت ماريروز وهي ترتعد وتنظر إلى تلك الكتلة الملونة من الأعين والأجنحة المسحوقة بعضها مع بعض التي لطختها بقع بيضاء: «بول.»

قال بول: «رد متوقع من شخص عاطفي.» وقد تعمد أن يقلد ويلي الذي ابتسم معترفًا بكونه على علم أن بول يسخر منه، ثم تحولت لهجة بول إلى لهجة جادة: «يا عزيزتي ماريروز، بحلول هذه الليلة — أو على أقصى تقدير بحلول الليلة القادمة — ستموت كل هذه الكائنات تقريبًا هي وفراشاتكِ.»

قالت ماريروز: «يا إلهي، ولكن لمَ؟» كانت تنظر في ألم إلى تجمعات الفراشات الراقصة، ولكنها لم تعر الجراد أي اهتمام.

– لأن هناك الكثير منها، ماذا سيحدث لو عاشت جميعها؟ سوف تغزونا، سوف يختفي فندق (ماشوبي) تحت أقدام حشد زاحف من الجراد، سوف يُسوّى بالأرض، في حين سترقص تلك الأسراب الكبيرة من الفراشات المشئومة رقصة انتصار احتفالًا بموت السيد بوثبي وزوجته وابنتهما اليافعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حولت ماريروز نظرها عن بول واعتلى وجهها الشحوب وارتسم عليه شعورها بأنها جُرحت. كنا نعلم جميعًا أنها تفكر في أخيها الذي فارق الحياة، في مثل هذه اللحظات تعتلي وجهها نظرة يطل منها شعورها بأنها منعزلة تمامًا عما حولها، حتى إننا جميعًا نتوق إلى أن نحوطها بأذرعنا.

ومع ذلك استأنف بول حديثه، هذه المرة مقلدًا أسلوب ستالين: «إنه شيء واضح وضوح الشمس، بديهي، ولا يحتاج إلى أي كلام، فلماذا يجب أن أخوض في هذه المشكلة؟ ولكننا لسنا الآن بصدد مناقشة هل توجد حاجة إلى الكلام أم لا. كنت أقول إنه من المعروف أن الطبيعة تهدر الكثير (ليس لديها عزيز)، فقبل أن تمر ساعات ستقضي هذه الحشرات بعضها على بعض بالتقاتل أو اللدغ أو القتل العمد أو الانتحار أو عن طريق عمليات التزاوج الخاطئة، أو ستصبح طعامًا للطيور التي تنتظرنا في هذه اللحظة حتى نخلي لها المكان لتبدأ في التهام وليمتها. وحينما نعود في العطلة الأسبوعية القادمة، أو في العطلة التي تليها إذا شغلتنا مهامنا السياسية، إلى هذا المتنزه الترفيهي الساحر، فسوف نسير بخطوات منتظمة على هذا الطريق، وربما نرى واحدة أو اثنتين من هذه الحشرات الخضراء والحمراء المبهرة على الحشائش ونفكر كم هي جميلة! ولكننا لن نعير الجثث التي ستكون في طريقها إلى مثواها الأخير في كل مكان حولنا الكثير من الاهتمام. هذا بالإضافة إلى الفراشات، التي مع كونها أجمل بكثير من الجراد، فهي ليست ذات فائدة أكبر، الفراشات التي سوف نعمد إلى — بل سنحرص على — ألا نلحظها، إذا لم ننشغل أكثر بما يسلينا.»

كنا نتساءل لماذا يعمد بول إلى أن ينكأ جراح وفاة شقيق ماريروز التي تبتسم في ألم، أما جيمي الذي تطارده دائمًا المخاوف من أن طائرته ستتحطم في إحدى المرات ويموت، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماريروز التي أطلت منها المرارة نفسها.

– الموضوع الذي أحاول أن أوضحه أيها الرفقاء ....

قال ويلي بلهجة خشنة وغاضبة: «نحن نعرف الموضوع الذي تود أن توضحه.» ربما كان ويلي هو «الأب الروحي» كما كان بول يقول، للمجموعة بسبب لحظات مثل تلك. استطرد ويلي: «يكفي ذلك، لنذهب ونحضر الحمام.»

قال بول مستعيرًا مرة أخرى هذه العبارات التي يفضل ستالين أن يبدأ أحاديثه بها حتى لا يظهر بموقف أضعف من ويلي: «إنه لشيء بديهي وواضح وضوح الشمس، أن فطيرة الحمام التي يود مضيفي السيد بوثبي أن يتناولها لن تُصنع أبدًا، إذا ظللنا نتصرف بهذه الطريقة غير المسئولة.»

تقدمنا في سيرنا عبر الطريق وسط سرب الجراد، وبعد نصف ميل تقريبًا وصلنا إلى تل صغير كان كتلة غير منتظمة من حجر الجرانيت، وخلف هذا التل اختفى الجراد كأن هناك خطًّا فاصلًا رُسم بينها وبين هذا التل. لم يكن هناك، لم يكن له وجود، وكأن الجراد من الكائنات المنقرضة في هذه المنطقة، ولكن الفراشات لا تزال تطير حولنا في كل مكان وكأنها أوراق زهور بيضاء راقصة.

أظن أننا كنا في أكتوبر/تشرين الأول أو نوفمبر/تشرين الثاني، ولكن الحشرات ليست هي دليلي، فأنا أفتقر إلى معلومات ربما تمكنني من أن أحدد الوقت عن طريق أنواع الحشرات المختلفة، ولكن دليلي هو حرارة الجو في ذلك اليوم، فالحرارة مرتفعة للغاية وخانقة على نحو مزعج، لو كنا في أواخر موسم المطر لانتشرت نكهة مثل نكهة الشمبانيا في الهواء منذرة بقرب الشتاء، ولكنني أذكر كيف كانت الحرارة في ذلك اليوم تنشب سهامها في وجوهنا وأذرعنا وأرجلنا، تخترق حتى ملابسنا. نعم، لا بد أننا كنا لا نزال في بداية موسم المطر، فأعواد الحشائش لا تزال قصيرة، وباقات من الأعواد المدببة من الحشائش الخضراء الزاهية وسط الرمال البيضاء. ولذا سبقت هذه العطلةُ العطلةَ الأخيرة بأربعة أو خمسة أشهر، فبول قُتل بعد آخر عطلة قضيناها معًا، وهذا الطريق الذي كنا نمشي عليه هو نفسه الطريق الذي ركضت فوق أرضه المبتلة أنا وبول في تلك الليلة، وكل منا يمسك يد الآخر بعد شهور من تلك العطلة ثم سقطنا على الحشائش الرطبة، لا أدري أين سقطنا، ربما بالقرب من تلك البقعة التي جلسنا عندها لنصطاد الحمام اللازم لصنع الفطيرة.

تركنا التل الصغير وراءنا، والآن يلوح أمامنا تل آخر أكبر، الوادي الذي يتوسطهما هو ذلك المكان الذي قالت السيدة بوثبي إن الحمام يرتاده، كنا نضرب بأقدامنا فوق الطريق في اتجاه سفح التل الكبير والصمت يلفنا، أنا أذكر كيف كنا نمشي في صمت والشمس تلسع ظهورنا، تلوح أمامي صورتنا، ثلاثة شبان وصبيتان يرتدون ملابس ألوانها زاهية، ويمشون فوق أرض المرج الخضراء، وسط الفراشات البيضاء المتراقصة، تقلهم السماء الزرقاء الرائعة.

كانت عند سفح التل مجموعة من الأشجار الضخمة، اتخذ كل منا مكانًا له تحتها، وعلى بعد عشرين ياردة وقفت مجموعة أخرى من الأشجار، انبعث من بين أوراقها صوت هديل لحمامة، توقفت الحمامة بسبب البلبلة التي أحدثناها ولكنها رأت أننا لن نؤذيها، فاستأنفت هديلها. كان صوتها عذبًا هادئًا يبعث على الاسترخاء والنوم، مثله مثل صوت حشرة الزيز، التي أدركنا حينما أرهفنا السمع أن أزيزها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينطلق حولنا في كل مكان. تلك الجلبة التي يحدثها صوت الزيز يشبه ذلك الصوت الذي يتردد في أذني شخص مصاب بالملاريا تعاطى جرعات كبيرة من دواء الكينين، ذلك الصوت المزعج الحاد الذي لا ينقطع والذي يبدو كأنه ينبعث من طبلة الأذن نفسها. ولكن سرعان ما يصبح ذلك الصوت غير مسموع، حينما يتوقف المرء عن سماع ذلك الصوت الحاد الذي تحدثه مادة الكينين التي تجري في الدم.

قال بول: «حمامة واحدة فقط، لقد خدعتنا السيدة بوثبي.»

أسند بول فوهة بندقيته فوق إحدى الصخور ووقع بصره على الحمامة محاولًا أن يوجه إليها بندقيته دون أن يستند على الصخرة، وفي اللحظة التي ظننا أنه سيطلق فيها الرصاص وضع البندقية جانبًا.

أعددنا أنفسنا لفترة من الخمول والراحة، كان الظل كثيفًا، والحشائش ناعمة وطرية وأوشك النهار على الانتصاف. التل يبدو من ورائنا شاهقًا وضخمًا ولكنه لم يكن يبعث بالنفس شعورًا بالرهبة. إن التلال الموجودة بهذه المنطقة من البلد خادعة، فهي تبدو للمرء متناثرة في كل مكان من بعد، ولكن حينما يقترب منها يجدها أقل مما رأى، وهذا لأنها تتكون من مجموعات أو أكوام من أحجار الجرانيت المستديرة، بحيث يصل مرمى بصر المرء وهو واقف عند سفح أحد التلال إلى المرج الموجود على الجانب المقابل من خلال شق أو ممر ضيق موجود به، فيرى قطع الصخر المستديرة المتهاوية عظيمة كأنها كومة ضخمة من الصخور. استكشفنا هذا التل من قبل وكنا نعرف أنه يزخر بالسدود الترابية الدفاعية والمتاريس التي أقامها الحاكم السبعون لقبائل الماشونا منذ ثمانين عامًا ليصد بها هجمات قبائل المتابيلى. يزخر التل أيضًا بالعديد من النقوش الرائعة الخاصة بقبائل البشمان، ظلت هذه الرسومات محتفظة بروعتها قبل أن يشوهها زوار الفندق الذين يسلون أنفسهم بقذفها بالأحجار.

قال بول: «تخيلوا معي أننا جماعة من الماشونا محاصرين هنا، والمتابيلى في طريقهم إلينا مرتدين ملابس الحرب البغيضة، هم يفوقوننا عددًا ونحن، كما قالوا لي، لسنا أهل حرب، نحن أناس بسطاء منشغلون بفنون السلم، وتنتصر علينا قبائل المتابيلى دائمًا. نحن، وأقصد نحن الرجال، نعرف أننا سنلقى نهاية أليمة بعد لحظات، أما أنتما أيتها الفتاتان المحظوظتان، آنا وماريروز، فكل ما سيحدث لكما أنكما سوف تصبحان أسيرتين لدى أسياد جدد من قبيلة المتابيلى المنتصرة التي يتميز رجالها بأنهم هم الأقوى والأنسب لخوض الحروب.»

قال جيمي: «سوف تقتلان نفسيهما قبل أن يصل إليهما رجال القبيلة الأخرى، أليس كذلك يا آنا؟ أليس كذلك يا ماريروز؟»

قالت ماريروز بلهجة مرحة: «بالطبع.»

ورددت أنا أيضًا: «بالطبع.»

استمر هديل الحمامة ينساب إلى آذاننا، كنا نراها، حمامة صغيرة جميلة يبدو لونها من أمام السماء الزرقاء داكنًا، أمسك بول البندقية وصوبها تجاهها وأطلق الرصاص، سقطت الحمامة من فوق الشجرة وأخذت تتقلب في الهواء بجناحين مرتخيين ثم اصطدمت بالأرض محدثة صوتًا أمكننا سماعه من مكاننا. قال بول: «نحن نحتاج إلى كلب.» توقع أن يقفز جيمي من مكانه ويحضرها. عندما نظرنا إلى جيمي رأينا على وجهه أمارات الصراع الدائر داخله، ولكنه مع ذلك نهض من مكانه ومشى تجاه الأشجار المقابلة لنا وأحضر الحمامة التي أصبحت الآن جسدًا يفتقر إلى معالم الجمال وألقاها عند قدمي بول ثم جلس مرة أخرى، احمر وجهه على إثر هذه الجولة القصيرة تحت أشعة الشمس وتكونت بقع كبيرة من العرق على قميصه، فخلعه جيمي، جسده العاري يبدو شاحبًا وممتلئًا مثل أجساد الأطفال. قال جيمي بلهجة بها تحدٍّ: «هذا أفضل»، فهو يعرف أننا ننظر إليه، وفي الأغلب ننظر إليه نظرة استهجان.

يعم الصمت الآن الأشجار المقابلة. قال بول: «حمامة واحدة، لقمة شهية واحدة من أجل مضيفنا.»

ترامى إلي سمعنا هديل آتيًا من أشجار بعيدة وكأنه همسات رقيقة. قال بول «فلنصبر.» وأسند بندقيته على الصخرة مرة أخرى وأشعل سيجارًا.

في تلك الأثناء أخذ ويلي يقرأ في كتابه، وأغمضت ماريروز عينيها وتمددت على ظهرها واضعة رأسها التي انسابت منها الخصلات الذهبية الناعمة على حزمة من حزم الحشائش. ووجد جيمي شيئًا جديدًا ليسلي به نفسه، فمن بين حزم الحشائش التي يبعد بعضها عن بعض انساب مجرى من الرمال عرضه قدمان حفرته في الأغلب المياه في الليلة الماضية أثناء العاصفة، كان نموذجًا مصغرًا لقاع أحد الأنهار، ولكن شمس الصباح جففته تمامًا. تناثرت فوق سطح الرمال البيضاء أكثر من عشر حفر سطحية بأحجام ومساحات مختلفة، أمسك جيمي بعود قوي من الحشيش، واستلقى على بطنه محركًا إياه في حركة دائرية عند قاع إحدى الحفر الكبيرة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتساقطت كتل من حبات الرمال الدقيقة من فوق جوانب الحفرة، وبعد لحظة واحدة اختفت الحفرة التي رُسم محيطها الدائري في عناية ودقة.

قال بول: «يالك من أحمق.» تحدث بلهجته المعهودة دائمًا مع جيمي في مثل تلك اللحظات، لهجة الاستياء والضيق، فهو لا يستطيع بحق أن يفهم كيف يمكن أن يوجد شخص أخرق إلى هذا الحد. انتزع بول عودًا من جيمي وغرزه برفق في قاع حفرة رملية أخرى وبعد لحظة أخرج منها الحشرة التي حفرتها، حشرة ضئيلة من آكلات النمل، ولكن حجمها الذي كان مثل حجم رأس عود ثقاب كبير ضخم بالنسبة لبقية الحشرات من هذا النوع. سقطت الحشرة من فوق العود الذي كان بول ممسكًا به ووقعت فوق رقعة أخرى من الرمال البيضاء، وعلى الفور راحت الحشرة تهتز في حركات جنونية وبعد لحظة اختفت تحت الرمال التي أخذت حباتها الدقيقة تتساقط وهي ترتفع من فوقها.

قال بول لجيمي بلهجة خشنة وهو يناوله العود: «خذ.» بدا على بول أنه محرج من تلك الطريقة الفظة التي تعامل بها مع جيمي، أما جيمي الذي مال وجهه إلى الشحوب فقد ظل صامتًا ولم يقل شيئًا. أخذ جيمي العود من بول وراح يرقب بقعة الرمال الصغيرة التي ترتفع من فوق الحشرة.

كنا منشغلين بما نفعل، فلم نلحظ حمامتين حطتا على الأشجار المقابلة، بدأت الحمامتان تطلقان هديلًا، ولكن من دون أي تنسيق، فصوتاهما المتدفقان في رقة يتناغمان معًا كخطين متوازيين وأحيانًا لم يكن يحدث ذلك التناغم.

قالت ماريروز معترضة وهي لا تزال تغمض عينيها: «إنهما جميلتان للغاية.»

– ولكن مآلهما سيكون مثل فراشاتكِ، إلى الموت.

ثم رفع بول بندقيته وأطلق الرصاص. هذه المرة سقطت حمامة من فوق غصن الشجرة كأنها قطعة من الحجر، فزعت الحمامة الأخرى ونظرت حولها وهي تحرك رأسها التي يبرز منها منقارها الحاد في كل الاتجاهات، تنظر بإحدى عينيها إلى السماء لترى هل انقض صقر على صاحبتها وانتزعها من جانبها، ثم توجهها إلى أسفل، ولكن يبدو أنها لم تستطع أن ترى الجسد الملطخ بالدماء وسط الحشائش. مرت لحظة من الصمت والترقب، سُمعت خلالها طقطقة المغلاق، ثم بدأت الحمامة بعد ذلك تطلق هديلها مرة أخرى، رفع بول بندقيته على الفور وأطلق عليها الرصاص، فسقطت مباشرة على الأرض. لم ينظر أحد منا إلى جيمي الذي لم يرفع عينه عن الحشرة التي يراقبها. فهناك حفرة سطحية منتظمة الشكل ومن

أسفلها تنجز الحشرة المختبئة تحت الرمال عملها فترتفع الرمال التي تغطيها قليلًا كلما تحركت. على ما يبدو أن جيمي لم يلحظ أن بول اصطاد حمامتين، ولكن بول لم ينظر إليه، كل ما فعله أنه جلس ينتظر وهو يقطب جبينه مطلقًا صفيرًا هادئًا. بعد لحظة بدأ وجه جيمي يحمر من دون أن ينظر إلينا أو إلى بول. ثم نهض من الأرض مستندًا على كفيه وقدميه ومشى باتجاه الأشجار المقابلة وعاد وبحوزته جثتا الحمامتين.

قال بول معقبًا: «نحن لا نحتاج إلى كلب إذن.» لم يصل جيمي بعد إلى منتصف الطريق عائدًا من عند الأشجار حينما قال بول ذلك ولكنه سمع ما قيل، أنا لا أتصور أن بول تعمد أن يسمعه هذه الكلمات، ولكنه لم ينزعج حين سمعها. جلس جيمي على الأرض، ورأينا أن رحلتيه القصيرتين عبر الحشائش الخضراء تحت أشعة الشمس جعلت بشرة كتفيه البيضاء السميكة تحمر إحمرارًا شديدًا. عاد جيمي مرة أخرى إلى مشاهدة الحشرة.

يسود الصمت الرهيب المكان مرة أخرى، فلم يعد يُسمع أي هديل قادمًا من أي اتجاه. كانت الأجساد الثلاثة التي انسابت منها الدماء ملقاة بعضها فوق بعض بجانب صخرة بارزة إلى أعلى. تخللت الجرانيت الرمادي الخشن نباتات الحزاز ذات اللون البني المائل إلى الحمرة واللونين الأخضر والأرجواني، وبدت هذه النباتات مثل قطع من المجوهرات. أما على الحشائش الخضراء فقد تناثرت بقع قرمزية لزجة.

كنا نشتم رائحة الدماء.

عقب ويلي الذي لم ينقطع عن القراءة طوال كل هذا الوقت: «سوف تفسد هذه الطيور.»

قال بول: «سيكون من الأفضل لو أزحناها إلى أعلى قليلًا.» أرى عيني بول تتحركان تجاه جيمي وأرى جيمي يصارع نفسه من جديد، لذا نهضت مسرعة من مكاني وألقيت بالثلاثة أجساد الساكنة ذات الأجنحة المرتخية على الأرض في الظل.

ولكن يداهمنا جميعًا في تلك اللحظة شعور بالتوتر، قال بول: «أنا أرغب في كأس.»

ردت عليه ماريروز: «بقيت ساعة على ميعاد فتح الحانة.»

– حسنًا أنا أتمنى أن يسرع العدد المطلوب من الضحايا بالقدوم إلينا، لأنني سأنصرف حالما يحين ميعاد فتح الحانة وأترك شخصًا آخر يقوم بدور الجلاد.

قالت ماريروز: «لا يجيد أحد منا استخدام البندقية مثلك.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال جيمي: «فأنت بارع في الصيد.» وقد تحولت نبرة صوته فجأة إلى نبرة حاقدة.

كان يتأمل المجرى الرملي، فمن الصعب الآن أن يعرف آخر حفرة حفرتها آكلة النمل، كان يحملق في حفرة كبيرة إلى حد ما، كون الرمل بقاعها نتوءًا صغيرًا يرقد تحته جسد الوحش الرابض في انتظار فريسته، وأطل من تحت الرمال فكا الوحش اللذان بدوا مثل جزء من غصن أسود صغير. قال جيمي: «كل ما نحتاج إليه الآن هو بعض النمل.» وقال بول: «وبعض الحمام.» ثم أضاف مجيبًا على انتقاد جيمي له: «ما حيلتي في تلك الملكات والمواهب؟ إن الرب هو الذي يعطي، والرب هو الذي يأخذ، وفي حالتي الرب أعطى.»

قلت أنا: «ولكن عطاءه لم يكن عادلًا.» فابتسم لي بول ابتسامة تقدير ساحرة أطلت السخرية منها، فرددت عليه أنا الأخرى بابتسامة. من دون أن يرفع ويلي عينيه من الكتاب الذي يقرأ فيه تنحنح، مصدرًا صوتًا كوميديًّا للغاية مثل ممثلي المسرحيات الرديئة، انفجرت أنا وبول في نوبة من نوبات الضحك الهستيري الصاخب التي كثيرًا ما ينخرط فيها أعضاء مجموعتنا سواء كلهم أو اثنان منهم أو حتى واحد من المجموعة فقط. ظللنا نضحك ونضحك وويلي جالس يقرأ في كتابه، ولكنني أذكر الآن كيف أحنى كتفيه إلى الأمام في تحمل وضم شفتيه في ألم، اخترت ألا ألاحظ ذلك حينها.

فجأة دوى صوت رقيق عالٍ لطائر يضرب بجناحيه، واستقرت حمامة على إحدى الأغصان فوق رءوسنا، ثم رفعت جناحيها مرة أخرى لتغادر عندما رأتنا وطوتهما وظلت تدور حول الغصن عدة مرات تدير رأسها يمنة ويسارًا لكي ترانا، كانت عيناها السوداوان اللامعتان تبدوان مثل عيون أزواج الحشرات المستديرة التي كانت على الطريق، وبإمكاننا أن نرى أطراف مخالبها الوردية الفاتحة وهي تمسك بغصن الشجرة، وأشعة الشمس اللامعة المنعكسة على جناحيها. رفع بول البندقية بزاوية تكاد تكون قائمة، وأطلق الرصاص، فسقطت الحمامة بيننا، وتناثرت قطرات الدم على ساعد جيمي، اعتلى الشحوب وجهه ومسح الدم من ساعده ولكنه لم يقل شيئًا.

قال ويلي: «أصبح الأمر مثيرًا للاشمئزاز.»

رد بول في هدوء: «إنه كذلك منذ البداية.»

انحنى بول إلى الأمام والتقط الحمامة من فوق الحشائش وتفحصها، لا تزال حية، تدلت من يده بلا حراك ولكن عينيها السوداوين ظلتا تراقباننا، انسدل جفناها

الرقيقان فوقهما، ثم رأيناها ترتعش في إصرار لتدفع شبح الموت بعيدًا، وظلت تقاوم لحظة بين يدي بول. قال بول: «ماذا عليَّ أن أفعل؟» وقد تحولت نبرته فجأة إلى نبرة حادة، ثم تمالك نفسه في الحال وأضاف مازحًا: «هل تتوقعون أنني إنسان بلا قلب يمكن أن يقتل هذا الطائر بيديه.»

قال جيمي: «نعم.» مواجهًا بول ومتحديًا إياه، ولأنه أخرق اندفع الدم إلى وجنتيه مرة أخرى فتوهج وجهه، ولكنه ظل مثبتًا عينيه على وجه بول حتى اضطر بول إلى أن يحول نظره بعيدًا عنه.

قال بول بلهجة يطل منها الازدراء وشفتاه مضمومتان: «حسنًا.» أمسك بول بالحمامة برفق، وهو لا يعلم كيف يمكن أن يقتلها، وانتظر جيمي ليرى كيف سيثبت بول نفسه. في هذه الأثناء كانت الحمامة ترقد بين يديّ بول وأغرقت الدماء الريش الذي يكسوها، وتدلت رأسها إلى الأسفل، ثم ارتعشت ورفعت رأسها مرة أخرى، ثم تدلت رأسها مرة أخرى يمينًا ثم يسارًا، وجفناها الرقيقان ينسدلان فوق عينيها الجميلتين وهي تقاوم وتقاوم من أجل أن تهزم الموت.

ثم استسلمت فجأة إلى الموت منقذة بول من مأزقه، فألقى بها بول فوق كومة أجساد الطيور الميتة.

قال جيمي بصوت مرتعش: «إن الحظ دائمًا يحالفك في كل شيء.» كان الغضب يطل من صوته، وارتعشت شفتاه اللتان يتفاخر بأنهما منغمستان في اللذة انغماسًا واضحًا أمام أنظارنا.

قال بول: «نعم، أنا أعرف، أنا أعرف ذلك، لقد خدمني الحظ، لأنني أعترف لك يا عزيزي جيمي، أنني لم أكن أستطيع أن أتحامل على نفسي وألوي عنق هذه الحمامة لأكسرها.»

حول جيمي نظره بعيدًا في ألم وعاد مرة أخرى إلى مراقبة الحفر التي صنعتها آكلة النمل. وبينما كان جيمي منشغلًا مع بول إذ وقعت نملة صغيرة للغاية لا تكاد تزن ذرة من تراب من حافة إحدى الحفر، وفي تلك اللحظة قسمها الوحش الرابض بالأسفل إلى نصفين بفكيه، حدثت دراما الموت تلك على مساحة صغيرة للغاية، فحجم النملة وآكلتها والحفرة التي تصارعا داخلها لا يكاد يكون في حجم ظفر صغير، ظفر خنصر ماريروز الوردي الصغير على سبيل المثال.

اختفت النملة الصغيرة تحت طبقة رفيعة من الرمال البيضاء وبعد لحظة أطل الفكان نظيفين بلا أي عوائق ومستعدين لالتهام المزيد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخرج بول خزنة البندقية ووضع بها طلقة رصاص، فأحدث المغلاق صوت طقطقة حاد. قال بول: «لا يزال علينا أن نأتي بحمامتين على الأقل لنفي بما تحتاج إليه السيدة بوثبي.» ولكن الأشجار – التي تقف أمامنا بجذوعها المستقيمة والتي يلفها الصمت تحت أشعة الشمس الحارقة تتمايل أغصانها الخضراء الصغيرة جمعيها برقة ورشاقة – خلت من الطيور. لم يعد هناك الكثير من الفراشات الآن، فلم يتبق سوى عشرات من الفراشات تتراقص وسط الحرارة الخانقة. كانت الحرارة تبعث بنيرانها من بين الحشائش والرمال، ولهب هذه النيران يزداد قوة واشتعالًا فوق الصخور التي تطل برأسها من وسط الحشائش.

قال بول: «لا شيء، لا شيء يحدث، ياللملل.»

مر الوقت، دخنا السجائر وانتظرنا، استلقت ماريروز على ظهرها وقد أغمضت عينيها وبدت ساحرة وفاتنة. أما ويلي فكان يقرأ وكله تصميم على أن يحسن من نفسه، كان يقرأ كتاب «ستالين والإمبريالية».

قال جيمي في حماس: «ها هي نملة أخرى.» كانت نملة أكبر من سابقتها، تكاد تكون في حجم آكلة النمل، تنطلق مسرعة بحركات غير منتظمة بين الحشائش، تمشي بحركات تشنجية غير منتظمة مثلما تفعل كلاب الصيد حينما تتشمم الطريق. سقطت النملة مباشرة فوق حافة الحفرة وحولنا أعيننا إليها في الوقت المناسب لنرى الفكين اللامعين البنيين وقد امتدا لينقضا على النملة من المنتصف حتى كادا أن يقسماها إلى نصفين، دار عراك وانسابت بعض حبات الرمال إلى الأسفل عبر جوانب الحفرة، تعارك الاثنان تحت الرمال، ثم ساد السكون.

قال بول: «هناك شيء في هذه البلد ترك في نفسي أثرًا لن ينمحي أبدًا، عندما نفكر في التربية المُغَيَّبة التي تلقاها أبناء الطبقات الراقية مثلي ومثل جيمي؛ بيوتنا الجميلة ومدارسنا الخاصة وأكسفورد، هل يمكن أن نشعر بأي شيء سوى الامتنان لتلك النافذة التي فُتِحَت لنا على الطبيعة بوجهها الحقيقي؟»

قال جيمي: «أنا لا أشعر بالامتنان، أنا أكره هذه البلد.»

– أنا أعشقها، أنا مدين لها بكل شيء. لن يحدث أبدًا أنني سأردد هذه الشعارات الليبرالية النبيلة الجوفاء التي غرزها في تعليمي الديمقراطي؛ فأنا الآن أعرف أكثر.

قال جيمي: «ربما أكون أعرف الآن أكثر، ولكنني سأردد الشعارات النبيلة الجوفاء، في ذات اللحظة التي أعود فيها إلى إنجلترا، ولا يمكن أن يحدث ذلك قريبًا، لقد أعدَّنا التعليم الذي تلقيناه لكي نعيش تفاهات الحياة العريضة، وماذا غيرها؟

أنا عن نفسي أتحرق شوقًا إلى هذه التفاهات العريضة. عندما أعود، هذا إن عدت من الأساس، فسوف ....»

هتف بول: «مرحبًا، ها هي حمامة أخرى في طريقها إلينا، لا لن تأتي.» كانت حمامة تضرب بجناحيها في طريقها إلينا، وعندما رأتنا انحرفت جانبًا وابتعدت عاليًا في الهواء، وكادت أن تستقر على أحد الأغصان بالأشجار المقابلة ولكنها غيرت رأيها وابتعدت مسرعة. كان مجموعة من عمال المزارع يمرون بالطريق على بعد مائتي ياردة، جلسنا نرقبهم في صمت، كانوا يتحادثون ويضحكون حتى رأونا، الصمت يلفهم هم أيضًا الآن، مروا علينا موشحين بوجوههم وكأنهم بهذه الطريقة يتفادون أي خطر يأتي منّا، نحن السكان البيض.

قال بول بصوت رقيق: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي.» ثم استطرد وقد تغيرت نبرة صوته وأصبح يتكلم بنبرة مرحة: «إذا نظرنا إلى الأمر نظرة موضوعية، على ألا نعير جل اهتمامنا إلى الرفيق ويلي وأمثاله ... أيها الرفيق ويلي أنا أدعوك إلى أن تفكر في أمر ما بموضوعية.» أنزل ويلي الكتاب من فوق عينيه مستعدًّا لإظهار سخريته. «هذه البلد أكبر من أسبانيا ويعيش بها نحو مليون ونصف مليون من السود، هذا إن كان لهم قيمة من الأساس، ومائة ألف من البيض، هذا الأمر في حد ذاته يحتاج منا إلى أن نتأمله في صمت دقيقتين. وماذا نرى في ذلك؟ من الممكن أن يتخيل المرء، وللمرء ألف عذر في أن يتخيل، مع كل ما تقوله أيها الرفيق ويلي، أن هذه الحفنة من الرمال عديمة القيمة على شواطئ الزمن ... ليست سيئة، هذه الصورة؟ ... مكررة ولكنها مناسبة ... أقول إن من الممكن أن يتخيل المرء أن السود الذين يزيدون قليلًا عن مليون ونصف مليون شخص يعيشون هنا على هذه القطعة الخلابة من أرض الله فقط لكي يُتعسوا بعضهم بعضًا ...» في تلك اللحظة يمسك ويلي بالكتاب مرة أخرى ويركز انتباهه على القراءة، «أيها الرفيق ويلي، لتتبع بعينيك ما تقرأ، ولكن دع آذان روحك تصغي لما أقول، فالحقيقة هي، وأكرر الحقيقة هي، أنه يوجد من الطعام ما يكفي الجميع! ومن المواد الخام ما يكفي لبناء مساكن للجميع! ومن المواهب التي يجب أن أعترف أنها مدفونة تحت التراب ولا تستطيع أن تميزها سوى عين ثاقبة للغاية، أقول إن هناك من المواهب ما يكفي لنشر نور المعرفة والحضارة حيث يحل الظلام الآن.»

قال ويلي: «وماذا تستنتج من ذلك؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا أستنتج أي شيء، أدهشني شيء جديد ... إنه مثل ضوء ساطع يعمي الأبصار، ليس إلا ....

قالت ماريروز: «ولكن ما قلته هو الحال في العالم أجمع، وليس في هذه البلد فقط ...».

– عظيم يا ماريروز! نعم، فُتحت عيناي على ... أيها الرفيق ويلي، ألا ترى أن هناك مبدأ على أرض الواقع ليس متضمنًا في فلسفتك؟ مبدأ يخص الدمار؟

رد ويلي بالنبرة نفسها التي توقعناها جميعًا: «ليس هناك أي داعٍ للنظر في أي شيء سوى فلسفة الصراع بين الطبقات الاجتماعية.» انفجرت أنا وبول وجيمي في واحدة من نوبات الضحك الهستيري التي لم يحدث أن شارك فيها ويلي قط، كأن ويلي ضغط على زر فجر هذه النوبة.

قال ويلي وملامح الجدية ترتسم على وجهه: «يسعدني أن أرى أن الاشتراكيين الأكْفاء – يصف اثنان منكم على الأقل نفسيهما بأنهما اشتراكيان – يعتبرون هذا الأمر فكاهيًّا.»

قالت ماريروز: «أنا لم أعتبره فكاهيًّا.»

قال بول: «لا يوجد أي شيء فكاهي عندك، هل تعرفين أنكِ لا تضحكين أبدًا يا ماريروز؟ أبدًا؟ في حين أنا أضحك طوال الوقت مع أن منظوري عن الحياة لا يمكن وصفه بشيء ألا أنه كئيب ويزداد كآبة مع كل دقيقة، كيف تفسرين هذا الأمر؟»

قالت ماريروز وهي تستلقي على ظهرها وتبدو في سروالها ذي الحمالة وقميصها الزاهيين مثل دمية رقيقة وجميلة: «ليس لدي منظور عن الحياة.» ثم استطردت: «على أي حال، أنت لا تضحك، فأنا كثيرًا ما أصغي إليك،» (لقد كانت تقول ذلك وكأنها ليست واحدة منا، ولكن شخص غريب عن المجموعة.) «وقد لاحظت أن أكثر المرات التي تضحك فيها هي تلك المرات التي تتكلم فيها عن شيء سيئ، وأنا لا أسمي ذلك ضحكًا.»

– هل كنتِ تضحكين عندما كنتِ بصحبة أخيكِ يا ماريروز؟ وعندما كنتِ مع عشيقكِ؟

– نعم.

– لماذا؟

قالت ماريروز ببساطة: «لأننا كنا سعداء.»

قال بول وقد راعه الأمر: «يا إلهي، لم أكن لأقول ذلك، هل حدث أن ضحكت من قبل يا جيمي لأنك كنت سعيدًا؟»

قال جيمي: «لم يحدث أنني كنت سعيدًا.»

– وأنتِ يا آنا؟

– ولا أنا.

– ويلي؟

قال ويلي: «بالطبع.» بعِند مدافعًا عن الاشتراكية، عن فلسفة السعادة.

قال بول: «كنت تقولين الحقيقة يا ماريروز، فأنا أصدقكِ، ولكنني لا أصدقك يا ويلي، على الرغم من كل شيء، فأنت في وضع تحسدين عليه يا ماريروز، هل تعلمين ذلك؟»

ردت عليه ماريروز: «نعم، أنا أرى أنني أسعد حظًّا من أي منكم، أنا لا أري أي شيء في أن يكون المرء سعيدًا، فماذا في ذلك؟»

ساد الصمت وأخذنا ننظر بعضنا إلى بعض، ثم انحنى بول تجاه ماريروز انحناءة يطل منها التعظيم وقال في تواضع: «ليس لدينا رد كالعادة.»

أغمضت ماريروز عينيها مرة أخرى، وسريعًا حطت حمامة على إحدى الأشجار المقابلة، أطلق بول الرصاص عليها، ولكنه لم يصبها. هتف بول متصنعًا الفجيعة: «يا لها من هزيمة.» بقيت الحمامة مكانها تنظر حولها في دهشة، وهي ترقب ورقة شجر أسقطتها رصاصة بول تتهادى في الهواء إلى أسفل، أخرج بول خزانة بندقيته الفارغة وملأها في تمهل، ثم صوب البندقية نحو الحمامة وأطلق الرصاص، سقطت الحمامة، ولكن جيمي لزم مكانه في عناد، لم يتحرك جيمي ولكن بول، قبل أن ينهي الصراع بين الرغبات، أحرز النصر حيث نهض من مكانه وقال: «أنا لست في حاجة إلى كلب صيد، فسوف أحضر صيدي بنفسي.» ثم مشى متمهلًا تجاه الأشجار ليحضر الحمامة، لاحظنا جميعًا كيف اضطر جيمي إلى أن يجاهد نفسه التي نازعته إلى أن يقفز من مكانه وينطلق إلى الحشائش وراء بول، الذي عاد وفي يده الحمامة الميتة فاغرة فاها فألقى بها مع بقية الحمامات التي صادها.

قالت ماريروز: «سوف تصيبني رائحة الدم بالغثيان.»

رد بول: «فلنصبر قليلًا، أوشكنا على استكمال الغنيمة.»

قال جيمي: «يكفينا ست حمامات، فلن يأكل أحد منا من هذه الفطيرة، بإمكان السيد بوثبي أن يأكلها كلها.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال بول: «أنا سوف آكل منها حتمًا، وأنت أيضًا، هل تظن أنه حينما توضع أمامك هذه الفطيرة الشهية المحشوة باللحم البني المتبل وعصارته اللذيذة، أنك سوف تتذكر هديل هذه الطيور الناعم الذي قطعته في وحشية صوت رصاصة الموت؟»

قالت ماريروز: «نعم، سوف أتذكر ذلك.»

وقلت أنا: «وأنا أيضًا.»

سأل بول محولًا الأمر إلى موضوع للنقاش: «وماذا عنك يا ويلي؟»

رد عليه ويلي وهو يقرأ كتابه: «على الأغلب لن أذكر ذلك.»

قال بول: «النساء رقيقات، سوف يشاهدننا ونحن نأكل، ويحركن ملاعقهن طوال الوقت يمينًا ويسارًا في أطباق اللحم المشوي اللذيذ الذي أعدته السيدة بوثبي دون أن يأكلن ويلوين شفاههن الرقيقة الصغيرة في امتعاض، ومع ذلك يزداد حبهن لنا جميعًا من أجل قسوتنا وغلظة قلوبنا.»

قال جيمي معلقاً: «مثل نساء الماشونا وقبيلة المتابيلي.»

أنزل بول بندقيته ولكنه ظل ممسكًا بها لكي تكون جاهزة فور أن يحتاج لها وأخذ يراقب الأشجار ثم قال: «أنا أحب أن أفكر في هذه الأيام، إن الأمر في غاية البساطة، أناس بسطاء يقتل بعضهم بعضًا من أجل أسباب وجيهة: الأرض، والنساء، والطعام. ليسوا مثلنا، ليسوا مثلنا تمامًا. فأما لنا نحن ... هل تعلمون ماذا سيحدث؟ سوف أخبركم: نتيجة لجهود رفقائنا المحترمين من أمثال ويلي، الذين يكونون على استعداد دائم أن يكرسوا جهودهم من أجل خدمة الآخرين، أو نتيجة لجهود أمثالي ممن يهتمون فقط بالربح، أتوقع أنه في خمسين عامًا سوف تمتلئ هذه البلد الجميلة الفارغة التي نراها تمتد أمامنا لا يشغلها سوى الفراشات والجراد بأزواج من المنازل المتماثلة يقطنها العمال السود ويرتدون الثياب الأنيقة.»

قال ويلي مستفسرًا: «وماذا في ذلك؟»

قال بول: «إنه تقدم.»

قال ويلي: «نعم إنه كذلك.»

سأل جيمي بلهجة جادة للغاية، فأحيانًا يتكلم جيمي بدرجة كبيرة من الجدية عن المستقبل الاشتراكي: «ولماذا ستكون أزواج من المنازل المتماثلة؟ فتحت قيادة حكومة اشتراكية سوف يكون هناك منازل أنيقة ملحق بها حدائق، أو شقق واسعة.»

قال بول: «يا عزيزي جيمي، يا له من أمر محزن أن يكون تفكيرك محصورًا فيما يخص الاقتصاد، سواء كانت الحكومة اشتراكية أم رأسمالية، في كلتا الحالتين، هذه الأرض الجيدة الصالحة لأغراض التنمية سوف تطولها أيادي التنمية بمعدل يمكن للدول التي تفتقر إلى حد بعيد إلى رأس المال أن تحققه، هل تسمعني أيها الرفيق ويلي؟»

– نعم، أسمعك.

– ولأن أي حكومة تواجه ضرورة إيجاد مساكن للكثير من الأشخاص المشردين وعلى نحو من السرعة، أي حكومة في هذا الموقف، سواء كانت رأسمالية أم اشتراكية، ستختار أرخص أنواع المساكن المتاحة، سوف تصبح المناظر الطبيعية الجميلة التي حولنا مصانع تنفث دخانها في وجه السماء الزرقاء، وكتلًا من المنازل المتماثلة الرخيصة، ألست محقًّا أيها الرفيق ويلي؟

– أنت محق.

– وماذا بعد؟

– ليس هذا هو أصل المشكلة.

– بل هو أساس المشكلة عندي، ولذا أفكر كثيرًا في بساطة تلك التصرفات الوحشية التي كانت قبيلتي المتابيلي والماشونا يمارسونها، أما الوجه الآخر فهو وجه بشع للغاية حتى إنني لا أحتمل أن أتأمله، إنه الوجه الذي يظهر حقيقة زماننا سواء كان ذلك الوجه اشتراكيًّا أم رأسماليًّا ... ماذا تقول في ذلك أيها الرفيق ويلي؟

تردد ويلي برهة ثم قال: «سوف تكون بعض الاتفاقات الظاهرية الأكيدة ولكن ...» قاطعته إحدى نوبات الضحك الهستيري التي انخرطت بها أنا وبول ثم انضم إلينا جيمي.

قالت ماريروز موجهة حديثها إلى ويلي: «إنهم لا يضحكون على ما تقوله، بل يضحكون لأنك دائمًا تقول ما يتوقعونه.»

رد عليها ويلي: «أنا أعرف ذلك.»

قال بول: «لا يا ماريروز، أنا أضحك أيضًا على ما يقوله، ولكن يؤسفني كثيرًا أن أقول إن ما يقوله ويلي ليس صحيحًا، وأتمنى ألا أكون متعصبًا لرأيي بخصوص هذا الأمر، ولكنني أخشى أن ... فأنا عن نفسي سوف أسافر من حين إلى آخر خارج إنجلترا لأتفقد استثماراتي بالخارج، وقد أطير عرضًا في إحدى رحلاتي فوق هذه المنطقة وأنظر إلى أسفل فأرى المصانع التي يتصاعد منها الدخان والوحدات السكنية،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فأتذكر هذه الأيام الهنيئة الهادئة حينما كانت هذه المنطقة ريفية و...» تحط حمامة على الأشجار المقابلة، ثم تتبعها أخرى وتتبعهما ثالثة، يطلق بول الرصاص، فتسقط الأولى، ثم يطلق الرصاص مرة أخرى فتسقط الثانية، وتنطلق الثالثة إلى أعلى من بين مجموعة من أوراق الشجر كأنها حجر قذفت به آلة حربية. نهض جيمي من مكانه ومشى باتجاه الأشجار وأحضر الحمامتين اللتين لوثتهما الدماء وألقى بهما مع الأخريات وقال: «سبع حمامات، ألا يكفينا هذا؟»

قال بول وهو يضع بندقيته جانبًا: «نعم، يكفينا ذلك، والآن هيا ننطلق إلى الحانة، فما تبقى على ميعاد فتحها يكاد يكفينا لكي نغتسل من آثار الدماء.»

قال جيمي: «انظروا.» كانت خنفساء صغيرة في ضعف حجم أكبر آكلات النمل تتقدم من بين أعواد الحشائش التي تبدو بالمقارنة بحجمها مثل أبراج شاهقة.

قال بول: «لا فائدة، فهذه ليست إحدى الفرائس الطبيعية التي تهاجمها آكلة النمل.»

قال جيمي: «ربما لا.» ثم سحب الخنفساء إلى أكبر الحفر الموجودة بالرمال، فهاجت الدنيا وماجت، انقض الفكان البنيان اللامعان على الخنفساء، فقفزت الخنفساء إلى أعلى وسحبت آكلة النمل إلى منتصف جدار الحفرة، تساقطت كمية من الرمال من الجوانب وردمت الحفرة، وكانت الرمال حول هذه المعركة الصامتة ببوصتين تبرز إلى أعلى ثم تدور في حركة دائرية مثل دوامات المياه.

قال بول: «لو كانت آذاننا تلتقط مثل هذه الأصوات، لكانت الصرخات والأنين وأصوات التعب والأنفاس اللاهثة ملأت الهواء من حولنا. ولكن يسود هذا المرج الذي تلفح الشمس رماله وحشائشه السكون الهانئ كالعادة.»

يُسمع صوت لطائر يضرب بجناحيه، وتحط حمامة على إحدى الأشجار.

صاحت ماريروز في ألم: «لا، لا تفعل.» وهي تفتح عينيها وترفع نفسها مستندة على مرفقها، ولكن فات الأوان، فقد أطلق بول الرصاص بالفعل وسقطت الحمامة من الشجرة، قبل أن يرتطم جسدها بالأرض، حطت أخرى على إحدى الفروع التي تطل برأسها في نهاية الغصن، فراح الفرع يتأرجح بخفة تحت مخالبها، أطلق بول الرصاص وسقطت الحمامة، ولكنها أطلقت صيحة وراحت ترفرف بجناحيها في عجز، نهض بول وأسرع إلى الأشجار المقابلة عبر الحشائش والتقط الحمامة الميتة والحمامة الأخرى التي جرحت، رأيناه ينظر إلى الحمامة المجروحة نظرة خاطفة كلها تصميم وقد ضم شفتيه، ثم لوى عنقها.

عاد إلينا وألقى بجثتي الحمامتين وقال: «تسع حمامات، يكفينا هذا القدر.» كانت علامات الامتعاض تبدو واضحة على وجهه الشاحب ولكنه مع ذلك نجح في أن يرسم على شفتيه وهو ينظر إلى جيمي ابتسامة تطل منها نشوة الانتصار.

قال ويلي وهو يغلق كتابه: «هيا بنا.»

قال جيمي: «مهلًا.» إن الرمال تتحرك الآن، اخترقها جيمي بعود رفيع من الحشائش وأخرج أولًا جسد الخنفساء الصغيرة ثم جسد آكلة النمل، الآن أمكننا أن نرى أن فكي آكلة النمل مغروسان في جسد الخنفساء وجسد آكلة النمل بلا رأس.

قال بول: «العبرة أنه يجب ألّا يشارك في المعركة إلا الأعداء الطبيعيون.»

قال جيمي: «ولكن من الذي يجب أن يقرر من هم الأعداء الطبيعيون؟»

قال بول: «ليس أنت، انظر كيف أخللت بتوازن الطبيعة، هناك آكلة نمل واحدة، ومئات النمل التي كانت على الأغلب ستلتهمها سوف تظل على قيد الحياة، وهناك خنفسة ميتة، قُتلت بلا سبب أو فائدة.»

خطا جيمي خطوات حذرة فوق المجرى الرملي الذي تناثرت فوقه الحفر المستديرة، حتى لا يزعج بقية الحشرات الكامنة تحت شراكها الرملية في انتظار فرائسها، ارتدى قميصه مغطيًا جسده الذي احمر بفعل حرارة الشمس وبلله العرق، نهضت ماريروز على النحو المعهود عنها، خاضعة صبورة، تحمل على عاتقيها عبئًا كأنها بلا إرادة. وقفنا جميعًا على حافة الظل وقلوبنا لا تطاوعنا أن نلقي بأنفسنا — وقد انتصف النهار — تحت أشعة الشمس المستعرة، الفراشات القليلة الباقية تترنح وسط حرارة الجو. وبينما نحن واقفون هناك إذ بدأت الحياة تدب في المنطقة التي تقف فيها الأشجار التي كنا نستلقي تحتها، فقد راحت واحدة بعد الأخرى من حشرات الزيز — التي تسكن هذه المنطقة والتي ظلت صامتة في صبر لساعتين منتظرة رحيلنا — تطلق أصواتها الحادة. على الأشجار المقابلة حطت حمامتان دون أن نلحظهما وبدأتا في إطلاق هديلهما. تأملهما بول وبندقيته تتأرجح، قالت ماريروز: «لا، من فضلك لا تفعل.»

– لمَ؟

– أرجوك يا بول.

تدلت أجساد التسع حمامات التي رُبطت معًا من أرجلها الوردية من يد بول والدماء تتساقط منها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال بول بلهجة غاية في الجدية: «هذه تضحية عظيمة، ولكنني سوف أضحي من أجلك يا ماريروز.»

ابتسمت له، ولكن ليس في امتنان، ابتسمت على النحو الذي اعتادت أن تستخدمه معه، والذي لا يحمل أي ترحيبًا بل يعج بالاستنكار، فرد عليها بابتسامة ووجهه المرح — ذو البشرة التي لوحتها الشمس الذي تطل منه عيناه الزرقاوان — يبدو أمام نظراتها المتفحصة كتابًا مفتوحًا، مشت ماريروز بجانب بول الذي أمسك بالطيور الميتة التي تجر أجنحتها فوق حزم الحشائش الخضراء الذي يشبه لون حجر اليشم.

وتبعناهم نحن الثلاثة.

قال جيمي: «إنه من المؤسف أن ماريروز لا تتقبل بول إلى هذا الحد، فهما مناسبان بحق.» حاول جيمي أن يكسو نبرة صوته بمسحة ساخرة وكاد أن ينجح، ولكن نجاحه لم يكتمل، فغيرته من بول كانت تحتك بصوته.

نظرنا أمامنا، فرأينا فتى وفتاة مناسبين جدًّا أحدهما للآخر، كلاهما يمشي في خفة ورشاقة، وأشعة الشمس تتلألأ فوق شعريهما الفاتحين وتلمع فوق بشرتيهما البرونزيتين، ولكن ماريروز مشت في طريقها دون أن تنظر إلى بول، الذي كان ينظر إليها بعينيه الزرقاوين مرسلًا نظرات الاسترضاء التي يطل منها الفضول ولكن دون فائدة.

كانت حرارة الجو شديدة جدًّا، فلم نتبادل الحديث في طريق العودة، فعندما عبرنا التل الصغير الذي تلفح الشمس كتل الجرانيت التي تكونه، بدأت موجات الحرارة الخانقة تنشب سهامها في أجسادنا، فأسرعنا لنتخطاها. كان كل شيء من حولنا خاويًا يلفه الصمت الذي لم يقطعه سوى أصوات حشرة الزيز وهديل حمامة آتيًا من بعيد. وحينما مررنا أمام التل تمهلنا في مشيتنا وبدأنا نبحث عن الجراد، وجدنا أن أزواج الجراد الزاهي التي تلاصقت بعضها مع بعض اختفت تقريبًا، ولم يبق منها سوى القليل من أزواج الحشرات، واعتلت كل حشرة ظهر الأخرى فبدت مثل مشابك غسيل ملونة رُسمت عليها أعين سوداء مستديرة، لم يكن هناك سوى القليل، أما الفراشات فقد اختفت تقريبًا، فلا يوجد سوى واحدة أو اثنتين تطيران في إرهاق فوق الحشائش التي سفعتها الشمس.

أصابتنا الحرارة بآلام الرأس، وأصابتنا رائحة الدم بميل طفيف للغثيان.

وعندما وصلنا إلى الفندق افترقنا دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة.

[استمرت آنا في الكتابة تحت العمود الأيسر من الدفتر الأسود الذي يحمل عنوان المال:]

وصلني خطاب منذ بضعة أشهر من جريدة (بومبيجرانيت ريفيو) بنيوزيلندا، يطلبون إحدى قصصي، فكتبت إليهم إنني لا أكتب قصصًا، فردوا عليّ طالبين «بعض الأجزاء من يومياتي، إن كنت أكتبها.» أجبتهم إنني لا أؤمن بنشر اليوميات التي كتبها المرء لنفسه. أمضيت وقتي في تأليف مذكرات وهمية تحمل النبرة المناسبة لجريدة أدبية تصدر في إحدى المستعمرات أو في دول الدومينيون، تلك الدوائر المعزولة عن المراكز الثقافية، ومن ثَم سوف يتقبلون نبرة أكثر جدية بكثير من تلك التي يتقبلها المحررون وزبائنهم في لندن وباريس على سبيل المثال. (ولكن في بعض الأحيان يتملكني الاستغراب) فهذه الجريدة يمتلكها شاب أمريكي يعيش من النقود التي يرسلها له والده الذي يعمل في مجال التأمين، نُشرت له ثلاث قصص قصيرة، وله رواية لم تكتمل بعد. إنه يفرط في الشراب إلى حد ما، ولكن ليس إلى الحد الذي يجب أن يظنه الناس، يتعاطى الحشيش فقط عندما يزوره أصدقاؤه من الولايات المتحدة، يحتقر هذه الظاهرة البدائية المسماة بالولايات المتحدة الأمريكية احتقارًا شديدًا.

١٦ أبريل/نيسان، على سلالم اللوفر. تذكرت دورا. كانت هذه الفتاة في مأزق حقيقي، لا أدري هل حُلَّتْ مشكلاتها أم لا. لا بد أن أكتب إلى والدي، آلمتني نبرة خطابه الأخير، أيجب أن يكون كل منا منعزلًا عن الآخر دائمًا؟ أنا فنانة ... يا إلهي!

١٧ أبريل/نيسان، في محطة القطار بباريس. فكرت بليزا، يا إلهي، كان ذلك منذ عامين، ماذا فعلت بحياتي؟ سرقتها باريس ... لا بد أن أقرأ كتابات الروائي الفرنسي بروست مرة أخرى.

١٨ أبريل/نيسان، لندن، ميدان هورس جاردز. إن الكاتب هو ضمير العالم. خطرت ماري على بالي. إن من واجب الكاتب أن يخون زوجته وبلده وصديقه إذا كان ذلك سيخدم فنه، ومن واجبه أيضًا أن يخدم عشيقته.

١٨ أبريل/نيسان، خارج قصر باكينجهام. جورج إليوت هي جيسينج الطبقة الثرية، لا بد أن أكتب إلى والدي، لم يتبق سوى ١٩ دولارًا، متى سيفهم بعضنا بعضًا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٩ مارس/آذار، روما، الفاتيكان. فكرت بفاني، يا إلهي إن بشرتها بيضاء كالثلج، هل كان لديها أي مشكلات؟ إن الكاتب هو — لا بد أن يكون — الماكيفيلي الذي يتحرك في خبايا النفس. لا بد أن أقرأ مرة أخرى لتوماس ولف.

١١ مارس/آذار، مدينة الكامباجنا. تذكرت جيري ... قتلوه. اللعنة! إن الرائعين يموتون صغارًا. أنا لن أعيش طويلًا، عندما أبلغ الثلاثين سأقتل نفسي. تذكرت بيتي، ظلال أشجار الليمون السوداء منعكسة على وجهها، بدت مثل الجمجمة، قبلت مقلتيها حتى استشعرت ملمس عظامها البيضاء على شفتيّ. إذا لم يصلني رد من والدي قبل الأسبوع المقبل فسوف أعرض هذه اليوميات للنشر وليتحمل هو النتيجة. يجب أن أقرأ لتولستوي مرة أخرى. لا يوجد شيء غير واضح في كلامه، ولكن ربما تجرد الحقيقة أيامي من الشعر، يمكن أن أضمه إلى مجموعة عظمائي.

٢١ يونيو/حزيران، لو أل. تحدثت إلى ماري، كانت مشغولة للغاية ولكنها عرضت أن تضاجعني ليلة بلا مقابل، يا إلهي، إن عيني تملؤهما الدموع عندما أتذكر ذلك، عندما أقتل نفسي سوف أذكر أن واحدة من نساء الشوارع ضاجعتني في إحدى الليالي من أجل الحب، لم أحصل على مجاملة أرق من تلك، ليس الصحفي هو من يمكن أن أشبهه بعاهرة تضاجع الذكاء، ولكنه الناقد، أقرأ رواية «فاني هيل» مرة أخرى، أفكر في كتابة مقال بعنوان «الجنس هو الأفيون الشعبي.»

٢٢ يونيو/حزيران، مقهى فلور. الزمن هو النهر الذي تنجرف معه أوراق أفكارنا إلى حيث لا يذكرها أحد، يقول والدي إنني يجب أن أعود إلى المنزل، ألن يفهمني أبدًا؟ أنا أكتب رواية إباحية بعنوان «ليونز» لحساب جولز، سأتقاضى خمسمائة دولار، إذن فليذهب أبي إلى الجحيم. إن الفن هو مرآة لُثُلنا التي نخونها.

٣٠ يوليو/تموز، لندن، مراحيض عامة بميدان لايشستر: إنها المدن الضائعة التي ترسم ملامح كابوس التحضر الذي نعيش فيه! خطرت أليس على بالي. إن الرغبة التي تراودني وأنا في باريس تختلف عن تلك التي تعتمل بنفسي وأنا في لندن؛ فالعلاقات الغرامية في باريس لها مذاق خاص، ولكنها في لندن لا تعدو أن تكون ممارسة للجنس. يجب أن أعود إلى باريس. هل يجب أن أقرأ لبوسويت؟ قرأت رواية «ليونز» التي كتبتها للمرة الثالثة، جيدة إلى حد ما. قال لي جولز إنه سيدفع لي ثلاثمائة دولار فقط، اللعنة! بعثت ببرقية لوالدي أخبرته فيها أنني انتهيت من كتاب

قُبل نشره. أرسل لي ألف دولار. ليونارد هو ستيندال الطبقة الفقيرة. يجب أن أقرأ لستيندال.

تعرفت على الكاتب الأمريكي الشاب جيمز شافتير، وعرضت عليه هذه اليوميات. سُر بها، وأضفنا إليها بعض الأحداث الوهمية الأخرى، ثم بعثها إلى جريدة أدبية أمريكية صغيرة على اعتبار أنها لواحد من أصدقائه يخجل جدًّا من أن يرسلها بنفسه، ونُشرت اليوميات. دعاني إلى الغداء بالخارج لكي نحتفل، وأخبرني بأن الناقد هانز بي، وهو شخص مغرور للغاية، كتب مقالًا حول أعمال جيمز يقول فيها إنها أعمال فاسدة. فيما مضى كان جيمز يعامل هذا الناقد على نحو من الازدراء لأنه لم يكن يحبه، ولكنه حينما علم أنه سيزور لندن بعث ببرقية مديح وإطراء إلى المطار، وأرسل باقة من الزهور إلى الفندق الذي نزل به هانز، كان جيمز ينتظر بالبهو حينما وصل هانز بي من المطار وبحوزته زجاجة من الإسكوتش وباقة زهور أخرى، ثم عرض عليه أن يكون دليله خلال جولته بلندن. أُعجب هانز بي بهذا الإطراء ولكنه لم يكن شخصًا سهلًا. ظل جيمز يتصرف بهذا الأسلوب طوال زيارة هانز للندن التي استمرت أسبوعين، يصغي جيدًا لكل كلمة يقولها هانز. حينما غادر هانز قال له بلهجة نابعة من أعلى درجات نبل الخلق: «لا بد أنك تتفهم أنني لا أخلط أبدًا بين مشاعري الشخصية وضميري المهني كناقد.» ذلك الضمير الذي وصفه جيمز بأن: «سوس الفساد ينخر به» ....

– نعم، نعم، أنا أدرك ذلك، ولكن التواصل هو الأهم يا رجل.

بعد أسبوعين كتب هانز بي مقالة عن أعمال جيمز يقول فيها إن عنصر الفساد في أعمال جيمز مبعثه السخرية الصادقة لشاب صغير من حالة المجتمع أكثر من كونه عنصرًا ملازمًا لمنظور جيمز عن الحياة. ظل جيمي منخرطًا في الضحك طوال المساء.

على عكس الكتاب الشبان الذين تدفعهم قلة الخبرة إلى ارتداء قناع السذاجة كدرع واقٍ من هجمات الآخرين، يستغل جيمز كونه فاسدًا؛ فمثلًا إذا قابل جيمز مخرجًا سينمائيًّا يلعب تلك اللعبة المعتادة نفسها متظاهرًا بأنه يود أن يصنع فيلمًا من قصة كتبها جيمز: «سنعرض الأحداث كما هي، ولكننا سنحتاج بالطبع إلى إدخال بعض التعديلات.» سوف يقضي جيمز هذا المساء كاسيًا وجهه بملامح الرزانة، متلعثمًا وهو يتكلم بنبرة جادة، مبديًا استعداده لإدخال تعديلات محورية من أجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يحقق الفيلم إيرادات جيدة، ويظل الشعور بالتوتر يتصاعد داخل المخرج. ولكن كما يقول جيمز، إن أي اقتراح بخصوص التغيير سوى تلك الاقتراحات التي يكونون على استعداد أن يطبقوها بأنفسهم لن يبدو لهم رائعًا، ومن ثَم فهم لن يعرفوا أبدًا هل جيمز يسخر منهم أم لا. يتركهم جيمز وهم «عاجزون عن التعبير عن شعورهم بالامتنان.» و«بلا أي سبب منطقي» يشعرون بأنهم أُهينوا فلا يتصلون به مرة أخرى. وإذا حدث وقابل جيمز في إحدى الحفلات ناقدًا أو مسئولًا كبيرًا لديه أي سمة من سمات الغرور، فسوف يجلس تحت قدمه، يستجديه ويستعطفه من أجل أن يساعده، ويغدق عليه عبارات الثناء والمديح، ثم بعد ذلك يضحك. أخبرته بأن ما يفعله غاية في الخطورة، فرد عليَّ إنه ليس أخطر من أن يكون: «فنانًا شابًّا صادقًا ذا نفس نزيهة.» ترتسم على وجهه ملامح الجد ويقول: «النزاهة هي مثل الرداء الأحمر الذي يثير ثور شهوة المال، أو بمعنى آخر إنها قطعة القماش التي يداري بها الفقير سوأته.» قلت له إنه لا بأس بكل ما يقول، رد عليَّ: «حسنًا يا آنا، بماذا تصفين أسلوب المعارضات الذي تكتبين به؟ ما الفرق بيني وبينكِ؟»

وافقته على ما يقول. أعطانا النجاح الذي حققناه في تأليف مذكرات وهمية لشخص أمريكي دفعة وقررنا أن نؤلف مذكرات وهمية أخرى لكاتبة في أوائل منتصف العمر قضت بعض السنوات في مستعمرة بأفريقيا وتألمت كثيرًا من فرط حساسيتها. كتبنا هذه المذكرات من أجل روبرت محرر جريدة زينث الذي طلب مني: «بعض ما كتبته أخيرًا!»

قابل جيمز روبرت، ولم يحبه. روبرت صاحب شخصية ضعيفة ومتخاذلة وهستيرية، يتمتع بالذكاء، ويمارس الشذوذ.

إنه أسبوع عيد الفصح. تقف أبواب الكنيسة الروسية الأرثوذكسية بكينسينجتون في الشارع الذي تنعكس عليه ملامح منتصف القرن العشرين وقد اعترتها حمرة الخجل، بالداخل تنعكس ظلال أضواء الشموع المرتعشة، وتعبئ رائحة البخور المكان، وتجثو على الأرض الأجسام المنحنية التي تعكس ملامح التقوى المعروفة منذ أزمنة سحيقة، تخلو أرض المبنى الفسيحة إلا من بضعة قساوسة مستغرقين في شعائر صلواتهم. كانت هذه الزمرة القليلة من العباد جاثين على الخشب الصلب، منحنين إلى الأمام حتى تلمس جباههم الأرض، زمرة قليلة ولكنها حقيقية. هذه هي الحقيقة. كنت أدرك ماهية الحقيقة، فغالبية البشر منغمسون بكياناتهم داخل الدين، الأقلية هي التي تدين بالوثنية، الوثنية؟ إنها هذه الكلمة اللطيفة التي تعبر عن جدب

الإنسان المعاصر الذي لا يدين بإله! وقفت وجثا الآخرون على الأرض، أنا، تلك العنيدة الصغيرة، شعرت بركبتي وهما تنثنيان، أنا الوحيدة التي أصرت في عند على أن تقف على قدميها، القساوسة يجثون على الأرض في مهابة وتناغم وقوة تليق بالرجال، حفنة من الشبان الرائعين ذوي الوجوه الشاحبة، أضفى عليهم جلال التقوى سحرًا، وتدوي نغمات الأناشيد الروسية الثرية في قوة، تهوي ركبتاي ... وأجد نفسي أجثو على الأرض. أين كانت تلك الشخصية المتفردة الضئيلة التي أؤمن بها والتي تفرض نفسها دائمًا؟ لا أهتم بهذا الأمر، أدركت أشياء أكثر عمقًا، رأيت صورة القساوسة الذين كساهم الجلال تهتز من خلف غمامة الدموع التي انحدرت من عيني. الأمر أكثر مما أستطيع تحمله، نهضت وأنا أكاد أهوي وفررت من تلك الأرض، فهي ليست أرضي، تلك المهابة لا تناسبني ... هل يجدر بي ألا أصف نفسي بالملحدة بل مؤمنة باللاأدرية؟ تبدو كلمة ملحدة عقيمة للغاية حينما أفكر (على سبيل المثال) في تلك الحماسة التي تتقد في مهابة بداخل نفوس هؤلاء القساوسة، ربما يكون وقع كلمة لاأدرية أفضل على الأذن؟ تأخرت على حفلة الكوكتيل، لا يهم، فالكونتس لم تلحظ ذلك، داخلني شعور بالأسف، كما يحدث دائمًا، فكم هو محزن أن تتحول امرأة إلى الكونتس بيريلي ... إنها لا شك خسارة كبيرة أن تصبح كذلك بعد أن كانت عشيقة أربعة من المشاهير؟ ولكنني أظن أننا، أن كلًّا منا، يحتاج إلى هذا القناع الصغير الذي نلبسه لكي نواجه العالم الوحشي. امتلأت الغرف كالعادة بصفوة رجال الأدب في لندن، ووقعت عيني في الحال على هاري، أنا معجبة للغاية بهؤلاء الرجال الإنجليز طوال القامة أصحاب الجباه البيضاء والعضلات المفتولة ... يبدون كالنبلاء. تجاذبنا أطراف الحديث ومن حولنا الأصوات المتداخلة للحاضرين التي لا يُفهم منها شيء. اقترح عليَّ أن أكتب مسرحية تكون مبنية على رواية حدود الحرب، ليس لمساندة أي طرف من الأطراف ولكن لتأكيد المأساة الحقيقية للموقف الاستعماري، مأساة البيض. إنها حقيقة بالطبع ... فماذا يكون الفقر، وماذا يكون الجوع، وسوء التغذية، والتشرد والإهانات التي يتعرض لها المارة (كم هي حساسة تلك الكلمة التي أستخدمها وتنم عن درجة عالية من الوعي، إنها السمات التقليدية للرجل الإنجليزي الذي يتمتع ببديهة حاضرة أكثر من أي امرأة!)، ماذا يكون كل ذلك إذا قورن بالحقيقة، الحقيقة البشرية لتلك الدوامة التي يعيش فيها البيض؟ عندما أنصت إليه وهو يتكلم بدأت أفهم كتابي فهمًا أفضل. وتبادر إليّ أنه على بعد ميل واحد يحني القساوسة جباههم على الأرض الحجرية الباردة للكنيسة الروسية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في تبجيل لحقيقة أعمق، حقيقتي؟ لا، إنني قررت مع ذلك أنني من هذه اللحظة سأصف نفسي على أنني مؤمنة بمذهب اللاأدرية ولست ملحدة، وسوف أتناول الغداء مع هاري غدًا وأناقشه في المسرحية، شد هاري على يدي في رقة بالغة ونحن يودع أحدنا الآخر، فشعرت بقشعريرة، كان ذلك في الأساس نوعًا من الضغط العاطفي. عدت إلى المنزل، وأنا أشعر بأنني أقرب إلى الحقيقة من أي وقت مضى في حياتي، دخلت في صمت إلى فراشي الضيق الذي غطته ملاءة جديدة، إنه لشيء مهم أن توجد ملاءة نظيفة على فراش المرء كل يوم، يا له من شعور حسي رائع (وليس شهوانيًّا) أن يتسلل المرء بعد أن يغتسل بين ملاءتين نظيفتين ويستلقِي في انتظار النوم، ياللي من فتاة صغيرة محظوظة ....

أحدُ عيد الفصح

تناولت غدائي مع هاري، كم هو جميل منزله! وضع تصورًا لخطوات العمل بالمسرحية، فمن الممكن أن يلعب سير فريد، وهو من أصدقائه المقربين، دور البطولة، ولن نواجه بالطبع تلك المشاكل المعهودة للعثور على جهة أو شخص لتمويل الإنتاج. اقترح هاري تعديلًا بسيطًا في القصة، لتدور أحداثها حول أحد المزارعين البيض يلاحظ فتاة أفريقية تتمتع بجمال نادر وذكاء فريد من نوعه، فيحاول أن يؤثر فيها من أجل أن تعلم نفسها وتحسن من نفسها، لأن أسرتها ليست سوى أفراد بدائيين من سكان المستعمرة المحليين، ولكنها تسيء فهم الأسباب التي تدفعه إلى الاهتمام بها وتقع في حبه، وحينما يحاول أن يشرح لها (في لطف بالغ) الأسباب الحقيقية لاهتمامه بها تتحول إلى فتاة شرسة وتكيل له أقذع الشتائم، وتسخر منه سخرية جارحة، ولكنه يتحملها في صبر، ولكن الفتاة تذهب إلى الشرطة وتخبرهم بأنه حاول أن يغتصبها، فيتحمل استهجان المجتمع له في صمت، ويزج به في السجن وهو يتهمها بعينيه فقط، وهي تنصرف شاعرة بالخجل، من الممكن أن تكون قصة حقيقية وقوية! فهي ترمز إلي، كما يقول هاري، الجانب الروحي الراقي للرجل الأبيض الذي وقع في شرك التاريخ، وفي الوحل الأفريقي الوضيع، سوف تلمس الحقيقة بشدة وتصل إلى العمق في قالب جديد من نوعه، فالشجاعة الحقيقية تتمثل في السباحة ضد التيار، عندما غادرت منزل هاري عدت إلى منزلي سيرًا على قدمي ومستني الحقيقة بأجنحتها البيضاء، كنت أسير بخطوات متمهلة حتى لا أضيع جمال هذه التجربة، ثم دخلت

إلى الفراش النظيف بعد أن اغتسلت وأصبحت «نظيفة» لأقرأ كتاب «محاكاة المسيح» الذي أعاره هاري لي.

فكرت في أن الأمر مبالغ فيه قليلًا ولكن جيمز قال إنه يصدقه، تبين لي أن جيمز على صواب، ولكن لسوء الحظ تغلبني حساسيتي الفريدة من نوعها في اللحظة الأخيرة وأقرر أن أحتفظ بخصوصياتي، بعث إليّ روبرت برسالة يقول فيها إنه يتفهم أن بعض التجارب تكون شديدة الخصوصية ولا يمكن نشرها.

[هنا لصقت نسخة بالكربون من قصة قصيرة كتبها جيمز شافير بعد أن طُلب منه أن يكتب نقدًا لحوالي اثنتي عشرة رواية لمجلة أدبية معينة، بعث بهذه القطعة الأدبية إلى المحرر مقترحًا أنها يجب أن تنشر بدلًا من النقد، فرد عليه المحرر إنه متحمس للغاية للقصة وطلب منه أن يسمح بنشرها في المجلة ولكن الرسالة حملت هذا السؤال: «ولكن أين النقد الذي كتبته يا سيد شافير؟ توقعنا أن يصلنا قبل صدور هذا العدد؟» عندها قررتْ آنا وجيمز أنهما هزما، وأن شيئًا حدث بالعالم جعل من كتابة أعمال المحاكاة الساخرة أمرًا مستحيلًا. كتب جيمز نقدًا جادًّا عن الاثنتي عشرة رواية متناولًا كل واحدة على حدة، مستخدمًا أسلوبه الثري، ولم يعد يكتب هو أو آنا أي قطع أدبية بأسلوب المعارضات:]

دماء على أوراق أشجار الموز

نسمات الهواء تتخلل أوراق أشجار الموز التي تنعكس ظلالها كالأشباح على قمر أفريقيا العجوز الذي أثقل الزمن كاهله، فتطلق هذه الأوراق حفيفها. الأشباح، أشباح الزمن وأشباح ألمي تبدو مثل أجنحة طيور السبد السوداء، وأجنحة فراشات الليل البيضاء تقطع بظلالها قرص القمر، فلا يبدو منه سوى القليل. تطلق أوراق شجر الموز حفيفها، وينزلق ضوء القمر المتألم باهتًا فوق الأوراق التي تتمايل مع النسيم. جون، جون، هكذا تغني فتاتي السمراء التي تجلس القرفصاء في ظلال حواف سقف الكوخ المعتمة ويبدو القمر مبهمًا فوق مقلتي عينيها، هاتين العينين اللتين قبلتهما ليلًا، عيني الضحية، عيني تلك المأساة المجردة، التي لن تصبح مجردة بعد الآن يا أفريقيا، قريبًا ستصاب أوراق الموز بكبر السن عندما يعلوها اللون الأحمر الداكن، سوف يصبح الغبار الأحمر أكثر حمرة حتى من شفتي حبيبتي السمراء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللتين غطاهما أحمر الشفاه الجديد الذي ابتاعته من التاجر الأبيض بعد أن غرر بها.

– اهدئي ونامي يا نوني، فالقمر قد ظهر، وأنا الآن أصنع قدري وقدركِ، قدر شعبنا.

– جون، جون. هكذا تقول فتاتي بصوت يملؤه الاشتياق مطلقة تنهيدة مثل تنهيدة أوراق الشجر البراقة التي تغازل القمر.

– فلتنامي الآن يا نوني.

– ولكن خوفي وخطيئة قدري سودا قلبي.

– فلتنامي، فأنا لا أكرهكِ يا نوني، كنت دائمًا أرى الرجل الأبيض موجهًا سهام عينيه إلى مفاتن حبيبتي نوني، رأيت ذلك، رأيته كما أرى أوراق أشجار الموز تجيب القمر وسهام الأمطار البيضاء ترشق رءوسها في تربة بلادنا، التي اغتصبها الهمجيون، فتقتلها، فلتنامي.

– ولكن يا جون، أنا حزينة لأنني أعرف أنني خنتك، خنت رجلي، حبيبي، ولكن هذا الرجل الأبيض صاحب المتجر أسرني بقوة، وكأن نفسي الحقيقية تسربت مني.

يُسمع حفيف أوراق شجر الموز وتطلق طيور السبد صيحات القتل الأسود في وجه القمر الوحشي رمادي اللون.

– ولكن يا جون، يا جون، إنه إصبع أحمر شفاه واحد فقط، إصبع أحمر شفاه صغير، اشتريته حتى أجمل شفتيّ العطشى من أجلك يا حبيبي، وعندما اشتريته رأيت عينيه الزرقاوين الباردتين مصوبتين على فخذي فركضت، ركضت يا حبيبي عائدة من المتجر إليك، إلى حبيبي، وشفتاي مزينتان باللون الأحمر من أجلك، من أجلك أنت يا جون، يا رجلي.

– نامي الآن يا نوني، لا تجلسي القرفصاء هكذا في ظلال القمر المكشر عن أنيابه، لا تجلسي هكذا تبكين من ألمِ الذي هو ألمي وألم شعبنا، تبكين من أجل أن تثيري شفقتي، التي أشعر بها تجاهكِ الآن وسوف أشعر بها تجاهكِ دائمًا يا نوني يا فتاتي.

– ولكن يا جون أين ذهب حبك لي؟

ثعبان البغض الأحمر يتلوى في الظلام، ويزحف عند جذور شجرة الموز، يكبر ويكبر داخل نوافذ روحي التي تعلوها شبكة من الأسلاك.

– إن حبي يا نوني هو لكِ ولشعبنا ولثعبان البغض المتخفي تحت الغطاء الأحمر.

– آهٍ، آهٍ، آهٍ.

هكذا تصرخ محبوبتي، محبوبتي نوني، التي طعنتها شهوة الرجل الأبيض في رحمها الذي يكتنف الغموض العطية التي يحملها داخله، طعنها نَهَمُه للتملك، طعنتها شهوة التاجر.

وتصرخ العجائز في أكواخهن عندما يسمعن صوت عزيمتي يتردد في صوت الرياح وأصوات أوراق الموز المغتصبة. أصوات الرياح تردد صيحات ألمي على العالم الحر، والثعبان الذي يزحف على الأرض التي تردد أصداء صيحتي يلدغ أعقاب العالم الوحشي نيابة عني!

– آهٍ يا جون، وماذا عن الطفل الذي أحمله، إنه يجثم على صدري، الطفل الذي سأعطيه لك يا حبيبي، يا زوجي، وليس إلى الرجل الأبيض البغيض الذي أوقعني وأنا أركض بخطوات مجنونة أفر من المتجر هاربة منه، وطرحني على الأرض التي لم أرها عندما كانت الشمس تغرب، تلك الساعة التي يغرر فيها الليل الخالد بالعالم أجمع؟

– فلتنامي، فلتنامي يا فتاتي، يا نوني، إن هذا الطفل هو للعالم، يُثْقِلُه القدر، ويحمل على كاهله عبء أنه هجين من دماء مختلطة، إنه ولد الظلال التواقة إلى الثأر، ولد ثعبان بغضي الذي يكبر يومًا بعد يوم.

– آهٍ، آهٍ.

تصرخ نوني، وهي تتلوى في قوة في ألم تحت ظلال حواف الكوخ.

– آهٍ، آهٍ.

تصرخ العجائز، عندما يسمعن صوت عزيمتي، العجائز الشاهدات على مجرى الحياة، العجائز اللاتي نضبت الحياة في أرحامهن، يسمعن صرخات الحياة الصامتة من داخل أكواخهن.

– فلتنامي الآن، يا نوني، وسوف أعود بعد أعوام طويلة، فلديّ الآن هدف ينشده الرجال، فلا توقفيني.

في ضوء القمر تتراءى أشباح زرقاء داكنة وأشباح خضراء، أشباح تتضاعف بفعل البغض الذي أحمله داخلي، والثعبان الأحمر الداكن يزحف على التراب القرمزي تحت شجرة الموز، والإجابة تأتي فيما بين إجابات لا حصر لها. وخلف ملايين الأهداف يلوح الهدف. يُسمع حفيف أشجار الموز وتغني حبيبتي: وأين ستذهب مبتعدًا عني يا جون، أنا التي أنتظرك دائمًا ورحمي يملؤه الاشتياق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أذهب الآن إلى المدينة، إلى شوارع الرجل الأبيض المتعرجة التي يميل لونها الرمادي إلى الزرقة وأجد إخواني، في أيديهم أضع ثعبان بغضي الأحمر وسوف نبحث معًا عن شهوة الرجل الأبيض ونقتلها، حتى لا تحمل أشجار الموز بعد الآن ثمارًا غريبة، وحتى لا تبكِي تربة بلدنا المغتصبة، وحتى لا يذرف رماد الأرواح الدموع من أجل المطر.

تصرخ العجائز: «آهٍ، آهٍ.»

وفي جوف الليل الذي يكشر فيه القمر عن أنيابه تنطلق صرخة، صرخة قاتل وقتيل لا يعرفهما أحد.

تتسلل نوني، بعد أن أصبحت شخصين، إلى الكوخ، وتصبح ظلال القمر الخضراء المخضبة باللون القرمزي خاوية، ويخلو قلبي من كل شيء إلا من هدفه الذي يتلوى كالثعبان.

يلقي البرق الأسود بالكراهية على الأوراق، ويقتل الرعد المدوي الأشجار، ويحط الثأر على عوالم أشجار البابايا الهادئة. ينطلق حفيف أشجار الموز التي تنعكس ظلالها كالأشباح على قمر أفريقيا العجوز الذي أثقل الزمن كاهله، أخبر أوراق الموز بأنني ذاهب، تمزق أطنان من الاهتزازات أحلام الغابة المنهزمة المتشابكة.

أذهب على قدميّ اللتين رُسِمَ لهما قدر معلوم، وتفيض أصداء التراب السوداء في نسيج الزمن. أعبر شجرة الموز ومن خلفي تغني ثعابين البغض العطوفة: اذهب يا رجل لتثأر للمدينة. ويبدو ضوء القمر المنعكس على أوراق الموز قرمزيًا، وتغني أوراق الأشجار، تصرخ، تبكي، وتدندن. إن ألمي مخضب باللون الأحمر، ألمي الذي يتلوى يبدو قرمزيًا، نقاط حمراء وقرمزية تتقاطر من أوراق بغضي التي تحاكي القمر.

[هنا لصقت مقالة عن رواية «حدود الحرب» من جريدة سوفييت رايتنج بتاريخ أغسطس/آب ١٩٥٢:]

يا له من بشع ذلك الظلم المتفشي في المستعمرات البريطانية الذي تكشف عنه هذه الرواية الجريئة — وهي الأولى لمؤلفتها — التي كُتبت ونُشرت تحت مرأى المستعمر المستبد ومسمعه لتكشف للعالم الوجه الحقيقي للإمبريالية البريطانية! ولكن إعجابنا بجرأة الروائية الشابة التي تحدت الجميع من أجل ضميرها الاجتماعي يجب ألّا

يُغْفِلنا الإشارة إلى أن تأكيدها على الصراع الطبقي في أفريقيا جانبه الصواب. الرواية تحكي لنا قصة طيار شاب، بطل وطني حقيقي، يجود بروحه في بداية الرواية من أجل بلده في الحرب العظيمة ضد الفاشية. يتعرف هذا الشاب على مجموعة من المستوطنين البيض المنحلين يدعون أنهم اشتراكيون ويعبثون بأمور السياسة. عندما ترهقه تجربته مع هذه العصابة من المهاجرين من أبناء الطبقة الاجتماعية الثرية، يتجه إلى الشعب، إلى فتاة سوداء بسيطة تفتح عينيه على حقيقة الطبقة العاملة. هذه هي تحديدًا نقطة الضعف في هذه الرواية التي افتقرت إلى الدقة رغم هدفها النبيل. فأي اتصال هذا الذي يمكن أن يحدث بين شاب من أبناء الطبقة الإنجليزية الراقية وابنة أحد الطهاة؟ فما يجب أن يبحث عنه الكاتب في سعيه المضني وراء المصداقية الفنية هو المواقف النمطية المعروفة، وهذا الموقف ليس نمطيًّا ولا يمكن أن يكون. وإن افترضنا أن الروائية الشابة في سعيها نحو أعلى درجات الحقيقة، جعلت من بطل روايتها شابًّا من العمال البيض ومن بطلتها عاملة أفريقية بأحد المصانع، في مثل هذا الموقف من الممكن أن تتوصل إلى حل سياسي واجتماعي وروحي بوسعه أن يلقي الضوء على الصراع المستقبلي من أجل الحرية في أفريقيا. أين الجماهير العاملة؟ والمناضلون الذي هم على وعي بالفوارق الطبقية؟ إنهم لا يظهرون في هذه الرواية، ولكن يجب ألّا تفقد الأمل! هؤلاء الذين يتحلون بالأمل هم الذين يبلغون أعلى درجات سلم الفن! إلى الأمام أيتها الكاتبة من أجل قرائك في كل العالم!

[مقالة عن رواية «حدود الحرب» من جريدة السوفييت جازيت بتاريخ أغسطس/آب ١٩٥٤:]

أفريقيا البكر بجمالها الخلاب الساحر! يا لها من ساحرة تلك الطبيعة التي تتكشف أمامنا في هذه الرواية التي تأتينا من بريطانيا العظمى والتي تصور لنا واقعة تحدث في وقت الحرب بقلب الغابات والمروج بأرض أفريقيا.

إنه لشيء واضح وضوح الشمس أن الشخصيات النمطية تختلف من وجهة النظر الفنية عن المفاهيم العلمية لأنماط الشخصيات من ناحية المضمون، ومن ثَم من ناحية الشكل، لذا عندما تسرد الكاتبة في بداية روايتها مقولة تحمل بداخلها صدقًا عميقًا، على الرغم من أنها تذكرنا للوهلة الأولى بالهرطقة الاجتماعية الغربية: «يقال إن آدم ضل الطريق أو سقط لأنه أكل التفاحة، ولكنني أقول إن سبب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سقوطه هو ادعاؤه ملكية شيء ما، بسبب الأنا ونزعة الملكية وغيرها من الأمور المشابهة.» ... تحدونا التوقعات المتلهفة ونحن نتابع عملها، ولكنها ليست توقعات مبررة. ولكن لنرحب بما قدمته إلينا الكاتبة الشابة ونحن نتطلع وكلنا أمل إلى ما يمكن أن تقدمه لنا، بل ما ستقدمه بالتأكيد، عندما تدرك أن العمل الفني الحقيقي يجب أن تتمثل به روح ثورية تؤكد على المضمون والعمق الإيديولوجي والمشاعر الإنسانية بالإضافة إلى القيمة الفنية، فالإحساس الذي ينمو مع تقدم الرواية هو: كم هي نبيلة وعميقة بحق تلك الأنماط البشرية التي نشأت من خلال تلك القارة التي لا تزال في طور النمو، يظل هذا الإحساس معنا ودائمًا يبعث في قلوبنا إجابة. نجحت المقدرة الفنية العظيمة التي تتمتع بها الكاتبة، في أن تحفر سمات شخصيتي الطيار الإنجليزي الشاب والفتاة السوداء البريئة في الأذهان، ولكنهما مع ذلك لا يمثلان النمط الخاص بالاحتمالات المعنوية العميقة للمستقبل. إن قراءنا يقولون لكِ أيتها الكاتبة في صوت واحد: «استمري! وتذكري أن الفن يجب أن يكون مغمورًا في ضوء الحقيقة الساطع! وتذكري أن عملية خلق أشكال مجسمة جديدة للواقعية في الأدب الأفريقي، وعمومًا في الحركة الأدبية الخاصة بالدول التي لم يكتمل نموها بعد والتي تنشط بها تيارات قومية قوية من أجل التحرير، هذه العملية صعبة للغاية ومعقدة!»

[مقالة عن رواية حدود الحرب من جريدة السوفييت لأدب التحرر من الاستعمار بتاريخ ديسمبر/كانون الأول:]

إن هناك عيونًا ساهرة تنقل لنا الصورة المشرفة للنضال ضد الاستبداد الإمبريالي في أفريقيا، وهناك أيضًا أشخاص بلا قيمة يعرضون الموضوع من زاوية التحليل النفسي الذي ينم عن أفق محدود وعقول صغيرة. ماذا يمكننا أن نقول عن هذه الرواية التي تسجل أحداث قصة حب بين شاب بريطاني تلقى تعليمه في أكسفورد وفتاة سوداء في حين تتقدم الجماهير السوداء في سعيها، وتنظم الحركات القومية كل يوم وقفة بطولية جديدة؟ إن هذه الفتاة هي الشخصية الوحيدة في هذه الرواية التي تمثل الشعب، ومع ذلك تظل سمات شخصيتها مبهمة وغير ناضجة ومخيبة للآمال. يجب أن تتعلم هذه الكاتبة من أعمالنا الأدبية، تلك الأعمال التي تعزز الازدهار والتطور، أنه لا أحد يستفيد من اليأس. إن هذه الرواية توصل إلى القارئ شعورًا

سلبيًّا وتلبس عباءة الفكر «الفرويدي»، وهناك لمحة من الزهد واضحة بالقصة. أما جماعة «الاشتراكيين» الذين تصورهم القصة فقد باءت محاولة الكاتبة في تصويرهم في أسلوب ساخر بالفشل، هناك شيء غير صحي، بل غامض في كتابتها، لتتعلم من مارك توين، الذي يحب القراء التقدميون أسلوبه الساخر الصحي، كيف يمكن أن تجعل الناس يسخرون من الأشياء التي بلا روح، الأشياء المتخلفة التي لم يعد التاريخ يذكرها.

[بقية الحكاية: الدفتر الأحمر]

١٣ نوفمبر/تشرين الثاني، ١٩٥٥

يقول الأعضاء القدامى بالحزب الشيوعي إن ما يحدث داخل الحزب منذ وفاة ستالين عام ١٩٥٣ كان ضربًا من ضروب المستحيل من قبل. هناك اجتماعات تُعقد يحضرها الشيوعيون الحاليون والسابقون، من أجل مناقشة ما يحدث داخل الحزب في روسيا وفي بريطانيا. حضر الاجتماع الأول الذي دعيت إلى حضوره (بعد مرور أكثر من سنة على خروجي من الحزب) تسعة من أعضاء الحزب الحاليين وخمسة من أعضائه السابقين. لم يوجه إلى أي منا، نحن الأعضاء السابقين، أي انتقاد يحمل معنى «أنتم عملاء» بين طياته، اجتمعنا جميعًا بوصفنا شركاء في الفكر الاشتراكي تحدونا الثقة بعضنا ببعض. امتد الحوار بنا وأصبح هناك شبه خطة للتخلص من «البيروقراطية العتيقة» التي ترعى في قلب الحزب، حتى يتغير الحزب الشيوعي تمامًا، ويصبح حزبًا بريطانيًّا أصيلًا، من دون ذلك الولاء الأعمى لموسكو والالتزام بترويج الأكاذيب، إلى آخر هذه الأشياء، بل يصبح الحزب حزبًا ديمقراطيًّا أصيلًا. أجد نفسي مرة أخرى وسط أناس مفعمين بالطاقة والتصميم ... ومن بينهم هؤلاء الذين تركوا الحزب منذ سنوات. يمكن تلخيص هذه الخطة في النقاط التالية: أ) أن يصدر أعضاء الحزب — فيما عدا الأعضاء القدامى الذين أصبحوا عاجزين عن أن يفكروا تفكيرًا قويمًا بعد كل تلك السنوات من الكذب والخيانة — بيانًا يعبرون فيه عن رفضهم لما كان يحدث في الحزب في السنوات الماضية، هذا كبداية. ب) قطع العلاقات مع كل الأحزاب الشيوعية الأخرى أملًا في أن تغير هذه الأحزاب دماءها وتقطع صلاتها بالماضي. ج) تجميع الآلاف والآلاف من الشيوعيين السابقين الذين تركوا الحزب بعد شعورهم بالاشمئزاز الشديد من سياساته ودعوتهم إلى الانضمام إلى الحزب في ثوبه الجديد. د) العمل على ....

https://telegram.me/maktabatbaghdad

[هنا لُصقت العديد من الأوراق المقطوعة من الجرائد تتكلم عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الروسي، ولُصقت أيضًا خطابات من عدد كبير من الأشخاص بمختلف فئاتهم حول الأمور السياسية، وأوراق بها مواعيد الاجتماعات السياسية، إلخ ... جُمعت هذه الأوراق بعضها مع بعض بشريط مطاطي ثم ثُبتت فوق إحدى أوراق الدفتر بمشبك للأوراق. ثم تكتب آنا من جديد ...]

١١ أغسطس/آب، ١٩٥٦

ليست هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أدرك فيها أنني انخرطت لأسابيع وشهور في نوبة هستيرية من العمل السياسي ولم يثمر هذا العمل عن أي شيء. والأكثر من ذلك، كان من الممكن أن أدرك سلفًا أنه لن يثمر عن أي شيء. تضاعف عدد الأشخاص، من داخل الحزب وخارجه، الذين يرغبون في حزب شيوعي «جديد» بعد عقد المؤتمر العشرين، بل أصبح عددهم ثلاثة أضعاف ما كان عليه. بالأمس كنت في اجتماع استمر حتى الصباح تقريبًا، وقبيل انتهاء الاجتماع نهض رجل لم يتحدث من قبل، اشتراكي من النمسا، وألقى كلمة ساخرة قصيرة، إنها شيء يقترب من ذلك: «رفقائي الأعزاء: كم أدهشتني طاقة الإيمان الكامنة داخل نفوس البشر وأنا أستمع إليكم منذ بداية الاجتماع! ويمكن أن نخلص من مناقشاتكم إلى الآتي: أنتم تعرفون أن سنوات العمل في ظل المناخ الإستاليني أفسدت نفوس الرجال والنساء الذي يجلسون في مواقع قيادة الحزب الشيوعي البريطاني، وأنتم تعرفون أنهم على استعداد لعمل أي شيء من أجل الحفاظ على مواقعهم. وأنتم تعرفون — لأنكم دللتم على ذلك الليلة بمئات الأمثلة — أنهم يمنعون صدور القرارات، ويزيفون نتائج الاقتراعات السرية، ويملئون الاجتماعات بأنصارهم، وينشرون الأكاذيب ويلوون الحقائق. ليس هناك أي سبيل لإخراجهم من الحزب بالوسائل الديمقراطية، من ناحية لأنهم يلعبون ألعابًا قذرة، ومن ناحية أخرى لأن نصف أعضاء الحزب أبرياء للغاية ولا يمكن أن يصدقوا أن قيادات حزبهم يمكن أن يكونوا حفنة من المخادعين. ومع ذلك في كل مرة يصل فيها النقاش بكم إلى تلك النقطة تتوقفون، وبدلًا من أن تستخلصوا النتائج المنطقية لما قلتموه تعودون مرة أخرى إلى أحلام اليقظة، وتتحدثون كأن كل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تطلبوا من قيادات الحزب أن يقدموا استقالتهم على الفور لأن ذلك في مصلحة الحزب، وكأنكم تقدمون طلبًا إلى لص محترف بأن يعتزل هذه المهنة لأن كفاءته تسيء إلى سمعة هذه المهنة!»

ضحكنا جميعًا، ولكننا واصلنا مناقشاتنا، فالنبرة الساخرة التي تكلم بها عفته من ضرورة تلقي رد جاد على كلمته.

فكرت في هذا الأمر فيما بعد، منذ فترة طويلة انتبهت إلى أن التصريح بالحقيقة في الاجتماعات السياسية غالبًا يكون عن طريق تعقيب أو كلمة مثل تلك يتجاهلها الحاضرون لأن «نبرتها» ليست هي نبرة النقاشات الدائرة في هذا الاجتماع. ربما تكون تلك النبرة نبرة ساخرة أو تهكمية أو حتى نبرة غاضبة أو بها مرارة ... مهما كان نوع هذه النبرة، فهي النبرة التي تحمل الحقيقة بين طياتها، في حين كل المشاركات والكلمات المطولة الأخرى ليست سوى هراء.

لقد فرغت لتوي من قراءة ما كتبته عن يوم الثالث عشر من نوفمبر/تشرين الثاني في العام الماضي، وقد أدهشتني سذاجتنا. ولكن الإيمان بإمكانية إنشاء حزب شيوعي جديد وصادق كانت مصدرًا من مصادر إلهامي، كنت أؤمن حقًّا بأن هذا ممكن.

٢٠ سبتمبر/أيلول، ١٩٥٦

لم أذهب إلى أي اجتماع آخر. الفكرة المطروحة، كما أخبروني، هي إنشاء حزب جديد، «حزب شيوعي بريطاني حقيقي» كبديل للحزب الشيوعي الحالي وليكن نموذجًا يحتذيه الحزب الحالي. إنهم يفكرون — دون أن تراودهم أي شكوك أو مخاوف — في أن يتكون حزبان شيوعيان متنافسان، ولكن ما سيحدث لا يخفى على أحد، فسوف تضيع جهود الطرفين في تبادل الشتائم وسوف ينشغل كل طرف بإنكار حق الطرف الآخر في أن يكون شيوعيًّا من الأساس، مسرحية هزلية، ولكنها ليست أكثر حمقًا من فكرة «التخلص» من الحرس القديم على نحو من الديمقراطية، وإصلاح الحزب «من الداخل» حمق وغباء، ومع ذلك فقد ظللت منغمسة فيه لشهور مثلي مثل مئات ظلوا داخل الدوامة السياسية سنوات مع أنهم في الأصل أذكياء، أحيانًا يخطر لي أن التجربة الوحيدة التي لا يستطيع الناس أن يخرجوا منها بدرس مستفاد هي التجربة السياسية.

في كل يوم يغادر العشرات الحزب الشيوعي بقلوب منكسرة، ولكن المفارقة تكمن في أنهم يغادرون بقلوب منكسرة وعقول متشككة في مدى ما كانوا عليه من ولاء وبراءة. إن أمثالي ممن لم يراودهم الكثير من الأوهام (فكلنا كان لدينا قدر من الأوهام ... ما توهمته أنا هو أن معاداة السامية أمر «مستحيل».) ظلوا محتفظين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بهدوئهم ومستعدين لأن يبدءوا من جديد، متقبلين حقيقة أن الحزب الشيوعي غالبًا سيظل ينحسر في إبطاء حتى يصبح فصيلة صغيرة فقط، والعبارة الجديدة المطروحة الآن هي «إعادة التفكير في الوضع الاشتراكي.»

اتصلت بي مولي اليوم، لقد انضم تومي إلى مجموعة جديدة من الاشتراكيين الشبان، قالت لي مولي إنها جلست في أحد الأركان تستمع إليهم وشعرت كأن «الزمن عاد بها إلى الوراء سنين طويلة عندما كانت شابة» عاد بها إلى بداية انضمامها إلى الحزب الشيوعي. «ما حدث كان عجيبًا يا آنا! كان حقًّا غريبًا. إنهم لم يعملوا مع الحزب الشيوعي، وهم على حق، ولم يعملوا مع حزب العمل قط، ولن أندهش إن جانبهم الصواب في ذلك، إنهم بضعة مئات مبعثرين هنا وهناك في أرجاء بريطانيا، ومع ذلك فهم يتحدثون كأن بريطانيا ستتحول إلى دولة اشتراكية في عشر سنوات على الأكثر، عن طريق المجهودات التي سيبذلونها فيها بالطبع. إنهم يتحدثون كأنهم سيحكمون بريطانيا الجديدة الجميلة الاشتراكية التي ستولد بعد أسبوع من لقائهم يوم الثلاثاء، شعرت كأنهم مجانين، وكأنني كنت مجنونة ... ولكن ما يسترعي انتباهي يا آنا أنهم يتصرفون مثلنا تمامًا، أليس كذلك؟ حتى إنهم يستخدمون هذه المصطلحات الكريهة التي ظللنا نسخر منها سنوات وسنوات، كأنهم اخترعوها لتوهم من أجل حواراتهم وأحاديثهم.» قلت لها: «ولكن يا مولي لا بد أنكِ سعيدة لأنه أصبح اشتراكيًّا ولم يتجه إلى احتراف مهنة ما؟»

– ولكن من المؤكد بطبيعة الحال أن السؤال الأساسي هو: أليس عليهم أن يكونوا أكثر ذكاء مما كنا يا آنا؟

[بقية الحكاية: الدفتر الأصفر]

خيال الظل

في بداية الرواية كان خيال ذلك الظل الذي يتحرك من خلف الستار هو زوجة بول، ثم بات هذا الخيال انعكاسًا لتلك الشخصية الأخرى التي كونتها إيلا من تلك الخيالات التي كانت تطوف برأسها حول زوجة بول، ثم أصبح هذا الخيال ذكرى بول التي سيطرت عليها، ومن الآن فصاعدًا سيصبح خيال الظل هو خيال إيلا نفسها، وبينما كانت إيلا تنهار ونفسها تتشتت إذ تمسكت تمسكًا شديدًا بفكرة أن إيلا هي امرأة سليمة معافاة لم يمسها أي أذى، حباها القدر بالصحة والسعادة. لا بد أن القاسم

المشترك بين هذه «الخيالات» هو العرف، بل التقاليد، تلك المواقف والمشاعر المناسبة للحياة «التي تحظى باحترام الآخرين» والتي ترفض إيلا في واقع الأمر أن تفعل أي شيء ذا علاقة بها.

تنتقل إيلا إلى مسكن جديد، وتتضايق جوليا كثيرًا، فموقفها كشف الستار عن جزء من علاقتهما معًا لم يكن واضحًا من قبل، كانت جوليا تسيطر على إيلا، تحركها، وإيلا مستعدة لأن تخضع لتلك السيطرة، أو على الأقل مستعدة لأن تبدو كذلك. إن جوليا بطبيعتها شخصية كريمة وطيبة ودافئة ومعطاءة، ولكن الأمر وصل بها الآن إلى أن تشتكي لأصدقائها وأصدقاء إيلا أن إيلا استغلتها من أجل مصلحتها. إن إيلا تعيش بمفردها الآن هي وابنها في تلك الشقة الواسعة التي تفتقر إلى الجمال والنظافة، إن عليها أن تنظف هذه الشقة وتطلي حوائطها، يخطر لها بعد أن انتقلت إلى هذا المسكن الجديد أن شكوى جوليا بها شيء من الصحة، فهي تتصرف مثل أسير دخل إلى الأسر بإرادته، ولكن في مكان ما بداخله تختبئ نزعة إلى الاستقلالية. إنها حينما تركت منزل جوليا كانت مثل ابنة تترك بيت والدتها، أو ربما مثل زوجة تغادر بيتها بعد أن انفصلت عن زوجها، فهي تذكر أن بول كان يسخر منها دائمًا بنبرة لاذعة بقوله: «إنك متزوجة من جوليا.»

تظل إيلا فترة من الوقت تعاني ألم الوحدة كما لم تعانه من قبل، فهي تفكر مليًّا في علاقة الصداقة التي كانت تجمعها بجوليا، والتي تمزقت، إنها أقرب إلى جوليا منها إلى أي شخص آخر، إذا كان «القرب» هو الثقة المتبادلة والتجارب والخبرات المشتركة، ولكن علاقة الصداقة تلك تحولت إلى علاقة يملؤها الحقد والضغينة، إنها أيضًا لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير في بول الذي تركها منذ شهور عدة، حتى بعد أن مر عام على انفصالهما لا تزال تفكر فيه.

لقد بدأت إيلا تدرك أن سكنها مع جوليا كان يحول عنها بعض الأضواء، فهي الآن «امرأة تعيش بمفردها» وهذا الوضع يختلف كثيرًا عن وضع «امرأتين يسكنان بمنزل واحد معًا» مع أنها لم تلتفت إلى تلك الحقيقة من قبل.

أحد أمثلة هذا الاختلاف هي المكالمة الهاتفية التي تلقتها من د. ويست بعد ثلاثة أسابيع من انتقالها إلى مسكنها الجديد؛ أخبرها أن زوجته مسافرة في إجازة ودعاها إلى العشاء، أجابت إيلا الدعوة وذهبت إلى منزله، وهي لا تتخيل على الإطلاق — على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرغم من خبر غياب زوجته عن المنزل الذي ضمنه د. ويست في حرص شديد في حواره معها – أن هناك أي سبب آخر لتلك الدعوة سوى مناقشة بعض الأمور الخاصة بالمكتب. رويدًا رويدًا تبدأ إيلا تدرك، وهما على طاولة العشاء، أن د. ويست يود لو يقيم معها علاقة. تتذكر الملاحظات السخيفة التي كان يبديها في حرص شديد حينما تركها بول، ويخطر لها أنه على الأغلب ينتظر مناسبة كهذه ليعرض عليها هذا الأمر. إن إيلا تعرف أيضًا أنها إذا رفضت عرضه هذا المساء فسوف يفتش عن أخرى في قائمة قصيرة تحتوي على أسماء ثلاث أو أربع سيدات، فقد قال لها في لهجة يملؤها الغيظ: «إن هناك أخريات، كما تعلمين، فأنتِ لن تذهبي وتتركينني هنا أعاني الوحدة.»

ظلت إيلا ترقب التطورات التي تحدث بالمكتب ولاحظت أنه قبيل نهاية الأسبوع، بدأت باتريشيا برينت تتصرف على نحو مختلف مع د. ويست، أصبحت تصرفاتها الجافة، التي تصدر عن امرأة تؤدي عملها في كفاءة ومهنية، رقيقة وعذبة تميل إلى أنها تصرفات فتاة صغيرة. كان اسم باتريشيا هو الاسم الأخير في قائمة د. ويست، فقد حاول مع اثنتين من موظفات السكرتارية وفشل. ترقب إيلا ما يحدث وداخلها شعور بالشماتة في د. ويست الذي انتهى به الأمر إلى تقبل، ما يراه هو، أسوأ المتاح لديه، إن إيلا تشعر أيضاً بالغضب نيابة عن بنات حواء من أن تكون باتريشيا من السيدات اللاتي يُخطب ودهن، ويتحرك الخوف داخلها أيضًا من أن تكون نهايتها هي أن تقبل بأي عرض يتفضل به عليها رجل من أمثال د. ويست، وينبعث في نفسها شعور بالسعادة يشوبه بعض الغضب، فرفضها د. ويست يمكن أن يُقرأ كالتالي: أنت لن تنالني ولكني لا أبالي بهذا الأمر!

تتحرك هذه المشاعر كلها داخل إيلا حركة شديدة القوة جعلتها تشعر بالانزعاج، وتنبعث جميعها من السخط والغضب اللذين ليس لهما أي علاقة بالدكتور ويست، إن إيلا تكره أن تنتابها مثل تلك المشاعر وتشعر بالخجل منها. سألت نفسها لماذا لا ترثي لحال الدكتور ويست؛ فهو رجل في منتصف العمر، لا يتمتع بقدر كافٍ من الجاذبية، متزوج من امرأة تتميز بطبيعتها بالكفاءة والتميز ولذا فهي في الأغلب زوجة مملة. لم لا يحاول بعد ذلك كله أن يبحث عن علاقة حب؟ ولكن لا جدوى من هذا الكلام، إنها تحتقره وتشعر باستياء شديد منه.

تلتقي إيلا جوليا في منزل أحد أصدقائهما، إن العلاقة بينهما فاترة، تبدأ إيلا «مصادفة» في قص حكايتها مع دكتور ويست على جوليا، وبعد بضع لحظات تنخرط

الاثنتان في علاقتهما الودية مرة أخرى كأن هذه العلاقة لم تمر بأي فترة من الركود، لكن الصداقة التي تجمع بينهما الآن قائمة على ملمح من ملامح علاقتهما لم يكن من قبل سوى ملمح ثانوي، ألا وهو: التنديد بالرجال.

ترد جوليا على قصة إيلا عن دكتور ويست بأحسن منها: في أحد الأيام اصطحبها ممثل يعمل معها بالمسرح إلى منزلها وصعد معها ليحتسي فنجانًا من القهوة وجلس يشكو لها مما يعانيه من زواجه. تقول جوليا: «تحدثت إليه في لطف وأسديت إليه تلك النصائح القيمة التي نعرفها جميعًا، ولكنني شعرت بملل شديد من سماع ذلك الكلام مرة أخرى حتى إنني كنت على وشك أن أنفجر في الصراخ.» في الرابعة صباحًا أشارت جوليا إلى أنها متعبة وإلى أن زميلها لا بد أنه يرغب في أن يعود إلى منزله، «رباه، وكأنني وجهت إليه إهانة لا تغتفر، شعرت أنه لو لم يضاجعني في تلك الليلة فسوف تنهار ثقته بنفسه تمامًا، ولذلك دخلت معه إلى الفراش.» لم يستطع الرجل أن يضاجعها ولكن جوليا تقبلت ذلك بصدر رحب. «في الصباح قال إنه يمكن أن يأتي إليَّ هذه الليلة وقال لي إن هذا هو أقل شيء يمكن أن أقدمه له لكي يستعيد نفسه، إنه وجد من يتقبل هذا الموضوع بصدر رحب.» قضى هذا الرجل ليلة أخرى مع جوليا ولكنها لم تكن أفضل من سابقتها: «كان يغادر في الرابعة صباحًا حتى يمكنه أن يجعل زوجته تقتنع بأنه يعمل حتى وقت متأخر، التفت إليَّ قبل أن يغادر وقال: أنتِ امرأة سيئة لا يستطيع رجل أن يعاشرها، شعرت بذلك منذ أن رأيتكِ أول مرة.»

– يا إلهي.

ردت عليها جوليا ردًّا قويًّا: «صدقيني، والغريب أنه رجل دمث الخلق للغاية، أقصد أنني لم أتوقع أن يقول لي مثل هذه الجملة.»

– لم يكن من المفترض أن توافقي على مضاجعته من البداية.

– ولكنكِ تعرفين جيدًا كيف تكون تلك اللحظة عندما ترين أمامكِ رجلًا جُرحت رجولته، لا تستطيع الواحدة منا أن تتحمل ذلك، فتتحرك داخلها الرغبة في أن تدعمه، أن تكون عونه.

– نعم، ولكنهم يطردوننا بعد ذلك من حياتهم شر طردة، فلم نساندهم من البداية.

– معكِ حق، ولكن يبدو أنني لا أتعلم مطلقًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقابل إيلا جوليا بعد بضعة أسابيع وتحكي لها عما مر بها في تلك الأسابيع: «أربعة رجال، لم يحدث بيننا حتى نوع من الملاطفة أو المغازلة من قبل، يتصلون بي ليخبروني أن زوجاتهم متغيبات عن المنزل ملمحين بنبرة غير مباشرة إلى مقاصدهم. كم هو غريب ذلك الأمر ... أن تعرفي رجلًا، تعملي معه سنوات، ثم فور أن تتغيب عنه زوجته يغير نبرته مشيرًا إليكِ متخيلًا أنكِ تتحرقين شوقًا لكي تضاجعي رجلًا، أنا لا أعرف كيف يفكر هؤلاء الرجال؟»

– من الأفضل ألا تشغلي نفسكِ بهذا الأمر.

– على الأقل لم يكن هذا الأمر يحدث حينما كنت أسكن بمنزلكِ، وهذا في حد ذاته يبدو غريبًا، أليس كذلك؟

هكذا تقول إيلا لجوليا رغبة منها في أن تسترضيها وأن تبهرها (وتدرك وهي تحدثها أن هذه الرغبة هي نفسها تلك الرغبة التي تتحرك داخلها حينما ترغب في أن تسترضي رجلًا أو تبهره).

يلمع وجه جوليا التي تشعر أنها أحرزت نصرًا وتبدو كأنها تود أن تقول لإيلا: حسنًا، كانت هناك قيمة إذن لوجودي ....

يسود القلق والتوتر لحظة، تؤثر إيلا، بدافع من جبنها، ألا تنتهز أي فرصة تلوح أمامها لفتح أي حوار بشأن التصرفات غير اللائقة التي قامت بها جوليا بعد أن غادرت إيلا مسكنها، فهي تدع فرصة «فتح الموضوع بكل ما فيه للمناقشة» تتسرب من بين يديها، تطل من بين جنبات هذا الصمت المقلق خاطرة يُوجِدها ذلك السؤال الذي طرحته إيلا: «وهذا في حد ذاته يبدو غريبًا، أليس كذلك؟» وهي: هل من الممكن أن يظنوا أننا من الشواذ؟

لقد فكرت إيلا في هذا الأمر من قبل، ولكن على سبيل المزاح. ترد إيلا على ذلك السؤال الذي يدور في ذهنها: لا، لو كانوا يظنون أننا من الشواذ لأتوا إلينا في أسراب كالجراد، فكل الرجال الذين عرفتهم يستمتعون بالحديث عن الشواذ من النساء، سواء كانوا يتحدثون بلا حرج معبرين عن آرائهم تعبيرًا صريحًا، أو كان حديثهم نابعًا من اللاوعي، فتلك هي إحدى ملامح غرورهم وتكبرهم؛ فالرجل يرى أنه هو المخلص الذي ينقذ هؤلاء النساء من الضياع.

عندما تعيدها على نفسها تهزها تلك الكلمات التي ترد بها إيلا على نفسها، والتي تحمل بداخلها شعورًا بالمرارة، وعندما تعود إلى منزلها تحاول أن تحلل هذا الشعور بالمرارة الذي يتملكها، فهي تشعر أنه كالسم الذي استشرى بجسدها.

إنها لا تظن أن شيئًا غير معتاد لها حدث، فالرجال المتزوجون، الذين تغيبت عنهم زوجاتهم فترة من الوقت يحاولون أن يقيموا علاقة معها ... لم يستوقفها هذا الشيء منذ عشرة أعوام، فهي ترى أن هذا الأمر هو إحدى العواقب أو أحد الاحتمالات التي تُثار لأنها «امرأة حرة». ولكنها أدركت منذ عشرة أعوام أن شعورًا يداخلها لم تدركه حينها، شعورًا بالرضا، بالانتصار على السيدات المتزوجات؛ لأنها كانت تشعر أن إيلا، المرأة الحرة، مثيرة أكثر من السيدات اللاتي يربطهن رباط الزواج واللاتي يفتقرن إلى الإثارة والفتنة. يداخلها شعور بالخجل عندما تتأمل ماضيها وتقر بأن هذا كان شعورها فيما مضى.

يخطر لها أيضًا أنها كانت تتحدث مع جوليا وكأنها امرأة عانس تملؤها الحسرة والمرارة، تتحدث عن الرجال بوصفهم أعداء، تقرر إيلا ألا تحكي لجوليا مرة أخرى عما يجيش بداخلها، أو على الأقل تتحدث دون نبرة الحسرة والمرارة الشديدة.

لم يمر الكثير من الوقت حتى تقع الحادثة الآتية: تعمل إيلا الآن هي وأحد المحررين بالمجلة في مشروع يختص بكتابة سلسلة من المقالات تقدم استشارات بشأن المشكلات العاطفية، أكثر المشكلات التي تثيرها عادة الخطابات التي تصل إلى المجلة. تقضي إيلا العديد من الأمسيات مع هذا الرجل بمكتب المجلة، ست مقالات ستُنشر على صفحات المجلة ضمن هذا المشروع، كل مقال له عنوانان، واحد رسمي بغرض النشر والآخر فكاهي تطلقه إيلا وزميلها على المقال كنوع من المزاح؛ فمثلًا المقال الذي يحمل عنوان: هل تشعر أحيانًا بالملل من منزلك؟ تسميه إيلا وجاك: النجدة! هناك شخص يغرق في الجنون، والمقال الآخر الذي عنوانه: إهمال الزوج لأسرته، يطلق عليه الاثنان: زوجي على فراش الأخريات، وهكذا. كان الأسلوب المبسط أكثر من اللازم الذي يميز هذه المقالات مثار سخرية إيلا وجاك وضحكهما، ومع ذلك يكتبان هذه المقالات في عناية شديدة متحملين عناء العمل بهذا المشروع، فهما يعرفان أن ما يثير سخريتهما هو ذلك الشعور بالإحباط والتعاسة اللذين يميزان الخطابات التي تتدفق إلى مكتب المجلة، ويعرفان أيضًا أن المقالات التي يكتبانها لن تخفف تلك التعاسة أو ذلك الإحباط.

في آخر أمسيات العمل في هذا المشروع المشترك يصطحب جاك إيلا إلى المنزل. جاك رجل في الثلاثين من عمره تقريبًا، متزوج ولديه ثلاثة أطفال، تدعوه إيلا إلى تناول الشراب معها، فهي معجبة به جدًّا، يصعد جاك معها إلى المنزل، إنها تعرف أن تلك اللحظة التي سيدعوها فيها جاك إلى الفراش باتت وشيكة، تقول إيلا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفسها: ولكنني لا أشعر أنني مشدودة إليه، ولكن ربما أشعر بذلك إن استطعت أن أتخلص من شبح بول الذي يلازمني، ماذا يدريني أنني لن أنجذب إليه فور أن أدخل معه إلى الفراش؟ فأنا لم أنجذب إلى بول من البداية. تدهشها هذه الفكرة الأخيرة التي خطرت لها، تتذكر وهي تجلس أمام ذلك الشاب تستمع إلى حديثه المسلي أن بول كان دائمًا يقول مازحًا إنها لم تكن تبادله الحب في البداية، ولكنه لم يكن يمزح فقط بل كان يعني ما يقول، والآن أنا أقول الشيء نفسه لنفسي، ولكنني لا أظن أن ما أقوله صحيح، ربما أقول ذلك لأنه قاله ... ولكن ما دمت أفكر في بول طوال الوقت فسأظل عاجزة عن أن أشعر بالإعجاب تجاه أي رجل.

تدخل إيلا إلى الفراش مع جاك، إنها تصنفه على أنه عشيق من الطراز الممتاز، فهو ليس «رجلًا شهوانيًا»، وغالبًا تعلم فن المضاجعة من كتاب عنوانه كيف تسعد زوجتك» إنه يجد متعته في وجود امرأة معه بالفراش وليس في ممارسة الجنس.

يسود جو من الود والمرح بينهما، يحمل معه ذلك الحس الذي كان الاثنان يستخدمانه في حكمهما على الأمور أثناء عملهما بالمكتب. ولكن إيلا قاومت مقاومة شديدة حتى لا تنحدر الدموع من عينيها، ألفت إيلا هذه النزعات الاكتئابية المفاجئة وغالبًا تقاومها بهذا المنطق: أنا لا أشعر بالاكتئاب، ولكن هذا شعور بالذنب، ولكن الذنب ليس ذنبي، إنه شعور بالذنب منبعث من الماضي، من تلك المعايير المزدوجة التي أرفضها.

يخبرها جاك أن عليه أن يعود إلى المنزل، ويفتح ذلك الباب أمامه لكي يتحدث عن زوجته: «إنها امرأة طيبة.» تُصعق إيلا من تلك اللهجة الفوقية التي يتحدث بها. «أنا أثق في أنها لا تشك بي أبدًا حينما أحيد عن الصواب، إنها تفقد صبرها سريعًا، فهي غارقة في مشاكل الأطفال، هم مشاغبون قليلًا، ولكنها تتعامل مع ذلك الأمر.» يلف جاك ربطة العنق ويدخل قدميه في حذائه وهو جالس على فراش إيلا. إنه رجل مفعم بالصحة والحيوية، ويبدو وجهه كوجه فتى صغير بريء؛ صفحة بيضاء لم يخط فيها الزمن شيئًا. «أنا محظوظ حقًا لأنها زوجتي.» هكذا يستأنف جاك حديثه، ولكن نبرته الآن أصبحت تحمل بين طياتها الضيق، الضيق من زوجته، تدرك إيلا أنه سيستخدم ما حدث، أي مشاركته إياها الفراش، بذكاء شديد لكي يحط من قدر زوجته. إن حالته المعنوية مرتفعة للغاية، فهو يشعر بقدر كبير من الارتياح، ولكن ما يعتريه ليس نشوة الحب، الذي لا يعرف عنه الكثير، ولكنه سعيد لأنه أثبت لنفسه شيئًا معينًا. يودع جاك إيلا: «حسنًا، ها أنا ذا أعود مرة أخرى إلى

معترك الحياة، إن زوجتي هي أفضل زوجة في العالم، ولكنها ليست متحدثة بارعة تستطيع أن تطرب النفوس.» تود إيلا أن تقول له إن امرأة لديها ثلاثة أطفال تقبع بمنزل في أطراف المدينة وليس أمامها أي وسيلة لقضاء وقتها سوى مشاهدة قنوات التليفزيون من الطبيعي ألا يكون لديها أي شيء أكثر إبهارًا لتقوله، ولكنها تكبح جماح نفسها ولا تقول له ذلك. تنتابها الدهشة من كم الضيق الذي يتصاعد داخلها، إنها تعرف أن زوجة جاك، تلك المرأة التي تنتظره على بعد أميال في أحد منازل لندن، سوف تعرف فور أن يدخل زوجها إلى غرفة النوم أنه كان بفراش أخرى من تلك النشوة التي تمتلئ بها نفسه القريرة.

تتخذ إيلا قرارين، أولهما أنها لن تضاجع أي رجل حتى تجد من يستحق أن تهديه قلبها، أما القرار الثاني فهو أنها لن تحكي لجوليا عن هذه الواقعة.

في اليوم التالي تتصل إيلا بجوليا، وتقابلها وتحكي لها عما حدث وهما تتناولان غداءهما. وبينما هي تروي ما حدث لجولي إذ تجول بذهنها خاطرة؛ إنها دائمًا ترفض أن تفضي بأخبارها الخاصة إلى باتريشيا برينت، أو على أقل تقدير، لم تكن تقبل أن تكون جزءًا من تلك العملية التهكمية للتنديد بالرجال التي تتبناها باتريشيا برينت، (تظن إيلا أن نبرة التهكم، التي لا يقف وراءها غالبًا نية أو قصد سيئ، والتي تميز ذلك النقد الذي توجهه باتريشيا للرجال هي نفسها تلك النبرة التي ستتحول إليها بعد أن يخف ذلك الإحساس بالمرارة الذي يملؤها، وهو الشيء الذي تصمم إيلا على ألا يحدث.) ولكنها مع ذلك على استعداد إلى أن تفضي إلى جوليا بما لديها، جوليا التي سرعان ما تتحول المرارة التي بداخلها إلى شعور مدمر بالازدراء. مرة أخرى تقرر إيلا ألا تخوض ثانية في مثل هذه الأحاديث مع جوليا، لأنها تظن أنه إذا كان أساس الصداقة بين امرأتين هو التنديد بالرجال فهما تعانيان شذوذًا ما، ليس جنسيًّا، بل هو نفسي.

هذه المرة تحافظ إيلا على العهد الذي قطعته على نفسها ولا تتحدث مع جوليا، وينتابها شعور بالوحدة والعزلة.

شيء جديد يحدث، فقد بدأت إيلا تشعر برغبة جنسية ملحة داخلها تبحث عن متنفس، يتملكها الفزع، فهي لم تفكر من قبل في الجنس من أجل الجنس، لا تذكر أنه حدث في يوم من الأيام أن انتابها ذلك الشعور من دون أن يكون موجهًا لرجل بعينه، على الأقل لم يحدث ذلك منذ أن تخطت مرحلة المراهقة، وحتى في تلك الفترة كان يصاحب هذا الشعور دائمًا خيالات وأطياف عن أي رجل. ولكنها الآن لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تستطيع أن تنام، تمارس العادة السرية وهي ترى أطيافًا وخيالات تعكس كرهها للرجال، اختفى بول تمامًا، فقدت ذلك الرجل القوي ذا المشاعر الدافئة الذي شاركها تجربتها، كل ما تستطيع أن تذكره عنه أنه كان أنانيًّا وغادرًا. إنها تتألم لأنها تشعر برغبة في ممارسة الجنس في المطلق، تشعر بإهانة شديدة حينما يخطر لها أن هذا يعني أنها تحتاج إلى الرجال لكي «تمارس الجنس» لكي «يضاجعوها» لكي «يشبعوا شهوتها» إنها تستخدم مثل هذه العبارات البوهيمية لكي تحط من قدر نفسها.

ثم تدرك إيلا أنها تغرق في وهم خادع حول حقيقة نفسها وحقيقة النساء وأنها يجب أن تتمسك جيدًا بهذه الحقيقة: إنها لم تكن تشعر بأي نهم جنسي وهي برفقة بول ما لم يطلب هو ذلك، وأنه حينما كان يتركها لبضعة أيام تنام قريرة العين دون أن تشعر بأي رغبة حتى يعود إليها، وأن ذلك النهم الجنسي الذي تشعر به الآن ليس نهمًا من أجل ممارسة الجنس، بل هو شعور يغذيه الفراغ العاطفي الذي يملأ حياتها، وأنها حينما تحب رجلًا آخر ستعود مرة أخرى إلى طبيعتها؛ امرأة تتفاوت رغبتها الجنسية بين الصعود والهبوط بحسب رغبة شريكها، فيمكن القول إن رغبة المرأة الجنسية يحتويها الرجل، إذا كان رجلًا بحق، ويمكن القول إنه يستطيع أن يُسكن هذه الرغبة داخلها، فلا تفكر في ممارسة علاقة جنسية.

تتشبث إيلا بكل قوتها بهذه الحقيقة وتقول في نفسها: كلما انعطف مسار حياتي ودخل في مرحلة من الجمود والجفاف، أفعل دائمًا ذلك: أتمسك بمجموعة من الكلمات، حفنة من العبارات التي تصوغ نوعًا من المعرفة حتى إذا كانت هذه العبارات جامدة وبلا معنى، فأنا أعرف أن حياتي ستعود إلى مسارها وتبث الحياة في تلك العبارات، ولكن كم هو غريب أن يتمسك المرء بمجموعة من الجمل ويؤمن بها.

في تلك الأثناء ظل الرجال يتقربون إليها وترفضهم، أدركت أنها لن تتمكن من أن تحبهم، وتقول لنفسها دائمًا: أنا لن أضاجع أي رجل حتى أتأكد أنني يمكن أن أحبه.

ولكن بعد بضعة أسابيع حدثت الواقعة الآتية: تلتقي إيلا برجل في إحدى الحفلات، فقد عادت مرة أخرى لحضور الحفلات وهي متضررة من فكرة «عرضها لنفسها بالسوق مرة أخرى». يعمل هذا الرجل، القادم من كندا، كاتب سيناريو، لا تجذبها صفاته البدنية تحديدًا، لكنه رجل ذكي يتمتع بحس الفكاهة اللطيف الذي يميز أبناء الجانب الآخر من المحيط الأطلسي والذي تحبه إيلا. أما زوجته، التي حضرت الحفل، فهي امرأة جميلة للغاية. في صباح اليوم التالي يذهب ذلك الرجل إلى مسكن إيلا دون موعد سابق ويحضر معه شراب الجن والصودا والورود،

ويتعامل مع الموقف كأنه مزحة، فهو «رجل أتى محضرًا معه الخمر والورود، ليغرر بالفتاة التي قابلها في حفل بالليلة الماضية.» تعجب إيلا بهذه المزحة. يشرب الاثنان ويضحكان ويرويان النكات أحدهما للآخر. وفي غمرة الضحكات يذهبان إلى الفراش. تمتعه إيلا، ولكنها لا تشعر بأي شيء، بل تكاد تجزم أنه هو الآخر لا يشعر بأي شيء؛ ففي اللحظة التي يضاجعها فيها تسمع هاتفًا يقول لها إن ما يقوم به ذلك الرجل ليس سوى شيء أعد نفسه للقيام به. تقول إيلا في نفسها: إذا كنت أنا أفعل ذلك بلا إحساس فلماذا ألومه؟ هذا ليس عدلًا، ثم ترد على نفسها في ثورة: ولكن هذا هو أصل المشكلة، إن شهوة الرجل هي التي تخلق شهوة المرأة، أو هكذا ينبغي، ولذا يحق لي أن ألومه.

يعودان مرة أخرى بعد ذلك إلى الشرب والنكات، ثم يبدي الرجل ملاحظة عابرة، ليس لها علاقة بأي شيء مما قيل: «لدي زوجة جميلة أعشقها، ولدي عمل أحبه، والآن أصبح لدي خليلة.» تدرك إيلا أنها هي الخليلة، وأن هذا المشروع، مشروع مضاجعتها، هو جزء من خطته لحياة سعيدة، وتدرك أيضًا أنه يتوقع أن علاقتهما ستستمر، بل يسلم بذلك، فتوضح له أن الأمر انتهى، وبينما هي تتكلم إذ تنعكس على ملامحه مسحة من الغرور الفظيع، على الرغم من أنها تحدثت بأسلوب مهذب وإيجابي ومجامل، كأن رفضها لاستمرار العلاقة شيء يرجع لظروف خارجة عن إرادتها.

يتفحصها الرجل بوجه جامد، يسألها بلهجة يطل منها الترقب والحيرة تبدو عليه: «ماذا هناك يا حبيبتي، ألم أرضِكِ؟» تسرع إيلا لتطمئنه بأنه فعل، مع أن ذلك لم يحدث. ولكنها تدرك أن هذا ليس خطأه، فهي لم تستطع أن تصل إلى الشعور بذروة النشوة في أي علاقة منذ أن تركها بول.

تقول إيلا بلهجة جافة لم تستطع أن تمنع نفسها من التحدث بها: «أظن أن كلينا ليس مقتنعًا بما فعل.»

مرة أخرى يرسم تلك النظرة الصارمة القلقة التي تخلو من أي مشاعر على وجهه ويقول: «صحيح أن لدي زوجة جميلة، ولكنها لا تشبع رغبتي، فأنا أحتاج إلى المزيد.»

تعقد كلماته لسان إيلا، تشعر كأنها ضلت الطريق في أرض من المشاعر لا يمتلكها أحد، أرض من المشاعر والأحاسيس الشاذة والمنحرفة، إن هذا ليس مكانها. ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تدرك ما الضير مما يعرضه ذلك الرجل عليها، إنه يتمتع بصحة جيدة ويؤدي «أداءً جيدًا في الفراش»، تقف إيلا في صمت تفكر في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن الترقب والقلق الذي كان ينتابه وهو يضاجعها في الفراش هو الوجه الآخر لذلك الترقب الخاص بالعالم البارد خارج الفراش. الآن، الآن سوف يطلق هجومه، سوف يطلق هجومه في وجهي، هكذا تبادر إلى إيلا، فاستعدت للهجوم المرتقب.

يتشدق الرجل بتلك الكلمات: «تعلمت أنه ليس من المهم أن تكون بصحبة امرأة جميلة في الفراش، فيكفي أن يركز الرجل على شيء واحد فيها ... أي شيء، فهناك دائمًا شيء جميل في المرأة حتى لو كانت قبيحة، ربما تكون أذنها جميلة، أو يدها مثلًا.» تحدث بنبرة حادة مبعثها شعوره بأن كرامته جُرحت.

تضحك إيلا فجأة محاولة أن تجذب انتباهه اعتقادًا منها أنه غالبًا سيضحك، فخلال الساعتين اللتين قضاهما معًا قبل أن يضاجعها، كانت العلاقة بينهما سلسلة ويسودها جو من المرح، وما قاله الرجل لتوه ما هو إلا محاكاة لقول مأخوذ عن زير نساء متمرس، ولذا لا بد أنه سيضحك على ما قاله، ولكن لا، لقد أراد أن يجرحها بكلماته، ولذلك فهو لن يسحبها أو يخفف وقعها ولو حتى بابتسامة.

أخيرًا تقول إيلا بلهجة جافة للغاية: «كم أنا محظوظة لأن لدي يدين جميلتين، إنها أجمل ما أملك.»

يتجه نحوها ويمسك يديها ويقبلهما بنهم مثل زير نساء ينقض على فريسته: «إنهما جميلتان، يا صغيرتي، جميلتان حقًّا.»

يغادر الرجل وتفكر آنا للمرة المائة أن كل هؤلاء الرجال الأذكياء يستخدمون في حياتهم العاطفية قدرًا ضئيلًا جدًّا من ذكائهم، أقل من أي قدر يستخدمونه وهم يسيرون أعمالهم، حتى إنهم يظهرون بشخصيات مختلفة تمامًا عن تلك التي يظهرون بها في الحياة العملية.

تذهب إيلا إلى منزل جوليا في هذا المساء وتجدها في حالة مزاجية يمكن أن تسميها «حالة باتريشيا» أي أن تصرفاتها تميل إلى السخرية والتهكم أكثر منها إلى المرارة والحسرة.

تحكي جوليا لإيلا بأسلوب تملؤه السخرية أن ذلك الرجل، الممثل الذي يعمل معها، الذي قال لها إنها «امرأة سيئة لا يمكن لرجل أن يعاشرها» جاءها منذ بضعة أيام وبيده باقة من الورود كأن شيئًا لم يحدث. «كان مندهشًا للغاية من تغيبي عن العرض، وتحدث بأسلوب لطيف وودود للغاية، كنت أجلس في مقعدي أنظر إليه وأنا أذكر كيف بكيت حتى جفت دموعي بعدما غادر ... أتذكرين؟ حاول أن يضاجعني لليلتين، وأنا كنت في منتهى الرقة وأحاول أن أهدئ من أعصابه، وبعد

كل هذا قال لي إنني ... وحتى حينما قال ذلك لم أستطع أن أجرح مشاعره. جلست بمقعدي وأنا أتساءل: هل يمكن أن يكون نسي ما قاله لي ولماذا قاله؟ أم هل من المفترض ألا نلقي بالًا لأي شيء يقولونه؟ أم أننا يجب أن نصبح أشداء بما يكفي لنتحمل أي شيء؟ في بعض الأحيان يخطر لي أننا جميعًا نعيش بمنزل واحد كل من فيه مهووسون بالجنس.»

تقول إيلا بلهجة جافة: «يا عزيزتي جوليا، لقد اخترنا أن نكون امرأتين حرتين، وهذا هو الثمن الذي ندفعه، هذا كل ما في الموضوع.»

ترد عليها جوليا: «حرتان، أتقولين حرتان! وما جدوى أن نكون حرتين إذا كانوا هم ليسوا كذلك؟ أقسم لكِ أن كل رجل من هؤلاء، حتى أفضل من فيهم، يحتفظ بداخله بهذه الفكرة التقليدية عن النساء المحترمات والنساء سيئات السمعة.»

– وماذا عنا نحن؟ نحن حرتان، هكذا نقول، ولكن الحقيقة هي أنهم يضاجعون أي امرأة حتى وإن لم تكن تعني لهم شيئًا، ولكننا لا نشعر بالنشوة إلا مع الرجل الذي نحبه. أين هي الحرية إذن؟

تقول جوليا: «إذن أنتِ أسعد مني حظًّا، فبالأمس جلست أفكر في أن ثمانية رجال من بين العشرة الذين ذهبت معهم إلى الفراش في الخمس سنوات الأخيرة لم يتمكنوا من مضاجعتي أو قاموا بذلك ولكن لثوانٍ قليلة. كنت ألوم نفسي ... كلنا نفعل ذلك بالطبع، أليس غريبًا، أن نُجهز على أنفسنا بهذه السرعة ونحملها مسئولية أي خطأ؟ وحتى ذلك الممثل اللعين، ذلك الرجل الذي قال لي إنني سيئة ولا يمكن أن يعاشرها أي رجل، تفضل وقال لي، على نحو عابر بالطبع، إنه وجد امرأة واحدة فقط في حياته تمكن من أن يفعل ذلك معها، لا تقولي لي إنه قال ذلك لكي يجعلني أشعر بأنني أفضل، لا إنه لم يقصد ذلك على الإطلاق.»

– جوليا، لا تقولي لي إنكِ جلست تحصين عدد الرجال الذين ضاجعوكِ؟

– لا، لم أفعل ذلك حتى بدأت أفكر في الأمر.

تجد إيلا نفسها في حالة مختلفة تمامًا، مرحلة جديدة، إنها لا تشعر بأي شيء يتعلق بالجنس من قريب أو من بعيد، تُرجع ذلك إلى الموقف الذي تعرضت له مع كاتب السيناريو الكندي، ولكنها لا تهتم كثيرًا بالسبب. إنها الآن امرأة هادئة للغاية لا تضطرم داخلها المشاعر والأحاسيس، بعيدة كل البعد عن أي رغبة، تشعر باكتفاء ذاتي وبأنها ليست في حاجة إلى أي شخص آخر لكي يشبع رغبتها، إنها لا تستطيع أن تتذكر كيف يمكن أن تعاني امرأة رغبة جنسية تبحث عمّن يشبعها، ولكن الأكثر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من ذلك أنها لا تستطيع أن تتخيل أنها يمكن أن تشعر بأي رغبة من هذا النوع مرة أخرى. إنها تعرف أن هذه الحالة، حالة الاكتفاء الذاتي وانعدام الرغبة الجنسية هي الوجه المقابل لحالة العيش في قلب تلك الرغبة.

تتصل إيلا بجوليا لتخبرها بأنها لم تعد تفكر في الجنس، ولم تعد تفكر في الرجال لأنها «لا تعيرهم أي اهتمام.» تشعر إيلا من أسلوب جوليا الساخر أنها متشككة فيما تقوله لها، فتبادرها: «ولكنني أعني ما أقول.» ترد عليها جوليا: «هذا أفضل لك.»

تقرر إيلا أن تكتب من جديد، فتفتش داخل نفسها عن الحكاية المنقوشة، التي تنتظر اللحظة التي ترى فيها النور وتُكتب كلماتها على الورق. إنها تقضي فترات طويلة بمفردها في انتظار الكشف عن الخطوط العريضة لتلك الحكاية المنقوشة داخلها.

أرى إيلا، تتجول في بطء في أرجاء غرفة كبيرة خالية، تفكر وتنتظر، أنا آنا، أرى إيلا، التي هي بالطبع آنا، ولكن هنا تكمن المفارقة، لأنها ليست آنا. في اللحظة التي أمسك فيها بالقلم، بوصفي آنا، وأكتب: «تتصل إيلا بجوليا لتخبرها بأنها ...» تنسل إيلا من نفسي وتصبح شخصًا آخر، تصبح إيلا، أنا لا أعرف ماذا يحدث في تلك اللحظة التي تنفصل فيها تلك الفتاة عني وتصبح إيلا، لا أحد يعرف ما يحدث. يكفيني أن أناديها بإيلا بدلًا من آنا. لماذا اخترت اسم إيلا؟ التقيت ذات يوم بفتاة اسمها إيلا في إحدى الحفلات، كانت تعمل مع بعض الصحف في كتابة مقالات نقدية عن الكتب، وتقيم الكتب المقدمة للنشر لدى أحد الناشرين، ضئيلة البنية ونحيفة ولها بشرة داكنة ... كانت تشبهني. شعرها معقود بشريط أسود اللون على شكل فيونكة، أدهشتني نظرات الحذر التي تغطي عينيها كأنها درع واقٍ حتى إن عينيها تبدوان كأنهما نافذتان بأحد الحصون، كان الحاضرون يشربون بكثرة وعندما جاء صاحب الحفل ليملأ كئوسنا رفعت تلك الفتاة يدها الصغيرة ذات البشرة البيضاء الناعمة، بعد أن أفرغ الرجل بوصة واحدة فقط من الشراب في كأسها ووضعتها فوق حافة الكأس لتغطيها وقالت: «هذا يكفي.» ثم هزت رأسها في هدوء حينما ألح عليها في أن يملأ الكأس، فانصرف الرجل. لاحظت الفتاة أنني أنظر إليها، فأمسكت بكأسها التي يوجد بها بوصة واحدة فقط من النبيذ وقالت: «هذه هي الكمية التي أحتاجها حتى أصل إلى الدرجة المطلوبة من النشوة التي يحدثها الشراب.» أطلقت ضحكة،

ولكنني اكتشفت أنها لم تكن تمزح، فقد احتست هذه الجرعة الموجودة بكأسها من النبيذ وقالت وهي تقيِّم تأثير الشراب فيها: «نعم، هذه هي الكمية الصحيحة.» ثم أومأت برأسها في هدوء مؤكدة على قولها: «هذا ما كنت أحتاجه تحديدًا.»

حسنًا، لم أكن لأفعل ذلك قط، فهذه ليست آنا على الإطلاق.

أرى إيلا وحدها، تتجول في أرجاء غرفتها الكبيرة، وقد عقدت شعرها الأسود المفرود بشريط عريض من اللون نفسه. وأحيانًا أراها جالسة في مقعدها منهمكة في التفكير، تمر عليها الساعة تلو الأخرى وهي تحدق مقطبة جبينها بيديها البيضاوين الناعمتين اللتين أسقطتهما في حجرها.

تعثر إيلا على هذه القصة داخلها: تحكي عن امرأة ينتقدها الرجل الذي تحبه دائمًا لأنها ليست مخلصة له ولأنها تتوق إلى الحياة الاجتماعية التي تمنعها عنها غيرته ولأنها «امرأة عاملة» تهوى عملها وتتميز فيه. هذه المرأة، التي على مدار خمس سنوات، عمر علاقتها بهذا الرجل، لم تنظر إلى أي رجل آخر، ولم تخرج مع غيره قط، ولم تعر عملها أي اهتمام، تتحول في اللحظة التي يتركها فيها حبيبها إلى كل الصفات التي كانت مثار انتقاده لها، فتصبح امرأة مستهترة تنتقل من أحضان رجل إلى آخر، تعيش فقط من أجل الحفلات وتدافع عن مستقبلها العملي دفاعًا شرسًا وتضحي من أجله بالرجال الذين تعرفهم وبأصدقائها. الفكرة الرئيسية في القصة تكمن في أن هذه الشخصية الجديدة التي تتحول إليها المرأة هي من صنع ذلك الرجل الذي كان يحبها، وأن كل ما تقوم به من علاقات جنسية وخيانة للبعض من أجل الحفاظ على تقدمها في العمل مبعثه هو ذلك الفكر الانتقامي: ها هو ذا ما أردته أنت، هذا ما أردته لي. تلتقي هذه المرأة بحبيبها القديم بعد فترة من الوقت، بعد أن ترسخ ملامح شخصيتها الجديدة أقدامها في نفسها، ويقع هذا الرجل في غرامها مرة أخرى. إن هذه هي الشخصية التي أرادها أن تكون عليها، فقد تركها لأنها شخصية هادئة ومهادنة ومخلصة. ولكن حينما يقع ذلك الرجل في غرامها مرة أخرى ترفضه تلك المرأة بأسلوب يعكس ما بداخلها تجاهه من مرارة واحتقار، إن ما هي عليه الآن ليس هو «حقيقتها» رفض شخصيتها «الحقيقية» خان حبه الحقيقي وهو الآن يعشق شخصية مزيفة، لذلك فهي برفضها له تحافظ على شخصيتها الحقيقية، التي رفضها وخانها.

لم تكتب إيلا القصة، خشيت أن تتحول أحداثها إلى حقيقة إن كتبتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تبحث إيلا داخل نفسها مرة أخرى وتجد هذه القصة:

رجل وامرأة، المرأة مستعدة استعدادًا شديدًا، بعد أن عاشت سنوات عديدة كامرأة حرة، للدخول في علاقة حب جادة. والرجل يمثل عليها دور الحبيب الجاد لأنه يحتاج إلى امرأة يأوي إليها. (جاءتها فكرة هذه الشخصية من كاتب السيناريو الكندي، من فتوره ومن أسلوبه المقنع في القيام بدور الحبيب، كان يقف يرقب نفسه وهو يقوم بذلك الدور، دور رجل متزوج لديه عشيقة، تستخدم إيلا هذا الملمح الذي تتسم به شخصية هذا الرجل الكندي في قصتها ... رجل يرقب نفسه وهو يؤدي دورًا ما.) الرغبة الجارفة والمشاعر الهائجة التي تضطرم داخل نفس المرأة تزيد من فتور ذلك الرجل، مع أنه لا يدرك حقيقة أنه رجل فاتر. تتحول هذه المرأة إلى سجانة تحبس داخلها شخصيتها غير المسيطرة التي يسهل إرضاؤها، تلك الشخصية التي لا تستسلم لمشاعر الغيرة، إن الأمر يبدو كأن شخصية أخرى بعيدة عنها كل البعد تتملكها، وتقف المرأة لترقب انحدارها إلى تلك الشخصية المشاكسة الغيورة والدهشة تملأ عينيها، كأن هذه النفس الأخرى لا تمت إليها بأي صلة، إنها مقتنعة تمامًا أنها لا تخصها بأي شكل من الأشكال، فحينما يتهمها الرجل بأنها شخصية غيورة تتجسس على الآخرين، ترد بلهجة صادقة: «أنا لست غيورة، ولم أكن يومًا غيورة.» تتأمل إيلا هذه القصة في دهشة، فهي لا تعكس أي شيء من تجاربها، تقفز إلى ذهنها صورة زوجة بول ... ولكن لا، إنها امرأة متواضعة ومهادنة لا يمكن أن توحي إليها بمثل هذه الشخصية، أو ربما يكون ملهمها هو زوجها ذلك الرجل الغيور الذي يفتقر إلى الكرامة وإلى احترام الذات، والذي يتصرف بهستيرية كالنساء لأنه عجز أن يكون رجلًا؟ تظن إيلا أنه من الجائز أن يكون زوجها، الذي لم تعاشره سوى فترة قصيرة دون أن ترتبط به على ما يبدو ارتباطًا حقيقيًّا، ربما يكون هو تلك الشخصية الذكورية المقابلة للمرأة المشاكسة السليطة الموجودة بقصتها؟ ولكنها مع ذلك تقرر ألا تكتب هذه القصة، ومع أنها مكتوبة داخلها فلا تستطيع إيلا أن تنظر إليها على أنها قصتها. تسأل إيلا نفسها: ربما قرأتها في كتاب ما؟ أو ربما قصها عليَّ أحدهم ونسيت أنني سمعتها؟

في هذه الأثناء تذهب إيلا لزيارة والدها، فهي لم تذهب إليه منذ فترة. لم يتغير شيء في حياته، لا يزال هادئًا ومنغمسًا في العناية بالحديقة وقراءة الكتب، رجل عسكري تحول إلى زاهد أو ناسك، أو ربما كان هكذا من البداية. لأول مرة تسأل إيلا نفسها هذا السؤال: كيف كانت الحياة مع زوج مثل أبيها؟ إنها نادرًا ما تفكر في

والدتها، التي توفيت منذ فترة بعيدة، ولكنها تحاول الآن أن تستعيد ذكرياتها عنها. تقفز إلى ذهنها صورة امرأة عملية ومرحة، شعلة من النشاط والحيوية. ذات مساء تجلس إيلا على المقعد المقابل لأبيها تتوسطهما المدفأة في غرفة مليئة بالكتب ذات سقف أبيض متشح بألواح خشبية سوداء، تنظر إيلا إلى أبيها وهو يقرأ ويحتسي كأسًا من الويسكي وفي النهاية تحمل نفسها أخيرًا على أن تتحدث عن أمها.

ترتسم على وجه أبيها أغرب ملامح الانزعاج حتى إن التعبير الذي يرتسم على وجهه يبدو هزليًا، فمن الواضح أنه هو أيضًا لم يكن يفكر من قبل في المرأة التي فارقت الحياة منذ سنين، ولكن إيلا تصمم على أن تسمع رده، فيقول لها في النهاية في حدة: «كانت أمكِ — فيما أرى — سيدة فاضلة إلى أبعد الحدود.» يطلق أبوها ضحكة يطل منها الانزعاج، ويدير عينيه الزرقاوين الشاردتين فجأة في رعب مثل حيوان مفزوع، تنزعج إيلا من ضحكته، وتعرف سبب انزعاجها، إنها تشعر بالضيق بالنيابة عن زوجته، التي هي والدتها، يخطر لها أن مشكلتها هي وجوليا بسيطة، فهي تكمن في أنهما تؤديان دور عشيقتين لم يعد سنهما يسمح لهما بلعب ذلك الدور. رفع أبوها الكتاب أمام عينيه مرة أخرى ليصد به أي هجوم، ولكنها مع ذلك تسأله بصوت عالٍ: «لماذا كانت فاضلة إلى أبعد الحدود؟» يقول لها وهو ينظر من فوق حافة كتابه بلهجة رجل مسن أنهكه الزمن تهيج داخله فجأة مشاعر عمرها ثلاثون عامًا: «كانت أمكِ سيدة فاضلة، وزوجة فاضلة أيضًا، ولكن لم يكن لديها أي فكرة، لم يكن لديها أي فكرة على الإطلاق، لم يكن هذا الشيء في حسبتها بالمرة.»

– هل تعني الجنس؟

هكذا تسأله إيلا وهي تحمل نفسها على الحديث مقاومة نفورها من أن تربط مثل هذه الأفكار بأبويها، يطلق أبوها ضحكة يطل منها الضيق مديرًا عينيه مرة أخرى: «إنكم لا تمانعون بالطبع من التحدث عن هذا الأمر، ولكنني لم أتحدث في هذا الموضوع قط من قبل، نعم، إنه الجنس، إن كان ذلك ما تطلقينه عليه، فلم يكن هذا الشيء جزءًا من طبيعتها وشخصيتها.» يرفع أبوها الكتاب الذي يحكي عن مذكرات أحد اللواءات البريطانيين في وجهها مرة أخرى، ولكنها تصمم على استئناف الحوار: «حسنًا، ماذا فعلت بشأن ذلك؟» تبدو حافة الكتاب كأنها ترتعش، وتسود فترة من الصمت، إيلا تقصد أن تقول له: ألم تعلمها؟ يترامى إلى سمعها صوت أبيها من وراء كتابه وهو يقول بلهجة فوقية اكتسبها من عمله في مجال التدريب، ولكنها في الوقت ذاته توحي بشعوره بالتردد النابع من ذلك الغموض الذي يلف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عالمه الخاص: «عندما لم يعد بإمكاني أن أتحمل ذهبت واشتريت لنفسي امرأة، ماذا كنتِ تتوقعين؟!» كان سؤاله الأخير موجهًا ليس إلى إيلا ولكن إلى والدتها. «نيران الغيرة اشتعلت، لم تكن تعبأ بي قط، ولكن نيران الغيرة كانت تأكلها.»

تقول إيلا: «كنت أقصد أن أقول إنها ربما كانت تشعر بالخجل، ربما كان يجدر بك أن تعلمها؟» فهي تذكر أن بول قال لها ذات مرة: ليس هناك شيء يُدعى امرأة باردة، ولكن هناك رجالًا يفتقرون إلى المهارة.

يُنزل أبوها الكتاب في بطء من أمام عينيه ويضعه على فخذيه النحيلين شبه الملتصقين، لقد احمر وجهه النحيل الذابل بعد أن كان لونه مائلًا إلى الصفرة، وبرزت عيناه الزرقاوان إلى الخارج فبدوتا كأنهما عينا حشرة: «انظري إليّ، إن الزواج في رأيي ... حسنًا، حسنًا، أنتِ جالسة هنا أمامي، وأرى أن هذا مبرر له.»

تقول إيلا: «أظن أنه يجدر بي أن أعتذر ... ولكنني أود أن أعرف عنها، فهي في النهاية أمي.»

– أنا لا أفكر فيها، ولم أفكر فيها منذ سنوات، ولكن أفكر فيها أحيانًا عندما تسعدينني بالزيارة.

سألته إيلا: «ألهذا أشعر أنك لا تحب أن تراني كثيرًا؟» ولكنها كانت تبتسم مجبرة إياه على أن ينظر إليها.

– أنا لم أقل ذلك قط، هل حدث أن قلت ذلك؟ أنا لا أشعر بأنني لا أود أن أراكِ. ولكن كل هذه الروابط العائلية ... الأمور الأسرية، والزواج، وغيرها من هذه الأشياء، إنها تبدو وهمية لي. أنتِ ابنتي، وأنا أؤمن بذلك، لا بد أنكِ ابنتي، فأنا أعرف والدتكِ جيدًا. ولكنني لا أشعر بذلك، روابط الدم تلك ... هل تشعرين بها؟ أنا لا أشعر بها.

تقول إيلا: «نعم، حينما أكون هنا معك أشعر بأن ثمة رابطة ما، ولكنني لا أعرف ما هي.»

– أنا أيضًا لا أعرف.

استعاد الرجل العجوز نفسه، وعاد مرة أخرى بها إلى ذلك المكان البعيد وأصبح في مأمن عن أي أذى قد تسببه له العواطف الشخصية. «نحن بشر ... أيًّا كان ما يعنيه ذلك، أنا لا أعرف، ولكنني أكون سعيدًا برؤيتكِ حينما تأتين، لا تظني أنكِ غير مرحب بكِ، لكن العمر يتقدم بي، وأنت لا تعرفين بعد ماذا يعني ذلك، كل هذه

الأمور المتعلقة بالعائلة والأطفال وغيرها من الأشياء تبدو وهمية، ليست هي ما يهم، على الأقل لي.»

– ماذا يهم إذن؟

– في رأيي المهم هو الخالق، أيًّا كان ما يعنيه هذا، أنا أعرف أن ذلك لا يعني لكِ شيئًا، ولمَ يعني لكِ شيئًا؟ اعتدت أن ألمح شيئًا، وأنا في الصحراء ... بالجيش، كما تعلمين، أو عندما أكون في خطر، وأفعل ذلك الآن أحيانًا ليلًا. أنا أظن أن الوحدة ... هي شيء مهم. الناس، البشر، هؤلاء الكائنات، ما هم إلا مزيج من الفوضى، فكل منهم يجب أن يترك الآخر بمفرده.

يرشف رشفة من كأس الويسكي ويحملق فيها، كأنه مذهول مما يراه. «أنتِ ابنتي، وأنا أؤمن بهذا. أنا لا أعرف شيئًا عنكِ، ولكنني أساعدكِ بالطبع بأي طريقة يمكنني أن أساعدكِ بها، سوف تحصلين على كل أموالي عندما أرحل ... وأنتِ تعرفين ذلك. ليس هذا كثيرًا، ولكنني لا أود أن أعرف شيئًا عن حياتكِ، فأنا أظن أنني لن أكون راضيًا عنها.»

– أجل، أنا أيضًا لا أظن ذلك.

– هذا الأحمق زوجكِ لم يستطع أن يفهم ذلك.

– كان ذلك منذ فترة طويلة، ولكن ماذا لو قلت لك إنني كنت على علاقة برجل متزوج استمرت خمس سنوات، وأن هذه العلاقة كانت أهم شيء في حياتي؟

– هذا شأنكِ وليس شأني، أنتِ لستِ مثل أمكِ، أنت تشبهين أكثر امرأة كنت أعرفها بعد وفاة أمكِ.

– ولمَ لمْ تتزوجها؟

– كانت متزوجة، وتمسكت بزوجها، حسنًا، أظن أنها كانت على حق، فيما يخص ذلك الاتجاه، كان هذا هو أروع شيء في حياتي، ولكن ذلك الاتجاه نفسه لم يكن قط الأكثر أهمية لي.

– إنك لا تسأل أبدًا عن أحوالي؟ عما أفعله؟ لا تفكر مطلقًا في حفيدك؟

لقد تراجع الرجل الآن تمامًا، فلم يرقه هذا الضغط على الإطلاق.

– أوه، يا له من ولد صغير جميل، أنا أسعد برؤيته، ولكنه سيتحول إلى شخص متوحش مثله مثل الآخرين.

– متوحش؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم، إنهم متوحشون، إن البشر يتحولون إلى وحوش لو لم يترك كل منهم الآخر وحده. أما أنت ... فماذا أعرف عنكِ؟ أنتِ امرأة عصرية، وأنا لا أعرف أي شيء عن النساء العصريات.

قالت بنبرة جافة وهي تبتسم: «امرأة عصرية.»

– نعم، هكذا يقول كتابك على ما أظن، أنا أظن أنك تهدفين إلى توصيل شيء عن نفسكِ كما نفعل جميعًا، وأتمنى لك حظًّا سعيدًا، ولكن ليس بإمكاننا أن يساعد بعضنا بعضًا، لا يمكن أن يساعد البشر بعضهم بعضًا، من الأفضل لهم أن يبتعدوا بعضهم عن بعض.

يرفع والد إيلا الكتاب أمام عينيه مرة أخرى، ويباغت إيلا بنظرة خاطفة محملقًا فيها ليحذرها للمرة الأخيرة من أن تكمل الحوار.

تجلس إيلا وحيدة بغرفتها، تفتش داخل أعماق نفسها، تنتظر حتى تتضح أمامها الأطياف، وتؤلف القصة نفسها: ترى إيلا أمامها ضابطًا شابًّا من أمهر الضباط، خجولًا وأبيًّا، لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يعبر عن مشاعره جيدًا، وترى أيضًا امرأة شابة مرحة وخجولة، والآن تستحضر بذهنها ذكرى وليست صورة، فترى أمامها هذا المشهد: تستلقي إيلا بحجرة نومها في وقت متأخر من الليل متظاهرة بأنها نائمة، ويقف أبواها في منتصف الحجرة، يلف الرجل ذراعيه حول زوجته، وتغرق المرأة في خجلها كأنها فتاة صغيرة، يقبلها، فتركض خارجة من الغرفة وهي تبكي، يقف الرجل وحيدًا يجذب شاربه في غضب.

يبقى الرجل وحيدًا، وينسحب مبتعدًا عن زوجته إلى كتبه وإلى عالم من الأحلام البسيطة والمباشرة التي تراود رجلًا ربما كان شاعرًا أو ناسكًا، وعندما يموت يكتشفون في أدراجه المغلقة أوراقًا تحوي مذكراته وقصائده وقصاصات من المؤلفات النثرية.

تفاجئها هذه النهاية، فإيلا لم تفكر من قبل في أن والدها يمكن أن يكتب شعرًا، أو أن يكتب من الأساس، فتبادر بزيارته في أقرب وقت ممكن.

في وقت متأخر من الليل تسأله إيلا وهي جالسة معه في الغرفة التي يلفها الصمت وتحترق الأخشاب في بطء داخل مدفأتها الجدارية: «هل حدث أن كتبت شعرًا من قبل يا أبي؟» يسقط الكتاب مرتطمًا بفخذيه النحيلين ويحدق أبوها فيها ويقول: «بالله عليكِ كيف عرفتِ؟»

– أنا لم أعرف، خطر لي فقط أنك ربما كنت تكتب.

– أنا لم أخبر مخلوقًا بذلك.

– هل لي أن أرى ما كتبت؟

يجلس الرجل برهة يجذب شاربه الكثيف العتيق الذي شابت شعيراته، ثم ينهض من مقعده ويفتح أحد الأدراج ويخرج منه كومة من الأوراق كتب بها قصائده ويناولها لإيلا، إن جميعها تتحدث عن الوحدة وتجارب الفقدان والتحلي بالجلد والتجارب المثيرة في عالم العزلة، ومعظمها تحكي عن العسكريين. واحدة عن تي. إي. لورينس: «إنه رجل قوي ومفتول العضلات وسط آخرين.» وأخرى عن رومل: «في المساء يتوقف العشاق خارج المدينة عند قنطرة من الصلبان تضرب جذورها في الرمال.» وثالثة عن كروميل: «العقائد والجبال والآثار والصخور ...» وأخرى عن تي. إي. لورينس: «... ومع هذا يسافر عبر منحدرات النفس.»

تناوله إيلا القصائد مرة أخرى فيأخذها الرجل العجوز الذي تموج داخله المشاعر ويضعها في الدرج ويغلقه من جديد.

– ألم تفكر من قبل في نشرها؟

– بالطبع لا، ولِمَ أنشرها من الأساس؟

– إنه سؤال فقط.

– أنتِ مختلفة عني، فأنت تكتبين من أجل أن تنشري كتاباتكِ، وهذا ما أظن أن الناس يفعلونه.

– أنت لم تخبرني هل أعجبتك روايتي؟ هل قرأتها؟

– تسألين هل أعجبتني؟ كُتبت هذه الرواية بأسلوب جيد، ولكن هذا الشاب البائس لمَ أراد أن يقتل نفسه؟

– تراود هذه الرغبة البشر.

– ماذا؟ الجميع يرغب في ذلك في وقت من الأوقات، ولكن لمَ تكتبن عن ذلك؟

– ربما تكون محقًّا.

– أنا لا أقول إنني على حق. هذا هو ما أشعر به، وهذا هو الفارق بين رفقائي ورفقائكِ.

– ماذا، أنقتل أنفسنا؟

– لا، بل تتساءلون كثيرًا عن هذا الأمر، السعادة، هذا الشيء، السعادة! أنا لا أذكر أنني فكرت من قبل في هذا الأمر، أما رفقاؤكِ ... أنتِ تفكرين في أن هناك شيئًا معلقًا في رقبتكِ، وهذا بسبب تأثير الشيوعيين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اندهشت إيلا ولكن بدا من لهجتها في الوقت ذاته أنها سعيدة: «ماذا؟»

– نعم، رفقاؤكِ، إنكم جمعيًا من أنصار العلم الأحمر.

– ولكنني لست شيوعية. أنت تخلط بيني وبين صديقتي جوليا، وحتى جوليا لم تعد من الشيوعيين.

– لن يختلف الأمر كثيرًا، فقد أفسدوكم، أنتم جميعًا تظنون أنكم تستطيعون أن تفعلوا شيئًا.

– حسنًا، أنا أظن أن هذا صحيح، فرفقاؤنا، كما تسميهم، يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن كل شيء ممكن، ولكنك على ما يبدو ترضى بالقليل.

– أرضى؟ أرضى! ماذا تعنين بهذه الكلمة؟

– أعني أننا في أحلك الظروف وأحسنها نكون مستعدين لأن نجرب أن نغير أنفسنا، نحاول أن نصبح أنماطًا مختلفة من الأشخاص، ولكنك رضخت بكل بساطة إلى شيء معين.

يجلس الرجل العجوز أمامها والغضب والعنف يتصاعدان داخله: «هذا الشاب الأحمق بكتابكِ لم يفكر في شيء إلا أن يقتل نفسه.»

– ربما لأن هناك شيئًا كان معلقًا في رقبته، وكان معلقًا أيضًا في رقبة الجميع، وهو لم يفهم ذلك.

– تقولين ربما؟ ربما؟ أنتِ كتبتِ ذلك، ولذلك يجب أن تعرفي.

– ربما سأحاول أن أكتب في المرة القادمة عن هذا الأمر ... عن الأشخاص الذين يعمدون إلى أن يكونوا شيئًا آخر، يحاولون أن يغيروا تكوينهم الأصلي.

– تتحدثين كأن ... إن الشخص هو الشخص، والإنسان يجب أن يكون على ما هو عليه. ولا يمكن أن يكون أي شيء آخر، لا يمكنكِ أن تغيري ذلك.

– حسنًا، أنا أرى أن هذا هو الفارق بيني وبينك، فأنا أؤمن أنه بإمكاني أن أغير ذلك.

– وأنا لست معكِ، ولا أريد أن أكون معكِ. حتى لو كان تأقلم المرء مع ما هو عليه أمرًا سيئًا، فهو أفضل من أن نزيد الأمور تعقيدًا.

يفتح حوارها مع والدها الباب أمام باقة جديدة من الأفكار.

هي الآن تبحث داخلها عن الأفكار الرئيسية لقصة ما، وكلما بحثت وجدت نماذج للهزيمة والموت والسخرية، فتعمد إلى طرحها، وتحاول أن تقحم على رأسها نماذج للسعادة أو الحياة البسيطة لكنها تفشل.

تجد هذه الفكرة تطوف برأسها: يجب أن أتقبل تلك النماذج التي تعكس معرفة المرء بذاته وهذا يجلب التعاسة أو على الأقل يجعل الحياة جافة، ولكنني يمكن أن أحول ذلك إلى نصر، فلنقل إن هناك رجلًا وامرأة ... كليهما فاض به الكيل، وكليهما على حافة الانهيار لأنهما يحاولان أن يتجاوزا حدودهما، ولكن من قلب تلك الفوضى يخرج نمط جديد من أنماط القوة.

تنظر إيلا داخل نفسها كأنها تنظر إلى مرآة حتى ترى صورة تلك القصة، لكنها تبقى مجموعة من الجمل الجافة التي تدور بذهنها، تنتظر إيلا، تنتظر في صبر، حتى تتشكل أمامها الصور وتدب فيها الحياة.

[على مدار الثمانية عشر شهرًا الماضية تدون آنا يومياتها في الدفتر الأزرق في شكل فقرات مقتضبة ولا يختلف أسلوبها عن كل ما دونته آنا من قبل في هذا الدفتر فقط بل عن كل ما كُتب في الدفاتر الأربعة جميعها. ويبدأ هذا الجزء من الدفتر الأزرق كما يأتي:]

١٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٤

آنا فريمان، ولدت في العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٢٢، وهي ابنة الكولونيل فرانك فريمان والسيدة ماي فروتيسك، عاشت في ٢٣ شارع بيكر، وتلقت تعليمها في مدرسة هامبستيد الثانوية للبنات، وقضت ستة أعوام في منطقة وسط أفريقيا (١٩٣٩-١٩٤٥). تزوجت من ماكس ولف عام ١٩٤٥، وأنجبت منه ابنتها الوحيدة عام ١٩٤٧، وانفصلت عنه عام ١٩٤٧. انضمت إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٥٠، وانسحبت منه عام ١٩٥٤.

[تحت التاريخ الخاص بكل يوم كانت آنا تسجل ما مر في هذا اليوم من أحداث في شكل جمل إخبارية قصيرة تعبر عن حقائق واضحة: «استيقظت مبكرًا. قرأت كذا وكذا. شاهدت كذا وكذا. مرضت جانيت. تعافت جانيت. عُرض على مولي دور أعجبها/لم يعجبها ...» وهكذا تستكمل آنا بقية الأحداث اليومية على ذلك النحو حتى نصل إلى أحد أيام شهر مارس/آذار من عام ١٩٥٦ فنجد خطًّا أسود ثقيلًا رُسم بعرض الصفحة كعلامة على انتهاء تلك الفقرات القصيرة المكتوبة بخط منمق. وفوق كل صفحة من الصفحات التي دونت فيها أحداث الثمانية عشر شهرًا الماضية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رُسمت علامة خطأ بخط أسود ثقيل، ثم استأنفت آنا الكتابة مرة أخرى ولكن على نحو مختلف، فهي لم تستمر في تدوين الأحداث اليومية في فقرات قصيرة مكتوبة بخط واضح، ولكنها كانت تكتب بأسلوب سهل ومتدفق، حتى إن بعض الأجزاء بدت مكتوبة على نحو غير واضح من فرط السرعة التي كتبت بها:]

إذن باء كل ما فعلته بالفشل، فالدفتر الأزرق، الذي توقعت أن تكون مدوناته هي الأصدق، بات أسوأ الدفاتر الأربعة، توقعت أنني حينما أقرأ هذه الحقائق التي سجلتها في جمل مقتضبة ستتكون أمامي صورة للأحداث اليومية المتسلسلة، ولكن تلك الطريقة في التدوين بدت زائفة مثلها مثل الطريقة التي سجلت بها ما حدث في يوم ١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٥٤، والتي حينما أقرؤها الآن أشعر بالحرج من تلك النزعة العاطفية ومن تلك الادعاءات التي لا أساس لها من الصحة، فأنا أظن أنني إذا كتبت إنني: «في التاسعة والنصف صباحًا ذهبت إلى المرحاض لأقضي حاجتي وفي الثانية عاودت الكرة.» فسيكون أصدق بكثير من تدويني لما خطر لي، ولكنني لا أزال عاجزة عن معرفة السبب، فهناك أشياء في الحياة نتعامل معها على نحو فطري وفي تلقائية مثل الذهاب إلى المرحاض لقضاء حاجتنا أو تغيير الحشوات القطنية أثناء العادة الشهرية، إلا أنني أستطيع أن أتذكر تفاصيل كل الأحداث التي مرت بي بأحد الأيام منذ عامين تقريبًا فقط، لأنني في ذلك اليوم رأيت بقعة من الدم على تنورة مولي وكان عليَّ أن أنبهها حتى تصعد إلى غرفتها وتغير ملابسها قبل أن يأتي ابنها.

بالطبع هذه المشكلة ليست مشكلة أدبية على الإطلاق، مثلها مثل «تجربتي» مع الأم شوجر. أذكر أنني قلت لها إن مهمتها خلال معظم الفترة التي نقضيها معًا هي أن تجعلني أدرك وأنشغل بالحقائق المتعلقة بالعمليات البدنية التي قضينا طفولتنا نتعلم كيف نتجاهلها، فردت عليَّ بهذا الرد الصريح وهو أن ما «تعلمته» في طفولتي كان خاطئًا، وإلا لما كنت أجلس الآن في المقعد المقابل لها أطلب مساعدتها ثلاث مرات في الأسبوع. وقد أجبتها أنا، وأنا أعرف أنني لن أتلقى ردًّا على هذه الإجابة، أو على الأقل لن يكون الرد على المستوى الذي أرغب فيه لأن ما قلته هو «التحليل العقلي» للأسباب التي أرجعت الأم شوجر مشاكلي الشعورية إليها: «يبدو لي أن خضوع المرء للتحليل النفسي يتمثل في الأساس في دفعه إلى مرحلة الطفولة مرة أخرى ثم إنقاذه منها عن طريق صياغة ما تعلمه في تلك المرحلة في صورة من صور الفكر البدائي ... فالمحلل النفسي يدفع بالشخص الجالس أمامه إلى عالم الخرافة،

إلى الأساطير الشعبية وإلى كل ما يتعلق بالمراحل البدائية والوحشية التي مر بها المجتمع، فإذا قلت لكِ مثلًا: إنني أرى في ذلك الحلم تجسيدًا لخرافة من الخرافات، أو أن ذلك الشعور الذي ينتابني بخصوص أبي متأثر بقصة شعبية خيالية، أو أن الجو العام المحيط بإحدى ذكرياتي يشبه الجو العام لإحدى القصائد القصصية الشعبية في الأدب الإنجليزي، تبتسمين ويبدو عليكِ الارتياح، لأن هذا يعني لك أنني تخطيت مرحلة الطفولة وغيرتها وأنقذت نفسي منها عن طريق تجسيدها في شكل خرافة ما. ولكن في الحقيقة كل ما أفعله، أو تفعلينه أنتِ هو أننا نبحث في ذكريات الطفولة الخاصة بفرد من الأفراد وندمجها مع الفن أو الأفكار المرتبطة بالطفولة لدى جماعة من الأفراد.» ردت الأم شوجر عليَّ بابتسامة، فقلت لها: «أنا الآن أستخدم أسلحتكِ ضدكِ، فأنا لا أتحدث هنا عما تقولينه، ولكن عن ردود أفعالك تجاه ما أقوله، لأن الابتهاج والإثارة يغمرانكِ، وتفيض ملامحكِ بالتيقظ والانتباه حينما أقول لكِ إن الحلم الذي راودني ليلة أمس في منامي يشبه كثيرًا حكاية حورية البحر التي ألفها هانس أندرسن، ولكن حينما أحاول أن أصف تجربة ما، أو واحدة من ذكرياتي، أو حلمًا راودني على نحو أكثر حداثة، أحاول أن أنقد أيًّا من هذه الأشياء أو أعبر عنها على نحو هزلي أو معقد ومتداخل، ينتابكِ الضجر والملل، لذا يمكنني أن أستنتج من ذلك أن ما يشعرك بالرضا وما يثيرك حقًّا هو العالم البدائي، هل تدركين أنني لم أتكلم قط عن أي تجربة عشتها أو أي حلم رأيته في منامي كما لو كنت سأتكلم مع أي من أصدقائي، أو كما لو كنتِ أنتِ ستتكلمين مع أي من أصدقائكِ خارج هذه الحجرة إلا ويرتسم العبوس على وجهكِ، وأنا أقسم أن ذلك العبوس الذي يرتسم على ملامحكِ أو هذا الضجر الذي يملؤكِ هو شيء لاإرادي، أم ستقولين إنكِ تقطبين جبينكِ متعمدة لأنكِ تظنين أنني لا أرغب في أن أتخطى عالم الخرافة وأتركه وراء ظهري؟»

سألتني بابتسامة مرتسمة على شفتيها: «إذن؟»

أجبتها: «هذا أفضل ... كنتِ ستبتسمين هكذا إذا كنا نتحدث ونحن جالستان بحجرة الصالون في منزلي أو منزلكِ ... نعم، أنا أعرف أنكِ ستقولين إن هذه ليست حجرة صالون وإنني موجودة هنا لأنني في مشكلة.»

سألتني مرة أخرى والابتسامة لا تزال مرتسمة على شفتيها: «إذن؟»

– سوف أرد عليكِ بهذا الرد المنطقي أنه ربما تعني كلمة اضطراب عصبي الوصول إلى مرتبة عالية من مراتب الإدراك والرقي، فجوهر الاضطراب العصبي هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصراع، والصراع أيضًا هو جوهر الحياة التي نعيشها الآن دون أن نعزل أنفسنا عما يدور حولنا. وصلت إلى المرحلة التي أنظر فيها إلى الأشخاص من حولي، رجال ونساء، وأقول إنهم لا يصابون بأي اضطراب عصبي لأنهم قرروا أن يعزلوا أنفسهم عما يجري حولهم في مرحلة أو أخرى، إنهم يحافظون على اتزانهم النفسي بانعزالهم عن الحياة ومن خلال تلك الأغلال التي يقيدون بها أنفسهم.

– هل ترين أن تجربتك معي جعلتكِ أفضل أم جعلتكِ أسوأ؟

– ها أنتِ تعودين إلى غرفة الكشف، بالطبع أنا أشعر بتحسن، ولكن هذا تعبير طبي، فأنا أخشى أن أدفع ثمن هذا التحسن بالعيش داخل الخرافات والأحلام. إن نجاح التحليل النفسي من عدمه يتوقف على جعل الأشخاص أفضل من الناحية المعنوية، وليس جعلهم أكثر صحة من الناحية البدنية، وأنتِ الآن تسألينني في حقيقة الأمر أقادرة أنا على المضي قدمًا في حياتي على نحو أيسر مما كنت عليه؟ وهل قلت حالة الصراع والشك التي تنتابني؟ أو بالأحرى هل الاضطرابات العصبية التي كانت تعرض لي تقلصت؟ حسنًا، أنتِ تعرفين أن الإجابة هي نعم.

أنا أذكر كيف كانت تلك السيدة العجوز المفعمة بالحيوية في حالة انتباه تام، وقد عقصت شعرها الأبيض فيما يبدو على عجل وارتدت قميصًا وتنورة رخيصين، ونظرت إليَّ وهي تقطب جبينها، أسعدني أنها قطبت جبينها ... فقد خرجنا لحظة من إطار العلاقة التي تجمع بين محللة نفسية ومريضتها.

قلت لها: «حسنًا، إذا كنت أجلس هنا أمامكِ أحكي عن حلم رأيته في منامي بالأمس، ولنقل هذا الحلم الذي رأيت فيه الذئاب، بأسلوب أكثر تطورًا، كانت هناك نظرة معينة سترتسم على ملامحكِ، أنا أعرف معنى هذه النظرة، لأنني أنا نفسي مررت بهذا الشعور من قبل ... الشعور بالتقدير الذاتي، إن النشوة التي يخلفها ذلك الشعور تنبع من كونه يمتثل لنا وكأنه مهمة لإنقاذ شخص في خطر، إنقاذ الأفكار والأحاسيس التي لا شكل لها ولا معالم وإكسابها شكلًا ومعالم، إنها مجموعة جديدة من الأفكار الضائعة تنتشل من الفوضى التي تغرق فيها وتصبح ذات «اسم» يدل عليها. هل تعرفين كيف تبتسمين عندما أطلق «اسمًا» على شيء ما؟ تبتسمين كأنكِ أنقذتِ نفسًا من الغرق، أنا أعرف هذا الشعور، إنه الشعور بالفرحة، ولكن هذا الأمر يحمل بين طياته شيئًا بشعًا ... لأنني لم أعش قط الشعور بالفرحة وأنا مستيقظة، مثلما أعيشه وأنا نائمة أهيم بين لقطات حلم ما ... فعندما تخرج الذئاب من الغابة، أو عندما تنفتح أبواب القلعة، أو عندما أقف أمام حطام المعبد الأبيض فوق الرمال

البيضاء التي يظهر من خلفها البحر الأزرق والسماء الزرقاء، أو عندما أطير مثل بطل إحدى الأساطير الإغريقية، إيكاروس، ففي كل هذه الأحلام، مهما كانت ملامح الرعب التي تحملها، أستطيع أن أبكي فرحًا، وأنا أعرف لماذا ... لأن كل مشاعر الألم ومشاهد القتل والعنف تحيطها القصة بسياج أمني يكف عني أذاها.»

كانت الأم شوجر صامتة تنظر إليَّ باهتمام.

قلت لها: «ربما تقولين في نفسكِ إنني لست مستعدة للمضي قدمًا؟ حسنًا، أنا أرى أنه إذا كان بإمكاني أن أشعر بالملل من تلك المرحلة، إذا رغبت في ذلك، فسوف أكون مستعدة بالتأكيد للمرحلة القادمة.»

– وما المرحلة القادمة؟

– المرحلة القادمة هي أنني سأخرج من كهف تلك الأسطورة الآمن الذي يؤويني وستخطو آنا ولف إلى الأمام وحدها؟

قالت الأم شوجر: «وحدها؟» وأضافت بلهجة ساخرة: «أنتِ شيوعية، أو هكذا تقولين، ولكنكِ تودين أن تمضي وحدكِ، ألا ترين أن هذا تناقض؟»

أطلقت كل منا ضحكة وكان من الممكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ولكنني قلت مستأنفة حديثي: «تتحدثين عن التفرد، وما يعنيه ذلك لي حتى هذه اللحظة هو أن الفرد يرى المرحلة تلو الأخرى من مراحل حياته الماضية كأحد ملامح التجربة البشرية العامة، فحينما يكون بإمكانه أن يقول: إن ما فعلته حينذاك، وما شعرت به حينذاك، ليس إلا انعكاسًا للحلم البشري العظيم المتأصل في نفس كل منا منذ بدء الخليقة، أو انعكاسًا لقصة ملحمية أو لمرحلة من مراحل التاريخ، يكون عندها فردًا حرًّا، لأنه فصل نفسه تمامًا عن هذه التجربة، أو وجد لها مكانًا مناسبًا في التجربة البشرية، وكأنها قطعة من الفسيفساء تكمل لوحة قديمة قدم الزمن، وبوضعها وسط هذه اللوحة يعفي نفسه كفرد من أي ألم ربما تجره عليه هذه التجربة.»

تساءلت بصوت خافت: «الألم؟»

– نعم يا عزيزتي، فمرضاكِ لا يأتون إليكِ لأنهم يعانون سعادة مفرطة.

– لا، إنهم عادة يأتون إليَّ لأنهم يشكون مثلكِ من عجزهم عن الإحساس بأي شيء.

– نعم، ولكن ملكة الشعور تنبض الآن من جديد داخلي، فأنا فاتحة ذراعيَّ لأي شيء، ولكنكِ ما لبثتِ أن ساعدتني على الوصول إلى تلك الحالة، حتى سارعتِ وطلبتِ مني أن أضع كل هذا جانبًا، أن أضع الألم جانبًا حيث لا يمكن أن يجرحني،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أحوله إلى قصة أو ألقي به في جعبة التاريخ، ولكنني لا أريد أن أنحيه جانبًا، أنا أعلم ما تودين أن أقوله، وهو أنني أشعر أنني حرة وقوية لأنني تخلصت من كثير من آلامي الشخصية — هكذا يجب أن أسميها — لقد «عالجتها» وتقبلتها وحولتها من آلام تخصني وحدي إلى آلام عامة تنتاب جميع البشر. حسنًا أنا أوافق على ذلك وأقر به، ولكن ما الوضع الآن؟ تعبت من الذئاب والقلعة والغابات والقسيسين، أنا أستطيع أن أتعامل معهم بأية طريقة يختارونها، ولكنني أنا آنا فريمان أريد أن أمضي قدمًا وحدي.

تساءلت مرة أخرى: «وحدكِ؟»

– لأنني على يقين بأن هناك سمات وملامح بشخصيتي تشكلت بكاملها من خلال تجربة لم تعشها النساء من قبل ....

بدأت تلك الابتسامة الخفيفة ترتسم على وجهها، تلك الابتسامة التي «تدير» جلساتنا معًا وتوجهها، فنحن الآن ندخل مرة أخرى إلى ذلك الإطار الذي يجمع بيننا كمحللة نفسية ومريضتها.

– لا، لا ترسمي هذه الابتسامة على وجهكِ الآن. أنا على يقين من أنني أعيش حياة لم تعشها النساء من قبل.

– لم تعشها النساء من قبل قط؟

هكذا سألتني بتلك النبرة التي تحمل معها الأصوات والتي تستدعيها الأم شوجر في تلك اللحظات دائمًا، فمن وراء صوتها يأتي من بعيد صوت الأمواج وهي ترتطم بشواطئ طواها الزمن بين جنبات السنين والأيام، وأصوات أناس رحلوا منذ مئات السنين. كان بإمكانها أن تبعث داخلي تلك المشاعر التي تستدعي معها أزمنة بعيدة بابتسامة أو نبرة صوت يمكن أن تملآني بالسعادة، وتبعثا داخلي الطمأنينة، أو تغمراني بالفرحة، ولكنني لم أرغب في مثل هذه الأحاسيس في تلك اللحظة.

– لم تعشها النساء قط.

– قد تتغير التفاصيل، ولكن الإطار الذي يجمع هذه التفاصيل واحد.

أجبتها بلهجة يملؤها الإصرار: «لا.»

– كيف تختلفين عن الأخريات؟ هل تظنين أنه لم تعمل نساء بمجال الفن من قبل؟ لم تتمتع نساء بشخصية مستقلة؟ لم تصمم على المطالبة بالحرية الجنسية؟ اسمحي لي أن أقول لكِ إن صفًّا طويلًا من النساء العظيمات سبقنكِ في الماضي، عليكِ أن تبحثي عنهن، أن تفتشي عنهن داخلكِ، أن تسمعيهن بإدراككِ.

– إنهن لم ينظرن إلى أنفسهن كما أنظر إلى نفسي، لم تداخلهن تلك المشاعر التي تداخلني، لا تقولي لي إن الفزع الذي أشعر به حينما أستيقظ من حلم أرى فيه مدنًا تباد بسبب انفجار القنبلة النووية هو نفسه الفزع الذي كان الناس قديمًا يشعرون به حينما يرون سهمًا ينطلق من قوسه، فهذا لا يعقل. شيء جديد يحدث في هذا العالم. لا تقولي لي إن ما شعرت به بعد مقابلتي مع أحد عمالقة منتجي الأفلام السينمائية، تحت تصرفه قوة ونفوذ لم تتوافر لأي إمبراطور أو ملك تمكنه من السيطرة على عقول البشر، وعدت من تلك المقابلة وجسدي كله ينتفض، لا تقولي لي إن هذا هو نفسه ما شعرت به ليسبيا بعدما قابلت بائع الخمر. ولا تقولي لي عندما أحلم (وقلما يحدث ذلك) بحياة لا يملؤها الحقد والخوف والكراهية، حياة لا أركض في كل دقيقة منها ليلًا ونهارًا حتى أسبق الآخرين، لا تقولي لي إن هذا هو الحلم القديم بعصر ذهبي يعم فيه السلام والوئام يُبعث من جديد بَعثًا يتناسب مع عصرنا الحديث ....

سألتني وهي تبتسم: «أوليس الأمر كذلك؟»

– لا، لأن الحلم بعصر ذهبي أقوى من الحلم الذي يراودني ألف مرة، لأنه حلم يمكن أن يتحقق، مثلما يمكن أن يصبح الدمار الشامل حقيقة، ربما لأن الحالتين يمكن أن تتحققا.

– ماذا تودين أن أقول إذن؟

– أريد أن أصبح قادرة على أن أفصل بين ما هو قديم ومكرر في نفسي، بين التاريخ الذي يعيد نفسه، بين الخرافة، وما هو جديد، ما أشعر أنه جديد أو ما يخطر لي أنه جديد ....

رأيت تلك النظرة التي أعرفها جيدًا على وجهها، فقلت: «أنتِ تقولين إن كل ما أفكر فيه أو أشعر به ليس جديدًا؟»

– أنا لم أقل قط ....

هكذا بدأت حديثها، ثم تحولت من ضمير المفرد إلى ضمير الجمع، ضمير العظمة: «نحن لم نقل قط أو حتى نلمح إلى عدم وجود إمكانية لأن يخطو الجنس البشري تجاه مزيد من التطور والرقي، وأظن أنكِ لا تتهمينني بأنني قلت هذا، أليس كذلك؟ لأن هذا هو عكس ما نقوله.»

– أنا أتهمكِ بأنكِ تتصرفين كأنكِ تصدقين أنه ليس هناك احتمالية لهذا التطور. فمثلًا، إذا قلت لكِ في بداية هذه الجلسة إنني قابلت بالأمس رجلًا في إحدى الحفلات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورأيت فيه صورة الذئب أو الفارس أو الراهب، فستومئين برأسكِ وتبتسمين، وأنا وأنتِ كنا سنشعر بالفرحة، الفرحة التي تولدها القدرة على رؤية صورة ما والتعرف على ملامحها. ولكن لو قلت لكِ إنني قابلت رجلًا في إحدى الحفلات وفجأة ذكر هذا الرجل شيئًا وأنا فكرت في أن هناك دلالة وراء هذا الشيء الذي ذكره، فكرت في أن هناك شرخًا ما في شخصية هذا الرجل التي بدت لي مثل سد به صدع يمكن أن يتسرب من خلاله المستقبل تسربًا مختلفًا، تسربًا أبشع، أو ربما أروع، ولكنه شيء جديد ... إذا قلت ذلك فستقطبين جبينكِ.

سألتني بلهجة عملية يطل منها شغفها لمعرفة الإجابة: «وهل قابلتِ ذلك الرجل؟»

– لا، لم أقابله. ولكنني أحيانًا أقابل أناسًا ويبدو لي أن تلك الصدوع التي تتخلل نفوسهم ما هي إلا أبواب فُتحت ليمر من خلالها شيء ما.

قالت لي بعد تفكير طويل: «يجب ألّا تقولي لي مثل هذا الكلام يا آنا.»

اعترتني الدهشة وقلت لها: «هل أفهم من ذلك أنكِ تحثينني عن قصد على ألا أكون صادقة معكِ؟»

– لا، ما أعنيه هو أنه يجدر بكِ أن تعودي مرة أخرى إلى الكتابة.

بالطبع تملكني الغضب، وبالطبع كانت هي تعرف أنني سأغضب.

– هل تعنين أن أكتب عن تجربتنا معًا؟ كيف؟ إذا كتبت كل كلمة في الحوار الذي يدور بيننا على مدار ساعة كاملة، لن يفهم من سيقرأ هذه الكلمات شيئًا إلا إذا أرفقت بها قصة حياتي لتفسرها.

– وإذن؟

– سوف تسجل هذه الكلمات رؤيتي لنفسي في مرحلة معينة، لأن ما سأكتبه عن أول ساعة لنا معًا في أول أسبوع، على سبيل المثال، حول رؤيتي لكِ، وما سأكتبه عن تلك الساعة التي قضيناها معًا هذا الأسبوع سيكون مختلفًا للغاية لدرجة ....

– وإذن؟

– بالإضافة إلى أن هناك مشكلات أدبية، مشكلات تتعلق بالتذوق الأدبي، ويبدو أنكِ لم تضعيها قط في الاعتبار، فما فعلته أنا وأنتِ طوال هذه الفترة هو أننا كنا نحاول أن نكسر حاجز الخجل، ففي الأسبوع الأول من الجلسات لم أكن أستطيع أن أقول شيئًا مثل: أنا أذكر ذلك النفور الشديد والخجل اللذين داخلاني والفضول الذي تملكني حينما رأيت أبي وهو متجرد من ملابسه، فقد تطلب الأمر مني عدة أشهر حتى أتخطى الكثير من الحواجز داخلي حتى أقول شيئًا مثل هذا. ولكنني الآن

أستطيع أن أذكر لكِ مثلًا جملة مثل: ولأنني كنت أرغب في أن يموت أبي ... ولكن الشخص الذي يقرأ تلك الكلمات دون أن يمر هو شخصيًّا بهذه التجربة، تجربة تخطي الحواجز، سوف يصدمه ما يقرأ مثلما يصدمه منظر الدماء أو سماعه لأي كلمة تخدش الحياء، وهذه الصدمة سوف تبتلع معها أي شيء آخر تعكسه تلك الكلمات.

قالت الأم شوجر بلهجة ساخرة: «عزيزتي آنا هل تستخدمين تجربتنا معًا لتبرري لنفسكِ عدم العودة للكتابة؟»

– لا، ليس هذا هو ما أعنيه بالطبع.

– إذن هل تعنين أن هناك بعض الكتب لا يمكن أن يفهمها سوى قلة قليلة من الأشخاص؟

– أنتِ تعرفين جيدًا يا مادام ماركس أن الإقرار بفكرة مثل تلك حتى وإن خطرت لي يتعارض مع مبادئي.

– حسنًا، إن خطرت لكِ فأخبريني، لماذا لا يفهم بعض الكتب سوى قلة قليلة من الأشخاص؟

فكرت قليلًا ثم قلت لها: «أظن أن المسألة تتعلق بالشكل.»

– الشكل؟ وماذا عن المضمون، ماذا يعني لك؟ أنا أعرف أنكم يا معشر الكتاب تصرون على الفصل بين الشكل والمضمون؟

– ربما يفصل الكتاب الآخرون بينهما أما أنا فلا أفعل، على الأقل لم أفعل حتى هذه اللحظة. ولكنني أقول لكِ الآن إن المسألة تتعلق بالشكل، إن الناس لا ينزعجون من الرسائل التي تتنافى مع الآداب، لا ينزعجون من الأعمال الفنية التي تقول إن القتل شيء محمود، والوحشية أيضًا، وممارسة الجنس من أجل الشهوة فقط، سوف يعجبون بمثل هذه الأعمال ما دامت تلك الرسائل غير الأخلاقية التي توجهها تكون مغلفة بالعسل. وهم أيضًا سيعجبون بالأعمال التي تنتقد القتل والوحشية بوصفهما من الأفعال المشينة وتقول إن الحب يعلو على كل شيء. ما يأباه الناس حقًّا هو أن يقول لهم أحد إنه لا يوجد شيء له قيمة أو وزن في تلك الحياة، ولا يستطيعون أن يتقبلوا الأعمال التي تفتقر إلى بنية أو تركيب واضح ومحدد.

– إذن فأنتِ ترين أن الأعمال الفنية التي ليس لها أي بنية أو تركيب — إذا كان من الممكن أن تكون هناك أعمال فنية بلا بنية — لن يستطيع أن يفهمها سوى قلة قليلة من الأشخاص؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولكنني لا أؤمن بأن بعض الكتب لن يفهمها سوى القليل، وأنتِ تعرفين ذلك. أنا لا أرى أن الفن حكر على الصفوة.

– يا عزيزتي آنا، أنتِ ترين ذلك حتى إنكِ قررت ألا تكتبي، وحينما تفعلين تكتبين لنفسكِ فقط.

– وهكذا يفعل الآخرون جمعيًا. هكذا تمتمت لنفسي.

– أي آخرين؟

– الآخرون من كل بقاع العالم الذين يدونون خواطرهم وأفكارهم في أوراق سرية، لأنهم يخشون من تلك الخواطر والأفكار.

– إذن فأنت تخشين من خواطركِ وأفكاركِ؟»، هكذا قالت لي الأم شوجر وأمسكت بأجندة مواعيدها لتسجل نهاية جلستي معها التي استغرقت ساعة.

[هنا رُسم خط أسود ثقيل آخر بعرض الصفحة.]

حينما قدمت إلى هذه الشقة الجديدة ورتبت قطع الأثاث بغرفتي الكبيرة كان أول شيء قمت به هو أنني اشتريت تلك الطاولة ذات القوائم الخشبية ووضعت دفاترها فوقها، في حين أنني عندما كنت أسكن بشقة مولي كنت أضع الدفاتر في حقيبة سفر وأخزنها أسفل الفراش، أنا لم أخطط لشراء هذا العدد من الدفاتر، ولا أظن أنني قبل قدومي إلى هذا المسكن قلت لنفسي ولو مرة واحدة: أنا لدي أربع دفاتر، واحد أسود يحكي قصة آنا ولف الكاتبة، وآخر أحمر يُعنى بأمور السياسة، ودفتر أصفر أكتب فيه القصص التي تنبع من تجربتي، ودفتر أزرق هو أقرب إلى دفتر يومي أسجل فيه الأحداث التي تمر بي في كل يوم. عندما كنت أعيش بمنزل مولي لم أكن أفكر في هذه الدفاتر، ولم أكن أنظر حتمًا إلى الكتابة فيها على أنها واجب من واجباتي أو إحدى مهامي العملية.

إن الأشياء الهامة في حياتنا تظل تزحف في هدوء إلى السطح حتى تقفز أمامنا فجأة، فالمرء لا يتوقعها، لا يرى ملامحها بعقله، إنه يدرك وجودها عندما تظهر أمامه فقط.

لقد انتقلت إلى هذه الشقة لا لكي توجد مساحة تسمح لي باستقبال مايكل أو من سيخلفه من الرجال فقط، بل لكي يوجد أيضًا متسع للعمل في دفاتري، وأنا الآن أرى أن الهدف من انتقالي إلى هذا المسكن هو إفساح المجال أمام تلك الدفاتر،

فلم يكد يمر أسبوع على انتقالي إلى المسكن الجديد حتى ذهبت لشراء الطاولة ذات القوائم الخشبية ووضعت دفاتري فوقها، ثم قرأت ما كتبته بتلك الدفاتر، لم أقرأها من قبل من أولها إلى آخرها منذ أن بدأت أكتب فيها. أزعجني ما قرأت؛ أولًا لأنني لم أدرك أن تأثير التجربة التي عشتها حينما رفض مايكل أن يستمر في علاقته معي كان عظيمًا هكذا، لم أدرك كيف أنها غيرت — أو ربما هذا هو ما يبدو لي — ملامح شخصيتي بالكامل، ولكن السبب الأهم لهذا الانزعاج هو أنني لم أستطع أن أرى نفسي من بين الأحرف والكلمات، فحينما قارنت كل الأحداث والخواطر التي دونتها بما أتذكره أنا عن تلك الأحداث والخواطر بدا كل ما كتبته زائفًا؛ إن ذلك الزيف الذي يطل برأسه من بين الكلمات التي كتبتها سببه شيء لم يخطر لي من قبل ... ذلك الجدب الذي أعانيه، ذلك الخواء الذي يسكن داخلي.

حينها قررت أن أستخدم هذا الدفتر الأزرق كسجل للوقائع ليس إلا، كنت أجلس كل مساء على مقعد البيانو وأكتب ما مر بي خلال اليوم كأنني أنا آنا أنسخ صورة من نفسي وأثبتها على الورق، كل يوم كنت أرسم آنا على الورق وأقول: استيقظت اليوم في السابعة، وأعددت الإفطار لجانيت وجلست معها حتى غادرت إلى مدرستها ... إلخ إلخ، شعرت حينها أنني هكذا أنقذ ذلك اليوم الذي دونت وقائعه من السقوط في دوامة الفوضى والتشتت والضياع. ولكنني الآن حينما أقرأ ما دونته لا تحرك الكلمات بداخلي أي شعور. أنا أعاني أكثر وأكثر حينما أدخل في تلك الدوامة، حينما تفقد الكلمات مغزاها، وتصبح الكلمات بلا معنى، فحينما أعمل عقلي، لا أرى هذه الكلمات مرآة تعكس صورة التجربة وتجسدها، بل أراها مجموعة من الأصوات لا معنى لها، مثل تلك التي يصدرها طفل رضيع، بعيدة كل البعد عن التجربة التي من المفترض أن تعكسها، مثلها مثل موسيقى تصويرية تعرض في خلفية فيلم ما من دون أن يكون لها أي ارتباط بأحداث هذا الفيلم. عندما أفكر في أن كل ما يجدر بي أن أكتبه هو عبارة مثل «سرت في الطريق» أو أن كل ما يجب أن أفعله أن أستعير عبارة من إحدى الجرائد عن اتخاذ بعض «الإجراءات الاقتصادية التي ستكفل الاستفادة الكاملة من عملية أو ميزة ما» وتذوب الكلمات على الفور من أمامي ويبدأ عقلي يستدعي صورًا أخرى ليس لها أي علاقة بتلك الكلمات، حتى تبدو كل كلمة أقرؤها أو أسمعها مثل قارب صغير تتقاذفه الأمواج وهو عائم على سطح بحر من الصور التي يستعديها عقلي، أقرر أنني لن أستطيع أن أستمر في الكتابة، إلا إذا دونت ما يخطر لي دون أن أتوقف وألقي نظرة على ما كتبته، لأنني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إذا قرأت تلك الكلمات التي أخطها فسوف أرى الكلمات أمامي تفقد معناها وتهيم في الفضاء مثل ذرات تغرق ببحر من الصور التي لا تمت لها بصلة، ولن أرى شيئًا سوى آنا وهي تبدو مثل نقطة من الضوء في بحر من الظلام الدامس، أما تلك الكلمات التي تكتبها آنا فهي لا شيء، أو هي مثل تلك الخيوط اللزجة التي تفرزها يرقة دودة القز وتلفها حول نفسها فيجففها الهواء.

يبدو لي أن ما يحدث هو أنني أنا، آنا، أسقط وأتهاوى، هكذا أبدأ أعي هذا الأمر، فالكلمات هي الشكل الذي يتجسد من خلاله المضمون، وبما أنني أمر بمنحدر ينعدم فيه الشكل والهيئة والتعبير، فأنا إذن لا شيء، فقد اتضح لي من قراءتي للدفاتر أنني حافظت على أن أظل آنا من خلال نوع معين من الذكاء، وأنا الآن أشعر بالخوف الشديد لأن هذا الذكاء يذوب ويتلاشى.

في الليلة الماضية راودني مرة أخرى حلم حكيت عنه للأم شوجر، قلت لها إن هذا الحلم يثير في نفسي الرعب أكثر من أي حلم آخر من سلسلة الأحلام التي تراودني، وعندما طلبت مني أن «أعطيه اسمًا» (أي أعطيه شكلًا)، قلت لها إنه كابوس عن نزعة التدمير. فيما بعد رأيت هذا الحلم في منامي مرة أخرى وعندما طلبت مني الأم شوجر أن «أعطيه اسمًا» استطعت أن أصفه وصفًا أدق، قلت لها إنه كابوس يمثل جوهر الحقد والضغينة ... تلك المتعة التي يجدها إنسان في أن يحقد على آخر.

عندما رأيت هذا الحلم أول مرة كان جوهر الحقد — أو الشكل الذي تمثل فيه الحقد — زهرية أقتنيها، زهرية خشبية من ريف روسيا، أحضرها شخص ما معه وهو عائد من هناك، شكلها بسيط وجميل، مستديرة من الأسفل ومزينة ببعض الأشكال البدائية ذات الألوان الأحمر والأسود والذهبي. بدت لي هذه الزهرية في منامي ذاتًا لها وجود، ووجودها هو منبع الرعب في هذا الكابوس، فهي تمثل شيئًا فوضويًا بلا رابط، شيئًا مدمرًا. كان ذلك الكيان، أو لنقل ذلك الشيء — فهو لم يكن ذا وجود بشري ولكن بدا مثل جني صغير ماكر — يرقص ويقفز في الهواء في سرعة وهو ممتلئ بالزهو ومفعم بالحيوية، مهددًا بأن يقذف بنفسه تجاهي وتجاه كل ما هو حي ليصدمه، لم يهدد شخصًا معينًا، لكنه يقفز في أي اتجاه بلا أي منطق؛ هذا هو المنام الذي «سميته» حلمًا عن نزعة التدمير. بعد أشهر عدة رأيت منامًا آخر، وعلى الفور أدركت أنه هو الحلم نفسه، ولكن جوهر أو عنصر الحقد تجسد هذه المرة في صورة رجل كبير قصير يكاد يكون قزمًا، يثير شكله الرعب

أكثر بكثير من تلك الزهرية، لأنها جماد وهو كائن حي أقرب إلى البشر. رأيت هذا الرجل في منامي يبتسم ويقهقه ويطلق ضحكات مكتومة، كان قبيحًا ولكنه مع ذلك قوي وممتلئ بالحيوية والنشاط، وهو أيضًا انعكاس للحقد والضغينة الخالصين، للمتعة التي يجدها شخص في أن يحقد على الآخرين، اللذة التي يستقيها المرء من تلك النزعة التدميرية بداخله. هذا هو الحلم الذي «سميته» حلمًا عن التلذذ بالحقد، ظل ذلك الحلم يراودني، خاصة حينما أكون مجهدة أو متوترة أو أعيش حالة من الصراع، حينما أشعر أن الركائز التي تستند عليها نفسي باتت واهنة أو أن خطرًا يحدق بها. كان جوهر الحقد يتمثل في أشكال عدة، ولكنه في أغلب الأحيان ما كان يأتي في صورة رجل أو امرأة طاعنين في السن (ولكنني كنت أشعر أن الشخص الذي يتمثل فيه عنصر الحقد شخص مخنث، أو حتى بلا جنس، فلا هو رجل ولا امرأة.) ودائمًا تملأ الحيوية هذا الشخص، مع أن هذا الشخص دائمًا مشوه على نحو ما؛ أحيانًا يكون أحدب أو لديه ساق خشبية أو يمشي على عكاز. ودائمًا هذا الكائن قوي وممتلئ بالعزم والهمة التي يحركهما الحقد الذي يملأ نفسه، هذا الحقد العشوائي الذي لا توجد له مبررات ولا أغراض محددة، وهو غير موجه لأشخاص معينين، هذا الكائن يؤذي الآخرين دائمًا، يسخر منهم ويهينهم ويتمنى لهم الموت والقتل. ومع ذلك هو سعيد ومتلذذ دائمًا. عندما قصصت على الأم شوجر هذا الحلم، الذي رأيته أكثر من ست أو سبع مرات كل مرة على نحو مختلف، سألتني سؤالها المعهود: «ما الاسم الذي ستعطيه لهذا الحلم؟» أجبتها كعادتي بكلمات مثل الحقد والضغينة والتلذذ بإيذاء الغير، فسألتني: «أكلها صفات سلبية، ألا يوجد أي شيء إيجابي في هذا الحلم؟» أدهشني سؤالها وأجبتها: «لا، لا يوجد أي شيء إيجابي.»

– ألا ترين أن هناك شيئًا إبداعيًّا في هذا الحلم؟

– ليس هناك أي شيء إبداعي فيما أرى.

ابتسمت كأنها تود أن تقول إنني يجب أن أفكر أكثر في هذا الأمر، سألتها: «إذا كان هذا الكائن الذي أراه هو تجسيد لقوة الإبداع الأساسية التي تحرك الشر وتحرك الخير أيضًا، فلماذا أخشاه إلى هذا الحد؟»

– ربما ستشعرين بأن تلك الهمة التي تملأ هذا الكائن موجهة للشر والخير أيضًا، عندما تستغرقين أكثر في هذا الحلم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إنه يمثل خطرًا عليَّ، فأنا ما أكاد أستشعر هذه الحالة وهذه الأجواء التي تحيط بهذا الكائن، حتى من قبل أن يظهر، وأعرف أن الحلم سيبدأ، حتى أبدأ في الصراخ وأظل أصارع حتى أستيقظ من النوم.

– ما دمت تخشينه فسيظل خطرًا عليك ....

هكذا قالت لي مؤكدة على كلامها بإيماءة تطل منها مشاعر الود والحنان كأنها أم تحدث ابنتها، هذه الإيماءة دائمًا تجعلني أضحك مهما أغرقتني المشاكل والأحزان، أطلقت بالفعل ضحكة وأنا أجلس في مقعدي مغلوبة على أمري، والأم شوجر تبتسم، قالت لي ما يقوله الناس عادة عن كيفية التعامل مع الحيوانات: إنها لن تؤذينا إذا لم نخف منها.

خطرت لي تلك الفكرة المعهودة التي دائمًا تجول بخاطري وهي إذا كان هذا الكائن أو العنصر يتكرر وجوده في خيالات مرضاها وأحلامهم لدرجة جعلته مألوفًا لها وجعلتها قادرة على أن تتعرف عليه على الفور في حكايات مرضاها، فلماذا أكون أنا المسئولة عن أن هذا الشيء تجسيد خالص للشر فقط وليس لأي شيء آخر؟ غير أن كلمة الشر تعد وصفًا بشريًّا للغاية لخصلة يستشعر المرء أنها ليست إنسانية بالأساس على الرغم من أنها تتمثل في شخوص يبدو عليهم أنهم أنصاف بشر.

أو بمعنى آخر، هل أنا من يستطيع أن يجبر هذا الشيء على أن يجمع بين نوازع الخير والشر معاً؟ أهذا هو ما تريد أن تقوله؟

في الليلة الماضية راودني هذا الحلم مرة أخرى، ولكن الفزع الذي انتابني هذه المرة كان أقوى وأشد من أي شعور بالخوف انتابني من قبل، لأنني شعرت بالرعب والعجز في مواجهة هذه القوة التدميرية التي لا يستطيع شيء أن يوقفها أو يتحكم فيها من دون أن يكون هناك أي شيء أو جماد أو حتى قزم يجسد هذه القوة. رأيت نفسي في هذا الحلم برفقة شخص آخر، لم أستطع في البداية أن أتعرف إليه، ولكنني أدركت فيما بعد أن هذه القوة الخبيثة المفزعة تكمن داخل هذا الشخص الذي هو واحد من أصدقائي، فبدأت أصرخ لكي أجبر نفسي على أن أفيق من هذا الحلم، وعندما استيقظت أعطيت هذا الشخص الذي كان معي في الحلم اسمًا، وأدركت أن هذه هي أول مرة تتمثل لي هذه الخصلة على هيئة إنسان. وازداد فزعي حينما تذكرت من يكون هذا الشخص، فتَمَثُّل هذه القوة الرهيبة والمفزعة في أي صورة مستقاة من الأساطير أو السحر هو أهون بكثير من أن تكون حرة طليقة تتحرك

دون أي قيود بداخل واحد من البشر، واحد يملك من القوة ما يمكنه من أن يؤثر فيَّ ويحركني.

عندما استيقظت تمامًا، وتأملت هذا الحلم وأنا واعية، أفزعني خروج جوهر الحقد والضغينة والرغبة في التدمير من إطار الأسطورة وتمكنه من التسلل إلى داخل واحد من البشر، فهذا يعني أن تلك النزعة ربما تكون كامنة داخلي، لا يحكمها أي شيء، ومن السهل جدًّا استدعاؤها.

يجدر بي أن أكتب الآن حول تلك التجربة المرتبطة بهذا الحلم.

[رسمت آنا خطًّا أسود ثقيلًا بعرض الصفحة ثم كتبت هذه الكلمات:]

رسمت هذا الخط، لأنني لا أريد أن أكتب عن هذه التجربة، كأن الكتابة عنها ستقربني أكثر من الخطر المحدق بي، لكن هناك شيئًا يجب أن أمسك به سريعًا قبل أن يتسرب من بين يديَّ وهو أن آنا، آنا المفكرة، يمكن أن تتأمل المشاعر التي تختلج بنفس آنا وتعرفها بتحديد «اسم» لها.

إن ما يحدث هو شيء لم أعهده من قبل في حياتي، أنا أظن أن الكثير من الأشخاص يمتلكون قدرًا من الوعي بطبائع حياتهم وبكيفية تطورها، هذا الوعي يجعلهم قادرين على أن يقرروا مثلًا أنه من المهم لهم أن يعرفوا شخصًا بعينه لإدراكهم أن علاقتهم به ستكون بداية لشيء جديد لم يعيشوه من قبل، أو يجعلهم يدركون عندما ينتابهم شعور معين لأول مرة أن هذا الشعور ليس غريبًا عليهم مثلما يظنون وأنه أصبح جزءًا منهم وعليهم أن يتعاملوا معه.

عندما أتأمل ما مضى من حياتي أستطيع في سهولة تامة أن أحدد ملامح شخصية آنا خلال فترة بعينها من حياتها، وأستطيع أن أذكر ما أصبحت عليه تلك الملامح بعد مرور خمس سنوات على تلك الفترة، بإمكاننا أن نجمع كل ما مر خلال عام أو عامين أو خمسة أعوام من حياة شخص معين ونغلفها بغلاف واحد أو بمعنى آخر نعطيها «اسمًا»، بإمكان ذلك الشخص أن يحدد ما كان عليه خلال مرحلة معينة من حياته. أنا الآن في منتصف هذه المرحلة وحينما تنتهي سأنظر إليها ببساطة وأقول: نعم، هذا ما كنت عليه، امرأة هشة للغاية، تتصيد الأخطاء لمن حولها، تستخدم طبيعتها كأنثى معيارًا لكي تُقَيِّم علاقاتها من الرجال وتقرر أنها علاقات يجب أن تنتهي ... نعم، سوف أقول إنني كنت أنا، آنا، أغري الرجال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأن ييأسوا من الاستمرار في علاقاتهم معي حتى دون أن أدرك أن هذا هو ما أقوم به. (ولكنني أدرك ذلك الآن، وإدراكي لما يحدث يعني أنني يجب أن أنسى هذا كله وأصبح ... ولكن ماذا سأصبح؟) لقد عَلِقْتُ بتلك العاطفة التي تعلق بها الكثير من النساء في هذا الزمان، والتي تضفي عليهن نوعًا من الغلظة أو تخلق داخلهن ميلًا إلى العزلة وتجعلهن زاهدات في الدخول في أي علاقات مع الرجال. نعم، كانت آنا تلك في هذه الفترة ....

[خط أسود آخر رُسم بعرض الصفحة.]

منذ ثلاثة أسابيع ذهبت إلى أحد الاجتماعات السياسية، كان اجتماعًا غير رسمي منعقدًا بمنزل مولي، فقد ذهب الرفيق هاري، وهو واحد من الأكاديميين المرموقين بالحزب الشيوعي، إلى روسيا قبل أيام ليكتشف بوصفه يهوديًّا ماذا حدث لليهود في «الأعوام السوداء» التي سبقت وفاة ستالين. قاوم هاري المسئولين عن إدارة الحزب الذين اعترضوا على فكرة سفره من الأساس وحاولوا أن يمنعوه، فهددهم بأنه سيكشف عن الحقيقة أمام الرأي العام إذا لم يسمحوا له بالسفر، وإذا لم يساعدوه. سافر هاري وعاد وقد توصل إلى معلومات مفزعة لم يكن المسئولون يريدون أن يعلنوا عن أي منها. كان رأيه — وهو الرأي الذي كان يؤمن به معظم «المفكرين» في هذا الوقت — أن الحزب الشيوعي يجدر به أن يوضح ويعترف ولو مرة واحدة بما يعرف الجميع أنه حقيقي. أما حجتهم — فهي الحجة التقليدية نفسها التي تفرضها البيروقراطية الشيوعية — أن الحزب يجب أن يبقي على مساندته للاتحاد السوفييتي بأي ثمن، وهذا يعني الإقرار بصحة أقل قدر ممكن من هذه المعلومات. وافق الحزب على إصدار تقرير مختصر دون ذكر أي من المعلومات الأكثر بشاعة التي توصل إليها هاري، ولذلك بدأ هاري منذ فترة في إجراء اجتماعات تضم الشيوعيين الحاليين والسابقين يتحدث خلالها عما عرفه عندما ذهب إلى روسيا، أغضب ذلك إدارة الحزب للغاية فهددته بالطرد من الحزب وأي عضو يحضر هذه الاجتماعات؛ سوف يستقيل هاري من الحزب.

في غرفة المعيشة بمنزل مولي تجمع نحو أربعين شخصًا أو أكثر قليلًا، جميعهم من «المفكرين». كانت المعلومات التي أخبرنا بها هاري بشعة، ولكنها لم تكن أكثر بشاعة عن كثير مما قرأناه في الجرائد، لفت انتباهي رجل جالس بجانبي يستمع في

هدوء، أعجبني حفاظه على هدوئه في اجتماع مشحون بالانفعالات العاطفية. تبادلنا الابتسامات الساخرة التي تطل منها المرارة والتي أصبحت سمة مميزة لأمثالنا. انتهى الاجتماع الرسمي وانصرف الحاضرون فيما عدا عشرة أشخاص، بدأت أدرك من الجو العام المحيط بنا أن هناك «اجتماعًا مغلقًا» سيبدأ وسيُكشف فيه عن المزيد من المعلومات، كان من المفترض أن يغادر من هم خارج الحزب الشيوعي، ولكن، بعد فترة من التردد سمح لنا هاري والآخرون بالبقاء. تحدث هاري مرة أخرى، كان ما قاله في المرة الأولى بشعًا، ولكن ما سمعناه هذه المرة كان أبشع حتى مما تنشره أكثر الصحف المعادية للشيوعية ضراوة، فلم تتح أمام الصحفيين العاملين بتلك الصحف الفرصة للتوصل إلى وقائع حقيقية مثل التي توصل إليها هاري، فقد حكى لنا عن وقائع التعذيب والضرب المبرح وأبشع طرق الاغتيال، حكى لنا عن وقائع احتجاز اليهود في أقفاص صُمِّمَت في العصور الوسطى بغرض التعذيب، وروى لنا كيف كان يتم تعذيب اليهود بأدوات استجلبت من المتاحف، وقص لنا الكثير والكثير من الوقائع الأخرى.

إن ما قاله هاري في هذا الاجتماع كان يحمل مستوى آخر من الترهيب والفزع يختلف تمامًا عن درجة البشاعة التي كان عليها ما قاله في الاجتماع الأول الذي حضره أربعون شخصًا. عندما انتهى هاري من حديثه طرحنا عليه مجموعة من الأسئلة، وكل إجابة تكشف عن حقيقة جديدة بشعة. ما كان يحدث هو شيء عرفناه جيدًا من خلال تجاربنا، كنا نرى أمامنا واحدًا من كوادر الحزب الشيوعي عقد العزم على أن يكون صادقًا، ولكنه مع ذلك يحاول بكل ما أوتي من قوة ألا يعترف بحقيقة الاتحاد السوفييتي كاملة. عندما أنهى هاري حديثه وجدنا ذلك الرجل الهادئ، الذي عرفت أنه أمريكي يدعى نيلسون، يبادر على الفور بالحديث. ألقى على مسامعنا كلمة حماسية، كانت الكلمات تنساب من بين شفتيه دون أن يتلعثم أو يبدو عليه التردد، يجيد الحديث ويبدو أن لديه تجارب سياسية واسعة، كان صوته قويًّا وبدا متمرسًا على إلقاء الخطب، ولكنه تحدث في تلك اللحظة بنبرة توجيه الاتهامات، قال إن السبب في أن الأحزاب الشيوعية في الغرب انهارت أو في طريقها إلى الانهيار هو عجزها عن إعلان أي حقيقة بخصوص أي أمر من الأمور، وأنها من كثرة ما اعتادت على إذاعة الأكاذيب على العالم لم تعد هي نفسها قادرة على تمييز الحقيقة ومعرفتها، ولكننا الليلة وبعد انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي وبعد أن تكشفت لنا أحوال الفكر الشيوعي، نرى أحد رفقائنا البارزين الذي نعرف جميعًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنه وقف ضد من هم أقوى منه داخل الحزب من أجل الحقيقة، نراه الآن يعمد إلى تقسيم الحقيقة إلى جزأين، جزء يحمل الحقيقة بصورتها مخففة الهينة يُعلن عنه في اجتماع عام حضره أربعون شخصًا، وجزء آخر يمثل حقائق أبشع تُعرض في اجتماع مغلق أمام مجموعة محددة. استاء هاري وبدت عليه علامات الإحراج، فنحن لم نكن نعلم حينذاك أن المسئولين الكبار في الحزب يهددونه بأنهم سيجعلونه يصمت للأبد. رد عليه هاري إن الحقيقة بشعة للغاية ولذلك يجب أن تعرض على أقل عدد ممكن من الأشخاص. تعلل، باختصار، بالحجج نفسها التي كان يهاجم المسئولين البيروقراطيين بسببها.

ولكن نيلسون نهض فجأة من مكانه مرة أخرى وبدأ يتحدث بنبرة أكثر عنفًا مدينًا نفسه ومعنفًا إياها لأنه كان جزءًا من ذلك الحزب الفاسد. كان يتحدث على نحو هستيري، وبدأت تلك المشاعر الهستيرية تسيطر على الجميع ... حتى إنني شعرت بتلك المشاعر تتصاعد داخلي، أحسست أن الجو العام المحيط بنا هو واحد من أجواء «الحلم الذي تتمثل فيه نزعة التدمير» إنه ذلك الشعور الذي يملأ الأجواء قبل أن يظهر ذلك الكائن الذي يجسد نزعة التدمير، نهضت من مكاني وشكرت هاري ... فقد مر عامان على استقالتي من الحزب ولا يحق لي أن أحضر الاجتماع المغلق. هبطت السلم ووجدت مولي بالمطبخ تبكي، قالت لي: «إن الأمر لا يعني الكثير لكِ، فأنتِ لستِ يهودية.»

في الطريق التقيت بنيلسون الذي غادر بعدي. قال إنه سيصطحبني إلى المنزل، عاد إلى هدوئه مرة أخرى، فنسيت أسلوب تقريع الذات وجلدها الذي سيطر على كلمته التي ألقاها بالاجتماع. إنه أمريكي يهودي حسن المظهر في الأربعين من عمره تقريبًا، شخصيته أشبه بشخصية رب الأسرة، عرفت أنني انجذبت له و....

[خط أسود ثقيل آخر رُسم بعرض الصفحة وكُتبت تحته تلك الكلمات:]

أنا لا أريد أن أكتب عن هذا الأمر، فأنا أدخل في صراع طويل مع نفسي قبل أن أمسك القلم وأكتب عن العلاقات الجنسية، فهناك حاجز منيع يقف بيني وبين هذا الأمر وليس من السهل تخطيه.

أنا أعقد الأمور أكثر من اللازم، وأحمل هذا الاجتماع أكثر مما يحتمل، ولكن لولا تلك التجربة المتماثلة التي عشتها أنا ونيلسون — حتى وإن عايشها كل منا في

بلد مختلف — لما تفاعلنا بهذا الشكل. في أول مساء قضيناه معًا ظل نيلسون معي مدة طويلة وغادر في وقت متأخر. ظل نيلسون يتودد إليَّ، فقد تحدث عني وعن طبيعة الحياة التي عشتها، دائمًا تستجيب المرأة على الفور إلى الرجل الذي ترى أن هناك خطًّا مشتركًا بينهما، فيمكنني أن أقول إنهم يعرفوننا، يعطوننا «اسمًا» ونحن نشعر بالأمان ونحن معهم. صعد إلى غرفة جانيت ليراها، كانت نائمة، لم يكن اهتمامه بها مصطنعًا. نيلسون متزوج منذ سبعة عشر عامًا ولديه ثلاثة أطفال، كان زواجه نتيجة مباشرة للحرب التي خاضها في أسبانيا، في هذا المساء، ساد لقاءنا الجدية والمسئولية والنضوج. النضوج، خطرت لي هذه الكلمة بعدما غادر نيلسون، ووجدتني أقارنه بالرجال الآخرين الذي قابلتهم حديثًا (لا أعرف لماذا؟) الرجال الأطفال. ارتفعت معنوياتي ارتفاعًا شديدًا حتى إنني بدأت أشعر بالقلق، مرة أخرى أتساءل كيف كان من السهل عليَّ أن أنسى، وأنا أحيا حياة الحرمان، الحب والسعادة والفرحة. طوال هذين العامين كنت أخرج من تجربة عاطفية فاشلة لأدخل في تجربة أخرى تصيبني بالإحباط، فدائمًا أُقابَل بالتجاهل من الطرف الآخر، ولذلك أحطت مشاعري بسياج منيع وصرت أتصرف مع الرجال في حيطة وتحفظ، لكنني نسيت هذا كله بعد أول أمسية قضاها معي نيلسون. في اليوم التالي أتى نيلسون لزيارتي، وكانت جانيت على وشك أن تغادر للذهاب إلى اللعب مع أصدقائها، ألفت نيلسون وألفها منذ اللحظة الأولى. لم يكن نيلسون يتحدث عن نفسه كرجل يمكن أن يصبح خليلًا لي فقط، قال إنه سينفصل عن زوجته وإنه بحاجة إلى ارتباط حقيقي يجمعه بامرأة أخرى. قال إنه سيأتي إليَّ هذا المساء «بعد أن تنام جانيت» أعجبني قوله إنه سيأتي «بعد أن تنام جانيت» فالقول يعكس فهمه لطبيعة الحياة التي أعيشها. جاء متأخرًا هذا المساء، حالته المزاجية مختلفة تمامًا عن تلك الحالة التي كان عليها بالأمس، أخذ يثرثر ويتكلم طوال الوقت كأنه لا يستطيع أن يتوقف، جعل يجول بنظراته في أرجاء المكان ويحول عينيه سريعًا من شيء إلى شيء دون أن ينظر إليَّ أو تلتقي أعيننا، شعرت بإحباط شديد وتملكني شعور مفاجئ بالقلق والتوتر جعلني أدرك بحواسي، قبل أن أدرك بعقلي، أن هذه العلاقة ستضيف حلقة أخرى إلى سلسلة العلاقات العاطفية الفاشلة. تحدث عن أسبانيا وعن الحرب، تحدث بنبرة هستيرية مثل تلك التي كان يتكلم بها أثناء الاجتماع مُدينًا نفسه ومؤنبًا لها لأنه كان جزءًا من سلسلة الاغتيالات الغادرة التي قام بها الحزب الشيوعي، قال إن عددًا من الأشخاص الأبرياء اغتيلوا عن طريقه، ولكنه لم يصدق في ذلك الوقت أنهم أبرياء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(ولكن هذا الشعور ظل يتردد داخلي وأنا أسمعه: إنه لا يشعر حقًّا بالأسف، فتلك النبرة الهستيرية وذلك الصياح وهذه الجلبة ليست إلا غطاء يصد به هجمات الشعور الحقيقي بالذنب وبعذاب الضمير، لأن مثل هذا الشعور سيكون بشعًا للغاية ولن يستطيع أن يتحمله.) في بعض اللحظات كانت نبرته تتحول إلى نبرة فكاهية للغاية وهو يسخر من ذاته وينتقدها انتقادًا لاذعًا على هذا النحو الأمريكي الهزلي المعهود. عندما انتصف الليل غادر نيلسون المنزل، أو بالأحرى تسلل خارجًا منه وهو لا يزال يتحدث بأعلى صوته وعلامات الشعور بالندم ترتسم على وجهه، أو يمكنني أن أقول إنه يحاول أن يحيط نفسه من الخارج بأجواء الندم والشعور بالذنب حتى يقطع الطريق على أي شعور حقيقي بالذنب أو بالندم. بدأت أفكر في علاقته بزوجته، وصدق ظني؛ أتى نيلسون مرة أخرى في الصباح دون موعد، لم يبد لي على الإطلاق هذا الرجل الهستيري الذي يتحدث بنبرة جهورية، ولكنه ذلك الرجل صاحب الشخصية الجادة والمسئولة الذي يتمتع بخفة الظل، التقينا في الفراش وعرفت حينها من أين جاء الخلل. سألته هل يضاجع النساء دائمًا على هذا النحو، فارتبك ارتباكًا شديدًا حتى إنه حاول أن يتظاهر بأنه لا يفهم ما أعنيه مع أنني كنت أتحدث في صراحة ووضوح (وقد جعلني هذا أدرك طبيعة علاقاته الجنسية أكثر من أي شيء آخر). ثم قال لي إنه يرتعب من الجنس ارتعابًا شديدًا، حتى إنه لا يستطيع أن يضاجع أي امرأة لأكثر من ثوانٍ قليلة، ولم يحدث في يوم من الأيام أنه استطاع أن يتغلب على هذا الأمر. استطعت أن أتبين من تلك الحركة السريعة التي ابتعد بها نيلسون عني كأن هناك شيئًا ينفره مني، ومن إسراعه في ارتداء ملابسه كيف أن هذا الخوف متأصل في نفسه إلى حد بعيد. أخبرني أنه بدأ بجلسات علاج نفسي ويتوقع أن «يُشفى» قريبًا. (كتمت ضحكتي عندما نطق نيلسون بكلمة «يُشفى» فدائمًا يتحدث الناس عن العلاج النفسي مستخدمين هذه الكلمات التي ترتبط بعلاج الأمراض العضوية كأنهم يرون من يخضع للعلاج النفسي مثل المريض الذي يقبل في النهاية بالخضوع لعملية جراحية خطيرة من شأنها أن تغيره تمامًا.) تغيرت فيما بعد طبيعة العلاقة بيننا، فأصبحت علاقة مبنية على الصداقة والثقة، وبسبب هذه الثقة سوف تستمر لقاءاتنا.

لقد مضت عدة أشهر ونحن لا نزال نلتقي، ولكن ما يرعبني في هذه اللحظة هذا السؤال: لماذا مضيت قدمًا في ذلك الأمر؟ لم أضحك على نفسي وأقل إنني أستطيع أن أعالج هذا الرجل، فقد مررت من قبل بعلاقات مع الكثير من الرجال الذين يعانون مشاكل جنسية، ولم أستطع أن أحل هذه المشاكل. ولن أقول إن الشفقة هي ما حداني

إلى الاستمرار في هذه العلاقة، وإن شعرت تجاهه ببعض العطف، دائمًا تدهشني قوة هذه الرغبة التي تجيش داخلي وداخل الأخريات في أن نكون نحن عون الرجال. وإنه لمن دواعي السخرية أن تجيش داخلنا رغبة كتلك الرغبة ونحن نعيش في زمن يتهمنا فيه الرجال بأننا نحن «السبب في مشاكلهم الجنسية» سواء استخدموا ذلك الوصف أو أي لفظ أو عبارة أخرى يحملان هذا المعنى نفسه. (يغضبني قول نيلسون إن زوجته هي «السبب في مشكلته» أو وصفها بأي وصف آخر يعبر عن هذا المعني، وأرى أن هذه المرأة لا بد أنها عانت من هذا الوضع كثيرًا.) الحقيقة هي أن احتياج النساء إلى بناء الرجل بوصفه رجلًا هو احتياج فطري متأصل في نفوسهن، مولي، على سبيل المثال، هي واحدة من هؤلاء النساء. وأنا أظن أن ما يحرك هذا الاحتياج هو أن الرجال الحقيقيين يتناقصون يومًا بعد يوم، لذلك يتملكنا الرعب ونحاول أن نخلق رجالًا.

إن ما يثير الرعب في نفسي هو ذلك الانصياع الذي تسميه الأم شوجر «الوجه السلبي» لاحتياج المرأة لأن تلين، احتياجها لأن تخضع. أنا الآن لست آنا، فأنا مسلوبة الإرادة لا أستطيع أن أخرج نفسي من حدث ما بعد أن يبدأ، ولكنني أمضي مع ذلك الحدث وحسب.

بعد أسبوع من لقائي الأول مع نيلسون بالفراش، وجدت نفسي في موقف لا أستطيع أن أسيطر عليه، فقد اختفى نيلسون الرجل، ذلك الشخص الرزين المسئول، لم يعد بإمكاني حتى أن أتذكره، حتى كلماته، لغة المسئولية العاطفية التي كان يتحدثها اختفت. أضحى شخصًا تحركه هستيريا قهرية حادة أصابتني أنا الأخرى. التقينا مرة أخرى في الفراش، كنت في الفراش بصحبة رجل يتحدث بنبرة ممتلئة بالسخرية اللاذعة مدينًا نفسه وقد تحول خطابه في الحال إلى رغبة هستيرية في إيذاء كل النساء، بعدها اختفى نيلسون من حياتي أسبوعين تقريبًا، كنت أعاني خلالهما أقصى حالات التوتر والاكتئاب، بت أنا أيضًا أعاني حالة الفتور الجنسي. كنت أنظر أمامي فأرى من بعيد آنا التي تنتمي إلى عالم طبيعي مفعم بالدفء، كان بإمكاني أن أراها، ولكنني لم أستطع أن أتذكر كيف كان شكل الحياة التي كانت آنا تلك تحياها. اتصل بي نيلسون مرتين معتذرًا، وأعذاره جارحة للغاية، فلم يكن هناك أي داعٍ لأن يقدم هذه الأعذار ... فهي أعذار تقدم «لامرأة» «للنساء» «للعدو» وليس لآنا، عندما يكون نيلسون في حالة نفسية ومزاجية جيدة، لا يستطيع أن يتصرف بهذا الأسلوب الذي يخلو من اللياقة والذوق، لقد حفظته في ذاكرتي على أنه خليل، ولكنني أنوي أن أستمر في علاقاتي معه بوصفه صديقًا فقط ... هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيء مشترك بيننا، هذه العلاقة القائمة على نوع من معرفة الذات، من اليأس. ذات مساء قدم نيلسون إلى زيارتي دون موعد، قدم إليَّ بشخصيته الأخرى، شخصيته «السوية» جلست أستمع إليه، فلم أستطع أن أتذكر كيف كان يتصرف عندما كانت تحكمه النوازع الهستيرية. جلست بمقعدي ونظرت إليه كما أنظر إلى آنا السوية والسعيدة ... إنه مثل آنا، بعيد المنال يتحرك خلف حائط زجاجي. أنا أعرف ماذا يعني هذا الجدار الزجاجي الذي يعيش خلفه بعض الأمريكيين، أعرف جيدًا ماذا يعني ... فهم يتحركون خلفه راجين الآخرين ألا يلمسوهم: «لا تلمسني، بالله عليك لا تلمسني، فأنا أخشى أن أشعر بلمستك.»

دعاني في هذا المساء لحضور سهرة بمنزله، فقبلت الدعوة. ولكن بعدما غادر أدركت أنني يجب ألّا أذهب لأنني أشعر بالانزعاج من ذلك الأمر، ولكن ولمَ لا؟ إنه لن يصبح خليلًا لي، ولذلك فقد أصبحنا صديقين، إذن فلمَ لا أذهب وألتقي بأصدقائه وزوجته؟

أدركت فور دخولي شقة نيلسون وزوجته كيف أبقيت خيالي معطلًا، وكيف آثرت بمحض إرادتي أن أكون غبية. في بعض الأحيان أشعر أنني أكره النساء، أكرهنا جميعًا لأننا لا نفكر حينما يكون التفكير هو أفضل ما يمكن أن نقوم به، نختار ألا نفكر ونحن نمد أيدينا لنمسك بالسعادة. أدركت وأنا أخطو بقدمي داخل الشقة أنني اخترت ألا أفكر، فشعرت بالخجل والخزي.

كانت الشقة التي يستأجرها نيلسون شقة كبيرة ممتلئة بقطع من الأثاث تفتقر إلى الأناقة والذوق وتخلو من أي سمات توضح معالم شخصيات أصحابها، عرفت أنهم حينما ينتقلون إلى منزل ما ويملئوه بأشياء اختاروها بأنفسهم، ستظل هذه الأشياء خالية من أي سمة تعكس معالم شخصياتهم ... فقد أصبحت هذه هي العلامة التي تميز كل الأشياء، اختفاء الذات، فاختفاؤها يبقي المرء داخل منطقة الأمان، أنا أفهم ذلك جيدًا. لم أصدق نفسي حينما سمعت المبلغ الذي يدفعه نيلسون كإيجار للشقة، إنه ثلاثون جنيهًا في الأسبوع، هذا المبلغ يعد في حد ذاته ثروة، ومن الجنون أن يدفع هذا المبلغ كله في إيجار شقة. كان هناك حوالي اثني عشر شخصًا، جميعهم أمريكيون وجميعهم يعملون في مجال التليفزيون والسينما ... إنهم رجال «الوسط الفني» تحدثوا في استخفاف بالطبع حول قيمة إيجار الشقة: «نحن رجال الفن، فلم لا ندفع مثل هذا المبلغ؟ إن مثل هذا المبلغ تافه في رأينا، أليس كذلك؟» الجميع يعرف بعضهم بعضًا، ولكن تلك «المعرفة» بنيت على أنهم جميعًا من داخل

الوسط الفني وتصادف أن جمعتهم العقود الخاصة ببعض الأعمال الفنية، ومع ذلك يتعامل بعضهم مع بعض بأسلوب يحمل بين طياته ودًّا مطعمًا بالتسامح والعفوية، مما أضفى عليه نوعًا من السحر والجاذبية. أعجبني ذلك الجو الودود الذي ساد اللقاء، وذكرني بمشاعر الود التلقائية والبعيدة كل البعد عن الرسميات التي كان يكنها السكان البيض بأفريقيا بعضهم لبعض، فقد كان الواحد منهم يلقى الآخر ويقول: «مرحبًا، كيف حالك؟ صحيح أننا لم نلتقِ سوى مرة واحدة، ولكن بإمكانك أن تعتبر بيتي بيتك.» ولكنني أحببت ذلك الجو. طبقًا للمعايير الإنجليزية كان الجميع أثرياء، فمن في مثل ثرائهم من الإنجليز لا يشغل هذا الأمر حيزًا من أحاديثهم. المال كان هو نجم الحفل طوال الوقت، المال واللهفة عليه، المال الذي بأيدي هؤلاء الأمريكيين. ولكن مع كل هذا المال، والكلفة العالية للغاية لكل شيء حولنا (التي يعتبرونها أمرًا مسلمًا به)، هناك جو يلف السهرة يصعب تعريفه، إنه أحد الأجواء التي تسود مقابلات أبناء الطبقة المتوسطة. حاولت أن أعرف هذا الجو وأن أحدد ملامحه، إنه يتميز بنزعة موجهة عن عمد نحو العادي والمألوف، نحو تضييق الخناق على الفرد بوصفه كيانًا متميزًا عن غيره، يبدو أن داخل كل الحاضرين رغبة في أن يضعوا أنفسهم داخل إطار ما هو طبيعي ومتوقع ولا يخرجوا عنه، ويبدو أن هذه الرغبة جزء لا يتجزأ من نفوسهم. ومع ذلك فالإعجاب يتحرك داخل المرء من هؤلاء الأشخاص، فهم رائعون، ويرقبهم بنفس تفيض ألمًا وهم يضيقون الخناق على نفوسهم، يضعون حولها الحواجز، الحواجز المبنية على المال. (ولكن لمَ؟ ... إن نصف الحاضرين من اليساريين، ولذلك أُدرجت أسماؤهم على القوائم السوداء، وجاءوا إلى إنجلترا لأنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا رزقهم في أمريكا، إنه المال، المال يطرح نفسه طوال الوقت.) نعم، بإمكاني أن أستشعر تلك اللهفة على المال تتحرك داخل نفوس الجميع مثل سؤال يبحث عن إجابة، ومع ذلك فالإيجار الذي يدفعه نيلسون مقابل شقته الكبيرة التي تفتقر إلى الأناقة يكفي لمساعدة أسرة إنجليزية من الطبقة المتوسطة على العيش في مستوى كريم.

كنت مهتمة اهتمامًا شخصيًّا بزوجة نيلسون ... جزء من فضولي كان فضولًا عاديًّا مبعثه التعرف على ملامح هذه الشخصية التي أقابلها لأول مرة، ولكنني شعرت بالخجل من الدافع الآخر الذي يحرك هذا الفضول، فقد أردت أن أعرف ما الشيء الذي أمتلكه أنا ولا تمتلكه هي؟ فلم أجد أنني أزيد عنها في شيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنها امرأة جذابة، ذات قوام طويل ونحيل للغاية، تدين بالديانة اليهودية، تنبع جاذبيتها من ملامحها الأخاذة البارزة، كل شيء محدد في وضوح، فم عريض تتغير التعبيرات التي ترتسم عليه ما بين الابتسام والدهشة وغيرهما في غمضة عين، وأنف كبير محدب لكنه يبدو جميلًا، وعينان سوداوان واسعتان بارزتان إلى الأمام. ترتدي ملابس أنيقة ذات ألون زاهية وتتحدث بصوت عالٍ وحاد (كرهت صوتها، فأنا لا أحب الأصوات العالية) وترسم على شفتيها ابتسامة واثقة، تتصرف في ثقة وبأسلوب راقٍ، مما أثار فيّ بالطبع مشاعر الغيرة كعادتي دائمًا ولكنني حينما تأملتها أدركت أن ثقتها بنفسها شيء سطحي ليس إلا، فهي لم تحول نظراتها عن نيلسون لحظة واحدة (ولكنه لم ينظر إليها، يخشى أن ينظر إليها.) بدأت أدرك أن هذه هي إحدى صفات المرأة الأمريكية ... التمكن الظاهري والثقة التي تخفي تحتها القلق والتوتر، فمن داخل النساء الأمريكيات ينبعث القلق والتوتر، فيسيطر عليهن الخوف، فهن يتصرفن وكأنهن واقفات وحدهن في الخلاء، لكنهن يتظاهرن بأنهن لسن وحدهن، إن ملامحهن يبدو عليها ذلك الشعور بالوحدة والعزلة، لكنهن يتصرفن كأنهن لسن وحدهن، أنا أشعر بالخوف من ذلك النوع من النساء.

لنعد إلى موضوعنا، لم تتحول نظرات تلك المرأة عن نيلسون منذ لحظة خروجه إلينا. كان أول ما قاله هي طرفة تحمل بين طياتها ذلك الأسلوب الهزلي في إدانة الذات وكشفها، إن هذا الأسلوب يخيفني لأنه يجعل المرء يتهاون في كثير من الأمور: «إن الرجل دائمًا يأتي بعد موعده بساعتين، هل تعلمون لماذا؟ لأنه يكون منهمكًا في الشرب حتى يسكر لكي يستطيع أن يتحمل ذلك الحفل الساهر البديع الذي ينتظره.» (ضحك جميع أصدقائه ... مع أنهم هم ضيوف هذا الحفل الساهر البديع.) ردت عليه زوجته بتلك النبرة الانتقادية نفسها التي يطل التوتر من بين ظاهرها المرح والهزلي: «لكن المرأة تعرف أنه سيأتي بعد موعده بساعتين، لذلك فإن العشاء سيكون جاهزًا في الساعة العاشرة، لا داعي للقلق مطلقًا بشأن هذا الأمر، لن يتأخر العشاء!» ضحك الجميع وتسمرت نظرات عينيها السوداوين البارزتين المفعمتين بذلك الشعور السطحي بالثقة فوق وجه نيلسون والخوف والترقب يطلان منهما. سألته بعد أن قدمت الشراب إلى الآخرين وقد تحولت نبرة صوتها فجأة إلى نبرة توسل حادة: «أتريد كأسًا من الإسكوتش يا نيلسون؟» رد عليها نيلسون بلهجة تحدٍّ يطل منها العنف: «أريده مركزًا.» تبادلا النظرات لحظة، لحظة تفضح ما يكن أحدهما للآخر، بدأ الجميع يمزحون ويضحكون ليغطوا علي ما حدث، شيء آخر

يتضح أمامي ... إنهم يحمون بعضهم البعض طوال الوقت، جعلني ذلك أشعر بأقصى درجات الانزعاج بعد أن اتضح لي أن مشاعر الود التلقائية تلك ليست إلا إجراءً احترازيًّا حتى إن صادفوا لحظة حرجة مثل تلك التي وقعت منذ قليل يكون بإمكانهم أن يحموها. أنا الإنجليزية الوحيدة الموجودة بالمكان، ولكن ذلك لم يشعرهم بالانزعاج، فقد كانوا أناسًا مهذبين ذوي طبيعة متسامحة وسخية. تبادلوا النكات التي تسخر من آراء الأمريكيين المتحجرة تجاه الإنجليز، كانت نكات مسلية ومضحكة للغاية، ومع أنني استمتعت بها فقد شعرت بالانزعاج، لأنني لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن أن أسخر من أبناء بلدي دون أن أشعر بأي غضاضة كما كانوا هم يسخرون من أبناء وطنهم. احتسينا الكثير من الشراب، فقد عمد الحاضرون منذ لحظة وصولهم إلى إفراغ أكبر كمية من الشراب في أجوافهم في أقل وقت ممكن. لم أكن معتادة على ذلك، ولهذا كنت أكثر مَن لَعِبَت الخمر برأسه وأولهم، مع أنهم شربوا أكثر مني بكثير. لفتت انتباهي امرأة شقراء ضئيلة البنية ترتدي ثوبًا صينيًّا ضيقًا مطرزًا أخضر، كانت جميلة حقًّا، تتصرف في رقة ولياقة، إنها الزوجة الرابعة لواحد من كبار رجال الأعمال في صناعة السينما، رجل ضخم وقبيح ذو بشرة سمراء. شربت المرأة أربع كئوس من الشراب المركز في ساعة واحدة، ولكنها لا تزال محافظة على هدوئها ورباطة جأشها وجاذبيتها، تنظر لزوجها وهو يشرب وعلامات الترقب تعلو وجهها، تدلّـله كطفل صغير وتتحدث إليه في رقة حتى لا يستمر في الشرب إلى أن يسكر: «إن صغيري ليس بحاجة إلى هذه الكأس التي بيده.»

– بل صغيرِك بحاجة إلى هذه الكأس، وسيشربها.

ربتت على كتفه بيديها وداعبته وهي تقول: «ولكن صغيري لن يشرب هذه الكأس، لأن ماما لا تريده أن يشربها.» رباه، إنه لم يشرب كأسه، جعلت المرأة تداعبه وتلاطفه وكأنه طفل صغير، ظننت في البداية أنها تهينه أو تجرحه، حتى تبينت أن هذا هو الأساس الذي بُني عليه زواجهما، فذلك الفستان الصيني الأخضر الجميل، والحلق الرائع الذي يتدلى من أذنيها هما الثمن الذي يدفعه مقابل أن تُدَلِّـلَه هذه المرأة وتلاطفه كأنه صغيرها. تملكني الخجل، ولكنه لم يتملك أحدًا غيري، وشعرت وأنا أجلس في مكاني وقد أدارت الخمر رأسي أرقبهم يتحدثون دون أن أشاركهم، لأنني لست ممن لديه القدرة على الخوض في الأحاديث الهزلية السلسة، شعرت بالإحراج الشديد والخوف من أنه في المرة القادمة التي يحدث فيها موقف حرج، لن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكون بإمكانهم أن يحموه في الوقت المناسب، فينفلت زمام الأمور. حدث ذلك فعلًا عند منتصف الليل تقريبًا، ولكنني أدركت أنه لا داعي للذعر لأنهم جميعًا متمرسون أكثر مني بكثير في التأنق والتكلف لدرجة لم أرها في حياتي من قبل، إن ما يقيهم آلام الشعور بأي إهانة حقيقية هو أسلوبهم الهزلي الذي يسخرون به من أنفسهم معترفين بنواقصهم وعيوبهم، بقي هذا الأسلوب فعالًا حتى تلك اللحظة التي انفجر فيها بركان الغضب داخل نفوس غيبتها الخمر.

ظللت أرقب زوجة نيلسون، تتصرف في جرأة وتفيض حيوية وقد انجذبت إليها الأنظار، أما هي فقد علقت نظراتها على نيلسون طوال الوقت، والنظرة التي تملأ عينيها الواسعتين نظرة تائهة تخلو من أي تعبير أو معنى، أنا أعرف تلك النظرة ولكنني لم أستطع أن أصنفها، ثم أخيرًا تذكرت: إنها تشبه النظرة التي كانت تطل من عيني السيدة بوثبي وهي تنهار؛ فهي نهاية القصة، أطلت من عينيها نظرة مليئة بالذعر والحيرة، ولكنها مع ذلك تحملق بعينيها المتسعتين في من حولها وهي تحاول جاهدة أن تخفي عنهم المشاعر التي تتحرك داخلها. استطعت أن أتبين أن زوجة نيلسون تعيش حبيسة حالة من الهستيريا المستمرة التي تعمد إلى إخفائها، ثم أدركت أنهم جميعًا يعيشون داخل تلك الحالة، إنهم جميعًا أناس على حافة الانهيار، لكنهم يحاولون أن يمسكوا بأنفسهم ويمنعوها من السقوط، وفي الوقت نفسه هناك لمحات من الهستيريا تطل من بين ثنيات حديثهم الساخر الذي يتميز بحدته وتظهر في نظراتهم الثاقبة التي يملؤها الترقب.

ولكنهم ألفوا ذلك الأمر، فهم يعيشون داخل تلك الحالة منذ سنوات، ولذلك لم يكن هناك أحد سواي يشعر بأن شيئًا غريبًا يحدث. جلست في أحد الأركان لا أشرب المزيد من الكئوس لأن الخمر لعبت برأسي منذ بداية السهرة، كنت أشعر وأنا أجلس بمكاني أنتظر أن يزول عني تأثير تلك الكئوس التي أخذت أفرغها بجوفي كأسًا بعد أخرى دون تمهل أن كل المفاهيم أصبحت حادة الوضوح أمامي، وأن النفوس باتت مثل كتاب مفتوح أرى ما يختلج فيها، عندها أدركت أن هذه الحالة التي تسيطر على هؤلاء الأشخاص ليست شيئًا لم أره من قبل كما تخيلت، وأنها لا تختلف مطلقًا عما أراه بين مئات الأزواج في بريطانيا وداخل بيوتهم، إنها الحالة نفسها التي توجد داخل تلك البيوت غير أنها أقرب خطوة إلى الوعي والإدراك الذاتي، فأدركت أن هؤلاء الأشخاص يدركون دواخل نفوسهم أكثر من أي شيء

ويعرفونها جيدًا، ومن هذا الإدراك الذي يطل منه احتقارهم لأنفسهم واشمئزازهم منها تنبع السخرية والأسلوب الهزلي، هذه السخرية ليست لها أي علاقة بالتلاعب الفكري بالألفاظ الذي يستخدمه الإنجليز والذي لا يحمل معه أي نوع من الحدة أو العنف، لكنها نوع من الوقاية، أو وسيلة لإبعاد الضرر، «مسمى» يقون أنفسهم به المعاناة والألم، إنه مثل تلك «الخرزة الزرقاء» التي يعلقها البسطاء لتدرأ عنهم الحسد.

تأخر الوقت كما ذكرت من قبل، وفي منتصف الليل تقريبًا ترامى إلى سمعي صوت زوجة نيلسون المرتفع ذا النبرة الحادة وهي تقول: «حسنًا، أنا أعرف جيدًا ماذا سيحدث، إنك لن تكتب هذا السيناريو، فلماذا تضيع وقتك مع نيلسون يا بيل؟» (بيل هو ذلك الرجل الضخم حاد الطباع زوج المرأة الشقراء ضئيلة البنية التي تدلـله في لباقة كأنه صغيرها.) ثم استطردت موجهة حديثها إلى بيل الذي تعمد أن يرسم على ملامحه معالم الانشراح: «مرة أخرى سيظل يتكلم ويتكلم لشهور، ثم في النهاية يعتذر عن كتابة السيناريو الخاص بك، ويذهب ليضيع وقته في كتابة رائعة أخرى لن تعرض أبدًا على الجمهور ...» ثم أطلقت المرأة ضحكة على سبيل الاعتذار، ولكن ضحكتها كانت حادة وهستيرية. اقتحم نيلسون ساحة الحوار قبل أن يبادر بيل بالنزول إليها فيمنعه إياها، وكان بيل فعلًا مستعدًّا لأن يقوم بذلك: «حسنًا، هذا شأن زوجتي دائمًا، فهي ترى أن زوجها يضيع وقته في كتابة الروائع ... ألم تعرض لي مسرحية في برودواي؟ ألم يحدث ذلك؟» صرخ في وجهها وهو يطرح سؤاله الأخير، كانت صرخته تبدو كصرخة أنثى، كانت الكراهية التي يكنها لها تفيض من بين ملامح وجهه، وبدا الذعر الشديد واضحًا على قسماته، بدأ الأشخاص المتجمعون بالحجرة يتبادلون النكات ويضحكون، قال بيل مازحًا: «من يدري، لعلي أنا من سيعتذر لنيلسون عن هذا المشروع، فربما حان الوقت لكي أكتب سيناريو رائعًا، أشعر أن هذا الحدث بات قريبًا.» (وجه بيل نظرة إلى زوجته الشقراء الجميلة ليطمئنها: لا تقلقي يا حبيبتي، أنتِ تعلمين بالطبع أنني أحاول فقط أن أخفف الأمر.) ولكن محاولاتهم لتخفيف الأمر لم تفلح، ولم يستطع أسلوب الحماية الذاتية الجماعية الذي يستخدمونه أن يقف في وجه العنف الذي فجرته تلك اللحظة. وقف نيلسون وزوجته في الجانب الآخر من الحجرة وحدهما منفصلين عن الجميع، عزلتهما عنا مشاعر الكراهية التي يكنها أحدهما للآخر، وانهمك كل منهما في رغبته القوية في أن يُبرئ نفسه أمام الآخر، فلم يعد أي منهما يشعر بوجودنا. ولكن، على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرغم من كل شيء، يستخدمان نبرة السخرية الهستيرية المشحونة بمشاعر قاسية يوجهها كل منهما تجاه نفسه، كانا يصوغان حديثهما في صورة مجموعة من النكات والنوادر:

نيلسون: هل سمعتِ ذلك يا حبيبتي؟ سوف يعيد بيل كتابة مسرحية «مقتل بائع» لعرضها قريبًا، سوف يسبقني إلى كتابة هذا العرض المسرحي، في رأيكِ على من تقع المسئولية ... على زوجتي المحبة بالطبع، ومن غيرها؟

هي: (تحدثت بنبرة حادة وهي تطلق ضحكة، وامتلأت عيناها بالذعر والقلق، وأخذ وجهها يتحرك لاإراديًّا كأنه كتلة من لحم حيوان رخوي تتلوى وتهتز عند قطعها بحافة السكين.): نعم، بالطبع إنها مسئوليتي، ومن غيري يمكن أن يكون مسئولًا عن هذا الأمر؟ إنها وظيفتي، أليس كذلك؟

نيلسون: نعم، بالطبع هي وظيفتكِ، أنا أعرف، أنكِ تتحملين عني عبء أخطائي، ولهذا أحبكِ، ولكن ألم تعرض لي مسرحية ببرودواي؟ ألم تَحُزْ تلك المسرحية استحسان كثيرين؟ أم أنني أهذي أو أتخيل؟

هي: هذا منذ اثني عشر عامًا، كنت حينها مواطنًا أمريكيًّا صالحًا، لم يكن اسمك موجودًا بأي قائمة سوداء حينها، ولكن ماذا فعلت منذ ذلك الحين؟

هو: حسنًا، لقد قضوا عليَّ، أتظنين أنني لا أعرف؟ هل يجب أن تنكئي جرحي دائمًا؟ أخبرتكِ أنهم ليسوا بحاجة إلى فرق إعدام وسجون لكي يقضوا على البشر، إن الأمر أسهل من ذلك بكثير ... الأمر معي كان أسهل بكثير، نعم كان أسهل ....

هي: حسنًا، أُدرج اسمك على القوائم السوداء، أصبحت بطلًا، هل هذا هو العذر الذي ستظل تعلق عليه أخطاءك بقية حياتك؟!

هو: لا يا حبيبتي، بل أنتِ عذري الذي سأعلق عليه أخطائي بقية حياتي ... من التي توقظني كل يوم في الرابعة صباحًا تولول وتبكي وتقول لي إنها هي وأطفالها سيصبحون من المشردين في الطريق بلا مأوى إذا لم أوافق على كتابة أي سيناريو رديء المستوى من أجل صديقنا العزيز بيل الذي يشرفنا الليلة؟

هي (تضحك وملامحها تبدو بشعة وكريهة): حسنًا أنا أستيقظ كل يوم في الرابعة صباحًا، هذا من شدة ذعري، هل ترغب في أن أنام بحجرة الضيوف؟

هو: نعم، أريد منكِ أن تنتقلي إلى حجرة الضيوف، فبإمكاني أن أستغل هذه الساعات الثلاث كل صباح في العمل، إذا كنت لا أزال أذكر كيف يكون العمل (يطلق ضحكة مباغتة)، ولكنني سوف أكون معكِ بحجرة الضيوف وأنا أنتفض ذعرًا من أنني يمكن أن أصبح مشردًا في الطريق بلا مأوى، ما رأيكِ ألا يصلح ذلك كمشروع لسيناريو؟ أنا وأنت معًا في الطريق بلا مأوى، وسنظل معًا حتى يفرقنا الموت، الحب حتى الموت.

هي: إن بإمكانك أن تكتب سيناريو لفيلم كوميدي عن هذا الأمر، فأنا لن أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك إذا شاهدته.

هو: حسنًا، لن تستطيع زوجتي أن تمنع نفسها من الضحك إذا انتهى بي الأمر وأنا مشرد في الطريق بلا مأوى (يضحك نيلسون)، ولكن أتعرفين ما النكتة الحقيقية؟ النكتة هي أنه حتى لو انتهى بكِ الأمر وأنتِ مخمورة ومسطحة على ظهركِ أمام مدخل أحد المنازل، فسوف آتي إليكِ لأنني أحتاج إلى السكن، نعم هذه هي الحقيقة، لو انتهى بكِ الأمر إلى النوم في الطريق فسوف آتي إليكِ لأنني أحتاج إلى الأمان، نعم، هذا هو ما أحتاجه منكِ، هذا هو ما قاله المحلل النفسي الذي يعالجني، فهل تظنين أنني أعرف أكثر منه؟!

هي: نعم، معك حق، إن هذا ما تحتاجه مني، وهذا ما تحصل عليه، أنت تحتاج إلى أم، كان الله في عوني.

(ينخرط الاثنان في الضحك، وينحنيان كل في اتجاه الآخر وقد تعالت ضحكاتهما فصارت مثل الصرخات، ولا يستطيعان أن يتوقفا.)

هو: نعم، أنتِ أمي، هو يقول ذلك، إنه لا يخطئ أبدًا. حسنًا، ليس هناك ضير من أن يكره المرء أمه، هكذا تقول قواعد الطب، وأنا لم أَحِد عنها، ولذلك لن أشعر بالذنب.

هي: رباه، ولماذا يكون عليك أن تشعر بالذنب، لماذا يكون عليك أن تشعر بالذنب لأي سبب من الأسباب؟

هو (يرفع صوته عاليًا وتنكمش ملامح وجهه الجميل ذي البشرة الداكنة): لأنكِ تشعرينني بالذنب دائمًا، ترين أنني مخطئ دائمًا، يجب أن أوافق على كل ما تقولين حتى لا أكون مخطئًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هي (توقفت فجأة عن الضحك وارتسمت على وجهها نظرة يائسة ينبعث منها القلق): لا تعمد إلى انتقادي هكذا طوال الوقت يا نيلسون، فأنا لا أحتمل ذلك.

هو (مهددًا ولكن بنبرة هادئة): إذن أنتِ لا تحتملين ذلك؟ عليكِ أن تحتملي، أتعلمين لماذا؟ لأنني أريدكِ أن تحتملي ذلك. ربما يكون عليكِ أنتِ أن تذهبي إلى المحلل النفسي، لماذا يكون عليَّ أنا أن أقوم بكل المهام الشاقة؟ نعم، فلتذهبي أنتِ إلى المحلل النفسي، فأنا لست مريضًا، أنتِ المريضة، أنتِ المريضة!

(رفعت المرأة الراية البيضاء، واستدارت مبتعدة عنه في خضوع ويأس، فأسرع خلفها وفرحة الانتصار تملؤه تخالطها مشاعر الصدمة): ماذا دهاكِ؟ ألا يمكنكِ أن تصدقي؟ لماذا؟ كيف عرفتِ أنك لستِ أنتِ من تعانين؟ لماذا يجب أن أكون أنا المخطئ دائمًا؟! لا تنظرين إليَّ هكذا! أتحاولين أن تجعليني أشعر كم أنا إنسان سيئ كعادتكِ؟ حسنًا، لقد نجحتِ، أنا المخطئ، أنا من يستحق اللوم، ولكن لا تشغلي بالكِ بهذا الأمر ولو لحظة واحدة، أنا من يخطئ دائمًا، أنا من يجب أن يتحمل المسئولية دائمًا، قلت ذلك بنفسي، أليس كذلك، اعترفت بجرمي، ألا ترين؟ أنتِ امرأة ولذلك أنتِ على حق، حسنًا، أنا لا أتذمر ولا أشتكي، أنا أقر واقعًا فقط ... أنا رجل، ولذلك فأنا المخطئ وأنا من أستحق اللوم، أهذا يعجبكِ؟

هنا تنهض المرأة الشقراء ذات البنية الضئيلة من مكانها فجأة، (احتست حتى الآن ثلاثة أرباع زجاجة إسكوتش ولا تزال محافظة على هدوئها ورباطة جأشها مثلها مثل قطة صغيرة رقيقة تفتح عينيها الزرقاوين الدامعتين على الحياة لأول مرة.) وتقول: «بيل، بيل، أنا أود أن أرقص يا بيل، أريد أن أرقص يا حبيبي.» يثب بيل من مقعده ويتجه إلى الفونوغراف، فتملأ ربوع الغرفة نغمات إحدى الأغنيات الأخيرة للمغنى الأمريكي الشهير، لويس أرمسترونج، تنتشر نغمات الترامبت الحزينة في المكان يصاحبها الصوت الساخر والمرح لأرمسترونج بعد أن تقدم به العمر، أحاط بيل زوجته الصغيرة بذراعيه وبدآ يرقصان وهما يقلدان حركات الرقص المرحة والمثيرة، إن الكل يرقص الآن غير مهتمين بنيلسون وزوجته اللذين يقفان بعيدًا عن ضيوفهما المتجمعين بالغرفة، لا أحد يستمع إليهما، فلم يعد أحد يحتمل أن يسمع المزيد، ثم فجأة يشير نيلسون إليَّ ويقول بصوت مرتفع: «سوف أرقص مع آنا، أعرف أنكِ ستقولين إنني لا أستطيع أن أرقص ولا أستطيع أن أفعل أي شيء، ولكنني سأرقص مع آنا.» أنهض من مكاني لأن الجميع ينظرون إليَّ وعيونهم تقول لي: هيا، يجب أن ترقصي معه.

يأتي نيلسون إليَّ ويقول بصوت عالٍ كأنه ممثل يحاكي شخصية ما: «سوق أرقص مع آنا، فلترقصي معي! فلترقصيييي معي يا آنا.»

تطل من عينيه نظرة يائسة ينبعث منها الألم والحزن واحتقاره لذاته، ثم يستمر في محاكاته: «هيا يا صغيرتي، لنرقص، فأنا معجب بكِ.»

أضحك، (يترامى صوت تلك الضحكة التي أطلقتها إلى أذني، إنها ضحكة حادة يطل منها الرجاء.) يضحك الجميع في ارتياح لأنني أؤدي دوري كما يجب، وتمر اللحظة الحرجة. أعلى ضحكة هي تلك التي أطلقتها زوجة نيلسون، ولكنها مع ذلك تتفحصني فحصًا دقيقًا بعينيها اللتين ملأتهما الخشية، فأعرف أنني أصبحت جزءًا من عراكها مع زوجها، وغالبًا الأمور المتعلقة بي تجعل ذلك العراك أكثر سخونة. إنهما غالبًا يخوضان في مشاجرات طويلة بسببي في تلك الساعات الحرجة بين الرابعة والسابعة صباحًا عندما يستيقظان وهما يشعران بالقلق والتوتر (لكنني لا أعرف ما الذي يثير هذا القلق؟) ويبدآن في العراك حتى تتبدد كل طاقتهما فيه، إن بإمكاني أن أتخيل نوعية الحوارات التي تدور بينهما كأنني أسمعها بأذني، أرقص مع نيلسون وزوجته ترقبنا بابتسامة قلقة يطل منها الألم وفي الوقت ذاته تتردد في إذني واحدة من مشاجراتهما معًا:

هي: أتظن أنني لا أعرف قصتك أنت وآنا ولف؟

هو: نعم، هذا صحيح، أنت لا تعرفين شيئًا ولن تعرفي.

هي: إذن أنت تظن أنني لا أعرف شيئًا. حسنًا، أنا أعرف كل شيء، يكفيني أن أنظر إليك لكي أعرف كل شيء!

هو: حسنًا، انظري إليَّ يا محبوبتي، انظري إليَّ يا جميلتي، انظري إليَّ يا مهجة فؤادي، انظري إليَّ، ماذا ترين؟ هل ترين زير نساء الرويات الغربية، لوراثيو؟ هل ترين رجلًا مليحًا؟ نعم، هذا أنا، هذه هي الحقيقة، أنا على علاقة بآنا ولف، إنها تناسبني كامرأة، هكذا قال لي المحلل النفسي، أتظنين أنني أعرف أكثر من محللي النفسي؟

بعد أن تنتهي تلك الرقصة الوحشية والمؤلمة والضاحكة في الوقت ذاته، التي كان المشاركون فيها يتحركون كأنهم ممثلون على مسرح يؤدون دورًا ساخرًا، يستحث كل منهم الآخرين ويستحلفهم جميعًا أن يستمروا في تمثيل أدوارهم الساخرة، بعد أن تنتهي تلك الرقصة يودع كل واحد منا الآخر وينصرف إلى منزله.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقبلني زوجة نيلسون قبل أن أغادر، كلنا نتبادل القبلات كأننا عائلة واحدة كبيرة، ولكنني أعلم، وهم أيضًا يعلمون، أن أي عضو في هذه المجموعة ربما يخرج من الدائرة ولا يُرى بعد ذلك أبدًا نتيجة لاستسلامه للفشل أو للخمر الذي يغيب عقله أو عجزه عن الامتثال لقواعد هذه المجموعة والانسجام معها. القبلتان اللتان طبعتهما زوجة نيلسون على خدي الأيسر ثم على خدي الأيمن تحملا داخلهما بعض الدفء والمشاعر الصادقة كأنها تود أن تقول لي: أنا آسفة، فالأمر ليس بأيدينا وأنتِ لا ذنب لكِ فيه، وفي الوقت ذاته تحركها رغبة في الاستكشاف أو المعرفة كأنها تسأل: ما هذا الشيء الذي قدمته لنيلسون ولم أعطه أنا إياه؟

نتبادل النظرات التي تطل منها المرارة والسخرية ولسان حالنا يقول: إنه لا ذنب لأي منا بهذا الموضوع، لا ذنب حقًّا لأي منا!

ولكن تلك القبلة تجعلني أشعر بانزعاج شديد، أشعر بأنني مخادعة ومحتالة، فقد بدأت أدرك شيئًا كان يجب أن أفطن إليه بذكائي حتى من دون أن أذهب إلى شقة نيلسون وزوجته، وهو أن الرابطة التي تجمع بين نيلسون وزوجته رابطة قوية للغاية ولن تنكسر أبدًا، فالرباط الذي يجمعهما معًا أقوى من أي رباط آخر، إنه رباط قائم على حالة الاضطراب النفسي التي تمنح الألم، القائم على التعامل مع تجربة الألم واستقبال هذه التجربة من الطرف الآخر، إنه رباط قائم على الألم كأحد عناصر الحب، الألم الذي يُنظر إليه على أنه هو الذي يعرفنا بجوهر العالم وجوهر التطور والنمو.

إن نيلسون على وشك أن يترك زوجته، ولكنه لن يتركها أبدًا، وهي سوف تبكي بحرقة لأن زوجها سيتركها ويتخلى عنها، وهي لا تعلم أنه لن يتركها أبدًا.

في الليلة التي تلت الحفل كنت أجلس بمقعدي في المنزل وقد تملكني الإرهاق، كانت هناك صورة تطوف بذهني كأنها لقطة من أحد الأفلام، ثم بدا لي أنني أرى لقطات متتابعة من فيلم سينمائي؛ رجل وامرأة يقفان على سطح إحدى البنايات في مدينة مزدحمة، ولكن جلبة وزحام بشوارع المدينة بعيدان عنهما للغاية، هما يتجولان بلا هدف فوق هذا السطح، وفي بعض الأحيان يتعانقان، ولكن على سبيل التجربة كأنهما يسألان نفسيهما كيف يكون مذاق العناق، ثم يبتعدان أحدهما عن الآخر ويهيمان مرة أخرى في أرجاء السطح، بعد ذلك يذهب الرجل إلى المرأة ويقول لها: أحبكِ، فترد عليه المرأة في فزع: ماذا تقصد؟ فيقول الرجل: أحبكِ، فتعانقه، وسريعًا يبتعد عنها الرجل وقد تملكه التوتر، تسأله: لماذا قلت إنك تحبني؟ يجيبها:

كنت أود أن أرى كيف تكون هذه الكلمة، فتقول له: ولكنني أحبك، أحبك، أحبك، ويذهب الرجل إلى حافة السطح ويستعد للقفز من فوقه، وهو سيفعل إن كررت المرأة قولها بأنها تحبه ولو لمرة واحدة.

عندما خلدت إلى النوم حلمت بهذه اللقطات السينمائية، ولكنها كانت لقطات ملونة وحية. لم يكن الرجل والمرأة يقفان فوق سطح بناية، ولكنهما يقفان وسط طبقة رفيعة من الضباب الملون، ضباب ذو لون مبهج للغاية يدور كالدوامة وداخله رجل وامرأة يهيمان على وجهيهما، تبحث المرأة عن الرجل تحاول أن تجده ولكنها حينما تصطدم به، أو تنجح في العثور عليه، يتملكه التوتر والقلق ويبتعد عنها، ثم يدير رأسه وينظر إليها ثم يبتعد أكثر فأكثر.

في صبيحة اليوم الذي تلا الحفل اتصل بي نيلسون واخبرني أنه يرغب في الزواج مني، تذكرت ذلك الحلم، سألته لماذا قال لي ذلك، فصاح بي: «لأنني أريد أن أقوله.» قلت له إنه مرتبط جدًّا بزوجته، إلى هنا توقف الحلم، أو لنقل انتهت تلك اللقطات السينمائية، وتغيرت نبرة صوت نيلسون، فقال لي بنبرة ساخرة: «رباه، إن كان ذلك صحيحًا فأنا في مشكلة.» سار بنا الحديث بعض الوقت، ثم قال لي إنه أخبر زوجته بأنه ضاجعني، أغضبني ذلك كثيرًا وقلت له إنه يستغلني في خلافاته مع زوجته. بدأ يصرخ في وجهي ويهاجمني مثلما كان يصرخ في وجه زوجته ويهاجمها بالأمس في الحفل.

أغلقت الخط، ولكنه عاود الاتصال بعد بضع دقائق، إنه الآن يبرر رغبته في الإقدام على الزواج، ليس لي ولكن لذات غير مرئية تسمع وتراقب، فأنا لا أظن أنه شعر بوجودي من الأساس، أدركت من هو هذا الشخص الخفي الذي يتحدث نيلسون إليه مبررًا موقفه حينما أخبرني بأن محلله النفسي في إجازة لمدة شهر.

أغلق الخط وهو يصرخ ويصيح في وجهي ... في وجه النساء. بعد ساعة اتصل نيلسون مرة أخرى واعتذر لي، قال إنه كان «غاضبًا» للغاية حتى إنه فقد صوابه وإن هذا كل ما في الموضوع، ثم سألني نيلسون: «أنا لم أجرحكِ يا آنا، أليس كذلك؟» أدهشني هذا السؤال، واشتممت رائحة ذلك الحلم السيئ مرة أخرى، استطرد نيلسون: «صدقيني يا آنا أنا لم أرغب إلا في أن تجمعني بك علاقة حقيقية وصادقة.» ثم تحولت نبرته إلى نبرة حزينة يطل منها الألم والمرارة: «هذا إن كان الحب الذي يقولون إنه ممكن أصدق مما نحصل عليه.» ثم مرة أخرى يعيد ما سألني عنه في لهجة لحوحة ونبرة عالية: «ولكن ما أود أن أقوله هو إنني لم أجرحكِ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليكِ أن تقولي لي ذلك.» شعرت كأن أحد أصدقائي صفعني أو بصق في وجهي، أو استل سكينًا وأخذ يطعنني بها وهو يبتسم في سعادة، ولكنني قلت له إنه جرحني ولكن دون أن أفضح مشاعري، تكلمت على النحو نفسه الذي تكلم هو به، كأن شعوري بأنني جُرحت هو شعور يمكن التفكير فيه ببساطة بعد ثلاثة أشهر من بداية علاقتنا معًا.

قال لي نيلسون: «أنا أظن يا آنا — وأنا لا يمكن أن أكون سيئًا إلى هذا الحد — أنه إذا كان بإمكاني أن أتصور ما يجب أن يكون عليه المرء، وإذا كان بإمكاني أن أتخيل أن أحب امرأة حبًا صادقًا، أو أنني حقًّا أحيا من أجل شخص آخر ... فهذا حقًّا شيء يمكن أن أعده تصورًا للمستقبل، أليس كذلك؟»

أثرت فيَّ هذه الكلمات، فأنا أظن أن نصف ما نقوم به — أو نحاول أن نكون عليه — ليس إلا ما نحاول أن نتصوره عن مستقبلنا. أنهينا حديثنا على نحو يعكس أسمى آيات الصداقة.

بعد أن انتهى هذا الحوار جلست وسط الضباب البارد أفكر: ماذا حدث للرجال جعلهم يتحدثون هكذا للنساء؟ لأسابيع وأسابيع ظل نيلسون يقحمني في شخصيته، كان يستخدم كل ما لديه من جاذبية ومشاعر دافئة وخبرات سابقة في إقحام النساء في شخصيته، يستخدم هذه الطرق كلها خاصة حينما أكون غاضبة، أو عندما يعرف أنه قال شيئًا من شأنه أن يخيفني، بعد ذلك يسألني ببساطة: هل جرحتكِ؟ يظن الرجل أن كونه رجلًا يَجُبُّ كل ما يفعله، حينما أفكر فيما يعنيه ذلك أشعر بالإعياء وبأنني ضللت طريقي (كأنني أقف وسط طبقة من الضباب البارد) تفقد الأشياء مغزاها، حتى الكلمات التي أتفوه بها تبدو مثل صدى الصوت الذي يتردد في الفضاء، تحمل معنى ممسوخًا.

بعد أن اتصل بي ليسألني هل جرحني، راودني حلم في منامي أدركت أنه حلم عن تلك اللذة التي يجدها المرء في تدمير الآخر؛ الحلم مكالمة هاتفية بيني ونيلسون، لكن نيلسون كان موجودًا معي في الحجرة نفسها، يظهر في صورة الرجل ذي الشخصية المسئولة والمشاعر الدافئة، ولكن وهو يحدثني بدأت معالم الابتسامة المرتسمة على شفتيه تتغير، وبدأت ألمح مشاعر الحقد المباغتة التي لا يحركها دافع محدد تطل منها، شعرت بالسكين يُغرز في لحمي، بين ضلوعي، وترامى إلى مسامعي صوت احتكاك النصل الحاد بعظامي، لم أستطع أن أتكلم، لأن الدمار والخطر آتيان من شخص قريب مني، شخص كنت أحبه. بدأت أتكلم وأنا أمسك بسماعة

الهاتف، وأشعر بتلك الابتسامة ترتسم على وجهي، الابتسامة التي يطل منها هذا الحقد الممتع واللذيذ، حتى إنني حركت قدمي في خطوات راقصة وهززت رأسي في رقصة آلية عنيفة تشبه رقصة الزهرية المتحركة، قلت في نفسي وأنا لا أزال أحلم: إذن فأنا الآن مثل الزهرية الشريرة، وهذا يعني أنني سأصبح مثل القزم العجوز، ثم مثل المرأة العجوز الحدباء، ثم ماذا؟ ترامى إلى سمعي صوت نيلسون عبر سماعة الهاتف يقول: ثم الساحرة، الساحرة الصغيرة. أفقت من النوم وتلك الكلمات التي تطل منها تلك اللذة التي تبعث بها مشاعر الحقد والشماتة ترن في أذني: «الساحرة، ستصبحين مثل الساحرة الصغيرة!»

تملكني شعور بالإحباط الشديد، فلجأت إلى تلك الشخصية التي أعتمد عليها في كثير من الأحيان: شخصيتي بوصفي والدة جانيت، لطالما سألت نفسي هذا السؤال: كيف يمكن لي حينما تخبو نفسي وتفتر همتي ويتملكني الخوف والقلق، أن أظل تلك الشخصية الهادئة المسئولة المفعمة بالحياة وأنا أتعامل مع جانيت؟

لم يراودني هذا الحلم مرة أخرى، ولكنني التقيت منذ يومين برجل في منزل مولي، رجل من السيلان، لمّح بأنه يريد أن يقيم معي علاقة، ولكنني رفضت، كنت أخشى أن أعاني مرارة الرفض مرة أخرى، أن أسقط مرة أخرى في هوة الفشل. أنا الآن أشعر بالخجل، لأنني أصبحت امرأة جبانة، أنا أشعر بالخوف لأن أول ما يخطر لي حينما يلمّح رجل بإقامة علاقة معي هو أن أهرب، أهرب إلى أي مكان بعيدًا عن الألم والإيذاء.

[خط أسود ثقيل رُسم بعرض الصفحة]

دي سيلفا من السيلان هو واحد من أصدقاء مولي، التقيت به منذ عامين بمنزلها، أتى إلى لندن منذ بضع سنوات وكان يتكسب من الصحافة، إلا أنه لم يكن يحصل منها على الكثير، تزوج من امرأة إنجليزية. ما يلفت الانتباه إليه عند حضوره لإحدى الحفلات هو أسلوبه الساحر الذي يتميز بالهدوء، فهو يبدي ملاحظات ساخرة عن الأشخاص ترقى إلى درجة غريبة من الموضوعية رغم قسوتها وحدتها، عندما تذكرته قفزت إلى ذهني صورته وهو يقف بعيدًا عن أحد التجمعات ينظر إليهم من بعيد وعلى شفتيه ابتسامة. كان يعيش مع زوجته في شقة استديو وقد امتلأت حياتهما بالكثير من التعقيدات والتشابكات وكانت تشبه حياة المهمشين في عالم الأدب. أنجب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دي سيلفا طفلًا واحدًا من زوجته وقرر أن يعود إلى السيلان بعد أن عجز عن كسب رزقه بلندن، ولكن زوجته لم تكن تريد أن تذهب إلى هناك، فدي سيلفا هو الابن الأصغر لإحدى عائلات الطبقة الراقية، عائلة متعجرفة للغاية، لذلك لم يحظَ زواج ابنهم من سيدة بيضاء بقَبولهم. نجح دي سيلفا في أن يقنع زوجته أن تعود معه إلى وطنه، لكن أفراد عائلته رفضوا أن يستقبلوها بمنزلهم، لذلك استأجر دي سيلفا غرفة لزوجته وابنه وكان يقضي نصف وقته معهما والنصف الآخر مع عائلته، رغبت زوجته في العودة إلى بريطانيا، ولكنه كان يطمئنها بأن كل شيء سيصبح على ما يرام، وأقنعها بأن تنجب طفلًا ثانيًا مع أنها لم تكن تريد ذلك، ولكن ما إن رأى هذا الطفل النور حتى هرب أبوه تاركًا زوجته وطفليها.

تلقيت مكالمة مفاجئة منه يسأل فيها عن مولي التي كانت مسافرة، قال إنه أتى إلى لندن بعد أن كسب رهانًا مع أحد الأشخاص في بومباي، وربح على إثره تذكرة مجانية إلى إنجلترا، ولكنني عرفت فيما بعد أنه كذب عليَّ، فقد سافر إلى بومباي في مهمة صحفية، وقرر فجأة أن يقترض مبلغًا من المال من أجل أن يسافر إلى لندن. كان يأمل أن تتكفل به مولي التي كان يقترض منها في الماضي، ولكنه لم يجد مولي، ولذلك حول آماله إلى آنا. أخبرته بأنني ليس لديَّ في الوقت الحالي أي مبالغ مالية يمكن أن أقرضه إياها، لم أكذب عليه، ولكنه قال لي إنه فقد الكثير من صلاته بالمجتمع الإنجليزي، فدعوته إلى الغداء حيث رتبت لمقابلته ببعض الأصدقاء، لم يأتِ، لكنه اتصل بعد أسبوع وقال إنه كان يشعر بإحباط شديد حتى إنه لم يكن بإمكانه أن يلتقي بأي شخص وإنه لم يستطع أن يتذكر رقم هاتفي في ليلة العشاء، تحدث بلهجة طفولية خجولة محاولًا أن يعتذر عما حدث، ثم قابلته لدى مولي بعد أن عادت من السفر. كان كما عهدته، ذلك الشخص الهادئ الرزين الذي ينظر دائمًا من بعيد إلى الأمور ويعلق عليها في سخرية، قال إنه حصل على وظيفة في مجال الصحافة، وتحدث بلهجة عاطفية عن زوجته التي «ستلحق به، على الأغلب في الأسبوع المقبل.» هذه هي الليلة التي لمّح لي فيها بأنه يود أن يقيم معي علاقة وأنا هربت منه، كان قرار الهروب في محله، ولكن خوفي لم يكن نتيجة للتفكير المنطقي السليم، كنت أهرب من أي رجل، ولذلك عندما اتصل بي في اليوم التالي دعوته إلى العشاء، لاحظت أنه لم يكن يأخذ كفايته من الطعام. نسي أنه اخبرني عندما كنا بمنزل مولي أن زوجته ستأتي بعد أسبوع تقريبًا، قال لي في تلك الليلة إنها «لا تود أن تترك السيلان، فهي سعيدة بحياتها هناك.» قال ذلك كأنه ذات أخرى تستمع لما يقول، حتى هذه

اللحظة كان الجو الذي ساد اللقاء وديًّا ومرحًا، لكن حديثه عن زوجته بدا كأنه تلميح جديد، فقد شعرت بذلك؛ ظل يتأملني بنظراته الهادئة التي يطل منها العداء، لم يكن هذا العداء موجهًا لي. دلفنا إلى حجرتي الكبيرة، كان يجوبها في ترقب وحذر، وقد أدار رأسه جانبًا كأنه يستمع إلى شيء ما، مرسلًا إليَّ بنظرات خاطفة مفعمة بالاهتمام، ولكنه اهتمام عام غير موجه لشخصي، ثم جلس وقال لي: «أنا أريد أن أحكي لكِ عن شيء حدث لي يا آنا، لا فلتجلسي وتسمعي يا آنا، أنا أريد أن أحكي لكِ ولا أريد منكِ شيئًا سوى أن تجلسي وتستمعي إليَّ، لا أريدكِ أن تقولي أي شيء.»

جلست أستمع إليه بدافع من تلك السلبية التي تملكتني والتي أصبحت أخشاها، فأنا أعرف أنني كان يجب أن أرفض، في تلك اللحظة بالذات كان يجب أن أرفض، لأن المسألة بأكملها تمتلئ بالعدوانية والعدائية ... لم تكن تلك المشاعر موجهة نحو شخص بعينه، ولكن رائحتها تملأ الهواء. روى لي دي سيلفا قصته وهو يبتسم وينظر إلى وجهي، تكلم كأنه ذات أخرى ترقبنا من بعيد:

منذ بضع ليالٍ تناول دي سيلفا كميات كبيرة من الماريجوانا جعلته يشعر بحالة من الانتشاء، ثم نزل بعدها إلى أحد الشوارع بمنطقة ماي فير بلندن: «أتعلمين يا آنا، إن رائحة الثراء والفساد تنتشر هناك في الهواء، أحب تلك الرائحة، فهي تجذبني، فأحيانًا أتجول هناك وأشعر بالإثارة حينما أشتم رائحة الفساد.» وقع بصره على فتاة واقفة على الرصيف فتوجه إليها مباشرة وقال: «أنا أرى أنكِ جميلة، فهلا ضاجعتني؟» قال إنه لم يكن ليفعل ذلك، لولا حالة الانتشاء تلك التي تسببها الماريجوانا أو الكحول. «لم أكن أرى أنها جميلة، ولكنها كانت ترتدي ملابس أنيقة، ولكنني عندما قلت لها ذلك خطر لي أنها جميلة، لقد وافقت ببساطة، سألته: «هل هي فتاة ليل؟» رد عليَّ بنبرة هادئة ولكنها تحمل بعض ملامح الضيق والضجر (كأنه كان متوقعًا أن أسأله هذا السؤال بل كان يريدني أن أطرحه عليه): «لا أعلم، لا يهم.» أدهشتني لهجته وهو يقول إن ذلك لا يهم، كان يصرح في هدوء تام: لا يهم أي شيء يتعلق بأي شخص آخر، أنا أتحدث عن نفسي. ردت الفتاة عليه: «أرى أنك وسيم، وأحب أن أضاجعك.» إن دي سيلفا رجل وسيم فعلًا، يمتلك ملامح جذابة فتية تبدو عليها اليقظة والانتباه، ولكن ملامحه الجذابة باردة. قال لها دي سيلفا: «أريد أن أفعل شيئًا، سوف أضاجعكِ كأنني أحبك حبًا يصل إلى الجنون، ولكن عليكِ ألا تتجاوبي معي، كل ما أريده منكِ هو أن تمارسي معي الجنس فقط، عليكِ أن تتجاهلي كل ما أقوله لكِ، هل تعدينني أن تفعلي؟» قالت له وهي تضحك: «نعم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعدك.» ثم ذهبا إلى غرفته: «كانت هذه أجمل ليلة قضيتها في حياتي يا آنا، نعم، أنا أقسم لكِ، هل تصدقين؟ نعم، صدقيني. تصرفت كأنني أحبها، أحبها حبًا يصل إلى الجنون، حتى إنني صدقت فعلًا أنها حبيبتي. يجب أن تعرفي يا آنا أن حبي لها كان مقصورًا على تلك الليلة فقط، إن هذا هو أروع شيء يمكن أن تتصوريه، كنت أقول لها إنني أحبها، وتصرفت فعلًا مثل رجل يحب حبًا مجنونًا، ولكنها كانت تخرج عن الدور المرسوم لها طوال الوقت، كنت أرى تعبيرات وجهها تتغير كل بضع دقائق وتتجاوب معي مثل أي امرأة تتجاوب مع حبيبها الذي يعشقها، اضطررت أن أوقف اللعبة وأقول لها: ليس هذا ما وعدتني به، أنا أحبك ولكنني لا أعني ذلك. مع أنني كنت أعنيه فعلًا، عشقتها في تلك الليلة وحسب، أنا لم أحب أحدًا من قبل بهذا الشكل، ولكنها كانت تفسد الأمر دائمًا بتجاوبها معي، ولذلك اضطررت أن أطردها، لأنها ظلت تبادلني مشاعر الحب.»

سألته: «هل غضبت؟» (شعرت بالغضب وأنا أسمعه، وعرفت أنه يريد أن يغضبني.) «نعم، غضبت غضبًا شديدًا، وكالت لي الشتائم، ولكنني لم أهتم بذلك. قالت إنني سادي ووحشي وكل الأشياء السيئة الأخرى، ولكنني لم أهتم بذلك، لقد عقدنا صفقة وهي وافقت عليها، ثم أفسدت كل شيء، كنت أرغب في أن أحب امرأة من دون أن يكون عليَّ أن أعطيها شيئًا في مقابل هذا الحب ولو لمرة واحدة في حياتي، ولكن بالطبع لا يهم ذلك الأمر، أنا أحكيه لكِ لأنه أمر تافه، وليس مهمًا، هل تفهمينني يا آنا؟»

– هل رأيتها بعد ذلك؟

– لا، بالطبع لا، ذهبت إلى الشارع نفسه الذي جئت بها منه، مع أنني كنت أعرف أنني لن أجدها، كنت أتمنى أن تكون فتاة ليل، ولكنني عرفت أنها ليست كذلك، فقد أخبرتني أنها ليست من الساقطات، كانت تعمل بإحدى المقاهي وقالت إنها تريد أن تحب.

روى لي دي سيلفا قصة أخرى في ذلك المساء بخصوص أحد أصدقائه المقربين، أحد الرسامين: هذا الشخص متزوج، ولكنه لم يشعر يومًا بالرضا عن علاقته الجنسية مع زوجته. (قال لي دي سيلفا: «لم يكن زواجه يومًا مشبعًا جنسيًا.» وبدا وصفه للزواج بأنه «غير مشبع جنسيًا» كأنه تعبير طبي.) يعيش هذا الرسام في الريف، وتأتي إليهم إحدى نساء القرية كل يوم لتنظف المنزل، ظل هذا الرسام يضاجع هذه المرأة مدة عام كل صباح فوق أرضية المطبخ، وزوجته بالطابق العلوي.

ذهب دي سيلفا مرة لزيارة هذا الرسام، فوجده مسافرًا هو وزوجته، فأقام بالمنزل لحين عودتهما، كانت الخادمة تأتي كل يوم كعادتها، أخبرت دي سيلفا أن صديقه اعتاد على مضاجعتها منذ عام وأنها تحبه: «ولكنني لست من مستواه، إنه يفعل ذلك فقط لأن زوجته لا ترضيه.»

– أليس هذا رائعًا يا آنا، تلك الجملة التي قالتها: زوجته لا ترضيه، إننا لا نستخدم مثل تلك التعبيرات، أمثالنا لا يستخدمون تلك التعبيرات.

قلت له: «تحدث عن نفسك.» أدار رأسه جانبًا وقال: «أعجبتني تلك الجملة، أعجبني ما بها من دفء، ولذا ضاجعت هذه المرأة أنا أيضًا، ضاجعتها ونحن نائمان على أرضية المطبخ على سجادة صغيرة مصنوعة بالمنزل مثلما كان يفعل صديقي الرسام، رغبت في مضاجعتها لأن صديقي فعل، لا أعلم لماذا، ولم آبه بالأسباب.» بعدها عادت زوجة صديقه لتهيئ المنزل قبل وصول زوجها، وسرت كثيرًا بوجود دي سيلفا، فهو صديق زوجها وهي تحاول أن «ترضي زوجها في تلك الأمور التي لا تقع في إطار المعاشرة، لأنها لم تكن تهتم به وهو معها في الفراش.» قضى دي سيلفا المساء بطوله محاولًا أن يتبين هل تعرف المرأة بأمر زوجها مع الخادمة: «ثم تبينت أنها لا تعرف، فقلت لها: «إن كون زوجك على علاقة بالخادمة لا يعني شيئًا، يجب ألّا تأبهي لذلك الأمر.» جُنَّ جنونها وثارت ثائرتها وتفجرت داخلها مشاعر الغيرة والكراهية، هل بإمكانكِ أن تفهمي ذلك يا آنا؟ ظلت تقول: يضاجع هذه المرأة كل صباح على أرضية المطبخ، تلك هي الجملة التي ظلت ترددها: «يضاجعها على أرضية المطبخ وأنا أقرأ بالطابق الأعلى.» فعل دي سيلفا كل ما بوسعه، على حد قوله، لكي يهدئ من روع زوجة صديقه، بعدها عاد صديقه إلى المنزل: «أخبرت صديقي بما فعلت وسامحني، قالت زوجته إنها ستتركه، وأرى أنها ستتركه، لأنه ضاجع الخادمة على أرضية المطبخ.»

سألته: «لماذا فعلت ذلك؟» (وبينما أنا أرهف السمع مترقبة رده إذ شعرت ببرودة تسري في جسدي، بومضة من الخوف تنعكس داخلي مثل شعاع من الضوء الخافت، لقد تملكني شعور بالسلبية الممزوجة بالخوف.)

– لماذا؟ لماذا تسألين؟ وماذا في ذلك؟ كنت أرغب في أن أرى ماذا سيحدث، هذا هو كل ما في الأمر.

ارتسمت ابتسامة على شفتيه وهو يحدثني، كانت ابتسامة ماكرة أطل منها شعوره بالمتعة والسعادة، بدا لي أنني أعرف هذه الابتسامة، نعم أعرفها، إنها تعكس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جوهر الحلم الذي راودني، فهي نفسها الابتسامة التي ارتسمت على وجه من جسدوا جوهر هذا الحلم، وددت أن أركض إلى خارج الغرفة، ولكنني كنت أفكر في أن تلك الصفة، تلك الطريقة في التفكير: «أردت أن أعرف ماذا سيحدث.» كالميكروب الذي يسبح في الهواء، إنها خصلة من خصال الكثير ممن نقابلهم، إنها جزء من نفوسنا جميعًا، إنها الوجه الآخر لتلك العبارة التي يرددها دي سيلفا كثيرًا في كلامه وهو يتحدث: «لا يهم ذلك الأمر، لم أهتم به.»

قضينا تلك الليلة معًا أنا ودي سيلفا، لمَ قضيت ليلتي معه؟ لأن الأمر ليس مهمًّا، لم أهتم به، فكون أمر من الأمور مهمًّا، واحتمالية أن يعنيني هذا الأمر، أصبحت شيئًا يلوح من بعيد، شيئًا يخص آنا الأخرى، آنا السوية، التي تلوح لي صورتها من بعيد وهي تمشي فوق رمال بيضاء، آنا التي لا أستطيع أن ألمسها مع أنني أراها بعينيَّ.

كانت الليلة سيئة لي مثل ابتسامة الشماتة التي تطل من فوق شفتيه كأنها ابتسامة شخص آخر هبطت فوق شفتيه وليست ابتسامة نابعة من داخله، كان دي سيلفا هادئًا، شارد الذهن، هائمًا في عالمه الخاص به كأنه شخص يرقب ما يحدث من بعيد، لم يكن يأبه لأي شيء، ولكنه يتحول فجأة في بعض اللحظات إلى طفل حزين يحتاج إلى أمه، كنت أنزعج من تلك اللحظات أكثر مما كان شروده الهادئ وفضوله يزعجاني، فقد كنت مصرة طوال الوقت على أنه هو من تسبب في ذلك، وليس أنا، فالرجال هم من يخلقون تلك الأجواء، هم الذين يخلقوننا. في الصباح شعرت بأنني حمقاء عندما تذكرت كيف ظللت طوال الليل متمسكة بذلك الرأي، كيف أتمسك به دائمًا، شعرت بالحمق لأنه ليس من الضروري أن أكون على صواب.

في الصباح أعددت له الإفطار، شعرت بأنني جسد بارد منعزل عما حوله، كأنني زهرة ذابلة، كأن الحياة والدفء خَبَوَا داخل نفسي، شعرت كأن دي سيلفا بدد دبيب الحياة الذي يسري في نفسي، ومع ذلك فقد انسجمنا معًا للغاية، شعرت نحوه بالود، ولكنني في الوقت ذاته شعرت أنني بعيدة عنه. قال لي وهو يغادر إنه سيتصل بي، فأجبته بأنني لن أضاجعه مرة أخرى. تغيرت ملامح وجهه فجأة وارتسم الغضب الوحشي عليها، عندما نظرت إليه رأيت ما كان عليه وجهه عندما تجاوبت معه الفتاة التي جاء بها من الطريق حينما قال لها إنه يحبها، لا بد أنه كان يبدو عندما استجابت الفتاة لغزله كالوحش الغاضب، ولكنني لم أتوقع ذلك الأمر،

ثم عاد قناع الملامح الشاردة الباسمة يكسو وجهه مرة أخرى وقال لي: «لمَ؟» أجبته: «لأن وجودي معك بالفراش من عدمه لا يهمك على الإطلاق.» تخيلت أنه سيرد عليَّ: «ولا يهمكِ أنتِ أيضًا.» وهو ما كنت سأتقبله، ولكنه بات يتحدث فجأة مثل طفل بائس مثلما كان يفعل بالأمس أحيانًا: «بل يهمني ذلك الأمر، يهمني جدًّا.» كان على وشك أن يضرب بيده على صدره ليؤكد لي على كلامه، رأيته يحرك يده تجاه صدره وقبض على أصابعه ثم أوقفها قبل أن تصل إلى صدره، مرة أخرى أشعر بأن ذلك الشعور الذي حركه ذلك الحلم الذي رأيت فيه الضباب يلف المكان، الشعور بأنه لم يعد هناك معنى لأي شيء، بأن المشاعر باتت خاوية.

أجبته: «لا، أنت لا تهتم بهذا الأمر، ولكننا يمكن أن نصبح صديقين.» هبط دي سيلفا السلم دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم اتصل بي بعد الظهيرة وحكى لي قصتين أو ثلاثة عن أشخاص كلانا يعرفهم، كان يحكي بتلك النبرة الوقحة الماكرة التي يطل منها الشعور بالشماتة، انتابتني الخشية والترقب، فقد أدركت أن لديه شيئًا لم يخرجه بعد من جعبته، لكنني لم أستطع أن أتخيل ما ذلك الشيء، ثم أبدى دي سيلفا ملاحظة عابرة: «أريدكِ أن تسمحي لإحدى صديقاتي بقضاء هذه الليلة في الغرفة الموجودة بالطابق العلوي بمنزلك، الغرفة الموجودة فوق غرفة نومكِ مباشرة.» تكلم بلهجة ممتلئة بعدم الاهتمام واللامبالاة.

– إنها غرفة جانيت. هكذا أجبته، لم أستطع فعلًا أن أفهم ماذا يريد أن يقول.

– ولكن بإمكانكِ أن تجعليها تنتقل إلى أي غرفة أخرى الليلة، ولكن لا يهم، أي غرفة بالطابق العلوي ستفي بالغرض، سوف أُحضر صديقتي في العاشرة مساء.

– أتريد أن تحضر صديقة لك إلى شقتي لتقضي ليلتها هنا؟

كم كنت غبية حتى إنني لم أفهم ما قصده، ولكن كان يجب أن أفهم من ذلك الغضب الذي تصاعد داخلي مقصد دي سيلفا.

رد عليَّ بتلك اللهجة التي يتحدث بها حينما يتكلم كأنه ذات أخرى تتحدث من بعيد: «أجل.» ثم استطرد بتلك النبرة الوقحة الشاردة: «حسنًا، لا يهم ذلك الأمر.» ثم أغلق الخط.

نهضت من مكاني وأنا أفكر، ثم أدركت بفعل ذلك الغضب الذي يتحرك داخلي ما قصده دي سيلفا، فاتصلت به مرة أخرى وسألته: «هل تعني أنك تود أن تحضر امرأة إلى منزلي لكي تضاجعها؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم، لكنها ليست صديقتي، كنت أنوي أن ألتقط أي فتاة ليل من المحطة وأحضرها إلى منزلكِ، أريد أن أضاجعها في الغرفة التي تعلو غرفتكِ مباشرة حتى يتسنى لكِ أن تسمعينا.

لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، فسألني دي سيلفا: «هل أنتِ غاضبة يا آنا؟»

أجبته: «لم تكن لتفكر في هذا الأمر قط لو لم تكن ترغب في أن تثير غضبي.»

صاح دي سيلفا كأنه طفل صغير: «أنا آسف، أنا آسف يا آنا، سامحيني.» ثم بدأ يولول ويبكي، أنا أظن أنه كان واقفًا وهو يمسك بسماعة الهاتف ويضرب صدره بيده الأخرى، أو يضرب رأسه في الحائط، كنت أسمع صوت ضربات متفاوتة القوة ربما تعني أيًّا من هذين الاحتمالين، عرفت أن دي سيلفا رتب لكل ذلك منذ البداية، منذ اللحظة التي اتصل فيها بي ليبلغني أنه سيحضر امرأة إلى منزلي، حتى ينتهي به الأمر إلى أن يضرب صدره بيده أو يضرب رأسه بالحائط، فهذا هو هدفه المنشود من كل ذلك، ولذا أغلقت الخط.

تلقيت منه بعدها خطابان، الخطاب الأول خطاب وقح وماكر وصفيق، ولكن الأهم من ذلك أنه لم يكن في محله، لم يكن متصلًا بأي شكل من الأشكال بما حدث، فهو خطاب يمكن أن يُكتب بعد حدوث عدد من المواقف التي يختلف كل منها عن الآخر، وهذا هو الهدف المرجو من ذلك الخطاب، ذلك التشتت والتفكك الذي يميزه. الخطاب الثاني وصلني بعد يومين، خطاب بعث به ذلك الطفل الذي يتألم ويولول في هستيرية. ضايقني ذلك الخطاب أكثر من الخطاب الأول.

رأيت دي سيلفا في منامي مرتين، يجسد جوهر التلذذ بإيلام الآخرين، لم يأتني في صورة مختلفة عن صورته، بل رأيته كما هو في الحقيقة، يبتسم، يرقب من بعيد، يطل من وجهه المكر والشماتة.

اتصلت بي مولي بالأمس، سمعت أنه ترك زوجته وطفليه بلا مال، ولكن عائلته، العائلة الثرية التي تنتمي إلي الطبقة الراقية، تكفلت بنفقاتهم جميعًا. قالت لي مولي: «أقنع زوجته بأن تنجب مرة أخرى مع أنها لم تكن تريد ذلك لكي تنشغل بطفلها وتتركه وشأنه، ثم جاء إلى إنجلترا لأنه، في اعتقادي، توقع أنني سأعتني به، وأسوأ ما في الموضوع هو أنه لولا أنني لم أكن هنا في تلك اللحظة الحاسمة، لكنت نظرت فقط إلى الجانب السطحي من الموضوع: مفكر مسكين من السيلان، لا يستطيع أن يكسب عيشه هناك، اضطر أن يترك زوجته وطفليه حتى يأتي إلى لندن حيث المراكز الفكرية التي تدفع أجورًا عالية، كم نحن حمقاوات، ودائمًا وأبدًا سنكون كذلك،

فنحن لا نتعلم أبدًا من أخطائنا، فأنا على يقين أنني في المرة القادمة التي أتعرض فيها لموقف مماثل سوف أقع في نفس الفخ كأنني لم أتعلم شيئًا مما حدث.»

منذ فترة تعرفت على صديق دي سيلفا، ذلك الرسام الذي حكى لي عنه، قابلته مصادفة في الطريق، فذهبنا معًا إلى إحدى المقاهي، حدثني عن دي سيلفا، كان حديثه مفعمًا بالمشاعر الدافئة. قال لي إنه أقنع دي سيلفا بأن «يترفق أكثر بزوجته.» وقال إنه مستعد لأن يدفع نصف قيمة المصروف الشهري اللازم لزوجة صديقه إذا تعهد دي سيلفا بأن يدفع النصف الآخر. سألته: «وهل يدفع لها دي سيلفا نصف ذلك المبلغ؟» أجابني وملامح الأسف ترتسم على وجهه الجذاب الذي يشع ذكاء: «لا، وهو حتمًا لن يفعل ذلك.» لم يكن الأسف الذي يطل من وجهه من أجل دي سيلفا فقط، بل يشعر بالأسف من أجل العالم أجمع. سألته مع أنني كنت أعرف الرد مسبقًا: «وأين يعيش دي سيلفا الآن؟»

– سوف يسكن بجواري في القرية التي أعيش فيها، فهو معجب بإحدى نساء القرية، إنها المرأة التي تأتي إلى منزلي كل صباح لتنظفه، وسوف تستمر في العمل لديّ، وأنا سعيد بذلك، فهي سيدة لطيفة للغاية.

قلت له: «عظيم.»

– نعم، أنا معجب به للغاية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الرابعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الرابعة

آنا ومولي أثرا في تومي تأثيرًا إيجابيًّا.
ماريون تترك ريتشارد. آنا لا تشعر بالثقة

آنا تنتظر ريتشارد ومولي، الوقت متأخر إلى حد ما فالساعة تكاد تدق الحادية عشر. الستائر مسدلة في الحجرة البيضاء عالية الحوائط، الدفاتر أُبعِدت عن مرمى البصر، وصينية فوقها مشروبات وشطائر في الانتظار. جلست مسترخية على أحد المقاعد في بلادة تسبب فيها إرهاقها النفسي. عليها الآن أن تعي أنها لم تتحكم فيما فعلته. أيضًا في وقت مبكر من هذا المساء لمحت روني يرتدي رداء النوم عبر باب إيفور الذي كان نصف مفتوح. بدا أنه عاد ليعيش معه والآن يبقى عليها أن تقرر هل ستطردهما أم لا. وجدت نفسها تفكر: ما الذي يعنيني في الأمر؟ هي لا تبالي ولو وصل الأمر إلى أن تضطر هي وجانيت لأن تلملما حاجياتهما وتتركا الشقة لإيفور وروني أو تفعلا أي شيء يجنبهما الشجار. لم يدهشها أن هذه الفكرة لا تخلو من جنون لأنها وجدت أنه من المحتمل جدًّا أنها جُنَّت. لم تصل إلى فكرة تريحها، فطوال أيام ظلت تراقب الأفكار والصور التي تمر بعقلها دون أن تصاحبها أي مشاعر ولم تنظر إليها على أنها تخصها. قال ريتشارد إنه سيصحب مولي من المسرح الذي تمثل عليه حاليًّا دور أرملة لعوب مرحة تحاول أن تختار بين أربعة أزواج جدد كل منهم يفوق الآخر جاذبية. كان من المقرر عقد مؤتمر. قبل ثلاثة أسابيع باتت ماريون في الشقة الخاوية بالطابق العلوي التي كانت تسكنها آنا وجانيت بعد أن أبقاها تومي حتى وقت متأخر من الليل. في اليوم التالي أخبر تومي والدته أن ماريون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في حاجة إلى مسكن مؤقت بلندن. طبعًا ستدفع إيجار الشقة كاملًا، مع أنها تنوي أن تستخدمها من حين لآخر فقط. منذ ذلك الوقت وماريون لا تعود لبيتها إلا مرةً واحدةً لتحضر ملابسها. صارت تعيش في الطابق العلوي، وفي الواقع انسحبت من حياة ريتشارد وأبنائها في هدوء. ومع هذا فلم يبد أنها تعرف أنها فعلت هذا، فكل صباح يندلع في مطبخ مولي شجار محموم مليء بالاعتراضات حيث تصيح ماريون إنها لم تحسن التصرف على الإطلاق حين سمحت بأن تتأخر الليلة الماضية، لكنها ستعود إلى المنزل اليوم وتهتم بالأمور كافة، وتقول: «نعم، حقًا، أعدك يا مولي» وكأن مولي هي الشخص المسئولة أمامه. اتصلت مولي بريتشارد مطالبة إياه بالتدخل، لكنه رفض، واستخدم مربية منزل من أجل الأعراف والتقاليد واستقرت سكرتيرته جين بالفعل، إنه سعيد برحيل ماريون. ثم حدث أمر آخر؛ تومي — الذي لم يغادر مأواه المنزلي منذ أن خرج من المستشفى — ذهب مع ماريون إلى اجتماع سياسي يتعلق باستقلال أفريقيا، بعد هذا خرجت مظاهرة تلقائيّة في الشوارع خارج مقر الدولة المعنية في لندن. تبع ماريون وتومي الحشد الذي كان معظمه من الطلبة، حدثت مناوشات بينهم وبين رجال الشرطة. لم يحمل تومي عصا بيضاء وبهذا لم تكن هناك علامة ظاهرية على أنه أعمى. لم يمض إلى الأمام حين طلب منه هذا فقُبِضَ عليه. ماريون — التي فصلها الحشد عنه دقائق معدودة — ألقت نفسها على رجل الشرطة مطلقةً صرخات هستيرية، أخذهما رجال الشرطة إلى القسم ومعهم عشرات آخرون، في صباح اليوم التالي جرى تغريمهما. نشرت الصحف قصة «زوجة ممول شهير بالمدينة» ملقية الضوء عليها. اتصل ريتشارد بمولي التي رفضت أن تساعده وقالت: «إنك لا تأبه البتة بأمر ماريون ولا تهتم الآن إلا لأن الصحافة تتابع الأمر وقد تكتشف أمر جين.» لذا اتصل ريتشارد بآنا. أثناء هذا الحوار نظرت آنا لنفسها وهي تقف ممسكةً بسماعة التليفون وابتسامة صفراء ترتسم على وجهها وهي تتبادل العبارات الساخطة مع ريتشارد. شعرت كأن إرادتها وُجِّهت لفعل هذا إذ شعرت كأن كل كلمة تكلمت بها هي أو ريتشارد لم يكن من الممكن أن تكون مختلفة عن التي نطقاها بالفعل، كأن ما دار بينهما هو حوار دار بين اثنين من المجانين. كان غاضبًا غضبًا جعله مشوشًا، قال: «هذه مهزلة بمعنى الكلمة. دبرت لها، أنت فعلت هذا حتى تنتقمي مني. استقلال أفريقيا، يا للمهزلة! مظاهرة خرجت تلقائيًّا. أطلقت الشيوعيين على ماريون وهي شديدة البراءة لا تعرفهم حين تراهم. كل هذا لأنك أنت ومولي تريدان أن تظهراني كالبهلوان.»

– لكن طبعًا هذا هو ما في الأمر يا عزيزي ريتشارد.
– ترين أن هذه مزحة يا زوجة مدير الشركة التي صارت شيوعية متطرفة.
– طبعًا.
– كوني على يقين من أنني سأكشفك.

دار بخلد آنا أن سبب كون هذا مثيرًا للفزع هو أن هذه البلد — بلد غير إنجلترا — ومصدر غضب ريتشارد أن هناك أناسًا سيفقدون وظائفهم أو يعتقلون أو تُطلق عليهم النيران، أما هنا فإنه لا يعدو أن يكون رجلًا سيئ المزاج، لكنه انعكاس لشيء سيئ جدًّا ... وأنا أقف هنا أطلق بعض العبارات المتهكمة البسيطة. قالت ساخرةً: «عزيزي ريتشارد، لم يخطط أي من ماريون أو تومي لحدوث هذا. كل ما في الأمر أنهما انساقا خلف الحشد.»

– انساقا خلفه! مَن تظنين نفسك خادعة؟

– كنت هناك مصادفةً، ألم تعلم أن المظاهرات في هذه الآونة على وجه الخصوص تخرج تلقائيًّا حقًّا؟ لم يعد الحزب الشيوعي ممسكًا بزمام الشباب وحزب العمال أكبر من أن ينظم مثل هذه الأنشطة، لذا فإن ما يحدث هو أن مجموعات الشباب تخرج وتعبر عن آرائها بشأن أفريقيا أو الحرب أو غير ذلك من الأمور.

– ربما وجب أن أعرف أنك ستكونين هناك.

– لا، لأن هذه مصادفة. كنت في طريقي للبيت من المسرح ورأيت حشدًا من الطلاب يندفع في الشارع، فنزلت من الحافلة وذهبت إليهم حتى ألقي نظرة. لم أعلم أن ماريون وتومي كانا هناك إلى أن قرأت هذا في الجرائد.

– إذن ما الذي تنوين فعله حيال هذا؟

– لا أنوي فعل أي شيء. تستطيع أن تتعامل مع خطر التطرف الشيوعي بنفسك.

ثم وضعت آنا سماعة الهاتف وهي تعلم أن هذه ليست النهاية وأنها في الواقع ستفعل شيئًا ما حيال هذا لأن منطقًا ما يعتمل داخلها ويجبرها على هذا. اتصلت مولي بعد هذا مباشرةً وهي في حالة انهيار، قالت: «آنا، عليك أن تقابلي تومي وتحاولي أن تجعليه يعود إلى رشده.»

– هل حاولت؟

– هذا هو الغريب في الأمر، إن المحاولة نفسها بات صعبة عليّ. أظل أقول لنفسي إنني لا أستطيع أن أواصل العيش غريبةً في بيتي وماريون وتومي يستوليان عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لِمَ عليّ احتمال هذا؟ لكن عندها يحدث أمر غريب؛ أستجمع قوتي لأذهب وأواجههما، لكن ليس من الممكن مواجهة ماريون لأنها ليست موجودة. أجدني أقول لنفسي: «حسنًا، لم لا؟ ما المشكلة؟ هذا لا يهم» أجد نفسي أهز كتفي. أعود من المسرح وأتسلل لأعلى في بيتي حتى لا أزعج ماريون وتومي، وأكاد أشعر بالذنب لأنني في المنزل أساسًا. هل تفهمينني؟

– نعم، للأسف.

– حسنًا، ولكن هذا ما يخيفني: إن أردنا وصف الموقف حقًّا سنجد أن زوجة مطلقي تنتقل إلى منزلي لأنها لا تستطيع أن تعيش بعيدًا عن ابني ... إلخ، هذا ليس غريبًا وحسب، لكنه ... لكن بالطبع هذا ليس له علاقة بأي شيء. هل تعلمين ما دار بخلدي أمس يا آنا؟ كنت في الطابق العلوي جالسةً كأن على رأسي الطير حتى لا أزعج ماريون وتومي أفكر في أن أحزم متاعي وأهيم إلى مكان ما وأتركهما وشأنهما، وفكرت في أن الجيل التالي سيلقي نظرةً على جيلنا وبعدها يتزوج وهو في سن الثامنة عشر، ويحرم الطلاق، ويتبنى القواعد الأخلاقية الصارمة وما إلى ذلك، لأن الفوضى البديلة مرعبة إلى أقصى مدى ... عندها تهدج صوت مولي وأنهت المكالمة سريعًا: «أرجوك قابليهما يا آنا، علينا أن نفعل هذا لأنني لا أستطيع نهائيًّا أن أتحمل تلك الأوضاع.» ارتدت آنا معطفها وأخذت حقيبتها واستعدت لأن «تواجه». لم يكن لديها أي فكرة على الإطلاق عما ستقوله، ولم تستقر على رأي بعد. كانت تقف في منتصف الحجرة خاوية الرأس كطفل حديث الولادة، على استعداد لأن تذهب إلى ماريون وتومي، وماذا؟ فكرت في ريتشارد، في غضبه المعتاد الذي لا يفضي إلى شيء، في مولي التي ذهبت شجاعتها ولم يبق لها سوى البكاء الفاتر، في ماريون التي تجاوزت الألم إلى هستيريا باردة، في تومي، لكن لم يكن بوسعها سوى أن تراه، أن ترى الوجه الأعمى العنيد، بوسعها أن تشعر بالقوة المنبعثة منه، لكنها لم تستطع أن تصفها. فجأة ضحكت، سمعت آنا الضحكة، نعم هذه الضحكة التي أطلقها تومي الليلة التي جاء يزورني فيها قبل أن يحاول قتل نفسه. يا للغرابة! لم أسمع نفسي أطلق مثل هذه الضحكة من قبل قط. ما الذي حدث للشخص الساكن في تومي الذي أطلق مثل هذه الضحكة؟ لقد ذهب إلى الأبد، أظن أن تومي قتله حين اخترقت الرصاصة رأسه. كم من الغريب أن أطلق تلك الضحكة المدوية عديمة المعنى! ما الذي سأقوله لتومي؟ أنا لا أعرف ما الذي يحدث. ما الهدف وراء كل هذا؟ عليّ أن أذهب إلى ماريون وتومي وأقول: عليكما التوقف عن ادعاء الاهتمام بالقومية الأفريقية، فكلاكما يعرف

جيدًا أن هذا ليس إلا هراء؟ ضحكت آنا مرة أخرى على تفاهة الموقف. حسنًا، ما الذي سيقوله توم ماثلونج؟ تخيلت نفسها جالسةً على منضدة في مقهى على الجانب المواجه لتوم ماثلونج تخبره بشأن ماريون وتومي. سوف يستمع إليها ثم يقول: «آنا، أتخبرينني أن هذين الشخصين اختارا أن يعملا لأجل تحرير أفريقيا؟ لم علي أن آبه بشأن دوافعهما؟» لكن عندها سيضحك. نعم، بوسع آنا أن تسمع ضحكته، عميقة قوية نابعة من أعماقه. نعم، سيضع يديه على ركبتيه ويضحك ثم يهز رأسه ويقول: «عزيزتي آنا، أتمنى لو كانت مشكلاتنا كمشكلاتك.» سماع الضحكة جعل آنا تشعر بأنها أفضل حالًا. جمعت سريعًا مجموعات متنوعة من الأوراق بعد أن ألهمها بهذا التفكير في توم ماثلونج. وضعتها في حقيبتها ثم جرت إلى الشارع بمحاذاة بيت مولي. وهي تسير فكرت في المظاهرة التي اعْتُقِل فيها ماريون وتومي، لم تحمل المظاهرة أي وجه شبه بالمظاهرات السياسية المنظمة التي كان الحزب الشيوعي ينظمها في الأيام الخوالي، ولم تحمل أي شَبَه بتجمعات حزب العمال، بل كانت متقلبةً تحمل طابعًا تجريبيًّا، والناس يقومون بأمور دون أن يعرفوا لم يقومون بها؛ تدفق شلال الشباب في الشارع مندفعًا نحو المقر الرئيسي مثلما تندفع المياه، لم يكن بينهم مَن يوجههم أو يقودهم، ثم التف شلال الشباب حول المبنى هاتفًا بشعارات على نحو يكاد يكون تجريبيًّا مشوبًا بالتردد وكأنهم يصغون السمع لأنفسهم ليسمعوا كيف يبدو صوتهم، ثم وصلت الشرطة، كان رجال الشرطة أيضًا مترددين مفتقرين للثقة، لم يكونوا واثقين مما ينتظرهم. وقفت آنا جانبًا وراقبت المشهد، فوجدت أنه وراء حركة الناس والشرطة المضطربة المتقلبة يوجد نمط دفين أو دافع ما يحكم حركة ... أو دافع يحركهم. نحو اثني عشر أو عشرين شابًا يتحركون على نحو يتعمد إغضاب رجال الشرطة وإثارتهم، ووجوههم جميعًا تحمل نفس النظرة المتجهمة التي تمتلئ عزمًا وإصرارًا، يندفون أمام أحد رجال الشرطة أو يقتربون منه إلى حد يجعل خوذته تميل إلى الأمام أو يدفع ذراعه على نحو يبدو أنه حدث عن غير قصد، يبتعدون سريعًا ثم يعودون. راقب رجال الشرطة مجموعة الشباب هذه وقبضوا عليهم واحدًا واحدًا لأنهم يتصرفون على نحو يُوجِب القبض عليهم، ولحظة القبض عليهم كان كل وجه من وجوههم يحمل نظرة رضا، نظرة إنجاز. مرت لحظات صراع داخلي لجأ فيها رجال الشرطة لأقصى وحشية يجرءون عليها وعلى وجوههم نظرة قسوة مفاجئة. في غضون هذا فإن جموع الطلاب التي لم تأت لتشبع حاجتها الشخصية في تحدي السلطات وتلقي عقابها استمرت في إلقاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشعارات وفي إنزال آرائها السياسية إلى أرض الواقع، والعلاقة التي تربطهم برجال الشرطة مختلفةً تمامًا فلا شيء يربطهما على الإطلاق. ويا لها من نظرة تلك التي حملها وجه تومي عند اعتقاله؟ عرفتها آنا دون أن تراها. عندما فتحت باب غرفة تومي وجدته بمفرده، سأل على الفور: «أهذه آنا؟» منعت آنا نفسها من أن تسأل: «كيف عرفت؟» وسألته: «أين ماريون؟»

قال بنبرة جافة تشي بعدم الثقة: «في الطابق الأعلى.» ربما قال بصوت مرتفع: «لا أريدك أن تريها.» عينه السوداء الخاوية كانت تركز على آنا لا تكاد تتحول عنها حتى إنها شعرت كأنها تعرت أمامه، نظرته القاتمة كانت ثقيلة الوطأة، لكن عينه لم تركز عليها بمعنى الكلمة، فآنا التي يحذرها أو ينهرها كانت واقفةً عن يسارها قليلًا. شعرت آنا، وقد مسها خوف شديد، أنها مجبرة على أن تتحرك يسارًا في اتجاه خط رؤيته، أو خط عماه. قالت آنا: «سوف أصعد لها، أرجوك لا تقلق.» قالت هذا لأنه هم بأن يقوم حتى يمنعها. أغلقت الباب وصعدت إلى الشقة التي تعيش فيها مع جانيت. جال في خاطرها أنها تركت تومي لأنه لا تربطها به أي صلة وليس لديها ما تقول، وأنها ستقابل ماريون وليس لديها ما تقوله لها. السلالم ضيقة مظلمة. صعدت رأس آنا من بئر الظلام درجة سلم ضئيلة تفصل بين مجموعتي السلالم. عبر الباب رأت ماريون منحنيةً على جريدة، حيت آنا بابتسامة فرحة ودودة، وصاحت: «انظري» وهي تلقي بالصحيفة على آنا في نشوة انتصار، في الصحيفة صورة لماريون ترافقها الكلمات الآتية: «الطريقة التي يُعامل بها الأفريقيون المساكين مثيرة للغثيان» ... إلخ. التعليق يشي بالخبث، لكن يبدو أن ماريون لم تر هذا. اشرأبت من فوق كتف آنا وقرأت وهي تبتسم دافعةً كتفيها في رفق ومشاغبة وهي تكاد تتلوى في فرح: «أمي وأخواتي يستشطن غضبًا وكاد أن يجن جنونهن.»

قالت آنا في جفاء: «أتفهم هذا.» سمعت صوتها المنخفض المحمل بالنقد ورأت ماريون تجفل بسببه. جلست آنا على الكرسي المغطى بغطاء أبيض، جلست ماريون على السرير، بدت رائعة تلك الزوجة الكبيرة الجميلة غير المنظمة، بدت جذابةً ذات دلال. قالت آنا لنفسها: «المفترض أنني هنا لأجعل ماريون تواجه الحقيقة. ما حقيقتها؟ لم لا ندعها على حالها؟ لم لا تمضي ما تبقى من حياتها في الضحك وإمالة خوذات رجال الشرطة والتآمر مع تومي؟»

قالت ماريون بعد أن انتظرت أن تقول آنا شيئًا ما: «أسعدتني رؤيتك يا آنا، هل تحبين أن أعد لك كوبًا من الشاي؟»

قالت آنا وهي تقوم: «كلا.» لكن الأوان فات إذ إن ماريون خرجت بالفعل من الحجرة ودخلت المطبخ الصغير المجاور، تبعتها آنا: «يا لها من شقة صغيرة جميلة، كم تعجبني، وكم أنت محظوظة لأنك تعيشين هنا، لم أكن لأستطيع أن أجبر نفسي على الرحيل.»

قلبت آنا بصرها في الشقة الصغيرة الساحرة ذات الأسقف المنخفضة والنوافذ التي تتلألأ. كل ما حولها أبيض، زاهٍ، أنيق. كل شيء فيها يثير داخلها الألم لأن هذه الحجرات الباسمة الصغيرة احتضنت حبها هي ومايكل وأربع سنوات من طفولة جانيت والصداقة التي نمت بينها وبين مولي. استندت آنا على الحائط ونظرت إلى ماريون التي تلتمع عيناها بلمعة هستيرية وهي تقوم بدور مضيفة رشيقة، ووراء الهستيريا اعتمل داخلها رعب قاتل من أن ترسلها آنا إلى بيتها بعيدًا عن هذا الملجأ الأبيض الذي تهرب إليه من المسئولية. دخلت آنا في حالة من التبلد، شيء ما داخلها مات، أو انفصل عما يحدث، صارت منعزلة. وقفت هناك تعمل الفكر في كلمات مثل الحب والصداقة والواجب والمسئولية مدركةً أنها جميعًا أكاذيب. شعرت بنفسها تهز كتفيها، وماريون ترى هزة الكتف استبد الرعب الحقيقي بوجهها وقالت: «آنا!» كان هذا رجاءً. واجهت آنا ماريون بابتسامة علمت أنها خاوية وقالت لنفسها: «حسنًا، هذا لا يهم البتة.» عادت إلى الحجرة الأخرى وجلست شاعرةً بعبثية الحياة. سرعان ما دخلت ماريون بصينية الشاي، بدا عليها شعور بالذنب ورغبة في التحدي بسبب آنا التي توقعت أن تواجهها. بدأت بإحداث جلبة كبيرة بملاعق الشاي وفناجينه حتى تثني آنا التي لم تكن هناك، ثم تنهدت ودفعت صينية الشاي بعيدًا ثم لان وجهها، قالت: «أعرف أن ريتشارد ومولي طلبا منك أن تأتي وتتحدثي معي.» جلست آنا صامتةً، شعرت أنها ستظل صامتةً إلى الأبد، ثم عرفت أنها ستبدأ الكلام. قالت لنفسها: «أتساءل ما الذي سأقوله؟ وأتساءل من الشخص الذي سيقول هذا الكلام؟ كم من الريب أن أجلس هنا منتظرةً سماع الذي سأقوله.» قالت وهي تكاد تكون حالمةً: «ماريون، هل تتذكرين السيد ماثلونج؟» قالت لنفسها: «سأتحدث عن توم ماثلونج، أليس كذلك، كم هذا غريب!»

– من هو السيد ماثلونج؟

– القائد الأفريقي. هل تتذكرين، أتيت لتقابليني بشأنه؟

– آه صحيح، غاب عني الاسم لحظة.

– كنت أفكر فيه هذا الصباح.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– حقًّا؟

– نعم، حقًّا. (ظل صوت آنا هادئًا لا يحمل أي انفعال، واصلت الاستماع إليه.)

بدا على ماريون علامات الاهتمام والألم. كانت تشد بقوة خصلة شعر مرسلة ثم لفت إياها حول سبابتها.

– عندما كان هنا منذ عامين، كان محبطًا جدًّا، فقد ظل يحاول طوال أسبوعين أن يقابل الوزير المختص بشئون المستعمرات لكنه قوبل بالرفض والازدراء. وكان يتوقع إلى حد بعيد أنهم سيعتقلونه قريبًا جدًّا. إنه رجل خارق الذكاء يا ماريون.

– صحيح، أنا واثقة من أنه كذلك. الابتسامة التي ابتسمتها ماريون لآنا كانت سريعة وعفوية وكأنها تقول: «نعم، أنت ماهرة، أعرف ما الذي ترمين إليه.»

– يوم الأحد اتصل بي وقال إنه متعب وفي حاجة إلى راحة. لذا صحبته إلى جرينتش في مركب نهري. ونحن عائدان ظل صامتًا، جلس في المركب مبتسمًا، كان ينظر إلى ضفتيه. أتعلمين يا ماريون أن منظر لندن يكون مبهرًا جدًّا والمرء عائد من جرينتش؟ مقر مجلس البلدية، المباني التجارية الضخمة، وأرصفة الميناء والسفن وأحواضها، ثم ويستمنستر ...» (كانت آنا تتحدث بصوت منخفض ولا تزال مشغولةً بإيجاد ما ستقوله بعد هذا.) «كل هذا ظل هنا طوال قرون. سألته عما يفكر فيه، قال: «لا يحبطني المستعمرون البيض. لم أحبط حين زُج بي في السجن المرة السابقة، فالتاريخ في جانب شعبنا. لكن بعد ظهر هذا اليوم أشعر بوطأة المملكة البريطانية تجثم على صدري كأنها شاهد الضريح. هل تعلمين كم نستغرق من السنوات حتى نصنع مجتمعًا تنطلق فيه الحافلات في الوقت المخصص لها، ويجيب المختصون على الرسائل المتعلقة بالعمل بكفاءة، ويستطيع المرء فيه أن يثق بأن الوزراء لن يتقاضوا رشاوى؟» كنا نمر بوستمنستر وأتذكر أنني قلت لنفسي إن عددًا قليلًا جدًّا من هؤلاء السياسيين الذين يتمتِعون بنصف ما يتمتع به من سمات، لأنه يشبه القديسين يا ماريون ...» تهدج صوت آنا، سمعته وقالت لنفسها: «الآن أعرف ما الذي يحدث، أنا في حالة من الهستيريا.» أصابتها الهستيريا التي أصابت ماريون وتومي. لا أسيطر البتة على ما أفعل. دارت الأفكار التالية بخلدها: «أتفوه بكلمة مثل قديس، أنا لا أتفوه بها البتة حين أكون في حالتي الطبيعية، فأنا لا أعرف معناها.» واصل صوتها انطلاقه لكنه ارتفع بدرجة أكبر وصار حادًّا إلى حد ما، قالت: «نعم، إنه قديس، قديس زاهد لكنه لا يغالي في زهده. أخبرته أنه من المؤسف جدًّا أن يفكر المرء في أن استقلال أفريقيا يختزل إلى مسألة انضباط الحافلات وحسن هندام الخطابات

المتعلقة بالعمل. قال إن هذا ربما يكون مؤسفًا، لكن هذه هي المعايير التي سيحكم على بلده وفقًا لها.» بكت آنا، جلست تبكي وتراقب نفسها وهي تبكي. راقبتها ماريون وهي تميل للأمام وعيناها تلمعان، والفضول يعتريها والاستنكار يسيطر عليها، سيطرت آنا على دموعها وواصلت حديثها: «نزلنا في وستمنستر. مشينا إلى البرلمان. قال وأظن أنه كان يفكر في السياسيين الحقيرين داخله: «كان يجب ألّا أشتغل بالسياسة من الأساس. ينخرط ألوان الرجال كافة في حركات التحرير القومية بالمصادفة تقريبًا مثلما يُزج بأوراق الشجر في الزوابع.» فكر فيما قاله لحظةً ثم أضاف: «أظن أن هناك احتمالًا كبيرًا أن أجد نفسي في المعتقل مرةً أخرى بعد أن نحصل على الاستقلال. لست الرجل المناسب للسنوات الأولى للثورة. لا أحب أن ألقي الخطب على الناس. أشعر بسعادة أكبر حين أكتب المقالات التحليلية.» ثم ذهبنا لنحتسي الشاي وقال: «أتوقع أن أمضي مدة طويلة من حياتي في السجن على نحو أو آخر.» هذا ما قاله.» تهدج صوت آنا مرةً أخرى، كانت تقول لنفسها: «يا إلهي، لو كنت جالسةً هنا أراقب نفسي لأصابني الغثيان بسبب كل هذه الانفعالات. حسنًا، إنني أتسبب في إثارة نفسي.» قالت بصوت مرتفع يرتعش: «علينا ألا نتسبب في أن يبدو ما يمثله رخيصًا.» كانت تقول لنفسها: «أنا أجعل ما يمثله يبدو رخيصًا بكل كلمة أنطقها.

قالت ماريون: «هو يبدو رائعًا، لكن لا يمكن أن يكونوا جميعًا مثله.»

– بالتأكيد لا، فصديقه يتقعر في كلامه، ويحث الناس على العنف لتحقيق مصالحه الشخصية، ويشرب الخمر ويمارس الرذيلة. الأرجح أنه سيصبح أول رئيس وزراء فهو يتمتع بكل الصفات اللازمة لهذا وبالقدرة على إبهار الناس، كما تفهمين.

ضحكت ماريون. ضحكت آنا. كان الضحك عاليًا جدًا خارجًا عن السيطرة.

واصلت آنا حديثها: «هناك شخص آخر» (جال في خاطرها: «من؟ بالتأكيد لن أتحدث عن تشارلي ثمبا؟) «هو رئيس اتحاد نقابة العمال، اسمه تشارلي ثمبا، هو عنيف وانفعالي يثير المشاكل ويدين بالولاء للدولة، وقد انهار منذ وقت قريب.»

قالت ماريون فجأة: «انهار؟ ماذا تقصدين؟»

قالت آنا لنفسها: «نعم، كنت أنوي أن أتحدث عن شارلي طوال الوقت. في الواقع هذا على الأرجح ما كنت أمهد الطريق له طوال الوقت.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أصيب بانهيار عصبي. لكن أتعلمين يا ماريون الغريب في الأمر أن أحدًا لم يلحظ العلامات الدالة على بداية انهياره، لأن السياسة هناك تشبه إلى حد ما السياسة في إنجلترا في عهد الملكة إليزابيث، فهم عنيفون، يكيد بعضهم لبعض المكائد، ويحملون في صدورهم الغيرة والضغينة ....

صمتت آنا، كانت ماريون تقطب جبينها انزعاجًا.

– ماريون هل تعلمين أنك تبدين غاضبة.

– أحقًّا.

– نعم وهذا لأن الناس يعدون الإشفاق عليهم نقرة والإقرار بأن السياسة الأفريقية من الممكن أن تحمل أي وجه شبه بالسياسة الإنجليزية نقرة أخرى ولو كان هذا في عهد بعيد.

احمر وجه ماريون ثم ضحكت وقالت: «تابعي حديثك عنه.»

– حسنًا، بدأ تشارلي يتشاجر مع توم ماثلونج الذي كان أقرب أصدقائه ثم مع جميع أصدقائه متهمًا إياهم بأنهم يكيدون له، ثم بدأ يكتب خطابات لاذعة لأناس مثلي هنا، لم نر ما كان علينا أن نراه. وفجأة وصلني خطاب أحضرته معي، هل تحبين الاطلاع عليه؟

مدت ماريون يدها فوضعت آنا الخطاب فيها. كان ما يلي يدور في خلد آنا: «حين وضعت هذا الخطاب في حقيبتي لم أكن أعي لماذا فعلت هذا ... الخطاب نسخة كربونية، وأُرسل لعدد من الأشخاص، «عزيزتي آنا» كتبت بقلم رصاص في أعلى الصفحة: «عزيزتي آنا، في خطابي الأخير أطلعتك على المكائد التي تحاك ضدي والأعداء الذين يدبرون لاغتيالي. مَن كانوا أصدقائي انقلبوا عليّ ويقولون للناس في خطب تلقى في منطقة نفوذي إنني عدو مجلس النواب وعدوهم. في حين إنني مريض وأكتب إليك لأسألك أن ترسلي لي غذاء نظيفًا لأنني أخشى أيادي من يريدون دث السم لي. أنا مريض إذ إني اكتشفت أن زوجتي تعمل لحساب الشرطة والمحافظ نفسه، هي امرأة سيئة جدًّا يجب أن أطلقها. قُبض عليّ دون مبرر قانوني مرتين وعليّ أن أتحمل هذه المعاناة دون عون. وحدي في بيتي. عيون تراقبني من خلال السقف والجدران. يُطعمونني أنواعًا كثيرة من الأغذية المضرة التي تتنوع ما بين لحم البشر (لحم البشر الأموات) ولحم الزواحف، ومن بينها التماسيح. التماسيح ستثأر مني. ليلًا أرى عيونها تلمع في وجهي، وأنف التمساح وفكه يأتيان نحوي عبر الجدران. عجلي بمساعدتي. مع خالص تحياتي الأخوية، تشارلي ثمبا.» تركت ماريون اليد

التي حملت الخطاب تسقط جانبًا. جلست صامتةً ثم تنهدت. نهضت وهي تمشي كمن يمشون أثناء النوم، وأعطت آنا الخطاب ثم جلست مرةً أخرى مسويةً التنورة تحتها ومربِّعَةً يديها. قالت وهي تكاد تكون حالمةً: «آنا، لم أنم طوال الليلة الماضية. لا أستطيع العودة لريتشارد، لا أستطيع.»

– وماذا عن الأطفال؟

– نعم، أعرف، لكن الأمر الرهيب هو أنني لا آبه. ننجب أطفالًا لأننا نحب رجلًا ما. حسنًا، هذا رأيي. تقولين إن هذا لا ينطبق عليك، لكنه ينطبق عليّ. أكره ريتشارد. أكرهه حقًّا. أظن أنني ظللت أكرهه لسنوات دون أن أدري ولا بد.» نهضت ماريون في بطء بالحركة نفسها التي تشبه حركات من يمشون أثناء النوم. جابت عيناها الحجرة بحثًا عن خمر. زجاجة ويسكي صغيرة تقف فوق كومة كتب. ملأت نصف الكأس وجلست ماسكةً إياها تتجرع منها على دفعات صغيرة.

– إذن لم لا أبقى هنا مع تومي؟ لم لا؟

– لكن يا ماريون، هذا بيت مولي ....

في هذه اللحظة صدر صوت من أسفل السلالم. تومي يصعد. رأت آنا كيف تحرك جسد ماريون بحيث يمكنها من السيطرة على نفسها. وضعت كأس الويسكي جانبًا ومسحت فمها سريعًا بمنديل. نسيت نفسها وهي تفكر في أن «هذه السلالم تتسبب في الانزلاق لكنني يجب ألّا أساعده.» وفي بطء صعدت القدمان الراسختان العمياوان السلالم. توقفتا على الدرجة العريضة التي تفصل مجموعتي الدرجات وتومي يستدير متحسسًا الجدران، ثم دخل. لأنه لا يألف هذه الحجرة وقف ويده على حافة الباب ثم أدار وجهه الداكن نحو منتصف الحجرة وترك الباب ثم مضى للأمام.

قالت ماريون: «لليسار قليلًا». حرك نفسه يسارًا وخطى خطوة زائدة فصدم ركبته بطرف السرير واستدار استدارة سريعة حتى يحول دون سقوطه ثم جلس صادمًا نفسه مرةً أخرى، بعد هذا جابت عيناه الحجرة متسائلتين.

قالت آنا: «أنا هنا.»

قالت ماريون: «أنا هنا.»

قال لماريون: «أظن أنه حان وقت إعداد العشاء، وإلا فلن يبقى أمامنا وقت قبل الاجتماع.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت ماريون لآنا وهي تشعر بمزيج من السعادة والإحساس بالذنب: «سنذهب إلى الاجتماع المهم الليلة.» قابلت عيناها عيني آنا فكشرت وأشاحت بوجهها. وفي تلك اللحظة رأت آنا، أو شعرت، أن ما كان من المتوقع أن «تقوله» لماريون وتومي قد قيل. قالت ماريون لتومي: «ترى آنا أننا نتعامل مع الأمور على النحو الخاطئ.»

أدار تومي رأسه نحو آنا، وتحركت شفتاه الممتلئتان العنيدتان، هذه حركة جديدة، إذ اضطربت شفتاه كأن كل التردد الذي رفض أن يعكسه عَمَاه ظهر فيهما. فمه الذي كان فيما سبق بدا الآن أنه الشيء الوحيد الخارج عن السيطرة، إذ إنه لم يكن على وعي بأنه يجلس ويحرك فمه. في ضوء الحجرة جلس منتبهًا على السرير، كان صغيرًا جدًّا، شاحبًا جدًّا، كفتى قليل الحيلة ذي فم ضعيف مثير للشفقة.

سأل: «لماذا؟ لماذا؟»

قالت آنا سامعةً صوتها يخرج مرةً أخرى جافًّا وقد تلاشت الهستريا منه تمامًا: «كل ما في الأمر هو أن لندن تعج بطلاب يندفعون في كل مكان مصطدمين برجال الشرطة، أما أنتما ففي موقع جيد يمكنكما من دراسة الأمور كافة ومن أن تصبحا خبيرين.»

قال تومي: «ظننت أنك أتيت إلى هنا لتأخذي ماريون مني، لم عليها أن تعود لأبي؟ هل ستجعلينها تعود إليه.»

قالت آنا: «اسمعا، لم لا تذهبان لرحلة بعض الوقت؟ هذا سيمنح ماريون وقتًا تفكر فيما ستفعل وسيمنحك فرصةً لأن تحاول التحليق خارج هذا المنزل يا تومي.»

قالت ماريون: «لا أحتاج لأن أفكر، لن أعود إليه. ما الحكمة وراء هذا؟ إنني لا أعرف ماذا علي أن أفعل بحياتي لكنني أعلم أن العودة لريتشارد تعني نهايتي.» ملأت الدموع عينيها ونهضت وهربت إلى المطبخ. استمع تومي لخطوات رحيلها وهو يدير رأسه، وأصغى السمع لتحركاتها في المطبخ، وبدا أنه يفعل هذا بعضلات رقبته الملوية.

قالت آنا بصوت منخفض: «كنت رائعًا مع ماريون.»

قال، وهو يتحرق شوقًا لأن يسمعها، «حقًّا؟»

– كل ما في الأمر هو أن عليك أن تقف بجوارها، ليس سهلًا أن ينهار زواج دام عشرين سنة، عمر هذا الزواج يبلغ مثل عمرك تقريبًا. نهضت وأضافت: «ولا أظن أن عليك أن تعاملنا جميعًا معاملة قاسية» قالت هذه العبارة بصوت منخفض سريع بدا لدهشتها كتوسل. كانت تقول لنفسها: «هذا ليس شعوري، لِمَ أقول هذا؟»

ابتسم وبدا عليه الاهتمام وكست وجهه مسحة حزنٍ وحمرة خجلٍ. ابتسامته كانت موجهة إلى مكان ما يلي كتفها الأيسر مباشرةً. تحركت حتى تصبح في اتجاه نظرته. قالت لنفسها: «أي كلمة أنطق بها الآن سيسمعها تومي القديم.» لكنها لم تستطع أن تفكر ماذا تقول.

– قال تومي: «أعرف ما الذي تفكرين فيه يا آنا.»

– فيم أفكر؟

– في مكان ما في أعماق عقلك تقولين: ما أنا إلا شخص يقدم خدمات اجتماعية، يا لهذا من مضيعة للوقت.» ضحكت آنا وشعرت بالارتياح لأنه يحاول أن يغيظها. قالت: «شيء من هذا القبيل.

قال بلهجة انتصار: «نعم أعلم أنك كنت تفكرين في هذا. حسنًا يا آنا، ظللت أفكر كثيرًا في مثل هذه الأمور منذ أن حاولت أن أطلق النار على نفسي، وتوصلت إلى أنك مخطئة. أظن أن الناس يحتاجون من الآخرين أن يكونوا طيبين معهم.»

– ربما تكون محقًّا.

– نعم. لا أحد يظن حقًّا أن الأفكار البراقة تؤتي أي ثمار.

– قالت آنا بصوت خال من المشاعر: «أحقًّا؟» مفكرةً في المظاهرة التي حضرها تومي.

سألته: «ألم تعد ماريون تقرأ لك الصحف؟»

ابتسم ابتسامةً خالية من المشاعر مثلها وقال: «آه، أعرف ما الذي تقصدين، لكن مع هذا ما أقوله هو الصواب. ألا تعلمين ما الذي يريده الناس حقًّا؟ أقصد الناس جميعًا. كل من في العالم يقولون لأنفسهم: «أتمنى لو كان هناك شخص واحد أستطيع فعلًا أن أتحدث معه، يستطيع أن يفهمني فهمًا صادقًا، ويكون عطوفًا عليّ.» هذا ما يريده الناس حقًّا، إن أرادوا الصدق.»

– حسنًا يا تومي ....

– آه، أعرف أنك تقولين لنفسك إن الحادث دمر عقلي وربما يكون هذا صحيحًا، أحيانًا أقول هذا لنفسي، لكنني أرى أن ما قلته هو الحقيقة.

– ليس هذا السبب الذي يجعلني أتساءل هل تغيرت بل الطريقة التي تتعامل بها مع والدتك.

رأت آنا الدماء تُضخ في وجهه، ثم أطرق وظل صامتًا. حرك يده حركةً مفادها: «حسنًا، ولكن دعيني وشأني.» آلمته آنا وخرجت مجتازة ماريون التي كانت تعطيها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظهرها. ذهبت آنا للبيت على مهل. لم تعرف ما الذي حدث بينهما أو لماذا حدث أو ما المتوقع بعد هذا، لكنها عرفت أن حاجزًا ما كُسر وأن الأمور كلها ستتغير.

استلقت لبعض الوقت ثم اعتنت بجانيت حين عادت من المدرسة ولمحت روني لمحةً أنبأتها بأن تتوقع معركة ضارية، وبعدها جلست تنتظر مولي وريتشارد. حين سمعتهما يصعدان السلم هيأت نفسها للشجار المحتوم، لكن في الواقع لم يكن هذا ضروريًّا. دخلا عليها مثلما يدخل الأصدقاء تقريبًا. الواضح أن مولي عزمت على ألا تصعد الأمور. أيضًا لم يكن أمامها وقت لتزين وجهها بعد المسرح لذا فإن حيويتها التي تثير ريتشارد دائمًا كانت غائبة، جلسا، صبَّت المشروبات، قالت: «رأيتهما، وأظن أن الأمور ستسير على ما يرام.»

سأل ريتشارد في تهكم بدا في الكلمات ولم تحمله لهجته: «وكيف حققت هذا التغيير المعجِز؟»

– لست أعرف.

ساد الصمت وتبادل مولي وريتشارد النظرات.

– حقًّا لا أعرف، لكن ماريون تقول إنها لن تعود إليك. وأظن أنها جادة في هذا، واقترحت عليهما أن يذهبا لرحلة في مكان ما.

قال ريتشارد: «لكنني ظللت أردد هذا طوال شهور.»

– أظن أنك لو عرضت على تومي وماريون رحلةً واقترحت أن ... لذهبا.

قال ريتشارد: «يدهشني حقًّا أنكما تأتيان بأفكار اقترحتها منذ وقت بعيد وتطرحانها كما لو كانت اقتراحات جديدة مبهرة.»

قالت آنا: «تغيرت الأمور.»

قال ريتشارد: «وأنت لا توضحين السبب.»

ترددت آنا ثم قالت موجهةً كلامها لمولي وليس لريتشارد: «كان الأمر غريبًا جدًّا. توجهت إلى هناك دون أن يكون في بالي أي فكرة عما سأقوله، ثم صرت في حالة هستيرية مثلهما حتى إنني بكيت. نجح الأمر. هل تفهمين؟»

فكرت مولي ثم أومأت برأسها إيجابًا.

قال ريتشارد: «حسنًا، لا أفهم، لكن هذا لا يعنيني. ماذا سيحدث بعد هذا؟»

– عليك أن تذهب لتقابل ماريون وتصلح ما فسد، ولا توبخها يا ريتشارد.

قال ريتشارد شاعرًا بالظلم: «أنا لا أوبخها، هي من يوبخني.»

– أظن أنه من الأفضل أن تتحدثي إلى تومي الليلة يا مولي، وصلني شعور بأنه ربما يكون على استعداد للتحدث.

– في هذه الحالة سأذهب الآن قبل أن يخلد للنوم.

نهضت مولي وريتشارد معها.

قال ريتشارد: «أدين لك بالشكر الجزيل يا آنا.»

ضحكت مولي وقالت: «سنعود للمشاحنات المعتادة المرة القادمة، أنا واثقة من هذا، لكن يسعدني أن نتعامل بهذا الأدب ولو مرة واحدة.»

ضحك ريتشارد على مضض، لكنه ضحك، وأمسك بذراع مولي ونزلا السلالم. صعدت آنا لجانيت وجلست بجوار الطفلة النائمة في الظلام. شعرت بما ينتابها عادةً مِن موجة حب تحمل في طياتها رغبةً في حماية الحبيبة، لكن الليلة أعملت النقد في هذا الشعور: «لا أعلم شخصًا بلغ الكمال، أو نجا من العذاب أو من الصراعات، أفضل ما يمكن أن يقوله المرء عن البشر هو أنهم يتصارعون، لكنني حين ألمس جانيت أشعر على الفور بأنها ستكون مختلفة. لماذا؟ لن يحدث هذا. إنني أزج بها في هذه المعركة، لكن هذا ليس ما أشعر به حين أراقبها وهي نائمة.» بعد أن ارتاحت آنا وعادت إلى حالتها الطبيعية غادرت حجرة جانيت، وأغلقت الباب، ووقفت على درجة السلم في الظلام. حان وقت مواجهة إيفور. طرقت الباب وفتحته قليلًا وقالت والظلام يحيط بالمكان: «إيفور عليك أن ترحل، عليك أن ترحل من هنا غدًا.» ساد صمت ثم جاء صوت منخفض يكاد يعلوه المرح: «عليّ أن أقول إنني أتفهم موقفك يا آنا.»

– شكرًا، كنت آمل هذا.

أغلقت الباب ونزلت.

قالت لنفسها: «كم كان هذا سهلًا. لِم تخيلت أنه سيكون صعبًا؟» ثم تخيلت إيفور يصعد السلالم حاملًا باقة ورد. قالت لنفسها: طبعًا غدًا سيحاول أن يثنيها عن رأيها، سيصعد لأعلى حاملًا باقة ورد ويلاطفني.» كانت واثقة جدًّا من أن هذا سيحدث حتى إنها انتظرته وقت الغداء حين صعد السلالم حاملًا باقة ورد كبيرة وابتسامة مجهَدَة يحملها الرجال حين يعتزمون ملاطفة النساء.

همس: «إلى ألطف مالِكة منزل في العالم.»

أخذت آنا الورد، ترددت، ثم ضربته به على وجهه. كان يرتعد غضبًا. وقف مبتسمًا وأشاح بوجهه مقلدًا الرجال حين يتلقون عقوبةً ظالمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

همس: «حسنًا، حسنًا.»

قالت آنا: «اخرج.» لم يجتحها مثل هذا الغضب في حياتها قط. صعد لأعلى وبعد دقائق معدودة سمعت الجلبة الناجمة عن حزمه أمتعته. سرعان ما نزل حاملًا حقيبة سفر في كل يد. هذه هي ممتلكاته. كل ما يملك في العالم. كم من المؤسف حال هذا الشاب وكل ممتلكاته حبيسة حقيبتين. وضع الإيجار المستحق عليه على الطاولة وكان عليه خمسة أسابيع متأخرة إذ إنه لم يلتزم بسداد ما عليه من أموال. لاحظت آنا في اهتمام أنها كان عليها أن تكبت رغبةً في أن تعيدها إليه. في غضون هذا وقف ... حسنًا، ما الذي توقعه المرء؟

لكن لا بد أنه سحب المال من البنك أو أنه اقترضه هذا الصباح، مما يعني أنه كان يتوقع أن تتمسك بموقفها رغم إحضاره الورد. لا بد أنه قال لنفسه: «هناك فرصة أن أثنيها عن موقفها بالورد، سأحاول هذا، الأمر يستحق المغامرة بخمس شلنات.»

الدفاتر

[عمودا المنبع والمال لم يعودا يظهران على صفحات الدفتر الأسود كما كانت آنا تخطط من البداية، ولكن لُصقت على أوراقه قصاصات من الصحف بتواريخ مختلفة من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٧. كان كل خبر من الأخبار المنشورة في هذه القصاصات يشير إلى حادثة من حوادث العنف أو الموت أو الشغب أو الكراهية في إحدى بقاع أفريقيا. كانت هناك مدونة واحدة فقط مكتوبة بخط آنا بتاريخ سبتمبر/أيلول ١٩٥٦.]

بالأمس حلمت أن فيلمًا تليفزيونيًّا سيصور عن جماعة الأشخاص الموجودين بفندق ماشوبي. هناك سيناريو للفيلم كتبه شخص آخر سواي، وظل مخرج الفيلم يؤكد لي أنني سأعجب بالسيناريو عندما أقرؤه، وأنه إذا كنت أنا من سأكتب لكنت كتبت سيناريو مثله تمامًا. ولكنني لم أطلع على السيناريو لسبب من الأسباب. ذهبت إلى البروفات الخاصة بالفيلم، «الديكور» مصمم بحيث يشبه المكان خارج فندق ماشوبي، أسفل أشجار الصمغ التي تمتد بجانب خطوط السكك الحديدية. سعدت جدًّا لأن المخرج استطاع أن ينقل الجو العام لهذا المكان جيدًا، ثم أدركت أن هذا «الديكور» هو المكان الأصلي نفسه، فقد نقل المخرج طاقم العمل كله إلى أفريقيا الوسطى ويصور القصة في ذلك المكان الذي تعلوه أشجار الصمغ بكل تفاصيله حتى رائحة النبيذ التي تفوح من الغبار الأبيض ورائحة أشجار الكينا التي تغمرها أشعة الشمس الساخنة. رأيت الكاميرات آتية تنزلق على عجلاتها حتى يبدأ التصوير، ثم ارتفعت فوق المجموعة التي ستبدأ التصوير ووجهت نحوهم، فذكرني ذلك بالمدافع. وبدأ التصوير، وبدأت أشعر بالانزعاج، ثم أدركت أن اختيار المخرج للقطات أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للتوقيت يغير في «القصة»، فما سيظهر في النهاية عندما يكتمل الفيلم سيكون مختلفًا تمامًا عما أتذكره أنا. لم يكن في يديّ أي شيء أفعله حتى أوقف المخرج أو المصور، فوقفت في أحد الجوانب أرقب مجموعة الممثلين (كانت آنا، التي هي أنا، ضمنهم، ولكن ليس كما أتذكرها.) لم أستطع أن أتذكر جمل الحوار التي يؤدونها، كما أن العلاقات بينهم مختلفة تمامًا عما أذكره، مما جعلني أشعر بقلق شديد. بعد انتهاء التصوير ذهب طاقم العمل لاحتساء الخمر بالحانة الموجودة بفندق ماشوبي، والمصورون (الذين استطعت أن أتبين الآن أنهم جميعًا من السود، الفنيون جميعهم من السود) يدفعون كاميراتهم على العجلات بعيدًا عن المكان، ويفككونها (فالكاميرات مدافع رشاشة أيضًا). سألت المخرج: «لماذا غيرت قصتي؟» ولكنه لم يفهم ما عنيته. تصورت أنه فعل ذلك عن عمد، بعد أن اقتنع أن قصتي رديئة. اندهش الرجل وبدا عليه بعض التأذي، أجابني: «ولكنكِ رأيتِ هؤلاء الأشخاص هناك يا آنا، أليس كذلك؟ شاهدتِ ما شاهدته؟ لقد قالوا تلك الكلمات، ألم يحدث ذلك؟ أنا لم أصور إلا ما حدث هناك.» لم أجد كلمات يمكن أن أجيبه بها، أدركت أنه كان على صواب، وأن ما «تذكرته» أنا لم يكن صحيحًا. قال لي في استياء من كوني تضايقت: «تعالي يا آنا نحتسي كأسًا من الشراب، ألا تفهمين، ليس المهم هو ما نقدمه في أفلامنا، ما دمنا نقدم شيئًا.»

لن أكتب مرة أخرى في هذا الدفتر، وإن طلبت مني الأم شوجر أن «أسمي» هذا الحلم فسأقول إنه حلم عن حالة الجدب التام التي أعانيها، إلى جانب أنني منذ أن رأيت هذا الحلم في منامي وأنا لا أستطيع أن أتذكر كيف كانت ماريروز تحرك عينيها أو كيف كان بول يضحك، لقد ذهب كل شيء.

[رسم خط أسود مزدوج بعرض الصفحة كعلامة على نهاية هذا الدفتر.]

[لُصقت قصاصات الجرائد التي صدرت في العامين ١٩٥٦ و١٩٥٧ على أوراق الدفتر الأحمر، مثله مثل الدفتر الأسود. هذه القصاصات تتضمن أحداثًا وقعت في أوروبا والصين والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. ومثلها مثل القصاصات التي تضمنت أخبار أفريقيا في الفترة نفسها، معظم هذه القصاصات يشير إلى حوادث العنف. في كل مرة تذكر فيها كلمة «الحرية»، تضع آنا تحتها خطًّا بقلم رصاص أحمر، وفي نهاية الأوراق التي لصقت عليها القصاصات جمعت آنا عدد الخطوط الحمراء

فتبين لها أن كلمة الحرية ذكرت في هذه القصاصات ٦٧٩ مرة. المدونة الوحيدة التي كتبتها آنا بخط يدها في هذه الفترة كالآتي:]

بالأمس قدم جيمي لزيارتي، كان عائدًا لتوه من زيارة إلى الاتحاد السوفييتي مع وفد للمعلمين، وحكى لي هذه القصة عن واحد منهم يدعى هاري ماثيوس: ترك هاري وظيفته بالتدريس من أجل أن يذهب إلى الحرب في أسبانيا، وأصيب في هذه الحرب وكسرت ساقه مما اضطره لأن يقضي عشرة أشهر بالمستشفى. وفي خلال هذه الفترة كان يفكر في أمور أسبانيا، وفي الممارسات الدنيئة التي قام بها الحزب الشيوعي، وقرأ كثيرًا، وساورته الشكوك بشأن ستالين، ثم مر بالصراعات المعتادة نفسها داخل الحزب الشيوعي وطُرد منه، وانضم إلى الحركة الشيوعية التروتسكية ثم تركها. لم يستطع أن يستمر في الحرب بسبب الإعاقة التي حدثت له في ساقه، فتلقى تدريبًا عن كيفية التدريس للأطفال المتأخرين عقليًّا. «إنه من المعروف جيدًا أنه عند هاري لا يوجد شيء يدعى طفل غبي، بل هناك طفل سيئ الحظ.» كان هاري يعيش خلال الحرب بغرفة متواضعة صغيرة بالقرب من كينجز كروس، ويقوم بأكثر من عمل بطولي بما في ذلك إنقاذ ضحايا المباني التي تقصف بالقنابل والتي تتعرض للحرائق وما إلى ذلك. «كان هاري بمنزلة بطل أسطوري في هذه المنطقة. ولكن في اللحظة التي كان يبدأ فيها الناس بالبحث عن هذا البطل الأعرج الذي أنقذ ذلك الطفل أو هذه العجوز البائسة، يختفي هاري بالطبع، لأنه من المعروف للغاية أنه سيحتقر نفسه إذا حصل على تقدير في مقابل الأعمال البطولية التي يقوم بها.» في نهاية الحرب ذهب جيمي، بعد أن عاد من بورما، لزيارة صديقه القديم هاري، ولكن نشب شجار بينهما. «كنت أنا عضوًا أصيلًا بالحزب وهاري تروتسكيّ حقير، لذا تبادلنا العبارات الساخنة وافترقنا للأبد. ولكنني كنت معجبًا بهذا الأحمق المأفون، ولذا كنت أتقصى أخباره.» كان لهاري حياتان: حياته التي تظهر للجميع مثال للتفاني والإخلاص، فلم يكتف هاري بعمله في مدرسة خاصة بالأطفال المتأخرين عقليًّا الذي نجح فيه نجاحًا عظيمًا، بل اعتاد أن يدعو أطفال المنطقة التي يعيش فيها (وهي منطقة فقيرة) إلى منزله ليعطيهم دروسًا كل مساء، يدرس لهم الأدب ويدربهم على القراءة ويمرنهم على الامتحانات، وكان هاري يعمل تقريبًا حوالي ثماني عشرة ساعة في اليوم. «من المعروف أنه يرى أن النوم مضيعة للوقت، مرن نفسه على أن ينام أربع ساعات كل ليلة.» ظل يقطن بهذه الغرفة حتى وقعت أرملة طيار بالجيش في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غرامه وأخذته ليعيش بشقتها التي وفرت له فيها غرفتين. كان لديها ثلاثة أطفال، كان هاري يعاملها في ود، ولكن كما أصبحت حياتها مكرسة له كرس هو حياته لتلامذته، بالمدرسة وفي الشارع. هذه هي حياته التي تظهر أمام الجميع. وفي هذه الأثناء تعلم هاري الروسية، وكان يجمع الكتب والمنشورات وقصاصات الجرائد التي تتحدث عن الاتحاد السوفييتي، وكون لنفسه صورة عن التاريخ الحقيقي للاتحاد السوفييتي أو بالأحرى الحزب الشيوعي الروسي منذ عام ١٩٠٠ والأعوام التي تبعته.

زار أحد أصدقاء جيمي هاري في عام ١٩٥٠ تقريبًا وحكى لجيمي عنه: «كان معتادًا أن يرتدي قميصًا واسعًا بجيوب أو سترة عسكرية قصيرة وحذاء خفيفًا مفتوحًا، ويقص شعره قصة عسكرية، ولم يكن يبتسم قط. على الحائط عُلقت صورة للينين، وهذا بالطبع شيء مفروغ منه، وصورة أصغر لتروتسكي، وفي الخلفية كانت هذه المرأة التي فقدت زوجها تظهر أحيانًا في وقار، والأطفال يندفعون خارجين إلى الشارع أو آتين منه، وهاري يتحدث عن الاتحاد السوفييتي. كان وقتها يتحدث الروسية بطلاقة ويعرف التاريخ الخاص بدواخل الأمور المتعلقة بكل نزاع أو مؤامرة بسيطة منذ بدايته، فما بالك بحمامات الدم التي أريقت. ولماذا كان يفعل كل ذلك؟ لا يمكن أن تتصوري السبب يا آنا.»

– بالطبع يمكنني ذلك، كان يعد نفسه من أجل ذلك اليوم الموعود.

– بالطبع هذا صحيح، حسب هذا المجنون كل شيء ... سوف يأتي اليوم الذي يرى فيه فجأة الرفقاء في روسيا جميعهم شعاع الضوء في اللحظة نفسها، وسيقولون: «ضللنا طريقنا وحِدْنا عن جادة الصواب، إن الأفق الذي يلوح أمامنا ليس واضحًا، ولكن هناك في سانت بانكرس بلندن في إنجلترا يوجد الرفيق هاري الذي يعرف كل شيء، سوف ندعوه إلى روسيا ونطلب مشورته.» ومر الوقت والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ ولكنها من وجهة نظر هاري تسير إلى الأفضل، فمع أخبار كل فضيحة آتية من الاتحاد السوفييتي ترتفع معنويات هاري. ارتفعت أكوام الجرائد المكدسة بغرفتي هاري حتى بلغت السقف، وبدأ يخزن ما يزيد منها في غرف الأرملة التي يعيش بمنزلها. أصبح هاري يتحدث الروسية وكأنها لغته الأم. ومات ستالين، فأومأ هاري برأسه محادثًا نفسه بأنه لم يبق الكثير، ثم انعقد المؤتمر العشرون للحزب، وهو ما استحسنه هاري ولكنه يريد المزيد. ثم يلتقي هاري بجيمي في الطريق، يقطب العدوان السياسيان القديمان جبينيهما ويتصلبان في مكانهما، ثم يومئان برأسيهما ويبتسمان. يصطحب هاري جيمي إلى منزل الأرملة التي يسكن بمنزلها

ويحتسيان الشاي. يقول جيمي: «هناك وفد ذاهب إلى الاتحاد السوفييتي، أنا الذي أنظمه، هل تود أن تنضم له؟» فجأة تهللت أسارير هاري. «تصوري يا آنا أن غبائي دفعني إلى أن أحسب أن هذا التروتسكي المسكين هو رجل سليم النية ولا يزال مولعًا بالبلد التي شهدت مولد مبادئنا السياسية. ولكن ما كان هاري يفكر فيه طوال الوقت هو أن يومه الموعود جاء. ظل يسألني من الذي رشحه، وكان من الواضح أن هذا الأمر مهم له فلم أصارحه بأن هذه الفكرة وليدة اللحظة. لم أنتبه جيدًا إلى أنه يؤمن بأن «الحزب نفسه» هو الذي استدعاه طلبًا لمساعدته، وظل مقتنعًا بذلك طوال الطريق إلى موسكو. دعينا من ذلك حتى لا أطيل عليكِ، انطلقنا إلى موسكو، ثلاثون مدرسًا بريطانيًّا تغمرهم السعادة وكان هاري المسكين الذي ملأ جيوب سترته العسكرية كلها بالمستندات والأوراق أكثرنا سعادة. وصلنا إلى موسكو، وكان هاري يتصرف بأسلوب يطل منه التفاني والحماس. كان يتصرف معنا بلطف، ولكن لأن نيتنا سليمة ظننا أنه يفعل ذلك لأنه يزدري الحياة التي نحياها والتي تبدو تافهة بالمقارنة مع حياته ولكنه لا يرغب في أن يظهر لنا ذلك. بالإضافة إلى أن معظمنا كانوا من أنصار الإستالينية السابقين، والإستالينيون السابقون يشعرون بغصة في حلوقهم عندما يقابلون التروتسكيين هذه الأيام. ومع هذا استمر الوفد في زياراته إلى المصانع والمدارس وقصور الثقافة والجامعة، هذا فضلًا عن الخطب والمآدب. وكان هاري بسترته العسكرية وساقه العرجاء وملامح الصرامة الثورية التي تكسو وجهه تجسيدًا حيًّا للينين، ولكن هؤلاء الروس الحمقى لم ينتبهوا إليه. نال إعجابهم بالطبع بسبب جديته البالغة ولكنهم تساءلوا أكثر من مرة لماذا يرتدي هاري هذه الملابس الغريبة وكانوا يريدون أن يعرفوا، على ما أذكر، هل ينطوي صدره على مشكلة تحزنه. في تلك الأثناء استعدنا علاقتنا كصديقين وكنا نجلس ليلًا في غرفتينا نتجاذب أطراف الحديث، ولاحظت أنه ينظر إلي في حيرة تزداد يومًا بعد يوم. ولاحظت أيضًا أنه أصبح متوترًا على نحو متزايد، وكنت لا أزال أجهل ما يدور برأسه. وفي آخر ليلة لنا هناك كان من المفترض أن نذهب إلى مأدبة أقامتها إحدى المنظمات المعنية بشئون المعلمين، ولكن هاري لم يحضر، قال إنه يشعر ببعض التوعك. ذهبت لأراه عندما عدت من المأدبة فوجدته جالسًا لدى نافذة ممددًا ساقه العرجاء أمامه. نهض ليقابلني وقد أشرق وجهه، وعندما تبين أنني أنا من قدمت إليه كانت صدمة له، كان بإمكاني أن ألحظ ذلك. ثم استجوبني هاري واكتشف أنني دعوته للانضمام إلى هذا الوفد لأن هذه الفكرة طرأت لي عندما قابلته في الطريق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولعنت نفسي لأنني صارحته بذلك، أقسم لكِ يا آنا أنه عندما اتضح لي الأمر، تمنيت لو أنني كنت اخترعت له حكاية عن «خروشوف نفسه». ظل هاري يقول لي: «يجب أن تخبرني بالحقيقة يا جيمي، أنت من دعوتني إلى هذا الوفد؟ أكانت فكرة طرأت لك فقط؟» ظل يردد هذا السؤال مرات ومرات، كان الأمر سيئًا للغاية. ثم دلفت المترجمة فجأة إلى الغرفة لترى هل نحتاجها في أي شيء آخر الليلة ولتودعنا لأننا لن نراها في الصباح. كانت فتاة في العشرين أو الثانية والعشرين من عمرها، أخاذة للغاية بضفائرها الذهبية الطويلة وعينيها الرماديتين، أنا متيقن من أن كل الرجال بالوفد أُولعوا بها. كادت تتساقط من الإرهاق بعد أن ظلت لمدة أسبوعين تطوف على قصور الثقافة والمدارس بصحبة ثلاثين معلمًا بريطانيًّا هي المسئولة عن رعايتهم والقيام على أمورهم. ولكن هاري رأى أن هناك فرصة سنحت له، فجذب كرسيًّا وقال لها: «فلتتفضلي بالجلوس أيتها الرفيقة أولجا.» ولم يتقبل هاري أي نقاش. عرفت ماذا سيحدث، فقد رأيته يخرج أوراق الوثائق والأطروحات من كل مكان بملابسه ويرتبها على الطاولة. حاولت أن أوقفه ولكنه أشار برأسه إلى باب الحجرة، وعندما يشير هاري إلى الباب على المرء أن يغادر. ذهبت إلى غرفتي وجلست أدخن السجائر منتظرًا ما سيحدث، كان ذلك في الساعة الواحدة صباحًا تقريبًا. كان من المفترض أن نستيقظ في السادسة صباحًا لكي نذهب إلى المطار في السابعة. في السادسة قدمت أولجا إلى غرفتي ووجهها شاحب للغاية من فرط الإرهاق، وقد أُسقط في يدها. لا أجد تعبيرًا آخر يمكن أن يصف الموقف. قالت لي: «جئت لأخبرك أنك يجب أن تعتني بصديقك هاري، أنا أظن أنه ليس على ما يرام، إنه يبدو منفعلًا انفعالًا مبالغًا فيه.» قصصت على أولجا كل ما حدث له أثناء الحرب الأسبانية والأعمال البطولية التي قام بها وألفت لها عملين بطوليين أو ثلاثة أخرى، فقالت لي: «نعم، من السهل جدًّا أن يدرك المرء أنه شخص محترم للغاية.» تثاءبت أولجا فاتحة فمها عن آخره ثم ذهبت لتنام لأنه كان عليها أن تبدأ غدًا في العمل مع وفد اسكتلندي من رجال الكنسية المحبين للسلام. ثم قدم هاري إلى غرفتي، كان يبدو شاحبًا وهزيلًا مثل الأشباح ومنهكًا بفعل المشاعر التي تجيش داخله، لقد انهار عماد حياته تمامًا. حكي لي ما حدث، وأنا أحاول أن أتعجله لأننا يجب أن نكون في طريقنا إلى المطار ولم يبدل أي منا ملابسه منذ ليلة أمس ....

لقد ألقى هاري على الأغلب — بعد أن وضع الأوراق والقصاصات على الطاولة — محاضرة عن تاريخ الحزب الشيوعي الروسي بداية من توقيت إصدار

أول جريدة ناطقة بلسان الحزب الشيوعي، جريدة الإيسكرا، وجلست أولجا أمامه محاولة أن تكتم رغبتها في التثاؤب، ورسمت على شفتيها ابتسامة وعلى وجهها معالم الإعجاب محافظة على أصول الأدب واللياقة التي يجب أن تتعامل بها بوصفها روسية مع الضيوف التقدميين القادمين من الخارج، عند محور معين من محاور الحديث سألته أولجا هل هو مؤرخ، أجابها: «لا، أنا اشتراكي مثلي مثلكِ أيتها الرفيقة.» حكى لها عن المؤامرات والأعمال البطولية والصراعات الفكرية التي حدثت على مر السنوات من دون أن يفوت واقعة واحدة، وفي الثالثة صباحًا استأذنته أولجا لبرهة وخرجت من الغرفة. ظن هاري أنها ذهبت إلى الشرطة وأنهم بعد قليل سيلقون القبض عليه و«يرسلونه إلى سيبريا». عندما سأله جيمي كيف كان شعوره حيال فكرة النفي إلى سيبريا الذي من المحتمل أن يكون نفيًا مؤبدًا، أجابه هاري: «إن لحظة مثل هذه تستحق أن يدفع المرء من أجلها أي ثمن مهما كان باهظًا.» ففي هذه اللحظة نسي هاري أنه يتحدث إلى المترجمة أولجا، الفتاة الجميلة الشقراء ذات العشرين عامًا التي قُتل أبوها في الحرب وأصبحت مسئولة عن أمها، والتي تخطط للزواج من صحفي بجريدة برافدا في الربيع المقبل، فبحلول هذه اللحظة كان هاري يتحدث إلى «التاريخ» نفسه. جلس هاري منتظرًا قدوم الشرطة، وأفقده تقبله للأمر الذي امتزج بشعوره بالنشوة القدرة على التصرف، ولكن عندما عادت أولجا كانت تحمل في يديها كوبين من الشاي طلبتهما من الكافيتريا. «إن الخدمة بهذه الكافيتريا سيئة للغاية يا آنا، ولذا يمكنني أن أتصور أنه ظل جالسًا بغرفته وقتًا منتظرًا أن توضع الأساور الحديدية بيديه.» جلست أولجا ووضعت أمام هاري كوب الشاي وقالت: «فلتكمل حديثك، أنا آسفة لأني قاطعتك.» بعدما غلبها النوم بقليل كان هاري قد وصل إلى محاولة اغتيال تروتسكي بالمكسيك التي دبرها ستالين. على ما يبدو أن هاري صمت في منتصف إحدى الجمل التي كان يقولها عندما نظر إلى أولجا ورأى ضفيرتيها اللامعتين تتدليان إلى الأمام فوق كتفيها المرتخيين اللتين مالت رأسها على إحداهما، فلملم أوراقه ووضعها جانبًا، ثم أيقظها في لطف بالغ واعتذر لها عن أنه أثقل عليها بحديثه. اعتراها الخجل الشديد من تصرفها السيئ ولكنها أوضحت له أنها بالرغم من استمتاعها بعملها كمترجمة للوفود المختلفة، فهي وظيفة مرهقة. «كما أن أمي معاقة وأضطر إلى أن أقوم بالأعمال المنزلية عندما أعود إلى المنزل في الليل.» ثم أمسكت يده وقالت: «أنا أتعهد لك بأنه حينما يعيد مؤرخو الحزب كتابة تاريخ الحزب الشيوعي بعد إدخال التعديلات اللازمة عليه بعد أن شُوه في عهد الرفيق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ستالين، أتعهد إليك بأنني سأقرؤه.» على ما يبدو فإن هاري تأثر بالإحراج الذي تملكها لأنها أساءت التصرف، وظل الاثنان يطمئن أحدهما الآخر بضع دقائق، ثم ذهبت أولجا لترى جيمي من أجل أن تخبره بأن صديقه يمر بمرحلة انفعالية حادة.

سألت جيمي عما حدث بعد ذلك، فقال لي: «لا أعرف، كان علينا أن نبدل ثيابنا ونحزم أمتعتنا سريعًا، ثم عدنا إلى بريطانيا. كان هاري صامتًا وبدا مريضًا ليس إلا. وشكرني على إتاحة الفرصة له للانضمام للوفد بقوله إنها كانت تجربة مفيدة للغاية. ذهبت لأراه في الأسبوع الماضي، فعرفت أنه تزوج أخيرًا من الأرملة التي كان يسكن بشقتها وأنها تحمل بأحشائها جنينًا. لا أعرف على ماذا يدل ذلك، إن كان له مدلول.»

[ينتهي الدفتر الأحمر بخطين أسودين.]

[بقية الحكاية: الدفتر الأصفر]

(١) مشروع قصة قصيرة

امرأة متعطشة للحب تقابل رجلًا يصغرها قليلًا، ربما تفوقه هي في التجارب العاطفية أكثر مما تكبره في عدد السنين، أو ربما يفوق عمق تجاربها العاطفية عمق التجارب التي مر هو بها. تكذب على نفسها بشأن طبيعة هذا الرجل. ولا يعدو الأمر أن يكون أكثر من علاقة غرامية جديدة له.

(٢) مشروع قصة قصيرة

يستخدم رجلًا لغة ناضجة من أجل أن يكسب قلب امرأة، تلك اللغة التي يستخدمها الأشخاص الناضجون عاطفيًا، ورويدًا رويدًا تكتشف هذه المرأة أن هذه اللغة نابعة من فكرة في رأسه وأنها لا ترتبط البتة بطبيعة عواطفه وأنه في الواقع يعيش مرحلة مراهقة عاطفية. ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تتأثر بهذه اللغة وتستسلم لها.

(٣) مشروع قصة قصيرة

قرأت هذه الجملة مؤخرًا في تعليق نقدي على أحد الكتب: «تتمثل واحدة من العلاقات التي لا يحالف الحظ فيها المرأة في العلاقات التي تميل فيها النساء، حتى أكثرهن

رقة، إلى الوقوع في غرام رجال لا يستحقونهن.» وكاتب هذا التعليق رجل بالطبع. إن الحقيقة هي أنه عندما تقع «النساء الرقيقات» في غرام «رجال لا يستحقونهن»، فإن ذلك يحدث إما لأن هؤلاء الرجال أكسبوهن «تسمية» أو لأن هؤلاء الرجال يمتلكون خاصية أزلية مبهمة لا يمكن أن يمتلكها الرجال «المحترمون» أو «ذوو الخلق الدمث». اكتملت شخصيات الرجال الطبيعيين والمحترمين وحُسم أمرها وليس هناك أي احتمالات لأن تكتسب خصائص جديدة. ستكون القصة عن صديقتي آني في أفريقيا الوسطى، فهي «سيدة محترمة» متزوجة من «رجل محترم» يعمل بوظيفة حكومية، وهو رجل مسئول يُعتمد عليه، ولكنه كان يكتب شعرًا رديئًا في السر. وقعت آني في غرام أحد عمال المناجم، كان سكيرًا وزير نساء. لم يكن ضمن عمالة المناجم الثابتة، فأحيانًا يكون هو المدير، وأحيانًا يكون هو العامل، وأحيانًا المالك. كان ينتقل من منجم صغير إلى منجم صغير آخر تحفه المخاطر، بعد أن يكون على وشك أن يكسب ثروة أو يفلس، فهو يترك المنجم عندما تفرغ ثرواته أو عندما يباع إلى مجموعة من الأشخاص أو الشركات في هذا المجال. كان عائدًا لتوه من أحد المناجم الموجودة بالأدغال على بعد ثلاثمائة ميل، وكانت هي هناك بجسدها الممتلئ قليلًا ووجهها المتورد، فتاة جميلة محبوسة بداخل سيدة من سيدات المجتمع. نظر إليها وقال: «خلقت لتكوني زوجة قرصان يا آني.» أذكر كيف ضحكنا على تلك الكلمات، فقد كان من السخف أن يكون هناك قراصنة في تلك الحجرة الصغيرة الموجودة بضواحي المدينة. قراصنة وزوج آني الطيب الخلوق وآني الزوجة الفاضلة التي يعتمل بداخلها الشعور بالذنب من هذه العلاقة التي تجمعها مع عامل المناجم هذا الذي يهيم على وجهه في شتى البقاع، ستكون القصة خيالية أكثر منها حسية. ولكنني مع ذلك أذكر كيف نظرت له في امتنان عندما قال ذلك. وبعد سنوات مات الرجل من كثرة الشرب. وصلني خطاب منها بعد أن ظلت صامتة لسنوات: «أتذكرين ذلك الرجل؟ لقد مات. أنتِ ستفهمينني ... فقدت حياتي معناها.» إذا كُتبت هذه القصة من وجهة النظر الإنجليزية ستكون قصة عن زوجة لطيفة من سكان الضواحي تقع في غرام رجل متسكع يهيم على وجهه في البلاد بلا أمل، يقول لها إنه سوف يؤلف كتبًا، وربما يفعل في يوم ما، ولكن هذا ليس هو أصل المشكلة. سوف تُكتب هذه القصة من وجهة نظر الزوج المسئول صاحب الخلق الدمث الذي لن يستطيع أن يتفهم سبب جاذبية ذلك الرجل المتسكع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٤) مشروع قصة قصيرة

امرأة في كامل صحتها تقع في غرام رجل، ثم تمرض المرأة وتتعرض لأعراض لم يسبق أن انتابتها من قبل. رويدًا رويدًا تدرك هذه المرأة أن هذا المرض ليس مرضها هي، وتعرف أن الرجل الذي تحبه مريض. تتفهم طبيعة هذا المرض، ليس عن طريقه أو عن طريق تصرفاته وأقواله، ولكن من خلال كيفية انعكاس مرضه عليها.

(٥) مشروع قصة قصيرة

امرأة تقع في حب رجل رغمًا عن إرادتها. تغمرها السعادة. ولكنها مع ذلك تستيقظ في وسط الليل. يفزع الرجل من نومه وكأنه في خطر ويقول: لا، لا، لا. ثم يعود إلى وعيه ويستعيد رباطة جأشه ويستلقي مرة أخرى على الفراش في بطء دون أن يتكلم. يملؤها الخوف، فتود لو تسأله: لم تقول «لا»؟ ولكنها لا تفعل. تعود إلى النوم مرة أخرى وتنحدر دموعها على وجنتيها وهي نائمة. تستيقظ فتجده لا يزال مستيقظًا، تسأله في لهفة: أهذا هو قلبك الذي يدق؟، فيجيبها في حنق: لا، بل قلبكِ أنتِ؟

(٦) مشروع قصة قصيرة

رجل وامرأة تجمعهما علاقة حب، المرأة متعطشة لمشاعر الحب، والرجل يبحث عن مأوى. في إحدى الأمسيات يقول لها في حرص بالغ إن عليه أن يخرج مقدمًا لها تفسيرًا طويلًا ومفصلًا، ولكنها تدرك وهي تستمع إلى هذا التفسير أن ذلك ليس إلا عذرًا يتعلل به، إذ يملؤها شعور بالإحباط. تقول له إنه لا بأس من ذهابه، فيجيبها مطلقًا ضحكة فتية عالية: «أنتِ متحررة للغاية.» فتجيبه: «ماذا تعني بكلمة متحررة؟ أنا لست مسئولة عن أفعالك، لا تحولني إلى امرأة أمريكية.» يدخل إلى فراشها في ساعة متأخرة للغاية وتستدير لتواجهه وقد استيقظت لتوها. تشعر أن ذراعيه يحيطانها في حذر وعلى نحو محسوب، فتدرك أنه لا يود أن يضاجعها. ومع ذلك يظل يتحرك بجانبها، فتقول له بلهجة حادة: «أنا أريد أن أنام.» فيكف عن الحركة. ولكنها تشعر بالندم على أنها قالت ذلك، لأنها ربما جرحت كرامته. فجأة تدرك أنه أصبح مفعمًا بالقوة، وينتابها الإحباط لأنه يريدها فقط لأنها رفضت أن تستسلم له. ومع ذلك تدفعها مشاعر الحب التي تجيش بداخلها لأن تستدير لتواجهه. عندما ينتهي من مضاجعتها تدرك أن هذه العملية تعني له إنجاز عمل ما، تقول له بلهجة حادة،

ولكن دون أن تدرك أنها ستقول له ذلك: «كنت لتوك تضاجع امرأة أخرى.» هكذا أخبرتها فطرتها، يرد عليها ردًا سريعًا: «كيف عرفتِ؟»، ثم يستطرد وكأنه لم يسأل هذا السؤال: «لا، لم أفعل، أنتِ واهمة.» ثم يدفعه صمتها الذي يطل منه شعورها بالحزن وبالتوتر لأن يقول لها في حنق: «أنا لا أظن أن هذا الأمر له أي وزن، عليكِ أن تفهمي أنني لا أتعامل مع هذه المسألة تعاملًا جديًّا.» تجعلها كلماته الأخيرة تشعر بتضاؤل قدرها وبأنها تحطمت، وكأن كيانها كامرأة هوى.

(٧) مشروع قصة قصيرة

رجل يهيم على وجهه في البلاد، استقر به المقام في منزل امرأة شعر نحوها بالإعجاب، وشعر أنه يحتاج إليها. إنه رجل ذو خبرة عريضة مع النساء اللاتي هن بحاجة إلى الحب، وهو غالبًا ما يضع لنفسه حدودًا لا يتخطاها. ولكن هذه المرة يكتنف الغموض الكلمات التي يستخدمها والمشاعر التي يسمح لنفسه بها، لأنه يحتاج لفترة من الوقت إلى مشاعر الود التي تكنها له. يضاجعها الرجل، ولكن هذه العلاقة لا تمثل له شيئًا أفضل أو أسوأ مما قام به عشرات المرات من قبل. يدرك أن احتياجه المؤقت للمأوى أوقعه في هذا الشرك الذي يخشاه أكثر من أي شيء آخر: امرأة تقول له: أحبك. ينهي ذلك الأمر. يودعها وداعًا رسميًّا مثل شخص ينهي علاقة صداقة، ويرحل. يكتب في مذكراته: تركت لندن، وعاتبتني آنا. إنها تكرهني، حسنًا، ليكن. وبعد عدة أشهر يسجل مدونة أخرى ربما يكتب فيها: تزوجت آنا، جيد. أو: انتحرت آنا. يا لها من خسارة، لقد كانت امرأة لطيفة.

(٨) مشروع قصة قصيرة

امرأة تشتغل بالفن، بالرسم أو بالكتابة، وتعيش بمفردها، ولكن حياتها تتمحور حول رجل غائب تنتظر قدومه. لنقل إن شقتها واسعة جدًّا. وتطوف بذهنها نماذج عدة لرجل سيدخل حياتها في تلك الأثناء التي تعتزل فيها الرسم أو الكتابة. ولكنها كانت تفكر في أنها لا تزال «فنانة». وأخيرًا يدخل إلى حياتها رجل، رجل يتلمس طريقه إلى الفن، ولكن موهبته لم تتبلور بعد. تتخلله شخصيتها «كفنانة»، يتغذى عليها، ويستمد منها عمله، وكأنها هي الدينامو الذي يضخ بداخله الطاقة. وأخيرًا يثبت وجوده كفنان حقيقي، بينما تموت الفنانة التي بداخلها. في اللحظة التي تفقد فيها فنها يتركها. فهو يحتاج إلى امرأة تمتلك هذه الموهبة، حتى يستطيع أن يبدع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٩) مشروع رواية قصيرة

رجل أمريكي من «أنصار العلم الأحمر السابقين» يصل إلى لندن، بلا مال ولا أصدقاء، وقد أدرج اسمه على القوائم السوداء في مؤسسات السينما والتليفزيون. تعرفه الجالية الأمريكية في لندن، أو بالأحرى الجالية الأمريكية من «أنصار العلم الأحمر السابقين» على أنه الرجل الذي شرع في انتقاد الاتجاهات الإستالينية في الحزب الشيوعي قبل أن تواتيهم الشجاعة لأن يقوموا بذلك بثلاث أو أربع سنوات. ذهب إليهم طالبًا المساعدة، وبداخله إحساس بأنهم سينبذون مشاعر العداء بعد أن بررت الأحداث التي وقعت الموقف الذي كان يتخذه. ولكن موقفهم منه كان هو نفسه الموقف الذي اتخذوه عندما كانوا لا يزالون أعضاء ملتزمين بواجباتهم في خدمة الحزب، أو أنصارًا خارجيين مؤيدين لسياسات الحزب. لا يزال في نظرهم من المنشقين، مع أن اتجاهاتهم تغيرت، وأصبحوا الآن يعضون على أنامل الندم لأنهم لم يتركوا الحزب مبكرًا. ترددت فيما بينهم إشاعة تقول إن رجل تحول من كونه واحدًا من الشيوعيين المتعصبين لمبادئهم تعصبًا أعمي إلى رجل يأكله الندم على أنه كان يتبنى تلك المبادئ لا بد وأن يكون عميلًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي. صدّق أفراد الجالية الأمريكية هذه الإشاعة واعتبروها حقيقة، ورفضوا أن يمدوا لهذا الرجل يد المصادقة أو العون. قرروا أن ينبذوا هذا الرجل، في حين أنهم كانوا يؤيدون البوليس السري في روسيا وسلوك لجان مراقبة النشاطات المعادية لأمريكا، والوشاة من الأنصار السابقين للعلم الأحمر. مؤخرًا انتحر الرجل الأمريكي الذي حل بلندن، وجلس الجميع يتذكرون أحداثًا تتعلق بماضيهم السياسي ويبحثون عن أسباب تبرر لهم نفورهم منه حتى يخمدوا شعورهم بالذنب.

(١٠)

رجل أو امرأة، يفتقد الرجل، أو تفتقد المرأة، الإحساس بالوقت بسبب الإصابة بمرض عقلي. ستكون قصة فيلم رائع. ولكن لن تتاح لي الفرصة لكي أكتبه ولذا ليس هناك معنى للتفكير في قصته. ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيها. القصة تدور حول رجل فقد «إحساسه بالواقع»، وبسب ذلك أصبح إحساسه بالحقيقة أعمق من إحساس الأشخاص «الطبيعيين». اليوم قال لي ديف على نحو عارض: «هذا الرجل الذي تصادقينه، مايكل، يجب ألّا تسمحي لمسألة تركه «إياكِ» بأن تؤثر عليكِ، فمن «تكونين» إذا كان رجلًا دفعه سخفه ألا يتقبلكِ سيدمرك؟» كان يتكلم

كما لو أن مايكل لم «ينهِ بعد علاقته بي» نهائيًّا، وليس عن مسألة انتهت منذ سنوات. كان يتحدث عن نفسه بالطبع، فللحظة أصبح هو مايكل. ارتعش إحساسي بالواقع وتحطم. ولكن كان هناك شيء غاية في الوضوح، ضوء انكشف من خلف السحب المنقشعة، ولكن من الصعب جدًّا أن أحدد ما هو. (إن طريقة التعليق تلك لا تخص هذا الدفتر، ولكن تخص الدفتر الأزرق.)

(١١) مشروع رواية قصيرة

شخصان تجمعهما علاقة من أي نوع: أم وابنها، أو أب وابنته، أو حبيبان، لا يهم ما نوع العلاقة التي تجمع بينهما. أحدهما يعاني حالة عصاب، وينقل هذا الشخص المصاب بالعصاب حالته إلى الشخص الآخر ويستقبلها ذلك الشخص، فيتحول الشخص المريض إلى إنسان سليم معافى، ويتحول الطرف السليم إلى شخص مريض. أذكر أن الأم شوجر حكت لي قصة عن واحد من مرضاها؛ جاءها هذا الشاب وهو مقتنع تمامًا أنه يعاني مشكلة نفسية خطيرة، ولكنها لم تر أي مشكلة لديه. طلبت منه أن يبعث إليها بوالده، وطرق بابها خمسة من أفراد عائلته، الواحد تلو الآخر، ولكنها وجدت أنهم جميعًا لا يعانون أي مشكلات، حتى جاءتها والدته، كانت تبدو «طبيعية»، ولكنها في الحقيقة كانت تعاني حالة متقدمة من حالات العصاب، وتحاول أن تحافظ على توازنها من خلال تمرير هذه الحالة إلى عائلتها، وبالأخص الابن الأصغر. في النهاية عالجت الأم شوجر هذه السيدة، بالرغم من أنها كانت تلاقي صعوبة شديدة حتى تجعلها تأتي لتتلقى الجلسات العلاجية. ووجد الشاب الذي قدم إليها في أول الأمر أن وتيرة الضغط الواقع عليه تخف وتنحسر. أذكر أنها قالت لي: «غالبًا يكون أكثر الأفراد «الطبيعيين» بإحدى العائلات أو المجموعات هم الأشخاص المصابون بالفعل بالمرض، ولكن لأن شخصياتهم قوية يصمدون، إذ يعكسون مظاهر مرضهم على الشخصيات الأخرى الضعيفة.» (هذا التعليق يخص الدفتر الأزرق، يجب أن أفصل هذه التعليقات.)

(١٢) مشروع قصة قصيرة

زوج يخون زوجته، ليس لأنه يحب أخرى، ولكن من أجل أن يؤكد أنه ليس أسيرًا لذلك الإطار الذي يفرضه الزواج. يعود هذا الرجل إلى المنزل بعد أن ضاجع المرأة الأخرى وهو عاقد العزم على ألا يكشف هذا الأمر، ولكن يحدث شيء عن طريق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«الصدفة» يفضح ما كان يخفيه. هذه «الصدفة»، التي من الممكن أن تكون بقايا عطر أو آثار لأحمر شفاه أو لرائحة الفراش التي نسي الرجل أن يغتسل ليتخلص منها، هي في الواقع السبب الذي دفعه إلى مضاجعة امرأة أخرى، فهو يرغب في أن يقول لزوجته: «أنا لن أكون ملكًا لكِ.»

(١٣) مشروع رواية قصيرة، سيكون عنوانها: «الرجل الذي تحرر من النساء»

رجل في الخمسين من عمره تقريبًا، أعزب، أو ربما كان متزوجًا لفترة قصيرة، ربما ماتت زوجته أو طلقها. إذا كان أمريكيًّا فسيكون مطلقًا، وإذا كان إنجليزيًّا فستكون زوجته مختبئة غالبًا في مكان ما بعيدًا عن الأنظار، وربما يعيش معها، أو يقطن بالمنزل نفسه، ولكن من دون أي علاقة عاطفية حقيقية بينهما. ببلوغه سن الخمسين أقام ذلك الرجل عشرات العلاقات الغرامية، منها ثلاث أو أربع علاقات جادة. جمعت هذه العلاقات الجادة بينه وبين سيدات يأملن في الزواج منه، فقد ظللن متمسكات بعلاقات كانت في حقيقة الأمر علاقات زواج تنقصها الروابط الرسمية، وأنهى الرجل هذه العلاقات في اللحظة التي وجد أن عليه أن يتزوجهن فيها. وفي الخمسين من عمره أصبح هذا الرجل شخصًا جافًّا متلهفًا على حياته الجنسية، ولديه خمس أو ست صديقات، كلهن كن عشيقاته قبل أن يتزوجن. يتطفل هذا الرجل على ست عائلات تقريبًا، بحجة أنه صديق العائلة القديم. إنه مثل الطفل المعتمد على النساء، فهو يتحول يومًا بعد يوم إلى شخص غامض ورجل قصير الباع لا يجيد عمل شيء، ففي كل يوم يتصل بواحدة من النساء اللاتي يعرفهن لتقضي له إحدى حاجاته. ويظهر هذا الرجل كشخص أنيق وذكي يتمتع بحس السخرية، مما يمكنه من أن يترك انطباعًا جيدًا لدى النساء الأصغر سنًّا يدوم لنحو أسبوع تقريبًا. ويدخل في علاقات غرامية مع الفتيات أو النساء الأصغر سنًّا بكثير، ثم يعود مرة أخرى إلى السيدات الأكبر سنًّا اللاتي يؤدين دور المربيات الحنونات أو الحاضنات.

(١٤) مشروع رواية قصيرة

رجل وامرأة متزوجان، أو متصادقان منذ مدة، يقرأ كل منهما المذكرات التي يكتبها الآخر سرًّا (ويعتبر كل منهما أن هذه مسألة دفاع عن الشرف)، التي سجل كل منهما فيها آراءه عن الآخر بمنتهى الصراحة. ويعرف كل منهما أن الآخر يقرأ ما يكتبه، وينجح الاثنان لفترة في أن يحافظا على حيادهما. ثم رويدًا رويدًا يبدأ كل

منهما يكتب بأسلوب مزيف حتى يؤثر في الآخر، في البداية يفعلان ذلك لاإراديًّا، ثم أصبحا يتعمدان الكتابة بهذا الأسلوب. ووصلا إلى مرحلة أن كل منهما يحتفظ بدفترين للمذكرات، دفتر خاص يحتفظ به في مكان سري، وآخر متاح أمام الآخر لكي يقرأه. ثم يرتكب أحدهما خطأً أو تفلت منه كلمة دون قصد، فيتهمه الآخر بأنه عثر على دفتر المذكرات السري وقرأه. ينشب بينهما شجار عنيف يكون نتيجته أنهما ينفصلان إلى الأبد، ليس بسبب أنهما كانا يطلعان على المذكرات الأصلية: «كل منا كان يعرف أن الآخر يقرأ «تلك» المذكرات، هذا لا يهم، ولكن كيف يبلغ بك الخداع مبلغه وتسمح لنفسك أن تقرأ مذكراتي الخاصة!»

(١٥) مشروع قصة قصيرة

رجل أمريكي وامرأة إنجليزية، هي تتوقع بكل اتجاهاتها ومشاعرها أن تؤثر مشاعرها، وهو يتوقع بكل اتجاهاته ومشاعره أن تؤثر مشاعره. يرى الرجل أنه أداة تستخدمها المرأة من أجل متعتها، وتنشأ بينهما أزمة عاطفية. ثم يتناقش الاثنان في هذا الأمر، وتتحول المناقشة التي تدور حول الاتجاهات العاطفية الجنسية إلى مقارنة بين مجتمعين مختلفين.

(١٦) مشروع قصة قصيرة

رجل وامرأة كل منهما يتمتع بخبرة جنسية يفخر بها، ونادرًا ما يلتقيان بأشخاص آخرين يتمتعون بمثل هذه الخبرة. فجأة يشعر كل منهما بنفور نحو الآخر، وعندما يتفحصان هذا الشعور (وهما بارعان للغاية في مراجعة نفسيهما) يكتشفان أن هذا النفور موجه نحو ذاتيهما. عثر كل على مرآته، ونظر فيها جيدًا، ولوى قسمات وجهه، ثم ترك الآخر. عندما يلتقيان يسود شعور بالتقدير الذي تطل منه السخرية، ويصبحان صديقين على هذا الأساس، وبعد فترة من الوقت تتحول هذه الصداقة إلى علاقة حب. ولكن طريقهما إلى الحب كان مسدودًا بفعل تجربتهما القاسية الأولي التي خلت من المشاعر.

(١٧) مشروع رواية قصيرة

رجل وامرأة يتسمان بالاستهتار، تسير حكايتهما معًا وفقًا لهذا الإيقاع الساخر. يضاجعها الرجل، ولكن خبرتها تدفعها إلى التصرف في حذر، ولكن رويدًا رويدًا تسلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلبها إليه. وفي اللحظة التي تسلم له فيها مشاعرها تنضب مشاعره تجاهها ويفقد رغبته فيها. تشعر أن كرامتها جُرحت ويسيطر عليها إحساس بالحزن الشديد، فيدفعها ذلك لأن تتجه إلى رجل آخر. ولكن في هذه اللحظة تستيقظ بداخل خليلها السابق الرغبة من جديد. وبينما تثيره معرفته بكونها نائمة بفراش رجل آخر، إذ تشعر المرأة بفتور شديد لأن ما يثيره ليس هي نفسها ولكن كونها بصحبة رجل آخر. ولكن رويدًا رويدًا تسلم قلبها إليه، وفي اللحظة التي تكون أمورها في أحسن حالاتها يفتر شعور الرجل مرة أخرى، ويتجه إلى امرأة أخرى، وتذهب المرأة إلى رجل آخر، وهكذا دواليك.

(١٨) مشروع قصة قصيرة

تقوم هذه القصة على الفكرة التي تدور حولها قصة «الحبيبة» التي كتبها تشيكوف، ولكن في هذه القصة لا تتغير شخصية البطلة لتناسب الرجال المختلفين الذين تقع في غرامهم الواحد تلو الآخر، ولكنها تتغير استجابة للتقلبات النفسية التي يتعرض لها رجل واحد، حتى إنها يمكن أن ترتدي عباءة ست شخصيات مختلفة على مدار اليوم، إما تعارض هذا الرجل أو تنسجم معه.

(١٩) المدرسة الرومانسية

خرج الرفاق معًا في ليلة من ليالي السبت وقلوبهم الصادقة يملؤها الوفاء. اعتاد هؤلاء الرفاق الثوريون — بادي وديف ومايك — الذين تربطهم أواصر الصداقة الحقيقية الخروج بليالي السبت. الجو قارص البرودة والسماء تمطر ثلجًا. تجمعت برودة المدن في نيويورك. وقف بادي بعيدًا فاتحًا عينيه عن آخرهما. بادي، ذلك الفتى الحالم ذو العينين الفاحمتي السواد، كان يقف محملقًا في حزن وقد استقرت ذرات الثلج الأبيض فوق كتفيه المنحنيين. أوقعه ديف على الأرض، وتمدد الاثنان على الجليد الأبيض الذي تطل منه البراءة. تكور بادي على نفسه، فدفع ديف بقبضته في بطن بادي. رباه، إنه الحب الصادق الذي يجمع بين صديقين مخلصين، فتيان صالحان يلعَبان معًا تحت منحدرات مانهاتن الصخرية الباردة في ليلة من ليالي السبت. فقد بادي وعيه، «أنا أحب هذا الحقير.» هكذا قال ديف، في حين كان بادي متمددًا باسطًا ذراعيه وقدميه على الثلج، وقد تاه منا، تاه وسط الحزن الذي يسود المدينة. أما أنا، مايك، الفتى المنعزل، فقد وقفت بعيدًا أحمل على كاهلي عبء المعرفة.

وقفت أنا الفتى الوحيد ذو الثمانية عشر ربيعًا أشاهد رفيقي المخلصين ديف وبادي. استرد بادي وعيه. سال اللعاب على شفتيه اللتين كادتا تبدوان مثل شفتي شخص ميت، وانحدر على كومة الجليد التي كان لونها الأبيض يشبه لون اللعاب. نهض وهو يلهث ورأى ديف، الفتى القاطن بحي برونكس، وهو يلف ركبتيه بذراعيه ويحملق فيه ومشاعر الحب تطل من عينيه الحزينتين. ضربه بادي في ذقنه بقبضة يده اليسرى المشعرة، فسقط ديف مباشرة في الثلج القارص البرودة. أخذ بادي يضحك منتظرًا دوره، كان رجلًا مصابًا بالجنون، سألته: «ماذا ستفعل يا بادي؟»، خرج السؤال من مايك الفتى المنعزل ولكنه مع ذلك يحب صديقيه المخلصين، قال بادي وهو يضحك: «هل رأيت هذا التعبير المرتسم على وجهه؟» ثم تدحرج على الأرض وهو يلهث: «هل رأيت ذلك؟» أخذ ديف يلهث وبدأت الحياة تعود إليه ثم تدحرج على الأرض وتأوه ثم نهض جالسًا، ثم تعارك ديف وبادي عراكًا صادقًا وهما يضحكان في فرحة، حتى اندثرت الضحكات في الجليد. أما أنا مايك، المحلق في سماء الكلمات، فقد وقفت وقد داخلني الحزن الذي امتزج بالشعور بالفرح. قال ديف وهو يلهث موجهًا لكمة إلى بادي في أعلى بطنه: «أنا أحب هذا الحقير.» وقال بادي وهو يصدها بساعده: «رباه أنا أحبه.» ترامت إلى سمعي الموسيقى العذبة التي عزفها كعبا أحد الأحذية على الرصيف الذي تشع منه البرودة القارصة، فناديت عليهما، ووقفنا في ترقب، إنها روزي جاءت من حجرة نومها التي تؤجرها بمسكن في أحد الأحياء الفقيرة، تتهادى على كعبي حذائها ذوي الصوت العذب، قالت وهي تبتسم في عذوبة: «أهلًا يا رفاق.» وقفنا نرقبها. الآن تملكنا الحزن ونحن نرقب روزي التي تناثرت على جسدها الحبيبات الحمراء وهي تستدير منتعلة حذائها المثير متحركة بحركات خليعة أثارت في نفوسنا الأمل. ثم تحرك صديقنا بادي مبتعدًا عنا وقال وقد اعتراه التردد والتقت عيناه الحزينتان بأعيننا الحزينة: «أنا أحبها يا رفاق.» مشى بادي تاركًا صديقيه: ديف القابض على يديه، ومايك المحلق في سماء الكلمات. وقفنا حينذاك نرقب صديقنا بادي، الذي حسم مصيره، يومئ برأسه ويتبع روزي وضربات قلبه الصافي تتراقص مع ألحان كعبي حذائها العذبة. هبطت علينا حينذاك أجنحة الزمن الروحاني التي تراكمت عليها حبات الثلج الأبيض، ذلك الزمن الذي سيدفع كلًّا منا وراء حبيبته في طريق الموت حيث سيحمل في تابوت خشبي في جنازته. وقفنا نرقب صديقنا بادي وهو يخرج إلى هذه الرقصة المحتومة المعروفة منذ القدم، رقصة حبات الثلج، وقد رصع الصقيع الجاف ياقته، كان المشهد مأساويًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجميلٍ، وحبنا له حينذاك كان رائعًا وعظيمًا وحزينًا ومنزهًا عن أي غرض، كان حبًّا صادقًا وجادًّا. جاشت بداخلنا مشاعر حبنا له ونحن نستدير خلفنا، نحن صديقاه اللذان تركهما، ومعاطفنا الصبيانية تتطاير حول أقدامنا البريئة. هناك كنت واقفًا أنا وديف، أنا مايك كنت حزينًا لأن الحزن مس أرواحنا الصافية، كنت أنا وديف نقف هناك نخوض الحياة في سخف. قال ديف: «ستكتب عن ذلك يومًا ما يا مايك، من أجلنا جميعًا.» كان يتلعثم لم يستطع أن يعبر عما يدور بداخله، فلم يكن موهوبًا في الطيران بسماء الكلمات: «سوف تكتب عن هذا، أليس كذلك يا صاح؟ وكيف أن أرواحنا دُمرت هنا على رصيف مانهاتن الذي غطاه الثلج الأبيض وكيف لفح الشيطان الرأسمالي العاشق للمال والآتي من الجحيم كعوبنا بنيرانه؟» ثم قلت له وقد شوهت مشاعر الحب روح الصبي بداخلي: «أنا أحبك يا ديف؟» ثم وجهت له ضربة مباشرة في فكه وأنا أترنح من أثر مشاعر الحب التي تجيش بداخلي نحو العالم ونحو أصدقائي، نحو أمثال ديف ومايك وبادي. نزل ديف ثم هبطت أنا مايك، واحتضنته بذراعيّ، أنا أحبك يا صديقي، هكذا هي الصداقة في المدينة التي تشبه الغابة، صداقة الفتيان، الصداقة الخالصة. كانت رياح الزمن تهب على أكتافنا البريئة التي يطل منها الحب وقد غطاها الثلج.

إذا عدت مرة أخرى إلى أسلوب الاقتباس والتقليد فالوقت حان لكي أتوقف عن الكتابة.

[إلى هنا ينتهي الدفتر الأصفر بخطين أسودين.]

[استمرت حكايات الدفتر الأزرق ولكن من دون تواريخ:]

اتصل بي الأشخاص الذين عرفوا أن الغرفة الموجودة بالطابق الأعلى خلت من ساكنها، قلت إنني لن أؤجرها، لكنني في حاجة للمال. سمعت موظفتان من إيفور عن الحجرة، ولكنني أدركت حينها أنني لا أريد أن أؤجر هذه الغرفة للفتيات، فسوف تصبح الشقة ممتلئة بالنساء إذا أتت هاتان الفتاتان لتعيشا معي أنا وجانيت، وأنا لا أرغب في ذلك. ثم أتى إليَّ بعض الرجال، اثنان منهما أثارا في الحال تلك الأجواء التي ترتبط بفكرة وجودي مع أي منهما بمفردي في هذه الشقة، ولذلك رفضت أن أؤجر الغرفة لأي منهما. وثلاثة كانوا يحتاجون إلى عناية، فهم مدمرون ومشردون،

أدركت أنه قبل أن يمر أسبوع سأصبح مسئولة عن رعايتهم والاهتمام بهم. قررت حينها أنني لن أؤجر أي غرفة بشقتي بعد الآن، سوف أبحث عن وظيفة أو أنتقل إلى شقة أصغر أو أحل المشكلة بأي وسيلة أخرى. في هذه الأثناء ظلت جانيت تسأل وتحاور: يا لها من خسارة أن يضطر إيفور للرحيل، أتمنى أن نلتقي بشخص لطيف مثله، إلى آخر هذا الكلام. ثم فجأة وجدتها تخبرني بأنها تود أن تذهب إلى مدرسة داخلية، وأن إحدى صديقاتها في المدرسة ستذهب أيضًا، سألتها عن السبب، فقالت لي إنها تود أن يكون بصحبتها فتيات أخريات لتعلب معهن، على الفور داخلني شعور بالحزن ورفضت طلبها، ثم شعرت بالاستياء من نفسي لأنني فعلت ذلك. أخبرتها بأنني سأفكر في الأمر ... النفقات، هذا هو الجانب العملي الذي تعللت به. ولكن ما كنت أود أن أفكر فيه في الحقيقة شخصية جانيت، الوضع الذي سيتناسب معها. كنت دائمًا أفكر في أنه لو لم تكن جانيت ابنتي لأصبحت طفلة تقليدية للغاية (وأنا لا أعني هنا الجانب الوراثي، ولكن التربوي، أي لو لم أكن أنا القائمة على أمور تربيتها.) وذلك ما هي عليه الآن ولكن مع لمحة من التفرد تطفو على السطح. ومع تأثير العيش بمنزل مولي فيها، وعلاقتي بمايكل التي دامت لفترة طويلة ثم خروجه من حياتنا، ومع أن جانيت هي نتاج لما يطلق عليه «علاقة زواج فاشلة» فعندما أنظر إليها لا أرى سوى طفلة صغيرة جذابة تتمتع بذكاء عادي، قدرت لها الطبيعة أن تعيش حياة بلا إشكاليات. كنت على وشك أن أكتب في أوراقي: «أنا أتمنى لها ذلك.» لمَ؟ أنا لا أتقبل الأشخاص الذين لم يجربوا من قبل أن يغيروا أنفسهم، ولم يعمدوا إلى تخطي الحدود، ولكن حينما يأتي الأمر إلى طفلتي فأنا لا أحتمل أن تخوض كل هذا. عندما قالت: «أريد أن أذهب إلى مدرسة داخلية» بتلك اللهجة الطفولية الساحرة التي تستخدمها الآن، مجربة ملكاتها كامرأة، كانت حقًّا تقول لي: «أريد أن أكون طبيعية وعادية.» كانت تقول: «أريد أن أخرج من ذلك الجو المليء بالتعقيدات.» أظن أن السبب في هذا أنها تعي حالة الاكتئاب المتزايدة التي أعانيها. صحيح أنني حينما أكون معها أستطيع أن أتخلص من آنا الخاملة والمرتعبة، ولكنها يجب أن تشعر أن آنا موجودة، وأنا حتمًا لا أريدها أن ترحل لأنها هي الصورة الطبيعية لآنا، فعندما أكون معها يكون عليَّ أن أكون بسيطة ومسئولة وحنونة، ولذا فهي تساعدني على أن أركز على ما هو طبيعي، ولكن حينما تذهب إلى مدرسة داخلية ....

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليوم سألتني جانيت مرة أخرى: «متى سأذهب إلى المدرسة الداخلية، أنا أريد أن أذهب مع صديقتي ماري.»

أخبرتها بأن علينا أن نترك هذه الشقة ونذهب إلى شقة أخرى أصغر، وأنني يجب أن أحصل على وظيفة، ولكن لن يحدث ذلك في التو واللحظة. للمرة الثالثة تشتري شركة إنتاج سينمائي حقوق إنتاج رواية «حدود الحرب»، ولكن لن يسفر هذا عن أي شيء. أنا آمل ذلك، على أي حال فلم أكن لأبيع حقوق الإنتاج لو أنني على ثقة من أن الفيلم سينتج، إن كل ما في الموضوع أن ذلك المبلغ سيمكننا من أن ندبر أمور المعيشة حتى لو التحقت جانيت بمدرسة داخلية.

كنت أبحث عن المدارس الداخلية الليبرالية.

وأخبرت جانيت عنها، فقالت: «أنا أريد أن أذهب إلى مدرسة داخلية عادية.» فقلت لها: «لا يوجد شيء عادي بشأن المدارس الداخلية التقليدية الخاصة بالفتيات في إنجلترا، فهي ليس لها مثيل في العالم.»

– أنت تفهمين جيدًا ما أعنيه، وإنني أيضًا أود أن أذهب إلى المدرسة التي ستذهب إليها ماري.

سوف ترحل جانيت في خلال أيام قليلة. اتصلت بي مولي اليوم وقالت إن رجلًا أمريكيًّا في المدينة يبحث عن غرفة خالية، قلت لها إنني لا أريد أن أؤجر أي غرفة بمنزلي، قالت لي: «ولكنكِ تعيشين وحدكِ في هذه الشقة الفسيحة، لن يكون عليكِ حتى أن تريه.» صممت على موقفي، فقالت لي مولي: «أنا أظن أن السبب الحقيقي هو أنكِ ترغبين في الانعزال عن الآخرين، ماذا حدث لكِ يا آنا؟» ماذا حدث لكِ؟ كان هذا السؤال مثل الصفعة، لأنني أعرف أنني أرغب فعلًا في الانعزال عن الآخرين، ولكنني لا أهتم بهذا الأمر. قالت مولي: «ترفقي به، إنه من يساريّ أمريكا وهو لا يملك المال وقد وضع اسمه على القوائم السوداء، وأنتِ تعيشين وحدكِ في هذه الشقة الممتلئة بالغرف الخالية.» قلت لها: «إذا كان من اللاجئين الأمريكيين بأوروبا فلا بد أنه يكتب الرواية الأمريكية الملحمية المعروفة، ولا بد أنه يخضع للعلاج النفسي، ولا بد أنه طرف في علاقة من علاقات الزواج الأمريكية الفاشلة، وسيكون عليَّ أن أستمع إلى همومه ... أنا أقصد المشكلات.» ولكن مولي لم تضحك بل قالت لي: «إذا لم تحذري فسوف تصبحين مثل الأشخاص الآخرين الذين تركوا الحزب. بالأمس قابلت توم، لقد ترك الحزب بسبب مسألة المجر، فيما مضى كان أبًا روحيًّا لعشرات الأشخاص على نحو غير رسمي، ولكنه تحول إلى شخص مختلف تمامًا، سمعت أنه

فجأة ضاعف من قيمة إيجار الغرف بمنزله، وترك وظيفته كمعلم، وعمل بوكالة للإعلانات، اتصلت به لأسأله عن هذه الأفعال الغريبة التي يقوم بها فقال لي: «كفاني كل هذه المدة التي كان الآخرون يتعاملون فيها معي على أنني مغفل وأبله.» ولذلك من الأفضل أن تحترسي يا آنا.»

قلت لها إن بإمكان هذا الرجل الأمريكي أن يأتي إلى شقتي ما دمت لن أضطر لأن أراه، قالت مولي: «إنه ليس سيئًا، لقد قابلته، صحيح أنه متصلب الرأس ويتحدث كثيرًا عن نفسه في تعجرف، ولكن كلهم هكذا.» قلت لها: «أنا لا أظن أنهم يتحدثون عن أنفسهم في تعجرف، إن هذه هي الصورة التقليدية المعروفة عنهم من أيام الماضي، ولكن الأمريكيين هذه الأيام منعزلون وفاترون، فهم يعزلون أنفسهم عن بقية العالم خلف حاجز من الزجاج أو الثلج.» قالت مولي: «كما ترين، ولكنني مشغولة.»

فيما بعد فكرت فيما قلته لها، كان ذلك غريبًا لأنني لم أدرك أن هذا هو رأيي حتى قلته لمولي، ولكنه رأي صحيح، فمن الممكن أن يكونوا متعجرفين وأن يثيروا الكثير من الضجة عن أنفسهم، ولكنهم في كثير من الأحيان يتمتعون بخفة الظل، نعم هذه هي سمتهم المميزة، خفة الظل. وأسفل هذه الهستيريا يختبئ خوفهم من الاختلاط بالآخرين. كنت جالسة أفكر في الأمريكيين الذين عرفتهم، وهم كثيرون الآن، تجول برأسي عطلة نهاية الأسبوع التي قضيتها مع واحد من أصدقاء نيلسون. في البداية شعرت بالارتياح فقد حادثتني نفسي بأنني التقيت أخيرًا برجل طبيعي، ثم أدركت بعد ذلك أن عقله هو الذي يتحكم في كل شيء، لديه «أداء جيد في الفراش» يؤدي واجبه «كرجل» على نحو إيجابي وبدرجة من الوعي، ولكن لم لا دفء، كل شيء محسوب، هناك الزوجة «القابعة في المنزل» التي يتكلم عنها بلهجة فوقية للغاية، (ولكنه في واقع الأمر يخشاها ... لم يكن يخشاها هي، بل يخشى التزاماته نحو المجتمع الذي تمثله.) وهناك العلاقات الهادئة التي لا يتقيد فيها بأي التزام، يحسب الدرجة المطلوبة تمامًا من المشاعر الدافئة ... كل شيء محسوب، لكل علاقةٍ قدرٌ محدد من المشاعر. نعم، هذه هي السمة التي تميزهم، سمة تميزها الفطنة والفتور والحسابات المنطقية. إن المشاعر هي شَرَك يمكن أن يقع فيه المرء ليصبح بين أيدي المجتمع، ولهذا يحسبها الناس جيدًا.

عدت بعقلي إلى تلك الحالة التي كنت عليها عندما كنت أذهب إلى الأم شوجر، قلت لنفسي إنني لا أستطيع أن أشعر بأي شيء، أنا لا أهتم بأي شخص في العالم سوى جانيت، منذ سبعة أعوام تقريبًا. عندما تركتها قلت لها: علمتني كيف أبكي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا أرى ما يمكن أن أشكركِ عليه، أعدت إليّ قدرتي على أن أشعر بما حولي، وهذا شيء مؤلم للغاية.

إنها لفكرة عفى عليها الزمن أن ألجأ إلى طبيبة نفسية لكي تعلمني كيف أعيد شعوري إلى الحياة، لأنني حينما أفكر الآن في الأمر أدرك أن الناس في كل مكان في العالم يحاولون ألا يشعروا بأي شيء؛ الفتور ثم الفتور ثم الفتور، هذا هو الوصف الصحيح، هذا هو الشعار الذي انطلق في البداية من أمريكا، ولكنه الآن ينتشر بيننا. تجول بذهني جماعات الشباب، سواء السياسية أو الاجتماعية، المنتشرة في أرجاء لندن، أصدقاء تومي، الاشتراكيون الجدد ... إن هذه هي السمة المشتركة بينهم، المشاعر المحسوبة، الفتور.

في عالم سيئ مثل ذلك الذي نعيش فيه يجب أن نقيد المشاعر، كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟

لكي أقف في وجه ذلك الانسحاب الفطري إلى منطقة اللاشعور — كإجراء وقائي ضد الشعور بالألم — تذكرت الأم شوجر، تذكرت أنني قلت لها في إحدى ثورات غضبي: «إن أخبرتك أن القنبلة النووية انفجرت وطمست نصف أوروبا، فسوف تهزين رأسكِ في ضيق، وإن كنت أنتحب وأبكي فسوف تشجعينني — بأن تقطبي جبينكِ لتحذريني أو تقومي بأي حركة أخرى — على أن أتذكر، أو آخذ في اعتباري شعورًا ما استبعدته بإرادتي، أي شعور؟ إنه الشعور بالفرحة بالطبع. سوق تقولين أو تلمحين لي: فلتفكري يا صغيرتي في الجوانب الخلاقة التي تكمن في هذا الدمار! فكري في النتائج الإبداعية للقوة المحبوسة داخل الذرة! دعي عقلكِ يرسو على أول الحشائش الخضراء التي ستخرج إلى النور من بين الحمم بعد مليون عام!» ابتسمت الأم شوجر بالطبع، ثم تحولت ابتسامتها إلى ابتسامة جافة، هذه واحدة من اللحظات التي أنتظرها، اللحظات التي تأخذنا إلى خارج العلاقة بين المحللة ومريضتها. قالت لي: «يا عزيزتي آنا، ربما يكون علينا أن نتعلم كيف نعتمد على الحشائش الخضراء التي ستنبت بعد مليون عام من أجل أن نبقي على سلامة عقولنا؟»

إن ذلك الجمود الذي يسكن البشر ليس سببه الرعب الذي يطل برأسه في كل مكان فقط ولا الخوف من مواجهته، الأمر أكبر من ذلك، إن الناس يعرفون أنهم يعيشون في مجتمع إما ميت أو يحتضر. إنهم يرفضون المشاعر، لأن الغاية من المشاعر هي المتاع والمال والسلطة، إنهم يعملون ويزدرون ما يعملون، ولذلك يملئون

نفوسهم بالجمود، ويحبون ولكنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أن حبهم مشوه أو منقوص، ولذلك يطفئون وهج مشاعرهم.

ربما سيكون من الضروري من أجل الحفاظ على الحب وملكة الشعور والرقة، أن تراودنا هذه المشاعر حتى إن كنا لا نعرف ماهيتها، حتى إن كان ما تراودنا هذه المشاعر تجاهه هو أمر مزيف أو وضيع، أو فكرة لا تزال طيفًا يلمع بخيالنا الذي ننسجه بإرادتنا ... أو إذا كان الشعور الذي يداخلنا هو الشعور بالألم فيجب أن نبقي هذا الشعور حيًّا داخلنا مقرين بأن البديل لذلك هو الموت. إن أي شيء أفضل من الدهاء والحسابات العقلية والبقاء بلا أي التزام نحو أي شيء، والعزوف عن العطاء خوفًا من عواقب هذا العطاء ... أسمع وقع خطوات جانيت وهي تصعد السلم.

اليوم ذهبت جانيت إلى المدرسة؛ ارتداء الزي المدرسي ليس إلزاميًّا، ولكن جانيت اختارت أن ترتديه، إنه لشيء غريب أن ترغب طفلتي في أن ترتدي زيًّا مدرسيًّا، أنا لا أذكر أنني شعرت بالراحة يومًا وأنا أرتدي زيًّا مدرسيًّا. الزي المدرسي مريلة قبيحة يميل لونها الأخضر إلى الرمادي وقميص يميل لونه البني إلى الأصفر، صُمم ذلك الزي بحيث يجعل فتاة مثل جانيت في الثانية عشرة من عمرها تبدو قبيحة قدر الإمكان، وهناك أيضًا قلنسوة قبيحة لونها أخضر داكن، درجتا اللون الأخضر للمريلة والقلنسوة بدوتا قبيحتين معًا، ولكن جانيت سعيدة بهذا الزي. مديرة المدرسة هي من اختارت هذا الزي، قابلت هذه السيدة، إنها سيدة إنجليزية كبيرة السن ولطيفة، على قدر من الثقافة والذكاء والجدية الشديدة، بإمكاني أن أتصور أن المرأة التي داخلها ماتت قبل أن تبلغ العشرين من عمرها، استأصلتها بنفسها على الأرجح، وخطر لي أنني أوفر لجانيت من يؤدي دور الأب حينما ألحقها بالمدرسة التي تديرها هذه السيدة، ومن الغريب أنني كنت على يقين بأن جانيت ستعارضها وترفض مثلًا ارتداء هذا الزي القبيح، ولكن جانيت لم ترغب في معارضة أي شيء.

هاتان الخصلتان اللتان تميزانها كفتاة صغيرة؛ المشاكسة وذلك السحر المنبعث من طفلة مدللة، واللتان أحاطت بهما جانيت نفسها منذ عام وكأنها تلف جسدها بفستان جميل، تلاشتا في تلك اللحظة التي ارتدت فيها الزي المدرسي. على رصيف المحطة بدت جانيت فتاة صغيرة جميلة ومتألقة ترتدي زيًّا قبيحًا، وسط قطيع من الفتيات الصغار اللاتي يشبهنها، وقد اختفت مفاتنها وتراجعت جاذبيتها وأصبحت تتصرف على نحو عملي. عندما رأيتها رثيت فتاة صغيرة نحيلة ونشيطة ذات بشرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سمراء وعينين داكنتين، تملؤها تلك الجاذبية التي اكتسبتها لتوها من الحياة، وإدراكها الفطري لما تمتلكه من قوة يجعلها منتبهة لما حولها طوال الوقت. وفي الوقت ذاته جالت برأسي هذه الخاطرة التي تنطوي على القسوة: إذا كنتِ يا طفلتي المسكينة ستنشئين في مجتمع يملؤه أمثال إيفور وروني ويملؤه الرجال الذين يسكنهم الرعب، الذين يزنون المشاعر كما يزنون البضائع، فقد أحسنتِ صنعًا عندما اخترتِ أن تقلدي السيدة ستريت مديرة المدرسة. باختفاء هذه الفتاة الصغيرة الفاتنة عن النظر تسلل إلى نفسي شعور بأن شيئًا نفيسًا للغاية وهشًّا أُنْقِذ من خطر يحيق به، بين ثنايا هذا الشعور شعور بالشماتة ونشوة الانتصار على الرجال: حسنًا، ألا تقدرون قيمتنا؟ ... سنحمي أنفسنا من خطر الوقت الذي ستقدروننا فيه مرة أخرى. كان يجدر بي أن أخجل من شعوري بالشماتة والحقد، ولكنني لم أشعر بالخجل، بل شعرت بالنشوة والتلذذ.

من المفترض أن يأتي الرجل الأمريكي ويدعى السيد جرين اليوم، لذلك أعددت غرفته، اتصل بي ليبلغني أنه مدعو إلى قضاء يوم في الريف ويسأل هل من الممكن أن يأتي غدًا، اعتذر كثيرًا، ولكنني تضايقت لأنه أصبح عليَّ أن أغير الترتيبات التي قمت بها. فيما بعد اتصلت بي مولي لتخبرني بأن صديقتها جين أخبرتها أنها أمضت يومًا مع السيد جرين أطلعته فيه على معالم منطقة سوهو بلندن، انتابني الغضب، ثم قالت مولي: «التقى تومي بالسيد جرين ولم يعجب به، قال إنه شخص غير منظم، أليست هذه شهادة في حق السيد جرين؟ ألا ترين ذلك؟ إن تومي لا يتقبل أي شخص ليس كذلك، أليس ذلك غريبًا؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص اشتراكي مثله، ويتمتع جميع أصدقائه بالمكانة نفسها ويوجهون القدر نفسه من الاهتمام إلى المال والمكانة الاجتماعية ... ما إن يقابلوا شخصًا لا يزال يحمل داخله بعضًا من وهج الحياة، حتى يخرجوا من عباءة الأخلاق التي يستترون تحتها. وتلك الفتاة الكريهة التي تزوجها تومي هي أسوأ من الجميع، قالت في تذمر إن السيد جرين ليس إلا شخصًا متشردًا لأنه ليس لديه وظيفة ثابتة، هل تصدقين؟ إنها تصلح لأن تكون زوجة رجل أعمال ضيق الأفق على معرفة ببعض المبادئ الليبرالية المحدودة التي يستخدمها من أجل أن يصدم أصدقاءه المحافظين. هذه هي زوجة ابني، إنها تؤلف كتابًا ضخمًا عن القائمين على «الحركة الميثاقية» البريطانية وتدخر كل أسبوع جنيهين ليعينوها على أمور المعيشة عندما يتقدم بها العمر، على أي حال إذا لم يُعجب تومي وهذه الفتاة السليطة بالسيد جرين فهذا يعني أنه غالبًا سيحوز إعجابكِ،

وليس من الضروري أن يكون جزاء الإحسان هو الإحسان.» ضحكت على كل ما قالته، ثم خطر لي أنه إذا كان بإمكاني أن أضحك فلا يمكن أن تكون حالتي بهذا السوء الذي تخيلته، (مرةً قالت لي الأم شوجر إن الأمر تطلب منها ستة أشهر حتى تتمكن من أن تجعل مريضًا يعاني الاكتئاب يضحك.) لا شك أن رحيل جانيت ووجودي وحدي بهذه الشقة الكبيرة زادا من سوء حالتي، فأنا أشعر بالفتور والكسل، أظل أفكر في الأم شوجر ولكن على نحو مختلف، كأن التفكير فيها سينقذني، من ماذا؟ أنا لا أريد لشيء أن ينقذني، لأن رحيل جانيت ذكرني بشيء آخر ... الوقت، كيف يكون الوقت عندما لا يكون المرء واقعًا تحت ضغط من فرد آخر. أنا لم أتحرك في الحياة دون أن أشغل بالي بالوقت منذ أن ولدت جانيت، فوجود طفل صغير معناه أن الأم تضع عقارب الساعة دائمًا نصب عينيها، أن تكون منشغلة دائمًا بأعمال يجب أن تنجز في لحظة معينة ستأتي. آنا التي ماتت حينما ولدت جانيت تبعث من جديد. جلست اليوم على الأرض أشاهد السماء وخيوط الظلام تتسلل إليها، أسكن في قلب عالم ينظر ساكنوه إلى السماء فيخطر لهم أن خفوت الضوء يعني أن المساء حل، بدلًا من أن يفكروا في أن الخضراوات يجب أن تطهى بعد ساعة واحدة تمامًا، فجأة عدت بعقلي إلى تلك الحالة التي نسيتها، شيء تعودت أن أفعله وأنا طفلة؛ أجلس في الفراش وألعب ذلك الشيء الذي سميته «اللعبة»، في البداية أرسم صورة الحجرة التي أجلس فيها بعقلي، «مسمية» كل شيء: الفراش، والمقعد، والستائر، حتى تكتمل الصورة في ذهني، بعد ذلك أتخيل صورة المنزل، ثم ما هو خارج المنزل، أرسم في تأنٍّ صورة الشارع، ثم أطير في الهواء وأنظر إلى لندن من أعلى، أنظر إلى أطراف لندن الشاسعة الممتدة أمامي، ولكن في الوقت نفسه تظل صورة الحجرة والمنزل والشارع حاضرة في ذهني، ثم أرسم صورة لإنجلترا، كيف تبدو إنجلترا وسط بريطانيا العظمى بأكملها، بعد ذلك أتخيل صورة الجزر البريطانية التي تقع قبالة أوروبا، ثم رويدًا رويدًا أرسم صورة العالم، قارةً قارة، ومحيطًا بعد محيط (لكن الهدف من «اللعبة» أن أرسم صورة هذه الأماكن الشاسعة وأنا أحتفظ بذهني بالصورة التي رسمتها لحجرة النوم والمنزل والشارع والتي تبدو ضئيلة بجانب كل هذا البراح.) ثم تأتي اللحظة التي أنطلق فيها إلى الفضاء الخارجي، لأنظر إلى العالم من الخارج، تلك الكرة المعلقة في السماء التي ينعكس عليها ضوء الشمس، تلك الكرة التي تدور وتلف من تحتي، عندما أصل إلى تلك النقطة وأصبح محاطة بالنجوم ومن تحتي تدور الكرة الأرضية، أحاول في تلك اللحظة نفسها أن أتخيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نقطة مياه تفيض منها الحياة، أو ورقة نبات خضراء. في بعض الأحيان أصل إلى ما أنشده، ذلك الإدراك المتوازي للاتساع والضيق، أو أحاول أن أركز تفكيري على كائن واحد، سمكة صغيرة ملونة تسبح في المياه، أو زهرة واحدة أو فراشة، وأحاول أن أرسم صورة الزهرة، أو الفراشة أو السمكة، أن أحدد نوع أي منها و«أسميه» ثم أبدأ بعد ذلك أرسم صورة الغابة في تأنٍ حول الزهرة، أو حول السمكة صورة البحر، أو حول الفراشة ذلك الفراغ الذي يعصف به هواء الليل الذي يجعل أجنحتي تنحرف وتميل، وبعد ذلك أخرج فجأة من هذا الضيق إلى الفضاء.

كان ذلك سهلًا وأنا طفلة صغيرة، فأنا أظن أن «اللعبة» جعلتني أعيش في حالة من الانتشاء والابتهاج لسنوات، ولكن الأمر الآن صعب للغاية، فعندما جربت أن ألعبها اليوم بعد الظهيرة شعرت بالإرهاق بعد لحظات قليلة، ولكنني تمكنت لبضع ثوانٍ من أن أشاهد الأرض وهي تدور من تحتي وقد خفت ضوء الشمس الذي كان منعكسًا على آسيا في حين خيم الظلام على أوروبا.

أتى سول جرين ليرى الحجرة ويترك أغراضه بها، أخذته مباشرة إلى الحجرة بالدور العلوي، نظر إليها نظرة خاطفة وقال: «لا مشكلة، لا مشكلة.» كانت لهجته مليئة بعدم الاهتمام مما جعلني أسأله هل ينوي أن يترك الحجرة قريبًا، نظر إليّ نظرة خاطفة في ارتياب — وكنت أعرف أن هذه هي إحدى الخصال التي تميز الأمريكيين — ثم بدأ يقدم لي تفسيرات مطولة في حرص بنفس النبرة التي استخدمها حينما اعتذر لي عن عدم مجيئه بسبب الدعوة التي تلقاها لقضاء يوم في الريف، ذكرتني هذه النبرة بما قالته مولي، فقلت له: «أنا أظن أنك قضيت هذا اليوم في سوهو مع جين بوند.» بدت عليه معالم الدهشة ثم ارتسم الاستياء على ملامحه، ولكنه كان استياء شديدًا للغاية كأن أحدًا اكتشف أمره وهو يرتكب جريمة ما، ثم تغيرت ملامحه، وعاد إليها ذلك الارتياب والحذر، ثم بدأ يقدم لي تفسيرًا مطولًا عن تغيير خطته إلى آخر هذه الأمور، هذا التفسير أغرب من الاستياء الذي ارتسم على ملامحه، فمن الواضح جدًّا أن كل ما قاله ملفق، فجأة أشعر بالملل وأقول له إنني سألته عن مدة إقامته بالحجرة لأنني أنوي أن أنتقل إلى شقة أخرى لذا فعليه أن يبحث عن مكان آخر إذا كان ينوي أن تكون إقامته لفترة طويلة، أجابني إنه لا مشكلة، لا مشكلة. بدا لي كأنه لم يكن يستمع لما أقول، وكأنه لم يكن موجودًا بالغرفة من الأساس، ولكنه تبعني بعد أن خرجت من الغرفة وترك حقائبه بها، ثم قلت له تلك الجملة التي يجب أن أقولها بوصفي أنا المالكة عن عدم وجود أي

«موانع أو قيود» محاولة أن يبدو صوتي مازحًا، ولكنه لم يفهم، فكان عليَّ أن أقول له بصراحة إنني لا أمانع أن يجلب الفتيات إلى غرفته إذا رغب في ذلك. أدهشتني ضحكته المفاجئة والعالية التي أطل منها الاستياء، وقال لي إنه سعيد لأنني أتفهم احتياجاته كشاب طبيعي مثل بقية الشباب، الرد الأمريكي المتوقع عندما تكون الفحولة هي موضوع الحوار، ولذلك لم أقص عليه حكاية الساكن السابق. شعرت أن كل الأشياء متعارضة ومتنافرة، فتركته ونزلت إلى المطبخ، بإمكانه أن يتبعني إذا رغب في ذلك. كنت قد أعددت القهوة عندما مر عليَّ في المطبخ قبل أن ينصرف فقدمت له فنجانًا، تردد وأخذ يتفحصني بعينيه، لم يحدث يومًا أن شخصًا عمد إلى التحقق من مفاتن جسدي بمثل هذه الوقاحة، لم يكن الأمر مزحة، ولم تكن هناك أي مشاعر دافئة، لم يكن أكثر من نخاس يتفحص بضاعة من الرقيق ليقارنها بغيرها، الأمر واضح وضوح الشمس مما دفعني أن أقول له: «هل أصلح؟ آمل ذلك.» أطلق ضحكته المفاجئة التي ينبعث منها الاستياء وقال: «لا مشكلة، لا مشكلة.» إما أنه لم يكن يعي أنه كان يحاول أن يعرف قياساتي، أو أنه يخجِل من أن يعترف بذلك، ولذلك لم أعلق على الأمر، واحتسينا قهوتنا. لم أشعر بالارتياح وأنا معه، لا أعرف لماذا، شيء في سلوكه لا يشعرني بالارتياح، وشيء مريب في مظهره، فالمرء عندما ينظر إليه يأتيه شعور تلقائي بأنه سيجد شيئًا لم يعهده. بشرته شقراء، وشعره الأشقر القصير يبدو مثل شعيرات فرشاة لامعة، لم يكن طويلًا، مع أنني ظللت أظن أنه كذلك، ولكن حينما تفحصته مرة أخرى اكتشفت أنه ليس من ذوي القامات الطويلة، ولأن ملابسه كبيرة للغاية عليه، فهو يعوم فيها. يمكن أن يظن المرء أنه من هؤلاء الأمريكيين ذوي المناكب العريضة والأجسام القوية الممتلئة والوجوه المربعة الشقراء والأعين التي يميل لونها الرمادي إلى الاخضرار، أدرك الآن أنني ظللت أنظر إليه متوقعة أنني سأرى هذا النوع من الرجال، ولكنني رأيت رجلًا نحيفًا أخرق تتدلى ملابسه الواسعة من كتفيه العريضين، ثم تلتقط عيناه نظراتي، إن عينيه هادئتان، يميل لونهما الرمادي إلى الاخضرار ولا تغفلان أبدًا، هذا أغرب ما فيه، إنه لا يغفل أبدًا عما حوله ولو لحظة واحدة، سألته سؤالًا أو اثنين بدافع من التعاطف مع «رفيق اشتراكي قادم من أمريكا» ولكنني لم أزد عن ذلك، فهو يراوغ حتى لا يجيب عن أسئلتي. سألته — حتى أبقي عجلة الحوار دائرة — لماذا يرتدي ملابس واسعة هكذا، بدا عليه الاندهاش كأنه لم يتوقع أنني سألحظ ذلك، ثم حاول أن يتهرب من الرد وقال إنه فقد كثيرًا من الوزن وأن وزنه السابق كان يزيد ثلاثة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عشر كيلوجرامًا تقريبًا عما هو عليه الآن، سألته هل فقد هذا الوزن بسبب مرض ما، فبدا عليه الاستياء مرة أخرى وبدأ يلمح لي بأنني أضغط عليه أو أنني أحاول أن أتلصص عليه. مرت فترة من الصمت تمنيت خلالها أن يغادر، فقد بدا لي أنه من المستحيل أن أجد شيئًا لا يضايقه لكي أقوله، ثم ذكرت شيئًا عن مولي التي لم يذكرها في حديثه، أدهشني ذلك التغير الذي طرأ عليه، برقت فجأة داخله ومضة من ومضات الذكاء، لا أجد كلمات أخرى يمكن أن أصف بها ما حدث؛ بدأ كل اهتمامه يتجمع، وأدهشتني تلك الطريقة التي تحدث بها عنها، تحدث بذكاء شديد وفطنة بالغة عن شخصيتها ووضعها، أدركت أنني لم ألتقِ من قبل برجل — فيما عدا مايكل — يمكن أن يفطن بهذه السرعة لشخصية امرأة ما، أدهشني أنه «سمى» شخصيتها ووصفها وصفًا سيسعدها إذا سمعته ....

[بداية من هذه النقطة في دفتر اليوميات أو الأحداث المسلسلة، بدأت آنا تضع علامات أمام نقاط محددة وترقم هذه العلامات.]

... وأثار ذلك فضولي، أو لأقل غيرتي، فذكرت شيئًا (*١) عن نفسي، فتكلم سول عني، أو لأقل، أعطاني درسًا، كأنني أجلس أمام أستاذ يتميز بموضوعيته يحدثني عن المخاطر والصعوبات التي تواجهها امرأة تعيش بمفردها ومميزات ذلك من ناحية أخرى. خطرت لي فكرة جعلتني أشعر بأكثر أحاسيس التشوش والصدمة غرابة، فذلك الرجل الذي كان يتحقق من مفاتن جسدي منذ عشر دقائق بتلك الطريقة الباردة — التي كادت أن تكون عدائية — هو نفسه الرجل الذي يحادثني الآن حديثًا يخلو تمامًا من هذه الخصلة ومن ذلك الفضول شبه المقنع، أو تلك اللحظة المفاجئة التي يطل منها النهم والشهوة اللذان اعتدت أن أواجههما، بل إنني لا أذكر أن رجلًا تكلم من قبل بمثل هذه البساطة والصراحة والتعاطف مع هذا النوع من الحياة الذي أعيشه أنا وأمثالي من النساء. أطلقت ضحكة لأنه «سماني» بهذه الطريقة الراقية، (*٢) ولكنه يحادثني مثل أستاذ يحادث فتاة صغيرة، بدلًا من أن يحادثني على أنني امرأة تكبره بسنوات. أدهشني أنه لم يسمع ضحكتي، كان ذلك غريبًا، لم يكن الأمر هو أن ضحكتي أثارت استياءه، أو أنه توقف عن الكلام حتى أنتهي من الضحك أو حتى سألني عن السبب الذي جعلني أضحك، ولكنه واصل ببساطة حديثه كأنه نسي أنني موجودة، فسول لم يكن يراني بالفعل، أثار هذا انزعاجي

للغاية، لذا سعدت جدًّا عندما أنهيت المقابلة التي كان يجب أن أنهيها، فهناك موعد مع ممثل الشركة التي تريد شراء رواية «حدود الحرب». عندما أتى الرجل قررت أنني لن أبيع حقوق إنتاج الرواية، فأنا أظن أنهم يريدون فعلًا أن ينتجوا الفيلم؛ ما جدوى الصمود طوال هذه السنوات الفائتة إذن إذا كنت سأستسلم ببساطة الآن لأنني لأول مرة أكون بحاجة إلى المال، لذلك أخبرته بأنني لن أبيع الرواية، ظن الرجل أنني بعتها إلى شركة أخرى، فلم يصدق أن كاتبة على وجه الأرض ترفض مثل هذا السعر المرتفع المعروض عليها. ظل يزيد من سعر الشراء في سخافة وظللت أرفض عروضه، كان الأمر هزليًّا للغاية حتى إنني بدأت أضحك، ذكرني ذلك بتلك اللحظة التي ضحكت فيها ولم يسمعني سول، لم يكن يعرف لماذا أضحك وظل ينظر إليَّ كأنني أنا، آنا الحقيقية التي تضحك، لم أكن موجودة أمامه. عندما غادر الرجل كان هناك شعور متبادل بالنفور يملأ الأجواء. لنعد مرة أخرى إلى سول، عندما أخبرته أنني أنتظر شخصًا من شركة ما انتفض واقفًا من مكانه كأنني أطرده من المنزل، أدهشني ذلك للغاية، فالأمر بدا كأنني طردته فعلًا، ولم أقل إلا أن لدي موعد عمل مع أحد الأشخاص، ثم تدارك سول تلك الحركة الدفاعية السريعة التي قام بها عندما هب واقفًا وأومأ برأسه في هدوء شديد وانسحب هابطًا السلم مباشرة. انتابني الانزعاج بعدما غادر، فقد كان لقاؤنا مفعمًا بالتناقضات والأشياء المتضاربة، أدركت أن سماحي له بالقدوم إلى شقتي كان خطئًا. ولكنني عندما أخبرت سول فيما بعد بأنني لا أريد أن أبيع حقوق الإنتاج السينمائي الخاصة بروايتي — ولكن بلهجة تميل إلى أنها لهجة دفاعية حيث إنني اعتدت على أن أُعامَل على أنني حمقاء — سلَّم بأنني على صواب. أخبرني بأن سبب تركه لوظيفته في هوليوود هو أنه لم يعد أحد بها قادرًا أن يصدق أنه من الممكن أن يقاوم كاتب إغراء المادة ولا يوافق على تأليف فيلم رديء، كان يتكلم مثل كل من عملوا بهوليوود، بلهجة يملئوها اليأس القاتم بسبب عجزهم عن تصديق أن كل هذا الفساد يمكن أن يكون موجودًا بالفعل. ثم قال سول شيئًا صدمني للغاية: «كان علينا طوال الوقت أن نتبنى المواقف الدفاعية، حسنًا، في بعض الأحيان تكون الأساسات التي نبني عليها هذه المواقف خاطئة، ولكن الفكرة هي أن نتبنى موقفًا دفاعيًّا. أن تكون لي الأفضلية عليكِ في نقطة ما ...».(هذه المرة شاب صدمتي شعور بالانزعاج من ذلك العداء الذي يطل من الجملة الأخيرة: أن تكون لي الأفضلية عليكِ في نقطة ما، كأننا طرفان في منافسة أو صراع.) «... وهذا هو ما أعنيه، فالضغوط التي مورست عليَّ حتى أستسلم أكثر وضوحًا ومباشرة من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضغوط الموجودة بهذه البلد.» كنت أعرف ما يعنيه ولكنني أردت أن أسمعه وهو يقوله، فسألته: «تستسلم لأي شيء؟»

– إذا لم تكوني تعرفين فليس بإمكاني أن أخبركِ.

– ولكنني أعرف.

– أنا أظن ذلك، وآمل ذلك.

ثم قال لي بلهجة بها مسحة من التجهم: «صدقيني، هذا هو الشيء الذي تعلمته في هذا المستنقع ... إن الأشخاص الذين ليسوا على استعداد لاتخاذ مواقف، ولا يتخذون موقفًا دفاعيًا في حالات الفساد، يبيعون أنفسهم، ولا تسأليني «يبيعون أنفسهم من أجل ماذا؟» إذا كان من السهل أن نقول من أجل ماذا لما اضطررنا جميعًا أن ندافع عن الأمور الفاسدة في بعض الأحيان، يجب ألّا نخشى أن نكون سذجًا أو حمقى، هذا هو الشيء الذي يجب ألّا يخشاه أي منا ...» مرة أخرى بدأ يتحدث مثل أستاذ يعطيني محاضرة، أعجبني ذلك، أعجبني ما قاله، تحدث وهو لا يشعر تمامًا بوجودي — فأنا على يقين من أنه نسي أنني موجودة — فنظرت إليه وأنا مطمئنة لأنه لا يشعر بوجودي، ورأيت في وضعه وهو واقف ومن خلفه النافذة صورة الشاب الأمريكي كما تصوره الأفلام السينمائية ... الشاب المثير القوى مفتول العضلات، كان يقف في تراخٍ وقد ثبت إبهاميه على حزامه كأنه يلمح إلى رغبته في الدخول إلى الفراش، كنت أسعد بمشاهدة هذا الوضع في السينما لأنه يلائم ذلك الوجه الصبياني غير المعتاد للشبان الأمريكيين ... الوجه الصبياني الجذاب ووقفة الرجل المثير القوي. أما سول فقد وقف معطيًا إياي محاضرة عن الضغوط التي يمارسها المجتمع على الأفراد من أجل أن يذعنوا، وهو يقف في ذلك الوضع الذي يلمح عن طريقه برغبته في المضاجعة. مع أنه لم يكن حقًّا يدرك أنه يقف متخذًا هذا الوضع، كنت أنا من يستهدفه، وكان تصرفه هذا فظًّا للغاية حتى إنني شعرت بالضيق، فهو يتحدث إليَّ بلغتين في وقت واحد، ثم لاحظت أنه يبدو مختلفًا، ففي البداية ظللت أنظر إليه وقد تملكني عدم الارتياح لأنني توقعت أن أرى شيئًا مختلفًا عما كان عليه، فقد رأيت ذلك الرجل النحيف الهزيل الذي يرتدي ملابس واسعة للغاية تجعله يعوم فيها، أما الملابس التي يرتديها هذه المرة فهي تناسبه تمامًا، وتبدو جديدة، لا بد أنه ذهب إلى شراء ملابس جديدة، إنه يرتدي بنطلونًا جديدًا من الجينز الأزرق ذا أرجل ضيقة وسترة ضيقة لونها أزرق داكن، لا يبدو ممتلئًا في هذه الملابس الجديدة التي تناسبه، ولكن لا يزال هناك شيء غير مريح في مظهره، فكتفاه

عريضان للغاية وعظام أردافه بارزة للخارج. بدأت أتحدث، وكالمعتاد كأنني أتحدث إلى نفسي، سألته هل اشترى ملابس جديدة فقط بسبب ما قلته له في ذلك الصباح، قطب جبينه وأجابني بحدة بعد فترة من الصمت إنه لم يكن يرغب في أن يبدو مثل شخص ريفي أخرق. انتابني الانزعاج مرة أخرى وسألته: «ألم يخبرك أحد من قبل أن ملابسك واسعة للغاية؟» لم يقل شيئًا وكأنني لم أكن أتحدث، كانت عيناه شاردتين، استطردت: «إذا لم يخبرك أحد فلا بد أنك لاحظت ذلك عندما تنظر إلى نفسك في المرآة.» أطلق ضحكة فظة وقال: «سيدتي، أنا لا أحب أن أنظر إلى نفسي في المرآة هذه الأيام، فأنا أرى أنني فتى وسيم.» زاد تلميحه لرغبته في المضاجعة عن طريق هذه الوقفة المتراخية التي يتخذها وهو يقول لي تلك الكلمات. بإمكاني أن أراه أمامي مثلما كنت أراه عندما ظننت أن حجمه يتلاءم مع عظامه العريضة: رجلًا أشقر، عريض المنكبين، مفتول العضلات، تفيض الصحة من وجهه وتطل من عينيه اللتين يميل لونهما إلى الرمادي نظرات هادئة، ويبدو من أمارات الفطنة البادية عليه أنه رجل يحسب كل شيء ويقدره. ولكن ملابسه الجديدة المهندمة زادت من حدة ذلك التعارض البادي بمظهره، فلم يكن مظهره على ما يرام على الإطلاق. أدركت أن المرض يطل من ملامحه، فالشحوب اعتلى وجهه وبدت مظاهر الضعف عليه، ومع ذلك لا يزال يتخذ هذا الوضع المتراخي دون أن ينظر إليّ بوصفي آنا، ولكنه يضعني طرفًا في تحدٍّ جنسي. كم هو غريب أن يكون ذلك هو نفس الرجل الذي استطاع أن يصل إلى فهم حقيقي لطبيعة المرأة والدفء غير المتكلف يطل من الكلمات التي استخدمها. كنت على وشك أن أبادله التحدي، فكدت أقول له ما معناه: ماذا تقصد بحق الجحيم من التحدث إليَّ وكأنني طفلة صغيرة ثم الوقوف هكذا كأنك بطل من أبطال رعاة البقر تعلق المسدسات التي لا يراها أحد حول أردافك؟ ولكن فراغًا كبيرًا يفصل بيني وبينه. بدأ يتحدث مرة أخرى ملقيًا عليّ إحدى محاضراته.

أخبرته أنني متعبة وذهبت إلى الفراش.

قضيت اليوم وأنا أتسلى بـ«اللعبة» وبحلول الظهيرة وصلت إلى مرحلة المعرفة التي أنشدها والتي امتزج فيها شعوري بالاسترخاء مع السكينة، يخطر لي أنني إذا استطعت أن أخلق بداخلي نوعًا من الالتزام الذاتي بدلًا من القراءة والتفكير بلا هدف فسوف أتمكن من أن أهزم هذا الاكتئاب الذي يتملكني. من سوء حظي أن جانيت ليست في المنزل، ولذلك لا أضطر إلى الاستيقاظ في الصباح، ليس هناك إطار خارجي يحيط بحياتي. يجدر بي أن أشكل حياتي من الداخل أولًا، إذا لم تنجح «اللعبة» في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك فسوف أبحث عن وظيفة، لا بد لي أن أبحث عن وظيفة بسبب ظروفي المالية. (أجد نفسي عازفة عن الطعام، وأظل أرقب النقود المتبقية معي، أنا أكره فكرة العمل كثيرًا.) سوف أبحث عن وظيفة في الخدمة الاجتماعية، هذا هو المجال الذي أبرع فيه. اليوم يخيم الصمت على المنزل، لا أسمع صوتًا لسول جرين. اتصلت بي مولي في وقت متأخر وقالت لي إن جين بوند «وقعت في حب» السيد جرين، وقالت لي أيضًا إنها ترى أن أي امرأة لديها عقل يجب ألّا ترتبط بالسيد جرين، (أهذا تحذير؟). (٣*) «إنه رجل لا يمكن أن تقضي معه بالفراش سوى ليلة واحدة وبعدها تمحين رقم هاتفه من ذاكرتكِ، هذا إذا كنا لا نزال من النساء اللاتي يقضين ليلة واحدة في الفراش مع رجل ما. آهٍ، انقضت هذه الأيام ...».

انتابني شعور عندما استيقظت هذا الصباح، لم يحدث أن أحسست به من قبل؛ شعرت بتقلص في عضلات رقبتي وتيبس في فقراتها، وعليّ أن أظل منتبهة إلى أنفاسي وأن أجبر نفسي على أن أتنفس بعمق، والأكثر من ذلك أن معدتي، أو على الأصح تلك المنطقة التي يعلوها الحجاب الحاجز، تؤلمني، عضلاتي متقلصة للغاية وكأنها حبال عُقدت بعضها مع بعض. ملأني الإحساس بالخوف ولكن لا أعرف من ماذا، وهذا ما جعلني أستبعد كل التشخيصات التي وردت بذهني مثل عسر الهضم أو الإصابة ببرد في عضلات الرقبة أو غيرها من هذه الحالات. اتصلت بمولي وطلبت منها أن تقرأ لي الوصف الخاص بحالات القلق إذا كان لديها كتاب طبي يتضمن أعراض الحالات المختلفة متعللة بأنني أريد أن أتأكد من صحة وصف لهذه الحالة قرأته بإحدى الروايات. هكذا اكتشفت أنني أعاني أعراض القلق، ثم جلست أفكر محاولة أن أكتشف لماذا أعاني القلق. أنا لست قلقة بشأن المال، فكوني بحاجة إلى المال لم يكن يومًا مصدرًا من مصادر الانزعاج لي، فأنا لا أخشى الفقر، وعلى أي حال بإمكان المرء دائمًا أن يكسب المال إذا عقد عزمه على ذلك. وأنا لا أشعر بالقلق على جانيت، ولا يمكنني أن أرى أي سبب على الإطلاق يمكن أن يثير قلقي. خففت «تسمية» الحالة التي انتابتني باسم حالة قلق من حدتها لفترة، ولكنها الليلة (٤*) ساءت جدًّا، ساءت بدرجة كبيرة.

اليوم رن جرس الهاتف في وقت مبكر للغاية، إنها جين بوند تريد التحدث إلى سول جرين. طرقت باب حجرته، ولكنه لم يرد. كنت على وشك أن أخبر جين بأنه ليس هنا، فقد حدث كثيرًا من قبل أن أمضى سول الليل بأكمله بالخارج، ولكنني فكرت في أنه إذا وقعت جين بالفعل في حبه فلن يكون ذلك تصرفًا لائقًا مني. طرقت

الباب مرة أخرى، وفتحته لأرى هل هو موجود، فوجدته بالداخل. اندهشت كثيرًا من طريقة نومه، فهو متكور على نفسه تحت أغطية الفراش المرتبة، ناديته لكنه لم يرد، اقتربت منه ووضعت يدي على كتفه، ولكنه لم يحرك ساكنًا. فجأة تملكني الرعب، ففي تلك اللحظة التي خطر لي فيها أن سول مات كان ساكنًا لا يتحرك، ساكنًا تمامًا، ووجهه شاحب للغاية حتى إنه بدا مثل ورقة بيضاء، ورقة بها بعض التجعدات البسيطة. حاولت أن أقلبه على ظهره، جسده بارد للغاية، كنت أشعر بسهام البرودة تسري في يديَّ. تملكني الرعب، فقد شعرت الآن بالبرودة الشديدة تسري من جسده إلى راحتيّ من أسفل بيجامة النوم. ثم استيقظ سول، استيقظ فجأة، ولف ذراعيه حول رقبتي وهو ينهض من نومه مثل طفل صغير مذعور وقد تدلت قدماه بالفعل من فوق حافة الفراش، والرعب على وجهه. قلت له: «أرجوك لا تخف، جئت فقط لأخبرك أن جين بوند على الهاتف وتريد أن تتحدث إليك.» فتح عينيه عن آخرهما، استغرق الأمر نصف دقيقة تقريبًا — مرت في بطء شديد — حتى يفهم ما قلته. أعدت ما قلته مرة أخرى، فنهض وذهب إلى الهاتف وهو يترنح، وقال بلهجة فظة: «حسنًا، حسنًا، لا.» مررت من أمامه وهبطت السلم، فقد أزعجني تصرفه، بإمكاني أن أشعر بتلك البرودة الشديدة في راحتي، ثم بذراعيه الملتفين حول رقبتي يتحدثان لغة مختلفة تمامًا عن أي شيء كان عليه وهو مستيقظ. ناديت عليه من الدور السفلي حتى يحتسي بعض القهوة، كررت ندائي عدة مرات. نزل سول من غرفته، كان هادئًا للغاية، وشاحبًا للغاية، وأطلت نظرات الحذر والترقب من عينيه. ناولته فنجانًا من القهوة وقلت له: «إن نومك عميق للغاية.» فقال لي: «ماذا؟ نعم.» ثم علق في كلمتين على القهوة، بعد ذلك بدأ يسحب نفسه رويدًا رويدًا من العالم المحيط به حتى انفصل عنه تمامًا. لم يكن يسمع ما قلته، وفي الوقت ذاته أطلت من عينيه اللتين بدوتا شاردتين نظرات التركيز والقلق، لا أظن أنه يراني. جلس سول وقد أخذ يقلب قهوته ثم بدأ يتكلم، ولكنني على يقين من أن الموضوع الذي تكلم عنه جاء صدفة فبإمكانه أن يختار أي موضوع آخر. تحدث عن كيفية تنشئة طفلة صغيرة، واتسم حديثه بالذكاء الشديد وبالأسلوب الأكاديمي. ظل يتحدث ويتحدث، وذكرت أنا شيئًا، ولكنه لم يلحظ ذلك. تكلم سول ... وشرد ذهني، ثم أدركت وأنا أوجه بعض تركيزي إلى ما يقوله أنني أستمع في حديثه إلى الضمير «أنا»، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا ... أنا، بدأت أشعر وكأن كلمة «أنا» تصوب نحوي مثل طلقات خارجة من فوهة مدفع رشاش، تصورت لحظة أن فمه الذي يتحرك حركة سريعة وتتغير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التعبيرات المرتسمة عليه في غمضة عين هو فوهة بندقية. قاطعته ولكنه لم يسمعني، فقاطعته مرة أخرى: «أنت تعرف الكثير عن الأطفال، هل كنت متزوجًا؟» فزع سول وانفرجت شفتاه قليلًا وفتح عينيه عن آخرهما، ثم أطلق ضحكته العالية الفتية والفظة: «متزوج، من أنا، هل تمزحين؟» شعرت بالاستياء، فذلك بمنزلة تحذير لي. هذا الرجل الذي يحذرني — بوصفي امرأة — من الزواج شخص مختلف تمامًا عن ذلك الرجل الذي لم يستطع أن يمنع نفسه من الحديث عن كيفية تنشئة طفلة صغيرة لتصبح «امرأة حقيقية» متفوهًا بحديث مطول من الكلمات المحنكة (يقطعها في كل ثانية بالضمير «أنا») ومختلف أيضًا عن ذلك الرجل الذي كاد أن يجردني من ملابسي بسهام عينيه في أول يوم قابلته فيه. شعرت بتقلص في معدتي، ولأول مرة أدرك أن حالة القلق التي أعانيها سببها هو سول جرين. نحيت فنجان قهوتي الفارغ جانبًا وقلت له إن الوقت حان لكي آخذ حمامي. نسيت كيف يتصرف سول حينما يقول له المرء إن لديه شيئًا آخر سيفعله، كأنه ضُرب أو طُرد، مرة أخرى هب واقفًا، كأن أحدًا أمره بذلك، هذه المرة قلت له: «من فضلكِ يا سول، هدئ من روعكِ.» هذه رغبة فطرية تدفعه إلى الهروب، ولكنه كبح جماحها. كان صراعه مع نفسه من أجل السيطرة على هذه الرغبة صراعًا بدنيًّا مرئيًّا استخدم فيه كل عضلات جسده، ثم ابتسم لي ابتسامة ساحرة تلمع بها الفطنة وقال: «أنتِ على حق، فأنا أظن أنني لست أكثر الأشخاص هدوءًا في العالم.» كنت لا أزال ألبس رداء النوم وعليَّ أن أمر من أمامه لكي أذهب إلى الحمام، وعلى نحو من العفوية اتخذ سول «وضع الفتى المثير» وأنا أمر من أمامه؛ ثبت إبهاميه على حزامه وأشارت أصابعه إلى الأسفل وحملق بعينيه اللتين طلت منهما النظرات الفضولية الساخرة التي تشبه نظرات شاب ماجن. قلت له: «للأسف أنا لا أرتدي ملابس مارلين دايتريش وهي في طريقها إلى الغرفة الخلفية.» أطلق ضحكته الفتية العالية التي يطل منها الاستياء، ولكنني لم أنتبه لها وذهبت لكي أستحم. استلقيت في حوض الاستحمام وأنا أشعر بتقلص في عضلاتي يطل منه الخوف بكل أنواعه، ولكنني كنت أرقب أعراض «حالة القلق» تلك من بعيد، كأن هناك شخصًا آخر لا أعرفه يعاني أعراضًا لم تنتبني من قبل سيطر على جسدي وتملكه. رتبت المكان وجلست على الأرض في حجرتي وحاولت أن ألعب «اللعبة» ولكنني فشلت. ثم خطر لي أنني سوف أقع في حب سول جرين، أنا أذكر كيف سخرت من هذه الفكرة في البداية، ثم فكرت فيها وتقبلتها والأكثر من ذلك أنني دافعت عنها، كما لو كنت أدافع عن حق من حقوقي. ظل سول

بغرفته في الدور العلوي طوال اليوم، اتصلت به جين بوند مرتين، وسمعت حواره معها في إحداهما إذ كنت بالمطبخ، قال لها — بتلك الطريقة التفصيلية التي تنطوي على الحرص — إنه لن يستطيع أن يتناول معها الغداء بمنزلها حيث إن ... ثم دخل معها في حوار مطول عن القيام برحلة إلى ريتشموند. ذهبت لتناول العشاء مع مولي، لم تذكر أي منا أي شيء عن علاقتي بسول، ولذا أدركت أنني بدأت أحبه بالفعل وأن علاقة الإخلاص والوفاء بين الرجل والمرأة، التي هي أقوى منها بين الأصدقاء، فرضت نفسها بالفعل. ثم كسرت مول هذه القاعدة وحكت لي عن عشيقات سول بلندن، كانت تحاول بلا شك أن تحذرني، ولكن كلامها لي فيه أيضًا نزعة نحو السيطرة والتملك. ومع كل حكاية قصتها مولي عن سيدة أوقعها سول في حبه ازداد بداخلي في هدوء العزم على المضي قدمًا، العزم الذي ينطوي على الإحساس بالفخر كأنني أحرزت نصرًا. هذا الشعور ارتبط بذلك الرجل الذي يقف مثل زير نساء وقد علق إبهاميه على حزامه وبعث بالنظرات الهادئة التي تطل منها السخرية من عينيه المفتوحتين عن آخرهما، ولم يكن له أي صلة بالرجل الذي «سماني» في حديثه. عندما عدت إلى المنزل كان سول واقفًا على السلم، ربما تعمد ذلك. دعوته إلى تناول القهوة معي، قال لي بأسلوب يغلفه الحزن الدفين في نفسه إنه يغبطني على أصدقائي وحياتي المستقرة، مشيرًا إلى تناولي العشاء مع مولي، قلت له إننا لم ندعه إلى العشاء لأنه قال إن لديه ارتباطًا، فبادرني سريعًا بهذا السؤال: «وكيف عرفتِ؟»

– سمعتك وأنت تخبر جين بذلك عندما حادثتها على الهاتف.

لم يكن هناك معنى لنظرة الاحتراس والفزع التي أطلت من عينيه المفتوحتين عن آخرهما سوى أنه يريد أن يقول لي: وما شأنكِ أنتِ بهذا الأمر؟ انتابني الغضب وقلت له: «إذا كنت تريد الخصوصية لمكالماتك التليفونية، فكل ما عليك أن تفعله هو أن تنقل الهاتف إلى غرفتك وتغلق الباب.»

– سوف أفعل ذلك.

هكذا قال لي بوجه متجهم. مرة أخرى يسود ذلك الشعور بالتضارب والانزعاج، تلك اللحظة التي لا أعرف كيف يمكنني أن أتعامل معها. بدأت أسأله عن حياته في أمريكا، مصرة على أن أعبر ذلك الحاجز الذي أقامه في وجهي بمراوغته وتهربه من الإجابة، ثم جاءت اللحظة التي قلت له فيها: «هل تعرف أنك لا تجيب أبدًا عن أي سؤال إجابة مباشرة ... ما الأمر؟» صمت برهة ثم أجابني أنه لم يعتد بعد على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسلوب المعيشة في أوروبا، فعندما كان في الولايات المتحدة لم يحدث أن أحدًا سأل هل فلان شيوعي.

قلت له إنه ليس من الحكمة أن يقطع كل هذه المسافة ليأتي إلى أوروبا ليظل حبيس هذه الدروع الواقية التي أحاط بها نفسه في أمريكا. قال إنني محقة، ولكنه لا يستطيع أن يتأقلم مع هذا الوضع الجديد بسهولة، ثم بدأنا نتحدث عن أمور السياسة. إن سول مثلنا جميعًا، شخص يحمل داخله ذلك المزيج المعروف من المرارة والحزن والإصرار على الحفاظ على نوع ما من التوازن. عندما دخلت إلى الفراش أدركت أن الوقوع في حب ذلك الرجل سيكون ضربًا من ضروب الغباء، كنت أستلقي في فراشي أتأمل جيدًا هذه العبارة: «الوقوع في الحب» وكأنها اسم مرض يمكنني أن أقرر ألا أصاب به.

إن لسول طريقته في أن يكون في الجوار عندما أعد الشاي أو القهوة، فهو يصعد السلم بخطوات ثقيلة مرسلًا إليّ بإيماءة يطل منها التعجرف. في تلك الأوقات يظهر سول في وضوح ذلك الانعزال وتلك الوحدة اللذين يحيطان به مثل فقاعة من الهواء البارد. أدعوه في شيء من الرسمية إلى تناول فنجان من القهوة أو الشاي معي ويجيب هو دعوتي بأسلوب تغلفه تلك الرسميات نفسها. في هذا المساء قال لي وهو يجلس في المقعد المقابل: «لي صديق أمريكي، قال لي قبل أن أغادر إلى أوروبا إنه تعب من كثرة العلاقات، من العلاقات الجنسية، فقد غدا الأمر جافًا للغاية وبلا أي مذاق.» ضحكت وقلت له: «بما أن صديقك مثقف إلى هذا حد، فلا بد أنه يعرف أن هذا هو الوضع الطبيعي الذي يعقب الدخول في كم كبير من العلاقات.» بادرني مسرعًا بالسؤال: «وكيف عرفتِ أنه مثقف؟» إنها تلك اللحظة الصادمة تطل برأسها مرة أخرى، أولًا لأنه من الواضح جدًّا أنه يتحدث عن نفسه، فقد ظننت في البداية أنه يتحدث بهذه الطريقة من باب السخرية، ولأنه انسحب إلى داخل قوقعته محيطًا نفسه بالشك والحذر مثلما فعل عندما تحدثت معه بشأن مكالمته الهاتفية، والأهم من ذلك أنه لم يقل: «كيف عرفتِ أنني مثقف؟» ولكن سألني: «كيف عرفتِ أنه مثقف؟» ومع ذلك من الواضح جدًّا أنه يتحدث عن نفسه، حتى إنه بعد أن بعث إليّ بتلك النظرة التحذيرية الخاطفة التي أطلت من عينيه المحملقتين في وجهي، بدا كأنه ينظر بعينيه المفتوحتين عن آخرهما في وجه شخص آخر، وجهه «هو» أنا لا أميز الآن مثل هذه اللحظات من طريقة الكلام أو حتى من النظرات، بل من التقلص المفاجئ الذي أشعر به في معدتي والذي يملؤني بالخوف. في البداية يسيطر علي ذلك

القلق المرضي، ذلك الشعور بالتوتر، ثم يتردد في أذني مرة أخرى شيء مما ذكرناه، أو أتأمل واقعة ما فأعرف أن هذه هي لحظة التضارب، هذه هي الصدمة، التي تتمثل مثل صدع في جدار يتسرب من خلاله شيء، شيء مرعب، شيء يصوب نحوي سيوف العداء.

لم أقل شيئًا بعد ذلك الحوار الذي دار بيننا عن هذا الصديق المثقف، كنت أفكر في أن التناقض بين ذلك الذكاء التحليلي الهادئ الذي يحظى به سول وبين لحظات الرعونة شديد للغاية (لقد استخدمت كلمة الرعونة حتى أخفي على نفسي ما يمكن أن يثير خوفي)، حتى إنني كنت أصمت حتى ألتقط أنفاسي. يتبع هذه اللحظات التي ينتابني فيها الخوف عادة شعور بالتعاطف، وأتذكر تلك اللحظة التي لف فيها سول ذراعيه حول رقبتي وهو نائم مثل طفل بائس وحيد.

بعد قليل عاد يتحدث مرة أخرى عن هذا «الصديق» كأنه لم يذكره من قبل، وداخلني شعور بأنه نسي أنه تحدث عنه منذ نصف ساعة فقط، قلت له: «صديقك هذا،» (مرة أخرى يحول سول نظره إلى قلب الغرفة بعيدًا عنا نحن الاثنين، يحوله إلى هذا الصديق) استأنفت حديثي: «هل ينوي أن يقلع عن «المُضاجعة» أم أن هذه هي نزعة أخرى من تلك النزعات التي تدفعه لأن يجرب تغيير نفسه؟»

عندما ترامت إلى سمعي نبرة التوكيد التي نطقت بها كلمة المُضاجعة، عرفت لماذا أبدو منزعجة. وقلت له: «كلما تحدثت عن العلاقات الجنسية أو الحب قلت إن فلانًا ضوجع، أو إنك ضوجعت أو إن عددًا من الرجال ضوجعوا.» أطلق ضحكته الفظة، ولكنه لم يفهم ما عنيته، فاستطردت: «دائمًا تستخدم صيغة المبني للمجهول.» بادرني سريعًا بالسؤال: «ماذا تعنين؟» أجبته: «عندما أستمع إليك ينتابني شعور غريب بالانزعاج وعدم الارتياح ... فمن وجهة نظري أنا أُضاجَع، وفلانة تُضاجَع، والنساء يُضاجَعن، ولكنك أنت، بوصفك رجلًا، لا تُضاجَع، بل تُضاجِع.»

قال بلهجة متأنية: «سيدتي، إنكِ تعرفين جيدًا كيف تُشعريني بسذاجتي.» ولكنه كان يتحدث مقلدًا أسلوب رجل أمريكي بسيط يقول: أنتِ تعرفين جيدًا كيف تُشعريني بسذاجتي.

كانت عيناه تلمعان بالعداء الذي ملأني، فقد طفا إلى السطح شعور ظل يجيش داخلي لأيام. قلت له: «منذ بضعة أيام تحدثت عن صراعك مع أصدقائك الأمريكيين وكيف أن ألفاظهم تحط من قدر العلاقات الجنسية، ووصفت نفسك على أنك سول الطاهر العفيف، سول النقي، ولكن عندما تتكلم عن علاقة الفراش لا تذكر مطلقًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لفظ المرأة ولكنك تتكلم عن العاهرة أو عن تلك التي تضاجعها أو عن صغيرتك أو دميتك أو عصفورتك، تتكلم عن الأرداف والنهود، كلما تحدثت عن امرأة رأيتها تمثالًا في واجهة إحدى المتاجر أو كتلة من الأعضاء المبتورة، كتلة من الأرجل أو النهود أو الأرداف.»

كنت غاضبة بالطبع، ولكنني شعرت أنني أبدو سخيفة مما زاد من غضبي واستطردت: «أظن أنني أبدو امرأة رجعية من وجهة نظرك، لكنني لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن تكون وجهة نظر رجل ما عن الجنس هي وجهة نظر صحيحة إذا كان لا يستطيع أن يتكلم عن شيء سوى الأرداف والصغيرات ذوات النهود الكبيرة الممتلئة. لا شك أن كل الأمريكيين يعانون مشاكل بشأن علاقاتهم الجنسية.»

بعد برهة قال بلهجة جافة للغاية: «إنها أول مرة في حياتي يتهمني شخص بأنني عدو للمرأة، ربما تندهشين إذا قلت لكِ إنني أنا الرجل الأمريكي الوحيد الذي لا يتهم النساء الأمريكيات بكل الخطايا الجنسية المطروحة على الساحة، هل تتصورين أنني لا أعرف أن الرجال يلومون النساء على نواقصهن؟»

هدأت هذه الكلمات من روعي وأطفأت نيران غضبي. تحدثنا عن أمور السياسة، فهذا هو الموضوع الوحيد الذي لا نختلف فيه، إن الأمر يشبه الوضع عندما كنت لا أزال داخل الحزب، عندما كانت كلمة الشيوعية تعني التمسك بالمبادئ العليا والنضال من أجل قضية ما. طُرد سول من الحزب لأنه «أظهر عداءه للإستالينية قبل أن يحين الوقت المناسب لذلك» ثم وُضع اسمه على القوائم السوداء في هوليوود لأنه من أنصار العلم الأحمر. إن قصته هي واحدة من القصص التقليدية المعروفة التي أصبحت سمة من سمات زماننا هذا، ولكن الفرق بينه وبين الآخرين هو أنه لم يستسلم إلى المرارة أو الانهزام.

لأول مرة أمازحه، فالضحكة المرتسمة على شفتيه لم تكن مثل الدرع الواقي الذي يغطي وجهه، كان يرتدي سرواله الجديد المصنوع من الجينز الأزرق، وسترته الزرقاء الجديدة وحذاء رياضيًّا؛ قلت له إنه يجب أن يشعر بالخجل لأنه يرتدي زي الخارجين على المجتمع الأمريكي، فقال لي إنه لم ينضج بما يكفي لكي يلحق بالقلة القليلة من البشر الذين لا يحتاجون إلى ارتداء زي معين.

أنا أعشق هذا الرجل.

كتبت هذه الجملة منذ ثلاثة أيام، ولكنني لم أدرك أنها ثلاثة أيام بالفعل إلا عندما حسبتها، فأنا غارقة في الحب حتى إنني لا أشعر بالوقت. منذ ليلتين جلسنا نتحدث حتى وقت متأخر، وازداد التوتر. وددت أن أضحك، فالأمر كان هزليًّا، رجل وامرأة يناور أحدهما الآخر إن جاز التعبير، لأن كلًّا منهما يريد من الآخر أن يصارحه برغبته في الذهاب إلى الفراش، وفي الوقت ذاته داخلني التردد في أن أفعل ذلك، لأنني كنت أحب. كنت على يقين من أن أيًّا منا بإمكانه أن يكسر هذا التيار ويذهب إلى النوم. في النهاية جاء سول وأحاطني بذراعيه وقال: «أنا وحيد مثلكِ تمامًا، فهلا أحسن أحدنا معاملة الآخر.» لاحظت أن لهجته بها بعض الحنق ولكنني سددت أذني حتى لا أسمعها (*٥). نسيت كيف تكون معاشرة رجل حقيقي، ونسيت كيف تكون الحياة عندما تستلقي المرأة بين ذراعيّ رجل تحبه، ونسيت كيف يمكن أن أنغمس في الحب إلى هذا الحد، حتى إن قلبي يدق إذا سمعت وقع خطوة من خطواته على درجات السلم، وتغمرني فرحة الحياة بما فيها حينما أشعر بدفء كتفه يلف راحة يدي.

كان ذلك منذ أسبوع، لا أستطيع أن أقول شيئًا سوى أنني كنت سعيدة. (*٦) أنا سعيدة جدًّا، في منتهى السعادة. أجلس في غرفتي، أنظر إلى ضوء الشمس الذي انعكس على الأرض وأنا في تلك الحالة التي أصل إليها بعد ساعات من التركيز في «اللعبة» ... شعور لطيف بالنشوة يداعبني، شعور بالتوحد مع كل شيء، حتى تضحى الوردة التي تطل من الزهرية نفسًا مستقلة، وتصبح تلك القوة الكامنة بإحدى عضلاتي وأنا أبسطها هي تلك القوة الواثقة التي تعرف جيدًا كيف تسيّر الكون. (*٧) هدأ سول كثيرًا، أصبح شخصًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الرجل الذي قدم إلى شقتي يرزح تحت أعباء الشك والتوتر، واختفت حالة القلق التي كنت أعانيها، ذلك الشخص المريض الذي سكن جسدي (*٨) وقتًا تلاشى، لم يعد له وجود.

شعرت وأنا أقرأ الفقرة السابقة أنها تتحدث عن واحدة غيري، ففي الليلة التي تبعت كتابتي لتلك الفقرة لم يأت سول لينام بغرفتي، ولم يقدم لي أي تفسير لذلك، أومأ برأسه في فتور وحدة وصعد إلى الأعلى. استلقيت في فراشي مستيقظة أفكر كيف أن المرأة عندما تضاجع رجلًا جديدًا تولد مخلوقة جديدة داخلها، تنبع من الاستجابات الشعورية والجنسية، وتكون هذه المخلوقة قوانينها ومنطقها. شعرت المخلوقة التي بداخلي بالإهانة عندما صعد سول إلى فراشه دون أن يتحدث معي، حتى إنني رأيتها ترتعش ثم تتكور على نفسها وتنزوي. في صباح اليوم التالي تناولنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القهوة معًا، ونظرت إلى سول الذي يجلس أمامي على الطاولة (وجهه شاحب للغاية والتوتر بادٍ على ملامحه). أدركت أنني إذا سألته لماذا لم يأتِ إلى غرفتي في الليلة الماضية، ولماذا لم يقدم لي أي تفسير لذلك، فسوف يقطب جبينه ويتصرف معي على نحو عدائي.

في ذلك اليوم أتى إلى غرفتي وضاجعني، ولكن ذلك لم يكن بدافع شعور حقيقي منه، كل ما في الأمر أنه قرر أنه سيضاجع امرأة، ففعل. لم تكن المخلوقة التي داخلي، المرأة التي تحب، طرفًا في هذه العلاقة، فقد رفضت أن تستسلم له.

بالأمس قال لي سول: «عليّ أن أذهب وأرى ...» ثم بدأ يقص عليّ قصة طويلة ومعقدة، قلت له: «بالطبع يمكنك ذلك.» ولكنه استمر في سرد قصته التي يحكيها، فانتابني الضيق. كنت أعرف بالطبع ما الذي وراء هذه القصة الطويلة، ولكنني لم أكن أريد أن أفتح عينيّ لأرى الحقيقة مع أنني كتبتها في الدفتر الأصفر. ثم قال لي بلهجة عدائية وحانقة: «أنتِ متساهلة للغاية، تتقبلين ما لا ترضاه غيرك، أليس كذلك؟» هذا هو ما قاله لي بالأمس، وبالأمس كتبت خواطري في الدفتر الأصفر. فجأة قلت بصوت عالٍ: «لا.» اعتلت ملامحه نظرة تنم عن عجزه عن أن يفهم، تذكرت أنني أعرف هذه النظرة، وقع عليها بصري من قبل ولكنني لم أرغب في أن أراها. «متساهلة» تبدو هذه كلمة غريبة للغاية عليّ، إنها لا تمت لي بأدنى صلة. في وقت متأخر من الليل قدم إليَّ، كنت أعرف أنه ضاجع لتوه امرأة أخرى، قلت له: «ضاجعت امرأة أخرى، أليس كذلك؟» انتابه التوتر وقال في حنق: «لا.» لم أقل أي شيء ولكنه قال: «ولكن هذا لا يعني أي شيء، أليس كذلك؟» الغريب في الأمر أن الرجل الذي قال لي «لا» مدافعًا عن حريته، كان شخصًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الرجل الذي قال لي بلهجة مفعمة بالرجاء إن ذلك لا يعني أي شيء، لم أستطع أن أربط بينهما، كنت صامتة، غارقة في نوبة أخرى من نوبات القلق، حينما قال رجل ثالث بلهجة أخوية حانية: «اذهبي إلى النوم الآن.»

انصعت لرغبة ذلك الرجل الودود وذهبت لأنام، وأنا أدرك أن امرأتين أخريين داخلي غير آنا المطيعة، آنا الجريحة التي تحب والتي تقبع في سكون داخل أحد أركان نفسي وقد تملكها الحزن، وآنا أخرى فضولية وساخرة تقف من بعيد تشاهد ما يحدث وتعلق: «حسنًا، حسنًا.»

لم أنم جيدًا، فالأحلام المزعجة تراودني، وظل ذلك الحلم الذي أرى فيه نفسي مع القزم العجوز الخبيث يتكرر، حتى إنني وأنا في الحلم أومئ برأسي في حركة تنم

عن إدراكي لما يحدث ... كأنني أقول له: إذن ها أنت ذا، وأنا أعرف أنك ستعلن عن نفسك في لحظة من اللحظات. عضوه الذكري ضخم يبرز من بين ملابسه، ويهددني به، كان مخيفًا، كنت أعرف أن ذلك العجوز يكرهني ويريد أن يؤذيني. أيقظت نفسي محاولة أن أهدئ من روعها، كان سول مستلقيًا بجانبي، كتلة بلا حراك من اللحم البارد، يستلقي على ظهره، ولكنه يتخذ وضعًا دفاعيًّا حتى وهو نائم. بإمكاني أن أرى ملامح وجهه في ضوء الصباح الباكر الخافت وقد تحفزت. اشتممت رائحة لاذعة حادة، فخطر لي أنها لا يمكن أن تكون منبعثة من سول، فهو مهووس بالنظافة، ثم أدركت أن هذه الرائحة اللاذعة تنبعث من رقبته، كنت أعرف أنها رائحة الخوف. كان غارقًا في الخوف وهو نائم، وبدأ يئن ويتأوه مثل طفل مذعور، أعرف أنه مريض (مع أنني رفضت أن أعترف بذلك خلال الأسبوع الذي غمرتني فيه السعادة) وشعرت بنفسي تفيض حبًّا وتعاطفًا وبدأت أفرك كتفيه ورقبته حتى يتسرب الدفء إليهما. عندما يقترب الصبح يصبح جسد سول باردًا للغاية، البرودة تشع منه ممتزجة برائحة خوفه. عندما تسرب الدفء إلى جسده عدت إلى النوم، وعلى الفور أصبحت أنا ذلك الرجل العجوز، وأصبح الرجل العجوز هو أنا، ولكنني أصبحت أيضًا المرأة العجوز، لذا أصبحت بلا جنس، وحقودة ومدمرة أيضًا. عندما استيقظت كان سول يستلقي بين ذراعيّ وقد تمكنت البرودة من جسده مرة أخرى، فأصبح كتلة من اللحم البارد. عليَّ أن أتخلص من تلك البرودة التي خلفها ذلك الحلم المرعب بجسدي قبل أن أحاول أن أدفئ سول، قالت لي نفسي: أنا الرجل العجوز الخبيث، والمرأة العجوز الحقودة، أو الاثنين معًا، إذن ماذا بعد ذلك؟ الضوء يتسلل إلى الغرفة، ضوء رمادي رأيت على إثره سول. من الممكن أن يكون وجهه — إذا كان سول يتمتع بصحة جيدة — هو ذلك الوجه الدافئ الخمري الذي يميز هذا النوع من الرجال، الرجل الأشقر القوي ذا المنكبين العريضين والعضلات المفتولة، ولكن ذلك الوجه كان مصفرًّا، وتهدل الجلد فوق عظامه العريضة. استيقظ فجأة وهو مذعور، أفاق من حلم كان يراوده، وجلس في الفراش متخذًا ذلك الوضع الدفاعي وهو ينظر حوله باحثًا عن أعدائه، ثم رآني وابتسم، عندما نظرت إلى ابتسامته رأيت كيف يمكن أن تكون هذه الابتسامة المرتسمة على وجه سول جرين الخمري العريض الذي تطل منه الحيوية. ولكن ابتسامته ابتسامة صفراء يطل منها الرعب، دفعه رعبه لأن يضاجعني، رعبه من أن يكون وحده، ولكنها لم تكن تلك المضاجعة المزيفة التي رفضتها من قبل المرأة التي تحب، تلك المخلوقة التي تسكن داخلي، بل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت نابعة من الخوف، واستجابت آنا التي تملكها الخوف؛ اثنان لفهما الخوف، يضاجع أحدهما الآخر بدافع من خوفيهما، وظل عقلي متأهبًا وخائفًا.

لم يقربني سول أسبوعًا، ومرة أخرى لم يقدم أي مبررات لذلك، وأثناء هذا الأسبوع تحول إلى هذا الرجل الغريب الذي يدلف إلى المنزل يومئ برأسه ويصعد إلى غرفته بالدور العلوي، ظللت أرقب تلك المخلوقة التي تسكن داخلي خلال هذا الأسبوع وهي تنكمش ثم تستشيط غضبًا وتتصاعد داخلها مشاعر الغيرة، غيرة شديدة للغاية يكسوها الحقد، ولم أستطع أن أدرك كيف يمكن أن تنبع مثل هذه المشاعر من داخلي. صعدت إلى غرفة سول وقلت له: «ماذا يكون ذلك الرجل الذي يضاجع امرأة لأيام متواصلة وهو يبدي أسمى آيات التلذذ والمتعة، ثم يهجرها حتى دون أن يكلف نفسه عناء مجاملتها ولو بكذبة؟» أطلق سول ضحكته العدائية العالية ثم قال: «أتسألين، ماذا يكون هذا الرجل؟ يمكنكِ حقًّا أن تسألي.» قلت له: «أنا أظن أنك تعكف على كتابة رواية أمريكية عظيمة تتحدث عن بطل صغير يبحث عن هويته.»

– نعم، ولكنني لست مستعدًّا لأن أستقي تلك النبرة من سكان العالم القديم الذين لا يشكون لحظة واحدة في هويتهم، لسبب لا أعرفه.

كان يتحدث بلهجة خشنة وعدائية ويضحك، ضحكت أنا الأخرى وتحدثت بخشونة، قلت له وأنا مستمتعة للغاية بهذه اللحظة الباردة التي تجسدت فيها مشاعر العداء الخالصة: «أتمنى لك حظًّا سعيدًا، ولكن لا تستخدمني في تجاربك.» هبطت إلى الدور السفلي، وبعد دقائق تبعني سول، لم يكن ذلك الرجل الذي يصوب أسلحة الهجوم الروحي في وجهي، ولكنه تصرف مثل رجل ودود ومسئول. قال لي: «أنتِ تبحثين عن رجل بحياتك يا آنا، ومعكِ حق، وأنتِ تستحقين بالفعل هذا الرحل، ولكن.»

– ولكن ماذا؟

– أنتِ تبحثين عن السعادة، وهي كلمة لم تكن تعني لي أي شيء حتى رأيتكِ وأنت تشكلينها مثل العجين من هذا الموقف، والله وحده يعلم كيف يمكن أن يصنع أي شخص، حتى وإن كانت امرأة، السعادة من هذا الموقف، ولكن.

– ولكن ماذا؟

– هذا أنا، سول جرين، وأنا لست سعيدًا، ولم أكن يومًا كذلك.

– إذن، فأنا أستغلك.

– نعم.

– العين بالعين، وأنت أيضًا استغللتني. تغيرت ملامح وجهه وبدت عليه الدهشة، فقلت له: «معذرة إن ذكرت ذلك صراحة، ولكن لا بد أنه خطر لك من قبل أنك فعلت؟»

أطلق سول ضحكة، ضحكة حقيقية، ليست تلك التي يطل منها العداء.

ثم ذهبنا لنحتسي القهوة، تحدثنا عن أمور السياسة، أو بالأحرى عن أمريكا، إن أمريكا التي تحدث عنها سول هي أمريكا القاسية بلا قلب. تحدث سول عن هوليوود، عن الكتّاب من «أنصار العلم الأحمر» الذين أصبحوا — تحت الضغط الذي مارسه عليهم مكارثي — نسخة متطابقة مع ما يريد مكارثي أن يكون «أنصار العلم الأحمر» عليه، وتحدث سول عن الكتاب الذين فازوا بمكانة مرموقة وحبسوا في قالب معاداة الشيوعية، وتحدث عن الرجال الذين أدلوا بأسماء أصدقائهم للجان التحقيق. (٩*) يطل من نبرة صوته شعور بالغضب الممزوج بالنشوة وهو يتحدث مثل شخص يراقب ما يحكي عنه من بعيد. حكى لي واقعة حدثت له مع مديره الذي استدعاه إلى مكتبه ليسأله هل هو عضو بالحزب الشيوعي. لم يكن سول عضوًا بالحزب آنذاك، فقد طُرد منه منذ فترة، ولكنه رفض أن يجيب عن هذا السؤال، فأخبره المدير بلهجة مفعمة بالأسف أن عليه أن يقدم استقالته، واستقال سول. ثم التقى بمديره بعد بضعة أسابيع في إحدى الحفلات، وبدأ الرجل يبكي ويلوم نفسه: «أنت صديقي يا سول، أنا أحب دائمًا أن أعتبرك هكذا.» سمعت هذه الملاحظة كثيرًا في عشرات القصص التي حكاها لي سول وغيره. بينما كان سول يتكلم إذ تصاعد داخلي شعور بالثورة، شعور بالغضب الشديد والازدراء تجاه مدير سول، تجاه «أنصار العلم الأحمر» الذين التجئوا إلى تطويع الشيوعية، تجاه الوشاة. قلت لسول: «هذا صحيح، ولكن ما نقوله، الموقف الذي نتبناه، ينبع من الافتراض القائل إن الناس يمكن أن يتحلوا بدرجة كافية من الشجاعة تسمح لهم بتأييد آرائهم الفردية.» رفع سول رأسه في حدة بحركة يطل منها التحدي. عادة ما تكون عينا سول خاليتين من أي نظرات عندما يتحدث، فهو يتحدث مع نفسه، لم أدرك أنني اعتدت على أسلوبه هذا في الحديث مع نفسه وهو لا يكاد يشعر بوجودي إلا عندما انسحبت شخصيته بكل معالمها خلف عينيه الرماديتين الهادئتين. قال لي: «ماذا تقصدين؟» اكتشفت أن هذه هي أول مرة أفكر فيها في هذا الأمر بمثل هذا الوضوح، إن وجود سول معي جعلني قادرة على أن أفكر في وضوح، لأن هناك كمًّا كبيرًا من الخبرات مشترك بيننا، مع أننا مختلفان على الجانب الشخصي إلى حد بعيد. قلت له:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«مثلًا، ليس منا مَن لم يفعل ذلك، يصرح بشيء في العلن ويقل عكسه في الخفاء، يفضِ بشيء إلى أصدقائه ويصرح بشيء مختلف تمامًا إلى أعدائه، ليس منا من لم يرضخ إلى الضغوط، إلى الخوف من أن يظن الآخرون أنه خائن، أنا أذكر أنه في عشرات المرات كان سبب خوفي من أن أقول شيئًا ما أو حتى أفكر في هذا الشيء هو خشيتي من أن يظن الآخرون أنني خنت الحزب.» كان سول يحملق فيّ بعينين جامدتين ومعالم السخرية تطل من وجهه، أنا أعرف جيدًا هذه النظرة الساخرة، إنه ذلك «الشعور الثوري بالسخرية» الذي داخلنا جميعًا في وقت من الأوقات لذلك لم أتحده أو أهاجمه بل استطردت: «ما أعنيه هو أن نوعية الأشخاص الذين يعيشون في زماننا والذين من المفترض نظريًّا أن يكونوا صرحاء وصادقين ولا يهابون شيئًا، اتضح أنهم يتحولون إلى أشخاص منافقين وكاذبين وسيئي الظن، إما بسبب خوفهم من التعرض للتعذيب أو السجن أو خشيتهم من أن يظن الآخرون أنهم خائنون.» اندفعت الكلمات من بين شفتيه في حدة وآليًّا: «هذا حديث أبناء الطبقة المتوسطة، هذا هو، حسنًا، أنتِ تعلنين عن جذوركِ الآن، أليس كذلك؟» لبرهة لم أقل أي شيء، لأنه لا شيء قاله لي من قبل ولا أي نبرة استخدمها تجعلني أتوقع مثل هذه الملاحظة، إنها قذيفة انطلقت من ترسانة أسلحة التهكم والسخرية وأخذتني على حين غرة. أجبته: «ليس هذا هو أصل المشكلة.» رد عليّ: «إنه أكثر هجوم منمق على أنصار العلم الأحمر سمعته منذ زمن.»

– وعلى هذا فاتهاماتك لأصدقائك القدامى بالحزب ليست إلا آراء نزيهة؟

قطب سول جبينه ولم يجبني فاستطردت: «نحن نعلم جيدًا حينما ننظر إلى أمريكا أنه من الممكن أن تُخَوَّف النخبة المثقفة بأكملها وتُدفع إلى تبني الآراء الروتينية المعادية للشيوعية.» باغتني بهذا التعليق: «ولهذا أحب هذا البلد، لأن مثل ذلك لا يمكن أن يحدث هنا.» مرة أخرى يسود الأجواء ذلك الشعور بالتنافر، بالصدمة، لأن قوله كان انفعاليًّا للغاية، أحد الأقوال التي يشتهر بها الليبراليون، مثلما كانت تعليقاته السابقة من الأقوال التي يرددها الشيوعيون كثيرًا. قلت له: «في أثناء الحرب الباردة، عندما بلغت دعوات الشيوعيين أقصى مدى لها لم يكن حال المثقفين هنا مختلفًا. نعم، أنا أعرف أن هذه الفترة سقطت من أذهان الجميع، إن الجميع الآن مصدومون بما يفعله مكارثي، ولكن مثقفينا في الوقت ذاته يسفهون القضية ويقولون إن الأمور ليست بهذا السوء الذي تبدو عليه، مثلما كان يفعل نظراؤهم في الولايات المتحدة، فمعظم الليبراليين يدافعون عن لجان مراقبة النشاطات المعادية لأمريكا سواء صراحة

أو على نحو غير مباشر، فمن الممكن أن يكتب محرر معروف خطابًا هستيريًا إلى صحيفة من الصحف الصفراء يقول فيه إنه لو كان يعلم أن فلانًا وعلانًا — صديقَيْ عمره — جاسوسان لذهب مباشرة إلى جهاز الأمن البريطاني للإدلاء بمعلومات عنهما، دون أن يظن أحد به السوء. وكانت جميع الجمعيات والمنظمات الأدبية منهمكة في أكثر أنواع الهجوم على الشيوعية بدائية ... إن أقوالهم أو معظمها، صحيحة بالطبع، ولكنهم كانوا يرددون الكلام الذي ربما تحتويه مقالات الصحف الصفراء، دون أي محاولة للتوصل لفهم حقيقي لأي شيء، كانوا فقط منهمكين في الصياح كأنهم قطيع من الكلاب النابحة، لذا فأنا واثقة من أنه إذا ازداد الموقف سخونة قليلًا فسيملأ مثقفونا لجان مراقبة الأنشطة المعادية لبريطانيا، ولكننا نحن، أنصار العلم الأحمر، في هذه الأثناء، سنلجأ إلى الكذب محولين الأسود إلى الأبيض.»

– وإذن؟

– إذن، فمن الأحداث التي رأيناها في الثلاثين عامًا الماضية في الحكومات الديمقراطية، هذا بالإضافة إلى ما يدور بالحكومات الديكتاتورية وهو بلا شك أفظع، نتوصل إلى أن عدد الأشخاص الذين بإمكانهم أن يقفوا ضد التيار في أي مجتمع وأن يناضلوا من أجل الحقيقة — مهما كان الثمن قليلًا جدًّا — لدرجة ....

قاطعني سول فجأة: «معذرة.» وغادر بخطوات متشنجة ولا يكاد يشعر بوجودي.

جلست بالمطبخ أفكر فيما قلته، لقد تَقَوْلَبْتُ أنا وكل الأشخاص الذين أعرفهم، وبعضهم أناس محترمون، في ذلك الإطار الشيوعي وكذبنا على أنفسنا وعلى الآخرين، أما المثقفون «الليبراليون» أو «الأحرار» فكانوا يكشرون عن أنيابهم في وجه المعارضين بكل سهولة، عدد قليل جدًّا من الأشخاص شغلتهم الحرية والحقوق الشرعية والحقيقة، عدد قليل للغاية. عدد قليل جدًّا كان لديهم الشجاعة، تلك الشجاعة التي تبنى عليها الديمقراطية الحقة، وبدون هؤلاء الأشخاص الذين يتحلون بتلك الشجاعة يموت المجتمع الحر أو لا يولد من الأساس.

جلست بمقعدي يتملكني الإحباط والاكتئاب، فداخل كل من نشأ في دولة غربية ديمقراطية يقين يلتحم بوجدانه بأن الحرية والشرعية ستشتدان وستتغلبان على كل الضغوط، ويبدو أن هذا اليقين لا يتأثر بأي دلائل تنفيه أو تنكره، ولكن ربما يمثل هذا اليقين في حد ذاته نوعًا من الخطورة، فقد تراءى لي وأنا أجلس بمكاني العالم بما فيه من أمم وأنظمة وتكتلات اقتصادية تشتد وتتماسك، تراءى أمامي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عالمًا أصبح الحوار فيه فقط عن الحرية أو الضمير الفردي أمرًا يزداد سخافة يومًا بعد يوم. أنا أعرف أن هذه الرؤية كانت مدونة بمكان ما، فهي تبدو مثل شيء قرأته، ولكنها للحظة لم تكن كلمات وأفكارًا، بل شيئًا أشعر بكل كياني وإحساسي أنه صحيح.

هبط سول من غرفته مرة أخرى وقد بدل رداء النوم، عاد الآن إلى «نفسه» وقال لي ببساطة متحدثًا بتلك اللهجة التي يطل منها حس الفكاهة: «أنا آسف لأنني انصرفت، ولكنني لم أستطع أن أحتمل ما كنتِ تقولينه.»

أجبته: «إن أي خط فكري أتتبعه هذه الأيام يتضح أنه كئيب ومحبط، ربما لا يمكنني أنا أيضًا أن أحتمل ذلك.»

اقترب مني وأحاطني بذراعيه وقال: «إن كلًّا منا يحاول أن يعزي الآخر، لا أعرف لمَ؟» ثم استطرد وذراعاه لا يزالان يحيطان بي: «علينا ألا ننسى أن الأشخاص الذين عايشوا هذه التجارب التي مررنا بها كُتب عليهم أن يعيشوا بلا أمل وهم يحملون على أكتافهم الحزن والألم.»

– أو ربما يكون الأشخاص الذين عايشوا التجارب التي مررنا بها هم أكثر من يعرفون الحقيقة، لأننا نعلم ما نستطيع أن ننجزه بأنفسنا؟

دعوته إلى تناول الغداء معي وجلسنا نتحدث عن أيام طفولته، إنها نموذج صريح للطفولة البائسة بما في ذلك العيش بين أم وأب منفصلين وما يتبع ذلك من تفاصيل تزيد الأمر سوءًا. بعد أن انتهينا من الغداء صعد سول إلى غرفته وقال إنه يود أن يعمل، ثم ما لبث أن هبط إلى الدور السفلي مرة أخرى واستند على الإطار المحيط بالباب وقال: «كنت فيما مضى أعمل ساعات متواصلة دون توقف، ولكنني الآن لا أستطيع أن أعمل أكثر من ساعة دون أن آخذ فترة راحة.»

مرة أخرى يصفعني ذلك الشعور بالتنافر، فالآن بعد أن فكرت في الأمر جيدًا وزال عني الاضطراب الذي تملكني حينها اتضحت الصورة أمامي؛ يتكلم وكأنه ظل يعمل ساعة كاملة وليس خمس دقائق، يقف هناك في سكون والاضطراب يموج بداخله، ثم قال لي: «لدي صديق من أمريكا انفصل أبواه عندما كان طفلًا، هل تظنين أن ذلك أثر فيه؟»

ظللت عاجزة عن الإجابة برهة، فمن الواضح جدًّا أن هذا «الصديق» هو سول نفسه، ولم يكد يمر على حديثه عن أبويه سوى عشر دقائق فقط.

قلت له: «نعم، أنا واثقة من أن انفصال أبويك أثر فيك.»

انتفض سول وارتسمت على ملامحه معالم أقرب إلى الشك وقال: «كيف عرفتِ؟»
(*١٠) أجبته: «إن ذاكرتك ضعيفة للغاية، لقد أخبرتني بأمر أبويك منذ بضع دقائق.»

وقف سول يفكر وبدا عليه التأهب والترقب، وكست الحدة التي يطل منها الارتياب معالم وجهه، ثم نطق بهذه الكلمات المشوشة: «يا إلهي، كنت أفكر فقط في صديقي، ليس إلا ...» ثم استدار وصعد السلم.

جلست وقد تملكني الاضطراب أحاول أن أربط الخيوط بعضها ببعض، نسي سول فعلًا أنه أخبرني بانفصال أبويه، وأنا أذكر أنه في الأيام القليلة الماضية حدث أنه أخبرني بشيء ثم ذكره بعد بضع دقائق وكأنه لم يذكره لأول مرة، وتكرر ذلك ست مرات تقريبًا، فبالأمس مثلًا، قال لي: «هل تذكرين أول ما جئت إلى هنا؟» تحدث كأنه يقطن بهذه الشقة منذ شهور، ومرة أخرى قال لي: «في تلك المرة التي ذهبنا فيها إلى المطعم الهندي.» وكان ذلك في نفس اليوم الذي تناولنا فيه الغداء هناك.

دخلت الغرفة الكبيرة وأغلقت بابها عليّ، نحن متفقان على أنه حينما يكون باب حجرتي مغلقًا فهذا يعني أنني لا أريد أي إزعاج. أحيانًا عندما يكون باب حجرتي مغلقًا أسمع وقع أقدامه من الدور العلوي وهو يجوب الغرفة جيئة وذهابًا، أو أسمعه يهبط السلم حتى يصل إلى منتصفه، كأنه يمارس نوعًا من الضغط عليَّ حتى أفتح باب غرفتي، فأستجيب وأفتحه. ولكنني اليوم أسرعت بإغلاق باب الحجرة وجلست على الفراش أحاول أن أفكر، بللت قطرات العرق الخفيفة بشرتي، وسرت البرودة في راحتي، ولم أستطع أن أتنفس جيدًا، انتابني القلق وشعرت بتقلص في عضلاتي، وظللت أردد على نفسي: هذه ليست حالة القلق التي تنتابني، هذه ليست أنا ... ولكن دون جدوى. (*١١) استلقيت على الأرض واضعة وسادة تحت رأسي وأرخيت أطرافي وبدأت ألعب «اللعبة» أو حاولت أن ألعبها، ولكن لم أستطع، فقد ترامى إلى سمعي وقع خطوات سول وهو يمشي متسللًا بالدور العلوي، كل حركة يقوم بها تخترقني، خطر لي أنني يجب أن أخرج من المنزل، أن أزور أي شخص، ولكن من يكون هذا الشخص؟ أنا أعرف أنه لا يمكنني أن أتحدث عن سول مع مولي، ولكنني مع ذلك اتصلت بها. سألتني على نحو عارض: «كيف حال سول؟» أجبتها: «بخير.» أخبرتني مولي أنها قابلت جين بوند التي «تملكها القلق الشديد على سول» لم تشغل جين بوند حيزًا من تفكيري لأيام، لذا حولت مسار الحديث سريعًا إلى موضوع آخر واستلقيت مرة أخرى على الأرض؛ في الليلة الماضية قال لي سول:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«يجب أن أخرج في نزهة قصيرة وإلا لن أستطيع أن أنام.» أمضى سول ثلاث ساعات خارج المنزل، إن منزل جين بوند على بعد نصف ساعة من منزلي سيرًا على الأقدام أو عشر دقائق عند الذهاب بالأتوبيس. نعم، أجرى سول مكالمة هاتفية قبل أن يغادر، وهذا يعني أنه تحدث إلى جين بوند من منزلي ورتب معها موعدًا لكي يذهب إليها ويضاجعها وذهب إلى هناك ودخل معها إلى الفراش ثم عاد ودخل إلى فراشي وخلد إلى النوم. لم يضاجعني سول بالأمس، لأنني كنت أقي نفسي، دون أن أشعر، من مرارة إدراك الحقيقة. (ولكنني أدركت جيدًا أن الأمر لا يعنيني أنا، ولكنه يهم تلك المخلوقة الكامنة داخلي التي تعتمل الغيرة بنفسها، تلك المرأة التي تشعر بالاستياء وبالرغبة في رد الإهانة.)

طرق سول الباب وقال دون أن يفتحه: «آسف لإزعاجكِ، سأخرج في نزهة قصيرة.» دون أن أدرك أنني سأفعل ذلك، ذهبت إلى الباب وفتحته، بدأ سول بالفعل يهبط السلم، سألته: «هل أنت ذاهب إلى جين بوند؟» تجمد سول في مكانه ثم استدار استدارة بطيئة ليواجهني وقال: «لا، أنا خارج في نزهة.»

لم أقل أي شيء، لأنني ظننت أنه ليس من الممكن أن يكذب سول إذا وجهت له سؤالًا مباشرًا، يجب أن أسأله هل ذهب إلى جين بوند بالأمس. أنا أدرك الآن أنني لم أفعل لأنني كنت أخشى أن ينفي ذلك.

أبديت ملاحظة عابرة وذكية ثم استدرت مغلقة باب غرفتي، لم أستطع أن أفكر أو حتى أتحرك، كنت مريضة. ظللت أقول لنفسي إنه يجب أن يمضي، يجب أن يرحل من هنا، ولكنني عرفت أنني لا أستطيع أن أطلب منه أن يغادر، لذا ظللت أقول لنفسي: إذن يجب أن تحاولي أن تنسلخي من هذا الأمر.

عندما عاد أدركت أنني كنت جالسة لساعات في انتظار أن تطرق وقع خطواته مسامعي، حل الظلام حينها. أطلق سول التحية عليَّ بصوت عالٍ يطل منه الود المفرط ثم ذهب مباشرة ليغتسل. (*١٢) جلست أفكر في أنه ليس من المحتمل أن يأتي هذا الرجل من منزل جين بوند مباشرة إلى هنا ثم يذهب ويغتسل من آثار المضاجعة، لأنه يعرف أنني لا بد سأكتشف ما كان يفعله، إن ذلك ليس ممكنًا، ولكنني مع هذا أعرف أن ذلك الأمر ممكن. جلست أستجمع شجاعتي حتى أتمكن من سؤاله: سول، كنت نائمًا بفراش جين بوند؟

عندما دخل الحجرة سألته هذا السؤال، أطلق ضحكته الفظة العالية وقال: «لا، لم أكن هناك.» ثم تأملني بعينيه واقترب مني يحيطني بذراعيه، فعل ذلك بتلقائية

ودفء شديدين، حتى إنني استسلمت له. قال بلهجة مفعمة بالود: «أنتِ تتعاملين بحساسية مفرطة مع كل شيء يا آنا، هوني عليكِ.» داعبني بلطف ثم قال: «أظن أنكِ يجب أن تحاولي أن تفهمي أننا شخصان مختلفان تمامًا، وهناك شيء آخر هو أن أسلوب حياتكِ قبل قدومي إلى هنا لم يكن جيدًا لك. لا عليكِ، فأنا هنا.» عندما أنهى كلماته وضعني على الفراش وبدأ يهدئ من روعي كأنني مريضة، وكنت كذلك في واقع الأمر، فالأفكار تتصارع برأسي، وأشعر بالغثيان. لم أستطع أن أفكر، فالرجل الذي يتصرف معي بمثل هذا اللطف هو نفسه الرجل الذي جعلني أمرض. بعد فترة قال لي سول: «والآن، أعدي لي العشاء، سوف يشعركِ ذلك بالتحسن. كان الله في عونكِ، ولكنكِ ربة منزل ممتازة، كان يجب أن تكوني زوجة لأحد الرجال الذين ينعمون بالاستقرار.» ثم قال في استياء: (*١٣) «كان الله في عوني، فعلى ما يبدو أنني أنتقيهن.» أعددت العشاء له.

رن جرس الهاتف في وقت مبكر هذا الصباح، جين بوند هي من تتحدث، أيقظت سول وأخبرته بأنها على الهاتف ثم تركت الغرفة وذهبت لأغتسل، وافتعلت الكثير من الضجة عن طريق أصوات خرير المياه وغيرها. عندما عدت إلى الغرفة كان سول في الفراش متكورًا على نفسه وهو نصف نائم. توقعت أنه سيخبرني ماذا أرادت جين أو سيحكي لي ما قالته، ولكنه لم يذكر هذه المكالمة على الإطلاق. مرة أخرى ينتابني الغضب، لكن الليلة الماضية كانت مفعمة بالمشاعر الدافئة، كان سول يستدير إليَّ في نومه مثل رجل عاشق، يقبلني ويتحسسني ويردد اسمي، ولذا كنت أنا من يقصدها بمشاعره، لم أعرف ما المشاعر التي يجب أن تنتابني. بعد أن انتهينا من تناول الإفطار قال لي إن عليه أن يخرج، وبدأ يقص عليَّ حكاية طويلة عن موعد مع أحد رجال صناعة السينما عليه أن يذهب إليه. عرفت من نظرة العناد الجامدة التي ارتسمت على وجهه ومن التعقيدات غير اللازمة التي امتلأ بها تفسيره للأمر أنه سيذهب لمقابلة جين بوند، فقد رتب معها موعدًا عندما حادثته. فور مغادرته المنزل صعدت إلى غرفته، كان كل شيء مرتبًا وأنيقًا، ثم بدأت أبحث في أوراقه. أذكر أنه خطر لي حينها أن هذه هي أول مرة أقرأ فيها رسائل شخص آخر أو مذكراته الأخرى؛ لم أندهش من نفسي على الإطلاق، بل على العكس بدا الأمر لي كأنني صاحبة حق فيما أفعل لأنه كذب عليّ. كنت أشعر بالغضب والغثيان، ولكنني مع ذلك أبحث في أوراقه في تنظيم بالغ. في أحد الأركان وجدت كومة من الرسائل من فتاة أمريكية لُفت معًا بشريط مطاطي، كانت عشيقته وهي تشتكي من أنه لا يكتب إليها، ثم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عثرت على كومة أخرى من الرسائل من فتاة من باريس، تشتكي هي الأخرى من أنه لا يكتب إليها؛ وضعت الرسائل مكانها ولكن دون أن أرتبها، واستأنفت البحث عن شيء آخر، وجدت كومة من الأوراق دونت عليها مذكراته. (*١٤) أذكر أنني تعجبت من كون يومياته مرتبة بحسب التواريخ وليست مقسمة ومبعثرة مثل يومياتي. تصفحت الأوراق الأولى، لم أكن أقرؤها، ولكنني حاولت أن أكون عنه انطباعًا فقط، وقع بصري على قائمة طويلة بها أسماء أماكن جديدة، والوظائف المختلفة التي عمل بها، وعدد لا حصر له من أسماء الفتيات. أما الخيط الذي يجمع بين أسماء الأماكن وأسماء السيدات فقد تمثل في تفاصيل الشعور بالوحدة والانسلاخ والانعزال. جلست على فراشه أحاول أن أربط بين الصورتين؛ صورة الرجل الذي عرفته، وصورة الرجل الذي ترسمه هذه الكلمات، الرجل ذو المشاعر المتجمدة الذي يحلل كل شيء، وتملأ نفسه مشاعر رثائه لذاته، ثم تذكرت أنني لم أستطع أن أرى نفسي في أوراق مذكراتي حينما قرأتها. إن هناك شيئًا غريبًا يحدث عندما يكتب المرء عن نفسه، فشخصية المرء المباشرة تختلف عن شخصيته المسقطة على الأوراق، فالنتيجة تكون قاسية، تخلو من أي مشاعر، وتهدف فقط إلى استصدار حكم أو تكوين رأي على هذه الشخصية. وإذا لم يكن هذا هو الهدف من إسقاط أحدنا لشخصيته على الورق فهذا الإسقاط غالبًا يخلو من مظاهر الحياة، نعم إنه يكون بلا حياة. أدرك أنني بكتابة هذه الكلمات أعود مرة أخرى إلى ذلك الجزء الموجود بالدفتر الأسود الذي كتبت فيه عن ويلي. إذا قال سول عن مذكراته — واصفًا بإيجاز كيف كانت شخصيته وهو شاب صغير في مقابل ما أصبحت عليه الآن — إنه كان يعامل النساء بمنتهى الدناءة، أو إنه على حق في معاملة النساء بهذا الأسلوب، أو إنه يسجل فقط ما حدث، وإن هدفه ليس إصدار أي أحكام أخلاقية على نفسه، أيًّا كان ما قاله سول فلن يكون له أي أهمية، لأن ما ينقص مذكراته هي الحيوية والحياة والسحر. «لمعت عينا ويلي وهما تجوبان الغرفة من تحت نظارته وقال ...» «كان سول يقف في ثبات وقوة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، يبتسم في سخرية من هذا الوضع الذي اتخذه كأنه صياد يغرر بفريسته، ثم قال: هيا يا صغيرتي، لندخل إلى الفراش، فأنا معجب بك ...» ظللت أنتقل من فقرة إلى أخرى، وقد سيطرت عليَّ مشاعر الصدمة التي تبعث بها القسوة التي تطل من بين السطور، ثم بدأت من خلال معرفتي بسول أبث الحياة في تلك الكلمات المكتوبة، ولذا وجدت أن حالتي المزاجية تتحول باستمرار من الغضب، من غضب امرأة، إلى النشوة التي يشعر بها المرء إزاء أي شيء حي، نشوة الفهم.

ثم تلاشت هذه النشوة حينما وقع بصري على إحدى الفقرات التي أصابتني بالرعب لأنني كتبت فقرة مماثلة لها، بدافع من نوع آخر من المعرفة، في دفتر الأصفر. يتملكني الخوف وأنا أكتب لأنني أشعر كأن لي عينًا ثالثة ترى ما هو سيئ، حاسة سادسة، أو نوع من الذكاء العملي الذي يصعب استخدامه في الحياة العادية لأنه سيكون مؤلمًا للغاية، فلن يتمكن المرء من أن يحيا على الإطلاق إذا استخدمه في حياته اليومية. ثلاث فقرات قرأتها، الأولى: «يجب أن أترك ديترويت، فقد أخذت منها كل ما أحتاج، إن مافيس تثير المشكلات، كنت مهووسًا بها طوال الأسبوع الماضي، أما الآن فلا أشعر نحوها بأي شيء، كم هذا غريب.» الثانية: «قدمت مافيس بالأمس إلى شقتي، كنت بصحبة جوان واضطررت أن أخرج إلى الصالة لكي أجعلها تنصرف.» الثالثة: «وصلني خطاب بالأمس من ديترويت بعثت به جيك؛ قطعت مافيس شرايين يدها بشفرة حلاقة، ولكنها نُقلت إلى المستشفى في الوقت المناسب، يا لها من خسارة، فهي فتاة لطيفة.» لم يأتِ أي ذكر لمافيس بعد ذلك. انتابني الغضب، ذلك الغضب العنيف الذي يحض على الثأر والذي تثيره الحرب بين الجنسين. تصاعد الغضب داخلي، فنحيت تلك الأفكار التي تجوب خيالي جانبًا. تركت كومة الأوراق التي كُتبت بها المذكرات، إنها تحتاج إلى أسابيع حتى أتم قراءتها وأنا لم أكن مهتمة بذلك. أشعر الآن بفضول لأن أعرف ماذا كتب سول عني، عثرت على تاريخ اليوم الذي قدم فيه إلى هذه الشقة. «رأيت آنا ولف، إنها تفي بالغرض إذا كنت سأبقى في لندن. عرضت عليّ ماري غرفة بمنزلها، ولكنني رأيت أن العيش هناك سيجلب المشكلات. إنها صيد مناسب، ولكن ليس أكثر. إن آنا لا تجذبني. خدمتني الظروف. تشاجرت ماري معي. رأيت جين بإحدى الحفلات. رقصنا معًا، وكدت أضاجعها ونحن واقفان داخل حلبة الرقص. إنها نحيلة وضئيلة البنية وتتصرف على نحو صبياني ... اصطحبتها إلى المنزل، وقضينا الليلة بأكملها في الفراش ... ياللهول!» «لم أستطع أن أتذكر أي شيء قلته وأنا أتحدث اليوم إلى آنا، لا أظن أنها لاحظت شيئًا.» لم تدون أي فقرات أمام التواريخ الخاصة ببعض الأيام التالية، ثم كُتبت هذه الفقرة: «هناك شيء غريب، فأنا معجب بآنا أكثر من أي امرأة أخرى، ولكنني لا أستمتع بمضاجعتها. ربما أمامي بعض الوقت حتى أنتقل إلى مكان آخر؟ تثير جين المشكلات. اللعنة على هؤلاء النسوة!» «تثير آنا المشكلات بشأن جين. ليس هذا في مصلحتها على الإطلاق.» «أنهيت علاقتي بجين، يا لها من خسارة، إنها أفضل امرأة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضاجعتها في هذه البلد اللعينة. قابلت مارجريت في المقهى.» «اتصلت بي جين، إنها تثير المشكلات بشأن آنا. أنا لا أريد أي مشكلات مع آنا، لدي موعد مع مارجريت.»

كان تاريخ هذه الكلمات هو اليوم، كان ذاهبًا إذن لمارجريت عندما غادر وليس إلى جين. أنا مصدومة من طريقة تصرفي، إذ إنني لا أشعر بأي دهشة أو استغراب من أنني أقرأ أوراق شخص آخر، بل على العكس يتملكني إحساس فظيع بالنشوة التي يثيرها التشفي فيه لأنني كشفت أمره.

(١٥*) أثرت فيَّ تلك الفقرة التي كتب فيها سول إنه لم يستمتع بمضاجعتي تأثيرًا بالغًا، حُبست أنفاسي بضع ثوانٍ، والأسوأ من ذلك أنني لم أفهم معنى كلامه، والأكثر سوءًا أنني فقدت ثقتي بضع دقائق في حكمي على تلك المخلوقة التي تكمن داخلي والتي تستجيب إلى سول أو ترفض أن تستجيب له بحسب ما إذا كان سول يضاجعني وهو مقتنع تمامًا بما يقوم به أو لا، فهو لا يستطيع أن يكذب عليها. تخيلت لحظة أنها كانت تخدع نفسها، وانتابني الخجل لأنني أهتم بعدم رغبته في مضاجعتي — فذلك سيجعلني في أفضل الأحوال «صيدًا جيدًا» — أكثر من اهتمامي بإعجابه بي. أعدت المذكرات إلى مكانها بالطريقة نفسها التي وضعت بها الرسائل على المكتب، بعدم اكتراث ينبع من الازدراء الذي انتابني، ثم هبطت إلى أسفل لأكتب ذلك، ولكنني أشعر باضطراب شديد يستحيل معه أن أكتب بمعقولية.

صعدت لتوي إلى غرفة سول لكي ألقي نظرة أخرى على مذكراته، لقد دون الفقرة التي يقول فيها إنه لا يستمتع بمضاجعتي في ذلك الأسبوع الذي لم يأتِ فيه إلى غرفتي بالدور السفلي، ومنذ ذلك الوقت وهو يضاجعني مثل رجل تفتنه امرأة، أنا لا أفهم ذلك، لا أفهم أي شيء.

بالأمس أجبرت نفسي على أن أواجهه: «هل أنت مريض، وإذا كنت كذلك فما طبيعة مرضك؟» كنت أعرف أنه سيرد عليَّ سائلًا إياي كيف عرفت ذلك، حتى إنني ضحكت عندما وجه لي السؤال. قال بلهجة يطل منها الحذر: «إذا كنتِ تعانين مشكلة، فأظن أنكِ يجب أن تعاني وحدك بدلًا من أن تلقي على الآخرين بعبئها.» كان يتحدث بلهجة جادة، لهجة الرجل المسئول. أجبته: «ولكن هذا هو ما تقوم به أنت، ما الأمر؟» أشعر كأنني محبوسة وسط سديم من الضباب النفسي. قال سول بلهجة جادة: «أنا آمل ألا أكون حملتكِ عبء مشكلتي.»

– أنا لا أشكو لك، ولكنني أظن أنه ليس من الجيد أن تحبس هذه الأشياء داخلك، يجب أن تفتح أمامها الباب لكي تنطلق.

قال سول وقد تحولت لهجته فجأة إلى لهجة حادة وعدائية: «أنت تتحدثين كأنكِ محللة نفسية لعينة.»

كنت أفكر كيف يستطيع أن يتصرف أثناء أي محادثة تدور بيننا كأن له خمس أو ست شخصيات مختلفة، حتى إنني أنتظر أن يعود مرة أخرى إلى شخصية الرجل المسئول، وقد حدث ذلك بالفعل. قال لي سول: «أنا لست في حالة جيدة على الإطلاق، وأعتذر إذا بدا ذلك لكِ، سوف أحاول أن أتصرف على نحو أفضل.» أجبته: «إن المسألة لا تتعلق بتصرفك على نحو أفضل.»

أصر سول على تغيير مسار الحديث، وارتسمت على وجهه نظرة جريحة يطل منها الإحساس بالملاحقة، إنه رجل يدافع عن نفسه.

اتصلت بالدكتور باينتر وسألته ما المشكلة التي يعانيها شخص يفتقد الإحساس بالوقت ويتصرف كأن له عدة شخصيات مختلفة، أجابني: «أنا لا أشخص الحالات بالتليفون.»

– دعك من هذا وأجبني.

– من الأفضل أن نرتب موعدًا.

– أنا لا أسألك عني، أنا أتكلم بخصوص صديق لي.

ساد الصمت برهة ثم قال لي باينتر: «يجب ألّا تنزعجي، فقد تندهشين عندما تعرفين عدد الأشخاص الذين يجوبون شوارعنا مثيرين إعجاب من حولهم وهم لا يحملون داخلهم سوى بقايا نفوس. لنرتب موعدًا يا آنا.»

– وما سبب ذلك؟»

– حسنًا، أنا أقول — على سبيل التخمين، وحتى لا أكون مبالغًا — إن الأمر كله يرجع إلى العصر الذي نعيش فيه.

– شكرًا.

– ألن نرتب موعدًا؟

– لا.

– هذا سيئ جدًّا يا آنا، أنت تنساقين وراء كبريائكِ، إذا كان داخلك عدة أشخاص مختلفون فمن منهم سيساعدك على أن تصبحي أفضل؟

– سوف أبلغ رسالتك إلى الشخص المعني بها.

ذهبت إلى سول وقلت له: «اتصلت بالطبيب الخاص بي، إنه يظن أنني مريضة ولكنني قلت له إنني أسأله عن حالة «صديق لي» ... هل ترى؟» اعتلت وجه سول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرة حادة وبدا عليه أنه يشعر بأنني ألاحقه، ولكنه ابتسم ابتسامة عريضة. «قال لي إنني يجب أن أرتب معه موعدًا، ولكنه طمأنني وقال إنني يجب ألّا أنزعج لأني أتصرف كأنني عدة أشخاص في وقت واحد وأفتقد الإحساس بالوقت.»

– أهذا هو ما يجذب انتباهكِ في طريقة تصرفي؟

– نعم.

– أشكرك، أنا أظن أنه محق في ذلك.

اليوم قال لي سول: «لماذا أضيع نقودي على الذهاب إلى طبيب نفسي إذا كنتِ تقدمين لي العلاج مجانًا؟» كان يتحدث بلهجة وحشية يطل منها التشفي، فقلت له إنه ليس من العدل أن يستغلني للقيام بهذا الدور، أجابني بتلك اللهجة نفسها التي تطل منها الكراهية والشماتة: «هكذا هو حال النساء في إنجلترا! أتتكلمين عن العدل! إن الجميع يستغل بعضهم بعضًا، أنتِ تستغلينني من أجل أن تحيطي نفسكِ بحلم السعادة الصارخة التي تفوق الواقع، وأنا سأستغل خبرتكِ مع الأطباء النفسيين في المقابل.» بعد لحظة دخلنا إلى الفراش. عندما نتشاجر تنتابنا مشاعر الكراهية وتدفعنا تلك الكراهية إلى ممارسة العلاقة الجنسية، وتكون علاقة حادة وعنيفة، لا تشبه أي شيء عرفته من قبل، ولا (*١٦) تتعلق على الإطلاق بتلك المخلوقة الكامنة داخلي، المرأة التي تحب، إنها تنكرها تمامًا.

اليوم انتقد سول حركة ما قمت بها ونحن في الفراش، أدركت أنه يقارنني بامرأة أخرى. قلت له إن هناك مدارس مختلفة في ممارسة العلاقة الجنسية وإننا لا ننتمي للمدرسة نفسها. كان أحدنا يكره الآخر، ولكن المرح والود يغلفان كل ما يحدث. بدأ سول يفكر في الأمر ثم انفجر ضاحكًا وقال بلهجة انفعالية كأنه تلميذ صغير: «إن الحب شيء عالمي.» أجبته: «ولكن ممارسة الجنس مسألة تتعلق بالأساليب المحلية، فلا يوجد رجل إنجليزي يمكن أن يمارس هذه العلاقة مثلك، أنا أعني بالطبع هؤلاء الرجال الذين يمارسون مثل هذه العلاقة.» رد عليَّ سول محاكيًا بكلامه أسلوب الغناء الشعبي: «إذا حاز أسلوبي إعجابكِ فسوف ينال أسلوبكِ المحلي إعجابي.»

تطبق جدران هذه الشقة علينا، فالأيام تمر علينا يومًا بعد يوم ونحن وحدنا هنا، أنا أعرف أن كلينا يعاني الجنون. يقول سول وقد انفجر ضاحكًا: «نعم، أنا مجنون، أمضيت حياتي بأكملها، وهي ليست بالحياة الطويلة، حتى أدرك ذلك، وماذا بعد؟ هل تظنين أنني أحب أن أكون مجنونًا، ماذا بَعْدُ إذن؟»

إن حالة القلق التي تنتابني لا تفارقني هذه الأيام، نسيت كيف يكون الحال عندما يستيقظ المرء من نومه طبيعيًّا، ومع ذلك فأنا أشاهد هذه الحالة التي تنتابني وأقول في نفسي: أنا لن أعاني أبدًا حالة القلق التي تخصني، لذا ربما يكون عليّ أن أجرب المرور بحالة تخص شخصًا آخر عندما تتاح لي الفرصة.

أحيانًا أحاول أن ألعب «اللعبة» وأحيانًا أكتب في هذا الدفتر أو في الدفتر الأصفر، أو أشاهد خفوت الضوء المنعكس على الأرض أو حدته، حتى تكبر إحدى ذرات التراب أو تتضخم نقطة صغيرة صلبة بإحدى جذوع الأشجار وترمزان لشيء ما. يجوب سول الدور العلوي جيئة وذهابًا، وتسود فترات طويلة من الصمت، يسري صدى الصمت ووقع الأقدام في أعصابي. وعندما يغادر سول الشقة «ذاهبًا إلى نزهة قصيرة» يبدو لي أن أعصابي تتمدد وتتبعه كأنها مربوطة به.

اليوم جاء إليّ وأخبرتني فطرتي أنه كان نائمًا بفراش أخرى. واجهته بالسؤال، ليس لأنني أشعر بأنني جُرحت، ولكن لأننا صرنا غريمين. رد سول على سؤالي: «لا، ما الذي جعلكِ تظنين ذلك؟» ثم تحولت النظرة التي اعتلت وجهه إلى نظرة يطل منها الطمع والمكر والدهاء وقال: «بإمكاني أن أقدم لكِ دليل براءتي إذا كنتِ تشائين.» أُطلق ضحكة، على الرغم من ذلك الغضب الكامن داخلي، فنفسي تعود إليَّ حينما أطلق هذه الضحكة. أصبحت مهووسة بمشاعر الغيرة القاسية التي لم أعهدها من قبل، صرت أنا المرأة التي تطلع على الخطابات والمذكرات الخاصة، ومع ذلك فحينما أضحك أبرأ مما أصابني، لم يرق له أنني ضحكت، فقال لي: «يتعلم السجناء كيف يتكلمون لغة معينة.» رددت عليه: «إذا لم أقم من قبل بدور السجان، وإذا قمت به الآن فربما لأنك تحتاج إلى سجان.»

تبددت النظرة التي علت وجهه وجلس على الفراش وقال لي بتلك اللهجة البسيطة التي يستطيع أن يتحول إليها في غمضة عين: «إن المشكلة هي أنه عندما بدأت علاقتنا معًا أخذت أنتِ مسألة الإخلاص على أنها أمر مسلم به، في حين لم آخذها أنا على أنها كذلك، أنا لم أخلص يومًا لأحد، ولم تواجهني من قبل هذه المشكلة.»

أجبته: «أنت كاذب، أتعني أنه حينما كانت تهتم إحدى النساء بأمرك أو تكتشف خيانتك كنت تتركها ببساطة وتذهب إلى أخرى.»

أطلق ضحكته الفتية الصريحة بدلًا من الضحكة الفتية الأخرى التي يطل منها العداء وقال: «وربما هناك شيء في هذا الأمر أيضًا.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت على وشك أن أقول له: إذن فلتذهب إلى أخرى، تساءلت لماذا لم أفعل، ما كنه هذا المنطق الشخصي الذي أتبعه بسببه. في تلك اللحظة الخاطفة التي كنت على وشك أن أخبره فيها بأن يذهب إلى أخرى بعث إليَّ سول بنظرة خاطفة يطل منها الرعب وقال: «كان عليكِ أن تخبرينني بأن هذا الأمر مهم لكِ.»

قلت له: «ها أنا ذا أقول لك الآن إن هذا الأمر مهم لي.»

صمت برهة ثم قال بحذر: «حسنًا.» ارتسمت على وجهه ملامح المكر والدهاء، كنت أعرف جيدًا ما الذي يفكر فيه سول.

أمضى سول اليوم ساعتين خارج المنزل، بعد أن تلقى مكالمة هاتفية، وصعدت أنا إلى غرفته لكي أقرأ الفقرات الجديدة التي دونها بمذكراته. «إن غيرة آنا تثير جنوني. قابلت مارجريت وذهبت معها إلى منزلها، إنها فتاة لطيفة.» «تتصرف مارجريت معي ببرود. قابلت دوروثي بمنزلها. سوف أنتهز فرصة ذهاب آنا لزيارة جانيت في الأسبوع المقبل وأذهب إليها، فعندما يغيب القط يلعب الفأر!»

يداخلني إحساس بالتشفي وأنا أقرأ هذه الكلمات.

ولكن مع كل هذا كانت تمر علينا ساعات يسودها الود الرقيق، كنا نتحدث ونتحدث وندخل معًا إلى الفراش، كل ليلة ندخل إلى الفراش، ونستغرق في نوم عميق هانئ، ثم يتحول هذا الود إلى شعور بالكراهية قبل أن يكمل أحدنا جملة يقولها. تتحول الشقة إلى واحة تسودها العاطفة والحب، ثم تتحول فجأة إلى ساحة قتال، وتسري الكراهية حتى داخل الجدران، يدور أحدنا حول الآخر كأننا زوج من الحيوانات يطارد كل منهما الآخر. تصيبني الصدمة حينما أفكر فيما بعد في الكلمات التي يقولها كل منا للآخر، فهي فظيعة للغاية. ومع ذلك نستطيع أن نتلفظ بمثل هذه الكلمات ونحن نصغي لما قلناه، ثم ننفجر في الضحك حتى إننا نرتمي على الأرض من شدته.

ذهبت لزيارة جانيت، وقد تملكني طوال الطريق شعور بالحزن لأنني كنت أعرف أن سول في فراش دوروثي، أيًّا من تكون دوروثي. لم أستطع أن أتخلص من هذا الشعور وأنا مع جانيت. تبدو جانيت سعيدة ... بعيدة عني، تبدو طفلة بالمدرسة منشغلة للغاية بأصدقائها. وأنا أستقل القطار عائدة إلى المنزل تخطر لي مرة أخرى هذه الفكرة، كم هو غريب هذا الوضع؛ كانت جانيت هي محور كل دقيقة في يومي اثني عشر عامًا، احتياجاتها هي المهام التي أدونها في جدول أعمالي، ثم تذهب إلى المدرسة وينتهي الأمر إلى هذا الوضع الذي لم يتغير. أتحول على الفور

إلى آنا التي لم تنجب جانيت. أذكر أن مولي أخبرتني ذات مرة بشيء مماثل، فقد سافر تومي في إجازة مع أصدقائه عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وقضت مولي هذه الأيام وهي تدور في أرجاء المنزل مندهشة من نفسها وظلت تقول: «أنا أشعر كأنني لم أنجب طفلًا من الأساس.»

عندما اقتربت من منزلي ازداد التقلص الذي أشعر به في معدتي، وانتابني شعور بالغثيان عند وصولي إلى المنزل، فذهبت مباشرة إلى الحمام وتقيأت. لم يحدث من قبل أنني تقيأت بسبب التوتر العصبي. ناديت على سول من الأسفل، كان بالمنزل ونزل إليَّ وهو مبتهج. ألقى عليَّ التحية وسألني عن أخبار زيارتي لجانيت. اعتلى الحذر والدهاء ملامح وجهه وأنا أنظر إليه، الشماتة تطل من خلفهما، بإمكاني أن أرى نفسي، امرأة خبيثة بلا قلب. قال سول: «لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟» ثم استطرد: «ماذا تحاولين أن تعرفي؟»

دخلت غرفتي الكبيرة، سؤاله الأخير لي عما أحاول أن أعرفه شيء غير معهود في حواراتنا، خطوة جديدة في طريق الانحدار نحو بعد جديد من أبعاد الحقد والضغينة، تنبعث موجات الكراهية الخالصة وهو يسأل هذا السؤال. جلست على الفراش وحاولت أن أفكر، أدركت أن مشاعر الكراهية أصابتني بالخوف، ماذا أعرف عن المرض العقلي؟ لا شيء على الإطلاق، ولكن شيئًا بداخلي يقول لي لا داعي للخوف.

تبعني سول إلى الغرفة وجلس على طرف الفراش، وهو يدندن بإحدى ألحان الجاز ويرقبني، قال لي: «أحضرت لكِ بعض أسطوانات الجاز، موسيقى الجاز سوف تساعدكِ على الاسترخاء.»

– عظيم.

قال سول والحنق والنفور يطلان من نبرة صوته: «أنتِ امرأة إنجليزية لعينة، أليس كذلك؟»

أجبته: «إذا كنت لا أروقك فبإمكانك أن ترحل.»

نظر إليّ نظرة خاطفة في دهشة ثم خرج من الغرفة. انتظرت أن يعود وأنا أعرف جيدًا كيف سيتصرف. كان هادئًا ووديعًا ويتصرف بود ورقة. وضع أسطوانة بالفونوغراف، ألقيت نظرة على بقية الأسطوانات، إنها أغانٍ لأرمسترونج في بداياته وأغانٍ لبيسي سميث. جلسنا نستمع إلى الموسيقى في صمت وسول يرقبني.

ثم قال: «ما رأيكِ؟»

– كل هذه الألحان مبهجة ودافئة ومقبولة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– وإذن؟

– إن الأمر لا يعنينا على الإطلاق، فنحن لسنا كذلك.

– إن ألحان أرمسترونج وبيشيت وبيسي سميث هي التي كونت شخصيتي.

– إذن، فقد أصابها شيء منذ ذلك الوقت.

قال سول: «ما أصابها هو الذي أصاب أمريكا.» ثم استطرد في حنق: «أظن أنني سأكتشف في النهاية أنكِ موهوبة بالفطرة في موسيقى الجاز، هذا هو ما ينقص الصورة حتى تكتمل.»

– لماذا تفكر بهذه الطريقة التنافسية في كل شي؟

– لأنني أمريكي، وأمريكا دولة تنافسية.

أرى أن شخصية ذلك الأخ الوديع تلاشت، وعادت الكراهية تطل برأسها. قلت له: «أظن أنه من الأفضل ألا ننام معًا الليلة، أحيانًا لا أستطيع أن أحتملك.»

بدت الدهشة عليه، ثم تمالك نفسه وسيطر على ملامح وجهه ... عندما يحدث ذلك يطفو ذلك الوجه الدفاعي — وهو في حقيقة الأمر الوجه الذي تعلوه أمارات المرض — إلى السطح. قال سول بلهجة هادئة وهو يضحك في ود: «أنا أعذركِ، فأنا شخصيًّا لا أستطيع أن أحتمل نفسي.»

خرج من الغرفة، وبعد بضعة دقائق عاد مرة أخرى، كنت في الفراش، سار حتى وصل إلى الفراش وقال وهو يبتسم: «أفسحي لي مكانًا.»

أجبته: «أنا لا أود أن أتشاجر معك.»

قال لي: «ليست لنا حيلة في أنفسنا.»

– ألا تظن أن الموضوع الذي نقرر أن نتشاجر عليه يكون غريبًا؟ أنا لا يهمني على الإطلاق في فراش من تنام، وأنت لست ممن يعذبون النساء بالجنس، ولذا من الواضح أننا نتشاجر على شيء آخر، ترى ما هو؟

– إنها تجربة ممتعة، أن تكوني مجنونة.

– بهذه البساطة، تجربة ممتعة.

– لماذا تعبرين عن الأمر بهذه الطريقة؟

– بعد مرور عام سينظر كلانا إلى الوراء ويقول: إذن هذا هو ما كنا عليه وقتها، يا لها من تجربة مثيرة.

– وماذا في ذلك؟

– اثنان مصابان بجنون العظمة، هذا مصيرنا. أنت تقول أنا وصلت إلى ما أنا عليه الآن، بسبب مكانة الولايات المتحدة السياسية، وأنا أجسد الولايات المتحدة. وأنا أقول أنا أجسد وضع النساء في زماننا.

– ربما نكون نحن الاثنان على حق.

ذهبنا إلى النوم في ود، ولكن تلك الفترة التي غفت فيها أعيننا غيرتنا نحن الاثنين. عندما استيقظت كان سول مستلقيًا على جنبه يرقبني وعلى شفتيه ابتسامة جامدة. قال لي: «بما كنتِ تحلمين؟» أجبته: «لا شيء.» ثم تذكرت. رأيت ذلك الحلم المخيف، ولكن جوهر الخبث الذي كان يتصرف في استهتار وعبث تجسد في سول. طوال ذلك الكابوس الممتد كان يسخر مني وهو يضحك، ضمني بين ذراعيه بقوة شديدة حتى إنني عجزت عن الحركة وقال لي: «سوف أجعلكِ تتألمين فأنا أتلذذ بذلك.»

كانت ذكرى الحلم التي طافت بذهني قاسية للغاية حتى دفعتني إلى أن أنهض من الفراش مبتعدة عنه. ذهبت إلى المطبخ وأعددت القهوة وبعد ساعة دلف سول إلى المطبخ وقد غير ملابسه المنزلية، كان وجهه منقبضًا للغاية كأنه يهاجمني. قال لي إنه سيخرج، وتلكأ قليلًا منتظرًا أن يسمع مني أي شيء، ثم هبط السلم في روية وهو ينظر وراءه متوقعًا أنني سأستوقفه. تمددت على ظهري فوق الأرض وأدرت أسطوانة لأرمسترونج عندما كان لا يزال في بداياته. كانت الموسيقى تأتي من عالم مطمئن وهانئ تتسم لمحة السخرية التي فيه بخفة الظل، كنت أغبط ذلك العالم. بعد أربع أو خمس ساعات عاد سول وقد دبت في وجهه الحياة بفعل تلك النشوة التي تثيرها رغبته في الثأر والانتقام. سألني: «لمَ لا تقولين شيئًا؟» قلت له: «لا يوجد ما أقوله.»

– لمَ لا تتشاجرين معي؟

– هل تدرك كم مرة سألتني فيها لمَ لا أتشاجر معك؟ إذا كنت تود أن تتلقى العقاب على شيء اقترفته فأبحث عن شخص غيري يفعل لك ما تريد.

ثم يحدث ذلك التغير الرهيب الذي يقع عادة حينما أقول شيئًا ويفكر فيه سول. قال سول بنبرة يطل منها الاهتمام: «هل أستحق العقاب على شيء ما؟ هذا مثير للاهتمام.» جلس سول على طرف فراشي يحك ذقنه وقد قطب جبينه: «أنا لا أظن أنني أحب نفسي كثيرًا في الوقت الحالي، لا أحبكِ أنتِ أيضًا.»

– وأنا أيضًا لا أحبك ولا أحب نفسي، ولكن كلينا لا يحب هذا الأمر، فلماذا ينشغل أحدنا بكراهية الآخر؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تغيرت ملامح وجهه مرة أخرى وقال بلهجة يطل منها الخبث: «أنا أظن أنكِ تعرفين ماذا كنت أفعل.»

لم أجبه، فنهض من الفراش وجعل يجوب الغرفة بخطوات سريعة باعثًا إليّ بنظرات خاطفة وعنيفة طوال الوقت: «لن تعرفي أبدًا، ليس أمامكِ أي سبيل لمعرفة ذلك.» لم يكن عزوفي عن الكلام هو إصرار مني على عدم الدخول في مشاجرة مع سول، أو رغبة في الحفاظ على ضبط النفس، ولكنه سلاح بارد أرد به على سول في هذه المعركة. بعد فترة طويلة من الصمت كانت كافية قلت له: «أنا أعرف ما كنت تفعله، كنت نائمًا بفراش دوروثي.»

بادرني بالسؤال: «كيف عرفتِ؟» ثم استطرد كأنه لم يسأل هذا السؤال: «إذا كنت لا تريدينني أن أكذب عليكِ فلا تسأليني عن شيء.»

– أنا لا أسألك، لقد قرأت مذكراتك.

توقف سول عن السير في أرجاء الغرفة، وجعل ينظر إليّ. بدا الخوف على وجهه، الذي كنت أرقبه في فضول تطل منه المشاعر الباردة، ثم اعتلى الغضب ملامحه، ثم ارتسمت على ملامحه نظرة التشفي الذي يطل منه الدهاء، قال: «لم أكن أضاجع دوروثي.»

– إذن كنت تضاجع امرأة أخرى.

بدأ يصرخ ويحرك يديه في الهواء وقال وهو يضغط على أسنانه: «أنتِ تتجسسين عليّ، أنتِ أكثر امرأة غيورة عرفتها في حياتي، أنا لم ألمس أي امرأة منذ قدومي إلى هنا، وهذا ليس شيئًا هينًا على رجل أمريكي مفعم بالقوة مثلي.»

قلت بلهجة خبيثة: «أنا سعيدة أنك رجل مفعم بالقوة.»

صرخ: «أنا رجل بحق، ولست دمية تحركها النساء، أو حيوانًا أليفًا يحبسونه في منازلهن.» ظل سول يصرخ، وانتابني شعور أدركت أنه هو الشعور الذي داخلني بالأمس نفسه، شعور بالاقتراب خطوة نحو منحدر انعدام الإرادة. أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، هكذا يصرخ، ولكن كل كلامه متقطع ومبهم، يقذف بكلمات التفاخر من فمه كالطلقات المندفعة نحوي من مدفع رشاش. أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، ظل ذلك الضمير يندفع نحوي، فتوقفت عن الإصغاء إليه، ثم أدركت أنه توقف عن الكلام وأخذ يرقبني في قلق، سألني: «ما الذي أصابكِ؟» تقدم نحوي، وجثا على ركبتيه وأمسك بوجهي مديرًا إياه باتجاه وجهه وقال: «أتوسل إليكِ يا آنا أن تفهمي أن العلاقة الجنسية ليست شيئًا مهمًّا لي، إنها لا تهمني.»

أجبته: «أتعني أن ممارسة هذه العلاقة في حد ذاتها مهمة، ولكن لا يهم مع من تمارسها؟»

حملني سول إلى الفراش برقة وحنان، وقال وهو يشعر بالاشمئزاز من نفسه: «أنا دائمًا أجيد اختيار الفتيات عندما أطرق باب امرأة ما.»

– ولماذا يكون عليك أن تطرق باب إحدى النساء؟

– لا أعرف، لم أكن أعرف ذلك، حتى جعلتني أنتِ أدركه.

– آمل أن تذهب إلى طبيب نفسي، قلت لك، وسأظل أقولها لك، إنك ستدمرنا نحن الاثنين.

بدأت أبكي وانتابني الشعور الذي سيطر عليَّ في الحلم الذي راودني بالأمس عندما كان سول يحيطني بذراعيه في قوة أعجزتني عن الحركة في حين يضحك وهو يؤذيني ويؤلمني، ولكنه كان في تلك الأثناء طيبًا وعطوفًا. أدركت فجأة أن هذا الأمر كله، أن تلك الدورة التي تبدأ بالتخويف وتنتهي بالرقة والعطف، هدفها هو الوصول إلى هذه اللحظة التي يهدئ فيها سول من روعي ويخفف عني. نهضت من الفراش وأنا أشعر بالغضب الشديد من كوني دمية يسوقها إلى حيث يشاء، ومن نفسي أيضًا لأني سمحت له بذلك. أشعلت سيجارًا.

قال لي في حنق: «بإمكاني أن أوقعكِ، ولكنكِ ما تلبثين أن تقومي مرة أخرى.»

– هذا من حسن حظك، حتى تستمتع بإيقاعي مرة بعد أخرى.

استغرق في التفكير وبدا شارد الذهن كأنه ينظر إلى نفسه من بعد وقال: «ولكن أخبريني ما السبب في ذلك؟»

صرخت فيه: «عانيت مثلك مثل كل الأمريكيين من جراء مشكلاتك مع والدتك. وقع اختيارك عليَّ حتى أقوم بدور والدتك. عليك طوال الوقت أن تنتصر عليّ بدهائك ومكرك، من المهم جدًّا أن تنتصر عليَّ بحيلتك، من المهم جدًّا أن تكذب وأنا أصدقك. وحينما أتأذى من ذلك تصيبك تلك المشاعر الوحشية التي تنتابك تجاهي — تجاه الأم — بالخوف، ومن ثَم يكون عليك أن تهدئ من روعي وتخفف عني ...» كنت أصرخ صراخًا هستيريًّا، واستطردت: «سئمت من الأمر كله، سئمت من تلك الأحاديث التي تدور بين أم وطفلها، وبدأت أشعر بالاشمئزاز من تفاهة المسألة برمتها ...» توقفت عن الكلام ونظرت إليه، وجهه يبدو مثل وجه طفل صفعه شخص ما. «وأنت الآن تشعر باللذة لأنك استثرتني وجعلتني أصرخ في وجهك، لماذا لا تشعر بالغضب؟ يجدر بك أن تغضب ... فأنا أسبك يا سول جرين، أسبك بهذه الطريقة الوضيعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي لا بد أن تثير غضبك، يجب أن تخجل من نفسك وأنت رجل في الثلاثين من عمرك جالس هكذا تسمع مني هذا التفسير التافه البالغ البساطة.» شعرت بالإرهاق عندما أنهيت كلامي. كان التوتر يطبق عليَّ من كل جانب كالقوقعة كأنني أقف وسط ذرات من الإرهاق العصبي عالقة حولي كالضباب الذي تفوح منه رائحة العفونة.

قال لي: «أكملي ما كنتِ تقولين.»

– هذه آخر مرة تحظى فيها مني بتفسير مجاني لأفعالك.

– تعالي هنا.

كان عليَّ أن أذهب إليه، فقد جذبني إلى الأسفل بجانبه وهو يضحك وضاجعني. استجبت له، استجبت لقسوة المشاعر الباردة التي سادت هذا الموقف. كان من السهل عليَّ أن أتجاوب مع برودة المشاعر لأنها لن تؤذيني، مثلها مثل لحظات الرقة والود، ثم شعرت أنني لا أتجاوب معه، فقد داخلني شعور بأنني عرفت أن هناك شيئًا مختلفًا يحدث هذه المرة حتى قبل أن تخطر لي هذه الفكرة؛ لم يكن سول يضاجعني أنا، حادثتني نفسي بأن سول يضاجع امرأة أخرى. غير سول من نبرة صوته وبدأ يتحدث بلهجة سكان عمق الجنوب الأمريكي وهو يضحك ضحكات خفيفة، كان يتحدث بنبرة عنيفة: «حسنًا يا سيدتي أنتِ رائعة، رائعة حقًّا، وسوف أخبر كل العالم بذلك.» لم تكن يداه تلمساني كما اعتدت، كأنه يلمس امرأة أخرى.

حالة من الصدمة، رأيته أمامي يخرج من الشخصية التي كان يرتدي عباءتها، استلقى على ظهره واضعًا يديه على وجهه وهو يلهث قليلًا، ووجهه شاحب للغاية. ثم تكلم، ليس بلهجة أهل الجنوب ولكن بلهجته هو وإن تحدث بنبرة الاستهتار التي تحدث بها عندما قال إنه شاب أمريكي مفعم بالقوة.

صدمة أخرى، حاول سول بكل جهده أن ينسلخ من هذه الشخصية، كان يلهث وجعل يتنفس في بطء، ثم قال بنبرة صوته المعهودة: «ماذا أصابني؟»

– تقصد ماذا أصابنا، أصابنا الجنون، نحن غارقان في الجنون.

أجابني في حنق: «أنتِ أعقل امرأة عرفتها في حياتي!»

– ليس في هذه اللحظة.

استلقينا فترة طويلة في صمت، كان سول يداعب ذراعي بيده في رقة، وبدا صوت الشاحنات التي تسير في الشارع بالأسفل عاليًا. شعرت بالتوتر يتلاشى مع حركات المداعبة اللطيفة على ذراعي، اختفت كل مشاعر الكراهية ومظاهر الجنون. تمر علينا فترة أخرى من فترات الأصيل الطويلة التي يتسلل الظلام خلالها على

مهل إلى السماء، وننعزل فيها عن العالم، وبعدها يلفنا الليل الطويل بظلامه. يصبح المنزل مثل سفينة تعوم فوق بحر مظلم، وتبدو كأنها تعوم بمعزل عن الحياة من حولها، لا تحتاج لشيء ولا إلى أحد. كنا ندير الأسطوانات الجديدة ونقضي الوقت معًا في الفراش. أما آنا وسول الآخران اللذان أصابهما الجنون فيقبعان في مكان آخر، في غرفة أخرى في مكان ما.

(١٧*) مر علينا أسبوع من السعادة، لم يرن خلاله جرس الهاتف ولم يأتِ أحد لزيارتنا، كنا وحدنا. ولكن كل ذلك انتهى، فقد تغير شيء داخله، ولذا أجلس على منضدتي وأكتب. تقع عيناي على ما كتبته ... السعادة، هذا يكفي، لا داعي لأن أقول مثله إنني أصنع السعادة وأشكلها مثل العجين. خلال ذلك الأسبوع لم تتحرك داخلي أي رغبة بالجلوس على المنضدة التي توضع فوقها المذكرات، لم أَحْتَجْ لأن أفعل ذلك.

اليوم استيقظت أنا وسول متأخرًا وأدرنا الأسطوانات وضاجعني، ثم صعد إلى غرفته ونزل مرة أخرى وسيوف العداء تطل من بين ملامحه، نظرت إلى وجهه وعرفت أن ذلك التحول الذي يحدث داخله وقع. جعل سول يدور في أنحاء الغرفة ويقول: «أنا متوتر، أنا متوتر.» كانت لهجته عدائية للغاية، فقلت له: «إذن فاخرج.»

– إذا خرجت فسوف تتهمينني بأنني أضاجع امرأة أخرى.

– لأن هذا هو ما تريدني أن أفعله.

– حسنًا أنا ذاهب.

– فلتذهب.

وقف سول ينظر إليَّ والكراهية تفيض من عينيه، شعرت بانقباض في معدتي، وهبطت سحابة القلق عليَّ مثل سديم مظلم، وقفت أرقب ذلك الأسبوع الذي غمرتنا فيه السعادة وهو يتلاشى، وخطر لي أن جانيت ستعود إلى المنزل بعد شهر وسوف تختفي آنا التي أنا عليها الآن. إذا كنت أعرف أنه بإمكاني أن أخرج هذا الشخص البائس من حياتي من أجل جانيت، فأنا أستطيع أن أفعل ذلك الآن، ولِمَ لا أفعل؟ لأنني لا أريد أن أفعل، هذا هو السبب. هناك شيء ما يجب أن يكتمل حتى النهاية، وعدة خطوات يجب أن تمر واحدة بعد أخرى ... شعر سول أنني شردت بذهني بعيدًا عنه، فانتابه القلق وقال: «لماذا أخرج إذا كنت لا أرغب في ذلك؟»

– فلتبق إذن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال سول بلهجة فظة وهو يقطب جبينه: «سوف أصعد إلى غرفتي لأعمل.» خرج سول من الغرفة وبعد بضع دقائق هبط من غرفته مرة أخرى واستند على الباب، لم أكن قد تحركت من مكاني، جلست على الأرض أنتظره، عرفت أنه سيأتي. بدأ الظلام يرخي سدوله وامتلأت الغرفة الكبيرة بالظلال وبدأت الأضواء تنعكس على السماء. جلست أرقب الأنوار وهي تملأ السماء والظلام يخيم على الشوارع، ودون أن أبذل أي مجهود وجدت نفسي أنجرف إلى ذلك العالم البعيد الذي تأخذني إليه «اللعبة»؛ أصبحت جزءًا من المدينة المريعة ومن ملايين الناس الذين يسكنونها، كنت أجلس على الأرض وفي الوقت نفسه أجلس فوق المدينة، أنظر إليها من أعلى. عندما قدم سول قال وهو يستند على إطار الباب بلهجة يطل منها الاتهام: «أنا لم أكن يومًا كذلك، لم أرتبط من قبل بامرأة حتى تجعلني لا أستطيع أن أخرج في نزهة دون أن أشعر بالذنب.» نبرة صوته بعيدة تمامًا عما شعرت به، فقلت له: «مكثت هنا أسبوعًا دون أن أطلب منك ذلك، كنت تريد أن تبقى والآن تغيرت حالتك المزاجية، لماذا يكون عليَّ أن أغير أنا الأخرى من حالتي المزاجية؟» قال بحذر: «إن أسبوعًا فترة طويلة.» عرفت من طريقة كلامه أنه لم يكن يعرف كم هي الفترة التي مرت علينا حتى قلت أنا إنها أسبوع، كنت أود أن أعرف ما الفترة التي ظن أنها مرت، ولكنني خشيت أن أسأله. قطب جبينه وهو واقف عند الباب ينظر إليَّ بطرف عينيه وقد أخذ يضغط على شفتيه وكأنه يلعب على آلة موسيقية، ثم قال بعد فترة من الصمت وقد كست وجهه أمارات الخبث: «ولكنني شاهدت هذا الفيلم أول أمس.» أدركت ماذا يحاول أن يفعل، إنه يرغب في أن يتظاهر بأن الفترة التي قضاها ماكثًا بالمنزل ليست أسبوعًا ولكن يومين من ناحية ليرى هل أنا على اقتناع بأن ما مر علينا هو أسبوع فعلًا، ومن ناحية أخرى لأنه يكره فكرة أنه كرس نفسه لامرأة ما أسبوعًا. لمعت عيناه الرماديتان في الضوء المنعكس من السماء، ولمع شعره الأشقر ووجهه المربع الشكل، وبدا سول مثل حيوان متحفز يتهدد من حوله بالخطر، قلت له: «شاهدت الفيلم منذ أسبوع.»

أجابني بلهجة باردة: «إذا كان هذا هو قولكِ فعليَّ أن أصدقه.» ثم انحنى سول ليقترب مني وأمسك بكتفيّ وجعل يهزني: «أنا أكرهكِ لأنكِ شخص طبيعي، أكرهكِ من أجل ذلك. أنتِ إنسانة طبيعية، أي شيء يجعلكِ كذلك؟ أدركت فجأة أنكِ تتذكرين كل شيء، ربما تتذكرين كل شيء قلته، تتذكرين كل شيء حدث لكِ، إن هذا لا يحتمل.» كادت أصابعه أن تنغرز في كتفيّ والكراهية الصريحة تطل من وجهه.

قلت له: «نعم، أنا أتذكر كل شيء.»

ولكن لم تطل نشوة الانتصار من لهجتي. كنت أرى في نفسي ما يراه سول في، امرأة لديها قدرة غير مبررة على التحكم في الأحداث، لأنها تستطيع أن تنظر خلفها وترى ابتسامة أو حركة أو مجموعة من الإيماءات، أو تسمع الكلمات والنقاشات ... امرأة تسكن داخل الزمن. لم تعجبني جزالة ذلك الحارس الأمين على الحقيقة وغروره، عندما قال لي سول إن العيش مع شخص يعرف ماذا قال المرء بالأسبوع الماضي أو يتذكر ما قام به منذ ثلاثة أيام ويستطيع أن يذكره به أشبه بالعيش في سجن، عندما قال ذلك شعرت أنني سجينة وأنا معه، لأنني كنت أتوق لأن أتحرر من ذاكرتي التي ترتب الأحداث وتعلق على الأمور. أحسست بأن شعوري بالهوية يتلاشى. تقلصت معدتي وبدأ ظهري يؤلمني.

قال لي وهو يبتعد عني ويشير إلى الفراش: «تعالي هنا.» تبعته في إذعان، فلم يكن بإمكاني أن أرفض. قال وهو يضغط على أسنانه: «هيا، هيا.» أو بالأحرى: «تعالي، تعالي.» عرفت أنه عاد بالزمن إلى الوراء لبضعة أعوام، ربما كان حينها في العشرين من عمره، قلت له لا، لأنني لم أكن أرغب في ذلك الحيوان الصغير الذي يتصرف بعنف، لمعت القسوة التي يطل منها الاستهزاء على وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامة عريضة، وقال لي: «أنتِ تقولين لا، هذا جيد يا حبيبتي، يجب أن تقولي لا أكثر وأكثر، أنا أحب ذلك.»

بدأ يداعب رقبتي وأنا أقول لا، كنت أصرخ تقريبًا. عندما رأى دموعي تنسال من عينيّ تحولت نبرة صوته إلى نبرة رقيقة تطل منها الشماتة، وقبل الدموع المنسالة على خدي بنهم ومتعة وقال: «هيا يا صغيرتي، تعالي.» كانت العلاقة بيننا باردة وبغيضة، علاقة مبعثها الكره. انزوت المخلوقة الكامنة بداخلي في أحد الأركان وهي ترتعش بعد أن ظلت تتمدد وتكبر لأسبوع في سعادة ورضا. أما آنا التي كان باستطاعتها أن تشعر بالمتعة فهي منهكة ومستسلمة لهذا الغريم الشرس الذي يضاجعها. حدث الأمر في سرعة وقسوة، قال لي سول: «يالكِ من امرأة إنجليزية لعينة، لا تجيد فنون الفراش.» لكن إهانته تلك التي وجهها لي حررتني إلى الأبد، أجبته: «إنه خطئي، كنت أعرف أن الأمر لن يكون له أي فائدة، فأنا أكره هذه العلاقة عندما تتصرف بقسوة.»

انقلب سول على وجهه واستلقى في سكون وهو يفكر وتمتم: «قال لي ذلك أحد الأشخاص حديثًا، من كان ذلك الشخص؟ ومتى قال لي ذلك؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أخبرتك إحدى النساء الأخريات اللاتي ترافقهن أنك شخص قاسٍ، أليس كذلك؟

– من؟! أنا لست قاسيًا، لم أكن يومًا قاسيًا، هل أنا قاسٍ؟!

كان الشخص الذي يتحدث حينها هو ذلك الرجل الطيب، لم أكن أعرف كيف أرد عليه، فقد خشيت أن أبعده وأستحضر الرجل الآخر ثانية.

قال لي سول: «كيف أتصرف يا آنا؟»

أجبته: «لمَ لا تذهب إلى طبيب نفسي؟»

عندما قلت له ذلك أطلق ضحكته العالية التي تطل منها نشوة التشفي كأن ذلك التحول الذي يحدث بداخله وقع وقال لي: «تريدين أن تدفعي بي إلى مستشفى المجانين؟ ولكن لمَ أدفع إلى محلل نفسي إذا كنتِ أنتِ موجودة؟ عليكِ أن تدفعي ثمن كونكِ إنسانة طبيعية وسليمة، أنتِ لستِ أول من ينصحني بالذهاب إلى طبيب نفسي. لن أسمح لأي شخص بأن يملي كلامه عليّ.» ثم قفز من الفراش وصرخ: «أنا هو أنا، سول جرين، أنا سأكون ما أنا عليه، سأكون ما أنا عليه. أنا ...» بدأت إحدى حواراته التي يصرخ فيها بضمير المتكلم الذي يندفع من فمه متكررًا: أنا، أنا، أنا، ولكنه توقف فجأة، أو بالأحرى أوقفه شيء، كان يقف فاتحًا فمه في صمت مستعدًّا لأن يكمل الكلام، ثم قال: «أنا، أنا أعني أن أنا ...» هكذا خرجت آخر طلقات ذلك الضمير المبعثرة من فمه كأنها خارجة من فوهة مدفع، ثم قال بلهجته المعهودة: «أنا خارج، يجب أن أخرج من هنا.» خرج من الغرفة وصعد درجات السلم متقافزًا في سرعة رهيبة، سمعته وهو يفتح الأدراج ثم يغلقها بعنف، فخطر لي أنه سيغادر الشقة نهائيًّا، ولكنه هبط بعد لحظات وطرق باب غرفتي. ضحكت فقد خطر لي أن طرقه الباب هو نوع من الاعتذار الذي يتسم بخفة الظل. «تفضل يا سيد جرين.» دخل إلى الغرفة وقال في رسمية مهذبة يطل منها النفور: «أنا ذاهب في نزهة، أوشكت رائحتي أن تفوح مثل الطعام الفاسد من طيلة الحبس هنا في هذه الشقة.»

أدركت أنه تغير عندما صعد إلى غرفته. قلت له: «حسنًا، إنه مساء مناسب تمامًا للخروج في نزهة.»

قال بلهجة حماسية تطل منها براءة الأطفال: «نعم، معكِ حق.» ثم هبط السلم كأنه سجين يفر من محبسه. ظللت مستلقية بغرفتي طويلًا وأنا أشعر بتوتر بمعدتي وأصغي إلى ضربات قلبي، ثم ذهبت إلى طاولتي لأكتب ما حدث، ولكن لن تكون هناك كلمة واحدة عن السعادة والضحكات وتلك اللحظات السوية التي مرت علينا.

بعد خمسة أو عشرة أعوام ستُقرأ هذه الكلمات على أنها مدونات تحكي عن شخصين مصابين بالجنون وبقسوة القلب.

عندما انتهيت من الكتابة في الليلة الماضية أخرجت زجاجة الويسكي وصببت نصف كأس، جلست أرشف الويسكي من كأسي، كنت أشرب وأنا متعمدة أن ينزلق الشراب عبر جوفي ويصطدم بذلك التقلص الذي أشعر به أسفل حجابي الحاجر حتى يخمد الألم الذي أشعر به. خطر لي أنني إذا بقيت مع سول فسوف أتحول إلى سكيرة. ثم فكرت في أننا تقليديون للغاية، فأنا فقدت إرادتي، وأتعرض إلى نوبات الغيرة، ويثير الحقد بداخلي إحساسًا بالنشوة والتلذذ عندما أنتصر على رجل يعاني المرض، ومع ذلك لا يصدمني شيء من هذه الأشياء بقدر ما تصدمني تلك الفكرة التي عبرت رأسي بأنني ربما أدمن الخمر، لكن إدمان الخمر شيء هين جدًّا إذا قورن ببقية هذه الأشياء. احتسيت الإسكوتش وأنا أفكر في سول؛ تخيلت أنه خرج من الشقة ليتصل من الخارج بإحدى النساء اللاتي يعرفهن، سرت الغيرة بكل عرق بجسدي مثل السم، معيقة أنفاسي ومصيبة إياي بألم في عينيّ، ثم تخيلت سول المريض وهو يهيم على وجهه في أنحاء المدينة، تملكني الذعر وخطر لي أنه ما كان يجب أن أدعه يخرج، مع أنني لم أكن لأتمكن من أن أمنعه عن ذلك. ظل القلق من مرضه يعتمل بنفسي لمدة طويلة، ثم انصرفت بذهني إلى النساء الأخريات، فبدأت الغيرة تسري بدمي مرة أخرى. كرهته، تذكرت تلك النبرة الباردة التي كتب بها يومياته وكرهته من أجل تلك النبرة. صعدت إلى أعلى — ونفسي تحادثني بأنني يجب ألّا أفعل، ولكنني عرفت أنني لن أسمع لها — وألقيت نظرة على آخر مدوناته باليوميات، لم يهتم سول بوضع مذكراته في مكان أمين، بل تركها مفتوحة، تساءلت هل كتب لي شيئًا حتى أقرأه ولكنني لم أجد أي مدونات بتاريخ الأسبوع الماضي، ولكن تحت تاريخ اليوم كُتبت هذه الجملة: أنا سجين، الإحباط يدفعني شيئًا فشيئًا نحو الجنون.

يسري بداخلي شعور بالغضب الممزوج بالحقد.

فكرت لحظة بتعقل في أن سول كان يعيش حالة من السعادة والاسترخاء طوال ذلك الأسبوع لأنه كان قادرًا على ذلك، فلماذا إذن شعرت بالألم عندما قرأت هذه المدونة المكتوبة بمذكراته؟ كنت أشعر بالأسى والألم كأن هذه المدونة ألغت الأسبوع الماضي من أيامي وأيامه. هبطت إلى أسفل وأنا أفكر في أن سول الآن بصحبة امرأة أخرى. جلست أرقب نفسي وأنا أفكر في أن سول بصحبة امرأة أخرى. إن الحق معه في أن يكرهني ويفضل الأخريات عليّ، فأنا امرأة بغيضة، هكذا حادثتني نفسي. وبدأت أفكر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في لهفة النساء الأخريات اللاتي يعرفهن، هؤلاء النساء اللاتي يتمتعن بالطيبة والكرم والقوة التي تمكنهن من أن تعطينه ما يريده دون أن يطلبن منه أي شيء في المقابل.

أذكر أن الأم شوجر «أعطتني درسًا» ذات مرة عن هواجس الغيرة وكيف أنها جزء من الشذوذ، كان الدرس حينها درسًا أكاديميًّا لا علاقة له بي، لا علاقة له بآنا؛ تساءلت هل أرغب في أن أقيم علاقة مع هذه المرأة التي هو بصحبتها الآن.

تتفتح عيني على الحقيقة، وأدرك أنني انغمست في (١٨*) قلب جنونه، إنه يبحث عن تلك المرأة الحكيمة الطيبة التي تمثل له معنى الأمومة والتي تلعب في الوقت نفسه دور خليلته وشقيقته، ولأنني أصبحت جزءًا منه، هذا هو ما كنت أبحث عنه أنا أيضًا، أبحث عن هاتين الشخصيتين، لأنني أحتاجها وأرغب في أن أقوم بدورها. أدركت أنني لن أستطيع أن أفصل نفسي عن سول بعد الآن، وزاد ذلك من الرعب الذي يتملكني، فقد أدركت بفطنتي أن هذا الرجل يسلك سلوكًا واحدًا يكرره المرة بعد الأخرى؛ إنه يتودد لامرأة ما مستخدمًا ذكاءه وقدرته على التعاطف معها حتى يستحوذ على مشاعرها، وحينما تحاول هي الأخرى أن تستحوذ في المقابل على مشاعره يهرب. وكلما كانت هذه المرأة أفضل بدأ ينفذ عملية هروبه سريعًا. كنت أدرك ذلك بفطنتي، ومع ذلك جلست بغرفتي المظلمة أنظر إلي الأضواء المتألقة في ليل سماء لندن القرمزية الرطبة التي تناثرت بها السحب، جلست أتحرق شوقًا بكياني كله إلى أن أكون هذه المرأة الخرافية، أتحرق شوقًا لذلك من أجل سول.

أجد نفسي متمددة على الأرض عاجزة عن أن أتنفس بسبب ذلك التقلص الذي أشعر به في معدتي. ذهبت إلى المطبخ واحتسيت المزيد من الويسكي، حتى خفت حدة التوتر قليلًا. ثم عدت إلى الغرفة الكبيرة وحاولت أن أستعيد نفسي عن طريق رؤية آنا على أنها شخص ضئيل بلا وزن تقبع في شقة قديمة وقبيحة بمنزل قبيح متهالك في أقاصي لندن التي تحيطها بظلمتها، ولكنني لم أستطع أن أفعل ذلك. شعرت بالخزي الشديد من نفسي لأنني لا أستطيع أن أتخلص من مخاوف آنا، هذا الحيوان الضئيل الذي ليس له أي وزن. ظللت أقول لنفسي: إن العالم هناك بالخارج، وأنا لا أهتم به حتى إنني لم أقرأ الجرائد منذ أسبوع، أحضرت الجرائد التي صدرت الأسبوع الماضي وفردتها حولي على الأرض. حدثت وقائع جديدة هذا الأسبوع ... حرب هنا ونزاع هناك. كنت أبدو مثل شخص فاتته عدة حلقات من مسلسل ولكنه استطاع أن يخمن ما حدث من التسلسل المنطقي لأحداث القصة. شعرت بالملل والسخف، فقد كنت أعرف أنه بإمكاني أن أخمن ما حدث بالأسبوع

الماضي من خبرتي السياسية حتى وإن لم أقرأ الجرائد. امتزج الإحساس بسخافة الاعتياد، والشعور بالازدراء تجاه تلك السخافة بالخوف الذي يعتمل في نفسي، ثم تفتحت عيني فجأة على حقيقة جديدة، وأدركت شيئًا لم أكن أدركه من قبل. كانت هذه الحقيقة تنبع من جبن آنا، هذا الحيوان الصغير المذعور الجالس على الأرض. اجتاحني الرعب، الرعب من الكوابيس المزعجة، شعرت بالخوف من الحرب كما يشعر به المرء في حلم مزعج، لم أكن أوازن بعقلي بين الاحتمالات والإمكانيات، ولكني استشعرت بأعصابي وخيالي الخوف من الحرب. أصبحت الأحداث التي قرأت عنها في الجرائد في مختلف أنحاء العالم حقيقة، ولم يكن الخوف الذي شعرت به خوفًا عقليًّا مجردًا. حدث نوع من التحول بالتوازنات المختلفة بعقلي، بالطريقة التي كنت أفكر بها، إنها نفس عملية إعادة الحسابات التي تعرضت لها منذ بضعة أيام، عندما تلاشى وقع كلمات الديمقراطية والليبرالية والحرية تحت الضغط الذي شكله إدراكي لحركة العالم نحو القوة القاسية السوداء على نحو مختلف. أنا «أعرف» — ولكن الكلمة المكتوبة لا تستطيع بالطبع أن تعبر جيدًا عن هذه المعرفة — أن ما حدث بالفعل له منطقه وقوته، وأن الترسانات العالمية الكبيرة لها قوتها الداخلية، وأن الرعب الذي أشعر به، الرعب الحقيقي الذي يسري في أعصابي وكأنني في قلب حلم مزعج، هذا الرعب هو جزء من تلك القوة. هذه الأحاسيس تتمثل أمامي وكأنها رؤية، نوع جديد من المعرفة لم أعهده من قبل. وعرفت أيضًا أن القسوة والحقد وحب الذات الذي يتسم به سول وتتسم به آنا جزء من منطق الحرب، وعرفت كم هي قوية تلك المشاعر، حتى إنها تظل عالقة بنفسي إلى الأبد وتصبح جزءًا من رؤيتي للعالم.

ولكن الآن عندما أكتب عن هذه الأحاسيس وأقرأ ما كُتب لا أجد شيئًا سوى كلمات على الورق، فأنا لا أستطيع أن أنقل — حتى لنفسي عندما أقرأ ما كتبت مرة أخرى — إدراكي الدمار بوصفه نوعًا من القوة. بالأمس كنت أستلقي على الأرض في سكون، أشعر بقوة الدمار وكأنها رؤية تتمثل أمامي، ويرسخ هذا الشعور جذوره بداخلي ويثبتها بحيث لا تنخلع من نفسي مطلقًا، ولكن ذلك لا ينعكس في الكلمات التي أكتبها الآن.

عندما خطر لي كيف يمكن أن تندلع الحرب وتحل الفوضى، تجمدت أوصالي وتقاطر العرق من جسدي الذي لفه الخوف. ثم فكرت في جانيت بوصفها هذه الفتاة الصغيرة المرحة وليس بوصفها فتاة تقليدية وسط فتيات مدرستها الأخريات، فانتابني الغضب من فكرة أن يؤذي جانيت أي شخص في أي مكان في العالم. تصاعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بداخلي الشعور بالغضب حتى إنني اعتدلت واقفة وتمكنت من أن أصد هجمات الرعب الذي ينتابني. شعرت بالإرهاق، ذهب الرعب عني، وانحصر في السطور المطبوعة على صفحات الجرائد. انتابني الإعياء الشديد، ولم يعد بداخلي أي رغبة لإيذاء سول. ارتديت ملابس النوم ودخلت إلى الفراش وقد عاد لي عقلي، وأدركت الراحة التي يشعر بها سول عندما يرفع الجنون يده عن رقبته التي يطبق عليها وتحادثه نفسه بأن الجنون ذهب عنه حتى حين.

استلقيت على الفراش وأنا أفكر فيه، أفكر في هذا الرجل القوي، الشارد الذهن، ذي النفس الدافئة.

ثم ترامى إلى سمعي وقع خطواته آتية من الخارج، خطوات متسللة. وعلى الفور حدث ذلك التحول الذي يقع بداخلي، انتابتني موجة من الخوف والقلق، لم أرغب في أن يدخل سول الغرفة، أو بالأحرى لم أرغب في أن يدخل غرفتي صاحب هذه الخطوات المتلصصة الذي يتسلل خلسة بالخارج. وقف لبعض الوقت خلف باب الحجرة يتلصص، لم أكن أعرف كم الساعة حينئذ، ولكن الضوء الخافت المنعكس في السماء يدلل على أننا في الصباح الباكر، ثم سمعته وهو يصعد السلم بحذر شديد على أطراف أصابعه. شعرت أنني أكرهه وهالني أنني يمكن أن أكرهه بهذه السرعة. استلقيت على الفراش وأنا آمل أن يهبط إلى غرفتي، ثم تسللت صاعدة إلى غرفته. فتحت الباب ورأيته في الضوء الخافت المتسلل من النافذة وهو متكور على نفسه تحت الأغطية في كامل أناقته. تملكني الشعور بالرثاء، وتسللت إلى الفراش بجانبه، فاستدار وجذبني إليه. عرفت من تلك الطريقة التي أمسك بي بها أنه كان هائمًا على وجهه في الشوارع وهو يشعر بالوحدة والإعياء.

هذا الصباح تركته نائمًا وذهبت لأعد القهوة وأرتب المنزل، وشجعت نفسي على قراءة الجرائد. أنا لا أعرف «من» الذي سيهبط إليّ من الدور العلوي. أجلس هنا، أقرأ الجرائد، أقرؤها بعقلي فقط، من دون أن أستعين بغريزتي للمعرفة، وأفكر في حالي، في حال آنا ولف التي تجلس منتظرة أحد الأشخاص، ولكنها لا تعرف من الذي سينزل السلم إليها، الرجل الطيب العطوف الودود الذي يعرفها، يعرف آنا، أم الطفل الماكر المخادع، أم الرجل المجنون الذي تملأ الكراهية نفسه.

كان ذلك منذ ثلاثة أيام، كنت أعيش خلالها في قلب الجنون. عندما هبط سول من الدور العلوي بدت أمارات المرض واضحة عليه للغاية؛ لمعت عيناه من وسط الهالات البنية الداكنة المحيطة بهما وأطل منهما حيوان متأهب شرس، وبدت شفتاه

المطبقتان وكأنهما سلاح مصوب نحوي. تصرف بثقة المحاربين وحماسهم، وعرفت أنه منغمس بكل طاقاته في الإمساك بشتات نفسه، فكل الشخصيات المختلفة الكامنة بداخله اجتمعت معًا في ذلك الكائن الذي يناضل من أجل البقاء. كان يبعث إليَّ بنظرات التوسل المتكررة ولكنه لم يكن يعي ذلك. ذلك الكائن على وشك الانهيار. تلبية لحاجة ذلك الكائن انتابني التوتر وشعرت أنني سأنجرف مع تيار الضغط العصبي. كانت الجرائد ملقاة على الطاولة، ولكنني أبعدتها عندما أتى سول، فقد شعرت أن الرعب الذي هاجمني بالليلة الماضية قريب جدًّا منه وبالغ الخطورة عليه، مع أنني لم أكن أشعر به في تلك اللحظة. احتسى فنجان القهوة وبدأ يتكلم في أمور السياسة وهو ينظر إلى كومة الجرائد. لم يكن حديثه هو ذلك الحديث التفاخري الذي يطل منه الضمير «أنا» بين كل كلمة وأخرى والذي يدور حول اتهامه للعالم من حوله ووقوفه بوجهه الذي انتهى بانتصاره، ولكنه ذلك الحديث المسترسل الذي لا يستطيع سول أن يمنع نفسه عنه، ظل يتكلم ويتكلم ولكن نظرات عينيه لم تعبر عما يقوله.

إذا كنت أقتني تسجيلات لهذه الحوارات فستتضمن هذه التسجيلات مجموعة من العبارات المختلطة، والمصطلحات المتخصصة والملاحظات غير المترابطة. التسجيل الخاص بذلك الصباح كان سياسيًّا، مزيجًا من المصطلحات المتخصصة في هذا المجال. جلست أصغي إليه والعبارات الشائعة التي رددها مثل الببغاء تمر على أذني الواحدة تلو الأخرى، ثم صنفتها: شيوعي، مناهض للشيوعية، ليبرالي، اشتراكي. استطعت أن أفصل كلًّا منها عن الأخرى: عام ١٩٥٤ شيوعيّ أمريكيّ، وعام ١٩٥٦ شيوعيّ إنجليزيّ، وفي أوائل الخمسينيات أمريكيّ ينتمي إلى التروتسكية، وعام ١٩٥٤ من المعارضين للإستالينية، وعام ١٩٥٦ أمريكيّ ليبراليّ، وهكذا. فكرت في أنني لو كنت فعلًا محللة نفسية لاستخدمت هذه الثرثرة، وعثرت على شيء فيها يركز انتباهه، فهو في الأساس رجل سياسي، وذلك هو المجال الذي يدفع به إلى أقصى حالات الجدية، ولذا طرحت عليه سؤالًا، استطعت أن أتبين أنه راجع نفسه بشأن شيء ما، فقد فزع، وعاد إلى نفسه، وأخذ يلهث، وانقشعت تلك الغشاوة من أمام عينيه، ورآني. كررت سؤالي عن انهيار المنهج السياسي الاشتراكي في أمريكا. لم أكن أعرف هل استخدامي لمثل هذه الكلمات تصرف صحيح، إذ إن استخدامها هدفه هو أن يُبقي نفسه متماسكة وأن يمنعها من الانهيار. رأيته يشد جسده ويستجمع تركيزه وكأنه ماكينة أو آلة يزداد عليها الحمل فتتأقلم معه وتستمر في العمل، وبدأ هو يتكلم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأقول «هو» لأنني أسلم بأنني أستطيع أن أحدد الشخصية الكامنة بداخله وقتها، فالشخص الجالس أمامي «هو» هذا الرجل الحقيقي. لماذا أفترض أن هناك واحدة من تلك الشخصيات الكامنة بداخله تعبر عنه أكثر من الأخرى؟ أظن ذلك، فعندما تكلم سول حينئذ كان من يتكلم هو الرجل الذي يفكر ويحكم على الأشياء ويتواصل مع ما حوله ويسمع ما أقوله ويقبل أن يتحمل المسئولية.

بدأنا نناقش وضع اليسار في أوروبا وتفكك الحركات الاشتراكية في العالم. ناقشنا بالطبع كل ذلك كثيرًا ولكن لم يحدث أن النقاش كان بهذا الهدوء والوضوح. أذكر أنه خطر لي أن من الغريب أننا نستطيع أن نتحلى بهذا التفكير الموضوعي النير عندما يكون كلانا تحت تأثير التوتر والقلق. تكلمنا عن الحركات السياسية، وتطور إحدى الحركات الاشتراكية وانهزام الأخرى، في حين توصلت بالأمس إلى أن حقيقة زماننا هذا هي الحرب، الحرب المندلعة في كل مكان. ربما من الخطأ أن نتكلم عن هذه الأمور من الأساس، فالنتائج التي توصلنا إليها محبطة للغاية، وهذا الإحباط هو الذي ساعد على إصابة سول بالمرض، ولكن الأوان فات، بالإضافة إلى أنني شعرت براحة شديدة لأن من يجلس أمامي هو هذا الشخص الحقيقي الذي أعرفه وليس ذلك الببغاء الذي يردد الكلام بدون وعي. ثم أبديت ملاحظة، لا أذكر ما هي، فاهتز كيانه كله، وانتابته حالة مختلفة تمامًا، فقد اعتمل بداخله شعور بالصدمة وارتد إلى شخصية أخرى غير التي كان عليها. هذه المرة تصرف مثل فتى من الطبقة العاملة اشتراكي حتى النخاع، فتى وليس رجلًا، وبدأ تيار الشعارات السياسية يتدفق مرة أخرى، وحاول بكل حركات جسده واهتزازاته أن يهينني، كان يهين امرأة ليبرالية من الطبقة المتوسطة. طافت بذهني فكرة، فكم هو غريب أن أتأذى وأغضب من هذا التصرف وأنا أعرف تمامًا أنه ليس «هو» من يتكلم، وأن أهانته لي هي شيء آلي نابع من شخصية أخرى سيطرت عليه في بداية حياته. جعلتني هذه الإهانة أشعر بألم في ظهري وتقلص في معدتي، فذهبت إلى غرفتي الكبيرة حتى أخفف حدة رد الفعل هذا، وتبعني سول وهو يصرخ: «ليس بإمكانكِ أن تتحملي هذا، لا يمكن أن تتحملي هذا أيتها الإنجليزية اللعينة.» أمسكت بكتفيه وأخذت أهزه، أهزه حتى يعود إلى نفسه. أخذ يلهث ويتنفس بعمق ووضع رأسه على كتفي لحظة ثم مشى إلى فراشي بخطوات متعثرة وارتمى عليه واستلقى على وجهه.

وقفت بجانب النافذة أنظر من خلالها محاولة أن أهدئ من روعي عن طريق التفكير بجانيت، ولكنها بدت لي بعيدة. شعاع الشمس بعيد، فقد كان نهارًا شتويًا

باهتًا. ما يجري بالشارع بعيد عني، لم يكن المارة السائرون به أشخاصًا، بل دمًى متحركة. شعرت بشيء يتغير بداخلي، وكأنني أنحرف مبتعدة عن نفسي، عرفت أن هذا التغيير هو خطوة أخرى في طريق الانحدار نحو الفوضى. تحسست الستارة الحمراء وما عليها، ملمسهما الذي شعرت به أصابعي ملمس ميت وزلق وبه لزوجة. نظرت إلى هذه المادة التي صنعتها الآلات فرأيت شيئًا ميتًا، جلدًا منزوعًا من حيوان ميت، أو جثة بلا حياة معلقة على نافذتي. ثم تحسست الزرع الموجود بالإناء الفخاري على حافة النافذة. عندما أتحسس أوراق النباتات يخامرني دائمًا شعور بالتآلف مع جذور ذلك النبات التي تعمل أسفل التربة وأوراقه الحية التي تبعث بأنفاسها في المكان، لكن الشعور الذي داخلني في هذه اللحظة كان شعورًا بالانزعاج، كأن هذا النبات هو حيوان عدواني أو قزم محبوس في هذا الإناء الفخاري، ويكرهني لأنني أنا من أحبسه. حاولت أن أستدعي آنا في مراحل أخرى من حياتها عندما كانت أصغر وأكثر قوة، آنا التلميذة بالمدرسة في لندن وآنا ابنة أبي، ولكنني لم أستطع أن أرى هاتين الفتاتين إلا بعيدتين عني، فحاولت أن أفكر في ركن بأحد الحقول في أفريقيا؛ أوقفت نفسي فوق طبقة لامعة من الرمال البيضاء، والشمس تفرش نورها على وجهي، ولكنني لم أعد أشعر بحرارة الشمس. فكرت في صديقي السيد ماثلونج ولكنه هو الآخر بعيد. وقفت هناك أحاول أن أستشعر بوعيي وإدراكي الشمس الذهبية الساخنة، وأحاول أن أستدعي إلى نفسي شخصية السيد ماثلونج، ولكن فجأة تتسرب من نفسي شخصية السيد ماثلونج، وتسكنني شخصية تشارلي ثيمبا المجنون، أصبح هو؛ من السهل جدًّا أن أكون تشارلي ثيمبا، بدا كأنه يقف هناك بجانبي، ولكنه كان جزءًا مني، هناك بجسده الأسمر الضئيل الذي يبدو مثل المسمار، ووجهه الصغير الذي تبدو عليه أمارات السخط الشديد وملامح الذكاء ينظر إليّ، ثم انصهر تشارلي بداخل نفسي: كنت بداخل كوخ في الإقليم الشمالي، وزوجتي هي من يعاديني، وزملائي بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي — الذين كانوا في السابق أصدقائي — يحاولون أن يقتلوني بالسم. هناك تمساح يستلقي مقتولًا برمح مسموم بين أعواد الخيزران، وزوجتي التي اشتراها أعدائي على وشك أن تطعمني لحم هذا التمساح، عندما يلمس لحم هذا التمساح شفتيّ سأموت، بسبب العداوة الشديدة لأسلافي. استطعت أن أشتم رائحة لحم التمساح البارد المتعفن، ونظرت من خلال باب الكوخ فرأيت التمساح الميت وهو يتأرجح قليلًا فوق المياه الراكدة الآسنة التي تطل منها أعواد الخيزران النابتة وسط النهر، ثم رأيت عينيّ زوجتي وهي تطل من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بين أعواد الخيزران التي صُنع منها كوخي لترى هل يمكنها أن تدخل إلى الكوخ بأمان، دلفت زوجتي إلى الداخل وقد انحنت وهي تمر من باب الكوخ ولمست طرف ثوبها بهذه اليد التي أكرهها، اليد التي يطل منها الخبث والخداع، وأمسكت باليد الأخرى طبقًا معدنيًّا به شرائح اللحم النتن المعدة لكي آكلها.

ثم رأيت الخطاب الذي كتبه لي هذا الرجل أمام عينيّ وأفقت من هذا الكابوس وكأنني أنتزع نفسي من وسط صورة فوتوغرافية وأخرج منها. كنت أقف بجانب نافذتي والعرق يتصبب من جسدي الذي يلفه الذعر من أن أكون أنا تشارلي ثيمبا، ذلك المجنون المصاب بجنون الاضطهاد، ذلك الرجل الذي كرهه البيض وتبرأ منه رفقاؤه، أقف هناك أشعر بالإرهاق الشديد، حاولت أن أستدعي إلى نفسي السيد ماثلونج؛ رأيته في وضوح وهو يمشي منحنيًا قليلًا في أرض ترابية خالية تضيئها الشمس متنقلًا بين الأكواخ المسقوفة بالصفيح، يبتسم في أدب راسمًا على وجهه هذه الابتسامة التي لا تفارق شفتيه، الابتسامة التي تطل منها السعادة، ولكنه بمنأى عني. تمسكت بالستائر المعلقة على النافذة حتى لا أقع، وشعرت بملمسها الزلق وببرودتها بين أصابعي وكأنني أمسك بجسد ميت، أغمضت عينيّ. هاجمتني موجات المرض وعيناي مغمضتان وأدركت أنني أنا آنا ولف — التي كانت آنا فريمان في يوم من الأيام — أقف لدى نافذة إحدى الشقق القبيحة والمتهالكة بلندن ومن خلفي يستلقي على الفراش سول جرين، الرحالة الأمريكي، ولكنني لا أعرف كم من الوقت بقيت على هذا الحال. عدت مرة أخرى إلى نفسي وكأنني شخص يفيق من حلم وهو لا يعرف في أي غرفة سيجد نفسه. وأدركت أنني أصبحت مثل سول أفتقد الإحساس بالوقت. نظرت إلى السماء الباردة التي تناثرت بها السحب البيضاء، وقرص الشمس التي شوهت السحب معالمه، ثم استدرت بحذر ونظرت إلى داخل الحجرة، الحجرة مظلمة قليلًا، وانبعث من مدفأة الغاز موجات من الوهج الدافئ على الأرض، سول يستلقي في سكون تام، سرت بحذر إلى الجانب الآخر من الغرفة فوق الأرض التي تموج من تحتي وانحنيت لألقي نظرة عليه، إنه نائم والبرودة تنبعث من جسده، استلقيت بجانبه محاولة أن أكيف نفسي مع شكل ظهره المحدب إلى الخارج مثل القوس، ظل سول ساكنًا. ثم أصبحت فجأة شخصًا عاقلًا وأدركت ما كنت أعنيه حينما قلت إنني أنا آنا ولف وهذا هو سول جرين وإن لدي طفلة اسمها جانيت. أحكمت قبضتي عليه، ثم استدار فجأة رافعًا ذراعه وكأنه يصد به لطمة موجهة إليه، ورآني سول. كان وجهه شديد البياض مثل وجوه الموتى وقد

بدت عظامه ناتئة من تحت طبقة الجلد الرفيعة التي تغطيه، وأطل المرض من عينيه الرماديتين الذابلتين. ألقى برأسه على صدري وأمسكت به، ثم راح في النوم مرة أخرى، حاولت أن أحسب الوقت، لكنه انسلخ مني. استلقيت تحت حمل جسد هذا الرجل الذي انبعثت منه البرودة وكأن قطعة من الثلج تستند عليّ. حاولت أن أبقي جسدي دافئًا حتى أدفئه ولكن البرودة التي تشع منه تسربت إليّ، فدفعته برفق تحت الأغطية واستلقينا أسفل النسيج الدافئ. رويدًا رويدًا تلاشت البرودة وشعرت بالدفء يتسرب من جسده المستلقي بجانبي. فكرت في تجربة كوني تشارلي ثيمبا، لم يعد باستطاعتي أن أتذكرها، حيث لم يعد بإمكاني أن «أتذكر» كيف فهمت أن الحرب تعتمل في نفوسنا جميعًا، نحو الإثمار. أو بمعنى آخر عدت مرة أخرى إلى أنني شخص عاقل، ولكن كلمة عاقل لم تكن تعني شيئًا مثلها مثل كلمة مجنون. انقبض صدري بفعل إدراكي للاتساع، وحط على ظهري حمل البراح، لكنه لم يكن ذلك البراح الذي أدركه حينما ألعب «اللعبة» فلم أكن أشعر بذلك العبء، بل بأنه شيء فارغ بلا أي معنى. تسرب الخوف إلى نفسي، ولم أستطع أن أرى أي سبب لكي أكون مجنونة أو عاقلة. وعندما نظرت إلى ما وراء رأس سول بدا كل شيء في الغرفة خبيثًا ومنذرًا بالسوء ورخيصًا وبلا معنى، حتى شعرت في تلك اللحظة بملمس الستائر الزلق كالجسد الميت بين أصابعي.

خلدت إلى النوم، فراودني ذلك الحلم. لم يكن هناك أي شيء متخفٍّ أو مقنع هذه المرة، أنا ذلك القزم الخبيث الذي اجتمع فيه الجنسان، كنت أمثل جوهر التلذذ بالدمار، وسول هو نظيري، كائن اجتمع فيه الجنسان، كان شقيقي وشقيقتي. نرقص في مكان مفتوح، أسفل بنايات ضخمة بيضاء اللون، امتلأت بآلات سوداء بغيضة ومشئومة مسئولة عن الدمار. ولكنني أنا وهو، أو أنا وهي، نتصرف بود معًا أثناء الحلم وليس بعداء، نحلق معًا في سماء المكر الذي يطل منه الحقد. يسود شعور بغيض بالحنين الجارف جو الحلم، الحنين إلى الموت. اقتربنا أحدنا من الآخر وتبادلنا قبلة في حب. كان ذلك شيئًا سيئًا، أدركت ذلك حتى وأنا أحلم، لأنني رأيت في هذا الحلم كل الأحلام الأخرى التي تراودنا حينما يتركز جوهر الحب والود في قبلة أو لمسة لطيفة، ولكن هذه الملاطفة كانت تدور في تلك اللحظة بين اثنين من أشباه البشر يحتفلان بالدمار.

يسود شعور كريه بالنشوة الحلم. عندما استيقظت كانت الغرفة مظلمة، واشتدت حمرة وهج نار المدفأة، وانعكس ظل ساكن على السقف الأبيض الكبير،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وملأتني النشوة والشعور بالسلام، وتعجبت كيف لحلم شنيع كهذا أن يخلف بداخلي شعورًا بالراحة، ثم تذكرت الأم شوجر، وخطر لي أنني ربما أحلم بهذا الحلم لأول مرة على نحو «إيجابي» ... ولكنني لا أعرف ماذا يعني ذلك.

لم يتحرك سول. شعرت بتيبس في مفاصلي فحركت كتفيّ، واستيقظ سول مذعورًا مناديًا عليَّ بصوت عالٍ: «آنا!» وكأنني في غرفة أخرى أو في بلد آخر. قلت له: «أنا هنا.» ضاجعني سول، وسادنا إحساس بالدفء مثلما حدث في الحلم، ثم نهض وجلس في الفراش سائلًا إياي: «يا إلهي، كم الساعة الآن؟» قلت له: «أظنها الخامسة أو السادسة.» فقال لي: «رباه، لا يمكن أن أضيع حياتي في النوم هكذا.» ثم اندفع خارجًا من الغرفة.

استلقيت بالفراش وأنا أشعر بالسعادة. ولكوني سعيدة، كانت النشوة التي ملأتني حينذاك أقوى من كل التعاسة والجنون في العالم، أو هكذا شعرت. ولكن السعادة بدأت تتسرب من نفسي، وراودني هذا السؤال وأنا مستلقية في الفراش: ما هذا الشيء الذي نحتاج إليه احتياجًا شديدًا؟ (أعني نحتاج إليه نحن معشر النساء.) وماذا يساوي؟ شعرت به وأنا مع مايكل، ولكنه لم يكن يعني له أي شيء، فلو كان يعني له شيئًا لما تركني. وأنا أشعر به الآن مع سول وأتشبث به وكأنه كوب من الماء يلوح أمامي وأنا ظمآنة، ولكن ما ألبث أن أفكر فيه حتى يتلاشى. لم أرغب في أن أفكر فيه، لأنني إذا فعلت فلن يبقى شيء بيني وبين النبات القصير الذي يبدو كالقزم القابع في الإناء الفخاري على حافة النافذة، أو بيني وبين الستائر التي يثير ملمسها الزلق الذعر في نفسي، أو حتى بيني وبين التمساح القابع بين أعواد الخيزران.

أستلقي على الفراش في الحجرة المظلمة وأنا أستمع لتلك الضجة العالية التي يحدثها سول من فوق رأسي. أنا امرأة تعرضت للخيانة بالفعل، إذ نسي سول مشاعر «السعادة»، فبصعوده إلى الطابق العلوي خلق مسافة كبيرة تفصل بينه وبين الشعور بالسعادة.

ولكنني لم أر ذلك على أنه رفْض لآنا فقط، بل رفْض للحياة نفسها. خطر لي أن هناك شركًا مرعبًا نصب هنا للنساء، ولكنني لا أستطيع أن أدرك حتى الآن ما هو. لا شك في أن هناك إحساسًا جديدًا تعبر عنه النساء، الإحساس بأنهن تعرضن للخيانة؛ إن هذا الإحساس يطل برأسه من بين سطور الكتب التي يكتبنها، من طريقة كلامهن، إنه موجود في كل مكان وبكل وقت، إنها نغمة رثاء الذات الحزينة

التي تعبر عن فصيلة النساء، وهي تعتمل بنفسي، بنفس آنا التي جرحتها الخيانة، آنا التي لا تتحرك تجاهها مشاعر الحب، آنا التي أُنكرت عليها سعادتها، آنا التي حينما تسأل عن ذلك لن تقول: لماذا ترفضني؟ ولكن: لماذا ترفض الحياة؟

عندما عاد سول وقف في قوة وتحفز وضيق عينيه وقال: «سأخرج.» أجبته: «حسنًا.» وخرج سول، هرب السجين من محبسه.

استلقيت بمكاني، محاولة بكل جهدي ألا أهتم بكونه هو السجين الهارب، أرهقتني المحاولة. خبت المشاعر بداخلي، ولكن عقلي لا يزال يعمل، يرسم الصور وكأنه يصنع فيلمًا. تفحصت الصور والمشاهد وهي تمر أمامي، كنت أراها كالخيالات التي يراها أي شخص، خيالات نابعة من ذلك التراث العام، الذي يحمله ملايين الناس بداخلهم. رأيت جنديًّا جزائريًّا ممددًا على فراش التعذيب، كنت أنا ذلك الجندي أيضًا، وتساءلت إلى متى سأظل صامدة. ورأيت أحد الشيوعيين محبوسًا بسجن للشيوعيين، بالطبع ذلك السجن في موسكو، ولكن التعذيب الذي تعرض له هذا السجين كان تعذيبًا فكريًّا، عليه أن يصمد في المعركة التي تدور داخل مصطلحات الجدلية الماركسية. لقطة النهاية في هذا المشهد هي تلك التي اعترف بها السجين الشيوعي — ولكن بعد أيام من الجدال والنقاش — بأنه بنى موقفه على الضمير الفردي، هذه اللحظة التي يسمع فيها صوت إنسان يقول: «لا، هذا ما لا أستطيع أن أفعله.» لم يفعل السجان أي شيء حينها سوى أنه ابتسم، فلم يكن هناك حاجة لأن يقول: إذن، فقد اعترفت بنفسك أنك مخطئ. ثم رأيت الجندي الكوبي والجندي الجزائري وكل منهما يمسك بندقية في يده ويبدو متأهبًا. ثم لاحت أمامي صورة الشاب البريطاني المجند تجنيدًا إجباريًّا الذي دُفع به إلى الحرب في مصر، لاحت أمامي صورته وهو يدفع حياته ثمنًا للعبث. ثم رأيت طالبًا في بودابست يلقي بقنبلة مصنوعة محليًّا على دبابة روسية سوداء ضخمة، ورأيت فلاحًا في إحدى مدن الصين يمشي في مسيرة وسط ملايين الأشخاص الأقوياء.

كانت هذه الصور تتكشف أمام عيني، وخطر لي أن ما لاح أمامي من خمس سنوات مختلف، وأن الصور التي سأراها بعد خمس سنوات ستكون مختلفة أيضًا، ولكن ما أراه الآن هو الخيط الذي يربط بين أشخاص بعينهم لا يعرف كل فرد منهم الآخر.

عندما توقفت الصور عن توليد نفسها تفحصتها مرة أخرى، وأعطيت لكل منها اسمًا. لاحظت أن السيد ماثلونج لم يكشف عن نفسه. خطر لي أنني منذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ساعات قليلة تحولت إلى السيد ثيمبا المجنون، ومن دون أن أعمد لبذل أي مجهود من أجل ذلك. قلت لنفسي إنني سأكون السيد ماثلونج، عليَّ أن أجعله يأتي إلى نفسي ويسكنها. أعددت المسرح بحيث يكون مناسبًا لتمثيل هذا المشهد، وحاولت أن أتخيل نفسي رجلًا أسود يعيش بأرض يستعمرها البيض، ويشعر بجرح في كرامته كإنسان. حاولت أن أتخيله وهو في المدرسة الإرسالية، ثم وهو يدرس بإنجلترا. حاولت أن أرسم معالمه ولكنني فشلت تمامًا. حاولت أن أجعله يقف بغرفتي بشخصيته المهذبة ذات الطابع الساخر، ولكنني فشلت. فشلت لأن هذا الرجل تحديدًا يختلف عن الجميع، فهو يتسم بطابع انعزالي، فهو لا يقحم شخصه فيما يفعل. كان رجلًا يمارس الأفعال ويقوم بالأدوار التي يؤمن أنها ضرورية من أجل مصلحة الآخرين، حتى حينما يظل محتفظًا بهذا الشك الذي يطل منه الطابع التهكمي فيما يخص المحصلة التي سيسفر عنها ما قام به. بدا لي أننا في أمس الحاجة في هذا الزمان إلى هذا الطابع الانعزالي، ولكن القليل من الأشخاص يتسمون به، وهناك بالطبع مسافة كبيرة تفصل بيني وبين هذه السمة.

خلدت إلى النوم، واستيقظت عندما أوشك الصبح على الانبلاج. نظرت إلى السقف فرأيته متمددًا من فوقي بلا حياة، تقطع الأضواءُ المنعكسة عليه من الشارع ذلك الشحوبَ الذي يعتليه، أما السماء فلونها البنفسجي الداكن ينيره ضوء القمر الشتوي. جسدي يصيح شاكيًا من الوحدة لأن سول ليس موجودًا. لم أعد إلى النوم مرة أخرى. انصهرت داخل هذا الشعور البغيض، شعور المرأة التي تعرضت للخيانة. ضغطت على أسناني وأنا مستلقية بالفراش ورفضت أن أفكر، عرفت أن أي شيء أفكر فيه سينبع من هذه العاطفة الحزينة التي لا تزال تجيش بداخلي. ثم ترامى إلى سمعي وقع خطوات سول وهو يدخل إلى المنزل، كان يمشي متسلسلًا في صمت وصعد مباشرة إلى الدور العلوي. لم أصعد هذه المرة إليه، أعرف أنه سيبدي استياءه مني في الصباح، لأن شعوره بالذنب واحتياجه لأن يمارس فعل الخيانة كانا يعتمدان على صعودي إليه في غرفته لكي يستمرا.

عندما نزل سول من غرفته كان الوقت قد تأخر، واقترب موعد الغداء، عرفت أن هذا هو الرجل الذي يكرهني، سألني بلهجة باردة للغاية: «لماذا تركتني نائمًا إلى هذا الوقت المتأخر؟» أجبته: «وهل أنا مسئولة عن إيقاظك؟» قال لي: «لدي موعد على الغداء، إنه غداء عمل.» عرفت مما قاله أنه ليس ذاهبًا إلى غداء عمل وأنه قال لي ما قاله بهذه الطريقة حتى يفهمني أن موعده هذا لا يخص العمل.

عاودني الشعور بالإعياء الشديد، وذهبت إلى غرفتي وأخرجت الدفاتر. دلف سول إلى الغرفة ووقف بجانب الباب ينظر إليّ، قال لي: «أنت تكتبين سجلًا يحوي جرائمي!» ويبدو عليه أنه سعيد بذلك. كنت أضع ثلاث دفاتر جانبًا عندما سألني: «لماذا تحتفظين بأربع دفاتر؟» قلت له: «لأنه كان من اللازم أن أقسم نفسي إلى أجزاء، ولكن من الآن فصاعدًا سأكتب في دفتر واحد فقط.» لفت انتباهي أنني قلت هذا الكلام، لأنني لم أدرك ذلك قبل هذه اللحظة. كان سول يقف في مدخل الغرفة ممسكًا بالإطار الذي يحيط ببابها بكلتا يديه، وقد حدق بعينيه اللتين فاضت منهما الكراهية الخالصة وهو ينظر إليّ. رأيت الباب الأبيض والإطار الذي يحيط به المزين بنقوش قديمة لا تضيف أي شيء إليه، كانت الصورة شديدة الوضوح. خطر لي أن هذه النقوش التي تزين إطار الباب تستدعي إلى ذهني صورة معبد يوناني، هذا هو أصلها، أعمدة المعابد اليونانية، ثم اتضح لي أنها تستدعي صورة معبد مصري قديم، ثم خطر لي كيف يستدعي ذلك بدوره صورة أعواد الخيزران والتمساح الرابض بها. يقف هذا الأمريكي هناك متعلقًا بهذا التاريخ بكلتا يديه حتى لا يقع، إنه يكرهني، يكره السجان. أعدت عليه ما قلته له في إحدى المرات من قبل: «ألا تظن أنه من الغريب أن كلينا تتسع شخصيته، بصرف النظر عن معنى هذه الكلمة، لتشمل كل شيء في الحياة من سياسة وأدب وفن، ولكن عندما يتملكنا الجنون في هذه اللحظة يتركز كل شيء في نقطة واحدة صغيرة وهي أنني لا أريدك أن تذهب لتضاجع أخرى وأنك يجب دائمًا أن تكذب عليَّ بشأن ذلك الأمر؟» للحظة عاد سول إلى نفسه، وأخذ يفكر فيما قلته، ولكنه تلاشى وذاب ورد عليَّ الرجل العدائي الماكر: «لن تخدعيني بهذه الطريقة، لا تفكري في ذلك.» صعد إلى غرفته وعندما هبط منها بعد بضع دقائق قال بلهجة مرحة: «سوف أتأخر إذا لم أذهب الآن، أراكِ فيما بعد يا صغيرتي.»

انصرف سول حاملًا نفسي معه، فقد شعرت بأن جزءًا مني يغادر المنزل بصحبته. أعرف كيف انصرف؛ هبط السلم بخطوات متعثرة، ثم وقف لحظة قبل أن يقدم على الخروج إلى الشارع، ثم مشى بحذر بهذه الخطوات الدفاعية التي تميز الأمريكيين، هذه الخطوات التي يسير بها الأشخاص المتأهبون للدفاع عن أنفسهم، حتى رأى في أحد الأماكن مقعدًا، أو ربما درجة سلم فجلس عليها. ترك الشياطين خلفه بمنزلي وأصبح حرًّا طليقًا لبرهة، ولكنني أشعر بالبرودة التي يخلفها الشعور بالوحدة تنبعث من جسده، فهذه البرودة أحاطتني من كل جانب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرت إلى هذا الدفتر، وأنا أفكر هل بإمكاني أن أدون فيها أن آنا ستعود، ولكنني لم أستطع أن أمد يدي وأمسك القلم. اتصلت بمولي وعندما أجابتني أدركت أنني لا أستطيع أن أنقل لها ما كان يحدث لي، لا أستطيع أن أتحدث إليها، فقد بدا صوتها — الذي كان مرحًا وعمليًّا كما عهدته — مثل صياح طائر غريب، وترامى إلى أذني صوتي صوتًا مرحًا وخاويًا.

سألتني مولي: «كيف حال صديقكِ الأمريكي؟» أجبتها: «بخير.» ثم سألتها: «وكيف حال تومي؟» قالت لي: «وقع عقدًا لتوه لإلقاء سلسلة من المحاضرات في مختلف أنحاء البلد عن حياة العاملين بمناجم الفحم، الحياة في مناجم الفحم.» قلت لها: «جيد.»

– إلى حد ما، إنه في الوقت ذاته يتحدث عن الانضمام إلى المقاومة في جبهة التحرير الوطني إما في الجزائر أو في كوبا. كان هناك مجموعة منهم هنا بالأمس وتحدثوا عن السفر، لا يهم إلى أي ثورة سينضمون، المهم أنها ثورة.

قلت لها إن زوجته لن تستحسن هذا الأمر، أجابتني: «لا، هذا هو ما قلته لتومي عندما واجهني بالأمر في عنف شديد ظانًّا أنني سأمنعه. قلت له إن زوجته الشابة هي من سيمنعه وليس أنا، وقلت له إنني أوافق على انضمامه إلى أي ثورة أيًّا كان مكانها لأن أحدًا منا لا يستطيع أن يتحمل الحياة التي نحياها. قال لي تومي إنني تشاؤمية للغاية، وبعد فترة اتصل بي ليقول إنه لن يتمكن من السفر للانضمام إلى المقاومة في الوقت الحالي لأنه سيلقي عدة محاضرات عن حياة العاملين بمناجم الفحم. آنا، هل أنا فقط من يحدث لها ذلك؟ أنا أشعر وكأنني أعيش داخل أحداث مسرحية هزلية غريبة.»

– لا لستِ وحدكِ يا مولي.

– أنا أعرف، وهذا ما يزيد الأمر سوءًا.

أغلقت الخط، وبدا لي أن الأرض التي تفصل بيني وبين الفراش تموج من تحتي، بدا لي أن الجدران تنتفخ ثم تطفو سابحة في الفضاء. وقفت لحظة وسط هذا الفضاء، فلم يعد هناك جدران تحيط بي، وكأنني أقف فوق أطلال بنايات مهدمة. عرفت أنني يجب أن أذهب إلى الفراش، لذا سرت بحذر فوق الأرض التي تموج من تحتي حتى وصلت إلى الفراش واستلقيت فوقه، ولكنني أنا، آنا، لم أكن هناك، ثم خلدت إلى النوم، ولكنني عرفت وعيناي تستسلمان إليه أن هذا لن يكون نومًا عاديًا؛ رأيت جسد آنا مستلقية على الفراش، في حين دخل إلى الغرفة أشخاص أعرفهم،

الواحد تلو الآخر، وقفوا عند حافة الفراش السفلية وبدا لي أنهم يحاولون أن يُدخلوا أنفسهم إلى جسد آنا. وقفت في أحد الأركان أراقب ما يحدث متلهفة على أن أعرف من الذي جاء دوره للدخول إلى غرفتي: دخلت ماريروز، فتاة جميلة شقراء تبتسم في أدب، ثم تبعها جورج هانسلو، والسيدة بوثبي وجيمي. هؤلاء وقفوا ونظروا إلى آنا ثم غادروا. عبر رأسي سؤال وأنا واقفة بركن من الأركان أشاهد ما يحدث: أي منهم ستقبله آنا؟ ثم اشتممت الخطر، فقد دخل بول، الذي كان ميتًا، إلى الغرفة، ورأيته يرسم على وجهه ابتسامته الجزلة الغامضة وهو ينحني فوق جسد آنا. اختفى بول بداخلها وأنا أصرخ في خوف وأشق طريقي إلى الفراش وسط مجموعة من الأشباح لا تبالي بما حدث، أشق طريقي إلى آنا، إلى نفسي. جاهدت حتى أنسل بداخلها مرة أخرى، كنت أقاوم موجات البرودة، البرودة القارصة. تجمدت أوصالي من فرط الصقيع، ولفت البرودة جسد آنا لأن بول الذي فارق الحياة يسكنه، بإمكاني أن أرى ابتسامته الجزلة الباردة على وجه آنا. تمكنت بعد صراع — كنت أقاتل فيه من أجل حياتي — من أن أتسلل مرة أخرى إلى داخل نفسي واستلقيت وسط البرودة التي أحاطت بي من كل مكان. عدت إلى ماشوبي في نومي، واتخذت الأشباح أماكنها من حولي وكأنها مجموعة من النجوم، وبول واحد من هؤلاء الأشباح. جلسنا تحت أشجار الكينا في ضوء القمر الخافت، تداعب الرائحة الحلوة للنبيذ المسكوب على الأرض أنوفنا ولمعت أضواء الفندق على الطريق. إنه حلم عاديّ وعرفت أنني نجوت من التدهور الذي من الممكن أن أنحدر إليه إذ باستطاعتي أن أشاهد مثل هذا الحلم. وخبا الحلم وسط طيات آلام الحنين المزيفة، وقلت لنفسي وأنا نائمة: أمسكي بنفسكِ ولا تدعيها تتناثر متبعثرة، بإمكانكِ أن تفعلي ذلك إذا أحضرت الدفتر الأزرق وكتبت به. شعرت بارتخاء في عضلات يدي التي تسربت إليها البرودة ولم أستطع أن أمدها لكي أمسك بالقلم، وبدلًا من القلم أمسكت ببندقية، ولم أعد آنا، ولكن أصبحت جنديًا. شعرت بالزي العسكري فوق جسدي ولكنني لم أعرف أي زي أرتدي؛ كنت أقف في هواء الليل البارد في أحد الأماكن، ومن خلفي مجموعات من الجنود يتحركون بهدوء وهم يحضرون طعامهم، بإمكاني أن أسمع صلصلة الأشياء المعدنية وبعضها يحتك ببعض وأصوات البنادق تُجمع معًا. في إحدى النقاط أمامي رأيت العدو، ولكنني لم أكن أعرف من يكون العدو، وما قضيتي. رأيت بشرتي سمراء اللون، فظننت في البداية أنني من الأفارقة أو الزنوج، ثم رأيت شعري الداكن يلمع فوق ساعدي البرونزي الذي تطل منه بندقية انعكس عليها ضوء القمر المتلألئ، فعرفت أنني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقف على إحدى منحدرات التلال في الجزائر وأنني جندي جزائري أحارب الفرنسيين. ولكن بداخل رأس هذا الرجل عقل آنا هو الذي يفكر، وهذه هي خواطرها: نعم، سيكون عليَّ أن أقتل، أو حتى أعذب الآخرين لأنني مضطر إلى ذلك، ولكنني لست مؤمنًا بذلك، لأنه لم يعد من الممكن أن ننظم الصفوف ونحارب ونقتل من دون أن نعرف أن هناك طغيانًا جديدًا سينشأ من ذلك، ومع ذلك يضطر المرء إلى أن ينظم الصفوف ويحارب. ثم خبا عقل آنا مثلما يخبو ضوء الشمعة، وأصبحت الجندي الجزائري الممتلئ باليقين وبالشجاعة التي يخلفها هذا اليقين. يتسلل الرعب إلى الحلم لأن حالة آنا تصبح مهددة مرة أخرى بالتدهور التام. أخرجني هذا الرعب من الحلم، لم أعد هذا الجندي المسئول عن الحراسة الذي يقف تحت ضوء القمر مع مجموعات من زملائه الذين يتحركون من خلفه بين النيران التي تطهى عليها وجبة المساء. قفزت من فوق أرض الجزائر الجافة التي لفحتها الشمس طيلة النهار وسبحت في الهواء. هذا هو حلم الطيران، لم يراودني ذلك الحلم منذ وقت طويل. كدت أبكي من الفرحة لأنني عدت أطير مرة أخرى. جوهر هذا الحلم هو الفرحة، الفرحة التي يخلفها شعوري بالانطلاق وأنا أتحرك بخفة في الهواء. حلقت عاليًا في السماء فوق البحر المتوسط، وعرفت أنه بإمكاني أن أذهب إلى أي مكان. كنت أريد أن أذهب إلى الشرق، إلى آسيا، أرغب في أن أزور ذلك المُزارع. أحلق عاليًا من فوق الجبال والبحار، أخطو بقدميّ فوق الهواء في سهولة. مررت فوق جبال عظيمة ومن تحتي الصين. قلت في حلمي: أنا موجودة هنا لأنني أريد أن أكون مزارعة وسط المزارعين الآخرين.

طرت على ارتفاع منخفض فوق إحدى القرى ورأيت المزارعين يعملون في الحقول، يعملون بعزم فولاذي مما جذبني إليهم. أمرت قدمي أن تجعلاني أهبط برفق إلى الأرض، الفرحة التي خلفها هذا الحلم أقوى من أي شعور مماثل أحسست به من قبل، إنها الفرحة بالحرية والانطلاق. هبطت فوق أرض الصين العريقة، واحدة من المزارعات تقف عند باب كوخها، اتجهت إليها، ومثلما كان بول يقف منحنيًا فوق آنا النائمة بفراشها منذ وقت قصير، يريد أن يسكنها، أن يكون هي، وقفت أنا بجانب هذه المزارعة، أريد أن أسكنها، أن أكون هي، ولم يكن ذلك شيئًا صعبًا؛ إنها حامل في سن الشباب، ولكن جهد العمل حولها إلى عجوز. ثم أدركت أن عقل آنا لا يزال بداخلها، هناك أفكار آلية تجتاز عقلي صنفتها على أنها «تقدمية وليبرالية» أفكار بشأن وضعها الذي وصلت إليه، وأثر هذه الحركة، أو تلك الحرب، أو هذه

التجربة، على تكوينها. «سميتها» من خلال شخصية أخرى غريبة. ثم بدأت فتيلة عقلها ترتعش وتخبو مثلما حدث عندما كانت فوق منحدر التل بالجزائر. «لا تدعي الخوف من الذوبان يجعلك تهربين خوفًا هذه المرة، تماسكي.» هكذا قلت. ولكن الإحساس بالرعب قويّ للغاية، حتى إنه دفعني خارج جسد هذه المزارعة، ووقفت بجانبها أشاهدها وهي تمشي عبر الحقل لتلحق بمجموعة من الرجال والنساء يعملون به، ويرتدون زيًّا موحدًا، ولكن الرعب الذي شعرت به سحق إحساسي بالفرحة، ولن أستطيع أن أحلق في الهواء مرة أخرى. ظللت أخطو بقدمي على الأرض في هياج محاولة أن أرتفع في الهواء وأطير فوق الجبال السوداء التي تفصلني عن أوروبا. رأيت هذه الجبال، التي بدت لي من النقطة التي كنت أقف بها مثل إطار زخرفي رفيع يحيط بالقارة الضخمة، مثل سياج يحيط بمنطقة موبوءة سأعود إليها مرة أخرى، ولكنني لم أستطع أن أطير في الهواء، ولم أستطع أن أترك الأرض التي يعمل الفلاحون بها، فأيقظني الخوف من أن أعلق بها. أوشك المساء على الحلول عندما استيقظت، وكانت الغرفة معتمة للغاية وترامى إلى سمعي ضجيج السيارات المارة بالطريق. استيقظت وأنا شخص غيرته تجربة تحوله إلى أشخاص آخرين. لم أهتم بآنا، لم أرغب في أن أكون آنا، أصبحت آنا بدافع من شعور ملح بالواجب، وكأنني أضع على جسدي رداءً ملطخًا بالوحل.

ثم نهضت وأضأت الأنوار وسمعت صوت حركة بالدور العلوي فعرفت أن سول عاد، ما إن سمعته حتى شعرت بتقلص في معدتي، وعدت مرة أخرى إلى آنا المريضة التي تفتقر إلى الإرادة.

ناديت عليه فأجابني من الدور العلوي، كان صوته مرحًا وتلاشى القلق الذي شعرت به. نزل سول من الأعلى فعاد إليّ القلق فقد تعمد أن يرسم على وجهه ابتسامة غامضة، وتساءلت ترى أي دور يقوم به سول؟ جلس على فراشي وأمسك بيدي وأخذ ينظر فيها متعمدًا أن يظهر إعجابًا غير مألوف، فعرفت أنه يقارنها بيد امرأة أخرى تركها لتوه، أو بيد امرأة يريدني أن أصدق أنه تركها لتوه. قال لي: «أظن أنني أحب طلاء أظافرك أكثر.» أجبته: «ولكنني لا أضع طلاء على أظافري.» قال لي: «حسنًا إذا وضعته فسأحبه أكثر غالبًا.» جعل يقلب يدي وينظر إليها ومعالم الاندهاش الممزوج بالفرحة تطل من وجهه، ويرقبني ليرى رد فعلي تجاه هذه المعالم المرتسمة على وجهه. سحبت يدي من يده، فقال لي: «أظن أنكِ ستسألينني أين كنت.» لم أقل شيئًا، فاستطرد: «إذا كنتِ لا تريدينني أن أكذب عليكِ فلا تسأليني عن شيء.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بقيت صامتة. شعرت أنني أغرق وسط رمال متحركة أو أن أحدًا يدفع بي فوق سير نقال سيحملني إلى آلة سحق. ابتعدت عنه واتجهت إلى النافذة، قطرات المطر اللامعة تتساقط في الظلام والأسطح مبتلة ومظلمة، والرياح الباردة تقرع ألواح النافذة الزجاجية.

تبعني سول ولف ذراعيه حولي وأمسك بي. كان يبتسم، كان رجلًا يعي جيدًا تأثيره في النساء ويرى نفسه داخل هذا الدور. يرتدي سترته الزرقاء الضيقة طاويًا أكمامها إلى الأعلى. رأيت شعره الفاتح يلمع فوق ساعديه. نظر إلى عينيّ وقال: «أقسم لكِ أنني لا أكذب، أقسم لكِ، أقسم لكِ. أقسم لكِ إنني لم أضاجع امرأة أخرى.» كان صوته مفعمًا بالانفعال المبالغ فيه، وعيناه مثبتتين عليّ في محاولة منه لارتداء قناع الانفعال.

لم أصدقه – لكن آنا التي كانت بين ذراعيه صدقته – حتى وأنا أرقب كلينا وكل منا يمثل دوره عاجزة عن أن أصدق أننا نستطيع أن نقوم بذلك. ثم قبلني سول، وفي اللحظة التي تجاوبت فيها معه ابتعد عني وسألني ذلك السؤال الذي سأله من قبل، بلهجته الحانقة المعهودة في مثل هذه اللحظات: «لماذا لا تتعاركين معي؟ لمَ لا تتعاركين؟» وظللت أجيبه: «ولماذا يكون عليّ أن أدخل في عراك؟ ولمَ تدخل أنت في عراك؟» قلت له هذا الكلام من قبل، وفعلنا كل ذلك من قبل، ثم أمسك سول بيدي وقادني إلى الفراش وضاجعني. لدي شغف أن أعرف من التي يضاجعها سول، أعرف أنه لم يكن يضاجعني أنا. بدا لي أن هذه المرأة الأخرى تحتاج إلى النصح والتشجيع أثناء المضاجعة، ولم تكن امرأة ناضجة، فسول يضاجع امرأة تفتقر إلى النضوج؛ ثدياها صغيران، ويداها غاية في الجمال. ثم قال سول فجأة: «نعم، سوف ننجب طفلًا، أنتِ على حق.» عندما انتهى الأمر تدحرج على الفراش مبتعدًا عني وهو يلهث وصاح: «يا إلهي، ستكون هذه هي النهاية، ولادة طفل، سوف تقضين عليّ.» قلت له: «لست أنا من عرضت عليك أن أنجب لك طفلًا، بل آنا.» رفع رأسه لينظر إليَّ ثم ألقى بها على الفراش مرة أخرى وضحك: «إذن هي آنا.»

ذهبت إلى الحمام وتقيأت، وعندما عدت قلت له: «يجب أن أخلد إلى النوم.» ابتعدت عنه وذهبت للنوم حتى أتحاشاه.

ولكنني اقتربت منه وأنا نائمة، في تلك الليلة راودني حلم؛ كنت أمثل الأدوار، الواحد تلو الآخر، قبالة سول الذي يلعب أدوارًا مختلفة. بدا الأمر كأننا نمثل مسرحية تتغير كلماتها طوال الوقت، وكأن المؤلف كتب هذه المسرحية مرات ومرات، ولكن

مع تغيير بسيط في كل مرة. لعبنا كل الأدوار التي يمكن أن يلعبها رجل وامرأة معًا، وفي نهاية كل جولة من جولات هذا الحلم أقول: «حسنًا، لقد مررت بذلك الأمر، أليس كذلك؟ فعلت ذلك ذات مرة.» الأمر يبدو وكأنني عشت مائة حياة، وأدهشني ذلك الكم من الأدوار النسائية التي لم أقم بها في حياتي، أو رفضت أن أقوم بها، أو لم تعرض عليّ، حتى وأنا نائمة عرفت أنه حُكم عليَّ أن ألعب هذه الأدوار الآن لأنني رفضت أن ألعبها في حياتي.

استيقظت في الصباح وأنا بجانب سول، جسده بارد وعليّ أن أدفئه. عدت إلى نفسي كما عهدتها، وملأني الشعور بالقوة. اتجهت مباشرة إلى الطاولة ذات القوائم الخشبية وأخرجت هذا الدفتر. جلست أكتب لفترة طويلة قبل أن يستيقظ سول، لا بد أنه كان مستيقظًا يرقبني لفترة قبل أن أراه. قال لي: «بدلًا من أن تسجلي خطاياي في دفتر يومياتكِ لمَ لا تكتبين رواية أخرى؟»

أجبته: «يمكنني أن أعطيك ألف سبب لعدم كتابة رواية أخرى، يمكنني أن أتحدث عن هذا الموضوع لساعات، ولكن السبب الحقيقي هو أنني أعاني انقطاع الإلهام، هذا كل ما في الأمر. وهذه أول مرة أعترف فيها بذلك.»

قال وهو يميل برأسه جانبًا ويبتسم في ود: «ربما.» رأيت الود الذي يطل من ابتسامته وبعث في نفسي شعورًا بالدفء، ثم رددت عليه بابتسامة، تلاشت ابتسامته واعتلت أمارات الحنق وجهه وقال بلهجة مفعمة بالقوة: «أكاد أفقد عقلي لأنني أعرف أنكِ تجلسين هنا تكتبين الكلمة تلو الأخرى في دفاترك.»

– الكل يعرف أنه ليس بإمكان اثنين من الكتاب أن يعيشا معًا، أو بالأحرى ليس على رجل أمريكي يتوق إلى الوصول دون غيره إلى النجاح أن يكون بصحبة مؤلفة لأحد الكتب.

قال سول: «هذا صحيح، إنه اختبار لتفوقي كرجل، هذه ليست مزحة.»

– أنا أعرف أنها ليست كذلك، ولكن أرجوك لا تلق عليّ أي محاضرة اشتراكية رنانة عن المساواة بين الرجل والمرأة.

– ربما ألقي عليكِ المحاضرات الرنانة لأنني أستمتع بذلك، ولكنني لا أؤمن بهذه المحاضرات. إن الحقيقة هي أنني ناقم عليكِ لأنكِ ألفت كتابًا ولاقى نجاحًا. وقد توصلت إلى استنتاج وهو أنني دائمًا كنت شخصًا منافقًا، وأنا أستمتع في الواقع بوجودي في مجتمع تعامل فيه النساء على أنهن مواطنات من الدرجة الثانية، وأستمتع بوجودي في مواقع السيطرة وأحب أن أسمع إطراء الآخرين لي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت له: «جيد، لأنه يجب أن يكون رفقاؤنا رجالًا لا يتسمون على الأقل بالنفاق، ونحن نعيش في مجتمع لا يوجد فيه رجل واحد من بين كل عشرة آلاف رجل بدأ يفهم الطرق التي تعامل بها النساء كمواطنات من الدرجة الثانية.»

– والآن بعد أن حسمنا هذا الأمر، لتعدي لي بعض القهوة، فهذا هو دورِكِ في الحياة.

– بكل سرور.

تناولنا الإفطار في جو من المرح وكل منا يشعر بالود تجاه الآخر.

بعدما انتهى الإفطار تناولت سلة التسوق وتمشيت على طريق إيرلز كورت. استمتعت بشراء الطعام والبضائع من البقالة، وكنت سعيدة لأنني سأطهو له الطعام بعد قليل، ولكنني كنت حزينة في الوقت ذاته لأنني أعرف أن هذا الوضع لن يستمر طويلًا، وحادثتني نفسي بأن سول سيرحل قريبًا وحينها سينقضي هذا الأمر، سيخبو هذا الشعور بالمتعة التي يخلفها الاعتناء بأمور رجل ورعايته. كنت مستعدة للعودة إلى المنزل، ولكنني وقفت عند ناصية الشارع تحت قطرات المطر الرمادية الخفيفة ومن حولي المظلات المرتفعة فوق الرؤوس والأجسام المتدافعة، وتساءلت ما الذي يدعوني إلى الوقوف هنا. ثم مشيت عبر الشارع ودلفت إلى محل يبيع أدوات مكتبية وذهبت إلى طاولة عرض وُضع فوقها عدد كبير من الدفاتر، هناك دفاتر تشبه دفاتري الأربع، ولكن لم يكن ذلك ما أريده. وقع بصري على دفتر كبير ممتلئ بالورق، سعره مرتفع قليلًا، فتحته، ورقه من نوعية جيدة، أبيض وسميك وبلا سطور، وملمس الورق لذيذ، فمع أنه خشن شيئًا ما فقد كان له ملمس ناعم مثل الحرير، والدفتر مجلد بغلاف مقوى لونه ذهبي غير لامع. لم أر من قبل دفترًا مثل هذا، سألت البائعة عن الغرض من تصنيعه، فقالت لي إن زبونًا أمريكيًّا طلب تصنيعه خصيصًا، ولكنه لم يعد ليأخذه، دفع هذا الرجل جزءًا من ثمنه ولذا لم يكن الدفتر باهظ الثمن كما توقعت، ولكن سعره مع ذلك مرتفع، ولكنني رغبت فيه فاشتريته وأحضرته معي إلى المنزل. أشعر بلذة حينما أتحسسه وأنظر إليه، ولكنني لا أعرف ماذا سأفعل به.

دلف سول إلى غرفتي وأخذ يطوف في أرجائها خلسة قلقًا مثل حيوان يتربص بفريسته، ثم وقع بصره على الدفتر الجديد فانقض عليه، وقال لي: «يا له من دفتر جميل، ماذا ستفعلين به؟»

– لم أقرر بعد.

قال لي: «إذن أنا أريده.» كنت على وشك أن أقول له: «لا بأس، يمكنك أن تأخذه.» وأنا أرقب رغبة تعتمل في نفسي بأن أفجر شيئًا مثل نافورة المياه التي يدفع بها الحوت من رأسه. كنت مستاءة من نفسي لأنني كنت أريده ومع ذلك أنا على وشك أن أعطيه له. عرفت أن هذه الرغبة في الإذعان جزء من دورة الانحراف الجنسي التي نعيش بداخلها. قلت له: «لا، لا يمكنك أن تأخذه.» عانيت معاناة شديدة لأتمكن من أن أقول له ذلك حتى إنني تلعثمت. أمسك بالدفتر وقال وهو يضحك: «أعطه لي، أعطه لي، أعطه لي.» قلت له: «لا.» توقع سول أنني سأعطيه الدفتر لأنه حول طلبه إلى مزحة. يقف الآن وهو ينظر إليّ بركن عينه ويتمتم مثل طفل صغير من دون أن يضحك: أعطه لي، أعطه لي، أعطه لي. أصبح طفلًا، رأيت كيف دخلت هذه الشخصية الجديدة، أو بالأحرى الشخصية القديمة، إلى نفسه وكأنها حيوان يدخل إلى الأدغال. تقوس جسده وانحنى وأصبح مثل قوس لإطلاق الرماح، وبدا وجهه — الذي تبدو عليه معالم الفطنة والتشكك وتعلوه أمارات الانشراح عندما يكون هو «نفسه» — مثل وجه قاتل صغير. استدار مسرعًا وهو يمسك بالدفتر استعدادًا لأن يجري نحو الباب (١٩*) وقد رأيته في وضوح، طفلًا من أطفال العشوائيات، فردًا ضمن إحدى عصابات أطفال العشوائيات، يرفع شيئًا من فوق طاولة عرض بإحدى المتاجر، أو يركض هاربًا من الشرطة. قلت له كما لو كنت أتحدث إلى طفل صغير: «لا يمكنك أن تأخذ الدفتر.» وعاد سول إلى نفسه، رويدًا رويدًا، تغادره كل مشاعر التوتر، ترك الدفتر وعاد إلى سابق انشراحه، بل وبدا ممتنًا. فكرت كم يبدو غريبًا أن يحتاج سول إلى تلك السلطة التي يمتلكها شخص يمكنه أن يقول لا، ومع ذلك انعطف به الطريق إلى حياتي أنا التي أجد صعوبة شديدة في أن أقول لا، لأنني الآن عندما قلت لا وترك الكتاب وكل ذرة في كيانه يطل منها الشعور بالحرمان الذي يداخل طفلًا صغيرًا حُرم شيئًا هو في أمس الحاجة إليه، انتابتني الصدمة، وددت أن أقول له: أرجوك خذها، إنها ليست مهمة. ولكنني لم أستطع أن أقول ذلك الآن، وشعرت بالرعب من أن هذا الشيء الذي لا قيمة له، هذا الدفتر الجديد الأنيق أصبح جزءًا من عراكنا معًا بمثل هذه السرعة.

وقف لبرهة لدى الباب، يبدو بائسًا، راقبته وهو يشد عوده، وأدركت كم مرة كان عليه وهو طفل صغير أن يشد عوده ويشمر عن ساعديه و«يضع الأمر في جعبته» فقد أخبرني أنه هكذا يجب أن يتصرف أي شخص عندما يقع في مشكلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم قال لي سول: «سوف أصعد إلى غرفتي وأعمل.» صعد السلم في بطء ولكنه لم يعمل، فقد سمعت وقع خطواته وهو يمشي متسللًا على السلم. بدأت موجة التوتر تعمل مرة أخرى، مع أنني ظللت بعيدة عنها بضع ساعات. أخذت أرقب الألم وهو يغرز سهامه بمعدتي وينشب أظافره بعضلات رقبتي وأسفل ظهري. عادت آنا المريضة وسكنت بداخلي. عرفت أن صوت الخطوات المتسللة بالدور العلوي هو الذي استدعاها. أدرت أسطوانة لأرمسترونج ولكن ذلك المرح البسيط الذي أطل من الموسيقى كان بعيدًا عني للغاية، فغيرتها وأدرت أسطوانة لموليجان ولكن مشاعر الرثاء للنفس التي تنبع منها بدت كأنها صوت الاعتلال والمرض اللذين يسكنان شقتي. أوقفت الأسطوانة وأخذت هذه الأفكار تعبر رأسي: سوف تعود جانيت قريبًا إلى المنزل، يجب أن أنهي هذا الأمر، يجب أن أتوقف.

الجو اليوم بارد ولم تشرق شمس الشتاء بعد. تهطل الأمطار الآن بالخارج، الستائر مسدلة على النوافذ وموقدا الكيروسين كلاهما مشعلان. أظلمت الغرفة وانبعثت من الموقدين أضواء حمراء وذهبية تومض برقة على السقف، وأصبحت مدفأة الغاز كتلة من الوهج الأحمر لم تفلح قوته في اختراق البرودة إلا في البوصات القليلة المحيطة بشبكة المدفأة.

جلست أنظر إلى الدفتر الجديد الأنيق، وأقلبه بين يديّ في إعجاب. كتب سول في طليعته بالقلم الرصاص، دون أن أراه، أمنية شريرة مثل تلك التي اعتاد على كتابتها أطفال المدارس:

فلتحل اللعنة على كل من يطالع هذا الدفتر ....
سول جرين، كتابه (!!!)

أضحكتني كلماته، حتى إنني كنت على وشك أن أصعد إلى غرفته وأعطيه الدفتر، ولكنني لن أفعل ذلك، لن أفعل ذلك، لن أفعل ذلك. سأضع الدفتر الأزرق جانبًا مع الدفاتر الأخرى، سأنحي الدفاتر الأربع جانبًا وأبدأ في الكتابة في دفتر جديد، سأدون كل ما يتعلق بي في دفتر واحد.

[ينتهي الدفتر الأزرق هنا بخطين أسودين ثقيلين.]

الدفتر الذهبي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدفتر الذهبي

فلتحل اللعنة على كل من يطالع هذا الدفتر
سول جرين، كتابه (!!!)

يسود الظلام هذه الشقة، يحكم قبضته عليها، وكأنه جسد يشع برودة. أخذت أجوب أنحاء الشقة، أضيء الأنوار في كل مكان، فتقهقر الظلام إلى خارج النوافذ وكأنه جسد بارد يحاول أن يشق طريقه، ولكن عندما أضأت نور غرفتي الكبيرة — كنت أعرف أن هذا التصرف ليس سليمًا — بدا الضوء غريبًا عليها، ولذا تركت الظلام يعود إليها يطوقه الضوء المنبعث من موقدي الكيروسين والوهج الذي يطل من مدفأة الغاز. استلقيت على ظهري أفكر في الكرة الأرضية الصغيرة التي يسود الظلام البارد نصفها وهي عالقة تتأرجح وسط غيابات الفضاء المظلم. بعدها بقليل أتى سول واستلقى بجانبي وقال لي: «هذه حجرة خارقة للعادة، إنها تبدو مثل عالم من العوالم.» كان ذراعه المفرود تحت رقبتي قويًّا ودافئًا. وضاجعني سول، ثم خلد إلى النوم وعندما استيقظ كان جسده دافئًا وليس كالأموات تشع منه البرودة التي تخيفني. ثم قال: «حسنًا، الآن أستطيع أن أعمل.» كانت نبرة الأنانية المطلة من صوته مباشرة للغاية، مثلي تمامًا عندما أحتاج إلى شيء ما، فبدأت أضحك، ثم ضحك سول، ولم يستطع أي منا أن يوقف نفسه. ارتمينا على الفراش وقد انخرطنا في نوبة من الضحك، ثم تدحرجنا على الأرض ونحن نضحك. ثم قفز سول من الأرض وهو يقول بصوت إنجليزي متزمت: «إن ذلك لن يجدي نفعًا، لن يجدي نفعًا على الإطلاق.» ثم خرج من الغرفة وهو لا يزال يضحك.

لقد غادر الشياطين المنزل، هكذا حادثتني نفسي وأنا أجلس على فراشي بلا ملابس، تدفئني الحرارة المنبعثة من الموقدين والمدفأة. إنهم الشياطين، وكأن الخوف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والذعر والقلق لا يسكنوني، ولا يسكنون سول، ولكن يكمنون داخل قوة خارجية هي التي تقرر متى تظهر ومتى تختفي. خدعت نفسي بهذه الخواطر لأنني بحاجة إلى هذه اللحظة من السعادة الخالصة، اللحظة التي أجلس فيها أنا، آنا، على فراشي بلا ملابس أشعر بنهديّ بين ذراعيّ العاريين وتنبعث مني رائحة الفراش والعرق. بدا لي أن تلك القوة المنبعثة من السعادة التي تملأ جسدي والتي يلفها الدفء يمكنها أن تزيح كل مشاعر الخوف الموجودة على الأرض. ثم ترامى إلى سمعي مرة أخرى وقع خطوات القدمين اللتين تتحركان حركة قوية من فوقي متنقلتين من مكان إلى آخر وكأنهما جيوش زاحفة. تقلصت معدتي وتلاشت أمام ناظري السعادة التي شعرت بها، وانتقلت على الفور إلى حالة جديدة، غريبة عليّ. أدركت أنني أنفر من جسدي. لم يحدث أن انتابتني مثل تلك الحالة من قبل، وحادثتني نفسي بأن هذه حالة غير معهودة قرأت عنها في السابق. تذكرت أن نيلسون قال لي ذات مرة إنه في بعض الأحيان يشعر بالنفور من جسد زوجته عندما ينظر إليه بسبب طبيعته الأنثوية، يكره ذلك الشعر الذي يغطي الإبطين والعانة. قال لي إنه في بعض الأحيان ينظر إلى زوجته فيراها مثل العنكبوت تمتد أذرعه وأرجله في كل مكان من حول فمه المشعر الذي يفتحه ليلتهم فريسته. جلست على فراشي ونظرت إلى ساقي البيضاوين النحيلين وذراعيّ البيضاوين النحيلين وثدييّ، وبدا لي ذلك الجزء اللزج في منتصف جسدي منفرًا، وعندما رأيت ثدييّ كل ما استطعت أن أفكر فيه هو شكلهما عندما كانا ممتلئين بالحليب، وبدلًا من أن أشعر بالانشراح شعرت بالنفور. هذا الشعور بأنني غريبة على جسدي جعل رأسي تدور، حتى استطعت أن أثبت نفسي متعلقة بفكرة عبرت رأسي، وهي أن ما ينتابني الآن ليس نابعًا من «فكري» على الإطلاق، فأنا لأول مرة أمر في مخيلتي بالمشاعر التي تنتاب الشواذ، لأول مرة يبدو لي ذلك النفور الذي ينتاب الشواذ ذا معنى. أدركت كم تسبح المشاعر المرتبطة بالشذوذ بلا أي رابط في كل مكان، وبداخل الأشخاص الذين لم ينظروا قط إلى تلك الكلمة على أنها تخصهم.

توقف وقع الخطوات الآتي من أعلى. لم أستطع أن أتحرك، فقد أحكم ذلك النفور الذي انتابني قبضته عليّ. عرفت أن سول سيهبط من غرفته ويقول شيئًا يعبر عما كنت أفكر فيه. وأدركت هذا الأمر جيدًا حتى إنني جلست أنتظر سول وكلي ازدراء لنفسي مثل الهواء الفاسد، كنت أنتظر أن أسمع كيف سيبدو هذا الشعور بالازدراء عندما ينطق به صوته، الذي هو صوتي. نزل من الطابق العلوي ووقف بمدخل

غرفتي وقال: «يا إلهي، ماذا تفعلين يا آنا وأنت تجلسين هكذا بلا ثياب؟» قلت له وكأنني شخص ثالث يحلل الموقف من بعيد: «هل تدرك يا سول أننا وصلنا إلى المرحلة التي يؤثر فيها كل منا على حالة الآخر المزاجية حتى وإن كنا نجلس بغرفتين مختلفتين؟» كانت غرفتي مظلمة للغاية، فلم أستطع أن أرى تعبيرات وجهه، ولكن جسده الذي يقف متحفزًا لدى الباب بدا كأنه يريد أن يهرب، أن يفر من آنا المنفرة التي تجلس على فراشها بلا ثياب. قال بلهجة فتى مبهوت مما يرى: «فلتضعي شيئًا من الثياب.» سألته: «هل سمعت ما قلت لك؟» فهو لم يسمع. رد عليّ: «آنا، قلت لكِ لا تجلسي هكذا.» قلت له: «ماذا تظن هذا الشيء الذي يجعل أشخاصًا مثلنا مضطرين إلى تجربة كل شيء؟ إن هناك شيئًا يدفعنا إلى أن نكون أكبر عدد من الأشياء والأشخاص يمكن أن نكونه.» سمع سول هذه الكلمات الأخيرة وقال: «لا أعرف، ولست مضطرًا لأن أحاول، هكذا أنا.» أجبته: «أنا لا أحاول، أنا مُسَيَّرة في هذا الاتجاه، هل تظن أن من عاشوا قبلنا كانوا يتعذبون بالتجارب التي لم يخوضوها؟ أم أنا وأنت فقط اللذان يحدث لهما ذلك؟» قال في حنق: «أنا لا أعرف يا امرأة ولا يعنيني أن أعرف، كل ما أتمناه هو أن أنجو من ذلك.» ثم قال لي بلهجة ودودة ليست نابعة من شعوره بالازدراء: «هل تعرفين إلى أي حد الجو بارد يا آنا؟ سوف تمرضين إذا لم تضعي ثيابك. أنا ذاهب.» ذهب سول، وانقشع شعوري بالازدراء تجاه نفسي مع وقع خطواته وهو يهبط السلم. جلست على الفراش مستمتعة بجسدي، حتى إن تلك الثنية الجافة الموجودة بجانب فخذي — وهي علامة على بدء مرحلة التقدم في العمر — كانت تدخل البهجة إلى نفسي. قلت لنفسي: نعم، كنت سعيدة جدًّا في حياتي، ويجب ألّا أهتم بفكرة التقدم في العمر، ولكن الطمأنينة تسربت من نفسي وأنا أقول تلك الكلمات وعاد الشعور بالازدراء إليّ. وقفت في منتصف الغرفة الكبيرة بلا ثياب وسمحت لموجات الحرارة المنبعثة من الموقدين والمدفأة أن ترتطم بجسدي، وأدركت شيئًا كنت أعرفه ولكن لم أفطن إليه من قبل، وكأن الغشاوة انقشعت من أمام عينيّ، فأبصرت الضوء، أدركت أن سلامة العقل ترتكز على هذا المبدأ: أن المرء يجب أن يشعر بالسعادة عندما يحس بملمس البساط الخشن تحت باطني قدميه الناعمين، ويجب أن يجد متعة في الشعور بالحرارة وهي تلفح بشرته، ويجب أن تغمره البهجة وهو يقف معتدلًا، مدركًا أن عظامه تتحرك بسلاسة تحت عضلاته. وإذا اختفى هذا الشعور تختفي القناعة بالحياة. ولكنني لم أشعر بأي من هذه الأحاسيس. بدا لي ملمس البساط بغيضًا، شيئًا صناعيًّا بلا حياة، وكان جسدي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نحيلًا وهزيلًا، مثل نوع من الخضراوات ذات الأشواك، أو مثل نبات لا يصل ضوء الشمس إلى أوراقه، وعندما تحسست شعر رأسي وجدته ميتًا بلا حياة. شعرت أن الأرض تموج من تحتي، وبدا لي أن الجدران من حولي تتراقص. عرفت أنني أنحدر نحو بعد جديد، يبعدني عن سلامة العقل أكثر من أي وقت مضى. عرفت أن عليّ أن أذهب إلى الفراش سريعًا، ولكنني لم أستطع أن أمشي، فخررت مستندة على كفيّ وركبتيّ وزحفت حتى وصلت إلى الفراش واستلقيت عليه وغطيت نفسي، كنت بلا حول ولا قوة. تذكرت وأنا أستلقي على الفراش آنا التي تُخضع الأحلام لإرادتها، والوقت لسيطرتها، آنا التي تتحرك بسهولة وثقة في العالم الذي تهيم فيه أرواح النائمين. تحولت بقع الضوء المنعكسة على السقف إلى عينين ضخمتين مفتوحتين عن آخرهما، عينيّ حيوان يرقبني، إنه نمر يستلقي باسطًا أرجله فوق السقف. صرت مثل طفل صغير «يعرف» أن بالغرفة نمرًا، حتى وإن كان عقلي يقول لي إنه لا يوجد شيء. من خلف الجدار ذي النوافذ الثلاثة هبت رياح باردة جعلت الألواح الزجاجية تهتز، وتخلل ضوء الشتاء الستائر. أصبحت الستائر جزلًا من اللحم المتعفن خبيث الرائحة تركها الحيوان المتمدد فوق السقف بعد أن أخذ حاجته منها. وأدركت أنني أرقد في قفص يمكن أن يقفز داخله هذا الحيوان وقتما يشاء. جعلتني رائحة اللحم المتعفن والرائحة الكريهة التي تفوح من النمر والخوف الذي تملكني أشعر برغبة في التقيؤ، ورحت في النوم وأنا أشعر بغثيان في معدتي.

نمت كما أنام عندما أكون مريضة، نومًا خفيفًا للغاية، وكأنني أستلقي أسفل سطح الماء مباشرة ومن تحتي طبقات بلا نهاية من النوم الحقيقي. ولذا ظللت طوال الوقت منتبهة لكوني مستلقية فوق الفراش، وأفكر في وضوح فائق، لكن الأمر لم يكن يشبه تلك المرة التي وقفت فيها، أثناء أحد أحلامي، بركن من أركان الغرفة ورأيت آنا وهي نائمة والشخصيات الأخرى تنحني فوقها لتقتحم جسدها. كنت أنا نفسي، لم أكن أحدًا آخر، ولكنني أدركت ما أفكر فيه ووعيت ما يراودني بالحلم، ولذا كانت هناك شخصية أخرى غير آنا النائمة على الفراش، ولكنني لم أعرف من تكون. كان صاحب هذه الشخصية معنيًّا بحماية آنا من التعرض لحالة من التدهور.

كنت مستلقية على سطح المياه في بحر الأحلام، وأخذت أغوص تحتها في بطء شديد، في هذه اللحظة قال لي هذا الشخص: «أنتِ تكفرين بكل ما آمنتِ به يا آنا، أنتِ غارقة في ذاتِك، في شخصكِ، وفي احتياجاتكِ.» ولكن آنا التي ودت لو تنزلق تحت

المياه المظلمة لم تجبه، فاستطرد هذا الشخص الذي يتكلم بحيادية: «كنتِ دائمًا تظنين أنكِ امرأة قوية، ولكن هذا الرجل أشجع منكِ ألف مرة ... كان عليه أن يقاوم هذا الأمر لسنوات، ولكنكِ مستعدة للاستسلام تمامًا بعد بضعة أسابيع.» ولكن آنا النائمة انزلقت بالفعل تحت سطح المياه مباشرة، يتهادى جسدها المستلقي فيها وتراودها الرغبة في أن تغوص في الأعماق المظلمة من تحتها. استحثها هذا الشخص بقوله: «فلتقاومي، فلتقاومي، فلتقاومي.» استلقيت تحت المياه وأنا أتهادى، وصمت الصوت الذي يحدثني، ثم أدركت أن الأعماق من تحتي أصبحت مكانًا خطيرًا ممتلئًا بالوحوش والتماسيح وبأشياء أخرى لم أستطع أن أتخيلها، فهي موغلة في القدم وبالغة الوحشية، ولكن الخطر الذي تشكله هو ما يجذبني إلى الأسفل، لقد رغبت في الذهاب إلى ذلك الخطر. ثم ترامى إلى أذنيّ من خلال المياه التي كادت تصمهما هذا الصوت الذي يحادثني وهو يقول: «قاومي، قاومي، قاومي.» اكتشفت أن المياه بالأسفل لم تكن عميقة على الإطلاق، لم تكن سوى طبقة رفيعة من المياه الآسنة بقاع قفص قذر. ومن فوقي، أعلى سطح القفص، يتمدد النمر باسطًا أرجله. أتاني الصوت: «آنا أنتِ تعرفين كيف تطيرين، فلتطيري يا آنا.» زحفت زحفًا بطيئًا، وكأنني امرأة ثملة، أجثو على ركبتيّ وسط المياه القذرة، ثم وقفت وحاولت أن أطير محاولة أن أخطو بقدميّ في الهواء الفاسد. كان الأمر بالغ الصعوبة حتى إنني كدت أن أفقد وعيي، ولم تكن طبقة الهواء الرفيعة للغاية لتحملني. ولكنني تذكرت كيف حلقت في الهواء من قبل، فجاهدت بكل قوتي محاولة أن أقاوم أي خطوة تدفعني إلى الأسفل، وارتفعت في الهواء وأمسكت بالقضبان الحديدية في سطح القفص الذي يتمدد فوقه النمر باسطًا أرجله. جعلتني رائحة أنفاسه الكريهة أشعر باختناق، ولكنني سحبت نفسي من أسفل إلى أعلى مارة من بين القضبان ووقفت بجانب النمر، إنه متمدد في سكون يرمش بعينيه المائلتين إلى اللون الأخضر وهو ينظر إليّ. سطح المبنى لا يزال يعلوني، وعليّ أن أدفع الهواء إلى الأسفل بقدميّ وأرتفع فيه لأعبره، مرة أخرى أخذت أجاهد وأقاوم، ثم ارتفعت ارتفاعًا بطيئًا في الهواء، وتلاشى السطح. كان النمر يستلقي في استرخاء باسطًا أرجله فوق قفص صغير عديم الفائدة وهو يرمش بعينيه، وقد رفع إحدى رجليه ولمس قدمي، أدركت أنه لا يوجد ما يخيفني من النمر، فهو حيوان جميل ومتألق يرقد باسطًا أرجله تحت ضوء القمر المفعم بالدفء. قلت له: «هذا قفصك أنت.» لم يتحرك، ولكن فتح فمه متثائبًا، فكشف عن صفين من الأسنان البيضاء. ثم ترامت إلى سمعي جلبة أحدثها رجال قادمون من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجل النمر، سوف يمسكون به ويحبسونه داخل القفص. قلت له: «أسرع بالهرب» نهض النمر ووقف يهز ذيله، ويحرك رأسه يمينًا ويسارًا. ثم انبعثت منه رائحة الخوف الكريهة. وعندما سمع الجلبة التي أحدثها الرجال وأصوات أقدامهم وهم يركضون، أعماه الخوف وجرح ساعدي بالحوافر التي أطلت من قدمه. رأيت الدم يسيل على ذراعي، وقفز النمر من فوق السطح وحط على الرصيف، ثم ركض هاربًا وسط الظلال التي انعكست من أسوار المنازل. أخذت أبكي وقد ملأني الحزن، فقد أدركت أن الرجال سيلحقون به ويحبسونه في القفص. ثم نظرت إلى ذراعي فوجدت أنه التأم ولا أثر للجرح. انحدرت من عينيّ دموع الشفقة وأنا أقول: إن النمر هو سول، وأنا لا أريدهم أن يمسكوا به، أريده أن يجول العالم دون قيود أو عوائق. ثم تضاءل الحلم، أو بالأحرى تضاءل النوم، وأصبح أقرب إلى اليقظة، ولكنني لم أكن مستيقظة تمامًا. قلت لنفسي إنني يجب أن أكتب مسرحية عن آنا وسول والنمر. ظل هذا الجزء من عقلي الذي كان مهتمًّا بهذه المسرحية يعمل ويفكر فيها مثل طفلة صغيرة تحرك قطعًا من المكعبات البلاستيكية على الأرض ... والأكثر من ذلك أنها طفلة حُرمت من اللعب لأنها تعرف أن اللعب نوع من الهروب، وأن عمل أشكال بالمكعبات لآنا وسول والنمر هو عذر يبيح لها ألا تفكر. كانت الأشكال التي تمثل ما سيقوله سول وآنا ويفعلانه هي أشكال للألم، سيشكل الألم «قصة» هذه المسرحية، وهذا نوع من الهروب.

وبذلك الجزء الآخر من عقلي — الذي كنت أعرف أن من يسيطر عليه هو هذا الشخص المحايد الذي أنقذ حالتي من التدهور — بدأت أسيطر على نومي، فقد أصر هذا الشخص المسيطر عليّ أنني يجب أن أنحي المسرحية التي تتكلم عن النمر جانبًا، يجب أن أتوقف عن اللعب بالمكعبات البلاستيكية، قال إنه بدلًا من أن أؤلف قصصًا عن الحياة حتى لا أتأملها مباشرة، يجب أن أعود إلى الوراء وأبصر مشاهد من حياتي. العودة إلى الوراء لنظر أشياء في الماضي لها طبيعة غير مألوفة، الأمر يبدو مثل راعٍ يحصي غنمه، أو يشبه بروفة مسرحية، تلك الطبيعة التي تميز عملية تفقد شيء ما وتلمّسه من أجل الوصل إلى حالة من الاطمئنان. إنها العملية نفسها التي كنت أقوم بها وأنا طفلة صغيرة تراودها الكوابيس المزعجة، كنت أستلقي كل ليلة قبل أن أنام وأستدعي إلى ذاكرتي أي شيء حدث خلال اليوم يكمن داخله أثر من آثار الخوف ويمكن أن يكون جزءًا من حلم مزعج، وعليّ أن «أسمي» الأشياء المرعبة مرات ومرات وكأنني أتلو سلسلة من الصلوات، وكأن عقلي الواعي يبيد جراثيم الخوف قبل أن

أخلد إلى النوم. ولكنني الآن لا أحاول، وأنا نائمة، أن أنزع أنياب الأذى من الأحداث التي وقعت بالماضي بأن أعطيها اسمًا، ولكنني «كنت أرغب في أن أتأكد من أنها لا تزال موجودة». ولكنني أعرف أنه ما إن تأكدت من أنها لا تزال موجودة فسيكون عليّ أن «أسميها» تسمية مختلفة، ولذلك يدفعني هذا الشخص المسيطر إلى الوراء نحو الماضي. أول من زرتهم مرة أخرى هم مجموعة الأشخاص الجالسين بمحطة ماشوبي أسفل أشجار الكينا حيث تفوح رائحة النبيذ من ذلك المكان الذي أضاءه القمر، فبدت ظلال أوراق الشجر المنعكسة على الرمال البيضاء داكنة، ولكن ذلك الإحساس الزائف بالحنين غادر الصورة، فبدت خالية من المشاعر مثل فيلم سينمائي تتحرك مشاهده حركة سريعة على شاشة العرض، ومع ذلك فعليّ أن أشاهد جورج هاونزلو آتيًا وهو يرفع كتفيه إلى الأعلى مطلًا من الشاحنة السوداء الواقفة لدى خطوط السكك الحديدية التي تلمع تحت أضواء النجوم، لكي ينظر إليّ أنا وماريروز بنظرة النهم التي يطل منها الخوف، وأن أسمع ويلي وهو يدندن بجانب أذني ألحان أوبرا بريخت بصوت يفتقر إلى العذوبة، وأن أرى بول وهو ينحني قليلًا تجاهنا بطريقته المهذبة التي تنطوي على شيء من سخرية، ثم يبتسم ويذهب إلى مبنى غرف النوم الواقع بالقرب من صخور الجرانيت المتهاوية. ثم لاح لي مشهد آخر، كنا نمشي على الطريق الرملي، تابعين بول، وهو يقف قبالتنا منتظرًا إيانا، يبتسم في تشفٍّ وهو لا ينظر إلينا — نحن مجموعة الأشخاص السائرين بتؤدة في طريقهم إليه تحت أشعة الشمس الساخنة — بل إلى فندق ماشوبي الظاهر من خلفنا. توقفنا، واحدًا بعد واحد، واستدرنا لننظر إلى الفندق، بدا كأن سحابة حلزونية ضخمة من أوراق الزهور أو الأجنحة البيضاء الراقصة انفجرت من قلب مبنى الفندق، فملايين الفراشات البيضاء قررت أن تحط على المبنى، بدت هذه السحابة مثل وردة بيضاء تتفتح في بطء وامتلأت السماء الزرقاء من فوقها بدخان كثيف. ثم داخلنا شعور بأن خطرًا ما يقترب، واكتشفنا أن بصرنا خدعنا، فنحن ننظر إلى انفجار خلفته قنبلة هيدروجينية، وتحت مظلة السماء الزرقاء زهرة بيضاء تتفتح مكونة أشكالًا من الانبعاثات الدخانية والثنيات والدوامات غاية في الكمال، حتى أعجزتنا عن الحركة مع أننا نعرف أنها تهددنا. كان غاية في الجمال، ذلك الشكل الذي يتجسد فيه الموت، ووقفنا نشاهد في صمت، حتى تسلل إلى هذا الصمت صوت خشخشة وصرير لشيء يزحف. نظرنا إلى الأسفل فرأينا في كل مكان حولنا طبقات يمتد سمكها إلى بضع بوصات من أسراب الجراد الراكب بعضه فوق بعض من أجل إنجاب الذرية. قطع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك الشخص الخفي الذي يشغل آلة العرض السينمائي المشهد وكأنه يقول لي: «هذا يكفي، أنتِ تعرفين أنه لا يزال موجودًا بذاكرتكِ.» وبدأ على الفور في عرض جزء آخر من الفيلم. كانت الصورة تسير سيرًا شديد البطء على الشاشة بسبب عطل فني بشريط الفيلم، وقد عمد ذلك العارض الخفي إلى إعادة الشريط إلى الوراء عدة مرات حتى يعيد فحصه، ولكن الفيلم لم يكن واضحًا، فالتصوير رديء. على الشاشة رجلان، هما واحد، ولكنهما منفصلان، يتبارزان في صمت على من سيفرض إرادته من أجل أن تعرض مبارزتهما في الفيلم؛ أحدهما بول تانر الرجل الذي ينحدر من الطبقة العاملة، والذي أصبح طبيبًا، وقد بقي حبيس الصراع الذي يدور داخله بسبب طبيعته التي تميزها السخرية الانتقادية الحادة، ومع ذلك نشب صراع بين هذه السمة وبين المثالية التي تكمن داخل بول، وظلت المثالية تنحسر رويدًا رويدًا حتى تلاشت، أما الشخص الآخر فهو مايكل، اللاجئ السياسي القادم من أوروبا. عندما اندمج هذان الرجلان معًا في النهاية ولد شخص جديد. رأيت هذه اللحظة بعيني، بدا الأمر كأن جسدًا بشريًا نُحت من أجل أن يكون قالبًا لشخصية مايكل، أو شخصية بول تانر، وبدأ هذا الجسد ينتفخ وتغيرت معالمه وكأن نحاتًا يعمل داخل هذا الجسد محاولًا أن يغير شكل التمثال الذي صنعه عن طريق الضغط بكتفيه وفخذيه على تلك المادة التي تجسد بول، أو تجسد مايكل. هذا الشخص الجديد أصبح ذا بنية أعرض، وبدت عليه سيماء البطولة التي تميز التماثيل المنحوتة، والأكثر من ذلك أنني شعرت بقوته. ثم تكلم هذا الشخص، وكان بإمكاني أن أستمع إلى النغمة الرفيعة التي تميز صوته الحقيقي قبل أن يبتلعها صوته الجديد الذي تطل منه القوة: «ولكن يا عزيزتي آنا، لسنا فاشلين كما نتصور. إننا نقضي حياتنا في نضال حتى نجعل الأشخاص الأقل منا غباء بدرجة بسيطة للغاية يتقبلون الحقائق التي يعرفها الرجال العظماء. لطالما عرفوا لآلاف السنين أن احتجاز إنسان بالحبس الانفرادي يمكن أن يجعل منه رجلًا مجنونًا أو حيوانًا، وأن الرجل الفقير الذي يرتعب من الشرطة ومن المالك الذي يسكن لديه هو عبد، وعرفوا أن الأشخاص الذين يتملكهم الرعب تسكنهم الوحشية، وأن العنف يولد عنفًا. ونحن أيضًا نعرف ذلك، ولكن هل تعرفه جموع الشعب العريضة بمختلف أنحاء العالم؟ الإجابة لا، ودورنا أن نخبرهم بذلك، فالرجال العظماء لا يهتمون بمثل هذا الأمر، فهم يشغلون أنفسهم بتصور طريقة تمكنهم من استعمار كوكب الزهرة، يخلقون داخل أذهانهم تصورات لمجتمع يزخر بالرجال النبلاء والأحرار، في حين تقبع البشرية خلفهم بآلاف السنين،

في سجون الخوف. الرجال العظماء لا يشغلون أنفسهم بمثل هذا الأمر، وهم على حق، لأنهم يعرفون أننا، نحن رافعي الأحجار، موجودون. إنهم يعرفون أننا سنظل ندفع الحجر إلى أعلى عبر المنحدرات السفلية لأحد الجبال الضخمة، ويقفون هم على قمة هذا الجبل، بلا أي شيء يشغلهم. سنظل طوال حياتنا، أنا وأنتِ، نستهلك كل طاقاتنا، ونستخدم كل مواهبنا لكي ندفع هذا الحجر بوصة أخرى إلى الأعلى. وهم يعتمدون علينا، ومعهم حق في ذلك، ولذا فنحن لسنا شخصين عديمي الفائدة.» خبا الصوت، ولكن الفيلم تغير، أصبح فيلمًا سريعًا يظهر المشهد على الشاشة ثم يختفي. عرفت أن هذه «الزيارة» المقتضبة إلى الماضي هدفها هو أن أتذكر أنه لا يزال عليّ أن أبذل مجهودًا بشأنه. بول تانر وإيلا، ومايكل وآنا، وجوليا وإيلا، ومولي وآنا، والأم شوجر، وتومي، وريتشارد، ود. ويست ... كل هؤلاء الأشخاص ظهروا على الشاشة ظهورًا خاطفًا وقد شوهت سرعة العرض ملامحهم، ثم تختفي صورهم. ثم انقطع الفيلم، أو بالأحرى توقفت المشاهد وحلت محلها صورة مشوشة محدثة ضجة مزعجة. قطع العارض الصمت الذي تبع هذه الضجة بصوته الذي صدمني، فهو صوت ذو طبيعة جديدة، صوت عملي ساخر تطل منه الثقة بالنفس وأمارات المنطق السليم: «وما الذي جعلكِ تظنين أن الأهمية الزائدة التي أعطيتها لهذا الأمر هي الأهمية الصحيحة؟» كان لكلمة «الصحيحة» رنين يبدو مثل صدى أو محاكاة لشيء ما، إنها نوع من السخرية من كلمة «صحيحة» التي تندرج ضمن المصطلحات الماركسية، ويطل منها أيضًا نوع من التزمت الذي يتسم به المعلمون في المدارس. ما إن طرقت هذه الكلمة أذني حتى انتابني شعور بالغثيان، أنا أعرف هذا الشعور جيدًا، إنه الشعور بالغثيان الذي ينتج عن وقوع المرء تحت ضغط، عن محاولته أن يحمل حدود قدراته إلى أبعد مما هو متاح. استمعت إلى الصوت وهو يقول: «وما الذي جعلكِ تظنين أن الأهمية الزائدة التي أعطيتها لهذا الأمر هي الأهمية الصحيحة؟» الشعور بالغثيان يتملكني، والعارض يعيد تشغيل الفيلم، أو بالأحرى، الأفلام، فهي عدة أفلام، وقد تمكنت وهي تظهر أمامي على الشاشة من أن أفصل بينها و«أسميها»: هناك فيلم عن ماشوبي، وفيلم عن بول وإيلا، وفيلم عن مايكل وآنا، وفيلم عن إيلا وجوليا، وفيلم عن آنا ومولي، جمعيها — كما رأيت في هذه اللحظة — أفلام منتجة جيدًا، بالمعنى التقليدي للكلمة، وكأنها مصورة داخل أستوديو. نظرت إلى العناوين التي تظهر آخر الفيلم. هذه الأفلام — التي تمثل كل الأشياء التي أكرهها إلى أبعد الحدود — من إخراجي. ظل العارض يسحب الشريط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السينمائي لكل فيلم سحبًا سريعًا داخل الآلة، ثم يتوقف لدى العناوين المكتوبة آخر الفيلم، وتطرق أذني ضحكته الساخرة عندما يقرأ جملة «من إخراج آنا ولف». ثم يشغل بضعة مشاهد أخرى، كل مشهد منها مشهد زائف ومضلل وسخيف. صرخت فيه: «ولكنها لا تخصني، أنا لم أصنعها.» وحينها أوقف العارض، الذي كاد يسأم من فرط الثقة التي تملؤه، المشاهد ثم وقف منتظرًا إياي أن أثبت عدم صحة موقفه. الآن أصبح الأمر سيئًا للغاية، فأنا أواجه عبئًا حط على كاهلي، فعليّ أن أخلق من جديد نوعًا من النظام من وسط تلك الفوضى التي سيطرت على حياتي. انقضى الوقت، وانمحت الأشياء المكتوبة بذاكرتي، وليس بإمكاني أن أميز بين ما اختلقته وما أعرفه. وأدركت أن كل ما اختلقته زائف. كنت في وسط دوامة، أو رقصة عبثية مثل رقصة الفراشات البيضاء التي تطير تحت حرارة الشمس في المنخفض الرملي الرطب. العارض لا يزال ينتظرني أن أفند موقفه ونظرة السخرية تطل من وجهه. عَبَرَ ما كان يفكر فيه إلى رأسي، إنه يفكر في أنني طلبت أن تتناسب الأفكار التي تقوم عليها هذه المشاهد مع ما أعرفه، ولهذا جاءت كلها مزيفة. فجأة قال لي بصوت عالٍ: «كيف سترى جون بوثبي هذا الوقت؟ أراهن على أنه ليس بإمكانكِ أن تخدعي جون بوثبي.» عندما سألني الرجل هذا السؤال تحول عقلي إلى وجهة غريبة عليّ، وبدأت أكتب قصة عن جون بوثبي. لم أستطع أن أوقف الكلمات التي تدفقت إلى ذهني، وانحدرت على وجنتيّ الدموع التي أطلت منها خيبة الأمل، فقد كتبت بأسلوب يشبه ذلك الذي يستخدمه كتّاب أكثر مجلات المرأة تحفظًا وسخافة، ولكن ما أثار رعبي هو أن ذلك السخف مترتب على تغيير بسيط للغاية في أسلوبي المعتاد، تغيير كلمة هنا أو هناك: «جون، التي بلغت لتوها السادسة عشرة، تتمدد على الأريكة بالشرفة تنظر عبر الأوراق الذهبية اليانعة إلى الطريق. كانت تعرف أن شيئًا ما سيحدث. عندما دخلت أمها إلى الغرفة ووقفت خلفها وقالت: جون، لتأتي وتساعديني في إعداد العشاء لنزلاء الفندق، لم تتحرك جون. وبعد فترة من الصمت خرجت أمها من الغرفة دون أن تقول شيئًا. جون مقتنعة بأن أمها «تعرف» هي الأخرى أن شيئًا ما سيحدث، خطر لها أن أمها تعرف ما تشعر به. ثم حدث ذلك الشيء. توقفت شاحنة أمام الفندق بجانب مضخات البنزين، ونزل منها «فتى». من دون عجلة تنهدت جون ونهضت من فوق الأريكة. ثم خرجت من المنزل، وكأن قوة خارجية تسيرها، ومشت على الطريق نفسه الذي سارت عليه أمها منذ لحظات، في اتجاه الفندق. بدا أن الشاب الواقف بجانب مضخات البنزين شعر بقدومها، استدار

الشاب وتلاقت أعينهما ...» سمعت صوت ضحك العارض، إنه مسرور لأنني لم أستطع أن أوقف تيار هذه الكلمات عن التدفق، وأطلت من سروره لمحة سادية. قال لي وقد رفع يده ليدير آلة العرض من جديد: «قلت لكِ، قلت لكِ إنه ليس بإمكانكِ أن تفعلي ذلك.» استيقظت لأجد نفسي في الغرفة الخانقة المظلمة التي يضيئها وهج النار المنبعث من الموقدين والمدفأة، أرهقني الحلم. أدركت على الفور أنني استيقظت لأن سول عاد إلى المنزل. لم أسمع صوت أي حركة بالبيت، ولكنني شعرت بوجوده، بل عرفت أين هو تحديدًا، إنه واقف بالردهة خلف الباب. بإمكاني أن أرى علامات الحيرة والتوتر التي تطل من وقفته، وأراه وهو يعض على شفتيه متسائلًا أيدخل أم لا. ناديت عليه: «سول، أنا مستيقظة.» دلف إلى الغرفة وقال وقد ألبس لهجته قناع الثقة الزائفة: «كيف حالكِ؟ ظننتكِ نائمة.» أدركت من كان ذلك الرجل الذي يدير آلة العرض بالحلم. قلت له: «أتعرف يا سول، لقد أضحيت الصوت الذي يعبر عن الضمير أو الناقد الذي يحلل، هكذا رأيتك في الحلم الذي كان يراودني لتوه.» نظر إلي نظرة هادئة طويلة تطل منها الفطنة، ثم قال: «إذا كنتِ تعنين أنني صوت ضميركِ فلا بد أن هذه مزحة، لأنه من المؤكد أنكِ أنتِ الصوت الذي يتكلم به ضميري.» قلت له: «سول، لا يلائم أحدنا الآخر.» كان على وشك أن يقول: «ربما أنا لا أليق بكِ، ولكن الوضع يختلف من وجهة نظرك.» رأيت على وجهه ذلك التعبير الغامض الذي يطل منه الغرور، والذي هو القناع المتناسب مع هذه الكلمات، ولكنني قطعت عليه الطريق فقلت: «عليك أن تنهي ذلك الأمر، عليّ أن أقوم أنا بذلك، ولكن تنقصني القوة اللازمة. أنا أعرف أنك أقوى مني بكثير، كنت أظن أن العكس هو الصحيح.»

رأيت تعبيرات الغضب والنفور والشك تتحرك فوق وجهه، نظر إليّ بجنب عينيه وقد ضيقهما، عرفت أنه سيتشاجر معي بدافع من هذه الشخصية التي تكن لي الكره لأنني انتزعت منه شيئًا، وعرفت أنه إذا كان «نفسه» فسوف يفكر فيما قلته، وسيدفعه كونه رجلًا مسئولًا لأن ينفذ ما طلبته منه.

ولكن سول قال لي في حنق: «إذن، أنتِ تطردينني.»

أجبته موجهة كلامي إلى الرجل المسئول: «أنا لم أقل ذلك.»

قال سول: «أنا لا أسير وفق هواكِ ولذا ستطردينني خارج المنزل.»

في حركة غير متعمدة نهضت جالسة على الفراش وصرخت فيه: «أناشدك بحق السماء، أن تتوقف عن ذلك، توقف عن ذلك، توقف عن ذلك، توقف عن ذلك.» انحنى سول بحركة لاإرادية متخذًا وضعًا دفاعيًّا، أنا أعرف أنه عندما تصرخ امرأة صراخًا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هستيريًّا فهذا يعني عنده أنها ستضربه. كم هو غريب أن نكون معًا بمكان واحد، أن تكون المسافة بيننا قريبة إلى حد أننا أصبحنا شخصًا واحدًا، فلم يحدث من قبل أنني ضربت أي شخص. تحرك سول تجاه طرف الفراش وجلس متخذًا وضع الاستعداد للهروب من امرأة تصرخ في وجهه وتوجه له الضربات. قلت له، دون أن أصرخ، بل أبكي: «ألا ترى أننا ندور داخل حلقة مفرغة؟» امتقع وجهه وارتسمت عليه ملامح العداء، عرفت أنه سيقاوم فكرة رحيله. استدرت مبتعدة عنه، مقاومة نوبة الغثيان التي انتابتني وقلت: «سوف ترحل من نفسكِ عندما تأتي جانيت.»

لم أكن أعرف أنني سأقول ذلك، أو أنني فكرت فيه، واستلقيت على ظهري أفكر فيما قلت. نعم، إن ما قلته صحيح.

سألني بلهجة فيها اهتمام بلا عداوة: «ماذا تعنين؟»

– لو كان لدي ابن لبقيت، كنت ستتفهم أفكاره ومشاعره وتشاركه فيها، أو على الأقل، ستنجح في أن تصل إلى هذه المرحلة بعد فترة من الوقت. ولكن لأن لدي ابنة فسوف ترحل، لأنك سترانا امرأتين، عدوتين.

أومأ برأسه في تمهل، واستطردت: «كم هو غريب أن تكون سبب تعاستي على الدوام هي المشاعر المرتبطة بالقدر والقضاء والحتمية. ولكن الصدفة هي التي لعبت الدور في أن أنجب ابنة وليس ابنًا، الصدفة البحتة، ولذا سيكون رحيلك من قبيل الصدفة. سوف تتغير حياتي تمامًا بسبب ذلك.» شعرت بأنني أصبحت أفضل، أصبحت القيود التي تحيط بي أقل، عندما تشبثت بفكرة المصادفة. قلت له: «إن إنجاب طفل هي النقطة التي يشعر النساء عندها أنهن يدخلن منطقة من مناطق القدر المحتوم، ولكن الغريب أنه في قلب هذه المنطقة — التي نشعر فيها بأن القيود التي تحيط بنا بلغت مداها — يوجد شيء لا يمت لشيء إلا لفكرة الصدفة.» كان سول ينظر إليَّ بجنب عينيه، نظرات لا تنم عن العداء ولكن عن حب. استطردت: «فلا يوجد شخص على وجه الأرض يمكنه أن يقول إن كوني أنجبت طفلة وليس طفلًا ناتج عن شيء سوى الصدفة. تصور يا سول، لو كان لدي ابن لوجدت بيننا ما تطلقون عليه أنتم أيها الأمريكيون علاقة، علاقة طويلة، ومن الممكن أن تتحول هذه العلاقة إلى أي شيء آخر، من يعرف؟»

قال سول في هدوء: «هل أنا سيئ الرفقة إلى هذا الحد يا آنا؟»

أجبته بتلك اللهجة الحانقة التي يتكلم بها نفسها، فقد استعرتها منه في هذه اللحظة إذ لم يكن يستخدمها، حيث كان يتحدث بلطف ومرح: «أنا لم أقض الفترة

التي يجب أن أقضيها مع الأطباء النفسيين حتى يتسنى لي أن أعرف أنه لا أحد يتسبب لي في مشكلة ما، بل أنا من سببتها لنفسي.»

قال لي وهو يضع يده على كتفي: «دعكِ من الأطباء النفسيين.» ارتسمت على وجهه ابتسامة وبدا على وجهه أنه مهتم بأمري، ففي تلك اللحظة كانت الشخصية الحاضرة هي شخصية ذلك الرجل الطيب الخصال، لكنني رأيت من خلف وجهه القوة السوداء قطعت الطريق عائدة إلى عينيه. كان يصارع نفسه، وأدركت أن هذا الصراع هو نفسه الذي دخلت فيه وأنا نائمة عندما رفضت أن أتقمص الشخصيات الغريبة التي أرادت أن تقتحمني. دخل صراعه مع نفسه إلى منحنى غاية في السوء، جلس على الفراش وعيناه مغمضتان وتناثرت قطرات العرق على جبينه. أمسكت يده، فتشبث بيدي، وقال لي: «حسنًا يا آنا، حسنًا، حسنًا، لا تقلقي، ثقي بي.» جلسنا على الفراش يمسك كل منا بيد الآخر، ومسح سول قطرات العرق من فوق جبينه ثم قبلني وقال: «أديري موسيقى الجاز.»

أدرت أسطوانة لأرمسترونج في بداياته، وجلست على الأرض. وبدت الغرفة الكبيرة بوهج نارها المنبعثة من خلف قضبان المدفأة والموقدين، وبالظلال المنعكسة داخلها كأنها عالم متكامل. استلقى سول على الفراش يستمع إلى موسيقى الجاز وتطل من وجهه نظرة من الرضا الخالص.

حينها فقط لم أستطع أن «أتذكر» آنا الواقعة تحت تأثير المرض، عرفت أنها مختبئة خلف المسرح، مستعدة للدخول إلى المسرح عندما يضغط أحدهم على الزر. ظللنا صامتين لفترة طويلة، لا أعرف عندما نبدأ في الحديث من هما الشخصيتان اللتان ستكونان جالستين على طاولة هذا الحديث. خطر لي أنه إذا سجل جهازٌ الحديثَ الذي يدور بتلك الغرفة لساعات وساعات — الحديث، والنقاش، والعراك، ونوبات المرض — فسيظهر بالشرائط تسجيل لأحاديث وصراخ وتساؤلات مائة شخص مختلفين يعيشون في هذه الآونة بمناطق مختلفة من العالم. جلست أتساءل ترى من الشخصية التي ستبدأ بالصراخ عندما أتحدث، ثم قلت: «كنت أفكر.» هذه الجملة عندما يتفوه بها أحدنا تكون لنا مزحة، ولذا ضحك سول وقال: «إذن كنتِ تفكرين.»

– إذا كان من الممكن لشخص ما أن تقتحمه شخصية غير شخصيته، فلماذا لا تقتحم الشخصيات الغريبة الناس، أنا أعني الناس كلهم بصورة عامة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استلقى سول على الفراش وهو يدندن مع ألحان الجاز ويحرك أصابعه وكأنه يمسك بين يديه آلة جيتار ويلعب على أوتارها، لم يجبني سول، ولكن كل ما فعله هو أنه قال عابسًا: أنا أستمع إلى الموسيقى.

– الفكرة الأساسية هنا أيها الرفيق ... توقفت عندما طرقت أذني النبرة التي نطقت بها هذه الكلمة الأخيرة، إنها نبرة مفعمة بالحنين المثير للسخرية، وخطر لي أنها تشبه إلى حد بعيد نبرة الصوت التهكمية التي نحدث العارض بها، إنها أحد ملامح الإنكار والدمار.

قال سول وهو يضع الجيتار الذي يتخيل أنه يلعب عليه جانبًا: «حسنًا أيتها الرفيقة، إذا كنتِ تعنين أن جموع الناس تغزوهم مجموعة من المشاعر الآتية من خارجهم، فأنا سعيد أيتها الرفيقة لأنكِ تتمسكين بمبادئكِ الاشتراكية بالرغم من كل ما حدث.»

استخدم سول كلمتي «الرفيقة» و«جموع الشعب» بسخرية، ولكن نبرته تحولت إلى نبرة مفعمة بالمرارة وهو يقول: «إذن كل ما علينا أن نفعله أيتها الرفيقة هو أن نضع خطة لكي نملأ هذه الجموع — وكأننا نملأ أوعية فارغة — بالمشاعر النقية والمفيدة التي يطل منها السلام والود، مثلما حدث معنا تمامًا.» لم تكن نبرته نبرة ساخرة، لم تكن تشبه تلك النبرة التي تحدث العارض بها، ولكنها لم تبتعد عنها كثيرًا أيضًا.

قلت له: «هذا هو ما أقوله، ذلك النوع من التهكم، ولكنك لا تفعل ذلك غالبًا.»

– عندما انهرت تحت تأثير ذلك الأمر ودخلت في حالة من الثورة العارمة، لاحظت أن سمات هذا الانهيار تمثلت في كل الأشياء التي أكرهها. هذا لأن الوصول إلى تلك الحالة التي يطلقون عليها النضوج لم يكن قط أحد الأهداف التي أنشدها، فحتى وقت قريب كنت أقضي حياتي في الاستعداد لتلك اللحظة التي سيقول لي فيها أحد الأشخاص: «لتمسك بهذه البندقية.» أو «لتدر هذه المزرعة التعاونية.» أو «لتنظم طابور الأشخاص المضربين هذا.» ظننت طول الوقت أنني سأموت عندما أبلغ الثلاثين من عمري.

– كل الشباب يظنون أنهم سيموتون عندما يبلغون الثلاثين، إنهم لا يستطيعون أن يتقبلوا فكرة الاستسلام للتنازلات التي تفرضها الشيخوخة. ومن أنا حتى أقول إنهم مخطئون؟

– أنا لست «كل» الرجال، أنا سول جرين. لا عجب أنني اضطررت لأن أترك أمريكا، فلم يعد بها أحد يتكلم لغتي. ماذا حدث لهم جميعًا، كنت فيما مضى أعرف الكثيرين الذين يتحدثون هذه اللغة، كنا جميعًا نسعى لتغيير العالم. ولكنني الآن أجوب أنحاء بلدي وأزور أصدقائي، إنهم جميعًا متزوجون وناجحون ويتبادلون الأحاديث الخاصة مع أنفسهم تحت تأثير الخمر لأن رائحة الفساد تفوح من «المبادئ» الأمريكية.

جعلتني تلك النبرة الحانقة التي نطق بها سول كلمة «متزوجون» أضحك، فرفع رأسه إليّ ليعرف لماذا ضحكت وقال: «نعم، نعم، أنا أعني ما قلت. كنت أدلف إلى المسكن الجديد الأنيق لأحد أصدقائي القدامى وأقول: «لماذا بحق السماء تستمر في هذه الوظيفة، أنت تعلم أن رائحتها فاحت، وتعلم أنك تدمر نفسك؟» فيرد عليّ: «وماذا عن زوجتي وأطفالي؟» فأقول له: «هل صحيح ما سمعته ... أنك أصبحت تشي بأسماء أصدقائك القدامى؟» فيتجرع قدرًا قليلًا آخر من الشراب ويقول: «ولكن يا سول، أنا لدي زوجة وأطفال.» ولذا أنا أكره الزوجات والأطفال، ومعي حق في ذلك. لتضحكي، فليس هناك شيء مضحك أكثر من تلك المثالية التي أتبناها ... إنها مستهلكة وساذجة للغاية! هناك شيء لم يعد بإمكانكِ أن تقوليه لأي شخص: أنتِ تعرفين في قرارة نفسكِ أنكِ يجب ألّا تعيشي هكذا، إذن، فلمَ تفعلي؟ لا، ليس بإمكانكِ أن تقولي هذا، فأنتِ شخص يتفاخر بأخلاقياته .... وما جدوى أن تقوليه، لقد افتقد البشر ضربًا من ضروب الشجاعة. كان يجب أن أذهب إلى كوبا في وقت مبكر من هذا العام وأنضم إلى كاسترو وأُقتل.»

– أنت لم تُقتل، ولم تذهب إلى هناك.

– يطل القدر برأسه من جديد، مع أن فكرة المصادفة التي كنتِ تحتفين بها منذ لحظة مضت.

– إذا كنت تود حقًّا أن تُقتل فهناك أكثر من عشر ثورات مندلعة من حولك، يمكنك أن تنضم لأي منها وتلقى حتفك.

– أنا لم أخلق لأعيش الحياة كما هي مقدرة لنا. أتعلمين يا آنا، أنا مستعد لأن أضحي بأي شيء لكي أعود إلى عصبة الفتيان المثاليين الواقفين بناصية الشارع، كنا نؤمن أن بإمكاننا أن نغير أي شيء. هذه هي اللحظة الوحيدة بحياتي التي شعرت فيها بالسعادة. حسنًا، أنا أعرف ما ستقولينه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولذا لم أقل شيئًا، ولكن سول رفع رأسه ونظر إليّ وقال: «ولكن من الواضح أنني أود أن أسمعكِ تقولينه.»

ولذا قلت له: «كل الرجال الأمريكيين ينظرون وراءهم ويلهثون خلف تلك اللحظة التي جمعتهم وزمرة الشباب الذين كانوا يصادقونهم قبل أن يتعرضوا للضغط من أجل أن يحققوا نجاحات أو يتزوجوا. كلما قابلت رجلًا أمريكيًّا أظل أنتظر هذه اللحظة التي سيشرق فيها وجهه، إنها اللحظة التي سيتكلم فيها عن مجموعة الأصدقاء الذين كان يعرفهم.»

قال سول بنبرة حانقة: «شكرًا لكِ، فهذه الكلمات تسدل الستار على أقوى شعور راودني في حياتي وتقتله.»

– هذه هي مشكلتنا جميعًا. دائمًا يسدل الستار على مشاعرنا الأكثر قوة، الواحدة تلو الأخرى. فهي لا تتناسب مع الزمن الذي نعيش فيه لسبب من الأسباب. ما أقوى الرغبات التي تجيش بداخلي؟ أن أكون بصحبة رجل واحد، وأتذوق طعم الحب، إلى آخر هذه الأشياء المماثلة. أنا أمتلك الموهبة الحقيقية التي يحتاجها هذا الأمر.

عندما ترامت إلى سمعي نبرة صوتي وجدت أن الحنق الذي أطل من صوته منذ لحظة علق بها، وبعد لحظة نهضت وذهبت إلى الهاتف.

– ماذا تفعلين؟

طلبت رقم مولي وقلت له: «أتصل بمولي. سوف تسألني: كيف حال صديقكِ الأمريكي؟ فأرد عليها: أقمت معه علاقة غرامية. «علاقة غرامية» ... يا لها من كلمة، لطالما أحببت هذه الكلمة، إنها كلمة راقية وأنيقة! لنعد إلى موضوعنا، سترد عليّ مولي: ربما ليس هذا أكثر شيء منطقي قمت به في حياتكِ، أليس كذاك؟ وسأقول لها: لا إنه ليس كذلك. وستسدل هذه الكلمات الستار على ذلك الشعور الذي يداخلني. أنا أود أن أسمعها وهي تقول ذلك.» وقفت أستمع إلى جرس الهاتف وهو يرن بمنزل مولي. «ما سأقوله الآن عن خمسة أعوام مرت من حياتي ... إن ذلك كان عندما كنت أحب رجلًا يبادلني مشاعر الحب، ولكنني كنت بالطبع ساذجة للغاية في تلك الأيام. تمر فترة من الوقت، ويسدل الستار على «ذلك» الشعور. ثم مرت عليّ فترة من الوقت كنت أبحث خلالها عن الرجال الذين سيجرحونني، كنت أحتاج إلى ذلك. وتمر فترة من الوقت ويسدل الستار على «ذلك» الشعور.» ظل جرس الهاتف يرن، واستطردت: «انضممت إلى التيار الشيوعي لفترة من الوقت، كان ذلك في مجمله

خطئًا، ولكنها كانت تجربة مفيدة، ولا يحظى المرء بمثل هذه التجارب كثيرًا. وتمر فترة من الوقت، ويسدل الستار على هذا الشعور.» لم تجب مولي، فوضعت سماعة الهاتف وقلت: «سيكون عليها إذن أن تقول لي ما أود أن أسمعه لاحقًا.»

قال لي سول: «ولكن لن يكون ما ستقوله صحيحًا.»

– ربما لا يكون كذلك، ولكنني أود أن أسمعه.

تمر فترة من الصمت ثم يسألني سول: «ماذا سيحدث لي يا آنا؟»

قلت له وأنا أستمع لما سأقوله، من أجل أن أعرف فيما كنت أفكر: «سوف تشق طريقك وسط ما أنت فيه الآن، وسوف تصبح رجلًا ودودًا للغاية وحكيمًا وطيبًا، يأتي إليه الناس عندما يحتاجون لأحد يخبرهم ... بأنهم أصيبوا بالجنون من أجل هدف جليل.»

– ما هذا الذي تقولينه بحق السماء يا آنا!

– مالك تتحدث هكذا وكأنني وجهت لك سبة!

– قصة النضوج القديمة مرة أخرى، لا أنا لن أسمح «لهذا الأمر» أن يرهبني.

– ولكن النضوج هو كل شيء بالتأكيد؟

– لا إنه ليس كذلك!

– ولكن ليس في يديك شيء تفعله أيها المسكين، أنت تتجه مباشرة نحو مرحلة النضوج. ماذا عن كل هؤلاء الأشخاص الرائعين الذين نعرفهم، والذين هم في الخمسين أو الستين؟ «هناك» قلة قليلة منهم ... رائعون، وناضجون، وحكماء. أشخاص «حقيقيون»، إن هذه العبارة تبعث بإحساس بالسكينة. وكيف وصلوا إلى هذه المرحلة؟ حسنًا، «نحن» نعرف، أليس كذلك؟ كل منهم يحمل على ظهره سجلًا من الجرائم ذات الدوافع الشعورية، فالطريق إلى النضوج الذي يصل إليه الرجال والنساء الحكماء الذين يعيشون في سكينة بعد أن تعدوا سن الخمسين مفروش بالجثث التي تسيل منها الدماء! فالمرء لن يصبح شخصًا حكيمًا وناضجًا إذا لم يقض ثلاثين عامًا وهو ينشب أنيابه في رقاب رفقائه مثل الوحوش.

قال وهو يضحك، وبنبرة ساخطة: «وأنا أسير بخطى سديدة على طريق الوحشية.»

– لا، لست كذلك، ولكنني أستطيع أن أرى أنك على وشك الوصول إلى محطة النضوج والسكينة اللذين يميزان حياة رجل في منتصف العمر، ففي الثلاثين يحارب هؤلاء بجنون مطلقين شرر العصيان وقاطعين كل العلاقات الجنسية. ولكن بإمكاني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أراك، أن أرى سول جرين يعيش في قوة منعزلًا بإحدى الشقق المتواضعة، يشرب بروية من حين لآخر رشفة من شراب الإسكوتش المعتق الفاخر. نعم، بإمكاني أن أراك وقد امتلأ جسدك وعاد إلى شكله الطبيعي مرة أخرى. ستكون وأنت في منتصف العمر رجلًا قويًا، عريض المنكبين، ومفتول العضلات، وسوف تطل لدى صدغيك بعض الشعيرات التي تميل إلى اللون الرمادي من بين شعرك الذهبي القصير مثل فراء دب بني بدأت عظامه توهن. وربما سيكون هناك نظارة على عينيك، وستتحول إلى شخص قليل الكلام، سيكون ذلك طبيعيًا حينذاك، بإمكاني أن أرى ذقنك ذات الشعيرات المقلمة التي بدأ اللون الرمادي يتخلل لونها الأشقر. وسيقول الناس: هل تعرفون سول جرين؟ الآن أصبح رجلًا! يا لقوته! يا لهدوئه! يا لسكينته! ولكن من حين إلى آخر سترثي إحدى الجثث لحالها مطلقة صيحة خافتة ... هل تذكرني؟

– دعيني أخبركِ بشيء، الجثث جميعها تساندني وتدعمني، وإذا كنتِ لا تدركين ذلك فهذا يعني أنكِ لا تفهمين أي شيء.

– نعم، أنا أدرك ذلك، ولكن كون الضحايا على استعداد دائم لأن يجودوا بدمائهم ولحومهم لا يجعل الأمر أقل إحباطًا.

– إحباطًا! أنا أعمل لمصلحة الناس يا آنا، أنا أوقظهم وأعيدهم إلى صوابهم وأدفعهم إلى الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكوه.

– هراء، إن الأشخاص الذين لديهم مثل هذا الاستعداد لأن يكونوا ضحايا هم الأشخاص الذين تنازلوا عن فكرة أن يكونوا من الوحوش، فهم يفتقرون للقوة والشراسة اللازمين لخوض الطريق الذهبي للنضوج والسكينة التي تخلفها الحكمة. إنهم يعرفون أنهم سلموا وهم مقتنعون بأنهم رغم تنازلهم عن فكرة خوض ذلك الطريق، سيكونون سعداء عندما يجودون بلحومهم ودمائهم من أجل الآخرين.

– العنف، العنف، العنف

هكذا قال وقد انقبضت عضلات وجهه وعقد حاجبيه الشقراوين فبدوا كأنهما خط واحد صلب يقطع جبينه، وعبس في غضب كاشفًا عن أسنانه.

قلت له: «العنف، العنف، العنف»

– أنتِ، على حد فهمي، لستِ من الوحوش؟

– نعم، أنا لست كذلك بالطبع، ولكنني أمد يد المساعدة والمواساة إلى الآخرين من آن لآخر، ولكنني لا أصلح لأن أكون قديسة مضحية، سوف أكون واحدة من رافعي الأحجار.

– وماذا يعني ذلك؟

– هناك جبل أسود ضخم، هذا الجبل يجسد حماقة البشر، ومجموعة من الأشخاص يدفعون حجرًا إلى أعلى الجبل، وعندما يقطعون بضع أقدام في طريقهم إلى الأعلى يجدون أمامهم حربًا، أو ثورة ما كان يجب أن تندلع، فيتدحرج الحجر إلى الأسفل، ولكنه لا يصل إلى سفح الجبل، فدائمًا يقف الحجر عند نقطة تعلو تلك التي بدأ الأشخاص يدفعونه منها ببوصات قليلة. ولذا يلصق هؤلاء الأشخاص أكتافهم بالحجر ويبدءون في دفعه من جديد. وعلى قمة الجبل يقف بضعة رجال عظماء، أحيانًا ينظرون إلى الأسفل ويومئون برؤوسهم ويقولون: عظيم، لا يزال رافعو الأحجار يؤدون مهمتهم، ولكننا في هذه الأثناء سنتأمل طبيعة الفضاء أو نفكر في وضع العالم حينما يمتلئ بأناس لا يكرهون ولا يخافون ولا يقتلون.

– حسنًا، أنا أريد أن أكون واحدًا من الرجال العظماء الواقفين على قمة الجبل.

– من سوء حظ كلينا أننا نحن الاثنان من رافعي الأحجار.

فجأة قفز سول إلى الأعلى ونزل من فوق الفراش وكأنه زنبرك من الفولاذ الأسود ينكسر، وبدا لي أن دبيب الحياة سرى فجأة بالكراهية التي تطل من خلف عينيه. قال سول: «يا إلهي، أنتِ لستِ كذلك. رباه، أنا لن أكون ... أنا لن ... أنا، أنا، أنا» حادثتني نفسي بـ«أنه» عاد، إنه هو. ذهبت إلى المطبخ وأحضرت زجاجة إسكوتش ثم عدت إلى الغرفة. واستلقيت على الأرض وأخذت أحتسي الإسكوتش وهو يتحدث. استلقيت على الأرض وأنا أنظر إلى أشكال الضوء الذهبي المنعكس على السقف وأنصت إلى الأصوات غير المنتظمة التي تحدثها الأمطار الكثيفة بالخارج، وشعرت أن التوتر يحكم قبضته على معدتي، عادت آنا المريضة من جديد. أنا، أنا، أنا، أنا هكذا انبعثت الكلمات من فمه وكأنها طلقات منتظمة لمدفع رشاش. كنت أستمع لما يقول ولكن دون تركيز، وكأنني أستمع إلى شخص يلقي كلمة أنا التي كتبتها. نعم، كان ما يقوله يعبر عني، وعنا جميعًا، ضمير المتكلم الذي يطل برأسه طوال الوقت: أنا أكون، أنا لن أكون، أنا لا أريد أن أكون، أنا يجب، أنا أريد، أنا. كان يطوف بالغرفة وكأنه حيوان، حيوان متكلم، يتحرك بعنف وبعزم شديد، قوة جبارة تقذف بهذه الكلمات: أنا سول، أنا سول، أنا أريد. كانت حدقتا عينيه الخضراوين ثابتتين بلا حراك، لم يكن يرى أي شيء. وبدا فمه مثل ملعقة أو مغرفة أو فوهة مدفع رشاش تقذف بكلمات عدائية غاضبة وكأنها طلقات نارية. «أنا لن أسمح لكِ أن تدمريني، لن أسمح لأي شخص أن يفعل. أنا لن أسمح لأي شخص أن يسكتني أو يحبسني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو يروضني أو يقول لي إن عليّ أن أكون هادئًا أو أن ألزم مكاني أو أن ألتزم بما قيل لي، أنا لست ... أنا أقول ما يخطر لي، أنا لن أرتدي عباءة عالمِكِ.» شعرت بذلك العنف المنبعث من القوة السوداء التي تسيطر عليه يهاجم كل خلية في أعصابي، وشعرت بغثيان في معدتي وبشد في عضلات ظهري وكأنها مجموعة من الأسلاك المشدودة. كنت مستلقية على ظهري وأنا أمسك بزجاجة الإسكوتش في يدي أتناول منها رشفات منتظمة وأشعر أن الشراب بدأ يدير رأسي، أستمع وأستمع ... أدركت أنني ظللت أستلقي هناك لفترة طويلة، ربما ساعات، وهو يجوب الغرفة في عنف ويصرخ. مرة أو اثنين ذكرت شيئًا، ألقيت ببعض الكلمات على التيار المنحدر من فمه، بدا الأمر كأنني أمام آلة ضبطها عامل الصيانة بحيث تتوقف هنيهة عندما ينبعث صوت خارجي، فقد توقف سول، مراجعًا نفسه على نحو تلقائي، وفاتحًا فمه، أو قطعة المعدن التي تعلو وجهه، ليقذف بالدفعة القادمة من طلقات ضمير المتكلم المتتابعة: أنا، أنا، أنا، أنا، أنا. نهضت من مكاني وهو يتكلم، ولكنه لم يرني، فهو لم يكن يبصرني، لم يكن يرى في سوى العدو الذي يجب أن يصرخ في وجهه بأعلى صوته حتى لا يسمعه الآخرون، وأدرت أسطوانة لأرمسترونج، لكي أسمعها أنا أيضًا، فقد تشبثت بالموسيقى الدافئة الصافية لكي تهدئ من روعي، وقلت له: «اسمع يا سول.» قطب جبينه وكان حاجباه يرتعشان وقال على نحو تلقائي: «نعم؟ ماذا هناك؟» ثم واصل حديثه الذي تطل منه طلقات ضمير المتكلم المتتابعة، أنا سأبرهن لكم جميعًا مستدلًا بأخلاقياتكم، ومشاعركم وقوانينكم، أنا أنا أنا أنا.

أوقفت أسطوانة أرمسترونج، وأدرت الأسطوانة التي تحتوي على موسيقاه الفاترة والذهنية، تلك الموسيقى الجامدة التي يستمع إليها الرجال الذين يرفضون الاستسلام للجنون وللمشاعر. صمت سول لحظة وهوى على الكرسي وكأن ساقيه بُترتا. جلس وقد أرخى صدره على رأسه وأغمض عينيه وهو يستمع إلى دوي طلقات البندقية الآلية التي يمسك بها هاميلتون، الدوي الذي ملأت أصداؤه الغرفة مثلما ملأتها كلماته، ثم تكلم بصوته هو: «يا إلهي، ما الذي فقدناه؟ ما الذي فقدناه؟ ما الذي فقدناه، وكيف يمكن لنا أن نستعيده، كيف لنا أن نستعيده مرة أخرى؟» ثم تقلصت عضلات فخذيه، وانتفض واقفًا وكأن شيئًا لم يحدث. أغلقت مشغل الأسطوانات، فلم يصغِ إلا لكلماته المرصعة بضمير المتكلم، واستلقيت على ظهري مرة أخرى أستمع إلى الكلمات التي ترتطم بالجدران مرتدة في كل مكان: أنا أنا أنا، إنه تجسيد صريح لحب الذات. شعرت بغثيان شديد وتكورت على نفسي إذ كنت

أشعر بآلام شديدة في عضلاتي، الكلمات التي يقذفها سول من فمه تتطاير في كل مكان من حولي. فقدت وعي لبرهة وسبحت مرة أخرى داخل ذلك الكابوس الذي كنت أعرف أن الحرب تنتظرني على أعتابه؛ أركض بشارع خالٍ تراصت على جانبيه البنايات البيضاء التي لطختها الأوحال، والمدينة صامتة ولكنها امتلأت بأشخاصٍ كَمَّم الترقب أفواههم. وعلى مقربة مني ينفجر هذا الوعاء الصغير القبيح الذي يحوي داخله الموت، ينفجر قاطعًا الصمت الذي يطل منه الترقب، وناشرًا الموت في كل مكان، ومهدمًا البنايات، ومدمرًا جوهر الحياة ومحولًا الأجساد إلى أشلاء. صرخت ولكن صرخاتي كانت خرساء لم يسمعها أحد، مثلها مثل صرخات كل البشر الموجودين بالبنايات الصامتة، لا يوجد من يسمعها. عندما أفقت من هذه الإغماءة كان سول يقف مستندًا على الحائط، ملصقًا ظهره وفخذيه به وهو ينظر إليّ. رآني، لقد عاد إلى شخصيته المعهودة لأول مرة منذ ساعات، وجهه شاحب للغاية، ولا يوجد أثر لأي دماء، وأطل الرعب من عينيه الرماديتين المجهدتين وأنا أستلقي أمامه أتلوى من الألم. قال لي بصوته هو: «أرجوكِ يا آنا، لست كذلك.» ثم داخله التردد، وعاد مرة أخرى الرجل المجنون، فلم يكن حديثه مرصعًا بمتوالية أنا أنا أنا فقط، ولكنها كانت «أنا» التي تقف في وجه النساء، النساء اللاتي يرى فيهن السجان، والضمير وصوت المجتمع. أخذ سول يوجه نحوي تيارًا من الكراهية الصريحة، لأني امرأة. والآن وقد أضعفني الويسكي ولعب برأسي، شعرت بتلك العاطفة التي تنبع من الضعف والرقة، عاطفة المرأة التي تعرضت للخيانة. يا إلهي أنت لا تحبني، لا تحبني، إن الرجال لم يعودوا يحبون النساء. وضعت يدي على صدري الذي جرحته الخيانة وبدأت أبكي في ضعف، تنحدر الدموع الممتزجة بالويسكي على وجنتي نيابة عن النساء جميعًا. وبينما كانت الدموع تنحدر على وجهي إذ رأيت رغبته تستيقظ بداخله من جديد، وشعرت بها أيضًا تجيش بداخلي، وعبرت رأسي فكرة ساخرة، سوف يعتمل الحب في نفسه الآن تجاهي، تجاه آنا المسكينة التي جرحت الخيانة أنوثتها. ثم قال لي بلهجة ذلك الفتى الصغير المبهوت، الفتى المتزمت: «آنا، أنت سكرانة، انهضي من الأرض.» أجبته وأنا أبكي: «لا.» فقد كنت مستمتعة بشعوري بالضعف. ولذا سحبني من الأرض وقد امتزجت دهشته بالرغبة التي تجيش بداخله، وضاجعني بقوة، وكأنه يضاجع امرأة لأول مرة، كان متعجلًا للغاية ومفعمًا بالحماس الممتزج بالخجل. كنت أريد المزيد ولذا قلت له مستخدمة أسلوبه نفسه في الحوار: «فلتتصرف كما يليق بعمرك.» أجابني بصوت مصدوم: «آنا، أنتِ سكرانة، فلتخلدي إلى النوم حتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعودي إلى رشدكِ.» قبلني وفرد عليّ الأغطية واتجه إلى الخارج وهو يمشي على أطراف أصابعه وكأنه فتى صغير يشعر بالذنب، وفي الوقت نفسه ينتابه إحساس بالفخر بعد أن دخل إلى الفراش لأول مرة مع امرأة، كان بإمكاني أن أراه، أرى سول جرين، الفتى الأمريكي الصالح، والانفعال والخجل يجيشان داخله بعد أن ضاجع امرأة لأول مرة بحياته. استلقيت على ظهري وظللت أضحك وأضحك، وخلدت إلى النوم واستيقظت وأنا أضحك. لا أعرف ماذا رأيت في منامي ولكن الجو الذي أحاط بي قبل أن أستيقظ جو من المرح الخالص، ثم أدرت رأسي فوجدت سول مستلقيًا بجانبي.

انبعثت البرودة من جسده، فأحطه بذراعيّ والسعادة تفيض من نفسي. عرفت من تلك السعادة التي تملؤني أنني بلا شك كنت أطير في يسر وفرح وأنا نائمة، وهذا يعني أنني لن أظل آنا المريضة طوال الوقت. ولكن عندما استيقظ سول كان مرهقًا من أثر تلك الساعات التي قضاها وهو يقذف بمتواليات ضمير المتكلم من فمه، ووجهه مصفر وبائس. وعندما نهضنا من الفراش كان الإرهاق يلفنا نحن الاثنين، جلسنا في المطبخ الواسع ذي الجدران الزاهية الألوان واحتسينا القهوة وقرأنا الجرائد في صمت، فلم يكن لدينا القدرة على أن نقول أي شيء. قال سول: «يجب أن أذهب لأعمل.» ولكننا كنا نعرف أننا لن نفعل، فعدنا مرة أخرى إلى الفراش، نشعر بالتعب الشديد حتى إنه لم يكن بمقدورنا أن نتحرك، فتمنيت أن يعود سول الذي كان هنا بالأمس، سول الممتلئ بالقوة السوداء الفاتكة، فدرجة الإرهاق الشديدة التي نعانيها مخيفة للغاية. ثم قال سول: «لا يمكن أن أظل مستلقيًا هكذا هنا.» قلت له: «لا.» ولكنه لم يتحرك، ثم نهض من الفراش، أو بالأحرى تسلل خارجًا منه، وسألت نفسي كيف سيدفع سول نفسه إلى الخروج من المنزل، إنه يحتاج إلى إثارة شجار لكي يفعل ذلك. ومع أنني عرفت ذلك من التوتر الذي شعرت به في معدتي، فقد أصبح لدي فضول لأرى بنفسي. قال سول في لهجة يطل منها التحدي: «أنا ذاهب في نزهة.» قلت له: «حسنًا.» فنظر إلي نظرة خاطفة ثم ذهب ليرتدي ملابسه وعاد مرة أخرى وقال: «لمَ لا تمنعينني؟» فأجبته: «لأنني لا أرغب في ذلك.» قال لي: «إذا عرفتِ إلى أين أنا ذاهب، ستمنعينني.» فقلت له وقد لاحظت أن نبرتي أصبحت خشنة: «أنا أعرف أنك ذاهب إلى امرأة أخرى.» قال لي: «حسنًا، لن تعرفي أبدًا، أليس كذلك؟»

– لا، وهذا لا يهم.

كان سول واقفًا لدى الباب، ولكنه الآن دلف إلى الغرفة في تردد، يبدو عليه أنه مهتم.

تذكرت جملة دي سيلفا الشهيرة: «كنت أود أن أرى ما سيحدث.»

كان سول يود أن يرى ما سيحدث، وأنا أيضًا رغبت في ذلك، فقد تحرك بداخلي شعور قوي بالفضول الذي يطل منه الحقد والشماتة، كان أقوى من أي شيء آخر يعتمل في نفسي ... وكأنني أنا وسول كنا كيانين مجهولين، قوتين غير معلومتي الهوية، بلا شخصية. وكأن الغرفة بها كائنان خبيثان، لن يهتم أحدهما إذا وقع الآخر صريعًا فجأة أو بدأ يصرخ في ألم.

قال بلهجة حانقة: «هذا لا يهم.» ولكن الحنق الذي كان يطل منها لم يكن مكتملًا/نهائيًا، وكأن سول كان يتمرن على الحديث بلهجة حانقة أو يتحدث بلهجة من فرط تكرارها بدت غير مقنعة. «تقولين إن هذا لا يهم، ومع ذلك ترقبين كل حركة أقوم بها وكأنكِ جاسوسة.»

أجبته بصوت طروب مرح وأنا أطلق ضحكة وكأنني كنت ألهث (لقد سمعت هذه الضحكة من امرأة كانت واقعة تحت ضغط شديد وكنت أقلدها): «أنت من صنعت مني جاسوسة.» كان يقف صامتًا، ولكن بدا عليه أنه يصغي لشيء ما وكأن الكلمات التي يجب أن يقولها ستنتقل له من شريط مسجل: «أنا لن أكون أسير أي امرأة في العالم، لم يحدث بعد أنني أصبحت كذلك ولن يحدث أبدًا.»

خرجت كلمات جملته الأخيرة التي قال فيها: «لم يحدث بعد أنني أصبحت كذلك ولن يحدث أبدًا.» متسارعة وكأن الشريط كان مدارًا على وضع التشغيل السريع.

رددت عليه بتلك اللهجة الطروبة الخبيثة: «إذا كنت تعني بالأسر أن امرأتك يجب أن تعرف كل حركة تقوم بها، فأنت الآن أسير.»

ترامت إلى سمعي تلك الضحكة الخافتة التي لم تخل من التشفي.

فرد عليّ بلهجة خبيثة: «هذا ما تظنينه.»

– هذا ما أعرفه.

انتهى الحوار من تلقاء نفسه، وتبادلنا النظر باهتمام، ثم قلت له: «لن يكون علينا أن نتحدث في هذا الأمر مرة أخرى.» رد عليّ باهتمام: «آمل ذلك.» وانطلق خارجًا بعدها تقوده تلك الطاقة التي خلفها هذا الحوار.

حادثتني نفسي بأنني يمكن أن أعرف الحقيقة إذا صعدت إلى غرفته وألقيت نظرة على مذكراته، ولكنني كنت أعرف أنني لن أفعل ذلك، لن أفعله أبدًا بعد الآن، انتهى هذا الأمر برمته. شعرت بإعياء شديد وذهبت إلى المطبخ لأحتسي القهوة، ولكنني صببت قدرًا ضئيلًا محسوبًا من شراب الإسكوتش. أدرت بصري في أرجاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المطبخ الذي كان نظيفًا للغاية وأنواره ساطعة. ثم هاجمني الدوار؛ بدت الألوان ساطعة للغاية كما لو كانت صارخة، وبدأت ألحظ كل العيوب الموجودة بالمطبخ، تلك الحجرة التي تشيع بنفسي البهجة ... شرخ في طبقة المينا البيضاء اللامعة، ذرات تراب على إحدى القضبان، آثار لتغير ألوان الطلاء. اجتاحني شعور بالرداءة والقبح. يجب أن أعيد طلاء جدران المطبخ جميعها، ولكن لن يغير أي شيء من كون الشقة قديمة وذات جدران بالية وتقع بمنزل متهالك. أطفأت الأنوار في المطبخ وعدت إلى هذه الغرفة، ولكنها سرعان ما بدت لي في سوء المطبخ ورداءته، فقد بدا بريق الستائر الحمراء الصارخ منذرًا بالسوء، وبدا طلاء الجدران الأبيض ملطخًا. وجدت نفسي أطوف بالغرفة وأنا أحملق في الجدران والستائر والباب وقد انتابني شعور بالنفور من مكونات الغرفة المادية وشعرت أن الألوان تهاجمني بحدتها الزائفة. كنت أنظر إلى الغرفة كما لو أنني أنظر إلى وجه شخص أعرفه جيدًا من علامات الإجهاد والتوتر، وجهي مثلًا أو وجه سول، وأنا أدرك جيدًا ما الذي يختبئ وراء وجهي الصغير ذي الملامح الوسيمة الهادئة، وما الذي يخيفه وجه سول الأشقر العريض الذي تعتليه ملامح الصراحة وتظهر عليه أمارات الإعياء صريحة واضحة، ولكن من الذي بإمكانه أن يخمن، ولكن من منا لم ينفجر من قبل بداخله وابل من الاحتمالات وتزحف على عقله وتنتشر به؟ أو ربما يبدو الأمر كأنني أنظر إلى وجه إحدى الراكبات في عربة قطار، فأرى جبينًا مقطبًا أو مسحة ألم خافتة، وأدرك أن عالمًا من الاضطراب يختبئ تحت هذا الوجه، فأتعجب من قدرة البشر على أن يبقوا نفوسهم متماسكة ويمنعوها من الانهيار تحت الضغط. لم تعد غرفتي الكبيرة، مثلها مثل المطبخ، هي المكان المريح الذي يحتويني، بل هي قوس يلقي بسهامه على قدرتي على التركيز من مائة اتجاه، وكأن هناك مائة عدو ينتظرون أن يشتت تركيزي حتى يتسللوا من ورائي ويهاجموني. مقبض الباب الذي انطفأ بريقه، ومسحة الغبار التي غطت الطلاء الأبيض، والخط الأصفر الذي يوضح أن زهوة اللون الأحمر للستائر انطفأت، والمنضدة التي أخفيت فوقها دفاتري القديمة، كل هذه الأشياء تهاجمني وتطالب بحقها في، باعثة بداخلي نوبات الغثيان التي تهزني. عرفت أن علي أن أدخل إلى الفراش، ومرة أخرى كان عليّ أن أزحف على الأرض حتى أصل إليه. استلقيت على الفراش، وعرفت قبل أن تستسلم عيناي للنوم أن ذلك العارض الذي يدير آلة تشغل الأفلام سيكون بانتظاري.

عرفت أيضًا ما سيقال لي في هذا الحلم، وكانت المعرفة بمنزلة «ضوء انكشفت الحجب لتفصح عنه» أثناء تلك الأسابيع الماضية التي سيطر عليّ فيها الجنون واختفى إحساسي بالوقت، كنت أمر بلحظات «المعرفة» تلك واحدة بعد أخرى، ولكن لا يوجد سبيل لصياغة هذه المعرفة في كلمات. ومع ذلك فهذه اللحظات تمر قوية للغاية مثل ومضات تتكشف لي سريعًا واحدة بعد أخرى أثناء حلم، وتبقى بداخلي بعد أن أستيقظ، حتى إن ما تكشف لي يصبح جزءًا من كيفية اعتراكي للحياة حتى أموت. إنها الكلمات، الكلمات، أظل ألعب بالكلمات آملة أن أجد تركيبًا لفظيًّا، حتى ولو على نحو عرضي، يعبر عما أريد أن أقوله. ربما تعبر الموسيقى عما بداخلي على نحو أفضل؟ ولكن الموسيقى تهاجم أذني الداخلية، وكأنها خصم يعاديني، ليس هذا عالمي. إن الحقيقة هي أن التجربة الحقيقية لا يمكن أن توصف. ثم تخطر لي فكرة أليمة وهي أنه ربما يعبر صف من العلامات النجمية، مثلما يحدث في رواية مكتوبة بالأساليب القديمة، ربما يعبر عبورًا أفضل عما بداخلي من الكلمات، أو ربما رمز من الرموز، دائرة أو مربع، أي شيء سوى الكلمات. سيفهم الأشخاص الذين وصلوا من قبل إلى تلك المرحلة التي تذوب فيها بداخلهم الكلمات والنماذج والنظام ما أعنيه، ولكن الآخرين الذين لم يمروا من قبل بهذه التجربة لن يفهموا، ولكن فور أن يصل المرء إلى هذه المرحلة تطل السخرية اللاذعة برأسها، إن الأمر لا يتعلق بمحاربة هذا الشيء، أو التبرؤ منه، لا تتعلق بالخطأ والصواب، ولكنها تتعلق بإدراك وجود هذا الشيء، فيجب أن ينحني إليه المرء في احترام مثلما ينحني إلى عدو قديم وكأنه يقول له: حسنًا أنا أعرف أنك موجود، ولكن علينا أن نحافظ على الشكليات، أليس كذلك؟ وربما يعتمد وجودنا في الأساس على محافظتنا على الشكليات وخلقنا للنماذج ... هل فكر أحد يومًا في ذلك؟

لذا كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني كنت، قبل أن أخلد إلى النوم، «أدرك» لمَ عليّ أن أنام، وماذا سيقول لي العارض الذي سأراه في منامي، وماذا علي أن أعرف، مع أنني كنت أعرفه بالفعل، فقد كان لفعل الحلم تأثير الكلمات التي تقال بعد الحدث، أو ربما كان الحلم مثل تلخيص لشيء تعلمته من باب التأكيد.

فور أن بدأ الحلم قال العارض بصوت سول الذي تميزه اللهجة العملية: «سوف نستعرض الأفلام سريعًا مرة أخرى.» شعرت بالإحراج، فقد خشيت أن أرى أمامي الأفلام نفسها التي شاهدتها في المرة السابقة، الأفلام المضللة الزائفة، ولكن في هذه المرة اكتسبت الأفلام — التي كانت هي نفسها الأفلام التي شاهدتها بالسابق — صفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخرى وصفتها وأنا أحلم بأنها «واقعية»: المشاهد تتسم بحركتها الخشنة والبدائية والمتقطعة وكأنها مشاهد من السينما الروسية أو الألمانية في بداياتهما، هناك مقاطع من الفيلم تُعرض عرضًا بطيئًا، تبقى على الشاشة لفترات طويلة من الوقت وأنا أشاهد وأتشرب تفاصيل لم يتح لي من قبل الوقت لكي ألحظها. وكلما استوعبت نقطة يريدني العارض أن أفهمها قال لي: «هذا هو ما أعنيه يا سيدتي.» ولأنه كان يوجهني رأيت أن كل الأشياء ذات الثقل، أو التي أكسبها أسلوب حياتي ثقلًا وأهمية تمر من أمامي مرورًا سريعًا دون أي تركيز عليها: الأشخاص الجالسون تحت أشجار الكينا، على سبيل المثال، أو إيلا التي تستلقي فوق الحشائش مع بول، أو إيلا وهي تكتب الروايات، أو إيلا عندما كانت تتمنى أن تتحطم طائرتها لكي تموت، أو الحمام الذي يسقط بطلقات بندقية بول، كل هذه المشاهد ذهبت وتلاشت لتفسح المجال لما هو مهم بحق. ولذا ظللت أشاهد لفترة طويلة، وأنا منتبهة تمامًا، كل لحظة من اللحظات التي تقف فيها السيدة بوثبي بمطبخ فندق ماشوبي وردفاها الممتلئان يبرزان من تحت ضغط المشد الذي ترتديه، والعرق يبلل إبطيها الداكنين، وعلامات الضيق تعلو وجهها المحمر، أشاهدها وهي تقطع اللحوم الباردة الحمراء والبيضاء من أجزاء مختلفة وتستمع إلى الأصوات الفتية القاسية والضحكات الأكثر قسوة التي تترامى إلى سمعها من خلال جدار رفيع، أو أستمع إلى دندنة ويلي تأتيني من خلف أذني تمامًا، تلك الدندنة المتنافرة الألحان التي تفيض بالشعور بالوحدة، أو أراه في مشهد يعرض بالتصوير البطيء، ويعاد مرات ومرات أمامي حتى لا أستطيع أن أمحوه من ذاكرتي مطلقًا، وسحابة من الكآبة تخيم على وجهه الذي يرتسم عليه الشعور بأن كرامته جرحت وهو ينظر إليّ وبول يغازلني. أو أرى السيد بوثبي — ذلك الرجل البدين الجالس خلف البار وهو ينظر إلى ابنته بصحبة صديقها الشاب — أرى نظرته إلى هذا الشاب التي تطل منها الغبطة الخالية من الحقد أو الغيرة ثم أراه وهو يمد يده ليتناول كأسًا فارغًا حتى يملأه. ثم رأيت السيد لاتيمور وهو يشرب بالبار ويحرص على ألا ينظر إلى السيد بوثبي وهو يستمع إلى ضحكات زوجته الجميلة ذات الشعر الأحمر، أراه مرات ومرات وهو ينحني، مترنحًا من أثر الشراب، لكي يربت على ظهر الكلب ذي الشعر الأحمر الكثيف، ظل يربت على ظهره مرات ومرات. قال لي العارض: «هل فهمتِ؟» ثم أدار مشهدًا آخر: رأيت بول تانر وهو عائد إلى المنزل في الصباح الباكر، منتشيًا ومنغمسًا تمامًا في خطيئته، رأيت عينيه وهي تلتقي بعيني زوجته التي تقف أمامه ترتدي مريلة منقوشة، وقد

انتابها الإحراج إلى حد ما وأطل من وجهها التوسل، والأطفال جالسون يتناولون إفطارهم قبل أن يخرجوا إلى مدارسهم، ثم استدار بول وهو يقطب جبينه وصعد إلى الدور العلوي ليحضر قميصًا نظيفًا من أحد الأرفف. سألني العارض: «هل فهمتِ؟» ثم أصبحت مشاهد الفيلم تجري في سرعة شديدة على الشاشة، تومض وتختفي وكأنها لقطات من حلم، فتظهر أمامي وجوه رأيتها مرة بالطريق ثم نسيتها، أو ذراع يتحرك حركة بطيئة، أو عينان تدوران بمقلتيهما كلها تعبر عن شيء واحد. تخطى الحلم الآن حدود تجربتي، وتخطى تجارب إيلا، وتخطى الدفاتر؛ فبدلًا من المشاهد المنفصلة أصبحت الصورة خليط أشخاص، والوجوه والحركات والنظرات كلها مندمجة معًا. ثم أصبحت حركت الفيلم بطيئة جدًّا مرة أخرى، أصبح مجموعة من اللحظات المتوالية تُعرض فيها صورة يد أحد المزارعين وهي تنثني لكي تلقي بحبة في الأرض، أو صورة لصخرة تتلألأ والمياه تنحتها نحتًا بطيئًا، أو صورة رجل يقف على منحدر لتل جاف تحت ضوء القمر، يقف هكذا طوال الوقت في وضع الاستعداد حاملًا بندقيته بذراعه، أو صورة امرأة تستلقي مستيقظة في الظلام وهي تقول لا، لن أقتل نفسي، لن أقتلها، لن أقتلها.

صمت العارض، وناديت عليه لأقول له إنه يكفيني ما رأيت، ولكنه لم يجب، فمددت يدي وأطفأت آلة العرض. ثم أمسكت بورقة وقرأت، وأنا لا أزال نائمة، كلمات كتبتها: كان هذا عن الشجاعة، ولكن ليست الشجاعة التي عرفتها دائمًا. إنه ذلك القدر البسيط من الشجاعة المؤلمة التي تعلق بجذور حياة كل الأفراد، فالظلم والقسوة يعلقان بجذور الحياة. والسبب الذي دفعني لأن أوجه اهتمامي إلى كل ما هو بطولي وجميل وذكي فقط، هو أنني لن أتقبل ذلك الظلم وتلك القسوة، ولذا لن أتقبل ذلك الصبر الذي هو أكبر من كل شيء.

نظرت إلى تلك الكلمات التي كتبتها وأنا غير راضية عنها، ثم أخذتها إلى الأم شوجر، وقلت لها: «عدنا مرة أخرى إلى الحشائش التي ستنبت من بين بقايا الفولاذ الصدئ بعد ألف عام من انفجار القنابل وانصهار القشرة الأرضية، لأن قوة الإرادة الكامنة في هذه الحشائش هي نفسها القوة الكامنة في هذا الصبر الموجع البسيط. هل هذا هو الأمر؟» (كنت أبتسم في سخرية وأنا في الحلم وانتابتني الخشية من أن أكون وقعت في شرك.)

قالت لي: «وإذن؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولكن أساس المشكلة هو أنني لا أظن أنني على استعداد لأن أعطي كل هذا القدر من التبجيل إلى أعواد الحشائش اللعينة هذه، حتى في الوقت الحالي.

ابتسمت الأم شوجر عندما قلت ذلك وهي تجلس بمقعدها في حزم معتدلة القامة، أو بالأحرى تجلس وقد بدا عليها ضيق من تأخري، أو من لأني لا أفهم الفكرة الأساسية دائمًا. نعم، كانت تبدو مثل ربة منزل ضجرة أضاعت شيئًا، أو ستبدأ في تنفيذ مهامها.

أوشك المساء على الاقتراب عندما استيقظت، والغرفة مظلمة وباردة. شعرت بالإحباط، فأنا المرأة التي غرز الذكور سهامهم القاسية بصدرها. كنت في أمس الحاجة إلى سول، أرغب في أن أوجه له الإساءات وأنتقده وأكيل له الشتائم. سيعتذر لي بعدها بالطبع، وسندخل معًا إلى الفراش.

إنه مشروع قصة قصيرة، أو رواية قصيرة، كوميدية أو ساخرة: امرأة تفزعها قدرتها على أن تستسلم للرجال، فتقرر أن تحرر نفسها، فتقيم علاقة مع رجلين، ويضاجعانها بالتبادل، اللحظة التي ستتحرر فيها هي اللحظة التي ستقول فيها لنفسها إنها استمتعت بمعاشرة الرجلين لها بنفس القدر. أدرك كل منهما بفطرته أن هناك رجلًا آخر، فانتابت الغيرة أحدهما ووقع في غرامها بحق، أما الآخر فقد أصبح باردًا وحذرًا، ومع تصميمها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تحب ذلك الرجل الذي وقع في غرامها، وأن تتصرف بفتور مع عشيقها الآخر الذي أصبح حذرًا في تعاملاته معها، ومع أنها كانت يائسة لأنها لا تزال تشعر بأنها «ليست حرة»، فهي تصرح للرجلين بأنها تحررت تمامًا من أسرها، لأنها الآن حققت الحد الأمثل من المتعة الجنسية والشعورية الكاملة مع رجلين في وقت واحد. يُسر الرجل الحذر ذو المشاعر الباردة بسماع ذلك، ويدلي ببعض الملاحظات الحيادية والذكية عن تحرير المرأة. أما الرجل الذي يحبها حبًّا حقيقيًّا فيروعه ما قالته ويشعر بأنه جُرح ويتركها، وتبقى هي مع الرجل الذي لا تحبه ولا يحبها يتجاذبان أطراف حديث ذكي عن القضايا النفسية.

أسرتني فكرة هذه القصة، وبدأت أفكر كيف أكتبها. كيف ستتغير، على سبيل المثال، إذا استخدمت إيلا كبطلة لها بدلًا من نفسي؟ منذ فترة لم أفكر في إيلا، وأدركت أنها تغيرت ولا بد في هذه الفترة الزمنية، ربما أصبحت أكثر تحفظًا على سبيل المثال؛ رأيتها وقد غيرت تسريحة شعرها، عادت مرة أخرى تعقصه إلى الخلف، وبدت عليها ملامح الصرامة، وأصبحت ترتدي ملابس ذات تصميمات مختلفة. رأيت

أمامي إيلا وهي تجول بغرفتي، ثم بدأت أتخيل كيف ستتصرف مع سول، أظن أنها ستكون أكثر ذكاء مني، وأكثر تحفظًا على سبيل المثال. بعد برهة أدركت أنني أكرر ما قمت به من قبل، أحاول أن أخلق «الأخرى»، المرأة التي تتفوق عليّ في كل شيء، فباستطاعتي أن أحدد تلك النقطة التي تركت عندها إيلا الواقع، وأدارت ظهرها إلى طريقة التصرف التي ستمليها عليها طبيعتها، وبدأت تتصرف وفقًا لشخصية غاية في النبل والكرم، وهو شيء مستحيل عليها. ولكنني لم أكره هذه الشخصية الجديدة التي أرسم معالمها، كنت أفكر في أن تلك الشخوص الرائعة التي تتميز بكرم الأخلاق والتي نسير بجوارها في خيالاتنا يمكن أن تصبح كيانات لها وجود، لأننا ببساطة نحتاج إليها، ولأننا نتخيلها. ثم بدأت أضحك عندما رأيت هذه المسافة التي تفصل بين ما أتخيله وما أنا عليه في الواقع، فما بالنا بتلك المسافة الفاصلة بين الخيال وبين شخصية إيلا الحقيقية.

ترامى إلى سمعي وقع خطوات سول وهو يصعد السلم، لدي فضول أن أعرف من الذي سيدلف إلى غرفتي. بدت مظاهر الإعياء والإرهاق على وجهه، ومع ذلك أدركت فور أن رأيته أن الشياطين لن يسكنوا غرفتي اليوم، وربما لن يسكنوها أبدًا بعد الآن، فقد عرفت ماذا ينوي أن يقول.

جلس على طرف فراشي وقال: «إنه من الغريب أنك كنتِ تضحكين، كنت أفكر فيكِ وأنا أتمشى.»

أدركت كيف كان يسير في الطرقات، يشق طريقه بين فوضى خيالاته، يحاول أن يتشبث بالأفكار أو بمجموعات الكلمات لكي تنقذه. سألته وأنا أنتظر الإجابة من المعلم: «فيمَ كنت تفكر؟»

– لماذا تضحكين؟

– لأنك كنت تهرع في طرقات مدينة مجنونة، تحاول أن تضع مجموعة من المسلمات الأخلاقية لتخرجنا مما نحن فيه، وكأنك تريد أن تخرج ورقتَيْ حظ من داخل حلوى الكريسماس.

أجاب بلهجة جافة: «لسوء الحظ أنكِ تعرفينني جيدًا، كنت أظن أنني سأبهركِ برباطة جأشي وذكائي. نعم، أنا أظن أن الأمر يشبه عبارات الحظ الموضوعة داخل حلوى الكريسماس.»

– حسنًا، هات ما عندك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أولًا: أنتِ لا تضحكين بالقدر الكافي يا آنا. كنت أفكر في هذا الأمر، فالفتيات يضحكن، والعجائز يضحكن. أما النساء اللاتي في عمركِ فلا يضحكن، فأنتن منشغلات للغاية بأمور الحياة الجادة.

– ولكنني انفجرت في الضحك، كنت أضحك على النساء اللاتي يتمتعن بالحرية.»

حكيت له عن فكرة القصة القصيرة التي راودتني، وجلس ينصت إليّ وهو يبتسم في سخرية، ثم قال لي: «ليس هذا ما عنيته، كنت أعني الضحك عن جد.

– حسنًا، سوف أضع هذا الأمر على جدول أعمالي.

– لا، لا تتحدثي بهذه الطريقة. اسمعي يا آنا، إذا لم نؤمن بأن الأشياء التي نضعها على جدول أعمالنا ستتحقق، فلا أمل لدينا إذن، إن ما سينقذنا هي تلك الأشياء التي نضعها عن جد على جدول أعمالنا.

– أعلينا أن نؤمن بمخططاتنا؟

– علينا أن نؤمن بمخططاتنا الوردية المستحيلة.

– حسناً، وماذا بعد؟

– ثانيًا: لا يمكن أن تستمري هكذا، يجب أن تبدئي في الكتابة مرة أخرى.

– لو كان باستطاعتي ذلك لفعلت.

– لا يا آنا، هذا ليس في مصلحتكِ. لم لا تكتبين القصة القصيرة التي حكيت لي عنها الآن؟ أنا لا أريد أن أسمع منك ذلك الهراء الذي تقولينه عادة، قولي لي في جملة واحدة بسيطة: لم لا تكتبينها. يمكنك أن تطلقي عليها أوراق الحظ بحلوى الكريسماس إذا رغبت. ولكنني فكرت وأنا أتمشى في الطرقات في أنه إذا كان بإمكانك أن تبسطي هذا الأمر، وتركزيه في فكرة أساسية، يمكنك حينها أن تنعمي النظر فيه وأن تهزميه.

بدأت أضحك، ولكنه قال لي: «لا يا آنا، سوف تنهارين عن جد، إذا لم تقومي بذلك.»

– حسنًا، لا يمكنني أن أكتب هذه القصة القصيرة أو غيرها، لأنه في تلك اللحظة التي أجلس فيها لأكتب، يدلف شخص إلى غرفتي، يطل برأسه من خلفي ويوقفني.

– من هو ذلك الشخص؟ أتعرفينه؟

– بالطبع أعرفه، يمكن أن يكون أحد المزارعين الصينيين، أو أحد المقاتلين في حرب العصابات التي يقودها كاسترو أو مقاتلًا جزائريًّا بجبهة التحرير الوطنية

أو السيد ماثلونج. إنهم يقفون هنا بالغرفة ويقولون لم لا تفعلين شيئًا من أجلنا، بدلًا من أن تضيعي وقتكِ في الكتابة؟

– أنت تعرفين جيدًا أن هذا ليس ما سيقوله أي منهم.

– ولكنك «أنت» تعرف جيدًا ما أعنيه، أنا واثقة من أنك تعرف، إنها اللعنة التي لحقت بنا جميعًا.

– نعم، أنا أعرف، ولكنني سأحملكِ على الكتابة يا آنا. أحضري ورقة وقلمًا.

وضعت ورقة بيضاء على الطاولة وأمسكت بالقلم منتظرة ما سيقوله.

– لن يحدث شيء إذا فشلتِ، لمَ أنت مغرورة؟ فقط ابدئي.

تملكني الرعب وأصبح عقلي مثل ورقة بيضاء لا حروف فيها، وضعت القلم على الطاولة، ونظرت إلى سول، رأيته يحملق بي محاولًا أن يرغبني ويحملني على الكتابة، فأمسكت بالقلم مرة أخرى.

– إذن سأملي عليكِ الجملة الأولى، ها هما المرأتان اللتان تمثلينهما يا آنا؛ فلتكتبي: كانت المرأتان وحيدتين بمسكنهما في لندن.

– أتريدني أن أبدأ الرواية بجملة تقول: كانت المرأتان وحيدتين بمسكنهما في لندن؟

– لماذا تقولينها هكذا؟ اكتبيها يا آنا.

كتبتها.

– ستكتبين هذا الكتاب. ستكتبينه وستنجزينه.

سألته: «ولماذا يكون قيامي بذلك مهمًّا إلى هذا الحد؟»

أجابني بلهجة يائسة تطل منها سخريته من ذاته: «سؤال جيد. حسنًا، لأنه إذا كان بإمكانكِ أن تفعلي ذلك فبإمكاني أنا أيضًا أن أفعله.»

– أتريدني أن أملي عليك أول جملة في روايتك؟

– فلنسمعها.

– هناك على إحدى منحدرات التلال الجافة بالجزائر، كان الجندي واقفًا يرقب ضوء القمر يلمع على بندقيته.

ابتسم وقال لي: «بإمكاني أن أكتب عن ذلك، ولكن ليس بإمكانكِ أن تفعلي.»

– إذن فلتكتب عن هذا الموضوع.

– شريطة أن تعطيني دفترك الجديد.

– لمَ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أحتاج إليه، هذا هو كل ما في الأمر.
– حسنًا.
– سيكون عليّ أن أرحل يا آنا، أتعرفين ذلك؟
– نعم.
– إذن، فلتعدي لي الطعام، أنا لم أطلب قط من أي امرأة أن تعد لي الطعام.
في وجهة نظري كوني استطعت أن أقول ذلك هو خطوة صغيرة نحو تلك المرحلة التي يطلقون عليها النضوج.

أعددت الطعام ثم خلدنا إلى النوم. اليوم استيقظت أنا أولًا، وعندما نظرت إلى وجهه وهو نائم رأيت وجهًا نحيلًا تعلوه علامات الإعياء. خطر لي أنه من المستحيل أن يغادر، يجب ألّا أدعه يرحل، فحالته لا تسمح له بذلك.

استيقظ سول وجاشت بداخلي رغبة أخذت أقاومها، أود أن أقول له: لا يمكن أن ترحل، يجب أن أعتني بك، سأفعل أي شيء إذا قلت لي إنك ستبقى معي.

كنت أعلم أنه كان يقاوم ضعفه، وتساءلت ترى ماذا كان سيحدث إذا لم يحط سول رقبتي بذراعيه بحركة لاإرادية وهو نائم منذ أسابيع مضت. وددت حينها أن أضع ذراعيه حول رقبتي من أجله. استلقيت في الفراش وأنا أجاهد نفسي حتى لا ألمسه، وهو يجاهد نفسه حتى لا يتودد إليّ، وتعجبت جدًّا من أن يصبح ما تدفعنا الطيبة أو الشفقة للقيام به نوعًا من أنواع الخيانة. توقف عقلي عن التفكير بفعل الإرهاق الذي شعرت به، وفي تلك اللحظة تمكن مني الألم الذي أثارته بداخلي مشاعر الشفقة واحتضنت سول بين ذراعيّ، وأنا أدرك أنني بذلك أخونه. على الفور تشبث بي في لحظة قرب صادقة. ثم نسج الزيف الذي بداخلي في الحال خيوط زيفه، حيث تمتم بصوت يشبه صوت الأطفال: «إنه ولد طيب.» لم يكن يتكلم كما لو كان يهمس في أذني والدته، فهذه الكلمات لم تكن كلماته، كانت نابعة من أعمال الأدب، يقولها بلهجة مفعمة بالعواطف الزائدة وكأنه يقلد أسلوبًا أدبيًّا معينًا، تقليدًا غير واضح. ولكنني عندما نظرت إليه رأيت في البداية العواطف الزائفة التي خرجت مع الكلمات ترتسم على وجهه ذي الملامح الحادة الذي تعلوه أمارات الإعياء، ثم التوت ملامح وجهه في ألم، وعندما رآني أنظر إليه ضيق عينيه الرماديتين في فزع باعثًا منهما نظرة تحدٍّ أطلت منها الكراهية الخالصة، ثم علا الاسترخاء ملامح وجهه. استسلم إلى النوم لحظات قليلة، وتوقف عقله عن التفكير مثلما حدث معي منذ لحظة، قبل أن أنحني لأحيطه بذراعيّ. ثم انتفض من نومه، وقد ملأه التوتر والرغبة في العراك،

وانتزع نفسه من بين ذراعيّ وأدار بصره في أرجاء الغرفة بإمعان وحذر باحثًا عن أعدائه، ونهض واقفًا، كل ذلك في وقت واحد، كان يتحرك في سرعة شديدة فجاءت ردود أفعاله متتابعة.

قال سول: «لا يمكن لأي منا أن يدني نفسه أكثر من ذلك.»

أجبته: «لا.»

قال لي: «انتهى هذا الأمر.»

فقلت: «أنجز.»

صعد سول إلى غرفته ليلملم حاجياته القليلة بحقيبته وأوعيته.

وسرعان ما هبط مرة أخرى ووقف مستندًا على باب غرفتي الكبيرة، كان هو سول جرين، رأيت أمامي سول جرين، ذلك الرجل الذي قدم إلى شقتي منذ بضعة أسابيع، يرتدي ملابس جديدة تناسبه، اشتراها لكي يلف بها جسده النحيل. كان رجلًا منمقًا ذا بنية ضئيلة وكتفين عريضين للغاية ووجه رفيع جدًّا تبرز عظامه إلى الخارج وكأنها تصر على أن هذا الجسد كان جسدًا ممتلئًا مفتول العضلات، وأن صاحبه سيعود مرة أخرى إلى قوته، سيعود رجلًا عريض المنكبين عندما يتخلص من المرض ويسترد صحته. وبجانب هذا الرجل الأشقر النحيل ذي الشعر الأشقر الناعم والوجه الشاحب المريض رأيت رجلًا قويًّا مفتول العضلات ذا بشرة خمرية يقف كما لو كان ظلًّا سيبتلع الجسد الذي انعكس منه. في تلك الأثناء كان يقف مشمرًا عن ساعديه وقد تخفف من أعبائه فأصبح رشيقًا وسريعًا، وانتابته الخشية. وقف وقد علق إبهاميه بحزامه ووجه أصابعه إلى الأسفل (وهذه المرة كان يحاكي وقفة شاب مستهتر ولكن بأسلوب متأنق) كان يتحداني في سخرية، وأطلت من عينيه الرماديتين الهادئتين نظرات الحذر ولكن الود الذي انبعث منهما كان كافيًا. شعرت كأنه أخي، لا يهم إلي أي مدى انحرفت بنا الطرق أحدنا عن الآخر، أو إلى أي مدى ابتعد كل منا عن الآخر، سيظل الدم الذي يجري بعروقنا واحدًا، وستظل أفكارنا متشابهة.

قال لي: «اكتبي لي الجملة الأولى في الدفتر.»

– أتريدني أن أكتبها لك؟

– نعم، اكتبيها.

– لمَ؟

– أنت جزء من الفريق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أنا لا أشعر بذلك، أنا أكره الفرق.

– إذن أنت تفكرين في الأمر. هناك عدد قليل منا في أنحاء العالم، ونحن نتعاون حتى وإن كان أحدنا لا يعرف اسم الآخر، ولكننا نتعاون طوال الوقت؛ فنحن فريق واحد، نحن الذين لم نرفع الراية البيضاء، نحن من سنواصل النضال. أتعرفين يا آنا أنني أمسك بأحد الدفاتر أحيانًا وأقول: كتبته أنتِ أولًا، وهذا جيد لك، أليس كذلك؟ إذن، لن يكون عليّ أن أكتبه.

– حسنًا، سأكتب لك جملتك الأولى.

– عظيم، اكتبيها، وسأعود لكي آخذ الدفتر وأودعك ثم أذهب.

– إلى أين أنت ذاهب؟

– أنت تعرفين جيدًا أنني لا أعلم؟

– في بعض الأحيان سيكون عليك أن تعرف.

– حسنًا، حسنًا، ولكنني لم أنضج بعد، أنسيتِ؟

– ربما يجدر بك أن تعود إلى أمريكا.

– ولم لا؟ الحب هو الحب في أي مكان في العالم.

ضحكت وذهبت لأحضر الدفتر الأنيق الجديد وهبط هو السلم وكتبت: «هناك على إحدى منحدرات التلال الجافة بالجزائر، كان الجندي واقفًا يرقب ضوء القمر يلمع على بندقيته.»

[إلى هنا تنتهي المدونات المكتوبة بخط آنا، فبقية صفحات الدفتر الذهبي مكتوبة بخط سول، كتب قصة قصيرة عن الجندي الجزائري:

كان هذا الجندي واحدًا من المزارعين يعرف جيدًا أن مشاعره حيال الحياة ليست هي ما توقعه الآخرون منه، ومن هم هؤلاء الآخرون؟ إنهم «كيان» غير منظور، ربما يكون الإله، أو الدولة، أو القانون، أو النظام. قبض عليه الفرنسيون وعذبوه، ثم هرب وانضم مرة أخرى إلى جبهة التحرير الوطنية، ووجد نفسه يعذب السجناء الفرنسيين، بناء على الأوامر الصادرة له بذلك. كان يعرف أنه لا بد أن يداخله شعور ما حيال هذا الأمر، ولكن هذا الشعور لم يَنْتَبْه في الواقع. في إحدى الليالي جلس مع أحد السجناء الفرنسيين الذين عذبهم ليناقش حالته الفكرية تلك. كان السجين الفرنسي مفكرًا شابًا يدرس الفلسفة. جلس الرجلان يتحدثان سرًّا بزنزانة السجين، واشتكى له الشاب الفرنسي من أنه يعيش في سجن فكري، فقد أدرك منذ سنوات

أنه لم يفكر قط بخاطرة ولم ينتبه شعور إلا واستطاع أن يدرجه على الفور تحت اتجاه فكري معين: فتلك الخاطرة تشير إلى فكر «ماركس»، وهذه تشير إلى فكر «فرويد»، فأفكاره ومشاعره مثل كرات تتدحرج نحو فتحات قدر لها أن تدخلها. جذب ذلك اهتمام الجندي الجزائري الشاب، فلم يكن هذا هو ما يحدث معه، قال إن مشكلته — مع أنها في الواقع ليست مشكلة ولكنه يشعر أنها يجب أن تكون كذلك — هو أن كل ما يشعر به أو يفكر فيه ليس هو ما توقعه الآخرون منه. قال الجندي الجزائري إنه يحسد الشاب الفرنسي، أو بالأحرى، إنه «يجدر به» أن يحسده، قال الطالب الفرنسي إنه يحسد الجندي الجزائري من أعماق قلبه، فقد كان يتمنى أن يفكر أو يشعر بشيء — ولو مرة واحدة في حياته — يكون ملكه، يكون شيئًا تلقائيًا غير موجه وليس مفروضًا عليه من أجداده ماركس وفرويد. ارتفعت أصوات الرجلين أكثر مما تقتضيه الحيطة، وبخاصة صوت الرجل الفرنسي وهو يشكو وضعه وحالته، فجاء قائد الوحدة ووجد الجندي الجزائري يتحدث إلى السجين الذي من المفترض أن يحرسه وكأنه أخ من إخوانه. قال الجندي الجزائري: «قمت بما أمرتني به يا سيدي، عذبت هذا الرجل، لم تخبرني أنني يجب ألّا أتحدث معه.» قرر قائد الوحدة أن الجندي الواقع تحت قيادته جاسوس، جُنِّدَ على الأرجح عندما كان مسجونًا لدى الفرنسيين، فأمر بقتله. وفي صباح اليوم التالي وقف الجندي الجزائري والطالب الفرنسي جنبًا إلى جنب على منحدر التل وقد انعكست أشعة الشمس التي تشرق في السماء على وجهيهما، وأُطلق الرصاص على كليهما.]

[نشرت هذه القصة القصيرة بعد فترة ولاقت نجاحًا.]

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الخامسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الخامسة

تتزوج مولي وتدخل آنا في علاقة غرامية

ترددت آنا في إجابة طلب جانيت عندما سألتها للمرة الأولى هل بإمكانها أن تلتحق بمدرسة داخلية؟ فهي تكره كل ما تمثله المدارس الداخلية. سألت آنا عن عدة مدارس «تقدمية» وتحدثت مع جانيت مرة أخرى، ولكن جانيت اصطحبت معها إلى المنزل صديقة لها تدرس بالفعل بمدرسة داخلية تقليدية لكي تعاونها في إقناع أمها بالموافقة على طلبها. أخذت الطفلتان تحكيان بعيون لامعة عن الزي المدرسي وعنابر النوم والرحلات المدرسية وغيرها من هذه الأشياء وهما تخشيان أن ترفض آنا. فهمت آنا أن المدرسة «التقدمية» ليست ما تبغيه جانيت، فكلامها يعني أنها تود أن تنشأ كأي فتاة عادية، ولا ترغب في أن تكون مثل أمها. أبصرت عالم الفوضى والتجربة الذي يعيش فيه الناس مثل كرات تتراقص طوال الوقت على قمم نافورات المياه الهائجة فاتحين أذرعهم لاستقبال أي شعور جديد أو مغامرة جديدة، وقررت أن هذا العالم ليس عالمها. قالت لها آنا: «هل تعرفين يا جانيت أن الحياة هناك ستكون مختلفة تمامًا عن كل ما عرفته؟ سوف تخرجين للتنزه في مجموعات مثل الجنود، وستصبحين مثلك مثل الآخرين، وستقومين بنشاطات منتظمة في مواعيد محددة، وإذا لم تنتبهي لنفسكِ فستخرجين من هناك وأنت مثل النباتات المعالجة، نسخة ممن يحيطون بكِ.» ردت عليها الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعًا وهي تبتسم: «نعم أعرف.» وأطل من ابتسامتها هذا السؤال: أنا أعرف أنكِ تكرهين كل ذلك، ولكن لماذا يكون عليّ أن أكرهه أنا الأخرى؟ «أنا أظن أنكِ ستمرين بحالة من حالات الصراع؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أنا لا أظن ذلك.

هكذا قالت جانيت بلهجة تحولت فجأة إلى لهجة حانقة مبتعدة عن فكرة أنها يمكن أن تتقبل في يوم من الأيام أسلوب حياة والدتها لدرجة ربما تخلق بداخلها حالة من الصراع بشأنه.

عندما ذهبت جانيت إلى المدرسة الداخلية، أدركت آنا كيف كانت تركن إلى النظام الذي فرضه عليها وضعها كأم لطفلة صغيرة؛ إنها تستيقظ في موعد محدد في الصباح، وتدخل إلى الفراش مبكرًا حتى لا تشعر بالإرهاق عندما تستيقظ مبكرًا في اليوم التالي، وتعد الوجبات بانتظام، وتتحكم في حالتها المزاجية حتى لا تزعج طفلتها.

أصبحت آنا وحدها في هذه الشقة الكبيرة، إن عليها أن تنتقل إلى منزل آخر أصغر، فهي لا تريد أن تؤجر غرف منزلها مرة أخرى، فهي تشعر بالرعب من فكرة دخولها في تجربة أخرى مماثلة لتلك التي مرت بها مع روني وإيفور. وأثار رعبها من الدخول في تجربة مماثلة، ماذا كان يحدث لها حتى تنزوي مبتعدة عن التعقيدات التي تميز حياة الأشخاص وتعزف عن أن تنخرط فيها؟ ليس هذا هو ما تشعر أنها يجب أن تكون عليه. توصلت آنا إلى حل وسط، سوف تبقى بشقتها لعام آخر وتؤجر الغرفة الخالية بها، وستبحث في الوقت ذاته عن وظيفة مناسبة.

تغير كل شيء، ذهبت جانيت إلى المدرسة الداخلية وسافر تومي بصحبة ماريون، على حساب ريتشارد، إلى جزيرة صقلية حاملين معهما عددًا كبيرًا من الكتب التي تتحدث عن أفريقيا. كانا ينويان أن يزورا دولتشي ليريا، على حد قول ماريون، هل بإمكانهما أن يقدما أي نوع من المساعدة لهذا المسكين: «أتعلمين يا آنا أنني أحتفظ بصورته على مكتبي طوال الوقت؟»

أصبحت مولي الآن تعيش بمفردها وخلا المنزل عليها بعد أن تركها ابنها وذهب مع زوجة أبيه السابقة. دعت أطفال ريتشارد للقدوم إلى منزلها، سُرّ ريتشارد بذلك مع أنه لا يزال يحملها مسئولية الحادثة التي فقد ابنه بصره بسببها. اعتنت مولي بالأولاد أثناء سفر ريتشارد مع موظفة السكرتارية التي تعمل لديه إلى كندا من أجل دفع التمويل اللازم لثلاثة مصانع جديدة للفولاذ؛ هذه رحلة شهر العسل بعد أن وافقت ماريون على الطلاق.

اكتشفت آنا أنها تقضي جل وقتها وهي لا تفعل شيئًا على الإطلاق، فقررت أن علاج حالتها تلك هو وجود رجل في حياتها، كان هذا هو الدواء الذي وصفته لنفسها.

تلقت مكالمة من أحد أصدقاء مولي التي منعها انشغالها بأطفال ريتشارد من أن تعتني به، إنه نيلسون، كاتب سيناريو أمريكي، قابلته آنا لدى مولي، وتناولت معه العشاء بضع مرات.

عندما اتصل بآنا قال لها: «أنا أنصحكِ ألا تقابليني مطلقًا، فأنا للمرة الثالثة أشعر بأن زوجتي أصبحت غير محتملة مطلقًا.»

سيطرت أمور السياسية على الجزء الأكبر من الحديث الذي دار بينهما أثناء العشاء. «إن الفرق بين شخص يعتنق سياسة العلم الأحمر في أوروبا ورجل يعتنق هذه السياسة في أمريكا هو أن معتنق السياسة الحمراء في أوروبا يعد شيوعيًّا، ولكنه في أمريكا يكون رجلًا لم يستخرج قط بطاقة حزبية بدافع من الحذر أو الجبن، فلديكم في أوروبا أشخاص منضمون إلى الأحزاب الشيوعية وأشخاص يناصرون هذه السياسة دون الانضمام إلى الأحزاب، أما في أمريكا فلدينا شيوعيون وأشخاص انفصلوا عن سياسة العلم الأحمر. وأنا كنت من معتنقي سياسة العلم الأحمر، وهناك فرق كبير بين الحالتين. أنا لا أريد أن أجر على نفسي المزيد من المشاكل، يكفيني ما أنا فيه. حسنًا، لقد أوضحت لكِ وضعي، هلا اصطحبتني معكِ إلى المنزل الليلة؟»

تقول آنا في نفسها: هناك خطيئة حقيقية واحدة وهي أن يحاول المرء أن يقنع نفسه بأن الحل البديل هو أي شيء آخر سوى أنه حل بديل، بماذا سيفيدني حنيني الدائم إلى مايكل؟

لذا أمضت آنا هذه الليلة مع نيلسون، وسرعان ما أدركت أنه يعاني مشكلة خطيرة في قدرته على ممارسة العلاقة الجنسية، صمتت بدافع من شهامتها، متظاهرة بأنه ليس هناك مشكلة. افترقا في الصباح في ود. ثم أخذت آنا تبكي وقد انقبض صدرها وجاش بداخلها شعور بقلة الحيلة. حادثتها نفسها بأن علاج هذه الحالة لا يكون بأن تجلس وحدها، ولكن أن تتصل بأحد أصدقائها من الرجال، لكنها لم تفعل، فقد كانت عاجزة عن مقابلة أي شخص، فما بالنا بـ«علاقة غرامية» جديدة.

اكتشفت آنا أن الطريقة التي تمضي بها وقتها باتت غريبة، فهي دائمًا تقرأ الكثير من الجرائد والصحف والمجلات، مثلها مثل بقية البشر تعاني تلك النقيصة التي «تحتم» عليها معرفة ما يحدث في كل بقاع العالم، وهي الآن بعد أن تستيقظ متأخرًا وتشرب فنجانًا من القهوة تجلس على الأرض في الغرفة الكبيرة وحولها ست صحف يومية ودستة من الجرائد الأسبوعية، تقرؤها بروية مرات ومرات. كانت تحاول أن تربط الخيوط بعضها ببعض، في حين أنها كانت في الماضي تقرأ الصحف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكي تكون صورة عما يحدث في مختلف بقاع الأرض. أصبحت آنا عاجزة أن ترى وهي تقرأ ذلك النظام الذي كان مألوفًا لها، كأن عقلها تحول إلى مساحة تتناثر بها أنواع مختلفة من الموازين، فآنا تضع الحقائق والأحداث بعضها أمام بعض. لم تكن المسألة متعلقة بسلسلة من الأحداث المتوالية والعواقب التي من المحتمل أن تنشأ عن هذه الأحداث، يبدو كأن آنا أصبحت مركزًا للإدراك تهاجمه ملايين الحقائق التي تفتقر إلى التنسيق، وإذا لم تنجح آنا في أن تزن هذه الحقائق وتوازن بينها وتأخذها جميعًا في الاعتبار فسوف يختفي مركز الإدراك هذا، لذا تجد آنا نفسها تحملق في بيان مثل هذا: «سيمتد خطر الاشتعال الناتج عن الإشعاع الحراري الذي يخلفه الانفجار السطحي لقنبلة وزنها عشرة أطنان ليؤثر في رقعة دائرية قطرها ٥٠ ميلًا، ومساحة هذه الدائرة النارية التي يمتد قطرها إلى خمسين ميلًا هي ١٩٠٠ ميل مربع، وفي حال انفجار القنبلة بالقرب من النقطة المستهدفة ستتضمن هذه المساحة أكثر القطاعات كثافة في التجمع السكني المستهدف من حيث عدد السكان، وهذا يعني أنه في ظل ظروف مناخية معينة سيكون كل الأشخاص والأشياء في هذا المساحة الهائلة معرضين لخطر حراري هائل وستأكل هذه المحرقة معظمهم.» البشاعة في الأمر ليست هذه الكلمات ولكن عجز آنا عن أن توجد أي علاقة تصورية بين ما تقوله هذه الكلمات وهذه الجملة: «أنا شخص يعمد دائمًا إلى تدمير الاحتمالات المستقبلية بسبب عدد وجهات النظر البديلة التي يمكنني أن أركز عليها في الحاضر.» تظل آنا محملقة في هاتين الفقرتين، حتى يبدو لها أن الكلمات نفسها تنسلخ عن الصفحة وتتسلل مبتعدة وكأنها انسلخت عن معناها، ولكن المعنى يبقى دون أن تؤكده الكلمات، وربما يجعله عجز هذه الكلمات عن أن تطوقه أسوأ (ولكنها لا تعرف لماذا). والآن وقد هزمتها كلمات هاتين الفقرتين توجه انتباهها إلى مجموعة أخرى من الكلمات: «لا يدرك الكثيرون في أوروبا أن «الوضع الراهن» بأفريقيا ليس على المستوى الذي يتطلبه الحاضر.» «أظن أن الأسلوب الرسمي (وليست الرومانسية الحديثة كما يقترح السيد سميث) سيكون هو الأسلوب السائد في المستقبل القريب.» وهكذا أصبحت آنا تقضي الساعات وهي جالسة على الأرض وتركيزها كله منصب على مقتطفات تختارها من الصحف. ثم أصبحت آنا تقوم بشيء؛ تقتطع بعض الأجزاء من الصحف والجرائد وتثبتها على الجدران بدبابيس الورق. غطت قصاصات أوراق الصحف الكبيرة منها والصغيرة جدران الغرفة الكبيرة البيضاء، وكانت تمشي أمام الجدران تنظر إلى الأخبار المعلقة عليها. عندما فرغت دبابيس الورق التي لديها

حادثتها نفسها بأنه من الحمق أن تظل تشغل نفسها بشيء لا معنى له، ومع ذلك ارتدت معطفًا ونزلت إلى الشارع واشترت علبتين من الدبابيس، وأخذت تعلق القصاصات التي لم تثبتها على الجدران بعد على نحو منظم، لكن الصحف تراكمت، ففي كل صباح تستقر على مدخل بيتها كومة كبيرة من الصحف، وكل صباح تجلس وتبذل مجهودًا جبارًا لكي ترتب المخزون الجديد من الصحف والجرائد وتذهب لشراء المزيد من دبابيس الورق.

خطر لها أنها تسير في طريق الجنون، وأن هذا هو «الانهيار» الذي تنبأت بحدوثه، إنه «التصدع»، ومع ذلك لم تكن ترى أن بها أي لمحة من لمحات الجنون، بل إنها رأت أن الأشخاص الذين لا يحدوهم نفس الهوس الذي بداخلها إلى معرفة ذلك العالم غير المتناسق الذي تصوره صفحات الجرائد يفتقرون إلى حاجة ضرورية ملحة. لكنها عرفت آنا أنها مصابة بالجنون. ومع أنها لم تستطع أن توقف هذا الهوس الذي يدفعها إلى قراءة هذا الكم الكبير من الصحف والجرائد، واقتطاع القصاصات منها وتعليقها على الجدران في كل مكان، فقد أدركت أنه في اليوم الذي ستعود فيه جانيت إلى المنزل ستصبح آنا هي تلك الشخصية المسئولة وستبرأ من هذا الهوس. إنها تدرك أن كون والدة جانيت امرأة عاقلة ومسئولة هو شيء أهم بكثير من ضرورة فهم العالم، وأن هاذين الشيئين يعتمد أحدهما على الآخر؛ فالعالم لن يفصح عن نفسه، ولن تنظمه الكلمات، ولن يكتسب «اسمًا»، إلا إذا ظلت والدة جانيت امرأة لديها القدرة على أن تصبح شخصًا مسئولًا.

معرفتها بأن جانيت ستعود إلى المنزل بعد شهر ظلت تؤرقها وهي غارقة داخل هوسها بقراءة الصحف، ودفعها ذلك إلى أن تفتح مذكراتها الأربع التي تجاهلتها منذ حادثة تومي، أخذت تقلب صفحات هذه المذكرات مرات ومرات، ولكن دون أن تشعر بأن هناك أي صلة تربطها بها. عرفت أن شعورًا بالذنب لم تكن تفهمه يفصلها عنها، بالطبع هذا الشعور مرتبط بتومي؛ لم تكن تعرف، ولن تعرف أبدًا، هل قراءة تومي لمذكراتها هي التي حركت داخله محاولة الانتحار، أو — في حال إذا كان ذلك صحيحًا — هل هناك شيء محدد أزعجه، أو هل هي فعلًا شخص مغرور. «إنه الغرور يا آنا، إنه الاستهتار.» نعم قال لها ذلك، ولكن بعيدًا عن أنها تعرف أنها خذلته وأنها لم تستطع أن تعطيه ما كان يحتاج إليه، لم تكن تفهم ما حدث.

في إحدى الأمسيات خلدت إلى النوم، راودها حلم عرفت أنها رأته من قبل في أي صورة من الصور؛ لديها طفلان، أحدهما جانيت طفلة ممتلئة تفيض صحة وحيوية،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والآخر تومي طفل ضئيل تجوعه آنا. فرغ ثدياها من اللبن لأن جانيت رضعته كله، لذا أصبح تومي نحيلًا وضعيفًا، يخبو أمام عينيها من فرط الجوع. ثم اختفى تومي، أصبح جسده الهزيل مثل أنبوب لولبي رفيع تطل منه عينان محملقتان، بعدها استيقظت آنا وقد اجتاحتها مشاعر القلق والانقسام الذاتي والشعور بالذنب. ولكنها عندما أفاقت لم تستطع أن تجد أي تفسير لرؤيتها تومي في المنام وهي تجوعه، كانت تعرف أنه في الأحلام الأخرى التي تدور حول هذه الفكرة، ربما يكون الشخص «الذي يُجَوّع» هو أي فرد، ربما يكون شخصًا مرت من أمامه بالطريق وظل وجهه يطاردها. إنها كانت تشعر دون شك بأنها مسئولة عن هذا الشخص الذي لم تكد تلمح وجهه، وإلا لما رأت في أحلامها أنها خذلته.

بعدما استيقظت آنا من هذا الحلم عادت مرة أخرى إلى عملها وهي في حالة من الهياج، تقتطع الأخبار من الصحف وتثبتها على الجدران.

في هذا المساء شعرت آنا — وهي تجلس على الأرض تستمع إلى موسيقى الجاز وقد انتابها اليأس لأنها عجزت عن أن تستخرج أي «معنى» من قصاصات الصحف — بإحساس جديد يتخللها، كأنه هلوسة لم تعرفها من قبل انتابتها قبل أن تفهم صورة العالم. ما أدركته كان فظيعًا، إنها حقيقة تختلف عن أي شيء عرفته من قبل على أنه حقيقة، آتية من بقعة من الإحساس لم تطرقها آنا من قبل. لم يكن الأمر هو أنها تشعر «بالاكتئاب» أو «بالتعاسة» أو «بالإحباط»، ولكن جوهر التجربة التي تمر بها تمثل في افتقاد كلمات مثل الفرحة أو السعادة لمعناها. عندما عادت آنا من رحلتها في ذلك العالم الذي انكشفت فيه أمامها الحجب لتلوح لها من ورائها ومضة من الضوء، وقد بدت رحلة أزلية إذ لم تكن تعرف كم من الوقت استمرت، أدركت أنها مرت بتجربة لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات، كانت أبعد بكثير من تلك المرحلة التي تحمل فيها الكلمات معنى.

ومع ذلك وقفت آنا مرة أخرى أمام الدفاتر ووضعت يدها التي تمسك بالقلم الحبر — الذي بدت مكوناته الداخلية الهشة منه مثل حيوان بحري أو مثل فرس البحر — لبرهة فوق الدفتر الأول، ثم وضعتها على دفتر آخر لكي تدع طبيعة تلك «الومضة» التي تكشفت لها تقرر في أي دفتر يجب أن تُكتب، ولكن الدفاتر الأربع بكل ما فيها من تقسيمات وعناوين فرعية بقيت كما هي، ووضعت آنا قلمها على المنضدة.

حاولت أن تجرب بعض المقاطع الموسيقية، بعضًا من موسيقى الجاز ومقتطفات من موسيقى باخ وبعض ألحان سترافينسكي، ظنًّا منها أن الموسيقى يمكن أن تعبر

عما عجزت الكلمات أن تقوله، ولكن تكرر ما أصبح يحدث كثيرًا هذه الأيام، أزعجتها الموسيقى وكأنها تهاجم أغشية أذنها الداخلية التي تصد الألحان كما لو أنها تصد هجمات عدو.

حدثتها نفسها: لا أعرف لمَ يصعب عليّ حتى الآن أن أتقبل فكرة أن الكلمات معيبة وناقصة وأنها بطبيعتها غير دقيقة، إذا كنت أظن أن بإمكانها أن تعبر عن الحقيقة لما أخفيت مذكراتي عن كل الناس، فيما عدا تومي بالطبع.

لم تغفل عيناها في تلك الليلة، ظلت مستيقظة تعيد التفكير في تلك الخواطر التي تعرفها جيدًا حتى إنها أصبحت تشعر بالملل فقط إذا شارفت هذه الخواطر على الاقتراب منها، هذه الخواطر تتعلق بالسياسة وبأساليب التصرف في زماننا. هذه خطوة في طريق الانحدار نحو الوقوف بالصفوف المتعارف عليها، لأن آنا كعادتها استنتجت أن أي تصرف ستقوم به سيفتقر إلى الإيمان، الإيمان بالـ«خير» وبالـ«الشر»، ولكنه سيكون تصرفًا مؤقتًا فقط تأمل أنه سيؤتي ثمارًا جيدة، ولا يداخلها أي شعور أكثر من ذلك، ولكن هذا الاتجاه الفكري قد يجعلها تتخذ قرارات تكلفها حياتها أو حريتها.

استيقظت في وقت مبكر للغاية، وسرعان ما وجدت نفسها تقف في منتصف المطبخ ويداها ممتلئتان بقصاصات الصحف ودبابيس الورق، كل جدران الغرفة الكبيرة التي استطاعت آنا أن تطولها امتلأت بقصاصات الصحف. شعرت بأنها مصدومة، فوضعت القصاصات الجديدة ورزم الصحف والجرائد جانبًا. ثم حادثتها نفسها بأنه ليس منطقيًّا أن تشعر بالصدمة لأنها تريد أن تشرع في تعليق قصاصات الورق على جدران حجرة أخرى في حين أن تغطيتها لجدران الحجرة الأولى جميعها بهذه القصاصات لم تصدمها، أو على الأقل لم تكن صدمتها كافية لتجعلها تتوقف.

ولكنها تشجعت لأنها لن تلصق بعد الآن على الجدران قصاصات من الصحف تحتوي على معلومات لا يمكن أن يفهم كنهها المرء. وقفت في منتصف الحجرة الكبيرة وحدثتها نفسها بأن تنزع قصاصات الصحف من فوق الجدران، ولكنها لم تستطع. أخذت تتحرك مرة أخرى في أنحاء الغرفة، تحاول أن تربط بين الأخبار الصحفية وتجد علاقة بين مجموعات الكلمات بعضها وبعض.

وبينما هي كذلك إذ رن جرس الهاتف، إنها إحدى صديقات مولي تخبرها بأن رجلًا من اليساريين الأمريكيين يحتاج إلى غرفة بضعة أيام. قالت آنا مازحة إنه إذا كان أمريكيًّا فهذا يعني أنه يكتب رواية ملحمية وأنه يخضع لجلسات علاج نفسي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويوشك أن ينهي زواجه الثاني، ولكنها وافقت أن تؤجر له الغرفة، وبعد فترة اتصل بها هذا الرجل الأمريكي ليبلغها أنه سيأتي في الخامسة مساء. ارتدت آنا ملابسها لكي تستقبله، وأدركت أنها في الأسابيع الأخيرة لم ترتد ثيابها إلا لتذهب لشراء الأطعمة أو دبابيس الورق. وقبل أن تدق الساعة الخامسة اتصل بها وأبلغها أنه لن يستطيع أن يأتي لأن عليه أن يذهب لمقابلة وكيل أعماله، اندهشت آنا من كثرة التفاصيل التي حكاها ليبرر لها ذهابه إلى هذا الموعد. وبعد بضع دقائق اتصلت بها صديقة مولي مرة أخرى لتخبرها بأنها تقيم حفلًا الليلة بمنزلها وبأن ميلت (الرجل الأمريكي) سيحضره وتطلب منها أن تأتي، انتابها الضيق ولكنها تجاهلته. رفضت آنا الدعوة وارتدت الرداء وعادت لتجلس على الأرض ومن حولها الجرائد.

رن جرس الباب في وقت متأخر من الليل، وعندما فتحته آنا وجدت الرجل الأمريكي أمامها. اعتذر لها لأنه لم يتصل قبل أن يأتي واعتذرت هي لأنها ترتدي ثيابًا منزلية.

استطاعت آنا أن تتبين أنه شاب في الثلاثين من عمره، رأسه مغطاة بشعره البني القصير الذي بدا مثل طبقة من الفراء اللامع، ويرتدي نظارة فوق وجهه النحيل الذي أطلت منه أمارات الذكاء، إنه ينتمي إلى هذه الفئة من الأمريكيين الذين يتمتعون بالفكر الثاقب والكفاءة والذكاء. إنها تعرفه جيدًا، أطلقت عليه «اسمًا» يضعه في مكانة أرفع مائة مرة من نظيره الإنجليزي، كانت تعني بهذا «الاسم» أنه من سكان بلدة من بلاد اليأس لم تدرجها أوروبا بعد على خريطتها.

وهما يصعدان السلم شرع في الاعتذار لذهابه لمقابلة وكيل أعماله، ولكنها قاطعته بسؤال عن الحفل هل أعجبه. أطلق ضحكة فظة وقال: «حسنًا، لقد كشفت أمري.» ردت عليه: «إن بإمكانك أن تقول لي دائمًا إنك تود أن تحضر حفلًا.»

إنهما الآن بالمطبخ وكل منهما يتفحص الآخر بابتسامة على وجهه، وهذه الأفكار تجول برأس آنا: إن المرأة التي تعيش بمفردها دون رجل لا يمكنها أن تقابل واحدًا، أي واحد، أيًّا كان عمره، من دون أن تفكر ولو لأقل من لحظة أنه ربما يكون هذا «هو» الرجل الذي تبحث عنه، لذا تضايقت عندما عرفت أنه أخفى عليها أمر الحفل. يا لها من مملة، هذه المشاعر التي نتوقعها دائمًا.

قالت له: «هل تود أن ترى الغرفة؟»

نهض مستندًا بيده على ظهر كرسي أصفر من كراسي المطبخ، إذ أكثر من الشراب في الحفل وقال لها: «أجل.»

ولكنه لم يتحرك. قالت له: «يمكنك أن تعتمد علي، فأنا لست تحت تأثير الشراب. ولكن هناك بضعة أشياء أود أن أقولها؛ أولًا: أنا أعرف أن كل الأمريكيين ليسوا أغنياء، ولذلك فإيجار الغرفة لن يكون باهظًا.» ابتسم ميلت واستطردت: «ثانيًا: أنت تعكف على كتابة رواية أمريكية ملحمية و...».

– خطأ، أنا لم أبدأ بعد في كتابتها.

– أود أيضًا أن أقول إنك تتلقى علاجًا نفسيًّا لأن لديك بعض المشكلات.

– خطأ آخر، ذهبت مرة إلى طبيب نفسي وقررت أنه يمكنني أن أفيد نفسي أكثر.

– حسنًا هذا جيد، على الأقل سيكون من الممكن أن أتحدث معك.

– ما الذي تحاولين أن تأخذي حذركِ منه إلى هذا الحد؟

قالت وهي تضحك: «لو كنت مكانك لقلت إنك تصرفين في عدوانية.» ثم أضافت في اهتمام إنها كان من الممكن أن تبكي بهذه السهولة نفسها.

قال لها: «مررت عليك في مثل هذا الوقت المتأخر لأنني أود أن أنام هنا الليلة. نزلت في الدار التابعة لجمعية الشبان المسيحيين، وهي أكثر الأماكن التي لا أفضلها في كل مدينة أذهب إليها. وقد سمحت لنفسي بأن أحضر حقيبتي التي تركتها بدافع من المكر أمام الباب.»

ردت عليه آنا: «فلتحضرها إذن.»

هبط ميلت إلى أسفل ليحضر حقيبته، وذهبت آنا إلى الغرفة الكبيرة لتحضر ملاءة لفراشه. دلفت إلى الغرفة بعفوية، ولكن حينما سمعته يقترب من الباب من خلفها تجمدت في مكانها حيث استوعبت كيف يمكن أن تبدو الغرفة؛ فالأرض بحيرة من الجرائد والصحف، والجدران مغطاة بالقصاصات، والفراش غير مرتب. استدارت إليه وهي تحمل الملاءات وأغطية الوسائد وقالت: «إذا كان بإمكانك أن تفرش الملاءات على السرير ...» ولكنه دخل بالفعل إلى الغرفة وأخذ يتفحصها في تركيز بنظرات ثاقبة من خلف نظارته، ثم جلس على طاولتها ذات القوائم الخشبية التي تضع على سطحها الدفاتر وأخذ يهز قدميه. نظر إليها (فتخيلت كيف تبدو في المعطف المنزلي ذي اللون الأحمر الباهت وشعرها الأسود المفرود منسدل حول وجهها الذي خلا من أي مساحيق للتجميل.) ونظر إلى الجدران وإلى الأرض وإلى الفراش، ثم قال بلهجة امتزجت فيها السخرية بالذهول: «يا إلهي.» ولكن معالم القلق ارتسمت على وجهه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت آنا في تودد: «يقولون إنك يساري.» وقد جذب اهتمامها أن يكون هذا هو ما قالته في عفوية لتفسر له ما يراه أمامه.

– يساري كلاسيكي من يساريي ما بعد الحرب.

– أنا منتظرة منك أن تقول لي: أنا والاشتراكيون الثلاثة الآخرون بأمريكا سوف ....

– الأربعة الآخرون.

اقترب من إحدى الجدران بخطوات متسللة كأنه يراقبها خلسة، وخلع نظارته ليلقي نظرة على القصاصات التي تغطيها (فاتضح لآنا أنه يعاني قصر نظر) وقال مرة أخرى: «يا إلهي.»

وضع نظارته على عينيه مرة أخرى في حرص وقال: «كنت أعرف رجلًا من أكفأ مراسلي الصحف، إذا كنت تودين أن تعرفي بطبيعة الحال علاقته بي، كان لي بمنزلة الأب الروحي؛ كان من أنصار العلم الأحمر، ثم أوقعته بعض الأشياء في مشكلة، نعم هكذا يمكن أن نقول، وأصبح الآن يعيش منذ ثلاث سنوات في شقة متواضعة بنيويورك تغطي الستائر نوافذها يعكف على قراءة الجرائد. تراكمت الجرائد بشقته حتى كادت تبلغ السقف، وتضاءلت المساحة السطحية الخالية بها بمعدل ياردتين على أقل تقدير. كانت الشقة واسعة قبل أن تبتلع الجرائد مساحتها.»

– لم يستمر هوسي بالجرائد إلا بضعة أسابيع.

– شعرت بأن من واجبي أن أقول لكِ ذلك، إن الموضوع ربما يبدأ ثم يُحْكِم قبضته، مثلما حدث مع صديقي المسكين. بالمناسبة إنه يدعى هانك.

– بالطبع.

– إنه رجل طيب. من المؤسف أن يرى المرء شخصًا يسير في هذا الطريق.

– من حسن الحظ أن لدي ابنة ستعود من مدرستها بعد شهر، وبحلول هذا الوقت سأعود إلى طبيعتي.

قال لها وهو يجلس على الطاولة ويهز قدميه الطويلتين والنحيلتين: «ربما ينتهي هذا الأمر.»

بدأت آنا تغير أغطية الفراش.

– هل تفعلين ذلك لأنني قدمت؟

– بالتأكيد.

– أنا متخصص في بعثرة الأغطية.» اقترب منها في صمت وهي منحنية فوق الفراش، فقالت له: «أخذت ما يكفيني من العلاقات الجنسية الباردة الماهرة.

عاد إلى الطاولة وأجابها: «كلنا كذلك، ماذا حدث للعلاقات الدافئة التي تنطوي على الإخلاص التي نقرأ عنها في الكتب؟»

قالت آنا: «ذهبت.»

– بالإضافة إلى ذلك، أنا لست ماهرًا.

– ألم تفعل ذلك قط؟

هكذا تعمدت أن تسأله آنا.

استدارت له وقد انتهت من ترتيب الفراش، فابتسم كل منهما للآخر في سخرية.

– أنا أحب زوجتي.

ضحكت آنا.

– أجل، ولهذا سأطلقها، أو هي من ستطلقني.

– حسنًا، ذات مرة قابلت رجلًا وأحبني، أنا أعني أنه أحبني حبًّا حقيقيًّا.

– ولهذا؟

– ولهذا تركني.

– مفهوم، فالحب صعب للغاية.

– والعلاقات الجنسية باردة للغاية.

– أتعنين أنكِ عزفت عن الدخول في أي علاقة منذ هذا الوقت؟

– لا.

– لم أظن ذلك.

– لن يكون هناك فرق.

– بما أننا أوضحنا مواقفنا، أيمكننا أن ندخل إلى الفراش؟ أنا أشعر أن الشراب أدار رأسي قليلًا وأشعر بالنعاس ولا يمكنني أن أنام بمفردي.

خرجت الجملة الأخيرة التي صرح فيها بأنه «لا يستطيع أن ينام بمفرده» بلهجة تطل منها القسوة والبرودة اللذان يميزان شخصًا لعب به الحظ العسر إلى أقصى الحدود. اندهشت آنا، ثم طرحت كل الأفكار الشخصية من ذهنها لتتفحصه في حيادية تامة، كان يجلس على الطاولة وتعلو وجهه ابتسامة، إنه رجل يحاول أن يتماسك بكل قوته.

قالت آنا: «ولكنني أستطيع أن أنام بمفردي.»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– بما أنكِ في موقف أفضل، فلتتحلي بالكرم.

– لا يهمني ذلك.

– آنا، أنا أحتاج إلى ذلك، وحينما يكون هناك شخص بحاجة إلى شيء ما، ألا تعطينها إليه؟

لم ترد آنا.

– أنا لن أطلب منكِ أي شيء آخر، لن تكون لي أي مطالب وسوف أغادر حينما تطلبين مني ذلك.

انتابها الغضب فجأة، وتصاعد داخلها أيما تصاعد. قالت له: «أحقًّا ذلك؟ أنت مثلك مثل كل الرجال، تتظاهرون بأنكم لا تطلبون شيئًا، ولكنكم في الحقيقة تطلبون كل شيء، ولكن في فترة احتياجكم لذلك فقط.»

أجابها: «إنه العصر الذي نعيش فيه.»

ضحكت آنا، وتلاشى غضبها، فأطلق الرجل فجأة ضحكة عالية تنم عن الارتياح.

– أين قضيت ليلتك الفائتة؟

– مع صديقتكِ بيتي.

– إنها ليست صديقتي، بل صديقة لإحدى صديقاتي.

– أمضيت معها ثلاث ليالٍ. وفي الليلة الثانية قالت لي إنها وقعت في حبي وسوف تترك زوجها من أجلي.

– يا للسخف.

– أنتِ لن تتصرفي هكذا يا آنا، أليس كذلك؟

– من المحتمل جدًّا أن أتصرف هكذا، أي امرأة يعجبها رجل ربما تتصرف كذلك.

– ولكن يا آنا يجب أن تلاحظي ....

– أنا أستطيع أن ألاحظ جيدًا.

– إذن لن أكون بحاجة لأن أعد فراشي؟

بدأت آنا تبكي، فتوجه إليها ميلت وجلس بجانبها وأحاطها بذراعه وقال لها: «إنه لضرب من ضروب الجنون أن يجوب المرء العالم. كنت أجوب بلاد العالم، ألم يخبروكِ بذلك؟ يفتح المرء بابًا، فيجد خلفه شخصًا يعاني مشكلة؛ في كل مرة تفتحين فيها الباب تجدين خلفه شخصًا محطمًا.»

– ربما أنت من تختار الأبواب التي تفتحها.

– حتى لو كان الأمر كذلك فهناك عدد ضخم من الأبواب التي ... لا تبكي يا آنا. لا تفعلي إلا إذا كنتِ مستمتعة بالبكاء، وأنتِ لا تبدين كذلك.

استلقت آنا على الوسائد وظلت صامتة، وجلس ميلت بجانبها مقوسًا ظهره وهو يعض على شفتيه. ارتسمت على وجهه ملامح امتزج فيها الإصرار والذكاء بالحزن.

– ماذا يجعلك تظن أنني في صباح اليوم التالي لن أقول لك إنني أرغب في أن تبقى معي.

قال لها في حرص: «أنتِ ذكية للغاية.»

ردت عليه وهي تشعر بالضيق من حرصه: «هكذا سيكتبون على قبري: هنا ترقد آنا ولف التي كانت تتصرف بذكاء شديد دائمًا؛ كانت تدعهم يرحلون.»

– الأسوأ من ذلك أن تدعيهم يبقون، مثلما تفعل بعضهن، ربما أذكرهن لكِ.

– أنا أظن ذلك.

– سأرتدي المنامة وأعود.

خلعت آنا الرداء الخارجي وهي بمفردها وترددت أترتدي المنامة أم قميص النوم، واختارت قميص النوم، كانت تعرف بفطرتها أنه سيفضل المنامة، فاختارت قميص النوم لكي تثبت أن لديها رأيًا وشخصية مستقلة.

قدم ميلت إلى الغرفة وقد ارتدى عباءة ووضع نظارته على عينيه، ولوح لها وهي مستلقية بالفراش، ثم توجه إلى أحد الجدران وبدأ ينتزع قصاصات الصحف التي تغطيه، قال لها: «هذه خدمة بسيطة، ولكنني أشعر أنني مدين لك بها.» ترامى إلى سمع آنا صوت قصاصات الصحف وهي تُقطع والنقر الخفيف الذي أحدثته دبابيس الورق وهي تسقط متناثرة على الأرض. واستلقت واضعة يديها تحت رأسها تستمع وهي تشعر بأن هناك من يحميها ويهتم بأمرها. كانت ترفع رأسها كل بضع دقائق لترى كيف يتقدم في مهمته. رويدًا رويدًا أخذت الجدران البيضاء تتكشف من تحت الورق، استغرقت هذه المهمة وقتًا طويلًا، أكثر من ساعة.

وعندما انتهى ميلت قال لها: «حسنًا، عالجت هذه المشكلة، وأنقذت روحًا أخرى من الجنون.»

ثم فرد ذراعيه ليلملم أكوام أوراق الجرائد الملطخة بالحبر ووضعها أسفل الطاولة ذات القوائم الخشبية.

– ما هذه الكتب؟ رواية أخرى؟

– لا، ولكنني كتبت رواية من قبل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– قرأتها.

– هل أعجبتك؟

– لا.

– لا؟ كانت آنا منفعلة واستطردت: حسنًا، عظيم.

– مبهرجة، هكذا سأصفها إذا سئلت عنها.

– سوف أطلب منك في صباح اليوم الثاني أن تبقى، أنا أشعر أن هذا سيحدث.

– ولكن ماذا تكون هذه الكتب؟ بدأ ميلت يقلب الأغلفة.

– أنا لا أريدك أن تقرأها.

سألها وهو يقرأ: «لمَ؟»

– لم يقرأها سوى شخص واحد وقد حاول أن يقتل نفسه وفشل ولكنه أصيب بالعمى، وتحول الآن إلى ما حاول أن يقتل نفسه من أجل أن يتجنبه.

– يا للأسف.

رفعت آنا رأسه بيديها لتراه، لقد تعمد أن يرسم على وجهه ابتسامة قاتمة.

– أتعنين أنك أنت السبب فيما حدث؟

– ليس بالضرورة.

– حسنًا، أنا لست شخصًا قد ينتحر. يمكنني أن أقول إنني شخص يستغل النساء أو يمتص الحيوية من الآخرين، ولكنني لست شخصًا يمكن أن يقتل نفسه.

– لا داعي للتفاخر بهذا الأمر.

ساد الصمت برهة ثم قال ميلت: «حسنًا، بعد أن فكرت في الأمر من جميع «الزوايا» يمكنني أن أقول إنني كنت أصرح بشيء أفعله. لم أكن أتفاخر، بل كنت أعلن عن شيء ما وأعرّفه. على الأقل أنا أدرك أنني كذلك، وهذا يعني أنني أستطيع أن أتغلب على هذا الطبع. سوف تندهشين عندما تعرفين كم من الأشخاص الذين أعرفهم يقتلون أنفسهم أو يستغلون الآخرين دون أن يدركوا ذلك.»

– لا، لن أندهش.

– ولكنني أدرك ما أقوم به، ولهذا سأتغلب على هذا الطبع.

سمعت آنا صوت ارتطام الأغلفة بصفحات دفاترها وهو يغلقها، ثم ترامى إليها صوته الفتي المرح الذي تطل منه الفطنة وهو يقول: «ماذا كنتِ تحاولين أن تفعلي؟ أن تحبسي الحقيقة؟ الصدق وغيرها من الأمور؟»

– شيء من هذا القبيل، ولكن لم يُجْدِ ذلك.

– ليس هناك جدوى أيضًا من أن تدعي الشعور بالذنب الذي يحلق فوق رءوسنا مثل النسور يمسك بك، هذا ليس جيدًا على الإطلاق.

ضحكت آنا، وبدأ ميلت يدندن على طريقة ألحان أغاني البوب:

الشعور بالذنب يأكلني ويأكلك
يحلق فوقنا كالنسر
فلا تدعي النسر العجوز يمسك بكِ

اتجه إلى مشغل الأسطوانات وألقى نظرة على الأسطوانات الموسيقية الموجودة بجانبه، وأدار واحدة للعازف الأمريكي الشهير، بروبيك. قال ميلت: «أنا أشتم رائحة الوطن، تركت الولايات المتحدة وأنا كلي حماس لأن أخوض تجارب جديدة، ولكنني أجد الموسيقى التي تركتها ورائي في كل مكان.» جلس وقد أطلت من خلف نظارته نظرة جادة لم تخلُ من المرح، وأخذ يحرك كتفيه وشفتيه مع ألحان الجاز. قال لها: «من المؤكد أن ذلك يولد لدى المرء إحساسًا بالاستمرارية، نعم هذا هو الوصف المناسب. إنه إحساس مؤكد بالاستمرارية، فأنا أنتقل من مدينة إلى أخرى فأجد نفس الموسيقى وأجد وراء كل باب شخصًا مجنونًا مثلي.»

قالت له آنا: «إن جنوني هو جنون مؤقت.»

– حسنًا، ولكنكِ جربتِ هذا الأمر، وهذا يكفي.

اتجه إلى الفراش وخلع العباءة التي يرتديها ثم دخل إلى الفراش مثل أخ لها، بود وعفوية.

– هل لديكِ فضول لمعرفة سبب تلك الحالة السيئة التي أنا فيها؟

– لا.

– سوف أخبركِ على أي حال. أنا لا أستطيع أن أضاجع النساء اللاتي أحبهن.

قالت آنا: «عادي.»

– نعم، أنا أتفق معك، عادي حتى إنه أصبح مكررًا وسخيفًا.

– ومحزنًا قليلًا لي.

– ومحزنًا لي أنا أيضًا بالتأكيد؟

– هل تعرف بماذا أشعر الآن؟

– نعم، يا آنا صدقيني أنا أعرف شعوركِ وأشعر بالأسف حياله، أنا لا أفكر على نحو زال وانتهى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صمت برهة ثم قال: «كنتِ تسألين نفسكِ: وماذا عني أنا؟»

– من الغريب أنني فعلًا فكرت في هذا السؤال.

– هل تريدني أن أضاجعكِ؟ بإمكاني أن أفعل ذلك.

– لا.

– ظننت أنكِ لن ترغبي في ذلك ومعكِ حق.

– ليس هناك فرق.

– ماذا سيكون شعوركِ لو كنتِ مكاني؟ أكثر امرأة أحبها على وجه الأرض هي زوجتي، وآخر مرة ضاجعتها فيها كانت في شهر العسل، وبعد ذلك لم أقربها. بعد ثلاث سنوات فاض بها الكيل ولم تستطع أن تحتمل. هل بوسعكِ أن تلوميها؟ هل بوسعي أن ألومها؟ ولكنها تحبني أكثر من أي شخص في العالم. قضيت الليالي الثلاثة الأخيرة مع بيتي صديقة صديقتكِ. أنا لا أحبها، ولكنني أحب حركة مثيرة معينة تقوم بها.

– لا تقل ذلك.

– أتعنين أنكِ سمعتِ هذا الكلام من قبل؟

– نعم، على نحو ما أو آخر.

– نعم، كلنا سمعناه من قبل، هل أدخل في شرح الأسباب الاجتماعية — نعم هذا هو الوصف المناسب لها — التي تقف وراء هذا الأمر؟

– لا، أنا أعرفها.

– هكذا ظننت. حسنًا، ولكنني سوف أتغلب على هذا الأمر. قلت لكِ إنني أؤمن إيمانًا شديدًا بقدرة العقل. يمكنني أن أقول، إذا سمحتِ لي، إنني أؤمن كل الإيمان بالقدرة على إدراك الخطأ والاعتراف به واقتناع المرء بأنه سيتغلب عليه.

قالت آنا: «عظيم، وأنا أيضًا كذلك.»

– أنا معجب بكِ يا آنا. وأود أن أشكركِ لأنكِ سمحتِ لي بأن أبقى، فالنوم بمفردي يدفعني إلى الجنون.» صمت برهة ثم قال: «أنتِ محظوظة لأن لديكِ طفلة.

– أنا أعرف، ولهذا أنا عاقلة وأنت مجنون.

– أجل، إن زوجتي لا تريد أن يكون لدينا طفل. أنا لا أعني أنها لا تود ذلك، ولكنها قالت لي: ميلت، أنا لن أنجب طفلًا من رجل لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يضاجعني إلا عندما يكون سكرانًا.

قالت آنا في ضيق: «تكلمت بمثل هذه الطريقة؟»

- لا يا عصفورتي، لا يا صغيرتي كانت تقول: أنا لن أنجب طفلًا من رجل لا يحبني.

ردت آنا بلهجة مفعمة بالمرارة: «يا لها من مغفلة.»

- لا تتكلمي بمثل هذه النبرة يا آنا، وإلا سأضطر إلى المغادرة.

- ألا تظن أن هناك شيئًا غريبًا في أن يأتي رجل إلى شقة إحدى النساء ويطلب منها أن يشاركها فراشها لأنه يهوي في الفراغ إذا نام بمفرده، ولكنه يخبرها بأنه لا يستطيع أن يضاجعها لأنه إذا فعل سيكرهها؟

- هل هو أكثر غرابة من أي ظاهرة أخرى يمكن أن نتطرق إليها؟

قالت آنا بلهجة متأنية: «لا.» ثم استطردت: «أشكرك على أنك نزعت ذلك الهراء من فوق جدران غرفتي، شكرًا لك. كنت على وشك أن أصاب بالجنون إذا واصلت هذا الأمر بضعة أيام أخرى.»

- لا شكر على واجب. أنا أعرف يا آنا أنني أبدو كشخص فاشل حينما أتحدث، ولكن هناك شيئًا واحدًا أجيد عمله وهو أنني أعرف ما الإجراءات الحاسمة التي يجب أن أتخذها عندما أرى شخصًا في مشكلة.

خلدا إلى النوم.

وفي الصباح شعرت آنا ببرودة شديدة تنبعث من جسده الذي كان بين ذراعيها، كأنه كتلة من اللحم البارد، فبدا لها أنها تمسك بين ذراعيها شخصًا ميتًا. بدأت تدلكه في روية حتى يسري الدفء في جسده ويفيق، استيقظ ميلت وقد أصبح جسده دافئًا وملأه الامتنان لها فضاجعها، ولكن حاجزًا فصل بينها وبينه، فلم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتوتر، ولم تتمكن من أن تشعر بالاسترخاء.

بعد أن انتهى من مضاجعتها قال: «ها أنتِ ذا، كنت أعرف أن ذلك سيحدث، ألم أكن على حق؟»

- نعم، ولكن هناك شيئًا يميز الرجال الذين يضاجعون النساء بقوة لا يمكن أن يُقاوم.

- ومع ذلك أنتِ أيضًا تمتلكين هذه الميزة، لأننا من الآن سنوجه قدرًا أقل من طاقتنا لمشاعر الكراهية والنفور أحدنا تجاه الآخر.

- ولكنني لا أكرهك.

كان كل منهما معجبًا بالآخر للغاية، وسادت علاقتهما مشاعر الود والحزن وكانا قريبين مثل رجل وامرأة متزوجين منذ عشرين عامًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظل ميلت بشقتها خمسة أيام، ينام في الليل بفراشها، وفي اليوم السادس قالت له: «أنا أريدك أن تبقى معي يا ميلت.» قالتها بنبرة تطل منها المحاكاة، المحاكاة لنوع من المشاعر الغاضبة التي تطل منها الرغبة في معاقبة الذات. أجابها وهو يرسم ابتسامة على وجهه الحزين: «أجل، أنا أعرف أن الوقت حان لكي أغادر، إنه وقت الرحيل. ولكن لمَ يكون عليّ أن أغادر، لماذا؟»

– لأنني أريدك أن تبقى.

– لماذا لا تستطيعين أن تحتملي هذا الأمر؟ لم لا؟

أطلت من تحت نظارته نظرات الشغف وارتسمت على شفتيه ابتسامة أطل منها الحرص، لكن وجهه شاحب وتناثرت قطرات العرق فوق جبهته. «عليكن أن تتقبلونا وتهتموا بأمورنا، ألا تعرفن ذلك؟ ألا ترين أن كل الأمور تسير معنا أسوأ منكن؟ أعرف أنكن تقسون على أنفسكن وأنتن على حق، ولكن إذا تقبلتمونا في هذه اللحظة ورأيتمونا من خلال ...».

قالت آنا: «إن الوضع لا يختلف لكم.»

– غير صحيح، أنتن أكثر جلدًا، وأكثر طيبة. إن وضعكن يسمح لكن باحتمال هذا الأمر.

– سوف تعثر على امرأة أخرى معتدلة المزاج في المدينة التي ستذهب إليها.

– إذا حالفني الحظ.

– أتمنى أن يحالفك الحظ.

– نعم، أنا أعرف أنكِ تتمنين لي ذلك، أعرف يا آنا. وأود أن أشكركِ ... آنا، سوف أتغلب على هذا الأمر، إن لديكِ ألف سبب يجعلكِ تظنين أنني لن أتغلب عليه، ولكنني سأفعل، أنا أعرف أنني سأفعل.

قبل أن يغادر وقف الاثنان بالمطبخ والدموع تكاد أن تسيل من أعينهما، وكل منهما لا يريد أن يكتب النهاية.

– لن تستسلمي يا آنا؟

– ولمَ لا؟

– سيكون شيئًا مؤسفًا.

– وربما ترغب أيضًا في أن تزورني مرة أخرى وتقضي معي ليلة أو اثنتين.

– حسنًا، من حقكِ أن تقولي هذا.

– ولكنني سأكون مشغولة في المرة القادمة. لسبب واحد وهو أنني سألتحق بوظيفة.

– لا تخبريني ما هي، دعيني أخمن، سوف تشتغلين في مجال الخدمة الاجتماعية؟ سوف تعملين – دعيني أخمن – كأخصائية اجتماعية بدار رعاية نفسية أو ستدرسين بإحدى المدارس أو شيء من هذا القبيل؟

– شيء من هذا القبيل.

– كلنا سيأتي عليه هذا اليوم.

– ولكن روايتك الملحمية التي ستكتبها ستنقذك من هذا اليوم.

– يا لكِ من شريرة يا آنا، يا لكِ من شريرة.

– أنا لا أشعر أنني شخص طيب، فأنا أرغب دائمًا في أن أصيح وأصرخ وأكسر كل شيء.

– هذا ما كنت أقوله لكِ، إن هذا هو السر الخفي لزماننا، لا أحد يذكره على الإطلاق، ولكن في كل مرة يفتح فيها المرء أحد الأبواب يحييه من يقف وراءه بصرخة صامتة حادة ويائسة.

– شكرًا لأنك أنقذتني مما كنت غارقة فيه.

– لا شكر على واجب.

قبلها ونزل بخطوات رشيقة على السلم وهو يمسك بحقيبته وحينما وصل إلى آخره قال: «كان يجدر بكِ أن تقولي: سأكتب لك.»

– ولكننا لن نتراسل.

– ولكن يمكن أن نحافظ على الشكليات، على الأقل الشكليات الخاصة بـ ....

اختفى ميلت وهو يلوح لها بيده.

عندما عادت جانيت إلى المنزل وجدت أمها تبحث عن شقة أخرى أصغر ووظيفة.

اتصلت مولي بآنا لتخبرها بأنها ستتزوج، وذهبت آنا لزيارتها وجلست المرأتان بالمطبخ حيث كانت مولي تعد لنفسها ولآنا عجة بيض وسلطة.

– من هو؟

– أنتِ لا تعرفينه، إنه من هؤلاء الذين اعتدنا أن نطلق عليهم رجال الأعمال التقدميين؛ أتعرفين ذلك الفتى اليهودي المسكين الآتي من الحي الفقير بشرق لندن الذي أصبح غنيًّا وتبرع بالأموال إلى الحزب الشيوعي لكي يريح ضميره. إنهم الآن يتبرعون بالأموال لأسباب تقدمية فقط.

– إنه إذن من أصحاب الأموال؟

– الأموال الطائلة، ولديه أيضًا منزل في هامبستيد. أدارت مولي ظهرها لصديقتها، في حين أخذت آنا تفكر في هذه المعلومة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– وماذا ستفعلين بمنزلكِ هذا؟

– ألا يمكنكِ أن تخمني؟

استدارت مولي لتواجهها وقد عادت إلى نبرة صوتها تلك الحيوية التي تطل من الأسلوب الساخر الذي اعتادت أن تتكلم به، وأطل من ابتسامتها مزيج يجمع بين النبل والتهكم.

– لا تقولي لي إن ماريون وتومي سيأخذانه؟

– وماذا غير ذلك؟ ألم تقابليهما؟

– لا ولا حتى قابلت ريتشارد.

– حسنًا، إن تومي مستعد تمامًا لأن يحذو حذو ريتشارد، لقد بدأ في ذلك بالفعل، بدأ يتسلم مقاليد الأمور، وريتشارد سيتخلى شيئًا فشيًا عن مسئولياته ويستقر في حياته مع جين.

– أتعنين، أنه سعيد وراضٍ تمام الرضا؟

– رأيته مع فتاة حسناء بالشارع الأسبوع الماضي، ولكن دعينا لا نتعجل في إصدار الأحكام.

– حسنًا.

– إن تومي مصمم على ألا يتبع الخط الرجعي اللاتقدمي مثل ريتشارد، فهو يقول إن العالم سيتغير بجهود رجال الأعمال التقدميين الكبار وممارسة الضغوط على المصالح الحكومية.

– إنه على الأقل يفكر على نحو يساير العصر الذي نعيش فيه.

– أرجوكِ يا آنا لا تبدئي مثل هذه الحوارات.

– حسنًا، كيف حال ماريون؟

– اشترت متجرًا للملابس في نايتسبريدج، ستبيع فيه ملابس أنيقة، ملابس أنيقة وليس ملابس فاخرة. إنها محاطة بمجموعة من الشبان غريبي الأطوار يستغلونها وهي معجبة بهم للغاية، فهي تقهقه طوال الوقت وتفرط «قليلًا» في الشراب وترى أن صحبتهم ممتعة للغاية.

تضع مولي يديها على حجرها وتلصق أطراف أصابعها بعضها ببعض محاولة أن تقول بيديها في خبث: لا تعليق.

– حسنًا.

– كيف حال مستأجركِ الأمريكي؟

– أقمنا معًا علاقة.

– في ظني ليس هذا هو أعقل شيء قمتِ به.

ضحكت آنا.

– ما الذي يضحككِ؟

– زواجكِ من شخص يمتلك منزلًا بهامبستيد سيبعدكِ عن حلبة الصراع العاطفي الدامي.

– نعم، حمدًا لله.

– سوف أنزل إلى العمل.

– أتعنين أنكِ لن تكتبي؟

– لا، لن أكتب.

استدارت مولي مبتعدة ووضعت عجة البيض بالأطباق وملأت سلة الخبز، وعقدت عزمها على ألا تقول أي شيء.

قالت آنا: «هل تذكرين د. نورث؟»

– بالطبع.

– سيقيم مركزًا للاستشارات الزوجية، سيكون نصفه مملوكًا للدولة ونصفه للقطاع الخاص. يقول د. نورث إن ثلاثة أرباع الأشخاص الذين يأتون إليه وهم يتألمون ويتوجعون لديهم مشكلات بشئون علاقاتهم الزوجية، أو يحتاجون إلى إقامة علاقة زوجية.

– وسيكون دوركِ أن تقدمي النصائح القيمة لهؤلاء.

– شيء من هذا القبيل، وسأنضم إلى حزب العمل وسأعطي دروسًا ليلية مرتين في الأسبوع للأطفال المذنبين.

– إذن فقد انغمسنا نحن الاثنتان في قلب الحياة البريطانية.

– كنت حريصة على أن أتجنب هذه النبرة.

– معكِ حق. إنها فقط فكرة التحاقكِ بعمل اجتماعي خاص بالشئون الزوجية.

– أنا ماهرة جدًّا في الشئون الزوجية التي تخص الآخرين.

– عظيم. ربما ستجيدني جالسة بالكرسي المقابل لكِ في يوم من الأيام.

– أشك.

– وأنا أيضًا، فليس هناك شيء يفوق معرفة حدود الفراش الذي ستكيفين نفسكِ على النوم فيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شعرت مولي بالضيق من نفسها فحركت يديها في عصبية ثم عبست وقالت: «أنتِ تؤثرين فيَّ تأثيرًا سلبيًّا يا آنا. كنت متقبلة الأمر تمامًا قبل أن تأتي، وأنا أظن أن علاقتنا ستسير على نحو جيد للغاية.»

– أنا لا أرى سببًا يجعلها لا تسير كذلك.

ساد الصمت هنيهة ثم قالت مولي: «ولكن الأمر كله غريب يا آنا، أليس كذلك؟»

– غريب للغاية.

بعد قليل قالت آنا إن عليها أن تعود إلى جانيت، فلا بد أنها عادت من السينما، كانت هناك مع صديقة لها.

قبلت المرأتان إحداهما الأخرى وذهبت كل منهما في طريقها.

دوريس ليسينج

ولدت دوريس ليسينج، واسمها الأصلي دوريس ماي تايلور، في ٢٢ أكتوبر ١٩١٩ في إيران لوالدين بريطانيين. عمل والدها — الذي فقد ساقه أثناء الحرب العالمية الأولى — موظفًا بالبنك الملكي الإيراني، وكانت أمها تعمل ممرضة. عام ١٩٢٥ انتقلت الأسرة إلى إحدى المستعمرات البريطانية وهي روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حاليًّا) طمعًا في الثراء عن طريق زراعة الذرة. تأقلمت والدتها مع الحياة الصعبة في المستعمرة محاولة في حماس أن تخلق نسخة أخرى مما كانت تراه حياة إدواردية «متحضرة» وسط مجموعة من «الهمج»، ولكن والدها لم ينجح في التأقلم مع الحياة هناك، ولم تدر عليه مزرعته — التي زادت مساحتها عن ألف فدان — الثروة التي كان ينشدها.

قالت دوريس ليسينج عن طفولتها إنها مزيج من متعة قليلة وألم كثير. لجأت دوريس ليسينج إلى عالم الطبيعة الذي استكشفته مع أخيها هاري هربًا من الحياة البائسة التي تعيشها، فأمها سيطرت عليها الرغبة في تنشئة ابنة صالحة ففرضت عليها نظامًا صارمًا للقواعد والنظافة الشخصية بالمنزل، ثم أَلحقت دوريس بمدرسة للراهبات، هناك كانت الراهبات تبث الرعب في نفوس تلاميذهن بالقصص التي تحكي عن الجحيم ولعنتها والتي كُتبت على مقترفي الخطايا. بعدها أُلحقت دوريس ليسينج بمدرسة ثانوية للبنات في ساليسبري، عاصمة روديسا الجنوبية، لكنها هربت منها بعد وقت قليل، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وهذا آخر عهدها بالتعليم الرسمي.

وليسينج مثلها مثل كل كاتبات جنوب أفريقيا اللاتي لم يتخرجن في المدارس الثانوية من أمثال أوليف شراينر ونادين جروديمر، علمت نفسها بنفسها حتى أصبحت واحدة ممن يحملن رايات الفكر. وفي تعليق حديث لها عن أن الطفولة التعيسة تخلق الأدباء قالت: «نعم، أرى أن ذلك صحيح، مع أن هذا الأمر لم يكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واضحًا لي حينها. بالطبع لم يجل بخاطري في هذا الوقت أنني سأصبح كاتبة ... كل ما كنت أفكر فيه طوال الوقت هو كيف أهرب.» غذّت طرود الكتب التي تصل من لندن خيالها وخلقت لها عوالم تهرب إليها. تضمنت قراءاتها الأولى ديكينز وسكوت وستيفينسِن وكيبلينج ثم بعد ذلك دي إتش لورنس واستيندال وتولستوي ودوستويفسكي. وكونت أيضًا حكايات ما قبل النوم التي كانت أمها تقصها عليها وعلى أخيها معالم صباها، وكانت دوريس تبقي أخاها يقظًا حتى تطيل من أوقات هذه الحكايات. وشهدت السنوات التي أثرت في تكوين شخصيتها ذكريات أبيها المريرة مع الحرب العالمية الأولى التي تشربتها دوريس مثل «السم»، فكتبت تقول: «شكلتنا الحرب، شوهتنا الحرب، لكن على ما يبدو أننا ننسى.»

تركت ليسينج منزل أسرتها عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها هربًا من أمها وعملت مربية أطفال. وزودها صاحب العمل بكتب عن السياسة وعلم الاجتماع. وفي تلك الأثناء أقامت ليسينج علاقة مع صهره، ولكنها لم تكن مرضية لها، لذا غرقت في العلاقات العاطفية الوهمية. وكانت ليسينج أيضًا تكتب القصص القصيرة وباعت اثنتين منهما لمجلتين في جنوب أفريقيا.

تعد حياة ليسينج تحديًا لإيمانها بأن الأشخاص لا يمكنهم أن يسيروا ضد التيارات التي توجه حياتهم، فحاربت الواجبات الثقافية والبيولوجية التي كتبت عليها الانخراط التام في عالم الزواج والأمومة، فكتبت ذات مرة متحدثة عن العصر الذي تنتمي إليه أمها: «هناك جيل كامل من النساء بدا كأن حياتهن توقفت حين أنجبن. وفي ظني أن العصاب أصاب أغلبهن بسبب التناقض بين ما تعلمن بالمدارس أن في مقدورهن عمله وما حدث لهن في الواقع.» رأت ليسينج أنها أكثر حرية من أغلب الأشخاص لأنها أصبحت كاتبة؛ فالكتابة في رأيها عملية من «إيجاد عالم آخر» ونقل «الأفكار البكر والفرد والأشياء التي لم تتعرض للنقد والجوانب التي لم يكتشفها أحد إلى العالم الدارج.»

انتقلت ليسينج عام ١٩٣٧ إلى ساليسبري حيث عملت عاملة تليفون، وفي التاسعة عشرة من عمرها تزوجت من فرانك ويزدم وأنجبت منه طفلين، وبعد سنوات عدة تركت ليسينج أسرتها بعد أن شعرت أنها محبوسة داخل شخصية خشيت أن تدمرها، ولكنها بقيت في ساليسبري، وسرعان ما انضمت ليسينج إلى أعضاء نادي الكتاب اليساري الذين شاركوها أفكارها نفسها، وهم جماعة من الشيوعيين «كانوا يقرءون كل شيء مع أنهم رأوا أن القراءة ليست نشاطًا مميزًا.» كان جوتفرايد

ليسينج عضوًا أساسيًّا بهذه الجماعة، تزوجته دوريس بعد انضمامها للجماعة بفترة قصيرة وأنجبت منه طفلًا.

بدأت حقيقة الحركة الشيوعية تتكشف لها في السنوات التي تلت الحرب ونبذتها تمامًا عام ١٩٤٥، وعام ١٩٤٩ عادت ليسينج إلى لندن بصحبة ابنها، ونشرت روايتها الأولى «العشب يغني» في العام نفسه لتبدأ مشوار احتراف الكتابة.

يعكس أدب ليسينج في عمق سيرتها الذاتية، فمعظمه ينبثق من التجارب التي تعرضت لها في أفريقيا، اعتمدت ليسينج على ذكريات طفولتها وانخراطها في القضايا السياسية والشئون الاجتماعية لتُعبر عن الصدام بين الثقافات والظلم الفادح الناشئ عن التفرقة بين الأعراق المختلفة والصراع بين عناصر متضاربة داخل شخصية الفرد والصراع بين ضمير الفرد ومصلحة الجماعة؛ فهي تنتقد انتقادًا شديدًا في قصصها القصيرة ورواياتها القصيرة التي تدور أحداثها في أفريقيا — والتي نشرت في الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين — طرد المستعمرين البيض للأفارقة السود من أراضيهم والاستيلاء على ممتلكاتهم، وتفضح أيضًا عقم ثقافة البيض في أفريقيا الجنوبية، ونتيجة لآرائها الشجاعة والصريحة أُعلنت ليسينج عام ١٩٥٦ أجنبية يُحظر عليها البقاء على أراضي روديسيا الجنوبية وجنوب أفريقيا.

حاولت ليسينج عبر السنوات المختلفة أن توفق بين ما يثير إعجابها بروايات القرن التاسع عشر — وهو ذلك «المناخ الذي يسوده الحكم الأخلاقي» — ومتطلبات أفكار القرن العشرين الخاصة بالإدراك والزمن، فبعد كتابتها لسلسلة أطفال العنف (١٩٥٢–١٩٥٩) — وهي رواية تربوية تقليدية تبين التطور الذي حدث بوعي البطلة مارثا كويست وشخصيتها — طرقت ليسينج أرضًا لم يطرقها أحد قبلها بروايتها «الدفتر الذهبي» (١٩٦٢)، حيث تعد هذه الرواية تجربة سردية جريئة تصور الأبعاد المتعددة لشخصية امرأة عصرية بأسلوب غاية في الدقة والعمق، فآنا ولف، مثلها مثل ليسينج نفسها، تناضل من أجل النزاهة القاسية، ترغب في أن تحرر نفسها من أحاسيس الفوضى وفتور المشاعر والنفاق التي ابتلي بها جيلها.

اتهمت ليسينج بأنها «لاأنثوية» بسبب تصويرها لغضب المرأة وعنفها، وردت على هذا الاتهام بقولها: «على ما يبدو فإن ما تفكر فيه نساء كثيرات وما يشعرن به وما يعايشنه كان مفاجأة عظيمة للآخرين.» وقد علق واحد من أوائل النقاد الذين درسوا هذه الرواية على آنا ولف بقوله إنها «تحاول أن تعيش بحرية رجل» وهي النقطة التي تؤكدها ليسينج على ما يبدو بقولها: «عند تبني الرجال لهذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاتجاهات في كتاباتهم تكون اتجاهات مسلمًا بها، وتُقبل بوصفها أسسًا فلسفية سليمة، وطبيعية تمامًا، ولا ينظر إليها بالطبع على أنها كارهة للمرأة أو عدوانية أو عصابية.»

في السبعينيات والثمانينيات تشرع ليسينج على نحو أكثر شمولية في استكشاف تلك البصيرة شبه الصوفية التي تصل إليها آنا ولف في نهاية رواية «الدفتر الذهبي»، فتتناول أعمالها التي تمس «بواطن النفس» الخيالات الكونية (مثل رواية «بيان موجز لمنحدر إلى سقر» عام ١٩٧١)، وتتناول أيضًا عوالم الأحلام بالإضافة إلى أبعاد أخرى (مثل رواية «مذكرات ناج من الموت» عام ١٩٧٤)، بالإضافة إلى استخدامها أسلوب الخيال العلمي فيما يتعلق بوجود أشكال أسمى للوجود (مثل رواية «سجلات كانوبس في أرجوس» (١٩٧٩ إلى ١٩٨٣). وتعكس هذه الأعمال اهتمام ليسينج، منذ بداية الستينيات، بالكاتب إدريس شاه الذي تؤكد كتاباته عن الروحانية الصوفية على تطور الوعي وتبرز الاعتقاد بأن تحرر الفرد لن يتحقق إلا إذا فهم الناس الرابطة التي تجمع بين مصائرهم ومصير المجتمع الذي يعيشون فيه.

وتتضمن أعمال ليسينج الأخرى رواية «الإرهابي الطيب» (١٩٨٥) ورواية «الطفل الخامس» (١٩٨٨). ونشرت ليسينج روايتين تحت اسم مستعار هو جين سمورز وهما «مذكرات جارة طيبة» و«لو كان بمقدور الكبار أن ...» (١٩٨٤). وألفت ليسينج الكثير من الأعمال غير الأدبية منها الكتب التي تتناول القطط، التي عشقتها منذ الطفولة. وفي العقد الأخير من القرن العشرين نُشرت العديد من الكتب لدوريس ليسينج منها مجموعة قصصية بعنوان «الشيء الحقيق» (١٩٩٢) ورواية بعنوان «الحب، ثانيةً» (١٩٩٦)، هذا بالإضافة إلى رائعتيها «تحت جلدي» (١٩٩٤) و«السير في الظلال» (١٩٩٧) وهما تحكيان سيرتها الذاتية في جزأين، وآخر أعمالها رواية «مغامرة مارا ودان» التي نشرت عام ١٩٩٩.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الكتاب:

آنا كاتبة ومؤلفة لرواية حققت نجاحًا باهرًا، تحتفظ في الوقت الحالي بمفكرات أربعة. في واحدة من هذه المفكرات — المفكرة السوداء — تعيد آنا النظر في التجربة الأفريقية التي عاشتها في سنوات شبابها الأولى. وفي المفكرة الحمراء ترصد حياتها السياسية وخيبة أملها في الشيوعية. وتسطر آنا — في المفكرة الصفراء — رواية، تجسد بطلتها جزءًا من تجربة آنا، أما المفكرة الزرقاء فتسجل فيها آنا يومياتها. وأخيرًا تحاول آنا، التي تهوى كاتبًا أمريكيًّا ويتهددها خطر الإصابة بالجنون، أن تجمع خيوط المفكرات الأربعة في مفكرة ذهبية.

«أمتع رواية حديثة أقرأها على مدار عشر سنوات وأغناها؛ ذلك أنها تحاكي العصر الذي نعيش فيه، وهي شديدة الصدق.»

- إرفينج هاو، نيو ريبابليك

«ليس عملًا روائيًّا عاديًّا ... وموجز القول أن أسلوبها بديع.»

- مجلة سترداي ريفيو

مكتبة بغداد

٧٣٨ صفحة

ISBN 978-977-6263-72-7

9789776263727

http://www.kalimatarabia.com

كلمات عربية